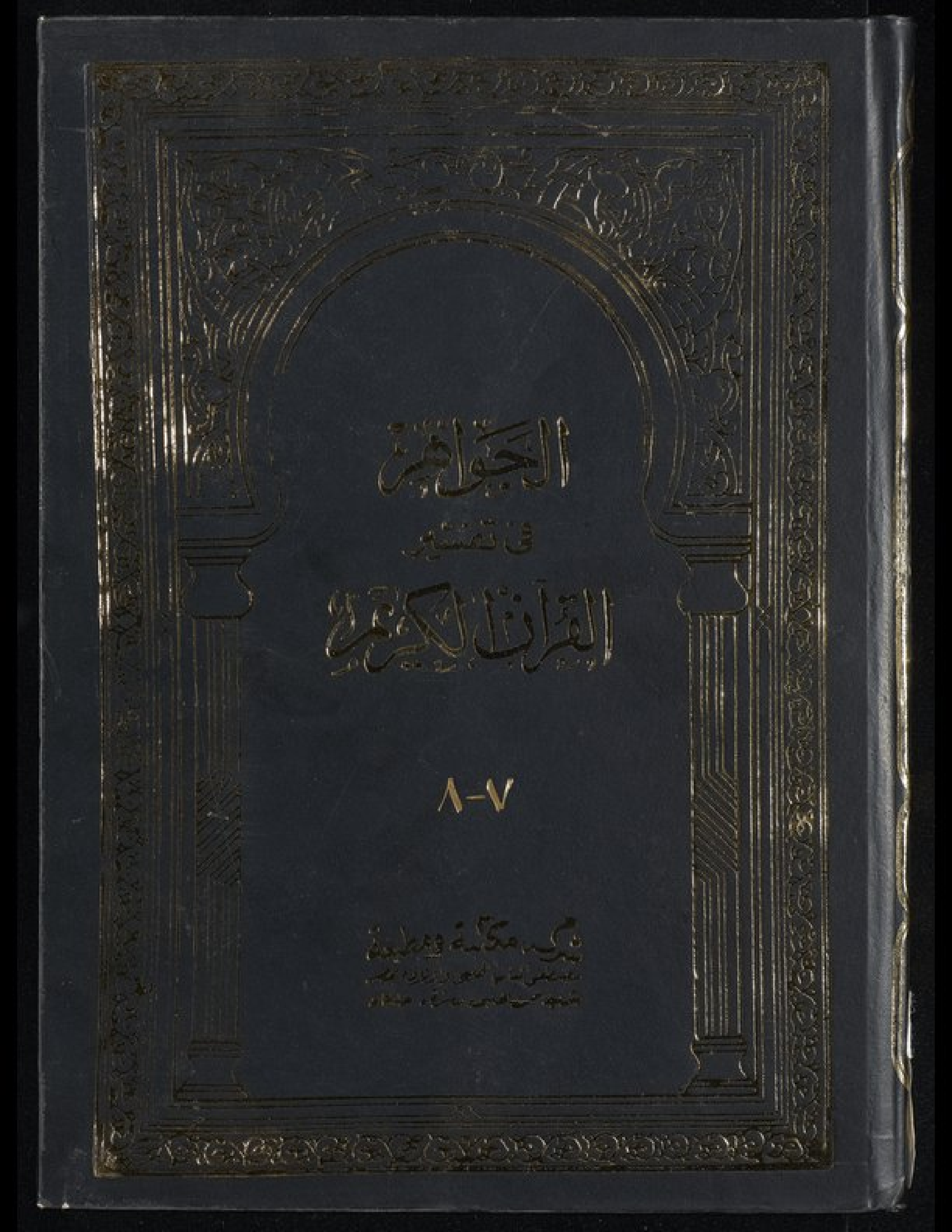

الجواهر
في تفسير
القرآن الكريم
٧-٨
شركة مكتبة ومطبعة

الجواهر

في تفسير القرآن الكريم

المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات

تأليف

الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوي جوهري

المدرس بالجامعة المصرية ومدرسة دار العلوم سابقا

متع الله المسلمين بحياته آمين

الجزء السابع

الطبعة الثانية

١٣٥٠ هـ — رقم ١٧١

طبع بمطبعة

مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

ملتزم محمد أمين عمران

« إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ »
(قرآن كريم)

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة يوسف هي مكية بالإجماع ، وهي مائة وإحدى عشرة آية

وقبل الشروع في تفسيرها أقول :

إني أحمد الله عز وجل أن حقق رجائي وأبقاني في هذه الدنيا حتى وصلت إلى هذه السورة ، فلقد كتبت في سورة البقرة عند قوله تعالى « ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون » ما نصه :

اعلم أني كنت كتبت هذا التفسير كما قدّمت في أول الكتاب وأنا مدرس بدار العلوم في نحو سنة ١٩١١ م . ومن عجيب صنع الله عزّ وجل أني في تلك السنوات كتبت في مجلة [الملاجئ العباسية] التي كانت تنشر هذا التفسير مقالا مطوّلا في إجمال تفسير سورة يوسف قلت فيها : إن الفراعنة كانوا أعزر علما من المصريين الحاليين وحكامهم ومن علماء أوروبا الذين يحكم رجالهم بلادنا فشرحت من رؤيا الملك مسألة سبع البقرات السمان وسبع السنبلات واهتمامه بالزراعة . وعطفت على مسألة الطيور ونبهت الحكومة والأمة فصدر الأمر عقبها سنة ١٩١٢ ميلادية بمنع صيد الطيور النافعة ومن أهمها (أبو قردان) وهأنذا أكتب تمام التفسير الآن سنة ١٩٢٢ للطبع وقد رأيت بعيني رأسي أن الحكومة قد ربت (أبا قردان) وانتشر في البلاد المصرية انتشارا كما كان سابقا ، فأحمد الله عزّ وجل على هذه النعمة وعلى حفظ الطيور ببركة الآيات القرآنية وآثارها في النفوس ، وحرام على من عنده نصيحة أن يمسكها جبنا عن الجمهور فإنها لابدّ نافعة عاجلا أو آجلا ، وإن شاء الله إذا طال الأجل ووصلت إلى سورة يوسف أثبت تلك المقالات اهـ .

أقول وها أنا ذا الآن في يوم الاثنين الثالث عشر من شهر أكتوبر سنة ١٩٢٤ وأحمد الله إذ وصلت إلى هذه السورة وأن خير سعادة لي في هذه الحياة إتمام هذا التفسير ، فإذا تمّ على المنوال الذي أريده كان هذا خير ما أتمناه في هذه الحياة ، والآن أبتدئ بذكر ذلك الملخص لنطلع عليه ، ثم أتبعه بما كتبته الحكومة المصرية لمنع الفلاحين من صيد (أبي قردان) ثم أتبعه بتفسير السورة تفسيرا تفصيليا بعد الإجمال في هذا المقال .

كيف

كيف تخدم مصر إذا فهمت هذه السورة

هذه الوجود أسباب ومسببات ونتائج ومقدمات سواء فى ذلك العناصر والمركبات والعلوم والديانات ومنها القرآن فلقد أنزل للاعتبار وقرئ للادّكار وأكثر المسلمين لايقرءونه إلا وهم غافلون ، ولا يسمعونه إلا وهم لاهون لايعلمون إلا ظاهرا من الأمر والنهى والوعد والوعيد والعظة والمثل ، وهم عن عجائب القصص معرضون .

فى القرآن قصص تسرد وقائع الأنبياء وفضائل الأولياء وعجائب أعمالهم وغرائب أحوالهم لتقيس الشاهد المنظور على الغائب المستور ، والحاضر الظاهر على الغائب الفائت .

غفل الناس عن ذلك كله أيما غفلة وناموا على وساد الراحة ومهاد الغفلة حتى أصبح المسلمون فى أنحاء المعمورة يمتازون بأنهم مسبوقون فى المدنية والعمران ، جاهلون بالمنافع المادّية والمعنوية ، خاضعون للظالمين ، مقلدون ، والمقلد جاهل والجاهل غافل والغافلون هم الهالكون .

ماعذب المسلمين ولا أزاحهم عن مكانهم السامى الذى خوّله الله لهم من الشرف العميم والفضل العظيم إلا القصاصون المخرّفون وأدعياء العلم ، وما أكثرهم وهم ضالون مضلون بما يفترونه على الله عز وجل باسم الدين ، والدين برىء مما يقولون ، فعلى قادة الأمة الإسلامية أن يدخلوا البيت من بابه ويدعوا المسلمين للعلم بطريق الدين كما أخرجوا منه بطريق الدين ، فبالدين (ادعاء) أخرجوا ، وبالدين (تحقيقا) يدخلون .

ولما كان القصص مهجور المعانى عند الناس وكان أحسنها قصة سيدنا يوسف عليه السلام ، أردت أن أذكر نبذة صالحة هنا فوق ما أوضحته فى كتاب [النظام والإسلام] وما أودعته فيه من عجائب التنزيل وبدائع القرآن فأقول :

إن لهذه السورة لمزية خاصة بالمصريين فلذلك يقرءونها فى مآتمهم وأفراحهم ، ولن تجلس مجلس قرآن إلا وتسمع القارئ يترنم بآياتها ويترنح بكلماتها والناس له سامعون وبصوته طربون إن كان من المحسنين ، ألا إنما يطرب الإنسان لما يهواه ويفرح بما يوافق هواه .

فياعجبا ! كيف يفرحون بها ويطربون لها ، ألكلماتها البديعة أم لمعانيها العجيبة ؟ إن فيها لحكما وعبرا وعلوما لو كشف عنها الغطاء وأدرك المصريون سرّها لكانوا أرقى العالمين فى الدنيا والدين ، إن فيها لسياسة المنزل وسياسة الشخص وسياسة المدينة ، سياسات [ثلاث] انتظمتها سورة يوسف ؛ ففيها نصف علم الحكمة وهى الحكمة العملية الداعية لسعادة الأشخاص ولسعادة المنازل ولسعادة المدن ، فهل لهذا طرب السامعون ؟ كلا ، وإنما يطربون لجواهر الألفاظ وبصيص من المعانى العالية ، ولو أنهم أدركوا ماسنوضحه من العجائب اليوسفية ما أغمضوا الجفن ولأبت جنوبهم عن مضاجع الكسل ولربئوا بأنفسهم أن ترعى مع الهمل وما استبدلوا الذى هو أدنى بالذى هو خير ، لسوف يعلمون المعنى فيما نقول ، ولينظرنّ الله ماذا يفعلون .

ألا إنما مثلهم اليوم فى ترنمهم بها وإقبالهم عليها وغرامهم بها كمثل أولئك الذين يدعون أنهم يعلمون الغيب بالخط فى الرمل وما لهم بالغيب من علم ، وإنما هى الفطرة الإنسانية والحكمة الربانية أكبتهم عليه وإن كانوا لايشعرون ؛ كأن الحكمة الإلهية تقول لأولئك الجاهلين : يا أيها الناس إن فى الرمل لعلوما ستدركونها وأسرارا ستعلمونها ، ثم صنع منه المنظار المعظم والمقرّب فكشف أدقّ الدقائق فى الحيوان والنبات وظهرت للعين بعض النجوم الثوابت وسائر السيارات .

فهكذا فى سورة يوسف الإشارة لعلوم الأخلاق ولنظام المدن فأغرم الناس بها وأ كثرهم لايعلمون من مقاصدها إلا مايعلم الدجالون من عجائب الرمل ، ومثل الناس أيضا فى غرامهم بها كمثل ذلك الذى يدّعى أنه يعلم علم جابر ويستخرج الذهب والفضة بالكيمياء وماله بذلك من علم إن يتبع إلا الظنّ ولكن الله أودع ذلك فى قلوب طائفة من عباده توارثوه أجيالا حتى أتاح الله للناس من فهم الرمز وقام بالأمر وشرحوا علم الكيمياء ونقلوه من الظلمة إلى النور ورفع المدنية ورقى الزراعة والصناعة والتجارة ودخل فى سائر أبواب الحياة فأصبحت الأرض كلها تنبت ماهو أنفع من الذهب وسائر المعادن ، كل هذا بالكيمياء ، فهكذا فلتكن هذه القصة الشريفة التى يسمعها الناس وأكثرهم لايعلمون إلا حديث الحبّ والودّ فأشبهوا ذلك الرمّال ومدّعى الكيمياء وهما لايعلمان ، كما أنهما لغيرهما مقدمتان .

لعلك تقول مالنا نراك تضرب الأمثال بالكيميائى والرّمال والمغربى الدجال فاشرع الآن فى المعنى المقصود وأرنا ذلك السرّ المصون حتى نقف على تلك العجائب ونفهم سرّ تلك الغرائب ، أقول : خذ منى القول سؤالا وجوابا على ما ألفته فيا أسمعناك واصغ لما أقول صمعا . سألنى سائل يقول :

(س) ما بالك تعاود التذكير بسورة يوسف وقد سبق القول والتفسير منك لها فى كتاب [النظام والإسلام] وما هذا التكرار والدور فى نفس الدار .

(ج) لكل مقام مقال فهناك تعميم وهنا تخصيص ، وذلك مبادئ وهذه نهايات ، وتلك إشارات وهذه عبارات ، وتلك مقدمات وهذه نتائج ، ولا خير فى علم بلا نتائج ولا فى شجر بلا ثمر ولا فى قراءة بلا فكرة ولا فى فكرة بلا عبرة ولا فى عبرة بلا عمل ولا فى عمل بلا إخلاص .

(س) ما أنواع العبرة فى هذه السورة وما علاقتها بالصبغة الوطنية المصرية وما فائدتها للمجتمع الإسلامى عموما وللمصرى خصوصا .

(ج) فى هذه السورة خمس عبر :

(١) رؤيا سيدنا يوسف عليه السلام .

(٢) وأذى إخوته .

(٣) قصته فى بيت العزيز .

(٤) قضيته فى السجن .

(٥) تنظيمه للخزائن المصرية .

١ — الرؤيا

إذا كان الحبّ والنوى ينبتان نجما وشجرا فالنتيجة حبّ ونوى ، وما كان فكرا أوّلا فهو عمل آخرا . هكذا كان أول حياته عليه السلام أن رأى أحد عشر كوكبا والشمس والقمر له ساجدين وعليها أقيمت حياته وتنوّعت أطوارها وبالسجود له والإعظام ختم تاريخ حياته « وخرّوا له سجدا وقال يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا » فأول الفكر آخر العمل .

إنّ للنفوس الإنسانية خصائص تبدو علاماتها لذوى الفراسة وتختلج فيها من إبان الصبا ماخصص له استعدادها ويبرز فى أعمالها وأقوالها وتمثيلها وتقليدها وأحلامها ، وإن امتاز عليه السلام بالنبوّة والرسالة والفضيلة وصوّرت له الأجسام الأرضية بصورة الأجرام السماوية والمركبات العنصرية المظلمة ذوات الأنفس الشريفة بالكواكب المضيئة صورا بديعة وآيات عجيبة إلا أن لكلّ رؤيا تناسبه وأحلاما توافقه وطالما دلت الرؤيا ذوى الفراسة على أخلاق الرائين وأفادت السامعين أنباء عقول القائلين فلكل امرئ مناهج يسلكها ومطالب يرصدها ومقاصد يؤمها ، لذلك رأى النبى النجوم وجمالها والسجود والخضوع ورأى الملك المصرى

سبع بقرات سمان تأكلهن سبع بقرات مهزولات ضعيفات ، وسبع سنبلات خضرا التفت عليهنّ سبع سنبلات يابسات فامتصت ماءهنّ وتركتهنّ يابسات ولم يبد على البقرات الآكلات سمات السمن ولا على السنبلات اليابسات آيات النضرة ومظاهر الحياة ، رؤيا النبي جمال النجوم وسجود الساجدين ، ورؤيا الملك سنبلات وبقرات ، ذلك عجب عجاب ، بعث الأنبياء للعبادة والتفكير فى الجمال وخلق الملوك لنظام الممالك وحفظ البلاد والعباد من الخراب والدمار ، فالسجود من جنس العبادة وإن لم يكن فى هذا من عبادة ولكنه تكريم والنجوم جمال والجمال السماوى والبهاء الكونى مصدر التفكير والتعليم إلا أن فى إشراق الكواكب والشمس والقمر فى نفس سيدنا الصدّيق فى صباه لعجبا عجيبا ودلالة على عفته عند المحرمات وتعلما لطبقات المصريين وحفظ المال أن يضيع ، والناس أن يموتوا ، كل ذلك مقتضى النفوس الجميلة التى ذرأها الله سحابا ماطرا وشمسا تضيء وقمرا ذا سناء .

ألا إن الشمس لتشرق والناس لايشكرونها ، والقمر ليطلع وإن كفر به الناس ، والله خالق ورازق وإن كفر نعمته الظالمون ، هكذا الصديق التى تجلى للناس وتجلت له تلك الصور الجميلة فبرز بعد ذلك منه للناس آثار واضحة من العفة والصبر والعطف على المصريين وتعليمهم وتنظيم ثروتهم وثمرات نيلهم ، ولأهله وعشيرته صفح جميل وبرّ وصلة وعطف وإن كانوا له حاسدين ، فكان الإحسان لنفسه سجية والجميل بقلبه طريقة ، فأحسن للمسيئين من أهله والمصريين ، فكلاهما آذاه، وكلاهما نال الخير منه بعد أذاه فهذا أوّله وهذا منتهاه .

فأما الملوك فما أحراهم أن يعكفوا على نظام الجمهور وحفظ الثغور والسهر على المصالح العامّة ، وأهمّ المطالب الاجتماعية فى الأمم المتمدينة [أربع] الإمارة . والزراعة . والتجارة . والصناعة .

ولما كانت الزراعة من أهمها وضعا وأعمها نفعا وأشرفها صنعا لاسيما عند المصريين الذين هم بها مغرمون وعلى ترتيبها ونظامها يحرصون، روّع قلب الملك المصرى بيابس سنبلاتها وعجاف بقراتها مما دلّ على اهتمام الملك بالرعية وحبه للأمّة المصرية ، وليست تصوّر النفس فى المنام إلا ما اهتمت به فى العالم أجلّ اهتمام .

تصوّر الحقول المصرية وتأمّل وتعجب

يظنّ الفلاح أنه زرع وحصد ولا يعلم أن هناك له شركاء فى الزرع هى أجلّ منه نفعا وأحسن صنعا .

(س) ما شركاء الإنسان فى زرع الأرض المصرية ؟ .

(ج) شركاؤه الطيور الليلية والطيور النهارية ؟ كالبوم والغربان وأبى قردان وبعض العصافير والخطاطيف .

يزرع الإنسان الأرض ويحرثها بالأنعام من البقر والجاموس ، ويعينه غيرهما من الماشية ويدرأ الأذى عن الحبّ والفاكهة الطيور من الغربان والبوم وأبي قردان وغيرها .

الإنسان والدواب زارعان والطيور دافعات للأذى طاردات للأعداء آكلات الدود مبيدات الفيران ، الإنسان والأنعام تتعاون على الحرث والسقى وتبذر وتسمد الأرض بأبوالها وأرواثها وغائطها وأجسامها ، فهى مصانع السماد حارثات للحقول آكلات الحشائش والحبوب، والطيور مبيدات المهلكات قاتلات الحشرات لجمل الله ، جلّ الله خالق فسوّى وقدّر فهدى ، نظم الحقول كما نظم الممالك وأنزل الإنسان والأنعام للزرع منزلة علماء الطبيعيات والرياضيات فى الأمم العالية وأنزل الطيور من أبي قردان والغراب والبوم منزلة الشرطة فى المدن والقرى والقضاة الدارئين للحوادث الداخلية وأعوانهم الحامين ورجال الحرب الدافعين عن البلاد والضاربين بالقنا والسيف والمدفع والبارود .

لاريب أن القضاة والشرطة وقوّاد الجنود مدافعون وعلماء الطبيعيات والرياضيات وغيرهما للخير جالبون وما المدافع إلا لحفظ المنافع ، فالمقصود على الحقيقة هم العلماء الجالبون للمنافع ، وما عداهم فإنما هم حصون لهم إليها يلجئون وفي أكنافها يمرحون ، فثبت أن الأنعام والإنسان أهمّ الزرع من البوم والغربان وأبي قردان وإن كان الفلاح لايفلح بغير مايصفّ أو يدفّ بالجناح ، ولا فلاح لأمّته بلاجنود وقوّاد ولا حياة لها إلا بالعلوم الطبيعية كما لاحقل في البلاد المصرية إلا بالطيور الدورية وغير الدورية والفلاح الزارع والدواب الحارثة الساقية .

ومن العجب أن ترى الأمّة المصرية اليوم تجهل فوائد الطيور وتعقل منفعة القضاء والمحاماة مع أنهما صنوان وأخوان يتساوقان وخلان لايفترقان ، ترك المصري العلوم الطبيعية وعقلها الفلاح وهويعمل بماورث عن أبويه ، جهل المصري فوائد الطير وهو المدافع عن المزارع ، وعقل المحاماة والقضاء .

جهل عظيم وموت تام وطامة كبرى ، جهل المصري المصري عظيم ، عقل التحلية في المزارع وجهل تخليتها وأدرك التخلية في نظام المدنية وجهل التحلية .

ماذا فعل قدماء المصريين ، بماذا أفادوا البلاد في هذا المقام ؟

أوصى علماؤهم الفلاحين أن اعبدوا العجول ولا تهينوها فإنما هي حارثة لأرضكم ذات نفع عظيم ، ثم أمروهم أن اعبدوا الهرّة وقدسوا أبا قردان ولم يذكروا لهم الأسباب وإنما قالوا هذا سرّ من ربّ الأرباب لأن الجاهل لايعقل مايعرفه المتعلمون ، وما يعقلها إلا العالمون ، هذا منشأ عبادة البقر وبعض الطيور حيلة دبرها الرؤساء ، ولكن أكثر الناس ما كانوا يعلمون ، لذلك كثر ذكر العجول في قصص بني إسرائيل ، فترى السامري « أخرج لهم عجلا جسدا له خوار » وترى بني إسرائيل لما أرادوا إظهار القتيل أمروا بذبح بقرة ، ومما هنا أيضا كون الأرض على قرن الثور إلا لتعجب من هذا كيف كانت رؤيا الملك في سبع بقرات وكيف كانت رؤياه تجمع المقصود وهو الزرع وجالب النفع وأهمه البقر ولم يرد في الرؤيا الطيور فإنهن كالمحامين والقضاة ، والأمم إذا خلت من الأخلاق الشاذة والنفوس الناقصة لم تحتج إلى القضاء ، كما أن الحقل إذا خلا فرضا من الحشرات لم يحتج إلى الطير الصافات ولا غير الصافات .

الإنسان والأنعام والطيور جمهورية منظمة على كل قسطه من العمل ، ولكل حظه من ثمرات الأرض ومنافع الحرث .

لقد فقدت الأمّة المصرية أول قائد لجنودها وأكبر عامل لنصرها وركنا من أساطين حربها ذلك هو (أبو قردان) فلقد اتصل نسله منذ آلاف من السنين وهو يحمي الذمار ويقود الجند المسلحة الهوائية فيهجم على الهوام والدود فيبيدها فيسلم الحرث والنسل ، عرف المصري القديم جميله فآواه وأيده بل عبده ، وجهل المصري الجديد فضله فقتله وأباده ، هل هذا ثمرة التعليم والمدنية ؟ هل هذا هو الذي إليه وصلنا من الحكمة ؟ أيجمل في شرع المدنية وناموس العمران أن يعيش (أبوقردان) أكثر من عشرة آلاف سنة ثم لايبيد إلا في أوائل القرن المتمم عشرين ، لتندب مصر حظها ، لتبك علومها ، ولأبك على بلادي ، هل نمت حكومة البلاد وبحثت عن سبب ضياع هذه النعمة وزوال هذه الجنود المجندة ، أيحسن يا أبناء البلاد أن نجهل موارد رزقنا وعناصر حياتنا ، تبا للجهل وبعدا لنا إذا عشنا غافلين ، وياليت شعري أأنا في يقظة ، أم في منام ؟ ولعلّ ماأقول اليوم أضغاث أحلام وربما أجبت بقولهم : وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين .

حكاية وأمنية

انطلقت إلى شاطىء النيل الغربي لأتفرج على الأشجار والأزهار فصادفت مسجدا يسمى [مسجد الجزيرة]

شمال قنطرة قصر النيل فدخلت الصلاة ورأيت النمل تغدو وتروح فوق الحصيرات المنسوجات وهي طالعات هابطات فوق الأعواد ويثنين ، لاينثنين الذعر ولا يخفن من غدر وكأنما أرجل المصلين فوق الأعواد جبال ، وكأن الأعواد تلال والفجوات المتخللات أغوار ووهاد بالنسبة النملات فأطلت النظر إليها والتأمل في حركاتها وسكناتها والتعجب من شجاعتها وإقدامها حتى إن راحة يدي والذراع والأنامل اللاتي تخيل لها جبالا شاهقات وشعابا واسعات لم تثبط عزيمتها ولم تكسر من همتها ولم تهلع لها قلوبها ، ولو أنا تصورنا جبلا يمشي على الأرض وكاد يصادم الإنسان ليطحنه لهلع إذا رآه ومات قبل أن يراه فشاهدني إذ ذاك فلاح معمم بعمامة سوداء فكنت موضع تعجبه واستغرابه وكان النمل موضع نظري ومسرح فكري ، فكان النمل لي عجبا وكنت عند الفلاح لهوا ولعبا فرفعت طرفي إليه وقلت يا أيها الإنسان أتدري لم نظرت في النملات ؟ قال لا . قلت إنهن لأشجع من أكثر الناس قلبا لايثنيهن الرهبوت عن مطلب الرغبوت ، ولا تهولهن الحوادث المزعجات والكوارث الداهمات ، إنهن لأربط منك جأشا وأشجع من الفلاح والشيخ والباشا ، لاتنفك عن الرغبات ولا تنتهي إلا إلى الغايات ولسان حالها يقول [إما هلك وإما ملك] قال الفلاح لقد قلت حقا ونطقت صدقا فما أيقظني إلا لسع نملة في جيدي فهي التي أقامتني للصلاة الآن فكان ذلك الاتفاق من عجائب الزمان كيف كنت منها في عجب والفلاح منها في هرب ، فقلت إنها رأتك غاصبا لمكانها حالا في دارها فلم تهن لضعفها وقوتك ولم تضعف لحولها وسطوتك قالت لألسعنه أو يفارق الديار وموتي في الجهاد خير من الحياة في الذلة والهوان فشاركني الفلاح في تفكيري وعلمت أنه من جهة (فم البحر) وتطاول بنا الحديث إلى (أبي قردان) فقال لقد فقدناه في هذه السنوات وذلك لقلة تقوانا وضعف إيماننا ، نحن عن الصلاة معرضون وما نحن للزكاة فاعلون وأكلنا التراث أكلا لما وأحببنا المال حبا جما وفسدت منا القلوب فخلت الجيوب .

فقلت : ما للصلاة ولأبي قردان ؟ ولكن الفلاح المجهول صاد (أبا قردان) لجهله بمنافعه وبعده عن العلم الصحيح والعمل الشريف ، فقال لم يصده أحد من الناس وإنما صاده الأوروبيون وطالما رأيته يحلق ويرفرف بجناحيه حول الماء وينفذ منقاره في الطين ليبحث عن الدود والحشرات الكامنة فيه فيلتقطها ويزدردها ، لقد كنت إذا نزلت الماء على الأرض جلل هو وجهها ، ولقد طلبناه في هذه الأيام فما وجدناه وكان فقده في هذه السنين وذلك منذ عشرة سنين ، فقلت هذا الخبر يحتمل الشك . وبت تلك الليلة مشغول الفؤاد حزين القلب بائس النفس كئيبا لما حل بالبلاد من الخراب والدمار وذهاب الثروة وضياع المال وقلة العلم وكثرة الجهل ، فما أن نمت خيل لي في نومي أن صبيانا يركبون على شجيرات نابتات على ضفاف نهر أبي الأخضر بالشرقية وكأنهم ينفرون الطيور من أعشاشها ولا يقرونها في وكناتها فهممت بهم كي يتركوها ونعقت بهم كي يقروها فرجعوا مهرولين وولوا هاربين . فما أن استيقظت وتذكرت ما رأيت قارنت رؤياي برؤيا ملك مصر في الأزمان الغابرة والأيام الخالية إذ رأى البقرات السمان والسنبلات الخضر واليابسات ورأيت الطيور مذعورة وصبيان الأمة لجهلهم يعمهون ، لقد صدقت رؤيا الملك وصدقت رؤياي .

مقابلة الأستاذ الشيخ محمد عسكر الكبير

ذلك أني إذ طلع النهار اتفق أن أرسل الي الشيخ محمد أبو عسكر ذلك الشيخ الوقور وكنت له مشتاقا فلما استقر بنا الجلوس وتناجت فيما بيننا النفوس أريته ما قد كتبت وقصصت عليه ما رأيت وقلت لقد تبرأ الفلاحون من صيد (أبي قردان) واتهموا بذلك الأوروبيين وقالوا إنا والله براء مما يقولون ، فقال الشيخ طالما وردت لي الأخبار أن الأوروبيين هم القاتلون لأبي قردان ، فقلت له أليس من العار والجهل والشنار أن يعيش أبو قردان قرونا وقرونا ويحميه قدماء المصريين من الفراعنة وملوك الرعاة ويعيش مع ملوك

اليونانيين والبطالسة والفارسيين ويعبده الأثيوبيون والرومانيون وينمو فى أزمان العرب الاسلاميين ولا ينقص عدده فى أيام الأمويين ولا يؤذيه العباسيون ويحمى من العدوان أيام الاخشيديين ويحفظ حياته الفاطميون ولا يمسه بسوء الأيوبيون ويزداد عدده وينمو كثرة أيام المماليك البرّية والبحرية ولا يبيده الترك ولا يعدو عليه العرابيون ولا ينقص عدده أزمان أسرة محمد على باشا بل ظلّ جمّ العدد كثير المدد إلى الثورة العرابية ثم أخذ فى التناقص وأخذ الدود ينمو بالتزايد حتى فنى عن آخره .

عار والله وأىّ عار ، أهذه هى المدنية والعلوم العصرية ، أهكذا يكون تمدين الأمم ، أفبهذا أنتنا المدنية ، أيقتل هذا الطائر شريك الفلاح صديق المصرى والناس غافلون ، أفبهذا ارتقت مصر ، ربّ إليك المشتكى ، يا رجال الأمة ويا علماءها وعظماءها ويا وزراءها أهكذا يكون العمران ، أبو قردان أخو الفلاح كان معبودا عبده قدماء المصريين ، لماذا ؟ لأن كبراءهم أوصوهم به خيرا الفلاح الزرع بإبادة الدودة والحشرات فاستوصوا به خيرا وتمادوا فى ذلك ازديادا حتى عبدوه ، هكذا كان الملوك السابقون والعلماء الغابرون فورثنا أرضهم وجهلنا علمهم ما أعظم قدماء المصريين وما أجهلنا نحن الحاليين جهل عظيم وموت عميق وطامّة كبرى ودمار وأىّ دمار .

أخبرنى الشيخ محمد أبو عسكر قال لقد قرأت فى بعض الأسفار أن قدماء المصريين شكوا إلى فرعونهم يقولون (لقد طغت علينا الحيات واغتالت الأبناء والبنات) وأ كثر ما يكون إذا أقبل النيل وعمّ البلاد وساق جنودها أمامه واكتسحها من البور إلى العمران فأوعز الملك إلى العلماء والحكماء أن يداووا هذا الداء ويلتمسوا له الدواء فلما أن جاءهم أمره ساحوا فى الأرض يبتغون طيرا يلقط الحيات ليربوه فى البلاد فدلهم علمهم وأراهم اختبارهم ووقفهم بحثهم الى (القلق) فربوه تربية حسنة فنما عدده وكثر ولده وصارت أفراخه آلافا مؤلفة فنجى الناس من شرّ الحيات وفرحوا بما عندهم من العلم والحكمة والهمة والدين .

فعلى قادة الأمة وأولياء أمورها أن يصنعوا ما صنع القدماء ويحابوا (أبا قردان) ويربوه حتى يكثر عدده ويهزم جيشه جيوش الديدان وإلا حقت كلمة العذاب على المصريين .

عار يا رجال مصر ، عار يا أمراء البلاد ، عار يا عظماءنا ، هذا الطائر نصير الفلاح ، قاتل الدود مبيد الحشرات ، منمى الغلات ، كنت أراه بعينى يحلل الأرض ويغطى وجهها إذا أنزل الفلاح عليها الماء حتى قتله الجهلة الأغبياء من أوباش الناس ليزينوا به (القبعات) للسيدات وأباده أولئك الطغاة فبادت البلاد وهلك الزرع وقلّ الضرع وأصبحت البلاد فى شقاء عظيم ، أبمثل هذا تهان الأمم وتداس الحرم ، هذا والله جهد البلاء وعضال الداء ونهاية الشقاء ، ولقد أنذرت وحذرت ونصحت « ولا ينفعكم نصحى إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون » .

الفصل الثانى . إيذاء إخوة يوسف

لا أحد من المصريين أبناء بلادى يجهل ما فعله إخوة يوسف من كيد وما دبروا من حيلة وكيف نصبوا له الحبائل « وجاءوا على قميصه بدم كذب » وسوّلت لهم أنفسهم أمرا وصبر يعقوب صبرا جميلا ودلوه فى البئر ثم باعوه ـ بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين ـ ، أجمعوا أمرهم بينهم وأسرّوا النجوى وأوقعوه فى هاوية فما كان عاقبته إلا أن تربى فى مصر وترعرع وبلغ أشده وكان لهم من المحسنين .

هذه كانت قصة يوسف عليه السلام وذلك خبر إخوته فكان منهم الإساءة ومنه الإحسان ومنهم الشر ومنه الخير وأوّل أمره شقاء وآخره هناء ومبدؤه ذل ونهايته عز وإسعاد ، ذلك عبرة للمسلمين وتذكرة للمصريين ونعمة على العاملين ، تنبئك قصة يوسف بما يلاقيه المصلحون فيها من الجاهلين ، ما فى الأرض من مصلح

إلا

إلا وكان أوّل أمره مطاردا منبوذا تنتابه الأعـداء ويسطو عليه الأقرباء ويحط من قدره الأصدقاء ويجبه الأولياء استهزاءا لقوله واستبعادا لعمله وحطا من شأنه وحسدا على ما آتاه الله من فضله وإحباطا لعمله وتشنيعا عليه فان صبر فاز وان جزع وعجل هلك وباد ، فتعجب كيف كانت عاقبة النبي يوسف الصديق أن بيع للمصريين وترعرع في بيت العزيز وحاقت به الفتنة وصبر على الظلم والسجن ولم يدر إخوته الزاهدون ولا حاشية العزيز وهم له ساجنون ولا من كانوا معه مسجونين أن العدسيؤمه وأن العز سيرقبه وأنه سيقبض على ناصية البلاد ويدين له الزمان ويساعده الزمان وينسج على ما قاساه عناكب النسيان .

ذلك مثل الصادقين القائمين بالأعمال الشريفة والفضائل العالية المنيفة ، فليبشر أولئك الذين صدقت نياتهم وحسنت أعمالهم وأخلصوا لأمتهم وأرادوا إنقاذ البلاد من الجهل والفساد فسوف يبدّل شقاؤهم راحة وذلهم عزا وسعادة وتحنى الأغصان عند هبات الرياح مدحهم ويعبق الجو بأريج ذكرهم وعاطر ثنائهم ، وهذا ناموس الوجود لم يشذ منه نبيّ مرسل ولا عالم مصلح وكانت العاقبة للمتقين ، ولم يذر من رجال الإصلاح من أحد حتى أخذ حظه من النصب والراحة وسار على خطته وحلب الدهر شطريه »ولقد كان لنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة فلقد أوذى كما أوذى الصدّيق يوسف عليه السلام وما آذاه إلا أقرباؤه الأدنون وتألبت عليه قرابته ثم نصره الله كما نصر يوسف وآوى اليه من كان يؤذيه كأبي سفيان وهند زوجته وغيرهما من علية القوم وسراتهم وعظمائهم فأصبحوا له محبين كما خرّ إخوة يوسف له سجدا وقال يا أبت هـذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا وقد أحسن بى ؛ ربّ إنى أيقنت بناموسك العالى وكتابك الكريم .

يا أيها الناس ، يا أبناء البلاد لا يجرمنكم شنآن قوم من بلادكم أن يصدوكم عن إصلاحها فعلى مقدار فضل الرجل يكون أعداؤه وكما يكون النصب تكون الثمرات ؛ فاعملوا لبلادكم كما عمل الصديق وتجاوزوا عن خطوات الشياطين من إخوانكم المبغضين المثبطين الحاسدين « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » انتهى الفصل الثانى .

الفصل الثالث ، قضية النبي الصديق فى بيت العزيز

تتوالى النكبات إثر النكبات على الصالحين المجاهدين والأنبياء المرسلين ، ساقت القوة الغضبية إخوة الصديق فهجروه بل نبذوه وباعوه ، وسلطت الشهوة البهيمية امرأة العزيز فراودته ، ويوسف باق على كماله صابر على عفته مع جماله الفتان فقالت له لتسجنن ولتكونن من الصاغرين ، فقال إنما الصغار لمن لاعفة له ولا شرف . ونفس المرء أوسع من السموات والأرض .

إذا لم تسعك النفس فالكون كله وآفاقه للمرء أضيق من قبر
وفى الفكر نيران وفى الفكر جنة وما أكثر الآفات إلا من الفكر

فاذا خنت سيدى ودنست عرضى كنت من الجاهلين ، أو يجمل فى دين المروءة أن يحسن اليّ وأسىء ويصدق وأكون من الكاذبين ، إن العزيز سيدى أحسن اليّ ، وعطف بالبر والاحسان عليّ فهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟ واللئيم يجزى المحسن بالكفران ، ألا بعدا للجاهلين ؛ أنا من بيت النبوة بيت إبراهيم وإسرائيل ، ولن يليق بى أن أكون شرّ خلف لخير سلف حتى يقال فيّ «فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا »

أنا أرنو لشرف عظيم ومجد كبير ، ومن لم يحفظ النفس فى إبان حياتها قعدت به همته عند كبرها ، ومن أراد الإصلاح فليبدأ بإصلاح نفسه وليكرمها فإنها بالإكرام أولى ، ومن لم يحكم أمر البداية حرم الفضل فى النهاية .

عــبرة

فعلى من يريد الإصلاح أن يفي بالعهد ولا ينقض الميثاق ولا يخون إخوانه في المرض ولا في المال ولا يفشى لهم سراً ، ذلك هو مبدأ الشرف الأسمى والخير الأعم والفضل الأدنى وقد قال الله لنبيه « فبهداهم اقتده » فنحن أولى بالاقتداء وأحقّ بالاتباع ، وإذا اقتدى المعصومون فغيرهم أولى بالاتباع وأحق بالاعتبار .

الفصل الرابع — سجن النبي يوسف الصديق عليه السلام

ما أشبه قصة النبي يوسف عليه السلام بعلم تهذيب الأخلاق إذ يقسمونه [ثلاثة أقسام] سياسة النفس بالعفة والصيانة كما كان الصدّيق في بيت العزيز ، وسياسة أمر المنزل أشبه بما اتفق له في السجن وإصلاح أمر المدينة كما حصل له إذ قال له الملك « ائتوني به أستخلصه لنفسي فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين » [حلقات ثلاث] لا يصلح أخراها إلا بصلاح أولاها ، عفّ في أول منازله ففشا ظلم الحاشية على حسن سيرته واتهموه وهو برئ وسجنوه وهو محسن فكان السجن ثاني المنازل فنصح للمسجونين وقال لهم « ياصاحبي السجن أأرباب متفرّقون خير أم الله الواحد القهار؟ » درس لهم التوحيد بالبرهان ثم ذكر شرف قومه وأهله فقال « واتبعت ملة آبائي إبراهيم الخ » نصح النبي الصديق للمصريين وهو غريب حفظاً للجميل وقياما بحق الإنسانية والنبوة .

ذلك إرشاد من الله وتعليم أن كونوا أيها المصلحون شموساً تضيء سناها على العالمين ولا تدعوا أيها العلماء الفلاحين المصريين غافلين ، بل أيقظوهم وعمموا التعليم ، إن المصري لشكور على النعماء مجاز لرحمة الرحماء .

فلعمرك ما دلّ الملك على الصدّيق إلا ذلك الخادم الساقي على بساط الملك لما سمع منه الحكم الغوالي والدرر الثمينة فأثمر عنده الإحسان ، وقال للملك أرسلون إلى يوسف ليؤوّل الرؤيا ففعلوا ، لقد نصح النبي في السجن ولم يمنعه ضيق السجن ولازور القول عن أن يقشع سحب الضلال ويصقل قلوب العامة بصقال العلم ويجليها بجلاء الحكمة فكان من المحسنين ، فليقم المصري بانتشال أمته من وهدة الجهل وليرفعها إلى سماء الفضيلة وليعمم العلم بين أفراد أمة المصريين .

الفصل الخامس

أما ثالثة الأثافي وخاتمة الفصول الخمسة فذلك أن تبوّأ عرش مصر ودبر الخزائن ونظم أمر البلاد فأحسن للأمة المصرية وقد أساءوه فسجنوه ، أكرم أبويه الشفيقين وعفا عن إخوته بعد أن طرحوه ونبذوه وباعوه ودبر الحيلة لأخيه بنيامين بعد أن جعل بضاعتهم في رحلهم فعرفوها . أكرم الصديق أبويه وأحسن إلى عشيرته الأقربين وقال « لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين » وقد قالها بلفظها رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي سفيان يوم فتح مكة فقال « لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين » وعد الله الرسل بالنجاة والفوز والسعادة ولن يخلف الله وعده .

يقول الله « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين » يحذو الأواخر حذو الأوائل ويتبع الآخرون سبل الأوّلين ، سلام على المرسلين ، وسلام على الصالحين ، وسلام على المخلصين .

يقول الله « لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثاً يفترى » سورة يوسف أحسن القصص لقد خلت مما يتنحى عنه أولو العزم من المرسلين كالعجلة التي ابتلى بها ذو النون إذ قال الله لنبيه صلى الله عليه وسلم « ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم » يأمر بالصبر والثبات والتؤدة حتى يأتي أمر الله وقد كان وصدق الله وعده ونصر عبده وأعزّ جنده وهزم الأحزاب وحده ، ولم تجمع قصة موسى وفرعون وعاد

وثمود

وثمود وقوم لوط وأصحاب مدين وأهل الكهف وأصحاب السبت من المواعظ والعجائب والمقدمات والنتائج ماتضمنته قصة يوسف لذلك كانت أحسن القصص وسار عليها صلى الله عليه وسلم حتى نال أعلى الغايات والنهايات. انتهى .

هذا هو الذى كتبته فى مجلة (الملاجئ العباسية) فى ذلك التاريخ ، فهاك ماجاء فى المجلة المذكورة فى العدد التالى لذلك ، وهذا نصه :

باب الزراعة . حماية الطيور النافعة

ما كاد يظهر العددان الأول والثانى من هذه السنة وفيهما تفسير سورة يوسف عليه السلام للأستاذ الشيخ طنطاوى جوهرى وإفاضته فى التكلم على الطيور النافعة للزراعة بالتقاط الحشرات الضارة بها وتنبيه ولاة الأمور إلى المحافظة عليها وحمايتها من القناصين والصيادين حتى أسرعت مصلحة الزراعة بإصدار هذا المنشور لحماية الطير المسمى بأبى قردان الشهير بكونه صديقا للفلاح ، وهاهو المنشور بنصه :

حماية الطير المسمى (أبو قردان) صديق الفلاح

معروف من قديم الزمان أنه يوجد نوع من الطيور تتغذى كلية من الحشرات المضرة بالزراعة وأن هذه الطيور إذا تركت بدون إزعاج فى المحلات التى نشأت فيها كانت سببا فى نجاة الغيطان القريبة منها من إصابة الحشرات ، وقد كانوا ينظرون سابقا إلى (أبى قردان) كصديق الفلاح المصرى وكان يراه الإنسان فى كل غيط وهو يلتقط الدود الذى يخرج من باطن الأرض وقت تقليبها بالمحراث .

أما فى السنين الحديثة فقد أباحوا اصطياد هذا الطير الذى هو فى الحقيقة مساعد نافع للمزارع بدرجة عظيمة حتى إنه لم يبق سوى بعض جهات قليلة فى الوجه البحرى يمكن أن يعيش فيها بأمان .

والغرض من هذا المنشور الآن هو تكليف جميع عمد البلاد باخطار مديرياتهم عما إذا كانوا يعلمون بوجود طوائف من الطير المذكور ببلادهم وكم عدد كل طائفة منه والتوصية بتركه بدون إيذاء حتى يأخذ عدده فى الازدياد ، هذا والحكومة لاتألو جهدا فى تقديم أية مساعدة ممكنة لحماية جميع الطيور النافعة للفلاح والمعروفة بأنها من أعداء دودة القطن وما شاكلها من الحشرات اهـ .

هذا هو الذى نشرته الحكومة المصرية فى ذلك التاريخ ، ثم إن طير (أبى قردان) الآن قد ملأ الأقطار المصرية بما فعلته الحكومة من تربيته وحفظه والفضل فى ذلك راجع لمحمد باشا سعيد لأنه كان هو السبب فى نشر التفسير فى تلك المجلة والحكومة هى التى تصرف عليها من خزينتها وهو إذ ذاك رئيس الوزراء أيام (اللورد كتشنر) الإنجليزى فقد نشرت الحكومة بعد ذلك بنحو ست سنين منشورا للأمة أبانت فيه أن الأمر الصادر من قبل لحفظ الطيور قد أثر تأثيرا حسنا فى (أبى قردان) الذى أصبح يرى فى كثير من أنحاء الوجه البحرى بعد أن كان عدده حين صدور القانون قد نقص حتى لم يبق منه هناك إلا سرب واحد فى مديرية الدقهلية ، أما بقية الطيور التى سيأتى ذكرها فانها لم تكثر الكثرة المطلوبة لعدم العناية بتنفيذ القانون وجاء فيه مايفيد أن فى الطبيعة من المحافظة على الزرع بخلق الله هذه الطيور الآكلة للدود مالا نظير له فى الوسائل التى يتخذها الناس انتهى المقصود منه ، وإنى أحمد الله عز وجل إذ أرانى فى حياتى أن طير (أبى قردان) قد كثر حتى ملأ البلاد وهم يطاردونه ولكن لا يقدرون على قتله من الحكومة وقد عملت الحكومة بما كتبته فى المقالة من تربيته وهاهى ذه تحمى الطيور الأخرى الآتية ولكن فاتها ذكر الغراب ولعلها تركته لأنه غير مرغوب فيه .

ولقد ألف بعض رجال الحكومة المصرية بوزارة الزراعة كتابا فى وصف أنواع الطيور المحرم صيدها محلى بصورها فلنذكر ملخصه هنا لتتم الفائدة ، فقد جاء فيه بيان أشهر أنواع الطيور التى يحميها القانون

فى مصر وهو يشمل أسماءها بالعربية والانجليزية والفرنسية واللاتينية مع وصف أحوالها المحلية وحجمها التقريبى وألوانها لتمييزها وذلك بقلم للماجور (س ، فلاور) مدير مصلحة وقاية الحيوانات والمستر (م ج نيكول) مساعد مدير مصلحة وقاية الحيوانات ، وهذا بيان أشهر الطيور التى يحميها القانون وسنرسم هنا بعض صور الطيور الدالة على باقيها

(عصفور سقسيكولا شكل ١)



(شكل ١)

يمرّ منه جموع كثيرة بمصر فى كلتا الرحلتين ـ طوله ٦ بوصات تقريبا أى ١٥٢ ملليمترا ، ذكره فى الربيع رمادىّ الأعلى ، أبيضُ طفلىّ الأسفل ، أجنحته سوداء وكذا ريش أذنه وخط عرضىّ على طرف ذيله ، أما باقى الذيل فأبيض، وذكره فى الخريف أحمر الأعلى لارمادىّ وكذا أنثاه وفراخه فى كل وقت.

(سقسيكولا أبو ذيل أبيض)

يكثر فيما بين أغسطس وإبريل ـ طوله ٦ بوصات تقريبا أى ١٥٢ ملليمترا ، أجزاؤه العليا رملية طفلية خفيفة اللون والسفلى حمراء طفلية وخوافى الأجنحة بيضاء وكذا قاعدة الذيل والذكر والأنثى سواء .

عصفور أبو ذيل أحمر

يكثر أثناء الرحلتين ولا سيما فى الربيع ـ طوله ٥ بوصات تقريبا أى ١٢٧ ملليمترا ، الذكر جبهته بيضاء وأجزاؤه العليا رمادية اردوازية ، وريش ذيله أحمر كله ماعدا الريشتين الوسطيين فإنهما أشدّ حمرة ، وذقنه وزوره وأعلى صدره أسود ، ولون بقية الأجزاء السفلى كستنى محمرّ والأنثى أبهت لونا ولكنها مفقودة السواد فى الزور .

عصفور أبو رقبة زرقاء

يكثر فى الشتاء وفى أوائل الربيع ـ طوله ٥ بوصات تقريبا أى ١٢٧ ملليمترا ، الذكر أجزاؤه العليا حمراء وذيله أحمر القاعدة مقمع بسمرة ، وذقنه وزوره وأعلى صدره ذات زرقة معدنية بحافتها من أدنى أشرطة حمراء وبيضاء وسوداء ، وفى وسط الزور بقعة حمراء كستنية أو بيضاء والبطن أبيض طفلىّ ، والأنثى كالذكر ولكنها مفقودة الألوان الزاهية التى تكسو الزور .

عصفور أبو صدر أحمر

يكثر فى الشتاء ــ طوله ٥ بوصات ونصف تقريبا أى ١٤٠ ملليمترا ، الذكر أجزاؤه العليا حمراء ، وذقنه وزوره وصدره حمراء برتقانية ، وبطنه بيضاء والأنثى كالذكر ولكنها أبهت لونا وأقلّ احمرارا على الصدر .

المغنى الأحمر

كثير جدا أثناء رحلة الربيع ولكنه فى الخريف أقلّ عددا ــ طوله ٦ بوصات ونصف تقريبا أى ١٦٥ ملليمترا ، والذكر والأنثى متشابهان ، أجزاؤه العليا وذيله حمراء محمرّة ، وأجزاؤه السفلى بيضاء مشربة رمادى فى الصدر وبلون طفلى فى البطن .

عصفور أبو رقبة بيضاء

يكثر فى كلتا الرحلتين — طوله ٦ بوصات تقريبا أى ١٥٢ ملليمترا ، وذكره تاج رأسه ضارب إلى اللون الرمادي وظهره أسمر وأجزاؤه السفلى بيضاء تخالطها طفلية وأنثاه أكبى لونا .

عصفور أبو رقبة بيضاء الصغير

يكثر فى الربيع والخريف ويبقى منه قليل فى مصر أثناء الشتاء — طوله ٥ بوصات تقريبا أى ١٢٧ ملليمترا ، والذكر والأنثى متشابهان ، أجزاؤه العليا سمراء رمادية وعنده بالعرض . فى عينه خط قاتم وأجزاؤه السفلى بيضاء تقريبا .

المغنى الأخضر

يكثر جدا من نوفمبر إلى مارس — طوله ٤ بوصات تقريبا أى ١٠٢ ملليمترا والذكر والأنثى متشابهان وأجزاؤه العليا سمراء مخضرة وأجزاؤه السفلى بيضاء مخضرة .

(عصفور الصفصاف المغنى شكل ٢)

يكثر أثناء رحلة الخريف — طوله ٤ بوصات ونصف تقريبا أى ١١٥ ملليمترا ، والذكر والأنثى متشابهان وأجزاؤه العليا سمراء تخالطها خضرة أجزاؤه السفلى بيضاء مصفرة .

(شكل ٢)

المغنى الأصفر

يكثر فى رحلة الربيع — طوله ٤ بوصات ونصف تقريبا أى ١١٥ ملليمترا ، الذكر والأنثى متشابهان أجزاؤه العليا خضراء ولون زوره وصدره أصفر ليمونى وبطنه أبيض حريرى .

المغنى الأحمر

يكثر من إبريل إلى سبتمبر — طوله ٦ بوصات ونصف تقريبا أى ١٦٥ ملليمترا ، الذكر والأنثى متشابهان ، أجزاؤه سمراء محمرة وذيله بين الحمرة وكل ريشة منه مقمعة بسواد وبياض ماعدا الريشتين الوسطيتين فكل منهما حمراء برمتها والأجزاء السفلى بيضاء طفلية .

عصفور صوت المغنى

يكثر جدا من مارس إلى أكتوبر — طوله ٤ بوصات ونصف تقريبا أى ١١٥ ملليمترا ، والذكر والأنثى متشابهان ، عاليه أسمر ترابى باهت وسفليه أبيض طفلى .

عصفور البوص المغنى

يكثر فى كلتا الرحلتين ، ويبقى منه قليل فى القطر المصرى أثناء الشتاء — طوله ٥ بوصات وربع تقريبا أى ١٣٣ ملليمترا والذكر والأنثى متشابهان ، أجزاؤه العليا سمراء والسفلى طفلية كبريتية وطفلية محمرة .

عصفور البرسيم المغنى

يكثر فى مصر ويعيش فى المزروعات — طوله ٣ بوصات تقريبا أى ٧٦ ملليمترا ، ذكره وأنثاه متشابهان ، أجزاؤه العليا سمراء ضاربة إلى الصفرة ومخططة بسواد ، وأجزاؤه السفلى طفلية وذيله مقمع بسواد وبياض .

الفتى أبو ذيل طويل

يكثر فى مصر ويعيش فى المزروعات — طوله ٤ بوصات ونصف تقريبا أى ١١٥ ملليمترا ، والذكر والأنثى متشابهان ، أجزاؤه العليا سمراء مخططة بسواد وأطراف ريش الذيل مخططة بخطوط عرضية سوداء وبيضاء والسفلى بيضاء تقريبا .

(أبو فصادة شكل ٣)



(شكل ٣)

يكثر جدا فى مصر فيما بين أكتوبر ومارس ويبقى بعضه إلى إبريل — طوله ٦ بوصات ونصف تقريبا أى ١٦٥ ملليمترا ، والذكر والأنثى متشابهان تقريبا ، جبهته بيضاء ، تاج رأسه أسود والأجزاء العليا رمادية والسفلى بيضاء بها رقعة سوداء على الزور .

أبو فصادة الأصفر

يكثر جدا فى الربيع والخريف ويبقى بعضه فى القطر طول السنة — طوله ٦ بوصات تقريبا أى ١٥٢ ملليمترا ، الذكر قمة رأسه زرقاء رمادية والأجزاء العليا سمراء مخضرة ، والأجزاء السفلى جميعها صفراء زاهية والأنثى أجزاؤها العليا سمراء والسفلى بيضاء تخالطها على البطن صفرة .

(عصفور البيبيت أبو زور أحمر شكل ٤)

يكثر جدا من أكتوبر إلى إبريل — طوله ٥ بوصات ونصف تقريبا أى ١٤٠ ملليمترا ، الذكر أجزاؤه العليا سمراء مخططة بخطوط سوداء وطفلية ، لون زوره وأعلى صدره أحمر وباقى الأجزاء السفلى بيضاء مخططة ومبقعة بسواد ، والأنثى شبيهة بالذكر سوى أن زورها فقط هو الأحمر وفراخ هذا العصفور ليس بها حمرة أصلا .



(شكل ٤)

عصفور البيبيت

يكثر جدا فى الربيع والخريف طوله ٦ بوصات ونصف تقريبا أى ١٦٥ ملليمترا ، الذكر والأنثى متشابهان ، أجزاؤه العليا سمراء رملية والسفلى طفلية صفراء .

عصفور بيبيت الماء

يكثر أثناء أشهر الشتاء ويبقى بعضه إلى إبريل — طوله ٦ بوصات تقريبا أى ١٥٢ ملليمترا والذكر والأنثى متشابهان ، أسمر الأعلى ، أبيض كاب من الأسفل ، معلم على الصدر بخطوط سمراء والأجزاء السفلى فى الربيع مشربة بلون طفلى محمر زاه .

الصـفير

تمرّ بالقطر منه جموع كثيرة أثناء الرحلتين ـ طوله ١٠ بوصات تقريبا أى ٢٥٤ ملليمترا ، الذكر أصفر ذهبى إلا ريش أذنيه وأجنحته ومعظم الذيل فإنها سوداء جميعا ، والأنثى وفراخه خضراء الأجزاء العليا بيضاء رمادية الأجزاء السفلى مخططة بخطوط سوداء كابية .

(عصفور آكل الذباب شكل ٥)



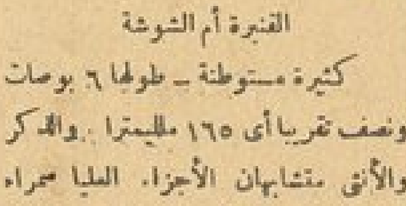
(شكل ٥)

يكثر أثناء الرحلتين ـ طوله ٦ بوصات تقريبا أى ١٥٢ ملليمترا ، والذكر والأنثى متشابهان ، الأجزاء العليا رمادية سوداء ، تاج رأسه مخطط بخطوط حمراء والأجزاء السفلى بيضاء مخططة بسمرة على الصدر .

عصفور آكل الذباب أبوطوق أبيض

يكثر أثناء رحلات الربيع ـ طوله ٥ بوصات تقريبا أى ١٢٧ ملليمترا الذكر جبهته وطوقه أبيضان وبقية أجزائه العليا سوداء والأجنحة مسودّة تقطعها خطوط بيضاء ، والأجزاء السفلى بيضاء ، والأنثى كالذكر سوى أن السواد فى الذكر يقابله سمرة فى الأنثى .

(القنبرة الإفرنجية شكل ٦)



(شكل ٦)

تكثر بالقطر أثناء أشهر الشتاء ـ طولها ٧ بوصات ونصف تقريبا أى ١٩١ ملليمترا ، والذكر والأنثى متشابهان الأجزاء العليا حمراء رمادية مبقعة بسمرة قاتمة ، وأجزاؤها السفلى مبيضة ، زورها ورقبتها مخططان بسمرة والذيل أحمر وأبيض .

القنبرة أم الشوشة

كثيرة مستوطنة ـ طولها ٦ بوصات ونصف تقريبا أى ١٦٥ ملليمترا ، والذكر والأنثى متشابهان الأجزاء العليا حمراء ومبقعة بسواد والسفلى بيضاء كابية مخططة بسواد وتختلف شدة اللون تبعا للأماكن التى تغشاها هذه القنبرة فأغمقها يوجد فى أراضى الدلتا الغنية ، وأفتحها يوجد فى الأرض الرملية مثل جهات وادى النطرون .

القنبرة الصغيرة

كثيرة كثرة هائلة أثناء الرحلتين وترى أحيانا فى الشتاء ويبقى قليل منها يتوالد فى مصر أثناء

أشهر الصيف طولها ٥ بوصات تقريبا أى ١٢٧ مليمترا ، والذكر والأنثى متشابهان ، الأجزاء العليا سمراء رملية مبقعة بسواد ، تاجرأسها أشد حمرة ، والأجزاء السفلى بيضاء تقريبا ؛ وتوجد رقعة سوداء صغيرة على جانبي الرقبة ، والذيل أحمر وأبيض .

(الوروار الإفرنجى شكل ٧)



(شكل ٧)

تمرّ بمصر منه جموع كثيرة أثناء الرحلتين ـ طوله ١١ بوصة ونصف تقريبا أى ٢٩١ مليمترا والذكر والأنثى متشابهان والأجزاء العليا صفراء مسمرة والذقن أصفر . بحافته السفلى شريط أسود وباقى الأجزاء السفلى خضراء مزرقة والريشتان الوسطيان من الذيل أطول قليلا

الوروار المصرى

يكثر فى مصر من النصف الثانى من مارس إلى سبتمبر ـ طوله ١١ بوصة ونصف تقريبا أى ٢٩١ مليمترا ، والذكر والأنثى متشابهان وريشه جميعه أخضر زرعى ماعدا زوره فإنه أصفر محمر وبه خط أسود قاطع عرض العين وتوجد على جانبي وجهه رقع بيضاء وزرقاء . والريشتان الوسطيان من الذيل أطول قليلا .

الوروار الصغير

كثير مستوطن فى القاهرة وما يليها جنوبا ـ طوله ٩ بوصات ونصف تقريبا أى ٢٤٢ مليمترا ، والذكر والأنثى متشابهان وريشه جميعا أخضر زرعى ماعدا خط أسود قاطع عرض العين وتوجد رقعة حمراء كابية فى الجناح عند ثنيه والريش الأوسط لذيله أطول كثيرا .

(الهدهد الإفرنجى شكل ٨)



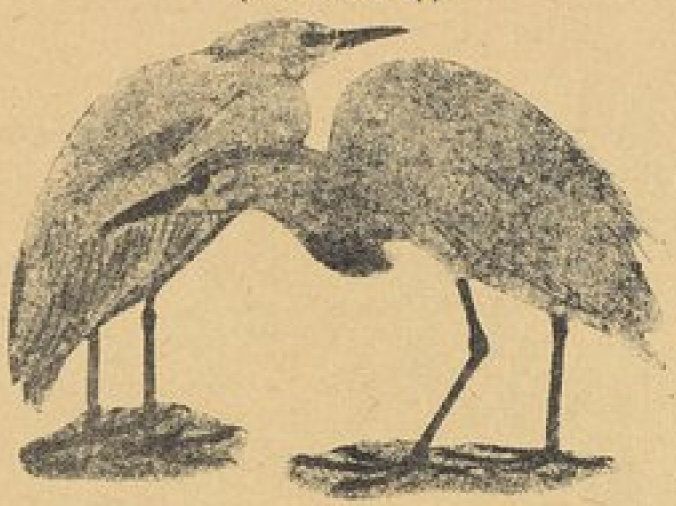
(شكل ٨)

يكثر جدا أثناء رحلتى الربيع والخريف – طوله ١٢ بوصة تقريبا أى ٣٠٥ ملليمترات ، والذكر والأنثى متشابهان إلا أن الذكر أكبر منقارا ، الرأس والرقبة كابيا الاحمرار ، والعرف كبير معتدل أحمر مقمع بسواد وبياض ، والزور والصدر أحمران قرنفليان ، والبطن مبيض ، والظهر أحمر ، والذيل والجناحان سود مخططة بخطوط عرضية عريضة بيضاء وطفلية .

الهدهد المصرى

كثير ومستوطن – طوله ١٢ بوصة تقريبا أى ٣٠٥ ملليمترات ، يخالف الهدهد الافرنجى الرحالة فى كون منقاره أطول وأكثر نحافة ولونه أكبى قليلا .





(شكل ٩)

مستوطن فى مصر ، كان فيما مضى كثيرا جدا ـ طوله ٢٠ بوصة تقريبا أى ٥٠٨ ملليمترات ، الذكر والأنثى متشابهان ، الريش كله أبيض إلا فى موسم الرقاد حيث يرى أن قمة الرأس والقفا وأصل الرقبة تكون محلاة بريش طفلى اللون شعرى القوام .

العنز

فى أثناء رحلة الربيع يمرّ عدد عظيم بالقطر المصرى ويبقى عدد قليل منه طول الصيف ، غير أن هذه الفصيلة لايعرف عنها أنها ترقد فى هذا القطر ، أما العودة أثناء الخريف فإنها أقلّ وضوحا من رحلة القدوم فى الربيع ، الطول نحو ٤٢ بوصة أى ١٠٦٧ مللمترا ، الذكر والأنثى متشابهان ، الريش كله أبيض إلا ريش الجناح فإنه أسود مرصع بلون رمادى ، المنقار والرجلان حمر .

السكروان الجبلى نمرة ١ (شكل ١٠)

كثير مستوطن يعيش فى الصحراء ـ طوله ١٧ بوصة تقريبا أى ٤٣٢ ملليمترا ، الذكر والأنثى متشابهان الأجزاء العليا حمراء رملية مخططة بسواد ، ويرى فى الجناح فى حالة انقباضه خط عرضى ضيق مبيض ، الزور أبيض وكذلك خط تحت العين ، الصدر طفلى مخطط بسواد ، البطن مبيض والعين واسعة صفراء .

السكروان البلدى نمرة ٢ (شكل ١٠)

كثير مستوطن يعيش غالبا فى المدن ويعشش عادة على أعالى المبانى ـ الطول ١٧ بوصة تقريبا أى ٤٣٢ ملليمترا ، الذكر والأنثى متشابهان يخالف الجبلى فى كون لونه أكبى وأشدّ رمادية وفى كون جناحه يكون خاليا فى حالة انقباضه من الخط العرضى الأبيض الواضح .



(الزقزاق المطوّق شكل ١٠)



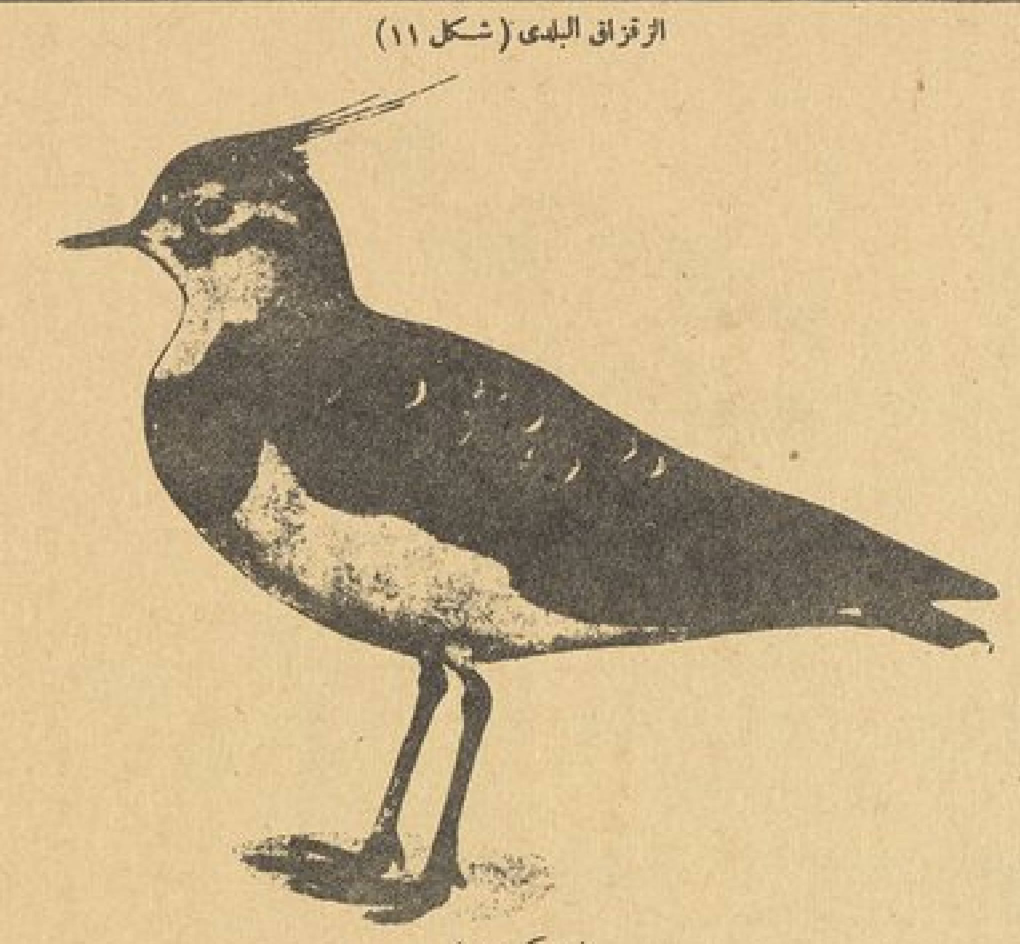
(شكل ١٠)

يكثر فى البقاع الرطبة والأراضى المغمورة بالمياه طول الخريف والشتاء ويبق قليل منه فى القطر ويعيش ويفرخ فى أماكن مناسبة ــ طوله ٦ بوصات ونصف تقريبا أى ١٦٥ ملليمترا ، الذكر والأنثى متشابهان أجزاؤه العليا سمراء باهتة وجبهته سوداء فى وسطها غرّة بيضاء وريش أذنه أسود وله طوق أسود وعلى قفاه شريط أبيض وأجزاؤه السفلى بيضاء ٠

الزقزاق الشامى

يكثر فى أشهر الشتاء ــ طوله ١٢ بوصة ونصف تقريبا أى ٣١٨ ملليمترا ، الذكر والأنثى متشابهان تاج الرأس والعرف أسودان مخضرّان والأجزاء العليا خضراء معدنية ذات انعكاسات أرجوانية ومطلة قليلا بلون طفلى ، والذيل أبيض به شريط أسود عريض ، والبطن أبيض وخوافى الذنب كستنية باهتة .

الزقزاق البلدى (شكل ١١)



(شكل ١١)

كثير مستوطن فى الأماكن المناسبة له فى معظم مديريات القطر — طوله ١٢ بوصة تقريبا أى ٣٠٥ ملليمترات ، الذكر والأنثى متشابهان ، لون قمة الرأس والقفا والزور والصدر أسود ، ولون جانبى الرأس والرقبة والبطن أبيض والأجزاء العليا سمراء وريش الأجنحة معلم بسواد وبياض واضحين والذنب أسود ذو قاعدة بيضاء وحدقة العين قرمزية ، انتهى الإجمال ، فهاك تفصيل التفسير لهذه السورة :

أقسام هذه السورة ست :

[القسم الأول] رؤيا النبى يوسف عليه السلام من أول السورة إلى قوله « آيات للسائلين » .

[القسم الثانى] أذى إخوته من قوله « إذ قالوا ليوسف وأخوه » إلى قوله « وكانوا فيه من الزاهدين »

[القسم الثالث] قصته فى بيت العزيز من قوله « وقال الذى اشتراه من مصر » إلى قوله « وليكونا من الصاغرين » .

[القسم الرابع] قضيته فى السجن من قوله « قال ربّ السجن أحبّ إلىّ » إلى قوله تعالى « إن ربى غفور رحيم » .

[القسم الخامس] تنظيمه الخزائن للمصرية من قوله « وقال الملك ائتونى به » إلى قوله « ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين » .

[القسم السادس] خاتمة السورة وحكمها وعجائبها من قوله « ورفع أبويه على العرش » إلى آخر السورة

(القسم

(القسمُ الأوَّلُ)

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ)

الر * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ * إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ * قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ *

التفسير اللفظي

بسم الله الرحمن الرحيم

(الر) تقدم الكلام عليه فى أول آل عمران ، يقول الله (تلك) أى الآيات التى أنزلت عليك فى هذه السورة آيات السورة الظاهر أمرها فى إعجاز العرب وفى إجابة السائلين منهم بإرشاد اليهود قائلين لم انتقل آل يعقوب من الشام إلى مصر وما قصة يوسف (إنا أنزلناه) هذا الكتاب الذى فيه قصة يوسف عليه السلام حال كونه (قرآنا عربيا) وبعض القرآن يسمى قرآنا لأنه اسم جنس يقع على البعض وعلى الكل « ولو كان أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمى وعربى » (لعلكم تعقلون) أى تفهمون أيها العرب وقد نزل بلغتكم (نحن نقص عليك أحسن القصص) والقصص إما مصدر بمعنى الاقتصاص ، وإما بمعنى المفعول فيراد به المقصوص كالسلب بمعنى المسلوب فيقال نبين لك أحسن البيان لأنه جاء على أبدع الأساليب ، أو أحسن الذى يقص لما فيه من العجائب والحكم والآيات والفوائد النافعة فى الدنيا والدين كسير الملوك والممالك وحسن السياسة وتدبير الملك وإقامة العدل ونظام الدولة ومكر النساء والاصطبار على الأذى والعفو والتجاوز عن هفوات الأقارب ، واشتقاقه من قص أثره إذا تبعه فإن الذى يقص الحديث يتبع ما حفظ منه شيئا فشيئا كما يتبع القاص الأثر شيئا فشيئا ، وقوله (بما أوحينا إليك هذا القرآن) أى بإيحائنا إليك هذه السورة (وإن كنت من قبله لمن الغافلين) أى إنه أى الشأن أو الحديث كنت من قبل إيحائنا إليك من الجاهلين به لأن هذه القصة لم تقرع سمعك ولم تخطر ببالك وإن مخففة من الثقيلة واللام فارقة (إذ قال) بدل اشتمال من أحسن القصص إذا كان مفعولا به وهو بمعنى المقصوص ، فأما إذا كان بمعنى الاقتصاص وهو المصدر فيكون إذ منصوبا بإضمار اذكر ، يقول الله : قال (يوسف) بتثليث السين (لأبيه) يعقوب بن إسحق بن إبراهيم (يا أبت) بتثليث التاء فالضم لإجرائها مجرى الأسماء المؤنثة بالتاء، وفتحها لأنها أصلها « يا أبتا » وكسرها لأنها عوض عن حرف يناسب الكسرة (إنى رأيت) فى المنام فهو من الرؤيا لا من الرؤية (أحد عشر كوكبا والشمس والقمر) نزلن من أماكنهن وسجدن لى سجدة التحية، والنجوم فى التأويل إخوته وكانوا أحد عشر رجلا يستضاء بهم

كما يستضاء بالنجوم ، والشمس أبوه والقمر أمه راحيل ،وقوله (رأيتهم لى ساجدين) استئناف لبيان الحال التى رآهن عليها وأجريت مجرى العقلاء لوصفها بالسجود وهو من صفاتهم ، ولقد كان يعقوب شديد الحب ليوسف لأن الجمال والذكاء مما يضاعف الحب فى البنين والبنات كما يحب الناس جمال زهر الورد ويقل التفاتهم لزهر السنط والصفصاف ، ولقد قال علماء الحكمة [إن جمال الظاهر بانتظام العين والأنف والفم والخد ، وحسن ائتلافها دال على جمال الباطن بالعفة والحكمة والشجاعة والعدالة] فالانسان شغوف بالجمال فى أبنائه لأن نفوس الناس تشعر بجمال بواطن من حسنت ظواهرهم ولذلك حسده إخوته وظهر ذلك ليعقوب فلما رأى يوسف هذه الرؤيا وكان تأويلها أن إخوته وأبويه يخضعون له (قال) يعقوب (يا بنى) تصغير ابن للشفقة ولصغر السن وكان ابن اثنتى عشرة سنة (لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا) فيحتالوا لإهلاكك حيلة ، واللام فى لك صلة كما تقول نصحتك ونصحت لك تخاف عليه حسدهم وبغيهم والرؤيا فى المنام كالرؤية بالبصر وسيأتى إيضاح الكلام عليها قريبا (إن الشيطان للانسان عدو مبين) ظاهر العداوة كما فعل بآدم وحواء وفى صحيح البخارى قال صلى الله عليه وسلم « إذا رأى أحدكم الرؤيا يحبها فانها من الله فليحمد الله عليها وليحدث بها وإذا رأى غير ذلك مما يكره فانما هى من الشيطان فليستعذ بالله من الشيطان ومن شرها ولا يذكرها لأحد فانها لن تضره » ومعنى أنها من الشيطان أنه يحضرها أو أنها تسره فهى من الله خلقا ولكن تنسب للشيطان مجازا لأن كلا من عند الله . ويقال الرؤيا اسم للمحبوب والحلم اسم للمكروه وقد أخذ العلماء من مجموع الأحاديث أن الإنسان لا يحدث بالحلم وليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم من شرها ويتفل ثلاثا وليتحول إلى جنبه الآخر فانها لا تضره وهذه تكون سببا لعدم ضرره كما جعلت الصدقة لوقاية المال وغيره من البلاء (وكذلك يجتبيك ربك) يقول الله تعالى وكما رفع الله منزلتك بهذه الرؤيا الشريفة العظيمة كذلك يصطفيك ربك ويخصك بفيض إلهى فتكون نبيا وملكا وتكون لك أنواع الكرامات بلا سعى منك وتلهم الخير إلهاما ، ثم ابتدأ كلاما خارجا عن التشبيه السابق فقال تعالى (ويعلمك من تأويل الأحاديث) أى تأويل الرؤيا فان كانت من أحاديث الملك كانت صادقة أو من أحاديث النفس أو الشيطان كانت كاذبة كما سأوضحه قريبا وتأويل كتب الله تعالى وسنن الأنبياء وكلام الحكماء ، والأحاديث اسم جمع للحديث وهو ليس بجمع لأحدوثة ، ومعنى تعبير الرؤيا تأويلا لأنه يئول أمره إلى ما رأى فى منامه وكان يوسف عليه السلام أعلم الناس بتعبير الرؤيا ، وقوله (ويتم نعمته عليك) أى بالنبوة (وعلى آل يعقوب) وذلك بأن وصل لهم نعمة الدنيا بنعمة الآخرة فهم أنبياء فى الدنيا وملوك وفى الآخرة فى أعلى درجات الجنة ، وآل معناه أهل ، ولكن الأول يستعمل فيمن له خطر كآل النبى فلا يقال آل الجاهل وآل العصاة وإنما يقال أهل ، وآل يعقوب سائر بنيه ولقد دل على شرفهم بضوء الكواكب (كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحق) فجعلهما نبيين (إن ربك عليم) بمن هو أهل للاجتباء (حكيم) يضع الأشياء مواضعها (لقد كان فى يوسف وإخوته) أى فى قصتهم وحديثهم (آيات) دلائل على قدرة الله وحكمته وعلى نبوتك (للسائلين) لمن سأل عن قصتهم وإخوة يوسف هم أولاده العشرة [يهوذا ، روبيل ، شمعون ، لاوى ، زبالون ، يشجر] وأمهم ليا بنت ليان وهى ابنة خال يعقوب وولد ليعقوب من سريتين أربعة أولاد وهم [دان ، نفتالى ،جاد ، آشر] ثم توفيت ليا فتزوج يعقوب أختها راحيل فولدت له يوسف وبنيامين فهؤلاء هم الأسباط بنو يعقوب وعددهم اثنا عشر فستة من ليا وأربعة من سريتين اسم إحداهما زلفة والأخرى بلهة واثنان من راحيل أخت ليا بنت ليان بعد موت أختها أو كانت معها على رأى ، ولقد دهش اليهود الذين قالوا للعرب سلوه عن سبب انتقال ولد يعقوب من أرض كنعان وعجبوا كيف يذكر هذا القصص الموافق لما فى التوراة ولا علم له بالكتب ولم يجالس الأحبار ولا العلماء ، وأيضا

فى هذا عبرة وعظة فى عجائب هذه القصة من صبر وحلم وحزن وعفة وسجن وملك وصفح ، فكل هذه آيات للسائلين ودلائل للمفكرين ، وفى هذا المقام لطائف :

[اللطيفة الأولى] فى قوله تعالى « نحن نقصّ عليك أحسن القصص الخ »

[اللطيفة الثانية] فى استطلاع البشر إلى معرفة الغيب وغرامهم به وأن منه العرافة ومنه الرؤيا وأن فيهما الصادق والكاذب .

[اللطيفة الثالثة] فى الحسد وأسبابه .

اللطيفة الأولى فى قوله تعالى « نحن نقصّ عليك أحسن القصص »

اعلم أن الله عزّ وجل لما ذكر فى سورة هود عجائب صنعه وبدائع حكمته فى خلقه وجعل مناط التفكير فيها النظر فى الدوابّ وسعة علم الله ثم إن ملكه ثابت على مقتضى العلم والحكمة وإذا كان ملك الله ودوامه إنما كان لثباته على العلم هكذا لادوام لملك الأمم إلا بالعلم الذى ينالونه ، وكل ملك لم يؤسس على العلم آيل للزوال السريع ، ولما كان علم الله لا نهاية له كان ملكه لا نهاية له معروفة وعلم الناس محدود ، ولذلك كان ملكهم محدودا ، هذا بعض ما يؤخذ من سورة هود ، وقد فاتنى أن أذكر هذا هناك ثم أقول فسورة هود مدار الأمر فيها على النظام فى الحيوان وعلى سعة علم الله وحكمته وقدرته ورحمته وأنه آخذ بناصية كل دابة ، فأما فى هذه السورة فقد فتح باب الفكر الانسانى والعقل الآدمى كأنه يقول أيها الناس اقرءوا علوم الطبيعيات والفلكيات وكل ما فى الأرض والسموات ولا يشغلكم ذلك عن القصص والعظات وبعبارة أخرى ليقرأ الناس علوم الطبيعة وعلوم الأدب .

اعلم أيها الذكى أن هذا المقام يحتاج لشرح وإيضاح ، لقد جاء فى كتاب أميل القرن التاسع عشر مايفيد أن التعليم فى الأمة الفرنسية التى منها مؤلف الكتاب المذكور ناقص لأنها قصرت فى تعليم النشء الروايات والخرافات والأحاديث المستملحة الغريبة ، وعلل ذلك بأن الأطفال ومن نحا نحوهم لايقبلون إلا على مايوسع الخيال ويفتح باب التصوّر وسعة القوة المخيلة ولن يكون ذلك إلا بالروايات المدهشة الموسعة للمخيلة الخالفة للحقائق المعروفة ، وأيد ذلك بما يصنعه الإنجليز فى بلادهم وأن الأطفال والشيوخ الذين لم يتعلموا يحضرون مجالس خاصة فى محالّ تفتح لهم وفيها تكون تلك الخرافات وضرب أمثالا لذلك مثل الفتاة التى طلب أبوها أن يتزوّجها واقترحت عليه ثوبا كلون الشمس وثوبا كلون القمر وفى آخر الأمر اقترحت عليه أن يذبح حماره ففعل كل ذلك ولبست جلد الحمار فصار هذا الجلد يخفيها عن الأنظار والذى أرشدها لهذا الاقتراح جنية ، وأطال فى ذلك بأمثال لامحل لذكرها هنا ، وإنما أقول إن هذه الخرافات قد وضعت بين عامّة الجهال من البشر لحكمة من الله دبرها ، يقول وإن هذه الخيالات الكاذبة توسع القوّة المخيلة حتى إذا ما ترعرع الشاب انفتحت بصيرته للعلوم الطبيعية والفلكية فتصقل ذهنه فتذهب تلك الخرافات من عقله ويتمّ له الكمال ، هذا رأيه .

ولقد اطلعت على خرافات منقولة عن اليابان وقد ذكروا مع كل واحدة منها للأطفال أن هذه خرافة ، أما هذا الفرنسى فانه يقول يجب ألا ننص على الصبى بأن هذه لا حقيقة لها ولندعه يفرح بها حتى إذا كبر الصبى عرف الحقيقة .

هذا ما وصل إلينا من علم الأمم حولنا فى هذا المقام ، فلنرجع إلى ما نحن فيه ولننظر فى القصص وأحسن القصص ، يقول الله « نحن نقصّ عليك أحسن القصص » وهذا يفيد أن القصص فيه حسن وأحسن والله قصّ الأحسن ، ولا جرم أن الناس يقصون الحسن والردىء وهذا فتح باب الحكايات والروايات والقصص

مابين صادقة وخيالية ، ولقد كانت أمة بنى إسرائيل مغرمة بالقصص والحكايات ومنها ما هو ضرب أمثال ، وكان صلى الله عليه وسلم يحدّث أصحابه عامة الليل ، ومن ذلك حديث أم زرع الطويل الذى اعتنى كبار العلماء والمحدّثين بشرح معناه وألفاظه اللغوية الأنيقة ، وكان صلى الله عليه وسلم يقول : « حدّثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج » .

ولعل القصد أن يكون الحديث خاصاً بما يفيد علما وحكمة وماعدا ذلك فهو لغو الحديث . ولقد وجدنا أمتنا الإسلامية قد خلفت لنا آثارا من الروايات كألف ليلة وليلة ، وكتاب (كليلة ودمنة) وروايات كثيرة فنها ماهى عامّية ومنها ماهى باللغة العربية . ولقد نجد قصة عنترة وغيـر عنترة وكل ذلك شهادة بأن أمتنا نهضت نهضة واسعة النطاق . ولقد نجد فى كتاب (كليلة ودمنـة) من المحاورات الجارية على لسان البهائم مايملك الحكمة والسياسة والأخلاق والمواعظ والعبر وكل مافيه جار على لسان مالايعقل .

فأما كتاب ألف ليلة وليلة فانه جار على ألسنة الناس وفيه المبالغات وحديث العفاريت والجن والشياطين وما أشبه ذلك من الخرافات ومع ذلك تجد فيه مايوسع الخيال كما ترى فى قصة السندباد البحرى وحديثه مع السندباد البرّى وكيف يقص عليه من أنباء سياحاته السبع وكيف كان فى كل سفرة منها يلاقى من الأهوال والمصاعب مالايطيقه إلا الأبطال . وكيف يقص عليه نبأ تلك البيضة التى هى كقبة كبيرة جدا وقد جاء الرخ وجثم عليها وكيف ربط نفسه فى رجله وهو لايحس به كأنه برغوث على جسم إنسان وهكذا كيف رمته المقادير فوق الجبال وفى الأودية وكيف ربط نفسه فى قطعة اللحم التى التصق بها الألماس فرفعه الطير إلى أعلى الجبل وكيف وصل إلى أشجار الصندل فاتخذ منها سفينة وجرت به فى البحر وتحت الجبـل فى الماء وكيف كانت هذه السفينة تجارة وهو لايدرى وهكذا من شياطين يطيرون به . وما أشبه ذلك مما دوّنه أسلافنا فى كتبهم وتركوه إلى خلفهم ليطلعوا عليه وينقدوه ويفكروا فيه . فأما الأمة الإسلامية فانها على مذاهب شتى .

فأما الفقهاء وأهل الدين فانهم كانوا منذ قرون كما هو مشاهد الآن يمنعون التلميذ أن يقرأ إلا كتب الدين وعلوم النحو والصرف وماأشبهها ، والطالب يحقر كل ماعدا ذلك لأن أستاذه حقره . فأما تلك الكتب فقد بقيت عند العامة والجهلاء . ثم إن علماء أوربا قد اعتنوا بها وبحثوا عنها وفكروا فيها ووجـدوا أن كتاب (ألف ليلة وليلة) نافع لهم فترجموه وقد اطلعت عليه باللغة الإنجليزية . وألفوا كتبا أخرى يسمونها (الليالى العربية والليالى العربية الجديدة) وقال بعض كتابهم الذين نبغوا فى قومهم إذا لن نصل لهذه القوة إلا من قراءة كتاب (ألف ليلة وليلة) ومعنى هذا أنه قرأه فى صغره وقرأ العلوم الطبيعية فى كبره .

فأما الاقتصار على أمثال هذه الكتب فانه يجعل المرء كثير الخرافات مصدقا بالترهات . هذا . وعلى ذلك جاءت هذه السورة عقب سورة هود التى أعلت شأن علوم الطبيعة ليبين الله أن القصص شأنها عظيم . ولعمرى لا دين ولا أمة تقوم لها قائمة إلا بضرب الأمثال والروايات ، والحكايات المنشات للنفوس ، المرقيات للخيال .

كيف كانت قصة يوسف أحسن القصص

وإنما كانت قصة يوسف أحسن القصص لأنها جمعت بين مايوسع الخيال من المناهج العجيبة وما يوضح الحقيقة [وبعبارة أخرى] إن العلماء أباحوا الخرافات لترقية الأمم بل جعلوها من الأمور اللازمة وذلك لتوسيع الخيال . فهذه القصة مع مافيها من توسيع الخيال جاءت مطابقة للحقيقة لأنها تذكر أمورا جرت فليس يعقوب ويوسف وأخوانه ووجودهم فى مصر أمرا خيالياً بل هو حقيقة تاريخية معروفة . وليس ككليلة

ودمنة

ودمنة الذى هو حسن حقا ولكنه ليس أحسن لأنه يأتى بحوادث الحيوان مما لا ينطبق إلا على الإنسان كحكاية السمكات الثلاث اللاتى اختلفن فى الرأى لما حيل بينهن وبين ماء النهر فأما الأحزم فيهن فانها فرّت بسرعة من مكانها إلى النهر ، وأما الحازمة فانها لما أحاط بها الخطر تماوتت وعامت على وجه الماء كالميتة فرماها الصيادون ، وأما الغبية فانها لم تفكر حتى أخذها الصيادون ، فان هذه الحكاية وأمثالها قد استحسنها العقلاء ودرسها جميع الأمم ، ولكن قصة يوسف أحسن لأن أشخاصها حقيقيون ووقائعها صحيحة وفيها الحكم والمواعظ التى لا يراها الإنسان فى قصة أخرى ، حتى أن قصة يوسف فى التوراة ليس فيها من الطلاوة والأخذ بالألباب والعظات ، والحضّ على مكارم الأخلاق مثل مافى القرآن . فهذا معنى كون هذا أحسن القصص .

كيف تربى أوروبا أبناء الشرق

لقد علمت أيها الذكى آراء علماء أوروبا فى الروايات وعرفت أن المتأخرين من أمتنا الإسلامية سدّوا الباب فى وجوه الطلبة ، فوقفت العقول ، وسدت الطرق . فلما دخل الإنجليز بلادنا زادوا الطين بلة فقالوا لاتقرءوا الروايات فانها خرافات وقد علمت أن هذه تليق للأطفال ولصغار العقول ثم هم قللوا علوم الطبيعة بحيث لا يعرف الطالب ماجاء فى سورة هود من النظر فى الحيوان وأنواعه ولا فى عجائب صنع الله تعالى .

فهذا الباب أقفل إلا قليلا وذلك على الكبار وهكذا الأطفال منعوهم مما يرقى الخيال ثم جاءوا بروايات (شكسبير) ليقرأها الكبار بدل الصغار وكذلك بعض روايات عربية مترجمة إلى لغتهم من ألف ليلة وليلة وجعلوها للكبار ليشغلوهم عما يجب أن يكون للأطفال وذلك لإضعاف العقول وموت النفوس . هذا ماأردت ذكره فى هذا المقام ليقف عليه العلماء بعدنا فيبحثوا فيما يصلح للأمة ومالا يصلح ، فينظموا التعليم على ما ينفع العباد .

وإنى قبل أن أغادر هذا المقام أذكر أن أحد الفضلاء أخبرنى أنه كان يخاف من خياله . فلما قرأ قصة عنتر أصبح شجاعا وصار لا يخشى من أعظم الأشياء وأهولها . ولما حضر إلى مصر الأستاذ (ادوارد براون) الانجليزى وسمع قصة عنترة تأسف وقال إن العوام عندكم خير منهم عندنا فإنهم يسمعون مكارم الأخلاق والشجاعة فى هذه القصة وهم يفهمونها فترقى أخلاقهم وعقولهم ثم أخذ قصيدة منها بالفونوغراف وأسمعنى صوته فكان عجيبا جدا وهى التى فيها هذا البيت .

إياك والفحشاء لاتنطق بها ... مادمت فى هزل الكلام وجده

هذا ما أردت ذكره فى هذا الكلام .

اللطيفة الثانية

اعلم أن الناس مفطورون على الاستطلاع والتشوق لمستقبل أمورهم وقد يعرفون بعض المستقبل برؤيا يرونها أو بعرّاف يجيبهم أو بزجر أوبفأل أو بضرب الحصى أو بالنظر فى الأكتاف أوفى الماء أو التنويم المغناطيسى أو بتحضير الأرواح .

تحقيق هذا المقام

اعلم أن الله عز وجل أقفل أبواب معرفة الغيب عن البشر ولم يرد ذلك إلا رحمة بهم وإسعادهم . ولو علم الناس الغيب لنزلوا إلى الحضيض ولكانوا أخسّ الخلوقين ، ذلك أن المرء لو اطلع على الغيب وأنه بعد عشرين سنة سيكون وزيراً أوغنيا أوعالما كبيرا لم يفكر يوما ما فى علم السياسة ولا فى جلب المال ولا فى قراءة العلم وإذن تضيع الحكمة وتذهب الحياة سدى وجهل الناس بالمستقبل هو الذى تكفل بإسعادهم لأنهم يجدّون وهم وجلون وذلك داع حثيث إلى إتقان العمل ولا نتيجة إلا بمقدمة والمقدمة لاوجود لها مع العلم بالمستقبل فعلم الناس الغيب أكبر ضرر عليهم وهم لايشعرون .

ناهيك بما يكون من اطلاع الناس بعضهم على ما فى قلوب بعض من الحسد والبغض والكراهة فكيف يعيش الناس فى صفاء وهم مطلعون على ذلك الجفاء والعداء والاستياء، لهذا منع الله الغيب، ولكن لما كان إقفال باب الغيب مرة واحدة يوجب اليأس من عالم أرقى من هذا العالم ووقع فى النفوس أنه لاروح ولاحياة بعد هذه الحياة أغاث الناس ببعض الرؤيا الصادقة وخصص أناسا بالاطلاع على بعض الحقائق واضحة كالأنبياء، وغير واضحة ممزوجة بالأباطيل كالعرّافين والرمالين والناظرين فى الكف وفى الحصى، والحاسبين فى علم الزايرجة. فهؤلاء كما حققنا يأتون بحقائق وأكاذيب، وهكذا الرؤيا فمنها الكاذب وهو الأكثر، ومنها الصادق وهو أندر من النادر كما فى رؤيا يوسف عليه السلام.

هل تصدق الأرواح فى إخبارها عند استحضارها

هذه القاعدة لايشذ عنها شئ. فاعلم أن الأرواح التى يحضرها الناس فى الشرق وفى الغرب تأتى بالصادق والكاذب. وبيانه أن الذى يستحضر الروح لأجله إذا كان طالبا مالا أوجاها أوعرضا دنيويا أعرضت عنه الأرواح العالية، واقتربت منه الأرواح الناقصة لمشاكلتها لطباعه فذكرت له مايناسب ذوقه وبشرته بمستقبل سعيد وعمر مديد ومنزل جديد وبالأبناء والعبيد، وإن كان الطالب مريداً الحكمة والعلم والحقائق ولم يكن محكوما عليه بالحرمان لذنب أصابه، أقبلت عليه الأرواح العالية وعلمته تعليما يناسبه، ولعمرى لا فرق بين عالم الأرواح وعالم الدنيا. فالعالم يضنّ بعلمه على من لايعقله، والناس أشكال فكل شكل يحنّ إلى شكله، ويألف قرينه، ويهوى أمثاله.

هذا، ولأفصل الكلام إلى مقامين: العرّافين فى التوراة وحقيقة الرؤيا.

العرّافون فى التوراة

لقد كان بنو إسرائيل مغرمين بالعرافة موصوفين بمحادثة الأرواح، ألا وإن أهل أمريكا وأوروبا الآن يشبهون اليهود قديما فى غرامهم بمحادثة الأرواح، وماما كان ليخطر ببالى أن بنى إسرائيل هكذا لولا مارأيته فى الإصحاح الثانى والعشرين من الملوك الأول من التوراة.

ذلك أن (يهوشافاط) ملك يهوذا نزل عند ملك إسرائيل. فقال الثانى لعبيده ألا تعلمون أن (أرض راموت جلعاد) هى أرضنا ونحن عنها ساهون لاهون فلنحارب لنرجعها لنا ثانيا ونأخذها من ملك (أرام) ثم التفت إلى (يهوشافاط) قائلا أتذهب معى للحرب فقال (يهوشافاط) شعبى كشعبك وخيلى كخيلك فقاتل أنا معك ثم قال لملك إسرائيل اسأل اليوم عن كلام الرب فجمع ملك إسرائيل الأنبياء (العرافين) نحو أربعمائة رجل واستشارهم فأشاروا عليه جميعاً بالتوجه للحرب لاسيما (صدقيا بن كنعنة) فانه صنع لنفسه قرنين من حديد وقال هكذا قال الرب بهذه تنطح الأراميين حتى يفنوا فقال (يهوشافاط) أما بقى من هؤلاء الكهنة أحد بعد؟ فقال ملك إسرائيل لم يبق إلا واحد وهو وحده لايتنبأ لى بخير وهو (ميخا بن يمله) فأمر باحضاره فسألوه فقال رأيت كل بنى إسرائيل مشتتين على الجبال كخراف لاراعى لها. فقال الرب: ليس لهؤلاء أصحاب فليرجعوا كل واحد إلى بيته بسلام، ولقد رأيت الرب جالسا على كرسيه وكل جند السماء وقوف لديه عن يمينه وعن يساره فقال الرب من يغوى (اخاب) فيصعد ويسقط فى راموت جلعاد فخرج الروح ووقف هكذا أمام الرب وقال أنا أغويه. قال له الرب بماذا؟ قال أخرج وأكون روح كذب فى أفواه أنبيائه (كهنته) فقال إنك تغويه وتقتدر فاخرج وافعل هكذا، والآن هوذا قد جعل الرب روح كذب فى أفواه جميع أنبيائك هؤلاء، والرب تكلم عليك بشر فعارضه (صدقيا) للتقدم ذكره فقال له (ميخا): سترى فى ذلك اليوم الذى تدخل فيه من مخدع إلى مخدع لتختبئ اه.

فحينئذ حبسوه وضيقوا عليه وصعد ملك اسرائيل ويهوشافاط ملك يهوذا إلى راموت جلعاد فاتفق أن

رجلا نزع فى قوسه غير متعمد وضرب ملك إسرائيل بين أوصال الدرع فقال لمدير مركبته ردّ يدك وأخرجنى من الجيش لأنى قد جرحت واشتد القتال وأوقف الملك فى مركبته مقابل (أرام) ومات عند المساء وجرى دم الجرح إلى حضن المركبة ودفنوا الملك فى السامرة اه .

هذه هى القصة التى لخصتها من الملوك الأول، ومنها تعلم أيها الذكى أن بنى إسرائيل قد شاع عندهم علم الكهانة والعرافة وكذلك تعبير الرؤيا .

حكمة وتبيان لجعل سورة يوسف بعد يونس وهود فى الترتيب

اعلم أن العالم الروحى والعالم الجسمى كل منهما فيه عوالم لا تتناهى بحسب نظرنا ، فبينا الإنسان الواحد منا نراه واحداً مفرداً نجده أن له ما لا يحصى من الكرات الدموية البيضاء والحمراء لا تقدر بمئات ملايين الملايين وهكذا أعضاؤه وعجائبها ، ثم إنا نرى النبات والحيوان لا تعد عجائبهما ولا تحصى وكلها خادمة للانسان فلننظر نظرة فى العالم الروحى فان آراءنا وأفكارنا متصلة بعوالم أكثر من العوالم المشاهدة ، ولعل أرواحنا تتصل بعوالم تناسبها ؛ ومن تلك العوالم ما نراه فى المنام ، ومنها ما جاء على ألسنة الأنبياء ، ومنها ما يجيء على ألسنة العرافين والكهنة وغيرهم ، وهؤلاء الذين ذكرناهم بعد الأنبياء يصدقون ويكذبون ، كما أنا نرى العوالم المحسوسة منها الضارّ ومنها النافع ونحن بين هذه العوالم نرى ونختبر ونميز ونرتقى فى تلك التجارب .

وياعجباً لقصة يوسف التى أنزلها الله لفتح هذه الأبواب العلمية ، ولتبين لنا كيف تكون البشارة للمؤمن فى هذه الحياة الدنيا فيما مرّ فى سورة يونس إذ قال تعالى : « لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » وورد فى الحديث : « إن البشرى فى الحياة الدنيا هى الرؤيا الصالحة يراها الرجل أوترى له » فهذه السورة أرتنا أن من الناس من يفتح لهم باب السعادة بحسب استعدادهم ويلهمون ذلك أويرونه فى المنام وهذه الرؤيا تكون بشرى كما بشر يوسف بما هو معلوم فنال ماراءه ، وكل من الرؤيا وكلام الكهنة فيه الصادق والكاذب .

ولقد ترى فى كلام (ميخا) المتقدم مايوهم خلاف جلال الله وجماله فاعلم أن هذا ليس أمراً مقدسا وإنما ذكرناه لتعلم على كل حال أن القوم كان لهم إلمام بالكهانة ، وإن لم يكن هذا الكلام موزونا بميزان الشرع فى التعبير .

الرؤيا الصادقة والرؤيا الكاذبة وتحقيق الكلام فى هذا المقام

اعلم أن الرؤى على أقسام :

[القسم الأول] ما نشأ من غلبة الدم الناجم من الإكثار من الأغذية الدموية الحارة الرطبة كالطبائخ الدسمة والحلواء فتهيج الطبيعة فتبخر فى الدماغ بخاراً حارا رطبا فيكون الصداع العظيم وفترة الحواس ، وقد تزداد فتحمر العين ويكون وجع الحلق وذات الجنب وورم الكبد والطحال والامعاء والأنثيين ويرى فى منامه الرعاف والاحتجام والدم والعمايين والرقاصين .

[القسم الثانى] ما نشأ من غلبة الصفراء الناجمة من الإكثار من الأغذية اليابسة كالعسل ولحم الكبش الحولى ونحو ذلك فتحترق الطبيعة من الجوف إلى الدماغ ببخار صفراوى غير معتدل فيكون صداع فى الرأس وشقيقة وقلة نوم وحرارة الحمى ، وقد يصفرّ اللون والعين ويكون الفم مرّا ، ويرى فى منامه النيران والشمس المحرقة والصواعق والحروب ولا يزال مغتما مهتما .

[القسم الثالث] الرؤيا الناشئة من البلغم الناجم من الإكثار من الأغذية الباردة الرطبة المولدة بخارا رطباً يوقع فترة فى الجسم ورخاوة فى المفاصل وكثرة الريق ولزوجته وبرد الجسم وقلة شهوة الطعام أول

النهار وقلة العطش وضعف المعدة وبياض البول وكثرة النوم والكسل والنسيان ، وأن يرى صاحبه فى نومه الأمطار والمياه والأودية والاغتسال والسباحة .

[القسم الرابع] الرؤى الناجمة من غلبة السوداء الناشئة من الاكثار من الأغذية السوداوية ، كالعدس والدخن ولحم البقر والباذنجان ، فيبتدئ المرض السوداوى بفترة فى البدن وشدة عطش وقلة نوم وقد يطغى المرض إذا لم يتدارك فيكون الجذام والجرب والحكة والفالج والسكتة وخفة الرأس والرعاف والتآليل والباسور والصرع والماليخوليا والقوبا والبهقة والسعال اليابس الخ . ويرى فى منامه الأهوال والمخاوف والخيالات والظلمة والأشياء السوداء المحرقة ويهرب من كل أحد ويرى الأموات ونحو ذلك ، وأكثر مايقع ذلك من أكل المالحة والحموضة والفول والعدس .

[القسم الخامس] أن تكون القوة المخيلة فى الدماغ مشغولة بصور واردة عليها من الحواس مخزونة فيها ؛ ومن خصائص هذه القوة العجيبة أنها تحلل تلك الصور وتركبها كأن تتخيل :

أعلام ياقوت نشر   ن على رماح من زبرجد

وكأن تتصور إنسانا مقطوع الرأس وهو لايزال حيا .

[القسم السادس] أن تحاكى القوة المتخيلة المذكورة ماغلب على النفس من منازعها الشهوية الطبيعية كشهوة الطعام وشهوة التزاوج والتناسل فإن تلك القوة تخترع الأعاجيب فى المنام ، فتقدم ألذ الطعام والشراب والأنس والأصحاب والأوانس والعادات مضاهاة ومحاكاة لما يحصل فى العيان .

[القسم السابع] أن تحاكى تلك القوة ما غلب على النفس قبل من القوة الغضبية والحمية والعصبية فتخترع له تلك القوة آلات القتال ودروعا ونصالا وسيوفا وحرابا لملاقاة الأبطال ومدافع لكفاح الأعداء فتجد ما كان فى النهار قوة كامنة فى النفس ظاهراً فى النوم عند تلك القوة تفتك بأقرانه وتجندل أعداءه ، وهو منصور فى المنام .

[القسم الثامن] أن يكون البدن هادئاً ساكنا لم تغلب عليه الصفراء ولا السوداء ولا الدم ولا البلغم ولا الشهوة البهيمية ولا القوة الغضبية ولم تزدحم معدته بالطعام فإن هذا ربما يرى فى منامه واردات من عالم العقل فترتسم تلك المعانى العالية الواردة عليه وتصور بصور المحسوسات ، وقد تكون بديعة جدا بهية المنظر ، وقد تكون تلك الواردة عليه أقوالا لطيفة ورموزاً لها معان إجمالية تخبر بأمر فى الحال أو الاستقبال ؛ فهذه هى الأقسام الثمانية التى لايخلو منها أومن بعضها أصحاب الرؤى من الناس .

واعلم أيها الذكى أن هذا القول ملخص ماذكره الفارابى فى علم النفس وملخص ماجاء فى علم الطب فى هذا المقام ، فهذا المقام أصوله فى فلسفة الفارابى ، وفى علم الطب قد فصلته لك تفصيلا ، ومزجته مزجاً جميلا وأبنته أيما تبيان ، وعلى ذلك تكون الأقسام السبعة وهى حال الصفراء والدم والبلغم والسوداء والصور الواردة من الحواس وغلبة القوة الغضبية والقوة الشهوية الرؤى فيها أضغاث أحلام لا تأويل لها وإنما هى نتيجة ماقام بالجسم من الأمزجة والأحوال .

فأما القسم الثامن فإن له ضروبا شتى وأحوالا مختلفة ، فمنها ما يكون واضح الدلالة ، ومنها ما يحتاج إلى تأويل ، وهذا هو الذى تكون منه الرؤيا الصادقة وهى نادرة فى النوع الإنسانى ، فأما أكثر الرؤى فانها أضغاث أحلام وهى تلك السبع ، والله يعلم ولكن أكثر الناس لايعلمون . وهذا خير ما اطلعت عليه مما ذكره أهل العلم فى الرؤى والأحلام . والحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله . هذا ماجاء فى الحكمة الموروثة .

الأحلام في العلم الحديث

واعلم أن أهل العلم في البلاد الشرقية كأبناء العرب بمصر وماجاورها قد نسوا علوم آبائهم وضرب بينهم وبين الماضي بسور لابابله؛ ولذلك تراهم يتبعون الأوروبيين إثباتا ونفياً . فلعلك تحب أن تقف على ماوصلوا إليه ، أقول لك قد جاء في بعض المجلات العلمية بمصر أثناء طبع هذا الكتاب هذه النبذة التي سأذكرها ، وأنا موقن أنك ستتعجب من أن مانقلوه عن الأوروبيين هو نفسه ماقاله الفارابي وعلماء الإسلام الذين علموه بقدر إمكانهم . أما هؤلاء فانهم ينتظرون سببا للرؤى من كلام الأوروبيين ولم يعلموا أنهم قالوا في كتب كثيرة مثل قول الفارابي ، ولله في خلقه شئون ، وقد آن أن أسمعك هذه النبذة ، وهي :

هل من علاقة بين الأحلام والحوادث ؟

نشرت إحدى المجلات العلمية فصلا حاولت أن تشرح به مسألة الأحلام وأن تثبت أن بينها وبين الحوادث التي تقع حولنا علاقة لايمكن إنكارها . وقد رأينا أن نورد فيا يلي خلاصة كلامها قالت :

يبذل العلماء منتهى الجهد للوقوف على كنه الأحلام وحلّ ألغازها ، ومع أن جهودهم في هذا السبيل ترجع إلى أقدم الأزمنة إلا أنهم لم يكترثوا للأمر اكتراثا جدّيا إلا منذ عهد قريب . وفي الواقع أن علماء نصف القرن الماضي لم يكونوا يعتقدون أن الأحلام جديرة بالبحث ، ولكن علماء هذا العصر ينظرون إلى المسألة نظرة أخرى ويجمعون الحقائق التي تعينهم على استجلاء هذا السر الغامض .

وهناك أمور ثابتة لاسبيل إلى إنكارها وفي مقدمتها أن حوادث كثيرة أشير إلى وقوعها أو أنبئ بها بواسطة الأحلام . وهناك أيضا ماثبت أن بعض الأحلام أوجدت في أصحابها قوة التنبؤ واستجلاء المستقبل مما لاسبيل معه إلى إهمال تلك الأحلام وعدم الاهتمام بها .

فمن أمثلة ذلك مارواه الدكتور (دى سرمين) وهو أنه حلم ذات ليلة أن ولده الذي كان يحبه محبة فائقة وقع في نار ملتهبة واحترق وكان الحلم واضحا جدا حتى انزعج الدكتور فنهض من نومه مذعوراً وذهب إلى حيث كان ولده مستغرقا في ثبات هنيء . وفي اليوم التالي ظلّ تأثير الحلم عالقا في به حتى إنه أخذ يراقب ولده كمن يحاول أن يردّ عنه الشر ثم يفحص جسمه بكل دقة فوجده صحيح البنية لايشكو علة ولكن الولد أصيب في اليوم الذي بعده بالتهاب الرئة الحادّ وتوفي بعد بضعة أيام فهل كان حلم الدكتور (دى سرمين) من قبيل الاتفاق ، أم كان بينه وبين وفاة الولد علاقة ما ؟.

ومن هذا القبيل ماوقع لسيدة عجوز من أهالي مدينة (فيلادلفيا) بأمريكا منذ سبع سنوات فإنها حلمت ذات يوم بأن ابنها (وهو رجل كهل) سقط بين عجلات الترامواي وقتل فنهضت السيدة من نومها مذعورة ولما علمت أن مارأته لم يكن سوى حلم عادت فنامت ثانية ولكنها حلمت مرة أخرى بأن الترامواي قد قتل ابنها وكان الحلم جليا جدا حتى إنها ركبت القطار في صباح اليوم التالي وذهبت إلى (نيويورك) حيث كان ابنها يسكن وما كادت تخرج من محطة (نيويورك) وتجتاز أحد الشوارع حتى أبصرت جمهوراً من الناس مجتمعين حول رجل ميت قد دهمه الترامواي ، وكان ذلك الرجل هو ابنها وهو المستر (ولم كوبر) من كبار أغنياء الأمريكيين وقد شهد الكثيرون بصحة مارونه السيدة لأنها أطلعت الكثيرين على حلمها قبل أن تسافر من (فيلادلفيا) إلى (نيويورك) ومن جملة الذين شهدوا بذلك العلامة (كاميل فلامريون) .

وهناك أيضا أحلام تنبئ بوقوع حوادث تافهة . فمن ذلك أن فتاة ارلندية حلمت ذات ليلة بأنها واقفة في إحدى مركبات السكة الحديدية وحولها أصدقاؤها وما كاد القطار يقوم حتى شعرت بأن يدا قذفت إليها

رزمة ففتحتها وإذا بها قطعة من الصابون وأخرى من البسكويت وأرادت أن ترى ماق بقية الرزمة ، ولكن القطار دخل فى تلك اللحظة نفقا مظلما ثم استيقظت .

قصت الفتاة هذا الحلم على أمها وجمهور من صديقاتها كن مجتمعات حولها ، وبعد ثلاثة أشهر كانت مسافرة بأحد القطارات الاسكتلندية فوقع لها مارأته فى الحلم تماما .

وروى (شوبنهاور) الفيلسوف الألمانى العظيم أنه قلب ذات يوم دواة الحبر فى مكتبه فدق الجرس واستدعى خادمته لكى تنظف المكان ، فلما حضرت قالت له إنها كانت قد حلمت بذلك الحادث تماما فى الليلة الماضية فلم يصدقها الفيلسوف بل ظن أنها تهزأ به فاستدعت الخادمة خادمة أخرى كانت قد قصت عليها حلمها واستشهدت بها على صدق كلامها فصدقها (شوبنهاور) .

ترى مامعنى هذه الأحلام وكيف تعلل وقوعها ، وهل هى من قبيل الاتفاق أو بينها وبين الحوادث التى تقع حولنا علاقة ما ؟ إن الكثيرين من العلماء يعتقدون اليوم أن فى الإمكان الإنباء بالمستقبل بواسطة الأحلام .

يروى عن (ادوين ريد) العالم الطبيعى الشهير أنه حلم ذات يوم أنه كان سائرا فى أحد الشوارع فأبصر صليبا من الصلبان التى يضعها المسيحيون على قبورهم وينقشون عليها تاريخ أمواتهم ورأى على ذلك الصليب اسمه منقوشا كما يلى (ادوين ريد توفى فى ٧ نوفبر سنة ١٩١٠) .

وقد روى هذا العالم حلمه لجمهور من أصدقائه وهو يضحك ، وفى ٧ نوفبر سنة ١٩١٠ توفى فهل كان من قبيل الاتفاق ، وهل ثمة شك فى أنه كان من قبيل الإنباء أو التحذير ؟ ثم إن من الأحلام ماهو بمنزلة تحذير من مصيبة مقبلة ، ومن هذا القبيل أن ضابطا أمريكيا يدعى الكابتن (مكجون) قد عزم ذات يوم أن يذهب هو وولداه إلى مسرح (بروكلين) بنيويورك فطلب من إدارة المسرح أن تحجز له ثلاثة أماكن ، وفى الليلة السابقة لذهابه إلى المسرح حلم أن نارا عظيمة قد شبت والتهمت المسرح فهلك ثمانمائة نفس وكان الحلم جليا جدا حتى إن الرجل هب من نومه مذعورا وفرائصه ترتعد ، وفى صباح اليوم التالى أخبر إدارة المسرح بأنه قد عدل عن الذهاب هو وولداه ، وفى تلك الليلة عينها شبت نار هائلة التهمت المسرح كله وهلك بالنار ثمانمائة نفس بين رجال ونساء ، وقد فحص كثيرون من العلماء حكاية هذا الحلم فشهدوا بصحته وفى مقدمتهم الأستاذ (السر وليم بارت) العالم الإنجليزى الشهير .

ومن الناس من قد استفاد من الأحلام فربح جوائز الياناصيب أو الرهن على الجياد الفائزة فى ميادين السباق ، والحوادث التى من هذا القبيل كثيرة متعددة ولكن لايصعب إرجاع معظمها إلى مبدأ الاتفاق الذى تسميه العامة المصادفة إلا إذا حلم المرء أن الرقم الفلانى من أوراق الياناصيب ربح الجائزة الكبرى ، وفى الواقع ربح ذلك الرقم الجائزة فإن الربح فى هذه الحالة لايمكن إرجاعه إلى ناموس الاتفاق ، بل يجب تعليله على وجه آخر ، إن العلماء يواصلون البحث لمعرفة أسرار الأحلام والوصول إلى تعليلها تعليلا علميا صحيحا ولابد أن ينتهوا إلى حل يحسن السكوت عليه فيثبتوا أن الأحلام ليست مجرد مشاهد تعرض النائم بلا سبب منطقى ، بل إن بينها وبين الحوادث علاقة لاسبيل إلى إنكارها اه .

هذا هو الذى ينقله المتطفلون فى بلادنا وهم أنفسهم يسمعون فى منازلهم ومن أصحابهم بمصر وغيرها أمثال هذا كثيرا ولا يعيرونه التفاتا ولا بحثا حتى إذا سمعوه من أهل أوروبا كتبوه ، هذا هو الجهل واحتقار النفس وسيأتى يوم يعرف فيه الشرق أن له أحلاما وأن له عقلا وأنه يفكر ويفهم مافى نفسه وما حوله اه .

اللطيفة الثالثة فى الحسد وأسبابه

اعلم أن الحسد لايكون إلا بين المتشاركين فى حال كالجار والصهر والقريب والمشارك لك فى صناعة

وتجارة

وتجارة أو زراعة أو إمارة أو علم أو سن أو للقيم معك فى مدرسة أو منزل أو شارع . وكلما ارتفع صيت الإنسان حسده من يشاركه فى ذلك الصيت ، وترى العالم لا يود أن يشاركه فى ذلك المجد أحد ، ويزداد الحسد كلما ازداد الصيت وحسن الذكر ، وهذه الخصلة إنما أوجدت فى الإنسان لطلب المجد والرفعة وعلو الشأن وليسابق الإنسان غيره فى المفاخر والفضائل والمجد فتربو الأحوال ويكثر العمل ويزداد العمران ، ومامن خصلة تخلق فى الناس إلا ولها فوائدمنافعه ، ومنفعة هذه الغريزة ماذكرناه فيجارى الرجل غيره ويريدمسابقته وهذه تسمى (الغبطة) وهى محمودة ، فأما أن الإنسان يسعى لإزالة الفضل عن المحسود فهذا هو المذموم ، ويظهر أن هذه الأرض من العوالم المنحطة لأن الذين يسكنونها لاينالون الفضائل إلا مقرونة بما يؤذى ويؤلم وهل فى العوالم من هو أصفى وأنق وأرقى ؟ ولعل أهل الأرض يوماما يصلون إلى هذا المقام ، وإذا كنا نرى الأغذية فما تقدم لها أثر فى أحوال الرؤيا والصور التى تتخيلها فى منامنا ، وهكذا يقول علماء الحيوان : إن الحيات السامة لاتسكون إلا حيث يكون العشب فاسدا والمستنقعات عفنة ، فأما الحيات التى لاسم لها فإنها أكثر من التى لها سم وتبلغ ثلثمائة نوع وهى ثلاثة أضعاف التى لهاسم ، وما السم إلا من آثار الغذاء السيء والأعشاب النابتة فى المواضع المستوخمة فالسم إذن نتيجة الأغذية ، فهكذا نقول إن أرضنا طبعها هو الذى نحن عليه : أى إن طينتها ومناخها لايحوى إلا أناسا هذه حالهم تخلق فيهم الفضائل تكتنفها الرذائل كما يكتنف المرض الأغذية فتحدث فينا صحة يتلوها مرض فموت ، هذا طبع أرضنا فالحسد فينا وغيره من طبائع هذا العالم والعلم يلطفه ويهذبه ، فالدين والفلسفة وجدا فى الأرض ليلطفا من طباع الناس كما لطفت حرارة الشمس كل ما على الأرض وأثرت فيه ونما كل حيوان ونبات ، فنسبة العلوم والديانات إلى غرائزنا كنسبة ضوء الكواكب إلى المخلوقات الأرضية .

هذا هو المقصود من ذكر حسد بنى يعقوب ليوسف عليه السلام فى هذه السورة ، انتهى الكلام على القسم الأول ولطائفه .

(القسمُ الثانى)

إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ * قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ * قَالُوا يَا أَبَانَا مَالَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ * أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ * قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ * قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ * فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ * قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ

كُنَّا صَادِقِينَ * وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ * وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَٰذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ * وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ *

التفسير اللفظي

قال تعالى (إذ قالوا ليوسف وأخوه) اللام لام القسم : أى والله ليوسف وأخوه بنيامين وهما من أم واحدة وهى راحيل (أحبّ إلى أبينا منا) إنما وحد أفعل لأنه إذا لم يكن فيه أل ولم يكن مضافا لايفرق فيه بين الواحد وغيره ولابين المذكر والمؤنث والحال أننا (عصبة) جماعة أقوياء فنحن أحق بالمحبة من صغيرين لا كفاية فيهما ، والعصبة والعصابة: العشرة فصاعدا ، وسموا بذلك لأن الأمور تعصب بهم (إن أبانا لفى ضلال مبين) غلط بين فى تدبير أمر الدنيا .

وكيف يؤثر حبّ يوسف علينا مع صغره وعدم نفعه ، ونحن عصبة نقوم بمصالحه من أمر دنياه وإصلاح مواشيه ! وكيف يترك محبة من هم أكبر سنا وأكثر عددا وأشد بأسا وقوة ومنفعة ، وفاتهم ماقاله بعض فصحاء العرب لكسرى لما سأله : أىّ بنيك أحبّ إليك ؟ قال الصغير حتى يكبر ، والغائب حتى يئوب والمريض حتى يبرأ ، ويوسف كان صغيرا ، وفوق ذلك كانت تظهر عليه مخايل النجابة والذكاء وقوّى ذلك الرؤيا العجيبة الدالة على مستقبل باهر .

ثم إن أفعال إخوة يوسف كانت قبل أن يوحى إليهم فيكونوا أنبياء والعصمة للأنبياء بعد النبوّة وثبوتها وإلا فالحسد من الكبائر وخطاب الأب بمثل ماتقدم عقوق ، وكل ذلك قبل النبوة التى ثبتت لهم فيما بعد (اقتلوا يوسف) هذا من جملة ما قالوه كأنهم اتفقوا على ذلك إلا من قال « لاتقتلوا يوسف » (أو اطرحوه أرضا) منكورة مهجورة بعيدة عن العمران وهو معنى تنكيرها ولذلك نصبت كالظروف المبهمة (يخل لكم وجه أبيكم) يقبل عليكم إقبالة واحدة لايلتفت عنكم إلى غيركم ، والمراد بالوجه الذات فلا يشغله عنكم شاغل فى محبة ، وقوله « يخل » جواب الأمر وعطف عليه قوله (وتكونوا من بعده) من بعد يوسف والفراغ من أمره أوقتله أوطرحه (قوما صالحين) مع أبيكم يصلح مابينكم وبينه بعذر تمهدونه أو صالحين فى أمر دنيا كم فانه ينتظم لكم بخلوّ وجه أبيكم (قال قائل منهم) وهو يهوذا كما قيل وهو أحسنهم رأيا (لاتقتلوا يوسف) فما أعظم أمر القتل (وألقوه فى غيابة الجب) أى قعره سمى به لغيبوبته عن العيون ، والجبّ البئر الكبيرة التى لم تطو، وسمى بذلك لأنه جب أى قطع ولم يطو . وفى موضع هذا البئر خلاف لافائدة فى ذكره (يلتقطه بعض السيارة) يرفعه بعض الذين يسيرون فى الأرض (إن كنتم فاعلين) به شيئا أو فاعلين بمشورتى (قالوا)وقد عرفوا أن أباهم أحسّ منهم بما أوجب ألا يأمنهم عليه (ياأبانا مالك لاتأمنا على يوسف) اى لم تخافنا عليه ونحن نريد له الخير ونشفق عليه، وهذا قوله (وإنا له لناصحون) يريدون بذلك استنزاله عن رأيه فى حفظه منهم، ثم رغبوه بما فصلوه بقولهم (أرسله معنا غدا يرتع) يتسع فى أكل الفواكه ونحوها ، من الرتعة وهى الخصب والسعة (ويلعب) بالاستباق والانتضال والصيد والركض (وإنا له لحافظون) من أن يناله أذى (قال إنى ليحزننى أن تذهبوا به) أى ذهابكم به لشدة مفارقته وقلة صبرى عنه (وأخاف أن يأكله

الذئب وأنتم عنه غافلون) لأنه رأى فى المنام أن الذئب قد شدّ على يوسف والأرض كانت مذأبة (قالوا) والله (لئن أكله الذئب) والحال أننا عصبة : فرقة مجتمعة مقتدرة على الدفع (إنا إذا لخاسرون) ضعفاء وكيف نحفظ مواشينا من الذئب إذا أكل أخانا وأى خسارة أكبر من هذه ؟ وهذه الجملة جواب القسم أجزأت عن جواب الشرط ، ثم إنه أرسله معهم (فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابة الجب) أى عزموا على إلقائه فى أسفل الجب ، وهذه البئر كانت على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب . وجواب لما محذوف تقديره أقدموا على فعلهم ، وقد اتفقت رواية أكثر المفسرين أنهم لما برزوا البرّية أظهروا له العداوة وضربوه وكادوا يقتلونه فمنعهم يهوذا فلما أرادوا إلقاءه فى الجب تعلق بثيابهم فنزعوها من يده فتعلق بحائط البئر فربطوا يديه ونزعوا قميصه ليلطخوه بالدم فيحتالوا به على أبيهم وأدلوه فى البئر وكان فيها ماء فسقط فيه ثم آوى إلى صخرة فقام عليها وهو يبكى ، وكان يهوذا يأتيه بالطعام والشراب ، وقد أطال بعضهم ، وبعضهم اختصر . ونحن لانصدّق إلا ماجاء به القرآن أوثبت بالسنة الصحيحة فان ثبت بها قبلها وإلا فلا ، ثم إنه لما آوى إلى الصخرة فى غيابة الجب بكى فجاءه جبريل عليه السلام بالوحى كما قال تعالى (وأوحينا إليه) أى ألهمناه كما فى قوله تعالى ـ وأوحينا إلى أم موسى ـ (لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لايشعرون) فألهم الله يوسف لتخبرنّ إخوتك بصنيعهم هذا بعد هذا اليوم وهم لايشعرون بأنك أنت يوسف لعلوّ شأنك ، والقصد من هذا الإلهام تقوية قلب يوسف عليه الصلاة والسلام ، وأنه سيخلص مما هو فيه من المحنة ويصير مستولياً عليهم ، ويصيرون تحت أمره وقهره .

واعلم أنه لولا مايحس به عظماء الرجال فى نفوسهم من عزيمة صادقة وآمال قوية وأحاديث نفسية توقع الأمل فى قلوبهم مابلغوا مقاصدهم ولانالوا مآربهم ، ومستحيل أن يقوم عظيم بأمر عظيم إلا بآمال نصب عينيه يرمى إليها وهواجس تقوم بنفسه تسليه على مصائبه وتشدد عزائمه وتقوّى رغائبه ، وإلا فلا أعمال ولاعظماء وليس ذلك لهم وحيا ، وإنما هو خواطر تسليهم ، والقلب مهبط التجلى الإلهى ـ والله من ورائهم محيط ـ ثم قال تعالى (وجاءوا أباهم عشاء يبكون) يقول الله جاءوا أباهم آخر النهار بعد ماطرحوا يوسف فى الجب مجترئين على الاعتذار الكاذب ، وكان ذلك البكاء حين قربوا من منزل يعقوب وهم يصرخون فسمع أصواتهم ففزع من ذلك وخرج إليهم فلما رآهم قال بالله سألتكم يابنىّ هل أصابكم شىء فى غنمكم قالوا لا قال فما أصابكم وأين يوسف ؟ (قالوا ياأبانا إنا ذهبنا نستبق) أى نتسابق فى العدو أوفى الرمى (وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا) وقوله ـ بمؤمن ـ أى مصدّق لنا (ولو كنا صادقين) لسوء ظنك بنا وفرط محبتك ليوسف ، وقوله (بدم كذب) وصف بالمصدر مبالغة كأنه نفس الكذب وعينه كما يقال الكذاب هو الكذب بعينه والزور بذاته . روى أنهم ذبحوا سخلة ولطخوا القميص بدمها وغاب عنهم أن يشقوه ، فقال يعقوب كيف أكله الذئب ولم يشق قميصه فاتهمهم بذلك (قال) يعقوب (بل سوّلت) زينت أوسهلت (لكم أنفسكم أمرا) عظيما ارتكبتموه (فصبر جميل) أى فأمرى صبر جميل ، أو فصبر جميل أجمل وهو مالاشكوى فيه إلى الخلق (والله المستعان) أستعينه (على) احتمال (ماتصفون) من هلاك يوسف (وجاءت سيارة) رفقة يسيرون من مدين إلى مصر فنزلوا قريبا من الجب بعد ثلاثة أيام من إلقائه فيه (فأرسلوا واردهم) الذى يتقدم الرفقة إلى الماء فيهيىء الأرشية والدلاء . يقال أدليت الدلو إذا أرسلتها فى البئر ودلوتها إذا أخرجتها فتعلق يوسف عليه السلام بالحبال وكان أحسن مايكون من الغلمان . وروى أنه أعطى شطر الحسن وهذا قوله (فأدلى دلوه قال يابشرى هذا غلام) نادى البشرى أى هذا أوانك فاحضرى كأن يقول لأصحابه أبشروا . وفى قراءة ـ يابشراى ـ (هذا غلام) صاح بذلك لما دنا من أصحابه يبشرهم به

(وأسرّوه) أى أخفى الوارد وأصحابه أمر يوسف عن بقية الرفقة وقالوا لهم دفعه إلينا أهل الماء لنبيعه لهم بمصر وذلك خيفة أن يطلبوا منهم الشركة فيه بل يختص به الوارد وأصحابه دون بقية السيارة . وقيل إن يهوذا كان يأتى يوسف بالطعام كل يوم فأتاه يومئذ فلم يجده فأخبر إخوته فأتوا الرفقة وقالوا هذا غلامنا آبق منا فاشتروه فسكت يوسف مخافة أن يقتلوه ، وقوله (بضاعة) حال أى أخفوه حال كونه متاعا للتجارة . والبضاعة : مابضع : أى قطع من المال للتجارة (والله عليم بما يعملون) أى لم يخف عليه أسرار السيارة أو صنيع إخوة يوسف بأبيهم فيجعل ذلك سببا لتحقيق رؤياه حتى يصير له مجد فى مصر (وشروه) يطلق شرى على البيع والشراء وكلاهما يصح هنا فيقال وباع يوسف إخوته (بثمن بخس) مبخوس ناقص عن القيمة نقصا فاحشا (دراهم) بدل من ثمن (معدودة) قليلة تعد عدا ولا توزن وزنا لأنهم كانوا يعدون مادون الأربعين ويزنون الأربعين وما فوقها وكانت عشرين درهما (وكانوا فيه من الزاهدين) ممن يرغب عما فى يده فيبيعه بالثمن الطفيف . هذا إذا جعلنا شرى بمعنى باع ، ويصح أن يقال وشروه أى اشتراه الرفقة من إخوته وكانوا غير راغبين فيه لأنهم اعتقدوا أنه آبق . انتهى القسم الثانى من السورة .

(القِسمُ الثَّالِثُ)

وَقَالَ الَّذِى اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِى مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ * وَرَاوَدَتْهُ الَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ، قَالَ مَعَاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّى أَحْسَنَ مَثْوَاىَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ * وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ، وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ * وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالَ هِىَ رَاوَدَتْنِى عَنْ نَفْسِى وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ * يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِى لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ * وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ * فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ

لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ * قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ *

التفسير اللفظي

قال أصحاب الأخبار إن الذى اشترى يوسف من إخوته بعد أن أخرجه من الجب هو مالك بن ذعر وأصحابه الذين أخفوا أمره عن بقية السيارة ؛ ولما اشتروه انطلقوا به إلى مصر وتبعهم إخوته يقولون استوثقوا منه لايأبق منكم فذهبوا به حتى قدموا مصر فعرضه مالك على البيع فاشتراه قطفير وهو صاحب أمر الملك وكان على خزائن مصر وكان يسمى العزيز . ويقال إن يوسف كان ابن ثلاث عشرة سنة أو (١٧) سنة ، ويقول أهل الأخبار إن الملك كان يسمى (الريان بن الوليد) ولبث يوسف فى منزل العزيز ثلاث عشرة سنة واستوزره الريان وهو ابن ثلاثين على الرأى الثانى ، وأعطى العلم والحكمة وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة وتوفى وهو ابن (١٢٠) سنة . وأما ثمنه فقيل إنه بيع بوزنه ذهبا ووزنه فضة ووزنه مسكا وحريرا ، وقيل لا بل هو عشرون ديناراً وزوجا نعل وثوبان أبيضان ، وهذه أمور لادليل عليها ألبتة . قال تعالى (وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته) المسماة زليخا أوراعيل (أكرمى مثواه) اجعلى مقامه عندنا كريما أى حسنا أى أحسنى تعهده (عسى أن ينفعنا) فى ضياعنا وأموالنا ونستظهر به فى مصالحنا (أو نتخذه ولدا) نتبناه وكان عقيما وقد تفرس فيه الرشد . يقول العلماء : [أفرس الناس ثلاثة : عزيز مصر ، وابنة شعيب التى قالت « يا أبت استأجره » وأبو بكر حين استخلف عمر] . يقول الله وكما مكنا محبته فى قلب العزيز مكناه فى المنزلة بعد أن أنجيناه من الهلاك بكيد إخوته (وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض) أى أرض مصر وجعلناه ملكا ليتصرف فيها بالعدل (ولنعلمه من تأويل الأحاديث) فهذا التمكين لنتيجتين :

(١) أن يقيم العدل ويدبر أمور الناس .

(٢) وأن يعلم معانى كتب الله وأحكامه وتعبير المنامات المنبئة على الحوادث الكائنة ليستعد لها ويشتغل بتدبيرها قبل أن تحل كما فعل بغلات مصر فى السنين السبع الآتى ذكرها وذلك بتأويل الرؤيا واستطلاع الأمور قبل حلولها والاستعداد التام (والله غالب على أمره) لا يرده شىء فى أمر يوسف وغيره وقد أراد إخوة يوسف أمراً ودبر الله غيره فغلبهم « ومكروا مكراً ومكرنا مكرا وهم لايشعرون » (ولكن أكثر الناس لايعلمون) لطائف صنعه وخفايا لطفه ، وأن الشر الظاهر قد يكمن فيه الخير الكثير كما حصل ليوسف فى الجب وأن الخير والنصر الظاهرى قد يكون وراءه الندامة والحسرة كما نصر إخوة يوسف عليه السلام ورموه فى الجب ، ثم انتهى الأمر بأن صار سيدهم وأن مافعلوه به كان من أسباب ارتقائه (ولما بلغ أشده) منتهى استعداد قوته وهو سن الوقوف ما بين الثلاثين والأربعين أو ثمان عشرة سنة أو إحدى وعشرون أقوال لاطائل فى تحقيقها فلندعها (آتيناه حكما) حكمة وهو العلم مع العمل أو حكما بين الناس (وعلما) أى علم تأويل الأحاديث (وكذلك نجزى المحسنين) أى وكما جزينا يوسف على إحسانه فى عمله وتقواه فى عنفوان شبابه نجزى المحسنين فنتمم لهم أمورهم ونؤتيهم مايستحقون من الكمال ، ثم أخذ يذكر بعض الإحسان الذى نشأ عنه أنه جوزى بأنه أوتى حكما وعلماً فقال (وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه) طلبت منه أن يفعل

للعصية معها، من راد يرود إذا جاء وذهب لطلب شيء، ومنه الرائد والمراودة مفاعلة وفى ذكر الاسم الموصول وتبيان أن يوسف فى بيتها ثم تغليق الأبواب واستعدادها له إعلاء لشأن يوسف ومقام عظيم فى البلاغة فى هذه الآية لأن ذكر الاسم فضيحة وكونه فى بيتها أدعى إلى موافقتها وتغليق الأبواب كل ذلك داع إلى الموافقة لأن المستتر لاسيما مع من يملك أمره يفعل ما لايفعله الذى استبان فعله وظهر أمره وانكشف حاله ، وقد راوده من لايملك له أمرا ولايملك له نفعا ولاضرّا ، فالعفة مع هذه الأحوال أرقى ماوصل إليه الأخيار وهذا هو قوله تعالى (وغلقت الأبواب) السبعة على ماقيل والتشديد مبالغة فى الاستيثاق (وقالت هيت لك) أى أقبل وبادر أوتهيأت وهى اسم فعل مبنى على الفتح أوعلى الكسر أو على الضم قراآت واللام فى « لك » للتبيين كقولك سقيا لك ، ومنهم من قرأها « هيت » بالفتح وكسر الهاء وهئت لك بجئت من هاء يهيء إذا تهيأ، ومعانى اسم الفعل المتقدم لايغيرها ضم ولافتح ولا كسر لأن هذه فتحات البناء ، فالمعنى إما تهيأت وإما بادر فى جميع تلك اللغات (قال معاذ الله) أعوذ بالله معاذا (إنه) أى الشأن (ربى أحسن مثواى) سيدى قطفير أحسن تعهدى إذ قال لك « أكرمى مثواه » فما جزاؤه أن أخونه فى أهله ، ويصح أن يكون الضمير لله أى إنه خالقى وأحسن منزلتى بأن عطف علىّ قلب العزيز فلا أعصيه تعالى والأول أقرب (إنه لايفلح الظالمون) المجازون الحسن بالسيء (ولقد همت به) قصدت مخالطته ، والهمّ بالشيء قصده والعزم عليه (وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربه) حكى أبوحاتم عن أبى عبيدة أن يوسف عليه الصلاة والسلام لم يهم وأن الكلام فيه تقديم وتأخير أى ولقد همت به ولولا أن رأى برهان ربه لهمّ بها ، أقول وهذا المعنى هو الموافق لمساق الآية . ألا ترى أنه « قال معاذ الله إنه ربى أحسن مثواى » وهذا نفسه هو البرهان من ربه ، وفى التعبير بلفظ الرب نكتة لطيفة ، وأىّ برهان أعظم من هذه الفضيلة ، وهى أن الإنسان يجب أن يحفظ نعمة المربى والسيد سواء أكان خالقا أم مخلوقا فهذا هو البرهان وهذه صورته هذا ربى أحسن مثواى وكل من أحسن إلى إنسان وجب عليه تكبيره فتكون النتيجة هكذا :

هذا العزيز يجب شكر نعمته ولاشكر لمن خان سيده ، فهذا برهان منطقى دينى حسن . فالبرهان فى الآية مذكور فكيف كثر فيه الاختلاف ولا حاجة إلى الإطالة فى هذا المقام كأن يقال إنه رأى صورة يعقوب ينهاه أوأنه رأى معصما بلا عضد وعليه مكتوب مايفيد تحريم الزنا ، أو أن البرهان هو النبوة ، فقد علمت أنه لاحاجة إليه بعد وضوح الآيات . وتعجب كيف عبر بلفظ « رب » فى الأول ثم قال « برهان ربه » والمعرفة إذا أعيدت معرفة كانت عين الأول فالرب الأول سيده والرب الثانى هو عينه كأنه يقول : لولا أن رأى برهان احترام سيده وحفظ حقوقه لهمّ بها ، وهذا التفسير يعضده ماسبق ذكره وماسيأتى ، وذلك أن كل من له تعلق بهذه الواقعة شهد ليوسف بالبراءة المرأة وزوجها والنسوة اللاتى قطعن أيديهنّ وذلك الحكيم قريبها الذى شهد على القميص والله أيضا شهد ببراءته من الذنب ويوسف برأ نفسه ، أما المرأة فإنها قالت « ولقد راودته عن نفسه فاستعصم » وقالت « الآن حصحص الحق » إلى قوله « إنك كنت من الخاطئين » . وأما الشاهد فهو ماقال الله « وشهد شاهد من أهلها » وأما الله فقد قال « كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين » وأىّ إخلاص لمن همّ بالمرأة ، وأما هو نفسه فإنه قال « هى راودتنى عن نفسى » انتهى .

ثم قال الله تعالى مثل ذلك التثبيت ثبتناه (لنصرف عنه السوء) الخيانة (والفحشاء) الزنا (إنه من عبادنا المخلصين) الذين أخلصناهم لطاعتنا (واستبقا الباب) أى تسابقا إلى الباب فحذف الجار أو ضمن الفعل معنى الابتدار أى ابتدر الباب ، فأما يوسف فقد فرّ منها ليخرج ، وأما هى فأسرعت وراءه لتمنعه الخروج واجتذبته من ورائه فاقدّ قميصه ، والقدّ الشقّ طولا ، والقط الشقّ عرضا وهذا قوله تعالى (وقدّت قميصه

من

من دبر) وقوله (وألفيا سيدها) أى وصادفا زوجها (لدى الباب قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن أو عذاب أليم) فهى بذلك ضربت طيرين بحجر واحد ، فهى من جهة تبرئ نفسها ومن جهة تخيف يوسف حتى يطاوعها فلا تفترى عليه بعد ذلك وما نافية أو استفهامية أى أى شىء جزاؤه إلا السجن (قال هى راودتنى عن نفسى) طالبتنى بالمؤاتاة (وشهد شاهد من أهلها) وهو قريب لها كان حكيما عاقلا والشهادة على لسان حكيم من أهلها ألزم ، والمعنى وحكم حاكم من أهلها فقال : (إن كان قميصه قدّ من قبل) أى من قدّام (فصدقت وهو من الكاذبين) لأنه يدل على أنها قدّت قميصه من قدّام بالدفع عن نفسها (وإن كان قميصه قدّ من دبر فكذبت وهو من الصادقين) لأنه يدل على أنها تبعته فاجتذبت ثوبه فقدّته (فلما رأى) قطفير أو الشاهد (قميصه قدّ من دبر) وعلم براءة يوسف وصدقه وكذبها (قال إنه من كيدكن) أى من قولك « ماجزاء من أراد باهلك سوءا الخ » وكذلك الاحتيال على الرجال (إن كيدكن) معاشر النساء (عظيم) لأنهنّ ألطف حيلة وأعظم كيدا فيغلبن الرجال . قال بعض العلماء [إنى أخاف من النساء أكثر مما أخاف من الشيطان لأن الله تعالى قال « إن كيدكنّ عظيم » وقال « إن كيد الشيطان كان ضعيفا »] . وقال الحسن وعكرمة وقتادة ومجاهد إن هذا الشاهد لم يكن صبيا بل كان رجلا حكيما . وحكى أيضا أنه ابن عم المرأة وهذا الرأى وجيه فهو أولى من ذكر أنه صبى (يوسف أعرض عن هذا) أى يا يوسف اترك هذا الحديث ولا تذكره لئلا يفشو بين الناس أو لاتكترث بهذا الأمر . ثم التفت إلى المرأة وقال (واستغفرى لذنبك) يا راعيل (إنك كنت من الخاطئين) من القوم المذنبين من خطئ إذا أذنب متعمدا وفيه تغليب الذكر على المؤنث وخطؤها بخيانة زوجها ورميها يوسف بالتهمة وهو برىء . وفى هذا دليل على أن العزيز حليم قليل الغيرة إذ لم يزد على ذلك مع امرأته ولذلك كثرت الاشاعة حتى اتهمها نساء المدينة بأنها راودته عن نفسه (وقال نسوة) اسم لجمع امرأة ولم يؤنث فعله لأنه بهذا الاعتبار تأنيث غير حقيقى : أى أشاع جماعة من النساء وكنّ خمسا من أشراف مصر فى مدينة [عين شمس] التى كانت عامرة إذ ذاك (امرأة العزيز) زليخا (تراود فتاها عن نفسه) أى عبدها الكنعانى ، والفتى معناه الشاب حديث السن (قد شغفها) أى شق شغاف قلبها وهو حجابه حتى وصل إلى فؤادها ، أو شعفها من شعف البعير بالقطران فأحرقه (إنا لنراها فى ضلال مبين) فى خطأ بين ظاهر (فلما سمعت بمكرهن) وسمى مكرا لأنها أفشت إليهنّ أمرها واستكتمتهنّ سرّها فأفشينه عليها (أرسلت إليهنّ) تدعوهنّ ، وقيل كانوا نحو أربعين (وأعتدت لهنّ متكأ) وهيأت لهنّ مايتكئن عليه من نمارق ومساند ويطلق المتكأ على نفس الطعام فان كل من دعوته ليطعم عندك فقد أعددت له وسائد يجلس ويتكئ عليها فيكون الطعام متكأ على سبيل المجاز ، وسواء أكان المتكأ هو ما يتكأ عليه عند الطعام أو الشراب أو نفس الطعام فان المآل واحد وإن امرأة العزيز أعدّت لهنّ الطعام وفيه اللحم طبعا والفاكهة (وآتت كل واحدة منهنّ سكينا) كما هى العادة المتبعة الآن فى الطبقة العليا فى مصر وفى المدارس تقليدا للأوروبيين وانتظاما فى سلك المتمدينين الناقلين لها عن قدمائنا العربيين فان للواحد اليوم عند هؤلاء لابدّ فيها من سكين لقطع اللحم وأخرى لقطع الفاكهة ، فلما أخذن بأكلن وأمسكت كل واحدة بسكينها انتهزت تلك الفرصة (وقالت اخرج عليهنّ) يايوسف وهو لايعصى لها أمرا بعد أن زينته وخبأته فى مكان آخر (فلما رأينه) أى رأى النسوة يوسف (أكبرنه) أعظمنه ودهشن عند رؤيته وهعن ذلك الحسن الرائق والجمال الفائق وقد أعطى يوسف شطر الحسن . ويقال معنى (أكبرنه) حضن يقال أكبرت المرأة حاضت والهاء للسكت لامفعول لأن الفعل لازم وإذا صح هذا المعنى يكون ذلك لفزعهن وما هالهنّ من أمر يوسف ، وهذا المعنى هو الذى قاله أبو الطيب :

خف الله واستر ذا الجمال ببرقع ۞ فإن لحت حاضت فى الخدور العواتق

واعلم أن إعظام النساء ليوسف وإجلاله لأنهن رأين عليه نور النبوة وسيما الرسالة وآثار الخضوع والإخبات وشاهدن فيه مهابة وهيبة ملكية وعدم التفات إلى الشهوات من النساء والطاعم ، فإذا كان الجمال مقرونا بتلك الصفات حق لهن أن يهبنه (وقطعن أيديهن) وجعلن يقطعن أيديهن بالسكاكين التى معهن وهن يظنن أنهن يقطعن الأترج ولم يحسسن بالألم لفرط دهشتهن فما أحسسن إلا بالدم (وقلن) أى النسوة (حاش لله ما هذا بشرا) أى معاذ الله أن يكون هذا بشرا وكيف يكون بشرا والجمال الفائق الذى فضل كفضل القمر ليلة البدر على نجوم السماء يصحبه عفة ومكارم أخلاق وحفظ شرف وحسن معاشرة ومقابلة الحسنة بمثلها وهذه صفات للملائكة المتنزهين عن شهوات أهل الأرض (إن هذا إلا ملك كريم) وحينئذ وصلت زليخا إلى ما كانت تقصده من دعوتهن للطعام فلما رأت ذلك (قالت فذلكن الذى لمتننى فيه) أى إن هذا هو العبد الكنعانى الذى صورتهن فى أنفسكن ثم لمتننى فيه فلما رأيتن عرفتن (ولقد راودته عن نفسه فاستعصم) أى امتنع فقال النسوة له أطع مولاتك فقالت زليخا (ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين) أى ما آمره به ويسجنن يحبسن ، وقوله ـ من الصاغرين ـ أى السراق والسفاك والأباق كما سرق قلبى وسفك دمى بالفراق وأبق منى فلا يهنأ ليوسف طعام ولا شراب كما منعنى كل ذلك . يقال صغر كفرح صغرا وصغارا : ذل ، فأما صغر ككظم فهو ضد كبر انتهى ، وهنا لطيفتان :

(اللطيفة الأولى فى قوله تعالى ـ فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن الخ)

أعلم أن هذه القصة لم تذكر لنعرف جمال يوسف أو لنفهم أن نساء مصر قطعن أيديهن فحسب كلا وإنما هذه الآيات ترمى لمعان أعلى ومراق أبهى وكمالات أتم وعظات أرقى ترمى إلى الاعتبار والاتعاظ أخلاقا وعلما، إن الجمال محبوب والناس متى غفلوا عن الجمال كانوا جهالا ، إن جمال الوجوه وحسن الفتيات وبهجة الفتيان يعرفها العام والخاص وجمال الرجال والنساء معروف مشهور ، إن الناس لا يفقهون من الجمال إلا ما ذكر هنا وأضرابه وهو شائع بين العامة وسائر الخاصة ، ولكن هناك جمال أجل وحسن أعلى وبهجة أرقى قد شرحناها فيما مضى فى هذا الكتاب، وهو جمال هذه الدنيا وبهجتها بل جمال الله الذى تجلى فى وجوه السموات والأرضين ذلك الجمال الذى حجب عن الجهال وتمتع به أكابر الحكماء والخواص وترنموا به ذلك الجمال البديع فى بهجة هذه الدنيا . وإذا كان النساء قد غابت عقولهن وقطعن أيديهن لرؤية يوسف وهو مخلوق فى العالم فما بالك بمن يجلون رموز هذا العالم ويقفون على بعض أسراره وعجائبه ، ويرون ما تقطع دونه الأعناق وتقف حيرى دونه الألباب : أفليسوا على حق إذا هم قطعوا أعمارهم فى عجائبه وضيعوا ثروتهم فى التمتع به وبذلوا راحتهم فى سبيل درسه، أولئك هم العاشقون حقا ، أولئك هم المخلصون صدقا ، أولئك هم الذين نظروا الجمال ، أولئك هم الذين فازوا بالوصال ، أولئك لم الرجال ، هم الذين يقطعون قلوبهم ويمزقون أجسامهم بكثرة الفكر والعمل فلا يكتفون بتقطيع الأيدى لأن هذا الحب الأدنى، وأين الأدنى من الأعلى ؟ وهل أنبئك بما رأيت الليلة فى المنام حين وصلت إلى هذا المقام أذكره هنا تذكرة للعقلاء وتبصرة للفضلاء وترويحا من العناء ومسامرة للأجلاء :

تذكرت هذه الليلة ما اتفق لى منذ نحو ١٢ سنة إذ زرت صديقا لى بحلوان وهو عالم بعلم النبات مجد فى تحصيله دائب على جمع كتبه يدرسه للتلاميذ ويعلمه لأبناء النيل فأخذنى إلى حجرة خاصة فيها آلة لينظر بها أدق الأشياء وأصغر الذرات بطريق التكبير ؛ وهى آلة زجاجية على هيئة خاصة بطريق علم المناظر فبلّ وجهها بالماء بللا ووضعها وضعا خاصا فنظرت بركة كبيرة فيها ماء غزير مملوءة حشائش وحيوانات مختلفة عجيبة الشكل وبعضها يتناول طعامه بعجلة يديرها دورات سريعة وفى خلال دوراتها تلتقط له بعض القوت

فيتغذى به وهناك أشجار عظيمة لها فروع عجيبة ، كل ذلك فى رطوبة على وجه الزجاجة ، هذا ما أحضره الخيال الليلة فى منامى وهذه ليست رؤيا وإنما هى من الصور التى تحضرها المخيلة من المخزون فيها كما تقدم فى أقسام الرؤيا فى أول السورة ، ولعلّ المخيلة لما أحضرت هذه الصورة التى شاهدتها فى حلوان مع ذلك الصديق العالم النباتى كانت مفكرة فى الجمال وكأنها أحضرتها لتكون درساً لأكتبه فى هذا المقام من دروس الجمال الطبيعى فى هذا العالم الذى خبأه الله عن الجاهلين وأبرزه اليوم فى هذا الكتاب وفى غيره للمسلمين ليحظوا به .

وإياك أيها الفطن أن تقول إن هذا محل فى القول فإنك ترى من نوع الإنسان من يغرمون بعلومهم إلى درجة الجنون ، ومنهم من يموتون من جدّهم فى علومهم ، لافرق فى ذلك بين العلوم الرياضية والطبيعية والفلكية والدينية وغيرها، ومستحيل أن يكون ذلك إلا بالعشق والغرام فهذا غرام وغرام وهيام وأىّ هيام فليكن غرام المسلمين بالعلوم اليوم وليعلموا أن هذه السورة إنما جاءت لأمثال هذه المعانى التى أعدت لقوم يعلمون وإن لم يكن العلم عن حبّ فليس بعلم .

رأى أفلاطون فى العلم

قال أفلاطون : إنّ رئيس الجمهورية يجب عليه أن يفتح لطبقة الأمراء ورؤساء الأجناد باب اللذة العقلية ولايدعهم قاصرين على اللذة الشهوية والغضبية فهاتان اللذتان دائمتان مع الإنسان ، فهو بطبعه ميال للطعام والشراب وللاختلاط الجنسى ولغلبة الأعداء ولكنه لايفتح له باب حب العلم والغرام به إلا إذا زينت له طرقه واطلع على جماله وعرف بهجته فذلك هو الدواء الوحيد لداء الرشوة ، فأما الاقتصار على تينك الشهوتين فإنه يوجب أن يكون الأمراء مغرمين بمشاركة الأمة فى أموالها وأعراضها ، فأما إذا فتح باب العلم فإنهم يجدون لذة جديدة يكتفون بها عن ازدياد لذة الوقاع والطعام .

اللطيفة الثانية جمال يوسف فى علم الحديث وفى علم الموسيقى والجمال

قال عكرمة كان فضل يوسف على الناس فى الحسن كفضل القمر ليلة البدر على سائر النجوم .

وروى أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « رأيت ليلة أسرى بى إلى السماء يوسف كالقمر ليلة البدر » ذكره البغوى بغير سند .

وقال إسحق بن أبى فروة : كان يوسف إذا سار فى أزقة مصر تلألأ وجهه على الجدران ، هذا ماعثرت عليه من الحديث فى حسن يوسف . أقول : تفكر أيها الذكى فى حسن يوسف ولم ذكر فى هذه السورة ؟ إن القرآن لم ينزل لمجرد قراءتها ، كلا ولا لإعرابها ولا لمعرفة القصة فحسب ، وإنما جاء للاتعاظ بها ، وقد قدمنا فى أول تفسيرها بعض ماتشير إليه من المعانى ، فأما الحسن فهذا وقته فلنشر له بعض الإشارة لنكتفى بالقليل عن الكثير فأقول :

أنظر كيف ذكر القرآن جمال يوسف وجعله صلى الله عليه وسلم كالقمر ليلة البدر ، وحسن يوسف ماهو إلا بعض مافى هذا العالم من الجمال الذى يجب النظر فيه والبحث عنه والتفكر فيه ، وإذا كان قصص يوسف أحسن القصص وجماله أحسن الجمال فقصة الجمال العام والحسن التام فى نظام السموات والأرض أجمل قصصا وأحسن أملا وخير ثوابا وأعظم بهجة ، فالنظر فى الجمال الجزئى يدعو النظر فى الجمال الكلى .

إن هذا العالم الذى نعيش فيه عند علماء الفلك والموسيقى والطبيعة كله جمال فى جمال وليس هذا المقام يتسع لذلك ، فإنك إذا أردت أن تدرس جمال العالم فإنك تحتاج إلى العلوم الرياضية كلها والطبيعية ، ولكن

لأذكر لك مايثلج صدرك فأقول : إن جمال الوجه فى تناسب أربعة أشياء وهى : الفم والأنف والعينان والخدّان ، فهذه إن تناسبت كان الجمال ، وإن تنافرت لم يكن جمال ، والتناسب والتنافر بحساب دقيق ، اعلم أن الشبر هو مقياس لجميع أعضاء الإنسان ، فقالوا إن طول عينه ثمن شبره وطول أنفه ربع شبره ، وكذلك شقّ فمه وشفتيه كل منهما ربع شبره ، فإن زاد أو نقص لم يكن جمال وكان القبح على نسبة التفاوت ويقولون إنه إذا فتح يديه كالطائر كان مابين أصابع يده إلى مرفقه يساوى مقدار مابين مرفقه إلى ترقوته يساوى مقدار مابين ترقوته إلى مرفقه اليسرى يساوى مابين مرفقه اليسرى وأطراف أصابعها فكل واحد منها شبران ، وإنما ذكرت لك ذلك لتعرف أن الشبر هو القياس سواء أكان بأجزائه كما فى الفم والأنف أو بمضاعفاته كما هنا ولأقتصر لك على ذلك فى هذا المثال فقد كفاك وأفادك .

واعلم أن الجمال الذى رأيته فى الأجسام كجسم يوسف الذى نحن بصدده التابع الحساب هو بعينه الذى يكون فى الكلام ، فإن الشعر والموسيقى مبنيان على المتحركات والسواكن ، ولو أنك نظرت بحر الطويل لوجدت اللذة فى سماعه راجعة إلى حسن النسبة بين متحركاته وسواكنه ، وأنت تعلم أن فعولن مفاعيلن أربع مرات ٤٨ حرفا إذا كان غير مزحف ٢٨ منها متحركة وعشرون حرفا ساكنة وهى منقسمة أربعة أقسام :

(١) فنقول ٧ : ٥ : ١٤ : ١٠ : و ١٤ : ١٠ : ٢٨ : ٢٠ .

(٢) فهذه نسبة هندسية نسبنا متحركات ربع البيت إلى سواكنه فكانت كنسبة متحركات نصف البيت إلى سواكنه وهذه منسوبة إلى متحركات وسواكن البيت كله وهذا ظاهر للأذكياء العالمين بالشعر والحساب ، فهذا جمال تشهده الأذنان لأنها تزن الحركات والسكنات فتنفر من غير المتناسب وتستلذ بالمتناسب كما فعلت العين فى الجمال سواء بسواء لافرق بين جمال يوسف ونغمات الأوتار ، فكما تعرف أعيننا مقاييس الأعضاء المتقدمة وتحكم ولا علم لنا بأسباب الحكم هكذا تحكم آذاننا فى نغمات الأوتار ومجانيها .

(٣) ومثل ذلك نظر العقل الذى لايحظى به إلا علماء الفلك الذين يفكرون فى دورات النجوم والشموس والأقمار ويرون أن النسب محفوظة بحيث إنك لو راقبت السنين القمرية ولاحظت البسيطة والكبيسة لوجدتها فى كل ثلاثين سنة (١٩) سنة بسيطة و١١ سنة كبيسة والدور عندهم ثلاثون فى جميع الدهور والعصور ، والدور الكبير (٢١٠) أى ٧ فى ٣٠ ويمكننا أن نفعل هنا مافعلناه فى بيت الشعر سواء بسواء فنرى هناك انتظام تام وأدوار متتالية تقاس كما تقاس النغمات وكما يقاس الفم والأنف والعين بالشبر .

(٤) وهكذا نغمات الطير جارية على حساب الحركات ، فإذا سمعت الفاختة وهى تترنم ككوكو ككوكو كوكو علمت أن هذه أوزان بحر الطويل فعولن مفاعيلن ، فإذا سجعت أربع مرات فقد أتمت بحر الطويل وقد عرفت وزنه وبناء عليه أصبح جمال يوسف وعزة وليلى يشارك نغمات الأوتار ونظم الأشعار وغناء الأطيار فى أن كلا مبنى على نسب وأن الجمال راجع النسب فلافرق بين الشموس فى مداراتها والطيور فى أشجارها والشعراء فى أشعارها وجماعة المغنين فى ألحانها والوجوه فى أبهج أنوارها .

إن الجهلاء يسمعون قصة يوسف فيفرحون وهم عن الجمال معرضون ، وما قصها الله إلا للاعتبار بما فيها ومن أهمه النظر فى الجمال فى الكواكب والطبائع والأشعار والأشجار ولأقتصر لك على هذا لئلا يتسع بنا المقال فى ذكر الجمال فى الزارع وكيف كانت نسب أوراقها وأزهارها بمقياس كما كان تركيب عناصرها

بمزان

بميزان وهو نفس الجمال ، فالجمال فى جميع العالم علويه وسفليه وليس يدركه إلا العالمون الذين الرياضيات والطبيعيات والحكمة دارسون ، فإن كنت جاهلا فلا تعد يوسف وما أعطى من جمال ، وإن كنت حكيما فأدر نظرك فى العالم كله بالتفصيل تارة وتارة بالإجمال ، هنالك تعلم ماهو الجمال . إن العالم كله جمال ولكن أكثر الناس لايدركون ذلك الجمال .

رمز النبوّة بحسن يوسف لجمال العالم وإعلاؤها إلى ماقرّرناه

لايعزب عليك أن الأنبياء يريدون العلم والحكمة وشوق الناس إلى الجمال العام الذى مثلنا له بما قدمناه لترقى أممهم وتسعد حالهم ، فإذا سمعت أن يوسف أعطى شطر الحسن فياليت شعرى أين منتهاه ؟ أما منتهاه فتجده فى أمثال ماقدمناه ، فالعالم الأرضى ليس له من الحسن إلا بمقدار ، ولعلك تقول فأين تولى وجهنا حتى نعرف ذلك الجمال ؟ أقول اقرأ الحديث فانظر كيف ذكر الإسراء والسماء والقمر وفضله على النجوم ، وكأنّ هذا التشبيه يرمز به إلى المنحى الذى ينحوه الناس فى قصد الجمال ، أفلا تعجب كيف انتقل من حسن الأجسام الزائلة إلى المحاسن العالية لنرتقى فى الأسباب ولندخل البيت من بابه ، وها أنا ذا قد فتحت لك الباب فلج فيه وذلك لايكون إلا بالعلوم الطبيعية والفلكية ، فإذا ذكرت النجوم والقمر فى باب التشبيه فى حسن يوسف فذلك ليتأمل الناس ذلك الجمال ، معلوم أن المشبه أقل من المشبه به فكأن النبوّة تومئ إلى أنه يجب البحث فى الجمال الأكمل وهو المشبه به وهو ماأدخلتك فى بابه ، فإن كنت من أهله فبها ونعمت وإلا فقل للمسلمين اقرءوا العلوم فهى الجمال الذى يرمز له خاتم الأنبياء ، وإذا أعطى يوسف شطر الحسن ففى العالم الجمال الأكمل والحسن الأوفر والبهجة العليا ، والحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، انتهى القسم الثالث .

(القِسْمُ الرّابِعُ وَالخَامِسُ)

قَضِيَّةُ السِّجْنِ

قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الجَاهِلِينَ * فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ * ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ * وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ المُحْسِنِينَ * قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ * وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَٰلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ * يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ

الواحدُ القهّارُ * ما تعبدون من دونه إلّا أسماء سمّيتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله
بها من سلطان، إن الحكم إلّا لله أمر ألّا تعبدوا إلّا إيّاه، ذلك الدين القيّم ولكنّ
أكثر الناس لا يعلمون * يا صاحبي السجن أمّا أحدكما فيسقى ربّه خمرًا وأمّا الآخر
فيصلب فتأكل الطير من رأسه قضي الأمر الذي فيه تستفتيان * وقال للذي ظنّ أنه
ناجٍ منهما اذكرني عند ربّك فأنساه الشيطان ذكر ربّه فلبث في السجن بضع
سنين * وقال الملك إنّي أرى سبع بقرات سمان يأكلهنّ سبع عجاف وسبع سنبلات
خضر وأخر يابسات يا أيّها الملأ أفتوني في رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبرون * قالوا
أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين * وقال الذي نجا منهما وادّكر بعد
أمّة أنا أنبّئكم بتأويله فأرسلون * يوسف أيّها الصدّيق أفتنا في سبع بقرات سمان
يأكلهنّ سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلّي أرجع إلى الناس
لعلّهم يعلمون * قال تزرعون سبع سنين دأبًا فما حصدتم فذروه في سنبله إلّا قليلًا
ممّا تأكلون * ثمّ يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدّمتم لهنّ إلّا قليلًا ممّا
تحصنون * ثمّ يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون * وقال الملك
ائتوني به فلمّا جاءه الرسول قال ارجع إلى ربّك فاسئله ما بال النسوة اللاتي قطّعن
أيديهنّ إنّ ربّي بكيدهنّ عليم * قال ما خطبكنّ إذ راودتنّ يوسف عن نفسه
قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء قالت امرأت العزيز الآن حصحص الحقّ أنا راودته
عن نفسه وإنّه لمن الصادقين * ذلك ليعلم أنّي لم أخنه بالغيب وأنّ الله لا يهدي كيد
الخائنين * وما أبرّئ نفسي إنّ النفس لأمّارة بالسوء إلّا ما رحم ربّي إنّ ربّي غفور رحيم *
وقال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي فلمّا كلّمه قال إنّك اليوم لدينا مكين أمين *
قال اجعلني على خزائن الأرض إنّي حفيظ عليم * وكذلك مكّنّا ليوسف في الأرض
يتبوّأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين * ولأجر
الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتّقون * وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم

لَهُ مُنْكِرُونَ * وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ
أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ * فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي
وَلَا تَقْرَبُونِ * قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ * وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ
فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ
قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ * قَالَ هَلْ
آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ *
وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ
إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ * قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ
مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ
قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ * وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ
مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ
فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ * وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ
اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ
النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ
بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ
أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ * قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ * قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ
الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ * قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ
فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ * قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ * قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ
وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ * فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ
اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا
أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ * قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ
سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ

أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ * قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ * قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ * فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ * ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ * وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ * قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ * عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ * قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ * قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ * فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ * قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ * قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ * قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ * وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ * قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ * فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا

ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ * قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ *

التفسير اللفظى

قال تعالى (قال ربّ السجن) بالرفع والنصب على المصدر فى الثانى (أحبّ إلىّ مما يدعوننى إليه) آثر عندى من مؤاتاتها بالنسبة للعاقبة ، وإلا فهذا أعزّ مشتهيات النفس ، ويقال إن من المؤثرات فى دخوله السجن باطنا هذا القول؛ ولذلك ردّ رسول الله صلى الله عليه وسلم على من كان يسأل الصبر وأمره أن يسأل الله العافية .

واعلم أن هذا القول من علمائنا قد قرره علماء هذا العصر فإنهم جزموا بأن تصوّرات النفس والأقوال التى ينطق بها المرء فى سرّه وجهره لها آثار فى عواقبه ، ويقولون إن حصول الصور فى العقل من حسنة وسيئة لها أثر فى الأفعال والأحوال الظاهرة وضربوا لذلك مثلا بأن اعتقاد الإنسان بأنه من الملوك أو التجار أو العلماء أو الأشراف تدعوه إلى أن يتزيا بزيهم ويسير بسيرتهم ويتجمل بملابسهم ، فهكذا الأحوال العارضة عليه من الخارج ومن القضاء والقدر تكون مناسبة لما فى عقله موافقة لما ينطق به من الآراء والأحوال والأعمال ، وهذا القول وإن كان خطابيا لايقينيا ـ مناسب لهذا المقام ، ثم قال (وإلا تصرف عنى كيدهنّ) فى تحسين ذلك (أصب إليهنّ) أمل إلى إجابتهنّ ، ويصح أن يقال أصب أى أشتق من الصبابة وهو الشوق (وأكن من الجاهلين) من السفهاء بارتكاب ما يدعوننى اليه فإن الحكيم لا يفعل القبيح (فاستجاب له ربه) أى فأجاب الله تعالى دعاء يوسف (فصرف عنه كيدهنّ إنه هو السميع) لدعاء يوسف وغيره (العليم) بأحوالهم وما يصلحهم (ثم بدا لهم) للعزيز وأصحابه فى الرأى (من بعد ما رأوا الآيات) الدلائل الدالة على براءته كقدّ القميص وظهور براءته وشهادة شاهد من أهلها، وفاعل بدا مضمر مفسر بقوله (ليسجننه حتى حين) وذلك أن المرأة قالت لزوجها إن ذلك العبد العبرانى قد فضحنى عند الناس يخبرهم أنى قد راودته عن نفسه فإما أن تأذن لى فأخرج وأعتذر إلى الناس وإما أن تحبسه فرأى حبسه إلى أن تنقطع مقالة الناس ، وبعضهم قال إنها سبع سنين، وبعضهم قال خمس، ولا حاجة إلى تحقيق ذلك (ودخل معه السجن فتيان) عبدان للملك: خبازه وشرابيه بتهمة السمّ فأدخلا السجن ساعة إدخال يوسف.(قال أحدهما) أى شرابيه (إنى أرانى) أى فى المنام (أعصر خمرا) أى عنبا ، سمى العنب بما يئول اليه، والخمر اسم العنب بلغة عمان فلا حاجة إذن للمجاز (وقال الآخر) أى خبازه (إنى أرانى أحمل فوق رأسى خبزا تأكل الطير منه) تنهش منه (نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين) من الذين يحسنون تأويل الرؤيا ويحسنون إلى أهل السجن فأحسن إلينا بتأويل ما رأينا (قال لايأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما) فأبين لكما نوعه وكيفيته (ذلكما) أى التأويل (مما علمنى ربى) بالإلهام والوحى وليس بطريق الكهانة والعرافة والتنجيم وغيرها ، وعلل ذلك فقال (إنى تركت ملة قوم لايؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون) ثم أبان أصل هدايته وعلى أىّ دين هو فقال (واتبعت ملة آبائى إبراهيم وإسحق ويعقوب) فأنا من بيت النبوّة فاستمعا إلىّ . وقد قال العلماء [يجوز لحامل العلم أن يصف نفسه حتى يعرف فيقتبس منه] ثم قال (ما كان لنا أن نشرك بالله من شىء) أىّ شىء كان (ذلك) التوحيد (من فضل الله علينا) بالوحى (وعلى الناس) وعلى سائر الناس يبعثنا لإرشادهم (ولكنّ أكثر الناس) المبعوث إليهم (لايشكرون) هذا الفضل فيشركون بالله ولاينتبهون وإنما قال لهما هذه الجمل لاستمالتهما للدين الصحيح ، ثم أخذ يشرح ما قصده من هذه المقدّمات الدينية فقال (ياصاحبى السجن) ياساكنيه

أو ياصاحبيّ فيه (ءأرباب متفرّقون) شتى متعدّدة يستعبدكما هذا ويستعبدكما هذا (خير) لكما أم يكون لكما ربّ واحد لايغالب ولا يشارك في الربوبية ، وهذا قوله (أم الله الواحد القهار) والأرباب المتفرّقون هي الأصنام والأوثان ثم خاطبهما ومن كان على دينهما من المصريين لأنهم كانوا يقدسون أصناما كثيرة وتماثيل بعد أن كانوا قديما يعبدون إلها واحدا (ما تعبدون) يا أهل مصر (من دونه) من دون الله (إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم) أي سميتم مالايستحق الألوهية آلهة ثم أخذتم تعبدونها فكأنكم لاتعبدون إلا أسماء لامسميات لها ، وقوله « سميتموها » سميتم بها تقول سميته زيدا وسميته بزيد (ما أنزل الله بها) بتسميتها (من سلطان) حجة (إن الحكم) في أمر العبادة والدين (إلا لله) ثم بيّن ما حكم به فقال (أمر) على لسان أنبيائه (ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم) الثابت الذي قامت عليه البراهين (ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون) فيخبطون في جهالاتهم وهذه المقالة تدرج فيها أوّلا من رجحان التوحيد على اتخاذ الآلهة من طريق الخطابة ؛ ثم برهن على أن الآلهة معبوداتهم أسماء لامسميات لها ، ثم بين الدين الحقّ ؛ ولما فرغ من المهمّ وهو الدعوة إلى الدين الحق الذي هو مقصوده شرع يعبر الرؤيا التي هي مقصودتهما بالذات وهو عدّها وسيلة الدين كما رأيت فقال (ياصاحبي السجن أما أحدكما) يريد الشرابي (فيسقي ربه) سيده (خمرا) أي يعود إلى عمله (وأما الآخر) أي الخباز (فيصلب فتأكل الطير من رأسه) وقد كانت رؤيا الشرابي أنه قال : إني رأيت كأني في بستان فإذا بأصل شجرة عنب عليها ثلاثة عناقيد فقطفتها وعصرتها في كأس الملك وسقيته ، وقال الخباز : رأيت كأن فوق رأسي ثلاث سلال فيها أنواع الأطعمة فإذا سباع الطير تنهش منها ، فقال للأوّل : مارأيت من الكرمة وحسنها هو الملك وحسن حالك عنده ، وأما العناقيد الثلاثة فانه ثلاثة أيام تمضي في السجن ثم تخرج وتعود إلى ما كنت عليه ، وقال للثاني: مارأيت من السلال فهي ثلاثة أيام ثم تخرج فتصلب ، ولما سمع الخباز صلبه قال ما رأيت شيئا فقال يوسف (قضي الأمر الذي فيه تستفتيان) أي قطع وتمّ ما تستفتيان فيه وهو مآل أمركما وهو هلاك أحدهما ونجاة الآخر (وقال) يوسف (للذي ظنّ أنه ناج منهما اذكرني عند ربك) اذكر حالي عند الملك كي يخلصني (فأنساه الشيطان ذكر ربه) أي فأنسى الشيطان الساقي أن يذكر يوسف عند الملك فإن صرف الوسوسة إلى ذلك الرجل الساقي حتى نسي ذكر يوسف أولى من صرفها إلى يوسف (فلبث في السجن بضع سنين) البضع ما بين الثلاث إلى التسع وهي هنا سبع سنين تضم إلى الخمس الأولى فتكون اثنتي عشرة سنة ، قال كعب قال جبريل ليوسف عليه السلام [يقول الله عزّ وجل لك من خلقك ؟ قال الله قال فمن رزقك ؟ قال الله قال فمن حببك إلى أبيك ؟ قال الله قال فمن نجاك من كرب البئر قال الله قال فمن علمك تأويل الرؤيا قال الله قال فمن صرف عنك السوء والفحشاء قال الله قال فكيف استغثت بآدمي مثلك] قالوا فلما انقضت سبع السنين رأى ملك مصر الأكبر رؤيا هالته فانه رأى سبع بقرات سمان قد خرجن من البحر ثم خرج عقبهن سبع بقرات عجاف في غاية الهزال فابتلع العجاف السمان ودخلن في بطونهنّ ولم ير منهنّ شيء ولم يتبين على العجاف منها شيء ورأى سبع سنبلات خضر قد انعقد حبها وسبع سنبلات أخر يابسات قد استحصدت فالتوت اليابسات على الخضر حتى علون عليهن ولم يبق من نضرتها شيء فجمع السحرة والكهنة والمعبرين وقصّ عليهم رؤياه التي رآها فهذا قوله تعالى (وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهنّ سبع عجاف) بقرات هالكات من الهزال (وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات) وذلك خطاب للأشراف والأعيان من العلماء والحكماء ، ثم أخذ يستفتيهم فقال (يا أيها الملأ أفتوني في رؤياي) يا أيها الأشراف أخبروني بتأويل رؤياي (إن كنتم للرؤيا تعبرون) أي إن كنتم تحسنون عبارة الرؤيا فتنقلونها من الصور التي صوّرها الخيال إلى المعاني الحقيقية التي هي مثالها . يقال عبرت الرؤيا عبارة كما يقال عبرتها تعبيرا ومعبر الرؤيا

ينتقل

ينتقل من ظاهرها إلى باطنها ليستخرج معناها (قالوا) أى للملأ وهم السحرة والكهنة والمعبرون مجيبين للملك (أضغاث أحلام) أى أخلاط مشتبهة واحدها ضغث ، والضغث فى الأصل الحزمة الحاوية أنواع الحشيش فاستعير للرؤيا الكاذبة وإنما كان الجمع لأجل المبالغة كما تقول العرب فلان يركب الخيل (وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين) أى للمنامات الباطلة فانها ليس لها تأويل عندنا وانما التأويل للمنامات الصحيحة (وقال الذى نجا منهما) وهو الشرابى (وادّكر بعد أمّة) وتذكر يوسف بعد جماعة من الزمان مجتمعة أى مدّة طويلة . وفى قراءة (بعد إمة) كنعمة وزنا ومعنى : أى بعد ماأنعم عليه بالنجاة (أنا أنبئكم بتأويله) أنا أخبركم به عمن عنده علمه (فأرسلون) أى فابعثون إلى يوسف لأسأله فأرسلوه إليه فأتاه فقال (يوسف) أى يايوسف (أيها الصدّيق) أيها البليغ فى الصدق مما جرّبته فى تأويل رؤياى ورؤيا صاحبى (أفتنا فى سبع بقرات) إلى قوله (لعلى أرجع إلى الناس) أى إلى الملك وأتباعه (لعلهم يعلمون) فضلك ومكانتك فيطلبوك ويخلصوك من محنتك (قال تزرعون سبع سنين دأبا) على عادتكم المستمرّة أى دائبين منصوب على الحال ، أو تدأبون دأبا والجملة حال أيضا ، وهو بوزن سبب ونصر يقال دأب فى العمل دأبا (فما حصدتم فذروه فى سنبله) لئلا يأكله السوس (إلا قليلا مما تأكلون) فى تلك السنين أى ادرسوا قليلا من الحنطة للأكل بقدر الحاجة واحرصوا بحفظ الأكثر لوقت الحاجة وهو وقت السنين المجدبة (ثم يأتى من بعد ذلك) أى من بعد السنين المخصبة (سبع شداد) سبع سنين مجدبة ممحلة شديدة على الناس (يأكلن) يفنين (ما قدّمتم لهنّ) أى يأكل أهلهن ما ادّخرتم لأجلهنّ (إلا قليلا مما تحصنون) تحرزون لبذور الزراعة (ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس) يمطرون من الغيث ، أو يغاثون من القحط وهو من الغوث (وفيه يعصرون) مايعصر كالعنب فيكون الخمر ، والزيتون فيكون الزيت والسمسم فيكون الدهن ، يراد بذلك كثرة النعم وعموم الخصب فى الزرع والثمار (وقال الملك ائتونى به) بعد ما جاءه الرسول بالتعبير (فلما جاءه الرسول) ليخرجه (قال ارجع إلى ربك) أى الملك (فاسأله ما بال النسوة) أى حال النسوة (اللاتى قطعن أيديهنّ) فقد ثبت يوسف وتأنى فى إجابة الملك وقدّم سؤال النسوة ليظهر براءته حتى لا يرميه الحاسدون بما يضر سمعته عند الملك ويستدلون بمكثه فى السجن سنين طويلة ، وهذا يفيد أن الإنسان يجب عليه اتقاء التهم ونفيها . وقال عليه الصلاة والسلام : « لقد عجبت من يوسف وكرمه وصبره والله يغفر له حين سئل عن البقرات العجاف والسمان ولو كنت مكانه ماأخبرتهم حتى أشترط أن يخرجونى ولقد عجبت منه حين أتاه الرسول فقال « إرجع إلى ربك » ولو كنت مكانه ولبثت فى السجن مالبث لأسرعت الإجابة وبادرت الباب ولما ابتغيت العذر إنه كان حليما ذا أناة » .

ومن حسن أدبه أنه لم يذكر سيدته مع ماصنعت به وتسببت فيه من السجن والعذاب ولم يذكر إلا «اللاتى قطعن أيديهنّ» وقال فيهنّ لانها «إنّ ربى بكيدهنّ عليم» لايعلمه إلا الله وهو يجازيهن عليه فرجع الرسول إلى الملك برسالته فدعا الملك النسوة المقطعات أيديهنّ ودعا امرأة العزيز ثم (قال) لهنّ (ماخطبكنّ) ماشأنكنّ (إذ راودتنّ يوسف عن نفسه) هل وجدتن منه ميلا إليكنّ (قلن حاش لله) تعجبا من قدرته على خلق عفيف مثله (ماعلمنا عليه من سوء) من ذنب (قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق) ظهر واستقر (أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين) فى قوله « هى راودتنى عن نفسى » ثم رجع الرسول إلى يوسف وأخبره بكلام النسوة وإقرار امرأة العزيز وشهادتها على نفسها فقال يوسف (ذلك) أى امتناعى من الخروج والتثبت لظهور البراءة (ليعلم) العزيز (أنى لم أخنه بالغيب) بظهر الغيب فى حرمته وهو حال

من الماء أى لم أخنه وهو غائب عنى أو ليعلم الملك أنى لم أخن العزيز الخ (وأن الله لايهدى كيد الخائنين) أى وليعلم أن الله الخ تعريض بامرأته فى خيانتها أمانة زوجها ، ويجوز أن يكون هـذا من كلام امرأة العزيز أيضاً إذ قالت « الآن حصحص الحق » ثم شرعت تقول « ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب » أى ليعلم يوسف أنى لم أخنه فى حال غيبته وهو فى السجن ولم أكذب عليه فلم أفعل فى غيبته مافعلت فى حضوره ، وقوله « وأن الله لايهدى كيد الخائنين » على هذا يعنى أنى لما أقدمت على هـذا الكيد والمكر قد افتضحت لأن الله لاينفذه ولا يسدده .

ثم أخذ يتواضع ويهضم نفسه لئلا يكون لها مزكيا وليبين أن هذه الأمانة إنما هى من الله فقال (وما أبرئ نفسى) من الزلل ولستُ أشهد لها بالبراءة التامة ولا أزكيها فى جميع الأحوال (إن النفس لأمارة بالسوء) أراد به جنس السوء لما فيها من الشهوات (إلا مارحم ربى) أى إلا البعض الذى رحمه ربى بالعصمة. وصح أن يكون هـذا من كلام المرأة وهو أظهر كأنها قالت ذلك ليعلم أنى لم أخنه ولم أكذب عليه فى حال الغيبة وجئت بالصدق عند السؤال « وما أبرىء نفسى » مع ذلك من الخيانة فانى خنته كما هو معروف ثم اعتذرت بأن كل نفس أمارة بالسوء إلا نفسا رحمها الله بالعصمة كنفس يوسف (إن ربى غفور رحيم) استغفرت ربها واسترحمته مما ارتكبت لأن الله غفور الذنوب عباده ورحيم بهم .

هذه الأخلاق من عفة وصبر وأمانة وعلم غزير وأناة حملت الملك أن يستخلصه لنفسه أى يجعله خالصا له لايشاركه فيه سواه ؛ وهذا قوله تعالى(وقال الملك ائتونى به أستخلصه لنفسى) فلما جاء الرسول إلى يوسف وقال له أجب الملك أجابه وتنظف ولبس ثيابا حسنة ثم قصد باب الملك ودخل عليه وتحدث معه (فلما كلمه) وشاهد منه الرشد والدهاء (قال إنك اليوم لدينا مكين) ذو مكانة ومنزلة (أمين) مؤتمن على كل شىء ، ويقال إنه كان يحسن العربية والعبرية فكلمه بهما فضلا عن لغات أخرى وقال له العربية لسان عمى إسماعيل والعبرية لسان آبائى وطلب منه الملك أن يسمعه رؤياه فأسمعها له وذكر له البقرات والسنابل وأما كنها على مارآها فأجلسه على السرير وفوّض إليه الأمر وتوفى قطفير فولاه مكانه وزوّجه زليخا فوجدها عذراء وولد له منها إفرائيم وميشا (قال اجعلنى على خزائن الأرض) ولنى أمر أرض مصر (إنى حفيظ) لها ممن لايستحقها (عليم) بوجوه التصرف فيها، وهذا دليل على أن من قدر على المنفعة العامة فليتولها وليستظهر بذى الجاه ولو كان كافرا لأن الخلق عباد الله ، وأقربهم إليه أنفعهم له ، والنافعون للناس أشبه بالملائكة القائمين بأمره فى تدبير خلقه (وكذلك) ومثل ذلك التمكين الظاهر بأن أنجيناه من الجبّ وخلصناه من السجن وزيناه فى عين الملك (مكنا ليوسف فى الأرض) أرض مصر (يتبوّأ منها حيث يشاء) أى كل مكان أراد لم يمنع منه لاستيلائه على جميعها ودخولها تحت سلطانه (نصيب برحمتنا من نشاء) فى الدنيا (ولا نضيع أجر المحسنين) الذين يحسنون أعمالهم وأخلاقهم ويحسنون إلى الناس فنجعل الناس يودّونهم ويحبونهم ويملكونهم ونرفعهم على الجميع فى الدنيا كما فى أمر يوسف وهـذا كقوله تعالى « وآتيناه أجره فى الدنيا » وكقوله تعالى « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودّا » أى يلقى المحبة لهم فى القلوب فيوسف لم يجعله الملك على خزائن الأرض إلا لعلمه وحكمته ، وكل من لم يكن أهلا للأعمال العظيمة فى الدنيا يحرم منها ، ولذلك نرى المسلمين قد غضّ كثير منهم الطرف عن إحسان أعمالهم وصناعاتهم وعلومهم وكتبهم ومطابعهم وجهلوا أكثر ماينفع الناس ولم يحسنوا الصناعات إلا قليلا وفاز بها الافرنج فوفى الله بعدله المسلمين حظهم من التأخر والفرنجة حظهم من التقدم فانه لايضيع أجر المحسنين لأعمالهم فتعجب .

ولما كان المقام مقام دين وحث على الآخرة عطف عليه قوله (ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا) أى أفضل من أجر الدنيا (وكانوا يتقون) مانهى الله عنه من الشرك والذنوب فإن الأجر فى كل شىء بحسبه ويوسف ينال فى الآخرة أفضل مما أوتى فى الدنيا .

ولقد جاء فى آية أخرى فى حق بعض الأنبياء « وآتيناه أجره فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين » يقال إن الملك لما استوزره أقام العدل وضبط الغلات حتى دخلت السنون المجدبة وعم القحط مصر والشام وتوجه إليه الناس .

ولقد تغالى أصحاب القصص فقالوا إنه باع أولا بالدراهم والدنانير ثم بالحلى فبالدواب فبالضياع والعقار ثم برقابهم ثم أعتقهم بالاتفاق مع الملك ، وكل هذا غير معقول تناقله الناس جيلا عن جيل ، أكاذيب ما أنزل الله بها من سلطان .

وقد كان أصاب كنعان ما أصاب سائر البلاد فأرسل يعقوب عليه السلام بنيه إلا بنيامين إلى يوسف للميرة (فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون) أى عرفهم هو ، أما هم فلم يعرفوه لطول العهد وعظمة الملك (ولما جهزهم بجهازهم) أصل الجهاز ما يعد من الأمتعة للنقلة كعدد السفر وما يحمل من بلدة إلى أخرى ويطلق أيضا على ما تزف به المرأة إلى زوجها .

يقال إنه أعطى كل واحد حمل بعير ، والجهاز بكسر الجيم قرىء شاذا (قال ائتونى بأخ لكم من أبيكم) .

يقال إنه قال لعلكم جواسيس ؟ قالوا كلا وذكروا أنهم (١٢) هلك واحد منهم فى البرية ولهم أخ عند أبيهم وهم هنا عشرة وسألوه حملا لأجل أخيهم الغائب فأعطاهم ذلك ورهن أحدهم وهو شمعون بطريق الاقتراع حتى يحضروا أخاهم الغائب ليعلم صدقهم وأخذ يقيم الحجة على أنهم يجب عليهم أن يرجعوا إليه لفضله عليهم مع إظهار الشدة فى المعاملة وأخذ أحدهم رهنا . وقوله (فإن لم تأتونى به الخ)هذا جمع بين اللين والشدة وهى خير سياسة بحيث إذا كان الرجل ممن يساقون بالعصا فقد نالها ، أو بالحلم والفضل فقد ناله وذلك عند جهل حال المسوس كما فى هذه الحال فإن يوسف عليه السلام وإن كان عالما بهم قد عاملهم معاملة من لايعرفهم فقال (ألا ترون أنى أوفى الكيل) أتمه (وأنا خير المنزلين) لأنه قد أحسن ضيافتهم وأكرم مثواهم (فإن لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى ولاتقربون) أى ولا تقربونى ولا تدخلوا ديارى (قالوا سنراود عنه أباه) سنجتهد فى طلبه من أبيه (وإنا لفاعلون) ذلك ولا نتوانى فيه (وقال لفتيانه) لغلمانه الكيالين (اجعلوا بضاعتهم فى رحالهم) أوعيتهم وكانت نعالا وادما وورقا وهذه البضاعة كانت ثمن الطعام ووكل بكل رحل واحدا يجعل فيه بضاعتهم (لعلهم يعرفونها) يعرفون حق ردها وحق التكرم برجاع ثمن الطعام مع الطعام (إذا انقلبوا إلى أهلهم) وفرغوا أوعيتهم (لعلهم يرجعون) لعل معرفتهم بذلك تدعوهم إلى الرجوع (فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا منع منا الكيل) حكم بمنعه بعد هذا إن لم يذهب معنا بنيامين (فأرسل معنا أخانا نكتل) نرفع المانع من الكيل (وإنا له لحافظون) من أن يناله مكروه (قال) يعقوب (هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل) وقد قلتم هذا القول فى يوسف (فالله خير حافظا) منكم ، وقرىء « حفظا » فهو على الأول حال وعلى الثانى تمييز ، يقول إنى أتوكل على الله فى حفظه (وهو أرحم الراحمين) فأرجو أن ينعم على بحفظه .

واعلم أيها الذكى أن قوله هنا « وهو أرحم الراحمين » لايعقلها الأذكياء إلا إذا درسوا ماتقدم فى سورة هود وفى سورة الأنعام وفى سورة يونس وفى سائر ماتقدم من عناية الله بالعوالم الحية ونظره لها نظر رحمة وأن أكثر الناس لا يعرفون من الله إلا منعما فى الجنة ومعذبا فى النار ومنزلا على الناس مرضا وفقرا

وصوما ، والجاهل يحجبه ذلك عن التوغل فى العلوم فيعيش مرتبكا معترضا على الله فى قلبه مظهر الرضا بلسانه مملوءا حقدا على إبليس وعلى كل مخالف لعقيدته من أهل الأرض وهذه حياة الجاهلين فى جميع الأمم والأجناس فلا يرون رحمة الله إلا من رحم ربك وعرفه ، والطريق الذى سلكناه فى هذا التفسير أن تعرف رحمته من جمال هذا العالم والتوغل فى العلم والوقوف على الحقائق ، وأن أمثال سجن يوسف وغربته وسجنه وضرر عين أبيه وحسد الإخوة واستعباد يوسف ، كل ذلك يظهر للجهال أنه نقمة وما هو إلا مقدمات للنعمة وذلك أشبه بدروس المدرسة يتعلمها التلميذ صعبة قاسية ثم تكون عاقبتها السعادة .

فهكذا سائر أحوالنا ، فبهذا التفسير والسير على منواله ودراسة العلوم التى أشار بها ونبه عليها تعرف أيها الذكى أن الله أرحم الراحمين فرحمته كرحمة الأب الذى يطعم ابنه ويقهره على تعلم الدروس ، ورحمة الجهلاء كرحمة الأم ، فتعلم وكن من المفكرين ، ثم قال تعالى (ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردّت إليهم قالوا يا أبانا ما نبغى) أى ما نبغى شيئا وراء ما فعل بنا قد أكرمنا وأحسن مثوانا وباع منا وردّ علينا متاعنا ثم وضحوه فقالوا (هذه بضاعتنا رِدّت إلينا) فنستظهر بها (ونمير أهلنا) بالرجوع إلى الملك أى نجلب لهم ميرة، وهى طعام يحمل من غير بلدك (ونحفظ أخانا) عن المخاوف (ونزداد كيل بعير) وسق بعير باستصحاب أخينا (ذلك كيل يسير) سهل عليه متيسر لا يتعاظمه (قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقا) عهدا (من الله) أى حتى تعطونى ما أتوثق به من عند الله أى عهدا مؤكدا بذكر الله أو الحلف به فكأن المعنى حتى تحلفوا بالله (لتأتننى به) هذا جواب القسم أى والله الخ (إلا أن يحاط بكم) أى إلا أن تغلبوا فلا تطيقوا ذلك أو إلا أن تهلكوا جميعا . أى لا تمتنعون من الإتيان به إلا للاحاطة بكم كما تقول أقسمت بالله إلا فعلت كذا : أى ما أطلب إلا فعلك كذا (فلما آتوه موثقهم) عهدهم (قال : الله على ما نقول) أى قال يعقوب : الله شاهد على ما نقول فكأنّ الشاهد (وكيل) أى موكول إليه هذا العهد أو وكيل حافظ (وقال يابنىّ لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة) أمرهم بدخول مدينة مصر من أبواب مختلفة أو من طرق مختلفة لأنهم أبناء أب واحد لهم جمال وطول قامة بارعان وقد عرفوا هذه المرة بخلاف التى قبلها فخاف عليهم العين .

ومعلوم فى علم ما وراء الطبيعة كما فى الإشارات لابن سينا أن النفس آثارا تنبعث منها بواسطة العين وغيرها إلى الخارج وهذه الآثار إما ضارّة وإما نافعة، وفعل العين من عانه يعينه : أصابه بها من تلك الآثار ؛ ولو أنك درست أيها الذكى ما دوّنه المتقدمون وعلماء العصر الحاضر فى هذا المقام لدهشت من العلوم النفسية فى أمريكا وفى أوروبا من الآثار المغناطيسية فى التنويم وغيره ولعلمت أن الإنسان قليل العلم ، ففى الأرض اليوم أناس يشفون المريض بمجرد اللمس مرة أو مرات كثيرة وذلك يحصل بالتمرين ودروس كثيرة . وقد اشتهر أناس فى أصقاع الأرض بهذه الخاصية ، وقد ينوّم الرجل غيره ويوحى إلى المنوّم وقت النوم ما يشاء أن يفهمه كالصلاح والتقوى وحبّ الدرس وترك الخمر والتدخين والكوكايين أو الإحسان أو ترك الغضب أو قتل فلان فى وقت كذا ، فإذا استيقظ المنوّم لم يعرف شيئا من ذلك وإنما الأثر فى نفسه يجعله مستعدا لما أوحى إليه فى النوم فيفعل ما أمر به فى الوقت والساعة والدقيقة والثانية ولا يدرى من أين حلّ به هذا .

هذا غيض من فيض من علوم العصر الحاضر وهكذا ذكر بعض ذلك المتقدمون ، فالنفس الإنسانية لها قدرة مخبوءة تظهر بالعمل والدرس والجد والرياضة تارة وبطبعها تارة أخرى ، فالعين مما يؤثر بدون درس ولا تعلم كمن يسمون فى أوروبا اليوم وسطاء بالطبيعة أى إن هناك أناسا خلقوا ولهم قدرة فى الوقت

الحاضر

الحاضر على مخاطبة الأرواح متى ألقوا أنفسهم فى السبات المغناطيسى ، وهكذا آخرون لهم قدرة أن يروا الأرواح بأعينهم ويسمى الواحد منهم (الوسيط البصر) فذلك يكلم الأرواح وهذا يراهم ويكلمهم، فكذلك هنا هؤلاء العائنون خلقوا مجبولين على الشرّ بهذه القوة كما خلق الأنبياء مجبولين على الخير ، والشياطين على الشرّ .
فإذا سمعت رواية البخارى ومسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن العين حقّ » فاعلم أن هذا هو العلم الحديث والقديم ، وإذا سمعت رواية مسلم عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم إذ قال « العين حق ولو كان شئ سابق القدر لسبقته العين وإذا استغسلتم فاغتسلوا » ومعنى هذا أنه كان يؤمر العائن فيتوضأ ثم يغتسل منه المعين ، فإذا سمعت هذا فاعلم أن العلم اليوم كشف أصول هذه العلوم ، والظاهر أن هذه المسائل سيزيد وضوحها فى المستقبل القريب ، وإذا سمعت قوله صلى الله عليه وسلم « اللهم إنى أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامّة ومن كل عين لامّة » فاعلم أنه لم يجد صلى الله عليه وسلم علاجا لهذا البلاء الذى يصدر من النفوس إلا بالالتجاء لخالق النفوس .

ثم أخذ يعقوب يذكر بنيه أن هذا من الأخذ بالأسباب والقدر لاملجأ ولا مفرّ منه إذا حتم على امرئ فى هذه الدنيا فقال (وما أغنى عنكم من الله من شئ) أى إن كان الله أراد بكم شرا فلا دافع له من التفرق الذى أشرت به ولا غيره وإنما علينا الجدّ والله هو الذى يتولى العباد (إن الحكم إلا لله) فهو منفذ أمره متى أراد (عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون) التوكل تفويض الأمر إلى الله والاعتماد عليه (ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم) متفرقين (ماكان يغنى عنهم) أى ماكان يدفع عنهم دخولهم من أبواب متفرّقة (من الله من شئ) أى شيئا قط فإنهم مع هذا التفرّق فى الدخول اتهموا بالسرقة وافتضحوا بعد ذلك بسرقة صواع الملك وأخذ أخوهم لأن الصواع وجد فى رحله وزاد حزن أبيهم بفقد بنيامين (إلا حاجة فى نفس يعقوب) استثناء منقطع أى لكن شفقة يعقوب عليهم واحترازه من إصابتهم بالعين (قضاها) أظهرها ووصى بها (وإنه لذو علم لما علمناه) بالوحى تارة ونصب الحجج تارة أخرى فعرف ماتنقطع دونه أعناق الحكماء بحثا وتنقيبا، وهو أن ماهو شائع بين العامة من تأثير العين حقّ وأمر بالتحرز منه وعرف أن القضاء غالب فذكر الأمرين التوصية والتسلم للقضاء (ولكن أكثر الناس لايعلمون) فلا يعرفون من الأسباب إلا ماتلمسه أيديهم وتراه أعينهم ، وكذلك لايقرّون بقوة فوق هذا العالم تدبر شئونه وتحيط به ، فامتثلوا أمر أبيهم وسافروا إلى مصر (ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه) ضمّ إليه بنيامين على الطعام وفى المنزل وذلك أنه قال سينزل كل اثنين منكم بيتا وهذا لاثانى له فيكون معى فبات معه وقال له أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك ؟ قال بنيامين : ومن يجد أخا مثلك أيها الملك ، ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل ؟ فبكى يوسف وقام إليه وعانقه و (قال إنى أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون) أى لاتحزن بما عملوا فى حقنا فيما مضى (فلما جهزهم بجهازهم) أى هيأ أسبابهم وأوفى الكيل لهم (جعل السقاية فى رحل أخيه) وهى المشربة التى كان الملك يشرب بها وهى الصواع ، يقال إنهاكان يسقى بها الملك ثم جعلت صاعا يكال به لعزّة الطعام وكان يشبه [الطاس] من فضة أو ذهب وقد جعلها فى وعاء طعام أخيه بنيامين ، ثم ارتحلوا فأرسل خلفهم من استوقفهم (ثم أذن مؤذن) نادى مناد وأعلمهم والأذان الإعلام (أيتها العير إنكم لسارقون) العير القافلة وهى اسم الإبل التى يحمل عليها الأحمال فسمى بها أصحابها (قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون) أىّ شئ ضاع منكم؟ (قالوا نفقد صواع الملك) وهو الصاع كما قرئ به وبالصوع كنصر وكقفل وبالعين وبالغين وصواغ من الصياغة (ولمن جاء به حمل بعير) من الطعام (وأنا به زعيم) الزعيم الكفيل بلسان أهل اليمن ، يقول أنا كفيل أؤديه إلى من ردّه وهذا من باب الجعالة وأنه يجوز ضمان الجعل (قالوا تالله) قسم فيه معنى

التعجب (لقد علمتم ماجئنا لنفسد فى الأرض وما كنا سارقين) وذلك أنهم شدّوا أفواه رواحلهم لئلا تتناول زرعا أو طعاما لأحد من أهل السوق فى المدينة وكانوا ذوى أمانة ظاهرة عرفها الملك وبطانته وحاشيته حتى رد بضاعتهم إليهم فوجدوها فى رحالهم (قالوا فما جزاؤه) أى فما جزاء سرقة الصاع (إن كنتم كاذبين) فى جحودكم وادّعائكم البراءة منه (قالوا جزاؤه من وجد فى رحله) أى جزاء سرقته أخذ من وجد فى رحله وذلك هو الحكم فى شريعة يعقوب أن من سرق يكون رقيقا سنة فلما استفتوهم أجابوهم بحسب شرائعهم (فهو جزاؤه) أى فأخذ السارق نفسه هو جزاؤه لاغير (كذلك نجزى الظالمين) أى السرّاق فنسترقهم (فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه) فبدأ بتفتيش أوعيتهم قبل وعاء بنيامين لنفى التهمة حتى بلغ وعاءه فقال ما أظن هذا أخذ شيئا ، فقالوا والله لا نتركه حتى تنظر فى رحله فانه أطيب لنفسك وأنفسنا فوجدها فى وعاء طعامه (ثم استخرجها من وعاء أخيه) وأنث هنا باعتبار السقاية، والصواع يذكر ويؤنث (كذلك)أى مثل ذلك الكيد أى الحيلة (كدنا ليوسف) أى علمناه إياه وأوحينا به إليه ثم فسر الكيد وهى الحيلة المتقدمة فقال (ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك) لأن الحكم فى دين الملك أى شريعته للسارق أن يغرم مثلى ما أخذ ويضرب، لاأن يستعبد ، ولو أن يوسف جرى على شريعة الملك لم يتمكن من أخذ أخيه وقوله (إلا أن يشاء الله) استثناء منقطع أى لكن أخذه بمشيئة الله وإذنه (نرفع درجات من نشاء) بالعلم كما رفعنا درجته (وفوق كل ذى علم عليم) أرفع درجة منه (قالوا إن يسرق) بنيامين (فقد سرق أخ له من قبل) وهو يوسف لأنه دخل كنيسة فأخذ تمثالا صغيرا من ذهب كانوا يعبدونه فدفنه ، وقيل أعطى دجاجة كانت فى المنزل لسائل أو أنه منطقة لابراهيم عليه السلام يتوارثها أكابر ولده فورثها اسحق ثم وقعت إلى ابنته وكانت أكبر أولاده فحضنت يوسف وهى عمته بعد وفاة أمه وكانت لاتصبر عنه فلما شبّ أراد يعقوب أن ينزعه منها فعمدت الى المنطقة فحزمتها على يوسف تحت ثيابه وقالت فقدت منطقة إسحق فوجدوها محزومة على يوسف فقالت إنه لى سلم أفعل به ما أشاء فتركه يعقوب عندها حتى ماتت .

ويقال إنهم لما استخرجوا الصاع من رحل بنيامين نكس إخوته رؤوسهم حياء وأقبلوا عليه وقالوا له فضحتنا وسوّدت وجوهنا يابنى راحيل مايزال لنا منكم بلاء متى أخذت هذا الصاع؟ فقال : بنو راحيل الذين لايزال منكم عليهم بلاء ، ذهبتم بأخى فأهلكتموه ووضع هذا الصواع فى رحلى الذى وضع البضاعة فى رحالكم (فأسرّها) أى مقالتهم إنه سرق كأن لم يسمعها (يوسف فى نفسه ولم يبدها لهم قال أنتم شرّ مكانا) مكانا تمييز أى أنتم شر منزلة السرقة لأنكم سرقتم أخاكم يوسف من أبيه (والله أعلم بما تصفون) تقولون أو تكذبون (قالوا يا أيها العزيز إنّ له أبا شيخا كبيرا) فى السن وفى القدر (فخذ أحدنا مكانه) بدله على وجه الاسترهان أو الاستعباد فإن أباه يتسلى به عن ابنه المفقود (إنا نراك من المحسنين) إلينا فأتمم إحسانك أو من المتعودين الإحسان فكيف تغير عادتك (قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده) وكيف نظلم غيره فنأخذه على فتواكم (إنا إذن لظالمون) فى مذهبكم هذا (فلما استيأسوا منه) السين والتاء للمبالغة كما فى استعصم أى فلما يئسوا من يوسف (خلصوا) انفردوا عن الناس خالصين لايخالطهم سواهم (نجيا) أى متناجين متشاورين وليس معهم غيرهم وهو مصدر فلذلك أفرد لأن هذه قاعدته فهو يكون مفردا فى كل حال (قال كبيرهم) فى السن وهو روبيل أو فى الرأى وهو شمعون (ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله) عهدا وثيقا لأن العهد كان معه الحلف وهو تأكيد له من جهة الله (ومن قبل) ومن قبل هذا (ما) مزيدة (فرطتم فى يوسف) قصرتم فى شأنه (فلن أبرح الأرض) فلن أفارق أرض مصر (حتى يأذن لى أبى (فى الرجوع (أو يحكم الله لى) أو يقضى الله لى بالخروج أو بالموت (وهو خير الحاكمين) لأنه

لايحكم

لا يحكم إلا بالعدل (ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق) أى نسب إلى السرقة (وما شهدنا) عليه بالسرقة (إلا بما علمنا) من سرقته وتيقنا أن الصواع استخرج من وعائه (وما كنا للغيب حافظين) وما علمنا أنه سيسرق حين أعطيناك الموثق (واسأل القرية التى كنا فيها) أى مصر : أى أرسل إلى أهلها فاسألهم عن كنه القصة (والعير التى أقبلنا فيها) وأصحاب القافلة ، وكانوا قوما من كنعان من جيران يعقوب (وإنا لصادقون) تأكيد (فلما رجعوا إلى أبيهم) وقالوا له ما قال لهم أخوهم (قال) يعقوب (بل سوّلت لكم أنفسكم أمرا) أردتموه فقررتموه وإلا فمن ذا أفهم الملك أن السارق يؤخذ بسرقته (فصبر جميل) أى فأمرى صبر جميل أو فصبر جميل أجمل (عسى الله أن يأتينى بهم جميعا) بيوسف وبنيامين وأخيهما الذى توقف بمصر (إنه هو العليم) بحالى وحالهم (الحكيم) فى تدبيره (وتولى عنهم) أى عن بنيه أى وأعرض عنهم كراهة لما جاءوا به (وقال يا أسفا على يوسف) والألف بدل من الياء : أى يا أسفى ، والأسف أشدّ الحزن والحسرة ، والتجانس بين الأسف ويوسف غير متكلف (وابيضت عيناه) لما أكثر البكاء ، ومحقت العبرة سواد عينه فجعلته بياضا وكان يدرك إدراكا ضعيفا (من الحزن فهو كظيم) مملوء من الغيظ على أولاده يمسك له فى قلبه لا يظهره : أى مكظوم ، من كظم السقاء : شدّه على ملئه (قالوا تالله) لا (تفتؤ تذكر يوسف) أى لا تزال تذكره تفجعا ، ومن هذا :

فقلت يمين الله أبرح قاعدا ولو قطعوا رأسى لديك وأوصالى

أى لا أبرح ، وقوله (حتى تكون حرضا) أى مريضا مشرفا على الهلاك (أو تكون من الهالكين . قال إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله) البثّ أصعب الهمّ الذى لا يصبر عليه صاحبه فيبثه إلى الناس أى ينشره فهو لا يبثه إلا إلى الله .

روى فى باب المواعظ أن يعقوب اشترى جارية مع ولدها فباع ولدها فبكت حتى عميت (وأعلم من الله ما لا تعلمون) وأعلم من رحمته أنه يأتى بالفرج من حيث لا يحتسب الناس (يابنىّ اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه) فتعرّفوا منهما وتطلبوا خبرهما ، والتحسس هو المعرفة (ولا تيأسوا من روح الله) ولا تقنطوا من رحمة الله وفرجه (إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون) لأن من آمن بالله ودرس هذا العلم كما تقدّم فى هذا التفسير علم أن رحمته وسعت كل شىء علما يقينيا لا تقليديا ، فخرجوا من عند أبيهم قاصدين مصر (فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضرّ) أى الشدة والفقر ذا الجوع ، والأهل هم من خلفهم من العيال (وجئنا ببضاعة مزجاة) رديئة قليلة كاسدة لا تنفق فى ثمن الطعام إلا بتجوّز من البائع ، قيل هى صوف وسمن وحبة خضراء وما أشبه ذلك (فأوف لنا الكيل وتصدق علينا) أى فأتمّ لنا الكيل وتصدق علينا بردّ أخينا على اعتبار أن حرمة الصدقة خاصة بنبينا صلى الله عليه وسلم أو بالمسامحة وقبول المزجاة (إن الله يجزى المتصدقين) أى المتفضلين أحسن الجزاء . يقال إنه أخرج لهم نسخة الكتاب الذى كتبوه ببيعه من مالك وفى آخره وكتبه يهوذا فلما قرءوا الكتاب اعترفوا بصحته وقالوا أيها الملك إنه كان لنا عبد فبعناه منه فغاظ ذلك يوسف وقال إنكم تستحقون العقوبة وأمر بقتلهم فلما ذهبوا بهم ليقتلوهم قال يهوذا كان يعقوب يبكى ويحزن لفقد واحد منا فكيف إذا أتاه الخبر بقتل بنيه كلهم ثم قالوا إن كنت فاعلا ذلك فابعث بأمتعتنا إلى أبينا فانه بمكان كذا وكذا فذلك حين أدركته الرقة عليهم والرحمة فبكى و (قال) يوسف لإخوته (هل علمتم مافعلتم بيوسف) أى هل علمتم قبح مافعلتم بيوسف (وأخيه إذ أنتم جاهلون) لا تعلمون قبحه (قالوا أئنك لأنت يوسف) اللام لام الابتداء وأنت مبتدأ ويوسف خبره والجملة خبر إنّ (قال أنا يوسف وهذا أخى) من أبى وأمى (قد منّ الله علينا) بالسلامة والكرامة وهذه الجملة التى تممها لأجلها ذكر أخاه

وان لم يدخل فى سؤالهم (إنه من يتق) الله (ويصبر) على مايبتلى به وعلى الطاعات وعن المعاصى (فان الله لايضيع أجر المحسنين) الذين يجمعون بين التقوى والصبر ولهذا المعنى وضع المظهر موضع المضمر (قالوا تالله لقد آثرك الله علينا) اختارك علينا بحسن الصورة وكمال السيرة وجمال العلم والحلم والتقوى والصبر (وإن كنا لخاطئين) وإن شأننا وحالنا إنا كنا خاطئين متعمدين للاثم لم نتق ولم نصبر ، لقد أعزك الله بالملك وأذلنا بين يديك (قال لاتثريب) لاتعيير ولا تأنيب (عليكم اليوم) متعلق بتثريب ، وإذا لم تؤنبوا اليوم فكيف بما بعده ثم ابتدأ فقال (يغفر الله لكم) مافرط منكم .

روى «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ بعضادتى باب الكعبة يوم الفتح فقال لقريش ماترونى فاعلا بكم قالوا نظن خيرا أخ كريم وابن أخ كريم وقد قدرت فقال أقول ماقال أخى يوسف : لاتثريب عليكم اليوم» وروى « أن أبا سفيان لما جاء ليسلم قال له العباس إذا أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فاتل عليه « قال لاتثريب عليكم » ففعل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم غفر الله لك ولمن علمك» . ويقال إن إخوة يوسف لما عرفوه أرسلوا إليه « أنك تدعونا إلى طعامك بكرة وعشيا ونحن نستحى منك لما فرط منا فيك فقال يوسف إن أهل مصر وإن ملكت فيهم فانهم ينظرون إلىّ بالعين الأولى ويقولون : سبحان من بلغ عبدا بعشرين درهما مابلغ ولقد شرفت الآن بكم حيث علم الناس أنى من حفدة إبراهيم » اه .

واعلم أن هذه الحكاية المنقولة عنهم وأضرابها إنما أذكرها لتقف على المحاورات الحسنة التى تفيد قوة أدبية وان لم يكن هناك دليل على ثبوتها لا بالكتاب ولا السنة ولكن هذا أدب يحسن أن يقال ، وقوله (وهو أرحم الراحمين) من الوالدين وغيرهما . ثم سألهم عن حال أبيه فقالوا عمى من كثرة البكاء عليك فقال (اذهبوا بقميصى هذا) أى القميص الذى كان عليه (فألقوه على وجه أبى يأت بصيرا) يصر بصيرا فأتى هنا بمعنى صار كما تقول جاء البناء محكما أى صار . قال يهوذا أنا أحمل قميص الشفاء كما ذهبت بقميص الجفاء ، وتوجه به من مصر الى كنعان (وائتونى بأهلكم أجمعين) لينعموا بآثار ملكى كما اغتموا وحزنوا لأجلى (ولما فصلت العير) خرجت القافلة من عريش مصر ، يقال فصل من البلد فصولا إذا انفصل منه وجاوز حيطانه (قال أبوهم) لولد ولده ومن حوله من القوم (إنى لأجد ريح يوسف) وذلك قبل وصوله إليه (لولا أن تفندون) وهو نقصان عقل يحصل من هرم : أى لولا تفنيدكم إياى لصدّقتمونى (قالوا) أى الحاضرون (تالله إنك لفى ضلالك القديم) أى لفى خطئك القديم من حب يوسف وتوقع لقائه وكان عندهم أنه مات (فلما أن جاء البشير) أى يهوذا (ألقاه على وجهه) طرح البشير القميص على وجه يعقوب (فارتدّ) فرجع (بصيرا ، قال ألم أقل لكم إنى أعلم من الله مالاتعلمون) من حياة يوسف وإنزال الفرج (قالوا ياأبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين) وقد اعترفنا بذنوبنا فنحن أهل لصفحك عنا وأن تسأل لنا المغفرة (قال سوف أستغفر لكم ربى إنه هو الغفور الرحيم) وقد أخره إلى السحر أو إلى صلاة الليل أو غير ذلك ؛ ثم إن يوسف وجه إلى أبيه جهازا ورواحل ، فلما بلغ قريبا من مصر خرج يوسف ومعه الجند والملك فتلقوا يعقوب وهو يمشى يتوكأ على يهوذا (فلما دخلوا على يوسف آوى إليه) ضم إليه (أبويه) أباه وأمه واعتنقهما ، ومعنى دخولهم عليه دخولهم مصر وكانوا إذ ذاك اثنين وسبعين رجلا وامرأة وكانوا حين خرجوا مع موسى عليه السلام ستمائة ألف وخمسمائة وبضعة وسبعين رجلا سوى الذرية والهرمى (وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين) من ملوكها وكانوا لايدخلونها إلا بجواز ؛ وقد ثبت فى التاريخ أن الأمة المصرية كانت تضنّ على الغرباء بالدخول فى البلاد ، فلما فتحت أبوابها اقتحمها الأجانب فالمشيئة راجعة إلى الأمن مما تقدم ومن المكاره ومن القحط ، انتهى القسم الرابع والخامس .

لطيفة فى قوله تعالى « وفوق كل ذى علم عليم »

اعلم أن هذه الآية نزلت لتخرج المسلمين من جهالتهم العمياء إذ هم اليوم أقل الأمم علما ، وهذه السورة فيها سرّ العلوم ، ألم تر أنه بعد أن قصّ قصص يوسف وإخوته قال كما سيأتى « وكأين من آية فى السموات والأرض يمرّون عليها وهم عنها معرضون » فقوله « وفوق كل ذى علم عليم » مقدمة لذلك لأن العلم يكون بما ذرأ الله فى العوالم فهذه السورة وهذه الآية تطلبان من أمة الإسلام رقيا فى العلوم بلا نهاية ، فإذا كان المسلمون اليوم أجهل الأمم فإنهم فى المستقبل سيأخذون فى الارتقاء ، ومن المهدات له هذا التفسير . ولأذكر لك نبذة من كتاب [الدنيا فى أمريكا] لتنظر كيف ارتقوا فى كل شئ وأن المسلمين سيقولون إنهم أعلم منا وإن هذه آيات الله وهم تمتعوا بها ونحن محرومون .

عجائب الصناعات فى أمريكا

فيها بناآت شامخات فولاذية تناطح السحاب وتفاخر الشهب ، فهناك عمارة (ولورث) فى نيويورك لها ستون طابقا والصواعد الكهربائية التى تقل سكانها ثمانون ويسكنها اثنا عشر ألف نفس ولا تعدّ البناآت التى لاتتجاوز عشرين طابقا مرتفعة ، وتجد فى البناية الواحدة ستة طوابق تحت الأرض ولا تشيد المبانى إلا من الفولاذ والحجر فى المدن ، وفى كل عمارة ضخمة فى الطوابق التى تحت الأرض آلة للتهوية والتدفئة ، تحرّك هذه الآلة مروحة كبيرة تأتى بالهواء النقىّ من الخارج وتبعث به الى كل غرفة فى البناء ، ومتى أقبل الشتاء مرروا هذا الهواء فى تيار ساخن فدفأت جميع الغرف .

طرق المواصلات

يوجد منها فى المدن الكبيرة مما يوصل الى أجزائها المختلفة [ثلاثة أنواع] نوع يسير تحت الأرض كما فى باريس ولندن وبرلين ، ونوع يسير فوق الأرض كما فى مصر وغيرها ، ونوع معلق بين الأرض والسماء على عمد كبيرة الارتفاع يجرى فوقها قضبان تسير عليها تلك القطرات بمحاذاة البنايات الشاهقة ولا نظير لهذا فى الممالك الأخرى ، وهناك قطرات تسير تحت قاع النهر أى داخل أنابيب تحت الأرض التى يعلوها ماء البحر .

تسهيل الأعمال

فى مدينة (نيويورك) تضع قطعة من النقود فى ثقب هناك فهناك يفتح لك الباب للدخول القطار بلا مراقب ولا مفتش وتضع فى ثقب التليفون قطعة من النقود ثم تضع السماعة على أذنك بدون أن تقرع الجرس فتجيبك العاملة على الفور .

تسهيل العمل فى المطاعم

هناك مطاعم فسيحة أنيقة تقوم فيها المحركات مقام العمال ففيها آلاف من الثقوب النحاسية فوق كل منها مصباح موقد وثمن واسم طعام من الأطعمة من لبن وشاى الخ من كل مايخطر ببالك من طعام وشراب تضع الثمن فى الثقب الذى تريده فيبرز أمامك رف صغير فوقه طبق الطعام الذى ترغب فيه ، وهناك أجهزة لمسح الأحذية من تلقاء نفسها بعد إلقاء قطعة من النقود فى ثقب فيها ، ومثل ذلك آلات لغسل الأطباق والشوك والملاعق وأدوات الطبخ وتجفيفها وهكذا مما لاحصر له وهم يستعملون الكهرباء للانارة ولطهى الطعام ولغسل الثياب وغير ذلك . فى مدينة نيويورك ٧ آلاف صناعة يتلقى طلبة المدارس ٢٠٢ صناعة فقط منها .

التلغراف الذي لاسلك له

هذا هو الذي اخترعه العالم (ماركوني) الأمريكي ، وقد بلغ عدد المحطات التي تبث إلى السكان ليلا ونهارا سنة ١٩٢٣م (٤٦٤) محطة غير ما للحكومة وهو (٢٢٣) محطة وغير المحطات الخاصة وعددها (١٨٦٥٨) وبلغ عدد الأجهزة اللاسلكية في ولايات أمريكا المتحدة خمسة ملايين ، وثمن الجهاز من ستة ريالات إلى ألف ريال على حسب توصيله في المسافات بعدا وقربا ، وقد بلغ من منافعها ما يأتي :

أن رئيس الولايات المتحدة يقف أمام آلة التلفون المعتادة في قصره ويلقي خطابه بحماس وحمية وتكون آلة التلفون متصلة بشركة اللاسلكي وهذا يطيرها إلى كل ما لديه من جهاز فيسمع خطبة الرئيس الملايين من النفوس ويسمعها الناس في سائر أنحاء أمريكا وأوروبا ، وتراهم يقسمون الأوقات باللاسلكي فيقولون من الساعة ٤ إلى الساعة ٤ والدقيقة ٥ مثلا أخبار محلية ، ومن ٤ س و٦ ق إلى ٤ س و١٥ ق موسيقى ، وهكذا من حكاية فكاهية للأطفال إلى عظة شائقة ، إن الإنسان يسمع بهذه الأجهزة كل صوت في الصين وفي أوروبا وأمريكا متى كانت هناك أجهزة للاستعمال فيكون الناس على الأرض أمة واحدة ، بل العلماء هناك يقولون : إن فكر الإنسان يؤثر في عالم الأثير بحركات لطيفة ، ويظنون أنهم سيعرفون كيف يقرءون الأفكار فلا تبقى إذن للناس أسرار ، وهذا ظنهم « ولله عاقبة الأمور » .

الحركة الفكرية والتجارب العلمية

في مدينة نيويورك مدرسة شهيرة ثانوية يدفع الطالب فيها سنويا (١٥٠٠) ريال ويفضلها على مدارس الحكومة التي لا يدفع فيها قرشا واحدا ، وغرض هذه المدرسة وضع مقررات غير ثابتة فهي في تغيير مستمر والتغيير يكون على حسب الفائدة بالنتائج ، وهناك حقول لتجارب الزراعة فيزرعون الفواكه والخضر ويستبدلون الحب بغيره ليكون الناتج أكبر حجما وألذ طعما وأبهج منظرا وهكذا عملهم في تربية الحيوان ، وكم يتبرع العظماء بالمال لأجل الفوائد العلمية مثل ما يأتي :

إلى أي حد تكون الامتحانات العمومية دليلا على قوة الطلبة العلمية وقد كانت النتيجة بعد أن وضع الدرجات على أوراق الطلبة الامتحانية مئات من المدرسين وتلك الأوراق قد طبعت وكل مدرس لا يعلم ما ضعه الآخر . أقول كانت النتيجة أن الطالب الواحد تختلف درجته في العلم الواحد بحسب تقدير مئات وألوف المدرسين من ٣٠ الى ٩٠ في المائة من النهاية العظمى وهكذا فعلوا مع المدرس الواحد فهو يصحح الورق الذي صححه هو منذ شهور وهو لا يعلم أنه هو الذي صححه فكانت النسبة أيضا من ٣٠ إلى ٩٠ في المائة . فلذلك استبدلوا هذه الامتحانات بامتحانات أخرى . وأيضا برهنوا بالعمل على أن العقل لا يتعب بل الجسم هو الذي يتعب . وأيضا برهنوا على أن عدم النوم لا يؤثر في الذاكرة والحفظ فقد يفقد المرء النوم ثلاث ليال متوالية ومع ذلك يستطيع القيام بحل المسائل وتحرير الرسائل كالمعتاد . وأيضا برهنوا بالتجارب أنه خير للطالب أن يدرس علما أو يتذكر درسا ثلاث ساعات كل يوم لمدة ستة أيام من أن يدرس نفس الدرس ست ساعات كل يوم لمدة ثلاثة أيام مع أن عدد الساعات واحد . وأيضا برهنوا على أن تعلم البنت والولد في مدرسة واحدة خير وأبقى للأخلاق وأكثر صيانة لها ، وذلك بأنهم علموا كلا من الجنسين على حدة في مقاطعة والاثنين معا في أخرى وراقبوا النتائج سنين عديدة ، وبرهنوا أيضا على أن الطالب المقتدر في اللغات مقتدر أيضا في العلوم الرياضية بعكس ما نظنه في بلادنا . وأيضا كذبوا بالتجارب هذه القاعدة أن القوي في العلوم ردىء الحفظ وإنما أثبتوا أن الميل إلى الواحد قد يزيد عن الآخر فتقل اللذة فيه أو تضعف فلا تتكافأ معلومات الطالب في الاثنين ، وكذبوا بالتجارب أيضا قاعدة أن الذكي كثير النسيان فقد برهنوا على أن أكثر

الناس نسيانا أقلهم ذكاء ؛ وأيضا قام البرهان على أن حفظ قواعد اللغة لايساعد فى الإنشاء كثيرا ؛ وأيضا كذبوا بالتجارب ماقيل إن الهندسة مثلا والجبر يساعدان على تثقيف العقل ، وهذه القاعدة وضعها أفلاطون فى كتابه الجمهورية عن أستاذه سقراط ، فقد وصل هؤلاء إلى تجارب دلت على أن هذه العلوم لاتفيد تقوية ملكة التفكير ولا تثقيف العقل ؛ وأيضا أسقطت التجارب مايظنه الناس من أن أولاد المدن أقل ذكاء من أبناء القرى ، قدبلغت الصحافة هناك أنهم لايكادون يمسكون سارقا حتى تطير صورته الفوتوغرافية بواسطة (اللاسلكى) إلى جميع أنحاء أمريكا وتنشر تلك الصورة جميع الجرائد مذيلة بالاسم والعنوان والعمر والصناعة وشرح الجريمة ، وهناك جرائد مصوّرة يومية لا تنشر إلا أخبار السوء الشائنة ، وقد ذكرت لك أن ذلك يستنتج من آية فى سورة النساء فاقرأها هناك ولما كتبت ذلك هناك لم أكن اطلعت على ما قلته لك الآن فى أمريكا .

رقى المرأة

بلغ من رقى النساء فى أمريكا أنك ترى الطلبة فى جامعة (كلومبيا) مثلا أربعين ألفا وجميع مساعدى الأساتذة وكاتبى أسرارهم من النساء ، وكذلك ألوف الموظفين فى التسجيل والخزينة والبيانات المخصصة للطلبة الداخلين كلهم أو جلهم من النساء ، وهناك فرقة واحدة فيها (٣٢٠) طالبا يتلقون الفلسفة وأكثر من النصف نساء والسواد الأعظم من طلبة مدرسة الصحافة فى هذه الجامعة من البنات وكذلك السواد الأعظم من المحرّرين والمكاتبين منهن ، وفى كلية المعلمين فى تلك الجامعة أكثر من ثلاث آلاف طالب خمسهم من الذكور فقط والباقى من النساء ، وقد ثبت أن (٩٠) فى المائة من الأساتذة فى أمريكا من السيدات وأن فى مدينة (نيويورك) وحدها (١٩) ألف معلمة وأخت الرئيس (هاردنج) معلمة ، إن فى كل خمسين من السكان فى أمريكا طالبا فى المدارس الثانوية وعدد البنات فى المدارس الثانوية أكثر من عدد الذكور فى حين أن فى ألمانيا طالبا ثانويا فى كل مائة وثلاثين من السكان ، وعدد الطلبة فى فرنسا فى الأقسام الثانوية بنسبة طالب فى كل مائة وخمسين ، وفى انجلترا طالب فى كل مائة مع العلم أن الأغلبية الساحقة فى هذا العدد من الذكور ، إن فى أمريكا أكثر من عشرين مليون طالب وفى الأقسام الثانوية فقط أكثر من مليونى طالب أكثر من نصفهم من الإناث ، ويؤمّ أمريكا من الأمم المختلفة أكثر من عشرة آلاف طالب ليتلقوا العلم فى كلياتها وجامعاتها ، وقد بنى (روكفلر) أغنى رجل هناك بناء عظيما يسكن فيه جمع عظيم من الأمم ، والأعضاء فى هذه الأيام ألف ومائتان ثلثهم فقط من الذكور وهؤلاء الأعضاء يمثلون (٧٥) أمّة ويتعارفون ويتحابون وكل يعطى الآخرين مافى بلاده من أحوال ليكون فى غاية المسرة والانشراح .

الحركة العلمية فى أمريكا لها أغراض سبعة

(الغرض الأوّل الإلمام بالمعلومات العامّة) كالكتابة والقراءة والحساب وتقويم البلدان وغيرها وحذفوا بعد الاختبار ما اصطلح الناس على أنه يثقف العقول فقط كأكثر النظريات الهندسية والجبرية ويقولون إن المهندس لايحتاج إلا إلى سبع نظريات وغيره لايحتاج اليها ، ويقولون إن حل الألغاز الجبرية والهندسية لا تفيدنا فى حلّ ألغاز الحياة والشعر لايسهل علم الكيمياء ، وهل يستفيد المزارع والطبيب والمحامى والتاجر من تحليل الكميات إلى عواملها وإيجاد جذور الأعداد الرمزية والكميات الخيالية (الغرض الثانى : الاستعداد للمهنة) وذلك أن علماء التربية يجعلون فى حصص الدراسة المعتادة حصصا تتخللها الأعمال اليدوية الصناعية ليعرف الطالب صناعة منذ نعومة أظفاره وليحترم العمل اليدوى ولتظهر مواهبه الكامنة فيه (الغرض الثالث الصحة) ولقد جعلوا الصحة فى مستوى الأغراض الأخرى فلهم برك صناعية للعوم والسباحة ومسابقات

وألعاب مختلفات تقوية لأبدانهم (الغرض الرابع : خدمة الوطن) يفهمون التلاميذ أن يعيش الفرد للمجموع ويشعر بالمسئولية الملقاة على عاتقه ويقرأ التلميذ تاريخ آبائه وأجداده وما أتاه الأبطال من جلائل الأعمال ويقرءون خطبهم وحكمهم وترى علم البلاد خفاقا ليلا ونهارا فوق سارية (الغرض الخامس : استخدام أوقات الفراغ) يقولون إن ساعات الدراسة لا تتجاوز الثمان أو التسع ساعات وما يبقى بعد ذلك ضعف هذا العدد فيقول هؤلاء إن أوقات الفراغ أكثر دلالة على تربية المرء من أوقات العمل ويقولون أرنى ما تفعل فى أوقات فراغك وأنا أريك من أنت ، وعلى هذا المبدأ وضع القائمون بشؤون التعلم فى أمريكا مبدأ عاما لجميع معاهدهم وهو وجوب تعليم الناشئة كيف يستخدمون ساعات الفراغ فى أحسن وجوهها فيجعلون للطلبة نوادى كنادى السباحة أو البياحة أو الحياطة أوالبطاطس أى زراعته أو ركوب الخيل أو الخطابة أو التأليف أو الصحافة أو المطالعة (الغرض السادس : الحياة العائلية والعمل على إسعادها) يقولون ليست المرأة وحدها مسئولة عن المنزل والعمل على تهيئة وسائل السعادة فيه ، فدروس علم الاجتماع يدرسها الرجال والنساء ويعرفون آداب المائدة والزيارة والاستقبال ومعاملة أفراد العائلة بعضهم لبعض وطبخ الطعام يتعلمه الذكور كما يتعلمه الإناث (الغرض السابع : من أغراض التربية تكوين الأخلاق) ولكن لايدرسون علم الأخلاق ولكن الأخلاق بالقدوة والمثال اكتسابا تكتسب فى المنزل على صدر الأم وركبتى الأب وعلى المائدة وفى غرفة الاستقبال كما فى المطبخ وفى حجرة الدراسة من المعلم أو المعلمة ومن علاقات الطلبة بعضهم ببعض .

التعلم المشترك بين الجنسين

إن اليابان تربى البنت جنبا إلى جنب الولد فى المدارس الابتدائية الأوّلية وتفصل فى الأقسام الثانوية ثم تضم إليه مرة أخرى فى الكلية والجامعة . ويقال إن ألمانيا وفرنسا وانجلترا أميل إلى هذا الرأى ، أما أمريكا فان فيها نحو مليونين ونصف مليون من الطلاب فى الثانوى منهم مليون ونصف مليون من الإناث وهكذا الحال تقريبا فى بلاد اسوج ونروج وهولانده والدانمرك وجزائر الفيلبين يتبعون النظام المشترك فى جميع مدارسهم من الأقسام الأوّلية والابتدائية والثانوية إلى الكليات والجامعات ، وهكذا جزائر (الهواى) السحيقة الواقعة فى عرض المحيط الهادى فان تعليمها مجانى إجبارى مشترك لكل طالب وطالبة بين سن السادسة والسابعة عشرة ، وهكذا (بورت ريكو) التى آلت إلى الولايات المتحدة سنة ١٨٩٨ فان عدد سكانها لا يربو عن مليون نسمة ومع ذلك بها مائة ألف طالبة وبجانبهن مائة ألف طالب .

هذا ما أردت تلخيصه من كتاب (الدنيا فى أمريكا) لأريك أيها الذكى المسلم المصلح للأمة الاسلامية صورة من صور التعلم فى الدنيا التى نعيش فيها ، ذكرت لك ذلك ولم أقل لك نفعل مثلهم حذو القذة بالقذة ولكن أقول هؤلاء فاقونا فى العلوم والصناعات والأعمال والأحوال وأساس ذلك كله العلم إذ لاعمل إلا بعلم ولا علم إلا بتعليم والعلم هو الذى جاء فى هذه الآية « نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذى علم عليم » .

فها أنت ذا أيها الذكى ترى أن الناس قد اخترعوا وجدّوا وصنعوا وارتقوا وكلما وصلوا إلى درجة ظهرت لهم درجات إذ لانهاية للعلم لأن فوق كل ذى علم عليم ، هكذا فى سورة طه بعد هذه السورة بسبع سور يقول الله لرسوله « وقل رب زدنى علما » ، إن المسلمين أولى بهذه العلوم ، إن المسلمين أولى بهذه العلوم ، إن المسلمين هم خير أمة أخرجت للناس فهل يكونون خير أمة أخرجت للناس وهم قد تركوا مواهبهم وعجائب صنع ربهم فلم ينتفعوا بها وجهلوا كل شىء .. إن المسلمين فى المستقبل سيزدادون علما وحكمة كما أمرهم ربهم ويقرءون علوم الأمم ويصطفون لهم طرقا تناسب أحوالهم ولا يتكلون على نظريات غيرهم بل يجربون ويدرسون كما فعلت أمريكا ، وإذن يكونون ممن قال الله فيهم « فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك

الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب » وإنما قال هم أولوا الألباب لأنهم عرفوا الأحسن بالبرهان لا بالتقليد « وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن » فالأمم فى تعاليمها أشبه بعباد الأصنام يدرسون ما سنه غيرهم ولا يفكرون بأنفسهم ولكن علماء العصر الحاضر أخذوا يفكرون كما ذكرت لك فى هذا الملخص والمسلمون أولى بهذه الآراء والتحقيق والبحث والتفكير ، إن الأمم الإسلامية اليوم أجهل الأمم وبعد هذا التفسير وغيره من المؤلفات سيقوم فى هذه الأمم الاسلامية من يفوقون الأمم فى أقرب زمن .

وإذا كنا خير أمة أخرجت للناس . وإذا كنا من الواجب علينا أن نسمع القول فنتبع أحسنه ، وإذا كنا كآباء للأمم ، وإذا كنا شهداء على الناس ، إذا كنا بهذه الصفات كلها فواجب علينا أن نتحلى بها عملا وإلا فكيف نرى أهل أمريكا وأهل أوروبا يسمع الرجل منهم الخطب ودروس العلم من جميع الأقطار وهو فى حجرته ونحن غافلون جاهلون ، وكيف يتعلم الذكور والإناث ونحن فى غفلة ساهون ، أليس عموم التلغراف الذى لاسلك له جعل الشرق يسمع الغربى والغربى يسمع الشرقى وكأن الناس كلهم أمة واحدة ، أليس ذلك يذكرنا بآية « كان الناس أمة واحدة » ولعل الناس فى أزمان مجهولة لنا كانوا متواصلين بهذا النمط ثم انحطت مداركهم صاروا على ما هم عليه اليوم . ولعل هذه الحركة الحاضرة مبشرة بأيام يتحاب فيها الناس جميعا من جميع أهل الأرض المسماة أيام نزول المسيح ، والله أعلم اه .

لطيفة فى اعتراض لأحد العلماء وجوابه

ولما وصلت إلى هذا المقام واطلع عليه أحد الإخوان الفضلاء قال : لقد أتيت هنا بالعجب العجاب وذكرت عجائب العلماء فى أمريكا ، ولكن بالله قل لى إننى ألاحظ عليك أنك ماقرأت علما ولا رأيت حكمة إلا ألصقتها بالدين ، فقلت له : ما الذى رابك فى هذا ؟ قال [مسألتان] الأولى علمية والثانية دينية ، فقلت : فما المسألة العلمية ؟ قال ألم تذكر أنهم يرون أن الهندسة والجبر ونحوهما أصبحتا لاقيمة لهما وأنهما أجدر أن يحذفا وأن هناك سبع نظريات هى التى يجدر بالمهندسين معرفتها الخ ، وهكذا مسائل من هذا القبيل ، فقلت : وهل أنا قلت إننا نأخذ بهذا عينه ؟ ألم أقل إن هذه المباحث تغرينا بالبحث عنها وعن غيرها فنصطفى مارق وراق ونترك ماليس لنا عليه برهان ، أنا ذكرت ذلك كله لغرض أن نجعله موضع البحث وإلا إذا سألتنى عن رأيى أقول إن العلوم كلها فروع لشجرة واحدة هى الحياة ، العلوم كلها مشتركة مشتبكة فأعلاها محتاج لأدناها هذا كله لاريب فيه ولعل القوم يريدون أن الطالب لايجوز له التغالى فى علم إلا إذا كان مستعدا للاختصاص فيه وإلا فالعلوم كلها متضامنة اه

ثم قلت : فما المسألة الثانية ؟ قال هى مسألة الدين ، إنك ذكرت أن النساء يتعلمن مع الرجال من الصغر وأنهم وجدوا أن هذا أقرب إلى العفة وحسن المعاشرة والرقى فى العلوم ، فإذا أنت رويت هذا فمعناه أن المسلمين فى نظرك يفعلون هذا فيتعلم نساؤهم ورجالهم معا ، وهذا يناقضه قوله تعالى « وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولايبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بنى إخوانهن أو بنى أخواتهن أو نسائهن أو ماملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم مايخفين من زينتهن وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون » فأنت إذا قلت للمسلمين ذلك فمعناه أنك أبحت رفع الحجاب وهذا يأباه الإسلام والمسلمون ، فقلت إن علماء الإسلام أباحوا رؤية الوجه ونحوه إذا مست الحاجة وذكروا من ذلك تحمل الشهادة والمتاجرة مع المرأة والتطبيب والمحاسبة وماأشبه ذلك . كل ذلك وغيره ذكره

العلماء ودوّنوه فالمدار عندهم على الحاجة ، ثم إنى لم أقل إن التعليم يجب أن يكون الذكور فيه مع الإناث وإنما حكيت ما فعل القوم لاغير، وقلت فلنتبع أحسن السبل ، فإذا ثبت أن طريقتهم أحسن السبل فى التعليم وأن اختلاط الإناث بالرجال فى سن التعليم أخرج لنا رجالا ونساء أفضل من الموجودين الآن ؛ إذا ثبت ذلك فرضا فماذا نفعل ؟ قلت ألم أقل لك إن الاختلاط أجازه العلماء للحاجة ، قال هذا القول لايشفى من علة ولا يروى من غلة ، فقلت له سيأتى فى سورة النور مسألة الحرام والحلال فى هذا المقام ، فلنذر الكلام فيه ولنبحث فى أمر الأمة الإسلامية العام فنقول :

إن المسلم يعيش ويموت وهو لايعلم أن سوأة أمته مكشوفة أمام جميع الأمم وأمام الله والنبى صلى الله عليه وسلم ، فلقد أجمع العلماء أن ترك الصناعات والعلوم التى تعيش بها الأمة وتحفظ كيانها تكون كلها ذنوبا على الأمة ، فيصبح المسلم كل يوم وفى رقبته ثمانية آلاف ذنب فإنه مأمور بصناعات وعلوم قد امتلأت بها أوروبا وحاربتنا بها فإن لم نعرفها كنا جميعا مذنبين ، فهذه سوآت وعورات مكشوفات لله وللناس وللنبى صلى الله عليه وسلم ، فإن لم يقم بها رجالانا ونساؤنا : أى لكل علم ولكل صناعة جماعات من الطرفين فإن الأمة كلها مذنبة ، فهذه سوآت عرفتها أوروبا فأتت وأخذت بعض بلاد الإسلام وهذا لأننا خلعنا لباس التقوى غالبا .

جعل الله لباس التقوى أفضل من اللباس الحسى وهذا حق فلباس التقوى متى عرى منه الإنسان وقد لبس أفخر الملابس حقره الناس جميعا ، فالجاهل بين العلماء واللصوص والزناة وأرباب السوابق وهكذا كل ذى ذنب وعيب كل هؤلاء يحقرهم الناس ويكرهونهم وعوراتهم بادية ظاهرة وأحوالهم مكشوفة فهؤلاء نزع عنهم لباس التقوى وإن كانوا مستورى العورات ، فاذا بقى المسلمون على هذه الجهالات فانهم قد كشفت سوآتهم وإن لبسوا أفخر الملابس فالمدار على التقوى والتقوى تشمل جميع العلوم والمعارف وجميع الآداب والمسلمون اليوم أكثرهم عارون من هذه الملابس، فاذا لبس الشبان والشابات لباس العفة والأدب والأخلاق والعلوم وكانوا أعف ولو قليلا من جيلنا الحاضر فهم أفضل منا ألف مرة وهم أعلم بالقرآن وفهمه ، فقال لله درّك والله موفقك وخلق الحكمة على لسانك والحمد لله رب العالمين .

فقلت إذن أنت توافقنى أن المسلمين يجب عليهم أن يرتقوا فى الأسباب وأن يقرءوا علوم الأمم ولايعوقهم عن ذلك عائق وأن القرآن لم يترك فرصة لجاهل من المسلمين يتحل بها عذرا فانه جاء فيه « وفوق كل ذى علم عليم » وجاء فيه أيضا « وقل رب زدنى علما » والآية الأولى خبر لايدخله النسخ والآية الثانية ليست منسوخة فأصبح المسلم بين هاتين الآيتين ملزما أن يقرأ علوم الأمم وأن يترقى فيها أما قراءة علوم الأمم فلنعلم مالانعلم ، وأما الارتقاء فهو واجب فنحن فى كل حين يجب أن نزداد علما والعلم لانهاية له إذ فوق علمائنا علماء فنحن إذن ملزمون بالازدياد فى كل شىء ولو لم يكن فى القرآن سوى هاتين الآيتين لكفتا فى وجوب ارتقاء المسلمين فى كل علم وكل صناعة ، هذا سر قوله « وفوق كل ذى علم عليم » انتهى .

ابتكار أهل أمريكا أيضا فى علم الزراعة وقوله تعالى « وفوق كل ذى علم عليم »

موازنة بين الهواء والدخان والصخور وبين الذهب والملوك والقديم من الديانات

لعلك أيها الذكى القارئ لهذا التفسير تعجب من هذا الموضوع الذى طال بصدد الكلام على أهل أمريكا فى قوله تعالى « وفوق كل ذى علم عليم » وأنا أقول إن هذه الإطالة لابد منها لإيضاح المقام والقرآن كلام الله والناس عباده ونحن نسطر فى تفسيره ماشرح الصدور وبسر الجمهور ، واعلم أن الناس لايشرح صدورهم إلا ماشرح صدر المؤلف والمؤلفون المتكلفون هم الذين لايفلحون قال تعالى « قل ما أسألكم عليه من

أجر

أجر وما أنا من المتكلفين إن هو إلا ذكر للعالمين ولتعلمن نبأه بعد حين » ، ولم يؤخر للسلمين ويوقعهم فى السبات العميق إلا اقتناء الكتب التى كتبها مؤلفوها تكلفا فهذه لاتؤثر فى قارئها لأن المتكلف ليس منشرح الصدر لما يكتب وهناك صلة بين الكاتب والقارىء والمتكلم والسامع ولست تعرفها إلا بالتجربة والذى خطر لى اليوم ما يأتى ، ذلك أنى قرأت فى رحلة نشرها أحد أصدقائى المصريين أثناء طبع هذه السورة يوم (٧) اكتوبر سنة ١٩٢٧ وهذا نص ما أريده منها ، قال :

[وقد توصل القوم فى أمريكا إلى استخراج (البوتاسا) من الهباب الذى يتطاير من مداخن المصانع بحيث حصلوا منه مائة ألف طن أفادهم فى زراعتهم ومعلوم أن الطن نحو (٢٢) قنطارا ، وقد توصلوا إلى عمل (حمض الفوسفوريك) من الحجر والصخور واستعملوه ضمن الأسبخة الزراعية وهم الآن يدرسون طبيعة التربة ويرسمون خريطات مختلفات لدرس المسائل (الأزوتية) بصفة عامة والتجارب التى يهتمون بها الآن هى البحث عن الأزوت الموجود فى الجو على هيئة (نوشادر) لاستعماله ضمن الأسبخة] .

فلما قرأت هذا خطر لى هذا الموضوع الذى ابتدأت به هذا المقال فلأشرحه فأقول : انظر إلى الأمم قديما وحديثا وتعجب من صنع الله فى الأرض ، ويظهر أن الله عامل النوع الإنسانى كله معاملة نفس واحدة فهو كله أشبه بصبى أرسله أبوه إلى العلم فى صغره وأطلق له الحرية فى كبره ، ألا ترى أن دراسة تاريخ الأمم تكشف لنا النقاب عن هذه الأمور :

(١) التعامل بالنقود من الذهب والفضة وغيرها قد جعل فى الأمم طبقة المرابين الذين يعيشون من ثمرات « العاملين » وهم لايعطون الناس مطعما ولا ملبسا ولا غيرهما .

(٢) الملوك فى جميع الأمم يستبدون بالرعية ويبطشون .

(٣) وهكذا رجال الدين فى جميع الأمم السالفة استبدوا بالناس بعد أنبيائهم كما هو حاصل فى الدين المسيحى فى القرون الوسطى وفى الدين البرهمى إلى الآن .

فههنا ظهر أن الأمم كانوا أطفالا وأكثرهم لايزالون كذلك يخضعون للملوك ولرؤساء الدين ولأرباب المال ، وتفرع على ذلك أن قوما بحثوا عن الذهب من علم الكيمياء وأضاعوا فى ذلك أعمارهم ، وهكذا ترى رجال الدين فى أكثر الأمم يجدون فى العلو على الناس ويحرصون على الرئاسة والعظمة والمال بطريق الدين ، وهكذا أكثر علماء الفقه قديما فى أمتنا الإسلامية كما نقلته لك عن الإمام الغزالى فى سورة المائدة فانظر حال الأمم الآن وتعجب من فعل الله عز وجل ، فانظر كيف حبس عقول القدماء فى استخراج الذهب بطريق الكيمياء ، وجعلهم خاضعين للملوك ولرجال الدين فكأن الناس إذن عند علماء دينهم وعند ملوكهم أطفال جهال يسخر منهم ملوكهم ورؤساء دينهم ويسخرونهم .

ألا تعجب الآن كيف أصبح الناس يبحثون فى الهواء عن (الأوزوت والنوشادر) لأجل نجاح الزراعة ويكسرون الأحجار والصخور لاستخراج (حمض الفسفوريك) ولا يضيعون الدخان المتطاير من المداخن فيأخذون منه أكثر من (ألفى ألف) قنطار فى السنة من (البوتاسا) وهكذا كان المسيحيون يحرمون جميع العلوم فلما أن جاء الإسلام أخذوا يفكرون ونبذوا القديم وقرءوا العلوم وهكذا المتأخرون من أمتنا الإسلامية أصبحوا كالمسيحيين القدماء حرموا من العلم ، وها نحن أولاء الآن نجدهم مشمرين عن ساعد الجد لحوز العلوم اليوم وهذا التفسير من مقومات هذه النهضة .

فاعجب لصنع الله عز وجل ، حرر العقول الواهمة فأراها أن النعم الحقيقية فى استخراج النافع من هواء

ومن صخور ومن دخان ، من هذه كلها يستخرج الناس سمادا لمزارعهم وهذا أفضل وأجلّ وأعظم من استخراج الذهب بما لاحصر له ، هذا هو تحرير العقول الإنسانية وإخراجها من الجهالة ، فالديانات الآن أصبحت لاتمنع العلم ولكن الإسلام يوجبه فسلطان الدين إذن لايمنع من العلوم ، ها هو ذا العلم أخرج الناس من الظلمات إلى النور ، أخرجهم من قيود الذلة للملوك وصارت المجالس النيابية قائمة مقامهم ، ها هو ذا العلم زلزل قواعد للملكية وفتح باب المشورة ، أخرجهم من الأوهام القائلة الفاتكة بهم إذ استبد بهم الملوك فسلبوا أموالهم فقعد العلماء والشعراء بأبوابهم يستعطفونهم ليرزقوهم مما نهبوا من الرعية ، أخرجهم من سجن الذهب إذ كان العالم البارع هو الذى يعثر على طريقة استخراج الذهب بطريق الكيمياء ، وهيهات هيهات النوال والغنى بل كانوا يموتون فقراء ، لماذا هذا ؟ لأنهم جهلوا الحقائق ، ذلك أن الذهب إنما هو واسطة التبادل للمنافع ولو أن الذهب ملأ الأرض وليس فيها قوت ولا ملابس لمات الناس فالذهب كالحجر عند عدم المنافع المادّية من مأكل وملبس ، كلا بل الحجر أصبح أفضل من الذهب بالعلم لأنهم استخرجوا منه كما رأيت المواد التى تسمد بها الأرض ، وهذا السماد حياة الزرع ، والزرع به حياة الإنسان والحيوان ، والذهب ليس له إلا أن تعرف به القيمة فحسب ، إذن العلوم قلبت أوضاع العقول الإنسانية التى تقدّس الذهب فأرتها أن أحجار الجبال التى تزدرونها ودخان بمعاملكم خير وأبقى والذهب إنما هو أمر ثانوى للتبادل فمن استبدل الذى هو أدنى بالذى هو خير فهو جهول .

هذا كله داخل فى قوله تعالى « نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذى علم عليم » فهؤلاء الذين عرفوا نعمة ربهم واستخرجوها من الدخان للنيرذ ومن الهواء النتروك ومن صخور جبالهم وهؤلاء الذين لم يقيدهم دينهم ولم يقعد بهم عن المعالى ولا استناموا لملوكهم أرفع درجات من أولئك الجهلاء الذين جهلوا نعم ربهم أو ظنوا أن دين الله الذى أنعم على الناس بهذه الدنيا كلها يمنع من تلك النعم أو استبد بهم ملوكهم فأذلوهم ، ولما كان رفع الدرجات المذكور ليس له سبب إلا العلم أعقبه بقوله « وفوق كل ذى علم عليم » اهـ .

القِسْمُ السادِسُ

وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ * ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ * وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ * وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ * وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ * وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ * أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ

لايشعرون * قل هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين * وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ولدار الآخرة خير للذين اتقوا أفلا تعقلون * حتى إذا استيئس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجي من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين * لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون *

التفسير اللفظي

قال تعالى (ورفع أبويه على العرش) السرير الذي كان يجلس عليه يوسف ، والرفع : النقل إلى أعلى (وخرّوا له سجداً) أي يعقوب وأمه وإخوته ، وقيل خالته لموت أمه ، وكانت تحية القوم إذ ذاك السجود وهو الانحناء والتواضع (وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل) التي رأيتها في أيام الصبا (قد جعلها ربي حقا) صدقا (وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن) وأعرض عن ذكر الجبّ لئلا يكون تثريبا عليهم (وجاء بكم من البدو) من البادية لأنهم كانوا أصحاب مواش يتنقلون بها في المياه والمناجع (من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي) أي أفسد بيننا وأغرى . يقال نزغ الرائض الدابة إذا نخسها وحملها على الجري (إن ربي لطيف لما يشاء) لطيف التدبير فلا صعب إلا وله فيه تدبير ينفذ فيه مشيئته (إنه هو العليم) بوجوه المصالح والتدابير (الحكيم) الذي يفعل كل شيء في وقته . يقال إن يوسف طاف بأبيه في خزائنه ، فلما أدخله خزانة القراطيس قال يا بنيّ ما أعقك، عندك هذه القراطيس وما كتبت إليّ قال أمرني جبريل قال: أوما تسأله قال أنت أبسط مني إليه فاسأله ، فقال جبريل الله أمرني بذلك لقولك « وأخاف أن يأكله الذئب » قال فهلا خفتني (رب قد آتيتني من الملك) ملك مصر (وعلمتني من تأويل الأحاديث) تقدم تفسيرها في أول السورة يا (فاطر السموات والأرض أنت وليي في الدنيا والآخرة) تتولاني بالنعمة في الدارين وتوصل الملك الفاني بالملك الباقي (توفني مسلما) طلب الوفاة على الإسلام كما قال يعقوب لولده « ولا تموتنّ إلا وأنتم مسلمون » أو مخلصاً ومسلما إليك أمري (وألحقني بالصالحين) من آبائي وغيرهم (ذلك) أي ما ذكر من نبأ يوسف كائن (من أنباء الغيب نوحيه إليك) خبر (وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون) يقول تعالى هذه من أنباء الغيب بالوحي لأنك لم تكن مع إخوة يوسف حين هموا أن يجعلوه في غيابة الجب وهم يمكرون به وبأبيه ليرسله معهم يرتع ويلعب ؛ ولقد لبثت في قومك أربعين سنة قبل هذا ولم تلق أساتذة معلمين ولا قرأت كتبا وذلك قد ذكر في آية أخرى « ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا » (وما أكثر الناس ولو حرصت) على إيمانهم (بمؤمنين) لأنهم معاندون (وما تسألهم عليه) على الإنباء أو القرآن (من أجر) جعل كما يفعله القصاصون (إن هو إلا ذكر) عظة (للعالمين) عامة (وكأين من آية في السموات والأرض يمرّون عليها) على الآيات ويشاهدونها (وهم عنها معرضون) لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) فاذا سئلوا من خلق السموات والأرض وأنزل المطر قالوا الله ، وهم مع ذلك

يعبدون الأصنام ، وهذه الآية فى أهل الكتاب والمنافقين والمشركين (أفأمنوا أن تأتيهم غاشية) عقوبة تغشاهم وتشملهم (من عذاب الله أو تأتيهم الساعة بغتة) فجأة من غير سابقة علامة (وهم لايشعرون) بإتيانها ولااستعداد عندهم (قل هذه سبيلى) أى الدعوة الى التوحيد والاعداد للمعاد حال كونى (أدعو إلى الله على بصيرة) بيان وحجة واضحة (أنا) تأكيد للضمير المستتر فى أدعو (ومن اتبعنى) عطف عليه (وسبحان الله) أى وقل يامحمد سبحان الله أى تنزيها له عن كل مالايليق به (وما أنا من المشركين) أى وقل يا محمد « وما أنا الخ » (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا) مثلك (نوحى اليهم من أهل القرى) لأنهم ذوو علم وحلم فأما أهل البوادى ففيهم الجهل والفباوة (أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ولدار الآخرة) أى ولدار الساعة الآخرة (خير للذين اتقوا) الشرك وآمنوا (أفلا تعقلون) فلا يغرنهم تمادى أيامهم فان من قبلهم أمهلوا (حتى إذا استيأس الرسل) من النصر (وظنوا أنهم قد كذبوا) أى كذبتهم أنفسهم حين حدثتهم أنهم ينصرون (جاءهم نصرنا) أى للمؤمنين والأنبياء فجأة (فنجى من نشاء) أى النبى وقومه (ولايرد بأسنا) عذابنا (عن القوم المجرمين) أى الكافرين (لقد كان فى قصصهم) أى فى قصص الأنبياء وأممهم (عبرة لأولى الألباب) حيث نقل يوسف من غاية الجب الى غيابة الجب ومن الحصير الى السرير . فاذن عاقبة الصبر الجميل جميلة * وأفضل أخلاق الرجال التصبر * (ماكان) القرآن (حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه) أى ولكن كان تصديق الذى بين يديه من الكتب السماوية (وتفصيل كل شىء) يحتاج إليه فى الدين (وهدى) من الضلال (ورحمة) ينال بها خير الدارين (لقوم يؤمنون) يصدقون . انتهى التفسير اللفظى .

وهنا [خمس جواهر] فى هذه السورة :

الجوهرة الأولى فى رؤيا يوسف عليه السلام ورؤيا الملك

رؤيا يوسف عليه السلام ورؤيا الملك مطلعان من مطالع كواكب العلم مشرقان

هذا كتاب سماوى ومن دأب أمثاله أن يسمو بالعقول إلى المدارك الشريفة بطريق الإشارات الحكمية ليفتح للبصائر أبواب الفهم ، وهناك تتشعب الآراء ويبحث العقلاء ويجد المفكرون ، وتكون تلك الأنوار العلمية أشبه بضوء الشمس إذ يسطع على الأحياء من مملكتى الحيوان والنبات وعلى الجماد فتقبل كل مملكة من النور مايلائم أشكالها ، ويوافق أحوالها ، ويلائم نظامها .

فهاتان الرؤيان قد فتحتا [بابين] من العلم .

[الباب الأول] ماسأذكره من عوالم اليقظة وعوالم الأحلام فى المنام .

[الباب الثانى] ماقدمته فى أول هذه السورة من أنهما قد كانتا سببا فى نشر المقالة المتقدمة المبنية على أن فرعون مصر فى تلك الأحقاب قد كان مغرماً بأمر الرعية ، فرأى فى المنام السنبلات الخ ثم أبنت أن الفلاح وثوره محتاجان إلى طيور تأكل الدود الفاتك بالزرع وأنه ترك ذكرها لأنها أشبه برجال القضاء والمحاماة ، أولئك الذين اضطر إليهم الناس اضطراراً ولو كان الناس جميعا كاملين لم يكن لهم قضاة ولا محامون هكذا هنا لولا مافى الأرض من حشرات مخلوقات فيها لتمتص الرطوبات لم تكن فى حاجة إلى أنواع الطيور الخاصة بأكل الحشرات .

كل هذا ذكرته أوأشرت إليه لتبيان السبب فى ترك ذكرها فى رؤيا الملك ، ثم استطردت بذكر أنواع تلك الطيور التى عرفتها أمتنا المصرية ورسمت صورها .

بيان السبب فى ذكر تلك الطيور فى هذا التفسير وكيف جاز تصورها فيما تقدم

أما السبب فى ذكر الطيور فى هذا التفسير التى حرّم صيدها أهل بلادى فذلك ليكون ذكرى للذين أن يتبينوا مابيلادهم من الطيور النافعة لزرعهم بأكل الدود أوالفيران ولن يتم لهم ذلك إلا بأن يكون عندهم علماء اختصاصيون فى هذه العلوم ويكونوا دارسين لعلوم الأمم المحيطة بهم ، هذا أمر أصبح واجبا وتركه حرام لأنه فرض كفاية كما شرحناه مرارا فى هـذا التفسير فى أواخر سورة البقرة عند قوله « لايكلف الله نفسا إلا وسعها » وفى أوائل سورة المائدة عند قوله تعالى « فبعث الله غرابا الخ » وفى مواطن أخرى تقدمت . وليعلم المسلمون فى أقطار الأرض أنهم محاسبون معذبون فى هذه الدنيا قبل الآخرة إذا أهملوا دراسة الطيور ودراسة سائر العلوم . اللهم إنى قد أديت الأمانة وبذلت النصيحة ، وأنت أيها القارىء الذكى أصبحت مسئولا مثلى فاجعل كل حياتك لخدمة أمتك ولتكن من حاملى لواء العلم ومن أعمدة النظام العام فى الأرض فبهذا قد استعددت لتكون خليفة فى الأرض ، ونورا مبينا ، ونجما طالعا ، وشمسا مشرقة .

لطيفة (١)

لقد تقدم فى سورة هود عند تفسير البسملة الكلام فى رحمة الحيوان والأحاديث الواردة فى ذلك وكيف أمر النبى صلى الله عليه وسلم أن يردّوا الطائر الصغير إلى أمه لشدة شغفها به ، وقد بينت هناك أن الرحمة هنا واجبة وأن الأمم الإسلامية غالبا لايفكر علماؤها فى نصح العامة فى هذا .

لطيفة (٢)

وقد تقدم فى سورة يونس أن رسم الصور الشمسية مباح ، وقد ذكرنا هناك آراء بعض هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف بإباحة رسم الحيوان بالتصوير الشمسى ، وإنى أرى أنه واجب فى مثل هذا الكتاب لأجل التعليم وإلا فمن أين يعرف المسلمون أنواع الطيور إن لم يروا صورها بأنفسها .

هذا ما أردته فى هذا المقام لتعلم أن مارسم من صور الطيور فى هذه السورة واجب لأجل تعليم الأمة لاحرام ، والله هو الولى الحميد انتهى الكلام على الباب الثانى .

﴿ الباب الأول ﴾

فى الكلام على أن هاتين الرؤيين قد فتحتا عوالم اليقظة وعوالم الأحلام فى المنام

اعلم أيدك الله أن القرآن بسبب كونه كتابا سماويا يفتح مغالق من العلم لم يكن فتحها بالحسبان ، ذلك لأن الناس فى أمثالهم يقولون [كلام الملوك ملك الكلام] وليس هذا القرآن كلام ملوك بل هو كلام ملك أولئك الملوك . فاذا رأينا أمم الأرض اليوم تهتز أسلاك لهم البرقية وتكتب جرائدهم ماينطق به رئيس الولايات المتحدة أوملك انكلترا أونحو ذلك ، ويعلقون على الجملة الواحدة وقر بعير أوأكثر فى جرائدهم ومجلاتهم فى الشرق والغرب ، فكيف بكتاب نزل من ربّ أولئك الملوك فهو أحقّ بالتعليق والتذكرة . إذن نقول يذكر الله رؤيا الملك ورؤيا يوسف ، ويبين لنا فيهما الزرع والدواب والسجود والكواكب والشمس والقمر ففيهما العالم الكثيف واللطيف والعلوى والسفلى ، فلنشرح هذا المقام بما فتح الله به فنقول :

(١) حبس الناس فى هذه الأرض مع النبات والحيوان ، أول درجة من درجات الحياة أدنى الحيوان كالدودة فى لبّ الثمار وبطن الحيوان ذلك الذى ليس له إلا حاسة واحدة هى حاسة اللمس ، ثم يترقى قليلا بحاستين فثلاث فأربع فخمس ، فيكون ارتقاء حتى يصل إلى الآساد والنمور والقردة والإنسان وهو درجات أعلاه الحكماء والأنبياء .

(٢) هذه طبقات أدناها مالايحسّ إلا بما يمسّ جلده كالدود وأعلاها يعرف عالم الأرض وعالم السموات

فأعلاها يجاور الأفلاك والملائكة وأدناها مغمور في الطين مسجون ، إن هذه الدرجات كتاب مفتوح ظاهر مقروء ، ولكن قراؤه قليل في هذا الإنسان وأعلاهم هم الذين يقرءونه وهم مستبصرون ، وأكثر هذه الطبقات الإنسانية مغمورة في الجهالة لاتبصر هذه الدرجات المشروحة في الطبيعة ، فامتاز أناس فنظروا في أنوار السموات وأنوار العقول .

(٣) قالوا إن العالم الذى نعيش فيه عالم جميل مصوغ من النور بهي حسن الشكل بديع النظام ولكن الناس لم يدركوه وإن كانوا يشاهدونه لأنهم مغمورون فى مطالب شهواتهم وغرائزهم ، ومن امتاز منهم بعقل راجح وفكر صائب نظر فرأى أن نور الشمس هو أصل للموجودات الأرضية ، فلولا الحرارة المنبعثة منها على الهواء والماء لم يكن بخار ولم يكن هواء ، إذ لابخار إلا بحرارة ، ولا رياح إلا بدافع يدفع الهواء ، وأصل كل دافع يرجع للحرارة والحرارة منبعثة من الشمس ، وإذا سكن الريح لم يكن سحاب ، وإذا لم يكن سحاب لم تكن أنهار كما هو واضح في هذا التفسير في غير ماموضع . الله أكبر . جل الله وجل العلم . إذن يكون النور في أرضنا أصل وجود ماعليها ، وهذا قوله تعالى « وفى السماء رزقكم » فلولا نور الشمس لم يتهيأ لنا رزق فى الأرض والشمس فى السماء ، وعطف عليه قوله « وما توعدون » والذى نوعده أيضا فى السماء .

ألا ترى إلى ماتقدم فى سورة آل عمران عند ذكر الجنة والنار من أن الجنة مستحيل أن تكون فى الأرض إذ الأرض فى باطنها نار ، فاذن تكون الجنة فى عالم السموات وهى الجنة الحسية .

(٤) فى السماء رزقنا لأن النور مع الحرارة المشاهد لنا أصل رزقنا بل أصل حياتنا وهذا مشاهد فلنقس ماغاب على ماشوهد ، ولنقل إن ماوعدنا به فى السماء ، فالسماء فيها الرزق الدنيوى وفيها الموعد الأخروى .

وإذا كنا نرى فى هذه المخلوقات الأرضية اختلافا بينا من دودة فى بطن بقرة إلى حكيم ونبى يحيط علما بكثير من العوالم الأرضية وغيرها ، فليكن فى عالم السموات طبقات بحيث تكون نسبتنا نحن إليهم كنسبة الدود إلينا ، وذلك فى العالم الذى وعدنا به وتكون تلك الدرجات أدناها ، وهم أهل الجحيم أشبه بالدود وأعلاها وهم أهل الجنة أشبه بالحكماء والأنبياء عندنا ، والذى نوعده هو الجنة والنار موعد ذوى النفوس الضعيفة الغبية .

(٥) لهذا ترى الله يقول لنبينا صلى الله عليه وسلم : « قد نرى تقلب وجهك فى السماء » ويقول « قل انظروا ماذا فى السموات والأرض الخ » ويقول هنا إن يوسف رأى أحد عشر كوكبا والشمس والقمر كلها ساجدات له رأى العالم المشرق فى نومه مشاكلة لروحه ، وكان يمكن تصوير حال تلك الرؤيا بغير الأجرام النيرة ، ولكن فطرة الأنبياء متجهة إلى العلو . تتجه إلى السماء عقول الحكماء وعقول الأنبياء ليطلقوا الناس من ضيق الأرض إلى فسيح عالم السماء ، ويوحى إليهم فى النوم ليقولوا للناس أيها الناس إنكم كل ليلة تموتون ثم تحيون صباحا ، إن النوم نوع من الموت ، وإذا كان كذلك فالموت لاخوف منه ، وإذا كان يوسف يرى فى النوم أن إخوته وأبويه خروا له سجدا على هيئة الأجرام العلوية ، ثم ظهر صدقه فى آخر أمره ، وإذا كان الملك يرى البقرات والسنبلات ، ويظهر فى آخر الأمر أن الرؤيا حق ، وأن السنين المجدبة قد أقبلت فأكلت الحرث والنسل ، وأتت على كل ما ادخر فى سنى الخصب السبع . فمعناه أن عالم المادة تابع للعالم العقلى ؛ فرؤيا يوسف فى إخوته وسيادته عليهم قد تمت ، ورؤيا الملك فى خصب مصر وفى قحطها قد تحققت ، وكما أن النور والحرارة من الشمس أنتجا عالم المركبات الأرضية . هكذا علم الفكر والعقل أساس نظام الأمم . إن هذه السورة تفيد أن الأمور العقلية الروحية أصل للمادية الظاهرة .

(٦) أمر النفوس بعد الموت واضح فى هذه الصورة ، نام الملك ونام يوسف : أى توفى الملك وتوفى يوسف عليه السلام توفاهما الله ولما توفاهما أطلعهما على صور سماوية وصور أرضية ، فإذن الوفاة ليست عدماً، إذن الوفاة فيها علوم أشبه بما نحن عليه فى الدنيا ، وهذه العلوم تناسب عقولنا بدليل أن الملك لما توفى رأى ما يناسب عقله والنبى يوسف كذلك ، إن النوم وفاة ولا عجب فى ذلك . يقول الله تعالى « وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه » فجعل النوم وفاة والحياة بعثا ، وأوضح ذلك أكثر فى آية أخرى فقال « الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها » إلى قوله « لقوم يتفكرون » وملخصها أن الله يتوفى أنفس النائمين وأنفس الميتين ، ولكنه يرسل نفس النائم إلى جسده ، ويمسك نفس الميت إلى يوم القيامة .

واعلم أن علماء الأرواح سألوا بعضها فأجابتهم بهذا المعنى فقالت [إنكم إذا نمتم تقابلون أرواحاً من جنسكم أو أعلى منكم وتعلمكم] وأكثر ما أنتم عليه من حب أو بغض ناشئ مما تشاهدونه فى حال نومكم من أحوال لا تعلمونها فى اليقظة (اقرأه فى كتاب الأرواح تأليف فهو واف فى هذا المقام) .

(٧) واعلم أن جميع ما يصنعه الناس فى هذه الأرض لا يتم منه شىء إلا بمبدأ فكرى ، فكما اتجه فكر الصديق فى رؤياه وفكر الملك لما يناسبه هكذا كل عالم وحكيم على مقدار طاقته يكون منه فكر فعمل على مقتضاه ، إن كمال هذا العالم [بأمرين] النور السماوى والعقل الانسانى وقد اجتمعا فى رؤيا الصدّيق نور المشرقات وتنزلت على مقتضى عقله واستعداده فليعمم الناس العلم وتهذيب الأخلاق .

(٨) لا يقوم العملة ببناء المنازل والحصون إلا بعد تفكير المهندسين ، ولا يظهر اختراع إلا بعد فكر المخترعين ، هكذا لا يكون هذا العالم ولا يبرز إلا بعلم تقدم وجوده والله عليم حكيم ، فالفكر مبدأ العمل والأعمال بالنيات التى تقدّمتها وحال الإنسان فى البرزخ مقدمة لحال أخرى بعدها، كما أن حاله فى الدنيا مقدمة لحاله فى البرزخ ، وذلك نظير حال يوسف الصدّيق والملك إذ كانت حال كل منهما فى يقظته مقدمة لحاله فى رؤياه التى تشبه حال الناس فى البرزخ بعد الوفاة وحالهما فى تلك الرؤيا مقدمة لما بعدها من ظهور مصداقها فى الوجود الذى يشبه حال البعث الناس . فللناس حياة فبرزخ فبعث وكلها متشابهة متلازمة كما تشابهت وتلازمت حالهما فى يقظتهما ونومهما ومصداق رؤياهما والله عليم حكيم .

(٩) لطيفة فى ذكر حالى فى مبدأ حياتى

اعلم أنى كنت وأنا فى حال الطفولة أقول فى نفسى :

(١) ياليت شعرى لم لا يكون الناس كلهم أسرة واحدة يساعد بعضهم بعضاً .

(٢) ثم إنى أجد فى نفسى نزوعا إلى أمر عظيم فأحسّ بأن هناك مجدا أو ملكا قد فقده قومى وأريد إرجاعه ، وهذا كان أمرا مبهما جدا فى النفس ولكن الخاطر كان شديدا والباعث قوىّ الهجوم . وأذكر أنى مرة نظرت حولى وقلت أين ذلك الملك الذى أرجعه وأنا لا أرى فى قريتنا ولا فى أسرتنا أثرا لهذا الملك ، وكنت أعجب من هذه الخواطر الهاجة القوية التى لا تستند على شىء أراه فى قريتنا ولا فى أسرتنا إذ لا أرى إلا الحارث والفؤوس والبهائم والزرع والشجر ولا ملك ولا دولة أرى أثرهما . فلما قرأت فى الأزهر علم النحو والفقه (وأنا لا علم لى بأن فى القرآن الذى أحفظه بلا فهم أىّ أثر للعلم) أخذت أنظر إلى ما بقرب قريتنا من الطرق الحديدية والتلغراف ، وأقول ياليت شعرى لماذا اختصّ بهذه الصناعات أمم النصارى ، ولماذا لم يعلمها المسلمون ، وإذا كان هؤلاء أرقى صناعة وعلما فياليت شعرى ما رأيهم فى صانع العالم ، أنا لا بد لى من الوقوف على آرائهم فى ذلك .

وأقول أيضا إذا كان الله هو الذى أنزل القرآن وهو نفسه الذى خلق هذه المزارع التى أراها فى القرى ، فلماذا لانسمع فى ديننا أثرا لذكرها ، وإذا كان صانع العالم هو منزل الكتاب فكيف يذكر الصلاة والصيام والبيوع ويعرض عن ذكر المزارع والأشجار مع أن المتكلم ينطق بما يعمل وبما يصنع ، كل هذا لأنى كنت أتصور ديننا على حسب ماتعلمت لأن الإنسان أول مايتعلم إنما يقرأ الفقه ، فأما جمال الله وحكمه وبدائعه فهذه فى القرآن والمسلمون مستغنون عنها وهذا المقام وضحته فى كتابى [التاج المرصع] .

ولقد ظهر أثر الفكرة الأولى وهى أن العالم يكون أسرة واحدة فى كتاب [أين الإنسان] أما فكرة إرجاع المجد ومسألة تقصير المسلمين فى العلوم فهى مقاصد أكثر كتبى وأهمها هذا التفسير ، هذه هى الخواطر أما الرؤى التى رأيتها فقد ذكرت بعضها فى أول سورة الأنعام وأكثرها وهو الأهم الأكثر لا أجد محلا لذكره الآن وعسى أن ينشرح صدرى لذكره فى آخر هذا التفسير وقد كانت هذه الرؤى سببا فى تأليف هذا التفسير ولولاها لم يكن له وجود ، وكان ابتداؤها فى نحو سن الخامسة والعشرين وأهمها كان ما بين سن الخامسة والثلاثين والخامسة والأربعين . انتهى .

الجوهرة الثانية

فى البلاغة والاعتبار بالقصص عند العرب وموازنته بقوله تعالى « قال هل آمنكم عليه الخ »

من كتابى [المذكرات فى أدبيات اللغة العربية] صفحة (٨٠) وهذا نصه :

كانت العرب تضرب أمثالها على ألسنة الهوام ، قال المفضل الضبى : يقال امتنعت بلدة على أهلها بسبب حية غلبت عليها فخرج أخوان يريدانها فوثبت على أحدهما فقتلته فتمكن لها أخوه بالسلاح ، فقالت له : هل لك أن تؤمننى فأعطيك كل يوم دينارا فأجابها إلى ذلك حتى أثرى ثم ذكر أخاه فقال : كيف يهنأ العيش بعد أخى ؟ فأخذ فأسا وسار إلى جحرها فكمن لها ، فلما خرجت ضربها على رأسها فأثر فيه ولم يمت فطلب الدينار حين فاته قتلها فقالت له : مادام هذا القبر بفنائى وهذه الضربة برأسى فلست آمنك على نفسى . فقال النابغة الذبيانى فى ذلك :

تذكر أنى يجعل الله فرصة ... فيصبح ذا مال ويقتل واتره
فلما وقاها الله ضربة فأسه ... وللبر عين لاتغمض ناظره
فقالت ،معاذ الله أعطيك إننى ... رأيتك غدارا يمينك فاجره
أبى لى قبر لايزال مقابلى ... وضربة فأس فوق رأسى فاقره

وقال الله تعالى «هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين » وقال فى هذا المعنى « ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين . بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون » وقال أيضا « ولو رحمناهم وكشفنا مابهم من ضر للجوا فى طغيانهم يعمهون . ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون » انتهى . وهذه الأبيات كنت خمستها منذ بضع عشرة سنة وهاهى ذه :

سعت حية يوما لتسكن قرية ... فأودت سرى القوم باللدغ بغتة
فنادى أخوه للمشورة فتية ... تذكر أنى يجعل الله فرصة
فيصبح ذا مال ويقتل واتره
فأعطته ما لاتتقى شر بأسه ... وأفضل مال للمرء فدية نفسه
ففاجأها بالفأس بعد لتحسه ... فلما وقاها الله ضربة فأسه
وللبر عين لاتغمض ناظره

أبى طامعا فى المال يعدو ولم ين　　فقالت نقضت العهد ظلما وخنتنى
فقال وربى لا أسىء لمحسن　　فقالت معاذ الله أعطيك إننى
رأيتك غدارا يمينك فاجره

أما كان يغنى أن حبوتك نائلى　　أليس جزائى أنك اليوم قاتلى
وهل يحسن الإنسان يوما لصائل　　أبى لى قبر لا يزال مقابلى
وضربة فأس فوق رأسى فاقره

الجوهرة الثالثة فى قوله تعالى « ربّ قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث »
إلى قوله « وألحقنى بالصالحين »

اعلم أن هذه الآيات قد جاء فيها ملخص السورة وملخص حياة الإنسان ومماته وعلومه ، ذلك أن الإنسان فى هذه الدنيا يسعى لإصلاح الجسد وإصلاح النفس ، ثم إن جميع العوالم التى تحيط به إما علوية وإما سفلية ، والعلوم إنما هى شرح لهذه العوالم والأحوال لاتعدو أمرين : إما دنيا ، وإما أخرى .

وبعبارة أخرى : (١) الجسم والروح . (٢) والعالم العلوى والسفلى .

(٣) والدنيا والآخرة فأشار للأول بقوله تعالى « رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث» فالأول الجسم والثانى الروح ، وأشار إلى الثانى بقوله تعالى « فاطر السموات والأرض » وإلى الثالث بقوله « أنت ولىّ فى الدنيا والآخرة » ثم إن قوله «قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث» هو ملخص حياته ، فإن أيام الجبّ وأيام السجن كانت محنة تخللها علمه بتأويل الأحاديث ، وبعد ذلك أنه أعطى الملك . فهاتان الجملتان ألمتا بتاريخ حياته .

فأما قوله تعالى « فاطر السموات والأرض أنت ولىّ فى الدنيا والآخرة » فما هو إلا ملخص سورة الفاتحة .

أليست الفاتحة ثناء ودعاء ، وثناء الفاتحة حمد الله على نعمه التى أنعم بها على جميع العوالم العلوية والسفلية .

أفليس نداء الله بأنه فاطر السموات والأرض هو عين الحمد ، وما الحمد إلا ثناء بجميل لأجل جميل حصل من المحمود راجعا إلى الحامد أو غيره وههنا ينادى ربه أنه فطر السموات والأرض .

وهذه الجملة يدخل فيها جميع العلوم ، فإن العلوم الرياضية والطبيعية والإلهية لاتخرج عن هذه الجملة إذ العلوم كلها ترجع للسموات والأرض فهذا هو الثناء ، أما الدعاء فى الفاتحة فهو طلب الهداية إلى الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم وههنا يقول «أنت ولىّ فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين» فالولاية لله عليه فى الدنيا والآخرة وطلبه من الله أن يتوفاه مسلما راجع إلى طلب هداية الصراط المستقيم ، وقوله « وألحقنى بالصالحين » يقابل « صراط الذين أنعمت عليهم الخ » .

مقاصد الدعاء والثناء فى دين الإسلام

الأمم الإسلامية أمرت بالثناء فى أول الفاتحة وفى أول التشهد فيثنى المسلم على ربه أنه هو الذى ربى العالمين وفى تشهده بأن التحيات والتعظيات والمباركات والصلوات والطيبات خاصة بالله وفى ركوعه فينزه الله ويصفه بالعظمة ويظهر له الخشوع فى سمعه وبصره ومخه وعظمه وعصبه وما استقلت به قدمه وفى رفعه واعتداله فيصف الله بأنه محمود حمدا بملء السموات والأرض وبملء مابينهما وبملء مايشاء الله بعد ذلك حتى يشمل العوالم السديمية التى ظهر كشفها والتى لم تعلم بعد ، وهكذا فى سجوده فينزه ربه الأعلى ويقول المؤمن إن وجهه سجد للذى خلقه وصوّره وشق سمعه وبصره .

هذه أمّ أنواع الثناء التي يقولها المسلم في صلاته ، وكل هذه ترجع إلى قول يوسف « فاطر السموات والأرض » وأما دعاء المسلم فهو طلبه الهداية إلى الصراط المستقيم وهكذا في قنوت الصبح فإنه يطلب الهداية والمعافاة وأن يتولاه الله ويبارك له فيما أعطاه ويصرف عنه الشرّ الخ ، وهكذا في الجلوس بين السجدتين فهو يطلب المغفرة والرحمة والرزق والهداية والعافية فههنا [أمران] في كلام يوسف : ثناء ، ودعاء ، وأمران في صلاة المسلم : ثناء ، ودعاء .

وانظر وتعجب ثناء يوسف أكثر من دعائه . وثناء المسلم أكثر من دعائه . أثنى يوسف بست عشرة كلمة ودعا بأربع كلمات فثناؤه ربع دعائه . وهكذا المسلم ثناؤه أكثر من دعائه ، فهو يثنى في الفاتحة وفي الركوع وفي الرفع وفي السجود الأول وفي السجود الثاني ، وإنما يدعو في بقية الفاتحة وفي الجلوس بين السجدتين وفي القنوت ، إذن الثناء أكثر من الدعاء نتيجة هذا المقال .

العبادة جسم روحها العلوم

من تتبع هذا التفسير أدرك أن جميع أنواع العبادات إنما جعلت لبعث الهمم إلى العلوم ، والعلوم هي المقصودة من وجود هذا الإنسان فلا دنيا إلا بالعلوم ولا آخرة إلا بالعلوم .

لذلك كثر الثناء في قول يوسف وكثر في صلاة المسلم ، ولا معنى للثناء إلا على نعمة ، ولا ثناء على نعمة إلا إذا عرفها المثنى ، فالمسلم الذي يحمد ربه لأنه رب العالمين والذي يتكلم عن السموات والأرض وما بينهما وعن أعضاء جسمه من سمع وبصر ومخ وعظم الخ ، هذا المسلم اذا ظنّ أن تكرار هذه الألفاظ هو الذي يرقيه عند ربه ويقرّبه منه فإنه مخطئ .

نعم هذه الألفاظ أنطق بها عباده مع استحضار الخالق فذلك فيه ثواب العبادة وثواب العبادة أشبه بجسم ، ولكن التحقق من المعنى هو الروح ولا يتحقق المعنى إلا بالدراسة والتأمل والتفكر .

الله أكبر جلّ العلم وجل الدين ، اللهم إنك أنت الذي أوحيت بدين الإسلام وأنت الذي خلقت أوروبا وأمريكا واليابان والصين والدول المحيطة بنا وأنت الذي أنزلت في القرآن مئات الآيات الحث على العلوم جميعها ولكني أرى أنك أتيت لنا بأمر أعجب ، أمرتنا بالصلوات فكررناها صباحا ومساء والصلوات فيها ملخص علوم الأمم التي تحيط بنا ، وفيها ملخص علوم القرآن ؛ يثنى المسلم على ربه بخلق العالم العلوى والعالم السفلى ، ويثنى عليه بأنه خشع له سمعه وبصره الخ وأنه سجدت له جميع الأعضاء التي للحسّ والتي للحركة . كل ذلك يقوله المسلم في صلاته والمسلم غافل لا يقرأ تلك العلوم ، تلك العلوم التي ملأت أوروبا وأمريكا واليابان والصين وهي التي يكرّرها في صلواته صباحا ومساء ويكرّرها في القرآن والله يقول « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » ومن القرآن ما يقرأ في الصلاة ، اللهم إن الصلاة عبادة والعبادة روحها الفكر والفكر في الصلاة يهدى الى العلم وكيف يكون حمد المسلم وثناؤه على ربه مجديا حيا إلا إذا هداه لدراسة مصنوعاته وجمال خلقه في هذه الدنيا ، إذن يكون حمده مستندا الى حقائق علمية ومشاهد طبيعية جميلة والى بدائع هذا الوجود الذي درسته الأمم حولنا ونحن ساهون لاهون .

فياليت شعرى هل يظن المسلم أن كلمات يكررها صباحا ومساء بلا عقل ولا هدى ترفعه في الدنيا والآخرة ، اللهم إن ما حلّ بالمسلمين اليوم هو عين ما جاء في قوله تعالى « فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون » فالمسلمون اليوم يصلون وهم عن صلاتهم ساهون ، سهوا عن الصلاة فلم يتدبروها ولو تدبروها لأدركوا أن الثناء على الله بلا علم بما في العوالم العلوية والسفلية من العلوم كلا ثناء ، فالويل اليوم حلّ بالمجموع الإسلامي لجهالته بما تفيده الصلاة من تضمنها دراسة العلوم جميعها ، وليس معنى هذا أن كل امرئ يعرف جميع

العلوم

العلوم فهذا مستحيل بل القصد أن تكون العلوم العامة فى الأمة بحيث يدرس كل امرئ مايقدر عليه ، فالعامة يعرفون ظواهر العجائب بالتعليم الأوّلى وبعد ذلك تكون درجات العلماء ، هذا ماعنّ لى فى هذا المقام ، والحمد لله رب العالمين .

الجوهرة الرابعة فى نفس هذه الآية وهى « رب قد آتيتنى الخ » وذلك بهجة العلم وبرد اليقين

ما أعجب الحكمة والعلم وأبهجهما ؟ أنظر إلى أوائل سورة يوسف وأواخرها ، الأول هو الآخر ، فيها مايشبه ردّ العجز على الصدر عند علماء البديع ، أوّل ماخطر ليوسف فى حياته وقت النوم إشراق الشمس والقمر والكواكب وقد أوّل ذلك بما يناسب هذه الدار من الأنساب الإنسانية ، فأما فى الحياة الأخرى فقد ضرب القمر والشمس مثلين لله عز وجل ، انظر فى حديث الرؤية المذكور فى سورة الأنفال ؛ إذ جاء فيه أن الله يرى كالشمس ليس دونها سحاب فى حديث أبى داود ، وأنه يرى كالقمر فى حديث أبى رزين ، الشمس أشرقت والقمر ليوسف فى أول حياته مناما ، فلما أن ختم الحياة خاطب الله قائلا : يافاطر السموات والأرض فذكر السموات ، والسموات موضع إشراق الشمس والقمر والكواكب المذكرات بالله كما كان شمسها وقمرها مذكرين بالوالدين فى أول الحياة . ففى الحديث « اليوم أضع نسبكم وأرفع نسبى » وهذه الذكرى هى التى يقولها المسلم فى كل صلاة « وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين » ، يقول الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم « فبهداهم اقتده » فنحن من باب أولى ، فكان صلى الله عليه وسلم يقوم فى آخر الليل ويقرأ الآيات من آخر سورة آل عمران ، وهى قوله تعالى: « إن فى خلق السموات والأرض الخ » .

إن المسلم فى هذه الحياة الدنيا مأمور أن يتجه قلبه لله ولكن الله لايرى له هنا فكيف يتجه لمن لايراه إنما يتجه الإنسان لمن يحبه والمحبوب فى الدنيا يرى ، والله لايرى فى الدنيا فتوجهت العناية إلى صفاته وصفاته تعرف بآثاره وآثاره أجلها المشرقات العلوية لهذا قال يوسف : يافاطر السموات والأرض ، وقال المسلم «وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا » الخ .

إن ذلك داع حثيث لمعرفة العلوم كلها ، السموات إجمالا والأرض إجمالا لايهيجان القلوب الى خالقهما وإنما التفصيل بالحكمة والعلم هما الشائقان لمبدعهما ، إن ذكر السموات والأرض على لسان المسلم فى كل صلاة على طريق العبادة فتح لباب العلم ، الله أكبر ، العبادة فى الإسلام دروس علمية جهلها أكثر المسلمين .

الله ، والشمس

جل الله صانع الشمس ، إذا كان الله عز وجل لانراه فقد فتح حديث الرؤية لنا باب المثال إذ مثل بالشمس ومثل بالقمر ، الشمس تصبح كل يوم ولديها خزائن النور فتنثرها على سياراتها وأرضها ، والأقمار الدائرات حول تلك السيارات ولاتعطى بذلك النور إلا ما يقابل وجهها ، أما الذى لايقابل من الأرض ومن السيارات ومن الأقمار ومن المذنبات فليس له حظ من النور بل هو فى ظلام حالك ، النور الذى تنثره الشمس على هذه السيارات وعلى توابعها يجرى فى فضاء شاسع وما هو إلا حركات فى عالم الأثير لا إشراق لها بل هو ظلمات ، إن الجوّ الذى بين أرضنا وبين الشمس البالغ بسير قلة المدفع (١٢) سنة ، وبسير القطار البخارى (٣٦٥) سنة تقريبا مظلم كله ، فالنور الذى قذفته الشمس لايرى فى تلك المسافة وماهو هناك إلا حركات فى ظلمات حالكات وتلك الحركات تنقلب على الأرض فجأة نورا ساطعا مشرقا هكذا الله عز وجل يرسل الإدراك والغرائز والمواهب العقلية من عالم قدسه ومهابط وحيه لايحجب عنها أحدا فهو دائما وهاب

لتلك القوى السامية كما أن الشمس وهابة النور دائما ، فكما أن الشمس لا يحظى بنورها إلا ما اتجه لوجهها من المخلوقات الأرضية مثلا ، هكذا لا يحظى بالكمال الإدراكى من هذه العوالم الحية من حيوان وإنسان أحد إلا على مقدار استعداده ، الله بذر فى العوالم بذور الإدراك وبثها فيها فليس بمانع عطاءه عن أحد ، كما أن الشمس أرسلت أضواءها لم تحجب عنها أحـدا من توابعها فأخذ كل حيوان منه على مقدار طاقته فنظم النمل جمهوريته والنحل مملكة قفيرة والغربان جمهوريتها وهكذا كل حيوان ، هكذا الإنسان قبل من ذلك النور العقلى على مقدار ما استعد له فلم يتنزل إلى درجات البهائم ولم يتعال حتى يدبر العوالم العلوية والسفلية بل أخذ على مقدار استعداده ، الله ضرب بفعله الشمس مثلا لنوره وبهذا المثل أدركنا أن عطاءه دائم وذلك من دوام إشراق نور الشمس وكما أن إظلام ناحية من نواحى الأرض والقمر والسيارات لم يكن من نفس الشمس وإنما كان من انحراف تلك الناحية عن وجه الشمس ، هكذا نقول هنا ليس حجب العلم والحكمة عن المعادن وعن النبات وعن الحيوان لإمساك وبخل من الله بل ذلك لعدم استعداد هذه المخلوقات لتلك النعم فلم يمنع النمل عن علم الأنبياء ولا الأسد عن عمل خلايا النحل ولا النمل عن بناء القصور الإنسانية إلا أن ذلك ليس من مصلحتها فى شىء والمصالح تابعة للاستعداد كما كان من منافع الأرض أن تظلم أوجهها تارة وتضىء أخرى ولو دام أحدهما لهلك من عليها ، فقول المسلم « وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض » ليس يراد به الوجه الجسمى لأن الله ليس بجسم ، وإنما التوجه الجسمى يصح فى توجه الأرض والسيارات والأقمار للشمس فهذه إذا توجهت نحوها استضاءت بنورها، إذن هذا التوجه روحى عقلى فالتوجه فى كل شىء بحسبه فى الأجسام جسمى وفى الأرواح روحى والتوجه الروحى بحصر الفكر وحصر الفكر له مقدمات ومقويّات فالركوع والسجود والقراءة وما أشبه ذلك كلها مساعدات على ذلك التوجه والتفكر فى ملكوت السموات والأرض الذى كان صلى الله عليه وسلم يفعله فى سحر كل ليلة إذ يقوم ويقرأ آية « إنّ فى خلق السموات والأرض » من أهمّ أسباب التوجه لله ، ونحن الذين لسنا أنبياء لا تكفينا تلك النظرة فى السحر بل علينا دراسة العلوم كلها فى السموات والأرض على سبيل فرض الكفاية من جهة وهكذا يدرس كل مسلم من تلك العلوم متى كان قادرا عليها كل ما يزيده شكرا لربه ومعرفة لقوله تعالى « وقل ربّ زدنى علما » ولقوله تعالى أيضا « واشكروا لى ولا تكفرون » ويوضح ذلك قوله هنا بعد آيات « وكأين من آية فى السموات والأرض يمرّون عليها وهم عنها معرضون » فهذه الآية تعرفنا معنى « وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا » فليس توجيه وجهنا لله من حيث نفس ذاته لأنه ليس فى طاقتنا بل ذلك النظر فى آياته التى وبخنا على إعراضنا عنها فى هـذا المقام فيوسف توجه لله بآياته فى السموات والأرض ، ورسول الله توجه له بذلك وهكذا المسلم ، إذن الصلاة فى الإسلام مفتاح العلوم لهذا تأخر المسلمون عن الأمم لأنهم لم يفهموا صلاتهم ، يصلون وأكثرهم لا يعقلون ما يقولون ، يتوجه المسلم فى الصلاة ويقول : « وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض » وهو فى الوقت نفسه معرضٌ عن السموات والأرض ، والله تعالى يوبخه قائلا : « وكأيّن من آية فى السموات والأرض يمرّون عليها وهمْ عنها معرضون » .

خطاب للمسلمين

أيها المسلمون : هل يعجبكم هذا ؟ هل يعجبكم أنكم عشتم قرونا وقرونا وأنتم تصلون وتقولون باللفظ : إنكم وجهتم وجوهكم للذى فطر السموات والأرض، وفى الوقت نفسه يقال لأكثرنا إنكم معرضون عن الآيات فى السموات وفى الأرض ، اللهم إليك المشتكى ، دين تكون صلاته مذكرة بجميع العلوم بل فيها مفاتيحها وما مفاتيحها إلا عجائب السموات والأرض التى اندمجت فى سورة الحمد ؛ إذ الحمد على النعم والنعم هى جميع هذه

العوالم فكيف يكون ناجحا، أجهل الأمم بعلومه المذكورة فى سورة الفاتحة ، ولما علم الله أن الناس ربما لايفطنون لهذه العلوم من سورة الحمد أنزل على نبيه صلى الله عليه وسلم وأوحى إليه أن يقرأ : « وجهت وجهى الخ » فى أول كل صلاة وأنزل فى هذه السورة أن يوسف قال : « فاطر السموات والأرض » وأتبعه بما يشبه التفسير له إذ ذمّ القوم الذين أعرضوا عن الآيات التى فى السموات والأرض فكأنه بهذا يبين قول يوسف « فاطر السموات والأرض » وأنه ليس معرضا عنهما فهو مقبل عليهما وبهما يتوجه لله فاذا قال المسلم « وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض » ثم هو فى الحال معرض عن الآيات فى فى السموات والأرض . وبعبارة أخرى يجهل هذه العوالم التى نعيش فيها ، فهذا هو باب غضب الله عزّ وجل عليه لأنه صار كاذبا فى قوله فهو يقول إنه وجه وجهه لفاطر السموات والأرض ولا معنى لهذا التوجه إلا بالإقبال على الآيات فيهما وهو لم يقبل ، إذن نحن فى هذا كالكاذبين أو كالساخرين وإن كنا لانقصد ، لذلك تأخر المسلمون وانحطوا وتقهقروا لأنهم أعرضوا عن الآيات فى للسموات والأرض فكأنهم استهزءوا بآيات الله لإعراضهم عنها ولأنهم اتجهوا لفظا ولم يتجهوا فعلا بالعلم .

هذا هو الذى فتح الله به فى هذا المقام ولعلّ هذا من أسباب أن هذه السورة أحسن القصص ، ذلك لأنها آيات حال المسلمين الآن إذ تبين أن السورة بأكملها رجعت إلى إشراق المشرقات فى منام يوسف وانتهى ذلك بصدق الرؤيا ، ثم انتقل الأمر إلى التوجه لله بالنظر فى آياته المشرقات فى السموات والأرض والمسلم هكذا توجهه كما توجه الصدّيق وتبع ذلك ذمّ للمعرضين عن آيات السموات والأرض والمسلم اليوم اتجه لفظا فى الصلاة ولم يتجه عقلا فحرم من ميراث الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض فأرسل الله عليه الأمم فأذلته . المسلم اليوم جاهل والله يعاقبه فى الدنيا بتألب الأمم عليه ، وها هو ذا الآن أخذ يقبل على العلوم جميعها ، وهذا التفسير من مقدّمات تلك النهضة وسيرقى المسلمون قريبا « ولينصرنّ الله من ينصره إن الله لقوى عزيز » .

تذكرة بهية فى الخليل عليه السلام وقوله « إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض الخ

لقد تبين لك أن توجه يوسف للذى فطر السموات والأرض الخ موافق لتوجه المسلم فى صلاته كذلك ، وأزيد الآن أنه قد تقدّم فى سورة الأنعام قول الله تعالى « وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين » هنالك أخذ الخليل يدرس النجم والقمر والشمس ولما أتمّ ذلك قال « إنى وجهت وجهى الخ » أليس ذلك معناه أن اليقين إنما يكون برؤية ملكوت السموات والأرض ؟ أو لست ترى أنه لا تمكن رؤية ملكوت السموات والأرض إلا بدراسة العلوم فى هذه الأرض التى نسكنها ولذلك الاشارة بدراسة الخليل هذه الكواكب . أو لست ترى أن الخليل عليه السلام لم يقل « إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض » إلا بعد دراسة ملكوت السموات والأرض بحسب طريقته ،

ها هنا تبين لك أيها الذكى أن ما ذكرته فى هذا المقام استنتاجا جاء فى قصة الخليل صريحا فانه نظر فأيقن فوجه وجهه للذى فطر السموات والأرض ، وبهذا توقن أن قول المسلم « إنى وجهت وجهى الخ » لايتم له إذا كان قادرا على التعلم إلا بدراسة هذه الدنيا التى نعيش فيها فبهذا يكون المسلم متوجها لربه لأنه درس السموات والأرض فأما التوجه اللفظى فهو قليل الجدوى عديم الفائدة ، هذه هى المسألة التى تخطتها الأمم الإسلامية فجمدت قرائحها فبارت تجارتها وضلت طريقها وكانت غالبا من الغافلين . ولما كان هذا المقام من أهمّ ما فى القرآن ورد بعد ذلك فى الأنعام ما يؤيد ذلك مثل (١) قول إبراهيم « أتحاجونى فى الله وقد هدان » ومثل (٢) « نرفع درجات من نشاء إنّ ربك حكيم عليم » (٣) وفى آية أخرى « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » فهذه الدرجات المذكورة هنا كالتطبيق على ذكر درجات أولى العلم

لأن الخليل علم نظام الكواكب والشمس فارتقى ومثل (٤) أنه ذكر ذرية الخليل وهم الأنبياء، وختم المقال بقوله « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده » ولم يجئ في القرآن جملة بهذا النص إلا في هذا المقام للاشارة إلى أن الإيقان وقراءة علوم هذه الدنيا وعلوم الفلك وغيرها ذات مقام سام ومنزلة رفيعة فلذلك أمره بالاقتداء بالأنبياء من ذرية إبراهيم وبأبيهم إبراهيم . بهذا نفهم أن قول المسلم في الصلاة « وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض الخ» لا يكون تاما إلا بعلمه بهذا النظام الذي نعيش فيه كما فعل الخليل، نظر فدرس فتوجه والحمد لله رب العالمين انتهى :

الجوهرة الخامسة في قوله تعالى « إن ربي لطيف لما يشاء »

اعلم أن لطف الله عز وجل سار في كل مخلوق ولكن الإجمال شئ والتفصيل شئ آخر . إن معرفة هذا إجمالا لا تفيد، فالناس يحيط بهم اللطف ولكنهم لا يفطنون والتفطن لبعض المخلوقات يفتح بابا واسعا للناس وإني مورد لك الآن بعض ما ستقرؤه في سورة النحل عند قوله تعالى « وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها» فسترى هناك أن اللؤلؤ ثلاثة أنواع : طبيعي، ومولد، وصناعي ، فلا أطيل الآن في بيان هذا لأنك ستقرؤه هناك ، وأنا أذكر لك كيف ظهر لطف الله في هذا ، ذلك أولا أن الجير والفحم إنما هما مادتان حقيرتان معروفتان ولكن حسن الوضع وجمال الصنع هما اللذان جعلا هذا للنبوذ المحقور جوهرة بديعة فإن اللؤلؤة إنما هي كربونات الجير فالجير معروف والكربون هو مادة فحمية والمادة الفحمية منها وقودنا وسير قطرنا وإدارة آلاتنا الطحن والخبز وبقية أنواع الحياة ومنها دهننا ودهن الحيوان . فانظر كيف ظهر لطف الله بحسن الصنعة حتى صار الفحم تارة دهنا وأخرى نورا في شوارع القاهرة مثلا وأخرى أنواعا من الصباغة وآونة يظهر بهيئة جميلة في أجياد الغادات الحسان . إن هذا العالم الذي نعيش فيه يرجع أوله وآخره الى اللطف وحسن الصنعة والتفنن ، وهذا هو السحر الحلال .

انظر الى هذا اللطف في اللؤلؤ الطبيعي واللطف في اللؤلؤ الصناعي الذي ستقرؤه في سورة النحل أيضا فسترى هناك أن مادة لماعة خلقها الله على جرم السمك لأجل أن يكون نورها الفضي المنعكس من فوق بطن السمكة مغشيا على أعين أعدائها فيكون ذلك وقاية للسمكة . فانظر كيف عرف رجل فرنسي هذه الخاصية فاستخرجها من فوق جلد السمكة وطلا بها الزجاج فصار ذلك الزجاج أشبه باللؤلؤ الطبيعي . ذلك كله باللطف وحسن الصنعة . فالله أعطى السمكة في البحر هذه المادة لتحفظها من أعدائها بقوة شعاعها والإنسان استعملها لتكون بهجة وجمالا للغادات الحسان . هذا من معنى قوله «إن ربي لطيف لما يشاء» فقد ظهر لطفه في الفحم المتنوع استعماله وفي هذه المادة السمكية التي تحفظ السمكة من عدوها وتجلب للغادات الحسان من يعشقها فتلد منه البنين والبنات حفظا وبقاء لنوع الانسان . ها أنت ذا رأيت بعض لطف الله في اللؤلؤ فانظر في سورة يوسف التي نحن بصدد الكلام عليها فإنك تجد اللطف فيها كاللطف في خلق اللؤلؤ ، وهاك البيان :

ألم تر أنه اشتق من بلوى يوسف وذله بحسد إخوته ورميهم له في غيابات الجب نعمته وعزه بادارة ملك مصر ولولا هذه البلوى وهذا الذل لم ينل هذا المجد والشرف . واشتق من سجنه (٧) سنين قربه من الملك وتمام النعمة بالملك . أليس ذلك هو عين ما رأيت في اللؤلؤة الطبيعية فان الجير والكربون أي الفحم مادتان حقيرتان فهما في حقارتهما أشبه بما أحاط بيوسف من حسد إخوته ورميه ثم سجن العزيز له ثم اشتق من ذلك الذل عزه بالملك كما اشتق من هاتين المادتين الجمال والبهاء وعلو الثمن والمجد في اللؤلؤ ، فكما ظهر لطف الله في قصة يوسف ظهر لطفه في جميع المخلوقات الطبيعية فكلها إنما ترجع إلى اللطف فهذا فتح باب لفهم معنى قوله تعالى « إن ربي لطيف لما يشاء » .

واعلم أن اللطف محبوب عند عقول النوع الإنسانى فترى الجاهل والعالم كلاهما مغرم بادراك أسرار اللطف ولذلك ترى الجهال والمتوسطين من هذا النوع الإنسانى جميعا مغرمين بقراءة الروايات التى يخترعها الناس لما يرون فيها من حسن التلطف والتحيل وإدخال العجائب فى وقائعها ، ذلك لأن هؤلاء يعجزون عن إدراك اللطف فى الطبيعة التى يعيشون فيها فلذلك يلجئون إلى ما يتخيله الناس فى الروايات حتى يعرفوا شيئا من اللطف الذى جبلوا على حبه وهم لايشعرون .

واعلم أن الأرواح الإنسانية إنما هى لطائف نورية سماوية فلذلك تهش وتفرح بتلك العجائب اللطيفة وبينها وبين خالق هـذا العالم صلة وإن كانت محجوبة عن تلك الصلة ، والدليل على ذلك أن الإنسان متى سمع قولا أو تكلم هو دخلت معانى ذلك الكلام بهيئة صور ترسم فى النفس فيشعر الإنسان بتلك الصور ولايعرف كيف رسمت ولا من أين جاءت ، فإذا سمع لفظ شمس أوقمر أوشجر أوسماء أو أراضى رسمت الصور حالا فى نفس الإنسان فكأننا نحن فى هذه الأرض عالم كبير ، فإذا كان الله يخلق الخلق بحيث إذا قال له كن كان أى حصل ووجد فعلا بحيث نراه ونلمسه ونعقله فهكذا أرواحنا التى هى فى أصل نشأتها من نور إلهى لها قدرة عظيمة جدا وإن كنا لانشعر بتلك القدرة المستمدة من موجد نورنا الممدّ لنا وهو الله سبحانه وتعالى ، فإذا سمعنا قولا أو تكلمنا به رأينا نفوسنا قد أظهرته فى ألواحها ، إذن نحن مملكة واسعة الأطراف وكل روح من أرواحنا توجد بأسرع من لمح البصر عوالم وعوالم فى خيالنا ونحن لانفهم هذا السرّ ، بل نحقره ونقول إنه خيال ، نعم هو خيال ولكن هذا الخيال أمر عجيب ، إن هذا الخيال وسرعته ونقش الصور التى لانهاية لها فى أدمغتنا كل ذلك من لطف الله المذكور فى هذه الآية « إن ربى لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم » فهو لطيف وعليم وحكيم ، ومن لطفه وعلمه وحكمته أن فطرنا جميعا على هيئة متجانسة من حيث إننا نرسم فى نفوسنا صورا سريعة ثم نرسم أخرى وأخرى وهذا هو عين مانشاهد فى هذا العالم فهو صور تتلوها صور وهكذا إلى الأبد ونفوسنا نقرأ فيها فنرى فيها نفس هذا العالم المشاهد كله ونحن نمحوه ثم نجدّده ونمحوه ثم نجدده مشاكلة لما يفعله الله تعالى كأن هذا رمز إلى أن هناك بينكم وبين صانع هذا العالم صلة خفية ، والفرق بين قدرتكم وقدرته كالفرق بين عوالم الخيال وعوالم الحقيقة ، فالعوالم التى نعيش فيها حقيقية والعوالم التى فى خيالنا مجازية فتكون النسبة أشبه بنسبة الوجود إلى مايشبه العدم ، وهذا هو المذكور فى قصة الخضر وموسى عليهما السلام إذ قال الخضر مامعناه [ماعلمى وعلمك وعلم الخلائق فى جانب علم الله إلا كمقدار ماأخذ هذا الطائر من ماء البحر] وإذا كنا نرى ربنا يوم القيامة فمبدأ الرؤية موجود فى الدنيا وهو الاستعداد العظيم الكامن فى نفوسنا فهى بهذه القدرة العجيبة الخيالية قادرة أن تسرع فى التعلم والتعقل حتى يقوى علمها فتخلق لها فى الآخرة أعين روحية بها تعاين الله وهذا كله من قوله تعالى « إن ربى لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم » فقد ظهر لطفه فى المادّة فاستخرج من موتها حياة للانسان وعلما حتى صار كأنه عالم يشبه العالم الكبير وهو يوما سيرى ربه وهذا أعجب اللطف فهو لطف أجمل وأبدع من لطف الله فى اللؤلؤ الطبيعى واللؤلؤ الصناعى لأن ذلك لطف فى المحسوسات استخرجه من الفحم ومن الجير ومن مواد أخرى ، ولكن اللطف فى استخراج العقول الكاملة التى تستخرج من بواطنها عوالم مثل هذا العالم الذى نعيش فيه ، فهذا ألطف وأعجب وأكمل وأجمل ، ذلك كله من قوله تعالى « إن ربى لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم » .

جوهرة السورة كلها

أيها الذكى ها أنت إذا قرأت سورة يوسف وعرفت [illegible]ها ولكن لم يكن فيها من العناية بعجائب

الكون ما كان فيا قبلها من السور ، لقد ازدانت السور السابقة بجواهر الكون ودرر النظام وجمال العالم ومحاسن الطبيعة وبهجة الدنيا وزخرف النبات وسعادة الحيوان برحمة ربه ، أما هذه السورة فلم يكن فيها حظ من ذلك اللهم إلا ما استنتج من جمال يوسف والبحث فى جمال الوجوه وجمال النفوس وجمال السمر وجمال الفلك ودقة حسابه ، فإذا خطر ببالك ما ذكرتها أنا ذا سألقى عليك قولا يبين إجمال مافيها ، ثم أردفه بالجوهرة التى أضاءت فيها فكانت زينة تاجها وقرة لعين قارئها وبهجة للمفكرين فقامت مقام الآيات الطوال فى السور الأخرى وجمعت من العجائب أعلاها ومن المحاسن أبهاها فى هذه الكائنات فها أنا ذا أتلو عليك ما وعدت وأقص عليك ماقدمت فأقول :

سياسة النفس

لقد عرفت من قصص يوسف أحسن القصص وآثاره وعلم الرؤيا والعبارة والحسد وأخبار العشق والجمال والعفة والكمال وكيد الغانيات وعدم الغيرة فى البيوتات وذلك فى علم الحكمة هو تهذيب الشخص المسمى بسياسة النفس .

سياسة المنزل

ثم إن آدابه مع أصحاب السجن وصدق قوله وما أسدى إليهم من النصائح وأورد لهم من الدرر الغوالى فى الدين وما بدا لهم من كماله وبهجة جماله وفصيح مقاله وإعلامهم بما يأكلون وتفسير ما كانوا يرون فى المنام كل ذلك أشبه بعلم تدبير المنزل ونظامه .

سياسة المدينة

ثم إن حسن سيرته مع الرعية ألزمت الملك بالإقبال عليه وتسليم مقاليد الأمور إليه وأصبح الجميع له لا عليه فقد شهدن له بعد أن تاهين فى ضلال القيل والقال ونظم الدواوين وأراح الرعية ودبر الأمور وأفرح الجمهور فرضى الله عليه وأرسل إخوته وأبويه إليه وخروا له ساجدين وارتد بصر أبيه إليه ، كل ذلك لتحقيق رؤياه .

خاتمة القصة

ثم إنه نظر نظرة إلى العالم الأعلى وخاطب ربه ناظرا فى أرضه وسمواته قائلا [فاطر السموات والأرض أمتنى على الإسلام وألحقنى بأولى الفضل الأنبياء الأعلام] هذا ملخص قصص يوسف أمليته عليك إجمالا بعد أن ذكرته تفصيلا

المقصود من هذه القصة

ههنا أخذ يخاطب نبينا صلى الله عليه وسلم ، وهذا هو بيت القصيد فقال له : إنك لم تحضر يوسف وأباه ولم تدرس ما ذكرناه فأنت وقومك نشأتم أميين ، فالعلم عنكم عازب والدين من داركم نازح فكيف يلقى هذا إلا ما أوحيناه أو بفضله إلا ما بيناه ، وههنا آن أن أريك الجوهرة النفيسة تلك هى قوله تعالى « وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون » فكأن الله يقول أيها الناس هاهو ذا نبى قص عليكم أحسن القصص فإذا لم تعملوا بنصائحه الغالية ودرره الثمينة وعجائبه البديعة ، فليس ذلك بدعا منكم ولا خارجا عن مألوفكم ، فإن فى السموات والأرض التى تشاهدونهما من العجائب ماتخر له العقلاء سجدا وأنتم عنها غافلون فلابدع إذا لم تعيروا قصصا من قصص أنبيائى الذين هم كزهرات فى بستان الأرض نظرة ، ومن جهل جمال النجوم وبهجة الشمس والقمر فما أحراه أن يجهل بعض مافى هذا العلم كالقصص التى أنزلناه ، فهذه الجوهرة فى السورة جمعت كل يابسة وخضراء ، وناطقة وبكماء من عجائب الأرض والسماء ، وها أنا الآن

لا أدرى

لا أدرى أأكتب كل علم وكل فن ، وكل نجم وكل شمس وكل قمر ، أم أدع الكتابة جانبا فى هذه الآية .
فأما القسم الأول فهو محال لأن هذا العالم كله عجائب وعلم العلماء والأنبياء لا تحصيه وإنما يحصيه مبدعه وخالقه وهو الحكيم العليم .

علم الذرة

ولأذكر لك الكلام على الذرة فإن ذرة واحدة من ذرات هذا الكون حار فيها العلماء والحكماء وتاهت عقولهم ولم يصلوا لمنتهى العلم فيها فكيف بالعالم كله ؟

ألم تر إلى ماحققه العلامة (لوبون) فيها وهو أن كل مادة تتحول إلى قوة والقوة تتنوع إلى ضوء وحرارة وحركة وهى وتنوعاتها ترجع إلى الأثير فأصبح الرأى الحديث أن للمادة تفنى ولا يكون لها وزن ومتى صارت قوة أمكن أن تصير أثيرا وهذا أمر فرضت العقول وجوده تسبح فيه جميع الكائنات ، ويقول (إن الذرة الواحدة العلية التى لا تستطيع رؤيتها ولا وزنها الا بطريق المباحث العلمية الاستنتاجية) تنحل انحلالا بطيئا ويزيد انحلالها تسليط النور أو الحرارة أو الضوء عليها دهورا ودهورا فحينئذ تفنى وأسرع المواد الى الانحلال (الراديوم) فإن جزءا من ألف جزء من جرام (الراديوم) يبقى دهرا وهو يشع ملايين وملايين من تلك الذرات إلى أن تتلاشى مادته أخيرا أى تتحول الى قوة ، وهذا الانحلال والتحول لا يمكن إلا بقوة عظيمة جدا ، فإن هذه الذرات تقذفها أجزاؤها المنحلة المتحولة الى نور سرعته (٢٠٠٫٠٠٠) كيلو متر فى الثانية ، فإذن هى مستودع قوة مدهشة وهى أشد القوى المعروفة اليوم ولو أمكن العلماء تحليل المادة لنالوا قوة خارقة للعادة ، فلو انحل جرام من الحديد بحيث ينحل فى ثانية واحدة لوجدوا أن هذا الجرام يتحول إلى قوة تعادل ستة آلاف وثمانمائة مليون حصان وهذا المقدار كاف لأن يجر قطارا حديديا حول الكرة الأرضية أربع مرات ، وقرر العلامة المذكور أن الكهرباء والحرارة والنور ماهى إلا انحلال المادة فهى تتحول إلى تلك الأعراض ، فما ضوء الشمس ولا كهرباء البطاريات ولا حرارة النار إلا أعراض قد تحول الجسم إليها ، فما المادة إلا قوة متكاثفة والأثير تكاثف فى الأزمان الغابرة فصار مادة كما تتكاثف المواد الدخانية (الغازية) والعلم الآن يريد أن ينال استخدام القوة التى فى المادة فإنها لاحد لها متى انحلت ومتى نلناها كانت للناس سعادة لا آخر لها ، وإذا كان (الروديوم) يشع فهكذا جميع المواد ستصير شعاعا ولكنه هو أسرع منها وما المسك ورائحته العبقة الذكية إلا كالرديوم ينحل إلى ما هو ألطف فيصير رائحة وهذه تنحل إلى ماهو ألطف فتصير ضوءا والضوء يرجع إلى الأثير والأثير هو الأصل الذى فرضوه أرق من الهواء ومن الحرارة ومن الضوء . هذا هو المبحث الذى يدور فيه بحث العلماء الآن ، فإذا كان الجرام الواحد وذراته فى الأرض وفى السماء قد حوى كل هذه العجائب والقوى وانحل فصار حركات وحرارات وأضواء تنير أم الأرض بأسرها وتحمل أثقالهم وتوسع ثرواتهم فكيف يتسنى للناس أن يعرفوا جميع العجائب ، وأنى لهم ذلك ؟ فإذا قال الله هنا «وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها الخ » فإن الباحث فى العجائب لا آخر لها ولا قوة لمخلوق على استقصائها . وخير ما أقوله فى هذا المقام قوله تعالى « ولو أن مافى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر مانفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم» فهذا هو التعبير العام فى أمر العجائب ولا مطمع فى استقصائه ، هذا ماينبغى فى هذا المقام .

بيان تقصير المسلمين فى هذه السورة

أفليست هذه الآية ناطقة بأن آيات السموات والأرض التى لا تتناهى والعجائب التى لا حصر لها من آيات الله .

جاء فى أول السورة « تلك آيات الكتاب » وفى آخرها آيات الأرض والسموات ، وقد ذمّ الله المعرضين عن الآيتين ، فإذا حللنا الآيات فى سورة يوسف وعرفنا معانيها وحللنا ألفاظها واستفدنا فوائدها فبالأحرى نحلل آيات الأرض والسموات ونستجلى فوائدها ونستخرج حكمها ، هذا هو الذى جاء له القرآن فبأىّ حق يقتصر المسلمون على جزء من (٣٦) من القرآن وهى الآيات المختصة بعلم الفقه ويذرون بقية القرآن كقصص الأنبياء وعجائب الكون والأخلاق فلا يؤلفون فيها استنتاجا وتعليما كما ألفوا فى كتب الفقه، وكيف يتركون بقية آيات الله التى هى آيات الأرض والسموات ، أفليس هذا هو القرآن ؟ أفليس هذا كلام الله ؟ والله هو الذى خلق السموات والأرض وأنزل القرآن وطلب فى سورة يوسف قراءة آيات السموات والأرض فبأىّ حق ساغ للمسلمين أن يناموا ويسبقهم الفرنجة إلى آيات الله «إن الله لايغير مابقوم » من الذلة والانتكاس « حتى يغيروا ما بأنفسهم » من الوسواس والوقوف عند الحواس ، إن هذه الآية الكريمة بيت القصيد فى سورة يوسف ومحك العقول ومهبط الحكمة، فإذا قال يوسف بعد أن حظى بما كان يتمناه : يافاطر السموات والأرض ملتجئا إليه مشيرا إلى منهج الأنبياء والعلماء من المقصد العلوى والمنهج الحكمى فى العلم ومعرفة حقائق الكون وأن ذلك هو نهاية المطالب وحقيقة الحقائق ، فقد خاطب الله نبينا ووضح له الأمر إيضاحا وشرحه شرحا وافيا فذمّ قوما أعرضوا عما ذرأ فى الأرض والسموات . والحقّ أن كل قصص وكل علم فإنما هى مقدمات للمقاصد العليا من علوم العوالم العلوية والسفلية والله يهدى من يشاء .

تم تفسير سورة يوسف عليه السلام .

سورة الرعد هى مدنية، وقيل مكية، إلا قوله تعالى « ويقول الذين كفروا الآية »
وهى خمس وأربعون آية

هذه السورة قسمان :

[القسم الأول] من أول السورة إلى قوله « كذلك يضرب الله الأمثال » فى العلوم الطبيعية وعلم التوحيد .

[القسم الثانى] فى الأخلاق والثواب والعقاب من قوله تعالى « للذين استجابوا لربهم الحسنى » إلى آخر السورة .

(القِسْمُ الأَوَّلُ)

(بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ)

الٓمٓر * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِى أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ * اللَّهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ * وَهُوَ الَّذِى مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِى اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَفِى الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِى الْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِى أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ * وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ * اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَىْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ * عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ * سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ * لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ

لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ * هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ * وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ * لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ * وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ * قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ، أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ *

في هذا القسم علم الشمس والقمر والأرض والجبال والأنهار والأشجار والأزهار والنخيل والأعناب واختلاف الثمرات وتنوع الحاصلات مع اتفاق العناصر والأنوار والهواء والماء وعلم الأجنة في البطون واختصاصها بعلم المكنون واستواء السر والعلن عند الله ونظام البرق والسحاب والرعد في الجو وسجود العالم لله طوعا وكرها وظلالهم غدوّا وعشيا ، وكيف كان الحق يخفى أمدا طويلا ويغشيه الباطل ويحجبه عن الناظرين ثم يتجلى سناه ويظهر في الخافقين منفعته ، وذلك كما في المطر إذا سقى الأرض فامتلأ الوادي به امتلاء وغطاه الزبد ثم زال الغطاء وبقي الماء فكان للزرع نماء ولصاحبه ثراء هكذا كان العلم والدين .

تفسير الكلمات تفسيرا لفظيا

قال تعالى (عمد) أساطين (ترونها) صفة عمد (ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر) الخ تقدم بإيضاح في سورة هود وسورة يونس ، فالله استولى على ملكه ونفذ فيه أمره (رواسي) جبالا ثوابت ، من رسا الشيء إذا ثبت جمع راسية (وأنهارا) جعلت بعدها لأنها منها تنشأ (زوجين اثنين) جعل فيها من كل أصناف الثمرات زوجين اثنين ذكرا وأنثى في أزهارها عند تكونها ، فقد أظهر الكشف الحديث أن كل شجر وزرع لا يتولد ثمره وحبه إلا من بين اثنين ذكر وأنثى ، فعضو الذكر قد يكون من عضو الأنثى في شجرة واحدة كأغلب الأشجار ، وقد يكون عضو الذكر في شجرة والآخر في شجرة أخرى كالنخل ، وما كان العضوان فيه في شجرة واحدة إما أن يكونا معا في زهرة واحدة وإما أن يكون كل منهما في زهرة واحدة ،

والثاني

والثانى كالفرع والأول كشجر القطن فان عضو التذكير مع عضو التأنيث فى زهرة واحدة ، وسيأتى تفصيل هذا المقام فى سورة الحجر (يغشى الليل النهار) يلبس النهار ظلمة الليل فيصير الجو مظلما بعد ما كان مضيئا فكأنه وضع عليه لباسا من الظلمة (قطع متجاورات) بعضها طيبة وبعضها سبخة وبعضها رخوة وبعضها صلبة وبعضها تصلح للزرع وأخرى لا تصلح وهكذا (صنوان) نخلات أصلها واحد (وغير صنوان) متفرقات مختلفات الأصول (فى الأكل) فى الثمر شكلا وقدرا ورائحة وطعما وخواص (فعجب قولهم) حقيق بأن تتعجب منه (أئذا كنا ترابا الخ) بدل من قولهم (وأولئك الأغلال فى أعناقهم) مقيدون بالضلالة لا يرجى خلاصهم (بالسيئة قبل الحسنة) بالعقوبة قبل العافية إذ كان كفار مكة يطلبون العقوبة استهزاء إذ يقولون « اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » (وقد خلت من قبلهم المثلات) عقوبات الأمم أمثالهم من المكذبين : أى وقد مضت من قبلهم فى الأمم المكذبة العقوبات بسبب تكذيبهم رسلهم . والمثلة بفتح الميم وضم الثاء وفتحها: نقمة تنزل بالإنسان فيجعل مثلا ليرتدع به غيره وجمعه مثلات بفتح الميم وضمها مع الثاء فيهما (لذو مغفرة للناس على ظلمهم) تجاوز عن المشركين منهم إذا آمنوا (لشديد العقاب) للمصرين (لولا أنزل عليه آية من ربه) كعصى موسى وناقة صالح « لولا » أى هلا (منذر) أى ليس عليك إلا الإنذار والتخويف والنصح متى ثبت أنك نبى بأى آية فقد كفى وأما اتباع اقتراحهم كأن تفجر لهم من الأرض ينبوعا أو تسقط السماء كسفا فذلك ليس عليك (ولكل قوم هاد) قائد يقودهم إلى الخير جبله الله عليه باستعداده كالأنبياء والحكماء والمجتهدين والصالحين وأنت هاد لهؤلاء ؛ ولما كانت الآيات المقترحات لا تصلح الأمم وفوائدها وقتية وفوائد العوالم كلها ونظامها ودراستها تورث اليقين أعقبه بآيات نظام الكائنات فقال (الله يعلم ما تحمل كل أنثى) يعلم الذى تحمله الأنثى أذكر هو أم أنثى وحسن هو أم قبيح وطويل أم قصير وفقير أم غنى وشقى أم سعيد (وما تغيض الأرحام وما تزداد) يقال غاض الماء وغضته أى نقص ونقصته وازداد الشىء وازددته ، والمعنى ويعلم الذى تنقصه الأرحام وتزداد (١) من عدد الولد فقد يكون واحدا أو اثنين أو ثلاثة أو أربعة (٢) ومن جسده ، وقد يكون تاما وقد يكون ناقص الخلق وهو المخدج (٣) ومن مدة الحمل فقد تكون أقل من تسعة أشهر ، وقد تكون أكثر فتكون سنتين وأربعا وخمسا الأول عند أبى حنيفة والثانى عند الشافعى والثالث عند مالك، وقد تكون أكثر من ذلك كما ظهر فى الكشف الحديث (٤) ومن دم الحيض فإذا حاضت المرأة نقص غذاء الولد لأن الدم هو الذى يغذيه وإذا لم تحض يتم الولد ولا ينقص فقوله: تغيض الأرحام وتزداد أى فى عدد الولد وفى جسد الولد وفى مدة الحمل وفى دم الحيض زمن الحمل (وكل شىء عنده بمقدار) أى كل شىء فى السماء والأرض له وقت معين وحال معينة فلا فرق بين شىء وشىء حتى نقص الولد والجسد ومدة الحمل والدم وتمام ذلك كله فليس هذا بالمصادفة العمياء بل هو بقدر (الكبير المتعال) العظيم الشأن المستعلى على كل شىء بقدرته (ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار) طالب الخفاء فى مخبأ بالليل وبارز بالنهار يراه كل واحد، من سرب سروبا : برز ، أو ذاهب فى سربه ظاهر ، والسرب بوزن النصر : الطريق (له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله) معقبات جماعات يعقب بعضها بعضا : من عقبه إذا جاء على عقبه ومنهم الملائكة لأنهم يعقب بعضهم بعضا فى حفظه وفى كتابة أقواله وأفعاله فهؤلاء وغيرهم يكونون من جميع جوانبه يحفظونه من المضار ويراقبون أحواله وهؤلاء المعقبات أنفسها من أمر الله لأنها حصلت بكلمة « كن » أو هى تحفظ من أمر الله كالمهلكات والمرضات العامة فى الكون فهذه من أمر الله فالحفظ منها حفظ من أمر الله تعالى وسيأتى إيضاحه (إن الله لا يغير ما بقوم) من العافية والنعمة والعز والاستقلال (حتى يغيروا ما بأنفسهم) من العلم والكمال والإخلاص والأخلاق

الجملة (وما لهم من دونه من وال) من دون الله من وال يلي أمرهم فيدفع عنهم السوء ، وهذا المعنى تقدم الكلام عليه مطولا في سورة الأنفال (هو الذي يريكم البرق خوفا وطمعا) البرق : لمعان يظهر من خلال السحاب : يريه الله لنا للإخافة والإطماع ، فهو يشبه النعم والنقم . نخاف من الصواعق ، ونخاف من المطر المسافر ومن في جرينه أي يدره وفيه التمر أو الزبيب أو القمح ، وكذلك نخاف من المطر إذا نزل في غير مكانه أو زمانه (وينشئ السحاب الثقال) أي بالمطر ، يقال أنشأ الله السحاب فنشأت والسحاب جمع سحابة : وهو الغيم المنسحب في الهواء (ويسبح الرعد بحمده) أي يسبح سامعوه من العباد الراجين للمطر فيصيحون بسبحان الله والحمد لله أي يسبحون متلبسين بحمد الله أو الرعد نفسه يدل على وحدانية الله وتنزيهه متلبسا بالدلالة على فضله ونزول رحمته (والملائكة من خيفته) أي الله (ويرسل الصواعق) الصاعقة نار تسقط من السماء (وهم يجادلون في الله) أي الذين كذبوا رسول الله يجادلون في الله وينكرون على النبي وما يصفه به من القدرة على البعث وينكرون الوحدانية باتخاذ الشركاء وذلك بالمقالة والمنازعة في الخصومات وهذه الجملة حالية .

روى أن عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة أخا لبيد وفدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم قاصدين قتله فأخذه عامر بالمجادلة ودار أربد من خلفه ليضربه بالسيف فتنبه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال اللهم اكفنيهما بما شئت فأرسل الله على أربد صاعقة فقتلته ورمى عامرا بغدة فمات في بيت سلولية . وكان يقول غدة كغدة البعير وموت في بيت سلولية ، وقوله (وهو شديد المحال) أي المماحلة والمكايدة لأعدائه . يقال محل فلان بفلان : إذا كايده وعرضه للهلاك . ومنه تمحل إذا تكلف في استعمال الحيلة (له دعوة الحق) أي الدعوة المجابة فان من دعاه أجاب ، أو دعوة الصدق والتوحيد وهي شهادة أن لا إله إلا الله (والذين يدعون) أي والأصنام الذين يدعوهم المشركون (من دونه) أي من دون الله (لا يستجيبون لهم بشيء) لا يجيبونهم بشيء يريدونه من جلب نفع أو دفع ضر (إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه) أي إلا استجابة للماء لمن بسط كفيه إليه يطلب منه أن يبلغ فاه والماء جماد لا شعور له ببسط الكفين ولا قبضهما فكيف يجيب دعاءه ؟ هكذا أصنامهم يدعونها فلا تحير جوابا (وما دعاء الكافرين إلا في ضلال) في ضياع لا منفعة فيه فان دعوا الله لم يجبهم وإن دعوا الأصنام لم تستطع إجابتهم (ولله يسجد من في السموات والأرض طوعا وكرها) أي يسجد الملائكة والمؤمنون من الثقلين طوعا في الشدة والرخاء والكفرة كرها في حال الشدة كما مر في آيات كقوله تعالى « وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه » وكذلك يسجد جميع ما في السموات والأرض سجود انقياد (وظلالهم) فانها تنقاد تبعا لانقياد الأجسام التي تشرق عليها الشمس فيصرفها الله بالمد والتقلص وسيأتي شرحه (بالغدو والآصال) حال من الظلال لظهور الامتداد والتقلص فيها أكثر في هذين الوقتين ، والغدو جمع غداة ، والآصال جمع أصيل ، والغداة : أول النهار ، والأصيل : ما بين العصر والمغرب (قل من رب السموات والأرض؟) خالقهما ومتولي أمورهما (قل الله قل أفاتخذتم من دونه أولياء) أي أبعد أن علمتموه رب السموات والأرض اتخذتم من دونه آلهة (لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا) لا يستطيعون لأنفسهم أن ينفعوها أو يدفعوا ضررا عنها فكيف يستطيعون لغيرهم وقد آثرتموهم على موجد الأحياء ، مقدر الآجال والأرزاق وهذا ضلال بين (قل هل يستوي الأعمى والبصير) الكافر والمؤمن أو من لا يبصر شيئا ومن لا يخفى عليه شيء (أم هل تستوي الظلمات والنور ؟) الشرك والتوحيد (أم جعلوا لله شركاء) بل أجعلوا والهمزة للانكار (خلقوا كخلقه) أي خلقوا مثل خلقه والجملة صفة شركاء فهم إذن لم يتخذوا لله شركاء قد خلقوا مثل خلق الله (فتشابه الخلق عليهم) أي فاشتبه عليهم مخلوق الله بمخلوق الشركاء أي ليس الأمر كذلك حتى يشتبه عليهم الأمر بل إذا تفكروا بعقولهم وجدوا الله تعالى هو المنفرد بخلق سائر الأشياء ، والشركاء أنفسهم مخلوقون له أيضا فلم يخلقوا شيئا حتى يشتبه خلق الله بخلق الشركاء . فالحجة إذن قد لزمت المجادلين

(وهو

(وهو الواحد القهار) المتوحد بالألوهية الغالب على كل شئ (أنزل من السماء ماء) من السحاب مطرا (فسالت أودية) أنهار جمع واد: وهو الموضع الذى يسيل فيه الماء بكثرة ثم استعمل فى الماء الجارى فيه مجازا (بقدرها) بمقدارها على ما تقتضيه المصلحة (فاحتمل السيل زبدا) الزبد ما يعلو على وجه الماء عند الزيادة كالحبب، وهكذا ما يعلوا على القدر عند غليانها. والمعنى فاحتمل السيل الذى حدث من ذلك الماء زبدا (رابيا) أى عاليا مرتفعا فوق الماء طافيا عليه، هذا مثل أول. المثل الثانى أن الناس يطرحون الذهب والفضة وسائر الفلزات كالحديد والنحاس والرصاص فى الحرارة النارية فيكون منها زبد راب، كما أن الماء فى الأودية يطفو عليه زبد ويتخذ من الذهب والفضة الحلية ومن الرصاص والحديد والنحاس وما أشبهها متاع وهو ما يتمتع به الناس كالأوانى من طبق وقدر وغيرها وما تحرث به الأرض أو يدفع به فى الحرب أو غيرها فهذه الفلزات يعلوها زبد وهى تذوب بحرارة النار كما يعلو الماء وهذا قوله تعالى (ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله) فزبد مبتدأ ومما يوقدون خبر (كذلك يضرب الله الحق والباطل) فالحق هو الجوهر الصافى الثابت، والباطل هو الزبد الطافى الذى لا ينتفع به (فأما الزبد فيذهب جفاء) أى ضائعا باطلا، والجفاء مارمى به الوادى من الزبد إلى جوانبه، والجفاء أيضا المتفرق. والمعنى أن الباطل وإن علا فى وقت فانه يضمحل ويذهب (وأما ما ينفع الناس) وهو الماء الصافى والجوهر الجيد من الأجسام التى تذوب وهى الفلزات كالذهب والحديد (فيمكث فى الأرض) أى يثبت ويبقى ولا يذهب (كذلك يضرب الله الأمثال) أى ليوضح بهذا المشتبهات. انتهى التفسير اللفظى للقسم الأول من السورة.

اعلم أن الله لما ذكر فى سورة يوسف تلك الدرة اليتيمة والجوهرة البديعة « وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون » وقد ذكرنا هناك أن هذه وأمثالها أهم مقاصد القرآن فلعمر الله أن من عرف هذا الجمال وتغلغل فى علم الطبيعة اعتلت نفسه أفق الفضائل وعلا فى أفق الجمال واستوى إلى سماء الكمال وارتقى فكره ونما عقله وعرف ربه ونفسه وأيقن أن الخرافات التى يبتدعها المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها لا قيمة لها وأقبل على الله ونبذ البدع فهذه الكائنات كلفنا بها لارتقاء عقولنا.

كان علماء الفلسفة قديما يقولون ليس يعرف الناس ربهم إلا إذا عرفوا علوم الرياضيات والطبيعيات حتى إذا أتموهما عرفوا ربهم. هكذا القرآن كتاب الله تعالى يكلف المسلمين أن يعرفوا ما فى السموات والأرض وألا يغفلوا عنها ابتغاء ارتقاء عقولهم واكمال صناعاتهم ومتى كملوا عقلا وجسما أدركوا خالقهم وعرفوا ما وراء الطبيعة. أقول لما كان هذا شأن العلوم الطبيعية وقد أشار لها فيما تقدم قبلا شرع فى هذه السورة يفصل بعض تلك العجائب تفصيلا ويأمرنا أن نشرحها شرحا طويلا فى هذا التفسير. يقول الله « ثم إن علينا بيانه » وبيان القرآن على أنحاء شتى ومنه ما نحن بصدده وأن الله عز وجل قد خلق وسيخلق أناسا يتكفلون ببيان العلوم الطبيعية لارتقاء العقول أولا ثم معرفة الله. فأما من ظن من المسلمين أنه متى زعم أنه عرف الله جازله أن ينام على المهاد ويظل خائر القوى عديم النفع فأولئك هم الكاسلون النائمون وكثير ما هم. ولقد ضل كثير من الصوفية بهذا القول وهم لا يعلمون أن الله أوجب تقوية الجسم وتقوية العقل لمعرفة الله تعالى. فانظر كيف قال فى هذه السورة: إنى نظمت هذا العالم وفصلته شموسا فدارت ثم دارت فانفصلت من الشموس سيارات ومن السيارات أقمار وكلها دائرات فى مدارات وأنتم على أرضكم هذه ترون ما فوقكم وهى تلك العوالم المحيطة بكم الملونة بالزرقة الحاملة لتلك الشموس لا تقع عليكم لحفظها فى أماكنها بنواميس عامة تسمونها الجاذبية ونحن أعلم بها. فنحن نمسك السموات والأرض أن تزولا وهذا الذى أحاط بكم وعلا فوقكم من جميع الجهات هو المسمى سماء فلا عمد به رفعناها ولا قائمة بها ثبتناها ولما أعمتها فى مداراتها

ونظمتها فى أملا كما كان ذلك استيلاء عليها وإقامة لأمرها وتمكنا منها فاستويت على عرشها بالحفظ والتدبير وأقمت قسطها بلا تقصير ولها حساب معلوم ونظام مرسوم وقانون مكنون فلا تجرى شمس خارج مدارها ولا أقمار فى غير فلكها وجميعها تجرى إلى أجل ضربته وموعد أثبته حين تبدل الأرض غير الأرض والسموات غير السموات وتمزق كل ممزق وترجع إلى عالم الهباء ثم يدور عليها الدور ويتم لها الأمر وأنظمها من جديد وأستوى على عرشها فى عالم غير عالمكم فأنا أدبر الأمر فى العالم العلوى تدبيرا وأفصل الآيات تفصيلا ؛ فلئن دبرت ملكى وأحكمت نظامه وأقمت بنيانه لقد بينت ذلك فى كتابى وفصلته فى تبيانى ، نظمت للملك والملكوت وأوحيت به ورحمته فى العقول فالأفلاك منتظمة والعقول بملاءمها مرتسمة فى الخلق فى الأول والأمر فى الثانى . وإذا كان نظامى قضى أن تعرف العقول بعض ما دبرته وتعقل بعض ما خلقته فهل يكون ذلك عبثا؟ كلا بل إن العقول متى أدركت الجمال طلبت الجليل ومتى أحست بالحسن والبهاء والنظام الذى عرفه العلماء وفهمه الحكماء وأوحى إلى الأنبياء طلبت الوصول إلى ذلك المقام وفرحت بالوصول إليه وهذا قوله « يدبر الأمر يفصل الآيات » إلى قوله « بلقاء ربكم توقنون » والإيقان هنا مسبب من ذلك الجمال المرسوم فى العقول فهل مثل هذا يخلق فى عقولنا عبثا . ولما فرغ من عالم السماء وعلومه شرع يفصل ما على الأرض فقال بسطت الأرض وأوسعتها وثبت الأقدام عليها وجعلت فيها الجبال الثوابت والأنهار الجارية من الجبال وجعلت الثمار مختلفة الأصول عند ازدواجها بحيث دبرت الذكور والإناث فى العنب والتين والزيتون والنخل والزرع وسائر ماينبت على الأرض وليس يعرف هذا إلا من درسوا علم النبات دراسة واسعة . وجعلت الليل والنهار يتناوبان على تلك الثمرات والزروع وغيرها فيتم نظامها . فهذه دلائل للمتفكرين وحكم للعاقلين ونعمة للمؤمنين وقوة على الحياة العاملين . ومن الأرض ما هى سبخة وطيبة ورخوة وصلبة ، وفى الأرض حدائق غناء ومزارع وأصناف شتى ففى ذلك تجول العقول فتفهم منها الفروع والأصول وينظمون مدنهم كما يعرفون ربهم ، ولعمرى كيف يعرف الله أو يحبه من عمى عن منافع الثمرات وغفل عن هذه الآيات .

فائن تعجب يا محمد من إنكارهم البعث فحقيق بأن تتعجب منه ، فان من قدر على إنشاء ماقصصت عليك كانت الإعادة أيسر شىء عليه فان هذا المبدأ الوطيد إذا لم يكن المعاد فهو قليل الثمرة ، إن أولئك مقيدون بالضلالة مخلدون فى النار ، هم يستهزءون ويقولون : أنزل بنا العذاب الذى أوعدتنا به فلم يستعجلونك بالعقوبة؟ أو ماعلموا كيف أهلكنا الأمم قبلهم وجعلنا ذلك مثلا لهم « وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم » بالإمهال والستر كما أمهلنا هؤلاء لننظر ماذا يصنعون « وإن ربك لشديد العقاب » لهم إذا لم يؤمنوا وهم متمادون فى الضلالة ، وإذا كان مافى السموات والأرض مما ذكرناه لم يكفهم فى الدلالة على الله واليوم الآخر فانهم لايؤمنون بغيره « إن الإنسان لظلوم كفار » يمر على آيات الأرض والسموات ولاتكفيه ولايؤمن بها لغفلته وبلاهته ويتجاوزها فيقول هل من آية كناقة صالح وعصا موسى وما أشبه ذلك فدع قولهم « فإنما أنت منذر ولكل قوم هاد » وأنت الهادى لهذه الأمة . ولما ذكر السموات وأتبعها بالزرع والشجر الذى لايقوم إلا بضياء النيرات وحركات الأفلاك وصلاحية الأرض أتبعه بما هو المقصود فى العالم الأرضى وهو العالم الإنسانى المتنفع بالثمرات وبالأضواء وبحركات الأفلاك ، فأبان أنه تعالى يعلم ماتحمل الاناث من ذكور وإناث الخ ، ثم أبان أن كل شىء عنده بمقدار وهو عالم بما غاب وما شوهد وهو الكبير المتعال ، يعلم مايسر الناس ومايعلنون ، وقد جعل لهم جماعات يحفظونهم من سائر العوالم المشاهدة والغائبة يكتبون أعمالهم وأحوالهم وأن كل مايتصفون به من الضعة والشرف ، والخفض والرفع تابع لما فى النفوس من الصفات كما يتبع الظل الشبح . فالأحوال الظاهرة شبح الأحوال الباطنة . ولما شرح العالم النباتى والإنسانى أتبعه بعالم الجو من

البرق والسحاب والرعد والصواعق ، وأخذ يذم الأصنام وتابعيها . ثم أتبع ذلك كله بجملة تشمل جميع ماتقدم في الأرض والسماء إذ أبان طاعة كل مخلوق في الأرض والسماء فكلها ساجدة سجود تسخير ، وهكذا ظلالها التابعات لها وذلك يشمل السحاب والإنسان والنبات والأرض والسموات ، فهذه كلها ساجدات وظلال للظلمات منها ساجدات بالغدو والآصال .

ثم ختم ذلك بأن من لم يفهم هذا فهو في عمى وضلال ، ومن فهمه فهو على نور من ربه ، وأتبعه بمثل أتمّ وأكمل وأبين ، فذكر الأودية والماء والزبد والمعادن ، ومثل الحق بصافيها ، والباطل بالزبد فوقها ، والزبد ذاهب والجوهر باق . هذا ملخص هذه الآيات مع تبيان المناسبات ، وتناسق العبارات وفي هذا القسم لطائف :

[اللطيفة الأولى] في قوله تعالى « الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها » .

[اللطيفة الثانية] في قوله « ثم استوى على العرش » . [الثالثة] في قوله « وفي الأرض قطع متجاورات » .

[الرابعة] في قوله « يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل » .

[الخامسة] في قوله « ولكل قوم هاد » . [السادسة] في قوله « وكل شيء عنده بمقدار » .

[السابعة] « له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله » .

[الثامنة] « إن الله لا يغير مابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم » . [التاسعة] في البرق والسحاب والرعد .

[العاشرة] في الصواعق . [الحادية عشرة] في الظلال . [الثانية عشرة] في قوله تعالى « فأما الزبد فيذهب جفاء »

اللطيفة الأولى في قوله تعالى « الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها »

وهذه تقدمت في سورة البقرة ، وقد شرح هناك أمر السموات وعددها ووجودها وما أشبه ذلك ، ويكفى الذكى الاطلاع عليه . وهكذا ماتقدم في سورة الأنعام عند قصة الخليل عليه السلام ، وفي سورة يونس عند قوله تعالى « هو الذى جعل الشمس ضياء الخ » . ولكن نذكر هنا [جوهرتين] :

الجوهرة الأولى

موازنة بين وصف العرب ووصف القرآن من كتابي : [مذكرات في أدبيات اللغة العربية] صفحة ٣٨

قال الحارث بن حلزة في معلقته يصف ناقته :

وأنى إذا اشتد الخطب أستعين على امضاء همى وقضاء وطرى (إذا خفّ أى ذهب بالرجل المقيم بلا عمل النجاء أى الانكماش) بناقة سريعة كأنها نعامة طويلة الساقين ذات أولاد (ملازمة للدوّ أى الوادى الواسع ذات خف محدودب) سمعت صوتا خفيفا تخافت على نفسها الصياد وقت العصر ، وقد قرب المساء فتراها ترجع قوائمها وتوقعها على الأرض فيثور غبار دقيق كأنه الأهباء (أى ماىرى في شعاع الشمس النافذ من الكوّات جمع كوّة وهى الطاقة) وترى أطباقا من أخفافها خلفها أطباق أخرى سقطت من وعر الصحراء ، فهذه الناقة أتلهى بالركوب عليها وقت الهجير من ألم يعيني وهمّ يلحقنى إذ يكون كل ذى همّ كالناقة البلية أى العمياء التى ربطت على قبر صاحبها حتى تموت وهذا معنى قوله :

غَيْرَ أَنِّي قَدْ أَسْتَعِينُ عَلَى الْهَمْـ ... ـمِ إِذَا خَفَّ بِالثَّوِيِّ النَّجَاءُ

• بِزَفُوفٍ كَأَنَّهَا هِقْلَةٌ ... أُمُّ رِئَالٍ دَوِّيَّةٌ سَقْفَاءُ

• آنَسَتْ نَبْأَةً وَأَفْزَعَهَا الْـ ... ـقُنَّاصُ عَصْرًا وَقَدْ دَنَا الْإِمْسَاءُ

فترى خلفها من الرجع والوخ ... م منينا كأنه أهباء
وطراقا من خلفهن طراق ... ساقطات ألوت بها الصحراء
أتلهى بها الهواجر إذ كل ... ل ابن هم بلية عمياء

أقول: ولما كان القرآن لايدنزل لمثل هذه الأوصاف وجب أن نذكر وصفا ما كقوله تعالى «الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون * وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون» إلى قوله «لآيات لقوم يعقلون».

فانظر كيف وصف الشاعر الناقة وسرعتها وشبهها بالنعامة الخائفة من القانص وذكر الغبار وضعف خف الناقة، ووصف الله فى القرآن السموات بلا عمد والأرض وتسخير الشمس والقمر وجريهما إلى انقضاء العالم ثم ذكر تدبير العالم وتفصيل كل شىء ثم استنتج لقاء الله المدبر لهذا العالم ثم ذكر مد الأرض وأنهارها وثباتها بالجبال ومافيها من أنهار وأبان كيف كانت قطع الأرض متجاورة ثم هى مختلفة فمنها الحدائق الجيدة والجنات ذات الأعناب وذات المزارع والنخيل الذى نشأ من أصل واحد وغيره وكيف سقيت كلها بماء واحد وفضل بعضها على بعض فى الطعم واللون والذوق، اه.

الجوهرة الثانية

إشراق النفس، بهجة السماء وجمالها من كتابى سوانح الجوهرى

أذكر أنى ليلة خرجت من القاهرة مساء لزيارة صديق فجلست فى حقله وكان ذلك وقت الترويض والظلام حالك والليل قد أرخى سدوله وأحاط ظلامه بكل حى فنظرت السماء إذا هى جنة ذات بهجة للناظرين هى بحر من نور تتلألأ كواكب الزهر فى مائه وتسطع شوارق الأنوار فى أرجائه، خيل لى أن نور جمال الكواكب قد ملأ الجو وأحاط بما حولى من العوالم، وتأملت نفسى والعوالم حولى إذ أنا فى عالم عظيم كبير، أصغر كوكب فى نظرى قد يفوق الشمس حجما ونورا، والشمس تفوق الأرض آلافا مؤلفة وهذه النجمة القطبية تبعد عنا خمسين سنة مقدرة بسير ضوئها مع أن الشمس يخترق نورها الآفاق فى (٨) دقائق و (١٨) ثانية فكيف يكون مقدار ذلك الكوكب وكيف حال المجرة وهى جميعها كواكب تضاءمت فى نظر الإنسان وأصبحت بالنسبة لنا ذرات تكاد تشبه اللبن وكل واحدة من تلك الذرات شمس كشمسنا، عالم واسع وملك كبير «وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا» فما الأرض ومن عليها، وما الدول والملوك والحروب والسياسات، وما الأرض إلا ذرة لاقيمة لها ولا وزن فمن الناس ومن أمراؤهم وخزائنهم؟ ما أصغر الأرض وما أضعف الناس وما أوسع العالم وما أكبره!.

الله أكبر كبيرا! لقد صغرت فى عينى هذه الدول والملوك وسياساتهم وممالكهم وأيقنت أن هناك حالة لنفس الإنسان سينسى فيها الأرض وما عليها والأحقاد لما يغشيه من العلم وما يوحى إليه من الحكمة، الناس يخضعون للجمال والقدرة والعلم، فأرباب الأموال وذوو النفوذ والجاه ذوو قدرة، الأولى مالية، والثانية جاهية، وذوو الجمال يجذبون النفوس إليهم، وذوو العلم يتبعهم السامعون والفاهمون، فإذا زج بهم فى بحر من نور العلم وأشرقت على قلوبهم شموس الحكمة واطلعوا على سعة العوالم ونظامها وجمالها فبهرهم

الجبال وأدهشهم العلم وغشى على أفئدتهم سعة تلك المخلوقات الهائلة أنساهم ذلك ما كانوا فيه من العيش واللذة والألم ، ولكن متى يخلص الإنسان من ذنوبه الفواطع فيحاط بتلك الأنوار .

قال أرسطاطاليس : [إن هذه البهجة لاتدوم أكثر من لحظة] وتبعه الإمام الغزالى فى ذلك ، وأكبرها ابن سينا فى آخر الإشارات وأتى فيها بمقامات تبلغ العشرين ؛ أما أنا فأتخذ ما أجده منها دليلا على جمال وبهاء سيصل إليه المرء بعد التجرّد من عالم الطبيعة كما استنتجه الأقدمون من أحوال نفوسهم .

اللطيفة الثانية فى قوله تعالى « ثم استوى على العرش »

انظره فى سورة يونس وسورة هود .

اللطيفة الثالثة « وفى الأرض قطع متجاورات »

تقدّم بعضه فى سورة البقرة ونذكر هنا زيادة عليه فنقول :

يذكر الله فى هذه السورة « وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب » من جملة ما فصل فيها تبيانا لقوله فى سورة يوسف « وكأين من آية فى السموات والأرض الخ » أفلا يعجب المسلمون كيف كانت عناية الله بالعجائب الأرضية والسماوية فانه لما أجملها فى سورة يوسف فصلها فى سورة الرعد ورمز إلى أغلب علم الطبيعة ، وهل هذه العناية وجهت إلى الوضوء مثلا وإلى البيع ونحوهما ؟ كلا فالعناية هنا أتم ، وياليت شعرى ماهذا التقصور وما هذا القصير وما هذا الغرور ، أمة هذا شأن كتابها فى العناية بالعجائب الكونية ثم هى تفصل القول تفصيلا فى فروض الوضوء والماء المستعمل وغيره وتؤلف فى هذا وتوسع الدائرة حتى إذا وصلت إلى ما توجه إليه عناية الله فى العوالم نكص الناس على أعقابهم ، فلماذا ؟ لم تسوّوا أيها المسلمون بين آية وآية : هل هذه الآيات ليست من القرآن ؟ أراكم تقيسون الوجه طولا وعرضا فى كتب الفقه لما سمعتم قوله تعالى : « اغسلوا وجوهكم وأيديكم الخ » وكذلك بينتم كل عضو وحدوده وأحسنتم إحسانا عظيما فى هذا ولكن هلا فعلتم ذلك وأمثاله فى مسألة القطع المتجاورات وكيف كان فصل الله فيها . وإذا كان هذا هو الذى سيكون فى مستقبل الإسلام والأمة الإسلامية ستأخذ حظها من العلوم فلأبين هذا المقام فأقول نقلا من كتاب لى فى الفلسفة ملخصا :

إنّ سطح الأرض جبال وبحار وبرارى ومزارع . والجبال [أربعة أقسام] :

القسم الأول : الجبال الصخرية كجبال تهامة فما هى إلا صخور صلدة وأحجار صلبة لاينبت عليها إلا يسير .

والقسم الثانى منها جبال ذات نبات لأنها صخور رخوة وطين لين وتراب ورمل وحصبات ملس متلبدات ساف فوق ساف متماسكة الأجزاء كثيرة النبات والأشجار والحشائش مثل جبال فلسطين وجبال لكام وطبرستان .

والقسم الثالث منها جبال النار فانه يرى فى أعاليها ليلا ونهارا دخان متكدر ساطع فى الهواء مرتفع فى الجوّ ، وكان القدماء يعللون ذلك بأن فى باطن الأرض كهوفا ومغارات وأهوية حارة تجرى إليها مياه كبريتية أو نفطية دهنية فتكون مادّة لها دائما مثل التى بجزيرة (صقلية) وبجبل (زمهر) من خورستان .

أما علماء العصر الحاضر فانهم يقولون إن الأرض كرة نارية وقشرتها لاتزيد عن قشرة البطيخة بالنسبة لكرة الأرض وقد تقدم شرح ذلك فى تفسير سورة (آل عمران) .

والقسم الرابع جبال ذات هواء لطيف يهبّ عليها دائما أو فى بعض الأوقات مثل جبل الثلج الذى بدمشق والذى ببلاد (داور) من جبال (غور) وجبل دماوند فهذه الجبال لما كان الثلج فوقها فانه عند ذوبانه يتحلل إلى أجزاء بخارية لطيفة فيرتفع فى الجوّ ويلطف الهواء .

الأنهار

ثم إن الأنهار تتبع الجبال لأنها منها نشأتها وإلى البحار نهايتها ، فمنها مايجرى من الشرق إلى الغرب كنهر (ماوند) ومنها مايجرى من الغرب إلى الشرق كنهر ببلاد (أذربيجان) ومنها مايجرى من الجنوب الى الشمال كنيل مصر ، ومنها مايجرى من الشمال الى الجنوب كدجلة .

وأما البحار فانها جميعها مالحة وذلك لتلطف أبخرتها الجوّ وتختلط بالهواء وتتموج معه يميناوشمالا وشرقا وغربا فتدبغه وتملحه وتمنعه من التغير والفساد والتعفن ولولا ذلك لمات الحيوان المستنشق للهواء دفعة ، وأيضا لولا الملح المستكنّ فى الماء الممتزج به لصار الماء آسنا وتغير ومات الحيوان الذى فيه جملة واحدة فتعجب من الملح كيف صار نعمة فى البحر ونعمة فى البرّ ، فاما البرارى والقفار فانها تدخل فيما سنذكره من خصائص الأماكن لأنها مناطق يتنازعها النبات والحيوان .

(١) الفيلة لاتتولد إلا فى جزائر البحار الجنوبية تحت مدار برج الحمل .

(٢) الزرافة لاتتولد إلا فى الحبشة .

(٣) السمور وغزال المسك والسنجاب لاتتولد إلا فى البرارى والقفار .

(٤) الصقور والبزاة والنسور وأمثالها لا تفرخ إلا فى رؤوس الجبال الشاهقة .

(٥) القطا والنعام لاتفرخ إلا فى البرارى والفلوات .

(٦) البط والطيطوى وأمثالهما لاتفرخ إلا على شطوط الأنهار .

(٧) العصافير والفواخت والقمارى وأمثالها لاتفرخ إلا بين الأشجار والدحال والقرى والبساتين .

أماكن النبات

(١) النخل والموز لاينبتان إلا فى البلاد الحارة والأرض اللينة .

(٢) الجوز واللوز والفستق والبندق وأمثالها لاتنبت إلا فى البلاد الباردة .

(٣) الحلبة والدلب وأم غيلان لاتنبت إلا فى البرارى والقفار .

(٤) القصب والصفصاف لاينبتان إلا على شطوط الأنهار .

المعادن

(١) الذهب لايتكوّن إلا فى البرارى الرملية والجبال الصخرية .

(٢) الفضة والنحاس والحديد والرصاص وأمثالها لاتتكون الا فى الجبال والأحجار المختلطة بالتربة اللينة

(٣) الكبريت لايكون إلا فى الأرض الندية والرطوبات الدهنية .

(٤) الجصّ والإسفيذاج لايكوّنان إلا فى الأراضى الرملية المختلطة بالجص .

(٥) الزاج والشبّ لايتكونان إلا فى التراب العفص .

(٦) الدرّ والمرجان لايتكونان إلا فى البحار فى أحوال خاصة .

عجائب هذه الدنيا

فانظر كيف رأيت الجبل فوقه النسر والباز والصقر والثلج والنار ، ورأيت فى باطنه ماء وزئبقا ورصاصا وحديدا وذهبا وفضة ، وفيه عيون نابعات وقير ونفط وملح وكبريت ، ثم إذا نزلت من الجبل رأيت القطا والنعام فى الفلوات والبط على شط النهر والصقور فى المرج والنخل والموز فى الأرض الحارة والجوز فى الباردة والحلبة فى القفر والقصب على الماء .

فانظر العجب العجاب فى هذه الأرض التى نحن راحلون عنها إلى عالم أعلى منها كيف جملت وحسنت

وظهرت

وظهرت وبهرت وازينت للناظرين فما أجمل أرضنا وما أبهج حسنها وما أعظم شكلها وما أبدع إتقانها ! ، هذا هو الذى يكون أمثاله فى تفسير قوله تعالى « وفى الأرض قطع متجاورات الخ » .

حكايات عجيبة

فى أيام تأليف هذا التفسير وردت حكايات عن نباتات عجيبة فى الجرائد والمجلات العلمية فرأيت أن أذكرها هنا تفكهة وتبصرة لمناسبة هذه الآية إذ جاء فيها « يسقى بماء واحد الخ » .

الأولى : الضوء من الأشجار

تمكن عالم فرنسى من كشف طريقة استخراج الضوء من نفس الأشجار إذا وصل لوحا نحاسيا مدفونا فى الأرض بآخر ربطه فى الشجرة بجهاز (جلفانومتر) وهو جهاز يقيس التيارات الكهربائية الصغيرة ثم زاد القوة بجمع ثلاثة أشجار ثم أوصلها الى عشرين شجرة ثم لوحين نحاسيين فى الأرض وبينهما ستة أقدام وتمكن بواسطة التيار الكهربائى الذى حصل عليه من إضاءة لمبة كهربائية صغيرة ، وهذه المسألة الآن تحت التجربة . انتهت الحكاية الأولى .

الحكاية الثانية : النبات المضحك

لقد كنا نقرأ فى أسفار السندباد البحرى من الأساطير مانظنه لاحقيقة له كقوم رآهم فى إحدى سفراته فى جزيرة وكان معه أصحابه فأطعموهم طعاما نباتيا فغير أخلاقهم وجعلهم شرهين على الطعام وزالت قواهم العقلية وأخذوا يسمنون بسرعة وأعدهم القوم للذبح كأنهم غنم ، أما هو فإنه سلم بمرضه وضعفه فهرب إلى بلدان أخرى وما كنا نعلم ماجاء اليوم فى الجرائد يوم ٢ أكتوبر سنة ١٩٢٤ إذ وصف أحد علماء الطبيعة لجمعية علمية بعد رجوعه من بلاد العرب نباتا غريبا سماه (الضاحك) وإنما سماه كذلك لأن كل من أكل من بذره يستمرّ مدة قصيرة فى الضحك المفرط وينتهى أخيرا بنوبة عصبية ، والوطنيون هناك ينشفون أوراقه ويسحقون بذوره ويحفظون المسحوق الوقت المناسب فيقدمونه للذين يكرهونهم ، وإذا ضوعف المقدار المأخوذ تؤدّى النتيجة حتما إلى الجنون فيسقط الإنسان بعد تعاطى المقدار فى نوم عميق وقد أضاع ذاكرته وتبدلت عاداته ، انتهت الحكاية الثانية .

الحكاية الثالثة : زيت يستخرج من الجراد

ذكرناه فى هذا المقام لأنه شارك النبات فى إعطاء الزيت ، جاء فى المجلات والجرائد أن بلاد جنوب أفريقيا مصابة بالجراد الذى يأكل مزارعها كما أصيبت مصر بدودة القطن لكن الجراد وجدوا فيه زيتا عجيبا به تدار آلات الطيارات ، تلك البلاد تصدر الآن مقادير كبيرة لهذا الغرض .

وتقول جريدة أخبار مديرى السكك الحديدية التى تصدر فى (جوهانسبرج) بجنوب أفريقيا إن ثمانية وثمانين بالة من الجراد تزن تقريبا ثمان عشرة (طونولاته) صدرت أخيرا من (كلزون) إلى دربان لشحنها الى (هولاندا) وهذه المقادير من الجراد تستعمل بصفة طعام للدواجن وغيرها من الحيوانات المنزلية الأليفة بعد أن يستخرج منها زيت تدار به آلات الطيارات ، وقد أذيع أن لهذا الزيت خواص نافعة جدّا وأنه يبقى فى أعلى طبقات الجوّ سائلا كما هو على سطح الأرض ، هذا ماجاء فى الجرائد يوم ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٢٤ أثبته هنا ، فهل يعلم المسلمون ذلك ؟

أفلا يعلم المسلمون أن هذه النعم خلقت لنا وللفرنجة معا ؟ أو لا يعلم المسلمون أن الله ادّخر الجراد وخزن فيه الزيت ، ولما خلق الطيارات أفهم الدقول أن زيت الحيوان الطائر يناسب الطيارات ، فهو يمتاز عن زيت النبات لأنه مخلوق فى طائر فليكن فى الطيارات .

أليس هذا قوله تعالى فيما سيأتى « وكل شئ عنده بمقدار » فمن الأشياء هذا الزيت النافع للطيارات ولم يعلمه الناس قبل الآن ، لا بخلا من الله ولكنه أخفاه لينتفع به الذين يرضعون بالطيارات « وإن من شئ إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » وهلا يرى المسلمون أن ظهور عجائب القرآن فى هذا التفسير وفى غيره بوضوح قد جاء مناسبا للزمن ، وأن ظهور ذلك بهذا الوضوح قبل الآن لم يكن مناسبا للزمن ، وأن الله خزن علوم القرآن كما خزن الزيت فى الجراد حتى إذا جاء أجله أبرزه ؟ أوليس لهذا القول حظ من قوله تعالى « ولما يأتهم تأويله » أفليس هذا بعض مايئول إليه القرآن من انكشاف حقائقه ؟ أو ليس ظهور هذه العلوم فى القرآن اليوم مناسبا للمسلمين المتعطشين للعلم كما ظهر الزيت لرجال الطيارات المتعطشين للطيارات فليقرأ المسلمون العلوم فكفى جهلا وخزيا وعارا وشنارا وبعدا عن الله رب العالمين .

جوهرة مضيئة فى قوله تعالى « وفى الأرض قطع متجاورات » وقوله تعالى « وينشئ السحاب الثقال » وفى قوله تعالى « جعل فيها زوجين اثنين »

اعلم أن الأجسام كلها لا تخلو إما مضيئة وهى ما يصدر عنها النور كالشمس والنار ، وإما مظلمة وهى مالا يصدر عنه نور بل ينعكس عنه نور غيره إذا وقع عليه وهذه لا ترى إلا بنور مكتسب من غيرها كالقمر والحجر ؛ ثم الأجسام من حيث نفوذ النور منها إما شفافة أو شبيهة بالشفافة أو ظليلة ، فالشفافة ما تعيق النور قليلا عن سيره كالزجاج فترى الأشباح من ورائه ، والشبيهة بالشفافة هى التى تعيق النور كثيرا عن نفوذه كالورق للزيت ونحوه فلا ترى الأشباح من ورائها ، والظليلة هى التى لا ينفذها النور كالحجر ونحوه وتلقى ظلا كثيفا على الأرض ، وعلى ذلك ترى أن الهواء أشبه بالزجاج فهو شفاف وهكذا الماء واليابسة كالقارات أشبه بالظليل ؛ ثم إن انعكاس الأنوار : أى رجوعها عن الأجسام بعد وقوعها عليها من جسم منير على نوعين : نوع يسمى (النور المستطير) إذا كان الجسم الذى يقع عليه النور خشن السطوح فإذن تتفرق الأشعة منه إلى كل مكان فيرى من كل جهة ، ونوع يسمى (النور المنعكس) إذا وقع على سطح أملس صقيل فتندفع أشعة النور عنه إلى جهة واحدة أو إلى جهات معينة فلا نرى الأشباح منه إلا إذا وقفنا فى تلك الجهات المعينة ، ومثال الأول الجبال والأودية والمنازل فهذه نراها بالنور المنعكس من كل مكان : أى نرى نفس الجبال الخ ومثال الثانى المرآة مثلا فإننا لا نراها وإنما نرى الصور التى ظهرت فيها وإنما لا نراها لأنها صقيلة فنحن نرى المنزل ولا نرى المرآة الصقيلة وإنما نرى مافيها من الصور ولا نراها هى إلا إذا قلت صقالتها ويكون ذلك بالنور المنتشر .

إذا علمت هذا فتعجب من العالم الذى نعيش فيه وابتهج بما ستسمع من حكمة وما ترى من جمال فى العالم الذى خلقك الله فيه . انظر أرضنا ففيها الأجسام الظليلة كالجبال والأجسام الشفافة كالماء ومثل الهواء وكما ترى الهواء والماء ينفذ النور من خلالهما ترى الأحجار ؛ ظليلة فالمبانى مثلا نورها مستطير والبحار العظيمة إذا قرأنا العلوم الفلكية عرفنا أن نورها من نوع المنعكس : أى إن النور منعكس عنها كما ينعكس عن المرآة .

إن للأرض نورا منعكسا على القمر ، إن الأرض قمر القمر تلقى عليه نورا إذا لم تضئه الشمس يساوى النور الواصل منه إلى الأرض نحو (١٤) مرة ، إذن البحار مرآة الأرض .

ألا ترى أن الماء أشبه بالزجاجة ووراءه من قاعه أرض يابسة فهو إذن يعكس النور كما تعكسه المرآة ، فالهواء زجاج والبحر مرآة واليابسة ظليلة ، وإذا أوقدنا نارا على الأرض كان عندنا إذن الجسم المضئ ، ضع شمعة متقدة وأمامها حائط ومرآة ولوح زجاج ، الشمعة كالشمس والحائط كاليابسة والبحر كالمرآة والهواء مثل لوح الزجاج .

نحن نعيش فى وسط كامل مضىء ومستضىء وشفاف وعاكس لضوء منتشر وعاكس لضوء منعكس ، إن العالم الذى نعيش فيه جميل نور مشرق وأجسام لطيفة شفافة وأجسام أخرى مختلفة ، إن الله جعل هذه الأرض قطعا متجاورات ليتمّ الانتفاع بها ، هل لك إذن أن أريك جمال تلك القطع المتجاورات أبين من هذا .

فصل فى الفحم الحجرى وفى البلور الصخرى وفى الزجاج

الفحم الحجرى

إن الفحم الحجرى يستخرج من باطن الأرض كان قديما غابات عظيمة غطت سطح الأرض قبل خلق الإنسان ثم دفنت وضغطت عليها طبقات أرضية فوقها . وأكثرها كانت من نباتات خفية الزهر كأنواع السرخس التى كانت فى ذلك الزمان مكونة لأشجار عظيمة . وهذا شكل أوراق بعض الأنواع التى تكوّن عنها الفحم الحجرى (شكل ١) .

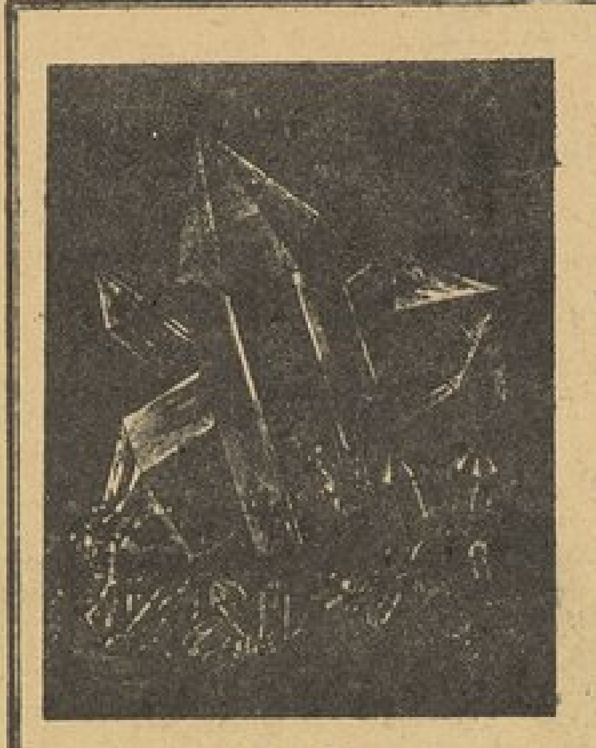


(شكل ١)

وأنواع الفحم الحجرى كثيرة الاستعمال فيها قوام كثير من الصنائع ولو فقد النوع الإنسانى الفحم دفعة واحدة لاختلّ نظام الهيئة الاجتماعية اختلالا تاما ولقد ذكرت لك فى أول سورة الأنعام أنواع الفحم وكيف استخرج الناس منه غازا به تضاء الشوارع فى المدن ، وهكذا أصباغ كثيرة تعدّ بالمئات وبفحم للموجات أيضا نور الكهرباء . فياعجبا هذا هو الفحم وهو فى بعض قطع الأرض المذكورة فى الآية . ومن هذا الفحم للظلم اشتقت الأنوار وانبعثت عنه كما انبعثت عن الشمس . إن نور الشمس قد خزن فى الفحم والناس يستخرجونه الآن بالطرق الصناعية . فإذا رأينا شمسنا تضىء لنا من السماء فهاهى مخازن أنوارها حاصلة فى الفحم الغائر فى الأرض على بعد عظيم ، الفحم جسم ظليل معتم لاينفذ النور منه وبالعمل فيه يصبح جسما مضيئا فهو جسم أرضى على حاله وبالعمل فيه يصير جسما مضيئا ، إن فى الفحم الضدين : الظلمة والنور والماس الذى تكوّن منه جسم شفاف ، فقد جمعت مادّة الفحم نور الشمس وكثافة الأرض وشفافية الهواء ، وإذا وضع وراء قطعة من الماس جسم ظليل انعكس النور عنه فكان كالمرآة ، هذه الدنيا عجب وكلها جمال وبهجة وحكمة وسعادة للمفكرين العاقلين ، هذا هو وضع العالم الذى نعيش فيه ، أنظر ماذا ترى فيما بعده وهو :

البلور الصخرى

اعلم أن من القطع المتجاورات فى الأرض (السكورس) وهو المسمى عند العامة (الزلط والحصى) والرمل منه فهو كورس على هيئة حبوب صغيرة ويدخل فى أعمال الزجاج والبلور ؛ ومن أنواعه الصوّان وشظف البنادق ، ومنه نوع هو المقصود فى هذا المقام يسمى (البلور الصخرى) هو كورس عديم اللون شفاف منظره كالبلور متبلور بلورات منشورية مسدسة منتهية بهرمين كما فى الشكل الآتى (شكل ٢) .



وهذا النوع موجود في جبل الطور وقد يكون متلونا بأجسام مختلفة تشبه بعض الأحجار الكريمة وتسمى بأسمائها فنه (الكركهان) الملون بالبنفسجية (وياقوت بوهيم) وهو كورس وردى لطيف المنظر نادر جداً (والياقوت الأصفر الهندى) وهو كورس أصفر هندى . انظر هذا النوع من الكورس وتأمل كيف كان مسدسا هرميا . وتعجب كيف رأينا التسديس في بيوت النحل وفي نظام الثلج كما تراه مرسوما في سورة آل عمران وستراه قريبا وهكذا هنا تسديس متقن وجمال باهر ، ثم كيف ترى أن بعض القطع من الأرض كالطور برز فيها مايشبه الأحجار الثمينة جمالا وبهجة وقد خرج عن حال الظلمة إلى حال الجسم الشفاف فكان كالماء وكالهواء ليفتح الناس باب العمل واستخراج الزجاج .

(شكل ٢)

الكلام على الزجاج

إننا نعيش في عالم عجيب . نظرنا فرأينا ماء شفافا وهواء شفافا . نحن محتاجون إلى الأجسام الشفافة لماذا؟ لنجعلها في نوافذنا فتمنع عنا الغبار والهواء وتدخل الضوء ، والهواء والماء ليسا جامدين حتى نفعل بهما ذلك والثلج في البلاد الباردة يذوب من حرارة الشمس فسلطانه في البرد ، فماذا نفعل إذن ؟ وأيضا نحن في حاجة إلى أجسام زجاجية تكبر لنا الصغير عند الحاجة وتقرب البعيد ، فبالأولى نريد أن نعرف خفايا النبات ونكشف خبايا الأجسام فنرق الطب والصناعات . وبالثانية نعرف الأجرام السماوية وندرس جبالها وأنهارها ولا يكون ذلك كله إلا بالأجسام الشفافة ، هكذا نحن في حاجة إلى مايقوّى أبصارنا على عملها إذا ضعفت ويكبر الحروف لنقرأها ، كل ذلك يحتاج إلى جسم شفاف صلب لاسائل كالماء ولا غاز كالهواء ، لهذا خلق الله هذا البلور الصخرى وكأنه يقول أى عبادى انظروا إلى المادّة الأرضية المعتمة ، هاهو ذا البلور الصخرى جسم شفاف ، فها أنا ذا فتحت لكم الباب فادخلوه .

تاريخ الزجاج

قال المرحوم أستاذنا في هذا العلم أحمد أفندى عبد العزيز ماملخصه :

إنه قبل الميلاد بنحو ثلاثة آلاف سنة كانت صناعته في مصر وفي فينيقيا متقدمة متقنة جدا والمصريون هم الذين علموا اليونان والرومان صناعة الزجاج والطريقة عند القدماء هي نفس الطريقة الحالية والرومانيون نبغوا فيه .

وفي القرن الخامس حينما أغار البربر على الرومانيين (المراد بالبربر هم آباء الأوروبيين الحاليين) اضمحلت هذه الصناعة ومكثت أوروبا زمانا طويلا لاتتقن هذه الصناعة وكانت مزهرة في الشرق ثم إن أهل (البندقية) تعلموها ومنهم انتشرت في أوروبا الحديثة .

الزجاج وكيف يصنع ؟

الزجاج مادة شفافة قابلة الكسر ، ومنه ألواح الشبابيك المعروف منفعتها ، ومنه (المرايا) التي يسهل

بها الاعتناء بالنظافة وهى ألواح من الزجاج مغطى أحد سطحيها بطبقة من القصدير أو الفضة ، وكالأوانى الكثيرة الاستعمال والعدسات والأنابيب ، ولولا هذه وماقبلها لم يصل علم الكيمياء والطبيعة والفلك والتاريخ الطبيعى وغيرها إلى حال التقدم والفلاح .

تحضير الزجاج

الزجاج يحضر من الرمل والجير أو الطباشير والصودا أو البوتاسا ، تمتزج المواد التى يجهز منها جيدا وتسخن فتصهر بتأثير الحرارة وتستحيل إلى عجينة يعطى لها الشكل المطلوب .

البلور

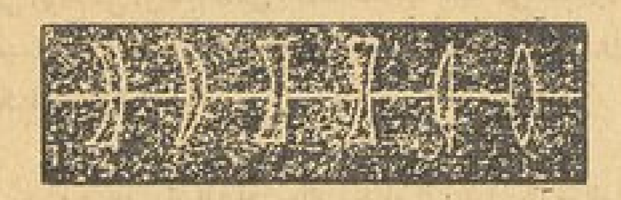
هو زجاج استبدل فيه الجير أو الطباشير بأوكسيد الرصاص ، ويستعمل فى تحضيره رمل أبيض ، هذا قبس من نور قوله تعالى : « وفى الأرض قطع متجاورات » ، هذه هى القطع المتجاورات أيها المسلمون ، فقطعة فيها الفحم الذى يضىء منازلكم وشوارعكم ويولد الكهرباء ، وقطعة فيها رمل وأخرى فيها جير أو طباشير ، وقد تقدم فى سورة آل عمران كيف كان الطباشير متراكما من حيوانات دقيقة لاتعد فأصبحنا نكتب به على (السبورات) لتعليم الأطفال ، وقطعة فيها الصودا وأخرى فيها البوتاسا ، هذه القطع منها أخذنا هذه المواد وصنعنا الزجاج فتعلمنا علوم السماء وعلوم الأرض وارتقينا ، ولكن الذى عرف ذلك فى زماننا غير المسلمين .

إن المسلمين يحتاجون لجيل واحد يتعلم ثم ترتقى الأجيال الأخرى بعده ، وسيكون هذا إن شاء الله قريبا ، القطع المتجاورات أشبه بمخازن خزن الله فيها عناصر السعادة والحياة ودلنا عليها ، لو لم تكن الأرض قطعا متجاورات لكانت الحياة عليها لاتطاق ، ولكنها قطع متجاورات فيها الأنواع المختلفة وكأنما هى أسواق تباع فيها جميع ماتشتهيه الأنفس وتلذ الأعين .

إن هذه الدنيا جميلة عند العلماء والحكماء ، مظلمة عند الجهلاء ، إنهم لايرون شيئا مما نقول بل هم من هذا يسخرون ، انظر ضوءا منتشرا من الشمس وأجساما ينفذ الضوء منها وأخرى ينعكس الضوء عنها وهى الهواء والأرض ، كيف جعل لنا فى الأرض قطع متجاورات لنتخذ منها مانشاء لما نشاء ، ياسبحان الله ، رمل وجير وبوتاسا نجمعها من أماكن مختلفة ونكون منها تلك العدسات المختلفة الأشكال التى بها نجمع النور تارة ونفرقه أخرى .

العدسات الآتى رسمها [قسمان] قسم يجمع النور ، وقسم يفرقه وهى لاتخرج عن ستة أنواع ، ثلاثة للتفريق وثلاثة للجمع ، أنواع العدسات ست ، فهذه الأشكال مقسمة قسمين لاثالث لهما : قسم الجمع وقسم التفريق .

ياسبحان الله ، إن فى هذه السورة قوله تعالى : « جعل فيها زوجين اثنين » وفى آية أخرى « ومن كل شىء خلقنا زوجين » ولقد علمت أن الكهرباء زوجان موجبة وسالبة ، وفى النبات زوجان ذكر وأنثى وهو واضح فى سورة الحجر فيما سيأتى فيما ترجمته عن كتب (اللورد أفبرى) فالزوجان كما كانا فى النبات كانا أيضا فيما صنعه الناس من العدسات الآتى بيانها وهذا الحساب جمع وتفريق إذ علم الحساب كله لايخرج عن الأمرين فالجمع والضرب للجمع ، والطرح والقسمة للتفريق ، وليس الحساب كله إلا هذين هكذا هنا جمع النور بزجاجات ثلاث ، وتفريق بزجاجات ثلاث وهذه صورتها (شكل ٣) .



(شكل ٣)

هذه هي العدسيات والعدسية فى الأصل بلورة بشكل العدسة ثم توسعوا فيها فأطلقوها على كل جسم شفاف له سطح واحد منحن على الأقل والعدسيات [قسمان] محدبة ومقعرة وكلها تندرج تحت ستة أشكال (ا) مزدوجة التحديب (ب) مفردة التحديب (ت) مزدوجة التقعير (ث) مفردة التقعير (ج) هلالية (ح) مقعرة محدبة ، فالأولى والثانية والخامسة تضم أشعة النور والبواقى تفرّجها .

هاهى ذه صنع الإنسان وذلك صنع الله ، صنع الله لنا الصخر البلورى والهواء والماء ووضع لنا فى القطع المتجاورات فى أرضه مخازن منها تتخذ ماتصنع فصنعنا تلك العدسيات لمنفعتنا ، فماذا جرى ؟ رأينا أن المزدوجة التحديب هى التى وضعها الله فى أعيننا ، اختار الله هذه العدسية المزدوجة ووضعها فى أعيننا ، لماذا ، لأنها تجمع النور وكلما قرب الشبح منها بعدت بؤرتها المتضحة والبؤرة هنا مجمع النور الداخل من العدسية وكلما بعد عنها قربت صورته منها ولكن رأيناه صنع فى أعيننا ما لا نقدر على صنعه نحن ، ألم تر أن العدسية التى نضعها فى ثقب الخزانة المظلمة التى نستعملها لتصوير ما أمامنا لاترسم الصور بواسطتها إلا على بعد مخصوص ، ولكننا نحن نرى الأشياء على أبعاد مختلفة ، ولو كانت بلورية عيوننا جامدة كالتى نصنعها لم يمكننا أن نرى الأشياء إلا على بعد واحد ، إن العين لو بقيت على تحدّب واحد لوقعت الصورة تارة على الشبكية وتارة أمامها وتارة وراءها ، إن الشبكية (التى يمكن أن تعرفها فى سورة آل عمران هناك موضحة) بمنزلة الحاجز تلقى الصور عليه فى الخزانة المظلمة فى يد المصوّر وإذن لاينظر الرائى صورة نظرا صحيحا إلا على بعد مخصوص ولكنا نرى أن الصور جلية على أبعاد مختلفة لأن الإنسان يكيف العدسية فيزيد تحديبها وينقصه كما يشاء فنحن نزيد تحدّب البلورية فى النظر إلى البعيد ونقلل التحدّب فى النظر إلى القريب بحيث تقع بؤرتها على الشبكية فى الحالين .

قصر النظر وطوله

ويقال للانسان إنه قصير النظر إذاكان لايرى الكتابة الصغيرة الحروف ونحوها إلا على بعد ينقص عن عشرة قراريط أو اثنى عشر تقريبا ، ويقال له طويل النظر إذا كان لايرى هذه الحروف ونحوها إلا على أبعد من ذلك ، إن قصر البصر من زيادة التحدّب فى القرنية والبلورية (انظرهما فى آل عمران) وطول البصر يحصل من تسطح البلورية بعكس قصر النظر ولقصر النظر توضع عدسات مقعرة أمام العين ويصلح طول البصر بوضع عدسات محدبة أمام العين فالأولى تفرج الأشعة أمام العين والثانية تضمها قبل انكسارها فى البلورية .

جمال هذا المقال

إنى أحمد الله عز وجل إذ انتهيت فى هذا المقام إلى نتيجة بهجة جميلة تحتاج إلى درس طويل فى علم الضوء وعلم المعادن وعلم الكهرباء وغيرها من العلوم والصناعات ، وقد غصت لك على الجوهر واجتزيت من العقد بدرة واحدة أهديتها لك جميلة بهجة تسرّ الناظرين ، العلم جمال والعالم جمال ، نظرنا فى النور ونفوذه

فى الأجسام الشفافة كالهواء وانعكاسه عنها مستطيرا تارة كالبيوت وغير مستطير تارة أخرى كالمرآة وجلنا جولة فى العوالم فرأينا الصخر البلورى مسدسا جميلا شفافا فانفتح للناس طريق عمل الزجاج ، فماذا حصل؟ أخذوا الرمل مصحوبا بالجير والصودا أو الطباشير والبوتاسا فصنعوا أنواع الزجاج فكان منها أنواع العدسات وهى لم تخرج عن جامعة للنور ومفرّقة له ، ثم انتهينا إلى أن العدسة الموضوعة فى أعيننا أحسن صنعا وأتقن وضعا وأعجب من البلورية التى نحن نصنعها ، فماذا جرى ؟ رأينا أن أنواع العدسات التى صنعناها المنقسمة إلى القسمين قد ساعدتنا فكان قسم منها مساعدا لنا فى قصر النظر والقسم الآخر مساعدا فى طوله .

يا عجبا ! جاء فى أول السورة « جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار » فالليل والنهار زوجان والنبات كما قدمنا زوجان والعدسات المفرّقة والجامعة للنور زوجان والكهرباء زوجان موجبة وسالبة وأعيننا يقصر نظرها ويطول وذلك زوجان ، وقد جعل الزوجان فى العدسات على مقتضى الزوجين فى القصر والطول فى أعيننا « إن ربى لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم » فهذا هو اللطف وهذه هى الحكمة ، اللطف فى خلق بلوريتنا أعجب من بلورية الخزانة المظلمة والحكمة فى أنه هيأ لنا الأسباب حتى صنعنا عدسات تقصر النظر وتطوله عند الحاجة .

وجوب درس هذه العلوم

ذكرت فى سورة المائدة فى قصة ابنى آدم والغراب أن هذه العلوم كلها واجبة على سبيل فرض الكفاية أعنى أن يكون فى الأمة قائمون بها جميعها ويكفونها عن أوروبا وغيرها ، وقد ذكرت هناك نص الإمام الغزالى إذ قال: إن علماء الإسلام فى زمانه شر من الشياطين لأنهم لما عكفوا على علم الفقه وحده وزينوا للناس ذلك صرفوهم عن العلوم الأخرى ، أقول لك وهذا هو الذى أوقع المسلمين فى الذلة والهوان ، لهذا ألفت هذا التفسير وبأمثاله أرجو أن تنقذ العقول الكبيرة من هذا الجهل وبهم تستنير هذه الأمة ، ثم إنى أقول الآن إن هذه المباحث التى أقولها الآن ليست علما خاصا بل تجدها من علوم مختلفة لأن هذا هو الذى يجب على من يتصدون لقيادة الجموع ، ومعنى هذا أن الذين يتصدون لقيادة الأمة الإسلامية من علماء وملوك وأمراء يجب أن يتعلموا من كل فنّ طرفا صالحا جميلا أشبه بما كتب فى هذا التفسير ، أقول هذا فرض عين على القادرين والخواصّ من الأمة كما يؤخذ من كلام الأئمة الأعلام .

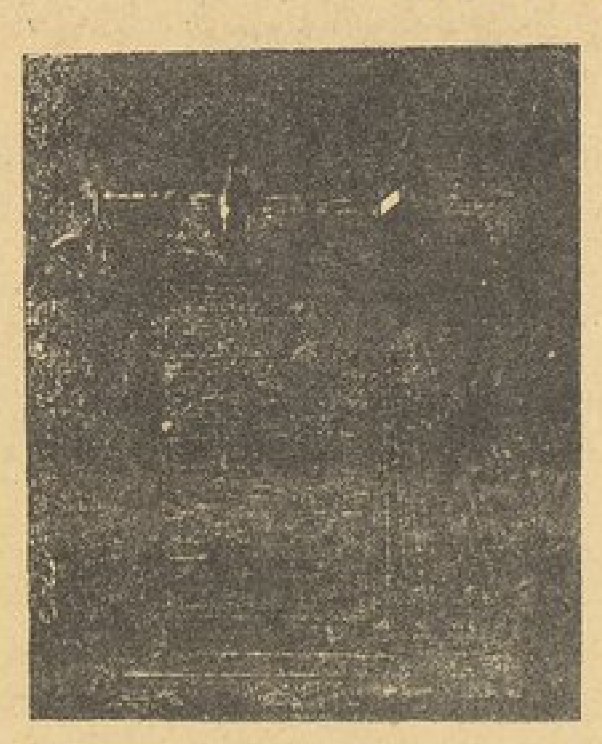
فأما النبوغ فى علم أو صناعة فذلك فرض كفاية كمسألة العدسات المتقدمة فإنى وأنا أكتب هذا لست طبيبا حتى أتقنها ؛ فالطب مثلا فرض كفاية ولكن معرفة الأشياء العامة أمثال ماذكرته لك فرض عين على الخاصة وقواد الأمّة ، ومن العار أن يكون رؤساء الدين فى الإسلام يجهلون هذه العلوم العامّة ، فانظر لعلم تفرّعت عنه صناعة كصناعة العدسات وهكذا كل العلوم يتفرع منها الصناعات كالطب والزراعة والتشريح وعلم النبات ، وقبل أن أترك هذا المقام أريد أن أريك جمال العدسات وبهجتها فى الأنوار وتحليلها الضوء وكذلك السحاب .

الطيف الشمسى . لون ضوء الشمس البياض

فإذا وقع على منشور أو عدسية ونفذه فإنه فضلا عن أنه ينكسر ويميل عن استقامته كما مر ينحلّ أيضا إلى أضواء سبعة وهى البنفسجى والنيلى والأزرق والأخضر والأصفر والبرتقالى والأحمر على هذا الترتيب وقد نظمها بعضهم فقال :

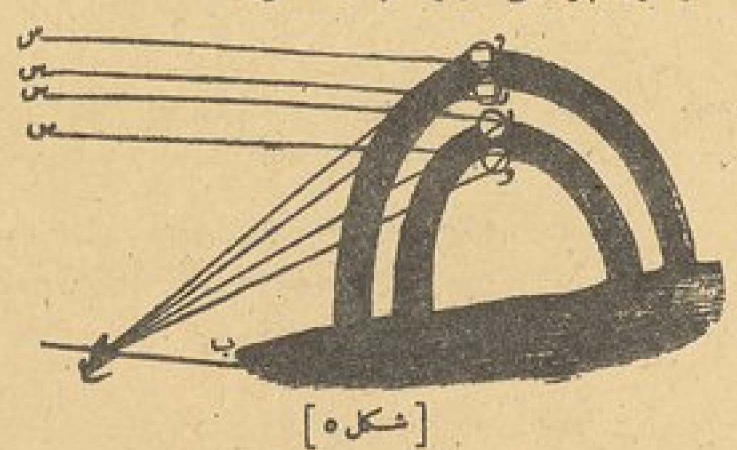
بنفسجى ثم نيــلى يلى وأزرق يليه ثم الأخضر
وأصفر وبرتقالى كذا وفى ختام الكل يأتى الأحمر

وهذه نعرفها بإحدى حالين [الحال الأولى] أن ندخل حبلا من ضوء الشمس من خرق فى الحائط إلى غرفة مظلمة ونلقيه على منشور ثم نستقبل النور بعد نفوذه منه بقرطاس أو ما أشبهه فإنا نجد الألوان سبعة مرتبة كما مضت وهذه صورته (شكل ٤) .



(شكل ٤)

(الحال الثانية) أن ننظر نفس هذا العمل فى السحاب المذكور فى الآية التى نحن فى الكلام عليها فنجد ذلك فى قوس قزح ، قوس قزح منطقة مستديرة ملونة بألوان الطيف الشمسى من الأحمر إلى البنفسجى كما تقدم وهذا القوس يقابل الشمس عند وقوع المطر وسبب ذلك انكسار ضوء الشمس وانعكاسه عن نقط المطر فينحل إلى ألوانه السبعة وقد يرى قوسان معا إحداهما واضحة وهى الداخلية وتسمى (القوس الأصلية) والأخرى أقل وضوحا منها وهى الخارجية وتسمى (القوس الفرعية) وتخالف الأصلية فى مواقع ألوانها فلون الحمرة فى الأصلية فوق البقية وفى الفرعية تحتها وهذه صورته :



[شكل ٥]

ما أجمل العلم وأبدع الحكمة وأبهج هذه الأنوار. أضاءت الشمس فأشرقت بنورها الأرض فأثارت بحرارتها بخارا من الماء واستخرجته من البحار والأنهار والآجام وسائر الرطوبات في الأرض أي من جميع القطع المتجاورات فحملته الرياح فكان سحابا مبتعدا عن الأرض لئلا تبتل منه الأمتعة والناس والحيوان، ولم يكن بعيدا جدا فلا تراه العيون لئلا ينزل على الناس وهم لا يشعرون فيتضررون ولا يزيد بعده عن ١٦ ستة عشر ألف ذراع تقريبا وجعل له برق ليستعد الحيوان ويتأهب فلا يؤخذ على غرة وهكذا الرعد ثم يمطر وقد يكون من ذلك البخار المنعقد ثلج وبرد ومنه صقيع وجليد وغيرهما، قلنا إن الشمس هي التي أثارته بحرارته والرياح هي التي رفعته. فماذا جرى بعد ذلك؟ أرسلت الشمس نورها على قطرات الماء في السحاب فحللت تلك القطرات الضوء إلى ألوانه السبعة البسيطة، فالشمس أثارت السحاب والهواء حمله وهي بضوئها زوقته « إنّ ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم ».

الآلات البصرية

هذه الآلات أصبحت كأنها حاسة سادسة وهي ثلاثة أقسام (الأول) آلات مكبرة (مكرسكوب) وهو الذي نرى به دقائق الأشياء، وهو لم يخترع قبل غرة القرن السابع عشر قد كشف به علماء النبات النسيج الخلوي في النبات ودوران العصارة فيه ووظيفته وأوراقه. وكشف علماء الحيوان عجائب جمة مثل أن القطرة من الماء الراكد فيها ألوف ألوف من الحيوانات المختلفة الأصناف، ومثل أن العفن الذي نراه على الخبز مؤلف من نبات كما تتألف الغابة من القصب. هذا هو (المكرسكوب). (القسم الثاني) الآلات المقربة للأشياء البعيدة سماوية كانت أو أرضية. يروى أن أولاد رجل فلمنكي كانوا ينظرون بعدسيات إلى برج كنيسة فاتفق أن أحدهم وضع عدسة محدبة في مقعرة ونظر بها شبحا فرآه كبيرا وقريبا فأخبر والده مندهشا فوضع والده العدسيتين في أنبوبتين يدخل أحدهما في الآخر فصنع (التلسكوب). (القسم الثالث) آلات تعد لإلقاء صور الأشباح مكبرة أو مصغرة على حجاب أو نحوه تسهيلا لتصويرها أو كشف دقائقها الخ؛ ثم ان القسمين الأولين غالبا لابد فيهما من عدسيتين واحدة يقطع النور عليها من الشبح وتسمى (بلورة الشبح) وأخرى تنظر بها العين الصورة، وهذه الآلات كلها لم تخرج عن تنوعات في وضع العدسيات المتقدم ذكرها، وهذا آخر ما وصل إليه الناس. استخدموا الرمل والجير والصودا وأمثالها في توسيع نطاق العلم والاطلاع على خفايا الأجسام وتقريب ما بعد من الإجرام والمسلمون غافلون « والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ».

لم خلق الله الصحراء والأرض القفراء؟

هذا هو السؤال الذي كان يجيش بخاطري حينما أخلو بنفسي وأتفكر في نظام هذه الدنيا. ولطالما هجس بالقلب هذا الخاطر أيام زيارتي لحلوان القريبة من القاهرة وأذكر أني ذات مرة زرتها وبت فيها ليلة وقد خرجت إلى الصحراء المحيطة بها من كل جانب في الهواء الطلق وقد أحسست في نفسي بانشراح وبهجة في ذلك الهواء النقي الصافي الجاف وصرت أقول: أهكذا تكون جبال وصحارى وأودية لا أنيس فيها ولا جليس ولا ديار ولا نافخ نار، إذن لم خلقت ثم أجبت نفسي بنفسي وقلت إن الله إذا فعل ذلك فقد خلق لنا اللسان والحواس وأنامها طول الليل فإذا كان اللسان لا ينطق ليلا فليس معناه أنه لا حكمة له بل أبقاه لينطق بالنهار وإن لم تظهر حكمته بالليل وقد كان هذا وأمثاله جوابا عن أكثر ما أجهله في هذا الوجود، وبينما أنا كذلك إذ سمعت حشرات لها طنين موسيقي في غاية العجب، فقلت أليس هذا من المخلوقات التي تطرب في هذه القفار فهذا بعض حكم الله صحراء.

هذا ما كان في الأيام الخالية ولكنك الآن قد رأيت ما هو أبدع وأجمل من المنافع العجيبة التي شرحتها لك تارة بالصور وتارة بالعبارة وأزيدك الآن بيانا وتفصيلا وحكمة وجمالا.

حيا الله العلم وحيا الله العلماء . ها أنا ذا أريك من آيات الله العجب فى الصحراء كما اطلعت عليه اليوم فى كتب الفرنجة والمسلمون نائمون ، انظر رعاك الله إلى عجائب الحكمة فى الصحراء :

(١) حرارتها (٢) رياحها (٣) تنقيتها الهواء (٤) تجفيفه (٥) ولولاها لم يعش حيوان ولا إنسان فيما جاورها من البلدان .

(١) و (٢) إن الله عز وجل خلق الصحراء لغير ما كنا نعلم وحجبه عن أكثر الناس وهو لا يعطى العلم إلا لطالبه ولا الحكمة إلا لمن يشتاق إليها ؛ احتجب الله بجماله وتعالى فى كماله وخبأ العلم عن العقول والمعلوم حاضر منظور ، نحن نسير فى الصحراء ونسافر كثيرا فى الخلاء ولكننا ننظر ولا نعلم فهاك البيان :

إن الصحارى تتقد حرارة بما ترسله لها الشمس من الأشعة النورية فيخف هواؤها ويعلو فى طبقات جوها كما رأيت فى الكلام على الرياح فى سورة الأعراف وغيرها فيحل الهواء البارد محل ما ارتفع بالحرارة ولا معنى للرياح إلا هذا ، ما الرياح إلا هواء تحرك ولا حركة إلا بباعث والباعث تلك الحرارة فى هذه المواضع التى خلت من الرطوبة ، تجرى الرياح إذن وتحمل السحب وتمطر على ما جاورها من البلدان فتنعش الأبدان وتحرك ما سكن وترفع البخار من البحار إلى الحقول فى القرى والأمصار .

(٣) و (٤) ثم إنها خاليات من المزارع فهواؤها لا رطوبة فيه ولا عفونة ، فاذن هى مجففة له منظفة ومنقية من الجراثيم القاتلة الفاتكة بالإنسان .

(٥) إذن لولا الصحارى والقفار ما كان العمران ولم يعش إنسان ولا حيوان بجانبها لترادف الرطوبات وتكاثر العفونات ، وقد ضربوا لذلك مثلا نهرين نهر النيل ونهر الكنج .

إن نهر النيل فى بلادنا المصرية ينتهى بالوجه البحرى المشتمل على ما يسمى الدلتا ، إن هذه البلاد تحيط بها الصحراء من كل جانب ، يقولون : فلولا الصحراء بقربها ما عاش حيوان فيها ولا إنسان لأن الصحراء لها تبعث الرياح وتجففها وتنقيها بخلاف دلتا نهر الكنج ، هذا ما قرأته اليوم ، ألست بهذا تفهم قوله تعالى : « إن ربى لطيف لما يشاء » أليس من اللطف أن يخلق صحراء لا أنيس بها وتكون هى السبب فى الأنس والحياة لجيرانها ، إذن القاصى جعل تنورا للعامر من الأرض ، فالتنور يجفف الخبز وهذا يجفف الهواء وجعل مخزنا للحياة تنبعث منه على العامر .

إن العلم يعكس قضايا الجهل فبينما الجاهل يقول لا حكمة فى خلق الصحراء إذا بالعلم يقول : كل الصيد فى جوف الفرا . ويقول : أطرق كرا إن النعامة فى القرى ، ومن أنت حتى تعلم ؟ اللهم إنك أنت الذى حكمت على الأمم الإسلامية أن تنام آمادا وآمادا وقضيت على الخلف أن يتبعوا السلف وأنت الذى جعلت الليل والنهار آيتين يخلف كل منهما الآخر فأرنا آية نهار العلم فى هذه الأمم باستيقاظها بعد أن أريتنا آية ليل الجهل بنومها « إنك على كل شىء قدير » واجعل هذا الكتاب من موقظاتها ومرشداتها واملأ أقطارهم بنور العلم والعدل كما ملئت بظلمة الجهل والجور « إنك أنت السميع العليم » انتهى .

إن الصحراء منبع الحياة فالحياة تحتاج إلى منبعين :

[أحدهما] : يكون من الجبال فيعطى الماء لسقى الزرع والحيوان .

[وثانيهما] : يكون من الهواء فوق القفار ليعطى الجفاف والصفاء فلولا الأنهار لم تكن حياة ، ولولا الهواء وتقاوته وهبوبه لم تدم الحياة ، تحتاج إلى منبع ماء ومنبع هواء ، فمنبع الماء من المطر النازل على الجبال وما والاها ونحو ذلك ، ومنبع الهواء تلك الصحارى والقفار .

وهناك

وهناك دواع أخرى للصحراء كأن تكون مأوى المظلومين فى المدن وسياة الدين يحبون أن يعيشوا أحرارا فارين بدينهم أو بعرضهم كما كان يفعل الرهبان وكما ستراه فى سورة الحديد فى قوله تعالى « ورهبانية ابتدعوها » وكما نشاهد العرب فى صحراء مصر أصح أبدانا وأقوى أجساما وأقرب للفضيلة كما يقول ابن خلدون من سكان الحضر ، ثم هى أيضا حرم آمن فاصل بين الممالك ليمنع بعضها عن بعض حتى تستقر كل أمة فى مأمنها عاكفة على عملها آمنة مطمئنة لاترهب غزو جاراتها إلا فى الأزمنة النادرة ، هذا ما عنّ لى فى هذا المقام وهذا ماحضر فى تفسير قوله تعالى « وفى الأرض قطع متجاورات.» انتهى .

الطيفة الرابعة فى قوله تعالى : « يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل »

يقول الله تعالى : « يسقى بماء واحد » ولم يقل يتغذى بغذاء واحد ، علم الله عزّ وجل أننا معاشر المسلمين ستمرّ علينا القرون تلو القرون ونحن لاهون عن عجائب النبات كما أننا لاهون عن غيره ، وعلم أننا لانصدر ولانرد إلا عن القرآن ، وعلم أن هناك طائفة من المسلمين قليلة تتعلم العلوم لذات العلوم وهى تظن أن الدين لايطلبها أو يعاديها ولا يلائمها فأشار فى هذا المقام بقوله « يسقى بماء واحد » إلى معنى عجيب دقيق يهدى جميع طوائف المسلمين إلى النبوغ فى علم الحيوان والترقى فيه لنظام هذه الحياة ولنظام العقول ورقيها بالحكمة ، ولعلك تقول : ولماذا تشير هذه الجملة فى الآية ؟

أقول : لقد أظهر الكشف الحديث أمرا عجبا ، أظهر ما لايخطر ببال ولا يتصوّره خيال بل لاتسيغه الأحلام ولا خطرات الأوهام .

اللهم إن فضلك علينا عظيم، اللهم لو لم يكن فى هذا التفسير بل لو لم يكن فى العلوم كلها سوى ماسأذكره فى هذه المقالة لكفى الأمم كلها سعادة علمية وجمالا حكميا وكمالا عقليا .

ولو أن امرأ قيل له إن فى النبات مايفترس الحيوان ويفعل ماتفعله الوحوش والأسود والنمور فى اقتناص الغزلان والأنعام ، أو قيل له إن النبات له من الحيل ماللانسان فى استغفاله واحتياله على الأساد ، يحفر حفرة فى طريقه حتى إذا مرّ عليها وهو لايشعر وقع فيها الأسد وهو أسير ، أو كما تفعل دول أوروبا مع أهل الشرق إذ تغدق النعم على عظماء الشرق وبذلك تستدرجهم إلى احتلال بلادهم وابتلاع ثروتهم ، إذا قيل ذلك عدّ قائله غير عاقل يهرف بما لايعرف ، ولكن هذه أصبحت اليوم حقائق ثابتة لاتقبل الشك كما ستراه وسترى صور هذه النباتات فى هذا المقال .

أقسام النبات ثلاثة

اعلم أن النبات ثلاثة أقسام : قسم يتغذى بالمواد الأرضية ممزوجة بالماء وبالمواد الهوائية ، وقسم يتغذى بجسم نبات آخر كما تتغذى البراغيث والقمل والحيوانات الضارّة من جسم الإنسان مثل (الميكروبات) اللائى تحدث الأمراض المختلفة كالحمى والجدرى الخ ؛ وقسم لايكون غذاؤه إلا من الحيوان ، فالقسم الأوّل من النبات هو المعروف ، والقسم الثانى من النبات هو المسمى (الكشوثى) وهو نبات يعيش على غيره لاجذر له فى الأرض بل يمتص من جسم نبات آخر ، وقد رأيت بعينىّ نوعا منه فى حديقة مصرية فى بعض الدواوين عندنا .

والقسم الثالث هو الذى أفردت له هذا المقال ولم أره إلا فى كتاب [الموسوعات] بالانجليزية ، الجزء الأوّل من صفحة ٢٤٠ إلى ٢٤٨ ، ولعمر الله لم يكن ليخطر لى قبل هذه الأيام أن أطلع على موضوع شائق جميل مثل هذا ، فأحمد الله على توفيقه وأشكره على أن أرانى هذا ، وفوق ذلك وفقنى لإيضاحه لأذكياء المسلمين .

وقبل أن أترجم هذا الموضوع من الكتاب المذكور أبين مناسبته لقوله تعالى فى الآية : « يسقى بماء واحد » كما وعدت من قبل .

ذكر الله عزّ وجل أنه يسقى النبات بماء واحد ولم يذكر التغذى لأن كل نبات لابدّ له من الماء والماء واحد ولكن ليس غذاء النبات واحدا ، لم يقل هو غذاء واحد ولم يقل هو متعدّد ، أى أنه ترك هذا لنا لندرسه فها نحن ندرسه الآن فوجدنا الغذاء ثلاثة أقسام : قسم معدنى عام وهو الذى يتغذى به النبات المعروف وقسم نباتى وهو الكشونى ، وقسم حيوانى وهو ما سأبينه فأقول :

هذا ملخص ما فى ذلك الكتاب المسمى [علوم الجميع] العلامة (روبرت براون) قال :

معلوم أن جمهور النبات من الطوائف العليا إنما يجتذب غذاءه من الطين بواسطة عروقه الضاربة فى الأرض ، وإذا كان يعيش فى الماء كالأعشاب البحرية التى تنبت فى الطين اجتذب غذاءه من الماء الذى يعيش فيه ، ثم قال: إننا نعلم أن العروق النباتية الضاربة فى الأرض لايتسنى لها أن تمتص المواد الجامدة وأنها لاتمتص غذاءها إلا على هيئة مواد سائلة أو مواد (غازية) وهناك قاعدة وهى أن الجذور ليس لديها طريقة كيمائية بها تحوّل الجوامد إلى حال السوائل أو الغازات ،كلا ، إن فى النبات عددا محصورا لاغذاء له إلا من الحيوان بطرق تخالف ماعليه سائر النبات ، وأهمّ أغذية هذا النبات هى الحشرات وحيوانات أخرى صغيرة ولذلك تسمى هذه الأنواع (ممزقة الحشرات) أو (آكلة اللحوم) وههنا أحضر الكاتب نوعين من النبات وهما (ندى الشمس ذو الورق الملتفّ) و (بترورد) وصورتهما ستأتى فى (شكل ٦ و ٧) .

فلنلخص الأوّل الآن بالكلام .

وصف ندى الشمس ذى الورق الملتف

ورقه فيه حمرة له زهر أبيض يظهر فى شهرى يوليو وأغسطس من كل سنة والأوراق مدوّرة وهى أشبه شئ بالملعقة المفرطحة وسطح الورقة الأعلى يشبه الشعر وهو منته برؤوس مغطاة بسائل لزج ، وأحسن ماتسمى به أن يقال (قرون الحشرات) إن هذه القرون التى تغطى رؤوسها بسائل لزج صمغى إذا نحن لمسناها بطرف قلم الكتابة رأينا بعضها يمتدّ امتدادا عظيما وهو يحمل مايشبه الصمغ الذائب أو الدّبس ، فاذا وقع على تلك المادّة اللزجة حشرة أو حب أو شئ صغير فان ذلك القرن ينقبض ويمسك بذلك الواقع عليه كما يحصل للطائر الصغير إذا وقع على غصن مغطى بمادّة لزجة معدّة لصيده أو كما يحصل للذبابة إذا وقعت بجهالة وغرور على دبس ، إذا نحن نظرنا إلى أوراق (ندى الشمس) المذكور فاننا نشاهد أن كل ورقة قد حصل فى جسمها أجسام صغيرة معطلة فيها بواسطة تلك القرون كالذباب والحبوب والأوراق الصغيرة وماأشبه ذلك ، وبينما نحن نبحث فى تلك الأوراق قد نجد ذبابة وقعت على ورقة وقد اشتبكت أرجلها فى تلك القرون أو نجد حبا أو ورقا عصفت به الريح ، ثم قال الكاتب : إن الإنسان عادة لايحتمل البقاء فى المستنقع الذى فيه النبات المذكور فاذن يمكن الإنسان أن يحفر عليه ويأخذه إلى منزله ويزرعه هناك ويجعله فيما يماثل ما كان فيه من المستنقع الذى لاينبت عادة إلا فيه ، وإذن ندرسه فى حال فراغنا ، فإذا شرع الإنسان فى استخراج ذلك النبات لاحظ أنّ جذوره ضعيفة جدّا وتغذيته قليلة ، فاذا استوى ذلك النبات فى منازلنا هنالك نأخذ فى امتحانه فنبتدئ أوّلا فنضع ذبابة فوق رأس (قرن صمغى) من تلك القرون ونلاحظ نتيجة ذلك فيكون مايأتى :

(١) إن ذلك القرن الذى وقعت عليه الذبابة لاتمضى عليه دقيقة حتى يبتدئ يحنى نفسه نحو مركز الورقة ويستمرّ فى ذلك الانحناء حتى يصل إلى المركز .

(٢) وبعد انحناء ذلك القرن تسرع القرون التي تجاوره في الأخذ بيده كأنها عرفت حديث « يد الله مع الجماعة » أو كأنها جميعها تريد الاشتراك في الغنيمة فتنحنى جميعها لاغتنام هذه الفرصة وأخذ القنيصة .

(٣) السائل اللزج الذي يصبه رأس ذلك القرن يأخذ في زيادة المقدار حتى يغطى الذبابة جميعها وهذا يكون سببا في موتها لأن هذا السائل يسد مسام جسمها ، ولا جرم أن المسام في الحشرات بها التنفس ، فمتى سدت المسام انقطع التنفس فمات الحيوان .

(٤) إن هذه الذبابة التي أصبحت أسيرة في قبضة تلك القرون تتدحرج نحو مركز الورقة بتحريك القرون الطويلة التي في الأمام وتسليمها إلى القرون القصيرة التي جهة المركز .

(٥) إن حافة الورقة تكون منحنية كثيرا أو قليلا حتى إن حواشيها تكون هيئة حوض عند قاعها الذي استقرت فيه الذبابة وغمرها ذلك السائل اللزج الذي أفرزته تلك القرون .

(٦) وبعد بقاء الذبابة في هذا الوضع ساعات بل ربما كان ذلك أياما معدودات نرى تلك القرون تأخذ في الانتصاب والاعتدال كرة أخرى وترجع بالتدريج إلى سيرتها الأولى ووضعها المعتدل المستقيم وترجع الورقة كما كانت منفرطحة كالملعقة مثل عادتها ويقل فرز القرون لسوائلها بل ربما نراها جفت ، وإذا نحن بحثنا عما بقي من تلك الضحية وجدنا أنه لم يبق منها إلا ماينفع الغذاء كالجلد والأطراف والأجنحة وماعدا ذلك فلا وجود له ، وهذا تمام التجربة الأولى .

[التجربة الثانية] نضع بدل الذبابة أي طعام آخر مقبول كقطعة من اللحم والجبن وبياض البيض والحبوب الصغيرة وهكذا كل شيء يؤكل ، فإذا فعلنا ذلك وجدنا مايفعله النبات هنا هو عين ما فعله مع الذبابة غاية الأمر أن الانهماك والإسراع يكون أقل أو أكثر على حسب المادة الموضوعة فترى اللحم وكل طعام آخر للحيوان أقوى وأسرع تأثيرا من غيرها .

[التجربة الثالثة] أن نضع بدل ماتقدم شيئا لايصلح للطعام كشيء من الشعر أو الخيط أو العظم أو الزجاج وما أشبه ذلك . إذا وضعنا هذه رأينا القرن المذكور ينعطف ولكنه ليس بالسرعة التي سبقت مع غيره والسائل يكون إفرازه بطيئا وقليلا والقرون بعد انعطافها زمنا قليلا ترجع إلى سيرتها الأولى .

[التجربة الرابعة] أن نمس بإبرة مثلا الرأس المدور لقرن من تلك القرون مرة أو مرتين فإننا نلاحظ أنه لا يكون لذلك أثر ما ، فأما إذا كررنا ذلك المس مرارا أو اتخذنا الضغط بذلك سبيلا فإن القرن يأخذ في الانعطاف كما في الأحوال المتقدمة ، فمن هذا ينتج أن المس مرة أو مرتين لا أثر لهما كما في حال حفيف الأوراق المجاورات لذلك النبات إذا هبت الرياح فمست تلك القرون فذلك لا أثر له ، هكذا هطول الأمطار وما أشبهه .

مسألة من الكيمياء في هذا المقام

اعلم أن هذه المادة المفرزة ليست من الأحماض . كلا وليست تكون من الأحماض إلا إذا أفرزت في حال التهييج كما يتأثر ريق الإنسان ويفرز عند شهوة الطعام وحضوره ، وكما تفرز المعدة مادة حمضية عند مقابلة الطعام ، وقد جرب العلماء لذلك تجاريب فوضعوا على ذلك السائل ورقة كيمائية تسمى (ورقة ليتمس) ومن شأنها أنها إذا غمست في خل أو أي حامض آخر فإنها تلون باللون الأحمر ، فلما غمسوها في ذلك السائل وهو على حاله لم يلون باللون الأحمر فلما أن قربوا لتلك القرون قطعة لحم وتحركت نحوها بانعطاف هنالك غمسوا الورقة الكيمائية في السائل فصار لونها أحمر فاستدلوا من ذلك على أنها عند تقريب الطعام منها تفرز

حامضا كما تفرز المعدة ، فأما إذا لم يقرب الطعام فذلك السائل ليس من الحوامض فدل ذلك على أن هذه النباتات تهضم بهذه الحوامض طعامها ولا تفرز إلا عند تعاطى الطعام ، وهنا أتى المؤلف بهذا المحصل فقال :

(١) إن قرون أوراق (ندى الشمس) لها قدرة على القبض على الذباب وصغار الأشياء والاستحواذ عليها متى لامست المادة اللزجة على رأس تلك القرون .

(٢) إن القرون وأطراف الأوراق لها قوة على الحركة بحيث تنعطف على ماتصطاده بأطراف القرون المذكورة وتدحرجه إلى مركز الورقة .

(٣) هذه الحركة إنما تحصل برأس ماسميناه (قرون الحشرات) إما بتكرار اللمس أو بدوامه .

(٤) القرون بدوم انعطافها وانحناؤها على الفريسة وهى مطمئنة ساكنة زمانا طويلا إذا كانت الفريسة صالحة للأكل وقليلا فى عكس ذلك .

(٥) المواد العضوية سيما المواد الحيوانية القابلة للهضم أسرع تأثيرا مما لاتصلح للأكل ، فالأول كاللحم والثانى كالعظم وبقاء انحناء القرن على الفريسة يطول فى الأول ويقصر جدا فى الثانى .

(٦) إن حركات القرون يصحبها إفراز سوائل من رؤوسها لاسيما إذا كان مسبب الحركات مادة تصلح للأكل .

(٧) إن نتيجة افتراس مادة صالحة للأكل بهذه القرون أن يعمها ذلك السائل المفروز وأن الأجزاء الصالحة للتغذية لاتظهر بعد ذلك ، ومالاتؤكل لايقع عليها أثر ما .

(٨) المادة المفروزة من تلك القرون ليست تكون من الأحماض إلا عند ملامسة مايهيجها من المواد المأكولة ، هذا . واعلم أنهم قد تحققوا أنه لافرق بين المادة الحامضة فى معدة الإنسان المسماة (ببسين) وبين المادة الحامضة فى هذا النبات فهما سواء ، وهذا الحامض الذى فى النبات يكثر عند ملامسة مواد خاصة .

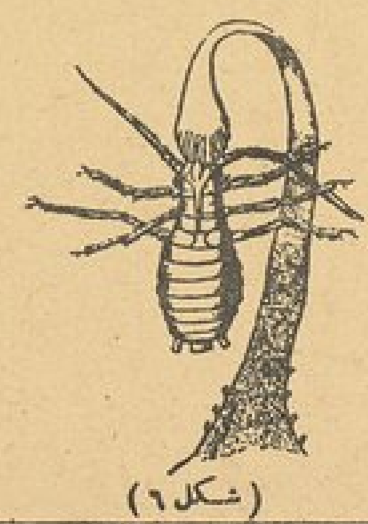
فائدة جذور هذا النبات

[سؤال]: علمت أن هذا النبات يتغذى من الحشرات وغيرها ، فما فائدة جذوره فى الأرض ؟ .

[الجواب]: إن فائدة هذه الجذور أمران :

الأول : أنها لتثبيت النبات فى الأرض .

الثانى : أنها تجذب له الماء الصاعد فى أوراقه فأما جلب الغذاء فلا . انتهى الكلام على نبات (ندى الشمس) المذكور (شكل ٦)

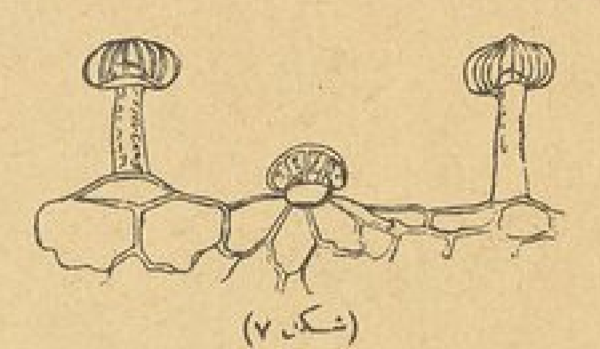


(شكل ٦)

عدد النباتات المفترسة هي تبلغ مائة ونيفا

قال المؤلف إن عدد النباتات التي تأكل الحيوان في بلاد الإنجليز غير هذا الذي شرحناه وهو (ندى الشمس الملتف الورق) نوعان فقط ، وأما الموجود في العالم من ذلك فهو نحو مائة نبات وكلها من غير استثناء تصطاد الحشرات كالذي شرحناه سواء بسواء وكل غذائها منها .

وإذ فرغنا من الكلام على النبات الأول ، وهو (ندى الشمس الملتف الورق) فلنبين حال الثاني وهو (بترورد) شكل ٧ .



(شكل ٧)

ولقد أخذ الكاتب يشرح هذا النبات ويذكر التجارب التي صنعت فيه كما كان ذلك مع النبات الأول فلا نطيل به .



(شكل ٨)

هذه النباتات الست قد وصف الكاتب بعضها ، وها أنا ذا أوجز القول فيها فأقول :
النبات نمرة (١) فهذا يسمونه (النبات الجزار) وهو نحو (٣٦) نوعا وليس من الأشجار بل هو من نوع

الأنجم أى التى لاساق لها وينبت فى البلاد الحارة والذى كشفه هو للستر (هوكر) انظر إلى ورق هذا النبات فى الركن الأعلى من اللوحة فى جهة الشمال فإنك ترى الجزار فيه على شكل الآلة الموسيقية أو على هيئة آنية بأحجام مختلفة يتصل به ساق قد يطول جدا وهو عند أعلى الورقة ، وهذا الجزار قد يطول من عقدة وعقدتين إلى أكثر من قدم ويقوّيه غطاء ذو فتحة صغيرة أو كبيرة . واعلم أن فم ذلك النبات والسطح الداخل منه جميلان بلون بديع وهيئة جميلة وقد يفرز أيضا مادّة عسلية ، فههنا اجتمع جمال المنظر وحلاوة العسل فهذان يغران الحشرات المسكينات فيدخلن ذلك النبات .

وهنا أخذ الكاتب يفرض أن أحدنا لو كان مكان الحشرة ورأى ذلك المنظر والمذاق الحلو لكان حقا يسرع إلى ذلك الجمال والحلاوة ويهجم على المكان هجوما شديدا فندخل أوّلا باب ذلك الجزار ، قال وقد نجد ما يغرّنا من جمال الداخل فنزيد فى التوغل فى الداخل حتى ندخل فى الأنبوبة التى تشبه المدخنة ، ولسوء طالع الداخل يرى أنه يتعذر عليه الرجوع فيزيد فى التوغل داخلا ، فماذا نرى ؟ نرى هناك سطحا أشبه بالزجاج لاتستقرّ الرجل عليه فإذن تنزلق عليه وحينئذ يجد هذا الداخل أنه قد غرق فى ذلك السائل الذى يعم جسمه فيقطع أنفاسه ويكون طعاما سائغا مهضوما ، وهنا نرى العجب ، نرى أنّ هذا النبات الجزار لم يصطد فريسته بقوّته ولا بثقله وإنما اعتمد على خطة الغشّ والخداع بجمال الألوان وبالعسل أوّلا وباستدراج الفريسة إلى الدخول فى الأنبوبة السهلة الدخول المانعة من الخروج ثم يكون الاستقرار فى المكان الذى يشبه الزجاج فى نعومته ثم يكون الموت والهضم .

وهذه التجربة كانت بمعرفة الأستاذ (هوكر) وقدمها للجمعية البريطانية فى اجتماع (بلفاست) سنة ١٨٧٤ ووصف الكاتب النبات الثانى (نمرة ٢) الذى تحت الأول أى فى الركن الذى جهة الشمال من الأسفل فى اللوحة فقال إنه ينبت فى شمال بلاد (كردولينا) وهو مثل النباتين المذكورين أوّلا هنا ، قال وهو ينبت فى أرض المستنقعات مثلهما والورقة ذات فصين يكوّنان مع بعضهما زاوية أقلّ من القائمة، وترى عند مركز كل فص من الفصين ثلاث شعرات تشبه الأسنان ، ومن العجب أننا إذا لمسنا واحدا من هذه الشعرات بإبرة مثلا أسرع الفصان فانطبقا معا حالا ويبقيان هكذا معا فيعسر فصلهما إلا بتمزيقهما ، وإذا نحن نجحنا فى فصلهما رجعا فاتحدا ثانيا ويبقيان نحو يوم لايريدان الانفصال ، وإذا لمسنا جزءا آخر بإبرة مثلا من الورقة غير تلك الشعرات لاتتحرّك الورقة وهكذا لاحراك لها بهبوب النسيم ولا بنزول قطرات المطر على تلك الشعرات التى تشبه الأسنان كما قلنا سابقا ، ولو أننا وضعنا على الورقة ذبابة مقطوعة مثلا أو قطعة من لحم لرأينا أن رأس الشعرات التى كالقرون التى مستها الذبابة أو قطعة اللحم أخذت تفرز سائلا لزجا وأخذ الفصان اللذان انغمست إليهما الورقة يقتربان وينطبقان .

وهذه التجربة قد حصلت فى كل مايصح أكله فكانت النتيجة ماحصل فى اللحم والذباب ، فهناك إفراز وهناك انطباق الفصين أو مصراعى الورقة ، أما ما لاغذاء فيه كالزجاج ونحوه فلا يتحرك له الفصان ولايفرز النبات له سائلا ، وإذا انطبق الفصان على الفريسة فإنهما لايفترقان نحو ثلاثين يوما ثم إذا انفصلا فإنهما تقلّ قوتهما بعد ذلك وتصعب عليهما الفريسة الكبيرة التى قدرا عليها فى أول مرة، ومتى فتح الفصان بعد انقضاء عدة الأيام للانطباق فإننا لانرى الفريسة أثرا إلا ماصعب هضمه كالجلد والرجلين ونحوهما ، ثم وصف النمرة الثالثة وهى الموضوعة فى أسفل اللوحة فلم يطل الوصف فيها اتكالا على ماسبق ، ووصف النمرة الرابعة التى فى الجانب الأيمن من الأسفل باللوحة فقال إن ورقتها ملتفة ولها قرون وهى من نوع (ندى الشمس) المتقدم ولم يطل فيه ولافى الخامس ولا فى السادس لأن أوصاف هذه النباتات متقاربة ، ثم ختم المقال بقوله :

إن التماس النبات بالحيوان كان موضع شك من العقلاء ولكن ماذكرناه الآن أثبت هذه الفكرة وأن بعض النباتات مفترسة كما يفترس الحيوان . انتهى ملخص هذا المقال مترجما يوم الأحد ٢١ أغسطس سنة ١٩٢٧ .

جوهرة

ها أنت ذا أيها الذكي اطلعت على عجائب ما كان ليخطر لأحد أنها حقة ، اطلعت على عجائب تدهش العقول ، الناس عرفوا النبات بأنه يتغذى وينمو ويلد ويموت ، وعرفوا الحيوان بأنه متصف بذلك كله ويمتاز بالحس والحركة ، ولكن بعد هذا البيان أصبح الحيوان لايمتاز عن النبات ، فإذا قلنا النبات لايحس ولا يتحرك فما بالنا نرى بعض الذي رسمناه ووصفناه في هذا المقام يتحرك لأدنى لمس الشعرات الثلاث اللاتى خلقت في مركز القصين المتقدمين في أحد النباتات التي في اللوحة المذكورة، وما بالنا نراها كلها تتحرك عند حصول ذباب أو غير ذباب عليها ، أليست هذه حركة ؟ أليس هذا هو الحس بعينه ! اللهم إنك بهذا فتحت البصائر وأنرت القلوب .

ولما وصلت إلى هذا المقام حضر أحد أصدقائى الفضلاء واطلع على هذا فقال ياعجبا لك ، أباختلاط الحقائق تفتح البصائر ، أنت تقول إن النبات والحيوان قد اختلطا وأصبح أمرهما غير مضبوط فالنبات حيوان ، فهل هذا افتتاح البصائر ؟ كلا بل هذا هو إظهار جهل أهل الأرض قاطبة بهذا الوجود فأوضح هذا المقام وإلا فالقول غير مقبول ، فقلت لماذا عجلت على فلأوضح المقام الآن فأقول : إنى قصدت بافتتاح البصائر هنا [خمسة أمور] :

[الأول] : أن هذه النباتات أرتنا سر قوله تعالى « يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل » .

[الثانى] : أنها أرتنا لطف الله في الإماتة كلطفه في الإحياء .

[الثالث] : أنها أرتنا كيف تتنوع الأرزاق بتنوع المخلوقات مع عجائب التدبير والإحكام والنظام الغريب .

[الرابع] : أنها أرتنا معنى قوله تعالى : «مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم» .

[الخامس] : أنها أرتنا أن تحريم اللحم لأجل الرحمة لابرهان عليه .

فقال لما إيضاح الأمر الأول ؟ فقلت إن الله يقول : « يسقى بماء واحد » كما قدّمت سابقا ولم يقل يتغذى بغذاء واحد ، وههنا ظهر السر ، ظهر هنا بأعظم وضوح فتعجب ! ألم تر أن جذر بعض تلك النباتات المفترسة لم يكن له عمل إلا جذب الماء وتثبيت النبات في الأرض ، فأما جلب الغذاء فلا ؟ لأنه يتغذى من الحشرات وغيرها ، إذن الماء هو المادة العامة لكل نبات وليس الطين كذلك ، فهذا سر قوله « يسقى بماء واحد » ولم يكن الناس يعلمون ذلك قبل زماننا هذا ولم يكن أحد ليعقل أن النبات لايتغذى من المواد الأرضية وإنما يتغذى من نفس الحيوان ، فهنا سر قوله تعالى « يسقى بماء واحد » ولم يقل يتغذى بماء واحد ، أليس هذا من عجائب القرآن ! ومن عجب أنك سترى في هذه السورة صور الثلج أنواعا كثيرة وترى أنه قد ظهر بأساليب عدة وهو محلى بما يشبه ورق الأشجار وبهجتها ، فهذه الأشكال النباتية التي ستراها في الثلج دليل على أن نظام النبات أسه من الماء ، ولذلك كان منه ما يأكل جمادا وما يأكل حيوانا فكانت جميعها كأشكال الثلج التي ستراها ، اه .

إيضاح الأمر الثانى

أما إيضاح الأمر الثانى وهو لطف الله عند إماتة الحيوان فانظر وتعجب ، أليس الناس على الأرض يموتون

بالمرض

بالمرض تارة وبالحرب والقتال تارة أخرى ، فيا للعجب يموت الناس غالبا وهم فزعون من الموت أما هذه الحشرات فإن الله عز وجل قد مهد لها السبيل إلى الموت في راحة وسعادة ، ألم تر إلى العسل الذي أعدّ لها وإلى الأنبوبة اللطيفة التي تدخلها وإلى المنزل الذي يشبه الزجاج في نعومته ، أعد الله تلك الحشرة وزين لها ظاهر الورق وباطنه ومدخله لترى جمالا فتسرع إليه ، وقد فعل الله معها مافعله مع هذا الإنسان إذ قال له : « حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازّينت وظنّ أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا الخ » فهذه الحشرات التي تدخل النبات المفترس يغرّها الجمال الفتان في الورق والعسل الحلو في داخله والمزالق اللطيفة حتى إذا اطمأنت جاء لها السائل الذي تفرزه تلك القرون من رؤوسها فتموت حالا فهذا موت لا ألم فيه بل أخذها الموت في حال لا تحسّ بها .

وأما إيضاح [الأمر الثالث] وهو تنوع أسباب الأرزاق بتنوع الحيوان فهو ظاهر واضح فانك ترى بعض هذه النباتات يقتنص الفريسة بالخداع وإظهار الجمال والعسل فتخدع الحشرات وبعضها يعتمد على حركته وإخراج السائل فيقبض بشعرة من شعراته على القنيصة ثم يتبعها بأخرى ويفرز السائل الذي يقتل الحشرة ، فهذا اعتمد على قوة بطشه وعلى آلة قتله كما يفعل الإنسان ، وأما ماقبله فقد اعتمد على الحيلة والدهاء والمكر كما يفعل السياسيون ، وكما يفعل الإنسان مع السباع .

أما إيضاح [الأمر الرابع] وهو قوله تعالى : « ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها الخ » فاعلم أن ذلك تقدم في سورة هود مفصلا ولكن هنا نذكر ما يناسب هذا المقام ، انظر إلى هذه العجائب ، نبات لا ينتقل من مكانه وقد حكم عليه أن لا يأكل إلا من حيوان . فماذا فعل الله له ؟ . خلق له الحشرات وأكثرها ولم يغفل عن خلقها ، وخلق هذه النباتات وقال لها أيتها النباتات إني حكمت عليك بالبقاء في المكان ولكني سهلت لك السبيل ومهدت الطريق وجعلت من الحشرات أفئدة تهوى إليك فرزقتك من اللحوم وغيرها . أنا الذي حكمت عليك بالبقاء وأنا الذي أنعمت عليك بالحشرات الطائفات لتتغذى بها غذاء تاما ، هذا معنى قوله تعالى « وما كنا عن الخلق غافلين » فهذا هو الأخذ بناصية الدواب ، وهذا منها .

أما إيضاح [الأمر الخامس] فان تحريم اللحم لأجل رحمة الحيوان لا برهان عليه لأننا رأينا الحيوان يقتنصه الحيوان ويقتنصه النبات . وها هي ذه النباتات حرم عليها أن تأكل غالبا إلا من حيوان وهكذا الأسود والنمور حرم عليها أكل النبات ووجب عليها أكل الحيوان ، فعلمت أن نظام هذه الدنيا راجع إلى (أمرين) الموت والحياة والموت مقصود في هذه الأرض والحياة أيضا مقصودة فهما أمران كل منهما واجب وجوده ، وعليه لا معنى لتحريم أكل الحيوان الذي نرحمه بقتله وإخراجه من ضيق الأرض إلى فسيح الفضاء . هذه جنة العارفين . إن العلم بهذه الحكم والعجائب جنة العارفين ونعمة الحكماء وبهجة الأولياء . واعلم أن علم الله لا حدّ له وفضله لا نهاية له « وقل رب زدني علما » اهـ .

منظر جميل في قصر منيف

(أحقيقة أم خيال ؟)

لما كتبت هذا الموضوع كان ذلك في صباح ليلة الأحد وقد كنت قبل الكتابة مشغوفا به شغفا لا حدّ له فما كدت أتمه حتى أحببت أن أستريح مقاوما ما يساورني من المعاني التي تحوم حول هذا الموضوع مكتفيا بما كتبت ، ولكن في ليلة ٢٣ أغسطس سنة ١٩٢٧ خطر لي وقت الصباح خاطر لم أقدر على مدافعته وظلّ يلحّ عليّ وجداني وأنا به ثمل فقد خيلت لي هذه الدنيا كأنها قصر جميل ذات بهجة وحسن وكأن السماء جميعها مضيئة مشرقة تحيط بي من كل جانب وكأني في حياة أسعد من حياة أهل الأرض التي أعيش فيها فلم أر بدّا

من كتابة ما ألاحظه في هذا المقام ، وهنا أخذني ما يشبه سنة النوم وكأن هذه السماء التي تبدّت لخيالي مضيئة قد صارت قصرا جميلا بهيا بديعا فأخذت أنظر في جوانبه وأتأمل عجائبه وأسرّح الطرف في محاسنه. هنالك تبدّت لي حيطانه الأربعة مصنوعة من الذهب مزخرفة باللآلئ البديعة والأحجار الثمينة وأنواع المرجان وكل ما هو جميل وتخيلت أن في أركان القصر نورا يشعّ ثم أخذ يزداد شيئا فشيئا فأخذ بمجامع لبي لما تنوّعت ألوانه وأشرقت سوره فكنت أرى صورا مشرقة بديعة بهيجة ألوان (قوس قزح) وهنا رأيتني في عالم غريب عجيب لحرت في أمرى وصرت أقول: ياليت شعرى أين أنا الآن ؟. أنا أكتب في موضوع ذلك النبات الآكل اللحم الذي كشفه القوم وها هي ذه صورته مرسومة أمامي فما هذا القصر وما هذا الجمال . فبينا أنا على تلك الحال إذ رأيت شخصا كأنه طيف خيال ، فقال أراك في حيرة فاسألني عما تريد فقلت ما هذا القصر ولمن هو ؟ فقال : هذا القصر لك أنت ولأمثالك . فقلت وكيف ذلك ؟ فقال : قد حضر في خيالك ليمثل ما تكتبه الآن فقلت لم أفهم ما تقول ، فقال : ألم تعلم أنك الآن تكتب في عالم الحيوان والنبات وقد أتيت بأعجب ما فيهما وهو النبات الذي يأكل اللحم . فقلت بلى . قال : إن المعدن والنبات والحيوان والإنسان تمثل حيطان القصر الأربعة فأما أركان القصر فهي الصلة بين كل حائط وما يجاوره فركن يمثل اتصال المعدن بالمادّة الأصلية كالجبس والزاج وأمثالها فهذه معادن أقرب إلى المادّة الأصلية، ومثل ذلك أنواع الشبوب وأوسط المعدن والرصاص والذهب ونحوهما . والركن الثاني يمثل اتصال المعدن بالنبات وأعلى المعادن الياقوت والذهب ونحوهما وأقلّ النبات ما يظهر بالندوات أيام الربيع من نبات صغير ويجفّ في ضحوة النهار ، وفي اليوم الثاني يطلع كعادته ويجف ضحى وهكذا ويسمى (خضراء الدمن). والركن الثالث يمثل اتصال النبات بالحيوان. والركن الرابع يمثل اتصال الحيوان بالإنسان وذلك في أنواع القردة والفيلة والخيل فالقرد يقرب من الإنسان في تقليده والفيل في ذكائه والخيل في أدبه . فأما الركن الثالث فهو الذي كنت تكتب فيه وأنا أبين لك ما في نفسك . قد تبدّى لك في هذا الركن الذي يصل ما بين النبات والحيوان نور أوّلا قليلا ثم ازداد وتلألأ وتنوّع . فأما ظهور النور أوّلا فهو ما كنت تقرؤه في كتب أسلافك من أن أعلى النبات النخل والكشوثى أما النخل فلأنه يشبه النبات من حيث إنه إذا قطع رأسه مات كالحيوان وأما الكشوثى فانها تعيش على غيرها من النبات فنفسه حيوانية وشكله نباتي . فهذه أشبهت الحيوان من حيث إنها تأكل النبات ، والنخل أشبهه من حيث انفصال الذكر عن الأنثى ، ومن حيث إنه إذا قطع رأسه مات .

وأدنى الحيوان دودة في جوف أنبوبة تنبت على الصخر الذي في سواحل البحار وشطوط الأنهار . هذه هي الأركان الأربعة وأمثالها . هذا هو معنى النور الذي ظهر لك أولا في هذا الركن . فأما النور المتلألئ الذي ظهر بعد ذلك فانه يمثل لك الجمال الذي ابتهج به قلبك والعلم الذي نلته بالاطلاع على نفس صور النباتات المفترسة وكيف أدهشك ذلك النبات الجزار الذي قد رسم أمامك في أعلى اللوحة المتقدّمة من جهة اليسار الذي كشفه الأستاذ (هوكر) فانك لما رأيت صورته ووجدت وصفه وأن فوهته وأسفل سطح الغطاء متلألئان جميلان في غاية الحسن مزوّدان بالعسل . أقول إنك لما رأيت ذلك دهشت أشدّ الدهش لأنك تطلب الحقائق وصارت نفسك تحدثك قائلة هذا نبات لا حراك له إلا قليلا فما هذا الجمال وما هذا العسل . هذا الجمال وهذا العسل خلق ليغشّ بهما الحيوان فيقدم عليهما ليموت فأخذت نفسك تحدثك قائلة أيضا إن الذباب وكثيرا من الحشرات عمرها قصير فأكثرها يموت في أوائل الشتاء والحكمة قضت أن لا معطل في الوجود فلذلك أعدت هذه المنافع ووضعت هذه الأعاجيب بلطف وحيلة حتى يكون لموت هذا الذباب فائدة لأنه إذا مات في العراء فلا فائدة منه فأما إذا التهمه هذا النبات فقد أصبح غذاء له ، وإذن الموت مطلوب والحياة مطلوبة كلاهما مقصود ولكن موت الحشرات على هذا النمط أجلّ حكمة وأشرف مقصدا .

وهكذا

وهكذا لما رأيت النباتين اللذين رسما فى جهة اليمين من اللوحة المتقدمة وعرفت وصفهما بحيث إن الفم وأسفل الغطاء شكلهما ولونهما جميل وقد وجد فيهما العسل كما تقدم أيضاً وهذا العسل قد يسيل إلى الأرض ليغر الحشرة ويهديها إلى طريق الموت بسهولة فإذا جاءت لتشربه فرحت بالمنظر فسارعت لتدخل فيقابلها دهليز أملس ثم تمر على ممر زجاجى لا تستقر الأرجل عليه ثم يقضى عليها فتكون طعاما مهضوما سائغا للآكلين . فهذه المناظر البديعة التى رأيتها فى علم الحيوان زادتك علما وأنارت بصيرتك فانتعشت قوتك العقلية ، فبعد أن كانت معارفك فى هذا لاتعدو النخلة ونبات الكشوتى المتقدم وهكذا تلك الدودة التى تنبت على شطوط الأنهار وكنت تقرأ فى كتب المتقدمين أن تلك الدودة حيوان نباتى لأنها أعطيت الحركة وحاسة اللمس وذلك لأنها تمتد لأكل الرطوبات المناسبة لها فهى إذن شاركت الحيوان فى حاسة اللمس وفى الحركة ، وأيضا إن كل نبات فى الأرض يحس بالضوء . وبرهان ذلك أنه إذا وضع فى مكان مظلم وذلك المكان دخله نور من نافذة فإن ذلك النبات يميل إلى النور فدل ذلك على أنه يحس بالنور ، وهو أيضا يمد عروقه للمواضع الندية وفروعه إلى جهة العلو فهو إذن يعرف جهة العلو وجهة السفل ، وترى النبات إذا امتد على حبل فانه لايتعداه ولا يميل عنه . هذا ما كنت تقرؤه فى كتب المتقدمين . فلما أن رأيت عجائب الأحكام وتبدى لك ما كنت تجهله من قبل إذ رأيت الحكمة العالية القدسية لم تذر هذا النبات مهملا بل جعلت له عدة وقوة وسهلت له السبل وأغرت الحشرات بطرق تخدعها وتستدرجها حتى تقع فى فخ هذا النبات فيقتنصها فهالك الأمر ورأيت تدبيرا محكما وقصدا ظاهرا وليس هذا أمرا اتفاقيا ولا حادثا جاء مصادفة وإنما الذى فعل هذا يقصده ويدبره . هذا هو الذى خطر لك ؛ فبعد أن كان النبات يتحرك حركات بسيطة ظهر لك الآن أنه له مملكة منظمة وسلاح . وكما أن الأمم لها مدارس للحرب ومعامل للسلاح لتسطو على غيرها . هكذا هذا النبات له سلاح وجنود وسلاحه الجمال وجنوده العسل كما فى قول معاوية رضى الله عنه «إن لله جندا من عسل» قالها لما دس السم إلى الأشتر بعض قواد سيدنا على من قتله بالعسل المسموم . فهذا السلاح العسلى هو الذى استعمله النبات . هذا هو الذى هالك وأدهشك فانشرح قلبك فتمثل لك ذلك بالألوان البديعة والصور المشتبكة المتداخلة التى تموج بألوان (قوس قزح)

ثم قال : فهذا القصر الذى رأيته وأركانه مثال خيالى للعلم الذى درسته الآن وقد قام بذهنك أن ما تكتبه الآن سيقرؤه كثير من شبان المسلمين فى حياتك وبعد موتك فزاد سرورك لأنك اعتقدت وأنت على حق أن شبان المسلمين حين يقرءون هذا يكونون قد وقفوا بجنة على آخر ماوصل اليه العلم فيتعاطونه شرابا لذيذا سائغا للشاربين ويكون هناك جيل جديد لم تحلم به الأوائل لأن المسلمين قد حرموا من هذه العلوم حرمانا تاما وليس لهم ملجأ يلجئون إليه فإذا عرفوا أن القرآن يطلبه كما تكتبه أنت انحلت العقدة وانطلقوا سراعا إلى العلوم وفتح لهم الباب على مصراعيه فيتعلمون وهم مجدون . هذا هو النور الذى رأيته لامعا ثم ازداد حتى صار سرورا للناظرين . فقلت أوضح لى مسألة الخيال والحقيقة إيضاحا أتم . فقال لكل امرئ من الناس قوة ترسم فيها الصور كهيئة الآلة المصورة يقال لها المخيلة ، وقوة أخرى تدرك المعانى الكلية وهى تسمى (المفكرة) فالمفكرة تفهم المعانى والقوة المخيلة تجاورها . فالمعانى الجلية التى فى القوة المفكرة تصور لها فى المخيلة صورا تماثلها وتكون مشاكلة لها . فهذا القصر وهذا النور يمثلان ما فى قوتك العاقلة من المعانى . فقلت له وهل لهذا نظير فى القرآن . قال نعم ألم تقرأ سورة الواقعة ألم يذكر هناك هذه الحيطان الأربعة لهذا القصر وهذا النور الذى ابتدأ صغيرا ثم تلألأ . فقلت وكيف ذلك . قال ذكر الله أولا خلق الإنسان فقال «أفرأيتم ما تمنون الخ» وهذا يتضمن خلق الإنسان والحيوان لأنهما معا مخلوقان من ماء مهين ، فهذان حائطان

من حيطان القصر . ثم ذكر الزرع والماء والأول هو عالم النبات والثانى يعبر عما ليس نباتا ولا حيوانا ومن ذلك المعادن . فهذه هى الحيطان الأربعة وأركانها فيها . إن الذى يطلع على هذه الحيطان الأربعة وأركانها يدهش إذاعرف حقائقها فلذلك تراه أخر ذكر النار فقال «أفرأيتم النار التى تورون» ولا جرم أن النار لا تختص بالشجر المذكور فى الآية بل النار تكون فى دهن الحيوان وفى المعادن وما أشبهها كالسائل المسمى (بالبترول) وكذلك يحترق بها بعض الناس يوم القيامة والأحجار كما قال تعالى « وقودها الناس والحجارة » فالنار عامة لذلك أخرها وهذه النار الحسية يقابلها نار الشوق للعلم والعشق للحكمة التى ظهرت لك أولا فى الاتصال بين سلسلة النبات والحيوان فى كلام المتقدمين قليلا، وشأن العلم أن يكون أولا قليلا فاذا ثابر صاحبه عليه أنار الله قلبه وزاده علما كما قال تعالى « والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم » فمن فتح الله عليه بعلم استنارت بصيرته أولا بقدر ما علم، وعند المثابرة تفتح له أبواب العلم من عند العليم الحكيم . ونظيره فى سورة الواقعة أنه ذكر النار بعد ذلك فقال « نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين . فسبح باسم ربك العظيم » فذكر النار وأتبعها بالتسبيح ثم أشار إلى الفتوح السماوى فأقسم بالنجوم وأبان أن هذا القسم عظيم وأنه لا يعرف عظمة هذا القسم إلا العالم بالمقسم به .

فها هو ذا ابتدأ بالحيطان الأربعة وهى المخلوقات الأرضية التى تحيط بكم ، ثم ذكر النار التى تتقد بها كما يشرق قلب الإنسان بعلمها ، ثم أعقبه بذكر النجوم وأفاد أن أمرها عظيم لمن يعلمون ، فأما الجهال فليس لهم حظ من هذا الجمال .

ففى (الواقعة) ذكر العوالم الأرضية وختم بنارها ثم بالكواكب ، وفى هذه السورة ذكر أنه رفع السموات بغير عمد ثم استوى على العرش ، وذكر تسخير الشمس والقمر ثم تدبير الأمر إجمالا ثم تفصيله ثم أتبع ذلك بعجائب الأرض فى قطعها المتجاورات والجنات من الأعناب ، إذن المذكور هنا العالم العلوى أولا ثم السفلى ، وفى سورة الواقعة السفلى ثم العلوى إشارة إلى أن كلا منهما مرتبط بالآخر ، فإذا درستم النجوم فلتدرسوا ما أثرت فيه بالمنافع والنمو ، وإذا درستم النبات والحيوان فلتدرسوا ما أفاد فيهما ، إذن إذا درستم السبب فادرسوا المسبب والعكس بالعكس ، فهذا إيضاح ما مثل لك فى خيالك وما يطابقه من القرآن فاذا قال الله هنا «يدبر الأمر» فها هو ذا تدبير الأمر ، وأى تدبير أعجب من هذا ؟ يعمد إلى نبات لا قوة له ولا قدرة فيزينه ويعطيه عسلا ويرسل له الحشرات فيختطفها النبات .

إن هــذا تدبير عجيب يسر الحكماء ، وإن ما رسمته فى هذه المقالات من الصور التى عرفها أهل أوروبا من تفصيل الآيات الذى ورد فى القرآن فهو الذى يدبر الأمر وهو الذى يفصل الآيات ، فآيات الله التى تظهر على هذه الأرض كلها مفصلات بعلمه ، وأتبع ذلك بقوله « لعلكم بلقاء ربكم توقنون » .

عبر عنها بالإيقان كما عبر فى سورة الأنعام فى قصة الخليل إذ قال « وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين » فبهذا التفصيل الذى ذكرته أنت فى هذا التفسير وبالعجائب التى اخترتها ووضعتها فيه يكون الإيقان ، أما الإيمان فلا يكفى الأمم الآن ، ولا يكون اليقين إلا بمثل العلوم التى أخذت تشرحها ، فبهذا يكون اليقين ، والمسلمون إن لم يسموا إلى هذا اليقين فهم هالكون ، فقلت له إن الآيات هى آيات القرآن ، فقال والقرآن معناه هو هذه المخلوقات ؟ فالمخلوقات آياته والقرآن آياته ، فاذا قال « تلك آيات الكتاب » فقد قال « ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر » وهكذا غيرها فى مواضع كثيرة من القرآن، وإن تفسيرك القرآن اليوم هو نفس العلوم التى انتفع بها الناس فى الأمم الراقية فأصبحت

جميع هذه الدنيا ونظمها مقصودة القرآن بهذا التفسير ، وإذن كل من برع فى علم من هذه العلوم وهو مؤمن بالقرآن يكون موقنا ، وكما أن كتاب الله للناس قاطبة هكذا تفسيرك سيقرؤه كثير من عقلاء الأمم لأنهم يجدونه فسر القرآن بهذا العالم الذى يعيشون فيه ، وليس أحد من أهل الأرض يشك فى هذه الدنيا ونظامها وأنها موجودة ، فإذا اطلع على هذا الجمال وانتظام العلم مع الدين دهش أشد الدهش ، فقلت له إن ما كتبته فى هذا المقام منقول عن أهل أوروبا كما تعلم ، فكيف يقرءونه ؟ فقال إنك تنقل مثل هذا المقال عن الكتب العالية عندهم وليس كل امرئ مطلع عليها ؛ ثم إن القوم هناك بالنسبة لحكماء الشرق أشبه بالفلاحين عندكم بالنسبة لنساجى القطن ، قلت فما معنى هذا ؟ قال معناه أن الفلاحين فى مصر يزرعون القطن ولكن الذى ينتفع به هم أهل الصناعة فى أوروبا ، فهكذا علماء أوروبا الذين تعلموا من آبائكم الأولين وفاقوهم ورقوا العلوم .

ها أنتم أولاء أخذتم تنقلون آخر ماوصل إليه العلم عندهم ثم تجعلونه فى أصل الدين وهو القرآن ، فسيظهر فى الشرق رجال يفعلون بعلوم أوروبا مافعله صناعهم بقطنكم ؛ فكما غزل صناع أوروبا ونسجوا قطنكم لأنهم أعلم بالصناعات ، هكذا سيظهر بعد هذا التفسير وأمثاله فى السويداء رجال ويتخذون علوم القوم قاعدة لهم ويتفننون فيها كما تفنن صناعهم فى قطنكم ، لأن العقول الشرقية النائمة الآن هى التى ستنتفع بعلوم القوم وترجع لسابق عهدها فى التفكير والتنظيم وتحدث آراؤها رجة فى الشرق والغرب وسيكون ذلك بعد تمام هذا التفسير وأمثال هذا التفسير .

فسألته قائلا : لم أزل لا أفهم ماذا تعنى بقولك إن هذا القصر لى ولأمثالى ؟ فقال كان ينبغى لك أن تكتفى بما قلته فى ذلك مقنع للإجابة ، ولكنى أزيدك إيضاحا فأقول بضرب مثل :

مثل الناس مع ربهم كمثل صبية أنجبهم حكيم وبنى لهم قصرا وزينه بأحسن زينة وملأه بالخيرات وأعطاهم الحرية فيما يختارون ، فأخذ كل يبحث فى القصر عما يلائم طبعه . فمن منكب على لذاته ، ومن عاكف على زخارفه ، ومن مستريض فى حدائقه ، وهكذا أخذ كل منهم يتخذ لنفسه ما يناسبها ، هكذا حال الناس مع ربهم ، ولله المثل الأعلى .

لقد زين الله هذه الأرض بأحسن زينة وملأها بكل خير ولم يدخر عن عباده شيئا ، إن من أمثال هذه الدنيا ماصنعه قدماء المصريين من بناء الهرم الأكبر ، لقد أحسنوا صنعه وجعلوه منظما بحيث يشاكل العالم العلوى من حيث هندسته وحسابه ، ويفيد أهل الأرض فى موازينهم ومكاييلهم كما سبق فى سورة يونس موضحا ، جل الله وجل العلم ، أبدع قدماء المصريين هرمهم بحيث نقل نظام السموات فأعطاه لأهل الأرض كما تقدم ، هذا ضرب مثل لحال هذه الدنيا وإن كان للمثل له أجل وأكمل .

فياليت شعرى ماذا يفعل الله بالناس بعد ما خلق لم يذر ضربا من ضروب الحكمة والعلم إلا أبدعها ، ولا فنا من فنون الإبداع إلا أحدثه ، ولا حكمة من روائع الحكمة إلا أودعها فى أرضكم هذه ، وأى إبداع أجل مما رأيناه فى هذا المقام ؟

نبات لاقوة له ولا حول يعطى قدرة وقوة وحكمة ويخضع الحيوان لغذائه فيتخطى عالم النبات وعالم الأنعام والبهائم ويشارك الآساد والنمور فى افتراسها ، إن هذا لشئ عجيب ! ذلك هو الإبداع ، ماذا يريد الله بذلك ، يريد أن يصطفى من الناس أقواما فى كل أمة ويقول « هاؤم اقرءوا كتابيه » هذا كتابى كتبته يدى ، لمن كتبه الله ؟ كتبه للناس قاطبة ، ولكن لايفرح به ولا يعقله إلا الأقلون .

هؤلاء هم الذين كنز الله لهم هذه الكنوز ، كنزها لهم وألهمهم أن يستخرجوها ، الله أكبر ، هؤلاء

هم خلفاؤه فى الأرض ، هؤلاء هم الهداة الحكماء الفضلاء ، هؤلاء الذين يفرحون بهذا النظام ويعقلونه ويشكرهم ويبهجهم ، هم الذين يبينونه للناس ، هم الذين يهدون الناس السبيل وتنشرح صدورهم لذلك ويبثون فى قلوب الناس حبا وغراما وعشقا وهياما لهذا الوجود .

الله أكبر ، ماهذه النباتات الجزارة المتقدمة ، وأىّ شئ هى وأىّ شئ هو ذلك النبات المسمى (ندى الشمس؟) إن بعض هذه النباتات إنما تنبت فى المستنقعات ، لماذا ؟ لأن الله يعلم أن هذا النبات لايفيد الناس غذاء ولا كساء ، وإنما يفيدهم حكمة وعلما فوضعه فى أحسن الأماكن لماذا ؟ ليبحث عنه المغرمون به ، هؤلاء المغرمون لاتعاف أنفسهم شيئا فيرون الجمال والحكمة أينما تكون لايفرقون بين حال وحال ، ثم ماذا يرون ؟ يرون فى النبات الجزار مثلا المتقدم رسمه عسلا سائغا للشاربين وجمالا وبهجة وألوانا منظمة أشكالها فماذا يفعلون؟ يقفون مبهوتين ويقولون إن السوائل كثيرة كالزيت وكالمياه المعدنية وهكذا مما لاحد له ، وهكذا الجوامد والغازات ، فلم اختير العسل خاصة لهذا النبات ؟ نعم اختير العسل لأنه هو الجاذب للحشرات ، حينئذ يقولون هذا معنى قوله تعالى «مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها» ويقولون هذا معنى قوله «قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى » فها هو ذا أعطى هذا النبات الجزار هذا العسل ، ثم هدى إليه الحشرات لتكون فريسة له ويقولون أيضا هذا معنى قوله تعالى « وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها » ويقولون أيضا : هذا هو حق اليقين .

ويقولون أيضا إذا كان هذا النظام على هذا المنوال كما نشاهده فستحيل أن يكون بلا عقل يدبره ، وإلا فما هذا الإحكام ؟ فما هذا الذى خصص هذا النبات بالعسل ، وهذا العقل هو الذى كان يقوله القدماء ، إنه هو العقل الكلى المدبر للعالم خلقه الله لذلك ومنه اشتقت العقول كلها ، كما أن الشمس منها اشتقت السيارات حولها وهذه السيارات تستمد من الشمس .

فهذه النفوس الأرضية من نباتية وحيوانية وإنسانية كأنها أشعة من العقل العام الذى نظم السموات والأرض ، وذلك العقل العام خلق من خلق الله يسمى بلسان الشرع (ملك) وبلسان الحكمة (عقل) كما علمت ، ثم أخذ يقول لى :

إن أمثال هذه العلوم عند المغرمين بها هى الجنة الحقيقية ، والقائم بها اليوم يحسّ فى نفسه بسعادة يجهلها أكثر الناس فى الأرض ؛ فأما قولى لك : إن هذا القصر لك ولأمثالك فمعناه أنك فى حال إشراق نفسك بهذه المعانى تكون فى حال تحجبك عن رذائل هذه الدنيا ومشاغلها فتنسى هموم الحياة مادمت على هـذه الحال وتحسّ أنت بسعادة يجهلها أكثر المتعلمين ، فهذا الشعور ليس يفقهه ولا يصدقه إلا من رزقه .

هذا معنى كون هذا القصر لك ولأمثالك ، وإلا فهذه الحال يصغر فى جانبها أهل الأرض وقصورهم وصورهم لأن العقل المتصرف فى الأمور العامة يتعالى عن هذه المحسوسات ويستغرق فى أنوار الجمال وبهجة الكمال .

فلما سمعت ذلك وعيته وفتحت عينى وكتبته ؛ فأنا الآن لا أدرى أكنت فى أحلام ، أم كان ذلك حديث نفسى فى اليقظة ، أم هو إلهام « والله هو الولىّ الحميد » اهـ .

أسمعت النغمات فى الأحجار كما تسمعها من الأوتار؟

مقدمة لفهم هذا العنوان

ربما يظن العقلاء أن هذا العنوان فى هذا المقام من المبالغات أو الأمور الشاذة فى تفسير قوله تعالى « وفى الأرض قطع متجاورات الخ » .

ليس

ليس من السهل على جميع الناس إدراك الجمال فى هذا الوجود ، إن هذه الدنيا دار جمال وهذا الجمال لايدركه حق إدراكه إلا قليل .

إن الله عز وجل أبرز للناس فى هذه الدنيا بعض الجمال ليعرفه العامة والخاصة ، ثم أخذ يصطفى طائفة وراء طائفة لإدراك خبايا الجمال والبهاء والحسن والبهجة والكمال ، وذلك فى حسن النغمات وجمال الوجوه وبهجة النجوم وحكمة التشريح وعجائب الجبال وأحجارها ومعادنها ، اصطفى الله أحسن الأشكال والأوضاع لهذه الدنيا ، فلنبدأ بالنغمات المشهورة فنقول :

كل بنى آدم يفرحون بالنغمات المطربات ويعشقون الوجوه الجميلات ، ذلك أمر يستوى فيه الجهال والعالمون والحكماء والمدعون ، فترى جميع الناس يحبون النغمات المطربات والوجوه ذات المحاسن والأشكال البهجة وانتظام العينين والفم والأنف والخدين ، هذا هو الأمر العام فى سائر الأمم والأجناس .

وإنما استلذوا بالنغمات فى العيدان وأوتارها لما هناك من النسب المنظمة التى لايسعها هذا المقام ، ولنكتف بوصف (أوتار العود) لا لنضرب عليه وإنما لنريك مامعنى الجمال الذى عشقه الإنسان فى العود ، ولماذا يهتز طربا ؟ أكثر الناس يطربون للعود وهم لايعلمون سبب الطرب كما يستلذون بالمآكل ويجهلون سبب تلك اللذات فأقول :

إنه لامعنى للجمال ولا للحسن إلا النسب والوزن وإتقان الحساب أو نظام الهندسة أو نحوهما ، فكلما كان الوجود أكثر نظاما كان أوفق لحواسنا ، وكلما قل النظام كان أبعد عن ذوقنا ، والعود لم تستلذه الآذان إلا لما فيه من أحسن الإتقان فى وضعه .

انظر إلى أوتاره عند قدماء المصريين فقد جعلوها أربعة وزاد المتأخرون عليها غيرها ، ولكنا نكتفى بهذه الأربعة لندلك على سر هذا العلم ، والأوتار الأربعة هى : (البم والمثلث والمثنى والزير) فالبم (٦٤) طاقة حرير إبريسم ، والمثلث (٤٨) طاقة ، والمثنى (٣٦) طاقة ، والزير (٢٧) طاقة ، هذه هى الأوتار الأربعة تمد على وجه العود مشدودة أسافلها فى المشط ورءوسها فى الملاوى فوق عنق العود .

فهذه الأوتار الأربعة بعضها أغلظ من بعض على النسبة الأفضل ؛ فغلظ البم مثل غلظ المثلث ومثل ثلثه ، وغلظ المثلث مثل غلظ المثنى ومثل ثلثه ، وغلظ المثنى مثل غلظ الزير ومثله ثلثه ، وهذه عندهم نسبة فاضلة ، فهذه الأوتار الأربعة لها هناك تقسيمات أخرى ذكرها ابن سينا وإخوان الصفا وغيرهما وزاد المتأخرون كثيرا . ولسنا من علماء هذه الصناعة ولكنا طلاب حقائق ، والحقائق هنا أن هذه الأوتار لما وضعت على نسب فاضلة تقدم بعضها فى سورة آل عمران فى أوائلها استلذتها النفوس لأنها قد امتزجت فيها نغمات غليظات ثقال بنغمات حادات خفاف ، فالغليظات كالأجساد ، والحادات كالأرواح ، وعلى قدر الانتظام يكون الامتزاج فيحصل للنفس طرب وهى لاتدرى من أين جاءها .

إن النفس مولعة بالنظام عاشقة للاتقان وأقرب الأشياء إليها النغمات لأنها سهلة سريعة فتدركها النفس وتعرف متنافرها وموزونها ، لذلك كان الناس على الأرض غالبا يدركون هذه المزية ، ولكل قوم مغان تخصهم وموازين تناسبهم ، وإنما جعل الله هذا عاما ليعطى الناس جميعا نموذجا لحكمته وذكرى لصنعته ، فنغمات العود الموزونات يألفها الناس ، بل الطيور والحيوانات والسمك كما هو معروف متداول .

نغمات الأشجار والحشائش وأمواج الرياح

ومن الناس من يطربون لما يسمعون فى الحقول والحدائق والمروج وأعشابها وفى الغابات وملتف الشجر وأصوات الرياح المختلفات وغور الأعشاب وحنين الطير وتغريدها ، ويطربون لترنح الأغصان كأنها الولهان وترنم عيدان الزان وأوراق الشجر المختلفات وتفتح لهم معان ومدارك يجهلها سواهم والناس حولهم غافلون لايعلمون .

علم الفلك

وما عجائب علم الفلك وحركاته الموزونات وطرائق نجومه وحسن نظامه إلا كأوتار العيدان ونغماتها ، فاقرأ ماس فى قوله تعالى « إن فى خلق السموات والأرض الخ » فى سورة البقرة وفى آل عمران تركيف كان الفلك حساب منظم يشابه فى نظامه انتظام حركات العيدان .

إن الناس طربوا لنغمات العود لما فيها من النظام والحساب المتقن ، ولكن الخاصة أوتوا علما أعلى فأدركوا نظام الفلك وألفوه متقنا فابتهجوا أكثر من ابتهاج العامة بالعيدان ، فالعامة بالعيدان يطربون والخاصة يزيدون عليهم بنظام حركات الشموس والأقمار والسيارات ويرون الشتاء والصيف والربيع والخريف والليل والنهار نغمات لحركات الأفلاك ؛ فحركة الأرض حول نفسها وحركتها حول الشمس أحدثتا ظلاما وضياء وحرا وبردا مع النظام فى البدء والنهاية ؛ فأى فرق بين العود وبين نظام الأفلاك ؟ العود نظمت حركاته وجعلت هناك نسب ، ههنا نظمت الحركات وصحت النسب ، هذه نغمات لايعقلها إلا العالمون .

جمال الوجوه

إن جميع الناس يدركون جمال الوجوه ، وما جمال الوجوه إلا بالتناسب بين العينين والخدين والأنف والفم ، هذه أربعة كلما اعتدلت كان الجمال أتم ؟ وكلما اختلفت كان القبح ، وعلى قدر التوافق والاختلاف يكون اشتداد الحسن والوسامة أو القبح والدمامة ، إنما أظهر الله هذا للناس لأمرين :

[أولا] ليستدلوا بالظاهر على الباطن غالبا ، فعلى قدر جمال الظاهر يكون جمال الباطن وقد ينعكس الأمر .

[ثانيا] ليفتح لأناس اصطفاهم لقربه فيبحثون عن جمال أتم ومعان أكمل فى تشريح الأجسام ونظام أعضائها .

لقد مر فى سورة آل عمران نموذج من جمال الأعضاء ونموذج من الوضع للوسيقى الحسن ، وأن للأعضاء مقاييس خاصة متى صحت مقاييسها كان الجمال ومتى لم تصح كان القبح فلا نعيده هنا .

الجمال فى التشريح

وإنما نريد هنا أن نبين أن تناسب الباطن أجمل وأوسع مدى ، والباطن قسمان : قسم خلقى وقسم جسمى ، فالقسم الخلقى هو أربعة : العفة ، والشجاعة ، والحكمة ، والعدل .

هذه أربعة تقابل الأربعة التى فى الوجه ، فمتى كان الإنسان عفيفا فى الشهوات شجاعا فى القوة الغضبية حكيما بالقوة العقلية معتدلا فى هذه الثلاثة ، فهو الحسن الخلق ، فالخلق جمال كما الوجه ، وهذا هو الجمال الحقيق فى الإنسان والقسم الجسمى هو نظام الأعضاء ، ولن يعرف إلا بالتشريح ، وقد تقدم فى سورة آل عمران فى أوائلها .

ياليت شعرى أليس من العجب أن ترى صدراً حوى رئتين وقلبا بينهما ولم يختلط ذلك القلب بالأمعاء

والمعدة

والمعدة إذ لاتجانس بين العضوين : للمعدة والأمعاء خاصتان بالطعام . أما القلب فخاص بالدم ، فجعلت الرئة بجانبه لتصفى له الدم فيسير فى الدورة ولم يجعل فى هذا الصندوق كبد ولا معدة ولا أمعاء ولا كليتان ، لماذا هذا ؟ لأن هذه الأعضاء كلها عاملات فى الطعام حتى تجهزه وتصفيه ليكون دما ؛ فالمعدة تطبخه والأمعاء تخلصه من الفضلة الغليظة ، والكليتان تصفيانه من الماء ، وعضو الكبد له عمل فى الدم ، والصفراء تنقى الدم من خلطها والطحال كذلك .

فكل هذه الأعضاء جعلت فى مقام أدنى حتى تحضر الدم وترسل للقلب والرئة بجانبه وجعل بين الطائفتين حجاب حاجز ، إن ذوى العقول السليمة يطربون لهذا النظام والتناسب طربا لاتبلغه نغمات الموسيقار ، كلا .

الحكماء والفنون

تباركت يا الله وجل فعلك وحسن وضعك وبهر نظامك ، أحببت عبادك وأبرزت لهم مكنون فعلك وجوهر صنعك ، يا الله خلقت فى كل أمة من هم أحسن وجوها وأبهج جمالا ، وأرق أصواتا ، وأحسن نغمات لتدل الناس على جمال صنعك حتى يظهر الجمال الحكيم والجاهل والذكى والغافل والعالم والبليد .

أراك اصطفيت فى كل جيل وكل قبيل فتيانا وفتيات جملت أصواتهم وحكمت عليهم بالفقر ليسمعوا الناس جمال نغماتهم لتتم حكمتك وتعم نعمتك ، ثم لم تشأ أن تدع الخاصة بلا جمال يرونه فاصطفيت فى كل أمم أناسا للبحث فى الحكمة والعلم حتى يسمعوا نغمات العوالم العلوية والسفلية فيخبروا الناس بما يسمعون ويحببوهم فيما يحبون ، فهؤلاء يدركون فى الأحجار ونظامها وأنواعها مايدركه غيرهم فى الأجسام ونظامها والنغمات وأوتارها ، والأفلاك وحركاتها ، والوجوه وإشراقها .

النغمات فى الأحجار كالنغمات فى الأوتار

ههنا قد وصلت إلى المقصود من المقال بعد المقدمات فأقول :

ياعجبا لهذه الدنيا وياعجبا لهؤلاء الناس الذين خلقنا فيهم ، اللهم إننا جئنا إلى هذه الأرض ونحن راحلون عنها ، خلقتنا مسافرين فيها ، حكمت علينا بهذا السفر الطويل وأريتنا جمال صنعك وإتقانه ، وحكمت علينا ألا نصل إلى مقام القدس والبهاء الأسنى إلا بعد أن نمر على الأوضاع الأرضية وندرسها وحينئذ نستحق أن ندرس ماهو أجمل من صنعك العالى الذى هو أبدع إتقانا وأحسن نظاما فى عوالم أخرى بعد موتنا .

هذه أرضنا التى تجلى فيها نورك وظهر حسنك وخلقت منا أناسا يعيشون ويموتون وهم لايعقلون ، ثم يعقلون أن هذه الأجسام تطلب الغذاء والشراب والنساء والبنين ويموتون وهم لايعلمون كيف ركبت ولا لماذا خلقوا ، وإذا نظروا إلى هذه الأرض وما عليها لم يعنهم منها إلا أن يسيروا فيها ليالى وأياما آمنين ليحظوا بالغانيات القاصرات فى القصور أو ليقتحموا الأخطار ويتجشموا الأسفار لطلب الربح والمال بالتجارة أو ليكونوا سفراء للدولة أو ليقابلوا الملوك أو تضرب لهم المدافع وتصطف لهم الجنود وترفع لهم الأعلام والبنود ثم يموتون ولاهم يذكرون ، صم بكم عمى فهم لايعقلون .

هذه هى حال أغلب أهل الأرض التى خلقنا عليها ، فأهل أوروبا اليوم قد برعوا فى كل العلوم وأكثر من يشار إليهم بالبنان إنما يهتم بما ينفع الأمم من هذه المواد ، أما جمالها ونظامها فلا يدركه إلا خواصهم وقليل ماهم « وقليل من عبادى الشكور » اللهم إنا خلقنا فى الدنيا للعلم والعمل ، ونحن إذا اقتصرنا على

العمل كنا كالنحل أو كالنمل ولكن علينا العلم وعلينا العمل . والعلم الآن هو ماجاء فى آية « وفى الأرض قطع متجاورات » فلنذكر كيف كانت الأحجار وأنواعها ، نغماتها عند الحكماء أبهج وأدوم من نغمات الأوتار فى الميدان لحسن النظام والعدل والبهجة والإتقان .

ولأذكر لك أيها الذكى قلا من كل من المخلوقات، وإنى إذا أتقنت القليل فى هذا المقال كفاك عن الكثير ولأقتصر على ما يكثر وجوده .

الأرض والماء والهواء والبخار والملح الجبلى والحجر الجيرى والحجر الرملى والرخام والجرانيت وحجر الرصف ، هذه أربع مخلوقات كلية وستة أنواع جزئية من الحجارة بعصر اختلفت أحوالها ومنافعها ، فكانت منفعة الغافلين ولذة المفكرين ، إن هذا الموضوع يحوزه بحث فى أمرين :

[أولا] الجاذبية العامة . [وثانيا] قوة التلاصق .

اعلم أن الأرض والشمس والكواكب كلها متجاذبات متحابات ، ولولا ذلك لم نعش يوما واحدا ، فلولا أن الأرض تجذب من عليها لطاح الحيوان والإنسان وكل مخلوق عليها ، فهذه الجاذبية نعمة أنعم الله بها على المخلوقات فاستقرت ، ولولا هذه الجاذبية لطاحت أرضنا وغابت عن الشمس وتاهت فمتنا فى أقرب زمن ، ولكن جذب الشمس لها أبقاها فى أمان وسلام .

أما قوة التلاصق وهى المقصودة هنا فاعلم أنها من أعجب النعم وأبدع الاحكام ، فهذه القوة تختلف فى المخلوقات اختلافا بينا وهذا الاختلاف لمصالح المخلوقات .

انظر انظر إلى الماء وإلى الهواء ، إن الهواء تباعدت أجزاؤه ولم يشتد التصاقها فكان أخف من الماء (٨٠٠) مرة : أى أن الرطل من الماء يوازنه من الهواء ماعلا مقدار الحيز الذى يشغله ثمانمائة مرة ، ثم إن الماء إذا صار بخارا بالغليان مثلا أو بحرارة الشمس ، فإن الماء إذ ذاك يأخذ حيزا أوسع من حيزه وهو ماء (١٧٢٨) مرة ، إذن البخار أبعد تلاصقا من الماء ومن الهواء ، فانظر لتلاصق الماء ولتلاصق الهواء ولتلاصق البخار الذى كان أصله ماء ، فتجد الماء أشد التصاقا والهواء أقل التصاقا والبخار أقل من الجميع ، ولهذا رأينا الهواء يعلو على الماء ، ورأينا البخار طائرا فى الجو وارتفع كما يرتفع المنطاد وعلا علوا عظيما ثم صار سحابا .

هذا مانراه فى الماء والهواء والبخار وهذا وضع عجيب عند الحكماء ، أما الجهال وأنصاف المتعلمين فى الأمم الإسلامية وغيرها فهم لايهتمون بمثل هذا النظام ويكونون فى نظر هذا أشبه بالجهال فى كل أمة ، إذ يعيشون فى أجسامهم ويتركونها للدود وهم لايعرفون نظام هياكلها ولا يدرسون عجائبها ولا هم يعقلون ولا يذكرون .

أفلا ترى أن هذه أوتار أرسلها الله فى الطبيعة لخواص الأمم فيرون للبخار والماء والهواء من الخصائص ما كان وراء العامة ، والخاصة فى أوتار العود من الاختلاف المنظم الذى أنتج حسن النغم ؟ فكما كان البم والمثلث والمثنى كل واحد أثقل مما بعده وأخف مما قبله بنسب خاصة ، كذلك هنا كان للماء والهواء والبخار وللأرض خواص فى التلاصق اختلافها أوجب حسن النظام والائتلاف ، فجرى السحاب فى أعلى الجو وزين بقوس قزح وأرسل المطر وكان الهواء فوق الماء ، فكما ترى فى العود البم والمثلث والمثنى والزير هكذا ترى فى الطبيعة الأرض والماء والهواء والبخار ؟ فالأرض كالبم ، والماء كالمثنى ، والهواء كالمثلث ، والبخار كالزير . هذا هو الوجود عند الحكماء ، وهذا هو النغم عند عامة الناس وعند خواصهم ، الخاصة يشاركون العامة فى النغم المعروف ولكنهم يختصون بعجائب هذه الدنيا ، وكما انتظمت الأرض وما فوقها إجمالا انتظمت الأحجار تفصيلا .

البر أغلظ من الثلث ، والأرض أثقل من الماء ، والثلث أغلظ من الثلى ، والماء أغلظ من الهواء ، والثلى أغلظ من الزبر والهواء أغلظ من البخار « إن ربى لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم » سبحانك خلقتنا فى جو من الوسيق والجمال ، خلقتنا فى نغمات عقلية ولكن أكثر الناس لايسمعون ، أبرزت تلك النغمات لنا فى العود وأكثر الناس لايفهمون الأحجار وجمالها ونظامها .

انظر إلى الملح إنه يكون فى الجبال كما يكون فى البحار كما قدمناه فى آخر سورة آل عمران تعجب من ذلك ، أنظر إليه ، إننا نأكله لأنه يدخل فى تركيب عظامنا ، قد احتجنا إليه فخلقه الله لنا وجعل قوة التلاصق فيه ضعيفة جدا وإلا لم نقدر على فصله من الجبل ولا على هضمه فى معداتنا .

[حجر الجير] الحجر الجيرى لونه البياض المائل إلى الاصفرار وهو حبات صغيرات التصق بعضها ببعض يكسر بسرعة ويخدش بالسكين بسهولة ، إذن هو سهل النحت والكسر لذلك استعمله الناس فى البناء ومتى سخن عدة أيام مع الفحم فى (قمين) تحوّل إلى جير ، وهــذا الجير يجعل (ملاطا) ويسمى فى مصر (اللونة) تطلى به الحيطان ويحضر منه ماء الجير للاستعمال فى الطب ويكون مطهرا ونحو ذلك .

[الحجر الرملى] ألوانه مختلفة السمرة أو الصفرة أو الحمرة وهو حبات مستديرة من الرمل التصق بعضها ببعض فكوّنت طبقات رقيقة ، وهو أيضا سهل الكسر والنحت يستعمله الناس فى البناء وفى أساس الأبنية ومنه نوع اختلط به حبوب من حجر (الصوّان) ، وهذا يجعل أحجار (الرحى) ويجعل فى أساس المنازل ودعامات القناطر .

[الرخام] والرخام من الحجر المذكور قد اشتدت صلابته ولذلك يقبل الصقل ، فإذا عاملناه بالرمل صار سطحه صقيلا جميلا ، وكلما زدناه حكا بالرمل زاد رونقا وجمالا ولمعانا وبهجة وهو أبيض أو أخضر أو أحمر أو أصفر أو أسود أو أبيض فيه عروق سود وقد تكون فيه بقع ذوات ألوان جميلة بهية تسرّ الناظرين ، ومن هذا مايسمونه المرمر . وإذا أردت أن ترى الرخام فادخل المساجد والكنائس وانظر الأعمدة وتأمّل البهوات الواسعة عند أهل الثراء والغنى ، وكذلك السلالم والمغاسل والمناضد والتماثيل التى تصنع من الذى لونه البياض الناصع .

[الجرانيت] الجرانيت أشد صلابة وأصعب كسرا ونحتا يعلو عنه فلذلك جعله قدماء المصريين فى معابدهم وتماثيلهم ومسلاتهم التى تراها فى (المطرية) بمصر وهى فى بلاد الإنجليز والفرنسيين وغيرهم ، إن الجرانيت فيه البياض والصفرة الضاربة إلى الحمرة والبياض اللامع كما تلمع الفضة .

[الصوّان] هو أصلب وأمتن من كل ماسبق لايؤثر فيه الحديد الصلب ، ولونه إما البياض وإما الصفرة وإما السواد .

ولقد شاهدنا هذا الحجر فى أيدى الزراع من بلادنا المصرية أيام الشباب وهم يشعلون به النار ، فيأتون منه بحجرين يضربون أحدهما على الآخر فيخرج من بينهما شرر يتلقونه بمادة تسمى (الصوفان) ، وهذا يسمى (الزناد) وهذا الحجر يستعمل فى رصف الشوارع .

هذه هى الأحجار الشائعة فى مصر ويقاس عليها البلاد الأخرى ؛ علم الله قبل أن يخلق السموات والأرض أننا فى حاجة إلى مآكل والمآكل لابدّ لها من الملح فخلقه لتتكوّن منه العظام وسلطنا عليه وسهل لنا تذويبه فى الماء وهضمه ، ولو أنه فعل به مافعل بالصوّان أو بالجرانيت لم ننتفع به ، فهو جعله موافقا لأمزجتنا وسهله لنا وأكثره فكان أقل الصلابة حتى نستعمله ، ثم هو يعلم أننا نعيش على الأرض ، فلما

فصل ؟ خلق (حجر الجير) وصوّره قابلا للنحت والكسر وسلطنا عليه فأوقدنا عليه النار واستخلصنا منه ملاشاء لنظام منازلنا ، وجعل (الحجر الرملى) قريبا منه حتى نستعمله فى أساس منازلنا ، وجعل من هذا الحجر نوعا قويا لما فيه من حبوب صوّانية لنطحن به حبوبنا (أنواع الغلال) ويساعدنا على سهولة الغذاء وليكون من مقوّيات القناطر ، وعلم أننا نحتاج إلى إقامة أماكن عظيمة للعبادة أو للدولة فخلق الرخام وحلاه بالوانه الجميلة .

وجعل الجرانيت أصعب مكسرا وأقوى وأمتن حتى حفظ به القدماء العلوم لمن بعدهم وصنعوا التماثيل التى كانت جائزة عندهم ، ولم نجد فى زماننا أصلح لبناء سدّ خزان أسوان منه فاستعمله المهندسون المصريون ومن معهم فيه ، فهل يسدّ الحجر الجيرى أو الرملى مسدّه ؟ كلا ! ولو أنهم وضعوهما فى مكانه لغرقت البلاد ولحقها الفساد ، نعم فى الأرض قطع متجاورات فيها الملح والرخام والمرمر والجرانيت والجير والصوّان والحجر الرملى اختلفت قوة التصاقها فتباينت نتائجها ، لايسدّ الصوّان مسدّ الجير ولا الملح ولا يسدّ الملح مسدّ الجير ، كل له عمل لايصلح له الآخر .

لولا الجرانيت لم نطلع على المسلات التى نحتها المصريون ؟ ولولا الجير لم نطهر بيوتنا من كل مايكون سبب الوباء والأمراض ؟ نعم فى الأرض قطع متجاورات ، هذا هو تفسير الآيات .

اختلف الماء والهواء والبخار ، والأرض اختلفت فى قوة الالتصاق فأشبهت أوتار العود البم والمثلث والمثنى والزير ، هكذا اختلفت الأحجار فى الجبال وهى متفرّقات فى أركانها متعاونات فى نتائجها ، اعتزل الجير والحجر الرملى والجرانيت والصوّان ، اختلفت أماكنها وقوة صلابتها واتحدت وجهة غاياتها ، فغاياتها نظام هذا الإنسان ، فمنها مايدوم لأجل بقاء علومه فى رسومه ، ومنها مالايدوم إلا أزمانا على قدر الحاجة .

إن اختلاف حجر الجير والجرانيت والملح والصوّان مثلا أشبه اختلاف الأرض والماء والهواء وأمرها عجب « إنّ ربك هو الخلاق العليم » .

نغمات الأحجار والأشجار

تبارك الله ما أجمل صنعه ، اختلفت النفوس وعواطفها كاختلاف الأحجار والأشجار ومنابتها ؟ فمن النفوس من لاتعقل من النغمات إلا ماتسمعه من الأوتار ولا من الجمال إلا ماتراه فى الوجوه الحسان ، ومنها من صفت سرائرها وارتاحت وعلت على هذه المادّة وتخلصت من قيود الآلة فرأت مالا تراه العيون ، وسمعت مالايسمعه الغافلون ، فصرير الأقلام ، وحفيف الأشجار ونغمات الطير ، وخفة الهواء ، وارتفاع البخار ، وبهجة السحاب ، وألوان (قوس قزح) ، كل ذلك لأسماعهم طرب ، ولعيونهم جمال ، ولقلوبهم بهجة وبهاء .

فإذا ترنحت العذبات فى أشجار البان أو غرّد القمرى على الأفنان أو سمعوا خرير الأعشاب أو أصوات الرياح فى الفجاج أو صوت أحجار الرحى دائرات فى ظلمات السجنات ، فهموا معانى مطربات وتجلت لهم من المعانى آيات ، وأدركوا نبأ من قوله تعالى « وفى الأرض قطع متجاورات » اه .

[فائدة] جاء فى بعض المجلات العلمية فى شهر إبريل سنة ١٩٢٧ م مايأتى :

شجرة تأكل الناس

عادت مؤخرا من (جزيرة مدغشكر) بعثة علمية إنكليزية أمريكية سافرت إليها تحت رئاسة (يونج) العلامة الشهير ، وأكدت الصحف تلك الأسطورة القائلة بأن فى تلك الجزيرة شجرة تأكل الإنسان والحيوان

وقيل

وقبل ثلاث سنين نشرت صحف ومجلات أوروبا مقالات ضافية عن هذه الشجرة الغريبة التى تتغذى بلحوم الإنسان والحيوان .

وأول من أذاع هذه الفكرة الدكتور (سولمون أسبورن) وهو من علماء الجغرافيا للبرزيل سافر إلى (مدغشكر) فسمع تلك الإشاعة ولم يتمكن من رؤيتها لأنها فى الغابات الوحشة ، وقد قال هو إنه لامانع يمنع من وجودها لأن هناك نباتات تأكل الحشرات .

وفى حديقة النباتات بلندن نبات يأكل الفيران ، والصحف الإنجليزية كتبت عنه كثيرا ، والذى أكد ذلك العالم النباتى (ليكسيه) الذى وصف الحفلات الدينية التى يقيمها الأهالى حول تلك الشجرة ويقدمون لها وقتا دون وقت ضحايا بشرية ، وقال أيضا فى رسالة للدكتور (فريد لوف) إن تلك الشجرة كشجرة الصنوبر باسقة وجذرها ذا عقد كثيرة ناتئة وعليها أربع ورقات فقط يبلغ طول الورقة أربعة أمتار وعرضها فى الوسط (٨٠) سنتيمترا ، وثخنها (٤٠) سنتيمترا ، وهى تتدلى من رأس الشجرة إلى أسفلها وتشبه جلد الجاموس الثخين ، وأطراف الأوراق مسننة ، وتوجد أزهار على رأس الشجرة تشبه الأقداح تتصاعد منها رائحة كريهة إذا شمها إنسان اعتراه دوار شديد وتسيل منها نقط مادة مسكرة .

والأهالى فى احتفالهم الدينى يقترعون على من يقدم ضحية ، وقد أصابت القرعة امرأة فأرغموها على أن تتسلق الشجرة وتشرب من المادة المسكرة ، وما كادت شفتاها تمسان الزهرة حتى ارتفعت الأوراق المتدلية وأطبقت عليها من كل جهة ولبثت ملتفة عليها مدة أسبوعين وعادت بعدها إلى ما كانت عليه ، ولم يبق من جثتها غير رأسها المسلوخ المعلق ، وقال (ليكسيه) إنه رآها حينئذ رأسه ورفع بشأنها تقريرا مسهبا إلى الجمعية النباتية فى لندن اهـ .

اللطيفة الخامسة فى قوله تعالى « ولكل قوم هاد »

اعلم أن هذا المقام قد اتضح فى كتابى [أين الإنسان] ولكن لأقل قلا من كل :

اعلم أن هذه الدنيا منتظمة عند الحكماء مختلة عند صغار المتعلمين ، فانظر تجد الذكور والإناث فى الأرض عددا واحدا تقريبا فى كل أمم الأرض متوحشين ومتمدينين كأن الحكمة قضت أن يكون لكل ذكر أنثى . وهذه القاعدة لم تختل قط فى هذا العالم ، وقد يحصل حرب أو نحوه فيموت رجال فيقلون ويكثر النساء ولكن هذا أمر عارض لاعبرة به وإذا ظهر هذا فى الذكورة والأنوثة فانظره فإنه عام فى سائر الأعمال من صناعة وإمارة وتجارة فإن النبوغ فى كل منها مخبوء فى العقول محفوظ فى النفوس ولو علمت الأمم تعليما صحيحا لخرج من كل أمة هداة على مقدار حاجتهم وصناع وسواس وهكذا على مقدار الأمم ، هذا هو الذى يستخرج من هذه الآية وهو المشاهد فى العالم ولكن يعوزه التدقيق وفى كتابنا [أين الإنسان] شفاء للمقام .

اللطيفة السادسة فى الكلام على قوله تعالى

« وكل شئ عنده بمقدار عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال »

بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله رب العالمين . اللهم إنك محمود على نعمك العامة وحكمك التامة فى عالمنا الذى نعيش فيه . اللهم إنك أنت أنعمت علينا بنعمة العلم وأحييت قلوبنا بالحكمة وأريتنا من عجائب ملكك وغرائب حكمك ماجعل قلوبنا فرحة بك مستبشرة مبتهجة بالنظام التام والإحكام العجيب «فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم » نحن أينما اتجهنا وقلبنا وجوهنا وفكرنا رأينا إتقانا مبناه العلم وتنوعا كثيرا مبناه سعة القدرة والعلم .

هانحن أولاء سمعنا قولك « وكل شئ عنده بمقدار » وقولك « إنا كل شئ خلقناه بقدر » وقولك « وإن من شئ إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » وقولك « إن الله سريع الحساب » وقولك « الذى خلق فسوّى . والذى قدر فهدى » وقولك « وخلق كل شئ فقدره تقديرا » وقولك «وهو أسرع الحاسبين » وقولك « ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت » وقولك « وما كنا عن الخلق غافلين » وقولك « وأنزلنا من السماء ماء بقدر » وقولك « وأحصى كل شئ عددا » وقولك « وكل شئ أحصيناه فى إمام مبين » .

اللهم إن هذا هو مناط الحكمة والعلم والسعادة فى هذه الدنيا . الناس على هذه الأرض لاحظ لهم من العلم فى دين ولا دنيا إلا إذا أيقنوا بما فى هذه الآيات ونظروها بعقولهم التى أودعتها فيهم وهذه الأمم الإسلامية مضى لها (١٣) قرنا كان أكثرها فى غفلة عن ذلك وقليل منهم هم العارفون بهذه الحقائق ولكن كانوا فى زوايا الإهمال .

اللهم إنك اليوم أذنت لأمة الإسلام بالرقى والاطلاع على عجائبك والتحلى بمحاسن العلوم فى السموات والأرض فها أناذا اللهم أكتب لهم فى تفسير كتابك نظرة فى عالمك الذى خلقتنا فيـــه قبل أن أغادره وأسألك أن تهدى به أمما وتشرح به قلوبا وتنقذ به أناسا من الجهل والذل وترفعهم إلى غاية الحكمة والمجد والسلام .

أيتها الأمم الإسلامية أحصى فليت شعرى أى الأشياء أذكر لتعرف نظامه ، ولقد مضى فى هذا التفسير وسيأتى إن شاء الله مافيه غنية لذى لبّ .

(١) أأذكر الجسم الإنسانى وقد مضى فى سورة آل عمران من نظامه وبديع أحكامه مايدهش اللبّ ويثير الإعجاب من ترتيب أعضائه ونظام هيكله ودقة عينه وحكمة أذنه فهذه هناك مفصلة أى تفصيل وهل أزيد أمرا يشاهده الناس ولا يبحثون به وهو :

الحل الهندسى

إن الإنسان إذا توهمنا أن هناك فيه سطحا مستويا قسمه من فوق رأسه إلى أسفل قدمه قسمين مستويين فهذا السطح الموهوم نسميه [الحل الهندسى] ومعنى هذا أنك تجد الأذنين والعينين والخدين والصدغين والترقوتين واليدين والثديين والفخذين والركبتين والساقين والقدمين ، كل هذه على أبعاد متساوية من هذا السطح الذى توهمنا أنه قسم الإنسان .

فياعجبا ! نحن نعيش ونموت ولا ندرى أن هناك نظاما فينا بحيث يتساوى بعد العينين والأذنين الخ عن ذلك السطح الذى يقسم الجسم وهذا جمال نتج من الإتقان وحسن النظام كما تشاهد نظيره فى المبانى المنظمة بحيث تشاهد شباكين أو نافذتين على بعدين متساويين من باب البناية .

(٢) أم أذكر نظام الأحجار الساقطة من أعلى الجبل إلى أسفل البئر ، وقد مرّ ذلك فى أول سورة آل عمران بحيث ترى هناك عجبا عجابا وأن نظام أعضاء الجسم وحسنها الموزون بالأشكال الهندسية له نظير فى حركات الأحجار الساقطة بحيث ترى الحجر يقطع فى نزوله المسافة بطريق التربيع فلا أطيل به هنا لئلا يكون التكرار للعبث فاقرأه هناك واعجب من حجر مجذوب إلى الأرض تزداد سرعته فى الثوانى الزمنية المتوالية على طريق التربيع بحيث ينزل الحجر فى الثانية الأولى (١٦) قدما مثلا ، وفى الثانية التى بعدها (١٦) فى مربع اثنين وهو أربع وهكذا . ولأذكر هنا لطيفتين تناسبان المقام .

اللطيفة الأولى : فى معرفة عمق الآبار

إذا رمينا حجرا فى بئر وعددنا الثوانى التى تمرّ قبل أن نسمع صوته عند وقوعه فى أسفله فلنربع عدد

الثوانى

الثوانى وتضربها فى (١٦) قدما يكون الناتج عمق البئر أقداما وتعدّ الثوانى إما بساعة وإما بدقات النبض فتحسب كل دقة ثانية .

اللطيفة الثانية

إن النور يقطع (١٩٢) ألف ميل فى الثانية ولعظم سرعته لايشعر به على الأرض فيظهر للناس جميعا فى لحظة واحدة ولو دار حول الأرض لأكمل دورته أسرع من لمح البصر ، وسرعة الصوت فى الهواء هى (١٠٩٠) قدما فى الثانية ، فإذا رأينا البرق ثم سمعنا الرعد بعده بخمس ثوان علمنا أن البرق لمع على بعد (٥) فى (١٠٩٠) أو (٥٤٥٠) وتعرف الثوانى إما بالساعة وإما بضربات القلب .

فاعجب لنظام بهيج ، حركة تمرّ حول الأرض فى أقل من لمح البصر وأخرى ألف قدم وتسعون . إن الصوت بالنسبة للضوء كالسلحفاة بالنسبة للأرنب والصوت بالنسبة الجياد من الخيل أشبه بتلك النسبة معكوسة وهكذا « وربك يخلق مايشاء ويختار » . لذلك نرى البرق قبل الرعد ولهذا قدّم الله البرق على الرعد فى الآية .

(٣) ثم أذكر [جنة العرفان فى تفسير القرآن] وهى :

(١) إن شدة الصوت تقل بمقدار مايزيد مربع البعد عن الجسم الصائت كما إذا أتينا بأربعة أجراس بحجم واحد ووضعناها على بعد (٤٠) ذراعا ووضعنا جرسا آخر بحجمها أيضا على بعد (٢٠) ذراعا فإنا نجد صوت الأربعة كصوت الواحد لأن بعدها كبعده مرتين و (٢ فى ٢) تساوى (٤) فإذن يكون كل واحد من الأربعة صوته كربع صوت الجرس القريب فأصواتها كلها كصوته وهو المطلوب .

(ب) شدة النور تقلّ بمقدار مايزيد مربع بعده عن الجسم المنير فاستبدل المصابيح بالأجراس فى المثال فيكون نور المصباح القريب مساويا لنور الأربعة البعيدة بالمقادير المتقدمة .

(ج) إن شدة الحرارة تقلّ بمقدار مايزيد مربع بعدها عن الجسم المتقد نارا فاستبدل المواقد بالمصابيح والأجراس وفى تلك المواقد نيران متساوية فإن الموقد القريب تساوى حرارته حرارة الأربعة البعيدة بالمقادير المتقدمة .

(د) الجاذبية . وهاك نظام الجسمين الخفيفين كالفلين السابحين على سطح الماء كما تقدم فى آل عمران وكيف يجرى أحدهما ليلاقى الآخر بطريق الجذب على عكس التربيع بحيث يكون إسراعهما إذا كان بينهما ذراعان مثلا أقل مما لو كان بينهما ذراع واحد ، فإذا كانت السرعة فى الحال الأولى مترا فى الثانية فإنها فى الحال الثانية تكون أربعة أمتار أى أن بعد الذراعين أخذ مربع الواحد وهو واحد وبعد الذراع أخذ مربع الذراعين وهو أربعة :

هذه مسائل أربع : الجاذبية والصوت والنور والحرارة ، انظر وتعجب هذه كلها قاعدة واحدة تزداد فى القرب وتنقص فى البعد بعكس التربيع .

فياليت شعرى كيف نفسر القرآن فى هذا الزمان ؟ تالله هذا هو التفسير ، هذا هو الدين الإسلامى ، كيف يقول الله « وكل شىء عنده بمقدار » ويقول « إن الله سريع الحساب » ويقول « ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت » فأىّ تفاوت وجدناه بين الضوء والحرارة والجاذبية والصوت ، لم نجد تفاوتا بل وجدنا اتحادا ، وهذه الأربعة عليها مدار حياتنا ، فأصول حياتنا متحدة نظاما عجبا ، هذه نبضات القلب كيف كانت كدقات الساعة فى الثوانى ، كيف يكون القلب ونبضات العروق على نظام تقريبى أشبه بنظام الساعة من حيث الثوانى حتى أمكننا أن نقيس بها عمق البئر ثم كيف ربطنا الثوانى حين ضربها فى الأقدام كما ربطنا أبعاد الضوء والصوت والجاذبية العامة والحرارة .

هذا هو علم دين الإسلام والمسلمون فى المستقبل هم الذين يدرسونه ، هذا هو علم التوحيد ، وهذا هو شكر الله ، وهذا قوله تعالى « وقل ربّ زدنى علما » فليزداد المسلمون علما فى مثل هذا اقتداء بالخليل عليه السلام ونبينا صلى الله عليه وسلم ، وشكرا لله وتوحيدا ورقيا فى دنيانا وآخرتنا ، والحمد لله رب العالمين .

(٤) أم أذكر نظام رقاصى الساعة اللذين قصر أحدهما وطال الآخر وهما فى مكان واحد فإن بينهما نسبة التربيع كما هنا وكذلك ذراعا ميزان القبان أى ذراع القوة وذراع المقاومة . وبعبارة أخرى : الذراع الطويل الذى فيه الرمانة والذراع القصير الذى يعلق فيه الموزون فهناك بينهما نسبة منظمة لامحل لإطالة شرحها هنا لئلا نخرج عن المقصود .

(٥) أم أذكر نظام الكواكب السيارة بالنسبة للشمس ، أم نظام السنين الكبيسة والبسيطة إنى إذا ذكرت ذينك النظامين هنا أخرج عن المقصود ولكن أقول قولا وجيزا فيهما . أما أبعاد السيارات عن الشمس فهو أمر سهل بسيط تفهمه بما يأتى :

إذا حفرنا مكانا أثريا فوجدنا فيه تماثيل والتمثال الثانى يبعد عن الأول ثلاثة أذرع والثالث يبعد عن الثانى ستة أذرع والرابع يبعد (١٢) ذراعا ، والخامس (٢٤) والسادس (٤٨) والسابع (٩٦) ذراعا . إذا عثرنا على التماثيل على هذا النظام لم نشك أن واضع التماثيل حكيم ومهندس ماهر وقد جعل كل تمثال فى البعد ضعف ماقبله من التماثيل ، هذه هى الحال فى السيارات بالنسبة للشمس ، فإذا جعلنا لعطارد صفراً والزهرة (٣) والأرض (٦) والمريخ (١٢) وكوكب مجهول عرفت آثاره (٢٤) والمشترى (٤٨) وزحل (٩٦) إذا فعلنا ذلك نكون قد عرفنا أبعاد السيارات عن الشمس مع إضافات لكل منها مذكورة فى محلها ، فإذن تكون هذه السيارات التى نراها موضوعة فى أماكنها بقوانين ترجع إلى النسبة الهندسية فإن نسبة ٣ إلى ٦ كنسبة ٦ إلى ١٢ وحاصل ضرب الطرفين يساوى حاصل ضرب الوسطين : أى أن ٣ فى ١٢ تساوى ٦ فى ٦ وهذا من العجب أن نرى كواكب موضوعة بنظام هندسى بديع وهو المسمى [المتوالية الهندسية] والناظر بالعين لايعرف شيئا من ذلك والناظر بالعلم يعرف هذا النظام . اللهم إنك أدهشتنا بأحجارك وحركاتها وأدهشتنا بنظام كواكبك ونظام أجسامنا وكل نظام .

(٦) أم أذكر حساب السنة الكبيسة والبسيطة العربية لأبين لك حركات الكواكب كما بينت وضع أماكنها : أعنى أنى أذكر حساب حركات الأرض حول الشمس فى السنة لتعرف أن هذه الحركات لها حساب منظم ، كما أن بعد السيارات عنها بحساب منظم ولكنى لا أذكر هذا هنا لأنه تقدم فى آخر سورة آل عمران وفيه أن السنة القمرية (٣٥٤) يوما وسدس يوم وخمس يوم وهذا السدس وهذا الخمس بتكرارهما كل سنة يزدان ١١ يوما فى مدة ثلاثين سنة فترى كل ثلاثين سنة تكون منها ١١ سنة كل منها (٣٥٥) يوما و١٩ سنة كل منها (٣٥٤) يوما ، فالأولى هى الكبيسة والثانية هى البسيطة ، ولا أذكر لك الحساب هنا لأنه تقدم هناك ولئلا نخرج عن المقصود من النظام التام ، فكما رأينا أبعاد الكواكب بنظام هندسى هكذا رأينا حساب سير كل كوكب بحساب محتم فأولهما هندسة فى المكان وثانيهما حساب فى الزمان ، هذا هو النظام التام .

(٧) أم أذكر لك نظام الشعر العربى وعروضه والموسيقى ؟ إن ذلك يطول شرحه ولكنى أبين لك أن الشعر حسابه كحساب الفلك والنجوم زمانا ومكانا وأبين لك ذلك بغاية الاختصار مع الوضوح . اقرأ البيت المشهور الآتى :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

هذا البيت من بحر الطويل ولا معنى لبحر الطويل إلا هذا الوزن وهو فعولن مفاعيلن ٤ مرات، ومعنى ذلك أنه (٤٨) حرفا إذا لم تدخل علل تحذف بعض الحروف . وهذه الثمانية والأربعون منها ماهو أوتاد ومنها ماهو أسباب ومعنى الوتد حرفان متحركان وحرف ساكن ومعنى السبب حرف متحرك وحرف ساكن فالأول مثل على والثانى مثل من وعن وهكذا ، فهذا البحر فيه (١٢) سببا وفيه (٨) أوتاد فالمجموع (٤٨) حرفا من ضرب (١٢ فى ٢) ومن ضرب (٨ فى ٣) فقولك فعولن فيه وتد وفيه سبب وقولك مفاعيلن فيه وتد واحد وسببان وبتكرارهما أربع مرات يكون عندك (١٢) سببا وثمانية أوتاد وربع البيت من الطويل فيه (٧) متحركات وخمس سواكن ونسبة ٧ إلى ٥ كنسبة ١٤ إلى ١٠ كنسبة ٢٨ إلى ٢٠ وحاصل ضرب الطرفين يساوى حاصل ضرب الوسطين .

الله أكبر . جلّ الله وجلّ العلم وجلت الحكمة . اللهم إنك أريتنا جمالك فى أجسامنا ونظامها وترتيب أعضائها وفيما يتحرك من أعلى إلى أسفل وفى أبعاد كواكبك وفى حركاتها وفيما ننطق به من الأشعار مشاكلة لما أتقنت أنت من حركات الأفلاك وأبعادها اللهم إن هذا هو الجمال الذى من حرم منه فقد حرم من مقصود هذه الحياة ومن جمال الحياة الأخرى .

فياعجبا ننطق بما هو منظم كنظام الأحجار الساقطة والموازين المنصوبة والكواكب الجارية . كل ذلك بحساب ونظام بحيث تكون أبيات الشعر حاملة جمال النسبة وبهائها إذ يكون حاصل ضرب الطرفين كحاصل ضرب الوسطين مثل ماتقدم فى أبعاد الكواكب عن الشمس فالنسبة المتقدمة هنا فيها ضرب (٧ فى ١٠) يساوى ضرب (٥ فى ١٤) كما ضربنا سابقا أبعاد الكواكب .

اللهم إن العلم هو السعادة التى بها رأينا ماتنطق به الأطيار من الأسجاع وماينطق به الإنسان من الأشعار على وزان نظام أبعاد الكواكب ونظام حركاتها . هذا هو الجمال وهذه هى السعادة النفسية الباقية الأبدية التى بها يستعد الإنسان لحال أرفع مما عليه أهل الأرض الآن الذين يدرسون هذه العلوم وأكثرهم لايفكرون فى أمثال هذا ، وسيكثر فى المسلمين بعد ظهور هذا التفسير رجال لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، بل يتحلون بعلومهم عن سفاسف هذه الدنيا ويقرءون حكم ربهم ويشاهدون آثاره فى خطرات الأفكار وحركات الأشجار ونغمات الأوتار ورنات المثانى والمثالث والأشعار .

(٨) أم أذكر نظام الماء المركب من غازين خفيفين وهما الأكسوجين والأودروجين ونسبة أولهما إلى ثانيهما كنسبة (٨ إلى ١) فكل (١٦) جزءا من الأكسوجين بحسب الوزن يكون معهما جزءان اثنان من الأودروجين، وإياك أن يصعب عليك أمر هذين العنصرين فما هما إلا عنصران أشبه بالهواء الذى نعيش فيه فالماء يحلل إليهما تحليلا حقيقيا وقد حلل أمامى فى مدرسة دار العلوم وهاهو الآن يحلل فى مدارس العالم قاطبة فترى هذا الماء الذى نشربه ماهو إلا نوعان من شئ لانراه ، فإذا اجتمع هذان النوعان مما حصل للماء فرأيناه وشربناه وهو سائل وهما غازان .

الله أكبر هذان العنصران لهما أيضا نسبة شريفة فنسبة (٩ إلى ١) كنسبة (١٦ إلى ٢) وضرب (٩ فى ٢) يساوى ضرب (١ فى ١٦) وهذا عجب عجاب .

أصبح الماء والحجر والكوكب والشعر وجسم الإنسان جميعها بنسب هندسية ولولاها لاختل النظام ولم يكن ماء ولاشمس ولا كوكب ولاإنسان «وكل شئ عنده بمقدار» . إن الله أذن للمسلمين اليوم أن يتبوءوا مكانتهم بين أهل الأرض .

ومن أبى قبول ما أكتبه اليوم من أمم الإسلام فانهم سيكونون فى الأسفلين فى هذه الدنيا وفى الآخرة، لأن الله أذن للأمم كلها أن ترتقى فاذا نامت أمة ما فلا تلوم إلا نفسها، وإنى بهذا الكتاب أنذر المسلمين . أنذرهم الطامة الكبرى فى هذه الحياة وفى الآخرة إذا جهلوا جمال ربهم الذى أبرزه لهم فى الأرض وفى السموات .

(٩) أم أذكر نظام النبات والعناصر الداخلة فيه المذكورة الموضحة فى سورة البقرة عند قوله تعالى «وانظر إلى حمارك الخ» وكيف كانت العناصر داخلة فى كل نبات بنسب محددة كما حددت حركات الكواكب وأبعادها ونظام جسم الإنسان من حيث المقادير المذكورة فى أوائل سورة (آل عمران) إذ ترى مثلا طول قدم الإنسان كطول ما بين أذنيه وكلاهما شبر وربع وبعد ما بين ثدييه وما بين سرته وعانته كل منهما شبر واحد وهكذا فانظره هناك .

(١٠) أنا لا أطيل لك فى شرح ما تقدم لأنك تكتفى بما ذكرته لك لا سيما إذا راجعت ما أشرت إليه فى هذا التفسير إنما الذى أردت أن أشرحه اليوم شرحا وافيا حتى تبتهج بنور الحكمة والعلم وتقف على جمال الله عز وجل الذى أبرزه على أيدى علماء أوروبا وأهل الشرق نائمون جاهلون غافلون مع أن القوم كان ابتداء تعلمهم من آثار آبائنا الأولين . فانظر رعاك الله تنوّع الماء فانه يكون بخارا فى الجوّ وثلجا ويكون سائلا على الأرض وجليدا ، أنا لا أريد اليوم أن أذكر تنوّعه فى باطن الأرض فيكون أنواعا مختلفة تنفع لأمراض شتى ولا أطيل فى جمال تكوّنه فى الجو بخارا تارة ومطرا أخرى وثلجا آونة . ولا أسهب فى عجائب أنواعه فى البحار العظيمة ولا فى أنواع حيوانه ونباته وإنما أكتفى بشئ واحد وهو الآتى بيانه :

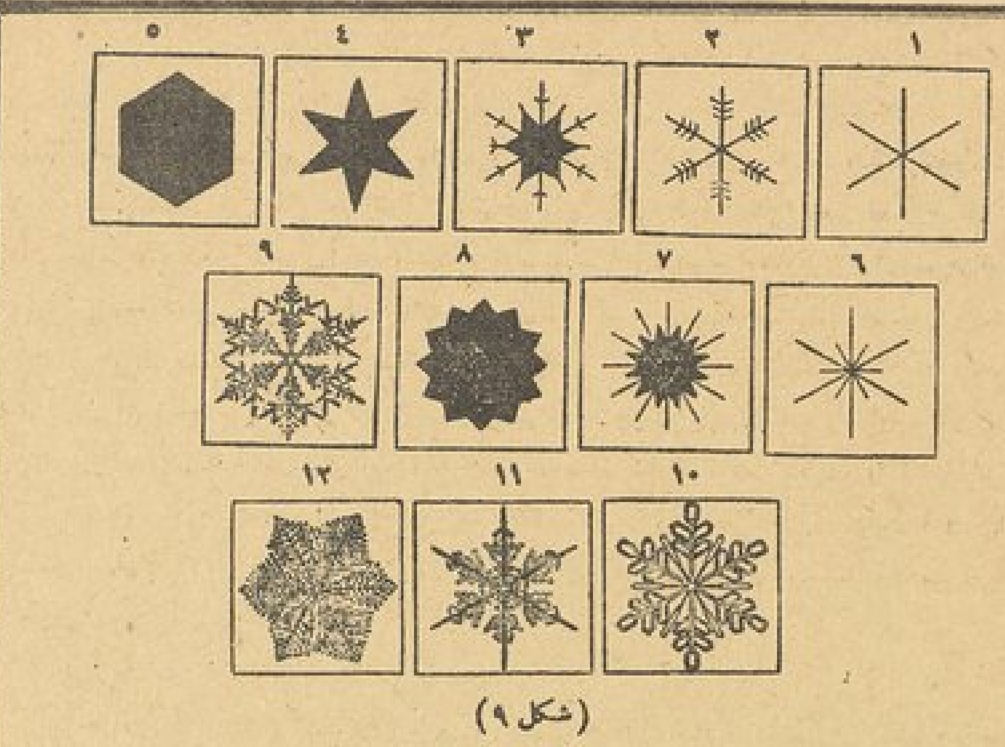
أشكال الثلج المسدسة

أمامى الآن كتاب انجليزى اسمه [كل العلوم] فى هذا الكتاب ضروب من العلم وقد وقع نظرى فيه على مقال ممتع فى نظام الثلج ، وأنا وإن كنت رسمت أشكال الثلج فى أوائل سورة (آل عمران) فانى لم أكن إذ ذاك قد اطلعت على محاسن جمال تلك الأشكال ولا بهجتها .

اللهم إن النظر الظاهر لا يكتفى به إلا الغافلون والجاهلون .

اللهم إنك أودعت فينا غرائز لا تقف عند حد فنحن نشتهى الطعام والشراب والتزاوج والمال والصيت وجمال الوجوه وجمال الأشكال ولكن توغلنا فى ذلك ضارّ بنا لأنه يعود بالوبال وإنما ذلك كله كشبكة صائد وكلوح يقرؤه التلاميذ وإنما الفطرة العظمى الباقية المودعة فينا التى هى المقصودة بالذات هى فطرة الحقائق العلمية . إن فطرنا كلها على نمط واحد وهو أن تقول هل من مزيد ولكن المزيد فى الأمور المادّية المحسوسة وحدها إنما هى سبيل الحيوان ، فالجاهل يكتفى بجمع المال أو الجمال أو الذكر أو الصيت ولكن الحكيم العالم بل المؤمن الحقيق هو الذى يكتفى من الأمور المحسوسة بأقلها ويبحث فى البواطن فهاك أشكال الثلج المسدسة التى كتبت فى ذلك الكتاب بقلم الأستاذ (روبرت جيمس) فقد رسم فى صفحة ١٧٨ من المجلد الثالث من الكتاب المذكور (١٢) شكلا واصطفى هذه الأشكال من (١٥١) شكلا رسمها وحفرها وطبعها الأستاذ (جاتسر) فى عام (١٨٥٥) ورفعت مع تقرير رسمى إلى الجمعية البريطانية العلمية وقد لاحظ تلك الأشكال فى ثمانية أيام من شهر فبراير ومارس من تلك السنة .

قلت لك إن هذه الأشكال أمامى الآن وهاهى ذه مرسومة أمامك .



(شكل ٩)

فها أنا ذا أريتك الأشكال الاثنى عشر المسدسات التي انتخبها ذلك الكاتب من (١٥١) شكلا ويقول إن الأشكال المسدسة الثلجية التي عرفها الناس إلى الآن تبلغ نحو ألف شكل كلهن مسدسات ولكل واحد منها ستة أضلاع ابرية الشكل شعاعية والتنوع الذي لا نهاية له لا يخرج الشكل عن التسديس ولا عن الأضلاع الستة ويقول إن بين كل ضلعين شعاعيين من هذه الأضلاع (٦٠) درجة فمعنى هذا أن مجموع الزوايا ٣٦٠ من ضرب (٦٠ فى ٦) وهذه الدرجات تقاس بها الدائرة التي ترسم فوق هذه الأضلاع وإنما ترسم الأشكال على هذا النمط فى الجو حيث تكون درجة الحرارة ٣٢ بميزان (فارنهيت) وذلك أن ذرات الماء الطائرات المسميات بخارا إذا ضربها البرد على تلك الدرجة اجتمعت على شكل منظم كما رأيته وأبسط الأشكال الشكل الأول وهو الذي حوى ستة أضلاع ابرية الشكل شعاعية ويليه الثاني وهو الذي ترى تلك الأضلاع فيه قد حليت من جانبيها بأشعة ابرية كأنها أوراقها ويليه الثالث والرابع والخامس ؛ ففي الثالث ترى الأضلاع الشعاعية قد حليت بأجنحة أو أغشية فى داخل زواياها ، وفى الرابع كانت تلك الأجنحة قد صارت أتم ، أما فى الخامس فقد صار الشكل كله منشورا سداسيا له ستة أضلاع وستة رؤوس ، وفى الشكل السادس حصل أمر جديد وهى ابر أخرى شعاعية قد تدخلت بين الأضلاع الأولى الطويلة ، أما السابع فإن هذه الأضلاع الشعاعية الحديثة قد ساوت الأضلاع الشعاعية الأولى وحليت جميعها بأجنحة أو أغشية إلى أنصاف الأضلاع تقريبا ، أما الثامن فان تلك الأغشية قد ملأت جميع الفراغ فى ذلك الشكل ، أما الشكل التاسع فقد حاز الجمال والحسن كله والبهجة والرواء وباهر الطلعة فما أجمله وما أعجبه ! ففيه ترى الأضلاع الشعاعية الأولى قد حليت بأغشية لطيفة منتظمة كثيرة كأنها روض باهر حسن بهيج أوراقه مشتبكة خمائله مهندمة أيما هندام.

أما الشكل العاشر ، والحادى عشر والثانى عشر فهى كالعاشر حسنا وجمالا ونضرة ، فالأضلاع الشعاعية مزدانة بزينة الجواهر اللؤلؤية التي تشبه أوراق الأشجار وأبدعها ، وأبدعها مرأى هو الشكل الثانى عشر.

هذا ملخص ما وصفت به هذه الأشكال مع تصرف يناسب جمال المقام . هذا بالإجمال فحوى ما يقوله ذلك الكاتب الإنجليزى مع زيادة وملح يبتهج بها المفكرون ، وأنا أقول أيها الذكى اعلم أن عالمنا الذى نعيش

فيه قد قسم الله فيه العقول والأرزاق والأخلاق والملكات والفضائل وجعل لكل من الناس مقاما ولكل مقام مقال ومقام ذلك الكاتب الإنجليزى فى علم الطبيعة المشاهدة وقد وصف هذه الأشكال بما يلائم علم الطبيعة فوصف مايشاهده الناس بأبصارهم ولم يتعرض لما فى علم الرياضيات إلا بكلمات قليلة لإيضاح المقام .

أما أنا فى هذا التفسير فإنى أسير مع القرآن والقرآن يقول الله فيه « وكل شىء عنده بمقدار » فلم يخص المقدار بعلم من العلوم فعلىّ إذن أن أفسر الآية بما يفتح به علىّ من العلوم مع مراعاة ذوق الأذكياء من قرّاء هذا التفسير . إن علم التفسير يرجع إلى النظام العام وهو المسمى [العلم الأعلى] ويسمى أيضا [علم ماوراء الطبيعة] وإياك أن تظنّ كما يظنّ كثير ممن لاعلم عندهم أن علم ما وراء الطبيعة فوق مدارك الناس ، كلا ، وإنما هو العلم الذى يشمل جميع العلوم الرياضية والطبيعية فهو إذن وراء الطبيعة ليس قاصرا عليها وأيضا هو يدرس بعد علم الطبيعة لأن الأمم عادة تدرس الرياضيات ثم الطبيعيات ثم تقرأ الإلهيات وما الإلهيات إلا العلوم التى هى أعمّ من هذين ، كمعرفة الله ومعرفة الروح وما أشبه ذلك ، كل ذلك لايختصّ بعلم واحد فإذن العلم الرياضى والطبيعى داخلان فى العلم الإلهى وهو الذى نريد التكلم عنه الآن فنقول مستمدين من الرياضى والطبيعى معا :

أنظر رعاك الله إلى هذه الأشكال من وجهين :

[الوجه الأول] أن نظام الشكل المسدس فى الثلج فى الأقطار العلوية الباردة قد تقدم أنه ملازم للتسديس وللأضلاع الستة وزواياها الستة المنظمة وهذه الأشكال تتنوّع إلى مالانهاية له مع المحافظة على الأساس ، رسم الله ذلك الشكل من قطرات البخار المائى الذى احتجنا إليه حينما صار ثلجا ، أحوجنا الله إلى الماء وكذلك الحيوان والنبات بحيث لايعيش حىّ إلا به ونرى أنا بجبلتنا نحرص عليه ويقول الله تعالى « أفرأيتم الماء الذى تشربون . أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون » يمتنّ الله بالماء وبحوجنا إليه وبألما بالعطش إذا لم نشربه ، لم هذا كله ؟ وكان يكفى أن نعيش على حال غير هذه ولكنه ربطنا بالماء وملأه علما وحكمة وقال انظروا فى ملكوت السموات والأرض وقال فى الماء على أحد تفسيرين « ولقد صرّفناه بينهم ليذكروا » وعبر عن القرآن والعلم بالماء .

فهانحن اولاء نتذكر فى الماء لما صار ثلجا فوجدنا أنه بتنوعه الذى لايتناهى صار مضاهيا لما يتكوّن منه من النبات والحيوان ، فالنبات كله ينمو ويلد ويموت وهو متنوع فوق مائتى ألف نوع والحيوان يحسّ ويتحرّك وتنوعه يعدّ بآلاف الآلاف وهذا نوع الحشرات قد قالوا إنها ستبلغ الملايين ، إذن تنوّع الماء صار أشبه بتنوع ماتركب منه دلالة على وحدة هذا العالم ووحدة صانعه ودلالة على اتحاد موضوع هذه الدنيا .

ألا ترى أن الكواكب كلها من مادّة واحدة ولا اختلاف بينها إلا بالتنوّع وهذه المجرّة التى نعيش فيها قد أحصوا مافيها من الشموس الكبيرة فوجدوه فوق مائتين وأربعين مليونا من الشموس الكبيرة وهناك مالم يعلم للآن ، وهناك مجرّات أخرى ولها شموس كهذه الشموس .

ويقول العلماء إن تركيب الكواكب متقارب من عناصر بعضها معلوم وبعضها مجهول وكلها دائرات وكلها منظمات ، فإذن صار تنوّع الماء كتنوّع النبات والحيوان وكتنوع الشموس والكواكب والتوابع والأراضى والأقمار ، وهذا قوله تعالى « ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت » وهذا معنى وحدة العالم الدالة على وحدة الصانع الذى نوّع الوحدة فجعلها سارية مع الكثرة ؟ فبينما نحن نقول حيوان واحد نراه متنوعا آلافا وآلافا وجميعها يطلق عليها اسم الحيوان فالوحدة إذن سارية فى الكثرة هكذا الأعداد المركبة كلها من

الواحد الذى بتكراره جاءت الأعداد كلها ومع ذلك نقول مائة واحدة وألفا واحدا ، بل نقول فى العدد الذى لايتناهى إنه واحد إذن ، الوحدة سارت مع الكثرة لم تفارقها وهذا تمام الكلام على الوجه الأول .

[الوجه الثانى] سنظر نظرة رياضية فى هذه الأشكال المسدسة فإننا نرى عجائب ، ذلك أنك تعلم أن هناك إبرا شعاعية ستة لاتفارق شكلا من الأشكال التى علمت للناس وهذه الإبر الشعاعية أنصاف أقطار الشكل المسدس ؛ إن من يعرف مبادئ علم الهندسة يعلم أن كل ضلع من أضلاع الشكل المسدس المنتظم كالذى هنا يساوى نصف القطر ، فأنصاف الأقطار الستة هنا تساوى أضلاع المسدس ، وعليه إذا رسمت خطا فوق كل خطين متجاورين فإنك تحصل على مثلث متساوى الأضلاع متساوى الزوايا ، إذن هنا عندنا (٦) مثلثات متساويات و (١٢) ضلعا متساويات و (١٨) زاوية متساويات لأن كل مثلث فيه ثلاث زوايا وهى كلها متساويات والأضلاع متساويات وكل زاوية (٦٠) درجة والزوايا الثلاث (١٨٠) درجة . ومعلوم أن زوايا المثلث الثلاث تساوى قائمتين والقائمتان (١٨٠) كل منهما (٩٠) هذا فى أبسط الأشكال وإذا كانت الزوايا التى حول المركز (٦) فضربها فى (٦٠) يكون المجموع (٣٦٠)

ألا تعجب معى أيها الذكى من هذا الجمال ؟ خلقنا الله وأحوجنا إلى الماء وجعل لعقولنا فيه مجالا حينما يكتب به فى صفحات الهواء ، خلقنا الله فى الأرض ولكنه خلق لنا عقولا أوسع من الأرض وهى عقول تعجب وتفرح بالنظام . هذا النظام الباهر العجيب جعل العلماء الجمال فى التساوى ونحوه ، فالمساواة والتنصيف والتربيع والأثمان والأثلاث كلها فيها الجمال وقالوا إن أحسن الأشكال الدائرة ولذلك ترى جميع هذه العوالم دوائر وإنما كانت الدائرة أحسن الأشكال لأن المساواة فيها لانهاية لها فأنصاف أقطارها التى لاتتناهى متساويات ، وكذلك الأقطار وهكذا الدوائر التى ترسم على محيطها كلها متساويات وهذه أجمع الأشكال وأوسعها وهكذا الشكل المكعب فانظره تجد أن له (٦) وجوه متوازيات كل اثنين متقابلين متوازيان و (٨) زوايا مجسمات متساويات و (١٢) ضلعا متساويات كل اثنين منها متوازيان و (٢٤) زاوية مسطحة متساويات فإذن فيه (٥٠) من المماثلات وهى ٦ و ٧ و ١٢ و ٢٤ فهذه خمسون ، فإذن كلما كان التساوى فى الشىء أكثر كان أجمل ولذلك ترى جمال الشجر والزرع كل ذلك لتساوى الأوراق والأغصان والأزهار الخ

وهذا الشكل المسدس الذى رسمه الله بالثلج من قطرات الماء ترى فيه (٣٦) من المتساويات المثلثات (٦) والزوايا (١٨) والأضلاع (١٢) وهذا كله فى الشكل البسيط فما بالك بما هو أكمل وأتم كالشكل (١٠) المتقدم ففيه فوق ماتقدم (٦) زوايا أخرى وبها يتضاعف عدد التساوى فيكون (٧٢) وإذا أضفنا إليه الأورواق التى نبتت على الأضلاع الشعاعية الأصلية وهى فى كل واحد (٥) تصير كلها (٣٠) فيكون المجموع (١٠٢) فإذن هذا الشكل فاق المكعب وصار أكثر من ضعفه . أما الشكل الثانى عشر فقد بلغ نحو المائتين .

هذا هو سبب الجمال الظاهر فى هذه الأشكال ، فالجمال فى هذه راجع إلى كثرة التساوى ولذلك يقول علماء الأرواح وعلماء الحكمة إن الأرواح بعد الموت تفرح بأمثالها من كل روح شريفة كاملة فتزيد أخواتها أفراحا وتزداد لذات أهل الجنة بازدياد الأرواح الواصلة إليهم لأن فى تلاصق الأشكال زيادة الجمال وزيادة الجمال هى المسرة والفرح والبهجة والكمال .

نظرة أخرى فى عدد (٦)

قد تقدم فى أول (آل عمران) أن عدد (٦) يسمى عددا تاما وبيانه كما هناك أن العدد إما ناقص وإما تام

وإما زائد ، فجميع الأعداد إما زائدة وإما ناقصة ولا تامّ فيها إلا النادر وذلك النادر هو (٦) فى الآحاد و (٢٨) فى العشرات . أما الأعداد من مائة إلى ألف فليس فيها إلا عدد واحد هو التام فالعدد الزائد هو الذى إذا جمعنا أجزاءه كانت زائدة عنه والناقص هو الذى تنقص أجزاؤه عنه والتام هو الذى تساويه . مثال ذلك عدد (٨) وعدد (٤) وعدد (١٢) فعدد (٨) أجزاؤه (٢و٤و١) فالجميع (٧) ومعنى هذا أن مضاريبه مضافا إليها واحدمن (٨) مجموعها (٧) وعدد (١٢) أجزاؤه (٣و٤و٢و٦و١) فهى إذن (١٦) وعدد (٤) أجزاؤه (٢و٢و١) الجميع (٥) فإذن (١٢و٤) عددان زائدان (و٨) عدد ناقص أما عدد (٦) فأجزاؤه (٢و٣و١) تساوى (٦) فهو تام ، ومثله عدد (٢٨) فإنه مركب من (١٤و٢و٧و١٤و١) لأنه مركب من (١٤ف٢) ومن (٧ فى ٤) ومن (١ فى ٢٨) ولا شريك لهذا العدد فى الأعداد من عشرة إلى مائة . وقد بحث العلماء فى هذه الأعداد التامة فوجدوها نادرة فربما تمرّ عشرات آلاف ولا تجد فيها إلا عددا واحدا كما هو موضح فى محله .

ثم إنى لما قرأت هذا العلم وهو المسمى خواص الأعداد قلت فى نفسى هل الأعداد مثل التام قلّ منها كما قل الكاملون من بنى آدم وبعد سنين اطلعت على كتاب علم خواص الأعداد لأستاذنا المرحوم على مبارك باشا فرأيته ذكر هذا فقال إن ندرة العدد التام يشبه ندرة الحكماء والأنبياء فى الناس . أقول وهذا حق لأن الناس جميعا مقلدون والنادر هم المفكرون الذين يسوقون الأمم إلى مجدهم . وعليه يكون عدد (٦) من الأعداد التى لها شأن أعظم وهى نادرة الوجود كما ندر الحكماء وعليه اختاره الله حين صنع المسدّسات الثلجية فجعلها مسدّسة الشكل وتوع من التسديس كأنه يقول للناس ها هو ذا نظامى جعلته على أتقن وأندر ما يكون من الحكمة، إن الحكيم يجعل نظامه على أحسن الصور ويتجافى عن الصور الرديئة والصور المنحرفة لانهاية لها بزيادة أو بنقص . فأما التامة فهى التى لا نقص فيها ولا زيادة وهذا هو النظام الموضوع لهذا العالم أصالة كنظام مسدّسات الأشكال الثلجية فإنى رأيتها منتظمة غاية النظام فتسديسها النادر الوجود مناسب لنظامها التام ، ولا جرم أن الله بنى عرشه ونظام ملكه على العلم والحكمة وتمام الأمر فقال فى سورة هود « ومامن دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين ، وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء الخ » وقال فى سورة أخرى «ثم استوى على العرش يدبر الأمر » فمرّة يقول إن العرش على الماء ، ومرة يقول « ثم استوى على العرش يدبر الأمر » ولا جرم أن الماء على حقيقته فيه حياة الحيوان المذكور فى نفس الآيات، وفيه عند إرادة مجازه الإشارة للعلم والإتقان فملك الله كله قائم بالحكمة المعبر عنها بالماء والحيوان خاصة المذكور فى الآية السابقة قائم بالماء على حقيقته فإذا كان عرش الله على الماء فذلك لتدبير الكائنات عامة ولتدبير الحيوان مع النبات خاصة فاذن صارت الآية الأولى والثانية فى معنى واحد ، فاذا كان العرش فى الأولى على الماء فهو فى الثانية التدبير ولا تدبير إلا بعلم والعلم لا يكون إلا بحقائق ثابتة ، ومن أعجب الحقائق المسدس الذى ظهر سرّه فى الثلج الذى هو تنوع فى الماء الحقيق فبين الماء باعتبار حقيقته وباعتبار مجازه مناسبة بالماء الحقيق منظم الأشكال عند تجمده والعلم مبنى على حقائق ثابتة بديعة والعلم به يحيا العالم والماء به يحيا الحيوان والنبات .

فسبحانك اللهم أبدعت الماء بتسديس أشكاله وأبدعت نظام الأفلاك فجعلت أبعاد الكواكب عن الشمس كما تقدّم راجعة إلى عدد ٦ و ١٢ و ٢٤ و ٤٨ و ٩٦ فاذن هذه الأبعاد مبنية على عدد (٦) وهو العدد التام .

فها نحن أولاء ننظر فى هذا الوجود فنرى عدد (٦) الذى هو نادر الوجود لأنه تام قد سرى فى أشكال الماء وفى إبعاد الكواكب عن الشمس وهكذا مما ذكره الله فى الآية السابقة فى عدد أيام خلق السموات والأرض

فجعلهما

جعلهما فى ستة أيام ولعل هذا من حكم تخصيص عدد الأيام بعدد (٦) لأنه تام فكأنه يقول إن ملكى مبنى على أتم نظام وإلا فماذا خصص عدد الأيام بعدد (٦) مع أن الأيام ليست كأيامنا فقد يكون اليوم نحو ألف سنة أو خمسين ألف سنة أو أكثر أو أقل فان الكواكب العليا لها أيام لانعرفها ودورات عظيات فلا حد لليوم عند الله فلم خصه بهذا العدد إلا أن يكون لنحو ما ذكرناه ، والحمد لله رب العالمين .

شكر المؤلف لله

اللهم إنى أحمدك فقد علمتنى على مقدار طاقتى . أذكر لك أيها الذكى نعمة الله على طالما جلست على شاطئ نهر أبى الأخضر الذى هو بقرب قريتنا (كفر عوض الله حجازى) وأنا أفكر فى أمر هذا الوجود وذلك منذ نحو (٤٥) سنة قبل تأليف هذا الكتاب وقد كانت سنى إذ ذاك حوالى (٢٠) سنة ولم يكن لى علم إلا بكتب النحو والفقه وبعض علم التوحيد الذى هو بطريق جدلى لايفيد ، فتارة أصلى وأدعو الله بعد الصلاة أن يعلمنى نظام هذا الوجود الذى أراه فى نظرى لانظام له ، وتارة أبحث عسى أن أجد حيوانا فيه شبه نظام هندسى أستدل به على أن العالم صانعا وإنى أذكر الآن أنى مرة وجدت حشرة عليها خطوط هندسية متقاطعة بيض وحمر فكان ذلك لى أعظم سرور مع أنى لا أعرف هندسة ولا حسابا إذ ذاك ، فها أنا ذا أحمد الله عز وجل . مضت سنون وأنا أطلب من الله أن يعلمنى وكأن اليأس قد تغلب على ولكن الدعاء مستمر فأجاب الله الدعاء وحقق طلبى بعد اليأس والله يقول « خلق الإنسان من عجل سأريكم آياتى فلا تستعجلون » سبحانك اللهم وبحمدك أجبت دعائى فلأعلن شكرى وأبشرك أيها الذكى فاعلم علما يقينيا أنك إذا رأيت شيئا مما أذكره فى هذا الكتاب قد عسر عليك فهمه ووجدت فى صدرك حرجا واشتقت أن تعرف أصل العلوم التى ذكرت منها ما اشتقت اليه فإياك أن يخامرك شك فى أن الله سيعلمك . واعلم أنك كلما اشتد شوقك للعلم كان ذلك دلالة على أنك ستنال مطلوبك . فانظر لما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « لولا أن الشياطين يحومون حول قلوب بنى آدم لنظروا إلى ملكوت السموات والأرض » فها أنا ذا حين كنت على شاطئ النهر أفكر فى نظام هذا الوجود كيف كنت غافلا عن نظام عينى وبقية الجمل الهندسى الذى شرحته فى أوائل هذه المقالة ، وكيف كنت أغفل عن نظام النبات والحيوان وكلاهما حاضر لدى . وكيف كان الثلج يمر فوق رأسى على بعد ربما كان (١٥) ألف قدم أو أقل أو أكثر .

ألم تر إلى ما جاء فى الكتاب الانجليزى السابق الذكر أن الثلج يكون دائما عند القطبين فوق الأرض مسافة (١٢٠٠) ميل ويكون الثلج الدائم مرتفعا فى الجو أعلى فأعلى كلما اتجهنا جهة للدارين . ففى بلاد (اسويزرلند) فوق (٩٠٠٠) قدم وفى (البرنيس) كذلك وفى (أررات) ١٤٠٠٠ قدم و١٦ ألف قدم فوق بعض جبال (همالايا) قال وقد يكون الثلج فى منطقة الاعتدالين على بعد (١١و١٢) ألف قدم ولكن هذا ليس من الثلج الدائم والدائم هناك يكون أعلى من هذا البعد . فاذن حينما أنا كنت على شاطئ أبى الأخضر أبحث عن نظام وجمال فى الطبيعة قد كان يحيط بى الجمال وأنا غافل عنه فالنظام فى جسمى وفى النبات حولى وهكذا الحيوان وهكذا ماء نهر أبى الأخضر الذى يصير بخارا ويعلو فى الجو . ومعلوم أن بلادنا فى عرض (٣٠) درجة فالثلج يكون دائما أو غير دائم فى الطبقات العليا فى الجو التى تبلغ فوق عشرة آلاف قدم إذن النظام كان يحيط بى ولكن الجهل هو الذى حال بينى وبين هذا الجمال .

أيها المسلمون إياكم أن تناموا عن هذا الجمال واعلموا أن فى هذا الوجود من الجمال والبهاء ماهو مستور عنا جميعا « وفوق كل ذى علم عليم » والحمد لله رب العالمين .

ثلاث زهرات زاهرات باهرات ناضرات بهجات ازدينت بها هذه المقالات للنشآت فى رياض العلوم

الزهرة الأولى

تبين من هذه المباحث السابقة فى الأشكال المسدسة الثلجية أن الشكل الأول منها ساذج لاحلية فيه

ولا زيادة على ما كان من الثلاث الستة وزواياها المتساويات الخ وزيد عليه الثانى بتلك الزيادات القائمات على أنصاف الأقطار للشكل السدسى وهكذا لا تزال الأشكال تتزايد درجة فدرجة وجمالا فجمالا حتى انتهت إلى أجملها شكلا وأبهاها حسنا وأبدعها نظاما مما قد حوى ما يشبه الأوراق المتناسقة المترادفة المتساوية المبدعة جنابة الإحسان والجمال . فهذا الإبداع الذى ظهر فى الأشكال الثلجية فى الأقطار الجوية الباردة فوق رؤوسنا قد فتح لنا بابا من العلم نلج منه إلى مكنونه ونوازن مابين هذا وما بين السلسلة الحيوانية والنباتية ونقول :

لقد رأى الناس السلسلة الحيوانية لها أدنى ولها أعلى ولها وسط فهى سلسلة أدناها أقرب إلى عالم النبات وأعلاها أقرب إلى الإنسان ، ونرى الأسود والنمور أرقى من عالم البهائم وعالم البهائم أرقى مما هو أحط منه حتى نصل إلى أدنى الحيوان مما يدب على العود من الدود وما يكون منه فى بطون الحيوانات الكبيرة فنرى تلك السلسلة متناسقة متناسبة لها أدنى ولها أعلى . الله أكبر الله أكبر ظهر العلم وبهر وازدهرت به الأجيال المقبلة وأشرقت شمسه وغاب ليله . يا عجبا للأمم التى نعيش فيها ، قال الشاعر :

فقل لمن يدعى علما ومعرفة ‏ ‏ عرفت شيئا وغابت عنك أشياء

نظر الناس قديما وحديثا هذه السلسلة فقال قائل منهم إن هذه جاءت بطريق النشوء والارتقاء ، ومعنى هذا أن الحيوانات العليا كانت فى الأصل حيوانات أقل منها ثم تولاها التغير والتبدل بالوسط والبيئة والانتخاب الطبيعى والحوادث الطبيعية فارتقت طائفة وبقيت أخرى مكانها فكان أعلاها القرد وعلا عنه الإنسان بهذه الوسائط .

هذه آراء علماء القرن التاسع عشر . أما علماء القرن العشرين فقد قالوا كلا إن هذه القضية كاذبة واستدلوا بحشرة أبى دقيق وقالوا إنها تكون دودة فقيلجة أى (شرنقة) وهى عبارة عن كرة منسوجة من خيوط كتلك التى ترى فى دودة الحرير ثم تكون حشرة كاملة فها هى ذه ، هذه الحشرة لم تحتج إلى آلاف آلاف من السنين لتنتقل من حال الدودة إلى حال الحشرة بل كان انتقالها فى زمان قليل يعد بالأيام . إذن ليس يلزم فى نظام الحيوان أن يكون أعلاه مشتقا ومرتقيا عن أدناه وقالوا أيضا إن الذى نراه فى غرائز الحيوان من الرأفة والرحمة ودقة الصنع يعجزنا أن نخرجوا فكيف يتسنى لنا أن نقول إن الانتخاب الطبيعى هو الذى أوجب هذه المراتب الحيوانية ، وتجد هذا المقام مذكورا فى سورة (آل عمران) فى أولها عند مبحث المحكم والمتشابه فى الطبيعة فى بيان قوله تعالى «هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء» .

إن النظر فى هذه الأشكال المسدسة الثلجية التى كلامنا فيها يؤيد أقوال علماء القرن العشرين فى مسألة السلسلة الحيوانية الذين ذكرنا منهم (٢٠) عالما فى هذا المقام الذى ذكرناه لك فى سورة (آل عمران)

إن هؤلاء العلماء يقولون إن البط يعوم لأنه وجد لنفسه أرجلا مغشاة تصلح للعوم وإن هذه الحيوانات أعدت قبل العوم وهذا كلام أحدهم العلامة (أدمون بريبه) فى مجلة [العالم الحى] سنة ١٩١٢ ؛

ولا جرم أن مسدسات الأشكال الثلجية لم يكن ارتقاء أعلاها عن أدناها بطريق النشء بل وجد أعلاها ووجد أدناها من غير أن يكون الأعلى كان أدنى ثم أخذ يرتقى عنه تدريجا بل هى سريعة التركيب سريعة الزوال . إذن هذه الأشكال تؤيد قول علماء القرن العشرين وتوضح برهانهم وتزيده حسنا .

انتهى الكلام على الزهرة الأولى

الزهرة الثانية فى الكلام على حسن النظام وعمومه

اعلم أن جمال هذه المسدسات يأخذ بالألباب ويبهج العقول . ولذلك ترى العلماء يجدون فى البحث عنه ويجدون لماذا ؟ لما فيه من دقة الصنع ، وأنت خبير أن هذا الجمال الذى رأيته فى الأشكال نشاهد نحن مثله

في سفرنا وحضرنا وشبابنا وشيبنا . ألم تر إلى ماهو أجمل من هذه الأشكال فإنه لم يزد عن أوراق الشجر في الحسن والكمال . ترى أوراق الشجر صباحا ومساء وكل غصن من شجرة عبارة عن عمل هندسي تساوت أبعاد نهايات الأوراق المتقابلة عنه حتى يمكننا وصفه بالعمل الهندسي تجوّزا ، فإن ظهر العمل الهندسي الذي شرحته لك في جسم الإنسان ، لقد ظهر في أوراق الشجرة المحلية لأغصانها النابتات على جوانبها المتناسبات الأبعاد عنها كتناسب العينين والأذنين فيما قدّمناه . إذن نحن مغمورون في الجمال ، فالجاهل والعالم يحيان ويموتان وهما يشاهدان نظام الكواكب جميعها والشمس والقمر وهي تجري بنظام ويشاهدان الجمال الهندسية في أجسامهم وأجسام حيواناتهم وحشراتها وفي الأعشاب وأوراق الأشجار وأجهل الناس يرى ذلك النظام في الأبنية التي يبنيها الناس ليعيشوا فيها ، وإذا كان الأمر كذلك فيقال لماذا إذن اهتمّ الناس بالأشكال المسدّسة في الثلج . الجواب اعلم أن الناس على مقدار ما غمروا ودفنوا في الجمال قد حجبوا عنه ، فالناس يغدون ويروحون في وسط البهجة والنور ولكنهم جميعا عنه محجوبون إلا قليلا منهم وإنما حجبوا عنه لأنه مألوف فإنهم يخلقون صغارا وهم يشاهدون ذلك الجمال ولا عقل عندهم ولا تمييز فإذا كبروا كبروا وهم يألفون هذه المناظر فسقط اعتبارها عندهم فلم يكترثوا لها وإنما يفرحون بما غاب عنهم ونذر كمسألة الأشكال الثلجية فتلك الأشكال يرونها برهة ثم تغيب عنهم ثم من ذا الذي يراها إنما يراها الذين في الأقطار الباردة وقليل منهم من يفكر فيها ويصوّرها ، فأشكال الثلج أشبه بالكلمات التي يكتبها المعلم لتلميذه في اللوح يقرؤها ثم يمحوها . هكذا فعل الله لنا . رآنا على الأرض كالصبيان الذين لا علم عندهم فرسم لنا الثلج بأشكاله المنظمة وقال لنا هذا هو عملي ، نظام بديع وترتيب سريع وتناسق غريب ودرس لكم حديث ثم نمحوه وهكذا .

هذا ما ينطق به لسان حال الأشكال الهندسية الثلجية النادرة الوجود وإلا فنحن خلقنا في عالم كله نظام وأجسام مهندمة مجندرة مسواة مهندسة حتى إنك لترى المسلم في صلاته لشدّة إتقان الأجسام الانسانية يمثل في قيامه الخط المستقيم ويقرأ في فاتحة الكتاب وهو على هذه الحال « اهدنا الصراط المستقيم » فهذا المعنى مناسب للاستقامة في الوقوف . ويمثل في ركوعه الزاوية القائمة . وفي سجوده تكون له مثلثات مثل ما بين ساقيه فذلك مثلث متساوي الساقين . ومثل ما بين ساقيه وقدميه والأرض فهما مثلثان أيضا متساويا الساقين ساق هو الساق الإنساني وساق آخر خط وهمي على الأرض والقدم تمثل الخط الثالث . هذا ما أردت ذكره في الزهرة الثانية .

الزهرة الثالثة : حكمة الجمال في هذا الوجود

اعلم أن الجمال البارع في هذا الوجود على قسمين : جمال العموم وجمال الخصوص ، أما الجمال الذي للعموم فهو الجمال الذي أبدعه الله في الوجوه الجميلة النادرة المثال والأصوات البهجة الشجية العديمة النظير .

إن الله عزّ وجل لم يذر أمّة من الأمم إلا هيأ لها من الصور الجميلة والأصوات البديعة ما به يصبو عليهم ويوقظ نائمهم ويحيا قوائم الحيوية الكامنة فيهم فيهيجها في الغالب لتحاب الجنسين وإنجاب الذرية والسعي لما يؤدي لذلك ، وما الصور الجميلة ولا الأصوات البديعة إلا نتائج الهندسة والحساب والنظام . فلعمرك لم يكن البارعون والبارعات في جمال الوجوه إلا لتناسب الخدّين والأنف والعينين والفم ، فمتى كمل التناسب بين هذه الأربعة كان الجمال بارعا ومتى نقص كان القبح على مقدار النقص «وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة» فإذا رأيت وجها فاق الوجوه فاعلم أن عينك قد نقلت صورة ذلك التناسب التام إلى المخ فأدركته النفس وعدّته جميلا فعشقته لأنها من عالم الجمال وكيف أدركت هي الجمال إلا إذا كانت قد فهمت دروسه في عالم غير عالمنا فأيّ هندسة وأي حساب قرأه كثير عزّة ومجنون ليلى وقيس لبنى وهم لا يسمعون باسم الهندسة ولا

يجهلون علم الحساب . هكذا ترى الجهال والعلماء جميعا يسمعون الألحان والمغنى يضرب على العود فيطربون وأكثرهم لايعقلون لم يطربون. ثم لايعلمون أن المغنى والضارب على العود قد أتيا بحركات وسكنات موزونات متناسبات متناسقات مثل ما بيناه فى بيت من الشعر سابقا فى هذا المقام .

ليس يعلم سامعو ضارب العود أن بين أوتاره فى الثقل والخفة نسبة معلومة مطردة كما لايعلمون أن بين الحركات والسكنات نسبة هندسية مثل التى ذكرتها لك فى بحر الطويل .

لقد تقرر فى علم الموسيقى أن كل النغمات فى جميع العالم من عرب وعجم ترجع إلى النسب كما قرره علماء (إخوان الصفاء) فاذا جاء فى النوع من الغناء المسمى (بالماخورى) الذى يشبه فى حركاته وسكناته بحر البسيط أن نسبة متحركاته إلى سواكنه كنسبة (٧) إلى (٥) و (١٤) إلى (١٠) و (٢٨) إلى (٢٠) وهذه أشبه بما تقدم فى بحر الطويل وحاصل ضرب (٥ فى ١٤) يساوى حاصل ضرب (٧ فى ١٠) فانه يتبين لك كيف يكون السامع فى طرب من أمر محسوب منظم وهو يجهل ذلك الحساب كما يجهل الناظرون الجمال حساب الأعضاء فى الوجه والنسب بينها . فالناس جميعا يحبون الوجوه الجميلة والأصوات البديعة الشجية والنغمات الموزونة وهم يجهلون لماذا ابتهجوا بجمال الوجوه ولماذا أسكرهم جمال الصوت والحقيقة أنه لافضل لجسم ولا لصوت لأن الأجسام والأصوات فى حد ذاتها لابهجة فيها وإنما البهجة والجمال لدقة الحساب والنظام والنسب .

رجع الأمر أوله وآخره إلى أن قوله تعالى « وكل شىء عنده بمقدار » هو سر جمال هذه الدنيا سواء أكان فى الثلج المسدس ، أم فى بيوت النحل المسدسات ، أم فى نظام السيارات الجاريات حول الشمس التى قدرها العلماء كالعلامة (بود) فى أوائل القرن التاسع عشر بأنها تبعد (٣و٦و١٢و٢٤) وهكذا كما تقدم ، فهى إذن راجعة إلى نظام التسديس الذى اعتبره علماء قدماء المصريين فى حساب الفدان وفى حساب الأرطال وفى حساب المكيال فقالوا : الرطل (١٤٤) درهما وهو (١٢) أوقية كل منها (١٢) درهما فكأنهم نظروا التسديس فى أبعاد الكواكب التى عرفها علماء أوروبا اليوم وقالوا الأردب (١٢) كيلة و(٦) ويبات ، وقالوا الفدان (٢٤) قيراطا والقيراط (٢٤) سهما . فإذن نظم الناس مكاييلهم وموازينهم ومساحاتهم بنظام السموات فى أبعاد الكواكب مشاكلة لنظام ربهم .

وهكذا عدت الأيام التى خلقت فيها العوالم ستا مشاكلة لنظامها ، كل ذلك يشمله قوله تعالى « وكل شىء عنده بمقدار » وقوله « إنا كل شىء خلقناه بقدر » وبهذا انتهى الكلام على الجمال العام وبيان أسبابه .

الجمال الخاص

أما الجمال الخاص فهو الذى اختصت به طائفة الحكماء . وهو الذى أبدعه الله فى الطبيعة ونظام العوالم وهو الذى اشتمل عليه هذا التفسير الذى جعله الله رياضا من رياض الجنة يتربى فيها أناس لايزالون فى الأصلاب وفى الأرحام ومنهم أحياء الآن يقرءون فيطربون شوقا إلى جمال العلم وبهاء الحكمة وبهم يكون فى الشرق وفى أمم الإسلام رجال يقودون هذه الشعوب الإسلامية المتأخرة إلى سبيل النجاح ، وهذا الجمال الخاص على نوعين : نوع هو أخلاق فاضلة فى نفوس كريمة تكون نموذجا القدوة والسير الحسن وهم الصلحاء ، ونوع هو الحكمة وجمال العلم ونظام هذا الوجود الذى ظهر بعض سره فى هذا الكتاب ، إن لسان الحكمة أبلغ من لغة الألسنة . وإن تعجب مما ستسمعه من بلاغة اللسان فيما حكاه الأصمعى وغيره فأعجب منه منطق

لسان الحكمة المسموع لأولى الألباب فى السموات والأرض للرموز له بقوله تعالى « وإن من شئ إلا يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا » فإياك أن تقف على بلاغة اللسان فلا تفقه بلاغة لسان الحكمة فى الأكوان ، ولأذكر لك ماحكاه الأصمعى كما وعدتك من بلاغة اللسان قال :

كنت أطوف بالبيت إذ سمعت فتاة فى الرابعة عشرة متعلقة بأستار الكعبة وهى تقول: اللهم اغفرلى ذنبي كله قتلت قتيلا لغير حله ، كغزال فى دله ، وهلال فى نسكه ، فى منتصف الليل ولم أصل له . قال الأصمعى رحمه الله : ماأبلغ هذا الكلام ! فقالت : أو تعد هذا بلاغة بعد قول الله تعالى « وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين » .

ألم تر أن فيه أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين ؟ الأمران : أرضعيه وألقيه . والنهيان : ولاتخافى ولا تحزنى . والخبران : أوحينا وخفت . والبشارتان « إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين » .

وهكذا أذكر لك ماحكاه غيره قال :

سمع أعرابى رجلا يقرأ « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله غفور رحيم » فقال ليس هذا كلام الله ! كيف يغفر وقد قطع اليد ؟ فتذكر القارئ وقال «والله عزيز حكيم» فقال هذا حق لأنه عز فحكم فقطع ولو غفر ورحم لم يقطع .

هاتان القصتان نبذتان من بلاغة اللسان العربى فى القرآن وهذا جميل ولكن الوقوف عند جمال اللفظ نقص لأن جمال اللفظ كجمال الثياب والحلى والمقصد الأكبر جمال الأخلاق ، فإذا دل ظاهر الإنسان وجمال ملابسه على ذوقه وحسن اختياره فليس الدليل بمساو للمدلول عليه فى القيمة وليست المقدمة كالنتيجة ، وإذا أحب الناس جمال الوجوه فما ذلك إلا لأنها غالبا تدل على جمال البواطن والأخلاق . فالمقصود فى العالم الإنسانى أخلاقه ومواهبه لا ملابسه وحلاه . قال الشاعر :

ليس الجمال بأثواب تزيننا إن الجمال جمال العلم والأدب

وقال السموءل :

ليس الجمـال بمئزر فاعلم وإن رديت بردا
إن الجمال معادن ومناقب أورثن مجدا

فإذا كان هذا فى حال الإنسان فهكذا حال القرآن ، فإن جمال اللفظ بحسن البلاغة لم يكن إلا مقدمة واللفظ لباس للمعنى والمعنى هو المقصود ، فمن وقف على ظواهر البلاغة فهو من العامة والجهلاء كمن يقف من الإنسان على ظواهر ملابسه ولايدرك أخلاقه وعلومه ، وما مثل الذين يضيعون حياتهم فى ظواهر البلاغة إلا كمثل الحاج يضيع زمانه فى إعداد الزاد والراحلة مستكثرا من ذلك وقد فاته الركب فلم ينل وطره من مقصده الأعظم وهو الحج . وسيكثر أولئك الذين يدركون عجائب هذه الدنيا بعد نشر هذا التفسير فى أمم الإسلام ويطيرون شوقا إلى الحكمة ولا يكتفون بعلم البلاغة وحده الذى وقف عنده الأكثرون .

وما جمال البلاغة إلا حلية الألفاظ كتناسب الخبرين والبشارتين الخ فيما تقدم وكمناسبة العزة والحكمة للقطع فيما تقدم أيضا، وأى شئ هذه وما شاكلها بالنسبة لنظام الحكمة والإبداع فيما خطه الله فى هذا الوجود من الحساب والإتقان الذى تضمنته آيات القرآن من العجائب التى لاتحصى كقوله تعالى « وإن من شئ إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » وقوله هنا « وكل شئ عنده بمقدار » وقوله « أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض الخ » فمن اكتفى من ملكوت السموات والأرض بما ظهر من البلاغة فى الألفاظ كما فى الروايتين المتقدمتين فهو إذا كان ذكيا قادرا على الفهم من « الأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » .

إن الجمال الخاص كما قدمنا يمثله الصالحون بأخلاقهم والحكماء بمباحثهم فى هذا الوجود والأولون أشبه بمن جملت وجوههم والآخرون أشبه بمن حسنت أصواتهم فى الجمال الظاهرى الذى قدمناه . وحكماء الأمم الإسلامية الذين سيظهرون إن شاء الله بعد نشر هذا التفسير وأمثاله هم الناطقون بلسان الحكمة الذى هو أبلغ وأبدع وهم الناظرون فى ملكوت السموات والأرض وهم الذين يظهرون للمسلمين سر قوله تعالى «وإن من شىء إلا يسبح بحمده» إن تسبيح المخلوقات لربهم لايظهر إلا بدراسة جميع العلوم ، وفى هذا التفسير قبسة من نوره بها يعرف المسلمون بعض تسبيح المخلوقات .

إن أهل الحكمة هم الذين يسمعون الناس ألحانا تبهرهم وتسحرهم أكثر مانبهرهم ألحان الموسيقار . وإذا بهر الناس أصحاب الأصوات الجميلة فإن أذكياءهم سيسحرهم بيان الحكماء ، وصوت المفكرين فيفيقون من غفلاتهم ويستيقظون من نومتهم وسترى أيها الذكى كيف يقوم فى العالم الإسلامى من الحكماء من يوقظون هذه الأمم الإسلامية النائمة ويحيون قواها العقلية أكثر مما تحيى وجوه البارعين فى الجمال ونغمات الملحنين القوى الحيوية الإنسانية ، فكما تهيج القوى الحيوية فى الأمم بالصور الجميلة والأنغام الشجية هكذا ستهيج القوى العاقلة فى الأمم الإسلامية لدراسة العلوم وكمال النفوس والوقوف على الحقائق وإتقان الصناعات بسماع صوت الحكمة ولسان البيان العلمى ويفهم الناس قوله تعالى «وإن من شىء إلا يسبح بحمده» فبهذه العلوم التى أشرنا إليها فى هذا التفسير يكون بعض فهم التسبيح بحمد الله فى الوجود ، ومتى فهم الناس بعض هذا التسبيح بالعلوم ارتقوا فى أعمالهم كلها دنيوية وأخروية . كيف لا والتسبيح بحمد الله يرجع لتنزيهه عن صفات النقص ووصفه بصفات الكمال وهى التى توجب الحمد ؟ وكيف يحمد الناس ربهم إلا على نعم عرفوها ولا معرفة لنعمة إلا بدراستها ، ومتى درسوها انتفعوا بها ، ومتى انتفعوا بها كان ذلك شكرا ، لأن الشكر صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه فيما خلق لأجله وكيف يصرفه فيه وهو يجهله ؟ .

إن الله عز وجل أذن للمسلمين بالارتقاء ، والارتقاء بالعلم وبالعلم يعرفون هذه الدنيا ، وهذا التفسير من مقدمات هذه النهضة المباركة إن شاء الله تعالى .

قلنا إن المفكرين يمثلون فى الأمم كما يمثل ذوو الأصوات الجميلة ، والأولون يحيون القوى العقلية كما يحيى الآخرون القوى الحيوية وقلنا إنهم سيكثرون فى أمم الإسلام ، وقلنا إن هذه الأمم ستحيا بعد ماماتت فى زماننا وفيما قبله .

وأريد الآن أن أختم هذا المقام بحكاية ذكرتها فى كتاب [جواهر العلوم] ذلك أنه قد أخبرنى شاب مصرى من أبناء بلادى كان حاكما فى بعض بلاد السودان قال سمعت طائرين يتناوبان الغناء على الأشجار بنغمات موزونات كما توزن نغمات العيدان وهما زوجان فرحان بتلك النغمات ، قال فأمرت الجند فاصطادوا أحد الزوجين ولم يتمكنوا من صيد الآخر ، قال وبات الزوج المصيد عندنا إلى الصباح فلم نسمع صوته ولا صوت صاحبه الذى على الشجرة ، وماطلع الفجر حتى رأيناه خر صريعا فى قفصه حزنا وكمدا فبحثنا عن أليفه فوجدناه أيضا قضى نحبه فى شجرته .

هذا ما ذكرته هناك . وأقول الآن هذا مثل ضربته للحكيم والحكمة فهما زوجان لايفترقان ، فالحكيم يموت إذا لم تكن الحكمة ، والحكمة تموت اذا لم يكن حكيم كما مات أحد الزوجين الجميل الصوت إذ فارقه أليفه وغاب عنه أنيسه .

إذا غابت الحكمة عن الأمم أظلمت شمسها وجن ليلها وأفل سعدها كما غابت عن الأمم الإسلامية المتأخرة

وستشرق

وستشرق شمس العلوم والمعارف من الآن وتسحر أصوات الحكماء والمفكرين قلوب النفوس الشريفة فيحيون الشرق بعد موته « ولتعلمن نبأه بعد حين » والحمد لله رب العالمين .

[فائدة] جاء فى بعض المجلات ما يأتى :

فوائد وفكاهات . عالمنا العجيب وبعض أخباره . أخبار علمية .

عرض الأرض أوسع من طولها (٢٧) ميلا وهى مغناطيس : أى جسم جاذب لأنها تجذب وتجذب ، وتكتسب جاذبيتها من الشمس التى هى نفسها مغناطيس أيضا : أى تجذب الأجرام للدوران حولها ، أعمق جب فى الأرض يبلغ عمقه (٦٥٧٠) قدما . عمر الأرض (١٥) مليون مليون سنة ، وآخرون يقولون عمر الأرض مائة مليون .

إن الهواء يمتد ارتفاعا إلى علو خمسمائة ميل فقط ، أعلى غيم يصل إلى نحو عشرة أميال فوق رؤوسنا ، أعلى علو استطاع أن يصل إليه الإنسان (٧) أميال فقط [يقول المؤلف : ولكن الطيارات ارتفعت أعلى من ذلك] .

أبرد محل يسكن فيه الإنسان شمالى سيبريا الشرقى ، أشد الأماكن حرا على الأرض صحراء أفريقيا حيث تصل درجة الحرارة إلى (١٢٢) .

قد مضى على الإنسان وهو يسكن الأرض مدة مائة ألف سنة وغيرهم يقول أقل .

عدد سكان الدنيا مليار ونصف ، ويموت منهم كل سنة (٣٢) مليونا تقريبا مائة ألف كل يوم وأكثر من أربعة آلاف كل ساعة ، ولكن كل (٦٧) شخصا تموت فى كل دقيقة يولد بدلها سبعون طفلا ، فالحساب يكون كل ماترف عينك مرة يفارق الدنيا واحد ويلاقيها ثان فسبحان الباقى .

أطول حياة فى الدنيا حياة الفيل الذى يعمر قرنين ، أقصر حياة (ذبابة آذار) التى تولد وتنمو وتلد وتموت فى (٢٤) ساعة فقط أو أقل .

معدل حياة الإنسان (٣٣) سنة ، وربع البشر يموتون قبل السنة السادسة ونصفهم قبل (١٦) ولايعيش (٦٥) سنة إلا إنسان واحد فى المائة انتهى .

اللطيفة السابعة فى قوله تعالى «له معقبات من بين يديه ومن خلفه الخ»

اعلم أن الآية ليست خاصة بشىء واحد مما خلق الله فى هذا العالم بل الحافظات للإنسان أنواع كثيرة ، ولأضرب لك مثلا بالنبات .

لقد ظهر فى العلم الحديث أن النبات لايمتص الأغذية من الأرض بلا مساعد ، فإن هناك فى تربته أنواعا من الحيوانات الصغيرة المسماة (المكروبات) تجد فى تفتيت الأغذية والعناصر الأرضية وتحت كل نبات منها مالايحصى من هذه المخلوقات الحية ، فهذه تفتت الأغذية تفتيتا دقيقا لتصلح لامتصاص الجذور لها وإذن ينمو النبات ، وإذا كان هذا شأن النبات فكيف تكون حال الإنسان ؟

إن الله جعل كل ماحولنا [قسمين] ضارا ونافعا ولا ثالث لهما كما قال « ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين » فليس من نبات ولا حيوانات ولا حجر ولا شجر إلا وهو بالنسبة لنا على هذا المنوال ، فنرى الحيوانات الدنيئة فى أجسامنا قسمين :

قسما يسمى : الكرات الحمراء .   وآخر يسمى : الكرات البيضاء .

فأما الكرات الحمراء فهى حيوانات تعد بالملايين ، بها نرى دمنا أحمرا وهى فيه قائمة لإصلاحنا وبقاء حياتنا .

فأما الكرات البيضاء فهي كثيرة العدد قد أعدّت لتلافي الخطر ودرء الهلاك ، فإذا أقبلت على الجسم مكروبات ضارّة في حمى أو نحوها أخذت هذه البيضاء تقاتلها وتهجم عليها ، فإذا ماتت هذه خلفت جندا وراءها وهكذا نسل بعد نسل وجيل بعد جيل ، وكلما تناسلت الأجيال كان الأخير منها بما ورثه عن آبائه أقوى شكيمة وأرفع قيمة وأرقى عزيمة في إخراج الحيوانات المهلكة الضارة فلا تزال في نضال وقتال أجيالا وأجيالا ولذلك ترى الأطباء يحقنون المريض بالجدرى وغيره وهذه الحقن تبعث في الجسم الثارة الشعواء ويحتدم القتال فتقوى تلك الجيوش البيضاء المدرّبة على القتال ، فإذا هاجمتها جيوش أخرى بعد ذلك كانت أقوى على غلبتها ، وما مثل التلقيح لأجسامنا ولأجسام حيواناتنا إلا كمثل تعليم الجندية ، أوكمثل فتح مدارس الحربية وإعداد الوقائع العملية في المناورات الحربية ليشتد ساعد المقاتلين وتقوى قلوب المجاهدين . فهذا مثل ضربته لك من أمثال الجنود المجندة المتعاقبة على صيانة الإنسان وحفظ حياته .

وترى حواسنا : كالسمع والبصر والشم والذوق قد ميزت الضارّ من النافع . فترى أهداب العين تمنع التراب وتدخل الضوء . وترى شعرات الأنف تمنع البرودة أن تصل إلى الخياشيم فيكون الزكام . وقد نصّ الأطباء في زماننا أنه لا يجوز نتف هذا الشعر ؟ وهكذا ترى حاسة الذوق تعرف مايلائم من الأطعمة وتنفر مما لايلائم وهكذا حاسة الشم .

أفليس هذا كله من نوع الحراسة والحفظ ؟ وإذا قال الله « إن كل نفس لما عليها حافظ » وقال هنا « له معقبات من بين يديه ومن خلفه » فهذا مثل من أمثال الحفظ والحراسة .

وترى أن من الحيوانات مايذيقنا الموت كالحشرات المؤذية ببلاد السودان فإن لها قوة سمية تنوّم الإنسان ولكن لا تكون إلا في نادر منها ، فقد أخبرني طبيب أن هذه القوة لا تكون إلا في واحدة من خمسمائة وعملها كعمل الفيران والناموس .

فهذان النوعان ينقلان الأمراض المعدية من جهة إلى جهة فتجد الناموس يمتص الدم من زيد ومتى جثم على عمرو اختلط الدم بالدم فمرض الثاني بمرض الأول .

هكذا هذه الحشرة تنقل مرض النوم من رجل لآخر وهذا المرض يبقى كامنا في الإنسان أياما وشهورا وأعواما ومتى ظهرت أعراضه نام أياما وأياما ثم يعتريه الانحلال .

هذه جنود الإهلاك أشبه بالحيوانات المؤذية في الجسم فإذا رأيت الكرات البيضاء في الدم قد ساعدت الكرات الحمراء على قتال الحيوانات المحدثة لأنواع الحمى والجدرى وجميع الأمراض القتالة وحدث هناك وطيس الحرب الذي ينتج منه الحرارة القوية في الجسم من شدة النضال فهكذا هنا قد سلط الله جنودا على هذه الجنود الحيوانية فعلم الناس كيف يفتكون بالناموس بأن يصلحوا البلاد ويردموا المستنقعات والبرك . وألهمهم في أيام الوباء الناجم من حيوانات صغيرة أن يستعينوا ببعض الأدوية بشرائط خاصة كالنظافة واستعمال الزيت لاسيما المتخذ من الزيتون بشرائط خاصة ، فهذا قاتل لتلك المكروبات وهكذا مما لامجال له إلا علم الطب الواسع ولن تجد ماحولنا من سامّ أوضار إلا وله دواء يمنع فعله ، فهذه الأدوية جيوش وجنود معقبات للجيوش الموكلة بنا ضرا ، هذه نبذة من العالم المحسوس .

الأحاديث النبوية

فإذا سمعت قوله صلى الله عليه وسلم كما في البخارى ومسلم عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بكم كيف تركتم عبادى ؟ فيقولون تركناهم وهم يصلون وأتيناهم وهم يصلون » وإذا سمعت أن لنا ملكين : ملكا عن اليمين وهو صاحب الحسنات ، وملكا عن الشمال وهو كاتب السيئات ، وإذا سمعت

فى أقوال علمائنا أن ملكا موكلا بعينى العبد يحفظهما من الأذى وملكا موكلا بفيه لايدعه يدخل فى فيه شئ من الهوام يؤذيه وأمثال ذلك فاعلم أن ذلك من هذا الباب . وإذا كان النبى صلى الله عليه وسلم ذكر لنا ملائكة النهار وملائكة الليل فقد فتح الباب لدرس العالم المحيط بنا ، ومن العار أن يعيش الإنسان فى هذه الدنيا ولا يدرسها .

إن العلوم الطبيعية كلها دراسة دينية ، فإذا أسمعنا النبى صلى الله عليه وسلم أن الملائكة يكتبون أعمالنا فكأنه يقول لنا : إن لكم عوالم لاترونها ترتقب أحوالكم ، وهو قد ترك لنا العالم المشاهد لنبحث فيه فكأنه يقول لنا ادرسوا بعقولكم ولا تكونوا عالة على غيركم ، فأنبياؤكم لم يرسلوا لإخماد عقولكم ولكن أرسلوا ليوقظوكم ، فإذا قالوا لكم كل شئ فقد تركوكم بلهاء جهلاء ، ونحن علينا أن نلمح لكم ونرمز وعليكم أنتم الجد والاجتهاد . وما أعمال ملائكة الليل والنهار إلا إحصاء الأعمال حسنة وسيئة وهذا له نظير مشاهد فى العالم حولنا ، فإن الأمم فى المدن العظيمة اليوم قد أصبحت ولا قطرة ماء يشربونها ولا كهرباء يوقدون بها ويضيئون بها منازلهم إلا ولها آلة تعدها كما تعدّ الدراهم والدنانير ، وهانحن أولاء نشاهده فى بيوتنا ونرى الجهاز المعد لحساب الكهرباء والماء وغيرهما يفعل مايفعله عقرب الساعة فى حساب الزمان ، فإذا ورد أن للملائكة يحسبون أخلاقنا وأعمالنا ويحصونها فليس شيئا بدعا ، بل نحن نشاهد نظيره وهذا سر قوله تعالى « وكل شيء عنده بمقدار » ومن عجب أن تكون آية المعقبات بعد آية « وكل شيء عنده بمقدار » إيضاحا لها وتفسيرا وتطبيقا .

فهذه الآيات أنزلت لتسوق المسلمين إلى دراسة مايحيط بنا من العجائب والجنود المجندة ، وليس يعرف المسلمون سرّها إلا إذا توغلوا فى جميع العلوم فعرفوا مضار الإنسان ومنافعه والجماعات المترقبة على حفظه المهلكة لضدها ، أما عالم الملائكة الذى ورد فى الحديث فإن الكشف الحديث قد دخل فى هذا المضمار .

ألا ترى أن علماء الأرواح كالورد (أوليفرلودج) يقولون : إن الأرواح تحيط بنا من كل جانب يلهموننا الخير ، وقد قال هذا العلامة كما نقلناه عنه فى كتاب [الأرواح] إنى أصبحت موقنا أننا نحيط بنا عوالم عالية نحن بالنسبة لها أشبه بالنمل بالنسبة للانسان ، وأيقنت أنها من فوقنا ومن تحتنا وهى تهتم بنا أشدّ الاهتمام .

فياعجبا لدين الإسلام وأمة الإسلام ! يقول الله « له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله » ويقول النبى صلى الله عليه وسلم الذى أمر أن يفسر القرآن « إن ملائكة يتعاقبون فيكم » ثم يجيء علماء أوروبا فيقولون : نحن قد كشفنا عوالم تهتم بنا ؛ أفلم يكن الأحق بهذا كله الأمة الإسلامية ؟.

إن دين الإسلام هو الذى يطلب هذه العلوم . إن دين الإسلام مظلوم فى الأمم التى اعتنقته ، إن من يقرأ هذا الكتاب ولا يذيع هذه الآراء مطالب بين يدى الله تعالى . إن الله يحاسب كل من اطلع على مثل هذا فى هذا التفسير أوفى غيره من كتب العلماء ولا يذيعه . إن الله حكم أن لايبقى فى هذه الأرض إلا النافعون فإذا لم يصلح هؤلاء المسلمون للخلافة فى الأرض أزالهم من أرضه واستبدل بهم قوما آخرين ، وهاهو ذا يسلط عليهم الأمم كما سلط الناموس على البلاد التى لم يصلح أهلها ماحولها من البرك والمستنقعات ، وكما سلط الذباب على عينى من لم ينظفهما ، وكما سلط الحيات على قوم لم ينظفوا بيوتهم من القاذورات والأبنية الخربات ، فإن لم يفقه المسلمون هذا الوجود طردهم الله منه وأسكن فيه قوما آخرين كما أهلك سكان أمريكا الأصليين وأحلّ محلهم أهل أوروبا فعمروها وهم لها مصلحون .

فها أناذا أقول ليعلم ذلك كل قارئ لهذا الكتاب ولينشر الفكرة وإلا فالله هو الذى يعاقب المقصر الذى يترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وهو شديد العقاب للظالمين .

الطبعة الثامنة والتاسعة فى البرق والسحاب والرعد ، وفى قوله تعالى
« إنّ الله لايغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم »

لايغيرها من العافية التى هم عليها حتى يغيروا ما بأنفسهم من الحال الجميلة بكثرة المعاصى . ومعلوم أن العكس كذلك فلن تغير الأمة من الفساد إلى الصلاح إلا بالتربية العامة فى الأمة وليس لأمة سعادة إلا بعموم فكرة الإصلاح فيها وأن يشملها نظام تام وآداب شاملة ، فأما إذا ارتقى فيها قوم وتركوا المجموع فذلك المجموع يصبح مضحكة العرى لعدم التئام الأخلاق ولذلك عولت الأمم اليوم على تعميم التعليم الابتدائى شاء الناس أم أبوا ومن لم يتعلم أكرهوه على ذلك لعلمهم أن المجموع مرتبط فإذا اختلّ بعضه فالباقى آيل للاختلال والزوال .

فليقم المصلحون ومن آتاهم الله علما فلينبهوا الأمة وليخطبوا بالإصلاح وليكن تعليم لبنى العامة ، وليقم كل بما قدر عليه لإصلاح المجموع ، فليس يغير الله حال المسلمين من الانحطاط الذى اعتراها إلا بتحويل العقول عن مجراها وتنويرها بالخطب والجرائد والمجلات وتفسير الآيات تفسيرا يطابق الإصلاح فينهض المجموع .

فأما إذا بقى المسلمون على ماهم عليه فإن جمعهم يتداعى ووحدتهم تتصدع ،فالأمر كله من القلب فإن تنوّر نشطت الأعضاء للعمل ، وإن أظلم ماتت الأعضاء وكلت ، وبعكس ذلك إذا كانت الأمة راقية وقيض لها مفسدون ففتحوا لها باب الترف والنعيم واحتقار عادات الأمة وآدابها وأخلاقها انحطت الأمة وساء مصيرها « وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مردّ له وما لهم من دونه من وال » ومن أعظم الآثار فى النفس التفاؤل والتشاؤم ، وعلى ذكر التفاؤل والتشاؤم نذكر هنا المقال الآتى وهاهو ذه .

التفاؤل والتشاؤم

للكاتب الأمريكانى الأشهر (امرسون) : عرّبه بعض أدباء المصريين

إن الدنيا بحذافيرها تنساق إلى المتفائل المستبشر إذا كان التفاؤل مبعث العزيمة الماضية والهمة الثابتة التى كأنها تخلق للمرء عينين جديدتين يرى بهما من ضروب الحيل والتدابير مالم يكن رآه من قبل ، إن المتشائم يسكن الجنة فيصيرها من جراء سخطه وضجره جحيما ، ويسكن المتفائل النار فيصيرها بفضل انشراحه وعزمه وسعة تدبيره فردوسا ، والمتشائم إذا لبس جلد الفيل وفروة الدبّ لم يجده ذلك نفعا ويظلّ فى ثوبه الدفىء يرتعد ويرتعش ، بينما الإسكيمو ساكن القطب الشمالى يظلّ لحسن تفاؤله وانشراحه فرحا طروبا مملوءا نشاطا ومرحا يصنع لنفسه من الثلج والزمهرير ثيابا دفيئة .

إن الإنسان بفطرته وطبيعته متفائل ميال إلى الانشراح والنشاط ، وهذا التفاؤل هو الذى يجعله صالحا لسكنى هذه الأرض التى لاتهب الإنسان أدنى شىء من ثمارها وفوائدها إذا لازم خطة السخط والتبرم وفتور الهمة والعزيمة ، وتسخر له كل شىء إذا استشعر الابتهاج والتفاؤل وما يورثانه من سعة التدبير والحيلة . ومن ثم ترى الرجل المتفائل النشط وكأنه جعبة مملوءة بالكفاءات والقوى وكأنه قضيب مغناطيس فوق كرة من الحديد يجذبها إليه ويتداولها كما شاء .

ومن كان هذا شأنه أصبح وكأنه مخترع ومستكشف قد أبحر فى سياحة ميمونة مباركة يسترشد فيها بخريطة ذهنه ويظل وكأن هذا العالم الأرضى فى نظره كله منافذ وأبواب مفتحة ومسالك وفرص ومغانم وكأنه جوهر حساس فى كل موضع منه وتر موسيقى يجاوب أقلّ لمسة منه بنغمة مطربة ويقابل كل جسة بفيض سيال من الروح والشعور .

وهذا

وهذا العالم الأرضي الحيّ الحساس حاضر الخير سريع السخاء للرجل المتفائل ، فسواء طرقته بمحراث آدم أو بسيف قيصر أو بقارب كولومبو أو بمرصد غاليلو أو بمنطاد زبلين فلا بد أن يجيبك على كل واحدة من هذه التجارب بأبدع جواب وأروعه ، وإنما بفضل التفاؤل وما يورثه من القوة والقدرة العجيبة استطاع الإنسان أن يفجر بالخيرات والبركات صخرة هذه الأرض الصلدة ويسخرّ الطبيعة الهائلة فى قضاء مآربه وأوطاره ويتغلب وينتصر على المادّة ويسيطر ويهيمن على العناصر ، ويؤلف من شتاتها نظاما ومن فوضاها ناموسا ومن فسادها صلاحا ، وعلى الضد من ذلك ترى التشاؤم مصدر الوهن والعجز والفتور والتبلد يفقأ الأعين ويشلّ الأيدى ويطفئ سراج البصائر . وأىّ خير فى التشاؤم ومنظاره الأسود الذى يكسو عروس الطبيعة ثوب الحداد ويحيل مهرجانها مأتما وبشرها نعيا وصفوها كدرا وحلاوتها مرارة ويطلع فى وجنة الشمس الصقيلة بقعة سوداء ويجرى فلك السعود نحسا .

هذا العالم الذى نعيش فيه ونتقلب بين أعطافه إنما هو مصنع هائل مفعم بقوة الخصب والإنتاج التى تؤتى كل شىء بإذن القادر على كل شىء ، وهل ترى لذخائر الطبيعة من نفاد ؟ وهل حاولت مرة أن تزن بالقناطير مياه الجدول الصغير المنسكب فى مزرعتك ، هذا على أن الطبيعة لاتبدى لنا من ذخائرها الهائلة سوى القشور وإنها من تحت ذلك بعيدة الأغوار تقدر أعماق كنوزها بالملايين من الفراسخ .

ولقد يروق طائفة المتشائمين ويلذهم أن يسخروا من مذهب التفاؤل تظاهرا منهم بالفلسفة وادّعاء باطلا للذكاء والفطنة على أن آمال المتفائلين البراقة وما تشيد خيالهم من قصور الهواء المزخرفة أحسن ألف مرة وأعود بالمنفعة على الناس مما لاتزال المتشائمون يحفرونه من جحور الهمّ والنكد وسجون الغم والشقاء ، وماذا يستفيد الناس من المتشائمين الذين لايبرحون ينصبون فوق رءوسهم فى كبد السماء كوكبا أسود يشوهون به لألاء الضياء وجمال السحب البهيجة الأصباغ والألوان ، وأىّ الرجلين أنفع للمجتمع وأصلح ؟ من يحرّك فيك نسيم الأمل ويشعر قلبك روح الثقة وبرد اليقين ؟ أم من يسقيك كأس الجزع والأسى ويجرعك غصص الكرب والشجن ويذيقك كأس الخوف والقنوط .

لقد جعل الله للطبيعة روحا وما روحها إلا الفرح والجذل ، ولعلك إذا استطعت أن تنفذ إلى سرّ الكون ولباب الوجود ألفيت قلبا خفاقا بالسرور يدفع لدى كل نبضة من نبضاته تيارا متدفقا من الحبور والطرب ، ولن ترى فى أنحاء الكون موضعا تخاله قفرا مجدبا إلا كان فى الحقيقة مفعما بالخير والبركة ؛ فأفقر الأمكنة فى نظرك يحتوى من الثروة مالايكاد يحصى ولا يعدّ ، وأجدب محل فى وهمك لاتنفد حاصلاته ولا تفنى ثمراته .

وكل صوت من أصوات الطبيعة يبدأ بلحن وينتهى بنغمة ، وكل صفحة من صفحاتها قد زخرف البارئ المصوّر حواشيها بأبدع الصبغ وأبهج الألوان .

لاتعلق على جدران غرفتك الصور المحزنة ، ولا تشوّه أحاديثك بسواد الشكوى وظلمة التشاؤم ، ولا تكثرن من الأنين والحنين والتلهف والتأفف ، وكن على أن تظلّ صداحة تطرب الملأ بموسيقى الأفراح أحرص منك على أن تظلّ نواحة تبكيه بمراثى الأتراح ، ولا يصدرن عنك من المقال والفعال إلا ماجدد من أمل أو حفز إلى عمل أو استنفر همة أو استنهض عزمة .

لقد جاء فى حكمة القدماء أنه لن يستطيع مسرة الجلساء من كانت نفسه عارية من المسرة ، فإن الحديث الحافل بغرور الأفكار ودرر المعانى إذا صدر عن لسان رجل متشائم متبرم كان جديرا أن يبهرك ويروعك ولكنه لن يسرك ولن يفرحك .

ولا عجب فإن الذى يدخل عليك السرور والطرب ليس هو براعة الحديث فى ذاته ، ولكن حلاوة أنس المحدّث ورقة شمائله ، وهذه الرقة والحلاوة لن تكون الرجل للظلم الهواء للوحش الجاب ، وما ذاك إلا لأن الذهن شئ والروح شئ آخر ، وغير ممكن ولا منتظر أن يستطيع امرؤ ببراعة الذهن وحدها اجتذاب الأرواح واستهواء النفوس دون أن يكون له ذلك الظرف الذى ليس إلا من معينه يفيض الطرب والمسرة ، وكيف يفرح الناس من أقفرت نفسه من الفرح ، ومن ثمّ كان أعاظم كتاب الفكاهة الذين قدّموا إلى أبناء البشر أشهى ألوان السرور والضحك على مائدة الفنون والآداب كلهم من ذوى الطبائع الفرحة المتبهجة ، والأمزجة الرطبة الندية أمثال (شكسبير وموليير وسرفنتير الأسبانى) صاحب كتاب [دون كيشوت] وأديسون ودكنز ورابليه وواضع كتاب [ألف ليلة وليلة] ، وكل هؤلاء على الضد من كتاب الفكاهة المتشائمين أمثال (فولتير وبيرون وسويفت) صاحب كتاب [أسفار جاليفار] وبوب صاحب كتاب [السفهاء] وهاينى ، أولئك الذين قد مزجوا فكاهاتهم بعلقم الهجاء والسخرية وحنظل النقمة والنكال وسموم القذف والإقذاع ، فخرجت مؤلفاتهم أدنى إلى الإيجاع منها إلى الإطراب ، وأجلب للآلام منها للإعجاب وللإيحاش منها للإيناس ، بل جاءت أنكى شباة من إبرة العقرب وناب الأفعوان ، ذلك إلى الجم العديد من مساوى تلك المؤلفات التشاؤمية وسوء أثرها فى المجتمع مما يضؤل إزاءه كل ماحوت من مزايا وحسنات حتى ذهب فريق من رجالات الأدب وجهابذة النقد وأعيان الفلسفة إلى اعتبار مؤلفيها ضمن عوامل الفساد والشر ، فقال لنا الفيلسوف (نيتشه) أغلقوا بيرون وافتحوا جوت .

والسر فى مساوى هذه المؤلفات يرجع كما أسلفنا إلى ما قد ركب فى غرائز مؤلفيها من مرارة الطبع وحرافة المزاج وحموضة السليقة وما يتبع ذلك من قسوة الفؤاد وغلظة الأكباد .

إن من أقوى مبررات التفاؤل وأقطع البراهين على صوابه ووجوب الأخذ به هو أن الطبيعة التى أوجدت آفات الحياة وعللها أوجدت معها أدويتها ووسائل شفائها وما ذلك إلا لأن روح الطبيعة إنما هو العدل وأساسها هو النظام وما غايتها إلا الصلاح والرقى ، فإذا رأيت الطبيعة أحدثت آفة فاعلم أنها لم ترم بذلك إلى التلف والبوار ولا إلى الفساد والفوضى .

والحقيقة أن هذه الآفات والعلل ليست فى الواقع إلا أسبابا متنكرة ترمى فى النهاية إلى الإصلاح ، وما هى إلا عقبات ضرورية لابدّ أن يقتحمها المجتمع ليصل على جسرها المخوف إلى ما قد هيئ له من درجات الفلاح والرقىّ ، فإذا شئت مثالا على ذلك فانظر إلى أوراق الشجر وأجزاء النبات ، ألا تراها تسقط فتذبل فتعفن ثم تنحل وتبلى ويخيل إليك أنها قد فسدت وتلفت وهلكت ، وهى فى الحقيقة لم تمت ولم تفسد ، إذ لاموت ولا فساد فى الطبيعة ، وكل ما نراه بلى وموتا إنما هو تطور وانتقال من حال إلى أخرى أرقى وأكمل ، فهذه الموادّ النباتية التى تخالها قد بليت وماتت لن تلبث أن تستعيد حياتها وقوتها وتجدد بهجتها ونضرتها ، بل قد تستحيل على التطوّر والتحوّل إلى صنف أسمى وأسنى .

تلك سنة التطوّر والارتقاء التى تجرى عليها الطبيعة فى جميع أركانها من الذرة والهباءة إلى النظام الشمسى والدورة الفلكية ، وذلك ناموس النمو والإصلاح الذى هو أس الوجود وروح الطبيعة « سنة الله التى قد خلت فى عباده ولن تجد لسنة الله تبديلا » .

ومن أعظم الآثار فى النفس أيضا المخاوف والأوهام .

مخاوفنا وأوهامنا . وأسبابها وعلاجها

لانريد بالمخاوف والأوهام تلك التى تستثيرها المشروبات الروحية أو الحميات التى يتخيل فيها المدمن أو المريض وجود عمالقة من الشياطين فى طريقه أو فى غرفته يطاردونه ويضايقونه حتى لقد يقذف بنفسه من نافذة هربا منهم أو يتوهم أنه يرى حيوانات تطير فى الهواء أو حشرات تنسل بين ملابسه ، لأن كل هذه ترجع إلى حالات مرضية وقتية يفقد فيها الشخص ذاكرته وقدرته على التفكير المنطقى ، وإنما نعنى تلك المخاوف والأوهام التى تساور الإنسان فى أحوال عادية فتؤثر فى سلوكه فى المجتمع من حيث علاقاته مع الناس وطريقة تأديته لعمله ، كما تؤثر فى صحته من حيث سوء تأدية عمليات التمثيل والتغذية واستفحال الأمراض التى يكون مصابا بها .

وقد قدر أحد علماء النفس أن تسعة من بين كل عشرة أشخاص يصابون بهذه المخاوف والأوهام التى تشتد وقت الليل حيث يضعف نشاط الإنسان عن مقاومتها بعد مجهوده اليومى .

ومن أهمّ المخاوف الشائعة بين الناس عامة والسيدات بوجه خاص الخوف من الأمراض ولا سيما (السل) إذ تجد السيدة تخاف من القذارة والميكروبات خوفا يقرب من الجنون ، فتبالغ فى النظافة وتدقق فى اختيار المأكولات والمشروبات الموافقة حتى لقد حكى عن سيدة ـ وأمثالها كثيرات ـ أنها كانت تختم النظر إلى ماتأكله أو تشربه بمنظار مكبر قبل أن تمد يدها إليه حتى تطمئن إلى نظافته وخلوه من جراثيم الأمراض وتأبى إلا أن تغسل الأغطية والملابس وتطهرها عدة مرات يوميا كلما لامستها يد زائر غريب خوفا على نفسها وأولادها من القذارة التى تسبب الأمراض .

وقد أظهر البحث العلمى فى كثير من الأحوال المشابهة أن السبب فى حدوثها هو ذلك الاهتمام الشديد الذى يظهره كثير من الوالدين بحياة أطفالهم من حيث الملبس والمأكل والمشرب والشغف الكبير الذى يبدونه بسلامة جسمهم وحفظهم من شر الأمراض القتالة مما يجعل تلك الخواطر الضارة تنحدر إلى غيابات اللاشعور من نفس الطفل ثم تزداد قوة بما يسمعه فى حياته من الروايات التى تحكيها السيدات فى اجتماعاتهنّ عما قاسينه أو قاساه غيرهنّ أثناء مرضهن من آلام كثيرا مايبالغ فى شدتها ، فيشب الطفل وقد استولى عليه هذا الخوف من الأمراض وملك ناصية نفسه الباطنة ولا يلبث أن يتجلى فى وقت من أوقات حياته فى سلوكه وأعماله بالطريقة السابقة .

ولقد يتوهم بعض الناس أنه مريض حقا ، وعلى الخصوص إذا فارق منزله أو بلدته ليعيش فى أخرى فإذا به مغموم النفس هزيل الجسم فاقد الشهية يتألم من صداع مستديم ويتعب من أقل مجهود ويثور لأىّ مضايقة ، وما ذلك أيضا إلا نتيجة لما تعود أن يلاقيه من والديه أثناء طفولته من حنان زائد وحماية مستمرة واهتمام بصحته وعناية بالمحافظة عليه وتدقيق فى اختيار مايوافقه حتى ينشأ جبانا مدللا يخشى الابتعاد عن منزل أسرته ويتوجس خيفة من جراثيم الأمراض التى تهدد حياته التى عرف أنها غالية عزيزة ويعتقد أن هذا الشىء يتعب معدته إذا أكله وذلك يؤذى أمعاءه إذا ابتلعه أو يجلب له المرض إذا اقترب منه ، فإذا حدث عفوا أو اضطرارا أن تناول أو لامس مايعتقد خطأ ضرره منذ الطفولة استهوى نفسه إلى المرض فمرض وجنى على نفسه بذلك شرّ جناية .

وإلى جانب ذلك يوجد الخوف من اللوم والنقد الذى يستولى على كثير من الناس فيجعل الشخص يشعر بأنه أقلّ من غيره ثروة أو كفاية أو جمالا وإن كان الواقع عكس ذلك ، فهو يخشى الظهور أو التكلم أمام

شخصية بارزة أو جمع حافل ، وإذا اضطر لذلك امتقع لونه وجف لعابه واضطربت حركاته وعجز عن إخراج المقاطع إخراجا صحيحا خوفا منه من نقد الغير وشعورا بعدم كفايته .

وقد لاحظ علماء النفس كذلك أن عددا كبيرا من الناس إذا حادثهم الإنسان أو تحدثوا إليه أتوا بحركة صغيرة لا فائدة منها ولا معنى لها تكون على الوجه دائما كأن يمرّ بيده على شعره إلى الخلف أو يحك ذقنه أو يمسح جوانب فمه بمنديله من حين إلى آخر أو يقبض على وجنتيه باستمرار ، وعللوا ذلك بأن الخوف من اللوم والنقد يتسلط على هؤلاء الناس فى الباطن فيدفعهم إلى محاولة إخفاء وجوههم فى الظاهر ، وبما أن التقاليد الاجتماعية لا تسمح بذلك فإن الطاقة العصبية تنصرف إلى الإتيان بهذه الحركات الصغيرة ، كما أنه ظهر بعد البحث أن الخوف ينشأ من تلك الملاحظات التى يسمعها الأطفال من والديهم ومن يجالسونهم عن نقد مظهر أو سلوك أقربائهم أو جيرانهم مما يغرس فى نفوسهم أنهم لابد سينتقدون بدورهم فى كل أعمالهم وأقوالهم إذا بلغوا تلك السن ، ويزيد خوفهم من النقد رسوخا إذا سمعوا من إخوتهم أو والديهم لوما وتقريعا مستمرا لهم أنفسهم على ثقل فى الحركة أو خلط فى الكلام ، فهم لذلك إذا شبوا ووصلوا إلى سن النقد تجلى خوفهم الباطن فى حركاتهم وأعمالهم التى كثيرا ما تكون مضحكة .

وقد يرتبط الخوف بأنواعه أحيانا بحادثة خاصة كما فى أمثال حالة تلك البنت التى لم تكن قد بلغت من العمر إلا ست سنوات فقط والتى كانت جالسة أمام منزلها فى الأرياف وحيدة فى هدوء وسكينة ، وإذا بعربة تمرّ مسرعة محدثة ضوضاء عظيمة انزعجت لها البنت وهبت تجرى داخل المنزل ، فما كان من والديها وإخوتها إلا أن انتقدوها نقدا مرًّا وعنفوها على سلوكها أمام الناس ذلك السلوك المعيب الذى لا مبرر له واستمروا يعيرونها بتسرعها وطيشها حتى إنها نشأت خجولة تخشى الظهور أمام الناس وتخاف أن تبارح المنزل وتظن إذا سارت أو تكلمت أنها هدف اللوم والنقد وإن لم يكن هناك ما يستحق ذلك .

ولا يقلّ الخوف من الأرواح الشريرة والأشباح الغريبة أهمية عن المخاوف السابقة إذ يعكر صفو حياة الإنسان ويؤذى صحته أذى كبيرا فهو كلما وجد فى الظلام تخيل أشباحا مزعجة ماثلة أمامه تهدده وتناكده فيضطرب قلبه ويقف شعر رأسه ويعجز عن الحركة ، وتكثر هذه المخاوف حيث ينتشر الاعتقاد فى الخرافة والسحر والعرافة التى تقوم بها قوى خفية إذ يشب الطفل وقد وعى عقله الباطن الشىء الكثير من أخبار الجن والمردة والشياطين يتجلى وقت اضطرابه أو وقت نومه فى الأحلام برؤيا الأشباح الغريبة . ومن الغريب أن هذا النوع من الخوف لا يمكن انتزاعه غالبا من نفس الشخص وإن زال عنه الاعتقاد فى الخرافة والسحر كما أثبت ذلك التحليل النفسانى الدقيق لآلاف من الأشخاص .

ويبدى بعض الناس خوفا من البحار ، فهم لا يتجاسرون على السفر بحرا أو نهرا مهما قيل لهم عن وسائل الراحة والطمأنينة والأمان الموجودة فى السفن .

وقد أظهر التحليل النفسانى أيضا أن تلك الحالة تنشأ إما عن الأهمية الكبيرة التى تعلقها الأم حول استحمام الطفل والضايقة والخوف اللذان يرتبطان به وقت الطفولة ، وإما إلى تعرّض الشخص نفسه للغرق أو رؤيته شخصا يغرق به فى وقت من أوقات حياته وانفعاله واضطرابه للحادث مما يحدث أثرا عميقا فى نفسه الباطنة يزيده قوة ما يسمعه عن مخاطر البحار فيتجلى كل ذلك بعدئذ فى خوفه من الاقتراب من الأنهار أو البحار أو السفر بطريقها طول حياته .

وهكذا نجد المخاوف بأنواعها إما ترجع إلى أحاديث وملاحظات بريئة غير مقصودة يسمعها الشخص ممن حوله وقت الطفولة أو إلى تجارب قاسية ماضية تتجلى كلها فى حياة الإنسان المستقبلة ، ولذا وجب أن

لايسمع الأطفال من الأحاديث مايثير خوفا من حيوان أو شيطان أو مظهر طبيعى أو شخص غريب أو مرض قتال ، وأن لا توجه إليهم ألفاظ النقد المرّ المتكرر وأن لايؤخذوا فى التربية بالعنف الشديد وأن لايواجهوا من المخاطر مايثير عواطفهم ، لأن كل ذلك خطر على حياة الطفل الذى هو أبو الرجل .

وقد أحصى العلامة (ستانلى) هول أربعة آلاف من أصحاب المخاوف فوجد أن ١٤٤٦ شخصا يخافون من الحيوانات والحشرات و ٧٩٩ من الظلام والأشباح الشريرة و ٦٢٦ من المظاهر الطبيعية كالرعد والبرق والزلازل والبراكين و٥٨٩ يخافون من اللصوص والغرباء و ٥٤٠ يخافون من الموت والمرض وقد تختلف هذه النسبة باختلاف الوسط .

وقد أوجدت الحرب الكبرى ميدانا واسعا لعلماء النفس والأطباء لدراسة مخاوف الجنود وطرق علاجها ، وكانت أهمّ وسائل العلاج إثارة خوف مضادّ للخوف الموجود يزول مازال الخوف الأول ؛ فالخوف من الموت ومن التقدم إلى ميدان القتال عولج بنجاح فى كثير من الأحيان بإثارة الخوف من العار والفضيحة ، وكذلك نجحت إثارة عواطف قوية مضادة مثل عاطفة الوطنية والدفاع عن الوطن المهان التى حولت انتباه الجنود عن الخوف من الحرب وشوقتهم إلى الجهاد والمقاتلة ثم النصر ، أما فى الأحوال التى يربط فيها الخوف بحادثة خاصة أو تجربة ماضية مجهولة فإن العلاج الوحيد له هو أن يدرك الشخص سبب خوفه بكثرة التأمل الباطنى وبالالتفات إلى تفسير أحلامه تفسيرا علميا صحيحا حتى يصل إلى تذكر الحادثة التى كانت أصل خوفه وقت الطفولة ثم يستهوى نفسه إلى احتقار مخاوفه وتركها استهواء ذاتيا مستمرا ، انتهى الكلام على آية « إن الله لايغير الخ » ولنبدأ بالكلام على الرعد والبرق ونحوهما فنقول :

الكلام على الرعد والبرق ونحوهما

اعلم أن أعظم الأشياء أثرا فى النفوس حوادث الجوّ من مطر ورعد وبرق ، فكم فيها من نعمة وكم فيها من إهلاك وذلك بالكهرباء المحدثة للصواعق كما سترى شرحه وأن كل ورقة من أوراق العشب المحققة تفرغ كهربائية أكثر مما تفرغه الإبرة ، وكذلك البراعيم فإنها أحسن من مانعة الصواعق التى صنعها الإنسان .

وإذن يكون كثير من الأوراق والبراعيم والأشجار بمثابة مانعة الصواعق ؛ فالنبات والورق والشجر كما يغذينا وينفعنا كثيرا يمنع فوق ذلك عنا الصواعق ، فاذا كان الإنسان صنع مانعة الصواعق فإن الله سبقه بها وملأ بها عالمنا فى أشجاره وأوراقه وزرعه ، وهذه بعض المعقبات الحافظات للانسان ، ولذلك أردف ماتقدم بهذه الآيات التى وردت فى البرق والسحاب والرعد والصواعق .

السحاب تقدم الكلام عليه فى سورة البقرة . فأما الرعد والبرق فلا يمكن معرفتهما إلا بعد فهم نوعى الكهربائية .

اعلم أن الكهربائية [نوعان] زجاجية (إيجابية) وراتنجية (سلبية) ومعنى هذا أنك إذا دلكت أنبوبة من الزجاج بالحرير فظهرت فيها الكهرباء من الدلك ثم قرّبت تلك الأنبوبة من لبّ (السيسبان) فانها تجذبه حتى تكهربه ثم تدفعه ولا تجذبه . ثم إذا أتيت بشمع الختم وهو صمغ راتنجى ودلكته بصوف فتكهرب وقرّبته من لبّ (السيسبان) المكهرب من الزجاج فانه يجذبه حالا حتى يكهربه ثم يدفعه ولا يجذبه بعد ذلك ، فلو أعدت أنبوبة الزجاج على اللبّ جذبته إليها حتى تكهربه ثانيا فتدفعه فاذا أعدت قضيب الختم عليه جذبه حالا وهكذا ما يجذبه هذا يدفعه ذاك وبالعكس فهما حينئذ قسمان : كهربائية سالبة وهى الراتنجية وأخرى موجبة وهى الزجاجية وقد عرفت الحقيقة والتسمية اصطلاحية لمجرّد التمييز . والأجسام المتشابهة

كهربائيتها تتدافع والتي تخالف كهربائيتها تتجاذب فلو كهربت كرتين من لب" (البيسان) بكهربائية الزجاج وأخريين بكهربائية شمع الختم لتدافعت الأوليان معا والأخريان معا لأنهما متشابهتان في الكهرباء. ولكنك إذا قربت كل واحدة من الأوليين مع واحدة من الأخريين تجاذبتا. هذا إيضاح القاعدتين . ثم إن الأجسام إما موصلة الكهرباء، وإما غير موصلة الكهرباء .

الموصلة الكهرباء	غير الموصلة الكهرباء ويسمونها عازلة أو فاصلة أو موصلة غير جيدة
المعادن	الهواء
الحوامض	البخارات الجافة
الفحم	الشمع ، والورق الجاف
النباتات	الكبريت ، والحرير والزجاج
الحيوانات	الماس
الماء	الحجارة الكريمة والملك
الثلج	

كهربائية الجلد والهواء والغيوم

إذا ثبت أن حك الأنبوبة من الزجاج يهيج الكهربائية فيها وشمع الختم كذلك بالدلك . فلا يكون كذلك الهواء مكهربا دائما إلا نادرا جدا . أفليست الرياح تتحاك ويعارض بعضها بعضا ، وهي أيضا تصادم وجه الأرض وما عليها والغيوم والسحب تحتك ببعضها وبالهواء، وهكذا ترى الحرارة كما تقدم تحول الماء إلى بخار والبخار إلى ماء وهناك أعمال كيمائية ذات تحليل وتركيب فتحول كهربائية الأرض السالبة إلى كهربائية الهواء وتكون كهربائية الجلد إيجابية وقد تتغير فتصير سالبة في أوقات الاضطراب فمن هذا نفهم حدوث البرق والرعد . فالبرق يحدث من تقارب سحابتين مختلفتي الكهربائية حتى يصير ميل الكهربائية الواحدة للاقتراب من كهربائية الأخرى أشد من قوة الهواء على فصلهما فتهجم كل منهما على الأخرى بنور زاهر وصوت قوي شديد، فالنور هو البرق والصوت هو الرعد؛ فالرعد يحدث من تصادم دقائق الهواء الذي تطرده كهربائية البرق أمامها. وأما دويه فيحدث من انعكاسه من الغيوم البعيدة والجبال والتلال والأودية ونحوها .

وإذا عرفت ذلك فاسمع الحديث وإن لم يكن في الصحيحين ولكنه في الترمذي «لما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرعد قال ملك من الملائكة موكل بالسحاب معه مخاريق من نار يسوقه بها حيث يشاء الله قال السائلون فما هذا الصوت الذي يسمع منه؟ قال زجره السحاب حتى تنتهي حيث أمرت قالوا صدقت» . وفي حديث آخر « هو صوت من نور تزجر به الملائكة السحاب» فهذان الحديثان إذا صحا كانا من علامات النبوة لأن المخاريق في الأصل أثواب تلف ويضرب بها الصبيان بعضهم بعضا . والمراد هنا آلة يزجر بها السحاب فهذه المخاريق التي من نار لا شيء سوى الكهرباء . وقد بينا أن كل واحدة من السحابتين تهجم على الأخرى ولا معنى الهجوم إلا الاسراع وهذا الإسراع بالكهربائية فالكهربائية هي التي زجر بها السحاب زجرا ، فقوله صلى الله عليه وسلم من نار أي من كهرباء ولذلك ذكر ليرجع العالم الجسمي إلى مبادئه الأولى فإن هذه العوالم كلها تتصرف فيها عوالم تحفظ كيانها .

اللطيفة العاشرة فى الصاعقة

قد تمتلئ السحب بكهربائية والأرض بكهربائية أخرى والهواء فاصل بينهما ، فمتى قاربت السحب وجه الأرض تنقض الشرارة الكهربائية منها فتنزل صاعقة تهلك الحرث والنسل . وقد اخترع (فرنكلن) لمنع الصواعق قضيبا من معدن كالحديد والنحاس دقيق الرأس متصلا مصنوعا رأسه من معدن لا يصدأ ولا يتحات كالذهب والفضة والبلاتين ويمتد طرفه إلى حوض ماء أو تربة رطبة لا تجف ويكون طرفه الأعلى عاليا عن الدار ويجب أن يكون على كل بناء فى تلك المنازل المعرضة للصواعق قضيب للصاعقة وأن توصل للداخل التى فيها إما بأرض رطبة وإما بقضيب الصاعقة وأن تصل ميازيب الماء المعدنية وسطوح التوتيا ونحوها بأرض رطبة كذلك أو بقضيب الصاعقة لشدة تعرضها للصواعق وهذا القضيب يراد به موازنة الكهربائية فى السحاب والأرض مع السلامة من الخطر ، والأسلم لمن لم يكن فى بيته قضيب كذلك أن يكون فى وسط الغرفة . وإذا كان فى الفلاة وجب أن لا يلتصق بالأشجار العالية ولا يبتعد عنها كثيرا لأنها تقيه كما يقيه قضيب الصاعقة فى حال بعده المتوسط ؛ ثم إن كل ورقة من أوراق العشب الدقيقة الرأس تفرغ من كهربائية الماء أكثر من ثلاثة أضعاف ما تفرغه أدق الإبر وكل برعوم دقيق الرأس يفرغ من الكهربائية أكثر من أحسن القضبان التى جعلها الناس للصواعق وكل نقطة من المطر وكل قطعة من الثلج تنزل إلى الأرض محملة كهربائية تسلبها من الجلد والسحاب . وقد يرى لهب نارى على رؤوس السوارى وأسنة الرماح وآذان الخيل وما ذلك إلا كهربائية أفلتت من الأرض إفلاتا اهـ .

جوهرة فى قوله تعالى

« ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون فى الله وهو شديد المحال »

ذكر الله فى هذه السورة البرق والرعد والصواعق ، الرعد صوت والبرق نور والصواعق نار فلنشرح هذا المقام شرحا يسر المفكرين .

اعلم أيها الذكى أن العالم الذى نعيش فيه مملوء جمالا وبهاء وحكمة وصنعة مدهشة باهرة تترقرق سناء وبهجة للناظرين ما هى الحرارة وما هو الضوء . ماهما إلا أمر واحد . ضع قطعة من البلاتين فى النار فإنك تحس أولا بحرارتها ولا لون لها ثم تشاهد لون الحمرة فالبرتقالية فالصفرة فالخضرة وهكذا إلى لون البنفسجية ، هذا ما يحصل فى البلاتين إذا وضع فى النار وهكذا الحديد وغيره عجب عجاب . حرارة تكون أولا فضوء يتدرج من الأدنى إلى الأعلى فالأحمر أدنى والبنفسجى أعلى . هذا هو قوس قزح بعينه . وهذا هو قوله تعالى « ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت » التى سيأتى تفسيرها فى سورة الملك ، والبرهان العملى الطبيعى هناك على أن عناصر الأرض وعناصر الشمس وغيرها واحدة بسبب الخطوط السوداء التى كشفها (فرنهوفر) تلك الخطوط التى تظهر فى طيف الشمس وتظهر فى طيف المعادن الملتهبة فكل معدن تشابه خطه بما يرى فى الطيف الشمسى فذلك المعدن فى الشمس وهكذا بقية الأجرام العلوية .

هذا هو الذى ستراه إن شاء الله فى سورة تبارك الملك مع العملية المبرهنة عليه وترى أثر ذلك أيضا فى سورة الإسراء عند ذكر المعراج وأنه صلى الله عليه وسلم بإسرائه وعروجه إلى الملأ الأعلى ونظره فى عوالم عند سدرة المنتهى لا يقدر أحد من خلق الله أن يصفها .

قد سن للمسلمين الذين سيكونون بعدنا سنة حسنة وهى أن يدرسوا هذا الوجود مفكرين كما كان يدرس العوالم فى إسرائه ومعراجه مفكرا باحثا منقبا ، وكيف يقطع نبى أمة عوالم السماء معراجا وتابعوه ساهون لاهون لا يدرسون ما عرفته الأمم حولهم من تلك العوالم العالية فضلا عن أنهم يفوقون سائر الأمم فى ذلك .

نبيّ يقطع السموات سفرا في عروجه والأمم التابعة له لاصقون بالأرض لاينظرون مافوقهم ولا ما حولهم . هذا عجب عجاب ! فهمنا هذه المسألة وهي الحرارة . انظر وتعجب من حديدة محماة كيف كانت حرارة أوّلا فنورا ثانيا متدرجا من الحمرة إلى البنفسجية .

جلّ الله . هذا قوس قزح أملّ ألوانه الحمرة وأعلاها البنفسجية أي إن اهتزاز الأثير المالئ لهذا الوجود إن تحرك نيفا و (٧٠٠) ألف ألف ألف ألف مرّة في الثانية يكون هو اللون البنفسجي واهتزاز ذلك الأثير في الثانية نيفا و (٤٠٠) ألف ألف ألف ألف مرة يكون لون الحمرة وما بينهما النيلي والأزرق والأخضر والأصفر والبرتقالي . هاهو ذا اللون قد تشابه في الحديدة المحماة وغيرها وفي قوس قزح . خلق الله قوس قزح في السماء وبسط فيه الألوان السبعة وقال للناس هذا كتابي فاقرءوه ، كتاب كتبته بيدي وشرحته وبسطته ، ها أنا ذا أيها المسلمون أبنت لكم الألوان السبعة في هذا القوس وجعلت ماتزاولونه من أعمال الحرارة جاريا على هذا النمط لتفهموا « ماترى في خلق الرحمن من تفاوت » فالعالم كله على وتيرة واحدة ، أعلاه كأدناه وصغيره ككبيره ، ألا ترون أن الذرة الواحدة مركبة من جزئيات تدور حول بعضها دوران السيارات حول الشمس .

الصوت والحرارة والنور

هذه الثلاثة ترجع إلى الحركات ؛ لحركات الهواء إذا اشتدت صارت عواصف ؛ وحركات الأثير إذا اشتدت كانت لون البنفسجي ، وإذا قلت كانت لون الحمرة ؛ وإذا اشتدت الحرارة كانت محرقة أو انخفضت كانت هادئة .

إذن ماعندنا من صوت ومن نار ومن لون كل ذلك حركات . إذن عالمنا الذي نعيش فيه للحركة فيه أكبر أثر فعال .

مم تتكون الحرارة ؟

تصوّر أيها الذكي رجلا يطرق حديدة وآخر يوقد النار في الحطب وهما معا واقفان في حمارّة القيظ وهما يتلظيان بحرارة الشمس فههنا حرارة الشمس وحرارة (ميخانيكية) عند الفرنجة أو (حيلية) عند قدمائنا نسبة إلى فن الحيل وذلك بالاحتكاك أو الطرق أو الضغط وحرارة (كيماوية) .

(١) أما حرارة الشمس فهي للسماء (طبيعية) إن الشمس وسائر النجوم ترسل لنا حرارة على الأرض ، ومعنى ذلك أن أجزاءها بشدة حركاتها تؤثر في عالم الأثير فيتحرك فتصل حركاته إلى الأرض فنحس نحن بحرارة وما علا من تلك الحركات نحس بها لونا ، واجتماع الألوان السبعة هو لون نور الشمس وألوان النجوم ، والشمس ترسل لنا جزءا يسيرا جدا يصل إلى واحد من ألفي ألف ألف من حرارتها وجميع الكواكب يصل لنا من حرارتها أربعة أخماس مايصل من حرارة الشمس .

(٢) وأما الحرارة الميخانيكية فهي الحاصلة كما تقدم بأحد الأمور الثلاثة وهي في مثالنا حاصلة بالطرق الحاصل على الحديدة ، وذلك الطرق نشأ منه حركات والحركات صارت حرارة والحرارة بالاحتكاك معروفة في القدح بالزناد عند عرب البادية ومثل ذلك الضغط .

(٣) وأما الحرارة الكيمائية فهي الحاصلة من اتحاد جسم بآخر بينهما ألفة . مثال ذلك ماتقدم من اشتعال النار في الحطب ، وما هو الاشتعال ؟ إن هو إلا (أوكسوجين) الهواء قد لامس (الهيدروجين) و(الكربون) اللذين في الوقود لما بينه وبينهما من الألفة فتراه يهجم عليهما ويهجمان عليه ويصطدم الفريقان وتهتز دقائقهما ويهتز الأثير الذي حولهما فتموج أمواجا كثيرة تتكون حرارة وتتكون نورا .

وما

وما حرارة أجسام الحيوان إلا من هذا القبيل يستنشق النسمات وفيها الأكسوجين ، وهذا الأكسوجين يجد أمامه حبيبه وهما (الهيدروجين والكربون) فيهجم ويهجمان ونعيش نحن بهذه المعركة : أى نعيش بالحرارة الناجمة من التقاء الأحباب سواء أكان التقاء أولئك فى أجسامنا أم خارجها ، فلنرجع إلى مافى الآية نجد ذكر الصاعقة والبرق والرعد ، فالأولان حركات فى الأثير ، والثالث حركات فى الهواء . الصاعقة نار مهلكة ارتفعت حرارتها بوفرة الاهتزاز ، والبرق نور ، والحرارة والنور يرجعان لسبب واحد هى الحركات فى الأثير .

ثم إن هذه الظواهر ينقلب بعضها إلى بعض ، فكل من الحركة والحرارة والضوء والكهرباء ينقلب بعضها إلى بعض ، ولو أن أرضنا صدمها كوكب فوقفت بغتة عن حركتها لتولد منها حرارة تحوّلها هى وماحولها بخارا ، ذلك لأن سرعة دورانها فى فلكها حول الشمس لايقلّ فى لدقيقة عن ألف ميل ، بل هى فى الساعة تجرى فوق (٦٨) ألف ميل فمتى وقفت فجأة تحوّلت كل هذه الحركة إلى حرارة تجعلها بخارا .

الحبّ نظام هذا العالم

يظهر لى أن الحبّ هو الناموس العام فى هذا الوجود .

(١) هجم الأكسوجين على الأودروجين والكربون فى الحطب فاتقدا نارا فكان منها كل ما تصنع فى منازلنا وسائر أعمالنا .

(٢) هجم الأكسوجين أيضا على الأودروجين وحده بنسبة (٧) من الأول وزنا إلى واحد فى الثانى فتكوّن الماء . الماء هو (أكسوجين وأودروجين) تعاشقا وتحابا فاتحدا فكان منهما الماء .

(٣) هجم الأكسوجين من الهواء على أخويه فى كل حيوان وكل نبات بالشهيق فكان كل حيوان وكل نبات .

(٤) هكذا نرى كل حيوان وكل نبات تحابّ ذكرانه وإناثه كما نشاهد فى تحابّ الأكسوجين لأخويه فكما نجم من اتحاد الأكسوجين بأخويه : النار والماء وكل حيوان ونبات ، هكذا نجم من اتحاد الذكران بالإناث كل نبات وحيوان من حيث التولد .

ولعمرى أىّ فارقة بين اشتعال النار بذلك الاتحاد وبين ظهور الذرية وصغار النبات بتقارب وتجانس الذكران والإناث .

الله أكبر ! إن هذا الوجود كله حبّ وكله جمال لاحياة فى أرضنا إلا بالحبّ أو بما أشبه الحبّ . لولا تعاشق الأكسوجين والأدروجين ماكان هذا الماء الذى هو حياة كل حىّ . وفى الحديث « إن كل أمّ يتبعها ولدها » أمّا هذه العوالم التى نعيش فيها والعوالم التى نعيش فيها لا وجود لها إلا بما يوجب الاتحاد ، حياة الماء ، وحياة النار بسبب التفاعل الموجب الاتحاد .

هاهو ذا الماء عاش فى أرضنا وجرى فى سحابنا وفى أنهارنا وهو يدور كدورة الأفلاك ، كل ذلك بما فيه من سرّ الاتحاد بين جزأيه المتحابين (حبا مجازيا) .

هكذا ، هكذا تكون حياة الأمم فى الأرض ، لاترقى الأمم إلا برجال يظهرون فيها يعشقون العلوم والفضائل . لولا الحبّ الذى يملأ أفئدة الحكما. ماتعلموا ولا صنفوا لأممهم حرفا واحدا ، لولا الحبّ الجم الذى فى أفئدة الأنبياء لله وللعلم ولأممهم ماعلموا ولا أفادوا ولا كانت لهم أمم ، ليست ترقى الشعوب إلا بحرارة المحبة السارية فى أفئدة شبابها للعلم وللرقى الملتهبة فى قلوب قادتها . تجانس الأكسوجين والأودروجين فاتحدا

فكان ماء وهذا الماء حياة كل حيّ ، هذه نفسها صفة العقول الإنسانية المحبة للعلم ، أول الفلسفة حب العلم وأوسطها تحصيله ، ونهايتها حبّ الله .

إن الحب الإنسانى شائع بين جميع الناس ، وحب العلم مختص بالعلماء ، وحب الله أعلى فهو أخصّ الجميع وكل حب مقدمة لما بعده وأقلّ درجة منه .

أنظر كيف كان الحب سائرا فى سبيل واحد لا يحيد عنه ، جرى مع جزأى الماء ، ومع عناصر النار ومع أنواع الحيوان وارتقى فكان مع الفلاسفة ومع الأنبياء .

يظهر أن هذه الأنفس الإنسانية خلقت لأمور رفيعة جدا وشريفة ، إنى أرى أن صانع هذا العالم جمله على نمط واحد وهو الحب العام وأولى بالحب هذه النفوس الإنسانية هى أولى به وأولى ، وربما تكون هذه الأنفس يوما ما فى عوالم أرقى وأرقى فيكون بينها اتحاد كاتحاد الأكسوجين والأودروجين ، هذان اتحدا فكوّنا ماء فكان به حياة كل حيّ .

فلعل أرواح هذا الإنسان : أى الأبرار منها يوما ما ستكون على هذا الاتحاد السارى فى الماء وفى النار وسيكون لها هناك لذات وأعمال لا نعقلها الآن ويكون رأى الواحد رأى الجميع ولذلك الإشارة بقوله تعالى « ونزعنا ما فى صدورهم من غلّ إخوانا على سرر متقابلين . لا يمسهم فيها نصب وماهم منها بمخرجين » . وفى الحديث «أنت مع من أحببت» وفى الآية «أولئك مع الذين أنعم الله عليهم الخ » فهؤلاء الذين أنعم الله عليهم هم المتحابون فى الله .

إذن الحب نبراس هذا العالم . به ركبت المركبات وبه كانت النار وكان الماء ، وبه كان الحيوان والنبات ، وبه كان العلم والعلماء وبه كان الوحى على الأنبياء ، والحب حرارة أيضا والعلم حركات الذهن ، الحب نظام العالم ، بالحب كانت هذه الجاذبية العامة ، وبالحب كان التلاصق فى أجزاء الحديد والذهب وكل جامد ، بالحب قامت السموات والأرض .

نظام هذا العالم هى المحبة ، لذلك تسمع المسلم فى صلاته يقول «اهدنا الصراط المستقيم» ولا يقول اهدنى ويقول « اهدنى فيمن هديت ، وعافنى فيمن عافيت ، وتولنى فيمن توليت » . وتسمعه يقرأ « إياك نعبد » ولا يقول إياك أعبد ، وتسمعه يقول : « السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين » ويصلى على الأنبياء والمرسلين ولا يقول السلام علىّ .

الله أكبر ! لا حياة للناس إلا باجتماعهم ولا خير فى اجتماعهم إذا لم يكن حب يشملهم ، لهذا شرعت الجمعة وشرعت الجماعة وشرع العيد وشرعت الصدقات ليتحابّ الأغنياء والفقراء . ويقول الله تعالى « وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » .

الدين يطلب هذا والعقل كذلك إذ لا يعيش الناس إلا بمساعدة بعضهم بعضا وهذا معنى قول الحكماء [الإنسان مدنى بالطبع] رجع أمر الإنسان إلى حال الماء الناشئ من الاتحاد وهكذا النار وهكذا سائر المركبات . وهذا معنى قوله تعالى « إن ربى على صراط مستقيم » انتهى .

بهجة الحكمة فى هذه الآيات وقوله تعالى

« ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته » ولم سميت السورة بالرعد ؟

اعلم أن السحاب كانسان تبسم ثم تكلم ، تبسم بالبرق وتكلم بالرعد ، وإنما المشكل فى هذا المقام التسبيح والتحميد وهنا لا تسبيح ولا تحميد إذ لا يكونان إلا من العقلاء .

والجواب عن ذلك أن تنظر أيها الذكى ما مضى فى سورة هود فى الاستطراد بذكر قوله تعالى « وإن من

شئ »

شئ إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » عند تفسير قوله تعالى « ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها » الخ فقد استبان هناك أن لكل حيوان لونا خاصا وهذا اللون هو الوقاية الحافظة له ، فإذا رأيت حشرة على لون زرق الطيور فذلك لم يكن لإذلالها ولا لإهانتها وإنما ذلك لحمايتها من نفس تلك الطيور إذ تراها فتعافها لأنها ظهرت لها بهيئة زرقها وهى جاثمة على الشجرة فما دامت تلك الحشرة جاثمة على الشجرة فكأنما هى من طير الحرم حرم الله صيدها تحريما طبيعيا لا دينيا فههنا تنزه الله عن العبث فى وضع هذا اللون وعن قصد التحقير ، وبنفس هذا الوضع عاش هذا المخلوق وحياته نعمة تستوجب الحمد ، فههنا تنزيه ملتبس بحمد ، هذا هو التسبيح والتحميد وهذا مثال من أمثلة كثيرة تقدم ذكرها هناك فارجع إليها .

واعلم أن تسبيح كل شئ بحسبه ، فإذا كان هذا تسبيح الطيور وقد شرح فى سورة هود بأبهج طريق وأبدع منهج فما تسبيح الرعد ؟ أقول :

إن التسبيح والتحميد هنا إيضاح لقوله تعالى « هو الذى يريكم البرق خوفا وطمعا » وذلك أن هذا العالم الذى نعيش فيه عالم طبيعى ، والعالم الطبيعى امتزج خيره بشره وضرّه بنفعه ، فإذا كان المطر نافعا فهو ضار ، وإذا كان خيرا فهو شرّ وليس هذا قاصرا على المطر ، فالمال والبنون وجميع أحوال هذه الحياة فيها الأمران قد امتزجا ولكن الخير أكثر من الشر والنفع أكثر من الضر ، فإذا رأينا المطر يخيف الناس بالصواعق ويؤذى أهل المدن ونحو ذلك فله منافع معروفة تربو على شروره وهكذا النار والهواء وكل عالم المادّة هذا حكمه . فإذا كان الرعد مخيفا لقوم فهو مطمع لآخرين ، ولكن الطمع أوسع نطاقا من الخوف .

فإذا أخاف الله عز وجل بالرعد المنذر بالمطر فهذا ضر قليل يغتفر فى جانب النفع الكثير ، والحكيم لا يترك النفع الكثير لقليل الضر ، وهذا قوله تعالى « فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين » .

أنت يا ألله محمود على المطر وإن كان فيه ضرر . ههنا امتزج التسبيح بالتحميد ، تنزه الله عن إرادة السوء والضرّ بالمطر الذى أنزله نعمة عامة فهو ضر جاء تابعا لا مقصودا لذاته ولكن لا محيص عنه ، وإنلات المخلوقات من هذا الضر معناه إهلاكهم .

إذن الله تنزه عن فعل الضر وذلك التنزيه ملتبس بنعمة توجب الحمد ، هذا مافتح الله به فى معنى تسبيح الرعد وتحميده كأنه قيل : لم أخافنا الله بالمطر وهو المطموع فيه ؟ لأنه نعمة ! ولم لم يكن عالما كله رجاء لا خوف معه ؟ فقال هنا « ويسبح الرعد بحمده » إشارة إلى أن لله الحجة البالغة وأن الله منزه عن خلق السموات والأرض وما بينهما باطلا لأن ذلك ظنّ الذين يكفرون بالنعم لجهلهم أصولها وعلومها ولم يدرسوا أصول الحكمة فإن ماهو شر أو ما غلب شره لا ظهور له فى الوجود وما هو خير محض أو ما غلب خيره هما الموجودان .وهذا العالم الطبيعى من هذا الأخير ، فإما أن يخلق على هذه الحال وإما أن يبقى فى حيز العدم .

إذن الله بهذا البرهان العقلى المذكور فى إشارات ابن سينا وشرحه إجمالا هناك .أفادنا معنى التسبيح الممتزج بالتحميد والحمد لله الذى علمنا وشرح صدورنا وأرانا بعض حكمه وله الحمد فى الآخرة والأولى وهو الولىّ الحميد

تسبيح الرعد وتحميده

سبح الرعد وسبح لله مافى السموات والأرض « يسبح له مافى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم — ألم تر أن الله يسبح له من فى السموات والأرض والطير صافات كلّ قد علم صلاته وتسبيحه — تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهنّ وإن من شئ إلا يسبح بحمده » .

هذه الجمل وهذا النموذج لم ترد فى كلام العرب ، نعم سمعنا هذه الجملة فى قول الشاعر :

* سبحان من علقمة الفاجر *

هذا هو التسبيح الذى نطق به العرب وهو تسبيح فى باب الشتم والذم لاجمال فيه ولا كمال .

المسلمون يسبحون ويحمدون . فالأول فى الركوع والسجود وعقب الصلوات . والثانى فى الفاتحة وعقب كل صلاة ، وهذا التسبيح إما بلفظ بلا حضور معنى وهذا لافائدة منه وإما مع حضور المعنى وهذا نافع للتعبد ولنفس الإنسان وحده ، وإما مع العمل بالمعنى وهذا الأخير هو شأن العارفين والعلماء العاملين وقادة الأمم الاسلامية المفكرين .

يقول المسلم : ها أناذا أسمع أن نبينا صلى الله عليه وسلم بشره إبراهيم بأن غراس الجنة سبحان الله والحمد لله الخ وذلك فى نهاية عروجه فى السماء . الصلاة تسبيح وتحميد ، وبشارة الخليل للأمة تسبيح وتحميد . ماهذا كله وما ثمرته ؟ ثمرة هذا كله لاظهور لها إلا بالعلم .

بم يكون العلم ؟

يكون بفهم نظام هذا العالم من السحاب والسماء والأرض . هذه كلها مسبحات . إنك عند البحث ترى شرها لم يكن مقصودا لذاته كما تقدم هنا وفى سور كثيرة من أهمها (آل عمران) عند قوله تعالى «بيدك الخير» السحاب يبسم بالبرق وينذر بالرعد وإنذاره بالرعد سمى تسبيحا . وإنما خص الرعد باسم التسبيح لأنه صوت والتسبيح يكون بلفظ واللفظ صوت . بماذا أنذر الرعد ؟ . أنذر بقرب هطول المطر لنستعد له . المطر خير وشر وشره قد اغتفر بالبرهان المتقدم .

إذن الله منزه عن خلق الشر مقصودا لذاته ولو أنه منعه لم يكن هذا الوجود ؛ إن مسألة الشر والخير هى أول العلم وهى آخره . هناك دين الفرس بنى على إلهين : إله الخير وإله الشر ، وإله الخير غلب إله الشر الذى خلق الظلمة وجميع الشرور .

هذه المسألة عقدة العقد ، هى لغز الحياة : كيف يكون الله أرحم الراحمين ويخلق الآلام والنقص ؟ بهذه المسألة ضل قوم فنبذوا كل دين وعاشوا ملحدين .

والمانوية اعتقدوا إلهين ، غلب إله الخير إله الشر كما تقدم ، والدين الإسلامى جاء بأمر جديد ، فقال إن الله منزه عن كل ما لايليق وما الشر إلا أمر لازم للخير ، ولو حذفناه لحذف ذلك الخير .

الناس يعيشون على هذه الأرض فى ألم ، إذا كانوا مفكرين مادام لم يعقلوا لم وجد هذا الشر ولم نبتلى به ، والمؤمن يسبح ويعتقد التنزيه بمجرد الإيمان . ولكن اليقين لا يكون إلا بالعلم كما فى هذا التفسير الذى جمعت لك فيه لب الفلسفة القديمة والحديثة .

تسبيح الرعد وتسبيح كل مخلوق لايعقله إلا أولو الألباب بالحكمة والعلم ، فالرعد تسبيح على العقلاء بل هو مخ التسبيح ، وإذا سبح الإنسان ربه وهو ذكى ثم هو ترك هذه المخلوقات التى حوله فلم يعقلها ولم يدر لم خلق شرها مع خيرها فمثل هذا لاينزه ربه بقلبه البتة ، بل يقول هذا العالم مملوء شرا لاحكمة فيه يقولها بقلبه وإن لم ينطق لسانه .

ماذا يقول الرعد ؟

يقول : المطر أقبل بخيره وشره فاحترسوا من شره ، هذه المعانى يفهمها الناس فإما أنهم يفهمون أن هذا الشر من لوازم الخير ولو استأصلنا الأول حرمنا من الثانى فهذا المعنى لا يدركه إلا حكماء الناس فى هذه الأرض ، ولا جرم أن هذا المعنى تسبيح ملتبس بحمد ؛ فالخير محمود عليه والشر قد نزه الله عنه .

وهذا هو ماجاء فى ديننا أن نؤمن بالقدر خيره وشرّه من الله مع أنه رحمن رحيم ، ومن تحقق هذا : أى الجمع بين خلق الشرّ مع وصف الرحمة فهو من الموقنين .

إذن كل العالم مسبح بحمد الله ، ولا كمال لتسبيح الناس إلا بتفهم تسبيح الرعد والسموات والأرض ، وإن كان فهم الحقيقة على ماهى عليه مستحيلا علينا فى الأرض ، فقوله تعالى « لاتفقهون تسبيحهم » أى على حقيقته ، فأما فهمه كما قلناه فهذا هو المناسب لعقولنا ولا نقدر على أكثر منه ، فالمسلمون يسبحون باللفظ ومعناه القريب ولكن لا كمال لهم إلا بدراسة هـذا النظام وفهم الخير والشرّ والاقتناع بأن الشرّ تابع لا أصل .

فهذا هو تسبيح الرعد وتسبيح مافى السموات والأرض وتسبيح الطير ، وقد تقدم فى سورة هود تسبيح الطيور المختلفة فراجعها فهناك عجب والحمد لله ربّ العالمين ، انتهى

ستة عشر مليون عاصفة

الرعد والبروق فى العالم

اقتطفت من بعض المجلات العلمية الصادرة فى ٣٠ أكتوبر سنة ١٩٢٦ مايأتى باختصار وحذفت مالايلزم .

لو أتيح للمرء أن يراقب الفضاء ويحصى عواصف البروق والرعود التى تقع فيه لرأى أنها لاتقلّ عن ستة عشر مليون عاصفة فى العام ، أو نحو (٤٤) ألفا فى اليوم ، والإحصاءات الدقيقة التى أجراها العلماء فى جميع أقطار العالم تدل على أن الرقم الذى ذكرناه ليس فيه مبالغة على الإطلاق .

وقد ذكر الأستاذ (تمان) مدير الأرصاد الجوية فى حكومة الولايات المتحدة أن العلماء لم يوفقوا إلى إحصاء عدد تلك العواصف فقط بل إلى رصد مداها وشدتها أيضا ، وقد أعدوا لها رسوما بيانية تدل على الأزمنة والأمكنة التى تكثر فيها تلك العواصف أو تقلّ .

ولو علم الإنسان بكمية القوة الكهربائية التى تذهب ضياعا فى الجو كما حدثت عاصفة منها لأدهشه إسراف الطبيعة وتبذيرها ، إذ يؤخذ من الأرصاد التى جمعها العلماء أن تلك الكهربائية تكفى لإنارة نحو ستة ملايين منزل : أى أنه كلما أومضت البروق فى الجوّ وأعقبتها رعود ذهب من القوة الكهربائية مايكفى لإنارة نحو عشر مدن كمدينة لندن ، كل ذلك يذهب فى الظاهر ضياعا ويدل على إسراف الطبيعة إلى حد مفرط ، ولا يخفى أن البروق والرعود تجتاح الكرة الأرضية على نطاق واسع جدا ، وكثيرا ماينشأ عنها أضرار بليغة كما حدث أخيرا فى الترسانة البحرية بمدينة (نيو جرزى) بأمريكا ، فإن صاعقة انقضت من الجوّ والتهمت تلك الترسانة وأهلكت أنفسا عديدة ، وحدث قبل تلك الصاعقة ببضعة أيام أن صاعقة أخرى انقضت على بعض آبار الزيت فى (كاليفورنيا) فالتهمتها وكانت الخسارة نحو عشرة ملايين دولار .

ومما يجدر بالذكر أن الصواعق لاتكتفى بأمثال الأضرار التى ذكرناها ، بل كثيرا ماتنقضّ على الأحراش والغابات فتحرقها ولا تبقى منها إلا الأثر ، نعم إن الأمر يدعو إلى أشد الأسف ، ولكنها : أى الطبيعة تهدم اليوم مابنته بالأمس وتخرب فى لحظة ما أقامته فى الألوف من السنين .

وفى الواقع أن فى الولايات المتحدة الأمريكية أراضى كثيرة كانت بالأمس مكسوة بالغابات والأحراش وهى اليوم بلقع قفر لأن الصواعق أتلفت كل مافيها من شجر أو نبات .

ثم إن الرعود والبروق كثيرا ماتصحبها أعاصير تحدث من الأضرار مالايقل عن أضرار البروق والرعود نفسها ولا سيما فى البحر وكثيرا ماتنتاب الطيارات فى الفضاء فتصعقها كما حدث الطيارة (شنندوه) الأمريكية منذ عهد قريب .

وقد تعترض أمواج الكهربائية اللاسلكية أيضا فعطلها أو توقفها عن العمل ، وقد يظلم الجو بسببها فتضطر الآلات التى تولد النور الكهربائى إلى مضاعفة جهدها وفى ذلك زيادة فى الإنفاق كما لا يخفى .

وقد قدر العلماء الأضرار التى تنجم عن عواصف الرعود والبروق ، فإذا هى لاتقل عن مائتى مليون دولار أو أربعين مليون جنيه فى العام ، على أن لتلك العواصف بإزاء أضرارها منافع كبيرة فهى السبب فى هطل الأمطار الغزيرة التى تروى الأراضى القاحلة وتساعد على إنماء المزروعات ، وهى السبب أيضا فى (نترجة) الهواء : أى إشباعه بالتروجين بحيث يصبح سمادا للتربة .

وقد قدّر أحد العلماء الفرنسيين ثمن السماد التروجنى الذى ينشأ عن عواصف البروق والرعود فى بلاد الهند الصينية وحدها ، فإذا هو نحو أربعة ملايين جنيه فى العام ، فإذا كان انتفاع الهند الصينية بسماد يبلغ أربعة ملايين من الجنيهات فما بالك بالهند نفسها ، وما بالك بالصين ، وما بالك بالعالم كله ؟ فإذن ينتفع الناس بمئات الملايين بسبب الرعد والبرق ، فالضرر من قوله تعالى « خوفا » والنفع يرجع لقوله «وطمعا» والضرر والنفع بالرعد والبرق جار على القاعدة العامة فى هذا العالم .

إن النفع أكثر من الضرر فى الماء والهواء والأرض والحيوان والإنسان ، قال تعالى « وما كنا عن الخلق غافلين » وهذه قاعدة عامة فى الحرب والسلم والموت والحياة وهكذا اهـ .

اللطيفة الحادية عشرة فى قوله تعالى « ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدوّ والآصال »

يناسب هذه الآية قوله تعالى « وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين ـ إلى قوله تعالى ـ وهم فى فجوة منه ذلك من آيات الله » وأيضا « والله جعل لكم مما خلق ظلالا ، وجعل لكم من الجبال أكنانا ـ إلى قوله ـ وأكثرهم الكافرون » وقوله « ألم تر إلى ربك كيف مدّ الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا . ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا » وقوله « أولم يروا إلى ماخلق الله من شىء يتفيأ ظلاله عن اليمين والشمائل سجدا لله وهم داخرون » وقوله « ولله يسجد مافى السموات وما فى الأرض من دابة والملائكة وهم لايستكبرون . يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون مايؤمرون » .

ترى من هذه الآيات أن القرآن كرر ذكر الظلال وسجودها ، ولقد شرحت هذا المقام شرحا وافيا فى كتاب [نظام العالم والأمم] ولو نقلته هنا لطال بنا المقام فلأختصر ذلك اختصارا ولأكتف به فى آيات الظلال الآتية . إن الشمس كما علمت حسابها منتظم وجميع ظلال الأشجار تبع لها ، فهى بحساب منتظم أيضا ، فلن ترى من شجرة صغيرة ولا كبيرة ولا شاخص إلا وله حساب منتظم تمام الانتظام تابع لحساب الشمس .

ولقد عرف هذا الفلاحون وأهل البدو فجعلوا أعمالهم على حسب الظلال ، ولقد استعمل علماء الفلك نفس هذا الظلّ فى معرفة مقدار الزاوية التى بين الدائرة الكسوفية ودائرة المعدّل المسمى ميل الدائرة الكسوفية ، وذلك أنهم نصبوا شاخصا فى الأرض فى محل مستو مكشوف ونظروا ظله فى يوم المنقلب الصيفى ، وقد تقدم فى هذا التفسير ، وفى يوم المنقلب الشتوى وقد تقدم أيضا ، وقاسوا فى هذين اليومين أعظم ارتفاع زاوى للشمس .

وتوضيحه أن الشاخص يعتبرونه ضلعا مثلثا وقياسه ممكن ، وظله على الأرض ضلع آخر والخط الواصل من نهاية الظلّ ورأس الشاخص الذى هو وتر المثلث المقابل للزاوية القائمة ضلعه الثالث ، فالزاوية المنحصرة بين وتر المثلث والضلع الذى رسمه الظل هى الدالة على البعد الزاوى للشمس وهذه الزاوية كلما قصر الظل

كبرت ، وكلما طال صغرت كما هو مبرهن عليه فى الهندسة ، فاذا راقبت ظل الشاخص لنهاية قصره يكون هناك أعظم ارتفاع الشمس ، وإذن علم من المثلث ضلعاه والزاوية المنحصرة بينهما فيمكن رسم ومقاس تلك الزاوية الدالة على ارتفاع الشمس بكل سهولة على الورق بالرق المشهور فى الهندسة أو بغيره وتصنع هكذا فى يومى المنقلبين الشتوى والصيفى وتقسم الفرق بين هذين الارتفاعين فيكون ذلك النصف هو الزاوية الواقعة بين الدائرة الكسوفية ودائرة المعدل ، ويمكنك أيضا أن ترسم خطا بين هاتين النقطتين اللتين وصل إليهما الظل فى يومى الانقلابين فذلك الخط هو نصف نهار ذلك المحل وحينئذ متى جاء ظل الشاخص عليه أى يوم من أيام السنة كان وقت الظهر مدى العمر كله .

أفلا تعجب كيف أمكن الإنسان بشاخص بسيط أن يعرف أوقاته وأن يحكم على الشمس فى السماء ويعين درجاتها ؟ نعم نعم هذا من آيات الله .

حكاية مصرية فى الظلال

كان رجل يسمى (أراتو ستنس) فلكيا عظيما ولد فى القيروان سنة (٢٧٦) قبل المسيح ، وقد تعلم فى الاسكندرية وفى أثينا ودعى للاسكندرية سنة (٢٣٤) قبل الميلاد وعاش فيها إلى أن مات سنة (١٩٤) قبل الميلاد .

هذا العلامة لما علم أن الشمس عمودية فوق الأرض عند مدينة (أسوان) فى آخر القطر المصرى جنوبا ، وذلك فى وقت الانقلاب الصيفى وراقب عمودا هناك فى ذلك الوقت فإذا هو لا ظل له طبعا فنصب عمودا بالاسكندرية فوجد له ظلا شماليا فى تلك الدقيقة الانقلابية فرسم خطا من أعلى هذا العمود إلى طرف ظله فحدثت الزاوية التى تكونت بينه وبين الظل سبع درجات وخمس درجة ، وقد تقدم بقية هذا الموضوع فى أول سورة يونس فراجعه وهذا العمل أشبه بما فعله المأمون بعده بأربعة قرون فى هذا العمل وهو معرفة الدرجات كما فى جغرافية أبى الفداء المسماة [تقويم البلدان] قال ابن بطليموس صاحب المجسطى وغيره . وجدوا حصة الدرجة الواحدة من الدائرة العظيمة المتوهمة على الأرض (٦٦) ميلا وثلثى ميل ثم حققوها فى عهد المأمون وحضروا فى برية سنجار ببلاد مابين النهرين وافترقوا فرقتين بعد أن حرروا ارتفاع القطب ؛ ففرقة أخذت تتجه جهة القطب الشمالى وأخرى جهة القطب الجنوبى فانحط هؤلاء درجة وهؤلاء زاد عندهم درجة فكان (٥٦) ميلا مع إحداهما بغير كسر ومع الثانية (٥٦) ميلا وثلثى ميل فأخذ بالأولى (٥٦) ميلا ، وقد عمل ذلك العمل مرة أخرى ببلاد الشام بين تدمر والفرات .

فانظر كيف قام الظل فى ذلك مقام ارتفاع الشمس وقامت زاويته مقام معرفة ارتفاعها ، فاذا سمعت قول الله تعالى : « وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم فى فجوة منه » فتأمل تر أنه تعالى جعل الشمس وظلالها لهما حساب معين لايتغير ولذلك قال بعدها : « ذلك من آيات الله » ولا ترى من حائط أو عماد أو خشبة منصوبة أو شجرة أو جسر أو جبل أو صخرة أو حجر فى سهل ، ولا إنسان أو حيوان إلا ولكل من ظلالها حساب كحساب الشمس « ولله يسجد الخ » ومعلوم أن السجود هو الانقياد فما سجد مافى السموات والأرض سجدت ظلالها ولولا ذلك لم يكن الاستدلال بالظلال ولا بالمزاول على سير الشمس ومعرفة انتقالها .

هذا ملخص من كتابى [نظام العالم والأمم] مع زيادات عليه ، ثم جاء فيه بعد ذلك موضوع عنوانه [غفلة العقلاء عن النظر فى ظلال الأشجار] وجاء فى ذلك ماملخصه أن الانسان يجلس تحت الأشجار فى البساتين النضرة والجمال الزاهر والظل وارف والغصن مزهر ولايفكر فى أمر الظلال ولا يقرأ قوله تعالى

« والله جعل لكم مما خلق ظلالا » إلى قوله « وأكثرهم الكافرون » ، وجاء في أيضا : إن من حكم الظل أن الناس إذا سئموا من الشمس لجأوا إلى الظل فنجوا من الحرارة وهذه هي الأقسام الثلاثة : نور وظلمة وظل ، وكما جعل الله الليل لباسا بظلمته والنهار مبصرا بنوره جعل الظل ملجأ من الحر وقوله تعالى : « ألم تر إلى ربك كيف مد الظل » أى ألا تنظر إلى صنع ربك كيف مد الظل وبسطه مع أنه قادر على سكونه ووقوف حركته بأن تقف الشمس التى هى الدليل عليه والحركة له والمادة له يمينا ويسارا ؟ فنحن جعلناها دليلا عليه تدل عبادنا بحركاتها المنظمة المعروفة للناس على سطح الأرض ليرتبوا أعمالهم فى نهارهم وأوقات فراغهم وراحتهم من شغلهم على أوقات ذلك الظل ، فلا ترى رجلا ولا امرأة ولا صغيرا ولا كبيرا إلا وهم يتنظرون الاستظلال فى محل كنّ لاسيما القفار وبلاد الفلاحين وعند الأعراب ، فكل هؤلاء لايمكنهم الراحة والجدّ فى العمل إلا بنظرهم فى أمر الظل لراحتهم هم وأنعامهم ، ولولا سير الشمس بحساب ما أمكنهم أن يستدلوا على مواقع الظل قبل مجيئها « إن ربكم لرءوف رحيم » .

وجاء فى الكتاب بعد هذا تحت عنوان [غريبة وعجيبة] : إن هذه الآية « إن ربكم لرءوف رحيم » قد جاءت كتابتها عفوا ولم يكن فى ذكرى أن بعدها قوله تعالى : « أو لم يروا إلى ماخلق الله من شىء يتفيأ ظلاله عن اليمين والشمائل سجدا لله وهم داخرون » ؛ يقول الله أغفل أولئك الجاهلون ولم يروا ماخلقنا من الأجرام ذات الظلال تميل ظلالها عن الأيمان تارة وعن الشمائل تارة أخرى ، وتلك الأجرام خاضعة لنا جارية على النواميس التى سنناها وهم صاغرون الخ ، ثم قلت هناك بعد كلام ، ولقد أطنبت فى مسألة الظلال لأنى كنت أرى فى نفسى شائقا لا أدرى ماهو وأتأمل فى هذه الظلال وأقول فى نفسى لعلّ لهذه حسابا ، وياليت شعرى كيف يكون ذلك الحساب وعلى ماذا يدل وما نظامه ؟ وكنت أجد فى القلب حرارة وشوقا ولا أدرى كيف السبيل إليه ، ولا أىّ علم يدل عليه فى ابتداء مجاورتى بالجامع الأزهر .

ثم ذكرت بعد ذلك أن الظلال أضبط فى معرفة الوقت من ساعات الجيب وأن كل شجر وحجر ونبت وشخص وجبل ، وبالجملة كل ما له ظلّ يدل ظله على جميع الأوقات أفضل من ساعات الجيب ولكن معرفة ذلك عسرة ؛ وهنا ذكرت المزاول فى الكتاب وبينت المزولة المتدلة وكيفية عملها كما تلقيتها عن أشياخى مع برهانها الهندسى وبينت هناك أن المزولة فى خط الاستواء تكون قائمة على الأفق وكلما مال العرض جنوبا أو شمالا مالت المزولة جهة خط الاستواء بقدر متمم عرض البلد ، فى عرض (٢٠) تميل جهة خط الاستواء (٧٠) وفى ٢٣ كاسوان تميل (٦٧) وهكذا ، وهنا ذكرت مايقوله العلماء فى الظلال ، فمن قائل إنها أعراض ولكن ورد عليه أن العرض لاينتقل ، ومن قائل إنها أجسام ولكن ورد عليه أن الأجسام لاتزول بزوال أسبابها فلا يزول البناء بزوال البناء ولكن هنا زال الضوء لما زال الفىء وهو الشمس ، ثم قلت الأقرب للصواب أنها أعراض وماهى إلا تموجات فى الأثير والأمواج متى زال المحرك لها زالت ، ثم بعد كلام ذكرت تحت عنوان [دلالة الظلال على الله] أنه كما يستدل على الظل بالشمس هكذا استدل كبار العلماء على العالم بالله ، وكما أن الشمس لو فرض زوالها لزال الظل ، هكذا لو فرض زوال الله لزال العالم بالكلية كما يزول الضوء والظل بزوال الكواكب ولايبقى إلا الظلمة وهى هنا العدم المطلق ، ومن هنا تزول شبهة العامة .

يقولون إن الإنسان يبنى البيت ويموت ولم يعلموا أن الدار لم يكن للبانى فيها إلا جمع ماتفرق بخلاف هذا العالم فهو كالظلال تتبع الشمس وكالكلمات لاتوجد إلا عند تكلمه ومتى سكت لم يكن كلام ، فلذلك ذكر الله الظل فى عدة مواضع كما عبر بالكلام فى قوله تعالى : « قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى الخ »

بخلاف

بخلاف الخط الذى هو جمع ماتفرق من الحروف بمادة على الورق فهذا أشبه بصنائعنا تبقى بعد موتنا ، فالعالم مع الله كالكلام مع المتكلم والظل مع المضىء لا كالكتابة مع الكاتب وقد كرر الكلمات كما كرر الظلال فقال : « إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون » وقال «وكلمته ألقاها إلى مريم» ثم جاء بعدها ، ولقد رمز إلى ذلك بقوله : « إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا » إلى قوله : « حليما غفورا » وبقوله : « ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا باذنه إن الله بالناس لرءوف رحيم » وهذا بخلاف بنائنا فهو باق بعد بانيه وليس كالكلمات ولا كالظلال ، ثم ذكرت بعد ذلك تحت عنوان [أعجوبة الظلال وملح الهندسة] :

فر عصفور من فوق نخلة ووصل إلى الأرض بحيث يرسم فى طيرانه خطا مستقيما أوله على الشجرة وآخره نهاية ظلها على الأرض ونريد أن نعرف طول هذا الخط فجاء الجواب نقيس طول النخلة وطول الظل الذى يمتد من أصلها إلى نهاية الظل وربع كلا من الضلعين ونجمع المربعين ونجذرهما فالجذر هو المطلوب فاذا كانت النخلة أربعة أمتار وطول الظل ثلاثة فمربع الأول (١٦) والثانى (٩) ومجموعهما (٢٥) والجذر (٥) وذلك من قاعدة أن مربع وتر المثلث القائم الزاوية يساوى مجموع المربعين المنشأين على الضلعين الآخرين ولها شكل فى الهندسة يسمى (العروس) الذى كشفه اليونان ، ثم قلت : إن هذه القاعدة لاتذر نخلة ولاشجرة ولا زرعا ولا أصغر من ذلك حتى النخلة ظلها يكون على هذه القاعدة وأن ذلك من الميزان الذى قامت به السموات والأرض ومابينهما ، هذا إذاكان العمود أو الحائط قائما عموديا ، فان كان مائلا فلينزل من رأسه عمود على الأرض فالمسافة المحصورة من أصل المرتفع وذلك العمود هى مسقط النخلة على الضلع وحينئذ نقول إن المربع المنشأ على الضلع المقابل لزاوية حادة من هذا المثلث يكافىء مجموع المربعين المنشأين على الضلعين الآخرين منه ناقصا ضعف المستطيل الذى قاعدته أحد الضلعين المذكورين وارتفاعه مسقط الثانى عليه ، فاذاكان ذلك العمود أو الشجرة أو الحائط مائلا إلى خلف كانت الزاوية منفرجة فنضع ماتقدم قبله ونقول إن مربع الضلع المقابل لزاوية منفرجة فى أى مثلث منفرج الزاوية يكافىء مجموع المربعين المنشأين على الضلعين الآخرين منه زائدا ضعف المستطيل الذى قاعدته أحد الضلعين وارتفاعه مسقط الثانى عليه وتمثيله غير كاف .

ثم قلت : فتأمل هذا الارتباط العجيب وكيف أمكننا أن نقيس كل ظل بهذه القوانين الثلاثة فهكذا يكون الميزان والعدل والنظام المحكم فى السموات والأرض ، وسواء طال الظل أم قصر أول النهار أو آخره فالنسبة محفوظة ثابتة لاتتغير وبهذا يفهم « وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم الخ » ، وختمت هذا الموضوع الذى اختصرته هنا اختصارا كثيرا قائلا : واعلم أنى وأنا أكتب هذا الموضوع وجدت نفسى فرحة به طالبة إطالته تحب أن لاينقضى ولو أطعتها لم يقف اليراع ، وسيوقفنى خوف سآمة القارىء .

ثم قلت : وبالإجمال فان مسألة الظلال وتبعيتها للشمس تشير بطرف خفى إلى أن العالم كله تابع لحركة واحدة منتظمة ، فانتظم كل ماتبعها كما انتظم سير الظلال تبعا لنظام الشمس ، فالمادة العمومية متحركة منتظمة ظاهرا وباطنا والشمس جزء صغير منها وبحركتها انتظمت الظلال ، فهذا جزء دل على الكل للتشابه بين العالم كله « ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين — تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا » .

اللطيفة الثانية عشرة في قوله تعالى : « أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها الخ »

شبه القرآن بالماء الذي ينزل من السماء لتسيل به الأودية على قدر الحاجة وبمقتضى المصلحة فينفع الناس والحيوان والنبات ويمكث في الأرض فنه مايكون فوق رءوس الجبال على هيئة ثلج ومنه مايخزن في باطن الجبال ومنه مايسلك في عروق الأرض فيكون منه المجاري في باطن الأرض ومثل الماء في أنه مشبه به الفلز الذي ينتفع به في صوغ الحلي واتخاذ الأمتعة المختلفة وبدوم ذلك إلى حين وشبهت القلوب بالأودية ، فكما أن الماء لايسيل في جميع الأودية هكذا العلم لاينزل على كل القلوب ، وكما أن الأودية لاتأخذ من الماء إلا بقدر هكذا القلوب لاتقبل من العلم إلا مايناسبها وأبى أن تقبل ما لايناسبها ، وشبه الباطل بالزبد في قلة النفع وسرعة الزوال ، هذا هو المثل ، وإنما ذكرته هنا بعد ماتقدم لأصحك الحديث .

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إن مثل مابعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا ورعوا ، وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لاتمسك ماء ولا تنبت كلأ فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه مابعثني الله به فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به » .

(١) الكلأ : الحشيش . (٢) أجادب أرض لاتنبت الكلأ (٣) وقوله «رعوا» رواية مسلم ، ورواية البخاري « وزرعوا » . (٤) القيعان جمع قاع : وهو المستوى من الأرض : وفقه كعلم وظرف أي فهم الأحكام وغيرها .

ومعنى هذا أن الناس لما كانوا مخلوقين من الأرض أشبهوها :

(١) فنها الأرض الطيبة تقبل المطر وتأتي بالنبات . هكذا منهم من ينتفع بالعلم وينفع غيره .

(٢) ومنها أرض لاتنبت زرعا ولكنها تحفظ الماء لأرض غيرها ، هكذا منهم من يقرأ العلم ولكن لافهم له ولا دراية فينقلون العلم إلى من يعرف قيمته فيأخذه عنهم ويعلم غيره .

(٣) ومنها أرض سبخة لاماء تمسكه ولا مرعى تنبته ، هكذا من الناس من لاقلوب لهم حافظة ولا أفهام لهم ثاقبة فهم لاينتفعون بالعلم ولاينفعون غيرهم ، هذا ما أردت ذكره في هذه الآية من وجهة الأحاديث الشريفة .

نظرة في الآية من جهة العلم الحديث

اعلم أن في العالم الانساني اليوم فكرة نبتت في انكلترا كما يقولون وانتشرت في أنحاء المعمورة شرقا وغربا وهي [النشوء والارتقاء] وتلك الفكرة ترمي إلى أن كل شيء في هذه الحياة آخذ في الإرتقاء موجه إلى النماء ، وهذه الحياة مغالبة ومشادة ومناضلة فلا يفوز إلا الأقوى ، والضعيف له النكال وعليه الوبال ، فلا بد للأقوى من الغلبة في الحياة .

وقد عمت هذه الفكرة الأحوال الحيوانية والإنسانية والسياسية وبنوا على ذلك قتل الأمم الضعيفة بحجة أنها لاتصلح للوجود وساعدهم على ذلك البخار والكهرباء والفحم والحديد والاختراعات والطيارات ، وأنه كلما كان الإنسان أقوى استعدادا وأوفر عدة كان أبقى حياة وأسعد حالا وهذا الناموس هو الذي بنوا عليه سيادتهم وسعادتهم فلا يبقى في الوجود إلا الأصلح .

حكاية صينية

منذ سنين قرأت في بعض الجرائد محادثة بين سفير (صيني) ومكاتب لإحدى الجرائد الفرنسية ، ابتدأ

الكاتب يصف المكان والزمان والمناخ والنظارات التي على عيني ذلك السفير وابتسامه وأخلاقه وحسن بزه ثم سأله ماشاء أن يسأل ، فقال له السفير : لم نراكم يا أهل أوروبا خائفين من رقي الصين ولماذا منعتم بيع الأسلحة إلى الصين ؟ فقال له لأنا نخاف أن يعظم أمركم فتأتون أنتم وجيرانكم فتسطون علينا ، فقال له هوّن عليك إننا ليس في تعاليمنا اهتضام حقوق الأمم ، ثم إن كونفشيوس وبوذا ومحمد هؤلاء لايحاربون أوروبا كما تحاربون الشرق بل نكون سلاما على الناس ، على أنكم مهما كان الأمر فهل تقفون حركة الفلك ، فهب أننا نرتقي ، وهب أننا سنقاتلكم ونغلبكم فهل تقدرون أن تمنعوا شيئا من ذلك ؟ كلا ، ألستم تفخرون بأنكم كشفتم ناموس الارتقاء ، فإذا كان الارتقاء يعم العالم فكيف تصدوننا عنه ، وهل في قدرتكم أن تمنعوا الشمس عن المسير ، إن النواميس العامة لايقدر أحد أن يصدها ، فأما أسلحتكم فإننا نقدر أن نأخذ رجالكم بالمال ويصنعون الأسلحة لنا في بلادنا فافعلوا ماتشاءون فلا تضرون الصين ، انتهت الحكاية .

إن هذه الآية ملخصها أن لايبقى إلا الأنفع فهي عينها نظرية الترقي وبقاء الأصلح . فالماء والفلزات أشبه بالأمم الراقية العقلة الكاملة ، والزبد أشبه بالأمم الجاهلة التي تظهر غلبتها في أول الأمر ثم يعتريها الاضمحلال والانحلال .

إن أكثر الأمم الراقية الآن كالأسبان والطليان وأهل فرنسا والإنجليز قوم قتلتهم الشهوات واعتراهم داء الطمع وانحلت الأعصاب فهم أقرب إلى الانحلال ، والبرهان على ذلك أن ألفا من عرب طرابلس وألفا من عرب مراكش يغلبون عشرة آلاف من الطليان وعشرة آلاف من أهل أسبانيا .

إن أمم أوروبا اليوم قدضعفت أجسامها وخارت قواها . فأما أمم الشرق فان قوتهم أمتن وعقولهم صالحة للارتقاء وقدجاء دورهم ثم قرأ العرب والترك والأفغان والصينيون علوم أوروبا واستعملوا امداهيهم حلوا محلهم وقاموا مقامهم في رقي النوع الإنساني ، فأهل أوروبا اليوم أشبه بالزبد لأنهم ظاهرون وأهل الشرق أشبه بالماء ولذلك غلب الترك أوروبا مجتمعة منذ سنة وكذلك الأفغان طردوا الإنجليز ، وقد آن أوان أن يأخذ الشرق دوره وذلك من جملة الارتقاء وبقاء الأصلح ، وهذا هو الذي سيكون كما ظهرت اليابان والأفغان وقوم عبدالكريم بالمغرب والسنوسيون في طرابلس والترك في الأناضول والفرس في بلادهم : فهذه ست أمم ظهرت في هذه الأيام ، وسترى في المستقبل القريب رقيّ الشرق الزاهر إن شاء الله تعالى .

[تنبيه] إن الأمتين العربيتين المذكورتين عند طبع هذا غلبتا على أمرها لاتحاد الأوروبيين عليهم جاء في كتابي [مذكرات أدب اللغة العربية] في صفحة (٩٣) مانصه :

باب التشبيهات في كلام العرب والقرآن

نذكر في هذا الباب جملا حوت التشبيهات في كلام العرب ثم نتبعها بأخرى من آي القرآن لتعرف أنواع الكلام وليستدل المطلع على مقدار ما وصلت إليه البلاغة عند الجاهلية في أشعارهم وكيف تخطاها القرآن وتجاوز تلك الدرجة إلى ما هو أعلى منها وأسمى . قال لبيد بن ربيعة العامري في معلقته :

وَجَلاَ السُّيُولُ عَنِ الطُّلُولِ كَأَنَّهَا ... زُبُرٌ تُجِدُّ مُتُونَهَا أَقْلاَمُهَا

أَوْ رَجْعُ وَاشِمَةٍ أُسِفَّ نُؤُورُهَا ... كِفَفاً تَعَرَّضَ فَوْقَهُنَّ وِشَامُهَا

يقول : لما تهاطلت الأمطار على الديار وحصلت منها السيول كشفت آثار الديار لغسل ما كان متراكما عليها من التراب فكأن تلك الطلول كتب غابت فيها الكتابة لطول عهدها بالكاتب وكأن تلك أقلام تجدد

الكتابة وتظهر ما خفي منها، والرجع: الإعادة، والواشمة: التي تصنع الوشم. وأسف: ذرّ والنؤور: الكحل الذي ترشه الواشمة على الجرح، والكفف: دارات تكون في الوشم وتعرض ظهر ووشام جمع وشم غرز الإبرة في اللحم حتى يظهر الدم ثم ذرّ الكحل عليه [المعنى] وكأن تلك السيول واشمة عمدت إلى وشم قد ضعف أثره على اليد فرجعته وأعادته بذر النؤور على داراته حتى كأنه جديد لا يضمحل، وقوله جلا أي كشف والسيول جمع سيل: الماء الكثير، والطلول جمع طلل: آثار الديار، والزبر جمع زبور: الكتاب. وتجد: تجدد والمتون جمع متن وهو بمعنى الظهر في غير هذا المقام وهنا معناه الكتابة ويقول الله عزّ وجل « أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها » إلى قوله « كذلك يضرب الله الأمثال » . يقول إن الله أنزل المطر فسالت به الأودية وأخذ كل واد قسطه وربا على الماء الزبد .

هكذا ترى الناس يوقدون النار ويصهرون المعادن فيعلو على جواهرها الأجسام الغريبة كما يعلو الزبد على الماء ، وهكذا كان الحق والباطل في الدنيا فان الحق في أول أمره يغلبه الباطل ويغشيه بغشاء من الأضاليل ثم ينكشف الغطاء ويحصحص الحق ويتجلى للناس، كما أن زبد الماء الرابي عليه وزبد المعادن النفيسة يذهب ويزول بعد أن غلب وغشى على الماء والمعدن فأما ما ينفع الناس من الماء والمعدن كالذهب والفضة فانهما يبقيان . فبهذا ينبت الكلأ والعشب والمزارع والحدائق والجنات . وبهذا تصاغ منه الحلي ويجمله النساء زينة لهن وجمالا ويجعله الناس آلات ويصلون به أعمال الحياة . هذا هو الناموس الطبيعي العام الذي افتخر به الأوروبيون وقالوا قد كشفناه ودرسناه وأبرزناه للعالم وهو ناموس بقاء الأصلح للوجود والأنفع للإنسانية والأفضل للحياة نطقت به هذه الآية وجعلت أعمال المجاهدين والفضلاء والحكماء والمخلصين تشابه ما نراه كل يوم فيما أمامنا من الزبد والماء والحلي وأن الحقّ يعلو وإن غشيته الأباطيل والباطل يذهب جفاء وإن غلب بالتضليل . هذا هو الناموس المبين فهل ترى له مع قول لبيد موازنة . أفرأيت الفرق بين التشبيهين وكلاهما في الماء . أليس من العجب أن يقتصر لبيد على الطلول والبيداء ويتعالى القرآن فيقيس به السياسة والحكمة والحق والباطل فيقول « فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض » .

عجب عجاب ! هذه هي التي فخر بها الأوروبيون وقالوا نحن لها مخترعون . ألا فلينظر العاقلون وليعلم الذين لا يعلمون ، انتهى القسم الأول من السورة .

(القِسْمُ الثَّانِي)

لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ * أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ * وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ * وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ * جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ

بَابٍ • سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ • وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ
مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ
وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ • اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ
الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ • وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ
إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ • الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ
اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ • الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ
مَآبٍ • كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا
إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ •
وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى ، بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ
جَمِيعًا أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا
تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ
الْمِيعَادَ • وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ
عِقَابِ • أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ
تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا
مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ • لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ • مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ
تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ
النَّارُ • وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ
بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ • وَكَذَلِكَ
أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ
مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ • وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ
أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ • يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ

الْكِتَابِ • وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ • أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ • وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ • وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا، قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ .

(التفسير اللفظى)

قال تعالى (للذين استجابوا) للمؤمنين الذين استجابوا (لربهم الحسنى) النعمة العظمى فى الحسنى بأن تكون خالصة من الشوائب الضارة ومن الانقطاع (والذين لم يستجيبوا له) وهم الكفرة مبتدأ خبره (لو أن لهم ما فى الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به أولئك لهم سوء الحساب) بأن يحاسب الرجل بذنبه كله ولا يغفر له منه شئ ، واعلم أن فى قوله تعالى (لافتدوا به) سرا مصونا يختلج فى القلوب والشفاه لا نلقيه محسوسا فى النفوس والناس عنه فى تيه ، ذلك أننا فى هذه الحياة لا نحفظ إلا نفوسنا وحدها وكل ما عدا النفوس مضمحل ألا ترى أن أحدنا لو أصابه مرض أو ضعف شديد أو هرم لأصبح لا يحس بما كان يحس به فى زمن الشباب وقلت آماله وضاعت أحلامه ومتى ضعفت قوة الطعام فيه لم تكن له فائدة من المال الذى عنده فكل شئ دون النفس زبد يذهب جفاء ، وقوله (ومأواهم جهنم) أى مرجعهم (وبئس المهاد) المكان المهد والمخصوص بالذم محذوف أى جهنم وقوله تعالى « أفمن يعلم أنما أنزل اليك من ربك الحق كمن هو أعمى » الهمزة لإنكار أن يشك عاقل ما بعد ضرب هذا المثل أن يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون وهم عمى البصائر مع أن البعد فيما بينهما كبعد ما بين الماء الصافى والإبريز الخالص والزبد والخبث (إنما يتذكر أولوا الألباب) ذوو العقول الذين نبذوا الوهم والإلف واستبصروا بالرأى ثم وصفهم فقال (الذين يوفون بعهد الله) الذى عقدوه على أنفسهم بشهادتهم بربوبيته وشهدت فطرهم فى هذه الحياة بصحته وأنزل الكتاب بإيجابه (ولا ينقضون الميثاق) ما أوثقوه على أنفسهم من الإيمان بالله ومن المواثيق بينهم وبين الناس من ذكر العام بعد الخاص (والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل) من الأرحام والقرابات الخاصة وكذلك القرابة الدينية وهى تعم جميع المؤمنين فهم أخوة فيحسن اليهم على قدر ويذب عنهم ويشفق عليهم ويفشى السلام ويعود المرضى ويراعى حق أصحابه وخدمه وجيرانه ورفقائه فى السفر .

واعلم أن الإنسان لا يخلو حاله إما أن تكون له قدرة علمية فهذا يجب عليه نشره بين أمته وهذا أعلى الدرجات ، واما أن تكون له قدرة عملية وعجز عن العلمية فهذا ينبغى له أن يصرف أيامه فى مواساة الفقراء وعيادة المرضى وفعل المبرات والخيرات ، وإما أن تكون قدرته عاطلة فلا علم عنده ولا قوة لديه وهذا ينبغى له أن يصرف أيامه فى العبادة ويلازم المحراب واما أن تكون نفسه خلت من العلم ومن العمل النافع ومن العبادة فهذا خيره أن يدع الناس ويجتنبهم لأنه لم يبق لديه إلا الغيبة والنميمة ، فالثلاثة الأول أشبه بالملائكة على اختلاف درجاتهم فالعالم العام النفع أفضل من المواسى لضعفاء الأمة وهذا الثانى أشرف من العابد الملازم للمحراب والتارك للخير والشر العاكف على النوم وهو الرابع أشبه بالحجر فى البيداء لا يملك للناس نفعا ولا ضرا . فأما الخامس وهو من يضيع وقته فى أذى الناس فهو كالحيات والعقارب والذباب والناموس وأمثالها يؤذى الناس على مقدار ما أوتى من قوة وما نال من همة على درجات متفاوتة تفاوت الدرجات فى الشبيهين بالملائكة

وقوله (ويخشون ربهم) أى وعيده عموما (ويخافون سوء الحساب) بحيث يحاسبون أنفسهم قبل أن يحاسبوا (والذين صبروا) عن المعاصى وعلى ما أصابهم من مرض أو أذى من الناس أو فقر وعلى الطاعات ومشاقها (ابتغاء وجه ربهم) لا ليقال ما أكمل صبره أو لئلا يشمت به الأعداء أو لئلا يعاب من الأصدقاء وإنما يكون صبره خالصا لوجه الله لعلمه بأن ذلك رافع لشأنه مهذب لنفسه رافع لدرجاته مقدّر عليه لحكمة (وأقاموا الصلاة) داوموا على اقامتها (وأنفقوا مما رزقناهم) بعض ما رزقناهم واجبا أو مندوبا (سرّا) فيما بينهم وبين الله وهذا أولى لمن لم يعرف بالمال (وعلانية) وهذا أولى لمن عرف بالمال (ويدرءون بالحسنة السيئة) فيدفعون بالحسن من الكلام ما يرد عليهم من سيء غيرهم ، أو هم المعطون من حرمهم العافون عمن ظلمهم الواصلون من قطعهم التائبون من ذنبهم المغيرون للمنكر إذا رأوه ويتبعون السيئة الحسنة فتمحوها ، فهذه ثمان خصال : الوفاء والصلة والخشية ومحاسبة النفس والصبر وإقامة الصلاة والانفاق وأن يدرءوا السيئة بالحسنة فهى عدد أبواب الجنة الثمانية ولذلك أعقبها بها فقال (أولئك لهم عقبى الدار) عاقبة الدنيا العاقبة التى تنبغى لهم وأبدل من عقبى الدار (جنات عدن) أى بساتين إقامة ، يقال عدن بالمكان إذا أقام به (يدخلونها) أى الدار التى تقدّم ذكرها (ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرّياتهم) عطف على الواو فى يدخلون فالأزواج والذرية يقرنون بهم عند دخولهم الجنة إذا استحقوها بصلاحهم وتكون الزية إذ ذاك جمعهم معهم تكريما ، فيقرن بعضهم ببعض لما بينهم من الصلة ، والتقييد بالصلاح للدلالة على أن النسب لا يفيد فى الآخرة (والملائكة يدخلون عليهم من كل باب) من أبواب منازلهم فى الجنة أو من أبواب الفتوح والتحف وبشارات الرضا قائلين (سلام عليكم) بشارة بدوام السلامة ، هذا (بما صبرتم) أى هذا الثواب بسبب صبركم بأقسامه المتقدمة ، ويصح أن يقال تسلم عليكم وتكرمكم بصبركم ، والأول أولى لأن الخبر فصل بين المتعلق والمتعلق به (فنعم عقبى الدار) الجنات .

ولما أتم الكلام على صفات السعداء أعقبه بصفات الأشقياء ، فقال تعالى (والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه) بعد ما أوثقوه على أنفسهم بالاعتراف والقبول (ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل) أى من الرحم وحفظ الجوار والمساعدة العامة كما تقدم (ويفسدون فى الأرض) بالظلم والمعاصى والتهييج وتفريق الكلمة (أولئك) أى من هذه صفته (لهم اللعنة ولهم سوء الدار) عذاب جهنم وسوء العاقبة فى مقابلة عقبى الدار .

ولما كان كل فتنة وتهييج ونقض عهد إنما يكون لقصد الشهوات والحياة الدنيا أخذ يذمها فقال سبحانه (الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) يوسعه ويضيقه ، فقوم فقراء وآخرون أغنياء ، وما الفقر والغنى إلا كالليل والنهار يمرّان على البرّ والفاجر والصالح والطالح ، فليس الغنى مرمى الأنظار ولا الفقر غاية الأخطار ، بل هما حالان يعتوران الناس بأقدار غالبة وأحوال عارضة كما يغشى النهار الليل والليل النهار ، فكيف يفرحون ببسط الرزق فى الحياة ويعدونه أكبر متاع وما الحياة كلها إلا سحابة صيف عن قليل تقشع ، فما بالك بنفس الغنى ونفس اللذة وما هما إلا حالان عارضان فى الحياة ؛ فالحياة وشئون الحياة لا وزن لهما ولا ثمن ، وهذا قوله تعالى (وفرحوا بالحياة الدنيا) أى بما بسط لهم من الرزق فيها (وما الحياة الدنيا فى) جنب (الآخرة إلا متاع) متعة لا تدوم كعجالة الراكب وزاد الراعى ، فهؤلاء بطروا وأشروا بما نالوا من الدنيا واعتزّوا بقليل النافع سريع الزوال .

ولما أبان ولوعهم بالسراب وانخداعهم بالحباب وجهلهم بما حضر وغاب أخذ يبين ما ترتب على ذلك الغرور من اقتراح الآيات الناجم من بطرهم وأشرهم فقال (ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه

قل إن الله يضل من يشاء) باقتراح الآيات بعد ظهور المعجزات (ويهدى إليه من أناب) أقبل إلى الحق ورجع عن العناد ، فمن أضله الله فلا هادى له وإن نزلت الآيات التى اقترحها فالقلوب تختلف اختلاف الأودية كما تقدم ، ثم أبان للمهتدين فقال سبحانه هم (الذين آمنوا وتطمئن) تسكن (قلوبهم بذكر الله) ففى الوحدة يسكنون بأنسه ، وعند الحاجة بالاعتماد عليه ، وعند القلق من خشيته يسكنون برحمته ، وعند الشك فى وجوده يسكنون بدلائل وحدانيته فى آيات الكتاب وعجائب الكائنات ، ولا طمأنينة إلا باليقين ، والشك موجب القلق والاضطراب (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) فى جميع مابيناه ، ولما كان اطمئنان القلوب لايتحقق إلا بعلم الحقائق وتهذيب الأخلاق أردفه وبين للمطمئنين وثوابهم فقال (الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم) أى فرح لهم ، وهى جملة خبر الذين ، وطوبى فعلى من الطيب قلبت الياء واوا بعد الضمة ، وهى مصدر كزلفى وبشرى ، وتقول العرب [طوبى لك] أى أصبت خيرا ، ومعنى هذا أن أهل الجنة منعمون بكل مايشتهون فكل مايسر النفس داخل فى هذه القضية ، فإذا سمعت حديث البخارى ومسلم عن أبى سعيد الخدرى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « إن فى الجنة شجرة يسير الراكب الجواد المضمر السريع فى ظلها مائة عام مايقطعها » وسمعت أن البخارى زاد « واقرءوا إن شئتم : وظل ممدود » ، وإذا سمعت الأحاديث التى ليست فى الصحاح أن ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها ، وأن الحلى والحلل تكون من أغصانها وأن فى كل دار وغرفة فى الجنة منها غصنا ، وأن الله لم يخلق لونا ولا زهرة إلا وفيها منه إلا السواد ، وأنه لم يخلق فاكهة ولا ثمرة إلا وفيها منها ، وأنه ينبع من أصلها عينان الكافور والسلسبيل ، وأن كل ورقة منها تظل أمة .

فاذا سمعت هذا كله فى الصحاح وفى غير الصحاح فاعلم أنه بعض ما أعد لأهل الجنة من الفرح الذى تضمنته الجملة والجملة أعم من هذا كله صح أو لم يصح . وأما الحقيقة فهى أن لأهل الجنة لهم مايشتهون وهذا فى الإمكان ، بل إن العوالم التى كشفها علم الفلك بلغت عظمتها حدا لايتخيله الفكر ، فاذا كان هذا فى العالم الذى نحن فيه فكيف تكون الجنة ؟ بل إن كل روح من الأرواح لها قدرة تامة على اختراع ماتشاء من ملابس ومآكل من كل ماتشتهيه وهذا ثبت فى علم الأرواح اليوم فى الأمم الغربية ، فاذا كانت كل روح لها قدرة على نوع ما من الملابس والنفائس ، فذلك أكبر نعمة تفوق ماهو مشاهد .

إن الحديث أبان للناس مايقدرون على فهمه وفتح لهم باب عظمة العالم ليستعدوا لما سيرونه بعد الموت وما بعد الموت فيه مالاعين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر وعليه يكون ماسمعناه فى الحديث تقريب لعقولنا المحبوسة فى هذه العوالم الحسية ، وإذا كانت الجنة فيها مالايخطر ببالنا فهذا ربما يخطر بالبال فما فيها فوقه بما لاحد له اهـ ، وقوله (وحسن مآب) أى ولهم حسن منقلب .

ولما كانت الآية أبانت أن ذكر الله به تطمئن القلوب ، وذكر من ذلك أن لهم مايشتهون فى الجنة أتبعه بأن هذه العقيدة قديمة العهد ليزداد الاطمئنان ، فليس النبى صلى الله عليه وسلم بدعا بل سبقه أنبياء أرسلوا لأممهم ، فهذا التتابع يدل على صدق الدعوة لأن الأمم تضافرت عليه وما كان بإجماع الأمم فهو حق والحق به الاطمئنان ، فوعدهم بالسعادة أولا وحقق أصول دينهم ثانيا ، وأى اطمئنان بعد هذا ؟ وهذا قوله تعالى (كذلك) مثل ذلك ، يعنى إرسال الرسل قبلك (أرسلناك فى أمة قد خلت من قبلها) تقدمتها (أمم) أرسل إليها رسل ، فهل يكون بدعا إذا أرسلناك إليهم ؟ (لتتلو عليهم الذى أوحينا إليك) تقرأ عليهم الكتاب الذى أوحيناه إليك (وهم يكفرون بالرحمن) أى وحالهم أنهم يكفرون بالبليغ الرحمة العظيم النعمة قد أحاطت بكل شىء رحمته ووسعت كل شىء نعمته فلم يشكروا إحسانه ولم يذكروا إنعامه ولم يعرفوا منته فى الهداية بإرسالك إليهم وإنزال القرآن لتقرأه عليهم .

وهذا

وهذا القول عام لايخص حالا بعينها . فكفرهم شامل وجهلهم عظيم ، فإذا سمعت أن هذه الآية نزلت في صلح الحديبية وأن سهيل بن عمرو لما جاء للصلح واتفقوا على أن يكتبوا كتاب الصلح ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلى بن أبي طالب « ا كتب باسم الله الرحمن » ، فقالوا لا نعرف الرحمن إلا صاحب اليمامة - يعنون مسيلمة الكذاب - اكتب كما نكتب باسمك اللهم » وعليه تكون الآية مكية .

وإذا سمعت أن أبا جهل سمع النبي صلى الله عليه وسلم وهو في الحجر يدعو ويقول في دعائه يا ألله يارحمن فرجع أبو جهل إلى المشركين وقال إن محمدا يدعو إلهين : يدعو الله ويدعو إلها آخر يسمى الرحمن ولا نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة فنزلت هذه الآية ، وإذا سمعت أنها نزلت في كفار قريش حين قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم « اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن » .

إذا سمعت هذه الروايات كلها وأن الآية نزلت فيها فاعلم أن ذلك لايغير من المقصود شيئا ، فكل هؤلاء كفروا بالرحمن ، فسهيل بن عمرو وأبو جهل وكفار قريش صدقت عليهم الآية ، فأما اختلاف الروايات وكل من الرواة يقول نزلت للسبب الذى ذكره فإنه من تصرفهم أو من استعمال النزول في معنى أنها تنطبق عليها ، وأنت عليم أن شراح البخارى نصوا على أن الحديث ظنى فما بالك بما ليس بصحيح واليقين إنما هو الآية ، والحديث المتواتر والآية هنا تشتمل ماذكروه وغيره ، ثم أمره الله أن يصدع بالأمر ، فقال الله (قل هو ربى) أى الرحمن خالق ومتولى أمرى (لا إله إلا هو) لامعبود بحق سواه (عليه توكلت) في نصرتى عليكم (وإليه متاب) مرجعى ومرجعكم ، ثم إن قوله تعالى « ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه » قد أجاب عنه بقوله « قل إن الله يضل من يشاء ويهدى الخ » فكانت الإجابة بقطع الأطماع عن إيمانهم مهما أنزل لهم مما اقترحوه ، ثم ذكر الهداية وصفات المهديين واحتاج المقام إلى إيضاح تلك الآيات وزيادة الرهبة على عدم نفع إجابتهم فأفاد أنه لو ثبت أن كتابا « سيرت به الجبال » أى زعزعت من مقارها « أو قطعت به الأرض » وصدعت وتزايلت قطعا « أو كلم به الموتى » فتسمع وتجيب لكان هذا القرآن ولم يؤمنوا فإذن هذا إما وصف لعظمة القرآن وإما وصف لشدة عنادهم فلا ينفعهم مايقترحون ، وهذا قوله تعالى (ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى)ولقد كان نفر من قريش منهم أبو جهل بن هشام وعبد الله بن أبى أمية قد جلسوا خلف الكعبة وأرسلوا خلف النبي صلى الله عليه وسلم : فأتاهم فقال له عبدالله إن سرك أن نتبعك فسير جبال مكة بالقرآن فادفعها عنا حتى تنفتح فإنها أرض ضيقة لمزارعنا واجعل لنا فيها أنهارا وعيونا لنغرس الأشجار ونزرع ونتخذ البساتين فلست كما زعمت بأهون على ربك من داود حيث سخر له الجبال تسير معه ، أو سخر لنا الريح لنركبها إلى الشام لميرتنا وحوائجنا ونرجع في يومنا كما سخرت لسليمان كما زعمت فلست بأهون على ربك من سليمان ، أو أحى لنا جدك قصيا أو من شئت من موتانا لنسأله عن أمرك أحق أم باطل ، فإن عيسى كان يحيى الموتى ولست بأهون على الله من عيسى فنزلت هذه الآية قال تعالى (بل لله الأمر جميعا) أى بل الله قادر على الإتيان بما اقترحوه ولكنه لم يرد ذلك لأنه لاينتج المقصود من إيمانكم ، ثم أتبع هذا :

(١) بالتيئيس من إيمانهم تأكيدا لما تقدم . (٢) وبالتهديد لهم بالقارعة التى تحل بهم .

(٣) وبتسلية النبي صلى الله عليه وسلم على استهزائهم به .

فالأول قوله تعالى (أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا) أى أفلم ييأس الذين آمنوا بأنه لو يشاء الله لهدى الناس جميعا من إيمان هؤلاء الكفار وهذا إذا بقى اليأس على معناه، وقيل ييأس بمعنى يعلم وهذا المعنى في لغة النخع والمعنى واحد أو متقارب على الوجهين ، والثاني قوله تعالى (ولا يزال الذين كفروا

تصيبهم بما صنعوا) من الكفر وسوء الأعمال (قارعة) داهية تقرعهم بأنواع البلايا كالجدب والسلب والقتل والأسر (أو تحل قريبا من دارهم) فيفزعون ويتطاير إليهم شررها ، ويجوز أن يقال أو تنزل أنت يا محمد مع أصحابك قريبا من دارهم وهى مدينتهم مكة (حتى يأتى وعد الله) فتح مكة (إن الله لا يخلف الميعاد) الذى وعدك به من النصر والتأييد والبعث بعد الموت وكل موعود به من موت وغيره ، والثالث قوله تعالى (ولقد استهزئ برسل من قبلك فأمليت للذين كفروا) لما أوعد الكافرين أخذ يسلى النبى صلى الله عليه وسلم ويزيد فى وعيدهم وأفاد أن الرسل من قبله استهزأ بهم قومهم ، فأملى الله للذين كفروا : أى أمهلهم ، والإملاء أن يترك ملاوة من الزمان فى دعة وأمن (ثم أخذتهم فكيف كان عقاب) أى عقابى لهم ، هكذا الكفار أملى لهم ثم آخذهم ، وقد تم ذلك ، فإنهم غلبوا ومن أبى قتل وأسلمت جزيرة العرب كلها إلى الآن .

ولما فرغ من الكلام على النبى صلى الله عليه وسلم وتسليته ووعيد أعدائه شرع بذكر سعة علم الله الذى يعلم النبى صلى الله عليه وسلم وأعداءه ويجازى كلا بعمله يرفع الصادق ويخفض الكاذب فقال (أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت) أى أفمن هو حافظها ورازقها وعالم بها وبأعمالها خيرا كانت أو شرا ، ويجازيها على الخير والشر كما علم محمدا والمشركين وأعطى كلا ما يستحقه . أى أفمن هو بهذه الصفة لم يوحدوه (وجعلوا لله شركاء) أى وجعلوا له شركاء وهو إظهار فى مقام الاضمار والهمزة للانكار (قل سموهم) أى صفوهم فهل لهم ما يستحقون به العبادة ويستأهلون الشركة (أم تنبئونه) أى بل أتنبؤونه (بما لا يعلم فى الأرض) شركاء يستحقون العبادة لا يعلمهم أو بصفات لهم يستحقون العبادة لأجلها لا يعلمها مع أنه عالم بكل شئ (أم) تسموهم شركاء (بظاهر من القول) من غير حقيقة واعتبار معنى كما يسمى الناس الزنجى كافورا ثم أضرب عن ذلك فقال (بل زين للذين كفروا مكرهم) تمويههم فتخيلوا أباطيل ثم ظنوها حقا أو كيدهم للإسلام (وصدوا عن السبيل) أى وصرفوا بالبناء للمجهول فيهما إن قرئ بضم الصاد أو صرفوا الناس عن السبيل أى الإيمان إن قرئ بفتح الصاد (ومن يضلل الله) بخذلانه (فما له من هاد) يوفقه للهدى (لهم عذاب فى الحياة الدنيا) بالقتل والأسر ومصائب الحياة وهمومها (ولعذاب الآخرة أشق) لشدته ودوامه (وما لهم من الله) من عذابه (من واق) حافظ .

وصف الجنة

ولما ذكر أن المؤمنين لهم فرح بقوله «طوبى لهم» فصله بعض التفصيل هنا فقال (مثل الجنة التى وعد المتقون) صفتها التى هى مثل فى الغرابة وهذا مبتدأ خبره محذوف عند سيبويه أى فيما قصصنا عليك صفة الجنة التى وعدها المتقون حال كونها (تجرى من تحتها الأنهار أكلها دائم) لا ينقطع ثمرها (وظلها) أى وظلها كذلك بخلاف ظل الشمس المتقدم فى قوله « وظلالهم بالغدو والآصال » (تلك) أى الجنة (عقبى الذين اتقوا) أى مآلهم ومنتهى أمرهم (وعقبى الكافرين النار) لا غير فأطمع الأولين وأيأس الآخرين وهذا القول فى مشركى العرب .

ولما كان أهل الكتاب قد آمن بعضهم كعبد الله بن سلام وأصحابه وبعض النصارى وهم ثمانون رجلا من الحبشة واليمن ونجران وكفر باقيهم ذكر الفريقين فقال (والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك ومن الأحزاب) وهم الذين كفروا منهم (من ينكر بعضه) لأنه لا يوافق ما حرفوه من كتابهم أو شرائعهم (قل) يا محمد (إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به) أى قل لهم إنى أمرت فيما أنزل إلى بأن أعبد الله وأوحده وهذا أهم المطالب فى الدين ، فأما ما عدا ذلك من الأحكام الجزئية المخالفة لشرائعكم فذلك ليس بدعا ، فالكتب السماوية تتفق أصولها وتختلف فروعها لاختلاف الأزمنة والأمكنة والعقول (إليه أدعو) وحده لا أدعو سواه (وإليه)

لا إلى غيره (مآب) مرجعي وأنا وأنتم على اتفاق تام فكيف تنكرون المتفق عليه (وكذلك أنزلناه حكما عربيا) أى وكما أنزلنا الكتب على الأنبياء بلغاتهم ولسانهم أنزلنا إليك يا محمد هذا الكتاب حكمة عربية ليسهل لهم فهمه وحفظه ، وقوله «حكما» حال ؛ ثم إن أهل مكة دعوه إلى أمور يشاركهم فيها كتقرير دينهم فقال تعالى (ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم) بنسخ ذلك (مالك من الله من ولىّ ولا واق) أى لا ينصرك ناصر ولا يقيك واق .

ولقد كانوا يعيبونه بالزواج والأولاد ويقترحون عليه الآيات وينكرون النسخ فنزل (ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرّية) نساء وأولادا كما أنك كذلك (وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله) فليس يقدر أحد منهم أن يأتى من الآيات بما يقترحه قومه وكيف يأتى لهم بما يقترحون وقد جاء لهم من الآيات ما فيه عبرة لمعتبر وغناء لمفكر ولكنهم أبوا إلا التحدى وازدادوا اقتراحا كما تقدم فى مقال عبد الله ابن أبى أمية . والآيات المقترحات لا تأتى إلا على مقتضى الحكمة فى أزمان علمها الله فلكل زمن حكم على العباد بمقتضى صلاحهم ولا صلاح فيما اقترحوه ، وهل من صلاح المراهق أن يرضع اللبن من ظئره ، فإذا لم يحسن فى الحكمة أن ترضع الظئر شابا قويا وأن يجعل لمراهق مهد يكون فيه . هكذا لا حكمة فى إنزال الآيات التى اقترحوها ، وهذا إيضاح قوله (لكل أجل كتاب) أى لكل أمد حكم لا يحسن سواه فيه ، فلا آية من المقترحات بنازلة قبل وقتها ، ولا عذاب مما خوفوا به بحاصل فى غير وقته ، ولا نبوة حاصلة فى غير الزمان المقدر لها كموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام كل حكم الله بوجوده فى زمانه الخاص به لا يتقدم ولا يتأخر وهكذا انقضاء أعمار الناس ووقوع أعمالهم وأحوالهم كلها كتبت فى آجال ومدد معلومة لا تقديم ولا تأخير . ألا إنما مثل هذه الدنيا من كواكبها وشموسها وأرضها وزرعها كمثل مدرسة رتبت فصولها ونظمت حجرها وأقيم كل مدرس فى درسه وجعل له علم مخصوص والتلاميذ لكل من هؤلاء سامعون وناظر المدرسة قد رتب لها مناهج وقوانين وأوقاتا لامتحان التلاميذ ونهايات لأعمالهم . فترى المدرسين كل يوم يعملون وينصرفون إلى أماكنهم ويرجعون ، والمنهج المرسوم لا يتغير ولا يتبدل ، فهكذا هذه الدنيا قد جعل الله لها فى علمه القديم نظاما كأنها مدرسة وهذا النظام على مقتضى الحقائق الثابتة التى تعلق بها علمه وعلى ذلك العلم جرت الشمس والقمر والكواكب وظهر النبات والحيوان وتعاقب الموت والحياة وظهرت نجوم وفنيت أخرى ونبت زرع وحصد آخر وقام نبىّ ومات آخر وامتد دين وقاص آخر ، وكل كوكب من الكواكب التى تصلح للحياة كأرضنا صار كأنه صحيفة يكتب فيها ويمحى على مقتضى المحو والإثبات عند الملائكة وذلك تبع لما رسم فى المنهج الأصلى تتعاقب الأمم والأجيال والزروع والدول والأحكام والنظم ويتعاقب قدماء المصريين واليونان والرومان والعرب والتتار وأوروبا وأهل الشرق عليها كل ذلك محو وإثبات على مقتضى المنهج المرسوم ، وهكذا تنسخ آية من القرآن ويؤتى بغيرها كما نسخ زرع بزرع وليل بنهار وقوم بقوم ودين نبىّ بآخر كل فى وقته . وهكذا يتصدق زيد على رحمه فيطول عمره ويجتهد الرجل الهندى من الطائفة المسماة (راجايوقا) فيحصر نفسه الذى يتنفسه على هيئة مخصوصة كما فى بلاد البنغال وغير البنغال هذه فى الهند ويبتعد عن الناس فيسكن حركات قلبه دقائق كل يوم بالتدريج فيكون عمره أطول من أعمارنا عشرات السنين ويبطئ شيبه كما قرأته فى كتاب (راجايوقا) بالإنجليزية مترجما عن اللغة الهندية وقد كان ألقى خطبا فى نيويورك سنة ١٩٦٥ وسنة ١٩٥٦ قبل الميلاد فهذا كله يحصل على مقتضى ما رسم فى العلم القديم ، وهذا التفسير جمع لك سائر الأقوال .

(١) فإذا سمعت علماءنا رحمهم الله يقولون : [يمح الله ما يشاء من الشرائع بالنسخ ويثبت ما يشاء فلا ينسخه ولا يبدله] أو قرأت حديث البخارى ومسلم عنه صلى الله عليه وسلم .

(٢) « إن خلق أحدكم يجمع فى بطن أمه نطفة أربعين يوما ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث الله ملكا بأربع كلمات يكتب رزقه وأجله وشقى أو سعيد ثم ينفخ فيه الروح، فوالذى لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى مايكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى مايكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها » .

(٣) وكذا إذا سمعت بعض العلماء يخص المحو بما ليس فيه ثواب ولا عقاب من قول الإنسان أكلت وشربت والإثبات بما فيه ثواب وعقاب .

(٤) وكذا إذا سمعت آخر كالحسن يقول : [يمحو الله من جاء أجله ويثبت من بقى أجله] .

(٥) أو قول عكرمة : [يمحو الذنوب بالتوبة ويثبت الحسنات بدلها] .

(٦) أو قول السدى : [يمحو الله القمر ويثبت الشمس] .

(٧) أو قول الربيع : [يقبض الله الأرواح عند النوم فيميت من يشاء ويمحوه ويرجع من يشاء فيثبته] .

(٨) أو قول بعضهم : [يمحو الله حكم السنة الماضية ويثبت حكما آخر للسنة بعدها] .

(٩) أو قول بعضهم : [يمحو الله الدنيا ويثبت الآخرة] .

(١٠) أو قول آخر : [يمحو الله المحن والمصائب بالدعاء] .

فاذا سمعت هذه الأقوال كلها فاعلم أنها لاتناقض فيها بل هى جارية على القاعدة التى ذكرناها داخلة فيها ، والحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، وأما أن الإنسان يعمل بعمل أهل الجنة ثم يسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار وعكسه فذلك أيضا مما سبق به الكتاب وذلك مشاهد معروف كل يوم ، إن الإنسان يكون معتادا عوائد جميلة ثم يعمل عملا سيئا على غير عادته فتغلب العادة الجميلة عليه فيعمل العمل الصالح وتغلب حسناته على سيئاته ، فيدخل الجنة ، وهناك رجل غلبت عليه العادات السيئة فلازمته فتكلف الأعمال الصالحة فعمل بها ولكن السيئات غلبت عليه فزحزحته عن الجنة لأن الصلاح ليس من طبعه وذلك كرجل يصلى ويصوم وهو دائب فى رفع القضايا الكاذبة على أهله وجيرانه فهذا سبق عليه الكتاب وغلبت عليه سجيته ، هذا تحرير المقام فى قوله تعالى : « يمح الله مايشاء ويثبت وعنده أم الكتاب » وإذا عرفت الحقيقة فسواء أكان أم الكتاب هو علم الله والتغيير فى اللوح المحفوظ الذى قال فيه ابن عباس من باب ضرب المثل لنا [إن لله لوحا محفوظا مسيرة خمسمائة عام من درة بيضاء له دفتان من ياقوتة لله فيه كل يوم ثلاثمائة وستون لحظة يمح الله مايشاء ويثبت وعنده أم الكتاب » أو أم الكتاب هو اللوح المحفوظ الذى لاتغيير فيه ولاتبديل والتغيير عند الملائكة فى صحفهم التى يكتبونها فيمحون ويثبتون فسواء أكان هذا أو ذاك فالخلاف لفظى والحقيقة لم تتغير فهناك أمر واقع وأمور مبدلة وتغيير الأسماء لايضيع الحقائق اه ثم قال تعالى (وإما نرينك بعض الذى نعدهم) من العذاب (أو نتوفينك) من قبل أن نريك ذلك (فانما عليك البلاغ) أى ليس عليك إلا تبليغ الرسالة إليهم من الله فلا تهتم بما سينالهم ولكن اهتم بما أوحيناه عليك وهو البلاغ (وعلينا الحساب) أى نحاسبهم يوم القيامة فنجازيهم بأعمالهم .

ثم اعلم أن الله عز وجل وضع هذا العالم على نظام التغير والتبدل كما مر فى آياته « يمحو الله مايشاء ويثبت » وقد أوضحت فى سورة البقرة مسألة نسخ الآيات القرآنية فلم أعدها فى آية المحو والاثبات هنا فأما هذه الآيات فقد نزلت لحال خاصة ، هى التغير فى أطراف الأرض بالخراب والعمارة وغلبة قوم وخذلان آخرين

وبانهيار شاطئ البحر بفعل الماء ثم يزيد فى جهة أخرى وتبطيط الكرة الأرضية عند القطبين وانقلاب البحر برّا بطول المدى وتطاول السنين أو بموت العلماء فيقبض العلم فهذا نقص فى أطراف الأرض ، وهذا عن الجوهرى وثعلب أو الأطراف الأشراف . قال الفرزدق :

واسأل بنا وبكم إذا وردت منى أطراف كلّ قبيلة من يتبع

وكذلك بفتح دار الحرب بأيدى المسلمين فكان لهم النصر والغلبة وهذا نقص من أطراف تلك الأرض ، والمقصود من هذا أن التبدل حاصل فى أطراف الأرض فمن خراب وعمارة وذلّ وعزّ ونقص وكمال فهل أمن كفار مكة أن نبدلهم بعد عزهم ذلا وبعد غناهم فقرا وبعد حياتهم موتا ، وإذا كان فتح البلاد بيد المسلمين قد أحاط ببلادهم وقد نقصنا الأرض من أطرافها فهل أمنوا أن يمتد إلى بلدتهم والعاقل من يتدبر ويتفكر ويعتبر فما لهم لا يستبصرون ؟ (والله يحكم لا معقب لحكمه) المعقب الذى يكرّ على الشئ فيبطله وقيل لصاحب الحقّ معقب لأنه يقفو غريمه بالاقتضاء ، وههنا حكم الله للإسلام بالاقبال وعلى الكفر بالادبار وما حكم به تعالى لا يمكن نقضه كما حكم على أطراف الأرض بالنقص بمقتضى النظام الذى وضعه والقانون الذى سنه (وهو سريع الحساب) فيحاسبهم عما قليل فى الآخرة بعد العذاب بالقتل فى الدنيا (وقد مكر الذين من قبلهم) أى كفار الأمم الخالية والأجيال البائدة بأنبيائهم ، والمكر إرادة المكروه فى خفية ، وما هذا المكر بشئ إذا قيس بمكر الله (فلله المكر جميعا) وكيف يؤبه بمكرهم وهو (يعلم ما تكسب كل نفس) فيعدّ جزاءها (وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار) من الحزبين أى العاقبة المحمودة ، وإذا علم الله عمل كل نفس وأعدّ لها جزاءها بحيث يقع العذاب على المذنب وهو فى غفلة على خلاف ظنه وهو لا يدرى فهذا هو المكر كله (ويقول الذين كفروا لست مرسلا) لما أنكر الكفار كون محمد رسولا قال الله له (قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم) بالمعجزات وبلاغة القرآن (ومن عنده علم الكتاب) أمثال عبد الله بن سلام لعلمه بالتوراة والمسلم الذى عرف إعجاز القرآن فهؤلاء يشهدون برسالتى ، انتهى التفسير اللفظى لسورة الرعد والحمد لله رب العالمين ، وهنا [جوهرتان] :

الجوهرة الأولى فى الكلام على البرق والرعد والسحاب والصاعقة فوق ما تقدم فى الآيات

اعلم أن هذه الأربعة ذكرت فى أول سورة البقرة فى قوله تعالى « مثلهم كمثل الذى استوقد نارا الخ » إذ جعل القرآن كالمطر ووعيده كالرعد وحججه كالبرق والهلاك الذى يصيب المجرمين كالصاعقة فارجع إليه هناك ولكن هذا ملخصه وهذا لسان البيان المعبر عن حال الوجود لأن اللسان [لسانان] لسان البيان ، ولسان الوجود ، فأما لسان البيان ومنه لسان الوحى فهو المعبر عن المعانى التى كمنت فى النفوس الإنسانية لقصور الطبيعة البشرية عن إظهار ما كمن فيها فكان هذا اللسان لجميع اللغات السامية من عربية وعبرية وسريانية وحبشية الخ ، وجميع اللغات الطورانية كالتركية فى الأناضول والقازانية فى بلاد القازان الخ ، وجميع اللغات الآرية كاللغات الهندية والأوروبية ؛ هذه كلها وأمثالها البالغة أربعة آلاف لغة لا عمل لها إلا نقل ما فى أفئدة الناس بعضهم لبعض من المعانى المقصودة لهم لينتفعوا بها ، ولو أن هذه الأنفس البشرية كانت قادرة على تفهيم بعضها بدون احتياج إلى هذا الترجمان وهو اللسان لم نستعمله ؟ إذن احتياجنا التعبير ناشئ من هذا الجسد الذى حجب بصائرنا عن الاطلاع على ما يجول بالضمائر من المعانى ، لهذا خلق الله اللسان فأخذ الناس يتكلمون ولكن أكثر هذا النوع الإنسانى قاصر لا يدرك الحقائق ، ومعنى هذا أن قصور الناس ليس خاصا بالتعبير عما يجول بخواطرهم ، كلا بل نفس هذه الأنفس ليست كاملة العلم والعقل ، فاذا عبروا باللسان عما فى ضمائرهم لم يجدوا فيها ما يكفى لإسعادهم لذلك خلق الله فيهم أنبياء وحكماء ، فالأنبياء يخاطبونهم بلسان الوحى

والحكماء يخاطبونهم بلسان البرهان والحكمة . فأما لسان الوحي فمنه القرآن الذي هو الكتاب الحكيم وقد جاء فيه « فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون الخ » يأمرنا الله بالتسبيح وبالصلاة فنصلي ونقول : سبحان الله ونحمد الله إلى آخره . هذا هو لسان الوحي وبيانه والوحي هو الذي جعل هذه الأربعة مشبها بها أحوال القرآن من حجج وعلم وإنذار الخ .

أما لسان الوجود فقد ذكره الوحي هنا فأبان أن نفس الرعد يسبح بحمد الله والناس لا يفقهون تسبيحه الناس يسبحون والرعد يسبح « وإن من شيء إلا يسبح بحمده » . الله أكبر . أنزل الله سورة سماها الرعد بعد أن ذكره في سورة البقرة بهيئة ضرب المثل وذكر معه إخوته الثلاثة هناك وهنا ، جعل هذه الأربعة هناك ضرب مثل وجعلها هنا مقصودة بل جعل أحدها وهو الرعد مسبحا وسيأتي في سورة الاسراء تسبيح كل شيء . هذا فتح باب لأن ندرس نفس هذا الوجود .

إن في الرعد وإن في الوجود حكمة وعلما وفي هذا العالم جمال العلم المعبر عنه بالبرق وانذار من يتغاضى عن هذا العلم والمعبر عنه هو الرعد وفيه نعم يعبر عنها السحاب ، وفيه هلاك يعبر عنه بالصاعقة . إذن هذا الوجود نفسه ناطق ، هو هكذا من يوم أن خلقه الله . برق جميل ورعد منذر وسحاب ممطر وصواعق مهلكة في هذه الأربعة حياة وموت وإنذار وحجة أو خوف ورجاء . الرعد والصاعقة خوف والهلاك والبرق والمطر رجاء وحياة .

إن هذه الحياة كلها ترجع في مجموعها إلى لذة وألم وغنى وفقر وعلم وجهل وكبر وصغر ورجاء وخوف وعز وذل وبالجملة محبوب ومكروه . وهذه كلها يعبر عنها البرق للأول والرعد للثاني ، هذه هي أحوال الحياة .

ومعلوم أن الحياة ضدها الموت فالحياة كالسحاب ومطره والموت كالصاعقة . فهذه الوجودات الأربع لسان هذا الوجود نطقت بما تضمنه .

إنذار الرعد للمسلمين

يظهر البرق في أكناف السماء كل حين والمسلمون ينظرون كما ينظره أهل الأرض . البرق جميل وبهيج البرق يذكر بجمال هذه الدنيا وبهجتها وحسنها ونظامها وبهائها . يحدث البرق المسلمين حديثا عن ربهم أنه كامل وجميل ونور السموات والأرض وما أمره إلا كلمح البصر أو البرق الذي يظهر في جزء من ألف ألف من الثانية ولذلك ترى الأشجار في البرق ساكنة في حال الأعصار لأن البرق في جزء صغير جدا فأعرض متأخروهم عن هذا الجمال مع أن البرق بهيج وجميل يكاد يأخذ بالألباب ويأخذ بالأبصار لما أعرضوا أسمعهم الرعد كما أسمع غيرهم والرعد صوت الإنذار الكامن في هذا الوجود . ولقد ظهر ذلك الكامن في مقذوفات المدافع العاصفة كالرعد المرمى بها من الطيارات التي اخترعها الناس في عصرنا فأهلكت الحرث والنسل . الرعد قد أشبهته الآلات الحربية الحديثة التي ظهرت في الحرب العامة من سنة ١٩١٤ إلى سنة ١٩١٨ هذه هي الرعود التي كانت كامنة في الطبيعة والرعد يعبر عنها بزمجرته فكأن الرعد يقول للمسلمين إن لم تدركوا علوم هذه الدنيا الجميلة البديعة التي تظهر لكم وقتا بعد وقت في آيات الوحي البارقة لكم البهجة التي أفادتكم أن كل شيء يسبح وأن الرعد يسبح بحمد ربه فاستعدوا لغضب الله الدال عليه بزمجرة الرعد

أيها المسلمون إما حياة بالعلم الجميل الذي ينم عنه البرق الذي هو نور الكهرباء السارية في هذا الوجود وإما موت بالجهل الذي يعبر عنه الرعد والصاعقة ، وهذا التفسير آخر إنذار للمسلمين والمسئول عن أمم الإسلام الأذكياء لاسيما من يعقلون هذا التفسير وأمثاله في بلاد الإسلام ، هذا من سر تسمية السورة بالرعد .

إن الله تعالى قد أنجهت عنايته لنا فقال إنه يرينا البرق فعلينا أن نراه ونتفكر فيه هو وما معه .

(١) الإنسان له قوى ثلاث : فالعاقلة كالبرق ، والغضبية كالرعد ، والحيوانية كالسحاب .

(٢) البرق مظهر من مظاهر الكهرباء . والكهرباء قد تدخلت فى عموم الماء والهواء والأرض وكذا الحرارة وهناك ماهو أقل لطافة من الكهرباء وهو الهواء فتدخله أقل وشموله أضعف فهو يتدخل فى الماء بدليل أن السمك يتنفس منه بما خالط منه الماء . ثم الماء تدخله أقل فهو يتدخل فى الطين . فالقاعدة أن كل لطيف يكون أعمّ وأشمل لما تحته ويحيط به فالكهرباء والضوء يحيطان بما تحتهما والهواء يحيط بالماء والماء يحيط بالأرض والله فوق الكهرباء وفوق ما تحتها فهو بكل شىء محيط .

(٣) الدول لا يتمّ نظامها إلا بجيوش جرارة يمثل لها بالرعد وعلوم وعلماء وأمراء ونوّاب يمثل لها بالبرق ، ألا ترى أن المجالس النيابية ومجالس الملوك ورجال العلم أشبه بالبرق اللامع وإن كانت الحرب قائمة على ساقها .

(٤) البرق فى علم الأخلاق كاللين والرعد كالشدة فهو ذو بطش شديد وما قبله باسم الثغر جميل الطلعة

الجوهرة الثانية فى قوله تعالى « لكل أجل كتاب »

اعلم أن جميع الأشياء محددة آجالها وأحوالها ولكنها فى ظواهرها مشكلة غير منتظمة لأحوال وعوارض تطرأ عليها ، ومن ذلك أعمار الحيوان . إن أعمارها غير واضحة من حيث نهاياتها للعوارض التى تعرض لها كما فى أحوال الإنسان ، ولكن نذكر طرفا منها على مقتضى ما ذكره (اللورد أفبرى) فى كتابه (مسرات الحياة) وان كان هو نفسه يقول : ان ذلك لم يخرج عن حدّ التقريب .

الحيوان	عدد السنين	الحيوان	عدد السنين
الأرنب	١٠	الخيل	٣٠
الغنم	من ١٠ إلى ١٢	الفيل	١٠٠
الكلاب	من ١٠ إلى ١٢	الببغاء	١٠٠
الخنازير	٣٠	الغراب	أكثر من مائة

ويقول (همبولدت) إن ببغاء كان يتكلم ولا يفهم كلامه لأنه كان بلسان قبيلة هندية منقرضة عن بكرة أبيها . ويقول إن نوعا من السمك يقال له (البق) سريع النمو يعيش (١٥٠) عاما وإن سمكا من نوع الكراكى طولها (١٩) قدما وزنتها (٣٥٠) رطلا انجليزيا وجدت فى (سوابيا) عام ١٤٩٧ حاملة خاتما منقوشا عليه هذه العبارة [أنا أول سمكة ألقاها بيده فى هذه البحيرة حاكم العالم] (فردريك الثانى) فى الخامس من أكتوبر سنة (١٢٣٠) إذن تكون هذه السمكة عمرها (٢٦٧) سنة . والزحافات طويلة الأعمار .

وقال (غونتر) إن بعض السلاحف عاش (١٥٠) عاما وبعض السلاحف قدروها باعتبار عمرها فكان ذلك (٥٠٠) عاما . وقال (أرسطاطاليس) إن ملكة النحل تعيش (٧) سنين . ويقول (اللورد أفبرى) والعلم لا يؤيد هذا أن ملكة النحل قد عاشت عند اللورد أفبرى (١٥) سنة .

(لطيفة)

فى سنة ١٩٢٦ نشر محل (رودلف موس) فى برلين الأجزاء الأولى من مؤلف غريب فى بابه اسمه [فى عالم الأرقام] وقد ذكر فيه أن عدد الذين تجاوزوا السبعين من العمر فى ألمانيا سنة ١٩١٠ ميلادية (٩٧٣) ألفا من الرجال ومليون و ٤٠ ألف امرأة ، والذين يعمرون أكثر من سواهم هكذا على الترتيب الآتى :

رجال الدين . رجال البساتين . الزراع . الصيادون . النجارون . الغزالون . الحائطون . الأطباء . الجزارون . الشحاذون .

ثم قال : إن مقابل كل مائة وفاة من رجال الدين مع مراعاة النسبة والعدد بطبيعة الحال يموت (١١٤) من الزراع و١٤٣ من صيادي السمك و١٤٨ من الخبازين و١٨٩ من الخياطين و٢٠٢ من الأطباء و٢١١ من الجزارين و٣٣٨ من الشحاذين .

ومما يناسب هذا المقام ماذكره هو أيضا أن عدد النساء يزيد فى أوروبا على عدد الرجال كنسبة ٥ إلى ٤ وفى آسيا بنسبة أقل فكل ١٠٠٠ رجل يقابلهم ٩٧٣ وفى أفريقية ٩٦٨ امرأة فقط فى مقابلة ألف رجل ، وفى استراليا أقل جدا ، اهـ .

فائدة طبية للصحة

يقول العالم اليابانى (فوكيسافا) وصايا للناس كى يعمروا طويلا .

(١) امتنع عن شرب الشاى والقهوة والسكر ولا تدخن

(٢) اشرب كل يوم ثمانية أقداح من الماء المقطر الصافى .

(٣) خذ فى الأسبوع مرتين حماما بالماء الفاتر .

(٤) اغسل أسنانك وفمك أربع مرات فى اليوم (أقول عندنا فى الإسلام ربما كان أكثر) .

(٥) لاتغضب .

(٦) لاتتأثر .

(٧) لاتأكل مأكولات مالحة .

(٨) نم مبكرا واستيقظ مبكرا .

هذا مانقل عنه . أما أنا فأقول لك : من أهم ماجربته فى حياتى للصحة مضغ الطعام جيدا مع المحافظة على ذلك ، وأن تسير فى الهواء النقى كل يوم زمنا طويلا مع الرياضة ، وأن تغتسل كل يوم ، وأن لاتأكل ليلا البتة . فإن لم تقدر فليكن الطعام خفيفا جدا ، هنالك تكون الصحة التامة .

انتهى تفسير سورة الرعد .

تفسير سورة إبراهيم عليه السلام

هذه السورة مكية سوى آيتين ، وهما قوله تعالى « ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا » إلى آخر الآيتين، وهى ٥٢ آية ، وأقسامها ثلاثة .

[القسم الأول] فى قصص الأنبياء الذين أرسلوا لأممهم تبيانا لقوله فى السورة قبلها « ولقد أرسلنا رسلا من قبلك الخ » وفى محاورات بينهم وبين أممهم إلى قوله « ومن ورائه عذاب غليظ » .

[القسم الثانى] فى عاقبة المكذبين من قوله « مثل الذين كفروا بربهم » إلى قوله « إن الإنسان لظلوم كفار » .

[القسم الثالث] فى دعاء إبراهيم من قوله « وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا » إلى آخر السورة .

(القسمُ الأوَّلُ)

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

الر * كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ * اللهِ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ * الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولٰئِكَ فِى ضَلَالٍ بَعِيدٍ * وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِى مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ إِنَّ فِى ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ * وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِى ذٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ * وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ * وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ * أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِى أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ * قَالَتْ رُسُلُهُمْ :

أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ * قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ: إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ * وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ * وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ * وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ * وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ * مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ * يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ .

التفسير اللفظى

بسم الله الرحمن الرحيم

(الر) تقدّم فى آل عمران وستراه فى جواهر إبراهيم ، هذا (كتاب) والمراد به السورة (أنزلناه إليك لتخرج الناس) بدعائك إياهم (من الظلمات إلى النور) أى من الضلالة إلى الهدى (باذن ربهم) بتيسيره ، والاذن فى الأصل تسهيل الحجاب فاستعير لما يمنحون من التوفيق ثم أبدل من «إلى النور» قوله سبحانه (إلى صراط العزيز) الغالب بالانتقام (الحميد) الذى يحمد على إنعامه (الله) بالجرّ عطف بيان للعزيز والرفع مبتدأ خبره مابعده (الذى له ما فى السموات وما فى الأرض) وهذه الجملة الجميلة قد كررت فى القرآن فى كل سورة وكل قصة للدلالة على أن مقصود هذا الدين أن يخرج فى العالم قوم نجباء حكماء ربانيون فضلاء ، نعم سيكون ذلك وسيكون من هذه الأمة بعد ما استبان فى كتب المسلمين المعاصرين لنا أمثال مانبينه فى هذا التفسير من عجائب السموات والأرض وبدائعهما وكيف كان القرآن يحث على كل عجيبة وغريبة ، وإذ جاء فى سورة يوسف « وكأين من آية فى السموات والأرض الخ » ثم جاء فى سورة الرعد بما يوضح بعض مطالبها جاء هنا ذكر السموات والأرض كرة أخرى تذكيرا لما بيناه فى سورة الرعد واستبصارا لما ذكرناه وتشويقا لما خلقه فى الأرض والسموات .

فياعجبا لأمتنا الإسلامية يكرر على أسماعهم صباحا ومساء فى كل مناسبة وفى كل حالة « الذى خلق السموات والأرض » وكثير منهم يظنون أن مجرد الإيمان يكفى ولو كان ذلك كافيا لكان ذكر الخبز وسماعه عند الجوع كافيا فى الشبع فوالله لم يكرر هذه الجملة ربّ السموات والأرض بلا سبب بل جعلها تذكيرا وترغيبا وتشويقا إلى صنعة الحكيم الخبير « الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض » .

وتعجب كيف أتى بعدها بقوله : (وويل للكافرين) الذين غفلوا عن السموات والأرض وبدائعهما وهم مخلوقون بينهما ، وكيف يسلمون من العذاب وهم أتوا إلى الأرض وراحوا منها صفر اليدين فتركوا

عقولهم وشغلوا بالأمور المحسوسة التى فطروا عليها لقصد حياتهم وحياتهم إنما جىء بها لكمالهم فضلوا عن الكمال ومالوا إلى الوقوف عند حد المألوف فحبسوا فى سجن الشهوات إلى الممات فويل لهم (من عذاب شديد) معدّ لهم فى الآخرة بل ما أشد عذابهم فى الدنيا حينما يسمعون أن قوما أعطوا علما وهم منه براء قد حبسوا عنه وتحسروا عليه وهم غافلون ، والويل ضد الوأل : وهو النجاة أى هلاك لهم مبتدأ وخبر .

• ولما كان هؤلاء المحبوسون فى سجن الأنفس عن جمال السموات والأرض قد حصروا عقولهم فى هذه الحياة أخذوا يصدّون غيرهم عن معرفة الحقائق السماوية والأرضية وعن الإيمان ليكونوا مثلهم لأن النفس تحب أن يكثر أمثالها لذلك وصف الله الكافرين بقوله : (الذين يستحبون) يختارون ويؤثرون (الحياة الدنيا على الآخرة ويصدون عن سبيل الله) عن دينه (ويبغونها) يطلبون لسبيل الله (عوجا) زيغا واعوجاجا والأصل يبغون لها فحذف الجار وأوصل الفعل إلى الضمير (أولئك فى ضلال بعيد) فهؤلاء ضلوا عن الحق وذهبوا عنه بمراحل وليس الضلال هو الذى يبعد وإنما البعد لنفس الضالّ فوصف الضلال بالبعد مبالغة لما بينهما من الملابسة (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه) بلغة قومه الذين نشأ بينهم (ليبين لهم) ما أمروا به فيفقهوه بسهولة وسرعة فاذا كان الرسول مرسلا لقومه خاصة فلا مراء فى ذلك . فأما إذا كان دينه عاما كنبينا صلى الله عليه وسلم فهناك مجال الترجمة والنقل وذلك داع إلى الاجتهاد والكدّ ، وذلك فيه ترقية لنوع الانسان فارتقاء العقول على حسب الاطلاع وإعمال الفكر واستقامة الأعمال : أى وهذا الكتاب أنزل بلغة العرب وهو يتلى عليهم فأىّ عذر لهم إن لم يفقهوه وما الذى صدهم أن يدرسوا ماذرأ الله فى الأرض والسموات حتى يعرفوا صدق آياته أنهم [فريقان] فريق هداه الله وفريق حقت عليه الضلالة وإن كان القرآن بلسانهم جميعا فلذلك قال تعالى (فيضل الله من يشاء) فيخذله عن الإيمان (ويهدى من يشاء) بالتوفيق (وهو العزيز) فلا يغلب مشيئته غالب (الحكيم) الذى لايضل ولايهدى إلا على مقتضى الحكمة والنظام

ولما كان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم قد أرسل لإخراج الناس من الظلمات إلى النور ذكر الله قصة موسى مختصرة وفيها نص ماجاء فى أول السورة ليأنس الناس بقصص الأنبياء ، وأن الله لم يترك أمة من الأمم إلا وأرسل لها هداة يهدونها ، وهذا موسى قال الله فيه (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا) كاليد والعصا (أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور) أن تفسيرية بمعنى أى لأن فى أرسل معنى القول (وذكرهم بأيام الله) بوقائعه فى الأمم السابقة . يقال فلان عالم بأيام العرب أى بوقائعهم فمامن أمة إلا ولها وقائع تشمل النعمة والنقمة ، فالنعمة للمؤمنين منهم والنقمة للكافرين ، ومنها وقائع بنى إسرائيل أنفسهم فانهم ابتلوا بالاستعباد نقمة وبالنجاة من فرعون وقومه نعمة فيرجع الأمر إلى الترغيب والترهيب (إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور) أى إن فى وقائع الأمم الماضية وحوادثها وما أنعم الله به عليهم من السراء بعد ما أصابهم به من الضراء لآيات لكل من يصبرون على البلاء ، ويشكرون على النعماء ، فهؤلاء متى عرفوا ماأصاب من قبلهم من الكوارث وكيف صبر قوم فنالوا أعلى الدرجات ولم يصبر آخرون فنزلوا فى أدنى الدركات اعتبروا وقاسوا ماحلّ بأنفسهم على ماحلّ بمن قبلهم وجاهدوا فى الحياة والعلم جهادهم وإذن ينالون مثل مانالوا ، فأما ماسوى الصابرين الشاكرين على النعم الذين يصرفون كل ما أنعم الله به عليهم فيما خلقوا لأجله فانهم لاينتفعون بذلك ، إن الإنسان فى الحياة بين صبر وشكر أبدا فهو إما فى مكروه ، وإما فى محبوب فان صبر على الأول وانتهز فرصة النعمة بالثانى وصرفها فيما خلقت له فذلك هو الذى اعتبر بالقرون الخالية والأمم الماضية ولاسعادة بغير الصبر والشكر ومن الشكر

صرف الحواس فيما خلقت له وعدم ضياعها سدى ، ومنه انتهاز فرص الحياة فلا يمر وقت على الإنسان بلا عمل .

إن الوقت ذهب ومتى ضاع من حياتنا لحظة بلا عمل أسديناه ولا علم حررناه ولا بناء أقمناه ولا مجد بنيناه فقد كفرنا النعمة وأضعنا الفرصة ولم نعتبر بالأجيال البائدة والأمم الغابرة ، إن الحياة لنا فرصة عظيمة فلنشكرن الله والشكر صرف كل ماأعطيناه فيما خلق له ، فليخف كل امرئ من ضياع حياته بلا عمل يليق به وليخف من ندم أبدى وحزن سرمدى على وقت يضيع وعذاب مريع .

ولما سمع موسى أمر ربه امتثله وأخذ يذكر قومه بأيام الله فقال الله : (وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون) أى اذكروا نعمة الله وقت إنجائه إياكم الخ ، فإذ متعلق بنعمة وقوله سبحانه (يسومونكم سوء العذاب) يعذبونكم بأشد العذاب كما تقدم فى سورة يونس مما نقلناه عن اللغة [الهيروغليفية] والآثار المنقولة عنهم يقينا من الضرب والاذلال (ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم) هذه أحوال من آل فرعون (وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم) أى ابتلاء وهذا يوم من أيام الله معكم ففيه نقمة التعذيب وغيره وفيه نعمة الانجاء ولذلك أعقبه بما هو كالنتيجة له فقال (وإذ تأذن ربكم) أى آذن كتوعد وأوعد ، وهو من كلام موسى : أى واذكروا يابنى إسرائيل حين أعلم ربكم فقال (لئن شكرتم) يابنى إسرائيل ما خولتكم من نعمة الإنجاء وغيرها من نعم كالسمع والبصر والسماء والأرض وما فيهما بالعلم بما فيهما والعمل الصالح كالصلاة والطاعات (لأزيدنكم) فانه ثبت عقلا وعلما أن العضو الذى يناط به عمل كلما مرن عليه ازداد قوة على قوة وكلما عطلناه عن العمل ضمر وانحل وضعف . هكذا جميع النعم إن استعملت فيما خلقت له بقيت وإن أهملت ذهبت وهذا قوله تعالى هنا «لئن شكرتم لأزيدنكم» «ولئن كفرتم إن عذابى لشديد » بحرمانكم من النعم وسلبكم للمواهب وثمراتها فى الدنيا والآخرة فتعذبون فى الدنيا بزوال النعم وفى الآخرة بجهنم وبئس القرار ، على أن الله لم يطلب الشكر من العباد لمصلحة ولا لتسخير وإذلال بل أمر بذلك رحمة منه فمن لم يقبل طبعه ماأهدى من النعم فالله غنى عنه مستحق الحمد فى ذاته تنطق بحمده الذرات فى جميع المخلوقات وهذا قوله تعالى (وقال موسى إن تكفروا) إلى قوله (غنى حميد) ولما ذكرهم موسى بنعمة الانجاء من آل فرعون وحذرهم من عاقبة كفر النعم أخذ يذكرهم بأيام الله فيمن قبلهم من الأمم السابقة والأجيال البائدة بطريق عجيب وأسلوب بديع ونظام طلى ومقال جلى فذكر القول إجماليا وأوضح المحاورة إيضاحا حسنا بهيا إذ أرسل موسى عليه السلام القول كالمحاورة بين الأمم والأنبياء على المنهج العام فى هذا المقام فذكر أن قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم من أمم جلت عن الاحصاء ، غاب عن الناس علمها وعند الله إحصاؤها (جاءتهم رسلهم بالبينات) كما جاء نبينا صلى الله عليه وسلم بها وتليت على الناس ليعتبروا (فردوا أيديهم فى أفواههم) أى عضوها غيظا مما جاءت به الرسل كما حصل من العرب للنبى صلى الله عليه وسلم وغلبهم الحقد والحسد والغضب فنطقوا بما تكن قلوبهم (وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به) بزعمكم وزادوا ذلك تأكيدا فقالوا (وإنا لفى شك مما تدعوننا اليه مريب) موقع فى الريبة وهى قلق النفس ، فرد الرسل عليهم وقالوا (أفى الله شك) همزة الإنكار دخلت على الجار والمجرور لأن المقام مقام للشكوك فيه أى إنما ندعوكم إلى الله وهل هو محتمل الشك ووصفه بما هو برهان وهو عين البرهان المذكور فى أول السورة فهناك يقول « إلى صراط العزيز الحميد . الله الذى له مافى السموات ومافى الأرض » وهنا فى محاورات الأنبياء جاء بنفس الوصف فقال واصفا الله (فاطر السموات والأرض) فالعبارة متحدة عند الأنبياء فى كلام موسى وعند صاحب شرعنا صلى الله عليه وسلم وكل نبى منهم جعل مطمح نظره توجه النفوس إلى علوم السموات والأرض ، فأولا يؤمنون ثم

بعد ذلك يزدادون بقبول النعمة التي في السموات والأرض، وإلا نزل بهم العذاب ، ثم قال (يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم) لأنهم ملوثون بالجهالة والمعاصي ، فعبر الله بمن هنا وفي كل موضع ذكر فيه مغفرة الذنوب للكافرين لأنه يخاطبهم في أمر الإيمان وحده. فأما المؤمنون فان مغفرة ذنوبهم موجهة إلى المعاصي فلذلك قيل لهم « هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم » إلى قوله « يغفر لكم ذنوبكم » وهكذا كثير من الآيات في القسمين وعطف عليه قوله (ويؤخركم إلى أجل مسمى) آخر أعماركم فردّ الأمم على الأنبياء (قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا) لافضل لكم علينا فلم اختصصتم بالنبوّة دوننا وذلك كما حصل للنبي صلى الله عليه وسلم فانهم قالوا « لولا أنزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » يريدون أن النبوة يجب أن تكون تبع الثروة والغنى فكيف عكس الأمر هنا ، ثم اقترحت الأمم على الأنبياء مااقترحه العرب على نبينا صلى الله عليه وسلم كما تقدم في سورة الرعد ، وهذه السورة جاءت لإتمام هذا المقام وغيره كما جاءت سورة الرعد وأتمت مقام العجائب السماوية والأرضية على مقتضى الحال، وهذا قوله (تريدون أن تصدّونا عما كان يعبد آباؤنا) ولاحجة لكم عليه وليس يجوز في العقل أن نترك أمرا بدون أن نتحقق خطأه (فأتونا بسلطان مبين) على صحة ماتدّعون من النبوّة فأما ذكر السموات والأرض وعجائبهما فلسنا نحفل بها وإنما القاهر القادر هو الذي يخرق النواميس ويغير النظام ويأتي بخوارق العادات . فأما العجائب الأرضية والسماوية فلسنا نعقلها وأن سائر البشر ليخضعون لمن يأتي اليهم بما هو خارق عن طور معتادهم فيعظمونه ويبجلونه وهذه المشاهدات المحسوسات لا نرى فيها شيئا خارقا للعادة فلا إيمان ولاتسليم إلا بما فوق طاقتنا كقلب الصاحبة ونقل الجبال مثلا وما أشبه ذلك ، فأما السموات والأرض فذلك أمر لا يعطى دليلا ولا يغني فتيلا ولا قطميرا وأن طباع جهلة الناس تحملهم على الخضوع للذين يفعلون كل ماخالف العادات ولو بطريق التمويه ، فردّت عليهم رسلهم مسلمين أنهم بشر مثلهم ولكنّ الله منّ عليهم . فأما الآيات المقترحات التي تقترحونها فلا تكون إلا باذن الله وعلى المؤمن أن يتوكل على الله ويفوّض إليه أمره ونحن أوّل المؤمنين في أممنا وكيف لانتوكل على الله وقد هدانا إلى سبل المعرفة ومن أنعم الله عليه بنعمة فليشكر الله عليها بالعمل بها وليصبر على مايصيبه في سبيلها كما تدل عليه وقائع الله وأيامه في الأمم . وإذا كنا نحن هداة الأمم فلنصبر على إيذائكم ولنشكرن على الهداية فندعوكم لله وهو شكر لنعمة الهداية كما نصبر على أذاكم وهذا عين ماجاء في أول السورة « وذكرهم بأيام الله إنّ في ذلك لآيات لكل صبار شكور » فههنا تجلى الصبر وتجلى الشكر على لسان الأنبياء أنفسهم فشكروا الله لهدايته الناس وصبروا على أذاهم وهذا هو الكمال الذي جاء في القرآن لنا معاشر المسلمين فلم تنزل هذه السورة إلا لنا .

فمن عنده مال أو علم أو نعمة فلينفع بها الناس كالنهر يسقي الزرع والشمس تضيء وليصبر على أذى الناس في جهادهم كما نرى الناس يغفلون عن ذكر أكثر النعم التي حولهم فهكذا الأنبياء أرسلوا لأممهم ولم يبالوا بإيذائهم لأن الهداة خلقوا ليعملوا ولم يطلب منهم أكثر من ذلك فهم هداة بطباعهم وذواتهم في قلوبهم ومنهم تنقل الى الناس وهذا قوله تعالى (قالت لهم رسلهم إن) ما (نحن إلا بشر مثلكم ولكنّ الله) الى قوله (ومالنا) أي وأيّ عذر لنا في (أن لانتوكل على الله وقد هدانا سبلنا) أي طرق المعارف والعلوم التي نعرفه بها (ولنصبرنّ على ما آذيتمونا) جواب لقسم محذوف أي والله لنصبرنّ (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) أي فليثبت المتوكلون على ما اتصفوا به من التوكل فلما أجاب الرسل بذلك هددتهم الأمم بالقوة بعد الجدال وأنذروهم بالإخراج من أرضهم وهو بعينه ماحصل لنبينا صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذه السورة إذ أخرج من مكة فأوحى الله إليهم بهلاك الظالمين وأن الأنبياء وتابعيهم يرثونهم فيسكنون الأرض من بعدهم واستنصر الأنبياء ربهم فنصرهم وأفلح المؤمنون وخاب كل عات متكبر، وهذا أيضا عين ماحصل لنبينا محمد صلى الله عليه

وسلم فانه أخرج إلى المدينة ونصر فى غزوة بدر وخاب كل عات متكبر من قومه ، ثم وصف عذاب هؤلاء بعد الموت بعد ما وصف هلاكهم فى الدنيا فأفاد أنهم يدخلون جهنم ويسقون فيها ما يسيل من الجلد واللحم من القيح ويتحساه ذلك المتكبر مرة بعد مرة لحرارته ونتنه ولايقدرعلى ابتلاعه وتحيط به أسباب الموت من كل مكان وما هو بميت وله عذاب غليظ غير ذلك وهذا قوله تعالى (وقال الذين كفروا) إلى قوله «غليظ» ثم قال (فأوحى اليهم ربهم) أى قائلا (لنهلكنّ الظالمين ولنسكننكم الأرض من بعدهم) تفسيره ظاهر (ذلك) أى الموحى به (لمن خاف مقامى) موقفى وهو موقف الحساب(وخاف وعيد) أى عذابى (واستفتحوا)استنصروا الله على أعدائهم معطوف على « فأوحى اليهم » (وخاب كل جبار عنيد) أى وخسر كل عات متكبر (من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد) عطف بيان لماء وهو مايسيل من جلود أهل النار وهو القيح فهوشراب أهل النار (يتجرّعه) يتكلف جرعه وهو صفة الماء أى يشربه جرعة بعد جرعة(ولا يكاد يسيغه) أى ولايقارب أن يسيغه بل يغصّ به فيطول عذابه ، يقال ساغ الشراب : جاز على الحلق بسهولة ، وإذا لم يقارب أن يسيغه فكيف يسيغه (ويأتيه الموت الخ) أى أسبابه (وماهو بميت) فيستريح (ومن ورائه) أى من بين يديه (عذاب غليظ) أى يستقبل فى كل وقت عذابا أشد مما هو عليه اهـ التفسير اللفظى .

جوهرة فى قوله تعالى « وذكرهم بأيام الله إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور »

اعلم أن كلام الله عزّ وجل سيد الكلام ، وإذا كنا نجد الأمم اليوم إذا سمعت قول وزير أوملك فى خطبة موجزة لاتبلغ بضعة أسطر تهتز الأسلاك البرقية (التلغرافات) والمسرات (التليفونات) وتصدر الجرائد والمجلات فى العالم كله بشرح ذلك وتفهيمه بحيث يكتب على الجملة الواحدة ما لايحصر بالمئات المختلفة فى الشرق والغرب فربما بلغ ذلك حمل بعير لو جمعه الناس أو أكثر فما بالك بقول الله الذى هو ملك الملوك؟

حكاية

اطلع أحد الفضلاء على ماجاء فى هذا التفسير فى قوله تعالى « واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه » فرأى أنه ربما يصل إلى (١٥) صفحة فقال هذا كثير . فقلت : أتدرى كلام من هذا ؟ هذا كلام الملك (فأدرك) قال صدقت فها أناذا الآن أبين منزلة هذه الجملة من السورة التى نحن بصدد الكلام عليها وأنها هى المقصودة منها ثم أثنى بتبيان وجيز لما كان من حوادث الدهر وأفعال الله عز وجل بالأمم الإسلامية المتأخرة ونحوها ، ثم أذكر أن العلماء بعدنا عليهم أن ينهجوا هذا النهج : أى أنهم يؤلفون كتبا ورسائل يفهمون المسلمين بها أيام الله وأن هذاهو من أخص ما فى دين الإسلام والعناية به أفضل من العناية بعلم الفقه مع فضله ونفعه العميم .

منزلة هذه الجملة من السورة كلها

لله درّ العلم ، وما أجمل الحكمة وأبدع البيان والبلاغة ! ابتدأ الله السورة :

(١) بأنه أنزل هذا القرآن ليخرج الناس من الظلمات إلى النور .

(٢) وثنى بأن كل رسول يعلم بلسان قومه .

(٣) وأبان أن موسى قبلك يامحمد جاء ليخرج قومه من الظلمات إلى النور .

(٤) وكأنه هنا قيل : بماذا أخرج موسى قومه من الظلمات إلى النور حتى يخرج محمد أمته من الظلمات إلى النور بالطريق الذى سلكها موسى فقال « وذكرهم بأيام الله » وهذا بيت القصيد فى السورة ، فحوادث الله ووقائعه فى الأمم ونعمه وبلاؤه يتذكرها يخرج الناس من الظلمات إلى النور [خطة موسى فى التذكير بأيام الله] .

(٥) ذكرهم بنجاتهم من فرعون .

(٦) وبأن الشكر يجلب المزيد والكفر يورث العذاب .

(٧) وذكر لهم وقائع الأمم السالفة .

(٨) وهلاك الكفار منهم وحسن العاقبة لأنبيائهم بعد صبرهم على التبليغ والإيذاء .

(٩) كل امرئ مسئول عن نفسه ، فالضعفاء مسئولون وإن زين لهم الشيطان أعمالهم وغرهم الرؤساء .

(١٠) وقصارى الأمر وحاداه أن الحكمة إذا بدئ بها فى أمة عمت فهى كشجرة أصلها فى العقول وفرعها فى الأمم جيلا بعد جيل ، وهذا الإجمال تفصيله فى ذكر خلق السموات والأرض وإنزال المطر وإخراج الثمرات وجرى السفن وجرى الأنهار والشمس والقمر وما فوق ذلك من نعم لا تحصى .

هذا هو أهم أيام الله وما تقدم مقدمات له فهو أعظم التذكير بتلك الآيات ، وختم السورة بدعاء إبراهيم ألا يكون أبناؤه مقلدين جامدين وعبر عن هذا بعبادة الأصنام وختم السورة بما ابتدأها وهو أنه بهذا يذكر أولو الألباب .

يقول سبحانه أولا ذكرهم بأيام الله ويختم القول بأن هذا القول فى هذه السورة كفاية الناس : أى إن للوعظة بحوادث الأمم كافية لارتقاء الشعوب إذا تذكروها وعقلوها فبدأ بالذكرى وختم بها . إذن المقصود من السورة كلها هذا البلاغ وهو التذكير بأيام الله .

كيف نذكر الناس اليوم بأيام الله ؟

اعلم أن هذه السورة وحدها كافية لإرشاد الأمم الإسلامية على شريطة أن تكون لنا عقول وأفهام حتى تعلم الأمم الإسلامية . ألا وإن هذه جملة واحدة كافية لسعادة الأمم الإسلامية ، فوالله لو لم يكن هناك قرآن غيرها لكفت ؛ وهذا هو قوله «بلاغ» فهذه الجملة وتوابعها كفاية لإسعادنا إذا كنا عاقلين فبشرحها وتذكير الناس بما حولنا وما سبق لنا ننقذ أممنا من الهلاك .

فأما قراءة القرآن وإعرابه والصلاة به وكثرة الثرثرة بأن القرآن بليغ أو فصيح فالاقتصار عليه صفة العاجزين ، فوالله ما نزل القرآن إلا لما هو أرقى من البلاغة والفصاحة التى صارت مشهورة لاكتها الألسن وأنستها الطباع فلنهجم على المقصود من القرآن ونقول :

انظر كيف قال : إن كل رسول مرسل بلسان قومه ؟ لماذا ذكر هذه هنا وأتبعه بقوله «ليبين لهم» وأى مناسبة لها بهذا المقام ، فاعلم أنه أوردها هنا ليفهمنا أنه ليس المدار على مجرد القول بل المدار على البيان والتفهيم فإذا كان الرسل جاءوا بلسان قومهم فهذا معناه أن المدار على ما يؤثر فى العقول ومن ذلك حوادث الأمم وأيام الله ، فإذا ذكر موسى بنى إسرائيل بما وقع لهم وللأمم قبلهم فليذكر علماء الإسلام وحكماؤه ووعاظه الأمم الإسلامية بالوقائع التى هى أقرب أثرا وأشد وقعا ، فإذا قال موسى لقومه : أنتم خلصتم من ذل فرعون ونجوتم فاذكروا هذه النعمة ، فإن لم تشكروها عذبتكم فليس معناه أن عالم الإسلام يقول هذا القول حين يفسر للمسلمين ، كلا ثم كلا . عالم الإسلام الذى يقوم بنشر الدين يصطفى من الحوادث ما يؤثر فى عقول الأمة حاذيا فى ذلك حذو موسى عليه السلام إذ اصطفى ما يناسب قومه وذلك إنما أخذناه من قوله تعالى «وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم» فالمدار على البيان الذى يعقله القوم فالقرآن نزل لننسج على منواله ونذكر الناس بما يناسب عقولهم . هذه هى عجائب القرآن التى يعجز عنها الفصحاء والبلغاء والحكماء . كلام عام مملوء حكما وغرائب .

هذا تذكيرى للمسلمين

ها أنا ذا أبدأ بتذكيرى للمسلمين :

(١) ذلّ الأمم العربية قبل ظهور الإسلام .

(٢) عزهم باتباع الإسلام واجتماع كلمتهم .

(٣) فتحهم بلاد الله شرقا وغربا .

(٤) انتشار اللغة العربية التى صارت أداة التفهم بين أمم فى الشرق والغرب .

(٥) ترجمة العلوم ونبوغهم فيها .

(٦) انحطاط العلم فى بلاد الإسلام بعد ارتفاع شأنه .

(٧) اضطهاد العلماء بنظام هذا الوجود الذى هو أهمّ أيام الله فى السورة كنظام الفلك والطبيعة وأخصهم ابن رشد .

(٨) انتقال العلم بعد أن هجره المسلمون على يد تلاميذ ابن رشد إلى أوروبا .

(٩) تفوّق الأوروبيين على المسلمين فيها اليوم .

(١٠) اضمحلال الدولة العباسية فى الشرق والأموية فى الأندلس ثم هلاك المسلمين وطردهم من أوروبا وهلاك الأمم الجاهلة كأهل أمريكا الأصليين وأهل استراليا الأولين . كل ذلك لأنهم لم يستيقظوا من الغفلات .

هذه هى الذكريات التى سأذكرها للأمم الإسلامية إجمالا ليعلموا مستقبلهم ويقيسوا المستقبل على الماضى اقتداء بموسى عليه السلام الذى قال الله لنبيه صلى الله عليه وسلم فيه وفى أمثاله « فبهداهم اقتده » والنبى صلى الله عليه وسلم الآن عند ربه وقد جاء فى القرآن فى سورة الأنفال وغيرها تذكير المسلمين بأيام الله فى أحوالهم الخاصة كما فعل موسى عليه السلام ، فموسى أخرج قومه من الظلمات إلى النور بالكلام على فرعون ونجاتهم منه وهكذا ، ومحمد صلى الله عليه وسلم ذكر الله على لسانه فى سورة الأنفال ما يناسب المسلمين .

انظر ما هناك فقد ظهر (١٤) حادثة فى وقعة بدر بينها الله كلها تذكيرا للمسلمين ، فذكر البشارة بالملائكة ، وكيف غشيهم النعاس وقت الشدة ، وكيف نزل الماء لهم فتطهروا ، وكيف ثبتت الأقدام وهكذا مما تجده واضحا هناك فى التفسير .

فاعجب للقرآن كيف ذكر الله المسلمين بوقائعهم على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم وذكر بنى إسرائيل بوقائعهم وهذا من غرائب القرآن ، أنا الآن أعتقد أنك أيها الذكى مقتنع ، أنى إذا ذكرت المسلمين اليوم فإنما أذكرهم بما هو أحسن من الحوادث وأقرب لهم وذلك فى كل زمان بحسبه ، هذا هو دين الله .

فلأشرح هذه الفصول على ترتيبها فأقول :

الفصل الأول من أيام الأمم الإسلامية

لما وصلت إلى هذا المقام اطلع عليه صديق مخلص عالم فقال :

(س) إن هنا خطوة واسعة لم أجدها فى هذا التفسير من قبل ، إن ما أزمعت على تسطيره اليوم من الغرابة بمكان لأنك هنا ستجمع ملخص ما وصل إلى العرب من العلم ، وأهمّ ما جاء فى الكشف الحديث إجمالا وما انتاب المسلمين من حوادث الدهر والقهر والجهل . وسيكون هذا المقام حافلا بأمور شتى ، فحدثنى هل هذا تقتضيه هذه الجملة ؟ « وذكرهم بأيام الله » .

(ج) فقلت أرأيت لو سمع المسلم قارئا يقرأ « إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا » وأخذ يكررها ألف مرة كل صباح وكل مساء ، فهل يكون مصليا بهذا ، قال كلا ! بل قارئا فقط ، قلت وهكذا في الزكاة والحج ، قال نعم ! قلت هكذا هنا ، فإذا سمعت هذه الآية فليس معناه أنك تقرؤها أو تفهم بمعناها أو تعربها أو تعرف بلاغتها فحسب ، فكل هذه صناعات لتعليم الصبيان كيف يفهمون ونحن الآن في مقام العلم والحكمة ومقاصد القرآن ، فإذا كانت الصلاة والزكاة غير الأمر بهما فهكذا التذكير للمسلمين غير الأمر به .

وإذا كان المسلمون ألفوا الصلاة والزكاة كتبا فأولى ثم أولى تذكير المسلمين بالوقائع التي حلت بساحتهم أو كانت قريبة منهم حتى يحترسوا مما وقع فيه أسلافهم كما سأفصله قريبا ، وما دام المسلم لاهيا عما حدث له في نفسه فإنه لايعتبر ولا يتذكر في أخلاقه ورقيه ، هكذا الدولة إذا جهلت ما أحاط بها من النافع والضار والحوادث التي جرت عليها وعلى أسلافها فإنها واقعة في الهلاك عاصية ربها معرّضة للعذاب في الدنيا والآخرة وهناك يقال لها « يوم يأتي بعض آيات ربك لاينفع نفسا إيمانها الخ » .

(س) فقال كيف تقول إن التأليف في هذا أولى من التأليف للصلاة .

(ج) قلت ستعرف هذا من الحوادث التي مرّت بالمسلمين وأنهم بالأندلس بعد ما استقروا هناك وعاهدهم المسيحيون على تأدية العبادة وحريتهم فيها غدروا بهم وألزموهم ترك الغسل من الجنابة وترك الصلاة فماذا أفاد المسلم من علم الصلاة وهو لا واقي له ولا حافظ يحفظ سلامته وأمنه في دياره ؟

وهكذا سترى قريبا كيف كان جهل المسلمين أيام (قطب أرسلان) وهجوم التتار والمغول على المسلمين ، فقد كانوا جهلاء بقوة جيرانهم فانقضوا عليهم على غرة وهم ساهون ، وهكذا بلادنا المصرية لما انقضّ عليها الفرنسيون في أوائل القرن الثالث عشر الهجري كانوا يجهلون قوة عدوهم ويغترون بأنفسهم ، بل كانوا يجهلون ما أمر به الدين الإسلامي من الحجر الصحي أيام الطاعون الذي ورد به الحديث ، والفرنسيون يأمرونهم به وهم لايعلمون أنه في الحديث الشريف وفي أعمال عمر بن الخطاب وعدوه عملا وحشيا ، كل هذا ستراه قريبا ، فاذا ذكرنا المسلمين بمثل هذا فإنهم يعرفون أن الدين إلى الآن لم يدرس ولم يعرف إلا قشوره ويؤلفون في كل علم وفنّ ، فجهل قوة الدول وجهل الأمور الصحية التي ورد بها الحديث مثلا كالحجر الصحي .

كل ذلك يذل الأمم ، فاذا تذكرناه احترس أبناؤنا من الوقوع فيه بعد الآن لاسيما أن هذه تعد في الإسلام من فروض الكفاية ، وفرض الكفاية قال جمع من العلماء إن ثوابه أفضل من فرض العين لعموم نفعه للناس قاطبة ولأن فرض العين ربما لايتمّ إلا بكثير من فروض الكفايات فهو أشبه بالحارس لفرض العين ، وكيف تعيش في بيتك إن لم تكن آمنا ؟ لذلك يكون القول بفضله على فرض العين وجيها .

(س) قال إذن ذكرني قبل أن تذكر المسلمين لأني أول من اطلع عليه فليكن محاورة بيني وبينك حتى تألفه النفوس وتأنس به العقول .

(ج) فسل ماتريد ؟

(س) فاذكر الفصل الأول من الفصول التي تريدها وهو الكلام على ذلّ الأمم العربية قبل ظهور الإسلام

(ج) إن هذا المقام سهل المنال معلوم لقراء هذا التفسير إذ هم غالبا يعرفون أن العرب كانوا متفرقين شراذم مختلفين طرقا ومشارب كانت آلهتهم كما قال سديو الفرنسي : بهائم ونباتات وغزلانا وخيلا وجمالا ونخلا وأعشابا وأجساما معدنية لانظام لها وصخورا وأحجارا وأصناما كهيكل اللات والعزى ، ونجوما

كالدبران والشعرى اليمانية وسهيل ، ومنهم يهود تملوا من اليهود الذين حلوا بلادهم بعد أن طردهم اليونانيون والرومانيون وذلك فى بعض بلاد الحجاز واليمن ، ومنهم براهمة فى بلاد عمان ونصارى فى غسان وفى العراق والبحرين ودومة الجندل وهكذا . ولا جرم أن تفرق العقائد والأخلاق يتبعه اضطراب السياسة ولذلك كانت بلادهم معرضة للأمم المحيطة بهم ؛ فكانت اليمن تغزوها الحبشة ولم تخلص منها إلا قبيل البعثة ، وغسان فى الشام تتبع راية الروم والمناذرة فى الحيرة وماوالاها يتحكم فيهم الأكاسرة بالفرس كما قال الله تعالى «إن الله لايغير مابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءا فلامرد له ومالهم من دونه من وال» .

(س) كفى هذا فى الفصل الأول الذى هو الذى كالمقدمة لما يجب الكلام فيه .

(ج) فلنشرع فى الفصل الثانى وهو اجتماع كلمتهم مع الفصل الثالث والرابع وهو فتحهم البلاد وانتشار لغتهم العربية ، لقد فتح المسلمون البلاد ونشروا الدين ثم تقدمت الفتوحات وجاسوا خلال الشام والفرس إلى نهر السند وإلى بحر قزوين وجميع شمال أفريقية ومعظم جزيرة أسبانيا وهددوا فرنسا بالغارة عليها ولكن ردهم ملكها (كرلوس مارتيل) حين هجمت جيوش عبد الرحمن الأموى عليها وذلك فى إقليم (لوارة) وعظم ملكهم ونظام بلادهم حتى إنك لترى فى كتاب (سديو) الفرنسى أنهم برعوا فى الجغرافية التخطيطية وأنهم لما امتدت مملكتهم من المحيط الأطلانطيق إلى تخوم مملكة الصين أنشئوا بالتدريج أربع طرق عظيمة تجارية توصل من مدينة (قادس) و (طنجة) إلى أقصى آسيا إحداها تخترق أسبانيا وأوربا وبلاد (سلاوونه) إلى بحر جرجان ومدينة بلخ وبلاد (تجزجز) كذا والثانية تخترق بلاد المغرب ووادى مصر ودمشق والكوفة وبغداد والبصرة والأهواز وكرمان والسند هند ، والثالثة والرابعة تعبران البحر الأبيض المتوسط ، وتتجه إحداهما من الشام والخليج الفارسى والأخرى من الإسكندرية والبحر الأحمر لتوصل إلى بحر الهند ، وساعدهم على ذلك علماؤهم بالأزياج كمثل (البتانى) بالرقة سنة ٩٠٠ ميلادية (وابن يونس) بالقاهرة سنة ١٠٠٠ ، وهكذا ابن حوقل والأصطخرى والمسعودى حوالى نصف القرن العاشر الميلادى ، وهكذا البكرى سنة ١٠٦٧ ميلادية ، فكثرت بهذه الطرق السياحات ونقل السياحون ماعند العرب من الآراء والمدنية واستفاضت الأخبار الجليلة فتنورت أذهان الملاحين وعرفتهم الأخطار التى يخشى عليهم الوقوع فيها إذا سافروا فى ولايات غير معروفة معرفة تامة .

فقال صاحبى : كفى هذا فى الفصل الثانى والثالث والرابع فقد حصلت صورة واضحة تبين الاجتماع والمدنية بعد الافتراق والهمجية فى الأمم العربية خصوصا والإسلامية عموما وفتح البلاد وانتشار اللغة .

الفصل الخامس فى أمرين : ترجمتهم للعلوم ، ونبوغهم فيها

(ج) أما الترجمة فإنها كانت عهد العباسيين على ثلاثة أدوار : الدور الأول من خلافة أبى جعفر المنصور إلى وفاة هارون الرشيد من سنة ١٣٦ إلى سنة ١٩٣ ، ومن المترجمين فيه يحيى بن البطريق وجورجيس ابن جبرئيل الطبيب وعبد الله بن المقفع ويوحنا بن ماسويه وسلام الأبرش وباسيل المطران ، فترى المجسطى ترجمه الأول والثالث ترجم الكتب المنطقية لأرسطاطاليس وهكذا ، والدور الثانى من ولاية المأمون سنة ١٩٨ إلى سنة ٣٠٠ والمترجمون فيها أمثال يوحنا بن البطريق والحجاج بن مطر وقسطاس بن لوقا البعلبكى وعبد المسيح ابن ناعمه وحنين بن إسحق وإسحق بن حنين وثابت بن قرة الصابى ، وهكذا فى هذه المدة ترجم أغلب كتب بقراط وجالينوس وأرسطاطاليس وبعض كتب أفلاطون . والدور الثالث من سنة ثلثمائة إلى منتصف القرن الرابع ، والمترجمون أمثال متى بن يونس وسنان بن ثابت بن قرة ويحيى بن عدى وأبى على بن زرعة وهلال بن هلال الحمصى وأكثر اشتغالهم بالكتب المنطقية والطبيعية لأرسطاطاليس وبالمفسرين كالإسكندر الإفروديسى ويحيى النحوى .

هذه هي أدوار الترجمة ملخصة من كتاب الأستاذ (سنتلانة) الطلياني ، أما نبوغهم فيها فاسمع ماقاله (سديو) الفرنسي المتقدم ذكره .

قال في صفحة (٢٠٨) من الكتاب المترجم بالعربية ترجمة أستاذنا على مبارك باشا ، قال ماملخصه :

[اقتدى بالمنصور من بعده في نشر العلوم وتوسعة دائرتها زمن إهمالها بجميع بلاد أوروبا بجلبهم من الأقاليم التي فتحوها علماء لترجمة أعظم كتب اليونان وإنشائهم مكاتب عامة ومدارس يتعلم بها الخاص والعام مثل كتب أرسطاطاليس وسقراط وجالينوس ودسقوريدس وإقليدس وأرشميدس وبطليموس وأبولونيوس مع تعليم متن القرآن وتدريس تفاسيره ، وبإنشاء جمعيات العلماء وإغداق النعم من المهدى والرشيد على علماء النصارى الذين ترجموا الكتب اليونانية والفارسية إلى السريانية والعربية واشتهر إذ ذاك (ماشاء الله الفلكي) المؤلف في الاسطرلاب ودائرته النحاسية وأحمد بن محمد النهاوندي وهما أقدم علماء الأرصاد من العرب وحجازي بن يوسف أول من ترجم كتاب إقليدس إلى العربية ، وكفى بالساعة الدقاقة المتحركة بالماء التي بعثها هارون الرشيد إلى (شرلمانيه) ملك فرنسا شاهدا على رفعة درجة الفنون لدى العرب إذ ذاك الخ] .

وجاء في المبحث الثاني والعشرين من هذا الكتاب ماملخصه قال :

أدرجنا في الأبحاث السالفة مؤلفي العرب والفرس لانتساب سائرهم إلى مدرسة واحدة ولأن الاصطلاحات العلمية التي جرت عليها المشارقة كان سائرها ألفاظا عربية لتغير صورة اللغة الفارسية إلى العربية منذ زمان طويل بممارسة القرآن والحركة العقلية الفاشية في القرن الثامن بعد الميلاد منذ تولى بنو العباس منصب الخلافة ، وظهر التمدين العربي المتسع به نطاق لسان العرب الذي أدخله مترجمو الكتب اليونانية في الاصطلاحات ، فسهل انطباقها على المعلومات التصورية التي عزا الفرنج أكثر ما كشف منها إلى علماء منهم كانوا في القرن الخامس عشر والسادس عشر مع أن اختراع أكثرها ماكان إلا للعرب الذين اجتهدوا في تقدم العلوم .

قال ونلخص لك اجتهادهم فنقول : وههنا ذكر المؤلف الفرنسي المذكور مسائل تصعب على بعض قراء هذا التفسير لأنها اصطلاحية في العلوم :

[الأولى] مثل الكلام على حل المعادلات التكعيبية واستبدال الأوتار بالجيوب وتطبيق الجبر على الهندسة وإدخال الخطوط المماسة في حساب المثلثات وهكذا ، وقال إنا شاهدنا هذه جميعها في مؤلفات العرب المكتوبة بخط اليد التي ظفرنا بها .

[الثانية] أن العلماء الفلكيين ببغداد ضبطوا بغاية الدقة حركة أوج الشمس وتدخل فلك هذا الكوكب في داخل أفلاك أخر ومقدار السنة .

[الثالثة] أن تقدم الجغرافيا الرياضية وتصحيح أزياج بطليموس كانا على أيدي العرب .

[الرابعة] أن القرن السادس وما بعده إلى السادس عشر كانت خالية من الفلكيين الأوروبيين وإنما كانت الأرصاد العربية هي القائمة في الشرق .

[الخامسة] هو ما تعجب منه فلكيو الشرق وهو (مرصد) رصدخانة سمرقند التي أنشأ بعدها بقرن الخواجا (تيكو براهة) رصدخانة (أورنبوغ) سنة ١٥٧٦ ميلادية .

[السادسة] أن الفرنج زعموا أن آلة الاسطرلاب من مخترعات (تيكو براهة) مع أن تلك الآلة والربع ذا الثقب موجودان من قبله في رصدخانة المراغة التي أسسها العرب العارفون للساعة ذات البندول .

[السابعة] أن العرب شهروا النقص التدريجي لميل وسط فلك البروج قبل متأخري الفرنج بزمان طويل .

[الثامنة] أن العرب قدروا مبادرة الاعتدال بمقداره الحقّ من ابتداء القرن الحادى عشر .

[التاسعة] أنهم رصدوا اختلاف عروض القمر قبل (تيكو براحة) بأكثر من ستمائة سنة الخ .

قال صاحبي : (إن هذه وإن أفادتنا أن علماء أوروبا شهدوا بأن كثيرا من الكشف الذى نسبه رجالهم لأنفسهم هو للعرب — وبعبارة أخرى — للأمم الإسلامية) لا يفيد القارئ فائدة كبرى كما ذكرت أنت لأنها اصطلاحات فلكية ليس يعرفها أكثر الناس فاذكر بعض ما نبغ فيه العرب على شريطة أن يفهمه الجمهور . وقبل الآن قال إلى الفصل السادس وهو انحطاط التعليم فى بلاد الإسلام لتكون المقالة الدينة مشوقة لنا وللناس فقلت قال (سديو) المذكور ما ملخصه إنهم أتوا بالعجب العجاب :

(١) فى الهندسة . (٢) والحساب . (٣) والجبر . (٤) وعلم الضوء .
(٥) والنظر . (٦) والميكانيكا . (٧) وترجمة هندسة إقليدس .

(٨) وغيره مثل تيودوس وأبولونيوس وإبسيقليس ومينيوس .

(٩) وشرحوا مؤلفات أرشميدس فى الكرة والأسطوانة واشتغلوا قرونا بدقائق الهندسة .

(١٠) وطبقوا الجبر على الهندسة وترجموا كتب (هيرون الصغير) فى الآلة الحربية وقطزيبوس وهيرون الاسكندرى فى الآلات المفرغة للهواء والرافعة للمياه ، وألف حسن بن هيثم فى استقامة النظر وانعكاسه فى المرايا التى توقد النار .

(١١) وألف الخازن فى علم الضوء والنظر كتابا فى انكسار الضوء الخ .

(١٢) قال وليس للعرب مجرّد نقل كتب اليونان حرفيا كما زعم بعض الفرنج فإنا لا ننكر علماء بغداد على حفظهم كتب علماء الإسكندرية فقط ، بل مع ما اخترعوه فى هذه الفنون نحو ما اخترعه البتانى الملقب بطليموس العرب من استبدال أوتار الأقواس التى استعملها اليونانيون فى حساب المثلث بأنصاف الأوتار للأقواس المضاعفة وهى جيوب الأقواس للصورة إلى آخر ما ذكره مما لا طائل فى ذكره .

وهنا ذكر المؤلف أشياء اخترعها العرب وفاقوا بها اليونان فى علم الهندسة والفلك سبق أكثرها ، وقال فى موضع آخر صفحة (٢٤٠) ما نصه :

[زعم الفرنج أنه لم يكن فلسفة عربية وما ذاك إلا لجهلهم بأشغال العرب فان جميع الدروس بمدارس أوروبا فى القرون المتوسطة مستمدة من تآليف العرب الفلسفية] إلى أن قال : [ولا تظنّ أن العرب اقتصروا على تفسير كتب أرسطو ، بل كانوا يعرفون تآليف أفلاطون وعدة كتب منسوبة إلى فيثاغورس الخ] .

أقول : فالعجب لعالم فرنسى يقول هذا وفى ديارنا بمصر من المتعلمين نصف تعليم من ينكرون على آبائهم كل علم وكل فضل « وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مردّ له » .

(١٣) يقول المؤلف المذكور إن (إراتسطينس) اليونانى أول عالم فى عصره بالكرة الأرضية واختص بهذا العلم ومعلوماته الجغرافية كمعلومات معاصريه يسيرة ، ثم تقدمت العرب فى هذا الفن كالفنون السالفة وجددوا كتاب المجسطى لبطليموس الذى تنحى اللاتينيون عن طريقته ، وكتاب بطليموس مملوء بالخطأ وقد اعتمده علماء أوروبا أولا وجعلوه نموذجا لرسم الخرائط وساروا شوطا بعيدا ، وكان أكثر هؤلاء العلماء يجهلون إصلاح العرب له فساروا على غير هدى ، والإصلاح العربى المذكور كان بأمر المأمون سنة ٨٢٠ ميلادية إذ عمل أرصادا جديدة ببغداد وصحح أرصاد المجسطى بالزيج الجديد المحرر فى خلافته ، وبهذا رسمت العروض والأطوال بهيئة غير التى كانت فى كتاب المجسطى .

(١٤) وأكمل تصحيح للمأمون للملك محمود الغزنوى إذ أمر البيرونى الفلكى بذلك سنة ١٢٠٥ م ، وقبل ذلك عمر الخيام والإدريسى .

وذكر المؤلف بعد ذلك تقدم العرب فى مزايا ما بأرضهم من النبات النافع فى الطب والصنائع وزينة المعابد والقصور ، قال : والعرب هم الذين اخترعوا (الأجزخانات) الصيدليات الكيمائية وهم الموروث عنهم مايسمى الآن قواعد تحضير الأدوية الذى انتشر بعد ذلك من مدرسة (سالرنه) فى الممالك التى فى جنوب أوروبا ، قال واشتغلوا بعلم (الجيولوجيا) علم طبقات الأرض ، ثم قال وبلغت الزراعة أقصى أوجها وكمالها ، وأحدثوا فى أسبانيا السواقى ذات القواديس ، هذا ما أردت ذكره فى هذا الفصل الخامس .

[الفصل السادس] انحطاط التعليم فى بلاد الإسلام [والسابع] فى اضطهاد العلماء بنظام هذا الوجود .

هذان الفصلان تقدما فى سورة الأنعام عند قوله تعالى « تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً » ، وقد أبنت هناك كيف كان المسلمون بعد القرن الخامس يعادون العلوم ، وسرى هذا الداء إلى الجيل السابق وابتداء النشاط الآن ، ولكن لابد من ذكر حادثة عجيبة لتكون توطئة الفصل الثامن وهو انتقال العلوم لأوروبا هاربة من المسلمين الذين كرهوها وها هى ذه .

اضطهاد ابن رشد فى الأندلس

اعلم أن الخليفة الحكم ببلاد الأندلس أخذ كتب الفرس والشام وغيرها وصار له فى الإسكندرية ودمشق وبغداد والقاهرة أناس يبتاعون له الكتب العلمية القديمة والجديدة بأغلى الأثمان وكان فى قصره الناسخون والمجلدون والأدباء الصادرون والواردون وفى مكتبته (٤٠٠) ألف كتاب ولها ٤٤ مجلداً فهارس فقط وليس فيها إلا عنوان الكتاب وهو نفسه يحادث العلماء ويحاورهم فى الفنون المختلفة .

ولما تولى هشام ابنه قام حاجبه بالأمر واضطهد الفلسفة والفلاسفة وأخذ الكتب الفلسفية والمنطقية والفلكية وأمر بإحراقها فى ساحات قرطبة وطرح باقيها فى آبارها فصارت الفلسفة تقرأ سراً ، وإنما قصد بذلك استمالة الفقهاء إليه ليوهمهم أنه ناصر الدين . وهكذا يقال إن سبب سقوط دولة المرابطين بعد ذلك وقيام دولة الموحدين إنما هو اضطهاد العلوم والحكمة والفلسفة ، كل ذلك قبل ظهور العلامة ابن رشد ؛ فبلاد الأندلس كانت تسير حسب رغبات من يتولون الأمر إن أحبوا العلم ظهر وإلا اختفى . هكذا لما تولى الخليفة عبد المؤمن من دولة الموحدين نصر الحكمة والفلسفة كما فعل الحكم فى الزمان الماضى ؛ فاجتمع فى بلاطه ابن زهر وابن بجا وابن طفيل ثم ابن رشد فى عام ٥٤٨ هجرية سنة ١١٥٣ ميلادية وقد عبر البحر إلى بلاد المغرب (مراكش) .

ولما توفى عبد المؤمن خلفه يوسف وقرب ابن طفيل إليه فقدم إليه ابن رشد فارتفع ابن رشد عند الأمير يوسف وتولى قضاء أشبيلية سنة ٥٦٥ إلى سنة ٥٦٧ هجرية . ولما تولى يعقوب المنصور بعد ذلك رفع ابن رشد ، وفى آخر الأمر وشوا به إليه ونسبوا له أموراً دينية وأخرى سياسية فقالوا إنه يجحد القرآن ويعرض بالخلافة وأنه قال ملك البربر فجمع المنصور فقهاء قرطبة وقرءوا كتب ابن رشد ثم قر الرأى عند الأمير أن ينفى ابن رشد فسكن (إيسانة) وهى قرية قريبة من قرطبة سكانها يهود وكتب منشوراً للأمة بإنشاء كاتبه عبد الملك بن عياش لمنع الفلسفة وهذا بعض مانصه :

[قد كان فى سالف الدهر قوم خاضوا فى بحور الأوهام وأقر لهم عوامهم بشفوف عليهم فى الأفهام حيث لاداعى يدعو إلى الحى القيوم ، ولا حاكم يفصل بين المشكوك فيه والمعلوم ، فخلدوا فى العالم صحفاً مالها من خلاق مسودة المعانى والأوراق يؤمنون أن العقل ميزانها والحق برهانها] إلى أن قال [فاحذروا وفقكم الله

هذه الشرذمة على الإيمان حذركم من السموم السارية على الأبدان ، ومن عثر له على كتاب من كتبهم فجزاؤه النار التى بها يعذب أربابه وإليها يكون مآل مؤلفه وقارئه ومآبه] إلى أن قال [والله تعالى يطهر من دنس الملحدين أصقاعكم ويكتب فى صحائف الأبرار تضافركم على الحق واجتماعكم إنه منعم كريم اه] . والذى نكب فى هذا مع ابن رشد محمد بن إبراهيم قاضى بجاية والقاضى أبو عبد الله بن إبراهيم الأصولى وأبو الربيع الكفيف وأبو العباس الشاعر، وقد نفاهم المنصور إلى بلد غير (إليسانة) منفى ابن رشد .

وكتب المنصور يأمر الناس بإحراق الكتب سوى الطب والحساب والمواقيت مع أنه كان يدرس تلك الكتب فى السر ويخفى أمره .

وقد عفا عن ابن رشد ولم يعش بعد العفو إلا سنة واحدة وتوفى سنة ٥٩٥ هجرية وعمره ٧٥ سنة ، وكانت وفاته بمراكش ثم حمل إلى قرطبة فدفن بها فى روضة بمقبرة ابن عباس وبعد ذلك قلّ اهتمام الطلبة بالعلم وأكبر تلامذته محمد بن حوط الله وأبو الحسن سهل بن مالك وأبو الربيع بن سالم وأبو بكر بن جهور وأبو القاسم بن الطيلسانة وغيرهم .

الفصل الثامن : فى انتقال العلم إلى أوروبا بعد أن هجره المسلمون

ثم هجر اليهود الأندلس إلى (بروفنسيا) والأقاليم المتاخمة لجبال (البيرنيه) فرارا من الاضطهاد وخالطوا الفرنجة وكتبوا بالعبرية وتركوا العربية وذهبوا إلى (لونل) فى فرنسا وهم (أسرة طيبون) أصلها من الأندلس وترجم اثنان منهم وهما (موسى بن طيبون وصموئيل طيبون) بعض تلاخيص ابن رشد فى فلسفة أرسطو فهذان أول من ترجم مؤلفات ابن رشد لأوروبا وكان الأمبراطور (فردريك الثانى أمبراطور ألمانيا) من محبى نشر الفلسفة ومحالفى الإسلام والمسلمين على الاكليروس المسيحى، فعهد إلى بعض اليهود بترجمة فلسفة العرب إلى العبرية واللاتينية. فألف يهوذ بن سليمان كوهين الطليانى سنة ١٢٤٧م كتابا سماه [طلب الحكمة] واعتمد فيه على ابن رشد فهو أول كتب لابن رشد صدرت بالعبرية، وأيضا ترجم له يهودى من (بروفنسيا) كان مقيما فى نابلى وهو يعقوب بن أبى مريم بن أبى شمشون انتولى حوالى سنة ١٢٣٢ عدة كتب من تأليف ابن رشد .

ويقال إن الفيلسوف ابن رشد فرّ من (اليسانة) إلى فاس وأن أهلها أمسكوه ونصبوه أمام باب الجامع للبصق عليه عند الدخول والخروج وقيل غير ذلك، وأن ابن رشد قال أعظم ماطرأ علىّ فى النكبة أنى دخلت أنا وولدى عبد الله مسجدا بقرطبة وقد حانت صلاة العصر فاعترضنا بعض سفلة العامة فأخرجونا منه ، ثم إن المحنة لم تدم فإن المنصور عفا عنه وعن سائر الجماعة معه وعاد المنفيون إلى بلدهم ، ولما نفذ فى ابن رشد وتلامذته سهم الحساد أخذ الشعراء المعادون للفلسفة والفلاسفة يبتهجون فقال الحاج أبو الحسين بن جبير :

الآن قد أيقن ابن رشد أن تواليفه توالف
ياظالما نفسه تأمل هل تجد اليوم من توالف

وقال غيره

لم تلزم الرشد ياابن رشد لما علا فى الزمان جدك
وكنت فى الدين ذا رياء ماهكذا كان فيه جدك

[ومنها]

الحمد لله على نصره لفرقة الحق وأشياعه
كان ابن رشد فى مدى غيه قد وضع الدين بأوضاعه
فالحمد لله على أخذه وأخذ من كان من أتباعه

(ومنها)

[ومنها]

خليفة الله أنت حقا	فارق من السعد خير مرقى
حميتم الدين من عداه	وكل من رام فيه فتقا
أطلعك الله سر قوم	شقوا العصا بالنفاق شقا
تفلسفوا وادّعوا علوما	صاحبها فى المعاد يشقى
واحتقروا الشرع وازدروه	سفاهة منهـم وحمقا
أوسعتهم لعنة وخزيا	وقلت بعدا لهم وسحقا
فابق لدين الإله كهفا	فإنه مابقيت يبقى

ثم إن كالونيم بن كالونيم بن مير الذى ولد سنة (١٢٨٧) قد ترجم كتب ابن رشد إلى العبرية ، وترجم كتاب [تهافت التهافت] سنة ١٣٢٨ وفى القرن الرابع عشر بلغت فلسفة ابن رشد عند اليهود أعلى منزلة ثم كان (لاون) الإفريقى اليهودى الذى شرح فلسفة ابن رشد كلها وصنع فيها ماصنعه ابن رشد بفلسفة (أرسطو) من الشرح والتلخيص .

وهاك ماقاله (سديو) فى هذا المقام : لنتم الكلام فى مسألة نقل العلوم العربية إلى أوروبا ، قال :

ولا يخفى أن الكشف السالف يفيد علم الملك المشرق مزية الأصالة والأولية التى لايستطيع الإمساك عن الإقرار بها أحد من الفرنج الذين كان كشفهم لمعلومات الكتب العربية شاهدا على تقدم العلوم الرياضية عند العرب الذين استفاد منهم اللاتينيون المعلومات ، فإن :

(١) (جوبرت) الذى كان بابا رومة الملقب (بسلوستر) الثانى أدخل من سنة ٩٧٠ إلى سنة ٩٨٠ ميلادية عند الفرنج العلوم الرياضية التى كسبها من عرب أسبانيا .

(٢) واهيلارد الإنكليزى ساح من سنة ١١٠٠ إلى سنة ١١٢٠ ميلادية فى كل من أسبانيا ووادى مصر وترجم مبادىء إقليدس من العربية بعد أن ترجمها العرب من اليونانية وترجم أفلاطون المنسوب (لطيفوليا) وهى مدينة قرب رومية من العربية الرياضيات الكروية المنسوبة إلى (تيودوز) كما أن الخواجا (رودلف) أحد أهالى (بروجس) البلجيقية ترجم مسائل بطليموس المتعلقة بالكرة الأرضية والسماوية المصورة مبسوطة على خريطة وهكذا (ليونرد) أحد أهل (بيزه) ألف سنة ١٢٠٠ ميلادية رسالة فى الجبر الذى تعلمه من بلاد العرب وقميانوس من أهل نوارة فى أسبانيا ترجم فى القرن الثالث عشر كتاب إقليدس ترجمة جديدة وشرحه ، و(بتليون البولندى) ترجم كتاب الحازن فى علم الضوء والنظر (وجيراد) الكريمونى ترجم المجسطى وشرح كتاب جابر وغير ذلك فاشتهر فى أوروبا علم الفلك الصحيح وشهر (الفنس) القسطلانى سنة ١٢٥٠ ميلادية الأزياج الفلكية المنسوبة إليه .

والملك (روجير) الأول ملك (الصيصليين) كان مساعدا لعلماء (بسيسليا) لاسيما الإدريسى ، ثم أتى العاهل (فردريك الثانى) بعد (روجير) بمائة سنة فلم يأل جهدا فى المساعدة والحث على كسب العلوم والمعارف الأدبية المشرقية . وكان أولاد ابن رشد مستخدمين فى ديوانه ويعلمونه التاريخ الطبيعى فى النبات والحيوان . انتهى .

وأيضا قال (سديو) ان القوانين وهى خمسة كتب لابن سينا قد ترجمت وطبعت مرارا وكانت مؤلفاته ومؤلفات الرازى تدرس بمدارس أوروبا نحو ستة قرون تقريبا وكانت وفاته سنة ١٠٣٧ م

وكتب الفخر الرازى فى الطب طبعت بمدينة البنادقة سنة ١٥١٠ ميلادية ، وكتب على بن عباس الفاسى وهى عشرون كتابا فى الطب وهى التى أهداها إلى عضد الدولة البويهى قد ترجمت إلى اللاتينية سنة ١١٢٧م وطبعها ميخائيل كابلا سنة ١٥٢٣ فى مدينة (ليون) بفرنسا .

فلما سمع ذلك صاحبي قال : هذا الذى ذكرته أطلعنا على علم جم غزير ، فلقد كنت مشوقا إلى أن أعرف كيف انتقل العلم لأوروبا من المسلمين وكنت أظن أن هذه أقوال مبالغ فيها ولكنى الآن أمام علم جم فإنى رأيت من هذه الأقوال :

(١) أن اليهود بعد موته نقلوا علمه إلى لغتين العبرية واللاتينية .

(٢) وأن فردريك أمبراطور ألمانيا هو الآمر بذلك .

(٣) وأن يهوذا بن سليمان كوهين ألف كتاب [طلب الحكمة] معتمدا على ابن رشد .

(٤) وأن بابا رومة نفسه أدخل علوم الرياضة العربية بنفسه فى بلاده .

(٥) وهكذا العالم الانجليزى ترجم الهندسة العربية .

(٦) والعالم البلجيكى والطليانى والأسبانى وهكذا فهذا كاف فى هذا المقام فاذكر لى الفصل التاسع وهو: تفوّق أوروبا فى تلك العلوم ، فقلت :

الفصل التاسع : فى تفوّق أوروبا فى العلوم جميعها بعد آبائنا العرب

قد يظنّ ظانّ أن ماقلته سابقا نقلا عن العالم الفرنسى (سديو) من أن ما ادّعاه الفرنجة من الكشف قد سبقهم به العرب يوجب أن أغمطهم حقهم ، كلا ، فنحن الآن فى تفسير القرآن والقرآن حق ومن لم يحمل الحق دينه صرعه الحق ، فاعلم أن الفجر الكاذب يظهر قبل الفجر الصادق ، قال الشاعر :

وكاذب الفجر يبدو قبل صادقه   وأول الغيث قطر ثم ينسكب

ادّعى الفرنجة فى أول أمرهم أنهم كاشفون لما سبقهم به العرب ثم جاء بعدهم علماء كشفوا عجائب مما خبأه الله فى أرضه ، والمتأخرون من المسلمين ساهون لاهون « وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون » هذه أيها المسلمون آثار آبائكم وأنتم خلفهم فماذا عملتم ؟ نقلت أوروبا علومكم وأنتم نائمون ، أفلا تعقلون ؟ أفلا تتفكرون ؟ ألم يقل الله : « قل سيروا فى الأرض فانظروا » أما آباؤنا فساروا ونظروا ، والفرنجة ساروا ونظروا عمل آبائكم ، فهل أنتم لاتشعرون ؟ انظروا أيها المسلمون أنتم اليوم عالة على أوروبا ، إنها قد فتح لها كنز العلم وأنتم نائمون ، ها أنا ذا أقصّ عليكم نبأ أهمّ العلوم التى حدثت فى القرون المتأخرة من نحو القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر لتنجلى لكم صورة من العلم قديما وحديثا وأنكم ظلمتم أنفسكم بالجهل وآباءكم بانتسابكم اليهم وهم فى قبورهم عليكم محزونون .

علماء القرن السادس عشر

منهم [١] تيخو براهى المولود فى بلدة (ندستروب) جنوبى أسوج فى سبتمبر سنة ١٥٤٦ المتوفى سنة ١٦٠١ أثبت أن نور الشمس سبعة ألوان وأن موادّ الأجرام السماوية تشبه أكثرها موادّ الأرض ، وقد دعاه (فردريك الثانى) ملك الدانمارك فأنشأ مرصدا فلكيا من أعظم المراصد فبقى عشرين سنة وزاره الملك (جيمس الأول) ملك الإنجليز فى هذا المرصد وأهدى إليه كثيرا من الهدايا ، ووفد بعد ذلك على أمبراطور ألمانيا فى مدينة (براغ) فأكرمه ولكن لم تطل مدّته بعد ذلك فمات .

[٢] وليم غلبرت : عالم إنجليزى أنشأ علم الكهربائية الحديث ، ولد سنة ١٥٤٠ وتوفى سنة ١٦٠٣ فهو الذى عرف أن الكهرباء تكون فى الزجاج والكبريت والشمع الأحمر والراتينج والماس ، وهذه مبادئ علم الكهرباء التى أكملها العلماء بعده ، وقال إن المغناطيسية والكهربائية من نوع واحد .

علماء القرن السادس عشر والسابع عشر

[١] غليلى : هو فيلسوف إيطالى ولد بمدينة (بيزا) سنة ١٥٦٤ ومات سنة ١٦٤٢ نسوا له كشف

رقاص الساعة وأنه لحظ ذلك فى كنيسة (بزه) إذ رأى القنديل مدلى من القبة وله خطرات متساوية وقد قال (سديو) كلا ثم كلا، هذا اختراع الحسن بن يونس المصرى قبل ذلك بقرون ، فهذه مما سميناه الفجر الكاذب ، وقد اضطهد لأنه قال بدوران الأرض، ويقول العلماء كلا . إنها معروفة قبل الفرنجة عند العرب كما تراه فى كتاب [المواقف] ففيه دوران الأرض وذلك قبل الأوروبيين بمدة وقد ذكرت هذا فى كتابى [فى الفلسفة العربية] وتقدم فى يونس. وقد أكره غليلو على الحضور إلى رومية وهو شيخ ضعيف سنه ٦٩ سنة وأمر بالركوع أمام جمهور حافل من المفتشين وغيرهم وعاهدهم على الإنجيل أنه يلعن ويكره دوران الأرض .

كاشف دورة الدم

[٢] هرفى : ولد سنة ١٥٧٨ فى ولاية (كنت) ببلاد الإنجليز وعين طبيبا للملك (جيمس الأول) وخلفه وتوفى سنة ١٦٥٧ .

علماء القرن السابع عشر والثامن عشر

[١] إسحق نيوتن : ولد سنة ١٦٤٢ وتوفى سنة ١٧٢٧ من أكبر علماء الفلك ، زعموا أنه كشف الجاذبية إذ رأى تفاحة سقطت على الأرض ولكن هذا الكشف قد سبقه به العرب بنحو ستة قرون كما أثبتناه فى كتاب الفلسفة ولكن ليس معنى هذا أنه لافضل له . كلا فإنه جعل هذه الجاذبية تمتد إلى القمر وبها يدور حول الأرض .

[٢] ديدرو : مؤلف دائرة المعارف الفرنسية وهو من عائلة سكنت ولاية شمبانيا بفرنسا ولد سنة ١٧١٣ ومات سنة ١٧٨٤ وقد ترك كل شىء فى حياته إلا المطالعة . ولما طرده أبوه دخل بيت رجل يعلم أولاده ثم كره ذلك وقال للرجل انظر إلىّ فقد اصفر وجهى اصفرار الليمون ، أنا أحاول أن أجعل أولادك رجالا وهم يحاولون أن يجعلونى ولدا، لست أشكو قلة الراتب ولا سوء المعاملة لأن راتبى أكثر مما أستحق ومعاملتكم لى على غاية الوداد ولا أريد أن أعيش أحسن مما أنا عائش هنا ولكنى أريد أن لا أموت اه .

علماء القرن الثامن عشر

[١] بنيامين فرنكلن المتوفى سنة ١٧٩٠ وعمره ٨٤ سنة من أمريكا ، وهو الذى اخترع مانعة الصواعق .

[٢] لافوازيه أبو الكيمياء الحديثة: ولد سنه ١٧٤٣ وحكم عليه بالقتل سنة ١٧٩٤ فى الثورة الفرنسية وهو الذى كشف خواصّ الأكسوجين وحقيقة الإشتعال للنار ونسبة السوائل والغازات والجوامد بعضها إلى بعض وبحث فى الحرارة وتمدد الأجسام وتقلصها باختلاف درجات الحرارة والضغط .

[٣] ماريا أغنس الإيطالية فاقت أهل عصرها فى العلوم الرياضية، ولدت سنة ١٧١٨ وكان يحضر مجلسها فوق ثلاثين رجلا من عظماء أوروبا من أمم مختلفة ، وتوفيت سنة ١٧٩٩ .

علماء القرن الثامن عشر والتاسع عشر

[١] كولون الكهربائى ولد سنة ١٧٣٦ وتوفى سنة ١٨٠٦ هو أول من استعمل الرياضيات فى المباحث الكهربائية ، فشهرته كلها ترجع إلى ما كشفه فى الكهرباء والمغناطيس فهو الذى قاس قوتها ونواميسها .

[٢] إدورد جنر عالم إنجليزى، ولد سنة ١٧٤٩ وتوفى سنة ١٨٢٣ هو الذى كشف تطعيم الجدرى . ذلك أن فتاة حلابة البقر سمعت أناسا يذكرون الجدرى فقالت إنها آمنة على نفسها لأنها عديت مرة بجدرى

البقر وصح ذلك (جنر) فخطر له أن جدرى البقر قد يكون واقيا من الجدرى الذى يصيب البشر وأسلم عاقبة من التطعيم بالجدرى نفسه ، فإذا طعم الإنسان بمادّة الجدرى من البقر ظهرت فيه بثور قليلة تقيه الجدرى فى المستقبل وإذا أخذ المصل من تلك البثرة وطعم به أناس كثيرون وقاهم أيضا الجدرى .

[٣] فلطا الكهربائى الإيطالى : ولد سنة ١٧٤٥ وتوفى سنة ١٨٢٧ وهو الذى كشف البطارية الكهربائية والرصيف الكهربائى أو الفلطائى كما هو موضح فى هذا التفسير فى غير هذا المكان شرحا ورسما .

[٤] لامرك : صاحب مذهب التحوّل، هو فرنسى ولد سنة ١٧٤٢ وتوفى سنة ١٨٢٩ وهو أول من أطلق على الحيوانات الدنيا اسم (عديمة الفقرات) وكانت قبل ذلك تسمى ذات الدم الأبيض ودرس الحيوانات القديمة فى الأرض وله كتاب [فلسفة طبائع الحيوان] .

[٥] السر همفرى داڤى : ولد سنة ١٧٧٨ وتوفى سنة ١٨٢٩ وهو الذى كشف الصوديوم والبوتاسيوم والسترنتيوم والباريوم والكلسيوم والمغنيوم . ولما كشف الصوديوم جعل يرقص من الفرح، وكشف النور الكهربائى والأتون الكهربائى كذلك .

مصباح يشرق على العلوم التى كشفها المسلمون والأوروبيون ومنها الكيمياء

فقال صاحبى : صوديوم بوتاسيوم . هذه ألفاظ لاتفيد قارئ التفسير فأى فائدة لقارئ سورة إبراهيم من أن يسمعك تقول فى رجل إفرنجى إنه كشف الصوديوم والبوتاسيوم ؟ أسمع المسلمين أقوالا تفهمهم مقاصد ما ذكرته وإلا سئم القراء من طول هذا الذى تذكره . فقلت هذا من علم الكيمياء . قال وما فائدة الكيمياء ؟ أليست هى التى تجعل الفضة والنحاس ذهبا ؟ فقلت الكيمياء علم به نحلل المواد فنعرف أصولها فننتفع بها فى جميع أعمالنا ، والصوديوم وغير الصوديوم هى الأجزاء التى لها خواصّ ممتازة فى منافعها . قال هذا كله لايفيد . قلت فاسمع . قال سمعا . قلت حياك الله وبياك ، أنظر أنت فى كل أوقاتك رجل كيمائى وأنت تنكر ذلك . قل لى رعاك الله : ألسنا نحصد القمح ؟ قال بلى . قلت وندرسه وندروه ونطحنه ونمضغه ويهضم فى أجوافنا ويفرّق على أعضائنا كلّ بقدره . قال مامعنى هذا ؟ قلت نحن ندرس القمح فى الجرن بالنورج فيفرده مفتتا ثم نذروه فى الريح فنفصل الحبّ عن التبن أما التبن فللبهائم وأما الحبّ فهو لنا ولكننا لانأكله حتى نلطفه بالطحن ثم العجن ثم الخبز ثم نمضغه هو وغيره أضراسنا وأنيابنا وأسناننا ثم يدخل فى المعدة فيهضم ثم تجتذبه العروق فيصير دما يفرّق على الأعضاء كل عضو يأخذ مايناسبه . إن هذا هو التحليل ولولا هذا التحليل ماقدرت أعضاؤنا أن تتناول أغذيتها من دمنا لأنه لايكون دم إلا بالتحليل المذكور ، فههنا :

(١) آلات من الخشب والحديد وهى النورج تجرّه الأنعام .

(٢) وبهذا يمكننا أن نذروه فى الهواء ، فحصل التمييز بين الحب والتبن بهذين العملين ، درسه مقدمة وذروه فى الهواء نتيجة ، والنتيجة تميز القمح من التبن لنجتاز غذاء البهائم من غذاء الإنسان وكلّ يتصرف فيما هو له . فهذا أشبه بتحليل الكيمياء ثم حبّ القمح يحتاج أيضا إلى عمليتى الطحن بالأحجار الذى يشبه الدرس بالنورج ، وللمضغ الذى يشبه ذرو القمح ، فالمضغ يفتت الطعام وهكذا أعمال المعدة فى هضمه ليأخذ كل عضو من الدم مايناسبه كما أن ذرو مادرس بالنورج يعطى البهائم تبنا والإنسان حبه .

فههنا مقدمتان ونتيجتان ولكل نتيجة عمل ، فالنتيجة الأولى : فصلت طعام الحيوان من طعام الإنسان بالحكمة . والنتيجة الثانية : وهى الهضم بالمضغ وغيره أعطت لكل عضو من أعضاء الإنسان مايستحقه من

العناصر التى سميناها (صوديوم و بوتاسيوم) وهكذا ، فإذا قلنا هذا تبن وهذا قمح بعد الذرو فى الهواء للحيوان والإنسان فهكذا هنا نقول : هذا بوتاسيوم وهذا صوديوم وهكذا فى الطعام فكل من الأعضاء يأخذ حصته منه بعد الهضم كما أخذ كل من الحيوان والإنسان حقه بعد الدرس والذرو فى الهواء . فقال حسن قد فهمت إذن، ماعدد العناصر؟. قلت عدد العناصر سيأتى فى سورة العنكبوت فوق ٨٠ وستذكر بأسمائها فى جدول هناك . قال ولكن الكلام لم يتم. قلت نعم لم يتم لأن الذى سمعته أنت إنما هو مثل ضربته مما نراه فى أنفسنا، وما الأمم إلا كالأفراد ، الأفراد التى تحلل القمح بدرسه وذروه وطحنه ومضغه والأمم تحلل جميع المواد التى نراها ، فجميع المواد أشبه بالقمح فى المثال المذكور والتبن والحب أشبه بالعناصر والآلات التى اخترعها العلماء فى معاملهم أشبه بالخشب والحديد فى النورج والخشب وحده فى المذرى وحجارة الطاحون والأنياب والأسنان والأضراس لتفتيت الطعام وبالعناصر التى يستخرجونها يرقون الصناعات والطب وجميع أعمال الحياة ، فإذا أخذ كل عضو بعد المضغ فى أجسامنا مايناسبه ، هكذا يجعلون عناصر خاصة تناسب الزرع كالقمح والقطن وغيرهما يسمونه (السماد الكيماوى) وما السماد الكيماوى إلا عناصر استخرجوها كما استخرجت أعضاء أجسامنا عناصر مناسبة لها كما فصلنا التبن عن الحب فأخذ الحيوان والإنسان كل حظه ، فقال هذا حسن أنا الآن أدركت معنى الكيمياء وفهمتها فهما تعقليا ، زدنى زدنى . قلت أما الآن فإنى مبتهج بأنك أدركت ما أردته ، وبهذا ارتقوا فى الحرب والتجارة وكل أعمال الحياة ، وإنى أذكرك بما تقدم فى آل عمران فقال لا أتذكر فإنى لم أقرأ المجلد الثانى من هذا التفسير ، ما الذى هناك ؟ فقلت لا أريد التكرار . قال ولكن ذكرى والذكرى هنا تفيد ، قلت علم الله قبل أن ينزل القرآن أن المسلمين سينامون كما علمت فنزل القرآن وجعل فى أوائل بعض السور (الم . الر) وهذا يشير إلى مانقوله الآن .

علم الله أن أكثر الناس لايعقلون ما أمامهم فجميع بنى آدم يشاهدون الدرس والذرو والطحن والمضغ ولكن لايفقهون وإنما أكثرهم أشبه بالآلات الميكانيكية مسخرون فى طعامهم ، مسخرون فى ذرياتهم ، مسخرون كما تسخر الأنعام .

هكذا أكثر الناس فى أرضنا يشاهدون هذا التحليل الذى يشبه التحليل الكيماوى بل هو نفسه كيماوى ولا يفكرون فى العالم الذى يعيشون فيه فيدرسوه ، كلا ، وهو معنى قوله «واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه» وقوله «وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لايبصرون» لذلك أنزل هذه الحروف فى أوائل السور كأنه يقول : أيها المسلمون جهلتم الكيمياء التى تحلل الأشياء وتحققها فأنا أذكركم بالقراءة والكتابة إن الطفل لاتتسنى له الكتابة ولا القراءة إلا إذا حلل الكلمات إلى حروفها كما تحلل المركبات إلى عناصرها ، فكما أن القراءة والكتابة لايتمان إلا بتحليل الكلمات إلى حروفها ، هكذا هذه المادة وقواها لاتنتفعون بها إلا بتحليلها وإدراك حقائقها ، قال تعالى «وكل شىء عنده بمقدار» وقال «إنا كل شىء خلقناه بقدر» وقال «وأنبتنا فيها من كل شىء موزون» .

أعمال الناس لاتتم إلا بالتحليل ، والقراءة لاتتم إلا بالتحليل فلماذا لاتحققون هذه العوالم بالعلوم ومنها الكيمياء وإن شئت فارجع لما تقدم فى سورة آل عمران ، قال أما الآن فقد فهمت حقا

بقية العلوم كالكيمياء ماهى إلا تفصيل وتحقيق

ثم قلت ومثل الكيمياء جميع العلوم فإذا سمعت العالم (كوفيه) الآتى ذكره قد قسم المرتبة الدنيا من الحيوانات إلى [ثلاثة أقسام] ولم تقسم قبله فهذا يسمى تقسيما والتقسيم لبيان المقسم كما أن التحليل لبيان المحلل وهكذا بقية العلوم كلها لاتخرج عن التقسيم والتحليل وما أشبه ذلك وماهو إلا تحقيق الحقائق كمسألة القمح

للقدم وكتابة الحروف الهجائية فى أول السور . فقال صاحبى حسن لقد أضاء هذا الموضوع وأشرق وصار ماذكرته من كشف العلوم المختلفة واضحا بهذا المقال ، فلنرجع إذن لبقية الكلام على علماء أوروبا فقلت :

(٦) (جورج ليوبلد كوفيه) عالم فرنسى توفى سنة ١٨٣٢ ألف كتابا اسمه [العظام المتحجرة] وآخر اسمه [المملكة الحيوانية] وهو الذى قسم مرتبة الحيدان التى تشتمل على كل ما يعرف بذوات الدم الأبيض (وهى تقارب نصف المملكة الحيوانية) إلى ثلاثة أقسام وهى الحيوانات الصدفية والحشرات التى لاقاب لها والقسم الثالث هو الشبيه بالنبات .

(٧) (جان شامبليون) فرنسوى الذى كشف لنا كنوز الآثار المصرية توفى سنة ١٨٣٢ م .

إن علوم مصر بقيت مخزونة قديما وكان علماؤها يقولون لليونانيين (أيها اليونان أنتم أطفال) وكان بمصر دار كتب فى عهد ملوك أهرام الجيزة .

وقال مانيتون المؤرخ فى القرن الثالث (ق.م) إن عدد المؤلفات المنسوبة إلى هرمس ٣٥٥٢٥ ، ولما تمرّد المصريون على الإمبراطور (ويكلسيانوس) فى القرن الثالث (ب.م) أحرق جميع المؤلفات المصرية القديمة التى فى علم الكيمياء لئلا يقاوموه بهذا العلم ولكن بقى فى المعابد والأحجار والمبانى علوم كثيرة لم يعرفها أحد حتى تعلم اللغة القبطية شامبليون واللغة الهيروغليفية وساعده على ذلك حجر رشيد ومسلة (فيلا) المكتوب عليها أسماء الملوك باللغتين الهيروغليفية واليونانية التى يعرفها فتوصل بها إلى معرفة اللغة الهيروغليفية وساعدته اللغة القبطية ، وكافأه لويس الثامن عشر ملك فرنسا بعلبة من الذهب منقوش عليها ما يأتى : ﴿ هدية من الملك لويس الثامن عشر إلى شامبليون لكشفه الأحرف الهجائية الهيروغليفية ﴾ .

فياسبحان الله وياسعداه . كل هذا حاصل والمسلمون ساهون لاهون « وكأين من آية فى السموات والأرض يمرّون عليها وهم عنها معرضون » .

هذه أيها المسلمون أعمال آبائكم الأول . وهذه أوروبا ارتقت فأما أنتم فنمتم لأن ملوككم قتلوا رجال الإصلاح وأهانوهم واكتفيتم بالشعر والخلاعة .

هذا لويس الملك الفرنسى يكافئ عالما فرنسيا على ماذا ؟ على أنه كشف رموز المصريين ! والله فى القرآن يقول « فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وإنّ كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون » .

عيرنا الله بالغفلة عن علوم الأمم المصرية التى خبأها فى أجداث الفراعنة .

اللهم أنت الحكم العدل أنت القابض على كل شئ . ينام أهل الشرق جميعا فتسلط عليهم الفرنج فيفتحون بلادهم كبلادنا المصرية ثم ينقبون على آثار قد عيرنا الله بجهلها ورمانا بالغفلة والجمود . اللهم إنك عدل سلطت العلماء على الجهلاء ، أليس هذا هو دينا فكيف نمنا عنه ؟ نمنا عما أشار إليه من آثار الأمم ومنها آثار مصر ، والله يقول « أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » .

أقول : وبعد هذا التفسير وأمثاله وانتشاره سيقوم أكثر المسلمين قوما واحدة لدراسة هذه العلوم كلها وتكون الدراسة بوجدان عقلى ودينى معا ، وهناك يكون طور للمسلمين لم يعلموه من قبل لأن الإسلام دين جديد بكر لم يدرس للآن حق دراسته ولم تبين مقاصده تبيانا تاما وبعد هذا التفسير وأمثاله سيظهر رجال أقوى شكيمة وأعظم قدرا وأغزر علما من علماء أمم الأرض ، ومن يعش يره اه .

(٨) (جورج ستفنصن) ولد سنة ١٧٨١ ومات سنة ١٨٤٨ هو عالم إنجليزى ، وهو الذى أنشأ السكك الحديدية فى العالم ، وقد أنشأ معملا لمركبات البخارية وأخذ فى إصلاحها وكان المهندسون يفكرون فى عمل مركبة نارية تسير على قضبان الحديد بدل مركبات الخيل ولكن ظنوا أنها تنزلق عن القضبان ولكنه قال : إن ثقل الآلة تثبتها ولو كانت عجلاتها ملساء . فله الفضل على جميع نوع الإنسان وقد صار سنة ١٨٣٧ م رأس المهندسين لأكثر السكك الحديدية .

أيها المسلمون ! أليس من العار عليكم أن يكون (ستفنصن) قد نفع العالم كله وأنتم نائمون وتركبون القطار وأنتم عالة على أوروبا ، والله إنكم لقوم ساهون لاهون « وكأين من آية فى السموات والأرض يمرّون عليها وهم عنها معرضون » والله عار وجهل وإثم أن يكون هذا السر ورد به القرآن وأنتم تجهلون .

أليس القرآن هو الذى جاء فيه كما سيأتى فى سورة النحل « ويخلق مالاتعلمون » بعد أن ذكر الخيل والبغال الخ يخاطب الناس أيام النبوة فيقول ذلك لأنه لم يأت أوانه ولكن ماعذرنا نحن ؟ .

قبح الله الجهالة أمّ الخبائث ولكن إن شاء الله قد جاء وقتكم فاقرءوا علوم القوم وزيدوا للإنسانية علما حتى تعطوا الأمم كما أعطتكم وإلا فإنى أنذركم صاعقة العذاب الهون بنومكم أجمعين . أيها الناس « أليس منكم رجل رشيد » .

(٩) (فرادای) عالم إنجليزى ، ولد سنة ١٧٩١ وتوفى سنة ١٨٦٧ وهو عالم عظيم قد كشف البنزين باستقطاره من الفحم الحجرى سنة ١٨٢٥ وكشف قوانين التيارات الكهربائية الحديثة .

أيها المسلمون ! هل يجوز أن يكون آباؤنا هم الذين علموا أوروبا كما فهمتم من هذا المقال ونحن عالة على علمائهم ؟ .

اليوم هذا البنزين أنتم تستعملونه فى مركباتكم وفى الآلات الدائرة النافعة ، أفلايخجل المسلمون أن يعيشوا ولا عمل لهم إلا أنهم جاهلون . يقول الله « ويخلق مالاتعلمون » بعد الكلام على الانتفاع بالحيوان أكلا وملبسا وسفرا ويكون البنزين مما يساعد على السير كالبهائم والمسلمون لاعمل لهم .

اللهم ضاعت عقول فى الشرق عاشوا وماتوا وهم لايعقلون صم بكم عمى فهم لايرجعون ولكن سيعوض أبناؤنا مافقدناه ويرجعون من المجد والشرف ما أضعناه .

(١٠) (اريان لفريبه الفلكى) الفرنسى ، ولد سنة ١٨١١ وتوفى سنة ١٨٧٧ هذا العالم هو الذى كشف السيار (نبتون) الذى بعد السيار (أورانوس) الذى ذكر فى مواضع من هذا التفسير ، هنالك تسابقت جمعيات أوروبا إلى تسجيل اسمه بين أعضائها وأرسل له ملك الدانمارك رتبة عظيمة تشرّفه وصنع جداول لتسيير السفن فى البحار .

أيها المسلمون . أوليس مما يؤلمنى جد الألم أن الله يذكر لنا فى القرآن أنه سخر لنا الفلك فى البحر لتبتغى من فضله ويقول « وعلامات وبالنجم هم يهتدون » فأين الهداية التى استخرجناها وهل نكون جميعا عالة على أوروبا برا وبحرا ؟ أليس هذا كتاب ربنا ؟ إن المسلمين ساهون لاهون « وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون » يفرح الأوروبيون جميعا بعالم نبغ فيهم والشرقيون متقاطعون لايدرى أهل مصر ماذا فى الأقطار الأخرى فلا تعارف ولا توادّ ولاتناصر بل الجهالة مستحكمة ولكن هذا أوان النصر « إن مع العسر يسرا » وهذا التفسير من مبشرات النهضة والإصلاح والمسلمون قريبا جدا سيستيقظون فى جلّ الأقطار .

علماء القرن التاسع عشر

[١] تشارلس دارون : ولد سنة ١٨٠٨ ومات سنة ١٨٨٢ مذهبه مكمل لمذهب (لامارك الفرنسى) وملخص المذهبين معلوم يرجع إلى أن عالم الأحياء من النبات والحيوان سلسلة واحدة متصلة أعلاها بأدناها وهل هى مشتقات بعضها من بعض أم هى مخلوقة خلقا أوّليا ؟ وهذا النزاع تجد الفصل فيه فى سورة آل عمران فى أوائلها فارجع إليه إن شئت .

[٢] بوسنمولت الكيماوى الفرنسوى : ولد سنة ١٨٠٢ وتوفى سنة ١٨٨٧ كشف العناصر التى تتألف منها النباتات المختلفة وكيفية دخولها فى تركيبها ، فقال صاحبى هذا مثل مافهمنا فيما تقدم عند الكلام على الكيمياء ، قلت نعم كمثل مسألة الطحن والخبز والمضغ الخ ، فقال الأمر واضح .

[٣] مارية متشل الفلكية ـ الأمريكية : ولدت سنة ١٨١٨ وتوفيت سنة ١٨٩٨ برعت فى الفلك وكشفت نجما جديدا من ذوات الأذناب وكانت تقضى الليالى على سطح بيتها ترصد الأفلاك وترقب السماء وانتخبت عضوا فى أكاديمية العلوم والفنون الأمريكية .

[٤] شليمن الأثرى الألمانى . توفى سنة ١٨٩٠ عشق فى صغره كشف خرائب (زوادة) التى وردت فى أشعار (هوميروس) فوجد أسلحة وأمتعة وحلى فضية وذهبية وعرف قبر (أغا ممنون) فى جهات مسينى التابعة لبلاد اليونان ، وذكر أنه رأى عجائب ذهبية وأوانى وحلى كثيرة جدا لامحل لذكرها .

[٥] الأستاذ تندل : عالم إنجليزى ولد سنة ١٨٢٠ وتوفى سنة ١٨٩٣ قد كشف خواص عجيبة فى النور والحرارة والجير والاختمار والمغناطيس والحيوانات الذرّية (الميكروبات) .

[٦] الدكتور هنرى رولنصن الإنجليزى : ولد سنة ١٨١٠ وتوفى سنة ١٨٩٥ هذا العالم أشبه بالعالم (شامبليون الفرنسى) كشف عجائب فى الشرق والمسلمون نائمون كأنهم لم يقرءوا القرآن فهم ساهون لاهون « وكأين من آية فى السموات والأرض يمرّون عليها وهم عنها معرضون » وهذا التفسير إن شاء الله وأمثاله سيكون مثيرا للعزائم مرقيا الشعوب الشرقية منميا العلوم . أنا بذلك موقن أشد الإيقان ولا أدرى ماسببه ؟ ولكن هكذا هو الوجدان ولا يعلم الغيب إلا الله ، كان يعرف اللغة الفارسية والبابلية والمادّية فقرأ بهذه اللغات على صخر عظيم فى باغستان على بعد (٢٢) ميلا من (قرمان شاه) إلى الشرق منها ، وهذا الصخر ارتفاعه (٧٠٠) قدم فوجد أنها من أيام (داريوس هستاسبس) سنة ٥١٦ قبل المسيح ، ووجد فى الكتابة اسم (داريوس) ونسبه وغزواته وممالكه وصورته وقوسه وتاج ملكه الخ وعمل فى الآثار الآشورية مثل ذلك لحفر المناصب الرفيعة واشتغل بالعلم وحلّ رموز الكتابات الآشورية والبابلية المكتوبة بالقلم السفينى وعلماء انكلترا وألمانيا مجمعون على أنه أول من حلّ الرموز السفينية .

[٧] الأستاذ دانا ـ الأمريكى : توفى سنة ١٨٩٥ كان من المحققين فى علم طبقات الأرض (الجيلوجيا) و(المترولوجيا) أى علم المعادن . له كتابان فى علم المعادن وكتاب فى (الجيلوجيا) وعرف مذهب دارون وقال إن الإنسان لم يرتق إلا بقوة فوق القوى الطبيعية لأن الكون متوقف على إرادة خالقه .

[٨] لويس باستور : هو فرنسى توفى سنة ١٨٩٥ وهو كيماوى وله الفضل فى البحث عن التولد الذاتى والاختمار والجراثيم المرضية .

[٩] السرجون لوز : المتوفى سنة ١٩٠٠ وهو إنجليزى عالم مغرم بعلم الكيمياء وقد خدم بها الزراعة ونحن فى الشرق لاهون . وقد امتحن الأسمدة المختلفة بالمزروعات فرأى أن العظام تفيد اللفت إذا كان فى أرض ضعيفة بخلاف ما إذا كان مزروعا فى أرض قوية فإنها لاتفيد فعالج العظام بزيت الزاج (حامض الكبريتيك) فزادت فائدتها للأرض . ثم عالج الأتربة الفسفورية بزيت الزاج فصارت سمادا ناما جدا .

هذه صورة مما يتضمنه قوله تعالى « وذكرهم بأيام الله » وقوله فى آخر السورة « هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد وليذكر أولوا الألباب » .

ها أنا ذا أيها المسلمون ذكرتكم بأيام الله فى العرب قبل البعثة وكيف كانوا متفرقين أذلاء ثم كيف جمعهم الإسلام ، ثم كيف فتحوا البلاد ، ثم كيف ارتقوا فى العلوم والصناعات وترجموا الكتب ، ثم كيف اضطهدوا العلم والعلماء ، ثم كيف فرّ العلم منهم على يد تلاميذ ابن رشد وغيرهم إلى أوروبا مثل بابا رومة وعلماء الأمم من الإنجليز والبلجيكيين الخ ؛ ثم كيف ادعى قوم منهم أن ماتقلوه عن آبائكم كشف لهم ، ثم كيف ارتقى القوم فى فروع الحياة كلها مما لم يحلم به آباؤنا كقطرات السكك الحديدية والآلات البخارية وكنحو البنزين والسماد وقتل الحيوانات الدرية وما أشبه ذلك . أما أنتم أيها المسلمون فإنكم قوم ساهون لاهون « وكأين من آية فى السموات والأرض يمرّون عليها وهم عنها معرضون » .

قال صاحبى : كفى هذا فى الفصل التاسع الذى جاء فى ذكر ارتقاء أوروبا وأمريكا فى العلوم . قلت :

الفصل العاشر فى نتائج جهل المسلمين وغفلتهم

اعلم أن نتائج هذا الجهل الفاضح فى الأمم الإسلامية المتأخرة ظاهرة العيان فها نحن أولاء فى مصر قد أصبحت الأمم كلها آخذة فى الرقّ وقد ألغيت الامتيازات الأجنبية من بلادهم إلا عندنا ، قال صاحبى تريد أن تذكر مامضى فى التاريخ ، فقلت لأقتصر على ثلاث حوادث وهى : سقوط الدولة العباسية وسقوط الأندلس واحتلال الفرنسيين أوّلا والإنجليز ثانيا لبلادنا المصرية .

١ — سقوط الدولة العباسية

إن الدولة العباسية إنما سقطت لجهل المسلمين وقلة تبصرهم . وأذكر لك حديثا فى ذلك سيأتى فى آخر سورة الكهف عند الكلام على يأجوج ومأجوج وأسباب هجوم المغول والتتار على البلاد الإسلامية وأن قطب أرسلان قتل بإغراء التجار من أرسلهم جنكيزخان من التجار العظام بخطاب من عنده التعامل معهم وكان معهم أموال كثيرة ، فلما قتلهم وأخذ مالهم أرسل له جنكيزخان رسلا آخرين فقطع آذانهم فلم يسع جنكيزخان إلا أن أرسل جيشه كالجراد المنتشر ، ولما بدت طلائعه وظهروا للمسلمين أصبوا جيوش الإسلام، هناك سقط فى أيدى عظماء الدولة وعرفوا أنهم لاعلم عندهم بالقوم وأنهم حقروهم لجهلهم بهم وكان ما كان من خراب تلك الممالك الشاسعة وجاست تلك الجيوش خلال الديار وكانوا كثيرا مايهلكون الرجال والنساء والأطفال والبهائم والآلات التى تستعمل فى البلاد انتقاما كما ستراه هناك فى سورة الكهف .

أتدرى لم هذا كله ؟ لأمرين : الظلم والجهل لأنهم لو عرفوا جغرافية البلاد التى تجاورهم لكانوا قدّروا القوم حقّ قدرهم .

إن علم الجغرافيا فرض كفاية ، فلو كان فى البلاد طائفة تعرف الكرة الأرضية معرفة جيدة سياسية وزراعية الخ لكان هؤلاء العلماء قدموا للأمير تقريرا عن قوة تلك البلاد وأفهموه الحقيقة ولكنهم كانوا قد تركوا العلوم كما قدمناه وعدوها من سقط المتاع ، واقتصروا غالبا على علم الفقه فنزلت بهم الطامّة وهم لايشعرون « وكأين من آية فى السموات والأرض يمرّون عليها وهم عنها معرضون » .

الحادثة الثانية : سقوط الأندلس

علمت مما تقدّم أن المسلمين فى الأندلس أسقطوا كرامة ابن رشد وأن الملك أصدر منشورا بذم العلوم الحكمية وقد أخذت ريح العلوم فى الشرق والغرب تركد وكان المسلمون بحال واحدة فيهم فى الشرق والغرب سواسية ، وكما نزلت صاعقة العذاب الهون بالمسلمين فى الشرق أخذتهم الرجفة فى الأندلس ، وسترى من

أسباب ذلك في سورة الشعراء عند قوله تعالى « والشعراء يتبعهم الغاوون . ألم تر أنهم في كل واد يهيمون » أنهم عكفوا على الشعر وتفننوا فيه ، وأهل أسبانيا عكفوا على الفكر والعلم والحكمة .

ولما تخاذل ملوك الأندلس في أواخر أيامهم واختلفوا وصار كل منهم يلجأ إلى من جاورهم من ملوك الأسبان حلت بهم الأوصاب .

من ذلك أن الملك فرديناند أتى بثمانين ألفا أمام أسوار غرناطة وطلب من أبي عبد الله تسليمها فقام الرجال والنساء والأطفال والشيوخ وجدّوا في التحصين إلى أن يئسوا فخرجوا لحرب النصارى مجازفين فهزمهم عسكر فرديناند فرجعوا فطلب هذا الملك من أبي عبد الله أن يسلمه المدينة بعد شهرين إن لم يأت إليها مدد فلم يأت لهم إلا من القسطنطينية إذ جاءت سفن ضربت السواحل ولكنّ أبا عبد الله لم يصبر حتى يجيء الوعد إذ خاف من قيام أهل البلد عليه ولم يسلم المسلمون إلا على شروط مثل حفظ الحرية والأموال والإعلان بشعائر الدين والخراج ولكن قد نقض ذلك كله فردناند وانتهى ملك العرب الممتدّ من سنة ٧١٠ إلى سنة ١٤٩٢ ميلادية أي ثمانية قرون

ولما ولي شرلكان كرلوس الخامس سنة ١٥٢٤ ألزم أعيان النصارى المسلمين بالتنصر وما زالوا في أخذ وردّ حتى أخذ رئيس أساقفة غرناطة أمرا من الملك فيليبس الثاني بمنع اغتسال المسلمين من الحدثين والرقص العربي واستعمال اللسان العربي وخروج النساء مبرقعات فأبى المسلمون وشهروا السلاح وعقدوا مودّة مع مغاربة أفريقية فتبعهم النصارى فالتجأوا إلى الجبال مع قائدهم محمد بن أمية من نسل الخلفاء الأموية واستمرّت الحرب سنين حتى ظهر شقاق بين المسلمين وذبح محمد بن أمية وخلفه عبد الله فأخذ منه النصارى سنة ١٥٧٠ معظم عساكره ، وبعضهم ذهب إلى أفريقية وشتت النصارى شمل المسلمين في الأقطار تحت المراقبة .

ولما اشتدّ الكرب على المسلمين دفعوا سنة ١٥٩٢ إلى الملك فيليبس الثاني ثمانمائة ألف دينار ليخفف عنهم فقبضت الحكومة يدها عنهم ولكن الرعية مازالت وفي يدها اليمنى السيف وفي اليسرى الصليب لمطاردة المسلمين .

ثم أمر الملك فيليبس الثالث سنة ١٦٠٩ بطرد مسلمي (والنسة) و (مرسية) فنقلتهم السفن إلى سواحل أفريقية وبعضهم اجتاز جبال (برنيه) فقبل نزولهم في فرنسا ملكهم (هنري الرابع) وجاد على بعضهم بالمسكن والمزرعة ، وعلى بعض آخر بوسائل السفر في البحر إلى (مينا غينة) و (مينا لنجدوق) .

ويقول (سديو) إن المسلمين الذين بقوا في أسبانيا بعد فتح غرناطة : أي من سنة ١٤٩٢ إلى سنة ١٦٠٩ ثم طردوا بعد ذلك كانوا ثلاثة ملايين وهم كانوا نخبة المسلمين وأعظمهم صناعة . ثم قال مانصه :

[فدرست معالم عز أسبانيا وكذا فرنسا بطردهم من مدينة (نتتس) سنة ١٦٨٩ المعتزلين مذهب (الكاثوليقية) ذوى الصنائع العظيمة فتأمله] .

هذه هي النتائج التي وصل إليها إخواننا المسلمون من أبناء العرب ذلك لأن الله لايغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مردّ له ومالهم من دونه من وال .

الحادثة الثالثة : دخول الفرنسيين مصر

طاحت الممالك الإسلامية في الشرق وضاعت في الغرب ومصر في الطريق بين البلدين ولكن الأمم الإسلامية في تلك القرون ذهب منها المصلحون ، ذلك أنه كلما نبغ نابغ أصبح بين فكي الأسد يعضه الحاكم

المستبد

المستبد ويجرحه العوام الجهلاء ، فالحكام يخافون على ملكهم من طلاب الإصلاح والعامة جهال لايدرون شيئا فيقول لهم الفقهاء : إن هذا مارق من الدين فيضيع بينهم .

إن الله خلق فى كل أمة وكل جيل نابغين وهؤلاء فى الإسلام كانوا لايجسرون على رفع أصواتهم من صولة الحكام وجهل الفقهاء القائمين بأمر الدين ، ولكن هذا هو الزمان الذى نرفع فيه صوتنا ولا رادّ لأمر الله ولابدّ من رقىّ أمة الإسلام فى هذا الزمان . لهذا كله لم يعتبر المسلمون وكيف يعتبرون وقد مات المصلحون إذ كفرهم الجاهلون فانظر ماذا حصل واعتبر وفهم المسلمين ذلك .

إن ماحصل من دخول التتار والمغول بلاد الإسلام فى القرن السابع الهجرى هو نفسه الذى حصل عند دخول الفرنسيين مصر فى القرن الثالث عشر الهجرى ، ذلك أنه كما أن المسلمين كانوا يجهلون الممالك المتاخمة لهم مساحة وسياسة وعددا وعددا ، هكذا كان القوم فى مصر ، وإليك البيان :

جاءت مراكب إنجليزية يوم الثامن من محرم سنة ١٢١٣ إلى ثغر الإسكندرية وأرسلوا رسولا إلى السيد محمد عبد الكريم الذى هو القائم بالأمر فقالوا إنا علمنا أن الفرنسيين يريدون مهاجمة بلادكم جئنا لنحميهم ولعلهم قادمون بعد قليل ونحن نريد أن نبقى فى البحر بعيدا ونأخذ الزاد بالنقود منكم فردّهم محمد عبد الكريم بخشن القول فتركوهم وسافروا والأمراء لم يهتموا بشىء من ذلك اعتمادا على قوتهم وأنه إذا جاءت جميع الإفرنج لايقفون فى مقابلتهم وأنهم يدوسونهم بخيلهم .

وفى يوم (٢٠) منه جاءت المراكب الفرنسية وطلعت إلى الإسكندرية فانهزم المصريون حالا وأحرقت مراكب مراد بك ورئيس الطبجية خليل الكردى فولى مراد بك هاربا ، أما فى الجامع الأزهر فكان المشايخ يقرءون البخارى وجميع مشايخ الطرق يذكرون اسم (لطيف) أونحوه ثم دارت الحرب ثلاثة أرباع ساعة بجوار القاهرة فغرق كثير من الخيالة فى النيل وهكذا سلمت البلاد لهم .

وقد جرت حادثة وهو أن الطاعون فشا فى البلاد المصرية فأمروا بأن الناس لايدخلون بيتا فيه مصاب ولا يخرجون منه وأرادوا عمل الحجر الصحى .

ولا جرم أن هذا نفسه هو الوارد عن عمر رضى الله عنه ، وقد صح الحديث الشريف فى ذلك : أى « إن الطاعون إذا كان ببلد لاندخله وإذا كنا فيه لانخرج منه » .

فلما أمر الفرنسيون بالحجر الصحى اعتبر المصريون أن هذا عقاب وقد أرسل لهم قائد الجيش خطابا يتضمن الحجر الصحى (ذكره الجبرتى فى تاريخه) .

ولما شرع الفرنسيون ينظمون الأعمال الصحية بحيث يحرقون ثياب المطعون وفرشه ثم لا يقرب من البيت أحد ، قال العلامة الجبرتى فاستبشع الناس ذلك وأخذوا فى الهرب والخروج من مصر إلى الأرياف .

هذا ما أردت نقله لتعلم أيها الذكى إلى أىّ حدّ بلغ جهل المسلمين ونومهم العميق ، فلا العدوّ يعرفون قوّته ولا العمل بالحديث فى أمر الصحة قاموا ، ومسألة الحجر الصحى حق بلاجدال ، والمسلمون إذ ذاك ساهون لاهون « وكأين من آية فى السموات والأرض يمرّون عليها وهم عنها معرضون » هذا ماكان فى حادثة الفرنسيين .

أما دخول الإنجليز مصر

فإنه معلوم مشهور ، ولكن أذكر حادثة واحدة أخبرنا بها أستاذنا الشيخ حسن الطويل رحمة الله عليه قال : كان الشيخ أبو خطوة جالسا فى مجلس عرابى باشا الوطنى الشهير وقت الحرب مع الإنجليز ، فقال الشيخ

أبو خطوه يجب إقفال القناة ، فقال عرابي باشا : إن السياسة ليست في المخفظة . فقال الشيخ أبو خطوه : أنا آخذ المخفظة وأقوم ، ثم إن الإنجليز لم يدخلوا إلا من القنال ، والسبب في ذلك أن رجال فرنسا ضمنوا لعرابي عدم دخول الإنجليز بحرا كبهم من القنال فوثق عرابي بذلك ولم يثق الشيخ أبو خطوة .

ولقد قرأت في كلام (ابلانت) الإنجليزي في هذه الحادثة أن المصريين لو أنهم أقفلوا القنال لم يدخل الإنجليز مصر إلى الأبد وإنما دخلوها بحيلة فوهبوا السفن لخديو مصر وبعد أن دخلوا استردّوها منه حتى يقولوا : مادخل بلادكم إلا سفن الخديوى لاسفن الإنجليز . هذه عواقب الجهل بالأمم وبالعلوم « ولله عاقبة الأمور » .

أيها المسلمون ! ها أنا ذا ذكرتكم بأيام الله فينا وفي أسلافنا فلتذكروا أممكم بعدنا بكتب ورسائل ولتتفقهوا سنن القرآن إذ ذكر بما وقع في غزوة أحد وغيرها عاملين بقول الله تعالى « وذكرهم بأيام الله إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور » اه .

تتمة وشرح لما تقدّم ، تذكير المسلمين بالقرآن

قلنا فيما تقدّم : إن سورة إبراهيم مبدوءة بالتذكير بأيام الله ومختومة بقوله تعالى « وليذكر أولوا الألباب » والألباب : جمع لبّ والّلب غير القشر ، فالعقول قسمان : عقول هى القشور وعقول هى الألباب ، وهذه الثانية تبحث في حقائق الأشياء ، فليرجع من بعدنا من المسلمين إلى أسباب زوال الممالك الإسلامية ، السبب أمران : الجهل ، وترك الشورى ، انظر إلى ما يقوله المؤرخ الفرنجى المذكور :

يقول إن الأساطيل الإسلامية وصلت إلى مصابّ نهر السند وأخذ عبد الله بن عامر بلاد كرمان وسجستان إلى أن قال : وبعث إلىّ ملك الصين اثنى عشر سفيرا وهدّده بالإغارة فغمرهم بعطايا الذهب الوافرة لشرّهم وانتشرت اللغة العربية ودين الإسلام بالتدريج حتى زالت ديانة البوذية وقد ظهرت الجيوش الإسلامية على شواطئ نهر الكنج .

هذه حالهم في الشرق . فأما حالهم في الغرب فإنهم توغلوا في فرنسا وأخذوا إقليم (برغونيا) وبلغوا مدينة (طلوشة) تحت تلك البلاد سنة ١٠٣ فهزموا فارتدّوا إلى شواطئ نهر الرون والسين وأخذوا مدينة (بونة) ودفع الجزية أهل (سنس) و (البيجو) الخ .

أنا لست الآن في مقام الاستحسان أو الاستقباح ، إنما أنا الآن أذكر ماحصل لآبائنا شرقا وغربا ثم ماذا حصل بعد ذلك ؟ .

ها أنت ذا رأيت كيف أصبحت حالهم بعد ثمانية قرون ، هاهم أولاء في البادية كما كان آباؤهم قبل النبوّة ومن تحضر منهم فإنه تحت حكم دولة من دول أوروبا .

ثم انظر هاتين الحالتين : حال العزة أوّلا ، والذلة ثانيا ، ووازن بينهما وبين حال العلم أولا وثانيا .

انظر كيف يقول في صفحة (١١٠) من الكتاب المذكور :

إن المأمون لما تولى استدعى من القسطنطينية عالما يسمى (ليون) فأبى (توفيل) ملك القسطنطينية فكان بينهما سنة ٨٢٥ ميلادية حرب نصر فيها (توفيل) وتوفيل هذا هو الذي طمع بعد ذلك في إرجاع ما أخذه العرب منه فحارب المعتصم سنة ٨٣٦ وخرب مدينة (سوزوبترا) مسقط رأس المعتصم وذبح جميع رجالها ، فسبب ذلك أن أخذ المعتصم عمورية سنة ٨٤٠ ميلادية وفعل مافعله (توفيل) فانظر ووازن بين المأمون وبين يعقوب المنصور ، فالأول حارب الروم لأجل عالم منهم ، والثاني طرد وأهان العالم وهو ابن رشد فارتقى الملك في أيام الأول وانحطّ بعد زمن الثاني .

إذن : ما السبيل لرقىّ المسلمين ؟

السبيل أن تعدل الأمة عن النظام الحالى فإن كل مصيبة حلت بالأمة تنجت من جهل الملوك والأمراء وعدم اعتنائهم بالشورى، فمتى مات الأمير وخلف الملك لولد غير رشيد ضاعت الدولة، فهى أبدا تبع الأمير جهلا وعلما ، فلا سبيل لرقىّ الشرق إلا أن يكون النظام فى الملك بقانون مسنون ، وأن يكون هناك مجلس له الكلمة النافذة فى أمر الوراثة ونظام الملك وأن يقيد الملوك كما قيد ملك الإنجليز بحيث يكون الأمر لأهل الحل والعقد .

هذه هى السبيل لنظام الأمم الإسلامية فى مستقبل الزمان ، هلموا يا أبناء العرب واسمعوا قولى : انظروا إلى أخلاق آبائكم الأقدمين وأخلاقكم اليوم ، آباؤكم كانت لهم السلطة على أمم فى الشرق والغرب كما بينا فلما زالت دولهم الملكية بقيت دولهم العلمية .

فانظروا ماذا يقول العلامة الفرنسى المذكور فى [المبحث العاشر وغيره] إن مدنية العرب لم تذهب بذهاب دولهم فنذكر فى هذا المقام أن الأتراك والمتول لما أغاروا من شمال آسيا على غربها وشرقها حفظوا مدنية العرب وعلومهم :

(١) فقد أحضر السلطان محمود الغزنوى إلى ديوانه العلامة البيرونى من سنة ٩٩٧ إلى سنة ١٠٣٠ .

(٢) وجمع جلال الدين ملكشاه السلجوقى أفاضل العلماء من سنة ١٠٧٢ إلى سنة ١٠٩٢ .

(٣) وأحضر (هولاكوخان) المتولى إلى ديوانه حين تغلب على بغداد سنة ١٢٥٢ ميلادية نصير الدين الطوسى الذى قلده إدارة المرصد الجديد بالمراغة .

(٤) ونقل جمال الدين الفلكى مع الخان (كوبلاى) علوم العرب إلى مملكة الصين .

(٥) وحث محمد الناصر بن قلاوون أحد السلاطين المماليك بمصر رعاياه على اكتساب للمعارف من سنة ١٣١٠ إلى سنة ١٣٤١ ميلادية .

(٦) وأسس (أولغ بيك) التتارى فى القرن الخامس عشر مرصدا بدمشق وأبقى فى أزياجه من الآثار الفلكية مايشهد بعلوّ همته وحسن قريحته .

(٧) وقد كان بعد هولاكو بقرنين عائلة تيمورلنك ؛ إذ كان ولده (شاه روح) وحفيده (أولغ بك) المتقدم ذكره وارثين لما فى المدرسة البغدادية العربية من العلوم والفنون .

(٨) ثم كان زمن الأولين من السلاطين العثمانية علماء برعوا وألفوا كتبا باللغة العربية والفارسية فكان لديهم آخر أشعة شموس العلوم التى ختم بها ذلك العصر المديد .

(٩) وإن تعجب فعجب ما نسمع عن (هولاكو) المتقدم الذى أغدق على العلامة نصيرالدين الطوسى المال لجمع الكتب الفلكية من خراسان والشام والموصل وبغداد وبنى المرصد المتقدم وجعل فى قبته ثقبا تدخل منه أشعة الشمس وبهذه الأشعة تعرف الدرجات والدقائق فى سيرها اليومى وارتفاعها كل فصل وجعل فى هذا المرصد دوائر رصد كبار أو أرباع دوائر وكرات سماوية وأرضية وسائر أصناف الاسطرلاب .

(١٠) هذا ما كان من أمر آبائكم العرب خاصة والمسلمين عامة الذين أصبح علماؤهم علماء عربية بغضّ النظر عن الأصل .

كان لهم الملك أوّلا فلما ذهبت دولهم صار العلماء قائمين بالعلوم عند المتغلبين ، فماذا تمّ بعد ذلك ؟ .

(١١) قال المؤرخ المذكور [تأخر العرب الآن من التدخل فى انقلاب الممالك الشرقية وسكنوا المدن المتباعدة عن بعضها فى «محيط» جزيرتهم ولزم عرب الشام ونجد عوائد الأجلاف كأنهم نسوا مآثر آبائهم] .

ثم قال [وأخذ أهل حضرموت وعمان والبحرين يتمتعون بثمرات المعاملات التجارية مع أهل الهند ويغوصون على المرجان بقرب سواحل الخليج الفارسي ووفد السياحون وتجار العرب إلى شرق أفريقية وجزائر بحر الهند وسواحل مالابار والممالك الممتدة إلى ملقا بل ذهبوا إلى الصين . قال ولم يزالوا إلى الآن ينشرون فيها عقائدهم وعوائدهم وتصوراتهم] .

(١٢) من آثار الجهل فى أمم الإسلام زمن الانحطاط أنك ترى أن البربر فى شمال أفريقية كانوا هم والعرب إخوانا أيام موسى بن نصير وطارق بن زياد ؛ ولما طرد النصارى فى أسبانيا العرب سنة ١٦٠٩ من بلادهم إلى بلاد البربر بشمال أفريقية لم يأذنوا لهم أن يتوطنوا فى البلاد حتى أخذوا مامعهم ثم عاملوهم معاملة الأعداء ولم يزالوا كذلك تحت حكم الأتراك وهم قريب من ثلث أهل البلاد حتى سكن قليل منهم مراكش تحت حكم الأشراف واختار أكثرهم العيشة البدوية والاستقلال بحكم أنفسهم فسكنوا الصحارى ولله الأمر من قبل ومن بعد .

هذه صفحة تامة من تاريخ آبائكم حفظوا الملك ونشروا العلم إلى زمن قريب ثم دالت دولة العلم بعد دولة الملك وسكنوا الأكواخ بعد القصور ، فهل من أبناء الإسلام والعرب من فتيان صدق يرجعون مجدا مضى وتاريخا قضى ويجيدون التاريخ ؟ .

ها أنا ذا بينت لكم فى هذا التفسير خلاصة العلوم وخلاصة الدين وخلاصة تاريخ الآباء وخلاصة ما أحاط بكم من رفعة وضعة ، أفلا يكون هذا تفسيرا لقوله تعالى « وذكرهم بأيام الله » ؟ .

أفليس منكم يا أبناء العرب ويا أبناء الإسلام رجال ينطبق عليهم قوله تعالى فى آخر السورة « وليذكر أولوا الألباب » ؟ فهذه هى ذكرى أيام الله ، ومن اطلع على هذا التفسير وفهمه فهو حقا من أولى الألباب .

إن من أعجب العجب أن تشتمل هذه السورة على قصص إبراهيم الخليل وعلى ذكر أبنائه العرب وعلى الرسول العربى صلى الله عليه وسلم وعلى مادعا به ربه من قوله « ربنا إنى أسكنت من ذريتى الخ » ومن قوله « واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام » .

النهى عن عبادة الأصنام

دعا الخليل عليه السلام أن يجنب الله أبناءه عبادة الأصنام ، إن عبادة الأصنام تحصر الفكر فى المعبود ، والله عز وجل خلق الكواكب والنبات وكل ما على الأرض ، فالاقتصار على مخلوق واحد والتقرب به إلى الله دلالة على قصور العقول ، فعبادة الأصنام مذمومة لأن الله له هذا العالم كله ، فليقرأ المسلمون العلوم كلها كل بقدره منهم والاقتصار على القشور من العلوم وترك بقيتها تشبه من بعض الوجوه عبادة الأصنام من حيث حصر الفكر .

إننا معاشر المسلمين الآن مؤمنون بالله ولكنا حصرنا عقولنا فى علوم ضئيلة فلذلك تفرقنا شذر مذر وحكمتنا الأمم التى كنا نحكمها وطاحت منا العلوم وذهبت إلى أوروبا وأمريكا واليابان ، والله يقلب الليل والنهار وسيرجع مجد العرب والمسلمين أرقى وأعظم وأشرف من مجد السابقين «ولله عاقبة الأمور » اهـ .

لطيفة فى قوله تعالى « ومالنا ألا نتوكل على الله الخ »

اعلم أن التوكل له [فائدتان] كما قاله علماؤنا :

[الأولى] أنه يورث راحة القلب فى الحال .

[الثانية] أن الله يتولى تدبير الأمر المتوكل فيه بشرط أن يفعل العبد كل مايقدر عليه فيه علما وعملا .

وحيث على التوكل ما رأيته فى كلام علماء عصرنا تحت هذا العنوان .

القلق واضطراب البال وأثرهما فى الصحة والعمل

كان الدكتور (لاجن يتشر) يقول [لايموت المرء من الجد فى العمل ولكنه يموت من الهمّ والقلق، كما أن الآلة لاتؤذيها الحركة ولكن يليها الاحتكاك ويلحق بها ضررا عظيما] ومما لاريب فيه أن النائبات والشدائد الجسيمة لاتقوى على تعكير صفاء الحياة بقدر الأكدار والمخاوف والوساوس الطفيفة التى تلمّ بالمرء من يوم إلى يوم فتنغص عيشه وتهدم دعائم توازنه العقلى .

وقد كتب الدكتور (جورج جاكوبى) وهو من جهابذة المتضلعين من علم الأعصاب عن فعل القلق فقال [إن ضحايا الهم فى القرن الأخير أربت على آلاف القتلى فى ساحات الوغى] وإن أدهش ماتوصل إليه علم الأعصاب فى الآونة الأخيرة إثباته أن القلق قتال مود بالحياة . ومباحث الأطباء لم تقف عند هذا الحد فحسب بل إنها اخترقت الحجب التى كانت تكتنف هذا العارض وأماطت اللثام عن غوامضه ودقائقه فأظهرت أن كثيرا من الوفيات المنسوبة إلى أسباب شتى ناشئة فى الحقيقة عن القلق واضطراب الأفكار . فالقلق يفعل فعله الذريع فى خلايا الدماغ الحيوية مشبها نقط الماء المتساقطة على بقعة واحدة لاتتعدّاها فإنها مع صغرها وضعفها إذا وقعت على الصخر الأصم لاتلبث أن تشقه وتخربه .

فلا عجب إذا كان التفكير المؤلم المستمرّ المنحصر فى موضوع واحد متلفا لخلايا الدماغ مقوّضا لبنيانه اللين الهش البضّ . وفعل القلق ميكانيكيا هو كذلك أشبه بفعل مطرقة صغيرة لاتزال دائما أبدا تهوى على الدماغ ضربا حتى تتمزق أغشيته ويختل نظامه . فتتيم العاشق وهمّ المضطرب وحزن الحزين مالم يبذل هؤلاء الجهد العظيم فى مكافحتها تصبح كالمطرقة المشار إليها فلا تتمّ أن تدكّ أركان الدماغ وتذهب بالرشد وتفضى إلى اختلاط العقل واختلاله .

وقد أظهر البحث أن القلق والغم والفكر الراسخ الملازم تنتاب المصاب بها حتى لايجد لنفسه منها إلى الخلاص سبيلا ثم إنها لابدّ بتتابع وقوعها ومعاودتها من أن تهدم جزءا ولويسيرا من خليات الدماغ إذ ليس شئ أشق من مقاومة الأفكار المزعجة التى لاتنفك تخالجه وتساوره .

ولما كانت أجزاء الدماغ متصلة بعضها ببعض بواسطة الألياف اتصالا محكما كان من المحتم أن يتطرّق الفساد من الجزء المصاب إلى سائر جوانب الدماغ . والقلق بحدّ ذاته شبيه بالوسواس، وليس من حالة عقلية أخرى أوخم عاقبة وأفدح ضررا بالإنسان من حيث نموّ نفسه وسعادته ونشاطه من القلق وشريكه الانكسار وطباب هذه العلة هو توطيد العزيمة على طرح الفكر المقلق جانبا وتناسيه وترويح البال وتسليته . وعلى المرء متى شعر بتعب فكرى أن يبادر إلى إبدال عمله بعمل آخر يطلق به نفسه من عقال الضجر والسآمة لأن التسلى هو أعدى أعداء القلق وأنجع دواء يعالج به .

ولامراء أنا إذا استسلمنا للهموم والأكدار قذفنا بأنفسنا قرنا كاملا إلى الوراء وتراجعنا إلى عصر الآلة البخارية فى أول عهدها حينما لم يكن مستعملها ينتفع منها بسوى عشر ماينفقه عليها من الوقود فكانت القوة المستفادة توازى عشرة فى المائة والقوة الذاهبة سدى تسعين فى المائة . وكثيرون هم الألى يشبهون تلك الآلات المنبوذة إذ يهدرون قسما وافرا من نشاطهم بالاضطراب والانزعاج والتذمر والتشكى ، بينما نرى أناسا آخرين يستثمرون جلّ قواهم إن لم يكن كلها فيما يعود عليهم بالخير العميم والنفع الجزيل ، فطوبى لمن تعلم أن يحيا الحياة الهنيئة المثلى فاستفاد من كل ما أوتيه من نشاط وقوة ولم يبدد شيئا من مواهبه فيما لايجديه نفعا .

قال شيخ وقد أدركته الوفاة لأولاده [اعلموا يابنىّ أنه قد خامرتنى فى أثناء حياتى مخاوف جمة لم يتحقق إلا النزر اليسير منها] .

وحدث تاجر وجيه عن أبيه قال [كان أبي مدة عشرين سنة يوجس خيفة من حدوث شر لم يقع أبدا] فكثيرا ما نتوقع حوادث الحياة ونبتسرها ابتسارا بدلا من إرجائها لأوانها واجتزائنا بشئون اليوم الذى نحن فيه . فهام اليوم قلما يتأتى عنها عظيم ضنى ، ولكن ليست كذلك المبالاة بأمور المستقبل التى تضنك العقل وتوهن الجسد فإنما هى مشاغل الغد والأسبوع القادم والعام المقبل التى تشيب الرؤوس وتجعد الوجوه وتحنى الأجسام وتنهك القوى .

وجدير بالإنسان العاقل أن يقيم حوالى حاضره سورا منيعا حائلا بينه وبين ماضيه وآتيه فيعيش فى حظيرته خليا مطمئن النفس ناعم البال .

وقد كان (تاكرى) الكاتب الإنجليزى يقول [إن كل امرىء يخلق لنفسه البيئة التى يشتهيها لأن الدنيا شبيهة بمرآة تعكس له شكله وصورته ، فإذا أقبل عليها مقطبا قطبت وإذا بش لها وابتسم بشت وابتسمت] .

ويحكى أن (دوايت مودى) الواعظ الأمريكى تقدم يوما إلى تلامذته بأن يتباروا فى استنباط المعانى ، فمن جاء منهم بأحسن فكر أجازه بخمسمائة ريال فكان المجلى فى هذا المضمار من قال [يتذمر الناس من أن البارىء جل وعلا أنبت مع الورد شوكا ، أفما كان أحرى بهم أن يحمدوه إذ أنبت مع الشوك وردا ؟] .

ولا شك فى أن مما يساعد الفتى على الفوز فى معترك الحياة قبوله العالم بما فيه من الأشواك والأسواء فقد قال فونتنيل [إن الإسراف فى الأمل والرجاء هو حجر عثرة فى سبيل السعادة والهناء] وقال السرجون لبوك : [لو أن الموكول إليهم أمر تربية الناشئة علموهم المسرة بعنايتهم بقدر اهتمامهم بمسرتهم لآل ذلك إلى ترقى العالم وسعادته] وكان (أوليفر وندل هولمز) وقد بلغه الكبر لا ينفك أبدا يذكر جميل مربيته التى علمته صغيرا الإغضاء عن مساوىء الحياة ، فكانت إذا جرحت أصبعه تصرف عن ألمه بدمية تهديها إليه أو حكاية تقصها عليه وكان يعزو إليها اغتباطه الدائم المستمر ، الاغتباط الذى يسهل اكتسابه على الغلام ويعسر على البالغ أشده وأما فى الشيخوخة فهيهات لا يناله أحد أبدا .

وقال أحد المشاهير [لما كنت أرض أصبعى فى أيام طفولتى كان القائمون بأمرى يعزوننى ويطمئنون بالى بتوجيه نظرى إلى ابن الجيران الذى بترت ذراعه بأجمعها . وحينما كان القذى يتسرب إلى عينى كانوا يذكروننى بابن عمى الذى فقد عينه ولا رجاء له باستردادها فكنت أرى نفسى إزاء هذا وذاك سعيدا محظوظا] .

فينبغى إذن أن يعود الأطفال الانبساط والارتياح إلى كل ما يعرض لهم فى الحياة ناظرين إلى الأشياء من وجهها المشرق المنير لا المظلم القاتم ، حتى إذا شبوا على هذه الخلة شابوا عليها ورافقتهم من المهد إلى اللحد .

انتهى تفسير القسم الأول من سورة إبرهيم عليه السلام .

(القِسْمُ الثَّانِي)

مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ۝ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۝ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ۝ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ

عنا من عذاب الله من شيء قالوا لو هدانا الله لهديناكم سواء علينا أجزعنا أم صبرنا
ما لنا من محيص * وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم
فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني
ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي إني كفرت بما أشركتمون من
قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم * وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري
من تحتها الأنهار خالدين فيها بإذن ربهم تحيتهم فيها سلام * ألم تر كيف ضرب الله
مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء * تؤتي أكلها كل
حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون * ومثل كلمة خبيثة
كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار * يثبت الله الذين آمنوا
بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء *
ألم تر إلى الذين بدلوا نعمت الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار * جهنم يصلونها
وبئس القرار * وجعلوا لله أندادا ليضلوا عن سبيله قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار *
قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية من قبل أن
يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلال * الله الذي خلق السموات والأرض وأنزل من السماء
ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره
وسخر لكم الأنهار * وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل
والنهار * وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمت الله لا تحصوها إن الإنسان
لظلوم كفار .

هذا القسم قد أبان الله فيه أحوال الأمم وكيف تبيد بالجهالة وتحيا بالعلم وجعل ذلك في أربعة أنماط :

[النمط الأول] أنه شبه أعمال أولئك الذين كفروا وقد نظروا السموات والأرض اللذين ذكرهما الأنبياء جميعا وجاء بها النبي صلى الله عليه وسلم لقومه كما في أول السورة ثم أعرضوا ولم يعقلوا إلا اقتراح خوارق العادات فشبه أعمالهم بتراب عصفت به الرياح فذهبت به في كل ناحية فلا ينالون ثوابا وذلك هو الضلال البعيد عن طريق الحق والصواب .

إيضاح لقوله تعالى فى أول السورة

« الذين يستحبون الحياة الدنيا » إلى قوله « أولئك فى ضلال بعيد »

[اللحظ الثانى] أنه خاطب كل واحد من الناس فقال :

ألست ترى أيها الإنسان أنا خلقنا السموات والأرض بالحكمة وعلى وجه يليق أن يخلقا عليه وكيف ترون هذا وأنتم عنه غافلون ؟ .

لعمرى لئن لم تقم الأمم بما عليها من حسن النظام وجمال الإتقان وتعميم العلم وتقوم بالأمر وتحافظ على كيانها وتتخلق بأخلاقى فى سمواتى وأرضى وأعمالى فيهما لأنتزعن الملك منها انتزاعا ولأجعلن أمرهم ضياعا ولأصيبنهم بداء عياء ولأجعلن جمعهم كالهباء ، وكيف أبقى فى ملكى من لايفقهون ؟ أو يعمر أرضى من لايعقلون ؟ وهل خلقت السموات والأرض باطلا ذلك ظن الجاهلين فويل ثم ويل للجاهلين من تفريق جموعهم وتشتيت شملهم وذهاب ملكهم ذلك يوم شؤمهم ثم يرجعون إلىّ جميعا فيجادل المرءوسون الرؤساء ويحاور الرؤساء المرءوسين ويلقى الأولون التبعة على الآخرين ويخضع ويخنع للأمر الآخرون ويسلمون بالمقادير ويقولون «سواء علينا أجزعنا أم صبرنا مالنا من محيص» ثم يقف الشيطان بين الحزبين خطيبا وأىّ خطيب فيقول : أيها الحزبان ويابنى الإنسان ماقضى كان وليس فى الإمكان أبدع مما كان «قضى الأمر الذى فيه تستفتيان» لقد وعدتكم فأخلفتكم والله وعدكم فلم يخلفكم وقد اتبعتمونى إذ دعوتكم بلا برهان مع أنكم اقترحتم على أنبيائكم أن يأتوكم بما ليس فى الإمكان فالوم واقع عليكم فهو منكم وإليكم ، فلا أنا مغيثكم ولا أنتم مغيثىّ لقد كفرت بكم .

وملخص هذه المحاورات أن خراب الأمم وضياع الدول وذهاب عزها ومجدها من الرؤساء واستبدادهم بالرعايا وظلمهم فى القضايا فيقلدهم المرءوسون ، وهذا التقليد هو المخرّب للأمم المضيع الهمم ، لأن المقلدين يتكلون على المقلدين بالفتح والأساس إذا كان واهيا انهار بما فوقه فرجع الأمر إلى أن الله لايغفر للأمم خطأها فى التقليد ويوجب عليها النظر والعلم الرشيد والرأى السديد والتجديد فى الرأى والإبداع فى العمل وهذا قوله تعالى « ألم تر أن الله خلق السموات » إلى قوله « تحيتهم فيها سلام » .

تفسير بعض الألفاظ

قال تعالى (مثل الذين كفروا بربهم) أى فيما يتلى عليكم صفتهم التى هى مثل فى الغرابة ثم استأنف لبيان هذا المثل فقال (أعمالهم كرماد اشتدت به الريح) حملته الريح وأسرعت الذهاب به (فى يوم عاصف) وصف اليوم بما يوصف به الريح فإن العصف اشتداد الريح كقولك نهاره صائم وليله قائم . فإذن صلة الرحم وإغاثة الملهوف وما أشبهها لاثواب فيها مع كفرهم كالتراب المذكور (لايقدرون) يوم القيامة (مما كسبوا) أى من أعمالهم (على شئ) أى المقصود أنهم لايجدون ثواب أعمالهم (ألم تر أن الله خلق السموات والأرض بالحق) أى لم يخلقهما باطلا ولا عبثا بل خلقهما لقصد صحيح وأمر عظيم (إن يشأ يذهبكم) أيها الناس (ويأت بخلق جديد) يعنى سواكم أعلم بالسموات والأرض اللذين خلقناها بالحقّ فيكونون مؤمنين وموقنين (وماذلك على الله بعزيز) أى بممتنع وكيف يعزّ على الله وقد أهلك الأمم النائمة فى الإسلام نفسه فأزال ملك الدولة العباسية بالتتار لما كانوا غافلين حتى جهلوا علم الجغرافيا فلم يعرفوا قوة التتار كما سيأتى فى سورة الكهف ، وأزال ملك أهل الأندلس لما انكبوا على الغزل والتخنث وولوا الوظائف أهل الخيال والشعر ولم يولوها أرباب العقل والفكر وتركوا عاداتهم وأخلاقهم واتبعوا الفرنجة وأهلك أهل أمريكا الأصليين وأهل استراليا القدماء ، فكل أمة نامت أعينها عن استكناه هذا العالم فإن الله يزيلها على أى دين كانت وأىّ نحلة ، فإن الله خلق

السموات والأرض بالحق" ولم يبق إلا الأصلح فى الوجود (وبرزوا لله جميعا) أى يبرزون من قبورهم يوم القيامة وإذن يتجادلون مجادلة اللصوص إذا أحضروا بين يدى القضاء فإن كلا منهم يقول نفسى نفسى لأن « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين » وقوله (فقال الضعفاء) جمع ضعيف : أى ضعاف الرأى (للذين استكبروا) لرؤسائهم الذين استغووهم (إنا كنا لكم تبعا) فى تكذيب الرسل (فهل أنتم مغنون عنا) دافعون عنا (من عذاب الله من شئ) أى فهل تقدرون على أن تدفعوا عنا بعض عذاب الله الذى حل" بنا فمن الأولى للبيان والثانية للتبعيض (قالوا لو هدانا الله لهديناكم) أى لو أرشدنا الله لأرشدناكم (سواء علينا أجزعنا أم صبرنا) يعنى مستويان علينا الجزع والصبر (مالنا من محيص) منجى ومهرب من العذاب. والمحيص المعدول لأجل الفرار وهو مصدر كالمغيب أو مكان كالمبيت . ثم قال (وقال الشيطان لما قضى الأمر) أحكم وفرغ منه ودخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار (إن الله وعدكم وعد الحق) وعدا أنجزه وهو الوعد بالبعث (ووعدتكم) وعد الباطل (فأخلفتكم) قلت لكم لابعث ولاحساب وإن صح فالأصنام شفعاء (وما كان لى عليكم من سلطان) تسلط فألجئكم به إلى الكفر والمعاصى (إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى) أى إلا دعائى إياكم بتسويلى وتزيينى فأسرعتم بإجابتى بلا برهان (فلا تلومونى ولوموا أنفسكم) فلا لوم على" فى وسوستى وإنما اللوم عليكم إذ أطعتمونى (ما أنا بمصرخكم) بمغيثكم من العذاب (وما أنتم بمصرخى) بمغيثى" (إنى كفرت بما أشركتمون من قبل) أى كفرت اليوم بإشراككم إياى من قبل هذا اليوم : أى فى الدنيا ، أى تبرأت منه واستنكرته . ثم قال الله تعالى (إن الظالمين لهم عذاب أليم . وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها بإذن ربهم) بإذن الله تعالى ، والذين يدخلونهم هم الملائكة (تحيتهم فيها سلام) أى تحييهم الملائكة فيها بالسلام .

[النمط الثالث] اعلم أن النمطين السابقين يخالفان النمطين اللاحقين ، ذلك أن الأولين جاءا لتبيان مايعتور الأمم الجاهلة من تفرق الحال وضياع الأمر وذهاب مجدهم ودثور عزهم وعنق جمعهم لما كانوا جاهلين ألم تر كيف صو"ر أعمالهم أن الرياح تذروها وكيف نسوا حظهم من السموات والأرض فحكم عليهم بالذهاب من الوجود ثم يؤتى بدلهم بمن هم أشرف نفوسا وأقوى قلوبا وأعقل للعلم وأولى بالفهم . وكيف كانوا متواكلين يسوقهم الرؤساء كما تساق الأنعام ويذوقون سوء النكال ، فالرؤساء والشهوات التى يستخدمها الشيطان فى إغوائهم لهم ولها السلطان عليهم .

ذلك ملخص النمطين فاسمع مايتلى عليك من النمطين اللاحقين واعجب للأمرين : الجهل والعلم واذكر ذلك لمن يليك [النمط الثالث] فأما النمط الثالث فهو واسطة العقد وبيت القصيد ولأقدم لك مقدمة لأجله فأقول :

اجلس ساكنا فريدا لا أصوات بجانبك وفرغ قلبك عما يلهيه وانظر إلى العالم العلوى وإلى العالم السفلى وتصو"ر أنك عقلتهما ودم على ذلك طويلا وكرره فى نفسك مرارا على شريطة أن تلم" بالعلوم المعروفة إلماما من الرياضيات والطبيعيات حينئذ يتجلى لك إشراق فى النفس وبهجة فى القلب وضياء فى العقل وأنوار بهجات كاشفات ويصور لك خيالك العجيب صورة علك بهيئة أنوار مختلفة الألوان بحيث تبتهج النفس بها وتقر" العين ، تلك الأنوار تشرق من الأرض وتنبعث من سطحها وأصلها من قلبك وتخترق طباق الجو" وتعلو إلى العلا حتى تصل أطباق السموات فتحلق هناك وتحاول الإحاطة بالنجوم ولا تخاف من الرجوم ولا الوجوم . فهل حضر فى خيالك هذا المثال ؟ نعم حضر لأنى ألقيته فى خيالك وكأنك كنت هنالك ، فإذا تصورت هذا كله الآن ، وما أسهل صور الخيال ! فإنه يمثل جمال العلم الحاضر فى النفوس الكاشف العوالم التى درستها والمعلومات التى قرأتها من المعادن والنبات والحيوان والإنسان والجو" والسحاب والسموات .

هذا هو الخيال الذى يحاكى هذه الدراسة العامة ، إذا عرفت هذا فانظر تمثيل القرآن لهذا العرفان .

لقد أراد الله أن يرينا بهجة العلم بهيئة تدل على الثبات والدوام فعمد إلى أنواع النبات فقسمها قسمين : قسم لاثبات له ولا دوام بل هو كخضراء الدمن التى تنبت أول النهار فى الندوات حتى إذا علت الشمس فى السماء نشفت وذوت وذرتها الرياح وبقيت أرضها جرداء حتى إذا ما أرخى الليل سدوله وظهر الصباح نبت مرة أخرى ثم ييبس ضحى وهكذا دواليك ، هذا قسم من أنواع النبات . القسم الثانى هى النباتات القوية المتينة كالنخل والأشجار الباسقات التى تعيش عشرات السنين ولها فروع فى الجو وجذور نازلات فى الطين وأوراق وأزهار وأثمار ولها فاكهة ينالها الناس كل حين . فانظر كيف جعل هذا القسم الأول مثلا للمعارف الضئيلة والآراء الزائلة السقيمة بحيث لاتنفع جارا ولا تورى نارا ولا تدفع عارا وجعل القسم الثانى منها مثلا للمعارف الشريفة والآراء المنيفة وثبات الأمور ونظام الجمهور .

وبالتأمل فى المثلين ترى عجبا عجابا . ذلك أن الناس على اختلاف نحلهم وألوانهم ومدنهم مختلفون فى آرائهم كاختلاف النبات . فلعمر الله أين خضراء الدمن التى ذكرتها لك وأنت تشاهدها غير مكترث بها كل يوم تخرج فى الأرض الندية لاصقة بالأرض وهى نباتات حقيقية تزهر وتثمر ونحن لانشعر بها وتتم نظامها فى بعض يوم ويكون لها بذور ، وتلك البذور تنبت فى اليوم الثانى . فأين هذه وأين النخل والسرو والأثل وكم من نبات بين هذين ؟

إن النباتات لم يحصرها العلماء إلا على مقدار طاقتهم قد أوصلها بعضهم إلى ثمانين ألف نوع ، وبعضهم زاد كثيرا وهم جميعا يقولون إن فى العلم ما غاب عنا فهذه الأنواع كلها مختلفات غير متفقات . هكذا عقول الناس فمنها عقول لاصقات بالأرض كخضراء الدمن . ودمن الدمن : الأرض التى تكون حول البيوت وفيها ما يرميه الناس مما يزدرى ، ومنها عقول مرتقيات قليلا قليلا حتى تصل إلى أعلاها كالأنبياء .

هذا هو المثل الذى ضربه الله لعقول بنى آدم وعلومهم ، قرن عقول الناس وعلومهم بأنواع النبات بل إنه أراد فوق ذلك سبحانه أن يقول للناس : ادرسوا هذه الأنواع وعلى مقدار الدراسة لها ولغيرها يكون ارتقاء العقول ، ولكن ليس هذا مضرب المثل بل هو يؤخذ من طريق التعقل ، إنما المقام مقام اختلاف العقول فى العلم . وإذا كان النمطان الأولان دلا على الذهاب والتشتيت وعدم الثبات فههنا ضرب المثل لأنواع العلم ، فمنه ما هو من القسمين السابقين لاثبات له ، ومنه ثابت له قرار ، وعبر عن الثابت بالكلمة الطيبة وعن غير الثابت بالكلمة الخبيثة . وهاك تفسير ألفاظه قال تعالى (ألم تر كيف ضرب الله مثلا) أى ألم تر أيها الإنسان بعين قلبك فتعلم علم اليقين بإعلامى إياك كيف بين الله شبها ، والمثل قول فى شيء يشبه قولا فى شيء آخر بينهما مشابهة ليتبين أحدهما من الآخر ويتصور ، وقوله (كلمة طيبة) بدل من مثلا ، و (كشجرة طيبة) صفتها : أى بين الله شبها كلمة طيبة موصوفة بأنها كشجرة طيبة (أصلها ثابت) فى الأرض ضارب بعروقه فيها (وفرعها) وأعلاها (فى السماء) فتمتد فروعها فى الجو (تؤتى أكلها) تعطى ثمرها (كل حين) كل وقت ، والحين يطلق على القليل والكثير (بإذن ربها) بإرادة خالقها وتكوينه (ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون) لأن فى ضرب الأمثال زيادة الإفهام (ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة) أى كمثل شجرة خبيثة (اجتثت) استؤصلت وأخذت جثتها بالكلية (من فوق الأرض) لأن عروقها قريبة منه كخضراء الدمن أو لاعروق لها فى الأرض كنبات الكشوثى الذى يعيش على غيره كما يعيش البرغوث على جسم الإنسان (مالها من قرار) استقرار .

واتضحت الكلمة الخبيثة والكلمة الطيبة فيما بيناه ، فالمقلدون فى العلم وأرباب الشهوات وأصحاب النفوس

الضعيفة

الضعيفة كلهم أصحاب الكلمة الخبيثة لأنها لاثبات لها كنبات الكشوث وخضراء الدمن، وأصحاب النفوس العالية والحكماء وكبار المفكرين في السموات والأرض هم أصحاب الكلمة الطيبة، فعلهم ومعرفتهم تعطى أممهم نمأ ورزقا ونظاما في هذه الحياة الدنيا، والعلم مستقر في نفوسهم وباستقراره فيها امتدت فروعه إلى العوالم العلوية والسفلية وأثمرت إثمارا كل حين على أبناء أممهم وعليهم وعلى غيرهم وصار نورا يهتدى به المهتدون، ويمثل لذلك بالنخلة التي أصلها مستقر وفروعها عالية وثمرها دائم لأن الناس يأكلون منها صيفا وشتاء الجمار والطلع والبلح وهو ضار بالصحة. والخلال والبسر والمنصف والرطب ثم التمر اليابس إلى العام المقبل. ثم قال تعالى (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت) الذي ثبت بالحجة عندهم وتمكن في قلوبهم (في الحياة الدنيا) فيكونون راسخين في عقائدهم صابرين على ما أصابهم كزكريا ويحيى عليهما السلام (وفي الآخرة) فلايتلعثمون إذا سئلوا عن معتقدهم في الموقف ولا يدهشهم أهوال يوم القيامة (ويضل الله الظالمين) الذين ظلموا أنفسهم بأن لم يفكروا وصاروا كالشق الثاني الذين هم أصحاب الكلمة الخبيثة؛ أو قلدوا فهم لايهتدون ولا يثبتون (ويفعل الله مايشاء) من تثبيت بعض وإضلال آخرين.

هذا هو المثل وهذا تفسير ألفاظه، ولقد عرفت مرماه، وفهمت مغزاه؛ فليس يراد من أمة الإسلام أن ينطقوا بالشهادتين فحسب وإلا فالنطق بهما متيسر للببغاء، فهذا الطائر متى علمناه النطق بهما نطق، ولا أن يتصور المسلم المعنى فحسب، كلا. إن الأمر عظيم، فليفكر المسلمون بعقولهم ولينظروا كم بين نخلة مثمرة وحشائش ذاهبة مالها من قرار، والنظر لما كان الأمر عظيما ضرب الله له المثل ولايضرب المثل إلا لعظيم، فالاعتقاد بنبوة النبي صلى الله عليه وسلم وبوحدانية الله سهل عند العجائز والجهلاء، ولكن الأمر ليس مجرد الاعتقاد بل إن الله أنزل هذا القرآن لأمم ستعرف هذا الوجود وتدرس هذه الدنيا.

[تنبيه] أذكرك بما تقدم في سورة التوبة لما وقف أبو بكر رضي الله عنه محتجا على الأنصار قائلا لهم: [أيها الأنصار قال الله تعالى «أولئك هم الصادقون» ألم تكن فينا نحن المهاجرين فقالوا بلى. فقال ألم تقرءوا «يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين» فهانحن أولاء الصادقون فلتكونوا معنا] فانظر كيف استدل على أن الخلافة في المهاجرين بهذا.

أفلا يحق لنا أن نقول للمسلمين الذين ضربتهم أوروبا ومزقت شملهم وضحكت على أذقان عقلائهم: أيها المسلمون لم كرر الله ذكر السموات والأرض؟ ولم ضرب المثل بشجرة تمتد من الأرض إلى السماء ولم ذكر السموات والأرض في كل مناسبة، في أول السورة على لسان نبينا، وفيها على لسان موسى وعلى ألسنة جميع الأنبياء من أممهم، وهاهو يعيدها في ضرب الأمثال، وهاهوذا يكررها كل حين. إن ذلك لما قدمته وكررته في هذا التفسير.

نتائج في هذا المثل

(١) فإذا سمعت بعض العلماء يفسر الكلمة الطيبة بكلمة التوحيد أودعوة الإسلام أوالقرآن، والكلمة الخبيثة بالإشراك بالله أو الدعاء بالكفر أو تكذيب الحق فقد دخل كل ذلك وأمثاله فيما قررناه

(٢) وإذا سمعت أن الشجرة الطيبة هي النخلة أو شجرة في الجنة أو شجرة تخيلها امتدت من الأرض إلى السماء فعلا، وأن الخبيثة شجرة الحنظل أو الكشوث أو الثوم أو الكافر فكل ذلك داخل فيما قررناه وعرفت المقصود.

(٣) وإذا سمعت حديث البخاري ومسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أخبروني عن شجرة شبه الرجل المسلم لاتحات ورقها تؤتي أكلها كل حين ثم وقع في نفس

ابن عمر أنها النخلة ، ولما عرف أن أبا بكر وعمر لايتكلمان كره أن يتكلم هو فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هى النخلة ثم انصرفوا ، فقال ابن عمر لأبيه ماقام بنفسه فقال مامنعك أن تتكلم ؟ فقال : لم أركم تتكلمون فكرهت أن أتكلم ، فقال عمر لأن تكون قلتها أحبّ إلىّ من كذا وكذا » .

(٤) وإذا سمعت رواية الترمذى مرفوعا وموقوفا أن الكلمة الطيبة هى النخلة ، وأن الكلمة الخبيثة هى الحنظلة ، إذا سمعت هذا كله فقد سهل الأمر عليك وعرفت الحقيقة ، وكل ذلك تبيان لها .

فياليت شعرى كيف يكون هذا شأن القرآن وشأن الحديث . يجلس الرسول صلى الله عليه وسلم ويحدث أصحابه فى علم النبات ويمتحنهم فى الشجرة التى تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها وأمة الإسلام نائمة ، أفلا يقرءون علوم النبات كما أشار لذلك الحديث ، وكما مثل به القرآن ؟ .

(٥) وإذا سمعت حديث البخارى ومسلم « إن العبد إذا وضع فى قبره وتولى عنه أصحابه وإنه يسمع قرع نعالهم إذا انصرفوا أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان له ما كنت تقول فى هذا الرجل (يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم) فأما المؤمن فيقول : أشهد أنه عبد الله ورسوله ، فيقال له انظر إلى مقعدك من النار أبدلك الله به مقعدا من الجنة قال النبى صلى الله عليه وسلم فيراهما جميعا . وأما المنافق أو الكافر فيقول لا أدرى كنت أقول ما يقوله الناس فيقال له لادريت الحديث ، ثم يضرب بمطرقة من حديد ضربة بين أذنيه فيصيح صيحة يسمعها من يليه إلا الثقلين » لفظ البخارى . وهناك روايات أخرى تزيد على هذا لمسلم وأبى داود والترمذى فإذا سمعتها فاعلم أن ذلك العذاب على الجهل المطلق لأنه إذا لم يصدق أصل الدين فكيف يدرس عوالم الأرض والسماء التى أمر بها الدين ، وتأمل فى الحديث كيف عبر بأن الضربة بين أذنيه كأنه يقول له هلا سمعت سماع تفهم وهلا عقلت ؟ أما السماع فبالأذنين ، وأما الفهم فبالعقل الذى هو بين الأذنين . واعلم أن هذه الضربة التى تصيب الجاهل فى قبره يحس ّ بعضها فى حياته ، فإن الأمم الجاهلة المتفرقة الكلمة يصيبها العذاب فى الدنيا باغتصاب بلادهم وذهاب مجدهم وضياع شرفهم .

ولكم يجد الجاهل فى نفسه وكذا المتبرّ ر فى ضميره من أنواع التوبيخ والتقريع والحزن على ما فاته من العلم ومن صنع المعروف . وهذه الهواجس عامة فى الناس جميعا فما من امرىء إلا ويشعر بنقص على حين ينظر ما حوله من الكائنات وزجر نفسى حين يعلم أنه مقصر فى إغاثة من حوله وإعانتهم فيما يطلبون .

هذا مبدأ العذاب ويزداد هذا العذاب بتفرّق الكلمة بين الأمة ثم إذلالها وقهرها ، فإذا ماتوا وجدوا العذاب الأكبر على التقصير بتبكيت الضمير وعذاب السعير والمقامع من حديد ، ولله عاقبة الأمور .

جاء فى كتاب [مذكرات أدبيات اللغة العربية] فى صفحة ١٠٤ تحت عنوان :

الموازنة السادسة ، التشبيه بالشجر والنبات وغيرها

وقال عنترة العبسى يشبه رائحة عبلة برائحة روضة أنف :

أَوْ رَوْضَــةً أُنُفًا تَضَمَّنَ نَبْتَهَا ... غَيْثٌ قَلِيلُ الدِّمْنِ لَيْسَ بِمَعْلَمِ [١]

جَادَتْ عَلَيْهِ كُلُّ بِكْرٍ حُرَّةٍ ... فَتَرَكْنَ كُلَّ قَرَارَةٍ كَالدِّرْهَمِ

سَحًّا وَتَسْكَابًا فَكُلَّ عَشِيَّةٍ ... يَجْرِى عَلَيْهَا الْمَاءُ لَمْ يَتَصَرَّمِ

(١) بمعلم : بوزن مريم .

وخلا

وَخَلاَ الذُّبَابُ بِهَا فَلَيْسَ بِبَارِحٍ   غَرِدٍ كَفِعْلِ الشَّارِبِ المُتَرَنِّمِ
هَزِجًا يَحُكُّ ذِرَاعَهُ بِذِرَاعِهِ   قَدْحَ المُكِبِّ عَلَى الزِّنَادِ الأَجْذَمِ

هذا نموذج من ذكر الشجر والنبات والبساتين فى كلام العرب تأمله وانظر كيف ذكره طرفة لمكان محبوبته ، وبنت طريف لرثاء أخيها ، وامرؤ القيس طورا بذكر الصلاية الحجرية وأخرى بذكر الدم فى صدر فرسه وآونة غزارة شعر محبوبته وعنترة ما وصف الحديقة والورق والسحاب والذباب والأجذم المكب على الزناد إلا لتشم أنفاس محبوبته ، عابقة الريح طيبة النشر .

إذا حققت هذا فتأمل حل ذكر الشجر فى القرآن وتعجب من تنويع المعانى وإجادة التشبيه والارتقاء به إلى مستوى تسمع فيه صرير أقلام الحكمة ، وذلك فيما يأتى .

يقول الله عز وجل مستدلا على الإيمان حاضا على النظر فى العالم المشاهد وبهجته ونظامه « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة إن الله لطيف خبير » إذا نزل ماء فأنبت النبات فأصبحت الأرض مخضرة . ولا جرم أن ذلك دلالة على لطفه وتدبيره وعلمه وأنه خبير بجميع الشؤون .

وتعجب كيف مثل كلمات الحكمة والإيمان الثابت بالعمل بالشجر وكلمات الكفر والجهل بما لاثبت منه كالحنظل إذ قال « ومثل كلمة طيبة كشجرة طيبة » إلى قوله « مالها من قرار » شبه كلمة الحكمة والإيمان بشجرة ثبتت عروقها فى الأرض وعلت أغصانها إلى السماء ذات ثمر فى كل حين . ولاجرم أن الهداية إذا حلت قلبا فاضت منه على غيره وملأت قلوبا كثيرة فكأنها شجرة أثمرت كل حين لأن ثمراتها دائمة لامقطوعة ولا ممنوعة وكل قلب يتاق عما يشاكله ويتقد بما يلائمه أسرع من إيقاد النار فى الحطب والكهرباء فى المعادن والضوء فى الأثير . وشبه الكلمة الخبيثة كلمة الكفر وما شاكلها بشجرة خبيثة كالحنظلة لا أصل لها من الجذوع ثابت بل عروقها لاتتجاوز سطح الأرض فلاهى ترتفع فى الجو ولاهى تمتد بجذورها فى باطن الأرض هكذا لاثبات للباطل ولا دوام فهو زائل ذاهب وما أقوى الحق وأثبته وأكثر نفعه فالحق قوى الأركان ثابت الدعائم مرتفع إلى أعلى مثمر كل حين كالنخل ، والباطل لاثبات له وليس له استطالة وعلو وثمره مر كريه كالحنظل فى أحواله الثلاث اهـ .

ثم إن ماتقدم فى هذا المقال من ذكر طرفة بن العبد وامرئ القيس فهو ما سأذكره هنا فقد جاء فى صفحة ١٠٣ من الكتاب هذا البيت . قال طرفة :

وفى الحى أحوى ينفض المرد[1] شادن   مظاهر سمطى لؤلؤ وزبرجد

وقدمنا معنى البيت أن فى الحى حبيبا أسمر الشفة يشبه غزالا طويل الرقبة يتناول أغصان الأراك وينفضها . وأما الثانى فهو ما جاء بعد ذلك وهذا نصه :

وقالت أعرابية :

أيا شجر الخابور مالك مورقا   كأنك لم تجزع على ابن طريف

وفى هذا مجاز عقلى أو كناية . وقال طرفة :

وتبسم عن ألمى كأن منورا   تخلل حر الرمل دعص له ند

(١) المرد : بوزن النصر .

وقد قدمنا أن الأقحوان شبه به الثغر فى الصفاء والبهجة والحسن والنور . وأما الثالث فهو ما جاء بعد ذلك وهذا نصه : ويقول امرؤ القيس :

كأن على المتنين منه إذا انتحى مداك عروس أو صلاية حنظل

والمراد بالصلاية : الحجر الذى يشق به الحنظل والحنظل معروف . ثم قال :

كأن دماء الهاديات بنحره عصارة حناء بشيب مرجل

يقول كأن دماء الهاديات وهى أوائل الصيد من الوحوش على نحر هذا الفرس عصارة حناء خضب به ، مرجل : أى مسرح يشبه دم الصيد الذى اقتنصه وهو راكب على نحر فرسه بعصارة الحناء فى شعر الأشيب وقال يشبه شعر محبوبته وهو أسود فاحم بقنو النخلة المتعشكل : أى الذى خرج عن رأس نخلة فظهر خارجا عن أغصانها وأقحافها إذ قال :

وفرع يزين المتن أسود فاحم أثيث كقنو النخلة المتعشكل

[النمط الرابع] وفيه تبيان أعلى مقام فى العلم والعرفان والأخلاق الجميلة : أى تبيان الكلمة الطيبة وأصحابها والكلمة الخبيثة وأربابها إيضاحا لما قبله وتبيانا لما تقدمه فذكر سبحانه أن ذوى الكلمة الخبيثة هم الذين « بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار . جهنم يصلونها وبئس القرار » وأن ذوى الكلمة الطيبة هم الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويتصدقون سرا وعلانية وينظرون فى خلق السموات والأرض وإنزال الماء من السماء وكيف أخرجت به الثمرات وكيف سخرت الفلك لتجرى فى البحر بالتجارة ، وكيف كانت الأنهار تخرج من البحار بالبخار الذى ينعقد مطرا فينزل على اليابسة ، وكما سخر الفلك فى البحر سخر الشمس والقمر وهما مستمران دائران لايفتران ، وكيف سخر الليل والنهار ، وكيف آتانا من كل ماسألناه ، وكيف كانت النعم المعطاة لنا لايحصيها أحد ولا ينقطع لها مدد ، فهؤلاء المصلون المنفقون هم أصحاب الكلمة الطيبة : أى يكونون علماء بما فى الأرض والسماء دارسين النبات والبحار والأنهار ، وكيف سخرت السفن وعالمين بما سخر الله من شمس وقمر وكواكب . هذه هى الكلمة الطيبة وهؤلاء هم أربابها . وهاك تفسير الكلمات ، قال تعالى (ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا) كأهل مكة لهم حرم آمن ورزق واسع وشرف بمحمد صلى الله عليه وسلم فكفروا وقحطوا سبع سنين وقتلوا وأسروا يوم بدر وذلوا لأنهم بدلوا شكر النعمة كفرا بها (وأحلوا قومهم) الذين شايعوهم فى الكفر (دار البوار) الهلاك بحملهم على الكفر (جهنم) عطف بيان على دار البوار (يصلونها) حال منها (وبئس القرار) أى وبئس المقر جهنم (وجعلوا لله أندادا ليضلوا عن سبيله) الذى هو التوحيد (قل تمتعوا) بشهواتكم ومنها عبادة الأوثان والأمر للتهديد (فإن مصيركم إلى النار) أى مرجعكم إليها . قال ذو النون التمتع أن يقضى العبد ماشاء من شهواته (قل لعبادى الذين آمنوا أقيموا الصلاة وأنفقوا (يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم) فمقول القول محذوف كما فهمت (سرا وعلانية) إنفاق سر وعلانية ، ويستحب الأول فى التطوع والثانى فى الواجب (من قبل أن يأتى يوم لابيع فيه) فيبتاع المقصر مايتدارك به تقصيره أو يفدى به نفسه (ولا خلال) ولا مخالة فيشفع لك خليلك . قال مقاتل إنما هو يوم لابيع فيه ولا شراء ولا مخالة ولاقرابة إنما هى الأعمال إما أن يثاب أو يعاقب عليها قال الشاعر .

لانسب اليوم ولا خلة اتسع الخرق على الراقع

فليست القرابة مغنية فتيلا هناك فإن الأخلاء بعضهم لبعض عدو إلا المتقين ، فإن التقوى هى الرابطة بين الناس هناك ، لا النسب فيقوم الخلق والعلم مقام النسب . وفى الحديث القدسى « اليوم أضع نسبكم وأرفع نسبى »

ولقد

ولقد نشاهد هذا فى الدنيا ، ألا ترى أن من قرأ تاريخ أمة وتغلغل فى معرفتها وهو خلو من علوم أمته وآدابها يكره أن يعيش بين قومه ثم يعيش مع أولئك . ولقد لقيت من ذوى الفضل والعلم والأخلاق الكريمة والجاه فى أمتنا المصرية من نشأ فى فرنسا من صغره ثم جاء مصر وهو متحمس لدينها ومجدها ، ولما لم يجد القول متسعا هنا بمصر غادرها ذاهبا إلى فرنسا عائشا بين أهلها وهو لا يزال مجاهدا فى عمله وإن لم يكن مفيدا ، وهكذا ترى الذين تعلموا فى بلاد الإنجليز بمصر اليوم يحب بعضهم بعضا ، ونجد أهل فرنسا قد علموا أهل الشام لغتهم على طول السنين وعلومهم حتى إذا جاءت الحرب الكبرى قابلوهم بالترحاب فلما دخلوا بلادهم قلبوا لهم ظهر المجن وبدا لأهل الشام من فرنسا مالم يكونوا يحتسبون ، فكان التعليم أشبه بالحب (بفتح الحاء) يضعه القانص لاقتناص الطير . والقصد من هذا المقام أن العلم والأخلاق أمتن رابطة ، وها هى ذه أمة الترك لما رأت أهل بلادها على أحوال شتى وكل يتعلم على نمط غير الآخر حرمت هذا ووحدت التعليم ، فإن لم يكن توحيد اختلفت الأمة ودخل العدو . وهكذا بلادنا المصرية كانت أيام دخول الإنجليز فيها ذات مشارب متخالفة ، فالعامة متدينون والمتعلمون يحقرون الدين فانفكت العرى وساءت العاقبة فدخل الإنجليز البلاد .

وإذا رأينا العلم هذا شأنه فى الحياة الدنيا فما بالك بالآخرة يوم تنحل القوى كلها وتتجرد النفس من كل ماخرج عن دائرة العلم والأخلاق فلا بيع ولا شراء ولا نسب ولا أخلاء وتتجلى النفس بطبيعتها يشير لذلك الحديث الشريف « أنت مع من أحببت » فالحب والمجانسة العقلية هى الحاكم فى ذلك اليوم . ثم قال تعالى (الله) مبتدأ (الذى خلق السموات والأرض) خبره (وأنزل من السماء ماء) من السحاب مطرا (فأخرج به من الثمرات رزقا لكم) أى أخرج به رزقا هو الثمرات ، فمن الثمرات بيان للرزق (وسخر لكم الفلك) أى السفن (لتجرى فى البحر بأمره) بإذنه وإرادته لتنقل تلك الثمرات من بلد إلى بلد (وسخر) ذلل (لكم الأنهار) تجرونها حيث شئتم (وسخر لكم الشمس والقمر دائبين) أى حال كونهما دائبين : أى يدأبان فى سيرهما وإنارتهما ودرئهما الظلمات وإصلاحهما مايصلحان من الأرض والأبدان والنبات والحيوان ، وبالشمس تعرف الفصول ، وبالقمر تعرف الشهور (وسخر لكم الليل والنهار) يتعاقبان بزيادة ونقصان (وآتاكم من كل ماسألتموه) أى وآتاكم شيئا من كل الذى سألتموه : أى من كل الذى هو حقيق أن تسألوه سواء أسألتموه أم لم تسألوه لأن هذه الدنيا قد وضع الله فيها منافع يجهلها الناس وهى معدة لهم ولم يسأل الله أحد فى الأمم الماضية أن يعطيهم الطيارات والمغناطيس والكهرباء بل خلقها وأعطاها الناس بالتدريج ، ولم يزل هناك فى العالم عجائب ستظهر لمن بعدنا (وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها) لاتطيقوا عد أنواعها فضلا عن أفرادها فالأفراد لانهاية لها (إن الإنسان لظلوم) يظلم النعمة بإغفال شكرها ويظلم نفسه بحرمانها وإهمالها (كفار) شديد الكفران لنعمة ربه . ومن ذلك أنه يجمع ويمنع إذا أعطى النعمة والواجب أنه يحسن ويتصدق .

انتهى التفسير اللفظى لهذا الخط .

جوهرة فى ذكر نعمة بهية وهو الحرير الصناعى

اعلم أن الإنجليز والأمريكان قد اخترعوا حريرا صناعيا لايكون من الدود ويسمونه فى أمريكا (الريون) وقد كثرت صناعته فى فرنسا وإنجلترا وأمريكا . وماهو هذا الحرير ؟ هو مأخوذ من خشب التوت وحطب القطن وشعر القطن بحيث يجعل ذلك كله عجينة وتلك العجينة تصير خيوطا ، إن هذا من عجائب هذه الدنيا .

إن هذه الدنيا كلها عجب ! فياليت شعرى أى مناسبة بين خشب التوت وحطب القطن وشعره ؟ ثم نعم خشب التوت هو الذى يخرج منه الورق الذى تأكله دودة الحرير فكأن فيه الأصول الحريرية ، وخشب

حطب القطن فيه الأصول القطنية والقطن أمره معروف . تخلط الثلاثة مع مواد أخرى لانعرفها يكتمها أصحاب الصناعة عن الناس . جل الله وجلّ العلم . الأرض هى التى يستمد منها غذاء تلك الأشجار ، أشجار القطن وأشجار التوت ومن التوت يأكل دود القز ، عجب هذه الدنيا وأى عجب ؟ توت خلق ثم دود يأكل منه مناسب له .

اللهم إن الناس يعيشون ويموتون وأكثرهم لايعقلون ، يتخذون الحرير من الدود ويلبسونه ، أما المفكرون فإنهم يا الله يسعدون فى فكرهم بحياة أرقى من حياة الجاهلين ، ينعمون بالحرير ويقفون عند هذا الحد وما أضيقه من حد ولكن العقل الإنسانى أبعد مدى ، العقل الإنسانى له الحق أن يقول : نحن أولاء لبسنا الحرير وهذا الحرير من الدود فلم اختص هذا الدود يأكل ورق التوت ولماذا لما أكله ألهم أن يجعل له كرة تلف عليه ولم جعلها مكبرة وكيف ألهم الناس أن يربوه ثم كيف ألهموا أن ينسجوه ؟ ثم لماذا كان ذلك الحرير نادرا جدا وهلا كثر كالقطن ، ولماذا لم تخرج تلك الخيوط الحريرية فى نفس شجر التوت كما خرج القطن من نفس الشجر ، ولم كان القطن أقلّ قيمة من الحرير وجمالا ؟ ثم أيضا كيف كان خشب القطن والتوت مع القطن يصنع منها الحرير ؟ ثم يقال أيضا : إن الأرض فيها هذه المواد التى تكون قطنا وحريرا ، فإذا لم تكن هناك عناية بهذا الوجود فهل هذه الطبيعة أنتجت ذينك الصنفين رمية من غير رام ، وأوجدت الحرير فى التوت والدودة المحتاجة إليه بدون عقل ، هل المصادفات العمياء التى كوّنت ذلك كله ووضعته محكما بلا عقل . اللهم إن هذه للباحث جنات المفكرين فى هذه الحياة وسعادات لأولى الألباب الذين يتفكرون فى خلق السموات والأرض ويقولون « وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها » .

أنعم الله علينا بالقطن وبالتوت ، ولم يكتف بذلك بل جعل فى خشبهما حريرا يغنى عن عمل الدودة . تلك الدودة التى أرسلها الله لنا فرحمت خطة الحرير فنهجنا منهجا واتخذنا من خشب الشجرتين حريرا وقلنا ياوطنا أعجزنا أن نكون مثل هذه الدودة فنلبس من عملنا بدل أن نكون عالة عليها ، إن هذا الإنسان جاء إلى الأرض ليتعلم الصبر ومزاولة الأعمال بالكسب والاستقلال بعد أن يقتبس من الحيوان الذى جعله الله له مثالا ينسج على منواله . الناس أصناف : صنف يفرح بأنه لبس الحرير ، وصنف يفرح بأنه اخترع حريرا آخر ، وصنف فوق الفريقين يفكر فى هذا الإنسان ولماذا خلقت له الأرض على هذه الحال ، ولماذا جعلت له هذه الدنيا مراتب ودرجات بعضها فوق بعض ولماذا حجب فى أول أمره عن السر فى المخلوقات ثم يتجلى له جمالها شيئا فشيئا ثم كيف كانت هذه الأرض وما عليها جنة المفكرين ونعيم الحكماء وسعادة الأولياء الذين يعرفون بفكرهم جمال هذه التنوعات ، ويجتزئ صغار العقول من بنى آدم باختلاف المناظر ملبسا ومسكنا ومشربا وعقولهم فى غفلة ونفوسهم فى محبس وهم هواء .

سبحان من قسم الحظو ظ فلا عتاب ولا ملامه

وهاك صورة من جمال هذه الدنيا يستبين بها اتحاد العمل واختلاف المقاصد من بنى آدم بالحكمة الناصعة ، وهاهى ذه :

(١) قمح . شعير . أرز . ذرة . فول
(٢) نخل . تفاح . برتقال . موز

الإنسان

(٣) سنامكى ونحوه . الحبة السوداء الخ
(٤) قطن . كتان . توت . تيل . دودة الحرير

هذه الجداول تريك صورة مما يتعاطاه الإنسان من النبات ، فمنه المآكل فى جدول (١) ومنه الفاكهة جدول (٢) ومنه الدواء جدول (٣) ومنه للملابس جدول (٤) والإنسان فى وسطها يتعاطاها جميعا لأحواله المختلفات .

ياعجبا لهذه الدنيا ! وياعجبا لهذا الإنسان يعمى حتى لايعقل ويبصر حتى يدرك الوجود على ماهو عليه . ها أنت ذا ترى الإنسان وسط الجداول وهو محتاج لها كلها ، وهو فى ذلك على [ثلاث درجات] أعلى وأوسط وأدنى .

شرح هذه الدرجات

اعلم أن نظام هذه الدنيا مزدوج محكم مبناه الاقتصاد التام والحكمة الصادقة . وأضرب لك مثلا اللسان به تذوق الطعام وتلفظ الكلام وتحرك ماتمضغه وقت تعاطى الأكل ، إذن اللسان له وظيفة داخلية وهو أن يميز أنواع الطعام لصحة الأجسام ووظيفة خارجية وهو أن يفهم الناس الكلام ، وهاتان معنويتان ، ووظيفة ثالثة عضلية وهى تحريك الطعام ؛ فاللسان لم يدع النظام الداخلى حتى حرس مايدخل فى الجوف من التلف والضرر وأوصل المعانى من نفس لأخرى وأفاد فائدة عضلية .

هذه هى الحكمة والنظام . ولولا الإتقان فى هذا الوجود لكان للإنسان عضو للذوق وآخر لإدارة الطعام وثالث لإظهار الكلام . فمن جمال هذه الأجسام التى نسكنها وإن كان أكثر الناس يجهلون ذلك أن تتعدد منافع العضو الواحد وإلا لاحتاج الإنسان إلى أجسام بحسبه هذا حتى تؤدى وظائف الحياة . إذا عرفت هذا فانظر فى هذه الدائرة النباتية والإنسان فى داخلها ، إن لهذه الدائرة ثلاثة أعمال :

[أولا] إنماء الإنسان بقوته وفاكهته ودوائه وملبسه .

[ثانيا] حمله على العمل الشاق لتحريك عضلاته وشغله ليقوى جسمه ويعيش أمدا مقدرا

[ثالثا] تغذية عقله بالحكمة والعلم .

هذه ثلاث درجات نظير درجات اللسان ، فكما حرك اللسان الطعام هكذا نرى الإنسان يعمل

فى الأرض الغذاء والفاكهة والدواء والملابس فانتفع هو بهذه الحركة، وكما ترى اللسان يذوق الطعام وهو عمل جسمى داخلى هكذا نرى الإنسان يتعاطى تلك المنافع ليعيش إلى أمد معلوم ، وكما نرى اللسان يكون سببا فى معرفة الناس ماتكنه صدورنا ، هكذا نرى هذه المخلوقات كأنها ألسنة تنطق بالحكمة والعلم وتغذى عقولنا، كما أنها تغذى أجسامنا ، هذه حكم متراكبة مثبتة ، فترى الفلاح وهو فى حقله لايفتأ يجد بالحرث والعمل وهو يريد بذلك قوام الأجسام بالغذاء وبالدواء وبالفاكهة وباللباس وهو فى الوقت نفسه قد قوى جسمه بالحركات ففائدة الفلاح فى عمله مزدوجة ولكنه هو لايقصد تقوية الجسم وماقصد إلا الغذاء .

وترى الحكيم والفيلسوف ينظر إلى النبات فيدهشه دهشا شديدا مايرى من حكمة ونظام متى فكر فى أى ناحية من نواحى هذا الوجود فيقول مثلا : لماذا كان هذا النظام ؟ أرى أن دودة الحرير لم تخلق إلا لشجر مخصوص فتراها تأكل ورق التوت ولم ترها عرجت على النخل ولا اللوز ولا التين ولا البرتقال ولا غيرها لماذا هذا النظام . ههنا يسحر عقل المفكر ويقول جاءت هذه الدودة فنسجت خيوطا ولعل الإنسان كان أولا لايعرف استعمال الملابس فربما كان أول ملابس الجلود إذ رأى الحيوان يعيش بها تقيه الحر والبرد . ولعله كان يجهل استعمال القطن والصوف ونحوهما ، ولعله لما رأى خيوط تلك الدودة الحريرية تعلم غزل القطن والصوف والكتان ولذلك نرى كرة الخيوط على المغازل الآن تشبه كرة الدودة ، ثم لما برع فى الصناعات والعلوم استخرج الحرير من خشب التوت ومن حطب القطن كما تقدم : أى أنه استخرج تلك الملابس من نفس الشجر ولم يقتصر على الشجر ولا على عمل الحيوان . إن هذا من الإنسان انتقال من حال إلى حال .

إن الإنسان كان فى أول أمره عالة على الحيوان يلبس جلده ، ولما ارتقى تعلم منه الغزل والنسج كما يرى فى العنكبوت ، فلما ارتقى اليوم أخذ يحتل عليه وهذه هى وظيفة الإنسان ، فأول أعماله احتياجه إلى نفس الجلد ثم ارتقى وعقل ففهم وتعلم من الحيوان ثم ارتقى ففاقه اليوم . إن للانسان حالا أخرى سيصلها فيستغنى عن الحيوان ويستخرج الأشياء من أصولها . إن القطن والكتان والحرير كلها من مواد فى الطبيعة فإذا زاد عقل الإنسان استخرج ذلك كله بعقله وحكمته . إن هذا الوجود فيه السعادة مخبوءة والانسان ملزم أن يجد ويبحث عنها ويستخرجها وماهو فيه الآن ضعف ظاهر يتقدم القوة المقبلة .

ينظر الحكيم ذلك فى هذه الدنيا فيذهله ويسحر عقله هذا الوجود ويقول : لماذا خصت دودة الحرير بالتوت واستخرجت الحرير منه وهناك من الأشجار آلاف وآلاف ثم ينظر نظرة أخرى فيقول عذب الانسان بالجوع وبالعرى؛ فالجوع ألم والبرد والحر يؤلمان والمرض أشد إيلاما فلماذا رأينا تلك الأنواع فى الجدول المتقدم مقسمة على أنواع المطلوب للانسان فتغذى ولبس وتداوى . يذهل الفيلسوف من هذا النظام هو وحده الذى يفهم ويرى الناس حوله نائمين يقول : يا عجبا هذا الفلاح والتاجر والصانع والأمير لايعرفون من هذا الوجود إلا ما يمنع آلامهم . سلط عليهم ألم الجوع وألم الحر والبرد ثم زادت آلام أخرى بأسباب عارضة ، فالفلاح لايعرف إلا ما يحفظ جسمه وكذا التاجر والصانع ، هكذا رجال الحكومة لايعملون إلا لحفظ الرعية كما يحفظ الفلاح زرعه وكلاهما غالبا لايعقل الحكمة ، أما الحكيم وما أدراك ما الحكيم فإنه هو الذى يربيه الله فى الأرض ليلحق بالملأ الأعلى بعد . فهذا هو الذى يدهشه هذا النظام ولا يقتصر على ما اقتصر عليه من قبله من تقوية عضلاته وغذاء جسمه ولباسه وفاكهته ودوائه بل تصبح هذه كلها عنده دروسا وأى دروس دروسا عجيبة . يسحر عقله أن يرى جميع الناس وهو منهم أطفالا ضعافا ويفهم قوله تعالى « وخلق الانسان ضعيفا » ومن ضعفه أنه لايعقل منافعه ولذلك لما كلمه الله هو والحيوان، كلهما بلغة تناسبهما وهى لغة الألم

من

من جوع وضر" الخ فأنزل ذينك الأليين عليه أو ذينك الجنديين الضاربين له صباحا ومساء وهما يقولان له بلا حرف ولا صوت أيها الإنسان قم فكل وقم فالبس وإلا آلمناك. فجميع بنى آدم وجميع البهائم يساقون سوقا كما تساق الأنعام لأن عالمنا الذى نعيش فيه عالم فيه قصور ولكن صانعه أظهر لنا أنه محكم الصنعة جدا. كيف لا وهو قد جعل هذه النباتات معلمة للعقول وحافظة للأجسام وموجبة للحركات لبقاء القوة فى الأبدان ولولا هذه الحكمة لاحتاج الناس إلى عوالم يتعلمون فيها وعوالم أخرى يأكلونها ويلبسونها الخ وعوالم ثالثة تعلمهم الحركة كالجند، فالحكمة التى أرسلها صانع هذا العالم الحكيم أرتنا أن الغرس واحد فيه الحركة وبه الغذاء والهواء الخ وبه العلم، فالعالم واحد وحكمته متعددة لنا كما أن الانسان واحد وحكمه متعددة. هذه روضات الجنات فى هذه الدنيا. إن الله خلق هذه الروضات لنا فيتخرج من درسها قليل من بنى آدم وهم هم الذين ينظمون هذه الدنيا وسيبثون فى شبانها الهمة والحركة الطيبة، فإذا فارقوا هذا العالم استحقوا أن يكونوا فى عالم أجمل من عالمنا هذا الذى جمع ما بين خسة الحيوانية وشرف الملكية، والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات اه.

تكملة فى الكلام على قوله تعالى

«ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت الخ»

اعلم أن هذا المثل من أعجب ما فى القرآن، فالإسلام كشجرة والشجرة لها أصل وفروع والفروع قسمان أصول وأطراف، فالتى سميناها أصولا هى الفروع التى تنمو فى قلب الشجرة صاعدة والأطراف هى التى حولها فاعجب لهذا المثل وانظر لحال المسلمين اليوم وذكرهم بأيام الله وقل لهم أيها المسلمون حياكم الله. أليس النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه كأصول الشجرة؟ أليس المسلمون قرنا بعد قرن وجيلا بعد جيل هم فروع والفروع تمتد وتكثر على طول الزمان، فالإيمان أيام النبوة لم يكن له كتب لا فى حقائق هذا الوجود من الطبيعة والفلك والسموات والأرض ولا فى فروع الفقه والجدل والخلاف فى علم الكلام، ولما كان الإسلام كشجرة حدثت الفروع طبعا فتفرعت علوم الفقه وعلوم الجدل التى هى أطراف الدين لاقلبه، وهكذا الأصول التى امتدت وطالت من القرون الأولى إلى القرن الخامس عشر كما تقدم هنا ثم عمدتم إلى تلك الأصول فقطعتموها بذم العلماء واحتقارهم كابن رشد والغزالى وأضرابهما، أما الفروع فأبقيتموها فإذا ظننتم أن فروع الفقه كافية فأنتم مخدوعون مغرورون، وإذا ظننتم أن عدم دراسة العلوم الكونية زمن النبوة حجة على تركها اليوم فذلك مردود بأنكم جريتم على سنن الله فى التعبير بالشجرة وفروعها إذ ألفتم آلاف الكتب فى الفقه وفى علم الكلام وإن لم يؤلف ذلك النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه ولم ينكر ذلك منكر لأنكم فروع لتلك الشجرة، وفى الفروع من الأوراق والطول والكثرة ماليس فى ساق الشجرة فأنتم تجرون على السنن ولكن فرطتم فيما هو أهم وهو أصول تلك الفروع التى فى وسط الشجرة وهى التى عليها المعول فإذا اكتفى صلى الله عليه وسلم وأصحابه بما يعرفون فى نفوسهم فذلك لأنهم ساق الشجرة فأين الفروع إذن ولم رغبتم فى بعض الفروع التى هى أدنى وجهلتم فى بعضها الذى هو أتم وأكمل وهى العلوم الكونية؟ ألا ساء مثلا الجاهلون، فتبا لقوم لايعلمون، وبعدا لقوم لايفهمون، وسيأتى تمام الكلام على ذلك فى سورة الفتح إن شاء الله عند قوله تعالى: «ومثلهم فى الانجيل كزرع أخرج شطأه فآزره الخ» هذا، واعلم أن هذا التخيل سيحققه الله عز وجل بعد ظهور هذا التفسير وسيكون فى أمم الاسلام رجال لم يحلم بهم الدهر وهم موفقون وللنوع الانسانى نافعون اه.

ذكرى ليلة ٤ نوفمبر سنة ١٩٠٩ من كتابى سوانح الجوهرى

اللوف والنخل

اللوف نبات يحمل ثمرا مستطيلا متى نضج صار آلة لغسل الأجسام لينظفها ويزيل عنها الدرن أشبه بالليف ولكنه أبيض ناصع . هذا النبات ينمو سريعا فى الفصول الحارة والمعتدلة ويمتد سريعا على النخلة الباسقة (الطويلة) رأيته التف على نخلة فظلل سائر جذعها وجميع أفنانها وأوراقها وتسلق على أخرى فأخذ بخناقها وسار معها علوا حتى شارف أغصانها العليا وهى باسقة جدا . ذلك فى هذا الفصل أنها ستذبل قريبا ولكن النخلة لاتذبل ربما كان عمر النخلة ٤٠ سنة وعمر اللوفة لايكاد يجاوز ستة أشهر . سارت اللوفة حثيثا وأبطأت النخلة ، ما أسرع ما أثمرت اللوفة وما أبطأ ثمر النخل . وهذا مثل ضربه الله للناس والأمم ، ضربه لهم لعلهم يتذكرون ، أراهم عيانا كيف أعطى ماعظم نفعه وجل قدره وحلا ثمره وبقى أثره ، عناية أشد وإحكاما أوسع وأبهى وأبهر ، أبطأ سيرها وأخر ثمرها ولكن أطال عمرها ، هكذا ترى أهل الرياء والنفاق الكاذبين أسرع الناس سيادة وأكثرهم مالا وأقربهم من الأمراء مجلسا يغشون على عقول الناس فيسودون ، وهكذا أولئك الثرثارون المتفيهقون يتبجحون بالعلم ويحفظون مسائل يحاجون بها خصماءهم وإن هم إلا مجادلون فبذلك يهابهم الناس ويخافونهم ، وهكذا أولئك السبابون الذين يحاجون أقرانهم بحجج ملوثة بالشتم وملطخة بآثام الغضب فأولئك لهم حظ قليل حتى إذا حصحص الحق وزهق الباطل ووقف الناس على مراميهم واطلعوا على دخائلهم وأغراضهم رموهم من حالق وزجوا بهم فى سجين الإذلال كأنهم زبد احتمله الماء فيذهب جفاء لاينتفع به ؛ وأما من ينفع الناس ولا يرائى فذلك سيلاقى فى إبان عمله عوائق جمة ويعاديه المحبون ، فإذا سار فى إخلاصه وجد فى أعماله فله عقبى الدار وهو السيد الذى أشبه النخلة الباسقة طال أمدها وكثر ثمرها إلا أن الثمرات على مقدار الأعمال ولذلك ترى رجال الحروب من القواد العظام والملوك الكبار تسير بذكرهم الركبان سريعا وتخبو وتنطفئ سريعا ، أما الحكماء والفلاسفة فما أبطأ ذكرهم وما أدوم فضلهم فهم كالنخلات الباسقات وكالماء « وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض » ليسقى الحرث ويروى النسل ذلك مثل اللوفة والنخلة ضربناه مثلا للناس لعلهم يتذكرون اهـ .

إنى أذكرك أيها الذكى بالمقام الذى نحن فيه وأرجعك إلى الموضوع نفسه ، إن الكلام فى النمط الرابع وهو تبيان حال ذوى الكلمة الخبيثة وذوى الكلمة الطيبة ، فنثير الكلمات لايشغلك عن أصل المقام وقد بينا فيما سبق أن النمط الأول مبين لضياع الأمم بالجهالات ، والنمط الثانى تثبيت له وأن غفلتهم عن عجائب السموات والأرض أورثتهم النكال . والثالث تبيان الحقيقة الناصعة لتبيان الكلمة الخبيثة والكلمة الطيبة وأن الناس قسمان : ثابت وغير ثابت كالزرع والشجر ، وهذا النمط الرابع أظهر الأمر وأوضحه ، فأما ذوو الكلمة الخبيثة فقد ذكرهم فى قوله « ألم تر إلى الذين بدلوا » إلى قوله « قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار » وأما ذوو الكلمة الطيبة فأشار إليهم بقوله «قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة » وأنت تعلم أن الأمم إنما تعيش بعلم وعمل فهذا هو العمل والعمل بالنفس وبالمال فأشار لهما بإقامة الصلاة والإنفاق ، وأما العلم فأشار له سبحانه بقوله تعالى « الله الذى خلق السموات والأرض » إلى قوله « إن الانسان لظلوم كفار » فهذا النمط كله كأنه إيضاح لذوى الكلمة الخبيثة وذوى الكلمة الطيبة .

ولما أبان تقصير الأمم التى يذهبها ويأتى بخلق جديد فى معرفة السموات والأرض فى النمط الثانى إذ قال « ألم تر أن الله خلق السموات والأرض بالحق إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد » إذ جعل استبدالهم بعد ذكر السموات والأرض لجهالتهم بما خلق فيهما فلا يعلمون ماينفعهم فى حياتهم الدنيا وفى الأخرى .

أقول : لما أبان ذلك هناك فى أصحاب الكلمة الخبيثة أفاد هنا أن ذوى الكلمة الطيبة هم الذين ينظرون

فى خلق السموات والأرض وما بعده فأخذ يفصل بعد الإجمال حتى انتهى إلى ما لايحصى من العجائب .

واعلم أن مما أقعد همم الأمة الاسلامية أن أمثال هذه الآيات تترك وشأنها فلا تحرك بها الهمم ولا تستثار للنافع بها .

ولعمر الله كم من عالم دينى مخلص لله طائع ذكى الفؤاد قوىّ العزيمة قد حبس فى سجن من الألفاظ أو الأحكام وأحكم عليه فلا يستطيع فكاكا .

أيها العلماء ! أيها المصلحون فى الإسلام ! أيها الذكى القارىء لهذا التفسير تفاقم الأمر على أمة الاسلام قولوا لهم هذا كلام ربكم هو الذى أنزله وهو الذى حضّ على فهم مافى السموات والأرض والسحاب والمطر والثمرات ومنافعها والسفن فى البحر والأنهار والليل والنهار والبحث فى كل دقيق وجليل ، هذا وإنى أحمد الله عز وجلّ إذ كتبت خطابا لأمتنا الاسلامية وقد نشر منذ سنتين فى كتاب سميته [القرآن والعلوم العصرية] وهاك ما جاء فيه فى هذه الآية :

عبر الله بكاف الخطاب ست مرات فجعل الماء لنا والثمرات لنا وتسخير الفلك لنا وتسخير الأنهار لنا وتسخير الشمس والقمر لنا وتسخير الليل والنهار لنا وقد آتانا من كل ما سألناه فى ضمائرنا وما تمنته نفوسنا أى إن النفس كانت تتمنى أن تطير وأن تجلس فى مكان وهو يجرى بها من غير أن يعلم الناس أن ذلك ممكن ، فكانت الطيارات فى الجوّ والقطرات على الأرض ؛ وكان الانسان يتمنى أن يكلم أخاه وهما متباعدان ويتشوق لذلك فبرز هذا .

واعلم أن الله كما فطر النفوس على حب ذلك جعل فى الطبيعة استعدادا له ثم أبرزه فى الوجود ، ثم قلت هناك : فهل هذا الخطاب استثنى منه المسلمون ؟ فهل جعل الله الثمرات فى الأرض خاصة بغير المسلمين أم الخطاب عامّ ؟ وهل الفلك التى تجرى فى البحر مابين آسيا وأفريقيا وأوروبا وأمريكا هل هذه السفن خاصة بالافرنج وكيف نام المسلمون عن علوم التجارة فأصبحت بأيدى غيرهم من الفرنجة وأهل أمريكا وهم صفر اليدين ؛ فالسفن التى تمخر عباب الأنهار والبحار فى سائر أنحاء الكرة الأرضية بيد الفرنجة وهم هم الذين يدرسون المعادن والكهرباء والبخار والتلغراف البرق الذى لاسلك له والذى له سلك .

أليس من العار عليكم أيها المسلمون أن تكونوا (٣٥٠) مليونا ولا سفن لكم فى البحار كما لغيركم وقد خاطبكم الله قائلا « وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره » على قواعد علمية بعد معرفة صناعة الحديد لبنائها والخشب لتكميلها والبخار لتسييرها والكهرباء والمغناطيس لمعرفة الأخبار فيها وقراءة علم الفلك والكواكب السيارة والثابتة للاهتداء بها فى طرق البحار ودرس علوم البحار وطرقها ومناطقها ومافيها من مسالك حتى لاتضلّ السفن سواء السبيل فتغرق ويهلك مافيها وبعد دراسة علوم السحب والرياح والعواصف حتى يلبس الربان لكل حال لبوسها وينهج النهج الذى ينجى السفينة . ثم قال « وسخر لكم الأنهار » ولا جرم أن الأنهار تسقى الزرع ولها فى جريها قوة تستخرج منها الكهرباء فتغنى عن الفحم والبترول والمسلمون فى بقاع الأرض غافلون عن أنهارها وتكاد تصبح بيد غيرهم ، وقوله (وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار) الليل والنهار والشمس والقمر لها حساب دقيق لايهتدى إليه إلا علم الحساب والهندسة والجبر ثم الفلك فلا تطلع الشمس ولا تغرب ولا يشرق النجم ولا يغرب، ولا يطلع سيار ولا يأفل إلا بمواعيد موقوتة لاتخطئ ثانية بل كل ذلك بمقدار . فهاهى ذه سفن البحار وقطرات اليابسة كلها تسير بحساب الشمس والكواكب ، ولو أغفل الناس ذلك بعض يوم لاختلت مواعيدهم واصطدمت قطراتهم ومات كثير منهم يعرف ذلك كل من اطلع على طرف من علم الفلك فى هذه الأيام انتهى .

هذا هو الذي خلته من ذلك الكتاب وأحمد الله إذ رأيته قد نشر بين المسلمين في أقطار الأرض . أفلست ترى معي أيها الذكي أن المسلمين إذا قصروا في هذه النعم فإنهم يعذبون في الدنيا والآخرة كما هو الحاصل الآن، وكيف يقول الله «وسخر لكم» بكاف الخطاب ثم هم يعرضون عن نعمه وهذا عينه كفر النعمة لأنه إذا أعطاك رجل عظيم عطية وقال لك خذها ثم إنك تغافلت عنها أو نبذتها له غضب عليك بل إنه يسره أن تأخذها ويسره أن تتمتع بها ويسره أنك تكون غنيا بما أعطاك . هذا كله في التداول المعروف، فأما المسلمون اليوم فإن هذه النعم بعد ما قال الله مخاطبا لهم إني سخرتها لكم ينامون ويقولون فلنتركها للفرنجة . إن هذا أوان العلم والعمل وهذا هو الوقت الذي فيه ابتدأ استيقاظ المسلمين ولكن لابد من نشر مثل هذه الآراء . إن الله أراد رقيهم وإسعادهم وارتقاءهم « ولتعلمن نبأه بعد حين ». وليقومن في هذه الأمة من فطاحل العلماء وأكابر الحكماء من يرثون الأرض من بعد موت أهلها الغافلين ويزنون هذه الدنيا وتبدل الأحوال ويصبح الناس إخوانا على قدر الامكان اه .

تنبيهات : التنبيه الأول

يقول الله في الآيات السابقة « ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء » وكيف يفعل الله مايشاء وقد أضل الظالمين وأين الحكمة في إضلال الظالمين؟ إذا ظهرت الحكمة في هداية المتقين فإنها لم تظهر في إضلال الظالمين، وإنا قد أمرنا أن نعرف الحقائق وأن ربنا أغدق النعم علينا وآتانا من كل ماسألناه وتمنيناه أماني، ثم يأتي لأعز شيء وأعظمه وهو الهدى فيمنعه ، ويقول: أنا أضل الظالمين وأفعل ما أشاء ،هذا هو السؤال الذي خطر لي وهو حتما يخطر لكل إنسان على هذه الأرض ، فأين الجواب ؟

لقد علمت أن هذا من سر القضاء والقدر ، وهذا السر أقفل بابه على جميع الأمم وهناك أكابر الحكماء نالوا من العلم حظا فثلجت صدورهم وسعدوا بالفهم وكتموا عن الناس ، ولكن ألا أريك أيها الذكي عجبا في هذه الآيات :

ألم تر أن جواب السؤال قد ظهر في نفس الآية إذ شبه قوما بشجرة طيبة وقوما بشجرة خبيثة ثم ختم بأنه يضل الظالمين وهو يفعل مايشاء ، إن الجواب قد تجلى ولكنه مخبوء مكتوم لايمسه إلا المطهرون الذين طهرت نفوسهم من الغل والحقد والحسد والكبرياء ، فهؤلاء هم الذين تمتد أيديهم إلى تلك الخزائن فيفتحونها وينالون منها حظهم ، ألم أذكر لك هناك أن الزرع أصناف شتى يبتدئ بخضراء الدمن التي لا تلبث إلا ضحوة النهار ثم تذهب في العشية ، لعلك تذكر ذلك ! وأن النبات يرتقي درجة فدرجة حتى يصل إلى مستوى النخل ، وأشجارا أخرى تعيش سنين وسنين بدل دقائق وساعات ، ألم أقل لك ذلك ؟ فهل ترى أحدا من نوع الإنسان وجد في نفسه حرجا من خلق الأنواع الكثيرة ؟ ألم تر أن الناس فرحون باختلاف هذه النباتات وأنهم انتفعوا باختلافها ؟ فإذا زرعوا القمح وحصدوه في بعض فصول السنة ، وكذا الذرة والشعير والبرسيم وما أشبه ذلك ، وكذلك الملوخية والباميا والقطن والكتان من كل نبات يتم في أقل من سنة فإنهم قد تمتعوا تمتعا تاما بها وعاشوا ، وأن هذه لو كانت كالنخل لاتثمر إلا بعد سنين لشق ذلك على من لم يجد عنده القمح مثلا فانه يجده بعد أشهر من زرعه .

ألا ترى أن هذه النباتات كان اختلافها لاختلاف حاجاتنا ، وإذا كنا نرى الحاجة لبناء المنازل والحصون ليست كل يوم بل إنها مسألة سنين لاشهور : أي أن الانسان لايبني منزله بعد بنائه الأول إلا بعد عشرات السنين ، فلذلك كان أعظم الخشب لسقفه يتكون في عشرات السنين وأقل الخشب في سنين معدودة

كل ذلك بمقتضى حاجتنا وانتفاعنا ، وإذا وجدنا هناك حنظلا وتمراً فما راعنا لأن التمر فاكهة وغذاء وحلوى والحنظل دواء ، فنحن معاشر بنى آدم لم نجد فى ذلك حرجا فى نفوسنا بل عددناه نعمة وأىّ نعمة ، فترى عندنا زيت الخروع لموائنا كما نرى زيت الزيتون لغذائنا والسنا المكى لطبنا وهكذا فنحن لم نر من الاختلاف إلا سعادة .

هذا هو الذى نقرؤه فى الكتاب الذى كتبه الله بيده وهو كتاب الطبيعة وما أجله من كتاب وما أشوق النفس إلى الوصول إلى مؤلفه الذى أرانا جماله وعجيب حكمه وبديع صنعه . هذا كله كامن فى قوله تعالى « ومثل كلمة طيبة كشجرة طيبة ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة » .

فهاتان الكلمتان المذكورتان فيهما هذه المعانى وفيهما ما يحتاج إلى مصنف كبير حتى يقف الإنسان على تمام الحقائق هنا ، إذا فهمت هذا فقس المشبه على المشبه به فكأنه يقول: ها أنتم أولاء رأيتم أن الاختلاف فى الأشجار نافع لكم . أفلا يكون هكذا الاختلاف فى العقول ؟ فيه ثمرات ومنافع لكم أو لغيركم من العوالم وأنتم لا تشعرون . إنى خلقت حنظلا فقلتم حسن نافع وخلقت كافراً وعاقبته . إن هذه العقول مزارع زرعتها فى الأرض وجعلت مقرها أجساد بنى آدم وهذه العقول مختلفات كاختلاف النبات، فإذا رأيتم أن اختلافها بلغ عددا عظيما فهكذا العقول اختلافها عظيم، وإذا رأيتم منافع فى الاختلاف وأنكم لا تعيشون إلا بهذا الاختلاف: أى أن حياتكم لا سعادة فيها إلا أن يكون لديكم الحنظل والخروع والسنا المكى كما يكون عندكم التمر والعنب والرمان فهكذا أنا زرعت العقول مختلفات مريداً ذلك كما زرعتم أنتم الأشجار مختلفات مريدين ذلك . فأما منافع اختلاف عقولكم لكم فهذا لا تقفون على حقائقه إلا بدرس طويل أو بعد خروجكم من هذه الأرض أو تخرجون من عداد العامة وتدركون سرّ الديانات ، ولماذا خلق العالم ولماذا خلقت النفوس ؟ ولعلك أيها الذكى قد أدركت شيئا من ذلك فى غضون هذا التفسير ولكن الناس جميعاً إلا نادراً لا يدركون سر اختلاف العقول كما أدركوا اختلاف النبات وحكمته إلا بعد خروجهم من هذا العالم، ولعمرى ما وضعت النفوس فى الأرض إلا لترقيتها كما لم توضع النباتات إلا لإتمام أثمارها ، وما أمراض الناس وعذابهم إلا كما تنضج الشمس الثمار اهـ .

التنبيه الثانى : عبادة الأصنام

يقول الله تعالى فى هذا النمط : « وجعلوا لله أنداداً ليضلوا عن سبيله قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار » ثم قال : « قل لعبادى الذين آمنوا » الخ فهاهو ذا ذكر الأصنام وحذر منها ، فياليت شعرى لم حرمت الأصنام وما القصد من تحريمها ، الصنم حجر أو أىّ مادة أخرى وليس فى المادة حرمة لأن جميع ما فى الأرض مخلوق لنا لننتفع به وإنما المحرّم هو عبادتها ولم تحرم العبادة ، لأن الله سبحانه محتاج إلى عبادتنا ، ولقد نرى فى نوع الإنسان من يحقر أن يعظمه العامة لأنه ليس يرى ذلك لذة له ، ولقد كان الفيلسوف (سينكا) الرومانى وهو فى الوزارة قبل أيام المسيح كما حكى عن نفسه يسمع إعجاب العامة به وهو فى الاحتفال فلا تتحرك نفسه لهذا الإعظام ولا لهذا الإجلال ويرى أن فى جمال الشمس والقمر وجلال البحر ونزول المطر ولمعان البرق ودوىّ الرعد والبرد والثلج والتأمل فى عجائب الطبيعة، يرى فى ذلك وغيره ملاك السعادة وهذا كلامه عن نفسه ، وهكذا فى أمتنا الإسلامية كثير فى هذا الزمان وفى كل زمان فهل الله تعالى إذا أمرنا بترك عبادة الأصنام يريد أن نتضرع إليه وهو يعجبه ذلك لنفسه ؟ كلا ؟ فليس بمعقول البتة ولا هو بحق لأنه منزه وغنى عن العالمين ، وإنما عبادة الأصنام تحصر العقل فى المحسوسات فيصغر العقل البشرى وعبادة الله تجعل النفس مشرئبة إلى أعلى : أى أن الإنسان تحدث قيوده من الوقوف موقفاً حابساً له ، فالعبادة والعلم على هذا يكونان متفقين على أن يطلب العبد من الإله الذى لم يره ويحبه، وإذا لم ير الله ولم تطلع

عليه حواسه فإذن أصبح حراً فى هذا الوجود يستخره لنفسه . أما تقديس بعض المخلوقات فإنه يقفل عليه أبواب العلم وأبواب العمل إذ يرى الحجاب العقلى أسدل عليه فمنعه أن يتمادى فى المباحث العلمية والعملية فإذن يجد فى هذه الكائنات باحثاً منقباً حتى يصل إلى مالايتصوره عباد الأصنام .

التنبيه الثالث : كيف يدخل الضلال على أرباب الديانات

لقد علمت أن عبادة الأصنام إنما أبغضت لأنها سبيل إلى حصر الفكر والوقوف بالعقل الإنسانى وأن الآيات التى وردت بعدها كما حضت على الأعمال حضت على النظر فى السموات والأرض والفلك فى البحر والشمس والقمر والليل والنهار وأن عابد الصنم العاكف عليه لايتجه نظره لشمس ولا لقمر ولا لضياء ولا لنور .

أفلا ترى أن المتدين الذى أوقفه جهله فى موقف شائن بأن أعطاه من الدين بعض الأعمال وقال له قف هنا فهذا هو الدين وصرف فكره عن السموات والأرض الخ قد أصبح فى موقف كعباد الأصنام . نعم هذا موحد لله ولكنه فى العلم أصبح كالجهال عباد الأصنام، ففكره قد أصبح محبوساً وأفئدة هذه الطائفة هواء وهم مهطعون مقنعو رؤوسهم لايرتد إليهم طرفهم . أليس هذا هو السجن الذى سجنت فيه عقول عباد الأصنام وهو لم يخلق فى الدنيا إلا للدراسة فأين هى؟ وهو وعابد الحجر سواء ولذلك أعقب هذا النمط بدعاء إبراهيم عليه السلام وفيه أنه يطلب من الله أن يتجنب الأصنام هو وأبناؤه . فياليت شعرى هل يتوهم أن نبياً من الأنبياء يخاف من عبادة الأصنام . إن ذلك غير معقول ، وأنا وأنت أيها الذكى القارئ لهذا التفسير لا نخاف من عبادة الأصنام ولم يخطر ببالى يوماً أن أقول ياالله أغننى من عبادة الأصنام وأنت لم تطلب هذا فى حياتك يوماً لأنه ليس بمعقول أن تطلب رفع شئ هو مرفوع عنك ، فهل نحن أعلم من إبراهيم الخليل الذى أمر الله نبينا صلى الله عليه وسلم أن يهتدى بهداه ؟ إذ قال : « فبهداهم اقتده » وإذا كنت أنا وأنت والعامة والخاصة فى الإسلام نرى أننا بحق لا نساوى نبينا صلى الله عليه وسلم فى العقيدة الدينية ونحن هذه حالنا لايخطر ببالنا عبادة الأصنام فهو أولى منا بالعقيدة لأنه هو الذى كسرها فى الكعبة ونحن لا قدرة لنا على تغييرهذا المنكر إذا رأيناه خوفاً من عباده، وكذلك إبراهيم الخليل كسر الأصنام التى كان يعبدها ملك جبار هو نمرود فكيف يقول : « اجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام؟ » وهو الذى سمانا المسلمين من قبل وفى هذا ، وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم جاء بشريعة مطابقة لشريعته إذ قال : « ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا » .

إن الجواب على ذلك ما أشرت إليه أن عبادة الأصنام غالباً يتبعها حصر الفكر وتعمى القلوب والأبصار عن عجائب الدنيا فيغفل العقل الإنسانى عن كل شئ، فرجع الأمر إلى أن العقول تقصر وهو المراد محاربته فكل دين وكل علم إنما يراد به رقى الفكر الإنسانى فإذا طلب الخليل ذلك فإنما يريد أن لايشغل القلب بما يمنعه من ازدياد الحكمة ، فالمال شاغل والولد شاغل والعلم اللفظى شاغل والخوف من تعيير الناس شاغل والوقوف على بعض مسائل الدين وترك الباقى شاغل وعكوف العالم الدينى على علم الفقه وحده وترك النظر فى هذا العالم وجماله شاغل واشتغال المرء بمدح الناس له شاغل . كل ذلك أدى الوظيفة التى أداها الصنم فأنتجت المطلوب وهو الجهالة العمياء .

جوهرة فى قوله تعالى « وجعلوا لله أنداداً » الخ

اعلم أن الأمم القديمة كلها فى الهند ومصر وغيرهما قد أظهر الكشف الحديث أن لهم تعليمين تعليما عاماً وتعليما خاصاً . فالتعليم العام هى الأعمال الصبيانية والوثنية والطقوس والصور الرمزية والتعليم الخاص يتناقلونه كابراً عن كابر ولا يباح إلا لمن هذبوه فى المعابد ووثقوا به وإذ ذاك يلقنون له السر فهو فى نفسه يعبد إلها

واحداً

واحداً يراه فى قلبه ويحبه حباً جما وهو مع الناس يشاركهم فى طقوسهم فيعبد (برهما) فى الهند (وازريس) فى مصر (وجوبيتر) فى ألمبيا معتبراً هذه الآلهة الفخمة رموزاً ضئيلة جداً إلى القوة العلوية المدبرة لهذه العوالم فلا فرق فى إظهار الحقائق بين خريستا وبوذا وزروستر وهرمس وغيرهم ، فكل هؤلاء قالوا الله إله واحد ولكن أتباعهم رأوا من مصلحة كبريائهم أن يخشوا الشعب ويضلوه معتقدين أنه ليس كفؤاً لهذه الحقيقة ، وقد كان كهنة المصريين لايطلعون أحداً على سر الوحدانية إلا بعد العناء الطويل والتجارب العنيفة ويحلفونه القسم بحفظ السر وإلا قتل ، وكانوا يرون أن أبا الهول المركب من رأس امرأة على جسد ثور بأظافر أسد وجناحى نسر رمز إلى هذا الإنسان الذى فاق كل حيوان ولهم آلهة غريبة لها رؤوس وحوش وطيور وأفاع يرمزون بها إلى الحياة فى تعدد مظاهرها وهم فيما بينهم يعتقدون إلهاً واحداً لايتكلمون عنه إلا بالخوف وصوت منخفض . كل هذا جاء به الكشف الحديث ، ومما عرف عنهم رؤيا هرمس وقد تقدم ذكرها فى هذا التفسير فى سورة آل عمران . وملخصها : أن هرمس وقت الانخطاف رأى الكون والعالم وانتشار الحياة فى كل صقع فصاح به صوت النور المالىء للكون بأسره وكاشفه بالسر الإلهى قائلا : [إن النور الذى رأيته مثل لنور الله المحيط بكل شىء وهو الذى يحيط بكل الكائنات . وأما الظلمة فهى العالم المادى الذى يعيش فيه الناس على الأرض ، وأما الضياء المتدفق من الأقاصى فهو كلمات الله . فأما روح الإنسان فإما محبوسة بذنوبها وإما راجعة إلى مقامها فى عالم النور فى السموات ، وما سفرها فى هذه الأجساد إلا لتجربتها فى الأوجاع وهموم الحياة ، ومتى استنارت خرجت من سجنها إلى عالمها الجميل فى العلا ، فثبت قلبك إذن ياهرمس وسكن روعك عند نظرك إلى الأنفس الصاعدة فى معارج الأفلاك العلوية توصلا إلى العالم الإلهى الذى منه بدأ كل شىء وإليه ترجعون ثم سبحت الأفلاك السبعة هاتفة معاً : الحكمة ، الحب ، العدل ، البهاء ، العظمة ، الخلود] .

ثم يقول الحبر بعد ذلك : [تأمل يابنى هذه الرؤيا تجد فيها سر كل شىء وكلما توسعت فى إدراكها اتسعت لديك حدودها لأن ناموساً نظامياً واحداً يدبر العوالم كلها . إن الحقائق العظيمة مستورة تحت حجاب السر ولا يكاشف بالمعرفة التامة إلا من جاز فى التجارب التى جزناها . إن من الواجب أن تقاس الحقيقة على قدر مبلغ العقول فلا يجوز إفشاؤها للضعفاء لئلا يتهوسوا بها ، ولا للأشرار لئلا يتسلحوا بها للشر فاحفظها إذن فى صدرك وانشرها بلسان أعمالك وليكن العلم قوتك والناموس سيفك والصمت ترسك] انتهى .

هذا ما كشف فى عصرنا الحاضر من علوم قدماء المصريين عرفه الأوربيون وجهله كثير من علماء الخطوط المصرية القديمة فى مصر وغيرها .

فانظر كيف كان الله واحداً فى الهند والصين والمصريين عند خواصهم ، ومتعدداً كثيراً عند عامتهم وكان هؤلاء الرؤساء يعتقدون أن إفشاء السر ضار بالشعب فلهذا كتموه وبالكتمان عظموا عند الرعية .

ومن عجب أن التثليث الذى تظاهر به كهنة الهند ومصر تخطى إلى الأمم النصرانية وهذا الظاهر أخفى تحته الحقيقة المكتومة « كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم » فانظر ما قاله أحد آباء النصرانية فى القرن الرابع وهو الأسقف (سينيسيوس) اليونانى الذى تولى فى آخر حياته أسقفية عكا ومات سنة ٤١٠ ميلادية قال [إن الروح السرى الذى تراه سارياً فى الأديان القديمة إنما جاء من كون الشعب يحتقر دائماً ما سهل عليه إدراكه فلهذا يفضل أن يكون مغشوشاً مغالطاً . هكذا فعل كهنة مصر الأقدمون أما أنا فسأكون دائماً فيلسوفاً مع نفسى وكاهناً مع الشعب وقد تقدم هذا] انتهى .

يقول مؤلف هذا الكتاب : إنى أحمد الله عز وجل إذ علمنا مالم نعلم ووقفنا على أسرار الأوائل التى لم تظهر إلا فى هذا الزمان ، والله هو الولى الحميد .

التثليث عند الأمم القديمة

قد شاع التثليث عند الأمم القديمة بلقيه الكهنة بلفظهم وهم فى قلوبهم موحدون ولقد أخذوه من تثليث هذا الوجود فهو كله جوهر مادى وجوهر عقلى وجوهر نفسى أى المادة والعقل والنفس فالكون كله إما مادة فيها الأثر وإما نفس بها الحياة وإما عقل به التدبير ، وقد جعلوا العقول عشرة وهكذا النفوس وجعلوا العقول والنفوس الإنسانية كأنها آثار النفوس العلوية . هذا كله فى كتب الفلسفة فليست هذه الثلاثة آلهة بل هى مخلوقات والفلاسفة فى كتبهم يقولون إن الله هو خالقها فترى الكهنة يبقون الخالق لهم ويقولون إنه ثلاثة ، يريدون المادة والعقل والنفس. ثم منهم من عبد الملائكة وهى المعبر عنها بالعقول فيما تقدم هنا كالصابئين كما تقدم فى أول سورة البقرة وفى سورة الأنعام — ومنهم من عبد الكواكب بالنيابة عن الملائكة ثم عبدوا الأصنام النائبة عن الكواكب . كل هذا تقدم فى أول سورة البقرة . فكأن الألوهية نقلوها عن الله إلى أول مخلوق وهو العقول المعبر بها عن الملائكة ، فالكواكب فالأصنام الأرضية وكل هذا لإضلال الشعوب ، والحمد لله رب العالمين والتوحيد لهم خاصة . انتهى القسم الثانى من السورة .

القِسْمُ الثَّالِثُ

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ * رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ * رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ * الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ * رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ * رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ * وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ، إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ * مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ * وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ * وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ * وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ * فَلَا تَحْسَبَنَّ

اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ * يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمٰوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ * وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ * سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ * لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ * هٰذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلٰهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ .

التفسير اللفظي

(و) اذكر (إذ قال إبراهيم ربّ اجعل هذا البلد) مكة (آمناً) أى ذا أمن: أى أخرجه من صفة الخوف إلى صفة الأمن (واجنبنى وبنىّ) بعدنى وإياهم (أن نعبد الأصنام) من أن نعبد الأصنام (ربّ إنهنّ أضللن كثيراً من الناس) إسناد الإضلال إليهنّ باعتبار السببية كقوله تعالى: « وغرّتهم الحياة الدنيا » (فمن تبعنى) على دينى (فإنه منى) أى لاينفك عنى فى أمر الدين فهو بعضى لفرط اختصاصه بى (ومن عصانى) فيما دون الشرك (فإنك غفور رحيم) وإن أريد عصيان الشرك كان الغفران والرحمة إن تاب وآمن (ربنا إنى أسكنت من ذريتى) بعض أولادى ، وهم إسماعيل ومن ولد منه (بواد) هو وادى مكة (غير ذى زرع) لا يكون فيه شئ من الزرع (عند بيتك المحرّم) هو بيت الله محترم عظيم الحرمة لايحل انتهاكها ويحرم التهاون به (ربنا ليقيموا الصلاة) اللام متعلقة بأسكنت أى ما أسكنتهم بهذا الوادى البلقع إلا لإقامة الصلاة عند بيتك المحرّم (فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم) أى أفئدة من أفئدة الناس تسرع إليهم شوقاً ووداداً (وارزقهم من الثمرات) وهم يسكنون وادياً لا نبات فيه (لعلهم يشكرون) تلك النعمة وقد أجاب الله دعوته فجعله حرماً آمناً يجبى إليه ثمرات كل شئ (ربنا إنك تعلم ما نخفى وما نعلن) تعلم سرّنا كما تعلم علننا (وما يخفى على الله من شئ فى الأرض ولا فى السماء) فالعالم كله بالنسبة إليه سواء ، ومن للاستغراق (الحمد لله الذى وهب لى على الكبر) أى وهب لى وأنا كبير آيس من الولد (إسماعيل وإسحق) . يقال إنه ولد له إسماعيل لتسع وتسعين سنة وإسحق لمائة واثنتى عشرة سنة (إن ربى لسميع الدعاء) أى لمجيبه ، وقد سأل إبراهيم الولد بقوله : « رب هب لى من الصالحين » فلما استجاب الله دعاءه قال : « الحمد لله الذى الخ » (ربّ اجعلنى مقيم الصلاة) أى متما أركانها وسننها وحاضراً بقلبى عندها ومواظباً عليها (ومن ذرّيتى) أى واجعل بعض ذرّيتى من يقيم الصلاة (ربنا وتقبل دعاء) أى وتقبل عبادتى (ربنا اغفرلى ولوالدىّ) لأبوىّ ، وقد جاء فى السور المتقدّمة عذره فى دعائه لهما : « وما كان استغفار إبراهيم الخ » (وللمؤمنين يوم يقوم الحساب) أى يوم يبدو ويظهر ، أو يوم يقوم الناس للحساب ؛ وإلى هنا انتهى دعاء الخليل عليه السلام .

ثم قال الله تعالى مخاطباً كل إنسان : (ولا تحسبنّ الله غافلا عما يعمل الظالمون) الغفلة معنى يمنع الإنسان من الوقوف على حقائق الأمور وهذا القول تسلية للمظلوم وتهديد للظالم (إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار) أى تشخص فيه أبصارهم فلا تقرّ فى أماكنها من هول ما تشاهده هناك (مهطعين) مسرعين إلى الداعى، أو مقبلين بأبصارهم لايطرفون خوفاً ورهبة، وأصل أهطع: أقبل على الشىء (مقنعى رؤوسهم) رافعيها فمن صفة أهل الموقف أنهم رافعو رؤوسهم إلى السماء (لايرتدّ إليهم طرفهم) أى لا ترجع إليهم أبصارهم من شدة الخوف فهى شاخصة (وأفئدتهم هواء) خالية فارغة لا تعى شيئا ولا تعقل من شدة الخوف والجبن (وأنذر الناس) أى خوّف الناس يامحمد (يوم يأتيهم العذاب) وهو يوم الموت وهو مفعول ثان لأنذر :

أى مايقع فى اليوم فالانذار باليوم إنذار بما يحصل فيه (فيقول الذين ظلموا) أى الكفار (ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل) أى ردّنا إلى الدنيا وأمهلنا إلى أمد قريب من الزمان نتدارك ما فرّطنا فيه من إجابة دعوتك واتباع رسلك ، فيقال لهم : (أولم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال) أى أنكم حلفتم فى الدنيا أنكم إذا متم لاتخرجون لبعث ولاحساب ، وقوله : « مالكم من زوال » جواب القسم وقد جاء به بلفظ الخطاب ولكن لوجاء بلفظهم وهم يقال مالنا من زوال (وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم) بالكفر : أى أقمتم فيها واطمأننتم طيبة نفوسكم وأنتم سائرون سيرة من قبلكم فى الظلم والفساد لاتفكرون فيا سمعتم من أخبار الذين سكنوها قبلكم فلا تعتبروا بأيام الله فيهم وأنه أهلكهم بظلمهم وإنكم إن سرتم سيرتهم لحقكم ما لحقهم (وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال) أى صفات ما فعلوا وما فعل بهم وهى فى غرابتها كالأمثال المضروبة لكل ظالم (وقد مكروا مكرهم) أى مكرهم العظيم الذى استفرغوا فيه جهدهم لتأييد الكفر وإبطال الإسلام (وعند الله مكرهم) أى ومكتوب عند الله مكرهم فهو مجازيهم عليه وهو عذابهم الذى يأتيهم من حيث لايشعرون (وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال) أى أمر الدين الذى أنزله الله على محمد صلى الله عليه وسلم فهو ثابت ثبوت الجبال فليس مكرهم مزيلا تلك الثوابت التى لا تزول من الأرض فهو كقوله تعالى « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم » فاللام هذه تسمى لام الجحود أى ما كان الله مريداً تعذيبهم وما كان مكرهم معداً لإزالة الجبال . وقرأ الكسائى « لتزول » بفتح اللام الأولى ورفع الثانية أى وإنه أى الحال والشأن كان مكرهم الخ وتكون اللام فى « لتزول » هى التى يسميها النحويون الفارقة لأنها تفرق بين إن المؤكدة وإن النافية وهى هنا مخففة من الثقيلة وتلازمها غالباً هذه اللام أى وإن مكرهم تزول منه الجبال لعظمته وكثرة احتيالهم ، فيكون معنى الجملة عظم مكرهم ، وعلى الأول ليس مكرهم مزيلا الإسلام (فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله) إذ قال « إنا لننصر رسلنا - كتب الله لأغلبن أنا ورسلى » وإذا كان الله لايخلف الميعاد فكيف يخلف الميعاد مع الرسل ؟ (إن الله عزيز ذو انتقام) غالب ينتقم من أوليائه لأعدائه ثم أبدل من « يوم يأتيهم العذاب » فقال (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات) بأن تتطاير هذه الأرض كالهباء وتصير كالدخان المنتشر ثم ترجع أرضاً أخرى بعد ذلك كما سيأتى بيانه من الحديث الشريف ومن العلم الحديث (وبرزوا لله الواحد القهار) أى وخرجوا من قبورهم لحكم الله والوقوف بين يدى الواحد القهار الغلاب بتشديد اللام الثانية ، أى فلا مستغاث لأحد إلى غيره ولا استجار . ثم قال تعالى (وترى المجرمين يومئذ مقرّنين) قرن بعضهم مع بعض لاشتراكهم فى العقائد والأعمال كقوله تعالى : « وإذا النفوس زوّجت » وقوله : « فكبكبوا فيها هم والغاوون » وقوله عليه الصلاة والسلام « أنت مع من أحببت » ثم قال تعالى : (فى الأصفاد) متعلق بمقرّنين . والأصفاد : القيود . قال أبو زيد تقرن أيديهم وأرجلهم إلى رقابهم بالأصفاد وهى القيود (سرابيلهم) قمصهم واحدها سربال . وقيل : السربال كل ماليس (من قطران) القطران دهن يتحلب من شجر الأبهل والعرعر والتوت كالزفت تدهن به الإبل إذا جربت ، ويقال له الهناء فتقول هنأت البعير أهنؤه بالهناء وهو القطران ، ومن شأنه أن يسرع فيه اشتعال النار ، وهو أسود اللون منتن الريح . وقرئ « من قطرآن » وهما كلمتان منوّنتان . فالقطر : النحاس المذاب . والآنى : الذى انتهى حرّه فتكون قمصهم إذن من نحاس مذاب شديد الحرارة (وتغشى وجوههم النار) تعلوها باشتعالها (ليجزى الله كل نفس) مجرمة جزاء (ماكسبت إن الله سريع الحساب) يحاسب جميع العباد فى أسرع من لمح البصر ولايشغله حساب عن حساب كما لايشغله رزق زيد عن رزق عمرو (هذا) القرآن (بلاغ للناس) كفاية لهم فى الموعظة ليتعظوا (ولينذروا به) أى بهذا البلاغ (وليعلموا أنما هو إله واحد) بالنظر والتأمل يعرفون وحدانية الله تعالى (وليذكر أولوا الألباب) فيرتدعوا عما لايليق . فهذا البلاغ لثلاثة أمور :

[١] أن الرسل يسعون بتخويف الناس لتكميلهم.

[٢] وأن الناس ترتقى وتكمل قوّتهم النظرية.

[٣] وتكمل قوّتهم العملية بالتذكر ، انتهى التفسير اللفظى .

مقاصد هذا القسم

اعلم أن هذا القسم الذى قصه إبراهيم الخليل وما تلاه من مخاطبة الله للنبى صلى الله عليه وسلم وسائر الناس تتميم الكلام وجمع ما مضى من أوّل السورة تصريحا تارة وتلويحا أخرى ، ولقد قدّمت أن الخليل عليه السلام لايخطر بالبال أنه يعبد الأصنام وأنّ ذم عبادة الأصنام إنما كان لما فيه من حصر الفكر ومتى عبد الناس ربهم خلصت عقولهم من التقيد بالأصنام ، وناهيك ماتعلم من أن الخليل لما كسر الأصنام نظر نظرة فى النجوم ونظر الكوكب والقمر والشمس وارتقى إلى الأفلاك وفوق السبع الطباق وقال « إنى وجهت وجهى الخ » وهكذا العرب لما كسرت أصنامهم فكت عقالهم وانطلقوا فى الأرض فأدّبوا أهلها ثم هم اليوم حالهم كحال العرب الجاهلية الأولى فهم فى انقسام وانشقاق وتنابذ ورؤساؤهم أصحاب شهوات ونزوات ظلموا وأفسد كثير منهم وهم ظالمون ، وقد قلت إن جمود الفكر وحجره هو الذى تجب محاربته وإذا وجدنا أهل دين من الأديان وقفت عقولهم وجب علينا إفهامهم ، وهذه أمّة الإسلام لاسيما العرب منهم حالهم اليوم أسوأ من حال آبائنا أيام الجاهلية فنحن مقلدون متنابذون ، ولعمرى لقد جاء فى القرآن فى آيات سبقت فى هذا التفسير أن القرآن إنذار للمسلمين كما هو إنذار للكفار وهو واضح فى سورة الأعراف وغيرها .

وإذا كانت عبادة الأصنام بحسب نتائجها داعية التفرّق والانقسام من جهة ومن جهة ثانية داعية للجهالة وقيد الفكر فليكن دعاء الخليل لقصد فك القيد عن أبنائه العرب وأن يسهل الله له الدعوة التى قام بها فلا يقوم عائق فى سبيلها فتقف وتحصر كما تحصر العقول بعبادة الأصنام، ولعلّ فى قوله «ربنا إنك تعلم ما نخفى وما نعلن » ما يشير إلى ذلك فكأنه يطلب من الله أن تفك القيود عن أبنائه والعرب منهم وقد أرسل لهم صلى الله عليه وسلم وبعد مدّة قيدوا تقييدا شديدا كما قيدت عبادات الأصنام عبادها وكأن هذا المعنى مما قصده وإن لم يستجب فى العرب الجاهلية الأولى لأنهم عبدوا الأصنام وذلك لم يمنع استجابته فى باقى ذرّيته وإنما يتلى علينا الآن لنتدبر كيف كان أبونا الخليل يدعو الله أن يجنبنا عبادة الأصنام ونحن لانعبدها ولكننا مقيدون فى أصفاد التقييد لا ننظر إلى السماء كما نظر هو ولا نفكر فى الطبيعة كما فكر هو يوم قال « ولكن ليطمئن قلبى » فنفكر فى الخروج من هذا المأزق ونفك القيود التى قيدنا بها .

وفى هذا المقام لطائف :

(اللطيفة الأولى) إيضاح كيف كانت قصة الخليل عليه السلام جامعة ما فى الكلمة الخبيثة والكلمة الطيبة ، وأنها ملخص ماجاء فيهما .

(اللطيفة الثانية) بيان أن ما بعد القصة من قوله تعالى « ولا تحسبن الله غافلا الخ » قد اشتمل على ماهو كالنتيجة التذكير بأيام الله الذى جاء فى أوّل السورة فهذا القسم جميعه أشبه بالتطبيق على السورة كلهافأوّلها على أواخرها وآخرها على أوّلها .

(اللطيفة الثالثة) فى قوله تعالى « ربنا إنى أسكنت الخ » .

(اللطيفة الرابعة) « يوم تبدّل الأرض غير الأرض الخ » .

اللطيفة الأولى

إن الخليل عليه السلام طلب من الله أن يتجنب هو وبنوه الأصنام لأنهم أضلت كثيرا من الناس الخ وهذا هو الكلمة الخبيثة التي اجتثت من فوق الأرض فهو كالتطبيق عليها، وطلب من الله أن يجعله مقيم الصلاة وبعض ذريته وجاء في كلامه « وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء » وهذان هما القسمان العلمي والعملي المذكوران في الكلمة الطيبة المبينة في قوله « قل لعبادي الذين آمنوا الخ » ففيها العمل بإقامة الصلاة الخ والعلم بقول الله الذي خلق السموات والأرض الخ .

اللطيفة الثانية

إن قوله تعالى « ولاتحسبنّ الله غافلا عما يعمل الظالمون » إلى قوله « أولم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال . وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال» الخ ، فهذا هو نتيجة ماجاء في أوّل السورة فانه هناك ذكر موسى قومه بأيام الله بعد ما أمره الله إذ قال له « وذكرهم بأيام الله » وقال « ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم » الخ، وهنا جاء ذكر ذلك في يوم الحساب على مقتضى أوّل السورة من التذكير بتلك الأيام في القرون الخالية .

اللطيفة الثالثة في قوله تعالى

« ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع » الخ

روى أن أمّ إسماعيل جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء فوضعهما هناك ووضع عندهما جرابا فيه تمر وسقاء فيه ماء ثم قفى إبراهيم منطلقا فتبعته أم إسماعيل فقالت له يا إبراهيم إلى أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنيس ولاشيء ثم أفادها أنه بأمر الله فـقالت الأمر لله وعلمت أنّ الله لايضيعهما ثم رجعت ودعا إبراهيم بهذه الدعوات فقال « رب إني أسكنت من ذريتي » حتى بلغ « يشكرون » ورجعت أمّ إسماعيل ترضعه وتشرب من الماء الذي عندها فلما فرغ عطشت وعطش ابنها وجعلت تنظر إليه يتلوى أو يتلبط فتوجهت إلى الصفا وهو أقرب جبل إليها ثم استقبلت الوادي هل ترى أحدا فهبطت منه حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها ثم سعت سعى الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي ثم أتت المروة وفعلت ما فعلت فوق الصفا فلم تر أحدا ففعلت ذلك سبع مرات فلذلك سعى الناس بينهما ثم سمعت صوتا وهي مشرفة على المروة فإذا هي بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه أو بجناحه حتى ظهر الماء فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعد ما تغرف فشربت وأرضعت ولدها وكان البيت كالرابية تأتيه السيول ثم مرت بهم رفقة من جرهم فنزلوا في أسفل مكة فرأوا طائرا عائفا فعرفوا أنه على ماء فاستأذنوا أن ينزلوا عندها فأذنت على شرط أن لاحق لهم في الماء فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم وشب الغلام وتعلم العربية منهم وآنسهم وأعجبهم حين شب فلما أدرك زوّجوه بامرأة منهم، وماتت أمّ إسماعيل فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيل وكان ما كان من سؤاله لزوجة ابنه وردّها عليه بما لايحسن فقال لها قولى له غير عتبة الباب الخ وانتهى الأمر بعد ذلك أن اجتمع معه وتعاونا وبنيا البيت كما في سورة البقرة عند قوله « وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل » وفي التفسير هناك تلخيص ما يناسب ذلك من حديث البخاري، وجئت هنا باختصار الحديث الذي يوضح ما في هذه السورة ومجموعهما مقصود ما في حديث البخاري بطوله .

اللطيفة الرابعة

في قوله تعالى : « يوم تبدّل الأرض غير الأرض والسموات »

اعلم أن هذه الآية من المعجزات للقرآن فإنك ترى العلم الحديث منطبقاً عليها تمام الانطباق . ألا ترى أنهم يقولون : إن الأرض والشمس والسيارات كانت في قديم الزمان عبارة عن كرة نارية حارّة طائرة في الفضاء، ودارت على نفسها ملايين من السنين ثم تكوّنت الشمس وبعد ملايين فصلت منها السيارات ومنها الأرض، وبعد مئات الألوف من السنين انفصلت عنها الأقمار؛ ثم إن هذه العملية نفسها ستعاد كرة أخرى؛ أى أن الأرض والكواكب والشمس بعد ملايين السنين ستنحلّ هذه الأجسام كرة أخرى وتدخل معمل الطبيعة مرة أخرى وتعاد من جديد فتجدّد أرض غير الأرض بعد ما يذوب ذلك كله ويتطاير في الفضاء ملايين السنين ولا يبقى لها أثر ويعاد العمل من جديد وتصبح شمس غير الشمس وأرض غير الأرض وبالطبع السموات غير السموات . وإذا سألت علماء الفلك ما برهانكم على هذه المسألة أجابوك كما في كتاب [الدنيا الواسعة] في علم الجغرافيا صفحة (٨) باللغة الإنجليزية وهاك ما ترجمته « كيف عرف الفلكيون أن تاريخ بدء الأرض على هذا المنوال كان حقاً وما برهانهم على ذلك ؟ فكان الجواب : إن هؤلاء الفلكيين رصدوا بمناظيرهم الكبيرة المسمى كل واحد منها (بالتلسكوب) وشاهدوا أجساماً كبيرة بخارية على هذا المنوال الذى قدّروه للأرض وقد كشفوا أكثر من ستين ألف كوكب مختلفة ، فمنها مالايزال كرة نارية ، ومنها ما ابتدأ يتكون ، ومنها ما اقترب من الكمال في التكوين وبقيتها بين هذين الحدّين مختلفات البعد والقرب منهما اهـ » .

فهذا قدروا أحوال أرضنا وشمسنا فكأنهم بهذا عرفوا سير كرتنا وتاريخ تطوّرها في التكوين اهـ .

أليس هذا بعينه هو قوله تعالى « يوم تبدّل الأرض غير الأرض والسموات » فانظر كيف أصبح العلم يشاهد تبدّل الأرضين بالأرضين والشموس بالشموس لاشمسنا وأرضنا فقط . وانظر قول أبىّ بن كعب قال في معنى التبديل : إن الأرض تصير نيرانا . وقال بعض المفسرين . تخلق بدل الأرض والسموات أرض وسموات أخرى .

وروى عن عائشة قالت «سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله : يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات — فأين يكون الناس يومئذ يارسول الله فقال على الصراط » أخرجه مسلم .

فانظر كيف صارت الأرض ناراً وجعل الناس في عالم غير عالم الأرض . وروى ثوبان «أن حبراً من أحبار اليهود سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض؟ قال هم في الظلمة دون الجسر » . فانظر كيف اتفق العلم الحديث مع الآيات والأحاديث وأن الأرض تصير ناراً وأن الناس لايكونون عليها . ثم اسمع ما هو أعجب وهو ما روى عن ابن مسعود وأنس رضى الله عنهما : « يحشر الناس على أرض بيضاء لم يخطئ عليها أحد خطيئة » وإذا كان كذلك فهى أرض جديدة من تلك الأراضى التى تجهز الآن في هذه العوالم ولم يسكنها أحد بل خلقت حديثاً ، ولست أذكر هذه الأحاديث إلا للموازنة بين ماجاء في الدين وما جاء في العلم الحديث مع العلم أن هناك أحاديث تخالفها ولكن ظاهر الآية يوافق هذه الأحاديث ويوافق العلم الحديث ، وهذا من عجائب هذا الزمان .

وههنا أربع جواهر [الجوهرة الأولى] في قوله تعالى : « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » وفيما قبلها من الآيات المذكرات بالنعم [الثانية والثالثة] في قوله تعالى : « واجنبنى وبنىّ أن نعبد الأصنام » [الرابعة] في قوله تعالى : « يوم تبدل الأرض غير الأرض » .

الجوهرة الأولى

فى قوله تعالى « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها »

وفى تذكير المسلمين بما قصروا فى نعم الله المذكورة فى هذه الآية وحرموا من (٢٣٨) ألف ألف ألف جنيه من (البحر الميت) بفلسطين

أيها المسلمون جاء فى أول السورة أن موسى عليه السلام ذكر قومه بأيام الله وأن نبينا صلى الله عليه وسلم كذلك ذكر أمته وكاتب هذا التفسير ذكر الأمة بعد ما ذكر العلماء السابقون . أما حينما كنت أكتب ذلك التذكير لم يكن ليجول بخاطرى أن حادثاً يرج الأرض رجاً ويبس الجبال بساً ويكون حدوثه أثناء طبع هذا التفسير لم يكن ليخطر لى ذلك ولم أكن لأعتقد أن المسلمين قد وصلوا إلى درجة محزنة مخزية فظيعة مفزعة صريحة من الجهالة والغفلة عن هذه الآيات .

أيها المسلمون ، إن الله ملككم فلسطين منذ أيام الخلفاء الراشدين وأراد الصليبيون أن يفتحوا تلك البلاد ويفتحوا مصر فلم ينالوا حظهم . أتدرون لماذا حاولوا ذلك . أرسلهم الله سابقاً ليقولوا للمسلمين بلسان الحال ، نحن قد بعث الله همنا لنقاتلكم ، ولماذا هذا ؟ لأجل أن نذكركم بقوله تعالى : « الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء » إلى قوله « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار » أنتم ملكتم الهند والشام والفرس والعراق ومصر والسودان والأناضول وشمال أفريقية وبلاد الأندلس . وفى هذه البلاد ما جاء فى هذه الآية من الأنهار الجاريات والفلك المسخرات والبحار المائجات والبحار الواسعات فيها السفن الماخرات .

وكأن الله يقول لكم فان شكرتم بحفظها واستعمالها أبقيناكم وإن أنتم تركتم الأمور على غاربها وأهملتم أنهاركم بلا استعمال وبحاركم وجبالكم فإنى أغضب عليكم ، وكيف لا أغضب عليكم وأنا الذى لا تعد نعمى ولا تحصى ؛ ومن أعطى النعم العظيمة وأعرض عنها فقد كفر بها والكفر بالنعم مضيع لها « إن الإنسان لظلوم كفار »

هذا هو الذى أفهمه فى محاربة الفرنجة المسلمين أيام الحروب الصليبية ، فهو إنذار للمسلمين وقد طردهم صلاح الدين الأيوبى فرجعوا وهم يحملون علماً جماً ، أما المسلمون فناموا بعدها نومة أغضبت ربنا فأرسل الفرنجة هذه المرة فماذا فعل ؟ ادخل الإنجليز فلسطين ، فماذا فعلوا ؟ فعلوا ما جاء فى جرائدنا المصرية يوم (١١) سبتمبر سنة ١٩٢٧ قبيل طبع هذه السورة وهذا نصه :

امتياز البحر الميت

(٢٣٨) بليون جنيه

تؤكد صحف لندن وأمريكا وفلسطين خبر منح امتياز باستغلال البحر الميت فى فلسطين لشركة إنجليزية وتروى تلك الصحف عن المواد التى يشتمل عليها ذلك البحر ويمكن استخراجها منه روايات مدهشة حتى إن بعض الصحف الكبرى كجريدة التيمس ترى أنه سيكون مصدرا من أعظم مصادر الدخل للحكومة الانجليزية فكأنما هو بمثابة منجم ذهبى عظيم كان مهملا حتى الآن ، فقد كانت الحكومة التركية فى زمن حكمها فى تلك البلاد ترفض كل طلب أجنبى يرمى إلى استغلال ذلك البحر واستخراج محتوياته .

وقد ذكرت (الأمريكان هبرو) أن عالما جيولوجيا انجليزيا قصد ذلك البحر للاستطلاع والبحث بعد ما دخل المارشال اللنبى فلسطين وبعد الاختبار قدر ثروة ذلك البحر على الوجه التالى الذى يتفق مع تقدير خبراء آخرين لها وهو كما يلى :

١٣٠٠ مليون طن من البوتاس تقدر بمبلغ (١٤) بليون جنيه إنجليزى .

٨٥٣ مليون طن من البروم تقدّر بمبلغ (٤٢) بليون جنيه .
٩٠٠ر١١ مليون طن من الملح تقدّر بمبلغ ٥٠٠ر١١ مليون جنيه .
(٨١) مليون طن من الجبس تقدّر بمبلغ (٢٤) مليون جنيه
(٢٢) مليون طن من كلورو المنسيوم تقدّر بمبلغ (١٦٥) بليون جنيه .

وينتظر إمضاء عقد الامتياز قريبا من جانب الشركة الكيميائية الإمبراطورية التي يرأسها المستر (بروزوأ . موند) .

ويشترط في هذا العقد منح الامتياز لمدة محدودة من الزمن يعود بعد انتهائها إلى حكومة فلسطين ، وتتعهد هذه الشركة بإنشاء مدرسة لتهيئة طلبة من أبناء فلسطين لهذا العمل في اليوم الذي تنتهي فيه مدة الامتياز ، وتتعهد كذلك بأن تقدّم إلى أهل فلسطين الحاصلات اللازمة لهم من محتويات هذا البحر بسعر لايتجاوز كلفة استخراجها .

ويرى بعضهم أن هذا المشروع سيكون أعظم منافسة من جانب الإنجليز الفرنساويين والألمان في كلورات البوتاس والمواد الأخرى التي يعدّ الفرنساويون والألمان أصحاب المقام الأول في سوقها اه .

هذا هو نص ما جاء في جرائدنا ، والذي آلمني وأوقع في قلبي أشد الحزن أني لم أر من أهل العلم ضجة أو أسفا على الجهل العام في أمم الإسلام وإنما هذا الخبر لما انتشر مر كغيره ، وأنا أقول إن الأمر لعظيم ، هذا البحر سميناه ميتا وإنما سميناه ميتا لأننا ميتون ولو كنا أحياء لاتخذنا من موادّه المزورة لنا جنة ولكان لنا أجلّ ذخيرة .

أيها المسلمون ، هل تظنون أن ربنا الذي يقول في هذه الآيات « وسخرلكم الفلك لتجرى في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار » يخاطبنا بقوله « لكم » ثم هو إذا رفضنا نعمته يترك تلك النعمة في أيدينا ، هل الله يعطي الذهب للبهائم والطير والسباع أم يعطيها للانسان ؟ إنّ الله لم يلهم الأساد البحث عن الذهب والفضة وهذان المعدنان ليسا نعمة على الآساد ، فليس يقول الله للآساد أنعمت عليكم بالذهب ولكنه قال لنا أنا سخرت لكم الأنهار وسخرت لكم الفلك في البحر ونظر لنا حتى لانحتج بأنه لم يذكر البحر الميت في فلسطين فقال « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » فان لم يدخل البحر الميت فيما تقدم من المباه فقد دخل هنا ، لم يبق عذر لمسلم بعد هذا البيان إذا فهم أن البحر الميت ليس نعمة وهذه النعمة مسخرة لنا .

وقد تقدم في أول هذه السورة « لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إنّ عذابي لشديد » وشكر النعمة استعمالها فيما خلقت له ، والبحر الميت بعد أن أنذرنا الله بالحروب الصليبية لم نفهمه ولم نفهم سواه بل تركنا الأرض المباركة . وغير الأرض المباركة فلم نستخرج المنافع منها لجهلنا ، وإن كاتب هذا التفسير لم يعلم أن في البحر الميت هذه الفوائد إلا من هذا الخبر فنحن قوم جاهلون حقّ علينا القول ، فماذا حصل لما كفرنا النعمة ؟ . أرسل قوما آخرين مستعدين لها فهاهم أولاء يستخرجونها ، وما مثل المسلمين مع ربهم إلا كمثل الديك قدّمت له جواهر وقطع من الماس ليأكلها فنبذها ظهريا وقال أين حبّ الذرة والقمح ، فهانحن أولاء لما نبذنا النعمة بجهلنا تسلمها غيرنا وهذا عذاب الخزى في الحياة الدنيا ، وقد تقدم في سورة الأعراف أن عذاب الدنيا يشمل المؤمنين وغير المؤمنين فارجع إليه إن شئت .

وانظر إلى قول الكاتب [فكأنما هو بمثابة منجم ذهبي عظيم كان مهملا] وقوله [إن عالما جيولجيا إنجليزيا قصد ذلك البحر بعد فتح فلسطين الخ] وهذا مثل الذي حصل أيام دخول الفرنسيين

مصر منذ نحو ١٥٠ سنة فان القوم مكثوا فيها نحو ثلاث سنين ومباحثهم التى قاموا بها فوق متناول المسلمين كلهم .

وقد ملئوا مجلدات كبيرة فى منافع أرض مصر وجبالها وحيواناتها والمسلمون لم ينتفعوا بشىء من ذلك ولم يثوروا فى وجه الجهل ، اللهم إنى أذكر المسلمين بهذا التفسير وأذكرهم بما قاله (جنكيزخان) كما سيأتى فى آخر سورة الكهف عند قصة يأجوج ومأجوج من أنه لما أرسل تجارا من بلاده إلى بلاد الإسلام فقتلهم (قطب أرسلان) ثم آخرين فمثل بهم وأخذ مالهم لجهل المسلمين إذ ذاك بجغرافية جيرانهم ، اختلى ثلاثة أيام وهو لايذوق فيها طعاما فقال اللهم إنى أردت عمارة أرضك وأراد المسلمون خرابها فانصرنى اللهم عليهم ثم انقض على بلاد الإسلام فلم تقم لها قائمة بعدها كما نقلته من كتاب [فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء] .

فسواء صح هذا أولم يصح فهذه نفسها سنة الله وهاهو ذا صح عندنا أن البحر الميت جهله المسلمون وعرفه النصارى ، إذن نحن الآن جهال بنعمة الله وهذا الجهل هو مبدأ الكفر بالنعمة ، ومن المخجل أن يقول الكاتب [إن هذا المشروع سيكون أعظم منافسة من جانب الإنجليز للفرنسيين والألمان] ولم يذكر دولة إسلامية تنافس الإنجليز فى هذا ، فهل رأيت نوما عميقا كهذا ، وهل عند المسلمين جميعا عربا وتركا وفرسا وغيرهم ثروة تقدر بمبلغ (٢٣٨) ألف مليون جنيه ، ومعنى هذا أن المسلمين جميعهم لايملكون ما يساوى ثمن محصول البحر الميت ، فهل رأيت موتا أشنع من هذا .

فإذا قال (جنكيزخان) للمسلمين خربوا بلادك ، فهاهوذا لسان العدل ولسان الحق ولسان الدول جمعاء ناطقات بأن المسلمين أكثرهم لم يعمروا أرض الله تعميرا تاما ولم يقوموا بحفظ الأمانة التى استودعوها أيها المسلمون ، إن هناك بقية أمل فهل أنتم منتهون ، انتهى .

حكمة إلهية ونور على نور

استيقظت صباحا فى يوم من الأيام فرأيت فى النفس ميلا قويا وخاطرا هاجما فى اليقظة والمنام لإكمال هذا الموضوع فلم أجد بدا من التوسع فيه حتى أتم ما وقر فى النفس من بدائع القرآن . وبينما أنا كذلك إذ حضر صديقى العالم الذى اعتاد أن يجاذبنى أطراف الحديث فى مثل هذا المقال فقال :

(س) ماذا تريد بعد ما قدمته فى مسألة البحر الميت وأى أسرار القرآن فى ذلك ؟

(ج) فقلت سأذكر عجائب العناصر فى البحر الميت وسر الحروف فى أوائل السور فى القرآن

(س) فقال وما المناسبة بينهما ؟

(ج) إن البحر الميت قد حلل الله فيه العناصر مثل المغنسيوم والكلور والبروم وجعل فيه مركبات مثل الملح والجبس ففيه المركبات وفيه العناصر . هكذا الحروف فى أوائل السور والجمل فى القرآن ، ففى القرآن آيات تحث على العلوم وفى القرآن حروف فى أوائل السور تشير إلى قراءة جميع العلوم كما قدمنا ذلك فى سورة هود وفى أول سورة آل عمران . إن العلوم كلها لايعرفها الناس ما لم يحللوا مركباتها إلى مفرداتها كالحساب وكالهندسة وهكذا العلوم الطبيعية فمثلها كمثل جميع اللغات ، فلا نعرف اللغة إلا بالتحليل وإرجاع المركبات إلى الكلمات والكلمات إلى الحروف والله هو الذى أنزل القرآن وهو الذى خلق البحر الميت .

فهو الذى حلل فى البحر الميت البروم والكلور والمغنيس . وهو الذى ركب الجبس والملح فيه وفعل مثل ذلك فى القرآن فجعل فيه حروفا كما جعل هنا عناصر . ولما غفل المسلمون عن آى القرآن ماتت القلوب عن بحث هذه العوالم واستخراج منافعها المركبات من عناصرها فهم كما جهل أكثرهم القرآن فلم يعرفوا إلا ألفاظه . هكذا جهلوا منافع أرضهم وبحارها ومنها البحر الميت فإذا سموا البحر فى فلسطين ميتا والموت

إنما هو فى أكثر قلوب الجاهلين فيهم فنسبوا ما حلّ بنفوسهم من الجهل والموت إلى البحر ، فهكذا القرآن لما هجروه ماتت النفوس عن معانيه وعن العالم الذى خلقنا فيه « وقال الرسول يا رب إنّ قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا » .

(س) لا تزال المناسبة بين العناصر فى البحر الميت وبين الحروف فى أوائل السور تحتاج إلى إيضاح فإن نفسى غير مطمئنة إلى هذا البيان فان كون الحروف فى أوائل السور كالعناصر فى البحر الميت وغيره أمر عام لا يخصّ هذه السورة .

(ج) إن أوّل السور من يونس إلى الحجر وجميعها ست سور كلها مبدوءة بحرف (الر) وتزيد الرعد بأن بين (ال والراء) ميما، فوجود (ال) أوّلا و(الراء) آخرا عام فى الجميع وهذه الخاصية محققة فى قوله تعالى « ألم تر إلى الذين بدّلوا نعمة الله كفرا » إلخ فإنه ذكر سبع كلمات فى معرض الذين بدّلوا نعمة الله كفرا كلها فيها هذه الخاصية أى أن (ال) فى أوّلها (والراء) فى آخرها وهى (البوار ؟ القرار ، النار ، البحر ، الأنهار ، القمر ، النهار) ومعلوم أن السورة مذكرة بنعم الله كما ذكر موسى عليه السلام ونبينا صلى الله عليه وسلم قومهما بذلك والنعم كثيرة، فبين أنعمها هنا فى معرض توبيخ وذم الذين بدّلوا النعمة فلهم البوار والنار وهى لهم قرار وعليهم البحث فى البحار والأنهار والقمر والنهار وكل موجود ، فهذه ذكرت هنا كالنموذج للنعم التى يجب شكرها تفسيرا لقوله تعالى فى أوّل السورة « لئن شكرتم لأزيدنكم » ولا جرم أن البحر الميت من البحار ، وقد جاءت هذه الكلمات السبع مشابهة للسور السبع التى فى أوائلها (الر) فأوّل البحر (ال) وآخره الراء فدخل فى الذى طلب تحليله من النعم التى قد يبدلها كفرا بعض الناس وأن من حكمة الله أن يكون طبع تفسير هذه السورة أيام انتشار خبر البحر الميت حتى يدخل فى أسرار (الر) وتحليل عناصره المدلول عليها بحروف أوّل السورة ، فلئن جهل المسلمون القرآن وانحطت مداركهم ليس معناه أنه لا يرقى الإنسانية كما أن البحر الذى سموه ميتا ليس بميت وإنما هو حى يعطى الحياة لقوم يعلمون ، فما مثلهم إلا كمثل قوم حملوا رجلا ظنوه ميتا على النعش فلما أنزلوه ليدفن عرف الطبيب حياته فأتى له بالأدوية المنعشات فعاش إلى حين .

(س) فقال هناك (أمران) أرجو إيضاحهما (الأوّل) ما صفات العناصر التى فى البحر الميت فى علم الكيمياء (الأمر الثانى) وهل فى التاريخ أن رجلا مات ثم كشف الطبيب أنه حىّ ؟ إذا صحّ هذا فى التاريخ كان خير مثال لحال المسلمين مع ماملكوا من بحار وجبال وأنهار إلخ ومع ماحفظوا من دين وقرآن

(ج) فقلت إن هذا البحر جمع من العناصر النافعة للنوع الانسانى أمثال :

(١) البوتاسا هى من مركبات (البوتاسيوم) الذى هوفلز لونه أبيض فضى لماع لين كشمع العسل ولون بخاره أخضر جميل وهو أخف من الماء وإذا ألقيت قطعة منه فى الماء فإن كرات منه تحمرّ بسبب شدّة ارتفاع الحرارة ويحصل التهاب وتدور كرات (البوتاسيوم) بعضها على بعض سابحة على حد من سطح الماء ثم يصير البوتاسيوم مع ما اتحد به (بوتاسا) ، والبوتاسا جسم كاو شديد إذا لامس الأنسجة أحدث فيها استرخاء وأتلفها .

(٢) الصوديوم هو معدن فضى اللون لين إذا ألقى فى الماء الحار أو أحمى قليلا يشتعل بنور لامع أصفر فاقع وكل أملاح (الصوديوم) نورها عند الاشتعال يكون أصفر وهوكثير فى الوجود لدخوله فى ملح الطعام .

(٣) الكلور أكثر وجوده فى ملح الطعام مركبا مع الصوديوم، فهومركب من الكلور والصوديوم وهو غاز مفطس لونه مصفرّ مخضرّ له رائحة مفطسة خانقة يحدث سعالا شديدا وهو سامّ ، وقد تقدّم فى آخر سورة آل عمران .

(٤) المنسبوم هو معدن فضى لين قابل أن يسحب خيوطا ولم يخلق وحده فى الوجود بل مركبا مع غيره ويكون فى ماء البحر مركبا مع الـكلور المتقدّم والبروم واليود .

ها أنا ذا بحمد الله قد وصفت لك أكثر المعادن التى خلقت فى البحر الميت ، فانظر إلى جسمين فضيين لون بخارهما متقارب وهما الصفرة والخضرة وكل منهما يشتعل فى النار إذا ألقى فيها وجسم ثالث لونه أشبه بلونهما وهو يميت وجسم رابع وهو فضى كالعنصرين الأولين ، فهذه العناصر بعض ما فى بلاد الاسلام مما جهلوه وهذه هى التى تتركب منها الأجسام ويكون منها خير كثير ولا خير منها إلا بالعلم والعناصر فى هذه الدنيا تبلغ فوق ثمانين لها فى البحر الميت مثال يقاس عليه ما فى سائر بلدان الاسلام كما أن حروف الهجاء فى أول السور مثال لغوى تقاس عليه جميع العلوم .

(س) فقال فهمت مسألة العناصر ومركباتها وعرفت خواص أكثر ما ذكر فى البحر الميت منها فما شواهد التاريخ التى طلبتها منك .

(ج) فقلت إن فى التاريخ (ثلاث حوادث) وكلها من كتاب الوزير جمال الدين أبى الحسن على بن القاضى الأشرف يوسف القفطى المتوفى سنة ٦٤٦ :

(الحادثة الأولى) ذكر أن طبيبا رأى ميتا محمولا على النعش ولمح قدم رجله بهيئة خاصة لا تكون من الأموات بل هى من خواص الأحياء فأعلم أهله فأنزله وداواه فرجع إلى الحياة فكان ذلك الطبيب عزا وفخرا وشهرة إلى آخر أيامه .

(الحادثة الثانية) جاء فى ترجمة صالح بن بهلة الهندى أيام الرشيد أن جبرائيل بن بختيشوع أخبر الرشيد أن ابن عمه إبراهيم بن صالح فى آخر رمق وأنه ينقضى عمره وقت صلاة العتمة فترك الرشيد تناول الطعام وبكى فأخبره جعفر بأن صالح بن بهلة يعلم فى الطب علم الهند وعلم الروم معا فأحضره ودخل على إبراهيم بن صالح ورجع إلى الرشيد فقال له لن يموت وإنى أخرج من مالى ونسائى طوالق ثلاثا إن مات فأكل الرشيد وهو مسرور فلما كان وقت العتمة ورد له الخبر بموت إبراهيم بن صالح فلعن صالح بن بهلة وطبه وطب الهند وتقايأ الطعام الذى أكله ووقف متكئا على سيفه فجاءه صالح بن بهلة وقال له أتطلق زوجتى وتضيع مالى وتدفن ابن عمك حيا ؟ وكرر ذلك فأذن له بالدخول فدخل ورأى علامة الحياة فدخل الرشيد فأدخل صالح بن بهلة إبرة كانت معه بين ظفر إبهام يده اليسرى ولحمه فجذب إبراهيم يده وردّها إلى بدنه فقال صالح يا أمير المؤمنين هل يحس الميت ثم خلع عنه ملابس الكفن وألبسه ثيابه ونفخ فى أنفه (الكندس) فمكث مقدار سدس ساعة ثم اضطرب بدنه وعطس وجلس فكلم الرشيد وقبل يده وعاش زمانا وتزوّج العباسة أخت هرون الرشيد وولى مصر وفلسطين وتوفى بمصر وقبره بها .

(الحادثة الثالثة) روى أن ثابت بن قرة اجتاز يوما إلى دار الخليفة فسمع صياحا وعويلا فقيل له إن القصاب الذى كان فى هذا الدكان قد مات فجأة فقال كلا فتوجه به الناس إلى دار القصاب فأمر النساء أن يمسكن عن اللطم والصياح وأمر غلامه أن يضرب القصاب (الجزار) على كعبه بالعصا وجعل دواء فى ماء ووضعه فى فم القصاب فشربه فوقعت الصيحة فى الدار والشارع بأن الطبيب أحيا الميت وسرعان ما وصل الخبر إلى دار الخليفة فاستدعاه فذهب والدنيا قد انقلبت وراءه بسبب أنه أحيا الميت فلما دخل عليه قال له يا ثابت ما هذه المسيحية (يريد أن المسيح أحيا الموتى) فأخبره أن هذا القصاب كان يشرّح الكبد ويطرح عليها الملح ويأكلها كل يوم وأنا أمر عليه فعرفت أن سكتة ستلحقه فلما أخبرت خبره داويته اهـ .

(س) فقال ما وجه الشبه بين البحر الميت وهذه الثلاثة ؟ .

(ج) الشبه من ثلاثة وجوه (الأوّل) أن كلا من الحوادث الثلاثة فيها حى ظنه الناس ميتا وحمل

فى الأولى على النعش » هكذا هذا البحر ملكه المسلمون فكأنهم حملوه وهم يظنون موته (الثانى) أن الأطباء الثلاثة كثابت وصالح بن بهلة عرفوا أن هؤلاء الثلاثة أحياء وهكذا علماء (الجيلوجيا) من أوروبا قالوا إن البحر فيه حياة (الثالث) أن الخليفة قال يا ثابت ما هذه المسيحية فأخبره بأن هذا أمر علمى لا دخل للدين فيه ، هكذا علماء (الجيلوجيا) من أوروبا عرفوا أن هذا البحر فيه حياة وهذه المعرفة علمية .

(س) فقال : وماذا تريد بعد ذلك ؟ .

(ج) قلت : أريد أن لا يكون المسلمون بعدنا مثل المسلمين اليوم فلا يكونون مالكين لأرض الله والبحار والأنهار إلخ وهم يجهلون منفعتها كأنهم يحملون أمواتا بحسب أعمالهم وهم أحياء فى الحقيقة ، أو كمثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها فتعبوا فى حملها وهم لا ينتفعون بها فشبهوا بالحمار يحمل أسفارا ، بئس مثل القوم النائمين الغافلين ، فمن الخسران أن يكونوا كالعامة الذين لم يفرّقوا بين الحى والميت بل يجب أن يكونوا فى علوم الحياة كثابت بن قرّة فى الطب وكالطبيب الذى أنزل الميت من نعشه فعاش حينا فقد عدّ على النعش بالجهل من الأموات ولما أنزل عنه بالعلم عدّ من الأحياء ، فليكن المسلمون بعد اليوم كهؤلاء الأطباء .

(س) فقال : وما ظنك بهم بعد اليوم ؟

(ج) فقلت : قد سبق القول فى هذا غير مرة فى هذا الكتاب وأنهم بعد انتشار هذا التفسير وأمثاله فى زماننا ستسرى فيهم الفكرة سريان الكهرباء فى المعادن ويكونون كما قال الله تعالى « اعلموا أن الله يحيى الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون » وكما كان الناس يظنون البحر ميتا إذ الحياة كامنة فيه ، هكذا الأمم الإسلامية الحياة كامنة فيها وستظهر اليوم ، وأكثرهم اليوم مثلهم كمثل ذلك المحمول على النعش يظنه الناس ميتا وما هو بميت فاذا قرءوا أمثال هذا التفسير كسروا القيود ورموا بالنعش واستبدلوا بملابس الأموات ملابس الشباب والقوّة وساروا فى الأرض وعمروها بعد ما ظنّ الناس أنهم مفارقوها وخلعوا سواد الحداد ولبسوا ثياب القوّة والشباب والنخوة والعزّ والكمال . انتهى

(الجوهرة الثانية فى قوله تعالى « واجنبنى وبنىّ أن نعبد الأصنام إلخ »)

اعلم أن هذه الكرة الأرضية التى نعيش عليها من عالم متأخر فان هذه الكواكب التى نراها ليلا عظيمة الأحجام والأقدار ، ويظنّ العلماء فى عصرنا ويوقن علماء الأرواح أن ما حولها من السيارات التى تعدّ بمئات الألوف فيها سكان أرقى منا أخلاقا وعقولا ، ويقال إن رقى العقول والأخلاق والأعمال على حسب أهمية الكوكب عظمة وضعفا . هذا كله لم يخرج عن حيز الظنون فأرضنا هذه ليست من تلك العوالم العظيمة فلذلك نجد أهلها أقرب إلى الجهل منهم إلى العلم ، ألا ترى أن العقول المغروسة فى بنى آدم تضعف وتنام بأدنى حادث . فترى التنويم المغناطيسى يغطيه والوهم يلهيه وعلماء الديانات يتصرّفون فى العقول كما يشاءون والناس فى ذلك غافلون تائهون ، ترى الناس يصنعون الأصنام ويعبدونها وإذا نزل دين بالتوحيد وأشرك العلماء اتبعهم العامة كما فى الدين المسيحى ، هكذا المسلمون أيضا تراهم متفرّقين وكل فرقة لا تقدّس إلا ما تلقته من الأشياخ كما ترى فى رجال الصوفية فإن أكثرهم يعتقدون فى شيوخهم العصمة وكأنهم منوّمون وهؤلاء الأتباع منوّمون (بالفتح) ومن الفرق المشهورة الطائفة المسماة بالباطنية فهؤلاء من فرق المسلمين ظاهرا وقد قرأنا عنهم فى كتب كثيرة ولكن لم يكن يخطر بالبال أن هؤلاء الذين بنوا الجامع الأزهر والقاهرة وحكموا فى مصر فوق مائتى سنة ينحط أتباعهم فى زماننا إلى دين وثنى فإنهم يعبدون الرئيس الدينى عندهم وما كنا لنصدّق ذلك ، وذلك الرئيس ينتسب لآل البيت الكرام ، ومن عجب أن سيدنا عليا كرّم الله وجهه نبذ هؤلاء الذين كانوا يعتقدون فيه الألوهية حاربهم وانتصر عليهم فكيف يرضى من ينتسب إليه أن يرجع أتباعه إلى حال مزعجة؟ إذا صحّ ما ستقرؤه الآن من شكوى أتباعه منه فى الجرائد وكيف يجعل ذلك الرئيس

نفسه بداهة ويكون من المذكورين فى الآية أو يصبح كفرعون وأمثاله ، اللهم إن العالم الإنسانى فى الأرض سريع الزوع للجهل غارق فى بحار الغواية والضلال ، فهاك ما جاء فى إحدى الجرائد المصرية المشهورة بتاريخ الجمعة ٣٠ سبتمبر سنة ١٩٢٧ م و ٤ ربيع الثانى سنه ١٣٤٦ هـ .

إلى سمو آغا خان

خطاب كله شكاوى وفضائح

تلقينا فى البريد الوارد علينا من الهند صورة خطاب مفتوح موجه إلى سمو آغا خان الزعيم الهندى المعروف من بعض أتباعه يلفتون نظره فيه إلى حال الطائفة التى يهيمن عليها سموه والتى بلغت من التأخر والانحطاط حداً كبيراً ، تلك الطائفة الاسماعيلية وآغا خان معروف للمصريين، فهو الذى قيل عنه إن الحكومة البريطانية أرادت أن تقيمه سلطاناً على مصر فى بداية الحرب فى حالة رفض المغفور له السلطان حسين كامل عرش مصر، وآغا خان يقضى أغلب وقته فى أوروبا حيث تراه فى كل بلد من بلاد المصايف والمشاتى وحيث له عشرات من الجياد تجرى فى السباق فى لندن وباريس وكل مركز من مراكز الترف والظهور .

ولما كان الخطاب طويلا آثرنا أن نلخصه للقراء، وهو يحوى فضائح عدة مؤلمة بين طائفة من المسلمين، وهو يوجه خاص قد موجه إلى زعيمهم آغا خان ، وقد استهله كاتبوه بما يأتى :

يا صاحب السمو ، نحن الموقعين على هذا أعضاء طائفة (خوجا) نرفع إلى سموكم الخطاب التالى وأنتمنى أن ينال لديكم ما يستحق من العناية والاهتمام . اسمح لنا يا صاحب السمو فى مستهل خطابنا هـذا أن نقول إن السبب الوحيد الذى حملنا على أن نسلك هذا الطريق الخطر هو الحالة التعسة التى عليها إخواننا البؤساء ، ونقول إن الطريق التى نسلكها الآن خطرة لأنه حدث غير مرة أن الذين يجرءون على الاحتجاج ضد المظالم السائدة التى جرت هذه الحالة التى يرثى لها كان نصيبهم الموت من جراء عملهم هذا ، ومع أن الخطة التى نسلكها هى فى نظر العقلاء الخطة المثلى والطريقة الدستورية المشروعة للاعراب عن مظالم يراد صلاحها فإنه مع ذلك لايدهشنا إذا كانت نتيجة عملنا هذا الذى نقوم به بحسن نية أن يكمن لنا الفدائيون من أتباع سموكم ويقضوا على حياتنا ، على أنه إذا حدث شيء من ذلك فإنه يحتمل أن يثور الرأى العام ويقوم ولاة الأمور بتحريات فى الأمر نرجو أن تنتهى عاجلا أو آجلا باتخاذ تدابير تضع حداً لحالة يكاد يتعذر تصديقها فى هذا العصر عصر المدنية والعرفان ، نعم ندرك حق الإدراك ما لسموكم من المكانة الرفيعة والمقام السامى فى العالم . غير أننا نجد ما يشجعنا على توجيه هذا الخطاب إلى سموكم عالمين أننا نعبر عن شعور عدد كبير من أنصاركم لايجد معظمهم من أنفسهم الشجاعة على الإعراب عنه للسبب الذى ذكرناه آنفاً .

وقبل أن نشرع فى تنفيذ نيتنا وهى وصف الحالة التعسة المتأخرة التى عليها نحن أنصار سموكم نود أن نشير فى البداية إلى العلاقة التى تربط أسرة سموكم بطائفة (خوجا) وهذه العلاقة هى ما يقال من أن أسرة سموك من سلالة الإمام على ومن سلالة الحشاشين فى جبل الموت ورئيسهم حسن بن الصباح المعروف باسم شيخ الجبل وأنصار سموكم هم احياً طائفة من الطوائف الإسلامية ولكن المبادىء التى تسربت إليهم اليوم انتهكت حرمة المذاهب الإسلامية الجوهرية وقد جاء هذا من الاختلاط القديم بالطوائف التى أشرنا إليها لأن المعروف أن شيوخ الجبل يعترفون جهاراً بأنهم من أدق المحافظين على المبادىء الإسلامية ولكنهم فى الواقع ألد أعدائها فى الباطن ، ومن البديهى أن الدين الإسلامى يقضى على معتنقيه أن يعتقدوا بإله واحد ويؤدون ما فرض عليهم من صوم وصلاة وحج . فكيف يستطيع أنصار سموكم أن يعملوا بالوصية الأولى الهامة فى حين أن مرسليكم

الذين

الذين يتقاضون أجرهم من خزانتكم والذين يحملون بإرشاداتكم ينادون في كل جمعية (دار العبادة) في الناس بأن سموكم الإله القدير الذي يجب أن تقدم إليه وحده كل عبادة وصلاة .

والواقع أن ما ينادي به وعاظكم يعمل به أنصاركم فيقدمون صلواتهم إلى شخص سموكم بصفتكم الإله الأعلى . أما فيما يتعلق بالقرآن الكريم فإن سموكم لايستطيع أن ينكر بأن الشهود الذين تقدموا في قضية (مجي بيبي) وهم من أنصاركم جاهروا بأن لا شأن لهم بالقرآن وفوق ذلك فقد نصحتم سموكم أنصاركم باتباع تعاليم (بير سدرودين) وهي تعاليم تشير بصريح العبارة لأنصاركم أن القرآن لم يوضع لهم ، وهناك أيضاً الفرمان الذي وجهتموه إلى أنصاركم منذ بضع سنين ، وفحواه أن القرآن الحالي ليس صحيحاً .

وزكاة الإسلام التي هي هبة اختيارية قدرها ٢ ونصف في المئة من الدخل تعطى حسب أوامر القرآن صدقة للفقراء والمعوزين وأبناء السبيل وغيرهم ، ولكن إخواننا الفقراء يرغمون على أن يعطوا نصف دخلهم لله في شخص سموكم وهذه الجبايات تدفع نقداً وعينا ويدفع أهل كراتشي وحدهم (٢٠٫٠٠٠ روبية) ناهيك بالبلدان الأخرى التي تدفع مثل هذا المبلغ ، وهذا معناه أن الجزء الأكبر من الأموال التي حصل عليها أنصاركم بعرق جبينهم تدفع بانتظام لسد نفقات سموكم الشخصية . ويضاف إلى هذه الإعانات المنظمة ما تستولون عليه سموكم في كل زيارة من الأموال والحلي وغيرها من الهبات الثمينة وقد تكرمتم في سنة ١٩٢٠ فزرتم أنصاركم في كراتشي وحملتم معكم خمسة عشر (لكا) من الروبيات بعد إقامة لم تستغرق (٢٦) يوماً ولما عدتم سموكم إلى كراتشي بعد ذلك بعامين لمقابلة ولي عهد انجلترا دفع إخواننا لكم مالايقل عن ١٥٤٫٠٠٠ روبية مع أن سموكم لم تمكثوا معهم أكثر من ساعتين ، ولا نخال سموكم تجهلون أن العالم اليوم يعتمد على المال فإذا كانت الأموال تبتز من طائفتكم بهذه الحالة فكيف تنتظرون منها ان تثبت في وجه منافسات الطوائف الأخرى أو كيف تستطيع السير مع ما يقتضيه الزمن من الرقي والتقدم .

أما فيما يتعلق بفرضي الصوم والحج فلسنا في حاجة إلى القول بأن أنصاركم لايقومون بهاتين الفريضتين وإنا إزاء الابتزاز المستمر ونضوب الموارد الاقتصادية للطائفة نود أن نسأل سموكم عن التدابير التي اتخذتموها لإعلاء شأن الطائفة ورقيها ، وهل لكم أن تخبرونا عن المبالغ التي تنفقونها في سبيل التعليم وإعانة الفقراء ، وهي المبالغ التي ابتزت من أفراد الطائفة ؟ وهل لكم أن تدلونا على قرية واحدة أو مكان شيدتم فيه جامعة أو مدرسة عالية أو مستشفى أو ملجأ لإعلاء شأن طائفتكم وترقية شؤونها الفكرية والجسدية والروحية ؟ وهل يجد أبناء أنصاركم الذين يرغبون في ترقية مداركهم من سموكم ما يساعدهم على الالتحاق بأي معهد علمي في العالم . أما المدارس الوحيدة التي توجد هنا فلا تخرج عن مدارس ابتدائية تقوم الطائفة نفسها بسد نفقاتها وفي هذه المدارس لايتلقى الأطفال التعساء من التعاليم إلا ذلك المذهب المروع الذي يعلمهم أن سموكم هو الإله القدير الذي يجب أن تقدم إليه كل عبادة وقربان ، إنكم تطلقون على أنصاركم وتدعونهم باسم أولادكم ولكن هل خطر ببالكم أن تقوموا بواجبكم الأبوي بما يكفل لهم حاجاتهم في الحياة ؟ ألم يؤنبكم ضميركم وأنتم ترفلون في حلل السعادة والهناء في أوروبا فسألتم أنفسكم عما إذا كان أطفالكم الذين خلفتموهم وراءكم في بلادكم لديهم ما يسد الرمق ؟ وهل تحولت أفكاركم وأنتم تعيشون عاما بعد عام في قصور شامخة بالبلدان الأجنبية فذكرتم أولادكم وقدمتم إليهم ما هم في حاجة إليه من مأوى ؟ ألم يخطر ببالكم وأنتم تبعثرون الملايين من الجنيهات في ميادين السباق بالبلدان الأجنبية وتنفقون عن سعة لصيانة الجياد وتكاليفها إن الأموال التي تبعثرونها ذات اليمين وذات الشمال هي من دماء أولادكم وأنها السبب فيما هم فيه من الفقر المدقع والشقاء .

لقد ساعدكم الحظ وحصلتم من العلوم والمعارف على قسط يساعدكم على معاشرة أرقى الهيئات ولكن أليس من نكبات الدهر أنكم تستخدمون هذه الميزات نفسها بمهارة وحذق لحرمان أولادكم من العلم لكى تجعلوهم دائما يتخبطون فى دياجير الجهل ، إنا نناشد سموكم أن تبرّروا دعواكم بأنكم الرئيس الروحى لألوف من أتباعكم بعمل ما يخفف عنهم عبء الجهل ويرفعهم إلى مستوى أعلى ، ولما كنتم الرئيس الروحى لطائفتنا ، ولما كنتم تدعون أنكم من سلالة النبى نفسه فهل لنا أن نسألكم عما تصنعونه لإعلاء شأن الإسلام فى أوروبا حيث تقضون معظم حياتكم هناك ، وهل لنا أن نعرف هل تلقون محاضرات عما فى الاسلام من مبادئ سامية ، وهل تبرّرون مركزكم الذى تشغلونه بما تقدّمونه من المثل الأعلى فى حياتكم ؟ وإذا كنتم لا تعملون شيئا من ذلك فهل لنا أن نسألكم عن الغاية من إقامتكم الدائمة فى أوروبا بعيدا عن أنصاركم ، وهل السبب الوحيد فى ذلك ولوعكم بميادين السباق وما فى أوروبا من ملاهى ومسرات .

مع أن سموكم لم تؤسسوا معهدا علميا أو طبيا لتثقيف عقول الطائفة إلا أنكم قطعتم خطوة واحدة لتتخذوها دليلا على اهتمامكم الشخصى بشؤونها فأسستم مجلسا غايته الظاهرة إدارة شؤون طائفتكم ولكن الواقفين على بواطن الأمور لا يسعهم إلا القول بأن الغاية الحقيقية من هذه المجالس إنما هى القبض بيد من حديد على زمام الطائفة ، ولا أدلّ على ذلك من أنه لا يجوز لهذه المجالس أن تدخل تعديلا إلا بموافقة سموكم كما أن لكم السلطة الوحيدة فى تعيين وإقالة أعضاء هذه المجالس الذين لا يسعهم فى هذه الحالة إلا أن يكونوا معبرين عن رأى سيدهم طائعين له طاعة عمياء ، وبعد أن أشار الموقعون على الخطاب إلى الأوامر القاسية والقوانين المجحفة التى يخضعون لها ومنها حرمانهم من أن تكون لهم علاقة بالمنشقين على الطائفة سواء فى أفراحهم وأحزانهم قالوا إن الغرض من هذه المجالس والقوانين هو حمل الطائفة على الاعتقاد بألوهية سموكم وبذل كل مجهود للقبض على زمام الطائفة روحيا وجسديا والمحافظة على الأموال الطائلة التى تحصلون سموكم عليها بهذه الطريقة .

وفى الختام نلتمس من سموكم بإلحاح أن تأمروا بإدخال التغييرات التالية إذا لم تكن لديكم رغبة أو سلطة للقيام بعمل صريح يعود بالنفع على طائفتكم :

(١) أن تتنازلوا وتتخلوا من جميع الألقاب المقدّسة التى تطلق عليكم ، وهى فى الواقع من حق الله القدير وحده .

(٢) أن تغيروا (الجمية خانات) إلى المساجد التى تصح فيها وحدها إقامة الصلاة .

(٣) أن تضعوا الوسائل اللازمة لكى يتلقى جميع أنصار سموكم التعاليم الإسلامية .

(٤) أن تمنعوا منعا باتا وترفضوا جميع الهبات سواء كانت نقدا أو عينا .

(٥) أن تتكرموا بإلغاء المجالس والقوانين إلغاء تاما ، ونلفت نظر سموكم بكل احترام إلى أن هذه الأمور من حقّ الطائفة التى لها وحدها حق حكمها بنفسها وإدارة شؤونها ، فإذا تفضلتم سموكم فقبلتم طلباتنا هذه فاننا نكون مغتبطين أشدّ اغتباط ، وتقبل يا صاحب السمو فائق احترامات خدّامكم المخلصين اه .

جوهرة فى أديان القدماء

ولما كتبت هذا المقال حضر صديقى العالم الذى اعتاد أن يحدّثنى فى مواضيع هذا الكتاب ، قال : أنا أعجب لأمم الإسلام كيف يظهر فيها أمثال هذا وكيف يزعم قوم منهم أن الإنسان إله ؟ فقلت إن

هذا

هـذا فرع امتدّ من ديانات القدماء، ودخل فى دين الإسلام، وقد حلّ بالإسلام ودخل فيه ما حلّ بالديانات السابقة ولـكن الإسلام لمتانته وقوّته قد فصل تلك الضلالات ما يفعله البحر بما يرمى فيه من جيف الحيوانات، فقال هذا جمال ونحن يعوزنا التفصيل بالدليل من التاريخ، فقلت: قد بحث العلماء فى عصرنا عن أصل كل دين من أديان القدماء كالبراهمة فى الهند وأتباع الديانة الهرمسية فى مصر والوثنية فى اليونان وهكذا النصرانية عند نشأتها. فهذه الديانات كلها بعد البحث عنها والتنقيب فى آثارها وجد أن لـكل منها وجهين: وجه ظاهر وهو الرموز والطقوس، ووجه باطن وهو المعبود الحقّ، خذ مثلا كتاب [الفيدا] وهو المركب من أربعة أسفار المـكتوب باللغة الفيدية وهو السفر المقدّس عند الهنود وهو أقدم من كتب البراهمة فهو يقول إن الله واحد ويسمونه زيوس (الجوهر النقى غير المـكشوف) وهذا فى ديننا بمعنى (القدّوس الباطن) ويصفونه بأنه القيوم بذاته الموجود فى جميع الـكائنات وكل كائن يستمدّ منه، وقد ذكرت فى غير هذا المكان شرح الفيلسوف المسمى (مانو) الهندى لهذه الآية فقال (الـكائن بنفسه الذى لا يمكن أن تصيبه الحواس المادّية بل الروح فقط وهو المنزّه عن الأجزاء المنظورة أزلىّ سرمدىّ روح الـكائنات الذى لا يمكن العقل أن يدركه على ما هو عليه) ولا زال هذا الدين على بساطته وسهولته كالإسلام فى العصور الأولى حتى نشأ البراهمة والـكهنة وتألفت مراتبهم وخصوا أنفسهم بالاطلاع على الحقائق العلمية ودراسة العلوم الطبيعية والرياضيات ومرتاضى النفوس بحيث يفعلون العجائب والغرائب أمام شعوبهم فوجدوا أنهم بذلك أعلى وأسمى من تابعيهم فانتهزوا الفرص ليطمسوا الأبصار بطمس الحقائق حتى يقدّسهم الشعب فأخذوا يأمرونهم بذبح الحيوان وانتقلت منهم هذه الحالة إلى المصريين والعبرانيين.

وكان النساك قبل ظهور أولئك البراهمة والـكهان ينقطعون إلى النسك والعبادة ويفسرون لتلاميذهم غوامض أسفار (الفيدا) ومافيها من التعليم السرى ويدرسـون لهم قوى الطبيعة الغامضة التى تظهر اليوم بعض أسرارها على أيدى بعض نساك من الهند ومن على شاكلتهم ممن سأتكلم عنهم فى سورة الإسراء عند مسألة الروح.

إنّ هذه العلوم التى كشفها القوم كانت فى أقدم العصور بابا من أبواب السعادة ورقىّ النوع الإنسانى ودام الأمر على ذلك قرونا وقرونا، ولـكنّ الخلف لم يكونوا كالسلف فان البراهمة الذين جاءوا أخيرا بعد الأولين جعلوا هذه القوى التى كسبوها ذريعة لاستعباد العامة واستخدامهم فى شهواتهم فانحط الشعب الهندى، إن هؤلاء جعلوا ما كان سلما للرقىّ الإنسانى سببا لعلوهم هم وانحطاط شعوبهم وذلهم واستعبادهم، وقد ابتدع هؤلاء البراهمة (التثليث) ولقد ثبت كما قدمنا أن دينهم القديم لبث أحقابا وأحقابا وهو دين توحيد لاشرك فيه، ولما طال عليهم الأمد قالوا إن هـذا العالم الذى نعيش فيه مركب من « ثلاثة جواهر »: جوهر نراه وهو المادة، وجوهران لانراهما وهما العقل والنفس، وهـذه الثلاثة حاصلة فى الإنسان، فله جسم وعقل ونفس، فالعقل به التدبير والنفس بها الحياة وهـذه الثلاثة واحد، فههنا تثليث وتوحيد، ويجعل بعضهم بدل النفس الجسم الأثيرى اللطيف لأن النفس تدبره فهـذا الجسم الظاهرى له نظير لطيف يبقى بعد الموت وما الـكون كله إلا روح دائمة الرقى، وما الحياة إلا عبارة عن ترقى ذلك الروح، وما المادة إلا رمز تلك الروح وصورتها المتقلبة، وما الإنسان إلا عالم صغير أشبه العالم الـكبير فهو يترقى ويرجع إلى الله الذى هو الموجد لهذه الـكائنات.

ولما أخذوا يبحثون فى الله قالوا إن ديانتنا البرهمية مؤسسة على التثليث أى تثليث (برهم) أى الجوهر الأزلى المنزه عن المادة الذى منه صـدرت الأقانيم الثلاثة وهى: (براهما) و (فيشنو) و (سيفا) فهذه

صفات برهم الثلاثة فبراهما (الخالق) وفيشنو (الحفيظ) وسيفا (التحول والتغير) ، هذه هى الصفات الثلاث لبرهم فهو خالق وهو حافظ لخلقه وهو محوّل هذه الخلائق من حال إلى حال وهو فى ذلك دائما يخلق ويحفظ ماخلق إلى أجل ثم يحوّل تلك المخلوقات على سنن دائم فهو ذو أقانيم (صفات ثلاث) وهو واحد فهو ثلاثة من وجه واحد من وجه، كما أن هذا العالم ثلاثة من وجه واحد من وجه .

وهكذا الإنسان الذى روحه شعاع من الله عندهم ثلاثة من وجه واحد من وجه ، وهذا الإنسان يسير فى العوالم المحسوسة والعوالم الغيبية أجيالا وأجيالا ثم يرجع إلى ربه ، ثم توسعوا فى ذلك فجعلوا الشعب الهندى ثلاث طبقات ووحدوا الله سرّا وأظهروا التثليث للأمة وأتوا بطقوس مادية وأحاديث وهمية وحكايات خرافية وسلبوا الشعب قواه العقلية فانحط أيما انحطاط ، هنالك ظهر (خريستا) أو (خريستوس) ٤٨٠٠ ق م ومعناهما المسيح ، وقد تقدمت تعاليمه فى سورة آل عمران، ومن قوله : « إذا انحلّ الجسم بالموت، فان كانت الحكمة متغلبة على النفس تطير إلى تلك الأقطار السماوية التى يعاين فيها الأتقياء الله ويدركونه وإن كان الهوى متملكا بعدلها يدخلها الله فى عوالم تناسبها وتلاقى جزاءها فى أسفل سافلين » .

والسرّ الأعظم عنده أن من رام بلوغ الكمال فعليه أن يكتسب علم الوحدة التى هى أجلّ من الحكمة فيتعالى إلى الوجود الأسمى الذى هو فوق النفس والفهم وهو مع كل نفس ، إن فى باطنك نورا إلهيا ولكن قلّ من يكشف هذا النور فى قلبه فطوبى لمن يضحى شهواته للوجود الأزلى الذى نشأت منه مصادر الأشياء كلها وبه كان العالم فهذا المضحى يجد فى ذاته سعادته وفرحه ، إن النفس التى وجدت الله تعتق من الموت والشيخوخة والألم وتشرب من ماء الخلود اه

وقال فى الأخلاق : [ليعلن الصديق أن مايجب تفضيله على كل شىء احترام النفس وحب القريب فلاغيبة ولا خداع ولانميمة ، ولتكن يمينه أبدا مبسوطة للمعوزين ولا يفتخرن قط بحسناته وليحذرن حياته كلها من إيذاء أحد بوجه من الوجوه فان من حماية القريب وإسعافه تنشأ الفضائل التى هى أكثر قبولا عند الرب جلّ وعلا اه] .

هذه هى تعاليم (خريستا) المجدّد لدينهم ، ولما تقادم العهد على هذا الدين ألحقوا به أيضا أحاديث مضحكة خرافية ورتبوا طقوسا مرسحية لأجل أن يبقى الشعب على الجهالة وملئوا البلاد بالأصنام وأحاطوها بالخرافات ليبقى الكاهن السلطة على القلوب .

ثم بعد ذلك بنحو أربعة آلاف سنة ظهر (بوذا ساكيامونى سودودانا) ابن ملك كابيلا فاستو فرأى ما أحدثه البراهمة والكهنة من التغيير فى المبادىء كما حصل قبل ظهور (خريستو) إذ اتفق الكهنة مع الأشراف على التسلط وهضم حقوق الضعفاء فكرهت نفسه العظمة الدنيوية وسئمت ملاذ الحياة فغادر بلاط أبيه وتوغل فى الغابات الكثيفة وبعد سنين كثيرة رجع وله من العمر ٣٥ سنة وأخذ يعظ كما وعظ كريستا فأيد كتاب (الفيدا) وأخذ يزعزع دين البراهمة ويرفع الحواجز القائمة بين طبقات الأمة ، وقد امتدت هذه الديانة فى الصين واليابان فضلا عن الهند ويدين لها الآن ثلث النوع الإنسانى ، ثم إن هذه البوذية لحقها ما لحق الفيدا أوّلا ودين خريستا ثانيا من عموم الأوهام والأحاديث الخرافية فتوارت تعاليم بوذا وقامت مقامها القرابين والأعمال الصبيانية حتى إن بعض كهنة البوذيين اخترعوا آلة تنشر من نفسها فى أوقات معينة تسبيحات الصلاة على حسب طلب المؤمن بشرط أن يدفع قدرا من المال ، ولقد بعدت البوذية اليوم عن مؤسسها بوذا كما بعدت المسيحية عن مؤسسها الناصرى ، وأخذت عبادة الأصنام تنتشر فى طول البلاد

وعرضها حتى إنك لترى الهند والصين واليابان كلها ملأى بالأصنام ، وفى هذه الأدوار الثلاثة كان رؤساء الدين فى كل العصور يعرفون وحدة الله ويكتمونها ، قال (كولوكا) الهندى وهو من أشهر مفسرى أسفار (الفيدا) وهو ذو مقام عظيم سام جداً عند الشعب الهندى مانصه :

[إن المؤمنين القدماء مع أنهم جعلوا قوى الطبيعة آلهة متعددة لم يكونوا يعتقدون إلا إلها واحدا مبدع الكائنات أزليا غير هيولى حاضرا فى كل مكان منزّها عن كل كدر وهمّ وهو الحق بالذات ومنبع كل عدل وحكمة المدبر لكل شئ والمرتب نظام العالم لاشكل له ولا صورة ولا حد ولانسبة] اه

دين النصرانية

وأما دين النصرانية فانه قد تقدم فى ثنايا هذا التفسير كثل ماس فى سورة البقرة وآل عمران وأواخر المائدة وغيرها وقد أخذوا أقانيم الهند الثلاثة وشوّهوها وقالوا ثلاثة وواحد حذو القذة بالقذة .

دين الإسلام

هناك حدث فى الانسانية أمر جديد . اعلم أيها الذكى أن الله يعلم ضعف الإنسانية وأنه كما نزل دين حرّفه الناس فى الأرض على مقتضى جبلاتهم ، وما مثل الديانات إلا كماء المطر ينزل من السماء فيختلط بنبات الأرض ويصبح فى الحنظل حنظلا وفى النخل تمرا وفى البرّ برا وهكذا ، ذلك أن أرضنا التى نسكنها ليست من أعلى العوالم بل يظهر أنها من عوالم متأخرة ، انظر إلى ماتقدم فى سورة الرعد مما ورد فى الحديث : « إن الله خلق شجرة يسير فى ظلها الراكب مائة عام » وهذه يراد بها فتح باب البحث فى العوالم المحيطة بنا ، فقد أظهر الكشف الحديث أن أرضنا وشمسنا بالنسبة للكواكب التى نراها لا شئ ، اقرأ ماتقدم فى سورة آل عمران وغيرها من أن القوم كشفوا عوالم يصح أن تخلق فيها أمثال هذه الشجرة وما هو أعظم منها .

ولما كان نور الله يشمل العوالم كلها نزل منه شعاع إلى الأرض وهو العلم والدين فأخذ الناس ينزلون الحقائق على مقتضى نقصهم فى الأرض ، هنالك جاء الإسلام فحلّ قيود الوثنية وهو الذى عدّل التعاليم المسيحية وبسببه انحلت الروابط والعوائق التى حبست عقول الأوروبيين كما تقدم فى سورة التوبة فانك تجد هناك ما فعله الباباوات ورؤساء الدين من قتل النفوس وحرق الأبرياء وظلم الملوك والسوقة فظهر أولئك الكتاب مثل (روسو) و (فولتير) وقبلهما (لوثر) فزعزعوا صروح الأكاذيب فى السياسة وفى الدين وتناقص بالتدريج بيع الغفران والتسلط على العقول ، كل هذا بدين الإسلام كما هو منقول هناك عن نفس النصارى الذين أسلموا .

أمم الإسلام المتأخرة

اعلم أن الأمم الإسلامية المتأخرة اعتراها ما اعترى الأمم قبلها حذو القذة بالقذة ولكن بأشكال أخرى ، فهذا الدين الذى دفع المسلمين إلى الانتشار فى الأرض شرقا وغربا فى قرنين اثنين وحوز علوم الأمم فى قرنين أيضا أخذت البدع والخرافات تنتشر بين أهله حتى انحطوا كما انحطت النصرانية قبلهم والبوذية من قبل الطائفتين ؛ ولقد دخل الاعتقاد بألوهية أفراد من النوع الإنسانى كما حصل زمن سيدنا على كرّم الله وجهه ، إذ أعلن جماعة أنهم يعبدونه إلها فقام هو بحاربهم وأخذت هذه الفكرة بعد انقراضهم تظهر حينا بعد حين ومن قرأ كتاب (الملل والنحل) للشهرستانى يعجب كيف يكون فى أمتنا من الخرافات والمسائل الحقيرة السافلة التى ترمى إلى التسلط على عقول المسلمين ما يضارع ما فعله النصارى والبوذيون قبلهم وكذلك كتاب [الفرق بين الفرق] وإذا تركنا أصحاب تلك الفرق جانبا وأخذنا فى دراسة أهل السنة والشيعة المعتدلين

رأينا أمورا محزنة ، إننا وإن لم نعبد الأصنام التي تقيد العقل وتوقف الذهن قد وقفت عقولنا على بعض القشور الدينية وتركنا الحقائق وجوهر العلوم والدين فرجعنا القهقرى وأخذت الأمم حولنا تحقرنا فلحقنا بأمة الهند القديمة ، إذن نحن المسلمين جئنا إلى الأرض وبسبب تعاليمنا أعتقت أوروبا واليابان وأمريكا لأنهم تخلصوا من تعالىم رؤساء دينهم وأصبحوا أحرارا يسعدون في الدنيا بنعم ربهم ، أما نحن الذين انتشر على يدنا عتق الأمم من الذل فاننا وضعنا أغلالهم القديمة في أعناقنا ، فهم بعلمنا أعتقوا ونحن بجهلهم تمسكنا فكان ذلنا وأصبحنا في سجن وفي عذاب الهون . فلما سمع ذلك صاحبي قال هذا حسن ولكن هل هذه الآراء يعرفها علماء أوروبا مثلنا . قلت ألم أقل لك إن هذا منقول عنهم وإن شئت فارجع إلى ما تقدم في سورة التوبة ، قال : قد تقدم أنك قلت إن الروح شعاع من الله وهل أنت توافق على هذا ؟ فقلت أما أنا فاني لا أوافق على هذه الكلمة للوهمة وأن الذي أعتقده اعتقادا حقا أن الروح أمر إلى الآن لم يعرفه أحد ، ومن عجب أن علماء الأرواح قالوا هذا القول بعينه، فعلم الأرواح للنتشر الآن يقول كما جاء في نص القرآن : أن أمر الروح مجهول ، أما كونها شعاعا من الله فهو فيه معنى الوثنية لأن الله لا يرى ولا شعاع له ينظر لنا ، لأنه لا يرى ألبتة إلا إذا أصبحنا في عوالم أخرى كما تقدم في سورة الأنفال في أوائلها ، قال أنت نقلت عنهم أن العالم عندهم مركب من (ثلاث : مادة ونفس وروح) ، فما معنى هذا ، قلت لا أحب الإطالة في ذلك ولكن القوم رأوا أن الإنسان أشبه بالعالم الكبير ، فكما أن الإنسان مركب من جسم ونفس وعقل ، هكذا هذا العالم وهذا جاء عندهم بقياس التمثيل .

وإذا كان هذا ليس راجعا إلا للعالم فهو أمر علمي يحتاج للبحث، فأما الأقانيم الثلاثة التي ترجع لخالق العالم التي قالها الهنود وتبعهم المسيحيون فان الاسلام أول من هدمها وهكذا علم الأرواح قد سخر منها وانظر هذا المقال في سورة التوبة في مشاهدات (عمانوئيل) إذ قال إن المسيحيين حين يموتون يبحثون عن الآلهة الثلاثة فلا يجدون غير واحد ، فانظر كيف ذكر هناك أن المسيحيين مخطئون معذبون وهو من خواصهم فقال لقد جاء في هذه الآيات من آخر سورة إبراهيم ست مسائل :

(١) إضلال الأصنام .

(٢) وإقامة الصلاة .

(٣) وقوله « مهطعين مقنعي رؤوسهم لا يرتد إليهم طرفهم » .

(٤) « وأفئدتهم هواء » .

(٥) وكون « المجرمين يومئذ مقرنين في الأصفاد » .

(٦) وكون « سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار » فأرجو إيضاح هذا المقام .

فقلت: أما إضلال الأصنام فقد شرحته الآن في هذا المقام، فقال نعم حسبي، فقلت وأما إقامة الصلاة فاعلم أن الصلاة تمام لذكر الله، ولاجرم أن الله عز وجل هو المدبر العالم الذي «ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم» وكل شيء يسبح بحمده فعبادة الأصنام تحبس النفس على شيء خاص، أما الصلاة فلخصها أن الإنسان يحمد رب العوالم كلها ويطلب منه الهداية، ومن قرأ هذا التفسير أدرك أن الصلاة كتاب يقرأ كل وقت ليذكر الناس بالعبادة العامة وذكر الله عند كل حجر وشجر وهذا قوله تعالى « فأينما تولوا فثم وجه الله » فالمسلمون بعدنا سيعلمون أن القبلة (قبلتان) قبلة الصلاة لعموم المسلمين لتحفظ وحدتهم وتذكرهم بربهم وهي الكعبة ، والقبلة الثانية هي هذا الوجود كله فيتفكر المسلم بقلبه في جمال الزهر والنجم والشجر والبحر والجبل . وسيعلم المسلمون أنهم إذا صلوا وانتشروا في الأرض إنما يبتغون من فضل الله معاشهم وعلومهم في هذه العوالم المشاهدة،

فهؤلاء

فهؤلاء هم الذين على صلاتهم دائمون ؛ إن من قرأ هذا التفسير يرى ويعلم حق العلم أن المؤمن كل المؤمن من يأخذ لبه هذا الوجود ويعرف الحكم العجيبة فهذا لا تلهيه تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، وكيف يلهيه ذلك وهو أينما توجه فانه يرى بهجة وجمالا فى البر والبحر والشجر والحجر والمدر تذكره بربه وهذا هو القرب ، وأى سعادة أرفع من هذه ، يكون المسلم فى حقله ويجد فى الشجر جمال ربه ، ومستحيل أن يكون هذا إلا بالعلوم كما بيناه آنفا .

إن المسلم فى الأعصر التى بعدنا إذا قرأ قصة سيدنا موسى وأنه سار بأهله فى جهة طور سيناء وقد فارق شعيبا وأخذ زوجته معه وآنس نارا « فقال لأهله امكثوا إنى آنست نارا » إلخ

سيجد المسلم بعدنا أن هذه القصة أنزلت لتعليمنا ، يقول الله لنا إن موسى كان عند شعيب ولكنه لما سافر أخذ يتجه بقلبه إلى مطلوبه ولم يمنعه الاهتمام بزوجته إذ جاء لها المخاض من أن يكون قلبه متعلقا بالوجهة الإلهية فرأى النار تشتعل فى شجرة العليق ونودى يا موسى «إنى أنا ربك» فهو يريد قبسا من النار ليدفئ زوجته المسكينة الفريدة ، وقلبه يريد نورا إلهيا فرأى النور الإلهى ، هكذا يكون المسلم بعدنا يدرس الوجود كله من علم الطبيعة والفلك ، فهذا كله للأمور الدنيوية وهو نفسه لمعرفة الله تعالى بل للأنس به بل السعادة والبهجة والحبور ، أضاء النور فى شجرة العليق أمام موسى عليه السلام ، وهكذا نور العلم والمعرفة يشرق فى كل شجر وكوكب وحجر وبحر وبر ، هذا هو الذى سيفهمه المسلمون بعدنا فتكون العلوم كلها للدنيا والأخرى ، فالله تجلى فيها ، والحياة الدنيا بها .

إذن يصطاد المسلمون طيرين بحجر واحد وهذا قوله تعالى « وآتيناه أجره فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين » فهذا هو العمل المزدوج الذى جمع الدنيا والدين معا ، وقد تكفل به القرآن وظهر فى أمثال هذا التفسير ، وأما كونهم « مهطعين مقنعى رءوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء » فهذا نظير ما كانوا عليه فى الدنيا فان أكثر الناس فى الدنيا تأسرهم المادة ويستحوذ عليهم الغم والهم والحزن على ما فاتهم أو الفخر بما آتاهم ، فأما أجسامهم ففى نصب وتعب ، وأما عقولهم فهى خاوية من العلم والحياة الجميلة ، وهذا شأن كثير من نوع الإنسان إن مسه الشر جزع ، وإن مسه الخير منع ، فالطائفتان فى ذل وهوان من جزع وحرص ، وأما كون المجرمين مقرنين فى الأصفاد فهذا أيضا ما كان حاصلا لهم فى الدنيا فان أكثر الناس مصفدون الآن فى شهواتهم وعداواتهم وجشعهم وحرصهم وطمعهم قد ملك عليهم سمعهم وأبصارهم تراه قد غابت عنك جميع قواه العقلية لشهوة غلبت أو لطمع أو لحقد أو نحوها ، فهذه أصفاد أشد ألف مرة من الأصفاد المحسوسة .

إن الناس مصفدون وهم لا يعلمون ولا يشعرون ، ومن أكثر مصائب هذا الإنسان أنه مسجون ولا يعلم أنه مسجون ، محقور ولا يعلم أنه محقور ، ذلك بسبب الجهل العام لجاءت الديانات ففشت فيها الخرافات والأوهام أيضا ، وأما كون « سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار » فهذا أشتق مما هو حاصل فى الدنيا كسوابقه لأن اشتعال نار العداوات وقطران الغموم لأجل الحسد والحقد وما شاكلهما والأطماع التى لا سبب لها إلا الجهل هو نفسه الذى ينقلب نارا تلظى فى القلوب والأجسام والوجوه .

إذا عرفت هذا فهمت قوله تعالى بعد ذلك كله « ليجزى الله كل نفس ما كسبت » هذا هو المعنى بحسب عقولنا ، نحن فى الأرض فلم تكن السرابيل من القطران ولا النار المغشية للوجوه ولا الأصفاد ولا الأغلال إلا نفس ما كانوا عليه فى الدنيا قد انقلب بهذه الصورة فهم مصفدون الآن محترقون بنيران ليلا ونهارا وهم لا يشعرون ، ولقد ورد فى بعض الآثار أن المتكبرين يخلقون يوم القيامة كالذر تطؤهم الأقدام ، فالكبر

واحتقار الناس والانفراد عنهم بالقلب هو الذى انقلب فى الآخرة إلى صورة الحشرة التى لا يألفها الناس ولا تألفهم بل يدوسونها بأقدامهم ، بل جاء فى كتاب (الحسبة فى الإسلام) ما نصه :

وفى الحديث « يحشر الجبارون والمتكبرون على صور الذر يطؤهم الناس بأرجلهم » فى صفحة ٢٧٠ طبع عيسى بن يميح من أهالى نجد .

فقال صاحبى ماذا تقول فى قوله تعالى « يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها » ، قلت له إن الناس فى الدنيا يطلبون الخير ولكن الخيز نفسه يحبسهم كمثل دودة الحرير تغزله ثم تموت فيه تريد أن تخرج فلا تقدر ، قال أوضح هذا المقام ، قلت إن هذا يوضحه جسم الإنسان الذى هو كتاب مفتوح ، قال وكيف ذلك ، قلت له (ثلاث طبقات) وهى الرأس والصندوق والبطن ، وفيها :

(١) العقل (٢) القلب (٣) البطن والفرج ، ولكل من هذه الثلاثة فضائل ورذائل قد تقدمت فى سورة آل عمران عند قوله تعالى « هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء » فللقوة العاقلة رذائل كالحمق والسفه وبقوة الغضب المسلطة على دم القلب بالغليان يحصل الغضب والهم والحقد وهكذا ، والشهوة المسلطة على البطن والفرج رذائل مثل الحرص والادخار وهكذا .

إن الإنسان يملك المال فيملكه المال إذا يطمع فى غيره ويحرص عليه فما مثله إلا كمثل السمك يود لو يدخل فى الحوض الذى بجانب البحر المعدّ لصيده حتى إذا دخله لم يقدر على التخلص منه فالإنسان يتعاطى الطعام لبقائه وشهوة الفرج ليبقى له نسل بعد موته يحمل صورته التى هى ظل لوجوده وبقوة الغضب المهيجة الدم الذى يديره القلب يدافع العدوّ الداخلى فى أمته والخارجى عنها محافظة على شخصه بالأولى وعلى أمته بالثانية وقواه العاقلة تدبر الأمور كلها الشهوية والغضبية ، فقال صاحبى إذا جعلت هذه الشهوات كلها أغلالا وأصفادا فأين أصفاد العقل وما الذى وقع فيه المسلمون منها . قلت إن أصفاد العقل أصعب مراسا وأقوى وأشدّ ، قال أوضح ما تقول وأرجو أن توجزه ، فقلت إن المسلمين أقرب إلى الفضائل وأبعد عن الرذائل وما أوقعهم فى الذل إلا أصفاد العقل وأغلاله ، ألا ترى أنهم عكفوا على قشور العلوم وتركوا مواهبهم ، فترى الشافعية والحنفية والمالكية والحنبلية والإمامية والزيدية والشيعة وجميع فرق المسلمين أصبحوا أسرى التقليد لأقوال الأئمة رضوان الله عليهم ولكنهم لا يتزحزحون عنها قيد أنملة ، فقال أتريد أن يترك الناس المذاهب ، إن هذا يناقض كل هذا التفسير ، قلت كلا ثم كلا بل أقول إن الأئمة رحمهم الله وكتب السلف والخلف بمثابة لبن الأم فإذا ترعرع الطفل وبلغ سن الفطام حتم عليه أن يأكل من نبات الأرض وحيوانها .

فما مثل المسلمين مع أئمتهم ومشايخ طرقهم إلا كمثل الأبناء مع أمهم فإنهم يرضعون لسن معلومة ، فإذا بلغ الطفل منهم سنّ الرضاع فعلى مربيته أن تمنعه الرضاعة ، فإذا قرأ المسلمون المذاهب الشائعة فى الإسلام أو قرأ تلميذ الصوفى أوراد شيخه اكتفى كل من هؤلاء بذلك ، فهؤلاء أطفال رضع وهل الأئمة حصروهم فى هذه العلوم وهل أحد منهم قال إن هذا هو كل دين الإسلام ، كلا ثم كلا ، إنما هى أحكام لأمور تقع بين الناس ولبعض الواجبات .

أما بقية الدين فهو باق بحاله كالاعتبار بتاريخ الأمم والتذكير بأيام الله وجميع العلوم الفلكية والطبيعية والأخلاقية فهذه هى الدين وهى متروكة ، ألا ترى ما ذكرته لك من أن موسى نزل عليه الوحى بعد ما فارق شعيبا ، فقال نعم أنا كنت أريد أن أسألك عن هذا ، فقلت إن هذه درس لنا كأن الله يقول لنا أيها المسلمون هذا نبيّ أيدته بالوحى ولم أنزل الوحى عليه إلا لما انفرد فى طور سيناء فليس تحت نظر شعيب .

هكذا

هكذا لا يجوز لشيوخ الطرق ولا لعلماء الدين أن يفهموا الطالب أنه دائما محتاج إليهم بل لابدّ أن يطلقوا لهم الحرية فيرتقوا ، وعلى ذلك يجب أن تؤلف كتب جديدة فى كل جيل وقبيل ، وأن تجعل الكتب القديمة لمجرّد المراجعة ، وعلى المسلمين فى أقطار الإسلام أن يكون لهم مجلس عام يتبادلون فيه الآراء ، وهذا المجلس يكون أهله مطلعين على سائر العلوم كرجال أوروبا وبيدهم شهادات عالية فهؤلاء هم الذين ينظرون فى نفس المذاهب وفى طرق الصوفية وغيرها .

هذا هو الذى به تتكسر الأغلال من أعناق المسلمين وتفك الأصفاد عنهم ويخرجون من نار الذل وعذاب الجهل ، هذا ما فتح الله به ، والحمد لله رب العالمين ، انتهى .

الجوهرة الثالثة فى قوله تعالى أيضا « واجنبنى وبنىّ أن نعبد الأصنام . رب إنهن أضللن كثيرا من الناس الخ »

يدعو إبراهيم الخليل ربه أن يجنبه عبادة الأصنام لأنها أضلت كثيرا من الناس ، فعبادة الأصنام مبغضة ، لماذا ؟ لأنها تضل كثيرا من الناس ، إذن الضلال هو الذى يجتنب وكل ماسبب الضلال فهو مبغض ، إذن دين الله يجب أن يجتنب فيه كل ما يورث الضلال ، إن الأصنام قد تقدم الكلام عليها فى قوله تعالى « فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية » فقد جاء هناك ذكر الأهرام الثلاثة بمصر لأنها بنيت مقابر وعرة المسالك ضيقة الطرق لتبقى الجثث وتكون آية للناس ، فمن آيات الله فى الأهرام أننا نلاحظ أنهم كانوا يرسمونها على الأحجار ومعها نجم الشعرى المقدس عندهم للتبرك بها ويضعون هذا وهذا مع الميت .

إن عبادة الأصنام فيها الضلال من وجهين : وجه علمى ووجه اجتماعى . أما الوجه العلمى فإن عابد الصنم يترك جمال الوجود ولايرى كمالا إلا فى معبوده وهذا حصر الفكر الذى خلق قابلا لكل كمال ؛ فأما الوجه الاجتماعى فان السدنة والقائمة بأمر الصنم وما حوله يكون التقديس راجعا إليهم محصورا فيهم كأنهم خلفاؤه وهذا يقعد بهمم الشعب عن المعالى كما اتفق لقدماء المصريين الذين كان العلم غالبا محصورا فى كهنتهم والشعب كان خاضعا وزمام الحكم بأيدى هؤلاء القادة ، فالوجه الأوّل حصر العلم والوجه الثانى حصر القيادة فى طائفة خاصة ، أما الإسلام فقد جاء لشيوع العلم ويكون القوّاد حسب الاستعداد ، ولما كان ديننا دين علم كان أول ما نزل قوله تعالى « اقرأ باسم ربك » الخ لذلك شرع صلى الله عليه وسلم يأمر بتعليم القراءة والكتابة بعد أيام الهجرة .

أيها المسلمون لم تفعلوا ما فعل نبينا صلى الله عليه وسلم ، هو أراد تعميم التعليم ولكن أنتم لم تفعلوا ، وهو أرسل رحمة للعالمين ولذلك انتقلت الفكرة إلى أوروبا فأتموا ما ابتدأه المسلمون وعمموا التعليم إجباريا .

أفليس من الضلال ترك الشعوب الإسلامية بلا تعميم تعليم .

أليس أيها المسلمون ترك تعميم التعليم ضلالا كالضلال الناتج من عبادة الأصنام ، رحماك اللهم ، ما عرف المسلمون قدر الإسلام ولاقدر القرآن .

أيها المسلمون ، أيها الإمامية ، أيها الزيدية ، أيها الشيعة ، أيها السنيون ، إنى أقرأ عليكم قوله تعالى « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون . ولا تكونوا كالذين تفرّقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم . يوم تبيض وجوه وتسودّ وجوه فأما الذين اسودّت وجوههم » إلى قوله « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر الخ » يأمرنا أن نكون منا أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن

المنكر ثم يقول لا تكونوا كالأمم التى تفرّقت ثم يعدنا بقوله « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر » أمرنا الله بأن نتصف بهذا الكمال وأمرنا بالاحتراس من التفرّق وبشرنا أنا سنكون متصفين بهذه الصفات التى هى صفات خير الأمم .

وها أنا ذا أيها المسلمون أنظر فى أمرنا ، ها أنا ذا فى البلاد المصرية وجدت فى القرن الرابع عشر وآخر مقتبله فوجدت الأمة متفرقة وإن تقاربت ديارها ، متباعدة وإن اقترب دينها ، متشاكسة غير متجانسة وإن اتحد دينها ، ياليت شعرى أما قرأتم هذه الآيات ، أين الجماعة الآمرون بالمعروف الناهون عن المنكر فيكم ؟

أيها المسلمون ، أوليس من المؤلم لى ولكل عاقل أن هذه الأمة اختصت فى أيامنا هذه أن علماءها يجهل بعضهم بعضا وكتب الشيعة مجهولة عند أهل السنة والعكس بالعكس أمة متقاطعة ، كان للسابقين عذر فى التقاطع لأمور حاصلة فى زمانهم فأىّ عذر لنا الآن ؟ .

أيها المسلمون ، إن الزمان قد استدار واستيقظ أهل الصين واليابان شرقا واستيقظ أهل أوروبا غربا أمم ودول وممالك وأنتم بينهم ، فوالله لئن لم يقم فيكم حكماء وعلماء يجمعون شمل التعليم والتربية بينكم ليحصدنكم الله من أرضه حصدا وليذيقنكم العذاب الهون بما كنتم تجهلون .

حكاية مع العلامة (ادوارد براون) الإنجليزى

حدثنى العلامة (ادوارد براون) الإنجليزى المستشرق الشهير فى أوائل القرن العشرين المسيحى قال :

وكلت لى الحكومة الإنجليزية أمر البحث فى أمة الإسلام أيمكن اتفاقهم أم هم محكوم عليهم بالتفرّق والانحلال؟ قال فتوجهت إلى بلاد الترك والفرس أيام السلطان عبد الحميد وعاشرت طلبة الفرس وعلماءهم فرأيتهم يكرهون أهل السنة كراهة شديدة وسمعت تلميذا متصوفا يقول لقد حاربت بسيفى مع الروس ضد الترك وإنى أفضل الروسى على التركى الكافر لأنه من أهل السنة ، قال محدثى وأنا كنت موقنا أنه ما ذبح دجاجة مدة حياته لأنه جبان وإنما الذى أخذته من كلامهم جميعا أن الاتحاد بين الأمتين مستحيل وكتبت تقريرا للحكومة الانجليزية بهذا ، أما هؤلاء فان الغباوة قد ملكتهم وكيف يتذكرون حوادث مضى لها (١٣) قرنا كقتل الحسين وأمر الخلافة ويتركون الروس يتغلغلون فى بلادهم .

هذا ما قاله لى ذلك العلامة ، وها أنا ذا أنه حكم جميعا فأذكر أمرين : طرق التعليم فى بلاد الإسلام وبيان الأمة التى تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر .

(ا) ليكن التعليم فى ديار الإسلام عاما بين الرجال والنساء والغنى والفقير ، إن سبب انتشار التعليم فى العالم كله ديننا كما تقدم، فمن الغباوة والجبن أن ينعم به غيرنا ونعرى منه نحن.

(ب) ليكن مبدأ التعليم مماثلا لسير القرآن ، ومعنى هذا أن الرسول صلى الله عليه وسلم ابتدأ الدعوة بالسور المكية (١٣) سنة وكلها حث على النظر فى الشمس والقمر والشجر والنهر والسحاب والمطر والجبل والحجر والحيوان وهكذا ، كان الصحابة رضوان الله عليهم حين يسمعون هذا النوع من العلم ينظرون هذه المخلوقات بأنفسهم لأنهم أقرب إلى الخلاء والجبال فى أسفارهم وحضرهم فلترسم أحاسن الصور الجميلة من نبات وحيوان وكوكب فى الكتب لتكون مشوّقة لهم فلا تكون قراءة بعض آى القرآن حفظا بلا عقل ولا فهم ولا هدى ولا نور . وبالجملة ليكن تعليم الناشئة شاملا لجمال الطبيعة كلها إجمالا وللأخلاق بطريق القدوة الحسنة وقراءة الآيات وفى القرآن من النوع الأوّل (٧٥٠) ومن الثانى مثله .

(ج) فى ظنى أن (٢٣) سنة كافية لتعليم المسلم كل ما يحتاج إليه ، إن النبى صلى الله عليه وسلم دعا (٢٣) سنة ، وكما كان يدعو أولا للعلوم والأخلاق وآخرا بعد الهجرة للنظام والاجتماع وحفظ الدولة ، هكذا يكون تعليم الشبان فيكون فى الصغر تشويق لهذا الجمال المحيط بنا فى الأرض وفى السماء ، وفى آخر التعليم الاختصاص بفن من الفنون لمنفعة الأمة كهندسة أو زراعة أو تجارة أو سياسة أو فقه وهكذا ، فاذا أضيف إليها (٧) سنين التى هى مدة الطفولة كان تمام التعليم فى سن (٣٠) سنة .

بهذا نكون مماثلين للأمم حولنا ، إنهم يقرءون كل العلوم التى أمر بالنظر فيها القرآن .

إن تلك العلوم أساس لديننا خلافا لما كان يقوله القدماء إنها ضد الدين ، هذا خطأ اليوم لأن الذى هو ضد الدين العلوم المشحونة بالكفريات .

أما علم الطبيعة والرياضة والفلك وما وراء الطبيعة فهى علوم القرآن فليتعلم المسلمون كما تعلم الأمم التى أخذت العلوم عنا ، فنحن أولى أن نقودهم ، لا أنهم يقودوننا .

(د) ليدرس القرآن بطريق مشوّق بحيث يعرف الطالب خلاصة السور وخلاصة القرآن كله مع السهولة ثم سيرة النبى صلى الله عليه وسلم ومجالسه وصور أحكامه وأعماله وأعمال أصحابه ثم ينظر الطالب علم الفقه نظرا عاما مع ملاحظة خلاف الأئمة كيف اختلفوا فى أهمّ المسائل ومن أىّ طرق اختلفوا ليكون ذلك نبراسا به يهتدون فى درس الحياة الدنيا التى نحن فيها .

(هـ) هنالك يتخرج فى بلاد الإسلام من الشيعة والسنية رجال متبحرون فى العلوم وفى الدنيا وهؤلاء يكونون مجتهدين .

(و) ثم لينتخب كل قطر من أقطار الإسلام جماعة وهؤلاء جميعهم يجتمعون بمكة لينظروا فى شئون الأمة كلها . فهؤلاء هم الأمة التى دل الله فيها «ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر» وهم هم الذين يمنعون التفرق بعلمهم ، وهم هم الذين تكون بهم الأمة خير أمة أخرجت للناس ، أما اليوم فاننا لسنا الأمة التى هى خير أمة أخرجت للناس ، والقرآن حقّ فلا بدّ من تحقيق مقصوده والعمل بأوامره ونواهيه .

(ز) بهذا أيها المسلمون تكونون خير أمة أخرجت للناس ، أما الآن فانكم متفرّقون متشاكسون مختلفون متباعدون ، أنتم اليوم طحين الرحى يكتنفكم من الشرق الصين واليابان ، ومن الغرب دول أوروبا إن لم تقوموا بما ذكرته لكم فأنتم أوّل مضغة يمضغها الأوروبى والأسيوى .

(ح) إن المتعلم على الشريطة التى بينتها لا يكون متعصبا لمذهبه بل يكون متعصبا لنفس الإسلام ، الإسلام اليوم أكثر أهله جامدون وبالجمود تفرّقوا وانحصر همّ كل طائفة فيما قرأته من المذاهب فأنتم إذن متفرّقون والله يقول «ولا تفرّقوا»

أيها المسلمون ، أنتم متفرّقون إذن ، أنتم مخالفون لكتاب الله ، أنتم متقاطعون .

إن أوروبا المسيحية متآلفون مع اختلافهم ، متعاضدون مع تباعدهم ، أما أنتم فالأمر بالعكس ، فالطائفة التى أشرت لها هى التى تجمعكم بعد التفرق .

نعم قام فينا الوهابية الذين يملكون الحجاز ونجدا الآن وهى وإن أزالت الخرافات فقد وجب عليها أن تنظر فى مثل مانظرناه ، ألا وهى مناظر هذه الدنيا وعجائبها .

إن الوهابية برعوا فى القسم السلبى من الاسلام ولكنهم لم يراعوا القسم الإيجابى منه : أى إنهم حصروا همهم فيما ذكره العلامة ابن تيمية ، وفاتهم أن العلم أوسع وأوسع .

« إن فى القرآن (٧٥٠) آية تحث على النظر فى علوم الأرض والسماء وهذه العلوم لا يكفى النظر بالعين لها كما لم يكتف أحد من أمم الإسلام فى أركان الإسلام الخمس بمجرد التلاوة بل ألفوا جميعا كتبا فيها ، فلماذا يؤلف المسلمون فى الفقهيات ولا يؤلفون فى عجائب الكائنات ؟ .

هذا النقص لم يترك أمة من أمم الإسلام قديمها وحديثها ، والوهابية وإن أصلحوا القسم السلبى فهم نائمون عن القسم الإيجابى ، جمدوا فى ترك الخرافات ولم يفكروا مطلقا فى معرفة جمال الله .

(ط) اللهم إنى نصحت لأمتى وبذلت جهدى فى النصيحة ولم أكن فى ذلك متكلفا وإنما أكتب بإعانتك وتسهيلك السبيل لى ، وعلى القارىء لهذا الكتاب التبعة إذا قصر فى النشر والتعليم والتربية .

إن هذا المبدأ هو الذى به ترقى أمة الإسلام ، هذه الأمة التى جعلها الله خير أمة أخرجت للناس ، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، هذه الأمة التى جاءت فكسرت الأصنام وأعطت العالم درسين : درس تعميم التعليم ودرس عدم الاستبداد بحيث يكون النوع الإنسانى كله حرا وتكون الرياسة تبع البسطة فى العلم والجسم لا بالنسب ولا بالحسب كما كان يفعل قدماء المصريين وغيرهم ، والله هو الولىّ الحميد .

(ى) فمن ذا الذى يقوم بهذا الأمر فى الإسلام ؟

إن أوّل أمة تقوم بهذا فى الإسلام ، وأوّل ملك أو رئيس جمهورية يقوم بهذا العمل هو المجدّد للإسلام وهو القائم مقام النبى صلى الله عليه وسلم وهو الفاتح الأعظم ، يا معاشر المسلمين إذا قامت فيكم أمة بهذا وسبقت غيرها وجب عليها أن تنصح إخوانها بهذا ، وإلا حاربتها على ذلك حتى تخضع .

إن الزمان قد استدار ، وإذا كان من قبلنا لا يهتمون بهذا فنحن نهتمّ به .

إن المسلمين لم يكن هناك قديما أمم تناوئهم ، أما الآن فالأمم شرقا وغربا تحيط بهم « والله من ورائهم محيط . بل هو قرآن مجيد . فى لوح محفوظ » وقال تعالى « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ، وستردّون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون » اهـ .

(ك) يا الله إنى قرأت آيتين فى القرآن كتابك . إحداهما للعموم وهى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » . وثانيتهما للمسلمين وهو قوله تعالى « إنما المؤمنون إخوة » ومثلها « ولا تنازعوا فتفشلوا » ومثلها « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرّقوا » .

وها أنا ذا ألفت كتاب (أين الإنسان) لأجل أولاهما ونشر فى الشرق والغرب ، هذا الكتاب لإصلاح نوع الإنسان كله وتعاونه كما نصحت فى كتابك ، وإنى أحمدك أن أهل أوروبا قابلوه بالقبول وكتب عنه علماؤها فى إيطاليا وفرنسا وغيرها وستراه أيها القارىء فى سورة الحجرات ملخصا بأقلام علماء أوروبا مترجما .

أما الأمم الإسلامية فهذا هو تفسير القرآن فهل من ممتثل وهل من مجيب لى ، يا أمة الإسلام أوروبا المسيحية قرأت دعوتى للاتحاد ولا يدرى ماذا يصنع الله بها ، فماذا أنتم صانعون فى دعوتى هذه إليكم للتعليم العام والنظام التام ، ولست أقول إلا ما قاله الله تعالى « فإن تولوا فقل حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم » اهـ .

الجوهرة الرابعة فى قوله تعالى « يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات »

آراء قدماء الهند فى أدوار هذا العالم

إن هذه الآيات تفتح بابا لمجال الفكر والنظر وتذكرنا بما تقوله الأمم حولنا ، إن هذه الأرض التى نعيش عليها مرت بها أمم وأجيال وعلماء ولهم آراء فى هذا الوجود ، فترى الإنسان متى فكر فى هذه

الدنيا

الدنيا يقول فى نفسه متى خلقت ؟ ومن أين خلقت ؟ وماذا يكون بعد هذا الوجود ؟ . هذا سؤال يسأله الناس ولا مجيب . أرض وسماء وأحياء وأموات ، إلى متى هذه الحال ؟ وكيف خلق العالم ؟ وبعد ذلك ماذا يكون ؟ وهل للأرض آخر ؟ وهل للكواكب نهاية ؟ وما عددها ؟ أما سؤال الأرض وهل لها آخر فقد أصبح معلوما ولكنها أيضا لا تزال لغزا فترى الناس يسارعون إلى القطبين ليدرسوهما ، وإلى البحار والجبال ليكشفوها .

إن الإنسان خلق مغرما بالعلم والحكمة لايفتأ يجد ولايقف فى السؤال عند حد ويظهر أن عقله قد صيغ من النور وخلق من الجمال فاننا لا نرى للنور آخرا ، هكذا لا نرى لعقولنا نهاية ولالبحثها غاية ، فطرة الله التى فطر الناس عليها فهى فطرة نورية ، الله لانهاية له وعقولنا تريد أن تسير إلى ما لا نهاية له ، إذن هى من نور أشرف من ذلك الجمال الأكمل والجناب الأقدس فهى تستوفز إلى كل جديد وتفرح بكل رأى سديد وعمل شريف وحكم منيف حتى إنك ترى رجال السياسة يكذبون ليكلموا الناس بما أحبته فطرهم فيقولون نحن نحب ترقية الشعوب والإنسانية وهم يعلمون أنهم كاذبون ولكن يريدون أن يسمعوا الناس النغمة التى تحبها فطرهم فهو باطل أشبه الحق .

وملخص هذا أن عقولنا لانهاية لمقاصدها فهى تريد أن تعلم كل شئ ولا تقف عند حد .

ولما كان الله هو الذى خلقنا وهو يعلم عقولنا وأنها تسأل عن الماضى والمستقبل، أجاب نداء ضمائرنا فقال مرة « كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا » وقال هنا « يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات » فاذن هو يصنع فى السموات والأرض ما يصنع بالنبات والحيوان والانسان يموت الأبوان ويبقى الأبناء كما تبدل سماء بسماء وأرض بأرض .

هذا هو الذى جاء فى القرآن وأيده الكشف الحديث كما عرفت هنا فأصبح الناس يدرسون النجوم من أنوارها وبتحليل تلك الأنوار تراها تدل على عناصر كالتى فى أرضنا . إذن هى مركبة والمركب من شئ ينحل إليه . وهكذا رأوا شموسا ابتدأت تتكون وأخرى قربت أن يتم تكوينها . هذا هو الكشف الحديث وهو دل على ما كانت عليه أرضنا وكواكبنا قبل هذا الوجود . إذن أصبح خلق العوالم فى الدهور أشبه بخلق الليل والنهار كل منهما يتبع صاحبه فلولا هذه الغريزة فينا ما بحث أحد عن هذه العجائب وسواء أكان هذا الاستنتاج من الإنسان صادقا أم مشكوكا فيه قد فعل ما يوافق طبعه على مقدار طاقته ولا يكلف بغير ذلك فى فطرته ، هذا هو القرآن ، وهذا هو العلم اليوم .

علماء الهند

ولما حامت هذه الآراء فى عقول الأجيال القديمة بحثوها وعرفوا منها مالم تبق لنا الأيام إلا قليلا منها . فانظر فيما سأقصه عليك ، ذلك أنهم أسموا للمعبود (برهما) وهو يدبر العالم مع آخر يسمى (فشنو) وآخر يسمى (سيفا) فبرهما الخالق ، وفشنو الحافظ ، وسيفا الذى يفنى ويعيد . ويظهر أن هذه الصفات كلها لواحد تعددت صفاته فهو خالق وحافظ ومعيد بعد الفناء . ثم إنهم وصفوا الخالق بوصف جعلوه أشبه بالروايات التى يقرؤها الناس لحكمها ، وهى هذه :

[برهما وجد قبل الخلائق ورفع الأرض من الماء وعمره مائة سنة وكل سنة من سنيه تكون أيامها ولياليها من أزمان طويلة بحيث يكون كل نهار وكل ليلة (٤٣٢٠) ألف ألف سنة من سنينا هذه وفى آخر كل نهار ينتهى عالم من عوالمنا ويستريح الرب ليلة ثم ينشئ عالما آخر وهكذا] .

ولست أقول لك إن هذا يناسب صفات الرب . كلا لأن ذكر الاستراحة وذكر عمره . كل ذلك تعليم

الجهال ، وإلا فالله لايتعب حتى يستريح، ولا أوّل له حتى يكون سنه مائة سنة . ولكن المهمّ أن القوم فى أثناء خيالهم الذى هو فى الحقيقة معبر عن الغريزة الإنسانية المغرمة بالوقوف على الحقائق على مقدار طاقتها أدركوا إجمالا ما فى العلم الحديث وما أشار له القرآن . إن علماء العصر الحاضر جعلوا لنفس الأرض عمراً قدره مئات آلاف آلاف فهو يناسب تعبير قدماء الهند .

هكذا جعلوا أن العالم يتكوّن ويبقى آلاف آلاف الآلاف ، وهذا يناسب ما يقوله علماء العصر الحاضر ثم تراهم يعبرون بمدّة الراحة وهى التى سموها ليلا عن مدّة بقاء العوالم فى عالم الأثير بعد الخراب حتى تتكوّن ثانيا وتستحق أن تدور وتجرى فهى أزمان متطاولة كأزمان دوراتها فانظر إذا كان فى خيالهم أن سيرها مضت له مائة سنة والسنة الواحدة مركبة من ٣٦٥ يوماً واليوم الواحد مئات آلاف آلاف من سنينا يعيش فيه عالم ثم ينطفئ فى زمان يساوى الزمان الذى سموه نهاراً . فياليت شعرى كم من عوالم انطوت وعوالم ستأتى بعد عالمنا . إن العقل ليقف مكتوفاً أمام خيال الهند وأمام ظنون علماء العصر الحاضر الموافق له . كل ذلك افتح باب قوله تعالى : « يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات » إن هذا يزهدنا فى هذا الوجود إذ لامعنى لحبّ ما لابقاء له . كواكب لا تدوم وأرض لا تدوم وشموس وأقمار لا تدوم بل هى تطوى كطى السّجلّ للكتب ، ولا يبقى إلا صانعها ومحركها ومنظمها ومبدعها . قال الشاعر :

وعلى تفنن واصفيه بحسنه ... يفنى الزمان وفيه مالم يوصف

تم الجزء السابع من كتاب [الجواهر] فى تفسير القرآن الكريم
ويليه الجزء الثامن، وأوّله: تفسير سورة الحجر

فهـــرس

الجزء السابع من كتاب الجواهر

صفحة

صفحة

صفحة

٨١ الزيت يستخرج من الجراد ويصلح لصعود الطيارات .

٩٠ جوهرة فى قوله تعالى : « وفى الأرض قطع متجاورات » وفى قوله : « وينشىء السحاب الثقال » وفى قوله « جعل فيها زوجين اثنين » .

الأجسام إما مضيئة وإما مظلمة وشفافة وشبيهة بالشفافة وظليلة وهذه كلها فى الأرض، والنور إما مستطير وإما منعكس .

٩١ الفحم الحجرى والبلور الصخرى والزجاج وهنا صورة أوراق بعض الأنواع التى تكوّن عنها الفحم الحجرى ومن القطع المتجاورات المسمى عند العامة بالزلط والحصى وهو (الكورس) والرمل ويصنع منه الزجاج ومنه الصوّان وشظف البنادق والبلور الصخرى الذى رسمت صورته هنا وهكذا السكركهان والياقوت بوهيم والياقوت الأصفر الهندى . الكلام على الزجاج .

٩٢ تاريخ الزجاج وكيف يصنع الزجاج وتحضير الزجاج . البلور . فى النبات زوجان وفى الكهرباء موجب وسالب وهكذا هنا فى العدسات البلورية المرسومة هنا وهى ست منها (٣) تجمع النور و (٣) تفرقه فهنّ زوجان أيضاً وما العدسات إلا من الرمل والجير والصودا أو نحو ذلك فهى من نتائج القطع المتجاورات .

٩٤ قصر النظر وطوله .

٩٥ جمال هذا العالم وفيه ذكر ملخص مامضى .

وجوب درس هذه العلوم وذكر ما قاله الإمام الغزالى إن عداء زمانه شرٌ من الشياطين لأنهم أظهروا للناس عدم الاكتراث بنظام الله فى السموات والأرض . الألوان السبعة لضوء الشمس وهذه الألوان نعرفها بإحدى حالتين : إما بإدخال ضوء فى ثقب الخ ، وإما بأن ننظر قوس قزح، وفى هذا المقام رسم الصورتين .

نور الشمس . البخار . السحاب . ابتعاده ابتعاداً وسطاً . حكمة ذلك ثم هى التى ظهر ضوؤها بهيئة قوس قزح .

٩٧ الآلات البصرية [ثلاث] الميكرسكوب ، التلسكوب . وآلات شتى مكبرة أو مصغرة ، لم خلق الله الصحراء والأرض القفراء ؟ رأى المؤلف قبل أن يؤلف هذا التفسير ورأيه الآن .

٩٨ الصحراء كأنه تنوّر للأرض العامرة تجفف الهواء كما تنضج النار الخبز ولولاها لم يعش أهل البلاد التى بجانبها . نهر النيل ونهر الكنج، للأوّل صحراء تحت مصر وليس الثانى صحراء فكثر الطاعون هناك لعدم الجفاف .

٩٩ [اللطيفة الرابعة] فى قوله تعالى : « يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل » لم يقل يتغذى لعله أن من النبات ما لا يتغذى إلا من الحيوان فالغذاء ليس واحداً كالماء . النبات إما أن يتغذى بالمواد الأرضية ، وإما أن يتغذى بنبات آخر ، وإما أن يتغذى من جسم الحيوان .

١٠٠ وصف النبات المسمى ندى الشمس ذى الورق الملتف له قرون تلتف على الذبابة بالتدريج ثم تتغذى بها ثم ترجع إلى حالها الأولى . هذا إذا وقعت ذبابة ، أما إذا وضعت قطعة من لحم مثلا فإن الانهماك يكون أقل وإذا وضعنا شعراً مثلا يحصل انعطاف ضعيف جداً وإفراز كذلك ، فإذا لمسناه بإبرة مثلا فإنه لا يكون هناك أثر البتة .

صفحة

صفحة

واتفاقها جميعا على قلبها بمقدار ما يزيد مربع العدد ، والكلام على الأجراس الأربعة التى يساويها فى الصوت جرس واحد الخ . رقاصا الساعة إذا قصر أحدهما وطال الآخر الخ . نظام الكواكب وتباعد السيارات عن الشمس على هيئة المتوالية الهندسية ، وهكذا ترى النسب الهندسية فى حساب السنين البسيطة والكبيسة ، ونظام الشعر العربى ونسبته الهندسية ونظام الماء الهندسى فى نسبة الأكسوجين إلى الأدروجين وزنا ، ونظام النبات فى تركيب عناصره .

١٢٤ أشكال الثلج المسدسة ، رسم ١٢ شكلا من أشكال الثلج المسدسة المرتبة ترتيبا كترتيب السلسلة الحيوانية الأدنى يليه الأعلى وهكذا ، وبيان نظام هذه المسدسات والمثلثات الداخلة فيها وكيف كانت كل زاوية (٦٠) درجة ، وكيف رسمها الله فى الجو ، وكيف يستنتج منها مارآه علماء العصر العشرين فى أمر مذهب النشوء والارتقاء .

١٢٧ الكلام على عدد ٦ وأنه يسمى عددا تاما وهو قليل جدا فى الأعداد ولذلك اختير فى الثلج ، وفى عدد الأيام التى خلق الله فيها السموات والأرض إشارة إلى الكمال . وعدد (٦) قد ظهر فى أبعاد الكواكب عن الشمس .

١٢٩ المؤلف يشكر ربه إذ وقف على هذه الحقائق التقريبية ، ذكر (ثلاث زهرات) تتضمن مباحث علمية ترجع إلى الجمال لمناسبة الأشكال الثلجية المسدسة توضح ما تقدم .

١٣٢ الكلام على الجمال الخاص ومعنى التسبيح والتحميد يرجع لفهم العلوم فى هذه الدنيا .

١٣٥ فوائد وفكاهات كعرض الأرض وطولها وعمر الأرض وارتفاع الطيارات وعدد سكان الدنيا . (اللطيفة السابعة) فى قوله « له معقبات من بين يديه ومن خلفه » وذكر الكرات الحمراء والكرات البيضاء المقاتلة للحيوانات الذرية التى هى من أمر الله ، والأحاديث الواردة فى ذلك (يتعاقبون فيكم ملائكة الخ) وكلام (السرأوليفرلودج) أن هناك عوالم تحيط بنا كما جاء فى الحديث فالعلم الحديث مثل الحديث النبوى الشريف .

١٣٨ (اللطيفة الثامنة والتاسعة) فى البرق والسحاب والرعد وقوله تعالى « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » . (التفاؤل والتشاؤم) للكاتب الأمريكانى (أمرسون) وأن الإنسان هو الذى يسلط الشؤم على نفسه وهو قادر أن يدخل المسرة على نفسه ويفهم الحقائق ، وهذا المقال يوافق معنى التوكل وهكذا مقالة عنوانها :

١٤١ (مخاوفنا وأوهامنا ، أسبابها وعلاجها) وهاتان المقالتان كافيتان لمن قرأهما وعمل بهما وهما يعينان على فهم التوكل على الله فى الأمة وفيهما أبهج آراء النوع الإنسانى اليوم فى الأمم وترك الخوف والحزن وإدخال السرور والفرح على النفس .

١٤٣ الكلام على الرعد والبرق ونحوهما وشرح الكهرباء الموجبة والسالبة والموصل الجيد كالمعادن والموصل الردىء كالهواء وكالبخار الخ . كهربائية الجلد والهواء والغيوم .

١٤٥ اللطيفة العاشرة فى الصاعقة . (جوهرة) فى قوله تعالى « ويرسل الصواعق الخ » تدرج الحرارة إلى ضوء الحمرة وما بعدها إلى البنفسجية .

١٤٦ الصوت والحرارة والنور ، تكون الحرارة بالاحتكاك أو الطرق أو الضغط أو بالتفاعل الكيمائى أو بالطبيعة .

صفحة

صفحة

١٨٠ المترجمون مثل متى بن يونس وسنان بن ثابت وهكذا ، ونبوغ المسلمين فى العلوم ونشر كتب علماء اليونان مثل إقليدس وأرشميدس الخ . وإغداق المهدى والرشيد النعم على النصارى المترجمين الخ .
إثبات (سديو) الفرنسى أن أكثر ما ادّعى الفرنجة كشفه مأخوذ من كتب عربية وذلك بتسمة أدلة مثل أن تصحيح أزياج بطليموس كان على أيدى العرب الخ .

١٨٢ ذكر بعض مانبغ فيه العرب من كلام (سديو) الفرنسى وهو ١٤ فنا مثل الهندسة والحساب والجبر وعلم الضوء والنظر الخ ومنها الآلة المفرغة للهواء والرافعة للمياه الخ وهم الذين اخترعوا الأجزخانات (الصيدليات) ثم ذكر انحطاط التعلم فى بلاد الإسلام واضطهاد العلماء .

١٨٣ اضطهاد ابن رشد فى الأندلس وذكر أن الخليفة الحكم بالأندلس جمع الكتب من الشرق فحصل عنده ٤٠٠ ألف كتاب ولها ٤٤ مجلدا فهارس ولكن حاجب ابنه هشام بعد حين اضطهد العلماء وأحرق الكتب تقربا إلى العامة وهكذا دولة الموحدين فنصر العلم أولا عبد المؤمن ولكن يعقوب المنصور نفى ابن رشد وأمر بحرق الكتب فهى كالتى قبلها نصر العلم أولا واضطهاد آخرا ، وذكر صورة المنشور الذى نشره يعقوب لذم الفلسفة والفلاسفة لأجل ابن رشد وذكر العفو عن ابن رشد ثم موته .

١٨٤ انتقال العلم إلى أوروبا بعد أن هجره المسلمون على يد اليهود تلاميذ ابن رشد وكتابة الفلسفة بالعبرية بدل العربية ، وبيان أوّل ما ترجم من مؤلفات ابن رشد لأوروبا وأن فردريك الثانى أمبراطور ألمانيا ينصر تلك الفلسفة وينصر آراء الإسلام ويضطهد الاكليروس ، وهذا الإمبراطور أمر بترجمة فلسفة العرب إلى العبرية واللاتينية وذكر أن ابن رشد بصق العامة على وجهه عند الدخول والخروج من الجامع فى مدينة (فاس) وقد نصبوه هناك لذلك وذكر ذم الشعراء مثل قول بعضهم :
لم تلزم الرشد يا ابن رشد الخ . وذكر ترجمة كتاب (تهافت التهافت) وأن فلسفة ابن رشد فى القرن الرابع عشر بلغت أوجها .

١٨٥ ترجمة كتب العرب إلى اللغات الأوروبية مثل كتاب الخازن فى علم الضوء ، ومثل أن كتاب القوانين لابن سينا قد ترجم وطبع مرارا فى أوروبا وبقى هو ومؤلفات الرازى تدرس فى أوروبا ست قرون تقريبا ثم ذكر ملخص ما تقدّم .

[الفصل التاسع] فى تفوّق أوروبا فى العلوم جميعها بعد آبائنا العرب .

١٨٦ علماء القرن السادس عشر والسابع عشر مثل وليم غلبرت أنشأ علم الكهربائية الحديثة ومثل (غليلى) بإيطاليا الذي نسبوا له كشف رقاص الساعة ومثل هرفى كاشف دورة الدم .
علماء القرن السابع عشر والثامن عشر مثل اسحق نيوتن أكبر علماء الفلك .

١٨٧ علماء القرن الثامن عشر والتاسع عشر مثل لافوازيه فى الكيمياء ، ومثل كولون الكهربائى ومثل فالطا ومثل لامرك .

١٨٨ مصباح يشرق على العلوم التى كشفها المسلمون والأوربيون ، ومنها الكيمياء ، وتبيان ذلك بمثال حصد القمح ودرسه وخبزه وهضمه فى المعدة وقد عين فى الجسم لكل عضو ما يناسبه من العناصر الغذائية فلولا تحليل الغذاء إلى عناصره فى الجسم ما أمكن تركيبه ثانيا لنموّ الجسم وبقائه . هكذا كل العلوم

صفحة

لاتتم إلا بتحليل أصولها ثم السير فى نظرياتها وتعميمها فهى كالكيمياء .

١٩٠ ذكر جان شامبليون الذى كشف لغة المصريين القدماء ، وذكر أن مانيتون يقول إن عدد المؤلفات المنسوبة إلى هرمس (٣٥٫٥٢٥) كتابا ومكافأة الملك لويس الثامن عشر شامبليون لكشفه اللغة الهيروغليفية . لوم المؤلف المسلمين على جهلهم بهذه العلوم .

١٩١ جورج ستفنصن الذى أنشأ السكك الحديدية فى العالم، وهو عالم إنكليزى، وفراداى انجليزى أيضا كشف البنزين باستقطاره من الفحم الحجرى ، (أوربان لفريه) الفلكى الفرنسى وهو كشف السيارنبتون

١٩٢ (تشارلس داروين) ومذهبه مكمل لمذهب لامرك الفرنسى ، وهو أن عالم الأحياء سلسلة واحدة .

(بوسنغولت الكيماوى الفرنسوى) كشف عناصر النباتات ، (ماريه متشل) الفلكية الأمريكية كشفت نجما جديدا من ذوات الأذناب ، (شليمن الأثرى الألمانى) كشف خرائب تروادة الخ .

بيان أن هذا كله صورة من قوله تعالى «وذكرهم بأيام الله» وقوله فى آخر السورة «هذا بلاغ للناس» .

١٩٣ الفصل العاشر فى نتائج جهل المسلمين وغفلتهم والاقتصار على ثلاث حوادث وهى سقوط الدولة العباسية وسقوط الأندلس .

١٩٤ واحتلال الفرنسيين أولا .

١٩٥ والإنجليز ثانيا لبلادنا المصرية ، وذكر أن الدولة العباسية جهلت جغرافية بلاد التتر والمغول فانقضوا عليهم كالجراد المنتشر وكانوا أولا بهم مستهزئين وقد تخاذل ملوك الأندلس فى أواخر أيامهم وصار كل منهم يلجأ إلى من جاورهم من ملوك أسبانيا وانتهى ملك العرب سنة ١٤٩٢ ثم بعد ذلك أخذ أعيان النصارى ينصرون المسلمين، ودفع المسلمون ثمانمائة ألف دينار إلى الملك فيلبس فخفف عنهم بعض العذاب وطردوا سنة ١٦٠٩ ، وأما مصر فان الأمراء منهم لما سمعوا بمجيء الفرنسيين إلى الإسكندرية سنة ١٢١٣ هجرية اعتمدوا على قوتهم وقالوا إذا جاءت جميع الأفرنج فإنهم يدوسونهم بخيلهم ثم إن الحرب لما دارت لم تزد على ثلاثة أرباع الساعة بجوار القاهرة، ولما فشا الطاعون أراد الفرنسيون حصره بالحجر الصحى فهرب المسلمون من القاهرة لجهلهم بالأمور الصحية . عرابى باشا والشيخ أبو خطوه وقنال السويس والستر (ابلانت) .

١٩٦ الأساطيل الإسلامية وصلت إلى مصاب نهر السند وأخذ عبد الله بن عامر بلاد كرمان وسجستان وهددوا ملك الصين فغمرهم بالعطايا وانتشرت اللغة العربية حتى زالت الديانة البوذية ، هذا فى الشرق، وأما فى الغرب فإنهم توغلوا فى فرنسا وأخذوا (طلوشه) تحت تلك البلاد ثم ارتدوا إلى شواطىء نهر الرون والسين . ذكر أن المأمون قاتل الملك (توفيل) ملك القسطنطينية لأنه أبى أن يرسل له العالم (لبون) فوازن بين المأمون وبين يعقوب المنصور الذى طرد ابن رشد . مدنية العرب لم تذهب بذهاب دولهم ، وذكر أن الأتراك والمغول لما ملكوا البلاد حفظوا مدنية العرب وعلومهم مثل أن السلطان محمود الغزنوى جعل العلامة البيرونى فى ديوانه وهكذا (هلاكو) أغدق النعم على نصير الدين الطوسى ثم بعد ذلك رجع العرب إلى جزيرتهم ولزم عرب الشام ونجد عوائد الأجلاف كأنهم نسوا مآثر آبائهم ونشاط أهل حضرموت وعمان والبحرين فى نشر الدين وللمعاملات التجارية فى شرق أفريقيا وجزائر بحر الهند الخ .

١٩٧ النهى عن عبادة الأصنام ، وأن كل ماحصر الفكر فهو أشبه بعبادة الأصنام من بعض الوجوه .

١٩٩ القلق واضطراب البال وأثرهما فى الصحة والعمل، وذكر أن أناسا بسبب القلق قدماتوا فى القرن الأخير

صفحة

فكانوا أكثر من القتلى فى ساحة الوغى ، وأن الهم يتلف خلايا الدماغ فكأنه مطرقة تمزق أغشيته
الإسراف فى الأمل والرجاء ضد السعادة ، الدنيا شبيهة بمرآة تعكس للإنسان صورته فان قطب قطبت
له وإن بش بشت له .

٢٠٠ [القسم الثانى] من قوله تعالى «مثل الذين كفروا بربهم» إلى قوله «لظلوم كفار» مضبوط بالشكل .

٢٠١ التفسير اللفظى .

٢٠٤ تفسير الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة والشجرة الطيبة والشجرة الخبيثة ، وذكر تشبيه الرجل المسلم
بالشجرة الطيبة التى هى النخلة الخ . وذكر حديث البخارى ومسلم أن العبد إذا وضع فى قبره الخ .

٢٠٦ موازنة بين كلام العرب والقرآن الشبيه بالشجر والنبات وغيرهما وأن عنترة العبسى يشبه رائحة
عبلة برائحة روضة أنف فى قوله (أوروضة أنفا الخ) وهذا موازن بقوله تعالى « ألم تر أن الله أنزل
من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة إن الله لطيف خبير » .

٢٠٧ أبيات أخرى من كلام المعلقات وغيرها وموازنته مع القرآن الخ .

٢٠٨ بقية التفسير اللفظى « ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا » .

٢٠٩ جوهرة فى ذكر نعمة بهية وهى الحرير الصناعى المأخوذ من خشب التوت وحطب القطن وشعر القطن
وقد ارتقى الإنسان من لبس جلود الأنعام إلى الاقتداء بدودة الحرير الغازلة له فالاقتداء بالعنكبوت فى
صناعة النسج ثم هو الآن يتخطى الحيوان كله فيستخرج الحرير من نفس الخشب ولا يتكل
على الحيوان .

٢١١ جداول بأنواع النبات من غذاء وفاكهة ودواء ولباس وأن هذه النباتات جعلت موافقة لسوق جنود
الجوع وجنود البرد وجنود المرض ، تلك الجنود الملجئة الإنسان أن يستعمل تلك النباتات ففيها ثلاث
فوائد : حفظ جسمه من الجوع والبرد ، وتقوية عضلاته بالعمل ، وتنمية قواه العقلية كما فى هذا التفسير ،
فهذا اقتصاد من الله فى نظامه كاقتصاده فى خلق اللسان فهو يذوق الطعام ويحركه ويقوم بتفهيم الكلام
السامع ، فالاقتصاد فى نظام الموجودات المذكورة كالاقتصاد فى عضو اللسان ، وما العرى ولا الجوع ولا
المرض إلا لغات يفهم بها الإنسان بلا حرف ولا صوت وقد اشترك فيها الإنسان والحيوان جميعا وهى أبلغ
من نطق اللسان .

٢١٣ الكلام على أن الإسلام كشجرة والشجرة لها أصل وفروع والفروع [قسمان] أصل ، وأطراف ؛
وبيان أن النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه هم أصل الشجرة ولم يؤلفوا فى فقه ولا فى علوم السموات
والأرض وألف المتأخرون فى علوم الفقه وهى كفروع الشجرة التى ليست أصولا ، أما الفروع التى هى
أصول كعلم السموات والأرض والنبات فلم يؤلفوا فيها وليس لهم حجة فى أن الصحابة لم يؤلفوا فيها
لسقوطها بأنهم لم يؤلفوا فى الفقه لأنهم أصل الشجرة وأصل جميع فروعها . القوف والنخل وأن
القوف يطول سريعا ويعلو على النخل ويذبل حالا والنخل طويل العمر بطىء الثمر فأشرفهما أدومهما ،
هكذا العلماء النافعون يبقون بآثارهم والمتظاهرون بالعلم بلا حقيقة لا بقاء لذكرهم ولا لآثارهم .
عبر الله بكاف الخطاب فى هذه الآيات ست مرات جعل الماء لنا والثمرات لنا الخ فهل كاف الخطاب
استثنى منها المسلمون ، وهل الله خاطب الفرنجة وحدهم ؟ فقال « وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر
بأمره الخ » حتى رأينا أكثر السفن لهم .

٢١٦ تنبيهات : الأول فى قوله تعالى « ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء » وكيف ينعم علينا وقد

أصل

صفحة

أضل الظالمين منا ؟. الجواب عن ذلك فى نفس الآية فالشجر يكون حنظلا مرًّا وثمرا حلوا والقسمان محتاج إليهما فإذا كان الحنظل وجميع النباتات الدنيئة لم تجعل عالم النبات مخالفا للحكمة فهكذا هنا العقول مزارع زرعها الله فى أجسامنا وهى مختلفة اختلاف النباتات فما حسن هنا حسن هناك، ومنا من يفقهه فى الحياة ومنا من لا يفقهه إلا بعد الموت .

٢١٧ (التنبيه الثانى) « وجعلوا لله أندادا ليضلوا عن سبيله » وبيان أن تحريم عبادة الأصنام بسبب حصرها الفكر ، وإلا فالله غنى عن العالمين .

٢١٨ (التنبيه الثالث) كيف يدخل الضلال على أرباب الديانات، وليس معقولا أن الخليل يخاف من عبادة الأصنام ولا المسلم كذلك ، وإنما الخوف هو حصر الفكر كما هو حاصل لأغلب المسلمين اليوم .

(جوهرة فى قوله تعالى « وجعلوا لله أندادا ») إن علماء الهند ومصر وغيرهم قد أشركوا أمام العامة ووحدوا فى نفوسهم ويشهد بذلك رؤيا هرمس إذ سمع قائلا يقول إن النور الذى رأيته مثل لنور الله الخ .

٢٢٠ التثليث عند الأمم القديمة إن العالم كله مادّة وعقل ونفس الخ وأيضاً يقول الأسقف اليونانى فى عكا: إن الروح السرى عند الأمم القديمة هو المالطة للشعوب وأنا فيلسوف مع نفسى كاهن مع الشعب .

القسم الثالث « وإذ قال إبراهيم » إلى آخر السورة وهو مضبوط بالشكل .

٢٢١ تفسيره اللفظى . .

٢٢٣ ملخص هذا القسم : وفى هذا المقام لطائف .

٢٢٤ [اللطيفة الأولى] أن عبادة الأصنام فى كلام الخليل ترجع للكلمة الخبيثة وإقامة الصلاة ترجع للكلمة الطيبة الخ [اللطيفة الثانية] « ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون » [اللطيفة الثالثة] « ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع الخ » حديث أم إسماعيل وهى ترضعه ونزول جرهم عليها وتربية إسماعيل بينهم الخ .

٢٢٥ [اللطيفة الرابعة] « يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات الخ » وهذه الآية هى نفس العلم الحديث أن الأرض والشمس والسيارات كانت كلها كرة واحدة وانفصلت السيارات وبرهان ذلك بالتلسكوب إذ رأوا ستين ألف كوكب نارية تتكوّن الآن ، وهذا يوافق حديث عائشة الذى أخرجه مسلم . هنا أربع جواهر .

٢٢٦ [الجوهرة الأولى] « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » ومن النعم التى لم يشكرها المسلمون البحر الميت الذى أخذ امتيازه الإنجليز وفيه ثروة (٢٣٨٠) ألف ألف ألف جنيه وبيان ما فيه من البوتاسا والبروم والملح الخ وشروط العقد، وبيان أن الله حرم المسلمين من هذا لجهلهم لأن الله لا يعطى النعمة إلا لمن يشكرها ولا يشكرها إلا من يستعملها ولا يستعملها إلا العالم بها والمسلمون ليسوا بعالمين بها .

٢٢٨ حكمة إلهية ونور على نور وذكر عجائب عناصر البحر الميت ، وسرّ الحروف فى أوائل السور فى القرآن أوّل هذه السورة (الر) وهذه الحروف بترتيبها جاءت فى البحر والأنهار والقمر والنهار الخ . وهذه من النعم التى يذكرنا الله بها ، ومن البحر المذكور البحر الميت وهذا سرّ جديد ظهر للقرآن فى (الر) وإيضاح العناصر التى فى البحر الميت .

مات البحر لموت عقول المتأخرين فى الإسلام كما ظنّ العامة المحمول على النعش ميتاً وقال الطبيب هو حىّ ، وكما ظنّ جبرائيل بن بختيشوع أن إبراهيم بن صالح ابن عم هرون الرشيد سيموت وقت صلاة العتمة فقال صالح بن بهلة الهندى إنه لن يموت ثم ظهر الحق بأنه كان غير ميت وأنعشه بنفخ الكندس فى أنفه، فأرض الله ومنها البحر الميت عند المسلمين أشبه بإبراهيم بن صالح عند ابن بختيشوع ولكنها عند العلماء فى أوروبا أشبه بإبراهيم بن صالح المذكور عند صالح بن بهلة الهندى .

صفحة

[تمت]

الجواهر

في تفسير القرآن الكريم

المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات

تأليف

الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوي جوهري
المدرس بالجامعة المصرية ومدرسة دار العلوم سابقا
متع الله المسلمين بحياته آمين

الجزء الثامن

الطبعة الثانية

١٣٥٠ هـ — رقم ١٧١

طبع بمطبعة
مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر
مباشرة محمد أمين عمران

« إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب »

(قرآن كريم)

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الحجر مكية وهى تسع وتسعون آية

الر * تلك آيات الكتاب وقرآن مبين * ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين
ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون * وما أهلكنا من قرية إلا ولها
كتاب معلوم * ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون * وقالوا يا أيها الذى نزل عليه
الذكر إنك لمجنون * لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين * ما ننزل
الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذا منظرين * إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون *
ولقد أرسلنا من قبلك فى شيع الأولين * وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون *
كذلك نسلكه فى قلوب المجرمين * لا يؤمنون به وقد خلت سنة الأولين * ولو فتحنا
عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون * لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم
مسحورون * ولقد جعلنا فى السماء بروجا وزيناها للناظرين * وحفظناها من كل
شيطان رجيم * إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين * والأرض مددناها وألقينا
فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل شىء موزون * وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم
له برازقين * وإن من شىء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم * وأرسلنا

الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين * وإنا لنحن
نحيي ونميت ونحن الوارثون * ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين *
وإن ربك هو يحشرهم إنه حكيم عليم * ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمإ
مسنون * والجان خلقناه من قبل من نار السموم * وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق
بشرا من صلصال من حمإ مسنون * فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين *
فسجد الملائكة كلهم أجمعون * إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين * قال
يا إبليس مالك ألا تكون مع الساجدين * قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من
صلصال من حمإ مسنون * قال فاخرج منها فإنك رجيم * وإن عليك اللعنة إلى يوم
الدين * قال رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون * قال فإنك من المنظرين * إلى يوم الوقت
المعلوم * قال رب بما أغويتنى لأزينن لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين * إلا عبادك
منهم المخلصين * قال هذا صراط على مستقيم * إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من
اتبعك من الغاوين * وإن جهنم لموعدهم أجمعين * لها سبعة أبواب لكل باب منهم
جزء مقسوم * إن المتقين فى جنات وعيون * ادخلوها بسلام آمنين * ونزعنا ما فى
صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين * لا يمسهم فيها نصب وما هم منها
بمخرجين * نبئ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم * وأن عذابى هو العذاب الأليم *
ونبئهم عن ضيف إبراهيم * إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال إنا منكم وجلون * قالوا
لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم * قال أبشرتمونى على أن مسنى الكبر فبم تبشرون *
قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين * قال ومن يقنط من رحمة ربه
إلا الضالون * قال فما خطبكم أيها المرسلون * قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين *
إلا آل لوط إنا لمنجوهم أجمعين * إلا امرأته قدرنا إنها لمن الغابرين * فلما جاء آل
لوط المرسلون * قال إنكم قوم منكرون * قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون *
وأتيناك بالحق وإنا لصادقون * فأسر بأهلك بقطع من الليل واتبع أدبارهم

وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ • وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ • وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ • قَالَ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ • وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ • قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ • قَالَ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ • لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ • فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ • فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ • إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ • وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ • إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ • وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ • فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ • وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ • وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ • وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ • فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ • فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ • وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ • إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ • وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ • لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ • وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ • كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ • الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ • فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ • عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ • فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ • إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ • الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ • وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ • فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ • وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ •

تفسير الكلمات

بسم الله الرحمن الرحيم

(الر) تقدم الكلام على حروف أوائل السور إجمالا فى أول سورة آل عمران وفى أول سورة هود ولكن تفصيل الكلام على (الر) فى أول سورة يونس وهود ويوسف وإبراهيم والحجر هنا وعلى (المر) فى أول سورة الرعد يعوزه تفصيل أتم هنا فأقول :

إن سورة يونس لعلم مافى السموات والأرض ولإنذار من لايؤمنون من الأمم وهذا كله تضمنه قوله تعالى فيها (قل انظروا ماذا فى السموات والأرض وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لايؤمنون) فهذه الآية ملخص السورة ، فالآيات مذكورة فى عوالم السموات والأرض الموضحة فى أول السورة والنذر فى قصص

الأمم كقوم نوح وقوم فرعون وهكذا، وهذا كله يشار إليه بلفظ النذر أولها (ال) وآخرها (راء) وإنما جاءت هذه الاشارة وأظهرها الله فى هذا التفسير لأن المسلمين لايقرءون إلا الأحكام الشرعية ولا يبالون بعوالم السموات والأرض ولا بتاريخ الأمم المحيطة بهم ، فذكر (ال ر) فى أول السورة ليبين لهم بعد اضمحلالهم أن الآيات المذكورة والنذر كلها أهم أسرار القرآن ، وأما الاكتفاء بالمذاهب الشائعة فى الإسلام فى الأحكام الشرعية فانما هو الغرور وهو الجهالة وهذا إنذار من الله للمسلمين بل هو آخر إنذار ، وأما (ال ر) فى أول سورة هود فإن هذه السورة جاء فيها أمران :

الأمر الأول : تدبير الأمور فى هذا العالم الذى جاء عاما لكل شىء فى قوله تعالى (وكان عرشه على الماء) ومن له العرش هو الذى يدبر الأمر ، ومن ذلك آية أخذه بناصية كل دابة وهذا السر قد سرى فى غضون قصص الأنبياء فى تلك السورة فارجع إليه هناك .

الأمر الثانى : إن فيها قصص الأنبياء كنوح مفصلة وهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وموسى وختم ذلك بأن (ذلك من أنباء القرى نقصه عليك) الخ .

هذان هما الأمران اللذان تضمنتهما السورة ويجمعهما آيتان فى آخرها وهما (ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله) الخ ، وقوله (وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك) فأنباء الرسل وذكر الأمم لتثبيت فؤاده ورجوع الأمر لله يستلزم العبادة والتوكل . إذن فى السورة تثبيت القلوب بالتاريخ ومعرفة العوالم العلوية والسفلية لحب الله ولعبادته والتوكل عليه ، وللأول الإشارة بذكر (الرسل) فيها (الر) متصلة وللثانى الإشارة بلفظ (الأمر) ولم يذكر فى أول هذه السورة (ال م ر) كما ذكره فى سورة الرعد فيما يأتى لأن هذه السورة ليست خاصة بالعوالم الالهية فحسب بل فيها ذكر الأمم ورسلهم لجمع بين الأمرين بما تقدم وذكر (ال م ر) فى سورة الرعد التى هى حروف الأمر ، لأن المدار هناك على نظام العوالم وتدبير أمورها كما ستراه ، وهذا كله متروك عند الأمم الاسلامية الآن فلذلك ذكرنا بهذه الحروف اليوم وظهر فى هذا التفسير ، وأما (الر) فى أول سورة يوسف فذلك لأن هذه السورة اختصت بقصة يوسف وقدجرى له ماجرى للأنبياء وهو العسر أولا واليسر آخرا كما تقدم فى قصص الأنبياء فى سورة هود قبلها ، وقد جاء فى قوله (حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا الخ) وفى الرسل (الر) كما فى السورة قبلها . إذن يوسف لايضاح أحد الأمرين فى هود فقط لا لهما معا ، إذ ليس فيها إلا قصص يوسف وفيه تبيان أن المصلحين فى آخر الأمر فائزون ، فإذن كل مصلح فى الاسلام أحس فى قلبه بحب النفع العام ينبغى له أن يطرد اليأس فإنه فى آخر أمره فائز لامحالة ، كما أن الرسل نصروا بعد اليأس ، فأما سورة الرعد فهى موضحة للقسم الثانى فى سورة هود وهو تدبير الأمر فى السموات والأرض الذى يلزم من العلم به التوكل على الله وعبادته، وهاك تفصيله فى سورة الرعد التى جاء فى أولها (ال م ر) :

اعلم أن سورة الرعد موجه أكثر العناية فيها إلى تدبير الأمر الذى ذكره بقوله (يدبر الأمر الخ) بعد ذكر العرش فالمقام مقام تدبير ونظام العالم مثل :

(١) مد الأرض .

(٢و٣و٤و٥) وجعل الجبال فيها والأنهار والثمرات من كل زوجين بتدبير محكم .

(٦) والليل والنهار .

(٧) والقطع المتجاورات . (٨) والحدائق .

(٩) وأن ما فى الأرحام بمقدار .

(١٠) والسر والجهر معلوم عنده .

(١١) وخلق الحفظة للانسان . (١٢) ونظام البرق .

(١٣) والسحاب . (١٤) والرعد .

(١٥) وسجود الظلال بنظام سير الشمس .

(١٦) وإنزال الماء فى الأودية كل بقدر .

(١٧) والمحو والاثبات بمقدار .

هذه مجامع النظام العام والتدبير المحكم ، كل هذا رمز له بهذه الحروف وهى (أ ل م ر) وهذه مجموعة فى لفظ الأمر (من يدبر الأمر) والهمزة مكررة . فملخص السورة يرجع للفت المسلمين لمعرفة نظام ربهم فى هذه المذكورات ، وأنا أحمد الله إذ استبان فى هذا التفسير جمل لفهم هذه المذكورات كتبتها وأنا أشهد الله على الأمم الاسلامية أنى قد فتح هذا الباب على يدى ، وكل من قرأ هذا مسئول عن هذه الأسرار التى ظهرت فى هذا الزمان حتى يأخذ المسلمون حقهم فى هذه الحياة ويتبوءون مكانهم تحت الشمس .

وأما (ا ل ر) فى سورة إبراهيم فقد قدمت الكلام عليها فى غضون تفسيرها إذ استبان أن هذه السورة اتجهت العناية فيها إلى التذكير بأيام الله ، والتذكير بأيام الله قد تقدم موضحا بقدر الامكان هناك فى التفسير ، وهناك قوله تعالى (ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا الخ) والألف واللام والراء قد جاءت على هذا الترتيب مع الفصل فى سبع كلمات فى غضون الكلام على النعم مثل البحر والقمر والأنهار والنهار فكأنه قيل ليفكر المسلمون فى هذه النعم ، فإن لم يعرفوها أصابتهم النار وحلّ بهم البوار ، وهذان اللفظان من تلك الألفاظ السبعة .

ولقد جاء هناك ذكر البحر الميت الذى لم يعرف المسلمون النعم التى فيه إلا فى زماننا فارجع إليه هناك ، أما (ا ل ر) فى هذه السورة فهو موجه إلى لفظ (الذكر) فى قوله تعالى (إنا نحن نزلنا الذكر) وقوله : (يا أيها الذى نزل عليه الذكر) (أل) فى أولها (والراء) فى آخرها ، وهذه السورة فيها ذكر آدم والملائكة وإبليس وإبراهيم وضيفه ولوط وأصحاب الأيكة وأصحاب الحجر وكل ذلك ذكر وإنذار فى لفظ النذر التى فى أولها (أ ل) وآخرها (راء) إذن الذكر هنا لتوجيه العقول إلى الاعتبار بالأمم والانذار أن يصيبنا ما أصابهم . إذن هذه السور الثلاث كل منها لثمرة خاصة وعلى المسلمين أن ينهجوا مناهجها ، فللرعد معرفة النظم العامة ، ولإبراهيم التذكير بأيام الله وأن يعرف كل قوم ما جاء فى تاريخهم وتاريخ من حولهم كما تقدم هناك من علم وتاريخ ، وهنا فى هذه السورة حال أخرى فإذن يجب على أبناء العرب من سكان شمال أفريقيا والسودان ومصر وسوريا وفلسطين وبلاد العرب والعراق ، وهكذا الفرس وأهل الهند وأبناء جزيرة جاوة وسومطرة والجزائر حولهما وأبناء بلاد الملايو والترك ، أقول على هؤلاء جميعا أن يقوم فيهم رجال يؤلفون كتبا جميلة ذات رسوم جغرافية وأخرى سياسية يذكرون فيها ما مر ببلادهم من أول ظهور تاريخها مع ذكر ارتباطها بالأمم الأخرى ؛ إسلامية وغير إسلامية ويبينون ماحل بها من شقاء وما أوتيت من نعم ويحذرون أبناءهم مما وقع فيه آباؤهم فيقرؤه الشبان ويكونون حذرين ناظرين لمستقبل بلادهم ، وبغير هذا لا يكون لأمم الاسلام وجود . هذا كله يؤخذ من سورة إبراهيم وذكر (الر) فى أولها ويؤلفون كتبا أخرى جميلة نفيسة بهجة شيقة تفرح الشبان وتوقظ الوسنان يذكرون فيها بهجة الطبيعة وجمالها وحسنها ويشوقون الناس فيها ويخصون بالذكر أعجب مايرون وهذا إجابة لنداء الله تعالى فى سورة الرعد إذ يقول (ا ل م ر) المشيرة لتدبير الأمر ، ويؤلفون كتبا أخرى فى التاريخ العام لبعض الأمم قديمها وحديثها بشرط أن تؤثر فى العقول

إجابة

إجابة لقوله تعالى هنا فى سورة الحجر (ا ل ر) إذ ذلك من جهة ذكر ومن جهة إنذار . وهذه الكتب الثلاثة لظهور بعض السر فى هذه الحروف التى خزنها الله فى القرآن للأجيال الحاضرة والمستقبلة «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم» . انتهى الكلام على (الر) فلنشرع فى تفسير كلمات السورة فنقول (تلك) أى ما تضمنته هذه السورة من الآيات (آيات الكتاب وقرآن مبين) أى تلك آيات ذلك الكتاب الكامل فى كونه كتابا أوفى كونه قرآنا (ربما) بالتخفيف والتشديد وما كافة، وقوله (لو كانوا مسلمين) حكاية ودادتهم (ذرهم) أمر للاهانة (الذكر) القرآن (لمجنون) يعنون النبى صلى الله عليه وسلم (لوما) هلا (إلا بالحق) إلا تنزيلا ملتبسا بالحق (وما كانوا إذن منظرين) أى ولو نزلنا الملائكة ما كانوا منظرين إذن ولم يؤخر عذابهم (شيع الأولين) أى ولقد أرسلنا من قبلك رسلا فى الفرق الأولين، والشيعة الفرقة المتفقة على مذهب وطريقة (كذلك نسلكه) سلكت الخيط فى الإبرة وأسلكته إذا أدخلته فيها (خلت سنة الأولين) مضت طريقتهم التى سنها الله فى إهلاكهم حين كذبوا رسلهم (ولو فتحنا عليهم بابا من السماء) ولو أظهرنا لهم أوضح آية وهو فتح باب من السماء (يعرجون) يصعدون (سكرت أبصارنا) سدت أبصارنا أوغشيت أوسكرت من سكر الشراب فقد نظرها مثل ما يقع للرجل السكران (مسحورون) أى سحرنا محمد وعمل فينا سحره (بروجا) هى النجوم العظام . ومنها نجوم البروج المعروفة فى علم الفلك التى هى ١٢ برجا (وزيناها) أى بالأشكال والهيئات البهية (للناظرين) المعتبرين (رجيم) مرجوم فعيل بمعنى مفعول أوملعون مطرود من رحمة الله (إلا من استرق السمع) أى لكن من استرق السمع : أى اختلس خلسة (فأتبعه شهاب مبين) أى يلحقه نجم مضىء حارّ متوقد (مددناها) بسطناها (رواسى) جبالا ثوابت (وأنبتنا فيها) فى الأرض . ومعلوم أن الجبال منها فيها النبات أيضا كما تقدم فى سورة الرعد (موزون) مقدر بمقدار معين تقتضيه المصلحة (معايش) تعيشون بها من المطاعم والملابس (ومن لستم له برازقين) عطف على معايش (خزائنه) الخزائن تمثيل : أى وما من شىء ينتفع به العباد إلا ونحن قادرون على إيجاده وتكوينه (وما ننزله إلا بقدر معلوم) وقوله (لواقح) يعنى للشجر، يقال لقحت الناقة وألقحها الفحل إذا ألقى إليها الماء فحملته : فهى بمعنى ملقحات ونظيره الطوائح بمعنى المطيحات، (بخازنين) أى بحافظين فى الغدران والعيون والآبار (الوارثون) الباقون إذا مات الخلائق، وقوله (المستقدمين منكم والمستأخرين) من تقدم ولادة وموتا ومن تأخر (الإنسان) آدم (صلصال) طين يابس غير مطبوخ (من حمأ) صفة لصلصال : أى خلقه من صلصال كائن من حمأ: أى طين أسود متغير (مسنون) أى منتن أومصبوب ليبس ويتصور كالجواهر المذابة تصبّ فى القوالب من السن وهو الصب كأنه أفرغ الحمأ فصور منه تمثال إنسان أجوف فيبس حتى إذا نقر عليه صلصل ثم غير طورا بعد طور حتى سواه ونفخ فيه من روحه (والجان) المراد به الجنس كما هو الأظهر فى الإنسان أنه الجنس ، وإذا أريد آدم فى الثانى يراد أبا الجن فى الأول (من قبل) من قبل خلق الإنسان (من نار السموم) من نار الحر الشديد النافذ فى المسام (وإذ قال ربك) أى واذكر وقت قوله (سويته) أتممت خلقته وهيأتها لنفخ الروح فيها (ونفخت فيه من روحى) لانفخ هناك وإنما المعنى وجعلت فيه الروح وأحييته فهو للتمثيل (إلا إبليس) الاستثناء منقطع (أبى) امتنع وهو استئناف أى لكن إبليس أبى (مالك أن لاتكون مع الساجدين) أى أىّ غرض لك فى أن لاتكون مع الساجدين (لم أكن لأسجد) اللام لام الجحود مؤكدة للنفى أى لايصح منى أن أسجد (فاخرج منها) من السماء أو من الجنة أو من جملة الملائكة (رجيم) مطرود ملعون ، واللعنة هى الطرد من الرحمة والابعاد عنها (بما أغويتنى) أى أقسم بإغوائك إياى (لأزينن لهم) المعاصى (فى الأرض) فى الدنيا وهى دار الغرور (هذا صراط علىّ مستقيم) هذا طريق حق علىّ أن أراعيه وهو أن لا يكون لك سلطان على عبادى إلا من اختار اتباعك منهم لغوايته

(لموعدهم أجمعين) الضمير للغاوين (لها سبعة أبواب) أى طبقات ينزلونها (لكل باب منهم جزء مقسوم) أى لكل دركة قوم يسكنونها فيجزئ الله أتباع إبليس سبعة أجزاء، فيدخل كل قسم منهم دركة من النار (إن المتقين) أى الذين اتقوا الكبائر (ادخلوها) أى يقال لهم ادخلوها (بسلام) حال أى سالمين أو مسلما عليكم تسلم عليكم الملائكة (آمنين) من الخروج منها والآفات فيها وهذه حال أخرى (من غل) حقد كامن فى القلب وطهر الله قلوبهم من أن يتحاسدوا على الدرجات فى الجنة ووضع الله فى قلوبهم التواد والتحاب (إخوانا) حال (متقابلين) تدور بهم أسرتهم حيثما داروا فهم فى جميع أحوالهم متقابلون (لايمسهم فيها نصب) حال من الضمير فى متقابلين، النصب: التعب (ونبئهم) أى ونبيء عبادى وأخبر أمتك ليتخذوا ما أحل من العذاب بقوم لوط عبرة يعتبرون بها بسخط الله تعالى وانتقامه من المجرمين (ضيف إبراهيم) أضيافه وهو جبريل مع أحد عشر ملكا والضيف للواحد والجمع (سلاما) نسلم سلاما أوسلمنا سلاما (وجلون) خائفون (إنا نبشرك) استئناف فى معنى التعليل (بغلام) هو إسحق عليه السلام (عليم) إذا بلغ (على أن مسنى الكبر) تعجب من أن يولد له مع مس الكبر إياه (فبم تبشرون) فبأى أعجوبة تبشرون فإن البشارة بما لايتصور وقوعه عادة بشارة بغير شىء (بالحق) أى باليقين الذى لا لبس فيه (القانطين) الآيسين من ذلك (إلا الضالون) المخطئون طريق المعرفة فلا يعرفون سعة رحمة الله وكال علمه وقدرته (فما خطبكم) فما شأنكم الذى أرسلتم لأجله سوى البشارة (إلى قوم مجرمين) يعنى قوم لوط (إلا آل لوط) أى أهل لوط المؤمنين والاستثناء منقطع (لمنجوهم أجمعين) مما يعذب به القوم (إلا امرأته) استثناء من آل لوط (الغابرين) الباقين مع الكفرة لتهلك معهم (منكرون) تنكركم نفسى وتنفر عنكم مخافة أن تطرقونى بشر (بما كانوا فيه يمترون) كانوا يشكون فيه وهو العذاب الذى توعدتهم به (بالحق) باليقين وهو عذابهم (لصادقون) فيما أخبرناك به (فأسر بأهلك) فاذهب بهم فى الليل (بقطع من الليل) فى طائفة من الليل وقيل آخره (واتبع أدبارهم) وكن على أثرهم تذودهم وتسرع بهم وتطلع على حالهم (ولايلتفت منكم أحد) لينظر ماوراءه فيرى من الهول ما لايطيقه (حيث تؤمرون) حيث أمركم الله (وقضينا إليه ذلك الأمر) أى أوحينا إلى لوط ذلك الأمر الذى حكمنا به على قومه وفرغنا منه وهو مبهم يفسره (أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين) أى آخر قوم لوط مستأصل فى الصباح والمعنى أنهم يستأصلون من آخرهم فى ذلك الوقت (المدينة) مدينة سدوم وهى مدينة قوم لوط (يستبشرون) أى يبشر بعضهم بعضا بأضياف لوط والاستبشار إظهار الفرح والسرور (قال) أى لوط لقومه (فلا تفضحون) يعنى فيهم . يقال فضحه إذا أظهر من أمره ما يلزمه العار بسببه (واتقوا الله) خافوا الله فى أمرهم (ولا تخزون) ولا تخجلون (قالوا) أى قوم لوط ، (أولم ننهك عن العالمين) أى أولم ننهك أن تدخل الغرباء إلى بيتك فإنا نريد أن نركب منهم الفاحشة (بناتى) أى نساء قومه ، لأن الأنبياء آباء، والأمة أبناؤه وبناته (فاعلين) ما أمرتكم به (لعمرك) وحياتك يا محمد . والعمر مدة عمارة بدن الإنسان بالحياة والروح وبقائه مدة حياته ؛ أى لعمرك قسمى (سكرتهم) حيرتهم وضلالهم وغفلتهم (يعمهون) يترددون متحيرين (الصيحة مشرقين) صيحة جبريل حال كونهم داخلين فى وقت الشروق وهو بزوغ الشمس (عاليها سافلها) عالى المدينة أوقراهم سافلها فصارت منقلبة عليهم (سجيل) طين متحجر (للمتوسمين) للمتفكرين المتفرسين الذين يتثبتون بنظرهم حتى يعرفوا حقائق الأشياء (وإنها) أى المدينة أو القرى (لبسبيل مقيم) طريق واضح معلم ليس بخفى ولا زائل ، فآثار هذه القرى من عذابه وغضبه بطريق ثابت لم يدثر ولم يخف ، والذين يمرون عليها من الحجاز إلى الشام يشاهدون ذلك ويرون أثره (إن فى ذلك) أى ما ذكر من عذاب قوم لوط وما أنزل بهم (لآية للمؤمنين) أى المصدقين (الأيكة) وهى الشجر وتسمى الغيضة وأصحابها هم قوم شعيب (لظالمين) لمشركين (فانتقمنا منهم) فى الدنيا بالعذاب

(وإنهما)

(وإنهما) أى مدينة قوم لوط ومدينة أصحاب الأيكة (لبإمام مبين) طريق واضح، والإمام اسم لما يؤتم به فسمى به الطريق واللوح ومطمر البناء. (أصحاب الحجر) يعنى ثمود كذبوا صالحا ، فكأنهم كذبوا الرسل كلهم لأن الدعوة واحدة ، والحجر واد بين المدينة والشام (آياتنا) آيات الكتاب المنزل على نبيهم ومعجزاته كالناقة وشربها ودرّها وما نصبنا لهم من الأدلة (آمنين) أى من الانهدام ونقب اللصوص وتخريب الأعداء. (ما كانوا يكسبون) من بناء البيوت الوثيقة واستكثار الأموال والعدد (وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق) الا خلقا متلبسا بالحق فليس يناسب استمرار الفساد ، فلذلك أهلكنا أمثال هؤلاء. (وإن الساعة لآتية) فينتقم الله لك فيها ممن كذبك يا محمد (فاصفح الصفح الجميل) فأعرض عنهم إعراضا جميلا بحلم وإغضاء (هو الخلاق) الذى خلقك وخلقهم وبيده أمركم جميعا (العليم) بحالك وحالهم (سبعا من المثانى) سبع آيات وهى الفاتحة التى تثنى وتكرر فى كل صلاة أو تثنى على الله فيها وهى جمع مثناة أو مثنية (والقرآن العظيم) من عطف الكل على الجزء : أى أكرمناك بالفاتحة وبالقرآن كله (لا تمدن عينيك) لا تطمح ببصرك طموح راغب فيه متمنّ له (أزواجا) أصنافا من الكفار كالمشركين واليهود والنصارى والمجوس فأنت أوتيت النعمة العظمى وهى الفاتحة والقرآن فكل نعمة فى جنبها صغيرة (ولا تحزن عليهم) أى ولا تحزن عليهم أنهم لم يؤمنوا فيتقوى بهم الإسلام والمسلمون ، وقوله (واخفض جناحك للمؤمنين) تواضع لهم وارفق بهم (أنا النذير المبين) أنذركم ببيان وبرهان أن عذاب الله نازل بكم إن لم تؤمنوا (كما أنزلنا على المقتسمين) أى مثل العذاب الذى أنزلنا على الاثنى عشر الذين اقتسموا مداخل مكة أيام الموسم لينفروا الناس عن الإيمان بالرسول فأهلكهم الله يوم بدر (الذين جعلوا القرآن عضين) أجزاء جمع عضة وأصلها عضوة فعلة، من عضا الشاة إذا جعلها أعضاء : أى قالوا فى القرآن أقاويل مختلفة لمن يلاقونه من القادمين إلى الموسم ، فبعضهم يقول هو شعر وبعضهم كهانة وبعضهم أساطير الأولين وبعضهم كذب يختلقه من تلقاء نفسه (فاصدع بما تؤمر) فاجهر به، من صدع بالحجة إذا تكلم بها جهارا: أى فاجهر بما تؤمر به (وأعرض عن المشركين) فلا تلتفت إلى ما يقولون (إنا كفيناك المستهزئين) بقمعهم وإهلاكهم ، وأهمهم خمسة من أشراف قريش: الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل وعدى بن قيس والأسود بن عبد يغوث والأسود بن عبد المطلب وهم كانوا يبالغون فى إيذائه صلى الله عليه وسلم ، والاستهزاء به فمات الوليد بأهون سبب ، إذ مر بنبال فتعلق بثوبه سهم فتكبر أن يبعده عن ثوبه فأصاب عرقا فى عقبه فمات ومات العاص بشوكة فى أخمص قدمه، وأصاب عدى بن قيس مرض فى أنفه فامتخط قيحا فمات ، وأصيب الأسود بن عبد يغوث بداء، وهو قاعد فى أصل شجرة فجعل ينطح رأسه بالشجرة ويضرب وجهه بالشوك حتى مات، وعمى الأسود بن عبد المطلب (فسوف يعلمون) عاقبة أمرهم فى الدارين (بما يقولون) من الشرك والطعن فى القرآن والاستهزاء بك (فسبح بحمد ربك) فافزع إلى الله فيما نابك بالتسبيح والتحميد يكفك ويكشف الغم عنك (الساجدين) من المصلين . وكان صلى الله عليه وسلم إذا أهمه أمر بادر إلى الصلاة (اليقين) الموت فإنه موقن به لا يشك فيه أحد فهو مأمور بعبادة ربه فى جميع أوقاته مدة حياته حتى يأتيه الموت . انتهى تفسير الكلمات .

التفسير وهو ينقسم إلى قسمين :

القسم الأول : فى بدء الخلق ومقدماته من أولها إلى قوله (وماهم منها بمخرجين) .

« الثانى : فى القصص ونتائج ما فى السورة والارشاد والانذار وتسليته صلى الله عليه وسلم من قوله (نبئ عبادى) إلى آخر السورة .

القسم الأول

كأن الله يقول ما في هذه السورة من الآيات آيات الجامع لكونه كتابا كاملا وقرآنا يبين الرشد من الغيّ (ربما يود الذين كفروا الخ) قد يتمنى الذين كفروا لو أنهم كانوا مسلمين حينما يعاينون نعم الله تترى على المسلمين في الدار الدنيا وقد نصرهم الله وخذل الكافرين ، وعند معاينة العذاب وقت الموت والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون ، وفي الموقف حينما يرون هول العذاب وانصرف المسلمون إلى الجنة وسيقوا هم إلى النار وفي جهنم ، والمسلمون المذنبون معهم قد عذبوا بذنوبهم ثم يخرجون منها ويبقى الكافرون في جهنم . في هذه الأحوال الأربعة ربما ودوا أن يكونوا مسلمين ، وهذا التعبير بالتقليل على مذهب العرب في قولهم ستندم على فعلك وليسوا يقصدون التقليل ولكن أرادوا لو كان الندم مشكوكا فيه أو قليلا لحق عليك أن لاتفعل هذا الفعل لأن العاقل يتحرز من التعرض للشر المظنون كما يتحرز من المتيقن ومن القليل كما يتحرز من الكثير فهؤلاء يا محمد قوم غافلون ذرهم في غفلاتهم يأكلون كما تأكل الأنعام ، ويتمتعون بلذات الدنيا وشهواتها وتلهيهم الآمال عن الآجال؛ فيقول الرجل غدا أنال الثروة وأحظى بما أشتهي ويعلو ذكري ويكثر ولدي وأبني القصور وأكثر الدور وأقهر الأعداء ويزول الداء ، وأفاخر الأنداد ويكثر العدد والمدد والكراع والسلاح وهو غارق في بحار الأماني ولجج الخيال يطلب المحال ويرقب السراب وما مثلهم إلا كما قال طرفة :

لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى ... لكالطول المرخى وثنياه باليد
متى ما يشأ يوما يقده لحتفه ... ومن كان في حبل المنية ينقد

الطول بكسر ففتح كتف الحبل فهؤلاء في حبلنا مأسورون وفي قبضتنا مقهورون ، فمتى شئنا جلبناهم ، وفي الأموات سلكناهم فسوف يعلمون ، ولو شئنا لعجلنا العذاب فآبوا بالتباب ولكن لكل أجل كتاب ، فكل قرية لها كتاب معلوم فشأننا الامهال لا الاهمال وسدل الأستار على هؤلاء الكفار فغرهم ذلك الامهال فأخذوا يناضلون عبدنا ويستهزئون بنبينا وقالوا : يا أيها الذي نزل عليه الذكر إن ما تقوله أملاه عليك الجنون ، فليس له معنى معقول وإنه مخالف لآرائنا بعيد عن معتقداتنا ، فكيف نقبل ما لاتقبله العقول ولا ترضاه الفحول من رجالاتنا الفخام وعشائرنا العظام ؟ وإن كان ما تدعيه حقا مقبولا وقد أيدك الله وأرسلك فما منعك أن تسأله أن ينزل معك ملائكة من السماء يشهدون بنبوتك ، فمن يخالف آراءنا إما مجنون وإما له سلطان عظيم من ربه فيقويه بالملائكة .

حينئذ أجاب الله أن الملائكة لاينزلون إلا بالحق : أي إلا بالحكمة وليس في حضور الملائكة من السماء تشاهدونها لكم فائدة تفيدكم لأنكم إذا رأيتموهم قلتم إنهم بشر لأنكم لاتطيقون رؤية الملائكة إلا على الصورة البشرية وكيف تشاهدون ما لايكون من عالمكم ، ومتى قالوا نحن ملائكة كذبتموهم لأنهم على صورتكم ، وإذا أرسلناهم لغير ذلك فليكن لهلاككم ، فأي حكمة في زيادة الالباس في الأول وتعجيل الهلاك لكم في الثاني ، ولو أنا أنزلناهم لهلاككم ما تأخر العذاب عنكم ساعة (إنا نحن نزلنا الذكر الخ) إنما أنتم قوم مكذبون ضالون مستهزئون بنبينا فليس استهزاؤكم بضاره لأننا نحن نزلنا القرآن ونحن حافظوه ، فقولوا إنه مجنون وتقول إنا نحفظ الكتاب الذي أنزلناه عليه من الزيادة والنقص والتغيير والتبديل والتحريف والمعارضة وإبطاله وإفساده وسنقيض له علماء في الأجيال المقبلة يتولون حفظه ويذبون عنه ويدعون الناس إليه وسيخرجون للناس ما كمن فيه من العلوم لينا سب العصر الذي هم فيه ليقبل عليه المتنورون ويقرأه الجهلاء والمتعلمون فما قيمة نسبتكم إياه للجنون ؟ فلا تبتئس يا محمد بما يقولون . ولئن بشرناك بحفظ القرآن في سائر

الأزمان والأمم والأجيال لتقص عليك نبأ الأمم السالفة ، فلقد أصاب أنبياءهم ما أصابك به قومك فاستهزءوا بهم كما استهزأ قومك بك فنصرنا الأنبياء، وكبتنا الأعداء . هكذا نفعل باللاحقين كما فعلنا بالسابقين ويستهزئ بك المجرمون ثم تنصرك عليهم اقتفاء لسنتنا واتباعا لطريقتنا ، فهؤلاء لايؤمنون وسيحل بهم ماحل بالأولين وتنصرك بعد حين (ولو فتحنا عليهم الخ) .

وكيف يقترح هؤلاء عليك الآيات ويغرمون بما يخرق العادات من ملائكة يرونها وعجائب ينتظرونها وهل تغنى الآيات ؟ وما فائدة تلك المعجزات ؟ وهل هم بذلك يؤمنون ؟ وهل النوع الانسانى يكفيه ما يبهر الألباب ويخالف العادات ؟ كلا ثم كلا ! وأىّ مناسبة بين الخوارق والعلوم .

إن الناس لم يخلقوا فى الأرض سدى ، إنهم خلقوا ليعلموا ، وأى علم فى تلك المقترحات ؟ لا لا ! فكم من نبى أيدناه بتلك الآيات فلم يؤمن قومه إلا قليلا ، وما الآيات إلا ما تفهمه العقول وتفحصه درسا وتنقيحا ، أما ما يشتبه على الناس بأفعال السحرة والمشعوذين فذلك موقع فى اللبس ، فالعامة وإن كانت تبهرهم تلك الخوارق فإيمانهم طائح وأمرهم ضائع ، وليس للناس إلا التفكير فى عجائب الأرض والسموات . فهب أننا فتحنا عليهم من السماء بابا وقلنا اعرجوا فيه وعرجوا أفواجا ، أفلا يقولون فى أنفسهم ويقول بعضهم لبعض (إنما نحن قوم مسحورون) ؟ فلعل محمدا سحرنا كما يفعل علماء السيميا إذ يفعلون أفعالا تخيل للانسان أنه طائر وليس بطائر ، وكما يفعل علماء التنويم المغناطيسى فى هذه الأيام ، فلقد رأيناه بأعيننا ، وأن النوم يقول للمنوم (بفتح الواو) أنت ملك أنت امرأة أنت راقص أنت كذا أنت كذا ، فتراه يفعل ويصدق كل ماقيل له ، والنوع البشرى فى كل جيل فيه من لهم قدرة على استهواء العقول فيتخيل الانسان ما لاحقيقة له وهذا أصبح فى هذه الأيام علما يدرس ويقال فى المراسح العامة وهو فى أوروبا وأمريكا وقد جاء إلى مصر فكيف يكون مثل ذلك صالحا للدليل أو موجبا للتصديق ، كلا ! فأمثال هذا لايقوم بهداية نوع الانسان ، وإذا كان موسى وعيسى اتبعهم قومهم فلأنهم رأوا بعد ذلك آيات البصائر وحكمة التشريع ، ولو وقف الحد عند العجائب المذكورة لم تستقم الديانات ولم تثبت عليها الجماعات ، فثبت من هذا أن أمثال ذلك لاتقوم به أمة ولا تحيا به سنة .

فصل فى قوله تعالى « ولقد جعلنا فى السماء بروجا الخ »

وإنما الذى تقوم به الجماعات وتثبت به الأمم النظر الصحيح والفكر الحق . وكيف يريدون ماهو خارج عن عاداتهم ونحن جعلنا فى السماء النجوم الباهرة والبروج العالية والشموس الساطعة والأقمار النيرة والسيارات الدائرة والثوابت السامية وهم عن آياتها معرضون ، وكيف يعرضون عما زيناه ويذرون مانظمناه ويطلبون مالانفع فيه من المقترحات ؟ فهلا نظروا فى الكواكب وحسابها ونظامها ومداراتها ؟ وكيف كانت بها الفصول والسنون ؟ وكيف كان ذلك بمقادير محدودة وأوقات معلومة لاتبديل ولا تغير ؟ بأمثال هذا يكون اليقين وبه يكون الدين .

وهذه العوالم الجميلة وآياتها البديعة التى زيناها فهى بهجة الناظرين وسعادة المفكرين ، يراها البارّ والفاجر والبادى والحاضر ولكن ما كل مكشوف القناع ينال ، ولا كل ما رآه المرء بعينه له يختال ، كلا ! فالحسان يراهن الناظرون ولا ينال وصلهن إلا المقربون ، فالسماء وإن كانت مبذولة لكل ناظر معروضة لكل حىّ فهى محجوبة المعانى عن الغافلين (وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين) .

إن العامة والجهلاء من كل أمة لايؤمنون إلا بما يروعهم ولا يخضعون إلا لما يدهشهم ، أما العقول فهم عنها نازحون . وكما لايخضع الجهال إلا للسيف والعصا والنبل وللملوك القاهرين والحكام المسيطرين .

هكذا لايفرحون من العلم إلا بما كان غريبا بعيدا خارقا للعادات وما هو إلا كبرق خلب ثم يزول الأثر ويرجعون كما كانوا كافرين كمثل أولئك الذين يتبعون الشيوخ الناقصين فى الأمة الإسلامية إذ يخبرونهم بالعجائب ويرونهم أنهم أصحاب خرق العادات ثم لايلبثون أن يروهم كاذبين فيزول الأثر ويعظم الخطر . فالناس فى العلم ونوع الحكومات على طريقة واحدة ، وإذا كانت الحكومات مستبدة والهيئة العلمية نازحة عن المقصود إلى غيره دالت دولة الأمم ولم يكن لأهلها همم ، فلو أن دين الإسلام بنى على أمثال ذلك لم يخرج فيه قادة حكماء ولا علماء عظماء بل كان يسود فيه الماكرون ويغلب أهله الدجالون ، وهؤلاء يسودون فى كل أمة غلب جهلها وغفل أهلها ونام عقلاؤها وذهبت ريحها وغاب مجدها وسعدها ، فهل أمثال هؤلاء الدجالين ومن تبعهم من العامة أهل أن تكشف لهم عن عجائب السموات أو أن نريهم مالدينا من حساب وإتقان ، كلا ! فلقد حفظناها منهم ومنعناها عنهم شأن الذليل لايكترث بما قرب إليه ولايسعى إلا لما منع عنه ، وهذه السماء مزينة لمن له عقل به يفكر وذهن به يتدبر ، فنحن طردنا هؤلاء أن يلجوا أقطار السماء بالرأى والعقل ، فلقد حفظناها من كل شيطان رجيم من شياطين الانسان وشياطين الجن ، فإن الأرواح التى فارقت العوالم الجسمية إذاكانت فى برازخها لم تترك آراءها ولم تبعد عن اعتقاداتها ، فهؤلاء وهؤلاء محبوسون فى فهم مالايفيد وهم عن آيات السماء معرضون .

تحقيق فى قوله تعالى « إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين »

اعلم أن الناس أقسام ثلاثة : قوم هم المفكرون وهؤلاء هم الذين يدركون سر هذا الوجود على قدر الطاقة البشرية ، وقوم هم الجاهلون فلا يدركون له سرا إلا ما عليه عليهم قواهم الحسية من الملاذ والمطاعم ، وقوم بين هؤلاء وهؤلاء وهم الذين يتطلعون إلى ماوراء الحس بأن يسلكوا طريق الرياضة والجوع أياما وشهورا ويدخلون الخلوة أو بأن يحضروا الأرواح بالطرق الستة التى ذكرناها فى كتاب الأرواح ، وإما بطرق أخرى غير ذلك وهى كثيرة ؛ وهذه الطائفة بأنواعها لايخلو أصحابها من أحد خصلتين : إما أن يريدوا خلوص النفس حقا ، وإما أن يريدوا الاستعلاء على الناس للشهوات الدنيوية ، فإن أرادوا بذلك ارتقاء عقولهم وخلوص نفوسهم ومعرفة الحقائق فهم قد يصلون على مقدار هممهم بشرائط مخصوصة ، وإن أرادوا بالذكر والخلوة أواستحضار الأرواح الأمور الدنيوية والحياة الفانية ؛ كأن أرادوا الاستحواذ على الناس والعلو عليهم لينالوا نصيبا من مالهم ، فهؤلاء يذوقون النكال ولا يسمع مستحضر الأرواح منهم إلا أضاليل وأكاذيب كما هو واضح فى الكتاب المذكور ، وتجىء لتلك النفوس أرواح على قدر هممهم من الأرواح البرزخية فتلق إليهم الأوهام والأكاذيب . أما أصحاب الهمم العالية الذين قصدوا ارتقاء نفوسهم فإنها توافيهم الأرواح العالية وتلق إليهم مايناسب حالهم وهكذا المصفون نفوسهم بالصيام والذين يجلسون فى الخلوة بشروطها ، فهؤلاء إن صحت عزائمهم يلق إليهم فى أنفسهم مايرقى نفوسهم ، ومع ذلك كل هذا يحتاج إلى التفكر والتعقل .

فهذه هى الخطفات التى يخطفها الناس من عالم الأرواح والعالم الأعلى الذى هو غير عالم الحس . فخطفة تعطينا علما ، وخطفة تكون سببا للضلال لأنها من شياطين مناسبين لمن كلوهم ، فقوله تعالى فى سورة أخرى (إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب) ذلك فى القسم الثالث ، فإن كانوا من المخلصين فالشهاب الثاقب يعطيهم نورا وعلما ، وإن كانوا يريدون الحياة الدنيا كان لهم عذابا فإنهم إذا تمادوا فى ذلك ذلوا فى الدنيا وخاب فألهم لأنهم وضعوا الشىء فى غير موضعه . واعلم أن هذا مشاهد معروف ولكن الناس عنه غافلون .

وإذا عممنا القول فلنقل إن العلوم التي عرفها الناس قديما وحديثا تراد لأمرين : معرفة الحقائق لا كمال العقول ونظام المعايش والصناعات لتربية الأجسام ، وإلى الأول الاشارة بقوله تعالى (ولقد جعلنا فى السماء بروجا) وإلى الثانى الإشارة بقوله (وجعلنا لكم فيها معايش) الخ. هذان هما المقصودان من العلوم، فكل من خالف هاتين القاعدتين فهو على إحدى حالتين : إما أن يريد ابتزاز المال من الأمة بالاستعلاء بلا فائدة ، وإما أن يريد الذكر والصيت والشهرة لذاتها واعتقاد الناس فيه وذكر التاريخ له وكلاهما لا نفع فى عمله ولا فضل له ، فمن أكثر الذكر لهذه المقاصد أو دخل الخلوة لأجلها أو قرأ العلوم ولم ينفع الأمة وهو عالة عليها فهؤلاء داخلون فى نوع الشيطان الرجيم ، فمن يخبر بعض ما فى نفوس الناس من الأفكار بما يسمى الكشف ، والذين يقرءون العلوم لغاية الشهرة ، كل هؤلاء مرجومون مبعدون عن إدراك حقائق الكائنات . وبعضهم يعذب فى الدنيا بالذلة والاهانة والمرض وغير ذلك ، وهذه الآية كآية الصافات (إنا زينا السماء بزينة الكواكب . وحفظا من كل شيطان مارد . لا يسمعون إلى الملأ الأعلى) فلا يعرفون حقائق الأشياء (ويقذفون من كل جانب دحورا) بما ركب فيهم من الشهوات وما ابتلوا به من العادات وما أحاط بهم فى هذه الدنيا من أنواع البلايا فى المال والولد والأهل والأصحاب والأقران وذلك كله بتدبير الله فى العالم العلوى المشرف على الأرض المخرج النبات بنور الشمس والقمر والكواكب والحرارة المنبعثة من تلك العلويات فهذه نجم منها هذه العوالم الأرضية فكانت سببا لدحرهم وغمهم وهمهم وهم فى كرب من الحياة وأثقالها ، وكيف يفرون من عذاب الحياة بالمال والولد والأعداء، إلا بأن تكون نفوسهم راغبة فى الحقائق لذاتها فيتسلون بذلك عما يصيبهم ويرضون بما قدر لهم ولكن هؤلاء غارقون فى بحار الآمال فتنتابهم الآلام وهم يتخبطون وفى ديجور الظلام حائرون وفى حالك الدهر عائشون .

هذا قوله تعالى (ويقذفون من كل جانب دحورا ولهم عذاب واصب . إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب) كما قدمنا ، فإما أن يكون الشهاب لهداه ، وإما أن يكون لرداه ، وظاهر الآية يشير للثانى . ذلك هو شأن من على الأرض ، فإما مهديون هادون ؛ وإما أشقياء معذبون ، « والحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله » اه .

تنبيه فى تفسير الآية السابقة المناسبة لما نحن فيه وهى من سورة الصافات

قال تعالى (إنا زينا السماء الدنيا) أى القربى منكم (بزينة الكواكب) بالاضافة أو بالتنوين مع جعل الكواكب بدلا (وحفظا) أى وحفظناها حفظا (من كل شيطان مارد) خارج عن الطاعة برمى الشهب ثم استأنف فقال (لا يسمعون إلى الملأ الأعلى) وهو من التسمع وهو طلب السماع ، والملأ الأعلى : الملائكة أو أشرافهم (ويقذفون) ويرمون (من كل جانب) من جوانب السماء إذا قصدوا صعوده (دحورا) أى للدحور (ولهم عذاب) أى عذاب آخر (واصب) دائم أو شديد وهو عذاب الآخرة (إلا من خطف الخطفة) استثناء من واو يسمعون ، أى اختلس من كلام الملائكة مسارقة (فأتبعه شهاب) أى تبعه شهاب وهو ما يرى كأن كوكبا انقض (ثاقب) مضىء كأنه يثقب الجو بضوئه .

(١) فإذا سمعت هذه الآية الشريفة .

(٢) أو سمعت آية (تبارك الذى بيده الملك ـ ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح) بكواكب مضيئة بالليل إضاءة السرج فيها (وجعلناها رجوما للشياطين) أى شياطين الجن أو جعلناها ظنونا لشياطين الانس وهم المنجمون أو بسببها يتكون على الأرض ما به عذابهم النفسى (وأعتدنا لهم عذاب السعير) فى الآخرة بعد إحراقهم بالشهب .

وإذا سمعت حديث البخارى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « إذا قضى الله أمرا فى السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله كأنه سلسلة على صفوان ، فإذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا للذى قال الحق وهو العلى الكبير فيسمعها مسترقو السمع ومسترقو السمع هكذا بعضهم فوق بعض ، ووصف سفيان بكفه فحرّفها وبدد بين أصابعه فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته ثم يلقيها الآخر إلى من تحته حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها وربما ألقاها قبل أن يدركه فيكذب معها مائة كذبة فيقال له : أليس قد قال لنا كذا وكذا فيصدق بتلك الكلمة التى سمعت من السماء » .

فإذا سمعت هذه الآيات وهذا الحديث وأمثاله فاعلم أن ذلك داخل فيما حققناه أن الأرواح فى البرزخ تحن إلى أرواح بنى آدم ومتى كانت متشاكلة وبينها مناسبة وأمكن الإلقاء والتفاهم بالطرق المعروفة ، إما بإحضار الأرواح وإما بالجوع وإما بأشياء أخرى كبعض الأسماء ، وتلاقت روح الحى وروح الشيطان أو بعض الأرواح فى البرزخ وسألت الحية الروح الميتة عن أمر فإن الروح البرزخية تخبرها بالحق وبالباطل ، لأنها من الملأ الذى يسمى أعلى ، فقوله تعالى (لايسمعون إلى الملأ الأعلى) ظاهر واضح كما هو مقرر فى علم الأرواح ولكنهم يسمعون إلى الملأ الأدنى وهم ممنوعون عن العالم الأعلى كما يمنع السمك فى الدنيا أن يجرى على وجه الأرض ، وكما منع الحصان والجمل أن يطير فى الهواء ، فهكذا هذه الأرواح الميتة وهى منحطة المنزلة لاتستطيع الصعود إلى أعلى من منازلها وباتصالها بالأرواح الحية تلقى إليها ماعنّ لها حقا أو باطلا ، وقد ثبت فى علم الأرواح أن هذه الطبقة تلتمس المعارف الضئيلة بطرق تعرفها ولا تنال إلا مايناسبها ولها هناك عقاب على بعض ما تلقيه إلى إخوانها من الإنس كما قال تعالى « يامعشر الجن قد استكثرتم من الانس وقال أولياؤهم من الانس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا الخ » .

لطيفة فى أن القرآن أقرب للعلم الحديث جدا من العلم القديم وبه وحده تعرف معجزاته

اعلم أن القدماء من حكماء الاسلام الذين نقلوا الفلسفة عن اليونان كانوا قرروا أن هذه الشهب التى تنزل من السماء فى ليال مختلفة ليست من كواكب السماء ، وإنما هى دخان خارج من الأرض ارتقى إلى الطبقات العليا فى الجو ثم قرب من كرة النار فاحترق وضربوا لذلك الأمثال كما سيأتى واضطروا لهذا الرأى لأن السماء عندهم لايمكن التئامها ولا خرقها فهى دائمة أبد الآباد ودهر الدهارير ، فكانوا مضطرين حين يسمعون مثل هذه الآيات أن يقولوا هذه ظنون كما فعل الامام البيضاوى .

وقد أظهر العلم الحديث بطلان هذا الرأى وأصبح العلماء فى أوروبا يرون أن الشهب إنما هى قطع كوكبية سماوية كما سيأتى شرحه وليس للأرض فيها من سبيل ، فانظر كيف ظهر أن لفظ القرآن جاء بالحقيقة وكان الفلاسفة يرون أنه مستحيل ، فإذن لم يبق إلا مسألة حرق الشياطين ، فإذا قال البيضاوى إنه رجوم للمنجمين وقلنا نحن ورجوم لمن نحا نحوهم من كل من سار على هذا الدرب فذلك للفرار من أن الشيطان يحترق بالكواكب ، ولكن لانقدر أن نجزم بامتناع هذا بل نقول إذا كان آباؤنا وحكماؤنا كبر عليهم أن يخالف القرآن علم الفلك فى زمانهم ولم يرض المفسرون منهم أن يبقوا على مذاهبهم الفلسفية بل مشوا مع القرآن ثم ظهر بطلان المذهب القديم فهل هناك من مانع يمنع أن تكون الكواكب محرقة أو مخيفة أو مؤذية لتلك الأرواح ، ذلك نسلم به حتى ننظر المستقبل .

تحقيق الكلام على الشهب عند القدماء وعلماء أوروبا فى علم الآثار العلوية من علم الحكمة

نقلا من كتابى فى علم الفلسفة العربية

الشهب جمع شهاب : وهو مايرى كأنه كوكب انقض ، والنيازك جمع نيزك وهو معرب (نيزه) بالفارسية ومعناه الرمح القصير ويطلق على الشهاب تشبيها . ويقال : شهاب ثاقب ونجم ثاقب لأنه يثقب الظلام .

إن ما يرى فى الليالى قد انقض من السماء ليس كوكبا وإنما هى أجسام صغيرة لاتزيد الواحدة عن حجم البلاطة ، وهذه الأجسام كثيرة جدا ومنها مجموعة تسمى الأسدية وهى تتم دورتها حول الشمس فى شكل إهليلجى فى ٣٣ سنة ولا يحصى عدد هذه الشهب وقطرها ١٠٠ر٠٠٠ ميل أو أكثر والأرض لاتخترق فى سيرها هذه الأسديات إلا ثلاث مرات كل مائة عام ، وآخر مرة كانت سنة (١٨٦٦) وفى كل مرة تضيف آلاف الآلاف من هذه الشهب أو النيازك مما ينزل على سطحها ، وما النور الذى ينزل من تلك الشهب إلا من سرعتها واحتكاكها بمادة الجو كما يقدح الزناد وهى أكثر سقوطا فى ليال معلومة ، فهى تزيد فى (١٠) أغسطس و٢٧ نوفبر وتقل فى (٢٠) إبريل و٢٨ نوفبر و١٨ أكتوبر و٦ و٩ و١٣ ديسمبر ، ويقال إن عدد الشهب التى نراها نحو ١٥٠ر٠٠٠ر٠٠٠ وآلاف آلاف منها تصيب أرضنا وتبقى عليها .

الكرات النارية

هى أيضا أجسام مضيئة تظهر وتختفى مسرعة كالشهب لكنها أبطأ منها ، وتتمزق غالبا بالقرب من الأرض فتحدث فرقعة وقد يكون منها اهتزازات ، ومايقع منها على الأرض يسمى الحجارة الجوية ويدخل فى تركيبها الحديد والنيكل وغيره ، وارتفاع الشهب من (٨) كيلومتر إلى ٦٠ و١٠٠ و٢٠٠ كيلومترا وسرعتها متغيرة كارتفاعها وقد تساوى سرعة الأرض بل تزيد عنها ، ويقولون إن هذه الكرات عبارة عن مادة قطعها صغيرة الجرم دائرة حول الشمس ومتى قربت الأرض منها جذبت إليها بعض تلك القطع فتسقط على الأرض وتشتعل فى الجو على هيئة شهب وتسقط إلى الأرض على هيئة حجارة جوية .

فتأمل تجد الفرق بين القدماء والمحدثين أن الأولين يزعمون أن تلك المذنبات والشهب والنيازك والكرات عبارة عن بخار أرضى قابل النار فاحترق ، وعلماء العصر الحاضر يقولون سلمنا بالاحتراق من الاحتكاك لامن كرة الأثير فنحن لانقربها ولكن لانسلم أن المحترق هو البخار بل هو أجسام صغيرة دائرة حول الشمس تتخطفها أرضنا كأنه تتغذى بها بعد أن تطبخها فى جوها بالحرارة ثم تزدردها كما نزدرد نحن الحيوانات ، وهذه الأجسام الصغيرة الدائرة حول الشمس تسقط على الأرض دائما ولكن لها أيام خاصة يكثر سقوطها فيها إلى آخر ماتقدم وهذا آخر الكلام فى تفسير آية (ولقد جعلنا فى السماء بروجا وزيناها للناظرين. وحفظناها) إلى قوله (فأتبعه شهاب مبين) .

الكلام على تفسير (والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى الخ)

بعد أن وصف الله بهجة السماء وزينتها وأنها ازينت للناظرين المفكرين واحتجبت عن الغافلين أخذ يشرح جمال الأرض وبهجتها فذكر كيف مدها وثبت فيها جبالها وأنبت فيها من كل نبات موزون ، فعناصره موزونة وأغصانه وأوراقه وأزهاره وأثماره ، ألا ترى إلى ماذكرناه فى سورة البقرة من أن كل نبات قد وزنت عناصره وقدرت تقديرا .

ولقد ذكرت لك هناك أن الذرة مثلا فيها البوتاسا الداخلة فى الحب الذى نأكله ٣٢ فى المائة وهى داخلة فى الفول بنسبة ٤٢ ونصف فى المائة ، وفى القصب ٣٤ر٣٠ فى المائة وهى فى البطاطس ٦١ر٥ فى المائة ، وفى البرسيم ٣٤ر٦ فى المائة . هذا عنصر واحد دخل فى البرسيم وفى البطاطس وفى القصب وفى الذرة وفى الفول فكان متراوحا مابين ٣٢و٦١ وبهذا التفاوت صلح القصب لأن يكون سكرا والبرسيم لأن يكون قوت البهائم ، والفول لأن يكون مشتركا ، والبطاطس لأن نأكله ، والذرة لأن نقتات بها ولو اختلفت تلك المقادير لاختل البرسيم والذرة والقصب الخ ، فهذا اختلاف جزء واحد من الأجزاء الداخلة فى تراكيب هذه النباتات وهى البوتاسا والصودا والجير والمغنيسيا وحمض الفوسفوريك وحمض الكبريتيك والسلكا والكلور .

فهذه الأجزاء داخلة فى هذه النباتات بنسب مختلفة والنبات المركب منها يمتص بعروقه من الأرض الأغذية المناسبة لها .

الجذور وامتصاصها

تأمل رعاك الله . تأمل وقل لى كيف يستخرج النبات غذاءه من الأرض . إنه لا يمتصه إلا بعروقه الضاربة فيها يمصه ويرفعه إلى الساق والأغصان والأوراق والأزهار ، كل ذلك بعد الامتصاص ، فياليت شعرى ما الذى جعل هذا برسيما وهذا قمحا وهذا بطيخا ؟ أليست الأرض واحدة والنبات يمتص ؟ فلماذا دخل فى الذرة من البوتاسا مثلا مالم يدخل البرسيم؟ وما الذى وزن تلك المقادير التى رأيتها حتى أخذها النبات ولم يزد عليها ولم ينقص ؟ وأين الميزان وكيف كان الوزن ؟

يا عجبا ما الذى حدد المقادير وجعل لكل نبات مقدارا ولماذا لم تخطئ الجذور الضاربة فى الأرض ؟ ولماذا نجد جميع الجذور تأخذ بمقدار محدد نوع البوتاسا مثلا ، فترى أنها فى حب الذرة ٣٢ فى المائة . الجواب : إن الذى حدد ذلك هو تلك الفتحات الشعرية التى فى ظواهر الجذور ، وكما أن للانسان مسام يتنفس بها هكذا للزرع ثقوب دقيقة بها تمتص تلك الأصول من الأرض ، وههنا محل العجب فنقول : بأى وضع صنعت تلك الثقوب ؟

إن أنواع النبات تقدر بما يزيد عن مائتى ألف نوع ولكل نوع أصناف ، فكيف اختلفت تلك الثقوب اختلافا دقيقا ؟ حتى إن ثقوب كل نبات لا تسع إلا المقدار اللازم لها من العناصر وتطرد سواه لأنه لا يلائمها . وهذا محل العجب أن يكون ثقوب النبات وفتحاته كونت على هيئة بحيث لا تبتلع ولا تسع إلا تلك المقادير بعينها . ذلك هو العجب ومن هذه المسألة الجزئية تفهم قوله تعالى (وأنبتنا فيها من كل شئ موزون) .

جوهرة فى قوله تعالى (وأنبتنا فيها من كل شئ موزون)

هذه الآية بديعة من بدائع القرآن ومعجزة من معجزات العلم وحكمة باهرة وعجيبة ظاهرة .

إن هذا التفسير قد تجلى فيه نظام هذا العالم وأصبح الوزن والميزان والحساب وحسن النسق من أخص أوصاف هذه الدنيا وهذا الوجود فى كتاب الله تعالى . وحسبك ما تقرؤه فى سورة الرحمن من قوله تعالى (ووضع الميزان أن لا تطغوا فى الميزان) وزن الله الكواكب فى سيرها وفى وضعها وفى حركاتها وفى أضوائها ووزن العناصر بمقادير مع مناسبة بعضها لبعض كأنها صفوف منظمة كما ستراه فى سورة العنكبوت وهاهو ذا يقول هنا (وأنبتنا فيها من كل شئ موزون) .

اللهم إنك أنت الذى أنزلت الكتاب وأنت الذى نظمت وأحكمت ودبرت هذه الدنيا وأنت القائل فى المعنى إن كل شئ موزون ، وأنت القائل (قل انظروا ماذا فى السموات والأرض) وهذا النبات الموزون مما فى السموات والأرض ولقد خصصته بالبيان لتنير لنا الطريق التى نسلكها حتى نعرف نهج ميزانك فى العوالم من نظام النبات وأوراقه وأزهاره وثماره .

إن الله أنزل القرآن وجعل فيه جمال البلاغة وحسن الإلقاء ، كما خلق الحدائق والجنات فى الدنيا وجعل فيها الفواكه الحسنة اللذيذة للآكلين . فههنا لذة الذوق للآكلين وهناك لذة السمع للسامعين ، وما أجهل الإنسان إذا وقف عند لذة السمع أو اكتفى بحاسة الذوق .

إن لذة القراءة بلاغة أو حسن إلقاء يجترئ بها الغافلون والوقوف عند لذة الفاكهة والجهل بحقائقها شأن العاجزين ، والله يقول فى الأولين (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا)

كما

كما يقول (ومنهم أميون لايعلمون الكتاب إلا أمانىّ) ويقول فى الآخرين (ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم) .

ولما وصلت إلى هذا المقام جاء صديق ذكى صالح فقرأ ما سطرته الآن فقال :

(س) نحن نعرف أن النبات خلق الله وهو حسن ومنظم وماذا نبتغى فوق ذلك؟.

(ج) ليس يغنى هذا . وإذا سمع الناس قوله تعالى (أقيموا الصلاة) فهل يكفى فى ذلك أن يكرروا اللفظ وهم لايصلون ؟ أم الصلاة شئ ولفظها شئ آخر ، ولفظ الصلاة يدل على أقوال وأفعال مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم .

إذن ليس يكفى فى هذا المقام أن يقرأ القارئ (وإن من شئ إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم) ولا أن يرددها بصوت حسن ولا أن يعرف أن موزون فى الصرف اسم مفعول ، وفى النحو صفة لشئ ولا أن يعرف أن فى الآية من البلاغة حسن الانسجام وموافقة اللفظ للمعنى وما أشبه ذلك ، كما لم يكف أمثال ذلك فى قوله (أقيموا الصلاة) ولا فرق بين قارئ القرآن العارف بتلك العلوم المطبق لها على القرآن من بلاغة وصرف ونحو وبين آكل التفاح المتلذذ به ، كلاهما واقف عند الظواهر جاهل بالبواطن .

(س) ماهى هذه البواطن التى نسمع الصوفية يكررونها كثيرا ؟ فلعل هذا من تعبير الصوفية الذى يذكرونه ولا يدرى الناس ما مغزاه ؟ !

(ج) كلا إنى اليوم أريد أن أقرر حقيقة عجيبة ظهرت فى القرآن فى هذه الآية ، وهى أن كل نبات لاينبت ورقه على أغصانه إلا بنظام حسابى أو شكل هندسى وأكثر الناس يأكلون ولايحسبون ويقرءون القرآن وهم لا يعقلون .

(س) صف لى هذا الحساب وصف لى هذه الهندسة .

(ج) قبل أن أدخل معك فى هذا الموضوع أحدثك حديثا عن نفسى أيام الشباب وأنا منقطع عن الأزهر وأتوق إلى الرجوع إليه أيام كنت أشك فى أمر هذا الوجود :

ذلك أنى كنت أجلس على شاطئ نهر أبى الأخضر بجوار قريتنا المسماة (كفر عوض الله حجازى) وأنا حائر فى هذه الدنيا وأنظر إلى الأوراق على أشجارها وأقول : ياليت شعرى ! ألهذا الورق نظام هندسى أو حساب ومن ذا يوقفنى على سرائره ؟ أم من ذا الذى يعرّفنى حقائقه ؟ ومن أى شئ ركب ولعله ركب بحساب الخ مما تراه مسطورا فى كتابى «التاج المرصع» الذى انتشر وترجم قبل نحو عشرين سنة ، فانظر ماذا جرى اليوم ؟ أكتب هذا إليك وأنا حامد لموجد هذا العالم شاكر لنعمه ، فقد عرفت اليوم مالم يكن ليخطر لى على بال ، عرفت أن الورق منظم وضعه على الأغصان ، أتدرى من أين عرفته بها ؟ عرفته من هذا الكتاب الذى أمامى الآن المسمى «علوم للجميع» بلغة الإنجليز ، وأحسن من هذا أن يقال «موسوعات العلوم» هاهو ذا الكتاب أمامى لمؤلفه الأستاذ (روبرت براون) .

إن الله منزل القرآن خالق النبات بميزان هو الذى ألهم قلوبا فأبرزت ذلك الميزان فهو الذى أنزل القرآن بالعربية وسخر قلوبا فى بلاد الفرنجة لإبراز حقائقه وإن كان المسلمون والفرنجة لايعلمون أنه معنى القرآن . ولقد وفق الله اليوم واطلعت على هذه الحكم فى ذلك الكتاب ، وها أناذا أذكرها تبصرة للمسلمين وتذكرة للنابهين لعلهم يتعلمون حتى يعلم الأذكياء مصداق قوله تعالى (خلق الإنسان من عجل سأريكم آياتى فلا تستعجلون) وقوله تعالى (وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها) وقوله (فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه) .

الله أنزل القرآن، وهو الذى أبرز معناه على قلوب قوم آخرين، لأنه خلق نوع الإنسان للتعارف إذ يقول (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا) .

سيدهش المسلمون حين يعلمون أن هذا المؤلف فى صفحة (٧) من المجلد الثانى من كتابه قد أتى بمعنى هذه الآية وهو لايعلم ، وسيدهش أهل أوروبا حينما يرون أن خلاصة هذا العلم داخلة فى مضمون هذه الآية ، هذا هو سر التعارف ، يتعارف الشرقيون والغربيون بالعلوم والمعارف ويتناكرون بالجهل وهم صاغرون .

(س) قد عرفت مقدمتك فهات المقصود من حساب النبات وهندسته على شريطة أن أراه محسوسا أمامى ليكون تذكرة وتبصرة للمفكرين .

(ج) خذ غصنا من نبات بعض الحشائش أو شجر المردار المسمى بالفرنجة (إلم) بسكون اللام وغصنا من ضرب من (الزنبق) يسمى بالفرنجية (تيولب) وغصنا من التفاح أومن (الكرز) وغصنا من الكتان وغصنا من أغصان نوع من الصنوبر وغصنا من نوع يسمى بالفرنجية (لرش) فهذه ستة أغصان من أشجار مختلفة كالحشائش والزنبق والتفاح والكتان والصنوبر (ولرش) .

ضع هذه الأغصان أمامك . ضعها وانظر فسترى عجبا ، ترى أوراق الغصن الأول منتظمة عليه بحيث تكون كل ورقتين متناظرتين على الجانبين لكل منهما نصف الدائرة على الغصن والدائرة (٣٦٠) درجة والنصف (١٨٠) وهذا الكسر يبين ذلك وهو ½ فالبسط يبين أن الدائرة واحدة والمقام يبين عدد الورقات التى قسمت الدائرة بينها ، والغصن الثانى ترى فيه أوراقا ثلاثة على الغصن متحاذيات الوضع وقد قسمت الدائرة بينها ثلاثة أقسام ، كل قسم منها (١٢٠) درجة . والغصن الثالث من نحو التفاح والسنديان ترى عليه أوراقا مبتدئة بأولاها من الأسفل وتليها خمس ورقات قد كونت دائرة تامة مشتملة على دورتين حلزونيتين فتكون كل خمس ورقات لها هاتان الدورتان الحلزونيتان حول الغصن والورقة السادسة قد جاءت محاذية للورقة الأولى وهذه السادسة مبدأ دائرة ثانية تشتمل أيضا على دورتين حلزونيتين وهكذا دائرة فوق دائرة كل منها تشتمل على هاتين الحلزونيتين فتكون تلك الأوراق فى الدوائر أشبه بسلالم المنارة فإنها حلزونية الشكل والكسر الذى يبين هذا هو ⅖ فالبسط لعدد الدورات الحلزونية والمقام لعدد الورقات .

وعلى هذا القياس تعرف الغصن الرابع كغصن الكتان فدوراته الحلزونية (٣) وأوراقه فى الدائرة التامة على الغصن (٨) فبسط كسره ٣ ومقامه ٨ والغصن الخامس كغصن الصنوبر دوراته الحلزونية خمس وأوراقه فى تلك الدوائر (١٣) وبها تكون دائرة تامة والغصن السادس دوراته الحلزونية (٨) وأوراقه ٢١ ، وبهذه الأوراق والدورات تتم الدائرة الواحدة وهكذا ما بعدها .

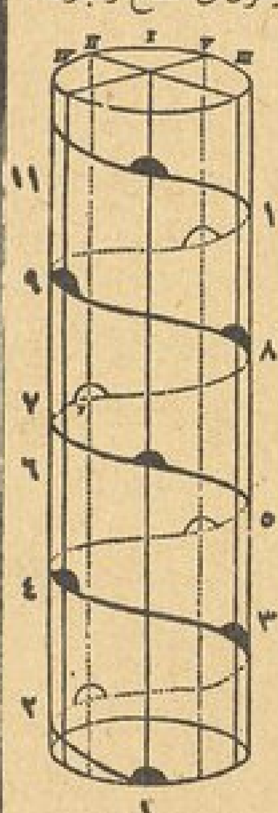
ها أناذا أيها الذكى ذكرت لك هذه الدوائر على تلك الأنواع الستة من الأشجار وقد آن أن أضعها لك صفا واحدا كما جاء فى ذلك الكتاب :

$$\frac{١}{٢} \quad \frac{١}{٣} \quad - \quad \frac{٢}{٥} \quad \frac{٣}{٨} \quad \frac{٥}{١٣} \quad \frac{٨}{٢١}$$

انظر أيها الذكى لهذا العجب وتأمل فى هذا الجدول الذى نقلته من ذلك الكتاب فلأبين لك بعض ما عرفه العقلاء .

الله

الله أكبر جلّ العلم وجلت الحكمة التى تنامت عن بلاد الشرق حينا وهاهى ذه أيامها قد أقبلت ، فانظر وتأمل فإنك تجد الكسر الثالث وهو المثل لغصن التفاح أو السنديان بسطه مجموع البسطين قبله فإنه ٢ وهما مجموع البسطين قبله وهكذا مقامه وهو (٥) فهو مجموع (٢و٣) وهكذا الكسر الرابع الممثل به للكتان ، فإن بسطه (٣) مجموع البسطين قبله (١و٢) ومقامه مجموع المقامين قبله وهما (٥و٣) وهكذا قل فى بقية الكسور ، ثم انظر نظرة أخرى فإنك تجد بسط الكسر الثالث هى عين مقام الكسر الأول وبسط الكسر الرابع هو عين مقام الكسر الثانى ، وبسط الكسر الخامس هوعين مقام الكسر الثالث ، إذن كل بسط لكسر من هذه هو عين مقام الكسر الذى قبله بواحد وهذه قاعدة مطردة ، هذا هو الذى قرأته فى هذا الكتاب وأردت إيضاحه هنا ، وهذه صورة الكسر الثالث الذى يكون فى التفاح والبلوط .



(شكل ١)

هاتان الصورتان المرسومتان : أولاهما صورة لغصن التفاح أو البلوط وقد دارت الأوراق عليه مبتدئة من الأسفل دائرة حول الغصن، فالورقة الأولى المعنون عنها بعدد واحد تلوها خمس قد صنعت دورتين حلزونيتين كما قدمنا والخامسة منها التى هى السادسة فى العدد تراها أمامك فى الرسم فوق الأولى على خط مستقيم وهى تمام الدائرة الأولى وتليها الدائرة الثانية ونهايتها ومبدأ الدائرة الثالثة عدد ١١ وهكذا هذا واضح فى الشكل الأول ، ولكن لما كان هذا لايظهر منه أن كل خمس ورقات دائرة تامة وجب رسم الشكل الثانى الذى يمثل الدائرة التامة من هذه الدوائر بورقاتها الخمس بوضعها الأفقى لتظهر للناس فيعلموا أن هذه الأوراق الموضوعة وضعا رأسيا هى دائرة تامة منظمة مقسمة خمسة أقسام بخمس ورقات كل قسم منها (٧٢) درجة تقسيما عادلا .

فانظر فى الشكل الثانى فإنك تجد الورقات الخمس التى صنعت دورتين حلزونيتين قد ظهرت واضحة جلية ؛ فالورقة الأولى عدد (١) والثانية عدد (٢) والثالثة عدد (٣) وهكذا إلى السادسة التى جاءت فى مقابلة الأولى على خط مستقيم ، فهذان الشكلان قد أوضحا الكسر الثالث وإياك أن تغفل عن أن هذا الكسر له علاقة بالكسرين قبله وبما بعده .



(شكل ٢)

فياليت شعرى أين المسلمون وأين هذه العلوم ؟ قرآن يقول الله فيه « وأنبتنا فيها من كل شئ موزون » ونبات ترسم عليه الأشكال الحلزونية والدوائر التامة النظامية للدهشة والناس يمرون ولا يعقلون ويأكلون ولا يفهمون، أف لقوم لايعلمون .

انظروا أيها المسلمون . أليس هذا كلام ربكم ؟ انظروا أليس يوجب أن تعم الهندسة ويعم الحساب ويعم علم النبات ويعم ويعم حتى يدرك الناس سر هذه الدنيا ؟

اللهم إن صنعك لعجب . نبات ونبات ونبات بين أوراقها حساب وحساب ، انتظمت أوراق شجرة التفاح مثلا وكونت حلزونيات ودوائر منتظمات وكأن بين هذه الدوائر ونظائرها فى نباتات أخرى مناسبات . اللهم إن أهل الأرض ما داموا غافلين عن هذا فهم بنعمتك كافرون . اللهم إن أهل الأرض إنما تنافروا لجهلهم صنعك ، ولو أنهم كانوا مفكرين حق التفكر (١) لكانوا أمة واحدة لأنهم إذا رأوا أن أوراق الأشجار بينها هذه النسب يعرفون من باب القياس التمثيلى ومن باب الوجدان أن العوالم كلها وضعت بحساب ونظمت ، وإذا نظم ورق النبات وجعل بينه نسب مقدرة فى النباتات المختلفة كما نظمت الكواكب وحركاتها فهل هذا كله ينظم وتبقى عقول الناس فى الأرض بلا رابطة وبلا حساب ؟ هذا غير معقول ! فالمعقول أن عقول الناس فى الأرض قد وضعت بحساب بحيث يكون فى كل أمة من يكفون لعلومها ولصناعاتها ، وبحيث يكون لكل أمة من أمم الأرض خواص بها تنفع الباقين .

إن الناس قد أمكنهم درس النبات واستعماله فى حاجاتهم وهو مسخر لهم ، أما العقول الإنسانية وقواها فهم عن دراستها واستخدامها فى المنافع العامة عاجزون ، وما دام أهل الأرض لا يعرف بعضهم بعضا ولا يدرسون أحوالهم وخواصهم فإنهم حقا أذلاء ، فأهل هذه الكرة الأرضية لا يزالون فى حرب وضرب حتى يقوم فيهم علماء يدرسون عقول الأمم وخواصها ويتحد الجميع طوعا أو كرها ، وحينئذ تكون الإنسانية كلها أمة واحدة كما أن أوراق النبات بينها نسبة جامعة ، انظر كتابى «أين الإنسان» وسترى ملخصه فى سورة الحجرات إن شاء الله وهذا نهاية الأمر الأول (٢) ولكن المسلمون منهم أعلم الناس بجمال الحساب والهندسة وعجائب الدنيا لأن العلوم كلها هى نفس دين الإسلام كما أوضحناه فى هذا التفسير فى هذا المقام وغيره (٣) ولعلم الإنسان أنه لا سعادة له إلا إذا كان نظامه فى نومه ويقظته وجميع أعماله بحسبان كنظام هذه الأوراق ونظام الكواكب فى السماء .

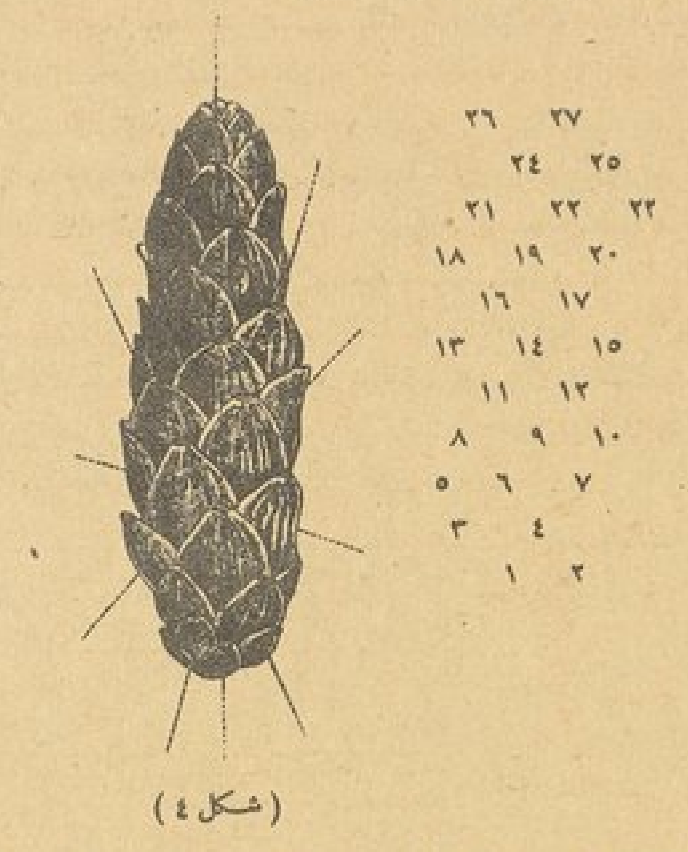
فلما سمع صاحبى ذلك : قال إنى أريد مثالا آخر مصورا بالتصوير الشمسى فقلت : هاك صورتين ، إحداهما صورة نبات يسمى باللسان الأفرنجى (هوس ليك) وهو نوع من الكرات وترجمته الكرات المنزلى ، ونظيره فى هذا الترتيب الحرشوف المسمى بالإفرنجية (أرتشوك) وأصله بالعربية فى بلاد الأندلس (أرض شوك) (شكل ٣) .



(شكل ٣)

والثانية

والثانية : صورة زهرة الصنوبر وهو مخروط (شكل ٤) .



(شكل ٤)

وهذه الصورة الرابعة إنما هي للزهرة الأنثى في الصنوبر ، أما الزهرة الذكر فهو أصغر ، هذان الشكلان وهما الثالث والرابع يمثلان الكسر الخامس وهو ٥/١٣ فعدد خمسة هو عدد الدورات الحلزونية التي تشاهدها أمامك وعدد ١٣ يبين عدد الورقات في الدائرة التامة ولذلك تجد عدد ١٤ هو نهاية الدورات الخمس للدائرة الأولى وهو مبدأ الدائرة الثانية ومبدأ الثالثة ٢٧ ، ومن عجب أن عدد ٥ وعدد ١٣ المذكورين يؤخذان أيضا مما يأتي وهو أن عدد ٥ ظاهر في الصف الذي فوق الواحد وهو ٦ و ١١ و١٦ فهذه أعداد يزيد كل واحد منها عما قبله بعدد (٥) وترى أمامك صفوفا أخرى فوق الواحد أيضا فإنك ترى عدد ٩ وعدد ١٧ وعدد ٢٥ كل واحد يزيد عما قبله بعدد ٨ فتراهم يقولون اجمع ٥ و٨ يكون عدد ١٣ الذي هو المقام هذا ما قالوه .

والمقصود من هذا أن في الأوراق نظاما ، ومن شدة إحكامه أن عدد ٥ في البسط وجد في صف من الصفوف وعدد ١٣ أمكن أخذه من الأعداد المكررة في صفين وهذا حقا من العجب ، فمن ذا الذي كان يظن أن هذه الأوراق منظمة ولها جداول ، ومن ذا الذي كان يظن أنها دوائر وأن هذه الدوائر لها نسبة إلى دوائر أخرى في أشجار أخرى ، بل إن الإنسان إذا عرف جميع أوراق النبات وعرف أوائل كل سلسلة منها أمكنه أن يعرف جميع السلسلة بدون أن يحفظ أعدادها والدليل على ذلك أنك تقدر أن تعرف سلسلة الكسر المتقدمة بمجرد معرفة الكسرين الأولين ، فما عليك إلا أن تجمع البسطين والمقامين وتأتي بالثالث ثم تفعل هكذا مع كل كسرين .

إن هذه النبذة التي ذكرتها هنا تبين أن نظام هذا العالم عبارة عن نظام واحد وأن للعلم مفاتيح ومتى عرفت المفاتيح فتحت بها العلوم ، فهنا مفتاح السلاسل الكسرية في النبات وهما الكسران الأولان

وبهما يعرف الجميع بالتدريج وهذا مثل ما ذكرناه فى قوله تعالى « وكل شئ عنده بمقدار » فإنك تجد هناك أن الكواكب السيارة تعرف أبعادها عن الشمس بمضاعفة بعد كل واحد عما قبله فارجع إليه هناك بالمضاعفات وهنا بجمع الكسرين السابقين بسطا ومقاما ، ومثل هذا ترى من السنين الكبيسة والبسيطة كما رأيته فى آخر سورة آل عمران فمتى عرف الإنسان منها (٢١٠) من السنين عرف جميع السنين آلافا وآلافا إلى ما لانهاية له ولولا هذا ما أمكن الناس أن يضعوا جداول لحساب الأوقات ، لحساب الأوراق ونظامها وحساب أبعاد الأفلاك وحساب دورات الأرض حول الشمس كلها ذات مفاتيح والمفاتيح بها تعرف العلوم ، فأما الغيب فمفاتيحه عند الله ، قال تعالى « وعنده مفاتح الغيب » .

فلما سمع صاحبي ذلك قال : نحن الآن لم نعرف إلا سلسلة واحدة وما عرفنا منها إلا ستة نباتات ، فقلت : لايصح إطالة الكلام وقد جعلنا هذا رمزا للسلسلة كلها ونظمها فنحن الآن فى مقام التفسير والتفسير علم عال والعلم العالى يختصر فى العلوم الجزئية ولا نطيل فيها فكفى الإنسان علما أن يتقن ما ذكرناه هنا ، فأما إذا أردت سلاسل أخرى وجداول فهاك ما جاء فى هذا الكتاب بإيضاح هنا :

١/٢	١/٣	٢/٥	٣/٨	٥/٣	٨/٢١	١٣/٣٤	الجدول الأول
١/٣	١/٤	٢/٧	٣/١١	٥/١٨	٨/٢٩	١٣/٤٧	الجدول الثانى
١/٤	١/٥	٢/٩	٣/١٤	٥/٢٣	٨/٣٧	١٣/٦٠	الجدول الثالث

فانظر إلى هذه الجداول بعد أن عرفت الجدول الأول وقد زدنا فيه واحدا فصار سبعة كأخويه ، فاعجب لذلك وانظر فإنك ترى الثالث من كل جدول منها مقامه عبارة عن مجموع البسط والمقام لنظيره فيما فوقه ، فإن ٢و٥ عبارة عن ٧ وهو مقام الكسر الثالث فى الجدول الثانى ومثله عدد ٩ وهو المقام للكسر الثالث فى الجدول الثالث وهو مجموع ٢و٧ وهما البسط والمقام لما فوقه وهكذا فى جميع الأعداد كل مقام لكسر يساوى مجموع البسط والمقام لما فوقه وهكذا كل بسط فى أى جدول وكل مقام هما مجموع مافى الكسرين قبله مثل ما جاء فى الجدول الأول ، ألا ترى أنك ترى أن عدد ٢ فى الكسر الثالث فى الجدول الثالث هو مجموع البسطين قبله وأن عدد ٩ وهو المقام فى هذا الكسر هو عين المقامين قبله وهما ٥و٤ انتهى .

« الله نور السموات والأرض »

ههنا تبين جمال العلم بل تبين جمال الله بل هنا ظهر نور الله (وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب) هذه هى الأرض وهذا هو النور ، النور على قسمين : نور يعرفه الحيوان والانسان ونور يختص بالانسان ، فنور الحيوان والانسان هو نور الكواكب والشمس ونور الانسان هو نور العلم ونور الحكمة فهذا من أبدع أنواع الحكمة وأجلها وأبهرها .

اللهم إنا نحمدك على العلم ونحمدك على الحكمة التى تجلت فى هذه الدنيا ، ننظر فنرى أنواعا من النبات جعل العلماء لها جداول منظمة كجداول الميقات فى حساب سير الكواكب ، ثم نرى النسب بين أوراقه ودورات كل صف من النبات بينه وبين دورات وأوراق الصف الآخر مناسبة ، ثم نرى أن هذه الجداول بينها مناسبات حتى إن كل جدول منها يمكن استنتاج الجدول الآخر منه ، فما أبهج العلم ! إننى وأنا أسطر

هذه

هذه الجداول ناقلا من الكتاب الفرنجى المتقدم ذكره كنت أكتب الكسرين الأولين من الكتاب ثم أكتب بقية تلك الكسور بطريق الجمع المتقدم بدون نظر للكتاب وبعد إتمام الكتابة أراجعه على مافى الكتاب فأجده لاخطأ فيه .

أوراق الأشجار أصبحت ذات نظام به يعرف مجهولها من معلومها وغائبها من حاضرها

هذا هو قوله تعالى (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب . الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض) فالذكر باللسان ثم بالقلب ثم يعقبهما التفكر فالتفكر هو المقصود وهذا من أبهج أنواع التفكر.

الله خلق هذا الإنسان ونظم له هذا الوجود وشوق خواصه للبحث ، إن الخواص فى كل أمة هم المسئولون عن نظام هذه الأعراس .

فلما سمع صاحبى ذلك قال أعراس أين هى الأعراس ؟ فقلت : هل أحدثك عما سمعته فى عالم الخيال من عالم يحدثنى ؟ قال عالم الخيال : نحن نبحث عن الحقائق ومالنا وللخيال ؟ فقلت إن الخيال جمال للحقيقة ، وما الخيال إلا زينة لعرائس الحقائق والحقيقة مختالة متكبرة فلا تظهر غالبا إلا فى أثوابها القشب وزينتها وجمالها لتبهر الأبصار بمظهرها ، فقال نعم أحب ذلك ، فقلت أنشدنى حى بن يقظان بيتا من الشعر فقال :

الناس فى مأتم والكون فى عرس　　يختال بالحسن فى الاشراق والغلس

فلما سمعته قلت ما معنى هذا البيت ، أين المأتم وأين العرس ؟ فقال اعلم رعاك الله أن هذا النوع الانسانى الذى أنت أحد أفراده قوم حبسوا فى هذه الأرض وهم أشبه بأناس قد سجنوا فى قصر الملك ، والملك زين القصر بأنواع الزينة ورقشه وزوقه وعلق فيه القناديل المضيئة المتلألئة البهجة المشرقة التى يكاد سناها يذهب بالأبصار ، وقد حضرت الوفود من سادات الأمم وأشرافها فأنزلهم فى دار ضيافته يتمتعون بما لذ وطاب من أنواع الاكرام وأطايب الطعام والفاكهة والشراب وهم على سرر متقابلين لايسمعون هناك لغوا ولا تأثيما إلا قيلا سلاما سلاما، هذا ما كان من أمر الاشراف ، أما أولئك الذين حبسوا فهم مقيدون فى سلاسلهم مكبلون فى قيودهم قد جعلت الأغلال فى أعناقهم فأنى لهم أن يروا جمال العرس وأن يتمتعوا بأطايب الطعام والشراب والفاكهة والاكرام، فهذا العالم الذى تعيشون فيه أشبه بهذا العرس والوفود المقبلون وأهل الأرض الذين معك أشبه بالمحبوسين، فقلت له لم يتضح لى القول، فقال إنى أبين لك هذا من نفسك، فقلت أريد ذلك ، فقال ألست تحس فى نفسك بهزة طرب وانتعاش وسعادة لانهاية لها أثناء النظر فى أمثال هذه الجداول النباتية والعجائب الحسابية فى الأرض وفى السماء . أليس هذا هو الحسن الذى تعشقه عقول العلماء والحكماء والأنبياء ؟ ألست ترى أن الشكل الأول من الأشكال الأربعة المرسومة فى هذا المقام أشبه بعمود قد علقت فيه قناديل مضيئة فى عرس عام ، وهذه القناديل منظمة بحيث ترى أن كل خمسة منها تكون دائرة تامة وهى قد دارت دورتين كوكبيتين كما تقدم فى كلامك ومع ذلك ترى أنها قد كونت صفوفا منظمة مستقيمة من أسفل إلى أعلى فتجد عدد (١) فوقه (٦) و (١١) وعدد (٣) فوقه عدد (٨) وهما صف آخر على اليمين ، وعدد (٢) فوقه عدد (٧) وهما صف واحد منظم ثم عدد (٤) فوقه عدد (٩) وهما صف واحد ، فالجمال مضاعف : جمال فى الشكل الكوكبى وهو الحلزونى ، وجمال فى الدوائر التامة ، وجمال فى الصفوف المنظمة من أسفل إلى أعلى وهى هنا خمسة ، وجمال فى نظام الأعداد فى الصف الواحد ، فإن كل واحد هو خامس ما قبله بحيث لا يكون فى ذلك خطأ فهذا النظام يراه الحكماء نورا يبهرهم ويزدرون بالأنوار الحسية ، فإن ذوى البصائر إذا أدركوا

أمثال هذا فى نبات أوحيوان أو كوكب ذهلوا عما حولهم واستغرقوا فى ذلك الجمال وطربوا طربا لايحس به الناس حولهم ، فالناس الذين يعيشون على هذه الأرض أكثرهم لا يدركون هذا الجمال ويكتفون منه بالمآكل والمشارب والملابس فهم محبوسون مقيدون بسلاسل الحواس والحكماء والمستبصرون هم الذين يعقلون، فالعامة هم المحبوسون والحكماء هم الذين يرون هذا الجمال ويفرحون به ، والله هو الذى مد لهم المائدة التى طلبوها وجعلها عيدا لأولهم وآخرهم وجعلها آية منه ورزقهم ، فقلت فبين لى معنى هذا المأتم ، فقال إن دول الأرض كلهم فى جملتهم لايعقلون من العلم إلا ظواهره ، فقلت إن هذا القول نقلته أنا من كتب الفرنجة فكيف تقول إنهم يقفون على الظواهر ، فقال إن الفرنجة الذين كتبوا هذا هم علماء النبات ، وعلماء النبات من شأنهم أنهم مختصون بعلم واحد ولكن ليس من شأن علماء النبات المباحث العامة التى تشمل نظام الوجود كله . إن أهل الأرض لايزالون فى حرب وضرب حتى يرشدوا ولا يرشدون إلا إذا ارتقى التعلم فى الأرض ، وارتقاء التعلم فى الأرض أن تكون هناك صبغة عامة وهى (صبغة الله) وصبغة الله هى الصبغة التى تصبغ بها قلوب كبار الأمم جميعها من عرب وعجم وشرق وغرب فيتفننون فى كل العلوم وينشرون فى المدارس الجمال العام مثل الذى تذكره أنت الآن لكل أمة على حسب ما يناسبها وتكون الأمم كلها مشتركة فى نظام التعليم العام مع مميزات كل أمة ويعلم الصغار فى المكاتب شرقا وغربا نظام الله العام وصبغته والفطرة العامة والميزان المنصوب ويعلمون أيضا أن الناس كلهم فوق الأرض متضامنون متناسبون كهذه النسبة المنظمة فى الكسور المتقدمة فى كلامك هذا وحينئذ يصبح نوع الانسان كله فى عرس ونور مبين ويحب الناس بعضهم بعضا أجمعين فهم كلهم كرجل واحد ، فقلت له ولكن ديننا فيه أن نغزو الكفار ونحاربهم . قال : أنسيت قوله تعالى (حتى تضع الحرب أوزارها) وهل نسيت قول العلماء إن هذه الحال حينما لايبقى فى الأرض إلا مسلم أو مسالم . إذن دين الاسلام الذى تحتج به هو الذى يحث عن السلم العام وعلى أهله أن يكونوا قادة للأمم فى سبيل السلام العام حتى يصبح أهل الأرض كلهم كأسرة واحدة وهذا هو الزمان الذى جاء فى الحديث أن الانسان يريد أن يعطى الصدقة لأحد فلا يجد فقيرا .

إن الشرائع سواء كانت بالوحى أم بالوضع لاسلطان لها إلا على المتنافرين ، فأما الصالحون الذين هم متحابون فهؤلاء لاسلطان للشرائع عليهم ، قوم لايقتل بعضهم بعضا ولا يسرق بعضهم بعضا فكيف يسطو القانون عليهم وقد نقلت أنت فى هذا التفسير أن أهل سويسرا ربما لايكون للقاضى إلا ثلاثة أيام يقوم فيها بالقضاء لقلة الشكاوى وفى بقية الشهر يبحث عن قوته بعمله ، وإذا صح هذا فى سويسرا فهو ممكن أيضا فى جميع الممالك شرقا وغربا والمسلمون هم أحق الأمم بذلك لأنهم جاءوا رحمة للعالمين وهم اليوم فى دور الجمود وسيقومون بدورهم الموعود وإذن يكون الناس كلهم فى عرس مثل هذا الوجود ، فقلت هذا هو الذى جاء فى كتابى (أين الانسان) .

فلما سمع ذلك صاحبى قال هذا حسن ولكن كيف تقيس الانسان على النبات وهل علم الحقائق يكون بالقياس والقياس علم ظنى ، فقلت وبالنص أيضا ، فقال وكيف ذلك ؟ فقلت : قال الله تعالى (والله أنبتكم من الأرض نباتا) فجعل الناس نباتا والنبات كله موزون ، فالوزن فى الانسان كالوزن فى النبات والنبات وزنه فى أمور كثيرة أهمها أربعة :

(١) نظام الأجزاء الداخلة فيه بحساب كما قدمنا فى سورة البقرة عند قوله تعالى (ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه) .

(٢) ونظام توزيعه على المناطق الحارة والمعتدلة والباردة .

(٣) ونظام توزيعه على مايحتاج إليه الانسان والحيوان من غداء وكساء ودواء وفاكهة .

(٤) ونظام أوراقه من حيث أوضاعها الذى كلامنا فيه .

ولا ريب أن الانسان قد وزعت على أفراده وأممه القوى كلها توزيعا كما قررناه فى كتابى [أين الانسان] بحيث يحتاج أعلاه إلى أدناه وشرقيه إلى غربيه وبالعكس ، فقال ماتقول فى حديث «بنى الاسلام على خمس» فالشهادتان والصلاة والزكاة والصيام والحج من أركان الاسلام ولم يرد ماقلته فى تلك الأركان ، فقلت له : إنما مثل الاسلام كمثل الانسان ، إن الانسان مركب من هيكل عظمى مشتمل على (٢٤٨) عضوا ، ومن عضلات وعروق وأحشاء ودماغ وحواس ظاهرة وباطنة .

فالقسم الأول : وهو هيكل العظام وهو أس هذا الانسان إذا عطل لم يكن له وجود ، فهو أشبه بأركان الاسلام الخمسة .

والقسم الثانى : من اللحم والشحم والعروق الخ هو المتمم للأول ، فالأول كالأعمى والثانى كالمقعد ، والأعمى يحمل المقعد والمقعد يريه مواقع المنافع ، هكذا دين الاسلام فهيكله الذى لاوجود له إلا به هو هذه الأركان الخمسة ولحمه ودمه ومخه وحواسه وعقله الخ هو هذه العلوم والصناعات التى بعضها فرض عين وبعضها فرض كفاية .

وإنى أحمد الله إذ أعاننى فقررت ذلك فى هذا الكتاب وشرح الله صدرى لذلك ، وسيكون هذا إن شاء الله موردا يرد إليه الأذكياء ويصدرون عنه حكماء ، فإذا اكتفى المسلمون بما هم عليه اليوم من إقامة شعائر الاسلام فهم كهيكل منصوب بدون مخ ولا عروق ولا لحم ولا دم فتتخطفهم الأمم من حولهم وهم نائمون وتكون بلاد الاسلام أشبه ببيت بنيت فيه خمسة أعمدة مرفوعة ليس عليها سقف فينصب عليهم المطر والحر والبرد وتسطو عليهم الوحوش الكواسر وهم فى ذل عظيم ، فهم اليوم عرضة للأمم من كل جانب ، ذلك لأنهم ظنوا أن الاسلام خاص بالأركان الخمسة وماهى إلا حافظة لشكله ولولاها لم يبق هذا الدين والشكل والهيئة لايكفيان ؛ وكما أن الانسان لايتم وجوده إلا بهيكل وبلحم وشحم ومخ وحواس الخ هكذا لايتم دين الاسلام إلا بجميع العلوم والصناعات التى أوضحناها فى هذا التفسير والله ولى الصالحين (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) والله خير الناصرين ، فقال : لقد أحسنت وأجدت ، فقلت الحمد لله رب العالمين .

بعد أن كتبت ماتقدم حضر لى كرة أخرى ذلك الصديق الصالح العالم وقال لقد عن لى أمر فأرجو السؤال عنه ، فقلت سل ، فقال أريد إيضاح الكلام على قوله تعالى (والله أنبتكم من الأرض نباتا) التى جاءت فى الكلام عرضا فى تفسير قوله تعالى (وأنبتنا فيها من كل شئ موزون) فقلت لقد ذكرت لك هناك مشابهة الانسان للنبات من وجوه كثيرة فماذا تريد إذن ؟ قال إن الكلام فى حاجة إلى إيضاح ، فقلت : إذن إيضاحها فى سورة الفتح ، قال ومامناسبة سورة الفتح لما هنا ؟ قلت : إن الله عز وجل ضرب مثلين للأمم الاسلامية :

المثل الأول : مثلهم فى التوراة أنهم أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا الخ .

المثل الثانى : مثلهم فى الانجيل ، فشبههم بزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ؛ ولقد شبه الله الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة فى سورة إبراهيم فقال (ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء) فالمثلان اللذان فى سورة الفتح أولهما أنهم يقهرون الأمم ويعبدون الله وسيماهم فى وجوههم من أثر السجود وهذا هو الحاصل الآن لأن أسلافنا نشروا الاسلام فى آسيا وأفريقيا وبعض أقطار أوروبا وفى الأوقيانوسية وبعض أهل أمريكا مسلمون .

واليهود أصحاب التوراة قوم كانوا مغرمين بالحرب والضرب ولكنهم من جهة أخرى لم يريدوا أن يكون دينهم عاما فلذلك قهرتهم الأمم وشتتوا فى البلاد إلى الآن وهم الآن (١٦) مليونا ، وكثير من ممالك أوروبا مكونة من أقل من عشرة ملايين ولكن القوم عندهم كتاب سماوى وبه حاربوا ولكن الله لم يسلطهم على الناس بالقتال لعله أنهم لاينشرون دينهم وإنما يريدون مجرد السلطان والقهر لأن عقيدتهم أنهم سادات الناس وأن الناس كالحيوانات وهم ساداتهم ، فمن هذه الوجهة سلط الله عليهم الرومان فأجلوهم الجلوة الكبرى بعد رفع المسيح عليه السلام إلى الآن .

أما الاسلام فإن الله أنزله دينا عاما وجاء فيه (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى) إلى قوله (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) ولكن اليهودى يقول إن الاكرام خاص ببنى إسرائيل ، إذن ضرب المثل للمسلمين فى التوراة بأنهم أقوياء أشداء على الكفار رحماء بينهم مناسب لبنى إسرائيل من وجهة واحدة .

أما الوجهة الأخرى فالمسلمون انتشروا فى الأرض ونشروا دينهم والمشبه بهم انتشروا فى الأرض ولم ينشروا دينهم لأنهم جعلوه دينا قوميا .

المثل الثانى : هو تشبيههم فى الانجيل بالزرع والزرع له نموّ وله ثمر ؛ ونمو الزرع يحصل منه أمران : قوة النبات وإنتاج الثمر والأمران هنا أولهما قوة الأمة وانتشارها ، وثانيهما قوة العلم والحكمة اللذين هما نتيجة الايمان والدليل على ذلك ما ذكرناه من تشبيه حكمة الايمان بالشجرة الطيبة فى سورة إبراهيم وحديث الاسراء من قول إبراهيم عليه السلام لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم «أخبر أمتك بأن الجنة طيبة التربة عذبة الماء وغراسها سبحان الله والحمد لله الخ» فإذن تحصل من هذا أن المثل الثانى فيه معنى الرقىّ العلمى والأخلاق بعد انتشار الدين والعبادة فى المثل الأول .

وبعبارة أخرى : امتلأت القلوب بخشية الله وحبه بجمال العلم إذ لايخشى الله إلا العالمون بصنعته كما قال تعالى (إنما يخشى الله من عباده العلماء) بعد ذكر الثمرات المختلف ألوانها وهكذا الجبال والدواب الخ .

إذن أمة الاسلام لها دوران :

الدور الأول دور فتح البلدان ، وهذا الدور قد كمل لأن المقصود دخول طوائف من الناس فى أقطار الكرة الأرضية فى دين الاسلام طوعا أو كرها .

أما الدور الثانى فهو المقصود من الدور الأول وهو الفتح العلمى ونشر حب الله بالعلوم والمعارف وإدراك نظام هذا الوجود وهو المثل الانجيلى ، لأن الانجيل إنما جاء لحب الله تعالى والغرام به ولم يؤمر المسيح بحرب ولا ضرب بل أصل الدين يرجع للأمور الروحانية ، فهذا المثل ينطبق على الأمم الاسلامية فى المستقبل بعض الانطباق .

إن الأمم الاسلامية المنتشرة اليوم فى أنحاء المعمورة الذين أدخلهم الله فى الاسلام ـ لعلمه أن هذا الدين عام ليس كدين اليهود ـ أصبحوا اليوم أجهل الأمم بهذا الوجود وليس لهم غالبا حظ من العلم إلا ظواهر الشريعة وقشورها ، أما حقائق الأشياء فهم عنها غافلون .

إن الاسلام يشتمل على قسمين :

القسم الأول : ظواهر العبادات من الصلاة والزكاة والصيام والحج وهكذا السمعيات : كالحشر والنشر والحساب والعقاب والنار والجنة فهذا هو القسم الأول .

القسم الثانى : هى حقائق الوجود التى ملىء بها هذا القرآن وأكثرها الله فيه وصرف عنها أكثر عقول المسلمين قديما وهاهوذا أخذ يفتح لهم باب فهمها والوقوف على حقائقها من الآن ، فالقسم الأول أوشك

أن ينتهى دوره ، والقسم الثانى هاهوذا قد أقبل زمانه وجاء إبانه وحضر موسمه وأشرقت شمسه وفاح عبيره وآنس أنسه وأبهج محضره وسر مخبره وابتهجت حدائقه وأزهرت أشجاره وأينعت أثماره كما ترى فى هذا التفسير وفى هذه الآية التى نحن بصدد الكلام عليها ، وهى قوله تعالى (وأنبتنا فيها من كل شئ موزون).

إذن عرفت أيها الذكى قولى لك إن تفسير قوله تعالى (والله أنبتكم من الأرض نباتا) يظهر سره فى سورة الفتح ، إن سورة الفتح قد ختمت بالمثلين المذكورين [أولهما] لنشر الأمم الاسلامية على وجه الأرض وقد تم [وثانيهما] لرقى العلوم والأخلاق، وأوانه يبتدئ من زماننا هذا .

إن الملك إذا أراد أن يزور قرية أرسل إلى أهلها فأعدوا له العدة وفرشوا الأماكن والطرق واحتشدوا، هكذا الله عز وجل أراد ولا راد لقضائه أن يعم الأرض بنعمه ويغمرها بإحسانه والمسلمون وهم سيكونون صفوتها خير من يعم عليهم بالعلم والحكمة فهو أولا بشرهم بالفتح الظاهرى ، وثانيا ملأ أوروبا وأمريكا واليابان والصين بالعلوم التى كلها هى معانى آيات القرآن كما اتضح فى هذا التفسير ، فهذه كلها نشرها الله فى الأرض وقال اليوم للمسلمين ها أنتم أولاء قد انتشرتم فى الأرض شرقها وغربها وجنوبها وشمالها وهاهى ذه العلوم تحيط بكم من كل جانب وكتابى يطلبها كلها وليس طلبه ذلك لآيات قليلة بل مئات من الآيات فلم يبق إلا أن تترجموا تلك العلوم كما هى وتدرسوها جميعها ويكفيكم فى ذلك (٢٠) سنة لاغير ثم بعد ذلك ادرسوا هذا الوجود بعقولكم دراسة أتم ، لأن القسم الأول من الدين تقليدى يؤخذ بالتسليم فتصلون وتصومون ، وليس لكم حق أن تقولوا لم كان كذا ولم كان كذا ، وهكذا تؤمنون بالبعث والحشر الخ وتسلمون بذلك تسليما .

أما القسم الثانى فهو لب اللباب وهو الجوهر المكنون وهو المقصود الأتم من دينكم المجيد فإذا قرأتم (قل انظروا ماذا فى السموات والأرض) نظرتم بعقولكم أحرارا كما نظر أهل أوروبا واليابان وأمريكا وأهل الصين ، تنظرون بعقولكم أحرارا إذ ليس ذلك مناقضا للقسم الأول بوجه من الوجوه ، فإذا قصرت أكثر الأمم الاسلامية فى هذا القسم فى العصور المتأخرة فإنى أيها المسلمون لم أتركم تتخبطون فى ديجور الظلام بل ألهمت الأمم فأبرزت العلوم وأمرتها فقاتلتكم ونشرت لغاتها فى بلادكم وذلك لأوقظكم إلى علومى ومعارفى التى أنا الصانع لموضوعاتها وأنا الشارح لصدور الناس ليدرسوها ، فها أناذا سهلت لكم السبل وذللتها .

خالطتم الأمم طوعا أو كرها وهم يحملون علوم مخلوقاتى التى أمرتكم بها فى كتابى ، تلك العلوم التى لاسبيل لمعرفتها إلا بالعقل المحض، بخلاف القسم الأول الذى لاسبيل إلى تغييره ولاتبديله، والاقتصار على القسم الأول من قسمى الدين مؤذن بالخراب مؤد إلى الجمود مهلك الأمم . أما القسم الثانى فهو المقصود الأعظم من هذا الوجود وهو المقصود من مثلكم فى الانجيل وأنكم كزرع أخرج شطأه الخ .

فتبين من هذا أيها الفاضل الذكى هنا أن الفتح فتحان فتح البلدان وفتح العلوم ، وكلاهما جاء فى آخر سورة الفتح وفتح العلوم هو المقصود الأتم وهو المناسب لتفسير آية (وأنبتنا فيها من كل شئ موزون) فإن المعانى المدرجة فيها فتح علمى لافتح البلدان ، إن فتح البلدان قد خاف منه النبى صلى الله عليه وسلم إذ قال « إن أخوف ما أخاف عليكم مايفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها » الحديث ، وقد تقدم عن الشيخين فى سورة الأنفال ، فالنبى صلى الله عليه وسلم يقول إن هذا أخوف ما يخاف علينا والمخوف منه قد تحقق فعلا فليس فى قدرته صلى الله عليه وسلم رد قضاء الله وقدره وقد قضى الله بأن ما خاف منه النبى صلى الله عليه وسلم

قد كل وهم وذلك أن فتح البلدان يورث التنازع على الملك وعلى الغنائم وعلى المال وعلى اللذات والشهوات وينتهى ذلك بزوال الملك، وقد حصل هذا كله أيام بنى أمية وبنى العباس وانتهى الأمر بضعف المسلمين وانحلال العزائم ، ومن أعظم ما خافه صلى الله عليه وسلم ما جاء فى البخارى « ويل للعرب من شر قد اقترب » وسيأتى إيضاح هذا المقام فى آخر سورة الكهف عند ذكر يأجوج ومأجوج إذ ترى هناك أن الأمم الإسلامية فوجئت بالتتار الذين دخلوا بلاد الإسلام فى نحو القرن السابع الهجرى وأهلكوا الحرث والنسل . هذا هو الفتح الأول من الفتحين وهو الفتح الذى خافه صلى الله عليه وسلم الذى جعل مقدمة للفتح العلمى الذى سيكون بعد انتشار هذا التفسير وأمثاله إذ ستطلق العقول من عقالها وينطلق المسلمون إلى شرق البلاد وغربها لدراسة الأرض والسماء، كما انطلق آباؤنا فى شرق البلاد وغربها لفتحها ، فها أنا ذا أدعو المسلمين لجنى ثمار الفتح الأول وذلك بالفتح الثانى .

نحن الآن جئنا فى زمان وجدنا الأمور ممهدة لنا والسبل مذللة ، وإذا ذلل الله للنمل سبلها وهى حشرات فهاهو ذا سهل لنا سبلنا ، ونحن من نوع الإنسان ، سهل الله لنا السبل فلسنا نحتاج إلى حرب ولا ضرب ، وهذا التفسير مثلا ينتشر فى بلاد أفريقيا وآسيا وغيرهما لأن الطرق مذللة والفتح الاسلامى الأول مهد لهذا التفسير ولأمثاله أن يقرأ ، فالعلوم ونشرها اليوم فتح علمى بعد الفتح الأول للبلدان ، وعلى كل من قرأ هذا التفسير أن يكون أمة وحده يهدى الناس إلى العلوم ومعرفتها ونشرها ، ومن فهم ما كتبته فى هذا التفسير فقد شاركنى فى الرأى والفهم فوجب عليه ما وجب علىّ بل عليه أن يعمل كل ما فى طاقته ، أما أنا فليس فى طاقتى إلا ما صنعته (لا تكلف نفس إلا وسعها) فربما كلف غيرى بما لم أكلف به إذا كان على استعداد أتم فى مال أو جاه أو علم ، والله هو الولىّ الحميد .

فلما سمع صاحبى ذلك قال لقد أفدت إفادة تامة ولكنى أرجو أن تزيد القول إيضاحا ، أما أنا فقد اكتفيت ولكن كلما تضافرت الأدلة على المدلول ازداد المعنى إيضاحا وأرى أن هذا المقام شائق والله واسع العلم فاطلب من الله يزدك علما فيزيد النور ، فقلت : قال الله تعالى «إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا . فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا» .

إن هذه السورة هى ملخص ما تقدم ، ألم تر أنه أمره بعد النصر والفتح ودخول الناس أفواجا فى الدين أن يسبح بحمد الله ويستغفره ؟ فياليت شعرى ما التسبيح والتحميد ؟ أليس الأول تنزيه الله عن الشريك والثانى اختصاصه بالحمد ؟ وقد عرفت أن الحمد يرجع لسائر العلوم إذ لاحمد إلا على نعم والنعمة المجهولة يكون الحمد عليها نفاقا وكذبا وزورا .

ومن حمد أحدا بلا نعمة يعلمها فهو منافق أو مستهزئ ورجل زور ؛ ولقد كان صلى الله عليه وسلم بعد فتح مكة يكثر من التسبيح والتحميد ، ياليت شعرى أليس معنى هذا أنه يعلمنا ؟ وهل هذه السورة جاءت لنقرأها نحن مجرد قراءة أم جاءت لنقتدى بنبينا صلى الله عليه وسلم ونبينا صلى الله عليه وسلم بعد الفتح كان يحمد الله وهو قد أفرغت عليه سائر العلوم ، أما نحن فلم تفرغ علينا العلوم وإنما نحن مأمورون بالاجتهاد فى العلم كما قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ونحن على أثره « قل رب زدنى علما» فنحن اليوم مأمورون بالعلوم لنحمد الله بحق بعد انتشار الاسلام فى الأقطار .

الأمم الإسلامية اليوم يجب عليها حمد الله ولا معنى لحمد الله بغير علم بالمحمود عليه وهى سائر المخلوقات التى إذا جهلت كان الحمد عليها رياء وكذبا ، فهذه السورة يؤخذ منها بطريق الاشارة والرمز أن الأمم الاسلامية تجد فى آخر الزمان فى العلم والحكمة وتعرف العلوم ولذلك كثر الحمد فى القرآن وتسمع المسلم فى صلاته يقرأ

ـ الحمد لله ـ فى كل ركعة والحمد جاء فى أول سورة من القرآن من حيث ترتيب القرآن فى السور ، والمسلمون يسمون الحامدين ، يحمدون الله فى السراء والضراء وبعد الأكل والشرب وعند النوم والنعم ، ويقول المسلم فى صلاة الصبح « فلك الحمد على ماقضيت الخ » قال الله تعالى (وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين) ونبينا صلى الله عليه وسلم له مقام الحمد والله يقول لنا (وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها) وهذا يدل دلالة الاشارة أن آخر هذه الأمة يوقفهم الله على عجائب صنعه فيعرفونه وهذا أوانه، وإنى أحمد الله عز وجل الذى وفق لهذا التفسير ومنح وهدى وأعطى وهو سبحانه سيلهم كثيرا من قرائه يبذل النفس والنفيس والمهج فى سبيل نشر العلم وتعميم التعليم للعلوم كلها والصناعات وحب الله تعالى .

إن الأمة الاسلامية كلما زاد علمها بهذا الوجود ازدادت ثمراتها فى الحياة وأصبحت قدوة للناس شرقا وغربا، إن الأمم اليوم تقرأ العلوم ولكنها لاتقول إنها موافقة لأديانها ، أما ميزة الأمم الاسلامية بعد انتشار هذا التفسير ونحوه فإنها تقرأ العلوم وهى موقنة أنها مقصودة من الدين بل سيقرءونها ويعلمون أنه لانسبة بين تلك العلوم وبين العبادات .

إن العالم بعلوم هذه الدنيا أفضل من العابد بما لاحصر له ، قال تعالى (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) وقد ذكر ابن عباس أن بين العالم والعابد درجات كثيرة كل درجة منها كما بين السماء والأرض، إذ من ميزة الأمم الاسلامية المستقبلة أنها تقرأ العلوم وهى مستغرقة فى حب الله ، فإذا كان ظاهر علوم الفلك أو علم النبات مثلا يرجع لأمور الحياة فإن عجائبه وبواطنه كما رأيته فى هذا التفسير يرجع للغرام بالله تعالى ، وكلما زاد الناس علما دنيويا ازدادوا بجانبه علما بربهم وعلى مقدار سعادتهم بعلوم الدنيا تكون سعادتهم بربهم وبجنته وبرحمته الواسعة .

والدليل على ذلك مامر آنفا فى هذا المقام فى تفسير (وأنبتنا فيها من كل شئ موزون) فإن نظام الأوراق لم نصل لحسن إبداعه فوق الأشجار المختلفة إلا بعد نقل ذلك من كتب الفرنجة ، والمؤلف لذلك الكتاب يقول إن هذا العلم نقله عن علماء النبات ، إذن جمال النبات وغير النبات لايعرف إلا بعد استيفاء نفس العلم بمصالح الدنيا الذى هو فرض كفاية فى ديننا ، أما النظر العام فى جماله فذلك فرض عين على من قدر عليه لأمرين للتوحيد والشكر . ففى علم النبات ثلاثة فروض : فرض كفاية لمصالح الدنيا ، وفرضا عين هما التوحيد والشكر لأمر الآخرة ، وبعبارة أخرى : لارتقاء النفس والحب والبهجة ، وهذا العلم على هذا النحو هو المقصود من هذه الدنيا بل لذة العلم هى المقصود فى الدنيا والآخرة بل القرب من الله إنما يكون بالعلم .

وهذه المعانى ليست فى أكثر كتب الفرنجة بل هم يقرءون العلم من حيث هو ولا مقصد لهم سواه لأن دينهم ليس فيه حض على العلم بوضوح كما فى القرآن ، فإذن أمم الاسلام متى عرفت هذا النظام ترقى أكثر من الفرنجة بعد ترجمة علومهم ، فدين الاسلام قسمان : قسم هو العلوم كلها بها يتقرب العبد لله ويكون من أوليائه وبهذا يصبح الأولياء والصديقون فى الأمم الاسلامية والطبقة الراقية كلها يشاركون أوروبا وأمريكا واليابان فى علومهم ولغاتهم وفى التاريخ والآثار وعوالم الكواكب والنبات والحيوان الخ والقسم الآخر يختص بالمسلمين وهو العبادات ونحوها وبهذا يصبح المسلمون أغنى من جميع الناس فى العلم وفى الدنيا وفى الدين ، وكيف لايكون كذلك والدين أصبح هو نفس هذه المدنية بعينها ونصها والقربى إلى الله بنفس هذه العلوم كما رأيت فتكون علومهم شارحة لصدورهم مقربة لربهم نافعة لأبناء نوعهم من الآدميين . سيكون فى العالم أمة إسلامية خليفة لربها يقتدى بها المقتدون تشارك الأمم فى علومها وتزيد عليها العشق والحب والغرام بهذا

الوجود الذى تعيش فيه وصبح فيهم حكماء فإن الحكمة أولها حب العلم ، ووسطها معرفة العلوم ونهايتها حب الله والتخلق بجميل الأخلاق .

فغز بعلم تعش حيا به أبدا   الناس موتى وأهل العلم أحياء
وقيمة المرء ما قدكان يحسنه   والجاهلون لأهل العلم أعداء

فلما سمع صاحبى ذلك قال لقد أجدت وأحسنت ولكنى أريد أن تلخص لى ما تقدم كله فى بضعة أسطر وتزيد عليه كيف عميت هذه الحقائق عن أكثر المتقدمين ، فقلت : إن محصل ماتقدم: أولا إن آية النبات ووزنه ظهر سرها فى كتب الفرنجة وأنهم قد عرفوا الأوراق وترتيبها وترتيب دوائرها بحيث جعلوا لها جداول مرتبات منظمة من الكسور الاعتيادية وبين هذه الكسور مناسبة كالتى بين الجداول المتقدمة . وثانيا أن الأمم فى نظامها كالنبات فى إتقانه فالناس لو فطنوا لأدركوا أنهم فى نظامهم محتاج ومتوقف بعضهم على بعض فى جميع الكرة الأرضية ولا يزالون فى ذل حتى يصلوا لهذه النتيجة . وثالثا أن الله جعل الانسان نباتا وضرب المثل بالزرع فى سورة الفتح للمسلمين . ورابعا أن الفتح فتحان فتح بلاد وقد تم أمره، وفتح علوم وهو الذى سيكون بعد نشر هذا التفسير وأمثاله ، وفتح البلدان خاف منه نبينا صلى الله عليه وسلم وفتح العلم أمرنا بالزيادة منه ، فالفتح العلمى مأمون العواقب وهو الزمان المستقبل الذى تم فيه الصفة المحمدية المسماة بالعيسوية تصطلح فيها سائر الأمم ، ويستحيل اصطلاح الأمم والمسلمون والأمم معا جاهلون .

أما قولك كيف عميت هذه الحقائق على كثير من أسلافنا فاعلم أن الله هو الذى قال (سأريكم آياتى) وقال (وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها) إن الله عز وجل لايخلق الأمور إلا فى أوقاتها المناسبة وهذا الزمان أنسب الأزمنة لذلك لاسيما بعد أن ذاق المسلمون ذل الجهل وتجرعوا صابه وأوصابه ، فالأجيال المقبلة سيقبلون على هذه العلوم بعد إدبار آبائهم عنها ويحرصون على تحصيلها حرص آبائهم على تركها والتبرى منها ، وعلى مقدار اقتراب بعض المتقدمين لله بمعاداة هذه العلوم يكون اقتراب أبنائنا لله تعالى بمحبة هذه العلوم والانغماس فيها .

الكلام على نحو الفتوحات المكية لابن عربى

واعلم أن الأمم الاسلامية لما أفل نجمها وغابت شمسها وأدبر سعدها وأقبل نحسها أذلت العلماء ومحت آثارهم كما حصل لابن رشد بالأندلس ولكتاب الإحياء فى تلك الأرجاء من الاحراق والتمزيق ، لذلك أخذ الخلف منهم يعلمون العلوم باسم التصوف كما ترى فى الفتوحات المكية لابن عربى وفى الفصوص له ، فالكتاب بحر متلاطم الأمواج فى وحدة الوجود ونحوها . وقد كان الأذكياء من علماء الاسلام يقرءون هذا الكتاب فيخيل إلى أنهم أشبه بذباب غرق فى العسل .

إن ذلك الكتاب بحر لجى لاساحل له بقلم فياض ولكن القارىء له ينصرف بالكلية غالبا عن العلوم المحيطة بالناس فى السموات والأرض، وليس معنى هذا أنه ليس فيه هذه العلوم ؟ كلا ! بل إنه هو كان يعرف الفلسفة القديمة معرفة تامة وكذلك الشريعة الاسلامية وهما فى يديه معا يتصرف فيهما بالانشاء، ولكن غلبت على الكتاب الأمور الغائبة عن العيان ، فكان القارىء له يضيع بقية الحياة فى حل رموز الكتاب ويرى نفسه ليس أهلا لفكر آخر ولا لاجتهاد .

واعلم أن الله عز وجل ألهم بهذا التفسير لتزن القوى فى الأمم الاسلامية ، فإن هذا التفسير وأمثاله يجعل فى الناس شوقا إلى معرفة العوالم العلوية والسفلية ومشاركة الأمم والعلو عليها فى علومها ولكن الفتوحات

وأمثال الفتوحات كثيرا ما تلقى فى وهم القارىء أنه ليس أهلا لأى فكر ولأى اجتهاد لأن مافى الفتوحات فوق متناول العقول البشرية فتقف العقول غالبا، والله أسأل أن يهدى بهذا التفسير أمما وأمما وأن يجعله خالصا لوجهه الكريم ، انتهى ،

السكلام على قوله تعالى « وجعلنا لكم فيها معايش »

يقول الله تعالى إن أنواع معاشكم التى تغذيكم وترويكم وتلبسكم وتداويكم قد سخرناها لكم فى الأرض فلا السمك فى البحر غذيتموه ولا الطير فى جوّ السماء ربيتموه ولا غيرها من أشجار الجبال وغابات الأرض وعجائب البر والبحر خلقتموه ، إن فى خزائننا من أنواع المعادن النفيسة والمخلوقات البديعة ما لاحصر له ولكنا لانعطيه لكم إلا بمقدار ولا نمنحكم إلا بحساب .

ألم تروا إلى الرياح كيف جرت لحكمة دبرناها وآية بيناها ؟ فهى تحمل السحاب وتلقح الأشجار ، وما الرياح إلا الهواء أثارته الحرارة الشمسية فكان ما كان من الرياح وأقلها يجتاز قدمين فى الثانية الواحدة والنسيم سرعته خمسة أقدام فيها والمعتدل من الرياح من ١٠ إلى ١٦ قدما فى الثانية وقواصف المناطق المعتدلة من ٦٠ قدما فى الثانية إلى ١٠٠ قدم وهى فى المناطق الحارة من ١٠٠ قدم إلى ٣٠٠ قدم والسكة التى تخرج من المدافع تقطع ٦٠٠ قدم فى الثانية باعتبار المتوسط ، وفى أول خروجها ضعف هذا أى نحو ١٣٠٠ فأعظم الرياح يجرى كنصف متوسط تلك السكة والصوت الذى يجرى مع الريح فى اتجاهه يقطع ١٠٠٠ قدم فى الثانية ، والضوء يقطع (١٨٦) ألف ميل وإنما قرنت لك سرعة الهواء بسرعة المدفع وسرعة الصوت وسرعة الضوء لتطلع على خزائنه التى أبرز بعضها لنا ، وترى أن تلك السرعات المختلفة جاءت لمصالحنا وهى مما أبرزه من خزائنه .

أفلست ترى أن سرعة الريح لو كانت دائما أشبه بالعواصف فى البلاد الحارة لم يستقر الحيوان والإنسان ولساءت الحال ولم يتمّ العمران . أولست ترى أنه لو بقى الهواء ساكنا لم يتم لقح النبات ولم ينتظم ولم تجر السفن ولم يسعد الناس الخ ؟ ألست ترى أن اعتدال النسيم تارة وقصف القواصف وعصف العواصف فى بعض الأوقات بعض الخزائن المخزونة التى أخرجها الله بحكمة لإسعادنا ؟ أولست ترى أن سرعة الضوء لو لم تكن بهذا القدار لكانت الأرض مختلة النظام فى حياة من عليها أعنى أن الضوء لو كانت سرعته كسرعة الريح لم يصل لنا ضوء الشمس سريعا كما يصل الآن فتأمل هذا المخزن الذى أمامك وهو مخزن الحركات التى فى الرياح وقل لى . أليس الهواء، لولا حركته ماجرت السحب بالرياح ولولا الرياح لم يلقح الشجر . إن حياتنا وديعة أودعها الله فى الأرض وأوصى عليها الهواء وقال للحرارة حركى الرياح بحيث تزجى السحاب فى أوقات معلومة ولو أن الرياح كانت ساكنة لم نعش ألبتة ، فما الذى يحمل السحاب فينزل المطر ؟ وقال أيضا احملى أيتها الرياح لقح الأزهار التى هى ذكور إلى الأزهار التى هى إناث .

يقول الله لها احملى طلع الذكور وضعيه على الإناث من كل نبات لتخرج الثمار والفواكه للناس ، سيرى أيتها الرياح بلطف ولا تكونى كالقواصف ليستقر الطلع فى الأماكن التى وصل إليها ولتسير السفن فى البحر فلا تكسر قلوعها بسرعتك الشديدة وحركى أيتها الرياح الأشجار لتدفعى عنها ما علق بها من الغبار وليكون ذلك رياضة للشجر والزرع كرياضة الحيوانات لينفذ الغذاء فى المسام ، فالنبات بتحريكك له والحيوان باختياره فى الحركات الحربية والحركات الرياضية ، فهذه خزائنى أيتها الرياح فيك أودعتها لأهنىء مخلوقاتى على الأرض وأجعل جريك بقدر مقدور .

هذه بعض خزائن الله فى الهواء ذكرها الله هنا ليتبين الناس كيف كانت الخزائن فى بقية المخلوقات وهذا

هو قوله تعالى (وإن من شيء إلا عندنا خزائنه) إلى قوله (فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين) .

ومن خزائن الهواء الرياح الدائمة المنظمة والرياح الدورية والرياح المختلفة

فالرياح المنظمة تذهب من الشرق إلى الغرب ومن القطبين إلى خط الاستواء ، فالتي تذهب من الشرق إلى الغرب تكون بين مدار السرطان ومدار الجدى جاءت من حرارة الشمس ومن حركة الأرض حول محورها ؛ لحرارة الشمس تجعل الهواء خفيفا فيعلو ويسير ، والهواء في المنطقة المعتدلة والمنطقة المتجمدة في نصف الكرة يجرى إلى ما بين المدارين ليحل محل الهواء التي خف وارتفع لجرى الرياح هناك دائم ولا يستشعر به إلا على بعد مائة فرسخ من الساحل الغربي لأفريقيا .

ومن عجب أن فوق طبقات الريح المنتظمة يجرى تيار مخالف له ، فاعجب لنظام بديع ، خف الهواء بين المدارين فارتفع إلى أعلى وجرى فكان ذلك سببا حرك الرياح من الربع الشمالى والربع الجنوبى لجرت على عجل لتحل محل ما خلا من الهواء في تلك الأقطار وكأن تلك الرياح قوم من البشر ذهبت أرواحهم إلى عالم الأرواح لجاء آخرون حلوا محلهم ، والحركة بين هؤلاء وهؤلاء دائمة ، لحرارة الشمس بتأثيرها في الأقطار الاستوائية وما والاها رفعت الهواء إلى أعلى الطبقات كما ترفع الأرواح من عالم الأرض إلى عالم السماء وتخلو أمكنتها فيحل محل هذا الهواء نظيره من نصف الكرة كما يحل أناس في الأرض محل الذاهبين .

إذا فهمت هذا فتعجب كيف أتى بعدها بقوله (وإنا لنحن نحي ونميت ونحن الوارثون) لأن حركات الحياة والموت كحركات الرياح المنظمة ، وأما الرياح الدورية فهى التى تسمى ريح الموسم وهى تكون في البحر الهندى وهى تهب ستة أشهر من مهب واحد من السماء ، وفي ستة أخرى تهب من جهة مقابلة لها وهى دائما تتجه جهة نصف الكرة الذى سخنته الشمس بأشعتها ولا تتجاوز الدرجة العاشرة أو الثانية عشرة من العرض الجنوبى .

انظر خزائن الله في الهواء وانظر خزائنه في الماء الذى حمله الهواء وانظر إلى البحر كيف خزن الماء فيه والحرارة أثرت فيه لحمله الريح من البحار الملحة ومن الآجام والمواضع الرطبة وذلك بقدر يقول الله للحرارة كما يقول للرياح لاتلحى أيتها الحرارة على البحار إلا بمقدار حتى يكون بخار على قدر الحاجة فيكون سحاب وإذا نزل المطر على الأرض فاحفظيه ياجبال لعبادى وياحرارة أذيبيه قليلا قليلا ليزيد في الأنهار ويائلوج قفى فوق الجبال وانتظرى الحرارة حتى تذوبك قليلا قليلا لتزيدى في الأنهار وياعيون انبعى بقدر معلوم وليبق الماء مخزونا في جبالى وفي أرضى وفي المجارى التى تحت أرجل الناس في طبقات الأرض ولكن قريبة حتى يسهل لهم إخراجها عند الحاجة ، هذه هى بعض خزائنى ، فإياك يابحر أن تطغى على اليابسة ، وإياك يا أنهار أن تعمى الأرض دائما بالماء بل لتكن زيادة وليكن نقص على حسب ما أرسلت لكن من حرارة الشمس هكذا أمر الله ، فهذه الحركات الجوية والمائية وتعاقبها واهتياج الرياح وارتفاعها إلى أعلى بين المدارين وحلول الرياح الآتية من المناطق المعتدلة والباردة أشبه بما في حركة الأحياء ، وحلولهم محل الأموات كما قدمنا ، إن هذه هى المقدمات المعيشية للناس في الأرض فليس يكون الناس إلا حيث يكون هذا الهواء وهذا الماء وإلقاح الشجر والإنسان هو الملك الذى توجه الله على ملك الأرض ، فلما أتم الكلام على نظام المعيشة والحياة وشرع بذكر حياة الانسان وموته التى هى نتيجة هذا كله بدأ بذكر الحياة والموت فقال (وإنا لنحن نحي ونميت) كما جعل في الرياح تيارات عليا فوق الرياح المنتظمة لأن هواءها أخف فكان أعلى .

يقول

يقول الله إن حركات الأرواح فى الحلول بأرضكم والارتحال عنها إلى عالم ألطف من عالمكم لا تخالف ما على أرضكم من الحركات ، فهواؤكم يحمل السحب فيرصها وقد كان ماؤها فى أرضكم هكذا أنا أحييكم بإقامتكم فى أرضى وأميتكم بإخراجكم منها لتوسعوا الطريق إلى من بعدكم وليطلع على خزائنى أمم كثيرة تأتى بعدكم ، وليس إحياؤكم وإماتتكم بلا قانون مسنون بل لها طريق معلوم ، وإذا علمتم ماسنناه فى الماء والهواء، فاعلموا ماسنناه فى الحياة والموت فنحن نحيى بقدر ونميت بقدر ، فعلمنا المستقدمين منكم وعلمنا المستأخرين كما علمنا ارتفاع السحب والرياح وقدرنا انخفاضها وانحطاطها فى أوقات معينة ثم بعد ذلك نحشركم جميعا .

ههنا آن أن نشرح لكم الحياة الدنيا وأن نشرح لكم الحياة الأخرى بعد مابينا المعايش التى لابد منها فى حياتكم الدنيا .

كيف كان خلقنا ؟

وهنا أبتدىء بذكر خلقكم وأشرح كيف خلقناكم لنبين الحياة ثم أشرح كيف تكون حالكم بعد الموت على سبيل اللف والنشر المرتب ، أما حياتكم فإنى أمثلها بما تصنعون ، إنكم تصنعون من الطين أباريق وأوانى مما تستعملونه لأموركم المعيشية فتبدءون بتصوير الطين ثم تضعونه فى النار فيحترق وذلك هو الفخار .

هكذا أنا صنعت الإنسان ، ذلك أنى سويته من العناصر الأرضية التى يتغذى بها النبات ويتغذى بذلك الإنسان ويصير فى دم الحيض الذى يغذى الجنين ثم إنكم أنتم تأكلون الطعام المكون من الطين فيصبح الطعام من جملة جسمكم الإنسانى والماء معه ، فالذى يقوم مقام الطين فى صنع الفخار هنا شهوتكم المركبة فيكم فإن هذه الشهوة بها جلبتم المواد النباتية التى تأكلونها وتصير من جملة أجسامكم بعد هضمها ، إنى جعلت الشهوة هى التى تقوم بعملية تصوير أجسامكم بعناية وحكمة دبرناها والذى يقوم مقام نار الفخار لإحراقه هو ما ركبته فيكم من قوة الغضب التى بها تحافظون على أجسامكم ومدنكم وقلاعكم وأعراضكم فلا تفتضحون .

فهذه القوة الغضبية فيكم مقابلة للنار التى تحرق الفخار فيصير قويا إذا نقرتموه صوت ، وهذه الحرارة أكسبته البقاء ولولاها لتكسر . هكذا قوة الغضب جعلتكم تدفعون بها عن أنفسكم ما يؤذيها من السباع والأعداء ، وهكذا الحر والبرد بالاستدفاء فإن المراد بهذه القوة المحافظة سواء أكان مع حدة أم لا .

والدليل على أن هذه القوة كالحرارة فى الفخار أنك ترى الرجل إذا غضب تحمر عيناه وتنتفخ أوداجه ويثور الدم وتحمر وجهه ويغلى ويفور كل ما رطب من جسمه ، فهذا دليل على أن قوة الغضب نارية كما أن قوة الشهوة أرضية لأنها تميل إلى الأرض وإلى التعاطى من أغذيتها ومائها ، هذا قوله تعالى « ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون » .

ولما كان هناك عالم ألطف من عالمنا وكان ذلك قسمين : قسم وجد لإيذائنا وعدم طاعتنا ، وقسم خلق لمصلحتنا ونعمنا كما أن من النبات ماهو شوك يؤذينا ومن الحيوان حيات تميتنا وعقارب لإيذائنا وهكذا منها نخل وورد وغزال وبقر لمصلحتنا ، هكذا كان فى العالم الروحى من هو مؤذ لنا كما آذانا المكروبات من الحيوانات والآساد فوجد عالم الجن الذين هم أرواح إما مفارقة للأبدان الإنسانية وإما غيرها توسوس للناس وتغويهم كما ثبت فى العلم العصرى بأوروبا ونقلناه فى كتاب [الأرواح] ووجد عالم الملائكة الذين هم نافعون لنا وحافظون لحياتنا ، فعالم الجن مخلوق من النار الحارة الشديدة الحرارة قد عظمت فيه القوة

الغضبية كما نرى الآساد في عالم الحيوان قويت فيها القوة الغضبية فلم تخضع للانسان ، وهكذا نرى أشرار الناس لايريدون إلا الأذى .

خطاب الله للملائكة والجن

وهنا تجلى المقام في المحاورات الإلهية بين الملائكة وربهم وبين الجن وخالقهم فقال الله للملائكة الأرضيين الذين هم قائمون بتدبير العالم الأرضي حينما أراد خلق الإنسان : أيها الملائكة هذه هي الأرض وهذه هي الحيوانات وهذه هي النباتات وهذا هو المطر والرياح والسحب .

أفليس هذا النظام حسنا ؟ بلى ! هو حسن ولكني أريد أن أجعل لهذا الملك العظيم من يقوم بنظامه ويتصرف في جميع ماترون ، فاذا خلقته وسويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين وقدموا له كل منافع الأرض من ماء وحيوان ومن جميع المعايش التي قدمنا ذكرها فامتثلت الملائكة وهاهم أولاء يقدمون للانسان أنواع الحيوان والنبات والماء والهواء كل ذلك ينتفع به الانسان والملائكة هم القائمون بالتدبير إذ ليس يعقل أن هذا النظام المحكم يسير بحرارة عمياء وريح أصم ومطر وسحاب لايعقلان ، كلا ! بل هناك عالم الملائكة والعقول العالية المحكمة للعمل ، فكما قام الملائكة بنظامنا قامت الحيوانات على الأرض بخدمتنا بل هي أنفسها من النظامات التي قامت بها الملائكة ، فهذا هو سجود الملائكة للانسان ، فالسجود باق كما كان فهو في هذا الزمان وفي كل زمان بهذا المعنى ، فأما الأرواح المسميات بالجن فانها لم ترتق عن درجة القوة الغضبية في الانسان ، فالغضب يحرك فينا عواطف الانتقام ، أما العلماء منا فان نفوسهم نورانية يحبون نوع الانسان كله ويودون سعادته فعقولهم ملكية نورانية ، فالشياطين طبائعهم نارية كطبائع الناس الذين لم يهذبوا ، والملائكة هم نفوس عالية طبائعهم كطبائع الأنبياء والحكماء في الأرض فيهتمون بمصلحة الناس ، « قال ياإبليس مالك ألا تكون مع الساجدين» فترفع وتعاظم أن يسجد لمن خلق من طين وهو مخلوق من النار ، ونظيره ما نرى من الآساد والنمور لاتلين قناتها ولا تخضع للانسان حتى يركبها ويذللها للحمل والركوب ونحوهما كما خضعت الابل والحمير والبغال ، فالملائكة إذن كالأنبياء والعلماء ، والشياطين كأشرار الناس وكالآساد ، فترى الرجل الذي غلب عليه الحقد والغضب يهز عطفه إذا ذكرت له فضل العلماء وفضل أبويه مثلا في حالة غضبه ولا يبالي بأحد مطيعا للقوة الغضبية التي تحجبه عن المودة والمحبة ، فلذلك خاطب الله إبليس فأمره بالخروج ، ونظيره ما نفعل بالشوك فنخرجه من أرض العمران وما نفعله بالآساد والنمور والذئاب والناس والحيات والعقارب فانا نجدّ في إبعادها عنا لأن طبعها الأذى وكما نجتهد في حبس الأشرار سفاكي الدماء ، هكذا أخرج الله الأرواح التي غلب عليها الغضب عن مساعدتنا بل جعلها توسوس لنا وسوسة تريح تلك الأرواح كما يستريح الغضوب بايذاء من غضب عليه كما هو مدون في كتاب [الأرواح] الذي ألفته وهذا قوله تعالى « اخرج منها فانك رجيم وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين» وهذا لاشك فيه لأنه مادام الانسان على الأرض فلابد من بقاء الأرواح الخبيثة التي لا تفتأ توسوس للناس ، كما لابد من بقاء الناموس والحيات والعقارب ولا يخلص الناس من الناموس والآساد وأمثالها إلا بحفظ مدنهم واتقاء الأخطار برفع القاذورات من دورهم وردم المستنقعات والبرك ووفور العمران ، فهناك تهاجم الآساد والنمور وغيرها وتموت الحشرات المؤذية .

هكذا هنا متى طهر الناس أخلاقهم وتهذبوا ذهبت عنهم الرعونة الشيطانية وصارت قوتهم نورانية لا نارية شيطانية ، وهذا معنى قوله «أنظرني إلى يوم يبعثون . قال فانك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم» فهذه المحاورة أشبه بحكاية حال هذا العالم الجثماني والروحاني والمادي والمعنوي ساقها الله هنا ليعرّف المسلمين

كيف

كيف بدأ خلقهم وكوّن طباعهم وجعلها بمثابة محاورة بينه وبين ملائكته ليقرأها الجاهلون تعبدا ويفهمها العلماء تفكرا ، فإذا حصل لهم فيها شك وريب عمدوا إلى كتب الحكمة ففتحوها وإلى دروس الطبيعة فاستوعبوها ، وإلى علوم الإنسان والحيوان فدرسوها وإلى علوم التشريح فاستوعبوها وإلى قصة الأرواح التي ظهرت في العالم اليوم فكشفوها .

يا أيها المسلمون هذا كلام ربكم . يا أيها المسلمون هذا هو القرآن المنزل لتدرسوه ، أما التلاوة البحتة فقد مضى وقتها ، فأما دراسة العلوم فهذا أوانها ولن تعرفوا أنفسكم وتنظموا مدنكم وتوقنوا إتقان الحكماء بالحقائق إلا بأمثال هذه الدراسة . ثم انظر بعد ذلك في القسم الذي أقسم به إبليس إذ قال (فبعزتك لأغوينهم أجمعين) وعبر بالعزة لأن العزة هي الغلبة ، والشيطان لم يحظ من الحياة إلا بحب التسلط وقد حرم من النفع العام لحلف بالعزة الإلهية لما كان في نفسه هو من عزة شيطانية ، وفرق بين العزتين كالفرق بين البقة والفيل ولكن هكذا كان حلف بعزته ليغوين بني آدم إلا العباد المخلصين كما ترى الذباب والبراغيث وسائر الحشرات تتخطى الذين نظفوا أجسامهم ومدنهم ولا تؤذي إلا من أهملوا شئونهم وكانوا كاسلين فأجابه الله (إن عبادي ليس لك عليهم سلطان الخ) لأن الشيء لا يأتي إلا لما يناسبه ، فالصالحون لا يؤثر فيهم الشيطان ولا يغويهم لأنهم ليسوا من طباعه كما لا يقع الذباب إلا على الأعين القذرة الوسخة ، وهيهات هيهات أن يقع على الأعين النظيفة لأنه لا غذاء لها فيها . هكذا الشيطان من شياطين الإنس والجن لا يوحي بشرّ إلا لمن يجد فيه قبولا لشره وأنسا بقوله واستماعا لنصحه . هنالك يكون لقوله سميعا ولنصحه مطيعا ولامتثال أمره سريعا .

هذه هي قصة الانسان من يوم أن يولد إلى أن يموت ، وهذا إيضاح لأحد شقي الآية السابقة وهي (وإنا لنحن نحيي ونميت). ولما فرغ من الكلام على حياة الانسان في الدنيا شرع يتكلم على حياته الأخرى فقال (وإن جهنم لموعدهم أجمعين الخ) .

ههنا ذكر الجنة والنار ولم تخرج هذه الحياة عن التي قبلها إلا في ذهاب الأجسام الحالية ، وبيانه أنك رأيت أن الناس على وجه الأرض مخلوقون من طين ومن نار وعرفت أن القوة الغضبية غلبت في الفجرة والجاهلين وهي من نوع النار ، وعلمت أن الله لا يجعل دنيا ولا آخرة إلا بنظام وحكمة ، فاذا أدخل قوما جهنم فلم يعدل بهم عن السنن المعهودة ، إن طباعهم لا تستحق إلا جهنم لأن أخلاقهم نارية غضبية ، فالشياطين خلقوا من النار كما ترى في أشرار العالم الانساني وجهالهم فلا جرم وضعوا في جهنم لما غلبت عليهم الطباع النارية ومن باب أولى إذا كانوا في طباع أخسّ منها بأن كانت طباعا شهوية .

أما أولئك الذين دخلوا الجنة فهم إما طباعهم نورية وإما مصقولة بالأنوار والآداب التي عليها لهم أصحاب الطباع النورية من الأنبياء والعلماء والحكماء والملائكة .

بماذا وصف النار وبماذا وصف الجنة ؟

وصف النار بأن أهلها سبع درجات في سبع طبقات كل قوم غلب عليهم نوع من الشهوات المقسمة على الأعضاء الجسمية .

أما أهل الجنة فانظر ماذا حصل ؟ نزع الله من قلوبهم الغل والحسد ، ومعلوم أن الغل هو من طباع القوة الغضبية ، فهنا نظف الله أهل الجنة من تلك القوة التي يكره بها الانسان من عداه من الناس وهي طبع الشياطين وطبع أهل الشر من الانسان . فاذا خلق الله الإنسان من نار وطين فان العلوم والدين والتهذيب

ا - تصقله وتصفيه وتبعد عنه رجس الأخلاق الشيطانية الإبليسية التي نحن الآن بتعذيبها لنا في القضايا والمشاكل والعداوات فنكون إخوانا ولانخرج من الجنة اه .

فانظر كيف ابتدأ بذكر المعايش في الارض وشرح الهواء والسحاب، ثم ثنى بذكر خلق الانسان وماتلاذلك من الشياطين والملائكة، ثم أتى بالنهاية من حياته حتى انتهى إلى آخرها في جنة أونار وهذه هي قصة العالم الذي نحن فيه باعتبار طبيعته ولم يبق شيء بعد ذلك . وإياك أن تظن أن هذا ينافي ظاهر الآية فان هذا رأى الذين لا يعلمون ، فاذا حدثتك نفسك بهذا فقل إن علم البيان فيه الكناية وهي لفظ أطلق وأريد به لازم معناه مع جواز إرادة المعنى الأصلي كقولك فلان طويل النجاد أي علاقة السيف ، فهذه العبارة لم يقصد بها مجرد أن علاقة السيف طويلة بل القصد أنه هو طويل والمقصود هو الثاني مع صحة المعنى الأصلي ، فهكذا هنا نقول محادثة الله مع الملائكة ومع إبليس تشير إلى المعنى الذي ذكرناه وهذا المعنى هو المقصود .

قل لمن يدعي علما ومعرفة   عرفت شيئاً وغابت عنك أشياء

وإلى هنا انتهى تفسير القسم الأول ، وههنا لطائف :

اللطيفة الأولى في هذا القسم في قوله تعالى « والأرض مددناها »

إلى قوله « ومن لستم له برازقين »

[عجائب مما رزقنا الله ولسنا له برازقين]

الأولى : جاء في الجرائد المصرية يوم الخميس (٢) أكتوبر سنة ١٩٢٤ ما نصه :

تقول إحدى جرائد غرب أفريقيا إنه بينما كان القارب البخاري (سجوف) ماخرا عباب الساحل الأفريقي الغربي إذ وقف فجأة في فجر يوم فظن من فيه أن هذا شاطيء رملي خفي ، وعندما انبلج الصباح عرفوا أنه قطيع كبير من الأسماك ومن كثرته واجتماعه في مكان واحد لم يتمكن القارب من اختراق تلك الكتلة ثم تبين البحارة أن السمك الصغير كان يحيط به من كل جهة كثير من أفراس البحر التي كانت تعمل بسرعة متناهية في أكل تلك الكتلة .

العجيبة الثانية : الفحم وعجائبه

إن الفحم الحجري يقطر ويستخرج منه غاز الاستصباح . ومعنى هذا أن الفحم يوضع في أفران ويوقد عليه ويخرج منه جسم هوائي لطيف دخاني ؟ وذلك الجسم الدخاني يجري في أنابيب تمتد في المدن وتوقد بها المصابيح وذلك بأعمال وشروط خاصة لا يسعها المقام وبتلك العمليات يخرج منه قطران بواسطة مرور ذلك الغاز على ماء في أوان مخصوصة في طريقه كما يمر دخان التبغ في الأعواد التي يشرب فيها الناس الدخان ثم تكون بعد ذلك بالتدريج غير القطران أنواع من الزيت الطيار ومن أنواع هذه الزيوت يستخرج أمور عجيبة مثل البنزين والانيلين وحمض الفينيك والانتراسيين .

ثم وصل ما استخرجه العلماء من ذلك القطران ونحوه من هذه المادة الفحمية ثلثمائة مادة ولكن أهمها البنزين والسيلين والنفتالين والفينول والكريسول ، وهناك مواد أخرى من هذه الثلثمائة هي أساس الأصباغ أي أنواع النيلة وأيضا هي أساس جواهر أخرى مفيدة للطب والتجارة .

فياعجبا كيف خزن الله الفحم الحجري في الأرض آلاف آلاف السنين ثم كيف أبرزه في هذه الأيام ؟ ثم كيف جعل منه نور بيوتنا بما يسمى الغاز الذي يجري في الأنابيب ويضيء الشوارع ومنه يكون حمض الفينيك الذي يطهر الأمكنة وهو سم ناقع قتال ومنه تكون الأصباغ وألوان الثياب المختلفة وأنواع الطب والتجارة ، أليس هذا هو المخزن الذي خزنه الله ؟

فياسبحانك اللهم خزنت الفحم فى الأرض دهورا ودهورا وأظهرته فأجريت به القاطرات وأنرت به البيوت والطرقات ونظفت به القاذورات وأجريت بالبنزين منه العجلات ولونت به الثياب الغاليات وأفدت به فى الطب صحة المخلوقات « فتبارك الله أحسن الخالقين » فهذا هو المخزن وهذه هى المخزونات .

يا الله كما خزنت الفحم قرونا وقرونا وأفدت به الأمم اليوم عموما ، هكذا خزنت فى القرآن خزائن وحفظتها للمسلمين فى الأجيال المقبلة ، وها نحن الآن يا الله نفتح خزائنك للمسلمين كما فتحت خزائن الأرض وأبرزت جواهرها للعالمين ، وإنى لأرجو وآمل أن ينتفع المسلمون بخزائنك الأرضية متى عرفوا أنك منحتهم هذه العطية والمفاتيح فى القرآن ، وهاهى ذه نفتح بها ما انغلق على الأفهام وحرم منه قوم ظنوا الدين بريئا من خزائنك بعيدا عن جمال بدائعك فحرموا من الثمرات ، فلك الحمد على أن فتحت الخزائن اليوم وتشرق الأرض بنور ربها للمؤمنين ، وهاهو ذا كتاب الله نور للمؤمنين ، فهذا كتاب الله وهذه خزائنه ، فليفرح المسلمون فهذا أوان الانقلاب والأخذ بالأسباب ، فلله الحمد فى الآخرة والأولى والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثانية : فى الرياح وإلقاحها

هذا أنقله من كتاب [الزهرة] الذى هو مقدمة كتاب [نظام العالم والأمم] تأليفى منذ عشرين سنة تقريبا .

جمال النبات وبهجته فى الأزهار ونظامها

تأمل يا أخى معى ، ولعلك قد رأيت الأمثلة الأخيرة التى شرحناها الآن فى تركيب النبات وكيف وزنت بميزان منظم لاتغيير له ولا تبديل وهكذا الجماد والأفلاك ، وتأمل كيف ترى النظام باديا على ظاهر الأوراق والأزهار فى تركيبها وشكلها ولونها والحشرات الواردة عليها ونومها ويقظتها ، ولنشرح لك ذلك كله فى هذه الرسالة الصغيرة فنعجل لك الفائدة قبل قراءة الكتاب الكبير وننقل لك ما قاله العلامة (جون لبك) الإنكليزى فى هذا الموضوع لنقف على ما رآه الغربيون فى الزهرة :

يا صاحبىّ تقصيا نظريكما ... تريا وجوه الأرض كيف تصوّر
تريا نهارا مشمسا قد زانه ... زهر الربا فكأنما هو مقمر
دنيا معاش للورى حتى إذا ... حلّ الربيع فإنما هى منظر
أضحت تصوغ بطونها لظهورها ... نورا تكاد له القلوب تنوّر

قال العلامة ما ملخصه : كان العلماء فى غابر الأزمان يذكرون فى رواياتهم أن الأرواح كانت تهدى الأزهار إلى من تحبهم أو تود مكافأتهم عطفا عليهم وتلطفا بهم ، وكان يظهر ذلك فى بادئ النظر أنه بضاعة مزجاة لاقيمة لها ، وكيف تساوى هذه الزهرة الصغيرة الهدايا الثمينة والتحف الغالية ولكنها عند أولى الألباب قد جمعت حسنا وبهاء من جمال الطبيعة يؤدى إلى النفوس سعادة وإلى القلوب مسرة وإلى العيون بهجة وإلى الصدور انشراحا وإلى الأفئدة انعطافا تفوق السعادة بها وبالتأمل فى جمالها سعادتنا بالذهب والفضة والأحجار النفيسة واللؤلؤ والمرجان .

يقول كاتب هذه الرسالة وقد لمح تلك المعانى من خلال سطور الكائنات وملامح جمال المناظر الشيخ صفى الدين الحلى :

ورد الربيع فمرحبا بوروده ... وبنور بهجته ونور وروده
فصل إذا افتخر الزمان فإنه ... إنسان مقلته وبيت قصيده

يا حبـــذا أزهاره وثماره — ونبات ناجمه وحبّ حصيده
فالورد فى أعلى الغصون كأنه — ملك تحفّ به سراة جنوده
وانظر لنرجسه الجنىّ كأنه — طرف تنبه بعد طول هجوده
والسحب تعقد فى السماء مآتما — والأرض فى عرس الزمان وعيده

ولنرجع إلى كلام العلامة (جون لبك) قال فما ألذ أوقات نصرفها فى الفلوات والخلوات ونتأمل جمال الطبيعة والذهب المنبعث من ضياء الشمس يكسو وجه الطبيعة حلة ذهبية تسر الناظرين ، وليس هذا نهاية ما ترتاح له النفوس من الأزهار فهناك عقول ارتقت عرش العلم ولبست تاج الأدب واستوت على ملك المعارف وتطلعت من شرفات الحكمة فنظرت فى بساتينها أزهار جمالها فأخذت تتأمل فيما وراء ذلك من أشكال وألوان وصور حتى وقفت على أسرارها .

ولعمرى إننا إذا أدركنا سر الزهرات الصغيرات دخلنا منها إلى معرفة كثير من أسرار الكائنات . إن الوقوف على أسرار الطبيعة لاينالة إلا الذين صرفوا أوقاتهم فى تحصيله مع الصبر والعناية التامة والاحترام والمداومة أمد العمر ، ومع ذلك فكل هذا لايغنى شيئا ولو وهبنا مواهب قدسية وعقولا سامية كما وهب (أرسطاطاليس) و (أفلاطون) إلا إذا وقفنا على كلام الأوائل وحادثنا التاريخ وناجينا ما وعته الدفاتر وقابلنا الرجال فهناك ننال من هذه العلوم حظا وافرا فان الإنسان وحده لايستطيع أن يصل إلى ما يريد إلا بمشاركة غيره من أبناء جنسه اه .

لطيفـــة

جلست أنا وصديق لى وأخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وكنا إذ ذاك نطل على أزهار باسمة فاصغ إليها لنقف على جمال الأزهار ومحاسنها وتعلم سيدى كيف حسن وضع تلك الصور الجميلة وانتظم شملها ووزنت بميزان الحكمة والاعتدال لتفهم قوله تعالى « وأنبتنا فيها من كل شئ موزون » وكيف وزن فى فروعه وأغصانه وأوراقه وأزهاره كما وزن فى تركيب أجزائه فيما ذكرناه وهذا ملخص من كلام السر (جون لبك) وضعناه لك بلسان عربى مبين لتقف منه على ما نريد فى كتابنا [نظام العالم والأمم] قال صديق ورمز له بحرف (ا) وأنا (ب)

(ا) صديقى انظر إلى شجر السنط والغار والصنوبر والصفصاف لم جردت أزهارها عن الزينة والجمال وجملت أزهار الأشجار المتوسطة فحسن منظرها وتأرّج ريحها وابتسمت ثغورها واحتوت عسلا صافيا فى أسافلها تقتات منه الحشرات فهل تعلم لذلك من حكمة ؟ .

(ب) سيدى قد جعل الله الأشجار الكبيرة لاتحتاج إلى الرائحة الأريجة ولا جمال الهيئة ولا العسل بل هى غنية عن هذا كله ، أما غيرها من الأشجار فانها تحتاج لذلك بل لاحياة لها إلا بعسلها وجمالها ورائحتها ولولا هذه المزايا الجميلة لانمحت من صحيفة الوجود كما ينمحى وجود النوع الإنسانى بانقراض سنة التناسل بينهم .

(ا) أرجو إيضاح هذا المقام فان هذا القول غامض علىّ ، وكيف يكون جمال صورة الزهرة سببا لبقاء النبات ؟ .

(ب) اعلم أن الزهور على اختلاف أجناسها وتباين أشكالها وتنوّع أصنافها يحتاج بعضها إلى بعض ، فمنها ما خلق الله فيها الطلع ومنها ما يقبله ، وكما أن النخل فيه ذكور وإناث وطلع الأول يلقح الثانى فهكذا جميع الأشجار ذكرانها تلقح إناثها ، فمثل الورد والرمان تلقح بواسطة الحشرات والحشرات لن تحب أجسامها

وتطير في الهواء بلا داع يدعوها إلى ذلك ، وهل من باعث أقوى من العسل الذي تشرب به من أسفل الزهرة والرائحة التي تدلها عليها وقت الغلس وجمال اللون وبهجته التي ترديها في أوقات الضياء والنور ، أما الأشجار الكبرى كالصنوبر والغار فإنها اكتفت بتدبير آخر وهي الرياح التي سخرت تحمل اللقاح من ذكرها لأنثاها وقد دبر الله ذلك اللقاح فجعله كثيرا جدا حتى إذا حملته الرياح وتبعثر منه أهم أجزائه فما بقي كفى إناث الأزهار من ذلك النوع، وإذ كان بعض الزهر فيما لا يحتاج إلى الريح قد تخرج الواحدة منه ما بين ثلاثة وأربعة ملايين خردلة من اللقاح فما بالك بما يحتاج للريح فلابد أن يكون أضعاف هذا بما لا يتناهى وبهذا التدبير في الأولى والآخرة تخرج الأثمار والحبوب ويخلق شجر آخر وقد شوهد في بلاد (اسكتلندة) غبار من طلع بعض الأشجار يمر في الهواء كأنه سحب تزجيها الرياح ثم يؤلف بينها ثم تصير ركاما ويراها الناس بأعينهم تلقح إناث تلك الأشجار كما ينزل المطر على الأرض فتحيا بعد موتها مصداقا لقوله تعالى (وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين) .

ومن معاني هذه المادة الحمل فهاهي الرياح تحمل الماء واللقاح والأصوات لتصل الأرض والأزهار والآذان ، هذا كله يجري ونحن ساهون لاهون والقوم في بلادهم تبرز معاني كتابنا المقدس على أيديهم ونحن غافلون ومدبر الكائنات من فوقنا يلقح أشجارنا ويحكم أمرها ولا دخل لنا ولا حول ولا قوة (أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون) .

(ا) ها أنت أفهمتني ظاهرة إلقاح الرياح للأزهار ولكني لا أعلم كيف تحمل الحشرات اللقاح، وهل تقصد ذلك ، وهل عندها علم وإدراك حتى تنقد أثمان العسل والتمتع بالأزهار ؟ بأن تنقل الطلع من شجرة إلى أخرى .

(ب) اعلم ياسيدي أن الزهرة مركبة من أوراق خضر تغلفها من الظاهر ويسميها علماء النبات بالكأس داخلها أخرى ملونة بالألوان الجميلة يسمونها (التويج) تصغير تاج تشبيها لها بتيجان الملوك المرصعة بالجواهر الثمينة ، وقد علمت مما ذكرناه آنفا أنها أرفع قيمة عند الحكماء. وفي داخلها سوق تحمل الطلع في حصن حصين بما أحاط بها من تلك الأوراق وفي أسافلها عسل فترى الحشرات تلك الألوان الجميلة فتسرع طيرانها إليها ليلا أو تشم رائحتها في الظلام فتشرب العسل فتلمس ظهورها ذلك الطلع فيرش عليها كالدقيق فتذهب إلى الزهرة الأخرى من ذلك النوع فيحصل تلقيحها ولا علم للزهرة بذلك ولا للنحلة وإنما كانت تسعى لمنفعة أنفسها وإنما ذلك تدبيره تعالى (وما كنا عن الخلق غافلين) وهذا قد كنا أوضحناه في كتابنا [جواهر العلوم] ولكن الأمر المدهش هنا تركيب الزهرات لمناسبة الإلقاح وترتيبها وتزيينها حتى قيل إن الأزهار مدينة للحشرات في جمالها وعسلها .

فلعمرك لولا طواف الحشرات عليها ما منحتها يد القدرة الإلهية ذلك الجمال (وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم) وما الحشرات إلا كنواطير البستان (بستانيين) فإن ناطور البستان يختار من أجمل الأشكال وأحسنها ليبدع في إتقانها ويزيد في تنظيمها وجمالها فكذلك هذه الحشرات بطوافها على هذه الأشجار زينت بتلك الزينة تشويقا لها لكن الناطور يختار بتمييزه وهذه بعناية الحكمة الإلهية . وأعجب من هذا تدبير أشكال الأزهار على وفق هذا الإلقاح .

(ا) وكيف ذلك ؟

(ب) تعلم أن أوراق (التويج) قد تنظم فتصير كأنها أنبوبة في داخلها تلك الأعضاء التي ذكرناها آنفا

وقد يشاهد فى بعض الزهر أنابيب حولها شعرات قريبات من العسل فى أسفل الزهرة على جوانبها من الداخل وتلك الأنبوبة مستطيلة ضيقة وما ذلك إلا لتنبذ كل حشرة من الفراش تريد الدخول وذلك أن ضيق الأنبوبة وبروز تلك الشعرات كافيان فى منع الحشرات من ذلك ماعدا النحل فانها أعطيت قوة بها تقتحم تلك الأنبوبة ولا تبالى بأسنة الوبر ، وماعدا النحل من الحشرات فلا قدرة له على حمل الطلع فى ذلك النبات فلهذا منع من الدخول فالحكمة الإلهية قضت أن الغنم بالغرم وإذا كان ماعدا النحل عاجزا عن حمل الطلع فى شجر مخصوص فنعه أمر محتوم .

أو ما ترى الأزهار مامن زهرة إلا وقد ركبت فقار قضيبها
والطير قد خفقت على أفنانها تلقى فنون الشجو فى أسلوبها
تشدو وتهتز الغصون كأنما حركاتها وزن على تطريبها

وقال القاضى أبو الحسن بن زنباع :

أبدت لنا الأيام زهرة طيبها وتسربلت بنضيرها وقشيبها
واهتز عطف الأرض بعد خشوعها وبدت بها النعماء بعد شحوبها
وتطلعت فى عنفوان شبابها من بعد ما بلغت عتى مشيبها
وقفت عليها السحب وقفة راحم فبكت لها بعيونها وقلوبها
فعجبت للأزهار كيف تضاحكت ببكائها وتبشرت بقطوبها
وتسربلت حللا تجر ذيولها من لدنها فيها وشق جيوبها
فلقد أجاد المزن فى إنجادها وأجاد حر الشمس فى ترتيبها

الكلام على الزهر ذى الأقفال والمفاتيح والزهر ذى الحراس والزهر ذى الجند والزهر ذى السياسة الحقيقية والوهمية

الزهر ذو المفاتيح والأقفال وذو الحراس

(ا) بلغنى أن فى بلاد أوروبا زهرا له مفاتيح وآخر له حراس فهل لذلك حقيقة ؟

(ب) هناك زهر يسمى (سلفس) وآخر يقال له زهر الأشراف والنساء ، فالأول ذو المفاتيح والثانى ذو الحراس ، الأول وضع الله فيه على فم الأنبوبة المكونة من أوراق (التويج) ساقا معرضا على أنها كأنه مغلاق لذلك الباب ، فأى حشرة تريد الدخول عجزت عن ذلك ، فاذا جاء صاحب الأمانة ألا وهو النحل أزال ذلك الساق من مكانه ودخل فشرب ، وفى أثناء دخوله يكون هناك ساق آخر محكم الوضع على ظهره يحمل الطلع فينزل عليه منه مقدار فيحمله إلى زهرة أخرى ، فتأمل سيدى كيف جعل أحد الساقين قفلا لباب الزهرة والآخر كأنه يد ملأى بدقيق الطلع فتضعه على ظهر النحلة ، والأمر الأعجب من هذا أن هذه النحلة عينها إذا ذهبت إلى الزهرة الأنثى رأيت أمرا عجيبا ، رأيت الأوراق العليا منها مرتفعة هى وعضو التأنيث حتى إن تلك النحلة إذا دخلت تشرب العسل لم يتيسر لها مس عضو التأنيث لارتفاعه جدا ، فانظر ماذا حصل ؟ وضع فى نهاية عضو التأنيث ذراع طويل إلى أن يلامس النحلة فيمسح ظهرها ويأخذ الطلع الذى التقطته (فتبارك الله أحسن الخالقين ــ وفى الأرض آيات للموقنين) .

أليس هذا مصداقا لقوله تعالى (ومن كل شئ خلقنا زوجين لعلكم تذكرون . ففروا إلى الله إنى لكم منه نذير مبين) كأن وجود الزوجين من النبات داع حثيث للتأمل فى هذا العالم كأنه يقول هذا أمر خفى فتذكروا وجدوا فيه ، ومتى عرفتموه قربتم من الله تعالى وهذا بعينه ما صرح به العلامة (جون لبك) الانكليزى

(أن

[أن من وقف على أسرار الأزهار أمكنه أن يفتح كنوزا من الأسرار الخفية] فتأمل وانظر كيف حد القوم في فتح كنوز مقفلة في القرآن ونحن عنها غافلون ، ولقد صرح به القرآن في آية أخرى (والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج . تبصرة وذكرى لكل عبد منيب) فانظر كيف ذكر الأزواج في النبات وقال إنه تبصرة وذكرى ولكن يا للأسف إننا تركنا التبصر فيه ، وإنى لفى غاية العجب من هذا السر الخفى كيف يذكر في القرآن وكيف يبحث عنه علماء الغرب وكيف يقول عالمهم إن هذا سرّ به تفتح أسرار الطبيعة ، ألا فليتأمل معى أهل العقل والعلم وليتفكروا ولينظروا فإنى أقول هذا وأنا محترق الفؤاد على ضياع العلم من بلادنا ورضانا بالقشور ونبذ اللب (إنا لله وإنا إليه راجعون) .

الزهر ذو الحارس

(ا) عرفت الزهر ذا المفاتيح والأقفال فما زهرة الحفراء ؟

(ب) هذه الزهرة موضوعة على هيئة قارورة يحمل فمها شعرات واقفات فتأتى الحشرات الصغار إليها من الذباب والفراش الجاهلات لتقيها الحر والبرد ولايدخلها النحل لعلمه بما فيها من الخطر ، فإذا دخل الذباب وقفت لها تلك الشعرات بالباب ومنعتها الخروج فأخذت تثب وتسقط في وسط الزهرة ، وهناك الأعضاء الملقحة الذكور وتحتها الملقحة الإناث ، وقد أينعت الأولى وحان قطافها ولم يأن للثانية أن تلقح ، فإذا اضطرب ذلك الذباب سقط الغبار الذى في أعضاء التذكير على ظهوره وفى الوقت عينه تذبل تلك الشعرات الخافرات على فم الزهرة فيخرج الذباب آمنا في سربه طائرا في الهواء ذاهبا إلى زهرة أخرى قد فعل بها مثل هـذا فيدخلها للاحتماء بها فيقع الطلع على الأنثى ويخرج آمنا مطمئنا ، أليس هذا مما صدق عليه قوله تعالى (وما يعلم جنود ربك إلاهو وماهى إلا ذكرى للبشر) وقوله (يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون . وهو الذى مدّ الأرض وجعل فيها رواسى وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) .

هذا ، وبعض الزهر تفتحه النحل بأرجلها فتشرب العسل ثم يقفل على الطلع ليحفظ حتى تأتى نحلة أخرى والزهر ذو الحارس يسمى زهر الأشراف .

عجيبة عن الحشرات والنحل وأنها كالدول في السياسة

جعل الله تعالى في الأزهار سياسة تضارع سياسة الأمم بإيهام ضعفاء العقول لتنال غرضها منهم لقصر أنظارهم . فهكذا زهرة الأشراف قد خدعت الذباب بجهله فدخل فيها احتماء بها فلقى منها مالقى مجير أم عامر ، وكما أن النحل ذو ذكاء فلا يخدعه خادع ، فهكذا لاتراه يحوم نحو تلك الزهرة الجوفاء الخاوية بل تراه يحوم أنى يجد العسل ولم تبخل يد العناية الإلهية أن تزوده العسل وتطعمه الشهد استحقاقا وعدلا (ويؤت كل ذى فضل فضله) .

أما الذباب فترى العناية الإلهية قد دبرت له ما يناسب جهله حتى أنك ترى بعض الأزهار تحمل أنابيب قد توجت برؤوس كقطرات من العسل في شكلها ولونها ، فإذا أسرعت إليها الحشرات لن تجدها شيئا وحملت الطلع ولم تنل غنما فأشبهت الأمم الجاهلة المغرورة بمجرد القول دون الفعل .

فانظر كيف حوت الزهرة علم السياسة وكيف ينطبق عليها قوله تعالى (وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج . تبصرة وذكرى لكل عبد منيب) .

الزهر المنظم كالجند

(ا) قد سمعت أن فى بلاد أوروبا زهرا له ثلاث صفوف تقف بانتظام على ثلاثة أيام كل صف فى يوم فهل عندك علم بذلك ؟

(ب) اعلم أن هناك زهرا أصفر ذا ثلاث صفوف كل صف خمس زهرات فترى أول صف فيها يظهر مساء مظهرا جمال صفرته فى غسق الليل لتأتى الحشرات إليه سراعا وترى رائحته تتأرج فتأخذ الحشرات منها حظها فإذا انفلق عمود الصباح وأضاءت الشمس رأيتها ذبلت وأصبحت هشيما كأن لم تكن بالأمس يظنها من رآها أنها أى الشجرة قد أدبر شبابها وأقبل هرمها ، فإذا كان مساء اليوم الثانى رأيت الخمس الأخر التى كانت مغمضة الأجفان قد استيقظت من نومها وبعثت من مرقدها وقامت بالمظهر الذى فعلته ماقبلها ورجعت الشجرة كالعروس تنجلى فى الظلمة حتى تتزود الحشرات من طلعها كما كانت فى اليوم الأول. فاذا جاء صباح اليوم الثالث ذبلت . وفى المساء الثالث تظهر الاناث منتظرة الحشرات محضرة لها الطلع من زهر آخر كما حملته من ذكور هذه الشجرة فى اليومين السابقين وهذا من فوائد تلقيح الحشرات بحيث إن الانثى من زهرة تلقح من ذكور الأخرى وبالعكس

زهر عجيب محكم الترتيب

(ا) من الورد نوع يشاهد الناس فى زهره أنابيب التذكير مستطيلة تساوى أوراق الزهرة فى الطول وأنابيب التأنيث تصل إلى نصف تلك المسافة وأزهار أخرى من ذلك النوع بالعكس . فترى أنابيب التأنيث تستطيل إلى أطراف أوراق الزهرة وأعضاء التذكير على النصف من ذلك . ولو نظرنا مائة شجرة من هذا النوع لوجدنا النوعين من ذلك الزهر متساويين بحيث تكون ذات الاناث الطويلة تساوى فى العدد ذات الذكور الطويلة فهل تعرف سيدى هذا ؟

(ب) إن هذا الزهر وضع مناسبا للنحل وذلك أن النحلة إذا مدت خرطومها الطويل وصل إلى أسفلها لشرب العسل ولامس عضو التذكير الطويل فحمل منه طلعا ، فإذا راح إلى ذات عضو التذكير القصير أخذت الأنثى المستطيلة ذلك الطلع لمرور الخرطوم بحذائها لمساواتها الأوراق وهكذا فى الأعضاء القصيرة فيأخذ النحل بخرطومه من كل عضو إلى ما يناسبه فى الزهرتين . فتأمل كيف تساوى عدد النوعين من هذا الزهر وتعجب كيف كان طولها واحدا فى جميع الأزهار إما للانصاف أو النهاية وكيف كان خرطوم النحلة إذا لامس عضوا فى زهرة يلامس نظيره فى الأخرى بحيث لايختل شعيرة فى مقدار طولهما .

ولعمرى لو سئلت هذه الزهرة لقرأت بلسان الحال (إنا كل شىء خلقناه بقدر) ولو سئلت تلك النحلة لقرأت (وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين) ولقرأت (وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا فى الكتاب من شىء ثم إلى ربهم يحشرون) إذ أنه تعالى وضع مقدارا لكل شىء فى أم الكتاب عنده فلا يضيع حشرة ولا دابة ولا حيوانا صغيرا ولا نباتا حقيرا ولا زهرة (ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين) .

نوم الزهر

(ا) رأيت فى بعض الكتب أن الزهر ينام فهل لهذا حقيقة وإذا صح فلم ينام ؟ النوم فى الحيوان سببه معروف وليت شعرى ما سبب نوم النبات ؟ يجد الحيوان فى قوته ويتعب فى تحصيله فاذا جن الليل خارت قواه فتعب فنام ، أما النبات فما سبب نومه ؟ وبعض النبات لاينام أبدا وآخر ينام صباحا ويستيقظ مساء وآخر بالعكس ، ومن الأول ما يستيقظ فى الساعة الرابعة صباحا أو السابعة أو الثامنة أو التاسعة أو العاشرة

ثم تغمض أجفانها بعد الظهر فى أوقات مختلفة ، إما فى الساعة الثانية أو الثالثة أو الرابعة وهكذا ، ما الحكمة فى ذلك ؟

(ب) يختلف نوم الزهر وانطباق أوراق الزهرات باختلاف الحشرات التى تأكل منها ؛ فالنحل يعتاد اليقظة نهارا فترى الأزهار التى خصصت له تفتح عيونها نهارا حتى يشرب منها العسل رفقا بالفريقين ومنفعة للطائفتين ، أما الأزهار المخصصة للحشرات الأخرى فلا تفتح أوراق أزهارها غالبا إلا مساء فى الغلس ، إذ لتلك الحشرات غدوات وروحات فى ذلك الحين فلاجرم تفتح لها .

ولعمرك لو عكس الأمر فافتتح النهارى الصباحى بالمساء والمسائى بالصباح لسرق العسل فأخذه مالايبذل له ثمنا ممن يخصص لذلك العمل ويعتدى كل فريق على ما للآخر فيتضرر الحيوان ولا يلقح النبات فتمت الحكمة .

فمفاتيح هذه الأزهار بيد القدرة الإلهية تفتحها وتقفلها لادخل للشمس ولا للقمر فيها وإلا فلماذا تنام الزهرة المسماة [حا ذهب لينام] فى وقت الهجيرة حتى إن أولاد الفلاحين فى أوروبا يعرفون مواعيد الغذاء بنومها ، فلو كان للشمس دخل فى تفتيح الأزهار لكان أولى الأوقات بانفتاحها وقت الظهيرة والحشرات تختلف أوقات قيامها لطلب معاشها فى ساعات النهار ، فكل زهرة تفتح فى الوقت المعين لحشراتها التى خصصت لها بالحكمة الالهية (ذلك تقدير العزيز العليم) وكأن الشاعر العربى الأندلسى نظر لهذا المعنى فقال :

وعلى سماء الياسمين كواكب ... أبدت ذكاء العجز عن تغييبها
زهر توقد ليلها ونهارها ... وتفوت شأو خسوفها وغروبها

(ذكاء) الشمس وهذا باعتبار المجموع لا الجميع :

(ا) من الأزهار ماهو أحمر وأصفر وأبيض وأزرق ، فهل لهذا من حكمة؟ وبعضها ذو ريح طيبة دائما والآخر لاتذكو رائحته إلا وقت المساء .

ينسب إلى عنترة العبسى هذه الأبيات من زهرية له :

زار الربيع رياضنا وزها بها ... فنباتها حليت بأنواع الحلى
يزهو بأحمر كالعقيق وأصفر ... كالزعفران وأبيض كالسنجل
وبنفسج يزهو إذا عاينته ... آثار نقش فى ذراع ممتلى

(ب) إن الزهرات الحمر والزرق خصصت غالبا بالنحل وهو مغرم بهذين اللونين عاشق لهما فكانا داعيين إلى الافتتان بهما . ولاجرم أن فى الأحمر والأزرق من الجمال ماليس فى الأبيض والأصفر ؛ أما الآخران فإنما يكونان فى الأزهار التى تختص منهابقية الحشرات غالبا ، وقدمنا أن الحشرات أغلب مايكون خروجها مساء (صنع الله الذى أتقن كل شئ) ولاريب أن اللون الأبيض والأصفر يناسبان وقت الغلس إذ تجتلى فيه الصفرة والبياض ، أما الحمرة والزرقة فسلطانهما إنما يكون بالنهار فاقتضت حكمته جل جلاله أن يتناسب الزهر واللون والحشرات فى الصباح والمساء ، ويتجلى البياض مساء والحمرة والزرقة نهارا وهكذا تلك الزهرات الصفر والبيض تذكو رائحتها مساء لتهدى إليها حشراتها وتساعد الرائحة اللون على جذبها ولو أبدل البياض بالحمرة لم تعرفها الحشرة ، أولم تذك الرائحة لضعف الداعى :

تأمل فى رياض الأرض وانظر ... إلى آثار ماصنع المليك
عيون من لجين شاخصات ... على ورق كما الذهب السبيك
على قضب الزبرجد شاهدات ... بأن الله ليس له شريك

نهاية

نقل السر (جون لبك) عن (أرسطاطاليس) اليونانى أنه شاهد أن النحلة تذهب من زهرة إلى أخرى من نفس ذات النوع وقال إنها منفعة للفريقين النبات والنحل ، أما النبات فإن الطلع الذى من الذكر لايضيع بسقوطه على زهرة من نوع آخر ، وأما منفعته للنحلة فإنها تعرف طريقها ولا تغيره ولا تضيع الزمن فى أخذ دروس جديدة عن كل زهرة وتجارب حتى تضيع قوتها ويذهب زمانها سدى ، وهذا بعينه ما قاله تعالى (وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون . ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون) فقوله (سبل ربك ذللا) أى إن طرق ربك فى الأزهار مسهلة لك من الله لاتلتبس عليك لأنها فى نوع واحد من الأشجار التى أرادتها فى الزمان المخصص لها ، والله أعلم .

وإنى لموقن أن هذا هو عين التوحيد . وكيف يقول الله تعالى (وأنبتنا فيها من كل شئ موزون) وترى جاهلا يقول : هذا خارج عن الدين مع أنه لايقين ولا إيمان إلا بمعرفة هذه البدائع ، وهذا سر تأخر المسلمين اليوم عن مصاف الأمم ، وعندى أنه يجب على علماء الإسلام قاطبة أن يتعلموا ويعلموا هذه المعارف التى أجلها علم الكيمياء والطبيعة التى هى سر التوحيد .

وياليت شعرى كيف انعكست الأحوال وأصبح ما هو أصل الدين خارجا عنه حتى ظن المسلمون أنها خاصة بالافرنج . وفى كتابنا هذا وكتبنا السالفة مافيه غنى للأذكياء فمن أرادها للعلم فيها ونعمت ، ومن أرادها لليقين فهو أفضل .

ولقد أطلنا فى الزهر وعجائبه وغرائبه ووضعناه فى قسم النبات تعجيلا للفائدة وإحضارا للمسرة فى الأذهان ، انتهى ملخصا من كتاب [الزهرة] الذى هو مقدمة كتابى [نظام العالم والأمم] .

فائدة فى الحلم

إنى فى هذه الليلة ليلة الأحد التاسع من شهر نوفمبر سنة ١٩٢٤ بينما أنا أكتب فى هذه العجائب بعد العشاء إذ أخذتنى سنة من النوم فاستغرقت حالا وأنا غير متأهب للنوم ولامتدثر ، ومن عادة النوم إذا فاجأنى على تلك الحال أن يصيبنى فيه برد وأكثر ما يصيبنى المرض من أجل ذلك ، فانظر ماذا حصل ؟ شعرت فى النوم كأنى سائر فى الطريق ناحية (الجمالية) بمصر وعلىّ ثياب نظيفة بيضاء وفوقها سربال بنى اللون مخلولق تستبين منه الثياب صرت أشعر فى الطريق بأمرين معا البرد الشديد والعار من كون الثياب غير لائقة وقد وقع فى نفسى أنى سأقابل صديقا فى محطة القاهرة وأنه سيلاقينى بهذه الثياب التى لاتليق ، فهذه ثلاثة أشياء برد وخجل من الناس وخجل ممن سأقابله وفوق ذلك ندم على أنى تركت عباءتى ، فهذه الأربعة اجتمعت فى نفسى ، ولما لم أستيقظ مع هذا كله جاء كلب أسود سريعا ليقدم على عضّ رجلى ، هنالك استيقظت وعلمت أن ذلك للمحافظة على صحتى فتدثرت حالا وصليت العشاء ونمت هادئا .

لعلك تقول وأى علاقة لهذا بالزهرات فى الشجرات ولم تكتب حلما لاتفسير له ؟ أقول إن هذه الأحلام التى فى الحقيقة أضغاث لاتأويل لها قد أعطتنى درساً أرقى من الدرس الذى كتبته الليلة فى الزهر والالقاح وأرقى جدا .

(١) أن هناك تدبيرا تاما لحفظ أجسامنا .

(٢) أن قوتى العاقلة نائمة فمن ذا الذى دبر هذا كله حتى أيقظنى .

(٣) أن هذا العمل ناتج من قوة عاقلة .

(٤) لنقل إن البرد الذي في المنام هو الذي أحس به ثما الذي أحضر لى اللابس المخلوقة لتحدث عندى خجلا لأستيقظ .

(٥) ومن ذا الذي وضع في نفسي أني سأقابل صاحبا أخجل أمامه لثيابى الرثة .

(٦) ومن ذا الذي أحضر صورة كلب ليكون أدعى إلى استيقاظى خوفا من نجاسته ومن عضه .

(٧) وإذا كنا نرى في مسائل الزهر المتقدمة أن الذباب يضغط عليه البرد فيفر داخلا إلى الزهرة المجوفة وهناك يضطر لحركات توجب عملا نافعا للالقاح .

أفليس ماهنا أدق وأحسن صنعا وأن الحيلة هنا أتم لأنها مركبة من أعمال خيالية أثرت في النفس فأيقظت الجسم ، إن هذه أضغاث أحلام ولكنها أعمال معقولة منظومة كما قال تعالى (إن كل نفس لما عليها حافظ) وقوله (له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله) وما يدرينا أن تكون هذه الأضغاث قد ألقيت إلىّ لأضعها هنا وأقارن فيما بينها وبين الحيل العجيبة المختلفة في عالم الزهر وإلقاحه ولتكون بابا لاستخراج أهل العلم مافى نفوسهم من الكنوز التى تمر عليهم وهم عنها غافلون . وكأن الله بهذه يقول لنا أنتم نظرتم في النبات والزهر (وفى أنفسكم أفلا تبصرون) ويقول الله لنا كيف غفلتم عما فيكم من العجائب وأنتم أرقى من الزهر والنبات ، ويقول إنا لما عذبناك في حال نومك بالبرد وبالخزى من الفضيحة الحالية والمستقبلة وبإرسال كلب عقور عليك وبندمك على أنك لم تلبس عباءتك ، لم يكن ذلك التعذيب منا غضبا حقيقيا وإنما هو رحمة ، هو في ظاهره عذاب وفى باطنه رحمة ، هو في ظاهره أننا سلطنا عليك كلابنا وآذيناك بالبرد وأعريناك وأخزيناك ، وفى الباطن أيها العبد أزحنا عنك أسباب المرض يقظتك وراحة بدنك وصحتك لتتوفر على هذا التفسير الذي أردنا أن يخرج على يديك لعبادنا كما أريناك في المنام منذ عشرات السنين وأخبرناك به وألهمناك أنه سيكون للمسلمين شأن بعد ظهوره ، فهانحن أيقظناك وساعدناك فهل هذا عذاب ؟ كلا ! بل هو نعمة ، وإذا فهمت هذا أيها العبد فقل لعبادى كل عذاب أنزله بكم في الأرض فهو كعذابك الذي رأيته فأنا الغفور الرحيم وأن عذابى هو العذاب الأليم وما أمله إلا على هذا النحو ، فما نارى ولا إيلامى لبنى آدم إلا لإسعادهم وراحتهم، وحاشا أن أفعل غيرذلك «إن رحمتى سبقت غضبى» وانظر قولى (فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب) .

نعم إن هذا سيشكل عليكم في مسألة عذاب الكفار ولكن في عذابهم سرّ لاتعرفونه إلا بعد ارتقاء نفوسكم وهناك تفهمون .

هذا هو الذي خطر بالنفس بعد هذا الحلم كتبته تذكرة للاخوان ليعلموا أن الله معهم وأنه مع كل نفس ولكن أكثر الناس لايلحظون مثل هذا ، وفى نفس كل امرئ من العجائب التى تمر عليه وهو يزدريها أضعاف ما يتصوره في الكتب (والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم) انتهى .

جوهرة في قوله تعالى « وإن من شئ إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » مع قوله « ونزعنا مافى صدورهم من غلّ إخوانا على سرر متقابلين الخ »

إن من أعز النعم وأشرف المزايا وأسعد الأحوال أن يقف الانسان على الحقائق وتتصل العلوم وتتحد ويعمها ناموس واحد ، هذا هو نهاية مقاصد هذا النوع الانسانى ، إن شعور النفس بالحقائق الثابتة ابتهاج لها وسعادة قصوى ، أنا أكتب هذا وفى النفس من البهجة والجمال والسرور ما لاحدّ له ، أنا لا أقدر أن أصف سرورى وبهجتى حينما أردت أن أكتب هذا الموضوع ، ألا حيا الله العلم والحكمة ؛ وإنى أسأل الله عز وجل أن يجعل إشراق العلم عاما في الأمم الاسلامية حتى يتبوءوا مقاعدهم في الحياة الدنيا بين الأمم وفى العالم الباقى بعد مبارحة هذه الدار .

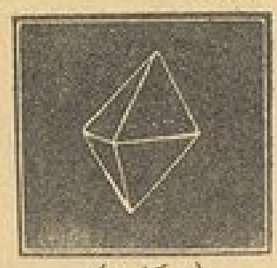
ها أنا ذا الآن أدخل فى موضوع الآيتين ولكن علام أتكلم ومن أى علم أقتبس ؟ أما الذى وقر فى نفسى الليلة فهو عجائب السوائل التى تكون وعجائب الجوامد التى تكون بهيئة بلورات منتظمة وذلك أن بعض المواد إذا ذوبت ثم أعيدت جوامد تأخذ هيئات هندسية منتظمة قانونية وهذا العمل فى عرف علماء الطبيعة يسمى (تبلورا) فهذه كلمات اصطلاحية ، ومثاله ماتقدم فى أشكال الثلج المسدسة المذكورة فى سورة الرعد ، وهناك أشكال أخرى فى سورة (آل عمران) ولكن الأولى أجمل وأوضح شرحا وبيانا ، ولأذكر لك منها مسائل فأقول :

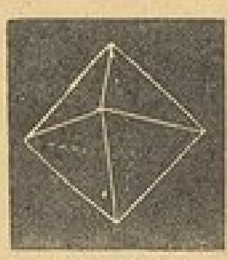
(١) مثال السائل المذكور إذا مزجت ماء بالكحول وألقيت فى هذا المزيج نقطة من الزيت فإنها تثبت فى وسطه وتصير بهيئة شكل كروى وهكذا كل سائل ترك وشأنه يكون على هيئة كروية كقطرات الندى والمطر والزئبق ، وذلك بسبب جاذبية الملاصقة ، وجاذبية الملاصقة خاصة بالمادة التى من نوع واحد كالماء وكالزيت وهكذا ؛ فجاذبية الأرض لاتؤثر بل المؤثر فيها دقائقها مع بعضها فتصير كروية .

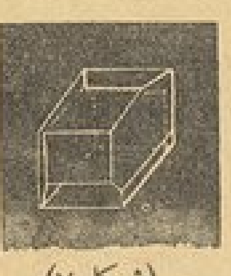
(٢) إن كل نوع من المادة له بلورات ذات شكل وزوايا خاصة ، فمن المواد ما بلوراته دقيقة إبرية وزواياه صغيرة ، وبعض آخر بلوراته مكعبة وهكذا ، ومن أذاب أجساما مختلفة فى إناء واحد ثم جمدت وبحث فيها أمكنه تمييز بعضها من بعض بأشكالها بل يعرف ذلك وإن لم يعرفها حين إذابتها إلا أن هذه الأشكال متقنة الصنع بديعة النظام ، جميلة الهيئة حسنة الوضع ، يحار فيها اللب ، ويعجب اللبيب من الألماس البديع والعقيق البهى والياقوت وسائر الأحجار الكريمة فما فيها من دقة الصنع وغرابة الوضع ما يدهش الألباب .

واذا أردت أيها الذكى اللبيب أن تطلع على ذلك فهناك ثلاثة أمثلة :

المثال الأول : ركب كأسا صينيا أو بلوريا على منصب حديد وضع فيه عشرة دراهم ماء ، وأغل الماء بقنديل الكحول ثم اجعل فيه حوالى عشرين درهما من الصودا الكاوية . إذن ترى الصودا تذوب جميعها فى الماء الحار ثم أطفئ النار واتركه حتى يبرد . هناك ترى بلورات على هيئة منتظمة مختلفة المقادير مع حفظ الشكل كما فى شكل ٥


(شكل ٥)


(شكل ٦)


(شكل ٧)

المثال الثانى : أعد العمل واجعل بدل الصودا الكاوية شبا أبيض فتكون البلورات على حسب هذا الشكل ٦ .

المثال الثالث : فإذا أعدت العمل بالشب الأزرق (كبريتات النحاس) بدل الشب الأبيض فإنك ترى البلورات تكون على هذه الهيئة شكل ٧ .

ثم إنك إذا مزجت (٦) دراهم مثلا من مسحوق الشب الأبيض مع مثلها من الشب الأزرق ومزجت المسحوقين معا فى (هاون) ثم ذوبت الجميع فى عشرة دراهم من الماء الحار فإذا تركته حتى يبرد أمكنك تمييز بلورات الشب الأبيض بهيأتها من بلورات الشب الأزرق بهيأتها ، وبهذه الطريقة وهى أن كل مادة لها هيئة بلورية خاصة ، ترى كل مادة لايمكن أن تخلع شكلها وتلبس غيره وقد ذاب فى الأرض من قديم الزمان

أنواع بلورات من السليكا والماس والياقوت والجمشت والفلور ، ويمكننا أن نصنع مثل ماتقدم من ملح البارود وملح الطعام ، فأما ملح الطعام فقد تقدم شكله فى آخر سورة (آل عمران) وأما ملح البارود فإنه يتكون على هيئة إبر منشورات .

إن الإنسان ليعجب جد العجب من أنه يرى أمثال العقيق كما تقدم وسائر الأحجار الكريمة كلها بهيئة منتظمة صاغها الله وأبدعها وأحسنها ونظمها وهكذا قطع الثلج كما تقدم ، وقد يظن الانسان أن الصقيع وقطع الثلج على الأرض ليس لها نظام كالذى ذكرناه ولكن إذا تأمله الانسان ألفى ماهو متجمد متكاثف على الأرض مركبا من بلورات متقنة الصنع غريبة الشكل حسنة الهيئات ، وهكذا من يراقب سطح الماء وهو آخذ فى الجمود يرى البلورات فيه تظهر من جوانب الوعاء مرتبة فى أشكال حسنة ، قال صاحب كتاب [فلسفة الطبيعة] وأكثر تراب الأرض مؤلف من بلورات متكسرات أو متحللة من تأثير الماء والصقيع ونحوهما ، هذا ما أردت ذكره فى هذا المقام .

ألا فلتعجب أيها الذكى أشد العجب ! وكيف لاتعجب من عقول بنى آدم ؟ هؤلاء الذين يعيشون ويموتون وأكثرهم لايعلمون ، أكثر الناس لايعلمون .

اللهم إنك أنت الذى خلقت الجمال وجعلته ياألله محيطا بنا من كل جانب وأفرحت قلوبنا وشرحت صدور جهالنا وعلمائنا معا للأحجار الكريمة والمناظر البهجة ، كل ذلك منك لتلفت عقولنا إلى الجمال والحكمة والنظام الذى أنزلته ولكن أكثر الناس لايعلمون ، يعلمون ظاهرا من الحياة الصغيرة ، حياة الحيوان من مأكل ومشرب وزينة فيتزين المرء بالأحجار الكريمة وقلبه خال من زينة العلم فهو عن الحقائق المودعة فى تلك الزينة من الغافلين، والحقائق هنا تلك الأشكال المنظمة ، نحن نرى الثلج ونضعه فى الماء ليبرده ونحن لانفكر أن هذا الثلج أشكال منظمة متراكمة بعضها فوق بعض كأنها قطع من الماس .

اللهم إنك قد أحطتنا بالجمال فى العوالم التى حولنا وأريتنا فى الصودا الكاوية المتقدمة بلورات على هيئة هرمين سطوحهما متساوية بينهما قاعدة واحدة مستطيلة وهما مائلان عليها ، وأريتنا فى الشب الأبيض هيئة الهرمين المتساويين ولكنهما قائمان على القاعدة المشتركة بينهما ، وأريتنا فى الشب الأزرق شكلا مكعبا ، وأريتنا فى الثلج شكلا مسدساً ، وهكذا من أشكالك البديعة فى نظام الأحجار الكريمة .

ياألله هذا هو قولك (وإن من شئ إلا عندنا خزائنه) الآية ، وهذا هو التقدير والميزان المنصوب وهذا هو الحكمة والحفظ فى آيات تعدّ بالعشرات كلهن ناطقات بحكمتك وعدلك ونظامك . اللهم إن هذا كله مستمد من اسمك الحفيظ فأنت واضع الميزان فى العوالم وأنت الحفيظ وهذا الحفظ وهذا الميزان هما المعبر عنهما فى الطبيعة بكلمة (جاذبية الملاصقة) فجاذبية الملاصقة التى وضعتها فى الماء وفى العقيق وفى الشب الأزرق والأبيض والصودا الكاوية هى التى نسميها الحفظ والوزن فى قولك (والوزن يومئذ الحق) ونسميها الامساك فى قولك (إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا) .

اللهم إن الفراغ لانهاية له وهكذا الزمان ، الفراغ الذى وضعت فيه كواكبك لا آخر له وهكذا الزمان لاأول له ولا آخر ، فهذه المخلوقات لو تركت وشأنها لتبددت ولكنك أنت جعلت فى المادة قوتين : قوة الجذب وقوة الدفع ؟ فالحديدة لاتقدر على فصلها كما لاتقدر على ضغطها مع علمنا أن الفراغ فى داخلها عظيم وهى للمسام كما أوضحناه فى غير هذا المقام ، ويمكننا أن نقوى قوة الدفع بالحرارة فهناك يقل الجذب ويكثر الدفع ويصير الحديد سائلا ، وإذا أبطلنا الحرارة قويت قوة الجذب فرجع جامدا ومثل هذا يقال فى الماء والثلج . وقوة الجذب من أهمها قوة الملاصقة المذكورة وهى التى بها تبقى الأجسام محفوظة وهذه الملاصقة إذا قلت أصبح الجسم سائلا وهكذا إذا زاد نقصها أصبح غازا ، فهذه القوة بقلتها وكثرتها كانت الجوامد والسائلات

والغازات ، ومن قوى الجذب قوة الالتصاق وهى التى تكون بين جسمين مختلفين مثل الجاذبية الشعرية التى فى الورق النشاف والتى فى جذور النبات .

ومثل هذا الجاذبية العامة كجاذبية الأحجار الساقطة على الأرض المشروحة فى أول (آل عمران) بإيضاح وحساب .

اللهم إن هذا هو النظام العام فى السموات والأرض نظام واحد تدخل فى الذرة وفى الجبل وفى الكوكب وفى كل شئ وهذا هو نفسه قولك فى هذه السورة .

« ونزعنا مافى صدورهم من غلّ إخوانا على سرر متقابلين .

لايمسهم فيها نصب وماهم منها بمخرجين »

اللهم إنه لافرق بين ذرات القطرات المطرية فى اتحادها وتكونها كرة ونقطة الزيت فوق بعض السوائل والهرمين المتكونين من الشب الأزرق والأبيض المختلفين من حيث الميل والقيام والشكل المكعب فى غيرهما والشكل المسدس فى الثلج ، أقول لافرق بين هذه كلها وبين انفصال المجرمين من الصالحين ، أنت تقول (أم نجعل المتقين كالفجار) وتقول (وامتازوا اليوم أيها المجرمون) وتقول (إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين) وتقول (فكبكبوا فيها هم والغاوون . وجنود إبليس أجمعون) وتقول (والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم) .

اللهم إنه لافرق بين الآخرة والأولى ، لافرق بين الدارين ، هاهى ذه القطرة من المطر تتجاذب ذراتها وتتحد فتصير كرة ولا تطيح فى الجو ، أليس هذا بعينه قولك (على سرر متقابلين) ولماذا هذا ؟ لأنهم متجانسون ، فهنا نسميها فى أشكالنا الطبيعية (جاذبية الملاصقة) وهى إحدى الجاذبيات الثلاث والأخريان (الجاذبية الكيمائية) و (جاذبية الالتصاق) كما تقدم ولكنها بالنسبة للنفوس البشرية تشاكل الطباع والأخلاق كما قلت (هم وأزواجهم فى ظلال الخ) وقلت (احشروا الذين ظلموا وأزواجهم الخ) فهناك تجمع الأشكال إلى أشكالها معا وتوضع فى الأماكن المعدة لها كما نرى الأشكال عندنا تمتاز العناصر حتى إنك ترى فى عملية وضع الأشكال المختلفة وغليانها فيما تقدم تصير متمايزة إذا بردت فيمتاز كل نوع بالشكل الخاص به كما قلت فى كتابك (قل كلّ يعمل على شاكلته) وفى المثال العربى [إن الطيور على أشكالها تقع] هناك أمر عام جمع الأشكال المتماثلة وتفريق المختلفة .

هذا هو الذى نراه فترى الناس يذرون القمح فى الهواء فيصير البر معزولا عن التبن ، ونرى الرمال متراكمة فى الصحراء والماء مجتمعا فى أمكنة خاصة نسميها البحار والهواء فوق الماء فكل طائفة من عالمنا نراها مجتمعة لأجل المشاكلة .

فإذا عاش الناس فى هذه الأرض وهم عمى عن هذا الجمال فإنهم أولى بعالم الذرات والبهائم ولا حظ لهم فى الانسانية لأن الانسان أعطى عقلا به يميز الجميل من غيره والحسن من القبيح ، فإذا مات وهو لم يدرس ما استعد له بعقله تنزل إلى أدنى دركات الحيوانية لأنه جهل المقصود من وجوده فعلم ظاهر الحياة وهو أن يعيش بما يغذيه وجهل حقائقها التى تنبئ عن سر خفى ونظام بديع يرشد النفوس إلى عالمها وهؤلاء هم الذين قيل فيهم (يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون) وعالم الآخرة هو سر عالم هذه الدنيا لأن هذا الجمال الذى رأيته فى هذه العجالة هو السر الذى تعشقه النفوس وبه تصير أعلى من المادة وتتأهل أن تكون (فى مقعد صدق عند مليك مقتدر) وتحب أمثالها وتعيش معهم بسلام كما فى قوله (ونزعنا مافى صدورهم من غلّ) الخ انتهى .

جوهرة

جوهرة فى قوله تعالى « وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من طين فإذا سوّيته ونفخت فيه »
إلى قوله « إلا من اتبعك من الغاوين »
وموازنته بلغز قابس فى أن جهل الخير والشر هو سبب شقاء الناس

اعلم أن هذه القصة ذكرت فى القرآن مكررة بطرق مختلفة ، وقد جاءت فى التوراة أن هذه القصة يتلوها ويؤمن بها نحو نصف النوع الإنسانى وهم اليهود والنصارى والمسلمون ، كل هؤلاء يؤمنون بأن آدم وحواء قد أغواهما الشيطان فأكلا من الشجرة ، وهذه الشجرة لاتعيين لها ، وأعم قول رأيته فيها أنها شجرة معرفة الخير والشر ، وهنا أقول :

إن الله عز وجل بذر العلوم والمعارف فى أرضنا بذرا ونشرها شمرا، سبحانك اللهم وبحمدك أريتنا عجائب صنعك فى نباتك وحيوانك وشموسك وأقمارك فدهشنا لتفننك فيها وإبداعك ، ورأينا أنك لم تذر صغيرة ولا كبيرة من هذه المخلوقات إلا وزنتها ونظمتها وراعيتها حق رعايتها ، وهاهو ذا النوع الإنسانى قد أريته هذه المخلوقات جميلة المحيا بهجة المنظر ، تريد بذلك شوقه لها وسوقه لعلمها ، ومن أبدع ما صنعته أنك ألقيت لهم الحكمة العملية من طريقين : طريق الدين ، وطريق الفلسفة بهيئة لغز واحد .

أنزلت يا الله هذا اللغز فى أرضك على ألسنة الفلاسفة وعلى ألسنة الأنبياء ، فأما الأنبياء فللمؤمنين بهم ، وأما الفلاسفة فلمن نظروا بعقولهم ، إذن أنت أنزلت علم الحكمة النظرية على جميع الناس مقلدهم ومفكرهم وجاهلهم وعالمهم . فقلت لأتباع الأنبياء إن آدم وحواء أكلا من الشجرة فطردا من الجنة وأصبحنا نحن فى الأرض نذوق العذاب ألوانا فيها وتركتها للناس يقرءونها ويفهمونها وألهمت فلاسفة اليونان كما سيأتى فى سورة الإسراء أن يقولوا فى خرافة يتناقلونها كابرا عن كابر (إن سفينكس كانت تلق ألغازا على الناس الذين يمرون عليها ، فمن فهمها تخلص منها ومن لم يفهمها قتله فتقول لهم ما الخير وما الشر وما الذى ليس بخير ولا بشر) وقد جاء فى الكتاب المنسوب إلى (قابس اليونانى) المعاصر (لسقراط) المسمى (بلغز قابس) أن قابس كان يتمشى فى هيكل (زحل) فرأى صورة غريبة الشكل قد رسم فيها حظائر مابين كبيرة وصغيرة وفيها صور رجال ونساء، وجموع كبيرة وأحوال مختلفة سيأتى شرحها فى سورة الاسراء كما قدمت لك فجعلوا هذه الصور هى لغز الحياة فمن فهمها كان سعيدا ومن لم يفهمها كان شقيا . وبعبارة أخرى : أن (سفينكس) المتقدم ذكرها وهى (أبو الهول) المشهور فى مصر كان يقتل حالا من لم يفهم لغزه ويبقى من فهم .

فأما هنا فلايكون الموت حالا بل من جهل الخير والشر فى هذه الصور التى رآها (قابس) فى هيكل (زحل) قتله جهله قتلا تدريجيا وهو فى ذل وهوان مدة الحياة لا كما فعلت (سفينكس) بالقتل حالا .

وملخص هذا أن أصل كل شر فى الانسان عند هؤلاء الفلاسفة هو الجهل بالخير إذ لايمكن لذى بصيرة وعقل أن يختار الشر وهو يعلم أنه شر وليس يختاره إلا لأنه تخيل شيئا من الخير فيه فيرجع الشر فى الانسان إلى مجرد الغلط والقصور فى العلم ، وهذا المذهب تلقاه الرواقيون من (سقراط) فهم معدودون من أتباعه فالجهل بالفضيلة هو منشأ الشر ومن علم الأشياء على ماهى عليه لابد أن يتبع علمه فالحكمة عندهم راجعة للعلم والعمل معا ، فالخير عندهم قسمان : خير فى ظاهره وليس هو بخير فى ذاته كالمال والصحة والجمال والولد والصيت أى كل ماهو موقوف على العوارض الطارئة ، فهذا تارة يكون خيرا وتارة يكون شرا وذلك بحسب استعمالنا إياه ، والخير الحقيق هو الحكمة والخلق الكريم الذى نتصف به فهذا موقوف على إرادتنا داخل فى قدرتنا لايسلبنا إياه سبب طارئ وذلك لأنه ملكة راسخة فى نفوسنا لاتختلف باختلاف الأوقات والأحوال

ولا يتصور فيها سوء الاستعمال ، فمن فاز بذلك فقد فاز بالسعادة طول حياته إذ لايحتاج فيها إلى شئ من الخيرات المحسوسة الخارجة عن قدرته المنوطة بالبدن والمال وهكذا ، وعلى هذا يكون الناس عندهم قسمين : حكماء سعداء ، وجهال أشقياء ، هذا ملخص هذا المذهب الفلسفى .

أما الشجرة التى أكل منها آدم فانها فى الحقيقة ترجع إلى هذا المعنى بهيئة أخرى ، وبيانه كما قلنا إن الشجرة أعم الأقوال فيها أنها شجرة معرفة الخير والشر وهذا هو العجب .

اللهم إنك عممت العلم ولم تقصره على طائفة نثرت الحقائق وبذرتها فى أرضك ولكن نوعت طرقها ؛ فالفلاسفة يقولون : من جهل الخير والشر عاش شقيا ، لماذا ؟ لأنه يتناول الشئ ظانا أنه خير محض فيكون شرا عليه إلى آخر ماتقدم .

هكذا هنا آدم لما قيل له إياك أن تقرب شجرة الخير والشر ، فلما قربها حصل له ولبنيه ماهو معلوم من النصب والتعب ، إن شجرة معرفة الخير والشر ترجع فى نتيجتها إلى ما تقدم ولكنها عند الفلاسفة بهيئة غير ما هنا ، فهناك يقال أصل الشر الجهل بحقيقة الخير والشر ، ولكن هنا يقال له إياك أن تعرف الخير والشر وهذا عجب ، هناك يكون الذل يتبع الجهل بالخير والشر ، وهنا تكون المعرفة شرا .

أقول : إن النتيجة واحدة لأن معرفة الخير والشر فى قصة آدم معناه فهم الخير والشر فهما سطحيا ظاهريا والفهم الظاهرى الذى يرجع إلى مايتصوره الناس بسبب حواسهم وخيالهم هو نفسه جهل . فالمعرفة هنا هى الغرور بالظواهر فهى معرفة ظاهرا جهل حقيقة ، وأضرب لك مثلا بضروب الشهوات من الولوع بالمآكل والمشارب وباقى اللذات والاكثار من المال ، فكل هذا عند أكثر الناس سعادة ولكنهم فعلا به أشقياء فى هذه الحياة الدنيا وهذا معروف فلا أطيل به وإنما أذكر لك ثلاثة أمثلة :

المثال الأول

إن هيئة القوى فى الانسان كهيئة شمعة كبيرة ، وهذه الشمعة قد وضعنا فيها أربع فتائل ، وهذه الفتائل الأربع لو أضأناها ساعة لفنيت الشمعة ، ولو أضأنا واحدة فقط لكانت الشمعة لاتفنى إلا بعد أربع ساعات طبعا .

هكذا أكثر الناس ينهمكون فى لذاتهم ويعدون هذا الانهماك سعادة فيشربون الخمر ويزاولون الشهوات البهيمية ونحو ذلك فتكون هذه السعادة الظاهرية فى نظرهم القصير ضعفا لأبدانهم وخللا فى عقولهم وضياعا لمالهم وتقصيرا لأعمارهم وهم نادمون .

فالانهماك فى اللذات كإشعال الفتائل الأربعة فى الشمعة وهو شقاء باطنا وسعادة ظاهرا ، والعفة بظنها الجاهل شقاء وهى فى الحقيقة صحة البدن والعقل وسرور النفس فهى أشبه بإشعال الفتيلة الواحدة فى الشمعة المذكورة .

المثال الثانى

يقال إن علم النوع الانسانى اليوم أوسع مما تعلمته الأمم السابقة حتى قال بعض أطباء القرن العشرين إن الناس تعلموا فى هذه السبع والعشرين سنة التى مضت من هذا القرن أكثر مما تعلمه من قبلنا فى خمسة آلاف سنة فى الطب ، وهذا القول وإن كان فيه مبالغة لايعنينا من قراءة علومهم بل هو يغرينا بها ، فهاك مثالا واحدا مما قاله الأطباء فى عصرنا لتبتهج وتسعد فى صحتك الجسمية كما تبتهج وتسعد بصحتك العقلية فيما تقدم يقولون إن الجسم الانسانى مركب من ست عشرة مادة :

(١) كالجير الذى يغذى العظم ويشفى الجروح وهو فى الكرنب واللبن والجبن التى لم ينزع زبدها

والسبانخ والبصل والمشمش والتين والبامية والطماطم وهكذا ، فهذه كلها لها مادة الجير التي تقوى العظم كما علمت .

(٢) المغنسيوم وهو يساعد العضلات ويمنع الفتق وهو في السبانخ والخيار والطباطم والبرتقال والشعير والذرة والقمح والليمون والبامية .

(٣) الكبريت ينظف الدم وهو ضد الروماتيزم الذي هو من الأمراض الباردة وهو في السبانخ والقنبيط واللفت والفجل الأحمر والطماطم والقرلة والجزر والبصل .

(٤) الفسفور يغذي المخ وهو في سمك البحر والخس وصفار البيض والسبانخ وكذلك اللوز والتجل والخيار والبسلة والعدس الخ .

(٥) الحديد يقوى الدم ويعطيه لون الحمرة وهو ينفع من فقر الدم ، وهو في الكرنب الأحمر والسبانخ والزبيب وصفار البيض النيء والبرقوق والطماطم .

(٦) الكلورين يساعد على الهضم وينظف المعدة كتنظيف الصابون الثياب وهو في الكرنب والجزر والسبانخ واللبن وسمك البحر المالح والفجل والجبنة .

(٧) والملح العادى . (٨) والصودا . (٩) والرمل . (١٠) والفحم .

هذه المواد العشرة من (١٦) التي تركب منها جسم الانسان ونحن بعملنا وحركاتنا نفقد من أجسامنا من هذه المواد ، فعلينا إذن أن تكون مآكلنا محتوية على هذه المواد جميعها ، ومتى نقص منها واحد اختلت قوانا واعتلت صحتنا ، إن هذا الكتاب تفسير القرآن وليس كتاب طب ، ولكن يجب علينا أن نشرح هذا الموضوع مختصرا ليكون القارىء على بينة منه وليخرج بفائدة علمية وعملية في آن واحد .

هذه المواد الست عشرة كلها لابد منها في طعامنا ، فلو أن الطعام نقص الجير مثلا فإن الدم يسرق ذلك الجير من العظم والأسنان ، فإذا سمعت أن رجلا أسنانه ضعيفة فمعناه أن طعامه ليس فيه جير كاف ، وإذا رأيت طفلا مقعدا لايقدر على النهوض فاعلم أن لبن أمه ليس فيه جير يكفي وذلك بسبب أن طعام أمه ليس فيه ما يكفي منه وهكذا ، ويقول العلماء إن في هذه المواد ثلاث قوى تسمى كل منها [فيتامين] وهذه القوى لها مقادير معينة لابد منها في الطعام .

إن هذه المواد جميعها خلقها الله في القمح بالمقادير المعينة في الدم ، القمح على حاله الطبيعية فيه الست عشرة مادة وفيه القوى الثلاث المغذية .

الله أكبر ! تركيب القمح كتركيب الدم ، فماذا فعل الناس بالقمح ؟ انقسم الناس فريقين : أغنياء وفقراء فترى فريق الأغنياء في أكثر العالم ينخلونه فيكون لهم منه دقيق ناعم أبيض ويتركون مايسمى في مصر (السن والنخالة) وهذا الدقيق اللطيف الأبيض الجميل هو الذي تأكله هذه الطبقة ، وأما فريق الفقراء فإن منهم طائفة تشترى هذه النخالة وهذا السن ويأكلونهما ، فماذا يقول علماء الطب في هذا ؟ يقولون : إن الدقيق الأبيض اللذيذ الطعم المذكور قد فقد ثنتى عشرة مادة من الست عشرة مادة ولم يبق فيه إلا أربع منها وهو الربع فتحتاج هذه الطائفة إلى تكميل ذلك من غير القمح مثل السبانخ والفجل والكرنب وهكذا مما تقدم ، وأيضا هذا الدقيق يكون سببا في الامساك ، أما الذي فيه الردة والسن : أى الذي لم ينخل فهو الذي لا إمساك فيه .

إذن ! الدقيق الذي لاينخل فيه فائدتان : القوة التامة في التغذية ، وعدم الامساك ، والدقيق المنخول فيه ربع التغذية وفيه الامساك .

نتيجة هذا المبحث

ههنا يظهر معنى خطايا بنى آدم فى جهلهم بالخير والشر على رأى الفلاسفة أو فى علمهم الناقص بالخير والشر كما فى الدين، انظر إلى أهل مكة فإنهم كما بلغنا لاينخلون الدقيق وصحتهم أرقى وأقوى من غيرهم ثم تأمل فى هذا النوع الانسانى ، هذا النوع الذى يتبع آخره أوله جهالة ، نخل زيد الدقيق فاستحسنه فقلده عمرو فتتابعت أجيال وأجيال فصار ذلك عادة راسخة ، ولذلك تجدنا فى مصر اعتدنا أن ننخل الدقيق وترى الطبيب الذى يعلم هذا والعالم والجاهل كلهم يأكلون على هذه الطريقة وهم يرون بأنفسهم كما يقرءون فى كتبهم أن هذه طريقة رديئة ثم لايتوبون ويموتون وهم لايذكرون ، ثم تأمل كيف كان الناس فى عصرنا جهلاء أشد الجهالة؟ فترى الحكومة المصرية تعطى المسجونين خبزا غير منخول الدقيق فيخرج المسجون مفتول السواعد قوى العضل ونفس الطبيب لايأكل مثله وهكذا بقية الأمة أبدانهم ضعيفة ، وأكثر الناس مرضى بضعف المعدة وهم يرون المسجونين وعرب البادية وأهل مكة فى صحة جيدة ، فالمترفون اتبعوا اللذة وسواهم لم ينالوها ونالوا الصحة والعافية .

الانسان الأول والانسان الحالى والانسان فى المستقبل

يظهر أن الانسان الأول عاش عيشة فطرية فأكل من الأشجار وأكل الحبوب بفطرتها فقلت أمراضه وهمومه ، ونظيره عرب البادية ، أما الانسان بعد ذلك فإنه أخذ يستعمل عقله فى استجلاب اللذات وترك الطبيعة ظهريا واخترع ضروب المسرات من تلقاء نفسه ، هنالك هوى وضل وغوى وأخذت العداوات تزداد بازدياد اللذات وطلبها وهى المعبر عنها بمعرفة شجرة الخير والشر فى الدين أو هى جهل حقائق الخير والشر فى الفلسفة .

اللهم إن هذا الانسان تمادى فى شهواته وهو يجهل حقيقة الخير والشر فأخذ يجد فى لذاته الظاهرة وأخذ كل يحارب كلا ، لماذا ؟ لينال اللذة الظاهرة فهم دائما متحاربون مختصمون لأنهم إلا قليلا يبحثون عن ظواهر السعادة ، فترى الرجل قد يملك آلاف الأفدنة من الأرض وهو لايحتاج إلا إلى أقل قليل جدا من ذلك فهم فى جشع مستمر ، وما مثل مايملكون من المال إلا كمثل ما يأكلون فوق الشبع ، كل هذا وذاك وبال عليهم .

اللهم إن الانسان اليوم تمادى فى الجهالة بشهوته وغضبه فترك الناس مواهبهم العقلية فلم يربوها ومزايا الأرض ومنافعها فلم يظهروها إلا قليلا . إن النوع الانسانى اليوم معذب لأنه لم تستخرج بالتعليم قواته المخبوءة فيه الكامنة ، ولو أنها استخرجت لاستخرج بها فنون النعم المخبوءة فى الأرض ، فالناس لجهلهم يقاتل بعضهم بعضا يريد كل أن يخطف مافى يد الآخر وكان خيرا لهم أن يقفوا جميعا صفا واحدا متحدا ويستخرجوا مافى هذه الأرض من المنافع فذلك يكفيهم جميعا ، إن الله خزن أرضنا وملأها بما ينفعنا على قدر حاجتنا . فإذا نحن لم نبق كآبائنا الأولين على الفطرة فنكتفى بما فى الطبيعة من النعم كما هى حالنا اليوم ، فليس لنا حيلة إلا بالتعليم العام لسائر الأمم من جهة ، ومن جهة أخرى نستخرج منافع كل أرض فى الدنيا ، فالانسان الأول كان فى سعادة لأنه اكتفى بالفطرة ، والانسان الحالى شقى لأنه لم يكتف بالفطرة ولم يصل لنهاية العلم وإنما اتبع الظواهر فضل ، والانسان فى المستقبل هو الذى ينال نهاية العلم بما فى أرضنا ، وإذن يسعد على مقدار علمه فإذا رأى الدقيق المنخول قال لا آكله بل آكله بنخالته مثلا فلا أكون كآبائنا الجهلاء الذين كانوا يرمون منه القوة المغذية النافعة لهم فى صحتهم لجهلهم فالسعادة فى الدنيا إما بالرجوع إلى الطبيعة ؛ وإما باستكمال العلم استكمالا تاما .

فأما الانسان الحالى فلم يكتف بالطبيعة ولم ينل غاية العلم بل هو استعمل قواه العقلية فأتت بخليط من حسن وسيء ، وما مثل هذه المراتب الثلاث إلا كمثل الإيمان ، فمن الناس من يؤمنون بالأنبياء بلا بحث وهم العامة ، ومنهم من يشك فى كلامهم ، وهذا الفريق قسمان : قسم وصل إلى الحقيقة فصدقهم بعلمه فرأى أن نهاية العلم تشابه مافطر عليه العامة ، وقسم أخذ فى البحث ثم قال ، خير لى أن لا أبحث بل أكذب ، وهذا الفريق مسكين فلا هو مع العامة ولا هو مع الخاصة فهذا كذب بلا دليل وأخذ فى اتباع الشهوات فكان العامى أفضل منه ، هكذا نرى الأعراب فى البادية الذين ما كلهم أقرب إلى الفطرة أصح أجساما من أبناء المدن وأبناء المدن لايسعدون البتة إلا إذا وصلوا فى العلم إلى أعلى الدرجات ، فالأولون بالطبيعة فائزون ، والآخرون بالعلم التام مرتقون ، وسوى هذين بين هؤلاء وهؤلاء مذبذبون معذبون .

المثال الثالث

ما يزاوله الناس من أكل السكر الصناعى مع أن الفاكهة أفضل منه

ومايقترفون من الغش فى اللبن والدقيق والخبز الخ

قد ذكرت لك مافعله هذا النوع الانسانى فى الأغذية كالقمح ، وأذكر لك الآن ما وقفت عليه أنا بنفسى وجربته ، ذلك أنى قرأت منذ سبع سنين مقالا للدكتور (جاستون دورفيل) يقول :

إن السكر من الأغذية المهلكة لأجسادنا وإن الناس فى عصرنا قد اعتادوا أن يتناولوا منه أربع قطع إلى ست فوق الغذاء الكثير ، ولا جرم أن ذلك يحكم على الجسم بازدياد الحركة بإفراط بمرض مميت ، إن أكل السكر الصناعى يحدث فينا أرقا شديدا ، قال ولقد منعت من شكوا لى الأرق من أكل السكر فشفوا منه وناموا مطمئنين ، إن السكر ليس يكون إلا دواء وليس يكون غذاء ، إذن هو ضار ونافع ، فليتجنبه المؤلفون والسياسيون وجميع ذوى الأعمال الجلوسية ، أما ذوو الأعمال الجسدية كالزراع والصناع فهو نافع لهم ، وعلينا أن نمنع الأطفال من هذا السكر الصناعى ، ذلك السكر الذى لم يكن معروفا لآبائنا (يريد الأوروبيين) منذ ثلاثة أجيال فكانوا أبطأ منا انحطاطا فى قوامهم وأقوى أجساما ، ثم عطف على السكر وضرره ضرر المشروبات الروحية فجعل خطر السكر يقرب من خطرها .

ويقول الدكتور (كاتون) فى كتابه [ثلاثة الأغذية المميتة] إن مايستهلكه الناس من اللحم قد بلغ ثلاثة أضعاف ماكان عليه قبل ثلاثين سنة وهذه الزيادة فى اللحم يضاف إليها المقادير المأكولة من السكر ومن المواد الكحولية ، ولذلك نشاهد أن السل الرئوى والسرطان يجتاحان (١٣٠) ألف نسمة كل سنة والمجانين كانوا سنة ١٨٦٥ م (١٤) ألف نسمة فصاروا ٧١٥٤٦ سنة ١٩١٠ والمنتحرون بلغوا ثمانية أضعاف ماكانوا عليه منذ بضع سنين .

وأجاز الدكتور (جاستون) لأصحاب الأعمال الجلوسية أن يتعاطوا من السكر كل يوم قطعتين ومنعهم منه ومن الأغذية الاحتراقية كالنشا ، والعجينات مساء ، ويقول إن السكر الطبيعى يكفى حاجاتنا وهو موجود فى الفواكه فهو فيها ذائب حى ، أما فى السكر الصناعى فهو محروم من الحياة ومن القوة المغناطيسية فهو غذاء مميت .

هذا ملخص ما اطلعت عليه فى هذا الموضوع الذى يجعل السكر واللحم والخمر أخوات فى الإهلاك ولكن جعلوا السكر واللحم دواءين ، فهما ينفعان ويضران ، وضررهما منصب على أصحاب الأعمال الجلوسية مثل ومنفعتهما لغيرهم على تفصيل فيه ، فانظر أيها الذكى حالى إذ ذاك .

كيف كانت حالى عند قراءة هذا الموضوع

كانت لى سن من (الثنايا) التى فى مقدم الأسنان وهى مقلقلة (متحتحة) تريد أن تسقط ولا يمر أسبوع حتى تعطينى إنذارا وهذا صورته (اقلعنى) فكنت أشع أصبعى عليها فتميل ميلا شديدا حتى أظن أنها ساقطة لامحالة ثم أتركها وهكذا مدة شهور كثيرة لا أذكر عددها ، وفى آخر إنذار وضعت يدى عليها لأسقطها وكان أهل بيتى أمامى فقالوا لى إنها لاتريد السقوط دعها فقد كنت تعالجها فتثبت بعد ذلك فتركتها ناويا الرجوع فاتفق أنى اطلعت بعد ذلك على ما كتبته لك الآن وقد كنت إذ ذاك أشرب القهوة والشاى وأضع السكر فيهما وهكذا كنت أتعاطى قطع السكر وأنا رجل مدرس ولى بعض مقالات إذ ذاك وكتب فرأيت القول منطبقا علىّ فتركت القهوة والشاى والسكر وقلت إن هذه تمنع نومى وتضرنى ضررا شديدا ، وما كنت لأعلم أن اللثة وضعفها حاصل من تعاطى السكر وأن ميل سنى للسقوط من ذلك الضعف فمرّت أسابيع وشهور وهذه الثنية على حالها ثابتة بل هذه سبع سنين ولم أتلق من هذه السنّ إنذارا كما كانت تفعل سابقا بل لا أفرق الآن بينها وبين ماحولها ، هذه هى حالى الآن وأنا أحمد الله إذ أقلعت عن هذه العادة فكانت النتيجة قوة عامة فى الجسم ونشاطا لم أعهده من قبل وقوة فى المعدة .

تذكرة

اللهم إنك أنت الذى خلقتنا وجعلتنا فى هذه الأرض وجعلت الجهل هو الداء الأكبر لنا ، اللهم إنى تعلمت فى الأزهر العلوم الدينية وتعلمت فى المدارس العلوم التى يسمونها (دنيوية) وألفت كتبا واطلعت على كتب الأوروبيين ومضت له سنون وسنون وأنا دائب مجد ومع ذلك بقيت جاهلا ، جهلت أن السكر ضرنى فى جهلت ذلك لأن العادة المستحكمة وسوء الملكات وشيوع أكله بين الناس جعله أمرا مألوفا .

اللهم إنك أنت الذى خلقت الفواكه وأنت الذى ملأتها سكرا وقلت للحيوان والقرود ولأهل البادية كلوا فواكهى وكلوا حبوبى فأكلوها ولم تر ضررا عند هؤلاء الناس ولا الحيوان إلا قليلا .

لقد أبان العلامة ابن خلدون أن أهل البادية الذين هم أقرب إلى الفطرة أبعد عن المرض ، ويقول علماء البيطرة إن الحيوان الذى لم يذلله الانسان بعيد عن المرض ، والمرض لايفترس إلا الحيوان الذى يعيش معنا ، فالمرض تابع للمدنية وهذا بيت القصيد ، الانسان خرج على الفطرة والطبيعة واستخرج السكر ، ذلك السكر الذى خلقه الله فى الطبيعة بمقدار متوسط فرأى الانسان أن يستعجل اللذات فاستخرجه فأكله فأضر به . ذلك لأنه لم يفعل مافعله الحيوان والانسان الفطرى فاتبع اللذة ولم يقف عند الفطرة ، ترك الانسان فطرته الأولى وحرم من الشمس التى كانت تعطى قوة لآبائه فأخذ الأطباء يقولون لتكونوا فى الشمس زمنا ما لتقووا ، وأمروا التلاميذ بالحركات التمرينية لتعوضهم ما فقدوه من الحركات القوية للجسم عند طلب المعاش .

الانسان خرج عن الفطرة الأولى وهو الآن بين فكى الأسد وقد كثر الضرّ والمرض .

عقاب الله للناس أكثره على الجهل

ها أنت ذا أيها الذكى رأيت الله عاقبنى ، لماذا عاقبنى ؟ عاقبنى على جهلى لأنى جهلت أن السكر يضر اللثة فأكلته فأضر بها ، وأقول إنك أنت اليوم معاقب على أمور كثيرة تجهلها وأنا كذلك ، إذن العقاب على الجهل هو العقاب العام ، وإلا فكيف أعاقب بقلقلة سنى وأنا مجد فى طلب العلم ولكن جهلت هذه المسألة أنه عقاب معجل عجله الله فى الدنيا ، وهكذا سيكون له نتائج فى الآخرة .

ألم تر أن الانسان إذا اختلت صحته تسوء أحواله ؟ ومتى ساءت أحواله ساء خلقه وقصر فى أمور كثيرة

مع أهله وولده وأصحابه وأعماله وهذا يتبعه ذم فى الدنيا وعقاب فى الآخرة ، كل هذا سر أكل آدم من الشجرة هى شجرة معرفة الخير والشر .

فآدم وأنا وأنت أكلنا من شجرة معرفة الخير والشر لأننا عرفنا أن السكر ألذ من الفاكهة فقلنا هذا خير منها فأكلناه ، فهذه المعرفة السطحية التى يقول الله فيها « فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما » هى التى أوقعتنا فى الأمراض والآلام وذل الحياة .

إن الانسان ترك الفطرة وعاش فى المدن وأخذ يتناول الشهوات استعجالا لها فقال الله لبعض عباده « أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون » وقال فى سورة الأعراف استتباعا لقصة آدم وأكله من الشجرة « يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولاتسرفوا » والاسراف من نوع الاقتراب من شجرة معرفة الخير والشر التى هى الجهل بحقائق الخير والشر عند الفلاسفة كسقراط وتابعيه كما تقدم .

ولا جرم أن الخير ينمو فى النفس والشر كذلك كما قال تعالى « فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا » وقال « والذين اهتدوا زادهم هدى الخ » .

إذن الخير ينمو كما تنمو الشجرة والشر كذلك فلذلك سمى شجرة ، والناس ذاقوا اللذات الظاهرية فعدوها خيرا فانكبوا عليها وهاهم يذوقون العذاب ألوانا وأخذ كل يحتال على لذاته بإيذاء غيره وقدعم الجهل جميع الطبقات فى نوع الانسان ، كل ذلك بسبب اتباع اللذات الظاهرية ، وسأبينها فى فصول :

الفصل الأول : غش اللبن

حرص الناس على الدرهم والدينار فأخذوا يغشون اللبن بالماء وقد أثبت العلامة (هوار) أن اللبن سبب فى إصابة (٥٠) فى المائة من الذين يمرضون كل سنة بالحمى التيفودية و (١٤) فى المائة من أصحاب الحمى الحصبية و (٧) فى المائة من الذين تعتريهم الدفتريا ، وقال إن السبب أن اللبن يحتلئ بالحيوانات الذرية التى تحدث هذه الأمراض وهذه الحيوانات تكون فى الماء الذى يضيفه الباعة إليه ، وزيد الطين بلة :

(١) إذا نزعت منه (قشدته) .

(٢) أو خلط ما حلب منه اليوم بما حلب أمس .

(٣) أو أضيف إليه النشا أو الدقيق أو بياض البيض .

الفصل الثانى : الغش فى البن

البن المسحوق الذى يباع عند (البدالين) يضاف إليه مسحوق (الآجر) الطوب المحرق وبعض الأتربة ورماد الفحم الحجرى ، فأما حب البن الأخضر فإن أهل (الندرة) لم يجدوا من (٩١) منه سليما من الغش إلا (١٣) والباقى بن صناعى يصنع من نشارة الخشب العادى ورمل وخشب (الأكاجو) وحجر الطلق وحجر (البلومباجين) الذى تصنع منه أقلام الرصاص .

الفصل الثالث : مباحث الدكتور (بارودى الكيماوى) بوزارة المعارف المصرية

لقد بحث الدكتور المذكور اللبن وقال كما تقدم، والزبدة ، فقال إنه وجد كثيرا منها مغشوشا وأنه اشترى سمنا من (٤٣) بقالا فوجد الغش فى (٤١) منه وواحد مشكوك فيه وواحد فقط لاغش فيه وقال فى الزيت إنه زنخ إما ظاهرا وإما غير ظاهر زناخته : أى تغير رائحته واختفاء الرائحة بأعمال خاصة ، وقال : مازيت الزيتون إلا خيال وهكذا ، وقال فى الملح إن فيه (١٥) فى المائة من كربونات الصودا ، وهذا غش بجهل

المعدة القوية لاتستطيع الهضم، وقال فى الخل إنه غير خل وإنما هو (حامض الخليك) مخفف بالماء وفيه حوامض معدنية تحدث فى الجسم ضررا بليغا ، وقال فى البن إنه لم يجد فيه المادة الفعالة فى البن (الكافيين) بل هذه المادة استخرجت منه قبل السحق، ووجد فى بعض البن طينا وفى بعض آخر مسحوق الفول ، وقد وجد المستر (مورس) فى أبى قرقاص نوعا من البن مركب من الفول (والشكوريا) يعنى (السريس) والطين ، وقال فى المشروبات الغازية إن فيها الزرنيخ وحامض الكبريتيك والنفتة وهكذا من المواد السامة المعدنية أو العضوية والماء الذى تصنع منه غالبا يكون قذرا ، وقال فى الدقيق إن الناس فى مصر لو شاهدوا صنع الخبز الذى نأكله ما أكلوا منه لقمة واحدة ، وذكر أن المحال التى يصنع فيها الخبز تكون مظلمة ويوضع فى العجين ماء قذر وأنه وجد أنواعا من الدقيق فيها مواد غريبة (٢٠) فى المائة من (الطلق) نوع من الحجر، وكذلك أنواعا أخرى متعفنة وهذا كله يجعل الدقيق مضرا مهلكا من الوجهة الصحية .

هذه هى الصورة المصغرة لحياتنا فى المدن وبها يظهر أن لبننا وبننا وخبزنا ودقيقنا والمواد الغازية التى تأتى لنا فنشربها كلها قاتلات لنا ، يقول المؤلف عند طبع هذا حصل إصلاح كبير جدا فى الخبز .

خطابى لأمم الإسلام

أيتها الأمم الاسلامية هذا كتاب الله تعالى والله يقول فيه : إن آدم لما عصى أبى وعصى بنوه اعتراهم الذل ورجحت معصيتنا لاتباع الشهوات فكان ذلك بذرا وكانت سائر الشهوات مفرعة كفروع الشجرة .

أيها الذكى ! ، انظر لما حصل لى : جهلت أن السكر ضار باللثة فلم يغفر الله لى هذا الجهل فتقلقلت ثنيتى ولم يعف الله عنى حتى علمت فتركت السكر ، وما أنا وما سنى التى تقلقلت ؟ أنا رجل كبير السن إن لم أمت اليوم فغدا وسنى تذهب معى ولكنى اليوم أكتب لكم أيها المسلمون ، أنا لست بطبيب ولكن الصورة المكتوبة هنا من كلام الأطباء فى مصر وفى غير مصر والكتابة رسمية فلأبن عليها كلامى مع المسلمين وأقول : إن الله لم يغفر لى جهلى بالسكر وضرره . فتعلموا أيها المسلمون أن الله لايغفر لنا جميعا جهلنا بما تقدم . انظروا انظروا ! نحن نشرب اللبن والبن ونشرب المواد الغازية من زجاجاتها ونأكل الخبز المصنوع عند الخبازين وقد ثبت الغش ثبوتا لايشك فيه ويتبعه الأمراض المتنوعة ، أليس هذا هو عين قوله تعالى « فدلاهما بغرور الخ » وهاهى ذه سوآت الانسان بدت فى الشرق والغرب .

لماذا هذا ؟ لأننا قديما خرجنا عن الفطرة وتصرفنا فى أمور الحياة .

دواء هذا الداء

لادواء لهذا الداء إلا باتباع قوله صلى الله عليه وسلم «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا» ومعنى هذا أن الخباز وبائع اللبن والجندى والأمير والفلاح كل منهم موقوف على الآخر فليقم فى كل قطر من أقطار الاسلام قوامون على الشعب يفتشون كل صغيرة وكبيرة ويعاقبون الخباز واللبان وكل ذى صناعة حصلت منه هفوة صغيرة وليكن فى الأمة علماء بكل حرفة وفن وفوق ذلك لتتعلم الأمة كلها تعلما إجباريا وليجعل كل متعلم فيما يميل له ، والله خلق الأميال والغرائز على مقتضى المصلحة كما فى كتابى [أين الانسان] .

المسلمون مأمورون بالصلاة جماعة وإن لم يفعلوا ذلك عاقبهم الامام ، هل كان ذلك فى الدين عبثا ؟ ألم تر أن المصلى إذا كان مريضا لايعقل الصلاة وربما انقطع عنها ، والصلاة واجبة وعلى الحاكم أن يجمع الناس لها وما لايتم الواجب إلا به فهو واجب، ومستحيل أن تتم الصلاة إلا بصحة ولا صحة لمن أكلوا وشربوا سموما كما ثبت رسميا فى الشرق والغرب ، نحن الآن نشرب السم ونأكل السم فى بلادنا ، فهل هذه الحياة تطاق ؟ وإذا كنا نأكل ونشرب ونحن جاهلون الضرر فالله يؤاخذنا وإن كنا لانعلم ، لماذا ؟ لأن الجهل

هنا غير مغتفر ، وإذا كان جهل المسلم بفروض الوضوء يعاقبه الله عليه يوم القيامة لجهله بأمور الصحة التى تتوقف عليها الصلاة لم يرد فى الدين أنه يعاقب عليها ولكن الله يعاقبنا فعلا فى الدنيا ، فالله عجل عقاب الجهال بأمور الحياة والصحة فى نفس الدنيا فليس ذلك يحتاج إلى رسول يرسل لنا ويقول احفظوا صحتكم بل أخذ يعاقبنا على جهل الصحة قبل مجىء الرسل وبعد مجيئهم ، والرسل أكدوا ذلك بأمرنا بالمحافظة على الصحة ، وليس معنى هذا أنى وأنت نعرف كل علم فهذا مستحيل وإنما أنا وأنت كالبنيان يشد بعضه بعضا بل الأولون والآخرون كالبنيان لأنى أنا قرأت كتب المتقدمين ويقرأ قولى هذا المتأخرون، وعلى ذلك يفيض كل امرىء من علمه على غيره ويعم التعليم العام ونشرات الأطباء ، ومحافظة الحكومات ، وهذا كله داخل فى دين الاسلام الذى أمر بالصلوات وهدد بالعقاب عليها وعلى بقية أركان الاسلام والله هو تولى عقاب المقصرين فى أمور الحياة فمن عطل أرض الله ومنع زرعها لينتفع بها الناس فهو ظالم مذنب ، والأمة التى تعطل مواهب بنيها فلا تعلمهم تذل بين الأمم .

عموم الغش فى المدنية الحاضرة وقوله تعالى « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان إنه كان ظلوما جهولا »

ههنا ظهر تفسير هذه الآية . يقول مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزابادى الشيرازى فى كتابه المسمى [القاموس المحيط] فى قوله تعالى « فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان » أى فأبين أن يخنها وخانها الانسان ، انتهى .

فيصير معنى الآية أن الشموس والكواكب والجبال وجميع ما خلق الله حفظت الأمانة التى استودعتها ، فلا خيانة عند السحاب ولا الهواء ولا الجبال ؛ الجبال فيها مخازن المعادن ، والبحار فيها الماء فرأيناها تعطينا أمانتنا ولا تجحدها والطبيعة كلها قائمة بالصدق ، فنحن نبذر القمح فلا يكون فولا ، والفول فلا يكون قطنا .

عبرة

ها أنت ذا أيها الذكى تقرأ هذا الكتاب وأنت ذو صفة ما ؛ إما زارع أو تاجر أو صانع أو قاض أو سياسى ، فإن كنت فى المدن فإن الخبز الذى تأكله من السوق أو من عند الخباز واللبن والبن وجميع ما فى الزجاجات المقفلة كالغازوزة ، كل ذلك فيه غش ولا علم لك به ، وهناك الضرر التوالى الذى ينتهى بمرض وآلام مع الجهل بسببه .

الله تعالى أوجب أن يكون الناس جميعا متضامنين وهذا هو المسمى فرض الكفاية ، فلتنتظم أحوال الأمة كلها ، إن الانسان ظلوم جهول ، قد ظلم الناس بغشهم فيما يأكلون وما يشربون ، وهذا الغش أمر من الغش فى المحرمات الظاهرة فعقابه أشد لأن ضرره أعم ، وإذا عوقب الانسان لفعلة قوم لوط بسبب الابتعاد عن النساء الذى به يكون الولد فما أكثر الموت والعقم والخراب بغش اللبن والخبز والدقيق ويكون العقاب أشد من الله على الغاشين ، فالانسان بهذا ظلوم وهو أيضا جهول لأنه بهذا قتل أبناء جنسه جهالة لمنفعة حقيرة فإن كنت فى المدينة فاسع فى النظام العام مع بقية الهيئة الحاكمة ، وإن كنت فى القرى فأنت أقرب إلى السلامة لأن الخبز واللبن لاغش فيهما لأنهما من منزلك ، وإن كنت فى البادية فالغش أبعد عنك ، وخير للذين فى المدن أن يكون خبزهم بأنفسهم وإن كان فيه مشقة عليهم ، وأن لايشربوا من تلك الزجاجات الغازية ولا من محال شرب القهوة المعروفة ، يا ألله ! ما أكثر الظلم فى المدن وما أعظم الجهل وأكثر الغش ، انتهى القسم الأول من السورة .

القسم الثانى

قد علمت أيها الذكى أن القسم الأول جمع زبدة هذا العالم؛ فذكر المعاش من نبات وحيوان وهواء وسحاب، ثم ذكر الانسان وتدرّج به إلى أن أوصله إلى جنة أونار، هذا وصف الدارين، ثم أخذ هنا يرتب على ذلك قائلا «نبىء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم. وأن عذابى هو العذاب الأليم» وذلك حاصل ماذكر فى الجنة والنار المذكورين؛ ولما كان ذلك يدعو إلى طلب برهان حسى لأن الآخرة لم نرها ولم نطلع عليها شرع سبحانه يذكر لنا قصتين حصل العذاب فيهما فى الدنيا للمكذبين فهذا كالدليل التاريخى على ماسيحصل فى الآخرة فقال: ونبئهم عن الملائكة الذين نزلوا عند إبراهيم فسلموا عليه فقال إنى وجل منكم فاذهبوا فبشروه بإسحق، فتعجب من بشراهم وكيف يرزق بولد وقد مسه الكبر وهذه تحية «قالوا بشرناك بالحق» فلا تكن آيسا إنه لايقنط من رحمة الله إلا من ضل فلم يعرف نعمته العامة وفضله الشامل، ثم قال ماشأنكم أيها المرسلون؟ فأخبروه بأنهم أرسلوا إلى قوم لوط لإهلاكهم إلا آل لوط ماعدا امرأته فإنها مع قومها ثم دخلوا على لوط فأنكرهم وأوجس منهم خيفة فقالوا له قد جئنا لعذاب قومك، ثم أمروه أن يسير بالليل هو وأهله ولا يلتفت منهم أحد إلا امرأته وكان ماكان من أهل المدينة وأنهم أرادوا فعل الفاحشة بهؤلاء الأضياف وكيف تألم لوط وجرت بينه وبينهم محاورة وهم يأبون إلا أن يفعلوها وهو يدافعهم بالحجة ويقارعهم، وذكرهم أن الزواج بنساء قومهم أفضل وأشرف فأنزل الله بهم العذاب، وهذا ملخص القصة إلى قوله تعالى «إن فى ذلك لآية للمؤمنين» ثم أتبعها بقصة أصحاب الحجر إلى قوله «فما أغنى عنهم ماكانوا يكسبون».

ولما أتم القصتين أخذ سبحانه يبين مايترتب على هذا من علم الأخلاق فأفاد أنه إذا كانت هذه صفة الانسان وأنه مثاب ومعاقب وأن ذلك حاصل فعلا فى الدنيا وتتبعها الأخرى، فإذن الأمر متقن لاخطأ فيه ولاخطل «وكل شىء عنده بمقدار» فلابد لكل عمل من جزاء كما تقدم فى عجائب المخلوقات «وماخلقنا السموات والأرض وما بينهما إلابالحق» فلانترك هفوة ولاذنبا إلا حاسبنا فاعله عليه وعذبناه؛ فلاتهتم بهم «واصفح الصفح الجميل» إن ربك خلاق الخلق عليم بهم فكيف يترك المذنب بلاعقاب، كلا! ولما كانت هذه النتائج التى مرت فى هذه السورة بديعة محكمة؛ فمن خلق المعاش إلى نبات إلى حيوان إلى إنسان إلى جنة ونار إلى تاريخ إلى راحة النفس من هذه النتائج أن كلا ينال ماقدمت يداه كان ذلك داعيا أن توقن أن هذا القرآن عجيب وعظيم وأنه ليس غيره أعظم منه ولذلك أمره أن لايمدّ عينه صلى الله عليه وسلم الى ما فى هذه الدنيا من المال، وأن لايحزن على عدم اتباعهم دين الاسلام لأنه سعيد بما أعطى، إن القرآن غنى بما لديه من البرهان.

ولما أثلج صدره بما لديه من الثروة العظيمة والغنى العلمى وأن هذه الثروة العقلية فوق كل ثروة وغنى، ونهاه عن اعتبار ماسواه أمره أن يتواضع للمؤمنين لأنهم أعوانه على بث هذه الثروة العقلية، فى سائر الناس فهذا تنمية لها فى هذا العالم الانسانى؛ وأمره أن ينذرهم أن من خالف يعذب فى الدارين كما حصل لأولئك الاثنى عشر الذين اقتسموا أطراف مكة وكل منهم ينفر الناس من الدين بوجه من الوجوه؛ فهذا يقول ساحر، وهذا يقول كاهن الى آخر ماتقدم.

ثم أقسم الله بذاته وربوبيته ليسألن هؤلاء المقتسمين جميعا عما قالوه فى القرآن وفى الرسول، ثم أمره أن يجهر بما أمر به وأن يكف عنهم ولايلتفت الى لومهم على إظهار الدين وتبليغ الرسالة، وكيف تلتفت إليهم أوتخاف منهم وقد رضناعنك مؤنة المستهزئين «الذين يجعلون مع الله إلها آخر فسوف يعلمون» عاقبة أمرهم،

« ولقد نعلم أنك يضيق صدرك » باستهزائهم وقولهم الفاحش والجبلة البشرية تأبى ذلك فيضيق الصدر فافزع الى الله تعالى فيما نابك بالتسبيح والتحميد يكفك شرهم ويكشف الغم عنك، أونزهه عما يقولون حامدا له على أن هداك للحق وقل سبحان الله وبحمده وكن من المصلين ، ولقد كان صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر بادر أى فزع إلى الصلاة ، ويقول العارفون إن الصلاة متى كانت بحضور القلب أشرق الباطن وزال الحزن عن القلب وينفسح وينشرح الصدر فتعلو النفس عن هذه المادة ؛ واعلم أن مثل هذا لايعرف الا بعد التجربة ، ومن لم ينل هذا الحظ لايتصوره ، فإذا أردت ذلك فصلّ وأنت حاضر القلب وهناك ترى مايسرك فالعبرة بالعمل .

جوهرة فى قوله تعالى « إن فى ذلك لآيات للمتوسمين »

المتوسمون هم المتفرسون ، والفراسة بالكسر اسم من قولك تفرست فى فلان الخير وهى إما مايوقعه الله فى قلوب أوليائه فيعلمون بذلك أحوال الناس ويكون لهم إصابة حدس ونظر وتثبت ، وإما ما يحصل بدلائل التجارب والخلق وبذلك أيضا تعرف أحوال الناس ؛ فالمتوسم هو الناظر فى سمة الدلائل وسمات الأشياء وصفاتها وعلاماتها .

يقول الله : إن فيما جاء فى قصة قوم لوط الذين تركوا النساء واتبعوا الفاحشة الشنعاء فى الرجال فأخذتهم الصيحة فصار عالى القرية سافلها لآيات لأصحاب الفراسة . وهنا ينظر المسلمون ويفكرون هل هذا القرآن نزل لأجل هذه القصص وحدها ولا متفرس فى الاسلام إلا فيها ، فإذا قرأ المسلم القرآن يغض النظر عن أحوال الأمم المحيطة بنا وعن أحوالنا ويقول إن قوم لوط أهلكهم الله بفعل الفاحشة ووضع الشىء فى غير موضعه ، أم المسلم المتوسم يقول بفراسته وعقله المضىء المشرق ، لماذا أهلك الله قوم لوط ، ويجيب بأنه أهلكهم بإخلال نظام الأمة ، ذلك أن النساء إذا تركن تعطلت الأرحام وقلّ النسل واكتفى الرجل بالرجل وهذا هو الهلاك ، لأنه إذا قلّ النسل شيئاً فشيئا بهذه المخازى ضاعت الأمم ، ثم يفكر هذا المتوسم فيرى أن قوم هود هلكوا بمعاص مثل قطع الطريق وإتيان المنكرات ، وقوم شعيب هلكوا بسبب نقص الكيل والميزان ونتيجة ذلك خراب مدنهم ، فيستنتج المتوسم من ذلك نتيجة واحدة وهى أن هلاك المدن وضياعها يرجع لأمر واحد وهو الإخلال بالنظام العام وتحت هذا ما لاحصر له من المعاصى ، ومعلوم أن عذاب الآخرة بعد عذاب الدنيا .

ثم يقول المتفرّس فى الاسلام :

لأنظر حال الأمم اليوم إسلامية وغير إسلامية وأحكم أيهم أحقّ بالبقاء وأيهم أقرب إلى الهلاك وإنما يقول ذلك لأن المتوسمين ليسوا فى كل الأمم الا مسلمين ، كلا ! بل الله الذى خلق الناس خلق المسلمين وقد جعل لكل أمة متوسمين ، فهل يكون فى الأمم متوسمون ، والمسلمون يحرمون من هذا النوع ؟ كلا ثم كلا ! بل المسلمون أولى بهذه الصفة ، ألم يقل الله فينا « كنتم خير أمة أخرجت الناس » فإذا كنا خير أمة فمتوسمنا خير متوسم ، بل ورد فى حديث غريب عن أبى سعيد الخدرى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله ثم قرأ ـ إن فى ذلك لآيات للمتوسمين » أخرجه الترمذى .

وحينئذ يقول المتوسم المسلم أنا أولى بالتوسم والفراسة بل أنا المؤيد من الله والحديث يشهد لى ، فيقول لأنظر نظرا صادقا لأمم الإسلام وأمم الفرنجة .

موازنة بين أمم الإسلام اليوم وأمم الفرنجة بطريق الفراسة الخاصة بالمتوسمين

الفرنجة قد أحاطوا الكرة الأرضية بأسلاك برقية ومدوا فيها طرقا حديدية واستخرجوا

ثم الله المعدنية وغيرها من باطن الأرض وفوق ذلك استعملوا الأمواج الكهربائية التي لاسلك لها في أوروبا وأمريكا .

اللهم إنك أنت ذو الجلال وذو الجمال ، أنت الذي ملأت الأرض والجو والسماء بنعمك ولكنك متكبر لاتعطي النعمة إلا لمن يطلبها وهذا من رحمتك ، ولو أنك أعطيت النعم لنا جزافا لجهلنا قدرها وأضعناها كأبناء الرجل الغني الذين ورثوا أرضا وملكا وهم لم يتعبوا فيه فصاروا أذلاء في الطرق والشوارع وهم خاسرون ، لهذا أنعمت على القوم الذين طلبوا نعمك المخبوءة ، تلك المواهب التي خزنتها في جو"نا فوق رؤوسنا وفي الهواء المحيط بنا ، هناك قوة كامنة بديعة هي قوة الكهرباء ، تلك القوة اللازمة لما يسمى (الأثير) ذلك الأثير الذي يملأ هذه الدنيا وقد غرقت فيه أرضنا وشمسنا وكل كوكب وكل قمر ، هذه الكهرباء تقوم الآن بإذاعة الخطب والأنباء والقصص والأغاني والموسيقى ، فمن تكون عنده آلة لاستقبال تلك الكهرباء الحاملة لما ذكر سمع الخطيب والمغني وأمثالهما ، وبين القائل والسامع جبال وبحار وقارات فيسمع من في برلين نغمات من في الولايات المتحدة ، وهكذا تنتقل الصور من بلاد إلى بلاد ويخاطب الناس بعضهم بعضا بالتليفون بين أوروبا وأمريكا ويرى المتخاطبان صور بعضهما ، وهاهم الآن لايريدون الاقتصار على ما ذكر بل يريدون أن يرسلوا الكهرباء من محطات خاصة تنبث في الجو ويستعملها من يشاء لما يشاء في أي مكان وزمان بحيث تدور به الآلات في المصانع والمعامل ، وبه تضاء المصابيح في كل مكان وبه تجري السيارات بلا بنزين ولا احتراق داخلي والمصابيح المضاءة تتخذ ضوءها من الهواء ، ومتى تم" هذا (وهو قريب) ترى الناس يطبخون ويغزلون وينسجون ويديرون آلات الحراثة وسقي الأرض والطحن والخبز والقطر البرية والسفن البحرية ، كل ذلك بأمر واحد وهي الكهرباء المنطلقة في المحطات السارية في الجو ، وما على الناس إلا أن يلتقطوها كما يشاءون بآلات تصنع لذلك ، فلا فحم ولا بنزين ولا بترول بل هناك الكهرباء وهي القوة الخفية التي نجهل كنهها ونعرف عملها ، وليس هذا أمرا خياليا بل ابتدأ الناس يصنعونه ، فقد أثبت الدكتور (فيليبس توماس) المهندس بشركة (وستنهوس) الكهربائية الأمريكية في خطبة خطبها أمام جماعة من المهندسين الأمريكيين في يونيو الماضي سنة ١٩٢٧ أن هذا الموضوع خرج من حيز الفكر إلى حيز العمل وبرهن على ذلك بأن أخذ مصباحا كهربائيا غير متصل بسلك ولكنه متصل بقضيب من النحاس طوله نحو متر ووقف على مسافة مترين من أنبوب مفرغ فلما أديرت الآلة المتصلة بالأنبوب المفرغ وخرجت منه مجاري القوة الكهربائية التي التقطها القضيب النحاسي من الفضاء فأنار المصباح الكهربائي المتصل به ، هذا هو الذي تم في نفس تلك الخطبة منذ ثمانية أشهر .

ومعنى هذا : أن الكهرباء أمكن انطلاقها في الهواء بلاسلك ولم تقتصر على نقل الخطب والصور والكلام ؟ كلا ! بل أضاءت المصباح وغدا ستضيء مصابيح على أبعاد مختلفة وتدير الآلات في المطاحن والمخابز والمحاريث وآلات سقي الأرض الخ .

الطرق التي يبحثها القوم اليوم لنقل الكهرباء

يقول المهندس (بلرد) إنه يبني (برجان) أحدهما على مقربة من القطب الشمالي والثاني على مقربة من القطب الجنوبي ، وهذان البرجان تولد فيهما الكهرباء بما في تلك الأصقاع من الفحم المخزون والبترول وهذان لايمكن نقلهما إلى الأصقاع المعمورة لطول الشقة وبعد المسافة . وتلك الكهرباء المرسلة منهما تمر" في الجو المرتفع في طبقات الهواء العليا وهو أصلح موصل لأمواج القوة الكهربائية وهي طبقة لطيفة لاتفقد الأمواج كثيرا من قوتها في اختراقها . فأما عند اختراقها الهواء عند سطح الأرض فإنها تفقد كثيرا منها .

وهناك اقتراح آخر وهو أن تبنى أبراج على قنن الجبال الشاهقة مثل جبل (مكنلى) فى ألاسكا وجبل (هوتى) بكاليفورنيا ونحو ذلك ولكنهم يفضلون الأول لما تقدم .

ومتى تمّ ذلك تنتقل الانسانية من حال إلى حال ويعيش الانسان فى جو مشحون بالكهرباء فيستخدم ماشاء منها بلا تعب ولا مشقة .

هذا نظر القوم فى أمر الكهرباء من جهة عمومها لسائر الأقطار مع سهولتها للعموم فى جميع الأعمال ، وهذا أمر لايزال فى معرض البحث والتفكير كما رأيت .

كيف تجرى الطيارة ألف ميل فى الساعة ؟

وهاهم الآن يفكرون فى سرعة الطيارة التى تطير الآن عشرات الآلاف من الأميال فى الساعة ويرجون أنها تطير ألف ميل فيها ، ومعلوم كما ستراه فى أول سورة النحل عند قوله تعالى « ويخلق ما لاتعلمون » أن الطيارات على قسمين : طيارات ترتفع فى الجو وتطير بسبب خفتها عن الهواء كأن تكون مملوءة بالأودروجين والأودروجين أخف من الهواء وعلى ذلك ترتفع فيه إلى حد ما وهذه تسمى (بالونات) وطيارات لاتكون أخف من الهواء بل هى أثقل منه فهى أشبه بالطير فى جو السماء ، ومعلوم أن الطير أثقل من الهواء لأن الهوء أخفّ من الماء (٨٠٠) مرة والطير يقرب ثقله من ثقل الماء ، وهذه الطيارات رفعها فى الجو وسيرها تلك الحركات الدائمة التى تدفع الهواء بسرعة حركاتها فترتفع الطيارة وتسير إلى الأمام فى الجو بحلولها محل الهواء الذى طردته تلك الحركات فى الطيارة ، هذا هو ماعليه الطيارات اليوم ، ولكن القوم الآن يقولون : معلوم أن الكرة الأرضية محيطها حوالى (٢٤) ألف ميل وهى تجرى فى الساعة الواحدة من الغرب إلى الشرق حوالى ألف ميل ، فما المانع إذن من أننا نرتفع بالطيارة إلى أمد بعيد فى الجو بحيث لايكون للأرض على الطيارة سلطان الجاذبية إذ الجاذبية تقل كلما ابتعد الجسم عنها ، ومتى وصلنا إلى ذلك المكان أوقفنا الطيارة ، وحينئذ نترصد الدقيقة أو الثانية التى وصلت فيها الأرض فى جريها إلى المكان الذى قصدناه ثم ننزل بالطيارة على ذلك المكان فى الأرض بلا كلفة ولا تعب ، وعلى ذلك يمكن الانسان أن يسافر ألف ميل فى كل ساعة ، وفى الساعتين يقطع ألفى ميل وهو لم يبرح مكانه ولا أضاع مالا فى جرى الطيارة ؛ فالأرض قامت بجريها مقام الطيارة ، ومعلوم أن الأرض تقطع فى جريها فى كل ساعة (١٥) درجة من الدرجات الأرضية .

انظر الدرجات الأرضية المذكورة فى سورة البقرة عند الكلام على اختلاف الليل والنهار فى قوله تعالى « إن فى خلق السموات والأرض الخ » هذا ما ابتدأ القوم يفكرون فيه .

اقتراب تعميم التلفون الأثيرى

أما الأمور التى اقتربت أن تتم وقد قطعت شوط الفكر وشوط العمل كما تقدم هنا فذى التلفون الأثيرى (المسرة) التى فى الأثير ، وهاك ما جاء فى جرائدنا المصرية يوم الاثنين ١٦ يناير سنة ١٩٢٨ فى باب التلغرافات :

نيويورك فى ١٤ يناير سنة ١٩٢٨ .

شهد عدد من العلماء أمس عرضا الغرض منه الدلالة على أن نقل الصور الأثيرى قد بلغ من التقدم درجة تؤهله للاستعمال العام فى المنازل، فرأوا اللوحة الموضوعة فوق التلفون الأثيرى قد أضيئت وظهر فيها وجه رجل يعالج بيده آلة فى بعض المصانع الكهربائية على بعد ثلاثة أميال من مكان العرض وكان يدخن (سيجارة) يتصاعد منها الدخان وسمعت أقواله بوضوح تام ثم ظهر وجه شابة تعزف على (المندولين) وكان اللحن الذى

تعزفه مسموعا واضحا ثم تناولت بيدها كتابا مصورا ظهرت صورته للحاضرين جلية وكان القرار أن الجهاز ليس معدّا تماما للأسواق ولكنه أفضل من أى جهاز آخر من هذا النوع عرف للآن اهـ .

هذا ما سينظره المتوسمون فى أمم الاسلام من جهة أمم الفرنجة .

أمم الإسلام فى نظر المتوسمين من علماء الاسلام

ينظر هؤلاء المتوسمون فيجدون ويقولون إن المسلمين فى أقطار الأرض اليوم هم الموسومون بالجهل بحيث إنك ترى غير المسلم فى كل أمة هو المتعلم ، والمسلم غير متعلم ، فترى الرجال والنساء فى انكلترا وألمانيا وأمثالها وهكذا الممالك المتحدة ، كل هؤلاء رجالهم ونساؤهم متعلمون وعلى قدر ازدياد العلم تزداد الثروة ثم ينظرون فيجدون اليابان التى هى أمة شرقية قد قرأت علوم القوم وصارت مثلهم بل غلبت دولة من دولهم ثم ينظر المتوسمون فلا يجدون أمة إسلامية لحقت تلك الأمم إلا قليلا ، فلماذا هذا ؟ أهذا طبيعة الدين ؟ كلا ! فالدين هو الذى حرك تلك الأمم بالواسطة كما تقدم فى سورة التوبة موضحا عن العلامة (سديوالفرنسى) فاقرأه هناك إن شئت ، أم هذه طبيعة هذه الأمم ، كلا ! فهذه الأمم هى التى كان لها القدح المعلى فى المدنية ، إذن من أين هذا ؟ فيجدون أن هذا من جهل القائمين بأمر الدين وطريقة تدريسه من عهد بعيد وقرون تبلغ نحو تسع كما هو واضح فى مواضع من هذا التفسير ، ثم يضرب هؤلاء مثلا بما حصل أيام طبع هذه السورة ، وهو أن ملك الأفغان (أمان الله خان) قد خرج من أوطانه ليرحل فى أرض الله شرقا وغربا ، فزار الهند ومصر وهو الآن عند كتابة هذه الأسطر فى إيطاليا ويتوجه إلى انكلترا وأمم أخرى ، وقد فرح به المسلمون فى مصر فرحا شديدا لأنه أخرج الأعداء من بلاده فصارت بلاده مستقلة تمام الاستقلال ، فيقرءون فى الجرائد المنشورة بمصر يوم ٢٤ ديسمبر سنة ١٩٢٧ مانصه :

يقول المهندسون : إن بلاد الأفغان غنية بالمعادن ، وآخر تقرير لهم فى ذلك هو تقرير المهندسين الطليان فى سنة ١٩٢٣ وقد جاء فيه أنواع المعادن وأمكنة وجودها وهى الفحم الحجرى والحديد والفضة والذهب والياقوت الأحمر والكبريت وسلفات النحاس والملح وملح البارود والزئبق ، وقد عثروا على ينابيع المياه المعدنية ولكنهم لايلتفتون إليها كثير ولم يستخرج حتى الآن شئ من تلك المعادن ، وأرادت الحكومة أن تمنح الشركات الإيطالية والأمريكية بعض الامتيازات ولكنها عدلت عن ذلك مراعاة لشعور الشعب الذى يكره الأجانب ، لذلك فكرت فى إرسال بعثة علمية صناعية إلى أوروبا للاختصاص فى أمر المعادن واستخراجها اهـ .

هذا ما يقرؤه المتوسمون من علماء الإسلام ويوازنون بين أمم أوروبا وأمم الإسلام وإنما يوازنون بين الفريقين ، لأن المانع الذى منع أمة الأفغان من سرعة الرقى ليس خاصا بها بل هذه صفة عامة فى الأمم الإسلاميه المتأخرة ، إن الملك (أمان الله خان) يريد الإسراع فى الرقى وهكذا كل المتنورين فى أمم الاسلام يريدون ذلك فإذا عاونهم رجال الدين بأن فهموا أمثال ما يكتب فى هذا التفسير أسرع الرقى إلى بلاد الاسلام كما أسرع سابقا فى بلاد اليابان وإن تباطأ علماء الدين وبقيت دراسة الاسلام على ماهى عليه هلكت هذه الأمه هلاكا لامناص منه كما هلكت أمتان عظيمتان فى زماننا وهما أهل أمريكا الأصليون وأهل استراليا الأصليون . فهؤلاء لما دخلت عندهم المدنية الأوروبية ولم يجاروا القوم هلكوا وانقرضوا إلا قليلا .

ثم يقول المتوسمون فى بلاد الاسلام من علمائهم : إن الله أهلك قوم لوط بسبب أنهم « بدلوا نعمة الله كفرا » وما هى نعمة الله ؟ هى أرحام النساء التى تربى لنا الأجنة ليعمروا أرض الله فتركها الناس

وأتوا الرجال فلا تكون ذرية ، إذن هذه قاعدة وهى «أن كل من بدل نعمة الله كفرا يهلك» وهذا كما فى قوله تعالى على لسان إبليس « ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولاتجد أكثرهم شاكرين » ولامعنى لشكر النعمة إلا علمها والانتفاع بها ، ومن لم يعرف النعمة لم يشكرها ، فإذا كان من عطلوا أرحام الناس أهلكهم الله فمن باب أولى من عطلوا مافى باطن الأرض من المعادن وما فى الجو من الكهرباء وما فوق الأرض من قطع متجاورات مملوآت بالخيرات .

ألا إنما مثل المسلمين فى نومهم عن خيرات ربهم إذا داموا عليها كمثل دابة نامت فى معلف الدواب على التبن فلا هى منتفعة به ولاهى تركت الدواب تأكله ، ثم يوازن المتوسمون المسلمون :

(١) بين قوم استخرجوا ما بأرضهم من المعادن ووجهوا وجههم شطر القطبين يريدون أن يملئوا الدنيا نورا من نور الله المخبوء فى القطبين لأن لله هناك فحما وبترولا لا يمكننا الانتفاع بهما إلا بما قدمناه .

(٢) وبين آخرين قصروا فى كل شئ حتى أن معادنهم المخبوءة فى أرضهم منعوا أنفسهم ومنعوا الناس منها ، أفليست هذه الأمم إذا دامت على ذلك (لاسمح الله) يغضب عليها أشد من غضبه على قوم لوط وقوم هود وقوم شعيب لأن أولئك الهالكين عطلوا نعما لله أقل من تعطيل المسلمين اليوم لنعم ربهم ، ومن هذا ماتقدم ذكره فى سورة إبراهيم قريبا من أن دولة خلفاء بنى عثمان التركية ملكت بلاد فلسطين وملكها قبلهم دول إسلامية وهم جميعا يجهلون ما بالبحر الميت من العناصر والمواد النافعة لرقى المسلمين ، ومنعوا الأمم الأخرى أن تستخرجها حتى إذا دخل الإنجليز عرفوا قيمتها ، وهاهم الآن يستخرجونها وفيها ماقيمته تتجاوز ماعند جميع المسلمين فى الأرض من المال .

إذن الجهل عام فى أمم الاسلام غاية الأمر أن (أمان الله خان ملك الأفغان) يريد رقى بلاده عاملا مجدا وليس خاملا كملوك بنى عثمان فعسى أن يكون من المفلحين ثم يحكم هؤلاء المتوسمون حكما عادلا على أمم الاسلام فيقولون الآراء التى فى هذا التفسير وأمثالها قد أخذ المسلمون يتلقونها بالقبول ، فأغلب الظن أنهم أخذوا يسيرون فى سبيل الرشاد وهذه الآراء جميلة فستعم رجال الدين فى أقطار الاسلام قريبا وسيقوم المسلمون قومة رجل واحد لحوز علوم الأمم فأكثر الظن أنهم قريبا فائزون ، فإن لم يصدق الظن باتباع هذه الحقائق فإنهم والعياذ بالله هالكون وأول الرأيين هو الأولى والحمد لله رب العالمين اه .

خطاب المؤلف لأمم الاسلام

أيتها الأمم الاسلامية هذه المذكورات هنا حقائق وعلى من اطلع على هذا من أهل العلم فى أمم الاسلام أن ينشرها فى المساجد والجامع وفى كل مكان فلا يترك مجلسا ولا ناديا ولا جماعة إلا أذاع هذه الآراء بينهم .

أيتها الأمم الاسلامية ، إن ربكم عدل وهو بالمرصاد ، عطلتم نعم الله فى الأرض ومنعتم أنفسكم وعباد ربكم عن الانتفاع بها ، فهل ظننتم أن الله خلقها لتعطلوها ؟ كلا ! والله إن الله لايغفر للناس منع كرمه وفضله عن عباده ، وها أنتم أولاء ترون بأعينكم أن الأمم القوية تسعى فتملك الضعيفة المعطلة لنعمة الله ، وهذا أمر محتم ، نعم استقلت دولة الأفغان ودولة إيران ودولة الترك ومملكة الحجاز ونجد وهكذا بلاد اليمن .

فلتعلموا أيها المسلمون أن هذا الاستقلال لايدوم إذا بقيتم على ما أنتم عليه من جهلكم بنعم الله فى أرضكم فلابد أن تؤخذ منكم عاجلا أو آجلا ، أما إذا حفظتم أمانة ربكم واستخرجتم كنوزه ونفعتم أنفسكم والناس فأنتم شاكرون باقون فى أرضه .

ألم تعلموا أن الله يجعل الأضعف طعمة الأقوى . خلق الله فى الأرض نباتا وخلق فى النبات دودا يأكله والدود حيوان والحيوان أرقى من النبات، ولكن الدود لاسمع له ولا بصر ولا شم ولا ذوق وإنما يحس بجلده فهو ضعيف فخلق الله له طيورا تأكله كأبى قردان ، وذلك لأمرين :

الأمر الأول : أن هذا الدود ضار بالزرع والزرع نافع للانسان والإنسان أرقى من فى الأرض . لذلك أرسل الله هذا الطير لأكله .

الأمر الثانى : أن هذا الدود ضعيف، وأبوقردان مثلا قوى فجعل الضعيف طعمة القوى ، فللطيور أعين وآذان تمتع بنور الشمس وتسمع بواسطة الهواء ، وتمتع بالأرض والهواء ولاشئ من ذلك للدود ، لذلك جعل غذاء للكامل ، هكذا إذا بقى المسلمون (لاسمح الله) كما كانوا فى القرون المتأخرة فإنهم يكونون أشبه بالدود والأمم أشبه بطير أبى قردان ؛ ولنا وطيد الأمل أن المسلمين سيرتقون ولله عاقبة الأمور والحمد لله رب العالمين اهـ .

جوهرة فى قوله تعالى « ولقد آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم . لاتمدن عينيك إلى مامتعنا به أزواجا منهم ولاتحزن عليهم واخفض جناحك للمؤمنين »

لقد علمت فيا سبق أن السبع المثانى هى الفاتحة (والقرآن العظيم) معطوف عليها عطف الكل على البعض، إذن يكون ملخص الآيات إنا أعطيناك العلم فإياك أن ترغب فى لذات الدنيا أو تزاحم أهلها وكيف ترغب فى ذلك وقد أوتيت القرآن الذى فيه غنى عن كل شئ فلاتشغل قلبك وسرك بالالتفات إلى الدنيا والرغبة فيها. وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لاينظر إلى شىء من متاع الدنيا ولا يلتفت إليه ولا يستحسنه وقوله (ولا تحزن عليهم) أى ولا تغتم على مافاتك من مشاركتهم فى الدنيا أو لاتحزن على إيمانهم إذا لم يؤمنوا . روى مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « انظروا إلى من هو أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فهو أجدر أن لاتزدروا نعم الله عليكم » قال عوف بن عبد الله بن عتبة : كنت أصحب الأغنياء فما كان أحد أكثرهما منى كنت أرى دابة خيرا من دابتى وثوبا خيرا من ثوبى ، فلما سمعت هذا الحديث صحبت الفقراء فاسترحت .

واعلم أن هذه الآية موافقة لما جاء فى أول السورة إذ يقول الله تعالى « ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون » فهناك احتقار للذات والمال وهنا تصريح بطلب غض الطرف عن تلك الأموال والأحوال .

عجائب الفلسفة اليونانية والرومانية وكيف أتى بها ويخبر منها القرآن بعد اضمحلالها
وهذا من أعجب معجزات القرآن

يقول الله هنا (لاتمدن عينيك) الخ ويقول فى أول السورة (ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون) ويقول فى أول سورة الكهف (إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها) ويقول فى سورة الكهف أيضا (المال والبنون زينة الحياة الدنيا) يعنى وهذه الزينة لابقاء لها وإنما الباقيات الصالحات من الأعمال أفضل ، ويقول فى سورة البقرة (وبشر الصابرين الخ) وهكذا أكثر سور القرآن تذكر فيها هذه المعانى ، فلننظر الآن إلى علوم الأمم السالفة السابقة على النبوة المحمدية ، ذلك أن اليونان والرومان كانوا هم القائمين بالفلسفة قبل التاريخ المسيحى ونبغ من بين اليونان سقراط وأفلاطون وأرسطاطاليس ، ثم إن أمة الرومان احتلوا بلاد اليونان وأخذوا فلسفتهم وقرءوها ونبغ فيها نابغون مثل شيشرون وسنيكا ، ولقد كان من حكماء الرومان رجل يقال له (أبكتاتوس) وكان عبدا برومة لصاحب الشرطة على عهد الأمبراطور (نيرون) ولما رآه سيده أنه فيلسوف تركه يقرأ الفلسفة والحكمة وكان على مذهب (الرواقيين) وذلك سنة ٩٤ للميلاد ، فلما صدر

أمر

أمر الأمبراطور (قرمطيانوس) باخراج الفلاسفة من إطاليا هاجر إلى بلاد اليونان ومات بها ولا يعلم تاريخ موته وهو من أشهر المتأخرين من الرواقيين ، وله حكم لاتزال متداولة بين الناس من القرن الثانى إلى الآن ، ومحاورات نشرها تلميذه (أريانوس) والموجود منها الآن فى العالم أربع مقالات من الثمانية الأصلية ، فمن حكمه [إن روح الانسان لها نسبة إلى نور الإله بل إنها شرارة من ذلك النور] هذا تعبير مجازى وفيض من ذلك الجوهر ، وأهمّ مافى الفلسفة أن نبحث عن تطهير أخلاقنا لنكون أحرارا .

وملخص مذهبه يرجع الى كلمتين اثنتين : الصبر على ما يؤذينا ، والصبر عما فاتنا ، يقول : إن الحرية أن يكون الانسان متصرفا فى أفكاره كما يشاء ، والعمدة فى ذلك أن يفرق بين ماهو متعلق بقدرتنا وماهو غير معلق بها ، أما ماهو معلق بقدرتنا فهو ضميرنا وأفكارنا وإرادتنا ، وأما الباقى فهو من غير المقدور لنا فعلينا أن نتحمل ما يلحقنا من الأذى اذا عرض وأن نصبر على ما فاتنا اذا فات ؛ وبالجملة عدم الاكتراث بالأشياء الخارجة عنا التى هى غير مقدورة لنا ، ويجب علينا أن نطهر الباطن ونجدّ فى ذلك حتى نحسّ بالنور الإلهى فينا الذى حجب عنا ، ثم علينا أن نعين الاخوان من سائر النوع الانسانى لأن الله هو ربّ الكل وجميعهم تحت كلاءته ورحمته .

إذن ملخص مذهبه صبر على أذى ، وصبر على ما فات وحب لله وحب للناس ، وهذا كله لايتم إلا بتطهير الباطن ، وهاك بعض حكمه :

الحكمة الأولى

كل مافى الطبيعة فهو إما أن يكون موقوفا على قدرتنا أو غير موقوف على قدرتنا ، أما ما هو بقدرتنا فهو اعتقاداتنا وعواطفنا وأميالنا ومكروهاتنا وجميع الأفعال الصادرة منا ، وما هو غير موقوف على قدرتنا هو البدن والمال والصيت والمناصب ، وبالجملة كل ما ليس من فعلنا .

الحكمة الثانية

إن ما يتعلق بفعلنا لاعائق له ، وما لايتعلق بقدرتنا فهو ضعيف مضطرب أجنبى عنا .

الحكمة الثالثة

ينبغى لك أن تذكر أنك إذا تخيلت فيما هو غير حر وفيما ليس بقدرتك أنه بقدرتك فانك لاتزال مضطربا حزينا شاكيا الله والناس ، بخلاف ما إذا اعتقدت فيما هو لك أنه لك وفيما هو لغيرك ، أنه لغيرك فقد لاتجد لأفعالك عائقا ولا تفعل شيئا وأنت كاره ولا يكون لك عدو ولا يلحقك مايؤذيك .

الحكمة الرابعة

إذا أردت إدراك هذه الغاية الشريفة فعليك بالاجتهاد وعدم التوانى والزهد فى بعض الأشياء والامساك عن بعض والمراقبة على نفسك فانه لايمكن لك أن تجمع بين طلب ماهو خير فى ذاته وطلب المال والمناصب ، فان فعلت فقد يفوتك كلا طرفى ماتقصده ، أما المال والمناصب فلأنك قد طلبت الخير الحقيق ، وأما الخير الحقيق فلأنك قد طلبت المنافع الأخر .

الحكمة الخامسة

إذا عرض مايؤذيك فقل له إنك لواهم ولاشىء غيره ثم اعرضه على الأصول السابقة وخصوصا على الأول فانظر هل هو فى قدرتنا أومما ليس فى قدرتنا ؟ فاذا كان من غير المقدور فلا يلزم أن يمسك بشىء .

الحكمة السادسة

لاتنس أن القصد من كل ميل طبيعى إدراك ماتشتهيه والقصد من كل تطور اجتناب مكروه

فالانسان قد يكون شقيا سواء فاته ماطلبه أووقع فيما كان يحذره، وعلى ذلك فاذا كان ماتحذره من المقدور عليه فانك لاتقع فيه أبدا، بخلاف ما إذا كنت على حذر من المرض والفقر والموت فانك لاتزال شقى الحال فلا يكن حذرك إلا مما هو فى قدرتك وكن مطمئن البال فيما سواه .

الحكمة السابعة

انظر فى الأشياء التى تستعملها وفى كل ماتحبه ماهى صفته وحقيقة ذاته من أحقرها صاعدا ، فاذا تعلق حبك مثلا بإناء من خزف فقل لنفسك إن ماتحبينه هو إناء من خزف فاذا انكسر لا يسوؤك تلفه ؛ ومثل ذلك يقال فى ولدك وزوجك تذكر أنهما من البشر الميت فان عاجلتهم المنية لم يتكدر ضميرك .

الحكمة الثامنة

عليك قبل الشروع فى فعل أن تنظر فيما أنت فاعله . فاذا أردت الحمام مثلا ينبغى لك أن تستحضر فى فكرك كل مايعتاد وقوعه فى الحمام من ازدحام الناس وتلاكم بعضهم ببعض ورش الماء على المارّين والمشاتمة وسرقة الثياب . فاذا تصورت ذلك فى فكرك لم يضطرب ضميرك وقلت لنفسك إنى أريد الحمام وإنما أريد البقاء على حريتى وذلك يستوجب تحمل ماتقتضيه الطبيعة فى خصوص ذلك الفعل، فاذا صدك عائق عن الاستحمام فقل إنى كنت أقصد الحمام إلا أنى كنت أريد أيضا البقاء على حريتى ومروءتى، فاذا لم أكن أصبر على مايفعله الغوغاء فى مثل تلك المحافل مابقيت حرا .

الحكمة التاسعة

أغلب ما يضطرب من أجله أفكار الناس هو مايتخيلونه من الحوادث لا الحوادث نفسها . فالموت مثله ليس بشر إذ لو كان شرا لاستعظمه (سقراط) أيضا ، فخوفنا الموت ليس السبب فيه إلا ماتخيلناه فى حقه . وكذلك اذا أحسسنا من نفسنا القلق والحزن فلا نلوم الا أنفسنا : أى مافينا من الظنون الكاذبة . ومن لام غيره على مايطرأ له فهو جاهل . ومن لام نفسه دون غيره فقد شرع فى الحكمة ، أما الحكيم فلا يلوم نفسه ولا غيره . .

الحكمة العاشرة

لاتعجبن بما هو أجنبى عنك فان الفرس مثلا إذا أعجب بجماله يحتمل ذلك منه وأما أنت فاذا أعجبت بجمال فرسك فقد افتخرت بما ليس لك . اذن لاحظ لك منه إلا الظن والوهم . ثم إذا قدرت أن تجرى أفكارك على وفق الطبيعة فلك العجب به لأن ذلك لك ومنك .

الحكمة الحادية عشر

إنا معاشر الناس كراكب السفينة فان الراكب إذا بلغ مرسى على طريق سفره ونزل للبر ليتزوّد ماء فأعجبه شىء من العشب والحصى فلا مانع من أن يلتقطه، ويجب عليه مع ذلك أن لايغفل عن سفينته ويلتفت أحيانا ليبصر أين هى حتى يكون مستعدا مهما أشار له رب السفينة بالرجوع فألقى جميع حمله وأسرع ، وكذلك المسافرون فى هذه الحياة إذا أعطوا زوجا أو بنين مكان العشب والحصى فلا مانع من قبولهم إياها وإنما إذا ناداهم الرب فان عليهم بالتلبية والمبارعة وترك جميع مابأيديهم بدون التفات ثم إذا كنت شيخا فلاتبعد عن السفينة لئلا يتعذر عليك إدراكها عند مايدعوك ربها .

الحكمة الثانية عشر

إذا أردت أن تعيش هنيئا فلا تطلب أن تكون الحوادث على وفق مرادك بل فليكن مرادك على وفق الحوادث .

الحكمة الثالثة عشر

إن المرض يعوق البدن وليس بعائق للارادة إلا إذا وافقته ، إذا كنت أعرج مثلا فهذا نقص يعوق رجلك ولايعوق حرية باطنك ، فإذا تأملت فى بقية الحوادث تجدها كلا منها يعوق شيئا مخصوصا وليس بعائق لك فى فكرك .

الحكمة الرابعة عشر

كل ما عرض لك من الأمور الخارجة عنك فانظر فى نفسك تجد أن لك فضيلة خاصة لمقاومته ، فإذا كان الطارئ عليك امرأة جميلة مثلا فابحث فى نفسك تجد فيها العفة تعودت ذلك ولم يكن لأوهام خيالك قدرة عليك أبدا .

الحكمة الخامسة عشر

لاتقل فى شىء أتلفته إنك أتلفته بل قل إنى أرجعته ، فاذا مات ولدك فقل إنى أرجعته ، فاذا قلت إنه قد تعدى علىّ غاصب جبار فأقول لك فما يعنيك على يد من استرده من كان قد أعطاه لك فما دام بيدك فتصرف فيه كما يتصرف فى مال الغير وكعابر الطريق يتصرف فى متاع المنزل الذى حلّ فيه .

الحكمة السادسة عشر

إذا أردت أن تتقدم فى الأخلاق الكريمة فلا يرد عنك قول الناس فيك إنك معتوه سفيه لعدم اكترائك بالمكاسب والمال ولا تجتهد فى أن يراك الناس عالما ، وإذا أخذوا فى احترامك فكن على حذر من نفسك ؛ واعلم أنه يصعب الجمع بين استقامة الباطن وشغل البال بالمكاسب إذا ما تعلق الباطن بأحدهما أهمل الآخر .

الحكمة الثامنة عشر

إذا طلبت أن زوجك وأصدقاءك يعيشون على الأبد فانك من السفهاء إذ ليس ذلك إلا لطلب من أراد أن ماليس بقدرته يكون بقدرته وأن ما لغيرك يكون لك ، وكذلك إذا أردت من عبدك أن لايأتى خطأ أبدا فانك على مثل ذلك من السفاهة إذ تريد أن لاتكون طبيعة العبد على ماهى فى الحقيقة ، وإذا أردت أن تبلغ مرادك فلا تريد إلا ما فى قدرتك .

الحكمة التاسعة عشر

إن كل من قدر على منع ماتريده أو إكراهنا على مالانريده فهو ربنا ، فاذا أردت أن تكون حرا فلا تطلب شيئا مما لغيرك وإلا فقد تكون عبدا لامحالة .

الحكمة العشرون

كن فى الحياة كمن دعى إلى وليمة ، فإذا قدم لك الطعام فخذ منه قدر حاجتك ولاتزد ، وإذا أبعد عنك فلا تمسكه ، وإذا لم يأت به بعد فانتظر واصبر ولا ترفع صوتك فى نداء الخادم ، فكن مثل ذلك فيما يتعلق بالزوج والبنين والمال والمناصب جديرا بمنادمة الملائكة ، فاذا كان فى قدرتك التمتع بذلك فاحتقرته وزهدت فيه فقد لاتكون نديم الملائكة بل شريكهم فى الملكية .

الحكمة الحادية والعشرون

إنك فى هذا العالم كالشخص فى الملعب لتمثيل الشخص الذى عينه لك رب الملعب ، فلا يعنيك كونه طويلا أم قصيرا ، فاذا عين لك تشخيص الفقر فليس عليك إلا أن تقوم بذلك ، وكذلك إذا فرض عليك أن تشخص أعرج أو سلطانا أو إنسانا من جمهور الناس فليس عليك إلا الوفاء بخدمتك على قدر طاقتك ، وأما تعيين الشخص فهو من غيرك .

الحكمة الثانية العشرون

إن أحببت أن لاتغلب فلا تدخل من القتال إلا ما تيقنت الغلبة فيه .

الحكمة الثالثة والعشرون

إن الأذى الذى يلحق الضرب والشتم ليس من الضرب والشتم بل مما تتخيله من ذلك ، وإذا أغضبك أحد فاعلم أنه ليس هو المغضب لك بل ماتعلق بك من التصور ، وعلى ذلك فاجتهد حتى لاتكدرك أوهام خيالك ، فاذا دفعتها وانتظرت برهة من الزمان فقد تيسر لك أن تكبح نفسك وتتصرف فيها كما شئت .

الحكمة الرابعة والعشرون

ليكن نصب عينيك دائما الموت والجلاء عن الوطن وسائر ما يستعظمه الناس من المهولات لاسيما الموت فلا يدخل ضميرك شئ من الأفكار الخسيسة ولا تكن حرصا على شئ مزيد حرص .

الحكمة الخامسة والعشرون

إنك إذا تفرغت لطلب الحكمة فلا تلبث وقد أخذ الجمهور فى السخر منك والهزؤ ، يتساءلون عنك أنه قد صار فيلسوفا من يومه ، من أين له هذه الحكمة وهذه النخوة ، أما أنت فاسكت عنهم ولا يأخذنك الكبر والعجب والزم ماتراه أفضل وأحسن قدر طاقتك وأعده مرضا قد فرضه عليك الإله كالجندى جعل له مكانا يحرسه ولا يبرح عنه ، واعلم أنك إذا داومت ولم تتوان فى جهدك سيعجب بك من كان بك يسخر ، بخلاف ما إذا راعك قولهم فتوانيت فقد لايزيدهم ذلك إلا استهزاء منك واحتقارا .

الحكمة السادسة والعشرون

إذا أحببت أن تعرف وأن يعجب منك الناس فقد انحط بك حالك إلى أسفل مما كنت عليه فاقنع بأن تكون حكيما ، وإن أحببت أن ترى حكيما فلمبن نفسك ، انتهى ما نقلته مما كتبه الأستاذ (ستلانه) الطليانى الذى ترجم هذا من اليونانية .

ويقول علماء الفرنجة : إن هذه الآراء هى الشائعة وأمثالها فى كلام الصوفية فى الإسلام ، ويقول (أيكتاتوس) المذكور أيضا هو وقابس اليونانى المذكور فيما سيأتى فى سورة الاسراء وهكذا فلاسفة الاسلام مثل الإمام الغزالى فى الإحياء ما ملخصه :

إن الخير المحض هى الحكمة، والشر المحض هو الجهل ، أما المال والولد والصيت وقهر العدو وأمثالها فهى ليست بخير ولا بشر ويكون الخير والشر بحسب ما يقارنها لابها هى كما يرى كثير من ذوى المال والصيت فى شقاء مستمر والعكس بالعكس .

هذا ما أردت ذكره بمناسبة قوله تعالى (ولاتمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجا منهم الخ) وهكذا مايناسبها من آيات القرآن . وهكذا قوله عز وجل (فأما الانسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمن وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهانن) الخ .

ويقول (أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم فى الخيرات بل لايشعرون) ويقول (فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا) الخ .

فياعجبا ! هذا القرآن نزل فى جزيرة العرب وبلاد العرب قاحلة من كل حكمة إلا ما جاء فى الأشعار ، وبلاد الروم خاوية من حكمة الحكماء ، وحكمة هذا الفيلسوف قد جعلت فى خبر كان لما علمت من تحريم الفلسفة فى تلك الدولة لأجل الدين المسيحى .

انظر وتعجب من آيات القرآن التى أتت بحكمة كانت محجوبة عن الناس ، ولعمرى إن هذا وحده معجزة

وهذا

وهذا ربما يعرف من قوله تعالى « بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم » فالذين أوتوا العلم من الحكماء جرت على ألسنتهم وقلوبهم هذه الحكمة ، فإذا سمعوا القرآن عجبوا من حكمة لم يسمعها الناس فى زمانهم بل محيت من الأمم المتمدينة الراقية إذ ذاك لتحريم الفلسفة فى الدين المسيحى .

ويقول الحكماء إذا سمعوا هذا القرآن إن أعظم الأشعار المنقولة عن العرب أيام النبوة فى الحكمة ماروى عن زهير بن أبى سلمى :

ومن لم يصانع فى أمور كثيرة ... يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم
ومن هاب أسباب المنايا ينلنه ... وإن يرق أسباب السماء بسلم
ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه ... يهدم ومن لايظلم الناس يظلم
ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله ... على قومه يستغن عنه ويذمم
ومن يغترب يحسب عدوا صديقه ... ومن لايكرّم نفسه لايكرم
ومن يجعل المعروف فى غير أهله ... يكن حمده ذما عليه ويندم
ومهما تكن عند امرئ من خليقة ... وإن خالها تخفى على الناس تعلم
لسان الفتى نصف ونصف فؤاده ... فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

هذه أحسن مافى حكم زهير بن أبى سلمى، وحكمه أشهر ماعند العرب، إذن هذه الحكمة مجهولة عند العرب ومكتومة ممنوعة عند دولة الرومان أيام النبوة المحمدية ، فنزولها فى القرآن بهذا المعنى فى سور كثيرة هى المعجزة العلمية التى لم تعرف إلا فى زماننا ، هذا الزمان الذى ظهرت فيه حكم الأمم القديمة وترجمت حديثا للعربية والحمد لله الذى وفق لنشر ذلك فى هذا التفسير ، وانظر إلى حكم ذلك الفيلسوف الرومانى المتقدم فإنك لاتجد فيها ماجاء فى هذه الآيات فى السورة إذ يقول الله تعالى « ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين » الخ .

فقد جعل الله فى القرآن مخرجا من الهمّ بالتسبيح والحمد والصلاة ولكن الفلسفة المذكورة لم تفتح هذا الباب للنوع الإنسانى ، والحمد لله على نعمة العلم والحكمة ، انتهى تفسير سورة الحجر.

سورة النحل مكية وهى مائة وثمان وعشرون آية

وهى ثلاثة أقسام

[القسم الأول] من أول السورة إلى قوله « ويفعلون ما يؤمرون » .

[القسم الثانى] من قوله « وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين » إلى قوله « وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين » .

[القسم الثالث] من قوله « إن الله يأمر بالعدل » إلى آخر السورة .

(القِسْمُ الأوَّلُ)

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ • يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ • خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ • خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ • وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ • وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ • وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ • وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ • وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ • هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ • يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ • وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ، وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ، إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ • وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ • وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ • وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ • وَعَلَامَاتٍ

وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ * أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ
لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ * وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ * وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ
دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ *
إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ، فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ *
لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ
مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ * لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ
الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ * قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ
مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ * ثُمَّ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ ؟ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا
الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ * الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ
فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * فَادْخُلُوا أَبْوَابَ
جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ * وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا
خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ * جَنَّاتُ
عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ *
الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ *
هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ * فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ
مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ
نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ
إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ * وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ
فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ
كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ * إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ

ناصرين * وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت بلى وعدا عليه حقا ولكن أكثر الناس لا يعلمون * ليبين لهم الذى يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين * إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون * والذين هاجروا فى الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهم فى الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون * الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون * وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون * بالبينات والزبر، وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون * أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون * أو يأخذهم فى تقلبهم فما هم بمعجزين * أو يأخذهم على تخوف فإن ربكم لرءوف رحيم * أولم يروا إلى ما خلق الله من شىء يتفيؤا ظلاله عن اليمين والشمائل سجدا لله وهم داخرون * ولله يسجد ما فى السموات وما فى الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون * يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون *

التفسير اللفظى

بسم الله الرحمن الرحيم

كان المشركون يستعجلون العذاب مستهزئين به ويقولون إذا صح مايقوله فإن الأصنام تشفع لنا يوم القيامة وتخلصنا من الهلاك فى الدنيا فردّ الله عليهم قائلا (أتى أمر الله) وعبر بالماضى وإن كان مستقبلا لتحققه كتحقق الماضى ، فالأمر الموعود به محقق كما أن الماضى محقق (فلا تستعجلوه) وكيف تستعجلون ماهو محقق سيحصل بعضه يوم بدر وما يليه والباقى يكون يوم القيامة ، ثم ردّ عليهم فى الشق الثانى قائلا (سبحانه وتعالى عما يشركون) تبرأ سبحانه عن أن يكون له شريك فيدفع ما أراد بهم ، ولئن سألتم أى طريق به عرفت يامحمد أن هلاككم محقق لتقولنّ الوحى هو الذى أخبر به وهذا قوله تعالى (ينزل الملائكة بالروح) بالوحى الذى هو فى الدين قائم مقام الروح من الجسد ويحيى القلوب الميتة بالجهل (من أمره) بأمره ومن أجله (على من يشاء من عباده) الأنبياء : أى أن يتخذه رسولا (أن أنذروا) أى بأن أنذروا ؟ أى أعلموا (أنه لا إله إلا أنا فاتقون) أن الشأن ـ لا إله إلا أنا فاتقون ـ ولو كان لى شريك لم يكن النظام الذى سيأتى الآن فى خلق السموات والأرض على أحسن ترتيب فإن العمل المتقن فيهما دالّ على وحدة العمل وتمازج المنافع واتصال العالم العلوى بالسفلى ، فلو كان هناك ثان فى العمل لكان هذا العالم غير متفق المشارب ولا متحد المقاصد ولا صادق الوجهة الغائية ، وهذه صفحة يضاء من تاريخ علم السماء والأرض قال الله تعالى

(خلق السموات والأرض بالحق) على نهج متين تقتضيه الحكمة ولا يسوغ أن يكون له شريك فى خلقهما (تعالى عما يشركون) ولما كانت السماء والأرض قد نشأ منهما معا خلق ما على الأرض وأشرف ذلك الإنسان، وذلك أن العوالم الأرضية تدرجت فى الخلق من أدنى نبات إلى أعلاه ومن أعلى نبات إلى أدنى حيوان فأعلاه وهو الإنسان فلذلك أعقبه بقوله (خلق الإنسان من نطفة) جماد لاحس لها ولاحياة (فإذا هو خصيم) منطيق مجادل مناظر منكر على الله البعث وقد نسى ما كان عليه من المهانة وهو نطفة (مبين) للحجة، ثم إنى قد كنت كتبت تفسير هذه الآيات إجمالا فى الخطاب الذى أرسلته لسائر المسلمين فى الشرق والغرب وسميته [القرآن والعلوم العصرية] فلأذكره الآن كما هو هناك لاختصاره فأقول: (والأنعام) الإبل والبقر والغنم (خلقها لكم فيها دفء) ما يدفأ به فيق البرد (ومنافع) نسلها ودرها وظهورها (ومنها تأكلون) أى تأكلون ما يؤكل منها كاللحوم والشحوم والألبان (ولكم فيها جمال) زينة (حين تريحون) تردونها من مراعيها الى راحتها بالعشى (وحين تسرحون) تخرجونها بالغداة إلى مراعيها فإن الأفنية تتزين بها فى الوقتين ويجل أهلها فى أعين الناظرين إليها (وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس) أى تحمل أحمالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بكلفة ومشقة (إن ربكم لرءوف رحيم) حيث رحمكم بخلقها لانتفاعكم وتيسير الأمر عليكم (والخيل والبغال والحمير) ذوات الحوافر: أى وخلق لكم هذه (لتركبوها وزينة) أى لتركبوها وتتزينوا بها (ويخلق ما لاتعلمون) غير هذه الدواب التى تركبونها وإنما ذكر هذه بعد البغال والحمير والخيل التى تركبها ونتزين بها ولم يذكرها بعد الأنعام من الإبل والبقر والغنم ليدلنا على ما كنز فى أرضه وما دفن فى باطنها من الحديد والفحم وأن هذه ستخرجون منها قطارا سائرا على البر وآخر مثله فى البحر، فإن هذه القطر الجارية الحاملة لأمتعتكم التى تركبون عليها من بلد إلى بلد والمناطيد الهوائية التى تسير فى الجو والغواصات التى تجرى تحت الماء مما سأخلقه لكم بعد حين تقوم مقام الخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة، وكما أبحت لكم هذه الحيوانات وأنعمت عليكم هكذا أبحت لكم القطرات وفحمها المخزون فى الأرض والبترول وما أشبه ذلك، فلكم أن تنتفعوا بها وتشكرونى و(لئن شكرتم لأزيدنكم) والشكر صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه فيما خلق لأجله.

ولا جرم أنى أنعمت عليكم بالقطرات والطيارات والفحم الحجرى والبترول وسائر المعادن، فإذا تركتم نعمتى وأبيتم قبولها فإن ذلك منكم كفر لها وعدم شكر (ولئن كفرتم إن عذابى لشديد) عليكم فى الدنيا بالذل وفى الآخرة بجهنم وبئس المصير لتستوفوا العقاب.

واعلم أن العلوم فى القرآن للهداية ولذلك قال الله تعالى (وعلى الله قصد السبيل) بيان مستقيم الطريق الموصل إلى الحق (ومنها جائر) مائل عن القصد والاعتدال (ولوشاء لهداكم أجمعين. هو الذى أنزل من السماء) السحاب (ماء لكم منه شراب) أى ما تشربونه (ومنه شجر فيه تسيمون) ترعون: يقال سامت الماشية وأسامها صاحبها (ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون. وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون. وما ذرأ لكم فى الأرض مختلفا ألوانه إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون. وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا) هو السمك (وتستخرجوا منه حلية تلبسونها) كاللؤلؤ والمرجان تلبسها نساؤكم (وترى الفلك مواخر فيه) جوارى فيه تشقه بحيزومها، من المخر وهو شق الماء (ولتبتغوا من فضله) من سعة رزقه بركوبها للتجارة (ولعلكم تشكرون. وألقى فى الأرض رواسى) أى جبالا رواسى (أن تميد بكم) كراهة

أن تميل بكم وتضطرب (وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون) أى وجعل فيها أنهارا وطرقا - لعلكم تهتدون - الى مقاصدكم والى معرفة الله تعالى (وعلامات) معالم يستدل بها السابلة من جبل وسهل وريح والبوصلة المعروفة فى السفن والبر (وبالنجم هم يهتدون) بالليل فى البرارى والبحار (أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون) والمراد بمن لا يخلق الأصنام (وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها) لاتضبطوا عددها فضلا عن أن تستطيعوا القيام بشكرها (إن الله لغفور رحيم) هذه الآيات ذكر فيها الإنسان والحيوان والنبات والبحر وما فيه وذلك كترتيب علماء الطبيعة الذين جعلوا العالم العضوى والجمادى هكذا الإنسان ثم الحيوان ثم النبات ثم المعادن .

يقول الله : خلقتكم من نطفة وأودعتكم فى الأرحام وجعلت أعضاءكم مفصلة منظمة من أعضاء بطش كاليدين والرجلين وأعضاء حس من سمع وبصر وذوق ولمس ومن فكر وذاكرة وحافظة ومخيلة ؛ ومنكم من يوحى إليه ، ومنكم الحكماء ، كل ذلك من نطفة ، وسخرت لكم جميع الأنعام وكل ما تركبون من الدواب وأبحت لكم مافى باطن الأرض من الفحم الحجرى والبترول والمعادن لتركبوا قطرات الطرق الحديدية التى لاتعلمونها من قبل وهيأت لكم الطيارات الهوائية والغواصات البحرية لتشاهدوا عجائب الجو وبدائع البحر وتروا ما لاعين رأت قبلكم ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب آبائكم الأولين ، وجعلت لكم الزرع والشجر وبدائع الخلقة وعجائب الطبيعة أنشأتها لكم مختلفات الألوان بديعة الأشكال والخواص والطعم والرائحة ، منها الحلو والحامض والعفص والمر والحريف والقابض والسام والقاتل والشافى والمغذى ، ومنه طعام الآدميين ومنه ماخلق للدواب مما لايعلمه إلا أولو الألباب ، وأنعمت عليكم بالبحر لتأكلوا سمكه ولتستخرجوا الدر والمرجان منه ولتسيروا السفن تمخر عبابه جاريات فى بحر الظلمات بين أوروبا وأمريكا وفى المحيط الهادى والبحر الأحمر والأبيض المتوسط وبحر الروم وبحر نيطش والبحر الأسود وبحر البلطيق وبحر الهند وبحر الصين ، كل ذلك سخرته لكم لتبتغوا من فضلى بطلب التجارة ولم أخص الفرنجة به بل عممته للناس أجمعين .

أقول: ألم يأن للمسلمين أن يعقلوا ويتفكروا وينظروا ويذكروا أن المرجان فى البحار والتجارة بالسفن فيها فى يد أمم الفرنجة وهكذا الأمريكيون ، أما المسلمون فلا ينقصون عن ٣٥٠ مليونا .

أوليس من العجب أن المرجان فى يد الفرنجة وسفن التجارة والحرب لهم وحدهم وليس للمسلمين من ذلك إلا القليل ، فألهم اللهم رجال أمتنا الاسلامية روحا بها يستيقظون من غفلاتهم ويرجعون مجدهم إنك على ما تشاء قدير .

إيضاح لتفسير آية « وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون »

فذكر اللحم الطرى وهو السمك المستخرج من البحر ، وذكر عجائب الجمال وبدائع الصنعة من الدر المخلوق فى صدفه العائش فى البحار ، وكذا المرجان الذى ينبت فى قاع البحر ، ولعمرك لاينال مغنمه ولا يحظى بمكسبه إلا الفرنجة .

ألا ترى إلى فرنسا فإنها تحصد حقول المرجان التى أمام تونس والجزائر وهى حافظة لها ومتى تم ينعها حصدتها وباعتها والمسلمون نائمون لايعلمون شيئا أولئك هم النائمون .

يقول الله (وتستخرجوا منه حلية تلبسونها) والمسلمون كأنهم لم يقرءوا القرآن وكأنهم لم يخلقوا فى هذه

الأرض

الأرض وكأنهم أموات لا أحياء ، يقول الله لهم (وتستخرجوا منه حلية تلبسونها) وتتحلى بها نساؤكم وهم يقولون : يا ربنا نحن لانستخرج وإنما نشترى من المستخرجين من الأرض فكأنهم ليسوا مخاطبين بالاستخراج المباح فحرموا على أنفسهم ما أباحه الله لهم بل أوجبه عليهم باعتبار أنه فرض كفاية ولا كفاية لدينا ولا علم ولا عمل .

اللهم أنقذ أمتنا من هذا النوم العميق وأيقظهم إنك أنت السميع العليم واجعل كتابى هذا نورا يستضىء به المتقون ونبراسا يهتدى به الصالحون إنك عليم قدير .

إيضاح هذا المقام

اعلم أن شواطىء بلاد الجزائر تنقسم إلى عشرة أقسام ، ويحصدون المرجان من كل قسم منها فى سنة ولا يصل الدور إلى آخرها حتى يكون قد نما أولها لأنه يبلغ أشده فى عشر سنين .

وقد كان عدد الزوارق التى اصطادت المرجان فى بعض السنين من شواطىء الجزائر (٣١١) زورقا فيها (٣١٥٠) نوتيا .

وبلغ ثمن ما اصطادوه منه (١١٣٫٠٠٠) جنيها وهذا سنة (١٨٧٣) وفى سنة (١٨٨٦) غنم الإيطاليون من المرجان المذكور (٥٦) ألف كيلوغرام ثمنها أربعة آلاف ألف فرنك ومائتا ألف فرنك . وغنم أهل فرنسا وأسبانيا (٢٢) ألف كيلوغرام ثمنها ألف ألف وخمسمائة وخمسون ألف فرنك ، فيكون ماصيد من المرجان كله تلك السنة (٧٨) ألف كيلوغرام ثمنها خمسة آلاف ألف وسبعمائة وخمسون ألف فرنك .

كل ذلك والمسلمون لايعلمون ويقرءون القرآن وهم ناعون والله سائلهم وهم لايشعرون ، وهذه صورة المرجان فى البحر :



(شكل ٨)

هذه صورة المرجان ظهرت فيها ثغور حيواناته ضاحكة مستبشرة كأنها أزهار النبات .

فصل فى بقية تفسير الآيات فى هذا القسم

قال الله تعالى (إن الله لغفور رحيم) حيث أكثر النعم عليكم ولم يمنعها بسبب تقصيركم مع أنه يعلم سركم ونجواكم ، فإذن لم يمنعه عن عقابكم إلا رحمته الواسعة بكم (والله يعلم ماتسرون وما تعلنون) من أقوالكم وأفعالكم وسأجازيكم عليه متى حان وقت الجزاء .

ولما أتم الكلام على ماخلق سبحانه شرع يذكر الأصنام وأنها لاتخلق فكيف تجعل آلهة فقال (والذين يدعون من دون الله لايخلقون شيئاً وهم يخلقون) هم (أموات غير أحياء) ولو كانت الأصنام آلهة لكانت أحياء دائماً لايجوز عليها الموت ولكن هذه أموات لاحياة لها ولاحس (وما يشعرون أيان يبعثون) أى وما تشعر الأصنام متى يبعث عابدوها ، فإذا لم يكونوا للعالم خالقين ولا بالحياة موصوفين ولا يبعث عابديهم عالمين ، فكيف يعبد الجاهلون مخلوقين أمواتا جاهلين بالبعث ؟ ولاجرم أن هذا برهان على التوحيد (إلهكم إله واحد فالذين لايؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة) للوحدانية (وهم مستكبرون) عن اتباع الحق اتباعا لأسلافهم وجريا وراء المألوف (لاجرم) أى حقا (أن الله يعلم مايسرون وما يعلنون) فيجازيهم (إنه لايحب المستكبرين) .

وفى حديث مسلم أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « لايدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر ، فقال رجل إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنا ، قال إن الله جميل يحب الجمال ، الكبر بطر الحق وغمط الناس » ومعنى بطر الحق أن الانسان يتكبر عند سماع الحق فلايقبله ، ومعنى غمط الناس احتقارهم .

قال

يقال غمطت حق فلان إذا احتقرته ولم تره شيئاً وكذلك معنى غمصته بالصاد : أى انتقصته وازدريته ، وههنا شرع يبين صفات هؤلاء المستكبرين وكيف يبطرون الحق ويغمطون الناس فقال (وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم ؟ قالوا أساطير الأولين) أى أحاديثهم وأباطيلهم ، وكأنه جيء بهذا بعد ذكر العجائب والنعم فى السموات والأرض والزرع والنبات ليكون برهانا ساطعا أن هذا ليس أساطير الأولين وإنما هى حجج الحكمة وبرهان الطبيعة وعلوم هذه العوالم التى يشاهدها الخلق أجمعون وهم فيها لايفكرون ولذلك رتب عليه ما بعده فقال قالوا ذلك (ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم) وبعض أوزار الأتباع الذين أضلهم المتبوعون حال كون الأتباع لايعلمون أن ما اتبعوهم فيه من العقائد الزائفة ضلال، وهذا يفيد أن جهلهم بأنه ضلال لايعدّ عذرا لأن العقل هو الميزان لا اتباع الرؤساء (ألا ساء ما يزرون) أى ألا بئس ما يحملون وهذا وعيد شديد .

ولما كان جميع الأنبياء على سنن واحد معروف وذلك أن أعداءهم يمكرون بهم فيهلكهم الله فهم جميعا كقوم شيدوا بنيانا وأقاموه على عمد فضعضع الله البنيان بأن تمنع العمد التى تحته فوقع عليهم السقف فهلكوا وهم لايتوقعون ما أصيبوا به ، وهذا هو تاريخ كل من كذبوا الرسل كما تقدم فى سورة إبراهيم وهذا قوله تعالى (قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد) أى قصد تخريب بنيانهم من أصوله فضعضع العمد التى بنوا عليها (فخر عليهم السقف من فوقهم) سقط عليهم السقف فأهلكهم (وأتاهم العذاب من حيث لايشعرون) وهم آمنون مطمئنون وهذا كقول القائل :

فلو بغى جبل يوما على جبل ... لدك منه أعاليه وسافله

وقولهم « من حفر بئرا لأخيه يوشك أن يقع فيه » وهذا الجزاء حصل لكل أتباع الأنبياء الذين خالفوهم فى الدنيا ولأهل مكة يوم بدر وما بعده ، هذا عذاب الدنيا (ثم يوم القيامة يخزيهم) أى يفضحهم على رؤوس الأشهاد ويقول (أين شركائى الذين كنتم تشاقون فيهم) تعادون وتخاصمون المؤمنين فى شأنهم (قال الذين أوتوا العلم) وهم الأنبياء والعلماء تقريرا للحقيقة (إن الخزى) العار والفضيحة (اليوم والسوء) العذاب (على الكافرين) فيزيد ذلك القول فى خزيهم ألا وإن عذاب الخزى يوم القيامة والافتضاح أشد أنواع العذاب وقد أوضحناه فى سورة آل عمران ونقلنا أقوال علمائنا رحمهم الله فى ذلك وهذا مشاهد فى الدنيا فإن الناس لولا خوف الفضيحة لكانوا أسعد حالا فهم جميعا إلا من رحم ربك يسترون عوراتهم وفقرهم وسوء حالهم بالتظاهر والتباهى فيضيعون ما اقتنوا من المال ويذيبون مهجهم فى عداوات ومشاحنات وحرب خيفة الشماتة والعار ، إن الناس يفضلون الموت على العار كما يفعل كثير من الناس ويقدم على الموت ولايعيش ذليلا . فهكذا هؤلاء يخزيهم الله ويفضحهم فإنهم لما خرّ بنيانهم الذى بنوه من فوقهم وأتاهم العذاب لم يكن لهم عذر ويقول الذين أوتوا العلم بأن درسوا هذا الوجود المحكم المنظم الذى هو دائم النظام فاستقرت عقولهم واطمأنت نفوسهم وعرفوا الحقائق . وانظروا إلى هؤلاء كيف سقط عليهم بنيان بنوه بلا روية وهو بنيان الاعتقادات الفاسدة فأصبحوا فى نظرهم أهل جهالة ، حينئذ يكشف الغطاء ويقول العارفون بخلق السموات والأرض والإنسان والحيوان والنبات والبحار ونعم الله التى لاتحصى مما هو مذكور فى هذه السورة وغيرها: إن هؤلاء عارون عن الكمالات وأفئدتهم هواء فهم لايعقلون هذا ، هذه المعانى كلها دخلت فى قوله (قال الذين أوتوا العلم) ولم يقل المؤمنين لأن الذين أوتوا العلم هم من أصحاب الأعراف وهم الذين (يعرفون كلا بسيماهم) فهؤلاء هم الذين يلمون بأحوال أهل الدارين فيصفون الكافرين بالخزى والسوء . ثم وصف الكافرين فقال (الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم) بالكفر (فألقوا السلم) استسلموا وانقادوا وقالوا

(ما كنا نعمل من سوء) أى ما أشركنا وذلك من الملع (بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون) فهو مجازيكم ولا فائدة لكم فى الانكار (فادخلوا أبواب جهنم) أى فيقال لهم ذلك (خالدين فيها) مقيمين فيها لايخرجون منها (فلبئس مثوى المتكبرين) عن الحق فلا يؤمنون وهذه الصورة التى يقابل بها المشركون يوم القيامة، ويقابلها ماناله المؤمنون وهو قوله (وقيل للذين اتقوا) وهم المؤمنون (ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا) أى أنزل خيرا، وأبدل منه قوله (للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة) مكافأة فى هذه الدنيا كالنصر والفتح والرزق الحسن (ولدار الآخرة خير) وما أعد لهم فى الجنة خير مما يحصل لهم فى الدنيا (ولنعم دار المتقين) الذين اتقوا الكفر والفواحش (جنات عدن) بساتين إقامة وهو مخصوص بالمدح (يدخلونها) حال (تجرى من تحتها الأنهار) أى تجرى الأنهار فى هذه الجنات من تحت دور أهلها وقصورهم (لهم فيها) فى الجنات (مايشاءون) أى ماتشتهى الأنفس وتلذ الأعين (كذلك) هكذا (يجزى الله المتقين) ثم وصفهم فى مقابلة وصف الكافرين بالخزى وحكم أهل العلم عليهم أنهم مخزيون معذبون فقال فيهم (الذين تتوفاهم الملائكة طيبين) فى اعتقادهم ورأيهم وخلقهم وأعمالهم وأقوالهم مبرئين مما خبثت به طباع أهل الخزى الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم (يقولون) أى الملائكة (سلام) فى مقابلة قول أهل العلم لظالمى أنفسهم (إن الخزى اليوم) الخ.

قيل: إذا أشرف العبد المؤمن على الموت جاءه ملك الموت فقال السلام عليك ياولىّ الله، الله يقرأ عليك السلام، ويبشره بالجنة ويقال له فى الآخرة (ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون) أى بعملكم فى الدنيا وهذا كترتب الشبع على تعاطى الطعام واستقامة العقل بالنهار فى الدرس على استيفاء النوم وكل من عند الله فالعمل من الله والجزاء من الله، فصح أن دخول الجنة بأعمالنا وصح حديث النبى صلى الله عليه وسلم «لن يدخل أحدكم الجنة بعمله» كما فى الصحيحين، وهذه التحيات المرسلة من الله للاكرام الذى هو أشرف أنواع اللذات فى مقابلة الإخزاء لظالمى أنفسهم بذكر أنهم لهم الخزى والسوء فهذا هو الجزاء العقلى مع الجزاء الجسمى وهما أقوى أثرا فى التعذيب والتنعيم، ثم أخذ يشرح حال الكفار المارّ ذكرهم فأفاد أنهم بهذه الأعمال والعقائد لا ينتظرون إلا أن تقبض الملائكة أرواحهم فيموتون وتقوم القيامة فيعذبون وهكذا كانت الأمم قبلهم فأهلكوا (فأصابهم سيئات ماعملوا) أى جزاؤها وأحاط بهم جزاء استهزائهم، ثم ذكر بعض الحجج التى يدلون بها إذ يرجعون إلى القضاء والقدر فقال (وقال الذين أشركوا لوشاء الله ماعبدنا من دونه من شئ نحن ولا آباؤنا ولا حرّمنا من دونه من شئ) قالوا مستهزئين: يامحمد إن الله هو الفاعل المختار فكفرنا بمشيئته وكذلك آباؤنا وهكذا تحريمنا ما أحل الله على زعمك كالسوائب المذكورة فى سورة الأنعام. فلولا مشيئة الله ما فعلنا شيئاً من ذلك، فلام العقاب والتهديد؟ وهم بهذا أنكروا البعثة وكذبوا الرسل وهم يستهزئون بهم وهذه الحجة من الحجج التى يدلى بها أكثر الناس، وقد علموا أن من ترك الطعام اتكالا على الله أو قصد الوقوع فى بئر أوشرب السم أوتعرض للأسد، أوأنزل نفسه فى البحر بلاعوم، أوقطع ذراعه بسيفه وهو فى كل ذلك يقول: هكذا أراد الله فإن مثل هذا لا إجابة لكلامه. بل يترك وشأنه ويموت غير مبكى عليه، هكذا هنا ذكر الله حججهم ولم يرد عليهم وأراهم أن هذه حجج الأمم الهالكة؛ وهكذا كل أمة فتحت على نفسها باب القضاء والقدر خسرت وكان ذلك علامة خرابها ودنوّ أجلها وأفول نجمها فأجابهم الله بمعنى ذلك كله بقوله (كذلك فعل الذين من قبلهم) فهم أدلوا بحجة القضاء والقدر وجهلوا حال هؤلاء الذين يذرون الأعمال النافعة ويحتجون بالقضاء والقدر وليس لهذه الحجج قيمة لأن الأسباب العادية من تعاطى الطعام والشراب وغيرها يلام صاحبها أشد اللوم إذا مات بتركها وهكذا من يتعرضون لخطر الموت بلافائدة أويغرقون أنفسهم فكل هذه أسباب عادية أخذا أو تركا.

أفليس إبلاغ الرسل من أسباب الهداية ؟ وأىّ فرق بين تعاطى الطعام وتفهم العلم فى حصول الشبع والفهم وهذا قوله تعالى (فهل على الرسل إلا البلاغ المبين) أى إلا الإبلاغ الموضح ، وليس على من وجبت عليه الزكاة أو أراد الصدقة إلا أن يحضر المال للفقير ويقدمه له ، فإذا أضرب عن أكل الطعام فليس على المتصدق ملام فقد أخذ بالأسباب ، هكذا الأنبياء والعلماء يرشدون الأمم ، فإذا ضلت فليس عليهم ذم ولاملام ، وهذا هو الذى كان فى الأمم السابقة ، وهذا هو معنى قوله تعالى (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا) كما بعثنا محمدا صلى الله عليه وسلم (أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) والطاغوت اسم كل معبود من دون الله (فمنهم) أى فمن الأمم الذين جاءتهم الرسل (من هدى الله) أى هداه الله إلى الايمان (ومنهم من حقت عليه الضلالة) أى وجبت عليه الضلالة فمات على الكفر على مقتضى الاستعداد السابق الذى تعلق به القدر (فسيروا فى الأرض) معتبرين متفكرين لتعرفوا كيف أهلكنا الأمم المكذبة قبلكم (فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) من الأمم السابقين ، وإذا كان استعداد الكفار غالبا عليهم والقضاء نافذا فيهم فالله لايهديهم وإن حرصت على هداهم وهذا قوله (إن تحرص على هداهم فإن الله لايهدى من يضل) أى من يريد إضلاله : أى من حقت عليه الضلالة (ومالهم من ناصرين) أى من يدفع عنهم العذاب (وأقسموا بالله جهد أيمانهم) معطوف على « وقال الذين أشركوا » يقال حلف الرجل جهد يمينه إذا حلف بالله (لايبعث الله من يموت بلى) أى يبعثهم وهو إثبات لما بعد النفى (حقا) هو مصدر مؤكد لما دل عليه « بلى » فقوله « يبعث » وعد منه تعالى ، ولا جرم أن الوفاء بهذا الوعد حق (ولكن أكثر الناس لايعلمون) لجهالتهم بما حولهم من آيات الله تعالى أنه إذا وعد لايخلف ، فهو يجعل كل نبات يلد مثله وكل شجر يأتى بثمره الخاص به ويجعل الأيام والليالى والشهور والسنين فى مواعيدها التى سنها ، ولاجرم أنه بهذا يفى للناس بما عاهدهم عليه بمقتضى جريان عادته بها ، فهكذا هنا وعد الله على لسان رسوله فهو حق كما كان كل ماحولنا حق فإنه يعد بمقتضى الحال ولايخلف الميعاد ، وإذا كان عدد النبات على وجه الأرض مائتى ألف نوع وبعضهم زاد كثيرا فقد صدق وعده ولم يخلف وعده بحيث أثمر كل نبات ماهو منتظر منه وهل بعد هذا وفاء ؟ هذا وعد الله وهذا وفاؤه ، وإنما يبعثهم (ليبين لهم الذى يختلفون فيه) وهو الحقائق العلمية ويرون كل ماجهلوه فيفصل بينهم (وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين) فيما كانوا يزعمون لظهور الحقائق لهم ، وكيف ينكر البعث ، و (إنما قولنا لشئ إذا أردناه أن نقول له كن فيكون) وإذا كان كذلك فلا تعب علىّ فى إحيائهم وبعثهم فأجازى هؤلاء المنكرين والمؤمنين المهاجرين بالقسط (والذين هاجروا فى الله من بعد ماظلموا) وهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه الذين هاجروا إلى الحبشة ثم إلى المدينة ، وقوله « فى الله » أى فى حق الله ولوجهه (لنبوّئنهم فى الدنيا حسنة) مباءة حسنة وهى المدينة (ولأجر الآخرة أكبر) مما يعجل لهم فى الدنيا ، وكان عمر رضى الله عنه إذا أعطى رجلا من المهاجرين عطاء قال له خذ بارك الله لك فيه هذا ماوعدك الله تعالى فى الدنيا وما ادخر لك فى الآخرة أفضل (لو كانوا يعلمون) لوعلم الكفار أن الله يجمع للمهاجرين خيرى الدنيا والآخرة لوافقوهم ، هم (الذين صبروا) على مفارقة الوطن وعلى المجاهدة وبذل الأرواح فى سبيل الله تعالى (وعلى ربهم يتوكلون) أى يفوّضون الأمر إلى ربهم راضين بما أصابهم فى دين الله ، ولما قالت قريش الله أعظم من أن يرسل بشرا قال تعالى (وماأرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم) فان كنتم فى شك من ذلك (فاسألوا أهل الذكر) الذين يعرفون ذلك ؛ إما بما ورد فى كتبهم كعلماء اليهود والنصارى ، وإما بما بحثوا فى الحكمة كعلماء الحكمة وعلماء الأرواح إذ يعلمون أن الروح لايتجلى للناس إلا فى أحوال خاصة بشروط يستحيل أن تتوافر فى الأحوال التى يكون فيها الأنبياء ، ولابد أن يكون الأنبياء من البشر وقد مر تحقيق ذلك فى سورة الأنعام (إن كنتم لاتعلمون)

الخطاب لأهل مكة ، وهنا يرد سؤال فيقول القائل : بم أرسل الله الرسل ؟ فأجاب الله تعالى (بالبينات والزبر) أى أرسلناهم بالمعجزات والكتب (وأنزلنا إليك) يا محمد (الذكر) القرآن (لتبين للناس ما نزّل إليهم) فى الذكر بواسطة إنزاله عليك فيعرفون المأمور به والمنهى عنه والمتشابه ، ومعنى تبيينه أنه ينص على المقصود تارة ويرشد إلى القياس أخرى ويحول على العقل ثالث (ولعلهم يتفكرون) فى تنبيهاته فيعرفوها : أى وإرادة أن يتأملوا فيه فيقفوا على المقاصد الحقة ، وهنا أوضح الوعيد الواقع على الذين عاندوا ولم يؤمنوا بالذكر ولم يتفكروا بل مكروا مكرا سيئا فقال (أفأمن الذين مكروا السيئات) وهم احتالوا لهلاك الأنبياء (أن يخسف الله بهم الأرض) كما خسف بقارون (أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون) بغتة من جانب السماء كما فعل بقوم لوط (أو يأخذهم فى تقلبهم) أى متقلبين فى متاجرهم (فماهم بمعجزين . أو يأخذهم على تخوّف) أى على أن ينقص شيئاً بعد شىء فى أنفسهم وأموالهم . يقال تخوفته إذا انتقصته .

روى أن عمر رضى الله عنه قال على المنبر ما تقولون فيها فسكتوا فقام شيخ من هذيل فقال هذه لغتنا التخوف : التنقص ، فقال هل تعرف العرب هذا فى أشعارها ؟ فقال نعم . قال شاعرنا أبو كبير يصف ناقته :

تخوف الرحل منها تامكا قردا كما تخوف عود النبعة السفن

فقال عمر : عليكم بديوانكم لا تضلوا ، قالوا وما ديواننا ؟ قال شعر الجاهلية فإن فيه تفسير كتابكم ومعانى كلامكم ، وقال تعالى (فإن ربكم لرءوف رحيم) إذ لم تبتلعكم الأرض ولم ينزل عليكم من السماء عذاب ولم تأخذوا فى متقلبكم ولم يتنقصكم شيئا فشيئا بل أبقاكم سالمين ، فلا سماء ترجمكم ولا أرض تبلعكم ولا أحوال تعرض بينهما فيها هلاككم لا ! بل النعمة عليكم أتم والمن عليكم أعظم ، فإننا بدل أن نسلط عليكم عذابا من فوقكم ومن تحتكم ومن حولكم جعلنا ذلك كله نعمة عليكم حافظا لكم .

ألم تروا إلى الأشجار كيف أظلتكم بظلها الظليل وإلى الجبال أكنتكم فى كنفها من الحر الشديد ؟ فهذه الظلال أرسلناها لكم لتأووا إليها من حر الشمس التى هى من أجلّ النعم عليكم فكان هذا الظل ملطفا لفعلها حارسا لكم من سمومها وهو من المعقبات التى تحيط بكم لدرء الشر عنكم فلم نقتصر فى نعمكم وحفظكم على السموات وخيراتها والأرض ونعمها والسحاب ومطرها بل الظلال التى هى أعراض حالة فى أقطارها أرسلناها إليكم فأى رحمة أعظم من ذلك وأى سعادة أكمل وليس ذلك بمستعص علينا فالأجسام والأعراض طوع إرادتنا خوّلناها إلى منافعكم ولم نجعلها نقمة عليكم .

ألم تروا أن مافى السموات ومافى الأرض خاضعون لنا مسخرون لقدرتنا مطيعون لأمرنا ؟ فترى ظلال الجبال وظلال الأشجار وظلال كل نبات وحجر وشاخص تمتد صباحا ثم تتقاص ثم تمتد مساء وتزيد إلى منتهاها وهى ساجدة خاضعة ولاصقة بالأرض لصوق أجبهة المصلى بها ، ذلك تبع للشمس المسخرة بأمرنا الساجدة لقهرنا الدائرة هى وأمثالها من الشموس والكواكب الجاريات فى مداراتها وهن صاغرات خاضعات ، كما خضع وسجد كل ملك حافظ لهن مهيمن على سيرهن ، وهكذا كل مخلوق من معدن ونبات وحيوان فوقهن كما ترون فى أرضكم مع اختلاف الأحوال فإن الكواكب الثوابت شموس لا تساوى شمسكم بالنسبة لها شيئا وحولهن أرضون لا تقل عن ثلثمائة ألف ألف أرض فيها عوالم لا تعلمون أشكالها وأوصافها كل هؤلاء مسخرون صاغرون ساجدون سواء أكانت الأحياء الحيوانية أم الأحياء الملكية وهم الملائكة ولم يكن خلوصهم من المادة وقربهم من ربهم مانعا من خوفهم منه بل يشتد الخوف كلما ازداد القرب ولذلك يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون وهذا قوله تعالى (أولم يروا إلى ما خلق الله من شىء) استفهام إنكار أى إلى الذى خلق الله ومن شىء بيان له (يتفيؤ ظلاله) يرجع من موضع إلى موضع (عن اليمين) عن الأيمان

(والشمائل) جمع شمال (سجدا) حال من الظلال (وهم داخرون) صاغرون حال من الضمير فى ظلاله لأنه فى معنى الجمع وهو ماخلق الله من كل شىء له ظل وجمع بالواو والنون للتغليب ، والدخور : الاستسلام طبعا أو اختيارا .

ويقال سجدت النخلة إذا مالت لكثرة الحمل وسجد البعير إذا طأطأ رأسه ليركب عليه ، ثم قال تعالى (ولله يسجد مافى السموات وما فى الأرض من دابة) بيان لما فى السموات وما فى الأرض (والملائكة) معطوف على ما فى السموات عطف العالم المجرد من المادة على غير المجرد منها فكأنه قال « ولله يسجد » الدواب والملائكة فى السموات والأرض فالقسمان فى المكانين (وهم لايستكبرون ، يخافون ربهم من فوقهم) هذه الجملة حال من الضمير فى لايستكبرون : أى لايستكبرون خائفين ، وقوله « من فوقهم » أى غالبا لهم قاهرا (ويفعلون مايؤمرون) فهم مكلفون بأعمالهم بين أمر ونهى وخوف ورجاء ، انتهى التفسير اللفظى للقسم الأول .

البلاغة

وإذ فرغت من التفسير اللفظى لهذا القسم فهاك موازنة بين أول معلقة طرفة بن العبد وأول سورة النحل من كتابى [أدبيات اللغة العربية] صفحة ٤٥ . قال طرفة بن العبد :

إن لخولة محبوبتى أطلالا جمع طلل : أى ماشخص من آثار الديار حتى يرى بأرض ذات حجارة مختلفة الألوان يعبر عنها ببرقة بمكان يقال له (ثهمد) لبنى دارم وتلك الآثار تبرق كأنها الوشم فى ظاهر اليد وقد وقف أصحابى مطاياهم لأجلى وقالوا لاتهلك من أجل حزنك عليها وتجلد وكأن الهوادج المخصوصة المسماة بالحدوج تحمل تلك الفتاة من بنى مالك فى أوائل النهار سفن عظام فى مسيل الماء الجارى فى المكان المسمى (دد) وهذا معنى قوله :

لِخَوْلَةَ أَطْلَالٌ بِبُرْقَةِ ثَهْمَدِ ... تَلُوحُ كَبَاقِى الْوَشْمِ فِى ظَاهِرِ الْيَدِ
وُقُوفًا بِهَا صَحْبِى عَلَىَّ مَطِيَّهُمْ ... يَقُولُونَ لَاتَهْلِكْ أَسًى وَتَجَلَّدِ
كَأَنَّ حُدُوجَ الْمَالِكِيَّةِ غُدْوَةً ... خَلَايَا سَفِينٍ بِالنَّوَاصِفِ مِنْ دَدِ

الحدوج جمع حدج : مركب من مراكب النساء المالكية من بنى سعد بن مالك ، خلايا ، جمع خلية : السفن العظام . والنواصف : جمع ناصفة وهى مسيل الماء المتسع ، ودد : اسم مكان ، ثم قال كأن هذه السفينة من سفن (عدولى) وهى قرية بالبحرين أو من سفن ابن يامن ملاح من أهل البحرين ، وتلك السفينة يجور بها الملاح فيضل الصراط السوى تارة ويهتدى أخرى فيسير وإن حيزومها : أى صدرها يشق زبد الماء وموجه كما يقسم التراب الرجل الذى يصنع الفيال بيده ، وذلك أن توضع الخبيئة فى تراب أو رمل ويقسم بيده فى أيهما كانت الخبيئة فالحكم تابع فى القمار له أو عليه ، هذا معنى قوله :

عَدَوْلِيَّةٌ أَوْ مِنْ سَفِينِ ابْنِ يَامِنٍ ... يَجُورُ بِهَا الْمَلَّاحُ طَوْرًا وَيَهْتَدِى
يَشُقُّ حَبَابَ الْمَاءِ حَيْزُومُهَا بِهَا ... كَمَا قَسَمَ التُّرْبَ الْمُفَايِلُ بِالْيَدِ

وإذ سمعت ابتداء معلقة طرفة بن العبد فاسمع الآيات فى مبدأ سورة النحل وتعجب كيف جاء المبدأ مباينا لما يقرع آذان العرب فى أفصح كلامهم قال « أتى أمر الله فلا تستعجلوه » إلى قوله « وما تعلمون »

ألا تعجب كيف ذكر خلق الإنسان من ماء مهين ثم تلاه بخلق الحيوان ثم أتبعه بالنبات متدليا من أعلى إلى أسفل مع ذكر الماء ثم ترقى فى أسباب هذه المواليد الثلاثة فأخذ يشرح عجائب الليل والنهار والشمس والقمر ثم عمم فذكر بقية الدرارى اللامعات فى السماء فقال «والنجوم مسخرات بأمره» ثم تلاها بما يوازيها فى الجمال وهو ما فى الأرض من ذوات الألوان الجميلة من كل نابتة ونسمة حية وأعقبه بالبحار الملحة ذات الزخارف والزينة من المرجان والجواهر الضاهية فى جمالها والمشاكلة فى حسنها تلك اللوامع والنجوم المشرقة والأصباغ البهجة فى النبات الناجم والشجر البهج البديع .

أفليس عطف البحر لما فيه من الجمال والبهاء والزينة على مافيه الألوان البهجة من النبات والنجم من أعجب ماسمعه أولوا الألباب ؟ ثم تلاه بالجبال والسفن والأنهار والسبل والاهتداء . ولاجرم أن السفن تناسب الأنهار لمخرها وتوافق السبل والاهتداء بالنجم فى البر والبحر والسفن بالنجم أشد العلاقات إن فى ذلك لآيات .

تعجب من هذه المعانى وطف من بعد ما بيناه آفاق القصائد فى الجاهلية فهل ترى إلا الظعائن والحدوج والنياق وبرقة ثهمد والأطلال التى تشبه الوشم كما فى قول طرفة بن العبد المتقدم، وكما تراه فى قول زهير بن أبى سلمى إذ ابتدأ قصيدته بذكر أمّ أوفى وهى محبوبته إذ يقول :

* أمن منازل محبوبتى أمّ أوفى دمنة *

أى آثار مسودة بالبعر والرماد سألتها فلم تتكلم وتلك الدمن بمكان غليظ : أى الحومانة التى بالمكان المسمى بالدرّاج والمكان المسمى بالمتثلم ثم قال ولها دار بين روضتين وهما الرقمتان إحداها قرب المدينة والأخرى قرب البصرة كأن تلك الدار إذا عفت آثارها ما على ظاهر اليد من الوشم المكرر فى نواشر المعصم والنواشر أعصاب الذراع واحدتها ناشرة ، فهذه الدار ترى العين أى البقر الوحشى ذات العيون الواسعة والآرام الظباء الخالصة البياض يمشين ويخلف بعضهن بعضا وإنهن يتمن أولادهن وإذا ظنن أن أولادها خلت أجوافها صوّتن بهن فينهضن من كل مجثم : أمكنة نومهن فيرضعن ، وهذا معنى قوله :

أَمِنْ أُمِّ أَوْفَى دِمْنَةٌ لَمْ تَكَلَّمِ ... بِحَوْمَانَةِ الدَّرَّاجِ فَالْمُتَثَلَّمِ
وَدَارٌ لَهَا بِالرَّقْمَتَيْنِ كَأَنَّهَا ... مَرَاجِيعُ وَشْمٍ فِى نَوَاشِرِ مِعْصَمِ
بِهَا الْعِينُ وَالْآرَامُ يَمْشِينَ خِلْفَةً ... وَأَطْلَاؤُهَا يَنْهَضْنَ مِنْ كُلِّ مَجْثَمِ

(المعصم) موضع السوار من اليد (العين) جمع عيناء : البقر الوحشى لسعة عينها (الأطلاء) جمع طلا وهو ولد الظبية والبقرة .

وازن هذا المبدأ الذى لايتعدى بيت أمّ أوفى والدمنة التى لاتتكلم والأرض الغليظة وبقر الوحش والظباء يتبع بعضها بعضا وهن يرضعن أولادهن ، افهمه وتأمل مقاصده وكيف تقاربت أوائل القصائد فى تلك المعانى العاكفة على البيداء وأطلالها والبطحاء وبعرها والبقر وأطلائها لاتجدها تتعدى دائرة ضاقت فلم توسع نطاق العقول وعريت عن أكثر جمال الطبيعة فحادوا عن اتساع نطاق المدنية وظلوا فى البيداء متشاكسين، وانظر أول النحل هنا كما تقدم ومايقاربه من أول سورة الأنعام إذ يقول «الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون . هو الذى خلقكم من طين ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده ثم أنتم تمترون . وهو الله فى السموات وفى الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون » .

ابتدأ

ابتدأ بالحمد على أنه خلق السموات والأرض وهما العالم العلوى والسفلى وما يحيط به من أنوار النهار وظلمات الليل ومع ذلك ترى الكفار يعدلون بالمبدع لهذا الجمال سواه ، وكيف تكفرون به وهو الذى خلقكم من طين فجعله نباتا فأكله الحيوان فصار الطائفتان طعام الإنسان فصار الطعام ماء دافقا فنشأ منه بشر سوىّ فجعل له أجلا لموته وله أجل آخر لحياته الأخرى ، ثم أنتم أيها الناس بعد هذه العجائب والحكم تكفرون ؟ وكيف تكفرون به وهو الذى أحاط علمه وشملت قدرته أكناف السموات ونواحى الأرضين ؟ فلا جرم يعلم سركم وجهركم ويعلم ماتفعلون من خير ومن شر .

أليس فى ذكر الظلمات والنور تشويقا لنفوس الناشئين إلى جمال الأنوار فيعشقون محاسن أنوار النجوم والأقمار وبهاء الشمس وتنطبع على ألواح قلوبهم صور الأنوار المتلألئة من النار والشرر المتطاير من الزناد ومن نور الكهرباء وجمال المصابيح وغير ذلك .

لن تقوم أمة إلا بالكلام البليغ المملوء حكمة وصورا جميلة من المعانى البديعة ، إن نقش صور العجائب السماوية والأرضية وإنارة العقول بفهم الجمال فى أكناف العوالم إحياء لها وإخصاب لمزارعها وإنماء لما أجنت من الفضيلة والحكمة .

إن الأمم توابع لما يسمعون وهم أبناء مايعطون ، ألا إن الجمال فى الإنشاء واختيار أحاسن القول والتطواف بالقارئ فى الأنوار والظلمات والنجوم والبر والسهل والجبل وإراءته دقائق الأشجار وبدائع الأزهار وأعاجيب الثمار وتلألؤ الأنوار وبهجة الأصباغ أن ذلك لمحى نفسه وشائق روحه إلى التطلع إلى درجات المعانى فيرى الفضيلة خير مايبتغى ويحيط علما بأمته ويتعالى عن السفاسف ويتهيأ للحكمة ولقيادة الأفكار فى القرى والأمصار .

اعلم أن هذه السورة أشبه بما قبلها من سورة الحجر وإبراهيم والرعد حافلة بالعجائب غنية بالحكم والبدائع مرصعة بالجواهر الفلكية والآراء الحكمية والدرر الطبيعية فهذه السور المكية التى تليت على الجماهير فى مكة ساقت الناس إلى الإيمان وتشابهت فى أسلوبها وهى مقسمة إلى ثلاثة أقسام : الحكمة ، الموعظة المجادلة ، فترى فى الرعد وفى إبراهيم وفى الحجر وفى هذه السورة الحكمة مفصلة واضحة .

ماهى الحكمة ، وماهى الموعظة الحسنة ، وماهى المجادلة ؟

أما الحكمة فهى نظام هذا العالم وجماله ، ففى الرعد ذكر البرق والرعد والسحاب والمطر وأرحام النساء وازديادها ونقصها وما أشبه ذلك ، وفى إبراهيم ترى ذكر الثمرات والأنهار والشمس والقمر الخ ، وفى الحجر ترى إلقاح الأشجار والهواء والمخازن المودعة فى الطبيعة بأمر خالقها وخلق الانسان وبعثه وجنته وناره ، وفى هذه السورة تجد الترتيب بهيئة غير مافى السورة التى قبلها ، ففى الحجر ابتدأ بذكر المعايش وثنى بخلق الانسان وانتهى إلى نهايته ، فأما فى هذه السورة فإنه ابتدأ بما انتهى إليه هناك فإنه انتهى فى الحجر بالبعث وابتدأ هنا به نفسه فقال « أتى أمر الله » وأعقبه بخلق الانسان ثم الحيوان ثم النبات ثم الماء والهواء والسفن الجاريات والبحار ، فهناك ابتدأ بالمعايش وختم بالانسان والبعث ، وهنا ذكر البعث فالانسان فالمعاش ، هكذا كان الأسلوب هناك والأسلوب هنا ، وهذا تنبيه وإيقاظ كأنه يقول هذه سلسلة متصلة لها أول وآخر وكأنها شخص واحد وإنسان واحد وحيوان واحد (ما خلقكم ولابعثكم إلا كنفس واحدة) فهذه السلسلة المنتظمة عندى كأنها شخص واحد بحيث يفتقر أعلاها لأدناها ويخضع أدناها لأعلاها ، والجميع فى السجود لى والخضوع لى كانسان عابد خاضع ، وهذه هى العلوم الشائعة اليوم المسماة بمسألة [النشوء والارتقاء] وهى التى درسها المتقدمون وتعلمها المتأخرون وهى تسمى فى كتب العرب دائرة الوجود ، وتسمى فى العلم الحديث

النشوء والارتقاء فعلماء الفلسفة قديما وعلماء الطبيعة حديثا جميعا يرتبون هذه العلوم كترتيبها فى سورة الحجر من أدنى إلى أعلى وذكرت هناك كذلك ليدل على أسلوب التعليم فإن المبتدئ يجب أن تلق إليه أبسط المسائل ثم يرتق لأعلاها ، فلما أنس المتعلم بهذا النظام وفهمه فى سورة الحجر كرّ راجعا إليه فأعطاه إياه مبتدئا بأعلاه كما يدرس له معلم الحساب بسائط الأعداد ثم مركباتها وبعد ذلك يعطيه المسائل مركبة فيحلها إلى بسائطها ويرجعها إلى أوائلها ، وهكذا على النحو والصرف وجميع العلوم ، وفى هذا المقام سبع لطائف :

(١) فى دائرة الوجود .

(٢) وفى تعريف البهائم والأنعام وفى قوله « ويخلق ما لا تعلمون » .

(٣) وفى النبات .

(٤) وفى الحلية المستخرجة من البحر .

(٥) وفى النجم والاهتداء به .

(٦) وفى السفن وجريها بالرياح .

(٧) وفى الظلال .

اللطيفة الأولى . دائرة الوجود المشتملة على مملكة المعدن والنبات والحيوان

لست فى هذا المقام بمكرر ما مضى ، كلا ! وإنما أنا الآن أقدم لك وصف هذه الممالك فى كتب الطبيعة وكيف رتبوها على النسق الذى فى سورة الحجر وجعلوه دائرة أولها صائر إلى آخرها وآخرها راجع لأولها ، وذلك أنهم يقولون إن العناصر التى تركب منها هذا العالم هى ما تشاهد من أجزاء الأرض ، وقد امتاز عن هذه الأجزاء المعدن ويليه النبات ويليه الحيوان ويليه الانسان ، والإنسان أدناه أقرب إلى البهائم وأعلاه أقرب إلى الملك والملك قريب من الله ، والله هو الذى خلق العناصر ومنها تكون المعادن فالنبات إلى آخره .

أفلست ترى أن القرآن فى سورة الحجر ذكرها على هذا الترتيب من أدنى إلى أعلى ، وهنا كر عليها من أعلى إلى أدنى ، وهذا النظام عينه هو الذى استخرجه الحكماء فى العصور الأولى وفى هذا العصر .

أيها المسلمون ! حرام عليكم ، فوالله ما كنت لأعلم قبل هذا اليوم أن هذه الأعاجيب فى القرآن أى أن تكون الدائرة فى سورة من أدنى إلى أعلى ثم فى التى بعدها تكون من أعلى إلى أدنى وهذه صورتها :





فانظروا كيف ابتدأ بهذه الدائرة فى سورة الحجر من الله ، ومر بها على العناصر حتى انتهى إلى آخرها وهو البعث ورجوع الأرواح إلى عالم أشبه بالعالم المجرد وهم الملائكة ، فلما كانت سورة النحل ابتدأ من البعث أى النقطة التى وصل إليها فى سورة الحجر فقال « أتى أمر الله » وذكر الملك ثم الانسان فمر بها من جهة اليمين على الحيوان والنبات والدر والمرجان وهما من المعادن ثم الجبال وهى من العناصر الأصلية وفيها المعادن أيضا .

فيامعشر المسلمين أمة هذا كتابها ترجع القهقرى وتقول إن الله حرم علىّ النظر فى علم الطبيعة ؟ وهل علم الطبيعة علم غير هذا ؟ هذا علم الطبيعة أوله وآخره ، وهذا هو عينه المذهب المشهور فى أوروبا وأمريكا الذى يسمونه مذهب (دارون) والناس أكثرهم لايعقلون مقصود هذا المذهب ، وكيف يعلمون مايجهلون ؟ ومعرفة معناه الوقوف على الحقائق .

إن هذه العوالم كأنها شخص واحد آخرها مرتبط بأولها وأولها مرتبط بأواخرها كما أريناك ، فهل تحب أن نقف على بعض التفصيل فى هذا الترتيب ؟

المعدن أدناه الجصّ والزاج والشب وأعلاه الياقوت والذهب ، والنبات أدناه خضراء الدمن والكمأة وأعلاه شجرة النخل وأمثالها والكشوثى التى تنبت على غيرها والحيوان أدناه الحلزون وهى دودة فى جوف أنبوبة ، وتلك الأنبوبة تنبت على الصخر فى سواحل البحار فليس لها إلا حاسة اللمس ومثلها سائر الدود وأعلاه ما أشبه الانسان فى شكله كالقرد أو ذكائه كالفيل أو أدبه كالفرس ، ولأعد لك الدائرة كرة أخرى ، وهاهى ذه :

الله

الملك . الانسان . القرد والفرس والفيل . العناصر . الشب والزاج . الياقوت والذهب

هذه هي الدائرة المنظمة التي أوضحها الفلاسفة والحكماء وجعلوا أولها مرتبطا بآخرها وذكرها القرآن مرتبين من يمين وشمال ؛ إن هذا القرآن نزل إلى أمم أرقى ممن جاءوا في الأعصر الأخيرة ، ألم يكن منهم رجل رشيد ؟ ألم يقم فيهم منذرون ؟ نعم جاء فيهم كبار الحكماء كابن رشد والرازي والغزالي وابن سينا والفارابي فكفروا بهم وكفروهم فأهلكهم أوروبا وطردتهم من الأندلس فرجعوا إلى الشرق خائبين ثم أرسل وراءهم الأوروبيين فدخلوا عليهم ديارهم ، فهاهم أولاء في ديارنا في مصر وفي شمال أفريقيا وفي الغرب حقا هكذا فعل الله ، لأن أمة نزل عليها هذا الكتاب وفيه نظام الطبيعة وزعم قوم أنه كفر تستحق هذا ، ياسبحان الله ! أيكون النظر في فعل الله كفرا ؟ أفيكون هذا النظام الجميل الذي هو عين الترتيب الذي رتبه العلماء كفرا ؟ أفلا نقول إن هذا هو جمال الله وهذه هي معرفة الله ، وبها حب الله وبها السيادة في الأرض والتسلط على أهلها ، ومن قرءوا هذه العلوم أحبهم ربهم لأنهم درسوا ما عمل ، وإذن يسلمهم قيادة الأمم على شرط أن يريدوا الخير لها ، فإن لم يريدوا الخير لها سلبهم ملكهم ، والمسلمون الأولون سلطهم الله على الناس لما كانوا خير أمة أخرجت للناس ، فلما طغوا وجهلوا وتنعموا أذلهم الله وجعل غيرهم خيرا منهم . والآن ظهر أن الأمم التي سلطها الله من الفرنجة قد طغت وليست خير أمة أخرجت للناس ، فها هو ذا يريد إرجاع المجد للمسلمين ويعلمهم سائر العلوم بطريق دينهم ، وهذا التفسير من الكتب التي أراد الله بها إنقاذ هذا الشعب من جهالة العمياء وضلالة الكتماء ونومة البلهاء فيصبح سائدا مرتقيا على أكثر الناس إن شاء الله .

إيضاح كلمات مضت في الدائرة

[خضراء الدمن] تكون في غبار يتلبد على الأرض والصخور والأحجار ثم تصيبه الأمطار وأنداء الليل فيصبح بالغدوات مخضرا وهو نبت كالزرع والحشائش ، فإذا أصابه حر الشمس نصف النهار جف ثم يصبح من غد مثل ذلك وهذه ، والنبات المسمى بالكمأة يكونان أيام الربيع في البقاع المتجاورة ويقال لخضراء الدمن معدن نباتي والكمأة نبات معدني .

[النخل] أقرب إلى الحيوان ، فهو نبات حيواني إذا قطع رأسه مات وقوة الذكورة منفصلة عن قوة الأنوثة وهاتان الصفتان للحيوان ، فجسمه نباتي ونفسه حيوانية ، والكشوثي نبت يتعلق بالأشجار ويلتف عليها وعلى الزرع والشوك فيمتص ويغتذى من رطوبتها .

[الحلزون] دودة تقدم تعريفها قريبا تخرج نصف شخصها من الأنبوبة وتنبسط يمنة ويسرة وتطلب مادة تغتذي بها فمتى أحست برطوبة انبسطت وإذا أحست بخشونة انقبضت ودخلت في الأنبوبة وليس لها إلا حاسة اللمس .

[القرد] صورته تقرب من صورة الانسان ، والفرس قد بلغ من أدبه أنه لايبول ولا يروث مادام بحضرة الملك أو حاملا له ، وفي هذا التفسير ذكر (الحصان) الذي جمع وطرح وضرب وعرف النقود . وقال الشاعر العربي :

وإذا شكا مهري إليّ جراحه ... عند اختلاف الطعن له أقدما

لما رآني لست أقبل عذره ... عض الشكيم على اللجام وهمهما

هذه هي دائرة الوجود وفيها مجلدات ضخمة تدرس في الشرق والغرب ومنها اشتق مذهب (دارون) الذي جاء فيه الكلام على النشوء والارتقاء وأن العالم يسير إلى الرقي ولايبقى إلا الأقوى الخ ماهنالك .

اللطيفة الثانية فى البهائم والأنعام وما شاكلها وفى قوله تعالى « ويخلق ما لاتعلمون »

الأنعام كل ماله ظلف مشقوق كالبقر والجاموس والغنم والمعز ، والبهائم كل ماله حافر كالخيل والبغال والحمير ، والسباع كل مالها أنياب ومخاليب ، والوحوش ما كان مركبا من ذلك والطيور ما كان لها أجنحة وريش ومنقار ، والجوارح ما كان لها أجنحة ومنقار مقوى ومخاليب معقربة ، وحيوان الماء مايتم فيه وعيش ، والحشرات مايطير وليس له ريش ، والهوام مايدب على رجلين أو أربعة أو يزحف أو ينساب على بطنه أو يتدحرج على جنبه ، وفى هذه السورة من هذه الحيوانات الأنعام والبهائم والحشرات كما سيأتى عند الكلام على النحل ، وأما الطير ففى سور أخرى كالنور ويدخل فيه الجوارح .

قد ذكرنا فى تفسير هذه الآيات المختومة بقوله تعالى « ويخلق ما لاتعلمون » أن الله إنما ذكر هذه الجملة بعد الأنعام وركوبها لعلمه أنه سيخلق علوما بفهمها يركب الناس فى البر والبحر بلا دواب وبلا شراع للسفن وقلنا إن قوة البخار قامت مقام الدواب فى تيسير القطرات وفى إدارة الآلات النافعة للانسان فلأوضح هذا المقام بعض الإيضاح فأقول :

إن الدواب هى التى كانت تحملنا وحدها وهى التى بها نوصل البريد من بلد إلى بلد وندير الآلات الطاحنة والساقية لأرضنا فأرسل الله نورا من عنده على بعض العقول الانسانية فأظهروا للناس بعض العجائب فكان ما تراه من البخار الضاغط بارتفاعه من الحرارة الواصلة إليه فأجرى المركبات وأدار الآلات وفوق ذلك فتح الله للناس باب الكهرباء ، وقد ذكرناها فى أول سورة الأنعام مفصلة بحيث يكون عمود النحاس مع التوتيا يحدثان تلك الكهرباء بشرط أن يكون هناك سائل ملحى ، فهذه الكهرباء هى التى أتمت ما ابتدأه البخار فأدارت وحركت وسقت وأغنت ، فهذه مما ذكره الله بقوله « ويخلق ما لاتعلمون » بعد مسألة الأنعام . ولقد استبان للناس بعض السر فى الطبيعة وكلما زادوا علما ازدادوا غنى وسعة وراحة بحسب الظاهر واتصل الناس بعضهم فى أقرب وقت .

إن الكهرباء تحملنا كما يحملنا البخار وتوصل لنا الأخبار وذلك بالبرق (التلغراف) وبالمسرة (التلفون) فأصبح الانسان يكلم أخاه وأحدهما فى الشرق والآخر فى الغرب بل إنه فى هذه السنة أى سنة ١٩٢٦ م قد اخترعوا طريقة فى أواخر شهر (يوليو) بها يرى الانسان من يخاطبه حال مخاطبته ، وذلك أن صورة المتكلم يحول لونها إلى كهرباء تمر فى السلك ومتى وصلت تلك الكهرباء المحولة إلى الآخر وجدت أمامها حاجزا من الفوسفور فتحول بسببه الكهرباء إلى لون كما كان أولا فيراه ، ومعنى هذا أن وجه المتكلم متى أخذت صورته الآلة التى أمامه تحولت الصورة الضوئية إلى كهرباء بالخاصية التى فى الآلة وتمر فى السلك وهناك ترجع بالفصفور إلى حالها الأولى ، هذا آخر كشف للناس فى عصرنا وهذا من قوله تعالى « ويخلق ما لاتعلمون » .

نعم ! خلق الله ما لانعلم ، أليس هو الذى علم العالم الذى يسمى (فلطا) الكهربائى المولود سنة ١٧٤٥ المتوفى سنة ١٨٢٧ بإيطاليا كيف يستنتج من الضفدعة الميتة ارتقاء الكهرباء فى العالم ؟

رأى هذا العالم ضفدعة معلقة بعد موتها وساقاها يتشنجان كلما اتصل بهما شرارة كهربائية أو اتصل بهما معدنان فقال فى نفسه هذا سر عجيب يرقى صناعات العالم ، فماذا حصل ؟ صنع (بطارية) وذلك أنه أتى بكؤوس من الزجاج ووضع فى كل كأس منها قطعة من الفضة وقطعة من التوتيا ووصل كل قطعة من التوتيا من كأس بالقطعة من الفضة التى فى الكأس الثانية ووصل قطعة من التوتيا فى الكأس الأخيرة بقطعة الفضة التى فى الكأس الأولى وصب سائلا ملحيا فتولد من ذلك مقدار كبير من الكهربائية ، وبهذه تنقل الأخبار

(بالبرق و بالمسرة) أى التلغراف والتلفون ، ثم إنه صنع مايسمى (العمودالفلطائى) وجعل المعدنين بينهما نسيج ثخين يمتص السائل الملحى الذى يفعل بالمعدنين وجعله صفيحة من النحاس فوقها بعض من النسيج ثم من التوتيا ثم من النحاس ثم من النسيج وهلم جرا إلى الصفيحة الأخيرة وهى من التوتيا ، ولما وصلها بالصفيحة الأولى وهى من النحاس بسلك معدنى تولد مجرى كهربائى يدوم ما دام النسيج رطبا وهذا المجرى قوى جدا يهيج أعصاب الميت ويحرك أعضاءه حتى يظهر كأن الحياة عادت إليه كما تقدم فى الضفدعة ، فانظر كيف استنتج الانسان من تحرك ضفدعة بسبب معدنين التجأ إلى هذه الكهرباء التى تدير آلاتنا وتنقل أمتعتنا وتفسر لنا قوله تعالى « ويخلق مالاتعلمون » أى تفسر لنا هذا العطف أى عطف الجملة على الجملة التى فيها أننا نركب الخيل والبغال الخ فهذه هى البلاغة فالبلاغة فى الواو العاطفة تعرف بالبخار وبالعمود الفلطائى .

إننا فى الأرض نعيش فى وسط الجمال ونحن غافلون ، كيف نرى أمامنا نحاسا أوفضة أضيف إلى أحدهما التوتيا ووضع ملح بينهما فخرج من بينهما كهرباء ، فالتفاعل بين المعدنين قام مقام الخيل والبغال والحمير .

إشراق النفس الإنسانية تحلله الكهرباء والمغناطيس

عاش الانسان قرونا وقرونا وهو يمشى برجليه ثم اهتدى إلى تسخير الحيوان فى أعماله ثم زاد الانسان عقلا شيئا فشيئا ، الانسانية كلها أشبه بطفل ينمو قليلا قليلا ، سخر الله لنا الخيل والبغال والحمير فركبناها ثم :

(١) أخذ العقل الانسانى يتحرك فقال (طاليس) اليونانى الذى نشأ فى القرن السابع قبل الميلاد : إن جذب الكهرباء والمغناطيس نشأ من قوة روحية كامنة فيهما وحث تلاميذه على درس ظواهر الطبيعة ليعرفوا أسبابها .

(٢) ثم قام (ثيوفراستس) اليونانى المولود سنة ٢٧٣ ق . م .

(٣) وكذلك (بلينيوس) الايطالى المولود سنة (٢٣) ب . م المسيح فقالا : إن هناك حجرا آخر يجذب القش إذا فرك كالكهرباء ولعله منها أو من (الراتينج) ولم يزد أحد هذين العالمين على ذلك ، ولكن الثانى ذكر السمك الكهربائى المعروف بالرعاد .

(٤) وقال (لقريتيوس) الشاعر الرومانى فى نصف القرن الأول للمسيحى [إن المغناطيس يجذب برادة الحديد ولو كانت فى إناء من نحاس] .

(٥) وقال الصوفى من علماء العرب وهو جابر بن حيان [إن المغناطيس يفقد قوته أحيانا] .

(٦) وقال القزوينى فى عجائب المخلوقات [إن الكهرباء حجر أصفر مائل إلى البياض وربما كان إلى الحمرة] ومعناه جاذب التبن وهو يجذب التبن والهشيم إلى نفسه وهو صمغ شجر الجوز الرومى .

(٧) وأهل الصين تنبهوا لما فى المغناطيس من القوة وأنه يتوجه بنفسه الى الشمال والجنوب ، وقد صنع أحد ملوكهم إبرة مغناطيسية سنة ٢٦٣٤ قبل المسيح وبها يهتدون فى المفاوز والقفار وفى البحر ، اهتدوا بها سنة ٣٠٠ بعد الميلاد ، ههنا عرف الانسان كيف يستفيد من هذه الخاصية ، وانتقلت هذه البوصلة المفيدة إلى العرب فى القرون الأولى الإسلامية .

(٨) ثم جاء العالم (غلبرت) الانكليزى المولود سنة ١٥٤٠ فعرف أن خاصة الجذب المذكور بطريق الفرك تكون فى الزجاج والكبريت والشمع الأحمر والراتينج والماس الصغير وهكذا كل جسم متبلور وليست تكون فى المعادن ولا الرخام ولا الأبنوس والعاج والصوان والزمرد واللؤلؤ والمرجان ، هذا رأيه ولكن العلم بعد ذلك اتسع فعرف الناس أن الكهرباء تكون فى المعادن أيضا وغيرها .

(٩) ثم

(٩) ثم جاء (كولون) فى فرنسا المولود سنة ١٧٣٦ وابتدع طريقة قياس الكهرباء مثلا إن القوة إذا كانت تساوى رطلا واحدا على بعد قدم تصير ربع رطل على بعد قدمين وتسعة أرطال على بعد ثلاثة أقدام أى عكس مربع البعد فى المسافة .

(١٠) ثم جاء (كلفانى) من إيطاليا فى أواخر القرن الثامن عشر وعمل تجارب سنة ١٧٨٦ واتفق أنه علق عددا من الضفادع بصنابير من النحاس فى درابزون فرآها تشنج وظن أن هذه كهربائية حيوانية

(١١) ثم معاصره (فلتا) المتقدم ذكره وأخذ يبحث ٢٧ سنة حتى عرف أن الضفدعة المذكورة هى والخرقة المبللة متساويتان فى تأدية الغرض فاخترع العمود الكهربائى المتقدم ذكره المسمى (رصيف فلتا) وهو صفائح من النحاس (ن) والتوتيا (ت) مرصوف بعضها فوق بعض كما أوضحناه سابقا ، والنسيج قد يكون من الجوخ (ج) وهو مبلل بحامض أو بماء ملح ، فإذا بل الانسان يديه ولمس بأصبع يده الواحدة الصفيحة السفلى من الرصيف وبأصبع يده الأخرى الصفيحة الأخرى شعر بهزة عنيفة ، فهذه الهزة مبدأ تعرف به قوتها وهى التى تسرى فى أسلاك (البرق والمسرة) التلغراف والتلفون وتدير الآلات وتجرى السيارات وهاك صورة (رصيف فلطا) شكل ٩ :

ها نحن أولاء قد وصلنا من الكهرباء التى تجذب التبن إلى الكهرباء التى تحرك الأجسام العظيمة وتحمل الانسان فى البر والبحر وتقوم مقام الدواب ، هذا هو الذى أريد أن أقوله . أقول إن الله عطف قوله « ويخلق ما لاتعلمون » على خلق البغال والخيل الخ ليشير إلى أن استعمالنا للدواب سيخلفه شئ لانعلمه ، وهانحن علمناه .

اللهم إنا علمنا ، علمنا يارب ما خزنته فى الأجسام من عجائب الكهرباء ، خزنته لنا ونحن أطفال ، فلما ترعرع نوع الإنسان كشفت له عن خزائنك العجيبة وأريته الكهرباء وحملته عليها فى البر والبحر ، اللهم إن المخترعين كانوا من الصين والعرب أولا ومن أوروبا ثانياً والناس كلهم عبادك فانتفع الناس جميعهم مما اخترعه بعضهم ، اللهم إن الانسان اليوم لايزال طفلا جهولا يخدم بعضهم بعضا وهم لايشعرون ، الانسان ارتقت مدنيته المادية بنبوغ عقله فنتائج العقل قامت مقام الدواب ، والعقل عرف بهدايتك وهدايتك تأتى بالتدريج ، هذا هو الذى يشير له قولك فى التنزيل «وعلى الله قصد السبيل» بعد قولك «ويخلق مالاتعلمون» فالسبيل العدل والطريق المستقيم عليك أنت ، ولن يسلك السبيل المستقيم إلا بالعقل الذى لايهديه إلا أنت ، فإذا قلنا « اهدنا الصراط المستقيم » فقد أجبتنا إلى ذلك بأنك تهدى إلى قصد السبيل ، خففت عن الدواب بما فتحت على عقول الناس من خزائنك فى الأرض كالفحم الحجرى وخزائنك فى الأجسام من الكهرباء فاستخرجها الانسان ؛ وكما استخرج الإنسان تلك المنافع من المادة يقدر أن يستخرج نظائرها من روحه ، إن الروح نزاعة إلى شرفها ومقامها الرفيع ، إن فى الناس عاطفة الخير وهم يودون لو يعرفون سر كل شئ ويحبون النظام والحكمة، وهذا الذى ظهر لهم فى الطبيعة سيغريهم بما هو أشرف وأكمل وهو استخراج ما كمن فى النفوس من الجمال والكمال .

عجبا ! فى الأجسام كهربائية قلبت ظهر البسيطة ، أفلا يكون فى نفوسنا ماهو فوق الكهربائية، ومتى ظهر سر الأنفس انقلب نظام النوع الانسانى وأصبحوا عالما ملكيا إنسانيا وزال مابينهم من الجهالات والعداوات .

أنت خلقت ما لا نعلم ضرفناه فنفعنا وذلك فى الماديات ، وسيكون بعد ذلك المعنويات والفضائل والقوى الخفية ، ذلك كله من قوله « وعلى الله قصد السبيل الخ » بعد ذكر خلق ما لا نعلم الذى ظهر سره فى الكهرباء التى قامت مقام الدواب من المنافع الإنسانية والمسلمون فى زماننا مكتفون بالقشور كأنهم فى القبور وكأنهم لم يقرءوا قوله تعالى « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » انتهى الكلام على اللطيفة الثانية .

جمال اللطيفة الثانية

وذلك فى ست فرائد :

(١) استخدام الكهرباء فى الزراعة .

(٢) وفى المرقب الذى لاسلك له .

(٣) وفى التلغراف والتلفون اللذين لاسلك لهما .

(٤) وفى الفلاح عندنا وعندهم .

(٥) وفى سفينة الصحراء .

(٦) وفى سفن الهواء والطيارات .

ولنبدأ بالكلام على (الفريدة الأولى) فنقول :

استخدام الكهرباء فى الزراعة فى مزرعة مستر (ماثيوز) العالم الزراعى الإنجليزى

(١) هو استعملها سبعة وستين استعمالا فى مزرعته .

(٢) هو استعمل مسقطا مائيا بعيدا عن المزرعة وهذا المسقط أنتج الكهرباء ، وحمل التيار إلى المزرعة بواسطة أسلاك حول بناياتها ، فمتى أراد أى عمل أمكنه أن يوصل أسلاك الآلة بالأسلاك العلوية من أى نقطة وكل الآلات التى تستعمل فى المزرعة تديرها محركات كهربائية تختلف قوتها باختلاف العمل الذى تؤديه .

(٣) مثل حلب البقر .

(٤) ومثل درس الغلال ومثل طحن القمح .

(٥) ومثل عمل الجريش .

(٦) ومثل عمل الزبدة وفصلها من اللبن .

(٧) ومثل غسل زجاجات اللبن وملئها باللبن وتغطيتها .

(٨) وبهذه الكهرباء أمكنه الحصول على النظافة والسرعة فى العمل .

(٩) تكاليف استعمال الكهربائية المسماة بالكيلوات تنير ماقوته (٤) شمعات مدة (٢٥) ساعة أو تخرج (٢٦٠) جالونا من اللبن أو تفصل (١٦٥) رطلا من الزبدة أو تطحن مبلغا كبيرا من القمح .

(١٠) يربى الدجاج بطريقة الكهربائية فيضىء بيت الدجاج فى ليل الشتاء بجهاز كهربائى ويكون نورا ضعيفا يشبه نور الفجر فيستيقظ الدجاج ثم ينيرها نورا كاملا فتأكل الغذاء المعد لها ثم يضعف النور كضوء الشفق فيرجع الدجاج إلى أماكنه ، ونتيجة هذا أن البيض فى زمن الشتاء يكون من الدجاجة الواحدة من ٣٠ بيضة إلى ثمانين بيضة ، ولا جرم أن الشتاء فيه البيض أغلى منه فى زمن الصيف وهذا ربح عظيم .

(١١) وهناك جهاز كهربائى للتفريخ سعته ٢٢٤٠ بيضة وبواسطة هذا الجهاز الكهربائى يمكن ضبط درجة الحرارة ويحصل له ٨٣ فى المائة من البيض أى إنها تفرخ .

(١٢) لوازم المنزل من الماء الساخن بواسطة الكهرباء .

(١٣) والتدفئة فى كل الغرف بالكهرباء .

(١٤) والطبخ بها .

(١٥) والغسيل بها .

(١٦) وعمل الثلج بها .

(١٧) وتنظيف الأبسطة .

(١٨) يصل لكل غرفة جهاز لاسلكى به يسمعون النغمات والأخبار .

(١٩) جهاز لتسوية الحشائش يدار بالكهرباء وقصها كذلك .

(٢٠) بالكهرباء تنمو الأزهار فى بيت زجاجى فيه كهرباء قوتها ألفا شمعة وهذا يؤثر فى الأزهار فتفتح فى أربعة أيام بدل أربعة أسابيع .

(٢١) هناك أوان لغلى الماء وفرن كهربائى .

(٢٢) إذا طبخت السيدة طعاما فليس عليها إلا أن تسلط الحرارة على ماتطبخه بواسطة الزر الذى تضغط عليه ومعلوم الزمن الذى يتم النضج فيه فتذهب حيث تشاء وترجع فتجد الطعام قد تم نضجه .

(٢٣) النحل فى زمن الشتاء لايخرج فيضع له نورا خارج بيته فيخرج فيجد شرابا فيتغذى منه فيكثر العسل .

هذا ملخص ما لاحظه جماعة من إخواننا المصريين زاروا هذه المزرعة . رجعنا إلى تفسير الآية ، عجائب القرآن وبدائعه ، هذه هى الكهرباء وهذه نتائج أعمالها .

ههنا لنا الحق أن نبدى عجبنا من القرآن ، وأى عجب أكبر مما نرى ؟ ، يقول الله فى الآيات السابقة « والأنعام خلقها لكم » الخ فجعل منها منافع كثيرة كالدفء والأكل والحمل إلى البلاد البعيدة والزينة ، هذا كل ما ذكره القرآن للبهائم والأنعام ، فالمنافع فى الآية عامة وفصل منها أربعة ، أما الخيل والبغال والحمير ففيها الركوب والزينة فحسب ، أفلا تعجب كيف أعقب هذه الآيات بقوله « ويخلق مالاتعلمون » يعنى والذى لاتعلمونه وهو ماسيخلقه جعله لتأكلوا منه ويكون دفأ ويحملكم إلى بلاد أخرى وزينة ، هذه هى الحكمة فى عطف هذه الجملة على ما قبلها وإلا فلماذا لم يذكر ذلك إلا هنا ؟

يقول الله خلقت هذه الحيوانات للمنافع المذكورة وسأخلق ما يقوم مقامها ونعطيكم نفس هذه المنافع وذلك منه الكهرباء المذكورة ، ألم تر أن المزرعة المذكورة قد كانت الكهرباء فيها سبب ظهور الأزهار بسرعة وسبب كثرة البيض بتغذية الدجاج ليلا على ضوء الكهرباء ، فإذن الكهرباء زادت البيض وزادت أيضا فى لحوم الدجاج ، ثم إن نورها مدهش وجميل فهو زينة وهى تسير القطرات إلى المسافات البعيدة بعد الخيل والبغال والحمير والإبل وهى تدفىء كما تقدم وفيها منافع كثيرة غير ما ذكر ، فإذا أخذ الناس من جلود الأنعام نعالا مثلا ومن أظلافها غراء ، فههنا أتت الكهرباء بمنافع وافرة ؟ كالغسل والطبخ وغيرها مما تقدم .

هذا هو بعض الأمر الذى تضمنه قوله « ويخلق ما لاتعلمون » علم الله أن العالم سيصبح فيه أعمال غير ما يعرفه الناس سابقا فأتى بهذه الجملة ليعرف المسلمون أن نعم الله ليست خاصة بما كان ظاهرا زمن النبوة بل هناك من أنوار الله ماهو مخزون وسيظهر وقد تم ، ولاجرم أن هذا التفسير على هذا النمط لم يقله المتقدمون وذلك لأن الله لم يظهره إلا فى هذا الزمان فلما ظهر أظهرناه ، وإنما أظهرناه لأن الله هو الذى أسس ذلك

فى قرار مكين فجاء بهذه الجملة عقب الحيوانات النافعة ليقول لنا إن الذى سيخلق ولا تعلمونه يقوم مقام تلك الحيوانات النافعة .

عجائب الأنوار الربانية

أفلا تعجب معى من المادة كما تعجب من القرآن ! المادة التى نعيش فى وسطها هى الأرض وما عليها ظاهرها أنها لاشئ فيها سوى هذه المحسوسات ولكن ظهر بهذه الكهرباء أنها متدخلة فى جميع أجزاء الأرض والهواء ، هى فى كل شئ غاية الأمر أنها ضعيفة فى شئ قوية فى آخر .

نحن نعيش فى عالم كله جمال ، وكيف لايكون ذلك وقد ثبت عند قوم أن الأرض نفسها وكل ما عليها إن هى إلا كهرباء متجمدة : أى إن هذه المادة أصلها هى الكهرباء ومتى استعملنا عقولنا فى استخراجها ظهرت لنا ، فهانحن أولاء نوصل معدنين ببعضهما كالنحاس والتوتيا ونؤلف بينهما بسائل ملحى فعندئذ تظهر الكهرباء التى هى أصل هذه المخلوقات، والكهرباء المذكورة تنقلب ضوءا وحرارة ونورا كما هو مشاهد فالضوء يشتق من الكهرباء وكذا الحرارة وكذا الحركات فكل إلى كل ينقلب ، إذا ثبت هذا فالكهرباء كامن فيها النور أو هى نور مخبأ عن الأعين يظهره التفاعل .

« الله نور السموات والأرض » فهو منورهما بل هو منور كل حجر وكل صخرة وكل جبل من داخله وإن كان فى ظاهره مظلما فى حالك الليل المدلهمّ ، لماذا هذا ! لأن الكهرباء متدخلة فى أجزاء جميع الأشياء والمواء والكهرباء ضوء ، فالنور فى كل شىء وإن كان كامنا .

خلق الله الحيوانات فانتفعنا بها ثم قال أنا أريحكم وأريح الحيوان فارجعوا إلى النور الذى دفنته فى المادة وخزنته فاستخرجوه فإنه يقوم مقام هذه الدواب قال تعالى « الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درىّ يوقد من شجرة مباركة زيتونة لاشرقية ولاغربية يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شىء عليم » .

ولا جرم أن نور الكهرباء يكاد يضىء ولو لم تمسسه نار وهو يوقد من مادة العالم العامة وهى لاشرقية ولا غربية ، فإذا أوقدت كانت نورا على نور ، ولا جرم أن نور الكهرباء لم يهتد الناس له إلا بهدى الله ، هكذا العلم لايهتدى الناس له إلا بهدى الله وسيأتى تفسير الآية تاما ، ولنكتف هنا بما ذكرناه ، والحمد لله ربّ العالمين .

الفريدة الثانية : المرقب الذى لاسلك له ، أدهش اختراعات هذا العصر

قلنا إن الكهرباء خلقها الله وكان الناس لايعلمون وإن فيها منافع كثيرة قدمناها وآخر ما كشفه الناس أن يرى الإنسان أخاه على أبعاد شاسعة : أى أنه كما يسمع كلامه يرى وجهه ، وهذا مقال جاء فى بعض المجلات العلمية سنة ١٩٣٦ ونصه :

أدهش اختراعات هذا العصر . هل وصل العلم إلى آخر درجات رقيه ؟

وهل أكمل المخترعون كل ما يدور فى مخيلتهم من الاختراعات المدهشة ؟

نحن الآن لانزال فى بدء عصر اللاسلكية ، واللاسلكى لايزال يفاجئنا كل يوم بأمور عجيبة مدهشة ، فقد كنا منذ بضع سنوات يوم كمل اختراع التلغراف اللاسلكى نعتقد أنه سيكون خاتمة اختراعات البشر ، فما لبثنا أن رأينا بعده التليفون اللاسلكى ثم الفوتوغرافية اللاسلكية ، وهانحن نشهد اليوم اختراعا أدهش من كل ما تقدم ونعنى به (المرقب اللاسلكى) .

ذكرنا من قبل أن بعض علماء الفرنسويين اخترع مرقبا لاسلكيا لرؤية الأشباح عن بعد وهو ماعبر القوم عنه بلفظة (تليفريون) وشرحنا بالإيجاز مابين هذا الاختراع واختراع الفوتوغرافية اللاسلكية من الفرق ، وذلك أن الفوتوغرافية اللاسلكية تنقل الصور أو الأشباح الثابتة عن بعد كأن تنقل مثلا صورة رئيس الجمهورية الفرنسوية وتبرزها على ستار خاص ، وأما الاختراع الذى نحن بصدده فهو ينقل الأشباح المتحركة بجميع دقائقها، فهو إذن أشبه بسينماتوغراف لاسلكى ينقل الحوادث والأشخاص كما هى ويبرزها لعين الناظر بجميع دقائقها .

وقد اطلعنا الآن على خبر فى إحدى المجلات الأوروبية مؤداه أن شابا إنجليزيا يدعى المستر (بيرد) وقد أنجز اختراع (المرقب اللاسلكى) بحيث صار فى متناول الجميع ولكن المخترع لايزال يعمل على تحسينه وإتقانه وهو يعتقد أنه لن تمر سنة من هذا التاريخ حتى يستطيع كل امرىء أن يقتنى مرقبا لاسلكيا بثمن لايزيد على ثلاثين جنيها فيستعمله فى منزله كما يستعمل التلفون ويمكنه بواسطته أن يرى أشباح الذين يخاطبهم وأشباح غيرهم ولو كانوا فى أقصى المعمورة ، ولا ريب فى أن هذا الاختراع سيحدث انقلابا خطيرا فى عالم الاجتماع وسيؤدى استعماله إلى تغيير كثير من أنظمة العمران وليس ذلك فقط بل سيقلب القوانين المدنية والجنائية والحربية رأسا على عقب .

تصور قائدا من قادة الجيوش جالسا فى معسكره بمركز القيادة العامة فقد كانت خططه الحربية حتى الآن تتوقف على الأنباء التى يتلقاها من مختلف الميادين ، أما الآن فبواسطة (المرقب اللاسلكى) يستطيع أن يقف على مجرى القتال فى كل جهة ويكيف خططه وحركاته على مقتضى ذلك .

وكذلك الأمر فى أصحاب المهن والصناعات المختلفة فإنهم يستطيعون وهم جلوس فى منازلهم أن يشاهدوا بالمرقب اللاسلكى كل ما يرومون مشاهدته وأن يكيفوا أعمالهم بموجب ذلك .

ومما يجدر بالذكر أن العلماء قد كانوا يعملون على إنجاز الاختراع الذى نحن بصدده منذ عشرين سنة ولكن أعمالهم لم تكلل بالنجاح إلا فى الشهر الفائت إذ أتيح للمستر (بيرد) أن يكمل هذا الاختراع ، وقد سماه (التليفيزور) أو (المرقب اللاسلكى) وسجله ثم عرضه على وزارة المواصلات فى انجلترا فأصدرت مصلحة البريد رخصتين باستعمال هذا الاختراع بقصد مواصلة التجارب ، وهاتان الرخصتان هما للمستر بيرد نفسه وللكابتن (هتشنسون) مدير شركة التليفيزور أى الرؤية عن بعد ، وقد أنشأ هذان محطة للمراقبة اللاسلكية وهى أول محطة فى العالم من نوعها .

ومما يجدر بالذكر أنه بينما كان بعض أصحاب التليفون اللاسلكى واضعين سماعاتهم على آذانهم فى (لندن) سمعوا أزيزا غريبا يقاطع الأصوات التى كانوا ينصتون لها ثم ثبت بعد ذلك أن الأزيز ناشىء عن مرقب المستر (بيرد) اللاسلكى فإن هذا المرقب يحدث عند بثه الأمواج اللاسلكية أزيزا يسمعه الذين ينصتون إلى سماعة التلفون اللاسلكى .

وقد أجرى المستر (بيرد) عدة تجارب أثبت بها فائدة اختراعه . وشهد الكثيرون من العلماء نتيجة ماقام به من الخدمة للعلم ، فهو قد قرب الأبعاد ومزق الحجب التى كانت تستر الناس بعضهم عن بعض .

والمرقب اللاسلكى لايريك الشبح بشكل صورة فوتوغرافية فقط بل يريكه فى جميع حركاته وسكناته، ويريك أيضا بعض ألوان الشبح الطبيعية ولاسيما الأحمر والأزرق ، على أن المخترع لايزال يوالى تحسين اختراعه ليتمكن من إظهار جميع الألوان الطبيعية وظلالها ، وهو شديد الثقة بقرب نجاحه بحيث يتمكن الجمهور من استعمال المرقب اللاسلكى فى خلال العام المقبل .

وهذا المرقب شبيه جدا بآلة التلفون اللاسلكي ويختلف عنها بكثرة ماله من العدسيات وهذه العدسيات تتناوب على نقل جزئيات الشبح المراد مراقبته وتناوبها هذا يتم بسرعة تفوق حد التصور وهى تعكس جزئيات الشبح على الآلة القابلة كما تعكس آلة (السينما) جزئيات الأشباح على الستار فتظهر من مجموعها صورة كاملة ، والمجال لايسمح لنا بوصف دقائق هذه الآلة الغريبة ولكن استعمالها على ما يظهر بسيط جدا وهنالك صعوبة فنية يحاول المخترع تذليلها وهى أنه عند انطباع الشبح المتحرك يحدث ارتجاج يتعب البصر ، وقد كان السينماتوغراف أيضا كذلك فى أول أمره ثم تمكن مخترعوه من إزالة ذلك النقص والمستر (بيرد) شديد الثقة بأنه سيتغلب على هذه الصعوبة ويعتقد أنه لن تمرّ بضعة أشهر حتى يتمكن من إزالتها بتاتا ، قلنا إن المرقب اللاسلكي سيحدث انقلابا عظيما فى عالم الاجتماع إذ سيمكن المرء من رؤية كل مايجرى فى هذا العالم من دون أن يحرك ساكنا أو يخرج من منزله وسيكون هذا الاختراع أكبر مساعد على مراقبة اللصوص ومرتكبي الجرائم ، والعلماء ولاسيما علماء الفلك يرجون منه نفعا خصوصيا لأنه إذا أتيح لهم رؤية الأشباح عن بعد ألوف من الأميال فسيتمكنون بلا ريب من رؤية ما يقع على أبعاد شاسعة : أى فى الأجرام السماوية المختلفة . وبعبارة أخرى : إنهم قد يستطيعون بفضل المرقب اللاسلكى رصد الكواكب والأفلاك للتحقق من وجود الخلائق الحية فيها ، فإذا تمّ ذلك فسيكون (المرقب اللاسلكى) أعظم اختراع أتيح للبشر إتقانه .

الفريدة الثالثة : غرائب التلغراف والتلفون اللاسلكى

أنبأ المستر (فردريك كلاواى) مدير شركة (ماركونى) فى خطبة فاه بها فى (تشلمسفورد) بالخطوات العظيمة التى يخطونها فى ترقية التلغراف والتلفون اللاسلكى فى العالم فى القريب العاجل ، وقال إن النجاح التجارى الذى نجحته محطات (بيم) التى تنقل الرسائل بين الشرق والغرب فاق أعظم ما كان يؤمله لها المؤملون علاوة على أنه أجريت فى الأربع والعشرين ساعة الماضية تجارب جهاز (بيم) مع استراليا ، ومن رأى الثقات فى مصلحة البريد أن عهد شركة (مركونى) قد نفذ (هتاف) .

وأنبأ المستر (كلاواى) أيضا بأن محطات التلغراف اللاسلكية التى سترتبط جميع أجزاء العالم بعضها ببعض ستكون على قاعدة نظام (بيم) وعما قريب سيتناول الواحد منكم سماعة التلفون ويخاطب والده أو أخاه فى ملبورن وأتوى ، وقال إننا نقترب من فكرة نقل الرسائل كما هى طبق الأصل فبدلا من أن ينقل العامل الرسالة اللاسلكية على مفتاح الآلة توضع هذه الرسالة فى الجهاز الذى يرسل الإشارات فتدون بطريقة ميكانيكية وبعملية واحدة فى الطرف الآخر من المعمورة فى أى ناحية كانت من أنحاء العالم وهذا مما لايكاد تقدر فائدته من الوجهة التجارية ، انتهى .

الفريدة الرابعة . الفلاحة والكهرباء ، الفلاح عندنا وعندهم

فى هذه الفريدة أعطيك أيها الذكى صورة الفلاح عندنا والفلاح فى أوروبا .

الفلاح عندنا بمصر يسقى زرعه بآلات ورثها عن آبائه منذ آلاف السنين مثل الشادوف والساقية والمحراث المعتاد وما أشبه ذلك ولا يحصل ما يحتاج إليه إلا بشقّ الأنفس ، أما الفلاح فى أوروبا فقد فاق أجداده فى الزراعة أربع مرات ، ومعنى هذا أن الحقل الذى كان يحتاج إلى أربعين رجلا منذ ثمانين عاما أصبح اليوم لايحتاج إلا إلى عشرة رجال ومع ذلك تسمع الأوروبيين يقولون إن الفلاح عندهم متأخر ، لماذا ! لأن صناعة الحديد مثلا قد تضاعفت عشر مرات عما كانت عليه منذ أربعين عاما ، أما صناعة الورق

قد صارت أضعافا مضاعفة ، فلذلك يقولون يجب على علماء الكهرباء أن يسعفوا الفلاحين كما أسعفوا الصناع ويقولون إن الفلاح يحتاج إلى ثلاثين فى المائة من أعماله للأعمال الثابتة مثل رفع المياه وحلب البقر وإلى ٢٠ فى المائة منها لأعمال النقل والحمل ، وإلى ٥٠ فى المائة العمل فى الحقل ، فأما الأعمال الثابتة المذكورة فإن الكهرباء تقوم بها بدل الدواب والرجال ، وأضرب لك مثلا : عندهم مقدار من الكهرباء يقال له (الكيلوات) وهذا المقدار فى الساعة ثمنه مابين مليمين و١٢ مليما فى اليوم الواحد ، أتدرى ماذا يفيد هذا ؟ إنه يقوم فى الحقل مقام عمل الرجل بالشادوف مثلا سبع ساعات .

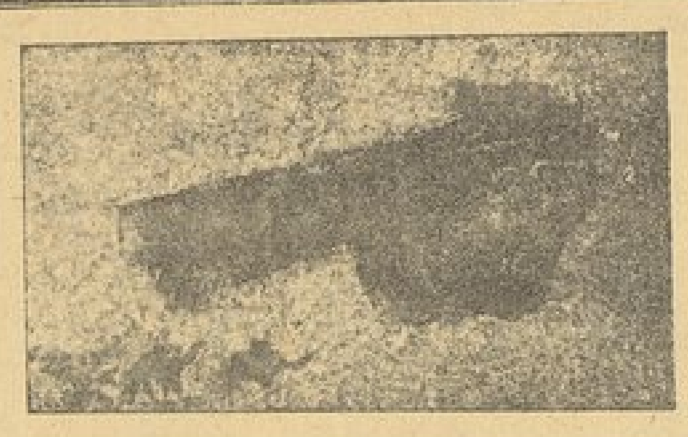
ولقد وجد القوم هناك أن المعامل التى تصنع العدد والآلات الكهربائية فيها (٧٥) فى المائة مما يصنع فيها من الحجم الصغير إنما يكون للأعمال الزراعية ، ولقد وجدوا أن للنور تأثيرا فى زيادة عدد بيض الدجاج فاستعملوه فنجحوا ، وقد برئ الدجاج من أمراض مختلفة بنور الكهرباء وهكذا أثرت الكهرباء فى دودة الحرير فأعطت بواسطتها ألوانا غريبة مدهشة .

أما أعمال النقل والحمل التى تحتاج كما قلنا إلى ٢٠ فى المائة فهذه معروفة فى جميع العالم وقد عمت الكهرباء سككا حديدية كثيرة فى العالم .

أما الخمسون فى المائة الأخيرة فهى تنحصر فيما يعمله الفلاح من حرث للأرض وتمهيد الخ ، ثم جمع المحصول وحصده أو درسه أو تجفيفه كما يحصل فى البلاد الباردة فإن هذه الأعمال فضلا عن تعذر أدائها بواسطة الثيران والبقر فى البلاد التى يندر فيها وجود الأرض المستوية مثل سويسرا والسويد والنرويج وأواسط أوروبا عموما ، فإن فائدة الآلات الحديثة تظهر جلية واضحة فى البلاد المستوية أيضا وذلك لسرعة هذه الآلات وقلة مصارفها . ثم إنه لم يفكر فيها أحد من أغنياء فلاحينا مع أن منهم الشباب الذى مضى فى أوروبا سنين عديدة ويمضى الصيف فيها كل عام حيث يمرّ بشمال إيطاليا وسويسرا وفرنسا وبلجيكا وهولاندا ويرى الآلاف من هذه الآلات فى كل مكان .

هذا زيادة عما أتت به التجارب العديدة من إمكان قتل بعض المكروبات والأمراض التى تفتك بالزرع بواسطة الكهرباء مما استغنى عن التبخير وغيره وهذه منة منّ بها الله على الفلاح وقدر سبحانه أن يحرم منها فلاحنا كما حرم غيرها من المميزات .

وقد شاع استعمال الأنوار الكهربائية المختلفة لإعطاء الأزهار ألوانا غريبة غير طبيعية أو تنمية بعض الأزهار فى غير أوقاتها العادية من السنة وذلك بالتدفئة والمعالجات المختلفة ، وقد نجحت مسألة التنمية الصناعية فى الزهور حتى أن الزهور التى تستلزم لإتمام نموها فى الطبيعة ثلاثة أسابيع أو أربعة تنمو بمثل هذه الطرق فى أربعة أيام إلى سبعة فقط مع حفظها لرائحتها ورونقها انتهى .



(شكل ١٠)

القريدة الخامسة : سفينة الصحراء

سيارة هائلة تسع ٣٠٠ مسافرا وفوق ذلك كثير من البضائع

الكرة الأرضية فى تقلص ظاهرى مستمر مابقى الاختراع وما دامت الصناعة تتغلب على المكان والزمان فتجعل ممكنا غدا ماهو غير محتمل اليوم ثم تحقق هذا الممكن بعد الغد وتلك القاطرات والسفن والسيارات والطيارات تربط جهات العالم من أقصاها إلى أقصاها ، غير أن مالم يكن فى متناول تلك الوسائل لبث كما كان معتمدا على وسائل النقل الأولية فبقيت قوافل الجمال فى فلوات الرمال التى لانهاية لها وظلت عربة الريف الروسية العتيقة تسير فى قفارا كرانيا وسيبريا، ومن ثم بقى من الأقاليم القابلة للاستعمار أراض واسعة الأرجاء وبقاع مجهولة جعلت وقفا على الرحلات العلمية الشاقة ، لكن الصناعة التى لم تعوزها الحيلة إلى التقدم المضطرد تريد اليوم التوغل فى الجهات التى ظلت مجهولة، فقد توصل (ستروين) لأول مرة بمساعدة عرباته المصنوعة على طراز (التسكس) إلى تذليل مخاوف الصحراء ، واليوم يبشر اختراع ألمانى جديد باجتياز طرق البر التى مازالت مغلقة فى وجه الحضارة البشرية وما إلى ذلك من وصل طرق الصحراء وصلا اقتصاديا بواسطة سيارة ضخمة ، فسفينة الصحراء عبارة عن سيارة هائلة توصل إلى بنائها الضخم بمعاونة نفر من المهندسين وأصحاب المصانع مخترع ألمانى يدعى (يوهان كرستوف بيشوف) فى مدينة كيل بعد مجهود سنين عديدة ، ويبلغ عرض هيكل هذه السيارة (١٢) مترا وطولها لايقل عن (٦٠) مترا وارتفاعها (١٨) مترا .

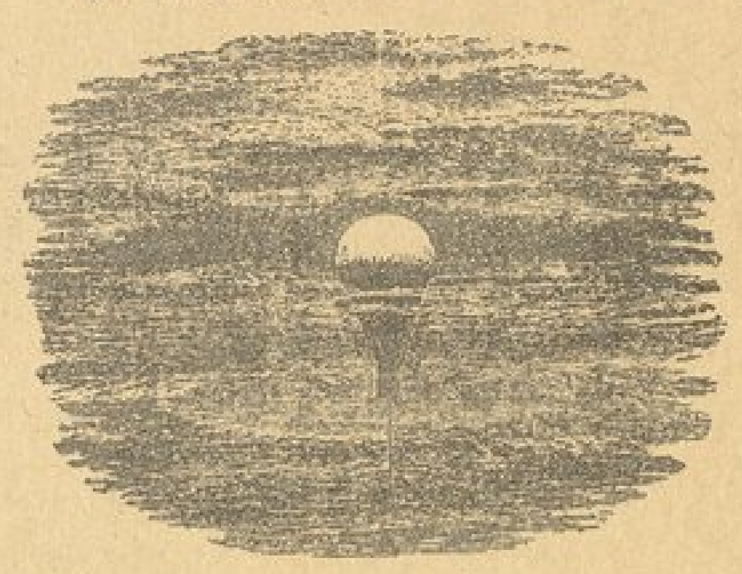
أما العجلات الهائلة فيبلغ قطرها (١٥) مترا وعرض سطحها ٢½ متر ويعلو قرار (الشاسى) عن الأرض بمقدار ٤½ متر والسيارة معدة فى تركيبها بأحدث مبتكرات الصناعة التى تجعلها غير مقيدة بالسير فى الطرق الممهدة وحدها بل تجعلها فى حل من التغلب على وعر الأراضى كما تستطيع أن تسير على الأرض المستوية وعلى التلال الخفيفة الانحدار على السواء بسرعة (٣٠) كيلومترا فى الساعة وتصل سرعتها فى أوعر المسالك إلى (١٠) كيلو مترات فى الساعة ، وأهم مزايا (سفينة الصحراء) العملية إمكان الانتفاع بحمولتها العظيمة بالنسبة لحجمها فهى إذا بنيت لغرض نقل الأثقال تسع (٢٠٠) طن من البضائع ، وإذا بنيت لنقل المسافرين فإنها تحمل (٥٠) طنا ونحو ثلثمائة مسافر معدة لهم جميع وسائل الراحة المتوفرة فى السفن البخارية التى تقطع البحار .

القريدة السادسة : السفر فى الهواء

وذلك بآلات أخف من الهواء أو بأثقل منه، فالتى هى أخف من الهواء نوعان (البالون) أى المنطاد

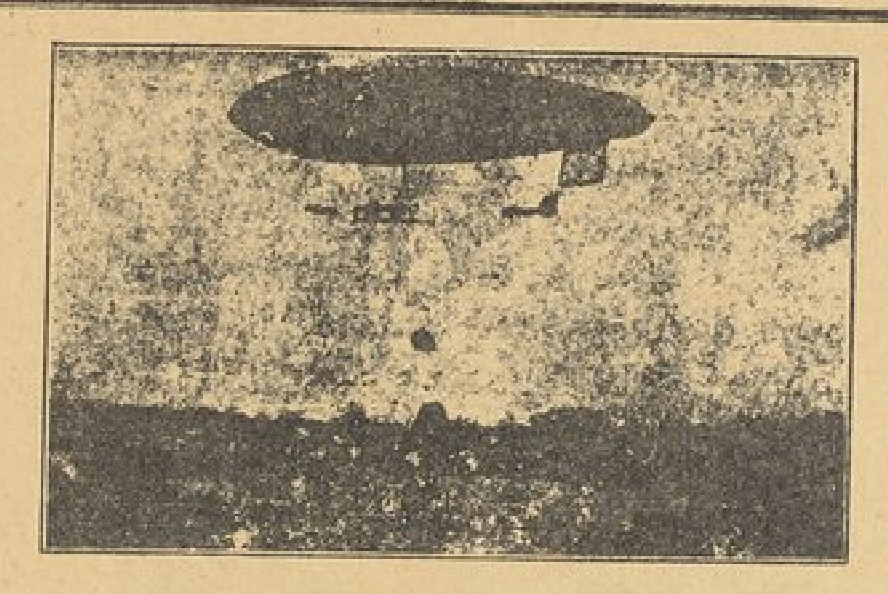
وسفينة

و (سفينة الهواء) أما المنطاد فهو كيس من الحرير مدهون بالزيت بشكل (الكمثرى) مملوء بأحد هذين الغازين (الهيدروجين) وغاز الاستصباح وكلاهما أخف من الهواء ، وهذا الكيس الحريرى مغلف بشبكة من الحبال معلق فيها سفط يسع من اثنين إلى (٤) من المسافرين وهو لا يمكن ضبطه فى السير فهو يجرى على حسب الريح وقد جرى ألف ميل بلا توقف من (باريس) إلى قرب (موسكو) .



(المنطاد . شكل ١١)

أما (سفينة الهواء) فإنها كيس مملوء بغاز الاستصباح مثل (البالون) ولكنه على شكل لفافة الطباق (السيجارة) وهى مقسمة إلى جملة أماكن ، وهى تارة تكون مكونة من معدن خفيف هو (ألومنيوم) قد ثبتت فيه عربة طويلة تحمل مسافرين وآلة محركة مثل التى فى السيارة (الأوتوموبيل) وهذه المكنة لها رافعة تدور بسرعة عظيمة ، وسفينة الهواء يمكن ضبطها فى السير إذا هدأت الرياح ولكنها تكون صعبة المراس إذا عصفت العواصف ، إن العاصفة يمكن أن تمزقها تمزيقا شديدا ، ويمكن أن تحمل من (٢٥) إلى (٣٠) مسافرا فى عربتها وترفع (٤٠) طنا وقد أمكن السفر بها (٩٠) ميلا فى ساعة واستمرت سائرة (٥٠٠) ميل بلا توقف ، انتهى الكلام على سفينة الهواء شكل ١٢ .



(سفينة الهواء — شكل ١٢)

والآلة المحركة التى هى أثقل من الهواء المسماة (ألواح الهواء) ثلاثة أنواع

أما الأولى فهى ليس فيها غاز استصباح وإنما هى مصنوعة من سطحين من القماش الغليظ المتين فوق إطار مصنوع من أنابيب الفولاذ وهذه لها ألواح صغيرة رافعة تديرها إلى الجهات المختلفات ، وهى تحمل آلة بخارية ومحركا مثل ما تقدم فى (سفينة الهواء) ولها عجلات تمشى بها على الأرض قبل استقلالها بالطيران وبعد نزولها إلى الأرض وتحمل من (١) إلى (٤) من الركاب فى حجمها الذى يشبه القارب فى البحر ، وتجرى هذه من (٤٠) إلى (٩٥) ميلا فى الساعة ، ولقد أجراها بعضهم (٤٠٠) ميل بلا توقف وبلغ سيرها فى ثلاثة أيام (١٠٠٠) ميل ، وهذه صورة الأولى من ألواح الهواء شكل ١٣ .

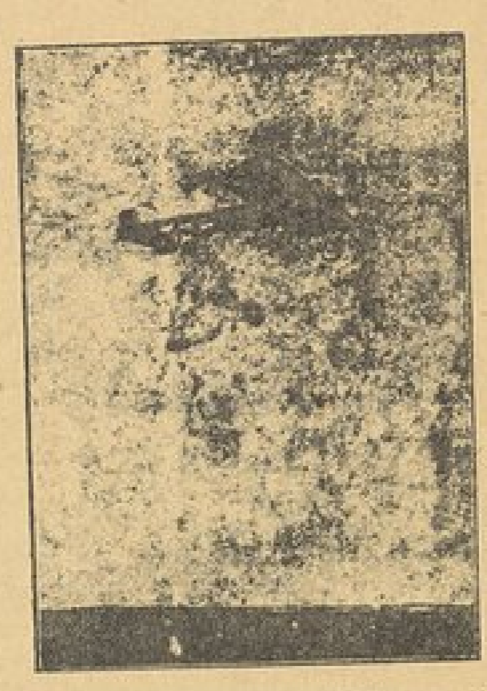


(صورة الأولى من ألواح الهواء — شكل ١٣)

أما الثانية من (ألواح الهواء) فهى كسابقتها ولكنها لها عوامة كعوامة السفينة بدل العجلات فيمكنها أن تنزل فوق البحر وترفع ثانيا وهى تبنى على أية حجم بحيث لايكون مايضرها بكسر فتكسر وقد طار

بها بعضهم من فوق الدردنيل ، وقد جرى فوق البحر وهو هائج جدا بالعواصف فى القنال الإنجليزى وطلع منه ثانيا وهو يجرى (٦٠) ميلا فى الساعة .

(الثالث) واحدة السطح هى مثل ماقبلها ولكن لها سطح واحد وحجم هذا النوع أشبه بحجم حشرة تسمى (طائر الثعبان) له آلة بخارية ومحرك مثل الذى فى سفينة الهواء وببلين وعجلات للجرى على الأرض وتحمل من ١ إلى ٤ رجال وتجرى ٩٠ ميلا فى الساعة وجرى من باريس إلى وارسو فى يوم واحد وهذه صورته :



(صورة ذات السطح الواحد — شكل ١٤)

هذا إجمال ما تقدم تفسيرا لقوله تعالى « ويخلق ما لاتعلمون »

اعلم أيها الذكى أن هذا بيان لما اخترعه الناس فيما بعد العصر الأول للركوب الذى دخل فى قوله تعالى « ويخلق ما لاتعلمون » قد كان السير قديما بالأقدام أو ركوب الدواب ثم خلق الله مما لانعلم عجلات تجرى بالناس :

(١) مثل عربات النقل المعتادة كالذى يستعملها الباعة فى الطرقات .

(٢) وعربات الركوب تجرها الدواب .

(٣) وعجلات يركبها الناس يحركونها بأرجلهم تسمى (بسكلات) باللسان الأفرنجى .

(٤) والسيارات التى يسمونها (متركار) وهذه لها آلات محركات بالبنزين .

(٥) وعربات الترام الذى يجرى بالكهرباء .

(٦) قطار السكة الحديدية الذى يجرى بالبخار وتارة بالكهرباء ، هذا فوق الأرض .

السير فوق الماء

قد كان قديما بالسفن ونحوها سواء أكانت بالشراع أو بالمجداف ثم حدث البخار فسارت السفن به فى البحر كما سارت القطرات فى البر ثم السفن الجاريات بالآلات المحركات كما تقدم فى اليابسة وتسمى بالافرنجية (متربوتس) .

المـــواء

ثم حدث فى الهواء النوعان المتقدمان وهما نوع المنطاد ونوع الطيارة وقد تقدم شرحهما ، انتهى الكلام على اللطيفة الثانية وفرائدها الست » .

اللطيفة الثالثة

قد مضى فى هذا التفسير ذكر كثير من جمال النبات وبدائعه، ولأذكر لك هنا عجائب مدهشة منه محلية وتفصيلا وجمالا فأقول :

قد قرر العلماء كالعلامة الطبيب الطليانى المسمى (سانكتوريوس) فى بلاد البندقية وغيره أن مايقطر من العرق فى جسم الانسان يكون كيلوغراما واحدا فى اليوم والليلة ، فأما النبات فإنه يخرج ماء من أوراقه أكثر من عرق الإنسان بالنسبة لجسمه حتى إنهم وجدوا نبات عابد الشمس يزيد عن الانسان بالنسبة لجسمه فى العرق ١٧ مرة ، وقد وضع (كوتارد) غصنا لم يقطع من شجرته فى زجاجة وأحكم سدها على الغصن . وتلك الزجاجة من أسفلها قد دلى منها أنبوبا دخل فى زجاجة أخرى تحتها وتلك الشجرة يقال لها (القرانيا) فكان مقدار مايقطر من ذلك الغصن من الماء فى اليوم أوقية وثلاثة دراهم أى قدر وزنه مرتين ، وهل أريك أعجب من هذا : ؟

(١) شجرة الأروم يقطر من أوراقها قطرات ربما بلغ عددها بضع عشرات فى الدقيقة .

(٢) الشجرة الباكية : وهى شجرة فى جزائر الكناريا يتساقط منها الماء كالمطر فيجتمع عند ساقها ويستقى منه القوم الذين يسكنون حولها ويملئون من مائها جرارهم .

(٣) نبات الأباريق : إن أوراق هذا النبات ترسل من أطرافها زوائد تنتهى بأقداح اسطوانية لها أغطية تفتح وتقفل فى أوقات معينة ، وفى أثناء الليل ينطبق الغطاء على فم القدح فيسده سدا محكما والماء يتقاطر من جدرانه حتى يملؤه ، فإذا طلع النهار ارتفع الغطاء فشرب الناس منه وخرج الباقى بخارا ، وكم من أناس كادوا يموتون عطشا فى الصحراء فأنقذهم الله بسبب ذلك النبات .

(٤) أشجار فى غابات أمريكا : وهناك نباتات فى غابات أمريكا الجنوبية مثل هذه يشرب منها المسافرون عند الحاجة .

ياسبحان الله ! كيف رأينا العرق فى الإنسان دافعا عنه الأذى ؟ وفى النبات قد ارتقى قدرا ومنفعة فأصبح ماء نميرا يشربه الانسان ، فهذا نبات (الأباريق) كيف خلق له صحن اسطوانى فسد بالليل سدا محكما ، فإذا طلع النهار زال الغطاء وشرب منه الناس فى الصحراء وبه يحيا المسافرون .

أفلا تعجب معى من هذه الحكمة ؟ أفلا ترى كيف كانت العناية والحكمة شاملة حتى إن البخار الخارج من النبات كعرق الانسان لم يدعه الله بلا مزية لنا بل رقاه فى النبات كما رقى الحياة من أدناها إلى أعلاها ، ولما رقاه فى النبات جعله شراباً للمسافرين وحياة لكل حى ، أفلا ترى أن هذا كمسألة الكلام ؟ فإنا نتنفس كما يتنفس النبات والحيوان ، ولكن نفس النبات لا كلام فيه ونفس الحيوان فيه بعض المقاطع ، ونفس الإنسان كان منه الكلام وليس الكلام إلا حروفا والحروف من تقابل بعض أعضاء الفم فتقطع الصوت والصوت ليس إلا من الهواء الداخل لتصفية الدم ، فأصل المسألة كلها حياتنا بالهواء التى ثم أدخل على ذلك تحسين وتحسين حتى صار كلاما عند الحاجة ، هذا وكذلك العرق كان عندنا إخراجا لما يضر بأجسامنا ثم هو فى النبات الذى هو أدنى منا يكون ماء فى أوان تقفل وتفتح على مقتضى الحاجة ، وهذا فى الحقيقة استخدام لكل موارد الطبيعة وانتهاز لكل فرصة سانحة لرقى الإنسان . « ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع

قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق » فى القرآن ، ولا يكونوا كمن تقدمهم من أمم الإسلام المتأخرين الذين طال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم مستعبدون أذلاء للفرنجة وآخرون صاغرون ، واليوم آن أوان مجدهم وبزوغ شمسهم وظهور دينهم ، وها أناذا أبشر المسلمين بيومهم المعهود وسعدهم المنشود وزمانهم الذهبي المسعود وأنهم سيكونون خير أمة أخرجت للناس ينفعون الأمم ولا يكونون وبالا عليها كما فعلت أوروبا الظالمة القاهرة بالشرقيين .

إنى أوصى كل من اطلع على هذا الكتاب أن ينشر الفكر بين المسلمين ويطلع العامة والخاصة على كنوز الله للمؤمنين وأن يقول لهم هذا يوم الاقبال والنصر المبين .

حكاية مصرية فى النبات

بينما أنا أؤلف فى هذا التفسير إذ خرجت ليلة لأمر أقضيه فجلست على دكان بجوار دارنا فحدثنى صاحب الدكان وهو رجل صالح قال : إن فلانا أصبح رجلا صالحا جدا وصار يصلى ولا يفتأ يذكر الله ليلا ونهارا .

وسبب ذلك أنه قال إنى مكلف بأعمال تتعلق بدائرة القصر الملكى فاقتضت الأعمال أن أسير فى الجبل غربى أهرام الجيزة فأصابنى أنا ومن معى عطش شديد وكان معنا أعرابى فتبسم وقال سترى بعد قليل فقلت له وأين الماء ؟ إن هذه صحراء قاحلة ، فقال سترى ثم أخذ ينظر فى الأرض ويتفرس بين الرمال ثم نظر برقا بين الرمل ضئيلا جدا فقال لى هذا هو الشراب ، فقلت له هذا رمل ! قال سترى ، فحفر فى الأرض حفرة فطلع منها نبات مكور فأخرجه وقال كل هذا ، فقلت أنا أطلب الماء وأنت تعطينى طعاما أتسخر منا ونحن عصبة ! فقال كل هذا وسترى، وهى نباتة أشبه بالبصلة فأكلتها وما مضت دقائق حتى رويت وبقيت طول النهار لا أحتاج لماء ولا أشتاق إليه فعرفت أن لهذا العالم إلها ومن ذلك الحين صرت أتذكره كل حين .

حكاية مصرية أخرى

أخبرنى رجل من بلاد مديرية الشرقية بالوجه البحرى من بلادنا المصرية قال : بينما أنا فى ليلة واقف فى الماء بنهر يسقى الحقول إذ أنا بالماء قد لمع فيه صور النجوم وكنت إذ ذاك قد وضعت يدى فى الطين لأزحزح السد عن مجرى الماء لينزل بحقل أحد أعدائى لأغرق زرعهم ، فلما لاحت لى بهجة النجوم فى الماء تذكرت عظمة الله التى تجلت لى فى الماء ، وقلت هل يجوز أن أعصى الله الذى هذه نجومه وهاهى ظاهرة صورها فى الماء فرجعت عن ذنبى وتبت لربى .

حكمة

إن كل قلب من قلوب بنى آدم يقبل صور الجمال الإلهى كما قبل الماء صورة النجم السماوى فلتتجه القلوب إلى ذلك الجمال كما قابل الماء نجم السماء ، إن فى كل قلب نورا إلهيا كما كان فى كل ماء نور كوكبى .

اللطيفة الرابعة : الدرّ والمرجان

أما الدر فقد تقدم فى سورة الفاتحة وستراه فى سورة الرحمن ، وأما المرجان فإنه صنع حيوانات صغيرة تصنعه من مواد كلسية فتجعلها مساكن لها وتبنى تلك المساكن متلاصقة متلاحمة فتكون منها تلك الصخور على اختلاف صورها وأشكالها ، وهيئة تلك الحيوانات كزهر الأقحوان ، ومؤخر الواحدة منها داخل فى المسكن والمقدم بارز وفى وسطه ثغر صغير وهو فمها يحيط بها غالبا ستة أطراف أو ثمانية كأوراق ذلك الزهر تقبض بها على الفريسة حين تمر بها ، ومن هذه الحيوانات ما يلمع لمعانا شديدا كلمعان المصباح .

قال بعضهم : كنت ليلة فى قارب من قوارب الصيادين فى إرلندا فاتفق أنهم رفعوا الشبكة من البحر فخرج فى خللها كثير من الحيوانات الصغيرة المرجانية فكانت تتلألأ كربوات كثيرة من أنقى حجارة الألماس ،

وتلك الحيوانات الصغيرة لا تبنى مساكنها فى مكان عمقه أكثر من مائة وعشرين قدما وكلما كانت أقرب إلى وجه الماء كانت أكثر عملا ، ذلك لأنها أقرب إلى ضوء الشمس .

جزائر المرجان

وتلك الصخور المرجانية قد يقترب بعضها من بعض فتتلاحق وتمتد إلى مسافة أميال كثيرة وتأتيها الأمواج بالرمال والطين وغثاء ما يصبّ فى البحر من الأنهار، وتحمل إليها الرياح كثيرا من البزور وجراثيم الحياة فتكثر فيها التربة وتنبت فيها البزور وتتولد فيها الحيوانات فتمتلئ بالأعشاب والأشجار وغيرها من الأحياء .

حيوان يشبه المرجان وهو أعجب منه وهو (الهيدار)

الهيدار حيوان يشبه المرجان فى خلقه وكثير من صفاته ، يكثر فى حياض الماء العذب والجداول الصغيرة ومن أغرب صفاته وأعجبها أنك إذا قطعته طولا وعرضا قطعا كثيرة صارت كل قطعة من تلك القطع حيوانا كاملا ، فإذا قطع ثلاث قطع عرضا فى زمن الصيف فلا تمرّ أربعة أيام إلا وللقطعة الوسطى رأس وذنب وللذنب بدن ورأس وللرأس بدن وذنب ويصير الرأس حيوانا كاملا قبل سائر القطع فهذا هو المسمى (هيدار)

إشراق النور فى المرجان

إن للمرجان من أجمل وأبهج وأحسن وأعجب ما نمقته يد القدرة الإلهية ولن يكون نباته الحيوانى إلا فى البحار الحارة وفى البحر الأحمر منه كما يقال أكثر من مائة نوع مختلفات الصفات وهكذا فى البحر الهندى والمحيط (الباسفيكى) آلاف من جزائر المرجان وسلاسل الجزائر المرجانية البديعة الأوصاف الجميلة الأصناف البهجة المناظر الدهشة لكل ناظر، ألا وإن أولئك الذين نظروا إلى المرجان فى البحر حيث تكون أنواع منه مختلفة الألوان والأشكال قد قالوا إن منظره يفوق الوصف بهجة ويسحر الطرف زينة وتسر النفس رؤيته وتدعو إلى الايقان آيته وتزين العلم حكمته وتعلو المال قيمته وتشوّق للدرس رؤيته .

أنبات المرجان أم حيوان ؟

إذا نحن امتحنا منه قطعة رأيناه كأنه جسم حى ووجدنا فيه خاصية النبات وخاصية الحيوان ولذا سميناه (نباتا حيوانيا) وإنما أعطيناه هذا الاسم لأننا نجد له : (١) معدة . (٢) وفما وجملة من أنابيب تقوم مقام الأيدى لتناول الطعام من ماء البحر الذى تعيش فيه وتدخله فى الفم ، هذا من جهة الحيوانية ، أما من جهة النباتية فإنا إذا أخذنا قطعة من مرجان حى وغرسناها فى شاطئ رملى فإننا نراه ينبت كما ينبت غصن قطعناه من النبات وغرسناه فى الأرض .

المرجان ومسكنه

كان الناس فيما مضى يظنون أن المرجان إنما هو مسكن حشرة تخرج من قاع البحر وتبنى مساكنها حتى تصل إلى سطح الماء، وهذا رأى لا يوافق الحقيقة، وإنما الحقيقة أن المرجان أشبه بكتلة صغيرة من مادة هلامية ودم هذا الحيوان يشبه اللبن لأنه من المادة الجيرية التى استخلصها المرجان من ماء البحر لغذائه .

الحياة الفردية والحياة الاجتماعية للمرجان

إن بعض المرجان يعيش منفردا وبعضه يعيش مجتمعا ويعد بالآلاف وكل منها له جسم مستقل وهو يتصل بالباقى اتصال الغصن بالشجرة ، وإذا مات المرجان بقيت هياكله تتلاصق وتتلاحق وتتراكم وتكون مهدا وأساسا لجيل جديد من المرجان يخلق ويعيش فوق ذلك ناعم البال فى عيش صاف وماء واف فينمو ويتم كماله كالتى كانت من قبل ، ولقد عرف الناس أن هذا الحيوان لن يعيش ألبتة فى عمق يزيد عن ثلاثين مترا ، ولن يعيش أيضا متى تعرض لضوء الشمس والهواء الجوى ، إذن هو محصور فى هذه الثلاثين مترا .

جزائر

جزائر المرجان

ثم إن جزائر المرجان لاتبنى إلا على الصخور أو حول أفواه البراكين التى على طول الزمان وتمادى القرون تغوص بالتدريج فى ماء البحر ، فإذا وصل البناء إلى سطح الماء يموت المرجان ثم يخلق جيل جديد ويتكون بحيرة من الملح، ثم إن ما تفتت من أجسام المرجان الميت بفعل العواصف البحرية أو بأعمال الأمواج فوق سطح البحر تصير رملا مرجانيا ، ثم إن ما مات من عالم النبات والحيوان البحرى وتعفن تنضم بقاياه إلى ذلك الرمل المرجانى فيعطيه طبقة جديدة خصبة تصلح لنمو النبات ، وهناك فى البحر جزائر ينبت فيها شجر (النارجيل) وهو الجوز الهندى فيسقط فيه من أقرب الجزائر لهذه الجزيرة الجديدة المرجانية الأصول الصالحة للنبات فلا تزال تتقاذفها الأمواج حتى تصل إلى هذه الجزيرة الجديدة المرجانية ، وهناك تمتد جذور تلك الأصول فى الجزيرة الفتية القوية الخصبة التربة ، وعلى تمادى الأيام تكون هناك دوحات وأحراش من شجر (النارجيل) وهذه تكون ملجأ للطيور تبنى بها أعشاشها على أغصان تلك الأشجار وهذه الطيور تحمل بزور النبات وتلقيها فى الجزيرة بلا قصد منها فتكتسى أرضها بالتدريج جلابيب سندسية من رائع النبات البهى الأغصان المزدهى الأفنان وجنى جناته دان وفيها روح وريحان، وقد يعترى هذه الجزائر النضرة البهجة الفناء بغتة « كأن لم تغن بالأمس » ذلك أن كثيرا منها يبنى على الصخور التى تكون عند أفواه البراكين التى هدأت ثائرتها فتحدث زلزلة أو انفجار بركانى بعد زمن قليل أو كثير فتغوص تلك الجزائر فى البحر تحت الماء والله مدبر الأمر ومقلب الليل والنهار (أنظر صورة المرجان شكل ١٥ غير المتقدمة) .

فلتعجب أيها الذكى من هذه الدنيا ونظامها ولتتأمل فإنك سترى أنه لافرق بين عالم البر وعالم البحر ، ألم تر إلى هذه الجزائر المرجانية الحديثة كيف انتقل إليها من أشجار (النارجيل) أصول مما نبت فى أقرب جاراتها وكيف نمت تلك الأشجار وصارت مأوى الطيور والطيور أحضرت البذور وكسيت الأرض جلابيب سندسية ؟ أليس هذا مثل مانرى فى الأمم ؟ فابن رشد فى الأندلس نقل علمه تلاميذه من اليهود والنصارى إلى أقرب البلاد إليها كفرنسا وألمانيا ثم انتشر وتفرع فى بلاد الغرب على مدى الزمان وانتقل إلى بلادنا وبلاد اليابان والصين وأمريكا ، فياعجبا كل العجب ! ماء فى البحر يحمل أصول الشجر ، وهواء فى الجو يطير فيه الطير حامل بذور الأشجار والزرع ، وعلماء ينقلون العلم ويترجمونه من اليونانية والسريانية أيام أبى جعفر المنصور والمأمون وأمثالهما إلى العربية والعربية يقرؤها الأوروبى ، وقبل ذلك انتقل العلم من المصريين القدماء إلى اليونان ، فعالم النبات والحيوان كعالم العلم والحكمة كل منهما يتكاثر وينمو بالاقتباس من الأقرب فالأقرب ، إن المرجان فعل مالم يفعله الانسان ، المرجان أبرز جزائر فى البحر تعد بالألوف وفيها ترقى الحيوانات المختلفة والانسان قط ما أحدث أرضا ، وغاية أمره أنه بنى ونظم ، ولكن ميزة الانسان أنه فعل بفكرته ، والمرجان بنى بغريزته « فتبارك الله أحسن الخالقين — وفى الأرض آيات للموقنين » .
انتهى الكلام على اللطيفة الرابعة فى قوله تعالى « وتستخرجون منه حلية تلبسونها » الخ .



(صورة غير المتقدمة للمرجان شكل ١٥)

اللطيفة الخامسة « وبالنجم هم يهتدون »

لقد قدمنا أمثال هذا فى التفسير ونقول الآن كلاما إجماليا ، إن الناس يهتدون فى النهار بالطرق وبالجبال وبالعلامات ، فأما بالليل فالأمر عجب فإن النجوم مع سرعة جريها فى مداراتها كما سبق فى هذا التفسير ترى ساكنة وأن السماة منها بالثوابت أسرع جريا فى مداراتها من أرضنا ولكن هذا الجرى لا أثر له عندنا بالأرض فهى لشدة بعدها العظيم تعتبر واقفة فهى كأوتاد منصوبة وعلامات نعرف بها طرقنا ، فنجم القطب وبنات نعش والفرقدان والسماك الرامح والسماك الأعزل وغيرها علامات تعرف بها جهات الأرض ، وأن علم الفلك وسير النجوم ومعرفة أوضاعها ، كل ذلك يدرس اليوم ليهتدى به ربان السفينة فى دياجى الظلمات :

ولما علم الله أن الناس يحتاجون إلى آلة تقوم مقام النجوم فى الظلمات خلق لهم البوصلة التى هى ممغطسة وهى تتجه دائما جهة النجمة القطبية ، فطرفها الشمالى يدل على الشمال ، وطرفها الجنوبى يدل على الجنوب ولها ميل يمنة ويسرة ، وهذا الميل له حساب خاص .

فانظر كيف أمر الله هذه الابرة فقامت مقام النجوم فى سير السفن فى البحار وفى معرفة القبلة ليلا ونهارا ، وترى البحارة معهم جداول للكواكب السيارة ليعرفوا بها الجهات التى وصلوا إليها ، فإذن أهل الأرض لاحياة لهم ولا سعادة إلا بالنجوم ، فلولاها لضلوا الطريق ولم يسعدوا فى هذه الحياة ، فنحن على الأرض لسنا فى عزلة عن العوالم الأخرى ، إن العالم جسم واحد .

هذا العالم كجسم واحد

ومعلوم أن معرفة الجسم للطبيب تكون بثلاثة أشياء : النبض والحرارة والبول . هكذا هذا العالم جسم واحد ، فحركات الكواكب كالنبض فى جسم الانسان وحرارتها كحرارته ، وألوان البول التى يعرفها

الطبيب فيستدل على المرض أشبه بألوان الطيف الشمسى ، فإن ألوان الطيف تدل على المعادن التى فى الكوكب ، فإن لكل معدن ضوءا خاصا عرفوه على الأرض كالحديد والذهب والفضة ، فإذا رأوه فى طيف كوكب عرفوه فأصبح هذا العالم جسما واحدا ، والحكماء والعلماء كالأطباء يستدلون على ما غاب عما يشاهدون وهذا معنى قوله فى سورة الحجر المتقدمة « إن فى ذلك لآيات للمتوسمين » فهذا هو التوسم والتفرس من الحكماء والعلماء .

اللطيفة السادسة « وترى الفلك مواخر فيه »

قد قدمت لك فى اللطيفة الخامسة أن هذا العالم كجسم واحد وأن الحرارة فيه أشبه بالحرارة فى الإنسان فإذا فقدت الحرارة من الإنسان والحيوان ماتا ، وإذا ارتفعت الحرارة استضر وإذا قلت ضعف ، فالحرارة أشبه بميزان الحياة ، والطبيب هو القبان وهو يعطى الدواء بقدر ، فالحرارة والبرودة عليهما نظام أجسامنا وجسم هذا العالم واختلالهما ، هذه السفن تسير فى البحار ، بماذا ؟ تسير بالرياح ، ومن أين تأتى الرياح ؟ قدمنا فى سورة الحجر أنها تجرى بالحرارة ، ونزيد هنا القول بيانا لأن هذا العلم جميل وجميل .

الشمس والرياح

انظر كيف ألحت الشمس بالحرارة على خط الاستواء وما جاوره ، فماذا جرى ؟ جرى أن الهواء ارتفع إلى أعلى ، ثم ماذا ؟ خلا مكان الهواء المرتفع وتخلخل ، ثم ماذا ؟ تقاطر إليه الهواء من الشمال ومن الجنوب ليحل الهواء منهما محل الهواء المرتفع إلى أعلى ، ثم ماذا ؟ ثم يسير الهواء الذى ارتفع جنوبا وشمالا متباعدا عن خط الاستواء حتى يصل إلى ٢٥ درجة فى الجهتين : أى فى المنطقة المعتدلة الشمالية والمنطقة المعتدلة الجنوبية ثم ماذا ؟ ثم ينقسم هناك قسمين : قسم يرجع إلى خط الاستواء ، وقسم يتجه إلى الدائرة القطبية الشمالية والدائرة القطبية الجنوبية ، ثم ماذا ؟ ثم إن الهواء فى جهة القطبين يتجه إلى الدائرة القطبية الشمالية والجنوبية فههنا أنواع من الرياح :

(١) الرياح التجارية وهى المتجهة إلى خط الاستواء لتحل محل الرياح المرتفعة .

(٢) الرياح التجارية الضدية وهى التى ذكرنا أنها اتجهت من الشمال والجنوب إلى الدائرتين القطبيتين .

(٣) الرياح القطبية وهى التى ذكرنا أنها تأتى من القطبين إلى الدائرتين لتحل محل الريح التجارية الضدية التى ترتفع هناك وتحل هذه محلها وهكذا ، وهناك ريحان أخريان ، ذلك أن الماء من طبعه أن يكون بطيئا فى تسخينه بطيئا فى تبريده . والأرض بالعكس فهى سريعة البرودة سريعة الحرارة وبناء على هذه الطبائع المركوزة والجبلات المخلوقة عاش الناس على الأرض .

ألم تر كيف تسخن الأرض قبل البحر نهارا فيرتفع هواء اليابسة للحرارة الملاقية له على سطح الأرض فيحل محله الهواء المجاور له فوق سطح البحر لأنه أبرد منه والثقيل يهبط محل الخفيف المرتفع عن مكانه ، فإذا أظلم الليل وأرخى سدوله كان أول مايبرد هى الأرض والبحر لايزال هواؤه حارا متخلخلا فيحل محله الهواء البارد ، فإذن تكون الرياح جارية من البحر إلى البر نهارا ومن البر إلى البحر ليلا « يقلب الله الليل والنهار » .

وهناك رياح فى المحيط الهندى تسمى (الرياح الموسمية) تجرى ستة أشهر إلى جهة وستة أشهر إلى جهة أخرى ، وهناك ريح تسمى (الدائمة) تهب من الشرق إلى الغرب بين المدارين طول الدهر ، وهناك رياح مختلفة فتكون الرياح هكذا :

[الرياح التجارية . الرياح التجارية الضدية . الرياح القطبية . الرياح البرية . الرياح البحرية .

الرياح الموسمية . الرياح الدائمة . الرياح المختلفة] وهى التى نشاهدها كثيرا لاقانون لها ولا نظام بحسب ما نعلمه فهذه ثمان رياح تهب من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب ومن الجنوب إلى الشمال ومن أماكن مختلفة ، ومنها ماينشأ من القطبين ، ومنها ما ينشأ من المنطقتين المعتدلتين ، ومنها ماينشأ من خط الاستواء ، ومنها ما ينشأ من البر ، ومنها ما ينشأ من البحر .

ألا تعجب معى كيف كانت الحرارة هى الأصل فى هذا كله والشمس منبع الحرارة ؟ ألا تعجب من فعل القادر الحكيم ، حرارة تنزل على الأرض والأرض مختلفة الطبائع وكذا المياه وكذا تختلف قربا وبعدا فبهذا اختلفت الرياح فسارت بها السفن بحرا فى جميع الأنحاء ، انظر كيف كانت الرياح التجارية تجرى من الشمال إلى الجنوب ومن الجنوب إلى الشمال ، ولقد كشفوا أن هناك ريحا فوق هذه الريح بتيار مخالف لهذا التيار .

جرت السفن شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ، بماذا جرت ؟ جرت بالرياح ، وماهى الرياح ؟ هى حركات فى الهواء ، ومن أين حركات الهواء ؟ من الحرارة ، فالحرارة فى الجو كحرارة الجسم الإنسانى ، ولولا هذه الحرارة لم يجر الهواء ، ومتى وقف الهواء فلاسحاب ولا مطر ولا رعد ولا برق ولا سفن تجرى ولا أشجار تسق ولا تلقح ولا جمال ولا مدن ولا علماء ولا أنبياء ، بمثل هذا فليعرف القرآن ، وبمثل هذا فليفهم كلام الله .

يقول الله فى غير هذه السورة (ومن آياته الجوار فى البحر كالأعلام ، إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره) إلى آخر الآية . بماذا يكون إسكان الريح ؟ يكون بمنع الحرارة ، وبم تمنع الحرارة ؟ تمنع بانطفاء الشمس ، يارب تاهت العقول وحارت الأفكار فى هذا الوجود ، ياعجبا ! حياتنا موقوفة على حركات فى الهواء لولاها لم يكن وجود الهواء كافيا لحياتنا ، إنما الحياة تتوقف على حركات الهواء لاعلى الهواء وحده فالهواء لاقيمة له بلا حركة ، هكذا الانسان لاقيمة له بلا علم ولا عمل .

اللهم إن نظامك جميل وصنعك بديع وفضلك عمم أحكمت الصنعة وبهرت العقول ، اللهم أرنا هذا الجمال وأطلعنا على أسرار هذا الكمال ، ولقد أريتنا بعض ظواهر حكمتك فعشقناها فكيف لو أريتنا باقى الظواهر بل كيف يكون شأننا لو اطلعنا على بعض الأسرار ؟ اللهم لاقيمة لأهل الأرض إلا بالتضلع من حكمتك البالغة وآياتك الباهرة وعلومك العالية إنك حكيم عليم .

زيادة إيضاح قوله تعالى « وترى الفلك مواخر فيه » الخ

اعلم أن أكثر الناس يعيشون غافلين (كما ذكرته كثيرا فى هذا التفسير) عما يرون من روائع المشاهد فى الطبيعة وهى مفعمة بالجمال متمنعة بالدلال، عروس تتجلى فى جمالها وتزدان بحلاها وحللها وتتبختر فى أغلالها مع أترابها ، بهجة الناظرين وأنس العلماء العاملين وجنة المفكرين وسعادة الدنيا والدين وعين اليقين وحياة الأرواح ونماء الأشباح وغذاء العقول وثمرة المعقول والمنقول ونور مبين وهداية الصراط المستقيم ، فهنالك مشاهد الفلك فى البحار وكيف كان لها قانون مسنون وكيف كان الناس يعومون ولا يعلمون غالبا ، لماذا يغرقون إذا كانوا لم يتعلموا طرق العوم ، وكيف يطأ الإنسان على الصخور فى البحر الكثيرة التضاريس وعلى الشوك وقطع الزجاج فلا تؤذيه مع أنها على البر تسيل الدم من رجليه وتؤذيه أذى كثيرا وتهشمه تهشيما .

وكيف يرون ذوات الأربع كالبقر والغنم لاتغرق ولا تحتاج إلى تعليم ؟ وكيف كان السمك قد أعطى

الحرية التامة فى أن يرتفع متى شاء وينزل فى قاع البحر متى شاء ، وكيف كان الوز والبط والوز العراقى وغيرها تعوم أسهل من الانسان ومن ذوات الأربع ، هذه مشاهد تمر على الناس وهم لايفكرون .

فانظر ملأ الله قلبك جمالا تجد أن الأمر يرجع إلى الحكمة والعدل وبهجة النظام والحسن والاتقان وأن هذه الدنيا عروس زينت للناظرين وآية غابت عن الجاهلين ولن يحظى بجمالها إلا الذى بذل مهرها ، وما مهرها إلا الدراسة مع الحب والشوق ، لا مجرد الشهادة الدراسية مع الغفلة عن أنها جمال وكمال .

(١) فأما كون الانسان يغرق إذا لم يتعلم العوم فذلك لأنه وإن كان جسمه أخف من مقدار ما يساويه من الماء كما ستراه فى مسألة (أرخميدس) قد ثقل رأسه أكثر من أجزائه السفلى ، فلو وضع الرأس وحده فى الماء لغاص فيه وهذا هو السبب فى أن من لايحسن السباحة يكون عرضة للغرق لأنه لايستطيع رفع رأسه من الماء ، ومما يزيده ارتباكا أن يرفع ذراعيه ويخبط فى الماء خبطا فيكون ذلك أقرب لغرقه وهو من الغافلين ، فإن رفع الرأس الثقيل من الماء أولى من رفع العضو الخفيف .

(٢) وأما كونه لايناله الأذى وهو فى الماء إذا مشى على التضاريس والشوك فذلك لأن جسمه يخف فى البحر بمقدار وزن الماء المساوى حجمه لحجم جسمه فهو أبدا مرفوع عن تلك التضاريس ولو كان فى البر لآذته أذى كثيرا .

(٣) وأما ذوات الأربع فالرأس فيها أخف من أسافلها فلذلك لاتحتاج إلى تعلم العوم .

(٤) وأما السمك فإنه أعطى منفاخا مملوءا هواء إن شاء نفخه فعام أو ضغطه فغاص فى الماء .

(٥) وأما الأوز والبط وما شاكلها فإن الله أعطاها زغبا صغيراً ناعما كثيفا على أسافلها لايخرقه الماء فيحل محل مقدار من الماء يساوى ثقله فلا يغطس من جسمه إلا القليل وهذه قامت عنده مقام ماينتطق به الانسان من (الفلين) أو (القرع) اللذين يقويانه على العوم، فانظر الحكم فى هذا المقام .

عاش السمك فى البحر فخص بهذا المنفاخ ، ولماذا ؟ لأجل أن يكون حرا فى تصرفه وجلب معاشه والهرب من أعدائه فلم يكن هناك بدّ من أن يخلق له منفاخ يفعل به ما يشاء ، فهذا المنفاخ فى البحر يعطيه الحرية ليعيش بسعادة ، وهو به فى حصن حصين .

فأما الأوز والبط وما أشبهها فإنها لاتنزل البحر إلا للرياضة والتنزه وإنعاش القوى فلم تعط هذا الزق بل أعطيت ماعينها على العوم بسهولة تامة « وما كنا عن الخلق غافلين » فلا تعطى البط منفاخ السمك لأنه يكون عبثا « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ـ إنا كل شىء خلقناه بقدر » ومن الغفلة أن نحمل البط مافوق طاقته فنخلق له المنفاخ فى البحر مع أنه لايحتاج إلى أن يغطس فيه أو أن نحرم السمك منه فلا يتمكن من معاشه بغدوّه ورواحه فيه . وأما ذوات الأربع فإننا جعلنا رأسها خفيفة لئلا تغرق وليس لديها القوة على تعلم العوم فأعطيناها القدرة عليه ولكنها ليست فى حاجة إلى زغب البط لأنها ليست فى حاجة إلى طول المكث فى الماء مثله، ولا إلى منفاخ السمك من باب أولى ، فأما الإنسان فإنا جعلنا رأسه ثقيلا لأنه محتاج إلى التفكر، والتفكر يعوزه المخ الثقيل ، ولا جرم أن هذا التفكر يقوم ألف مرة مقام خفة رأسه فإنه يتعلم العوم ويهتدى بنور عقله فأعطيناه أفضل مما منحناه فأخذ يخترع الحيل من قرع يربطه بجسمه أو (فلين) يحيه وهكذا ، فأما ثقل رأسه فهو رأس ماله وبه اخترع ودبر وصنع السفن من عهد سيدنا نوح عليه السلام وهذا الانسان جعلناه من أعاجيب الزمان إن أخطأ كان خطؤه نورا له مبينا .

فهناك عبدنا (أرخميدس) أيام (هيرو) الطاغية ملك (سرقوسة) إذ أعطى ذلك الملك صائغا مقدارا من الذهب ليصوغه تاجا ، فلما أتمه اشتبه الملك فى أمره وظن أنه مغشوش فوّض أمر ذلك التاج إلى

الفيلسوف (أرخميدس) المذكور وأمره أن لا يغير فيه شيئا وقال له : أما وزنه فهو وزن الذهب الذي أعطيناه وأما الذهب فإني أشك فيه ، فحار الفيلسوف في أمره ووجه فكره إلى مطلوبه حتى إذا كان يوما يستحم أحس بخفة جسمه فخطر له أن الماء هو الذي جعل الجسم خفيفا فهرول من منزله فرحا وهو يصفق بيديه في الأزقة ويقول (وجدتها وجدتها) ثم امتحن التاج فوجده مغشوشا فكان ذلك مفتاح القاعدة المشهورة ، إن الجسم إذا كان أخف من الماء عام فيه أو أثقل غرق فيه وأنه يخف بقدر ثقل الماء الذي حل هو محله وشاعت هذه القاعدة وعلى مقتضاها امتحن الناس البيض بوضعه في الماء وأنشأوا السفن العظيمة وعرفوا وزنها ونظموا أمرها وعاشوا مجدين .

هذه هي العجائب التي ظهرت من آية « وترى الفلك مواخر فيه » مخرت الفلك في البحار على قاعدة (أرشميدس) تلك التي لم تعط هذا الانسان إلا بعد تجربته لها وقد حرم عليه التمتع بجمال هذه الدنيا إلا إذا درسها وقد حكم الله على الناس وأمرهم أن يكونوا أمة واحدة .

هذا (أرشميدس) كشف الله له العلم ، ومن علمه تعلمنا فهو معلم لنا مع تباعد الزمان والمكان ، إذن نحن لسنا كالسمك في البحار ولا كالدواب في الأرض بل نحن قد حكم علينا أن نكون كإنسان واحد لأن علم الغربي يقرؤه الشرقي وبالعكس .

يظهر أن هذه الإنسانية لاتكمل إلا إذا عرفوا جميعا أنهم كرجل واحد ، فأما ماداموا يجهلون اتحادهم فإنهم معذبون غارقون غافلون ، يعلم الأول الآخر والغربي الشرقي والشرقي الغربي ومع ذلك هم لايعلمون أنهم متعاونون والتعاون يلزمه الاتحاد ، فليت شعري هل يكملون في عالم الأرواح ثم متى ومتى ؟ ذلك موكول لعلم الله « إن الله بكل شيء عليم » .

البلاغة في مشاهد الطبيعة وفي لسان العرب

هذه أيها الذكي البلاغة في كلمات الله ، إن البر والبحر والانسان وذوات الأربع والسمك والبط كلمات وما رأيت من العلم فيها بلاغة ، هذا هو علم المعاني والبيان والبديع ، هذا هو المجاز والكناية والجناس والطباق والتورية وحسن السبك ، ذلك هو الجمال .

لقد أضاع أكثر المتأخرين من المسلمين أيامهم بعد الصدر الأول في الشعر وضروب البلاغة ونشروا كتاب (الأغاني) في الشرق والغرب وهام بشعره وخمره وحسن بلاغة شعرائه علماء الأندلس وغيرهم . وسترى في سورة الشعراء مايقوله النقادة من علماء الفرنجة إن شعراء الأمة العربية إن عددناهم يفوقون شعراء جميع الأمم شرقا وغربا في العدد ولكن هذا الهيام والغرام جن واحد ألهى القوم عن العلوم والحكمة وأضاع مجدهم وضعضع ملكهم وجعل القوم خياليين ، فبينما الأسبان يفكرون كان العرب يتخيلون ، وبينما الأولون يديرون الملك كان الآخرون يجرون وراء الخيال حتى قرعت القارعة ووقعت الصاعقة وأزفت الآزفة وجاء اليوم الموعود وأخرج العرب من الأندلس صاغرين .

أيها الذكي ! إن بلاغة اللفظ ترجع إلى لباس المعاني ، واللباس سياج اللابس وحافظه واللفظ طريق المعنى ومن وقف في الطريق وأعجبه ما رآه فيه من شجر وزهر وقصور وصور وتلهى عن المقصد الذي قصده والبلد الذي أمه فهو حري بالخذلان جدير بالحرمان فيرجع صفر اليدين خاسر الصفقتين ، ذلك مثل الذي عكف على بلاغة الألفاظ وحلل الجمل وغفل عن المعاني في هذا الوجود فهو مغبون وسيأتي بعدنا أولو عزم وحزم مولعون بالحقائق عاكفون على درس نظام هذا الوجود فيقرءون الأشعار صغارا ويقرءون الحكمة والعلم كبارا ، وكما يدرسون أبا الطيب المتنبي وأبا تمام والبحتري وأبا العلاء المعري والنابغة وامرأ القيس

وأضرابهم صغارا بهيمون بجمال الزهر وبهجة النجم والشمس والقمر والبر والبحر وعجائب الوجود كبارا .

إن هذا التفسير ستناوله أيدى الأذكياء من أمم الاسلام وسيقرءون أمثاله من كتب المعاصرين لنا وسيعلمون علما ليس بالظن ، أن بلاغة الكلام الانسانى الذى تصوغه الأفواه وتحمله الهواء وتقبله الأذنان أقل ألف مرة من بلاغة الكلام الذى هو مركب من كلمات الله التى هى هذا العالم فكل زهرة وورقة وغصن حرف وكل شجرة كلمة ومنفاخ السمكة وما تعوم به وما تتنفس به كلها حروف والسمكة كلها كلمة وهكذا الأوز الذكور وغيره كلها كلمات وفيها من البلاغة فوق ما يصفه الواصفون :

وعلى تفنن واصفيه بحسنه يفنى الزمان وفيه مالم يوصف

قال تعالى « قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى » الكلمات المنظورة الالهية المجسمة فيها من البلاغة ما لانسبة بينه وبين الكلمات الملفوظة والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة السابعة : الظلال

قد تقدم الكلام عليها فى سورة الرعد مستوفى ، انتهى الكلام على الحكمة التى تقدمت فى هذه السورة ولها نظائر فى باقيها وفيما قبلها من الرعد وإبراهيم والحجر ، وقد ذكرنا فيما تقدم أن آخر هذه السورة جاء فيه ذكر الحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتى هى أحسن .

الموعظة الحسنة

قال علماؤنا هى للعامة وهذه كالقصص وكالتشبهات وضرب الأمثال .

المجادلة بالتى هى أحسن

وأما المجادلة بالتى هى أحسن فهى تكون للمتوسطين فى العلم فتقنعهم ، وفى هذه السورة كثير من ذلك كما سيأتى فى قوله تعالى « وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم . يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ألا ساء ما يحكمون » فهنا مجادلة بما يعرفون من أحوالهم وأخلاقهم فيقولون إنا نستحى ونخجل إذا بشرنا بالأنثى ، فهل الله يرضى بمثل هذا ؟ ولكن الحكماء والعلماء لا يقال لهم هذا بل يقال « ليس كمثله شئ » ويؤتى بالبراهين التى تنزه الله عن الولد والوالد .

بهجة الجمال فى قوله تعالى « وما ذرأ لكم فى الأرض مختلفا ألوانه »



(صورة الفراشة — شكل ١٦)

بسم الله الرحمن الرحيم : هذا رسم الفراشة المسماة (أبا دقيق) تلك الفراشة التى تشارك سائر الفراش فى خواصه وتمتاز بأنها خلقت لإهلاك القطن الذى عليه حياة أمتنا المصرية والذى يزرع فى الممالك المتحدة والسودان المصرى وفى بلدان أخرى . هذه هى الحشرة التى جعلها الله لنا آية ، آية تمثل الدنيا التى نسكنها ، فهى فى الظاهر جمال ، وفى العمل هلاك ووبال ، وفى العقول حكمة وكمال .

ثلاث مراتب لهذه الحشرة وثلاث درجات لهذه الدنيا :

(١) الدنيا خضرة حلوة ، والحشرة بهجة المنظر .

(٢) الدنيا لاتدع جديدا إلا جعلته رثا ثم أهلكته ، والحشرة تسطو على القطن فتبيده فيخسر الفلاح ماصرفه عليه .

(٣) الدنيا مدرسة الحكماء والفضلاء الذين اصطفاهم الله بفطرهم فعكفوا على فهم أسرارها والوقوف على حقائقها لينفعوا سائر الشعوب بمواهبهم التى أعطيت لهم ويتركون للجمهور ظواهر العلوم وظواهر السياسة ؟ فالجمهور يقوم بحفظ الدول من الفساد ، وخواص الخواص ولباب اللباب وهم المصطفون الأخيار هم الذين يعمدون إلى حقائق هذا الوجود فيدرسونه ويتغذون به وينشرونه إلى جمهور الأمم ليؤدوا واجب مواهبهم كما أدى غيرهم ما وجب عليهم بمقتضى فطرهم ، إن دراسة هذه الدنيا لايتسنى لأحد الوصول إليها إلا بدراسة خلاصة جميع العلوم ، وفى هذا التفسير ما يغنى اللبيب بأسلوب سهل وماأصعب الأساليب العلمية التى جعلها الله سهلة فى هذا الكتاب ، أما دراسة حشرة أبى دقيق فهاك عجائبها :

ذكرى أيام الشباب

اللهم إنى أحمدك على نعمة العلم وفضيلة الحكمة ، لقد كنت وأنا مجاور بالجامع الأزهر أمرّ فى الحقول وعلى شطوط الأنهار وأنظر عسى أن أجد حشرة ذات نظام هندسى [وما كنت إذ ذاك لأعرف فى الهندسة شيئا

وأقول

وأقول : ياليت شعرى ! أليس فى هذا الكون نظام وإذا كان له صانع أفليس الصانع حكيما ؟ إن الحكمة والاتقان هما الدليلان على صانع، فإن وجدا فهناك صانع وإلا فلا إله لهذه الدنيا ، وطالما كنت أقول يامن خلقتنى أراك علمت الطيور فى وكناتها والوحوش فى أوجارها كل ماتحتاج إليه فى نظام حياتها وما تطلبه نفوسها وهاهى ذه نفسى تود الوقوف على نظام هذا الكون لأعرف صانعه ، وبقدر علمى بالنظام تكون سعادتى وعلى قدر وقوفى على الحقائق يكون كمالى ، إنى إذا أيقنت بالنظام أيقنت بالحكيم ، وإذا كان صانع الدنيا حكيما فهو حرىّ بالحب والإجلال ، وإذا كانت حياة الانسان بيد حكيم فهو جدير بالسعادة ، أما إذا كانت فى يد المصادفة الرعناء فالحياة خير منها الموت لأنها لانتيجة لها إلا الخطل والجبل ، هذه آرائى زمن الشباب .

أما آرائى الآن

أما آرائى الآن فأقول إنى أصبحت موقنا بالحكمة والجمال فلتتقاذف الدول بالمدافع والطيارات والأساطيل وليخترعوا ماشاءوا من أساليب الإهلاك والتدمير وليتدعوا من ضروب الحيل السياسية والأكاذيب الاستعمارية ، فها نحن أولاء ندعهم فيما خلقوا له فى هذه الحياة على أرضنا الصغيرة القصيرالنظر أكثر سكانها ذات العمران الناقص والمدنية المنحطة والعقول التى لم تصل لعقول أمم أعظم شأنا منها فى سكان كواكب أكبر شأنا وأعظم مقاما ، أقول: ندعهم فإنهم لهذا خلقوا وهكذا خلق جوّ أرضنا واستعدادها واستعداد سكانها ولنعكف نحن على عالم الجمال ولندرس حشرة (أبى دقيق) لادراسة كلية بل ندرس مافيها من الألوان لمناسبة الآية التى نحن بصدد الكلام عليها اعترافا بنعمة الله الذى علمنى بعد اليأس أيام الشباب واعترافا من الحكمة الكامنة فيما حولنا من عجائب هذه الدنيا، أدرس هذه الآن لأقوم بحق النعمة قال تعالى « ووجدك ضالا فهدى » ثم قال « وأما بنعمة ربك فحدث » فها أناذا كنت ضالا أيام الشباب لا أفهم لهذا الوجود معنى ، وها أناذا الآن أقول لقد اهتديت على مقدار طاقتى ، وها أناذا أتمتع بنعمة الحكمة من جميع وجوهها وأرى الجمال حيث يرى أكثر الناس أن لاجمال وأمضى قدما فى عجائب الحكمة المخبوءة فيما لايعقل له أكثر الناس معنى لأن أكثر الناس لايعلمون « يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا » مثل أن يدرسوا حياة هذه الحشرة وكيف تبيض وكيف يبيدونها لتخلى لنا قطننا ، نعم هذا واجب ولكن نحن الآن نبحث فى خلاصة هذا الوجود وخلاصة هذه الدنيا . اللهم لامعنى لهذه الدنيا إلا الحكمة والنظام ، فهاك ما جاء فى كشف أسرار ألوان هذه الحشرة .

عجائب ألوان حشرة أبى دقيق

تعليل العالم الأمريكى (فرنن كلوج) العالم بعلم (البيولوجى) لألوان حشرة أبى دقيق

لقد قرأت هذا التعليل فى بعض الكتب ، وها أناذا أبينه فأقول :

إن أجنحة الفراشة الواحدة تبلغ مساحتها (١٥) بوصة وهذه المساحة قد رصت عليها بيوت صغيرة متجاورة بشكل هندسى منظم ، وتلك البيوت تبلغ فى البوصة المربعة الواحدة (٩٩) ألف بيت لأنها (١٦٥) صفا وكل صف فيه (٦٠٠) بيت، فتكون جميع البيوت المنظمة فى أجنحة الفراشة الواحدة (١٫٥٠٠٫٠٠٠) ألف ألف وخمسمائة ألف بيت ، تلك البيوت عبارة عن مخازن كل مخزن فيه كيس مختوم وهو إما مملوء هواء وإما مملوء مادة ملونة ، فالمادة الملونة متى وقعت عليها الشمس ظهرت لنا بهيئة بديعة تسرّ الناظرين ، والهواء المحبوس فى الكيس هو الذى يعكس مانراه فى الحشرة السفلى من هذا الرسم إذ ترى زرقة وبياضا وصفرة بانتظام .

ألا تعجب معى أيها الذكى ! ألا ترى أن هذه العلوم التى تتجلى فى حشرة أبى دقيق قد خبأها الله فيها

وجعل عملها مهلكا للقطن . ثم خبأها الله لأهل الحكمة الذين يحققون فى هذه الدنيا ويكون عددهم قليلا لأن الكرام قليل وهؤلاء هم الأولى بقول المتنبى :

تسترت من دهرى بظل جناحه بحيث أرى دهرى وليس يرانى

إن الشعراء ليسوا أهلا لذاك المقام وإنما أهله هم عشاق الحكمة فتعال معى أيها الذكى العاشق لها وافرح بنعمة الجمال بدراسة نظام هذه الدنيا معى وتأمل كيف أظهر الله هذه الحشرة بفعلها المهلك وخبأ ذلك الجمال الرائع ، ثم خبأه لأحبابه المصطفين الأخيار ليذروا الناس يتخبطون فى السياسة ونظم الحياة مع مشاركتهم فيها ومعاونتهم ثم هم يغوصون أكثر من غيرهم على ما أمامهم من السحر الحلال والموسيقى والنظام الجميل .

ولما وصلت إلى هذا المقام جاء صديق لى حسن الخلق كبير العقل واطلع على ما كتبت فقال ما هذا الإغراق والإطراء فى حشرة (أبى دقيق) فقلت هذا ليس خاصا بها بل هو عام فى السموات والأرض ، إن النظام فى هذه البيوت الهندسية المنتظمة المملوءة هواء ، ومواد ملونة يذكرنا بنظام الكواكب فى السماء. قال أما نظام هذه الأجنحة فهو مقبول لأن النظر إليه بالمنظار يحقق ما تقول ، أما نجوم السموات فلا نظام لها لأن الناس نظروها بالمنظار فرأوها أكبر وأكثر مما نرى ولكنها لا نظام لأوضاعها كأوضاع هذه الحشرة وبيوتها .

قف ليلا وانظر النجوم المقدرة بثلاثة آلاف بالعين المجردة هل ترى هناك صفوفا منظمة مهندسة كالتى ترى بالمنظار على جناح هذه الحشرة وإذا قال الله تعالى « ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت » فإنى رأيت عدم التفاوت فى جناح الحشرة ولكن لم أره فى نظام نجوم السموات ، فقلت لعلك لم تطلع على ماتقدم فى هذا التفسير وكتابى [نظام العالم والأمم] قال ماذا قلت فيه ؟ قلت إن النجوم أمرها عظيم وعلمها واسع وليس إدراك نظامها بالسهولة التى بها يدرك جناح الحشرة أدركنا نظام البيوت فى جناح الحشرة لأنها أمامنا أما نجوم السموات والأرض فانظر ماأقول لك : نحن نكتفى منها بالمجموعة الشمسية والمجموعة الشمسية مركزها الشمس ويدور حولها السيارات (عطارد والزهرة والأرض والمريخ والمشترى وزحل وأورانوس ونبتون) هذه سيارات ثمانية وقد وجدوا أن أبعادها عن الشمس بنظام هندسى ، فكل كوكب يكون أبعد عما قبله ضعف بعده ، فإذا كان كوكب منها بعده (١٢) فالذى بعده (٢٤) والذى بعده (٤٨) وهكذا ، فهذا نظام يقال له (متوالية هندسية) فأما نظام بيوت جناح الحشرة فإنه يقال له (متوالية عددية) فإذا كان الناس يرون نجمة الصبح ونجمة المساء ، ويقول علماء الفلك إن تلك النجمة هى كوكب من تلك الكواكب التى تدور حول الشمس كما تدور أرضنا ويقول الناس إذا رأوها إنه لامناسبة بين أبعادها بالنسبة للشمس ثم بعد البحث وجدوا مناسبة كما وجدوها هنا فى جناح الحشرة ، فمعناه أن هذا العالم نظامه واحد وأن صانعه صنعه بحكمة واحدة وهذا معنى قوله تعالى « ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت » .

هذه هى الحشرة التى يراها الناس فيزدرونها ويهلكونها قد خبأ الله فيها حكمته وخصها بالحكماء فى هذه الأرض الذين رباهم فيها لينقلوا لعالم أبهج بعد الموت بعد أن يبهجوا الناس بالحكمة الرائعة ويكونون مفرحين للعقول الانسانية كما أن رجال الموسيقى مختصون ببهجة الأسماع وأرباب الجمال الظاهرى يسرون العيون وفرق بين ابتهاج العقول وابتهاج الأسماع والأبصار ، إن فرق مابين جمال صور الناس وأصواتهم وبين جمال العقول كالفرق بين بقية الناس وبين الحكماء .

فبهذا فليفرح المفكرون القارئون لهذا التفسير وهذا من أجلّ فضل الله الذى قال الله فيه « قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون » .

اللهم

اللهم إن المسلمين قصروا فى زماننا وإنك قد جعلت هذا التفسير لإيقاظ هممٍ نائمة ونفوس خامدة وعزائم جامدة وسيكون له نبأ « ولكل نبأ مستقر » .

اللهم إن المسلمين لن يصلوا لهذا اللب إلا بعد أن يخترقوا القشر وأنى لهم بالقشر واللب ولا قشر ولا لب إلا العلوم التى طارت من بلاد الاسلام وحطت فى أوروبا وأمريكا وهناك عششت وباضت وفقست وازدهرت وأثمرت وأينعت . إن ظواهر العلوم هى مما يجمعون وتقس هؤلاء العلماء فى أمريكا وأوروبا يقرءون هذه العلوم لأجل ظواهر الحياة الدنيا ، أما المسلم فى مستقبل الدهر فإنه سيقرؤها كما يقرؤها الأوروبى والأمريكى واليابانى للحياة الدنيا ويختص هو بأنه يصل إلى جمال العالم إذ يجد فى نظام هذه العجائب كتلك الذرات التى على جناح الحشرة التى انتظمت واكتملت وأبهجت الناس بظواهرها وخصت الحكماء بعجائبها ، هذه النظم فى الأجنحة أشبهت نظام النجوم من حيث انتظام الأبعاد كما قدمناه .

ما فائدة هذا النظام

إن فائدة هذا النظام وتلك المواد الملونة وذلك الهواء الذى ملئت به تلك الحقائب البالغة ألف ألف ونصف ذلك العدد كل هذا لأمر واحد وهو حفظ الحشرة من أعدائها لأنها إذا رأت عدوا مهاجما ضمت أجنحتها ووقفت على زهرة فصارت تشبهها فتلتبس بها فتحفظ من العدو ، لماذا هذا الحفظ ؟ لتعيش على ورق قطننا وتتمتع فى قصور ونور فيخسر الزارعون وهى الجانية الكاسبة ، فما أعجب هذا الصنع ! هواء محبوس يعكس الضوء ، ومادة ملونة تظهر بنور الشمس ، كل ذلك لحفظ هذه الحشرة الآكلة لقطننا ، فجل المتقن وما أجمل الاتقان ! وكما أنك ترى البيوت على نوعين : بيوت فيها مادة ملونة وأخرى هواء يقوم مقام الزجاج هكذا ترى الحشرات على نوعين : نوع يعيش فى بلاد (البرازيل) زاهى اللون بديعه قد أعطى مادة بشعة الطعم والرائحة تفرزها الحشرة على ما يهاجمها من الطيور والزحافات فيرتد عنها ، ونوع آخر لم يعط هذه المادة ، والأول يسمى (الملك) والثانى يسمى (نائب الملك) لأن الأول تخافه أعداؤه لتلك المادة التى يفرزها والثانى لما أشبه الأول فى لونه وشكله وجماله ظنت الطيور والزحافات التى تقصده أنه عنده تلك المادة فتحامته وخافته وهذا هو العجب ، كيف لانعجب وقد رأينا الحكمة هنا واضحة : أى أنه لايخلق إلا ماله فائدة ، فإذا كان الملك أعطى سلاح الرائحة الكريهة والطعم الكريه فلم يعط ذلك نائب الملك اقتصادا وتعليما لنا ؟ كأن الله يقول لنا افهموا من حشرة (أبى دقيق) أن أعمالى كلها على هذا المنوال ، فإذا رأيتم الملك قام بإخافة الأعداء ، واستغنى نائب الملك فذلك مثال لهذا العالم الذى لاتفهمونه وإنما تفهمون على مقدار عقولكم وإنما ملكى كله كما فى هذه الآيات كآية « وإن من شىء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » وآية « وكل شىء عنده بمقدار » وآية « وما كنا عن الخلق غافلين » وآية « إنا كل شىء خلقناه بقدر » .

وإذا كنت أبدعت فى صفوف جناح الحشرة ولم أذر عملا من أعمالها يضيع وهذا فى حشرة صغيرة فما بالكم بأعمالى معكم أنتم وفى سمواتى وأرضى ، إن كل أهل السموات والأرض على هذا النظام أسستهم « إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا . لقد أحصاهم وعدهم عدا » وهم جميعا بنظام واحد كما نظمت ألوان حشرة (أبى دقيق) « ماخلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة إن الله سميع بصير » .

فوائد الألوان فى الطب

ومن أجمل ما يناسب اختلاف الألوان فوائدها فى الطب وصحة الأجسام فهل خطر ببالك يوما ما، أن لون الزرقة كلون السماء والبحر الملح يقويك إذا كنت فى دور النقاهة أو ضعيف الجسم ، وهل خطر لك

أن اللون البنفسجي يمنع عنك الأرق والسهر فتنام . وهل قال لك يوما طبيب حاذق إن لون الصفرة منشط منبه كما قال تعالى « بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين » ؟ وهو يفيد أصحاب (الماليخوليا) ويهدئ الأعصاب ويلطف ثورتها مالم يكثر استعماله فيحصل العكس ، وهل علمت أن لون الحمرة بتكرار النظر إليه يحدث تخديرا كما تفعل المواد المخدرة ؟ أما أنا وأنت وكثير من الناس فربما اتفق أن قويت أجسامنا أيام النقاهة بلون الزرقة وطرد عنا الأرق باللون البنفسجي ونشطنا بلون الصفرة وتخدرت أعصابنا بالحمرة ، أقول ربما كان ذلك ولكننا لانعلم من أين جاء ذلك ، وهل علمت أن لون الحمرة يزيد المجنون جنونا ويهيجه كما يحصل لثيران أسبانيا فى صراعها ؟ وهل علمت أن المجنون إذا كان فى غرفة زرقاء هدأت أعصابه ؟ وهل ظننت أن الرجل فى حال يأسه وبؤسه يطرد عنه اليأس والبؤس إذا داوم النظر للون الحمرة ؟ وهل خطر لك يوما أن الزكام والشلل وبعض الأمراض المزمنة تخف آلامها بالنظر للون الصفرة وأن المحموم يستضر بذلك اللون والمجنون ، وأن اللون البرتقالى منبه ، وهل جلست يوما فى حديقة وأنت متهيج الأعصاب فهدأت أعصابك بنظرك للون الخضرة .

إن ذلك يحصل لنا ولكننا لاعلم لنا بعجائب هذه الدنيا وغرائبها ، وإذا أردت البرهان على ذلك فاعلم أن الأطباء فى بضع السنين الماضية قاموا بتجارب لاختبار تأثير المعالجة بالألوان ؛ وفى سنة ١٩١٦ أنشئت (الكلية الدولية) فى لندن للمعالجة بالألوان فأثبتت النتائج التى انتهى إليها أطباؤها وفائدة تلك المعالجة ولا سيما فى الأمراض العصبية وثبت للأطباء أن للألوان فائدة فى منع الأمراض وفى الشفاء منها ، وأول من أشار بمعالجة الألوان الدكتور (أدوين وابت) من أطباء (نيوجرسى) بأمريكا وقد ألف كتابا فى ذلك طبع فى أواخر القرن التاسع عشر ، وفيه أن اللون كالموسيقى يؤثر فى المجموع العصبى تأثيرا عظيما وأن هذا التأثير يظهر جليا فى معالجة الصدمات العصبية والنورستانيا والسوداء ، ويظهر أن اللون يحدث تأثيرا فى العقل ثم ينشأ عنه رد فعل فى المجموع العصبى على سبيل أشبه بالاستهواء أو الإيحاء ، والثابت الآن أن اللون الأزرق يفيد فى تقوية الضعاف فى طور النقاهة وأن اللون البنفسجى خاصته الشفاء وهو مفيد جدا فى معالجة الأرق .

ثم إن للون ثلاث مزايا وهى :

(١) إنه منبه مقو للعصب .

(٢) إنه ملطف أو مخفف للألم .

(٣) إنه مقو فى حالة الضعف .

فكونه ملطفا أو مخففا يظهر من كونه يؤدى إلى التأمل وإعمال الفكرة وعدم الاكتراث والاستسلام وما أشبه ، وكونه مقويا يظهر من التغير الذى يحدثه فى الجسم إذ يجعل المرء موزونا صحا كريما قانعا بحاله .

أما الألوان المنبهة فإنها توجد فى النفس الرجاء والأمل والطرب والطموح والنشاط والرغبة فى العمل ، وفضلا عن ذلك فإن الطائفة الأخيرة تطلق الفكر من قيوده وتستثير العواطف وتوجد فى النفس نشوة وشعورا بتجديد القوى العاملة ، وقد ثبت الآن أن اللون الأصفر هو من الألوان المنبهة وأن اللون الأحمر هو من الألوان المخدرة ولذلك يجب استعمال الأخير منهما بمزيد الحذر لأنه قد يفعل فعل للورفين والكلوروفورم .

إن الإفراط فى استعمال اللون الأحمر قد يفسد التوازن العقلى إذا كان عقل العليل يستلزم عناية خاصة ،

وقد

وقد ذكر الدكتور (رابت) أن المجانين والمصابين بأمراض عقلية إذا وضعوا فى غرف يسود فيها اللون الأحمر ساءت حالهم بسرعة، وبالعكس إذا وضعوا فى غرفة يسود فيها اللون الأزرق فإنهم يصبحون هادئين .

واستعمل الدكتور (بونزا) مدير مستشفى المجاذيب بمدينة (اليساندريا بيدمونق) غرفة حمراء لبعض المصابين بحالات يأس فكانت النتيجة مدعاة إلى الارتياح .

واستعمل اللون الأصفر فى معالجة الزكام والشلل وبعض الأمراض المزمنة فخفت الآلام كثيرا ، وثبت أن اللون الأصفر مضرّ بالحيات حتى لقد يؤدى إلى الالتهاب والبحران ، أما المصابون (بالماليخوليا) فقد أفادهم هذا اللون فائدة عظيمة ، ووجد الدكتور (بونزا) أيضا أن اللون الأصفر يهدئ الأعصاب ويلطف ثورتها ولكن استعماله بكثرة يؤدى إلى (الماليخوليا) .

أما اللون البرتقالى فإنه من الألوان المنبهة ، واللونان القانى والبنفسجى القاتم هما من الألوان الملطفة للأعصاب، واللون الأخضر مهدّئ للاضطرابات العصبية يفعل فعل المخدر .

وذكر الدكتور (بونزا) تجارب أجراها بغرف ملونة فقال إنه وضع رجلا مصابا (بالماليخوليا) والعبوسة وقلة الكلام فى غرفة حمراء فبعد ثلاث ساعات أصبح الرجل طروبا ضحوكا ؛ ووضع عليلا آخر مثله فى تلك الغرفة وكان يرفض الأكل وقد نحل جسمه وأصبح أشبه بهيكل عظام ، فبعد أربع وعشرين ساعة نشأت فى الرجل شهوة الطعام فصار يأكل حتى عادت إليه قواه وأصبحت حالته طبيعية .

ويؤخذ من تقارير مستشفى (لندن) أن المعالجة بالألوان قد جاءت بفائدة عظيمة فى معالجة أمراض الصدمات العصبية (والنورستانيا) وأن الألوان الأصفر والقرنفلى والوردى والأزرق السماوى والأخضر والبنفسجى القاتم والبنفسجى القاتم هى أهم الألوان التى تعالج بها تلك الأمراض .

وذكر الدكتور (رابت) أن اللون الأزرق هو أهم الألوان فى معالجة اضطراب الأعصاب والاضطراب العقلى ، وقال إن الألوان عامة تؤثر فى الرجال أكثر من تأثيرها فى النساء ، وأن الحيوانات تتأثر كثيرا باللون القرمزى والأصفر القاتم والأخضر الطبيعى ، وأن الطيور تتأثر باللون الأخضر ، والحيات تتأثر باللون الأصفر حتى إن هذا اللون قد يستهويها ويسقطها فى شبه سبات مغناطيسى ، وأن اللونين الأزرق الباهت والأخضر الباهت يلطفان أعصاب الطفل المتهيج ، وأن تسعة وتسعين فى المائة من الناس يحتاجون إلى اللون الوردى انتهى .

بهجة العلم فى قوله تعالى « وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها » الخ .

لايخفى على من درس هذا التفسير وأمثاله من الكتب أن نعم الله لاتحصى فى ذرة واحدة كما جاء فى آخر تفسير سورة يوسف فضلا عن السموات والأرض، وإنى أريد أن أريك أيها الذكى الآن عجبا فى هذا الانسان، يظهر لى أن هذا الانسان من عالم متأخر جد التأخر ، هو يعيش مع الدواب والحشرات فهو غافل ظلوم جهول يقول الله فيه « قتل الانسان ما أكفره » وأىّ كفر أعظم من كفر الانسان .

سر أيها الذكى فى أقطار الأرض وسل أكثر هذا النوع الانسانى عن نعمة الهواء وحدها فلا أحد يقول إنه نعمة إلا الحكماء ، أما أكثر النوع الانسانى فلا يرون نعمة إلا ما اختصّ بهم وحدهم واستلذوا به وسد حاجتهم ، تجرى الرياح بالسحب وتلقح الأشجار بالهواء وبه تشم الروائح فنفرق بين خبيثها وطيبها ونرى فيه بخار الماء يتخلله ونحن فى بحر لجىّ منهما ، نحن نروح ونغدو ولا نعلم أننا غرقى فى بحرين أحدهما هواء والآخر ماء بخارى قد امتزجا ، وهذان البحران المتداخلان المتحدان تتنفس منهما فيصل الهواء إلى رئاتنا فيكون ذلك سببا لحياتنا وحياة حيواننا وحياة نباتنا ولو انقطع الهواء لحظة لمات كل نبات وكل حيوان

ولكن الإنسان كفور والله يقول لنا « إن الله لغفور رحيم » فهو الذى رحمنا وغفر لنا جهلنا بالنعم التى عليها مدار حياتنا فلا نشكره عليها ولكن شكرنا خاص بأمور تافهة حقيرة صغيرة ، هذا هو بعض السر فى قوله « إن الله لغفور رحيم والله يعلم ما تسرون وما تعلنون » .

البخار والهواء اللذان غرقنا فيهما شفافان وهذه نعمة عظمى ولو لم يكونا شفافين كالدخان لحجبا عنا نور الشمس ، إن نور الشمس والكواكب يملآن الأقطار ويحيطان بنا وبأرضنا كأن الفضاء لامخلوق فيه فلا هواء ولا بخار يحجبه وهذه من عجائب اللطف والحكمة ، وهذا النور يهدى إلينا صور المخلوقات التى نراها وأشكالها وأحجامها وألوانها ، فأما الهواء وأما البخار فإنهما لاحساب لهما عند النور ولو أنهما ظهرا لنا لحجبا الجبال والأنهار والسماء والنبات وكل شىء وكانت الحياة وبالا .

هذا الهواء المحيط بالأرض لولاه لكانت الشمس تشرق وتغرب بغتة فينتقل الحيوان من الظلمة الحالكة إلى الضوء الباهر مرة واحدة والعكس بالعكس فلا صبح ولا شفق ولا جمال فى هذين الوقتين وهذه المفاجأة ضارة بالحيوان ، لولا الهواء لم تكن زرقة فى الجو بل كنا نراه ظلمة حالكة طول النهار ، والدليل على ذلك أننا إذا ارتفعنا فوق الجبال الشاهقة رأينا سوادا حالكا ، ذلك لخفة الهواء . إن الهواء فى جونا جرم كثيف وإن كنا نسميه لطيفا ، ألم تر إلى مايقوله علماء الفلك؟ إنهم يقولون إن المادة المحيطة بالكواكب ذوات الذنب لطيفة لطفا لاحد له فهى ألطف من هوائنا ألف مليون مرة ، ومعلوم أن هواءنا ألطف من الماء ثمانمائة مرة والبخار ألطف من الماء (١٧٢٨) مرة .

فاعجب لعالم نعيش فيه وهو مفعم بالحكمة ودقة الصنع ، فإذا قلنا إن جو الكواكب ذوات الذنب بهذا المقدار المتقدم فمعناه أن اللطف فى المادة لاحد له ولا نهاية ومن ذلك نفهم قوله تعالى « إن الله لغفور رحيم » بعد الكلام على النعم وتعدادها وعدم إحصائنا إياها ؟ وبيانه أن هذه العقول التى خلقها الله لنا فى الأرض لاتكون إلا مناسبة لعالمنا وعالمنا قد علمت أنه غليظ ، وإذا كان الهواء عندنا أصبح غليظا ألف مليون مرة بالنسبة لهواء آخر أفليس هذا معناه بطريق قياس التمثيل أن هناك عوالم ألطف وألطف مئات آلاف الملايين ، وعلى مقدار ذلك تكون هناك عقول ألطف وألطف على هذه النسبة وإذن تدرك تلك العقول دقائق النعم فى حين أن عقولنا تجهل كل شىء من النعم إلا النادر الذى لايؤبه له وبهذا يفتح لنا باب فهم قوله تعالى « وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا » وأننا سننتقل فى عوالم بعد عوالم ألطف وألطف فنزداد علما وعلما وهو قوله تعالى « وفوق كل ذى علم عليم » .

هذا ، ولست أريد أن أذكرك بنعمة الطيارات المتقدم ذكرها فى هذا المقام وفيما تقدمه وأن الطيارات قسمان : قسم أخف من الهواء وقسم أثقل من الهواء وقد توسعت فى شرحه فى سورة المائدة عند قوله تعالى « فبعث الله غرابا يبحث فى الأرض » فهو موضوع متمم لمسألة الطيارات هنا فارجع إليه إن شئت . فاعجب ثم اعجب لجمال ونور نعيش فيهما وأكثرنا عن العلم معرضون وسيكون فى المسلمين إن شاء الله بعد انتشار هذا الكتاب حكماء يرقون الأمم الاسلامية « والله هو الولى الحميد » اهـ .

تذكرتان

• التذكرة الأولى فى قوله تعالى « الذين تتوفاهم الملائكة طيبين » وبيان ما فتح الله به علىّ فى مرضى

ههنا أحدثك أيها الذكى حديثا وقع لى أثناء شهر ديسمبر سنة (١٩٢٧) فإنى قد اعترانى مرض عطل طبع هذا التفسير نحو خمسة عشر يوما ، ذلك المرض أصابنى فجأة وما هو إلا انصباب الدم من الأنف بكثرة هائلة فهو رعاف مكبر ، فماذا جرى ؟ خارت قواى وتعاطيت دواء كما أمر الطبيب ، هناك تجلت لى هذه الدنيا

هناك

هناك تذكرت أن الموت « قاب قوسين أو أدنى » فقلت علام أحزن على هذه الأرض ! فكان الجواب في سرى على أمرين : تمام طبع هذا التفسير وبعض أمور في أسرتي أرجو أن تتم على يدى ، فإذا تم الأمران فما أحسن الموت ، أما الآن فإني إذا مت كانت الحسرة على عدم تمام طبع التفسير وعلى بعض الأمور الخاصة ، فالأول من الغرام برقى الأمة الإسلامية ، والثاني من الشفقة على بعض الذرية الضعاف ، هذا ماخطر لى إذ تذكرت الموت وأنه منى « قاب قوسين أو أدنى » هنالك قلت لأرجع لكتاب الله تعالى ، فقرأت :

(١) « ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير » .

(٢) « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون » .

(٣) « ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون » .

(٤) « قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم » .

(٥) « كل نفس ذائقة الموت » .

(٦) « لتبلون في أموالكم وأنفسكم » الخ .

(٧) « ومالنا أن لانتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا » الخ .

هنالك قلت إن لهذا العالم صانعا وهذا التفسير قد جمع فيه بين العلوم والدين وكل الدلائل قائمة على علمه بكل صغير وكبير فلم الحزن؟ ثم أخذت أفكر فيما أحزنني إذا مت فتذكرت التفسير وقلت ياعجبا أنا أكتب هذا التفسير بدافع نفسي وشوق قلبي . أليس هذا الشوق من الله ؟ فقلت في سرى بلى ! فالله هو الذي أودع في قلبي حب هذا التفسير كما أودع في قلب المرأة حب ولدها فترضعه والله عز وجل هو المتصرف ، فهو الذي يتوفى تلك المرأة تارة قبل تمام الارضاع وتارة يتوفى ولدها قبل تمام الارضاع فيكون الألم للولد في الأولى وللأم في الثانية هذا فعله وهو أعلم بالمسلمين وأعلم بمرضهم وضعفهم وأعلم بمن يتقدم على يديه فربما كان هذا التفسير يقف عند هذا المقام ويرى الله في علمه أن هناك أمورا أرقى وأرق ، إذن أنا لست على حق في حزنى على تمام التفسير في الطبع إذا مت لأن الله هو رب المسلمين ومتولى أمورهم ، ومن أنا حتى أحزن ، هنالك ذهب هذا الحزن ، ثم قلت في نفسي لماذا أنا في كدر على بعض ذريتي فتذكرت أن المصائب علم الله وقوعها قبل خلقها وأنه هو الذي يتولى الذرية كما يتولى الآباء ، وإذا قال الفلاسفة أنه لاسعادة بمال ولا جمال ولا صيت وإنما هي بالعلم وحسن الخلق ، وما عدا ذلك فهو صالح للسعادة والشقاوة والأخلاق في النفس يهبها الله فما عملى أنا ؟ فسكنت هنالك ثورة الحزن واطمأنت النفس للموت وتذكرت قوله تعالى « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون . نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون . نزلا من غفور رحيم » وقلت في نفسي لعل هذه الخطرات التي خطرت في قلبي مما يناسب ما تتنزل به الملائكة على قلوب المرضى عند دنو آجالهم لأن آراء الخير من الملائكة وآراء الشر منسوبة للشياطين ، هنالك اطمأنت النفس تمام الاطمئنان .

منظر الأشجار والمزارع والشمس والأرض والانسان

فلما كانت الليلة الثانية وقد ازداد الضعف وأحست النفس به إحساسا أشد خيل لى أني واقف على جسر نهر يسمى (أبا الأخضر) بالقرب من قريتنا وفي سفح ذلك الجسر شجر شائك مما كنت أعهده هناك في نشء

هذا المكان وهو شجر (القرطم) النافع فى علم الطب وكأنى أشاهد ورقة من أوراقه خضراء فيها بقع بيض قليلة كما هو المعتاد فاستوقف نظرى ذلك المنظر وصرت فى غاية العجب من نفسى ، كل ذلك فى عالم الخيال وصرت أقول : ألم أرنى معجبا بورقة من شجرة منبوذة شائكة وهذا الشجر مسلح كله بالشوك المحدد كالحراب يغشى الشجرة من أعلاها إلى أدناها ودام ذلك العجب مدة ثم خيل لى كأن شبحا أمامى يخاطب قائلا إنى علمت مافى نفسك وإنك متعجب من نظرك لهذه الورقة وتعجبك منها ومن عادة الناس أن يبهرهم صور الأزهار الجميلة لاشجر شائك كهذه ، فقلت حقا قد أصبت مافى نفسى ، فقال إن هذا التعجب أمر على وسأبينه لك ، انظر إلى ضوء الشمس المشرق على الورقة لقد أتى لها من الشمس وسار مسافة تبلغ بسير المدفع ١٢ سنة وبسير القطار نحو ٣٦٠ سنة ، قلت نعم ، قال هذا النور يخاطب هذه الورقة قائلا لقد أرسلتنى الشمس إليك وقد أثارت الحرارة التى تصاحبنى وتلازمنى بخار الماء من البحار والغياض والرطوبات فصار سحابا ماطرا ولا يحمله إلا الهواء الذى أثرته بقوتى فأنا ما وصلت إليك إلا بعد ما أرويت أرضك فسقيتك من الماء الذى أثرته بخارا تحمله الرياح الجاريات ، ثم قال لى ذلك الشبح انظر أيضا إلى نوع هذه الشجرة وتأمل فإنها بشوكها قد حفظت بعض الحيوان كالجمال فالجمال عادة تأكله وكأن الشوك القائم على جوانب تلك الفروع الشائكة يقول للانسان وللحيوان ماعدا نحو الجمال إياك أن تقربنى وإلا مزقت جلدك وآذيتك أذى شديدا ، وما إيلامى لك بشوكى لعداوة بينى وبينك وإنما ذلك لنظام سنه مبدع هذا الوجود لحفظى لنوع من الحيوان نافع لك ، فإيذاؤك بشوكى منفعة لك فى الحقيقة لأنى اختصصت بحيوان هو سفينة الصحراء وهو الجمل وهو لك نافع ، فقلت له هذا حسن وجميل ، فقال اسمع ما هو أجمل ، فقلت وما هو ؟ قال :

الحشائش المؤذية فى الأرض كالأخلاق التى لم تهذب

اعلم أن تعجبك من هذه الورقة وغرامك بها فى حال مرضك هـذا مبنى على أمر عام ، فليس المقام خاصا بالشجرات الشائكة بل إن فى الأرض من النبات ما يخرج بالفطرة بلا حرث ولا بذر ولا زرع بل بدون عمل ما من الانسان وهذه النباتات مؤذيات للانسان ، فإنا نرى الفول والقمح والشعير والذرة تحتاج إلى حرث الأرض وسقيها والقيام عليها والجرى على نظام مسنون ، فأما الحشائش فانها تخرج بلا تسميد ولا رىّ ولا حرث ونراها تتلف قمحكم وذرتكم وشعيركم وقطنكم وبذورها المبثوثة فى الأرض تبقى فيها إلى العام القابل فتنبت فى مواعيدها وهذه كلها حرب عوان على كل ما يستنبته الانسان وهذه كلها كشجرة (القرطم) التى نظرت ورقة منها فكلها تخرج بلا عمل عامل ، هذا هو الذى تعجبت منه وإنما كان ذلك منك لما يأتى .

إن هذه الحشائش فى الأرض لها فوائد جزئية لا كلية ، فمنها ما يفيد فى طب الانسان ، ومنها ما ينفع لبعض الدواب فتأكله ، فلم يخلق الله ذلك تعذيبا للانسان بل إن الله قال لكم إن تركتم أرضكم فأنا أتولاها لتعيش حيواناتى على ما أنبته فيها وهكذا الحشرات التى ملأت بها أرضكم ، كل هذا وأنا أتولاها فأنبتّ لها ذلك الكلأ والحشائش ، وأنا الذى أعطيت تلك النباتات قوة بها تصادم الجو وتقابل العواصف والحر والبرد ، وأنا الذى أعطيت بزورها قوة الانبات فى حينها بلا تقديم ولا تأخير ، فأما قطنكم وقمحكم وشعيركم وذرتكم فانى لا أنبتها عندكم إلا بشروط فتحرثون الأرض وتسمدونها وتقلعون منها حشائشها وتحفظون بذورها فى مخازنكم ولا تتركونها فى الأرض وإلا فسدت وهكذا وليس ذلك منى تعذيبا لكم ، كلا وإنما أنا خلقتكم على صورتى فأحببت أن تقلدونى فى عملى وتنظموا كنظامى ، هذا هو الذى أردته ومن تخلق بأخلاق جاورنى فى العوالم العالية فأنا أصبتكم وأتعبتكم على مقدار ما وهبتكم لترتقوا لا لتعذبوا .

أخلاق الناس

فأما أخلاقكم الأولى التى فطرتها على الحرص والشهوة وحب الاختصاص بالمنفعة فهذه أخلاق نافعات منافع جزئية كنافع تلك الحشائش ، فكما أن الحشائش تنفع منافع جزئية هكذا الأخلاق الأولية فى الإنسان تنفع لحياته والمحافظة عليها ولكن تهذيب الأخلاق يجعل المرء نافعا للمجموع ، إن زرع الذرة والقمح يستفيد منه الإنسان والحيوان لا الحيوان وحده وتهذيب أخلاق الأفراد نافع لهم وللهيئة الاجتماعية فأنا قد كلفتكم أيها الناس بتنظيف حقولكم بقلع حشائشها وتهذيب نفوسكم بترك رذائلها والاتصاف بفضائلها .

إن هذا هو الذى كان كامنا فى نفسك حين نظرت ورقة شجرة القرطم اه .

جمال العلم وانشراح صدرى فى مرضى ومنظر الشمس والأرض

وأسنان نوع الانسان فى عالم الخيال

ثم تجلى لى منظر بهيج جميل بديع ، تجلت لى الشمس بهيئتها والأرض أمامها فتفكرت فى أمر الشمس وأنا أشاهدها وقلت إنها أكبر من الأرض ألف ألف مرة ونحو ثلث هذا العدد ، فلو فرضنا أن أرضنا حصاة وكانت الشمس هذه الحصاة مكررة بالمقدار المتقدم لأصبحت الشمس أمامنا أشبه بهضبة أو أكمة عظيمة والأرض بجانبها حصاة مرماة ثم خيل لى جسم إنسان فوق الأرض والشمس أمامى أشاهدها وقد قال لى قائل انظر ماذا ترى ؟ فقلت ماذا ؟ قال انظر أسنان هذا الانسان ، فلماذا لم تكن فى رأسه أو فى رقبته أو صدره أو فى بطنه أو على فخذه أو ركبته أو على قدمه ، ألست ترى أن وضع هذه الأسنان فى موضع مضغ الطعام بعلم ! فهل هذا الوضع بلا عقل أم هو يدل على أن واضعه تجنب كل موضع فى الجسم من المواضع التى تزيد على مائة وخصصها بالفم لمضغ الطعام ، فهل هذه الأعمال بلا عقل ولا علم ؟ قلت بل هى بعلم وحكمة ، قال أمامك الآن الشمس وأسنان الانسان وما الانسان إلا ذرة على الأرض ، وما الأرض إلا ذرة بالنسبة للشمس فهينا أمران .

العظمة والحكمة

فأما العظمة ففى هذه الشمس العظيمة فإن من يخلق هذه لابد أن يكون عظيما ولكن ليس يلزم من خلق الأمور العظيمة أحكامها فلذلك أتى لك بأسنان الإنسان ووضعها وتبين لك الحكمة فى وضعها ونظامها فعرفت أنت حقا عظمة الصانع وحكمته، فهو كما خلق العظيم لم ينس أصغر الأشياء وهى أسنان الانسان فرتبها ونظمها وأحكمها « فتبارك الله أحسن الخالقين » وهذا هو معنى ما مثل لك الليلة .

مغزى هذا المثال

ثم قال أتدرى ما مغزى هذا المثال ؟ فقلت أريد أن أعرفه منك ، فقال أنت كنت فى الليلة الفائتة تقرأ الآيات لتثبت قلبك للموت ، فقلت نعم ، فقال فقرأت « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا » الخ وأردت بذلك أنك إذا مت وتركت هذا التفسير فالله هو الذى أراد عدم إتمامه وأن ذريتك الضعيفة الباقين بعدك أراد الله لهم ذلك ، ففى هذه الليلة جىء لك بهذه المناظر ليقال لك هل تشك فى أن أسنان الانسان موضوعة وضعا متقنا وأنت طبعا لاتشك ، ويقال لك أليس الانسان على الأرض كذرة والأرض بالنسبة للشمس كذرة ؛ وإذا كان العظيم الذى خلق الشمس العظيمة لم يذر أسنان الانسان [الذى هو ليس شيئا مذكورا بالنسبة لجرم الأرض التى هى ضئيلة بالنسبة للشمس] بل سوّاها وأحكمها ، فهو إذن ينظر لصغيرات الأمور كما ينظر لكبيراتها وما يحصل لكتابك بعد موتك ولأهلك ، كل هذا لايهمله الله كما لم يهمل نظام شىء صغير جدا هو أسنان الانسان وكل ما يعمله فى أهلك وفى آثار كتبك موزون عنده معلوم وهو المنظم لكل شىء وهذا باب من أبواب عين اليقين انتهى .

ثم إني بعد ذلك شفيت من المرض فعلمت أن هذه الخواطر إنما ألهمتها لأكتبها فتكون ذخيرة لي إذا دنا أجلي وذخيرة لأخ مثلي وتذكرة لقوم يعقلون ، والحمد لله رب العالمين .

ذكرى مرضي أيام الشباب

اللهم إني أحمدك على نعمة العلم والحكمة وإنك قد أعطيتني جلّ ما أريد ، لقد كنت أيام الشباب إذ تخرجت من مدرسة (دار العلوم) موظفا بمهنة التدريس بمدرسة دمنهور الأميرية ولم ألبث إلا ثلاثة أشهر حتى انتابتني (حمى التيفوس) تلك الحمى المنذرة بالموت ، فلما رآني طبيب المدرسة أيقن بموتي فأشار أن أسافر إلى بلدي لأموت عند أقاربي فكان ذلك وشفاني الله في أسبوعين فجاء أحد أقاربي ومشى بي وسط المزارع فجلسنا بجانب حقل مزروع ذرة وقد برزت ثمراته وأنا في دور النقاهة ضعيف لا أقوى على المشي إلا قليلا ففكرت في أمر الموت وقلت في نفسي إذا مت الآن فمعناه أني تربيت وتعلمت على قدر طاقتي ولم تستفد مني هذه الحقول ومزارعها شيئا فأين شكر النعمة ! إذن كان أسفي راجعا إلى أنني أموت ولم يستفد مني أهل الأرض شيئا في معايشهم التي ربوني بها ، أما الآن فإني أحمد الله حمدا كثيرا .

إن مما يثلج صدري أنني قد أقدرني الله على ما طلبت ، ومن ذلك ما ذكرته آنفا من مسألة الكهرباء ونفعها في الحقول وتربية دودة الحرير والدجاج وما أشبه ذلك ، وفي هذا التفسير كثير مما يحض على رقي الأمم الإسلامية وغيرها ، والحمد لله رب العالمين اهـ .

الكلام على كتاب التفاحة المنسوب لأرسطو

وآيات الجنة مثل ما هنا إذ يقول الله تعالى « يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة » الخ

ومثل قوله تعالى في سورة البقرة « كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل »

لقد تقدم تفسير هذه المماثلة أي مماثلة الثواب في الآخرة لمقدماته من الأعمال في الدنيا ولكن الذي يحق لي بل يجب عليّ تبيانه اليوم أن مشابهة عالم الآخرة لعالم الدنيا كان من موضوع المحاورة بين (أرسطو) في كتاب [التفاحة] عند موته وبين تلاميذه قبل الهجرة بنحو تسعة قرون ، ولا جرم أن هذا أمر لم يعرفه أحد إذ ذاك من الأمم بل كان مخبوءا في خزائن الكتب فظهوره في القرآن من معجزات النبوة العلمية إذ كيف تكون المشابهة التي في سورة البقرة مبرهنا عليها في الحكمة والناس لا يعلمون ، وكتاب التفاحة هذا قد نشر في مجلة إنجليزية سنة ١٨٩٢ نشره الدكتور (مرغليوث) ترجمة فارسية وهو موجود أيضا باللغة العبرية منقولة عن العربية ويشك القوم في نسبتها إلى (أرسطاطاليس) وهذا لا يمنع أنها مملوءة حكمة وهو محاورة بين (أرسطاطاليس) وتلاميذه عند موته كالمحاورة بين (سقراط) وتلاميذه المسماة (بالفيدون) وقد كان (أرسطاطاليس) في مرض موته قد اشتد ضعفه فأخذ يشم التفاحة ليتقوى بها ، وهذه المحاورة ترجع إلى أمر بقاء النفس بعد الموت ، والمهمّ لنا في هذا المقام أن نذكر ما يناسب آية الجنة في سورة البقرة لمناسبة ذكرها هنا ولقوله هنا « بما كنتم تعملون » .

سأل (اقريطون) الفيلسوف (أرسطو) قائلا ما الدليل على أن العالم الغائب مثل العالم الحاضر ؟ فقال (أرسطو) فهل تسلم أنه لا شيء سوى المعرفة ونقيضها ؟ قال (اقريطون) نعم ، قال (أرسطو) هل تسلم أن الشيء لا يكون صلاحه إلا مما يشبهه ولا تكون مضرته إلا مما يخالفه ؟ قال (اقريطون) لا شك في ذلك ، قال (أرسطو) فإذا لم يكن جزاء الحكمة على مثل ما هي فإنه يجب أن يكون على خلافها ، فإذا كان كذلك فقد يكون جزاء الحكيم الجهل وجزاء البصير العمى وجزاء العمل الصالح العمل الطالح فهذا لا يكون ثوابا وإنما يكون عقوبة وعلى ذلك فمن تحمل مشقة الحكمة لا يكون له ثواب وهذا غير صحيح فلابد أن يصح خلافه فجزاء الإبصار

تكون البصيرة وجزاء صالح الأعمال يكون الخير وجزاء طلب الحكمة وجدان الحكمة ، قال (اقريطون) لايسعنى إلا الاعتراف بأن الحكمة يكون لها جزاء مثلها وأن الجهل يعاقب عليه ، قال (أرسطو) فقد اعترفت بأن جزاء الجاهل يكون على خلاف جزاء الحكيم وإلا لجزاء العمى يكون الإبصار وجزاء بغض الحكمة نيل الحكمة وهذا غير صحيح فلزم صحة نقيضه .

ثم تلا ذلك بقية الموضوع، وملخصه أن (اقريطون) قال إذا أنا أنكرت أن للحكمة مثوبة وللجهل عقوبة فماذا تجيب ؟ فأجاب (أرسطو) قائلا ألفائدة أم لمضرة سؤالك لى ؟ فقال بل لفائدة العلم والفرار من الجهل ، قال (أرسطو) فقد اعترفت أن العلم نافع والجهل مضر ، فقال (اقريطون) سلمت بفائدة الحكمة فى الحياة لابعد الموت ، فقال (أرسطو) هل فائدة الحكمة الالتذاذ بالمعيشة أم الازدياد فى الحكمة ؟ فقال (اقريطون) أنا قد سلمت أن للحكمة فائدة وقد كنت من قبل سلمت أن الحكمة مضرة بلذة الحياة فلزمنى الآن أن تكون فائدتها فى عالم الآخرة ، قال (أرسطو) لو أنك أنكرت فائدتها فى عالم الغيب وقد كنت سلمت بأنها ضارة بلذة الحياة الدنيا فتكون إذن نفيت منفعتها فى الدارين وهذا يناقض ما سلمت به من فائدتها ، إذن أقررت بأن للحكمة جزاء فى الآخرة ، انتهى الكلام على التذكرة الأولى .

التذكرة الثانية فى قوله تعالى « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون بالبينات والزبر »

يقول الله تعالى فاسألوا يا أهل مكة أهل الكتاب من اليهود والنصارى ليخبروكم أن الله لم يبعث إلى الأمم السالفة إلا بشرا ، لأن الملائكة لايظهرون للناس ولو ظهروا لكانوا بشرا فيلتبس الأمر على الناس وإنما أمرناكم بهذا لأنهم علماء بما أنزل على موسى وعيسى وغيرهما وقد أوجبنا على الجهال أن يسألوا العلماء فيما يجهلون، وقوله «بالبينات» الخ متعلق بتعلمون ، والبينات : المعجزات ، والزبر : الكتب . ولما وصلت إلى هذا المقام حضر صديق العالم الذى اعتاد أن يجاذبنى أطراف الحديث فى المسائل العظيمة فى هذا التفسير ، فقال فى نفسى شىء أريد أن أذكره الآن فى هذه الآية ، فقلت قل ما تشاء ، قال ها أنا ذا من أبناء العرب وأنا لست فى حاجة إلى سؤال اليهود والنصارى على الرسالة بل أنا الحامل للدين ، والنصارى يرسلون المبشرين ليردوا المسلمين عن دينهم ونحن أبناء العرب الذين حملنا هذا الدين إلى الهند والصين وجزائر الهند الشرقية وأفريقيا وأوروبا واليابان وأمريكا وذلك إما بنا أو بواسطة الأمم التى أسلمت على يد آبائنا فما فائدة هذه الآية إذن لنا ؟ فقلت اعلم أن العلوم على قسمين: علوم يعرفها الناس بالبرهان بأن تستبين بنفسها، أو بالاستدلال عليها عقلا ، وعلوم يقرؤها الناس فى كتب الأولين فتوقظهم ؛ فالقسم الأول نظير المعجزات المذكورة ، والقسم الثانى نظير الكتب السماوية ، وإذن نحن الآن معاشر المسلمين ملزمون أن نقرأ العلوم الطبيعية والرياضية بأقسامهما. وبعبارة أخرى : كل علم نعقله ونفهمه فى المدارس كتشريح الأجسام وفهم نظام النبات والحيوان فإن هذا كله بين بنفسه يدرسه الناس ويفهمونه وهم يشاهدونه، فهذه هى البينات كاستبانة المعجزات، فالمعجزات لأجل العوام وهذه لأجل الخواص ، فعلم النبات بينات وعلم الحيوان بينات وعلم خواص الأعداد بينات وعلم الهيئة وتعداد النجوم وأقدارها بينات لأنها قام عليها البرهان ، فبراهين هذه العلوم حية يشاهدها الناس بأعينهم وانظر إلى علم الكيمياء ، ذلك العلم الذى يدرسه الناس اليوم ويحللون المواد فى معاملهم ويشاهدون جمال الله ظاهرا واضحا فيه ويعقلون به نظام الذرات فيجدونها داخلة فى الأجسام بحساب دقيق تقدم بعضه فى سورة البقرة عند قوله تعالى « وانظر إلى حمارك الخ » وفى مواضع أخرى من هذا التفسير وسيأتى فى سورة العنكبوت جدول منتظم أبدع نظام ليعلم الناس أن الله لما خلقها جعل لها قوانين منظمة وهكذا ما تقدم فى أوراق النبات فى سورة الحجر قريبا ، هذه هى البينات التى أشبهت معجزات الأنبياء فى كونها واضحة ظاهرة للخواص

كالأول للعوام والخواص معا ، فأما كتب الأمم فإن هذا الدين يطلبها كلها ، فانظر إلى أممنا الإسلامية السابقة كيف قرءوا كتب اليونان ومن تبعهم من علماء الاسكندرية الذين لخصوا كتب أساتذتهم ؟ ولعلك تذكر مسألة الجزء الذى لا يتجزأ التى يقول به علماء الأشاعرة وهو من أمهات مسائلهم فإنه رأى (ديموقراطيس) الحكيم اليونانى، وهكذا ترى مذهب المعتزلة قد استند فى كثير من مسائله إلى علماء (الرواق) من اليونان وهم تابعون فى آرائهم (سقراط الحكيم) وهكذا ترى ابن سينا والفارابى وحكماء الأشراف من أمتنا الإسلامية قد اقتبسوا فلسفة اليونان من حكماء الاسكندرية وهم الذين لخصوا مذاهب اليونان منهم ورئيسهم رجل يقال له (أفلوطين) عاشوا بعد الميلاد فى القرون الأولى وعرفوا زبدة آراء الفلاسفة (سقراط وأفلاطون وأرسطاطاليس) ووقعت كتبهم فى أيدى حكماء الإسلام فلم يعرف الناس (أفلوطين) هذا وشيعته وإنما عرفوا (سقراط) ومن عطف عليه لعدم شيوع علم تاريخ الفلاسفة بيننا ، فقال صاحبى أنا الآن أسألك فى تفسير القرآن وأنت أخذت تشرح مذاهب الفلاسفة وتأخذ بى فى مجاهل يضل فيها السارى مالنا وللأفلاطون وأفلوطين وسقراط ؟ حدثنا عن ديننا وعلمنا ودع التطويل فيما لا يفيد ، قلت أيها العزيز هذا يعلمنا أن آباءنا قرءوا علوم الأمم التى تقدمتهم . وإذا كان الله يقول لأهل مكة اسألوا أهل الكتاب عن أمرين : المعجزات والكتب حتى تعرفوا الحقائق التى تطلبونها ، أفلا يقول لنا اقرءوا العلوم الشاهدة فى المدارس والعلوم الغائبة فى الكتب وقد تيقظ آباؤنا فدرسوا علوم الأمم وأيقظوا الشعوب كما تراه واضحا فى سورة التوبة من التاريخ وضوحا تاما فلولا ذلك لظلت الدنيا فى نومها العميق ، وإذا كانت المدنية الحاضرة فى الغرب والشرق ثمرة اطلاع آبائنا على علوم الأمم فإن الأمر عظيم وواجبنا نحن أعظم ، فقال وماهو واجبنا ؟ قلت واجبنا قراءة تاريخ الفلسفة القديم والحديث ومعرفة نفس الفلسفة أى نقرأ الفلسفة وتاريخها، والعلوم بدون تاريخها تكون بتراء ناقصة لأن العلوم الحاضرة مرتبطة بالعلوم السابقة وما العلوم إلا شجرة تنبت وتتفرع ، فليكن فى أمتنا اليوم أناس يدرسون تلك العلوم قديمها وحديثها مع تاريخها ، وإذا جهلنا القديم من العلوم لم نفهم الحديث ، وعلماء أوروبا لم يرتقوا عن علماء اليونان وعلماء الاسلام إلا فى العلوم الجزئية ؟ أما المسائل العامة كالكلام فى الله وفى اليوم الآخر والنفس والروح وما أشبه ذلك فالعلم بها قديما هو العلم حديثا ، والناس اليوم لا يزالون كما كانوا منذ آلاف السنين يتقدمون خطوة ويتأخرون خطوات ، فقال إن هذا القول منك عجب كأنك تقول إن أمثال (سبنسر) و (داروين) و(لامارك) و(شوبنهور) وأمثالهم ليسوا أعلم من الأولين ، فقلت نعم ! لا ، فهم أعلم منهم بالعلوم الجزئية وهم مثلهم أو أقل منهم فى العلوم الكلية ، فقال أريد أن يكون لقولك دليل من كلامهم ، فقلت فاسمع ما ذكره العلامة (ستلانه الطليانى) الذى كان مدرسا بالجامعة المصرية وقد اختاره ملك مصر وملك إيطاليا لذلك فهاك نص ما قاله :

كأنى بقائل يقول ما الفائدة فى كتبك هذه التواريخ البالية والرسوم الفانية إن هى فى نفس الأمر إلا أساطير الأولين وأوهام الأقدمين، مالنا ولأفلوطون وأرسطو وأصحاب الرواق وبقية القوم وقد اندثر أثرهم وتنوسى ذكرهم ، مالك لا تذكر لنا أقوال المعاصرين من العلماء ورأيهم فى النفس وأحوالها وتعلقها بالبدن الذى هو موضوع العلم المعروف عندهم (بيسيكولوجى) ولماذا لا تأخذ فى تفسير قول الفلاسفة المعاصرين لنا مثل (هربرت سبنسر) وغيره [لا فلسفة إلا الفلسفة الراهنة] هذا هو العلم النافع الذى نحتاجه فى مثل وقتنا ، ما هذا إلا خرافات الأقدمين التى لا تجدى نفعا ولا تشفى غليلا ، فأقول إن الفلسفة التى ذكرتها لا ينكر فائدتها إلا جاهل أو معاند أو كلاهما إلا أنك إذا أردت أن تفهمها حق الفهم فلابد لك من معرفة آراء الأقدمين إذ الفلسفة وسائر العلوم كالمرء يكون طفلا ثم يشب ثم يصير كهلا وهو شخص واحد وكالسلسلة

كل

كل حلقة منها ارتبطت بالأخرى حتى لايمكن حلها من غير أن يفسد الجميع ، فمن لم يقف على أقوال القدماء حق الوقوف لايتمكن من استنباط آراء المعاصرين ولا من سبب اتخاذهم رأيا دون رأى ولا ما آلت إليه الفلسفة فى حالها الراهنة ، قال (باكون) الفيلسوف الانجليزى [إن التاريخ للعلوم كالبصر لجسد الانسان به يبصر ما تقدم وما بين يديه لكى يعلم الناحية التى ينبغى له أن يقصدها] اه .

ثم إنه لا يخفى أن المسائل الفلسفية لاتتغير بتغير الزمان وهى الآن على ما كانت عليه فى القرون الماضية من البحث عن ماهية الوجود ووجود الإله وجوهر النفس وكيفية اتصالها بالبدن وإدراكها بالحس وماهى حق المعرفة والميزان الذى به تقاس حقيقتها فهذه المسائل وأمثالها الذى اشتملت عليها الفلسفة لم تختلف باختلاف الأجيال ، أتظن أنا نحسن الجواب أكثر مما كان يحسنه أفلاطون وأرسطو؟ لا والله إنا لو قدونا على ذلك لقدرنا على الاتصاف بصفات الألوهية وشتان ما بين البعوضة والفيل ، فلو راجعت (هربرت سبنسر) مثلا الذى ذكرته آنفا لوجدته يعترف فى كتابه الموسوم بالأصول الأولية بأن الأوليات فى الفلسفة ما لا طاقة للبشر عليها وأن لاسابقية لنا على الأقدمين إلا فى المسائل الجزئية والمباحث الفرعية دون ما يهمنا حله من المشكلات فى الأصول فالمسألة الباقية والجواب يختلف ، وكل جيل أخذ سبب من تقدمه يخطو ثلاث خطوات ويؤخر أخرى ، وبيننا وبين الغاية المقصودة بون بعيد كاد لايتصوره عقل البشر فضلا عن أن يتخطاه ، ذلك سر الله لايحيط به إلا هو فلا يغرنك أيها الحبيب شقشقة المتفلسفين وانصت إلى الفلاسفة تجد كلا منهم راكنا إلى من تقدمه يوافقه تارة ويخالفه أخرى إلى أن ينتهى النسق إلى فلاسفة اليونان ولهم حق السبق وفضيلة التمهيد ، فاذا لم يكن من السائغ لذى أدب من الافرنج أن يجهل ما كان عليه حكماء اليونان كيف يسع ذلك مصريا ومسلما ، والعلوم الاسلامية منذ بدء نشأتها مؤسسة على علوم اليونان وأفكار اليونان بل وعلى أوهام اليونان حتى لايكاد يفهم آراء حكماء الإسلام ولا مذاهب قدماء المتكلمين ولا بدع المبتدعين من لم يكن له بحكمة اليونان معرفة شافية لا بمجرد الإلمام وهذا لا يحتاج إلى برهان بل نعول فيه على البيان فصار هذا التاريخ والحالة هذه كالمقدمة الضرورية لتاريخ المدنية الاسلامية لايسع أحدا من هذه الأمة إهماله ولا طالب الحكمة جهله ، فأرجو أيها السادة من مجتمع الوطن الاعتناء بهذا التاريخ الجليل الذى به أحرز الاسلام قصب السبق فى القرون المتوسطة ونال به فخرا باله من فخر! فما من أمة أخذت فى الترقى إلا وأقبلت على طلب أخبارها وإحياء ما اندرس من آثارها فاذا أهملتها كان ذلك أظهر شعار على التلاشى والإدبار ، وفيما قلناه كفاية لأولى الأبصار ، نعم إن هذا التاريخ يستدعى من طالبه مزيد العناية وطول الاجتهاد وذلك من شروط كل علم . قال الحكيم اليونانى [العلم فى موطنه كالذهب فى معدنه لايستنبط إلا بالدأب والتعب والكد والنصب ، ثم يجب تخليصه بالفكر كما يخلص الذهب بالنار] اه .

فلما سمع صاحبى ذلك قال لقد استفدت الآن فوائد لم تكن فى الحسبان :

(١) الأولى : إن تاريخ العلوم تجب قراءته .

(٢) الثانية : إن علماء الاسلام الآن عليهم أن يتموا دراسة مذاهب الأشاعرة والماتريدية والمعتزلة بقراءة كتب اليونان من استطاع لذلك سبيلا .

(٣) الثالثة : إن تلك الثرثرة التى تسمعها فى مصر وغيرها من قولهم إن فلانا ملحد لأنه قرأ علوم أوربا باطلة وقبضهم الريح لا هى فى العير ولا فى النفير لأنهم هم أنفسهم يقولون إن أهم ما يقصد من الفلسفة وهى الحقائق العامة لم تزل على ماهى عليه من القديم إلى الحديث ، فاذن لاحق لأهل العلم فى بلاد الشرق أن تنخلع قلوبهم ويهلعوا ويجبنوا حينما يسمعون الألقاب الضخمة للفلاسفة المعاصرين وينقل الناس عنهم

الكفر فزلزل العقائد ؛ فالعقل الانسانى قديما وحديثا لايزال فى دائرة واحدة والآراء القديمة هى نفس الحديثة فى مسألة الله والنفس والعقل والعالم الذى نحن فيه وأنا الآن قد عثرت على كنز ثمين من العلم بهذا المقال للمتع الذى نقلته عن الفيلسوف الثليانى .

(٤) الرابعة : إن قوله تعالى « فاسألوا أهل الذكر » الخ قد فتح لنا أبواب العلوم على مصراعيها وهو الذى به أزهرت المدنية الإسلامية وتبعتها المدنية الحاضرة ، كل ذلك بسر القرآن .

(٥) الخامسة : إن فكرة الإلحاد المنتشرة بين بعض المتعلمين فى مصر وغيرها من بلاد الشرق ، إنما يريد هؤلاء المدعون أن يظهروا للناس أنهم أعلم من جميع المسلمين ، والدليل على ذلك أنهم نبذوا علوم المسلمين وعلوم دينهم وذلك يتخذونه سترا لجهلهم ، والشعوب الشرقية الآن فى مبدأ التطور ، فهذه الثرثرة قد يغتر بها بعض الرؤساء لجهلهم بتلك العلوم ولكن الشرق آخذ فى الاستيقاظ . قال الشاعر :

وكاذب الفجر يبدو قبل صادقه وأول الغيث قطر ثم ينسكب

وهؤلاء المدعون سيعرفهم الناس عاجلا أو آجلا وتنقرض هذه الطائفة ويحل محلها الفلاسفة الحقيقيون والحكماء كما كان المسلمون فى أعصر الاسلام الزاهرة ، فقلت إن هذا الاستنتاج هو الذى فى نفسى وهذه الآراء التى فى هذا المقال هى من سر قوله تعالى « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » .

فنحن فى الأرض وجميع علمائها قديما وحديثا لا يزالون أطفالا فى أصل العالم والحقائق والنفس التى ذكرها القرآن ، والحمد لله رب العالمين ، انتهى الكلام على تفسير القسم الأول من السورة .

(القِسْمُ الثَّانِى)

وَقَالَ اللهُ : لَا تَتَّخِذُوا إِلٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلٰهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ * وَلَهُ مَا فِى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللهِ تَتَّقُونَ * وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ * ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ * وَيَجْعَلُونَ لِلّٰهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ * وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِى التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ * لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلّٰهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلٰكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ * وَيَجْعَلُونَ لِلّٰهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ * تَاللهِ لَقَدْ

أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ * وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ
يُؤْمِنُونَ * وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ
يَسْمَعُونَ * وَإِنَّ لَكُمْ فِى الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِى بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ
لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ * وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا
حَسَنًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِى مِنَ الْجِبَالِ
بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِى مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا
يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ
يَتَفَكَّرُونَ * وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ
لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ * وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ
فُضِّلُوا بِرَادِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ * وَاللَّهُ جَعَلَ
لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ
أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ * وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ
رِزْقًا مِنَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ * فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ
وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا
حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَضَرَبَ
اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ
بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمٰوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ *
وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ
وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِى جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ
إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ

لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا
وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ * وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ
لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ
كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ * فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ *
يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ * وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ
شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ * وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ
فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ * وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا
هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ *
وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ * الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ
سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ * وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ
شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا
لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ *

التفسير اللفظي

قال تعالى (وقال الله لاتتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد) إلهين وإله دل كل منهما على الجنسية وعلى العدد المخصوص ، فإذا أريد الدلالة على أن المقصود منهما هو العدد أتى بما يؤكده ليدل به على القصد إليه والعناية به، ولو قلت إنما هو إله بلا تأكيد خيل أنك تثبت الألوهية لا الوحدانية (فارهبون) خافون (وله الدين واصبا) له الطاعة لازمة ، أو له الجزاء دائما فلا ينقطع ثوابه ولا عقابه (وما بكم من نعمة) عافية وغنى وخصب فهو من الله (الضر) المرض والفقر والجدب وأمثالها (تجأرون) تتضرعون . والجؤار : رفع الصوت بالدعاء والاستغاثة ، ومنه جؤار البقر (ثم إذا كشف الضر عنكم) أزال الشدة والبلاء (فريق) طائفة وجماعة (بربهم يشركون) فيضيفون كشف الضر إلى العوائد والأسباب ولا يسندونه لله (ليكفروا بما آتيناهم) أى لأجل أن يجحدوا نعمة الله عليهم فى كشف الضر أو أن عاقبة أمرهم هو كفرهم بما آتيناهم من النعماء ، وكشفنا عنهم الضر والبلاء ، فاللام إما لام كى أو لام العاقبة (فتمتعوا) أمر تهديد (فسوف تعلمون) عاقبة أمركم إلى ماذا تصيرون، وهو نزول العذاب بكم (ويجعلون لما لايعلمون) أى ويجعلون لآلهتهم التى لايعلمونها فيعتقدون فيها الأكاذيب فيقولون إنها تشفع لهم وتنفعهم، فواو يعلمون راجعة للمشركين (نصيبا مما رزقناهم) جعلوا لتلك الأصنام نصيبا فى أنعامهم وزرعهم تقربا إليها (تالله لتسألن عما كنتم تفترون) أنها آلهة وأنها أهل للتقرب إليها (ويجعلون لله البنات) كانت خزاعة وكنانة تقول الملائكة بنات الله لأنهم مستترون كالنساء ولدخول التأنيث فى التسمية (سبحانه) نزه نفسه عن قولهم (ولهم ما يشتهون) معطوف على البنات ، وسبحانه اعتراض :

أى وجعلوا لأنفسهم مايشتهون من الذكور (ظلّ وجهه مسودا) أى صار وجهه متغيرا من الغم والحزن والغيظ والكراهة الحاصلة من هذه البشارة (وهو كظيم) ممتلىء غما وحزنا (يتوارى من القوم من سوء ما بشر به) يختفى من ذلك القول الذى بشر به، وذلك أن العرب كانوا فى الجاهلية إذا قربت ولادة زوجة أحدهم توارى من القوم إلى أن يعلم ما ولد له ، فإن كان ولدا ابتهج وظهر ، وإن كانت أنثى حزن ولم يظهر أياما حتى يفكر ما يصنع (أيمسكه على هون) أيمسك ما بشر به على هوان (أم يدسه فى التراب) أم يخفيه فيه وذلك بالوأد (ألا ساء مايحكمون) إذ يجعلون لمن تعالى عن الولد ماهذا محله عندهم (مثل السوء) صفة السوء من احتياجهم إلى الولد الذكر وكراهتهم الإناث وقتلهن بوأدهن خوف الفقر (ولله المثل الأعلى) الصفة العليا المقدسة وهو أن له التوحيد وأنه المنزه عن الولد وأنه لا إله إلا هو وله جميع صفات الجلال والكمال من القدرة والعلم الخ (وهو العزيز) المنيع تكبرا وجلالا (الحكيم) فى جميع أفعاله (بما ظلموا) أى بسبب ظلمهم فيعاجلهم بالعقوبة على ظلمهم وكفرهم وعصيانهم (ما ترك عليها) على الأرض (من دابة) أى دابة ظالمة وهم الكفار وأمثالهم قال تعالى « إن شر الدواب عند الله الذين كفروا » (ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى) سماه لأعمارهم (ويجعلون لله ما يكرهون) أى ما يكرهونه لأنفسهم من البنات ومن شركاء فى رياستهم ومن الاستخفاف بالرسل ومن أراذل أموالهم ويجعلون أكرمها لأصنامهم (وتصف ألسنتهم الكذب) مع ذلك أى ويقولون الكذب (أن لهم الحسنى) عند الله وهى الجنة كما فى سورة السجدة «ولئن رجعت إلى ربى إن لى عنده للحسنى» (لاجرم أن لهم النار وأنهم مفرطون) مقدمون إلى النار معجلون إليها . يقال أفرطت فلانا فى طلب الماء إذا قدمته (فزين لهم الشيطان أعمالهم) من الكفر والتكذيب (فهو وليهم اليوم) أى ولىّ أمثالهم اليوم من مشركى العرب وغيرهم. والولىّ : القرين والناصر ،ومن كان الشيطان نصيره فما مصيره؟ (ولهم عذاب أليم) يوم القيامة (إلا لتبين لهم) للناس (الذى اختلفوا فيه) من التوحيد وأمر الدين والأحكام فتعرفهم الهدى والحق والحلال وتصرفهم عن الضلال والباطل والحرام (وهدى ورحمة) أى وما أنزلنا عليك الكتاب إلا بيانا وهدى ورحمة (لقوم يؤمنون) فينتفعون به (والله أنزل من السماء ماء) مطرا (فأحيا به الأرض) يعنى بالنبات والزرع (بعد موتها) يبسها (لآية) دلالة واضحة ترقى العقول وتوقظ الأمم وتدل على كمال قدرتنا (لقوم يسمعون) سماع تدبر وإنصاف وتفكر ولاعبرة بسماع الآذان إلا كما يسمع الحيوان (لعبرة) إذا تفكرتم فيها عرفتم فنمت عقولكم وبها تعرفون عظم قدرتنا وكمالها (مما فى بطونه) أى نسقيكم مما فى بطون ماذكرنا من الأنعام (من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين) الفرث : مافى الكرش من الثفل ومتى خرج لايسمى فرثا وقوله « خالصا » أى صافيا لايستصحب لون الدم الذى هو أصله وكوّن منه ولا رائحة الفرث الذى فصل الدم عنه بواسطة الكبد الذى ورد إليه خلاصة المواد المأكولة فاستحالت إلى دم واستحال الدم إلى لبن فهو خالص من أصله وهو الدم ومما استخلص الدم منه وانفصل عنه وهو الفرث « سائغا للشاربين » سهل المرور فى حلقهم (ومن ثمرات النخيل والأعناب) ثمر (تتخذون منه سكرا) وهو ماسدّ الجوع من قولهم [سكرت النهر] أى سددته ، ولا جرم أن التمر والزبيب مما يسد الجوع وهذا معنى قول أبى عبيدة إن السكر الطعم ، يقال هذا سكر لك : أى طعم لك ، قال الشاعر .

* جعلت أعراض الكرام سكرا *

أى تنقلت بأعراضهم ، وقوله (ورزقا حسنا) الرزق الحسن : سائر مايتخذ من ثمرات النخيل والأعناب كالدبس والتمر والزبيب والخل (لآية لقوم يعقلون) أى دلالة ترفع عقولهم هى وأمثالها فيعرفون خالقهم وقدرته (وأوحى ربك إلى النحل) ألهمها وقذف فى قلوبها (أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما

يعرشون) عبر بمن التي للتبعيض لأنها لاتبنى إلا في بعض الجبال والشجر وبعض ما يعرش الناس أي يبنون من البيوت والسقوف والكرم والكورات (ثم كلي من كل الثمرات) أي من كل ثمرة تشتهيها (فاسلكي سبل ربك) فادخلي الطرق التي ألهمك وأفهمك في عمل العسل والطرق التي ترجعين فيها من المواضع البعيدة عن بيوتك (ذللا) جمع ذلول وهي حال من السبل فإن الله ذللها وسهلها فذلل طرق عمل العسل الصناعية وطرق رجوع النحل من المحال البعيدة إلى بيوتها (يخرج من بطونها شراب) يعني العسل (مختلف ألوانه) أبيض وأصفر وأحمر وأسود بحسب اختلاف المراعي (فيه شفاء للناس) لأنه من الأدوية النافعة وقل من معجون من المعاجين لم يذكر الأطباء فيه العسل، فهو شفاء الناس من الأمراض التي خلق دواء لها فإن لكل داء دواء، وقد أكثر الله الأدوية كما أكثر الأمراض (إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون) فيعرفون كيف اتصف النحل بتلك الصناعات الدقيقة والأفعال العجيبة كما ستراه عند الكلام على صنع الشمع وتربية الذرية قريبا ، فمن تفكر في هذا وأمثاله ازداد عقله وارتقت مدنيته ثم عرف الله (والله خلقكم ثم يتوفاكم) بآجال مختلفة (ومنكم من يرد) يعاد (إلى أرذل العمر) أخسه وأضعفه وهو الهرم الذي يشابه الطفولية في النسيان وسوء الفهم (إن الله عليم) بمقادير الأعمار (قدير) يميت الشاب النشيط ويبقي الهرم الفاني (والله فضل بعضكم على بعض في الرزق) فمنكم غني ومنكم فقير ومنكم موالي يتولون أرزاقهم ورزق غيرهم ومنكم مماليك (برادي رزقهم) بمعطي رزقهم (على ماملكت أيمانهم) على مماليكهم حتى يستووا فيه هم وعبيدهم (فهم فيه سواء) متساوون ؛ والمعنى أن الله جعل الناس متفاوتين في الرزق كالموالي والعبيد، وقد جرت العادة أن المولى لايجعل عبده مساويا له في الرزق بل هو أبقى السلطان لنفسه والاعتلاء ، وإذا كان هذا طبعكم مع عبيدكم وأنتم مخلوقون فكيف ترضون أن يكون لي شركاء في ملكي ، فلقد رضيتم لي بأخس الأمرين البنات وشركة العبيد في الألوهية معي وأنتم لابنات ترضون ولا شركاء تبغون (أفبنعمة الله يجحدون) الاستفهام إنكاري أنكر عليهم أن يجحدوا نعمة الله (والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا) أي من جنسكم لتأنسوا بها وليكون أولادكم مثلكم (وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة) جمع حافد وهو الذي يسرع في الطاعة والخدمة ومنه مافي القنوت [نسعى ونحفد] .

ولما كان كل من النبات وأزواج البنات وذرية الزوجة من غير الرجل المعبر عنهم بالربائب وأبناء أبناء الرجل وأبناء بنات الرجل ، لما كان كل من هذه الأنواع الخمسة يخدمون الرجل ويعينونه عادة في مصالحه دخلوا جميعا في معنى الحفدة فجعل الله الزوجة سببا لهؤلاء الخمسة (ورزقكم من الطيبات) من النعم التي أنعم الله بها عليكم من الثمار والحبوب والحيوان والمستلذات من ذلك كله (أفبالباطل يؤمنون) أي بالأصنام وبالشيطان (وبنعمة الله هم يكفرون) فيضيفون ما أنعم الله به عليهم الى غيره (ما لايملك لهم رزقا) هي الأصنام (شيئا) بدل من «رزقا» والرزق بمعنى المرزوق وهو نفس المطاعم والملابس وغيرها، ولفظ «شيئا» المبدلة منه يدل على القلة ، ومن السموات والأرض صفة لرزقا ، فهذه الأصنام لاتملك قليلا من الرزق الكائن في السموات والأرض (ولا يستطيعون) أن يتملكوه، وعبر بالواو هنا على معنى الآلهة وقال أولا «لايملك» على اللفظ (فلا تضربوا لله الأمثال) فلا تجعلوا لله مثلا فإنه لامثل له أي فلا تجعلوا له شركاء (إن الله يعلم) أنه لامثل له من الخلق (وأنتم لاتعلمون) ذلك، أويعلم كيف يضرب الأمثال وأنتم لاتعلمون كيف تضربونها، وضرب المثل تشبيه حال بحال . ثم ضرب مثلين فقال في أولهما (ضرب الله مثلا عبدا) هو بدل من مثلا (مملوكا لايقدر على شيء ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه سرا وجهرا) أي مثلكم في إشراككم بالله الأوثان مثل من سوى بين عبد مملوك عاجز عن التصرف وبين حر مالك قد رزقه الله مالا فهو يتصرف فيه

وشفق منه ماشاء . ولما كان العبد يشمل الرقيق والحر لأنهم عبيد الله قيده بالمملوك (هل يستوون) أى لايستوى القبيلان (الحمد لله بل أكثرهم لايعلمون) أن الحمد لله لا لهذه الأصنام ، وقال فى ثانيهما (وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شىء) إلى قوله (وهو على صراط مستقيم) أى بين الله صفة رجلين الأبكم الذى لايحسن الكلام وهذا البكم إما ناشىء عن صمم خلق، وإما لعلة غير الصمم مع أنه لاعلة له فى أذنيه فهو يسمع ولكن لسانه معتل وعليه فكل من ولد غير سميع أبكم لأن الكلام بعد السماع ولا سمع له، وليس كل أبكم يكون أصم صمما طبيعيا فبعض البكم لايكونون صما هذا تحقيق المقام (وهو كل على مولاه) أى ثقيل على من يلى أمره ويعوله (أينما يوجهه لايأت بخير) حيثما يرسله ويصرفه فى طلب حاجة أو كفاية مهم لايأت بنجح لأنه عاجز لايفهم ولايفهم (هل يستوى هو) أى من هذه صفته الذميمة (ومن يأمر بالعدل) أى ومن هو سليم الحواس عاقل ينفع نفسه وينفع غيره يأمر الناس بالعدل (وهو) نفسه (على صراط مستقيم) على سيرة صالحة ودين قويم وليس يتمكن من الأمر بالعدل إلا المستقيم السيرة ، وهذا المثل الثانى ضربه الله لنفسه وللأصنام لإبطال المشاركة بينها وبينه (ولله غيب السموات والأرض) يختص به علم ما غاب فيهما عن العباد ومنه يوم القيامة (وما أمر) قيام (الساعة) فى سرعته وسهولته (إلا كلمح البصر) إلا كرجع الطرف من أعلى الحدقة إلى أسفلها (أو هو أقرب) أى أو أمرها أقرب منه فيكون فى زمان ربع أو ثمن تلك الحركة أو أول تحريكها لأنه بكلمة كن (إن الله على كل شىء قدير) فكما قدر على إحياء الخلائق دفعة قدر على إحيائهم متدرجا . ثم أخذ يصف ذلك فقال (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئا) أى غير عالمين شيئا (وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة) أى القلوب تعقلون بها (لعلكم تشكرون) أى أنعم عليكم بهذه الحواس لتستعملوها فى شكر من أنعم بها عليكم (ألم يروا إلى الطير مسخرات) مذللات (فى جو السماء) الجو الفضاء الواسع بين السماء والأرض (ما يمسكهن إلا الله) فى حال قبضها أجنحتها وبسطها واصطفافها فى الهواء (إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون) وتلك الآيات كتسخير الطير للطيران وخلق الجو الذى تطير فيه وإمساكها فى الهواء (والله جعل لكم من بيوتكم سكنا) موضعا تسكنون فيه فى الإقامة كالبيوت المتخذة من الحجر والمدر (وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا) هى القباب المتخذة من الأدم ومن الوبر ومن الصوف والشعر فهى نابتة على الجلود (تستخفونها) تجدونها خفيفة (يوم ظعنكم) وقت ترحالكم (ويوم إقامتكم) أى وتخف عليكم فى إقامتكم وحضركم، فهى لاتثقل عليكم فى الحالين (ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها) الضمير للأنعام: أى ومن أصواف الضأن وأوبار الإبل وأشعار المعز (أثاثا) الأثاث متاع البيت الكبير من فرش وأغطية وأكسية، من أث إذا كثر وتكاثف، ويقال للمال أثاث إذا كثر (ومتاعا) أى ما تتمتعون به (إلى حين) إلى حين أن يبلى أو تقضوا أوطاركم منه أو إلى مماتكم (والله جعل لكم مما خلق) من الشجر والجبل والأبنية وغيرها (ظلالا) تستظلون بها من حر الشمس (وجعل لكم من الجبال أكنانا) مواضع تسكنون بها من الكهوف والبيوت المنحوتة جمع كن (وجعل لكم سرابيل) ثيابا من الصوف والكتان والقطن وما أشبه ذلك (تقيكم الحر) أى والبرد ، وخص الأول بالذكر لأن وقاية الحر كانت أهم لهم (وسرابيل تقيكم بأسكم) أى الدروع ، والسربال يعم كل لباس (كذلك يتم نعمته عليكم) أى كإتمام هذه النعمة التى تقدمت (لعلكم تسلمون) أى تنظرون فى نعمه فتؤمنون وتنقادون لحكمه (فإن تولوا) أى أعرضوا ولم يقبلوا منك (فإنما عليك البلاغ المبين) أى فلا يضرك فإنما عليك البلاغ فأقام السبب مقام المسبب (يعرفون نعمة الله) أى يعرف المشركون نعمة الله كالتى عددها ويعترفون بأنها من الله (ثم ينكرونها) بعبادتهم غير المنعم وقولهم إن الأصنام تشفع لهم (وأكثرهم الكافرون) الجاحدون عنادا ، ومن النعم هذا القرآن ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم (ويوم نبعث من كل أمة شهيدا)

وهو نبينا يشهد لهم وعليهم بالإيمان والكفر (ثم لايؤذن للذين كفروا) فى الاعتذار إذ لاعذر لهم (ولاهم يستعتبون) يسترضون، من العتبى وهى الرضا (وإذا رأى الذين ظلموا العذاب) عذاب جهنم (فلا يخفف عنهم) أى العذاب (ولاهم ينظرون) يمهلون (وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم) أوثانهم التى سموها شركاء، أوالشياطين الذين أغروهم (قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعو من دونك) نعبدهم، وهو اعتراف بأنهم كانوا فى ضلال (فألقوا إليهم القول إنكم لكاذبون) أى أجابتهم الأوثان بالتكذيب وأنهم ماعبدوهم حقيقة وماعبدوا إلا أهواءهم (وألقوا إلى الله يومئذ السلم) أى ألقى الذين ظلموا الاستسلام لحكم الله بعد الاستكبار فى الدنيا (وضل عنهم) ضاع وبطل (ماكانوا يفترون) من أن آلهتهم ينصرونهم ويشفعون لهم حين كذبوهم وتبرءوا منهم (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله) بالمنع عن الإسلام والحمل على الكفر (زدناهم عذابا) لصدهم عن سبيل الله (فوق العذاب) بكفرهم (بماكانوا يفسدون) أى بكونهم مفسدين بصدهم (و) اذكر (يوم نبعث فى كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم) يعنى نبيهم، فإن نبى كل أمة يبعث منهم (وجئنا بك) يامحمد (شهيدا على هؤلاء) على أمتك، ثم استأنف فقال (ونزلنا عليك الكتاب تبيانا) بيانا بليغا (لكل شىء) من أمور الدين تفصيلا تارة وإجمالا أخرى (وهدى ورحمة) لجميع الناس ويحرم منه المقصرون (وبشرى للمسلمين) خاصة، انتهى التفسير اللفظى للقسم الثانى.

التفسير المعنوى

تبين فى آخر القسم الأول تفسير قوله تعالى «أولم يروا الى ماخلق الله من شىء يتفيأ ظلاله عن اليمين والشمائل سجدا لله وهم داخرون . ولله يسجد مافى السموات ومافى الأرض من دابة والملائكة» الى قوله «ويفعلون مايؤمرون» فلنعد القول فيه ليكون توطئة وصلة لما سنذكره بعده من تفسير هذا القسم حتى تكون المناسبة ظاهرة فأقول :

ذكر الله سجود الأجسام لله وتسخيرها بإرادته وقهره طوعا أو كرها، وجاء فى آية أخرى ما أفاد أن الله قال للسموات والأرض «ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين» فالعالم من أعلاه الى أدناه مطيع لله مقهور حتى إن الكافر به مسخر مقهور كما سخر الشمس والقمر والنجوم والجبال، فكل ساجد ومطيع طاعة تسخير؛ فلما كانت الأجسام خاضعة ساجدة تبعتها ظلالها فتراها ساجدة سجود التسخير تبع الأجسام وهى لاصقة بالأرض لصوق جبهة المصلى بها بل هى أكثر التصاقا وأطول سجودا وأدوم عملا ولذلك نص على الظلال وأكثر من ذكر سجودها فى القرآن وقد وضح ذلك فى سورة الرعد أيما إيضاح . ولما أن ذكر سجود الظلال أتبعها بذكر الدواب فى السموات والأرض، وقد بينا غير مرة أن الأراضى قد تبلغ ٣٠٠ مليون وقد تكون أكثر على مايظن فى العلم الحديث والنظام الإلهى، ومن المظنون أن يكون فيها دواب فهذه الدواب وهى كل مايدب تشمل ماكان من العقلاء فيها كالانسان على الأرض، فكل هؤلاء ساجدون مطيعون لله تسخيرا كالجماد وعبادة أى من كان منها عاقلا كالانسان .

ولا جرم أن الحيوانات قد اتجهت رؤوسها الى الأمام فتراها ذاهبة آية ورؤوسها ممتدة فهى أشبه بالراكعة والركوع يقرب من السجود بحسب شكله وهو خضوع بحسب معناه، فأما النبات فان رؤوسه ساجدة لأنها مغروسة، فرؤوس النبات منها يستمد قوته وغذاءه وهى التى تجذبه الى الساق والورق والأغصان، ولا جرم أن الانسان نبات مقلوب فرأس النبات أسفل ورأس الانسان أعلى، فالنبات ساجد بحسب جبلته كما أن الملائكة جميعا ساجدون مطيعون بجبلتهم؛ ولما كانت رؤوس الانسان قد رفعت من الطين واستوت الى أعلى أمر بالسجود ليخضع كما خضع الحيوان والنبات وليتذكر أنه ليس مستغنيا ولا مستقلا عن هذا

النظام العام بل هو متصل به مستمد منه فيقول فى السجود « خشع لك سمعى وبصرى ومخى وعظمى وعصبى وما استقلت به قدمى لله رب العالمين » .

وكما ذكر الدواب بعد الظلال ذكر الملائكة بعد الدواب ففيه ارتقاء من أدنى إلى أعلى ، هكذا الأجسام التى لها ظل فالظلال فالدواب فالملائكة : أى ما لاروح له من الأجسام ثم ماله روح وجسم ثم ما كان روحا صرفة صافية خالية من أحوال المادة ، ثم أردف الملائكة بقوله « وهم لايستكبرون » أى ليس خلوصهم من المادة بعطيهم عظمة ، كلا ! بل هم لقربهم من الله يعرفون جلاله وجماله فهم منه خائفون ، ومن قرب من الملك كان أخوف الناس منه ، ومن عشق الجمال خاف من صد وهجران بل ربما قتل نفسه إذا منع الجميل ابتسامته أو غضّ عنه الطرف ، فقد ذكرنا فى هذا التفسير فى سورة البقرة أن هناك جمالا قد استمد منه كل جمال كما أن تلك العظمة تستمد منها كل عظمة ، إلى هنا قد انتهى الترقى فى المعارج من أجسام وظلال إلى دواب إلى ملائكة ، ثم جاء بعدها :

« وقال الله لاتتخذوا إلهين اثنين »

هنالك استوى على العرش فهذا هو العرش والملك ، وأخذ يخاطب من تحته ويلقى الأوامر إلى من هم أسفل من الثقلين وخضعت الأجسام وظلالها والدواب فالملائكة واستوى الله على العرش وخاطب قائلا إياكم أن تتخذوا إلهين ، وكيف تكون الاثنينية وقد رأيتم التسخير واحدا فالمسخر واحد والنظام متكامل ، وإذا وجدتم الحيوان والجماد والنبات وكل ما ترونه ساجدا خاضعا فكيف لاتسجدون ؟ وإذا سجد الملائكة الذين لم تروهم وإنما رأيتم سجود آثارهم على الأرض من المخلوقات التى هم عاملون فيها فكيف لاتسجدون ؟ فليرهبكم ذلك ولتكونوا وجلين خائفين كما خافوا هم .

« وله ما فى السموات والأرض »

ثم أخذ بذكر ملكه فأبان أن له مافى السموات والأرض ، والطاعة له دائمة ، ولما كان وجود مافى السموات والأرض لا يكفى للدلالة على وصول الآثار لنا أعقبه بأن كل نعمة واصلة إليكم فهى منه ، فهو بعد أن ذكر النعم العامة أتبعها بالخاصة ، والخاصة قسمان : قسم إيجابى وقسم سلبى ، فالإيجابى ما يسدى إلينا من الأقوات والملابس وبقية النعم ، والسلبى ما يسلب عنا من الضر والمرض والغم فذكر الأول قائلا « وما بكم من نعمة فمن الله » وذكر الثانى قائلا « ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون » . ثم أتبعه بالتوبيخ على نكران النعمة بعد حصولها كأنه يقول : دوام النعمة ينسيكم النعم ، فها أناذا أعطيت المرض والشفاء والفقر والغنى والعز والذل والموت والحياة وكنت قادرا أن أجعلكم أغنياء أصحاء كاملين من أول خلقكم كما كانت الملائكة ولكن لم أفعل ذلك لأنى لو بسطت الرزق لكم لبغيتم فى الأرض ونسيتم نعمى عليكم فلذلك أتبعت كل نعمة بنقمة وكل صحة بمرض ، وهكذا جعلت جهلا وعلما وصغرا وكبرا ، كل ذلك لتعرفوا ولتعلموا وبغير هذا مستحيل أن تدركوا شيئا لأن الطباع فى أرضكم هذه هكذا خلقت ومع ذلك أراكم إذا مسكم الضر ودعوتمونى وأجبتكم ترجعون بعد الصحة والغنى والقوّة تنكرون نعمى عليكم وهذا قوله « ثم إذا مسكم» إلى قوله « إذا فريق منكم بربهم يشركون » .

وهذه الخصلة عامة فى نوع الإنسان لأن الانسان يرجع بعد الفقر وبعد المرض (وقد جاء الغنى والصحة) إلى ما كان عليه من أخلاقه وأطواره فإذن يجب إصلاحه بطرق تهذيبية علمية ، وهذا وإن كان واردا فى الكفار فإن كل مايرد فيهم له نظير فى المؤمن ، وهذا القول تبيان اطباع الناس وإلا فأى فائدة لقراءته إذا لم يكن هناك لنا به علاقة، فالحق أن من الناس من هم كالمجبولين على النسيان ونكران النعمة التى سبقها نقمة

فليس نسيان النعمة خاصا بالكافر ، كلا ! أفلا ترى أن المرض الذى حل به المرض بسبب تعاطى (التبغ) وهو يدخنه كل صباح وكل مساء إذا شفاه الله منه بدواء وقال له الطبيب احذر تعاطيه مرة أخرى فإنه كثيرا ما يرجع إلى تعاطيه ، أليس هذا كفرا بالنعمة ؟ أى نعمة الشفاء بعد المرض بل المرض نفسه نعمة .

لقد أثبت الأطباء فى (ألمانيا) و (النمسا) وهم أكابر أطباء العصر الحاضر أن الرجل الذى يتعاطى اللحم أو البيض أو اللبن وقد أكثر منها كلها أو بعضها يمتلئ جسمه قوة ومتانة وهو أحمر الوجه قوى متين . فمثل هذا لكثرة التغذية يفاجئه أجله بغتة وهو لا يشعر ، وعللوا ذلك بأن هذه أغذية تامة التركيب فالإكثار منها يملأ الأنسجة غذاء بحيث لا يكون لتلك الأنسجة راحة ، أما الأطعمة المتخذة من النبات فإنها تكون لينة على الأنسجة سهلة حلها لا يرهقها بأغذية كثيرة فلا تمتلئ امتلاء قتالا يرهق الجسم فيخر صعقا فى يوم أو بعض يوم ، ويقولون إياك أن تقول إنى رأيت كثيرا من الناس يعيشون وهم أقوياء البنية كرجال الإنجليز الذين يكثرون من هذا وهم أقوياء ، قالوا لأنك إذا رأيت هؤلاء فإنما هم من بقايا أولئك الذين ذهبت أرواحهم سدى وأصبحوا ضحايا كثرة الأغذية فلا تحتج بالأحياء فإن أضعافهم من أمثالهم أموات ، وقالوا أيضا إن الذين لا يمرضون هم الضعفاء والذين يمرضون هم الأقوياء ، لأن القوى الجسم الذى لا يمرض جسمه لم يقدر أن يخرج ما فيه من الزوائد الضارة ، أما الذى تعتريه الأمراض وهو ضعيف البنية فهو أقوى من مفتول الساقين أحمر الخدين قوى اليدين فإن الأخير يخر صعقا بغتة ، أما الأول فجسمه الضعيف ظاهرا قوى باطنا لقدرته على إخراج الأمراض ، فالقوى ظاهرا الذى لا يمرض وهو يأكل تلك المآكل أشبه بمن أصابه إمساك فهلاكه قريب ، أما ذاك الضعيف ظاهرا فقد نجا من الامساك الضار ، وإن أردت الزيادة فعليك بكتاب صديقنا الفاضل محمد بك فريد وجدى المسمى [دستور التغذية] فقد ترجم فيه آراء أولئك الأطباء .

أفلست ترى أن المرض قد يكون نعمة باطنا نقمة ظاهرا ؟ فإذا كشفه الله أصبح الانسان فى نعمة ظاهرا وباطنا ، فإذا لم يحفظ النعمتين ولم يرجع عما كان عليه من التخليط فى الطعام والشراب والتمادى فى الشهوات واللذات كتعاطى (التبغ) وقهوة البن والخمر والشاى وما أشبه ذلك فإنه قد كفر النعمة لأن الله كشف عنه الضر ولم يفهم حكمة المرض ولم يعرف نعمة الله وأنكرها ، ألا لا فرق بين كفر وكفر من حيث النتيجة ، فنتيجة كفر نعمة الشفاء فى الأمور الجسمية ضارة بالأجسام ، ونتيجة كفر النعمة فى الأمور العلمية العقلية ضارة بالنفوس بعد الموت ، وكأن الله جعل هذا داعيا أن نتذكر فى هذه الحياة بل هذه الحياة أقرب لنا ، ومن عجز عن فهم ما نابه من الضراء فى الدنيا فلم يحترس مما يضره فى جسمه فهو عن فهم ما أصابه من الشر فى اعتقاده أعجز ، وإذا كان المسلمون اليوم قد أصيبوا باضطهاد أوروبا وظلمها لهم وقد مسنا الضر ، فاذا لم نشكر جميعا ونفهم الدرس الملقى علينا من ربنا فان الله يعذبنا فى الدنيا دائما جزاء كفرنا نعمته وهى التذكير لنا باحتلال الأمم الأجنبية بلادنا كما ذكر المريض أن تخليطه فى الطعام أضر به .

وإذا كنا أثبتنا أن بعض من يمرض قد اتجهت عناية الله له أكثر ممن لا يمرض ، وأن الأول غالبا تطول حياته أكثر من الثانى ، فلنقل هنا إن الأمم الاسلامية قد اتجهت عناية الله لهم لأن أوروبا قد كشرت لهم عن نابها وأذلتهم كما تمرض الأجسام ، فهذه نعمة ولو أن أوروبا عاملتهم بالحسنى لكان ذلك أشبه بصحة أجسام الذين فى بطونهم داء دفين فأصبح إذلال أوروبا نعمة علينا لأنه يذكرنا فان لم يذكرنا تمت النقمة وحقت كلمة ربك وإياك أن تظن أن هذا خارج عن الآية فان الضر عام فى الأجساد وفى الأمم فلنقل هذا وليحترس الناس فى جميع أحوالهم ، وليحترس المسلمون مما أحاط بهم من السوء ليكونوا «خير أمة أخرجت للناس» .

ههنا قال الله تعالى « ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون » يقول الله للكفار نسيتم الله وقد

ذكرتم

ذكرتكم بالبأساء وجوتكم النعماء فلتأكلوا كما تأكل الأنعام تمتعون وتأكلون . هكذا أيها الصحيح الذى شفى من مرضه لاترجع للتخليط وإلا فتمتع فهلاكك قريب ، ويا أمة الإسلام التى أصابها احتلال بلادها هاهو ذا القرآن يذكركم بجميع العلوم فادرسوها وقووا أجسامكم ومدنكم وإلا فتمتعوا بالحياة الحيوانية فسوف تعلمون ما يحل بكم من تألب الأمم عليكم .

فصل فى قوله تعالى « ويجعلون لما لايعلمون نصيبا مما رزقناهم » إلى قوله « ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى »

قد علمت أن الملائكة يفعلون مايؤمرون طوعا لا كرها لأنهم مطبوعون على النظام مجبولون على حب الخير ، وبعد أن ذكر الملائكة شرع يصف أحوال الناس فذكرهم بالنعمة التى تصل إليهم منه ثم زجرهم على جهلهم بما يتوارد عليهم من الضراء والسراء فيرجعون إلى ماكانوا عليه مع أن ذلك لم يقصد منه إلا تربيتهم فهى دروس طبيعية كالدروس العلمية فهى فى الحقيقة علم عملى ، فهنا أخذ يكمل الدروس فذكر درس البنات وذلك من وجهين :

الأول: أن الناس نسبوا البنات لله . والثانى أنهم هم يكرهونهن ، وفى هذا المقام أدمج المجادلة بالتى هى أحسن فى الحكمة لأنك قد علمت أن المجادلة للمتوسطين والحكمة للعقلاء فهنا أدمج هذا وذاك وجعلهما فى هذا النمط ، وبيانه أنه تعالى يقول لهم إذا كنتم من الاناث تتبرمون ومن ولادتهن تجزعون وأنتم مخلوقون ، ألما كان من حقكم ومن حسن رأيكم أن تروا أنى أعطى نفسى أفضل مما أعطى غيرى كما تفعلون أنتم إذ تفضلون أنفسكم على مواليكم ولاتصدقون إلا بما فضل عن حاجاتكم بل فى دينكم « وابدأ بنفسك ثم بمن تعول » وإذا كان هذا من أوامرى ألما كان من حق أن أعطى لنفسى الذكور التى أحبها على مقتضى جبلتكم فكيف عكستم القضية واختصصتم بالذكور استبشارا وخصصتمونى بالاناث ولادة ، هذه المجادلة مقبولة معقولة فى الإقناع وإفحام الخصم، وهذا هو قوله « وجادلهم بالتى هى أحسن » ثم ساق قصة اسوداد وجوههم إذا بشروا بالأنثى وهم مقتمون الخ .

أما الحكمة فى هذا النمط فاسمع وافرح بما أنعم الله من علم وما أنزل من حكمة، بل أقول أعجب من الحكمة والبيان ، لما ذكر الله تقصير الناس فى الاعتبار بالنعماء بعد الضراء أخذ يجادلهم بما تقدم وريهم أنه أحق بالذكران إذا كان الأمر دائرا بين الجنسين، والحقيقة أنه منزه عن ذلك كله فلا بنات ولا أبناء كما هو معلوم وينطوى فى هذا المقام مسألة حكمية جليلة .

الذكورة والأنوثة

إذا كان الناس يأنفون من البنات ولم يحبوا إلا الذكور وجب أن يكون على مقتضى نظامهم الجاهل ورأيهم الظاهرى وشهوتهم الحاضرة وهمتهم القاترة ألا يخلق من الناس إلا الذكور ، ولما كان الله تعالى يقول « ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت » وجب أن يكون العالم كله على هذا النمط فيخلق النبات والحيوان الذكران دون الاناث ولو تم هذا النظام المعكوس لم يبق على وجه الأرض من دابة لأن نظامهم متى جرى العمل عليه فسدت هذه الأرض كما قال تعالى « ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون » لذلك أعقب حديث البنات والبنين بآية « ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة » بعد أن أبان مثل الذين لايؤمنون بالآخرة وجعله مثل السوء وذكر أن لله المثل الأعلى لأن الذين لايؤمنون بالآخرة يريدون عدم البنات فيفنى الانسان ومثله الحيوان والنبات ليبقى النظام واحدا « ولله المثل الأعلى » لأنه يريد النظام وبقاء الأنواع فلذلك أوضح هذا بعد ذلك بآية « ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا الخ » .

والمراد بالكسب هنا ما يشمل الذنوب والجهالات ، أما الذنوب فهي ماتقدم من الكفر بعد زوال النقمة ومن الرجوع إلى العادات في الطعام والشراب بعد زوال المرض لمن قال له الطبيب إن مرضك بعدم مضغ الطعام جيدا يزول فضل ثم لم يمضغ جيدا فعاوده المرض، والذي زال فقره بالاقتصاد يرجع فيسرف فيقع في الفقر كما يفعل الكافر بالله الذي ذهب عنه المرض فيقع فيه كما كان ، ويشمل الكسب أيضا الاعتقاد فهؤلاء اعتقدوا أن تربية الولد هي المطلوبة وتبرموا من الأنثى وهذا الاعتقاد تبعه العمل فوأدوا البنات وفهموا أنهن فضيحة ، فلو يؤاخذ الله الناس على أعمالهم الكفرية والصحية والإسرافية في المال لأهلكهم بما فعلوه ولم ينعشهم بدواء ولم ينلهم شفاء، ولم يرسل هداة وأنبياء، ولم ينعهم بالمال ، ولو أنه عاملهم باعتقادهم في البنات لعم الأمر في كل حيوان لأنه ليس هناك تفاوت فالنظام شامل فحينئذ لايخلق من العوالم الثلاثة إلا الذكور ولا يمضي سنون معدودة حتى تعدم جميع الدواب بل جميع الحيوانات .

هذا هو المعنى الحكمى من هذه الآية « ولو يؤاخذ الله الناس الخ » وهنا هو الحكمة في أنها جاءت عقب حديث البنات والتبرم منهن ، فهنا يقول الله « ولو يؤاخذ الله الناس » فذكر المؤاخذة وفي آية أخرى يقول « ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن » .

فأما هنا فيراد بالمؤاخذة مايعم الأهواء وهي الغرام بتربية الذكور وحدهم ، فتعجب من القرآن وتأمل في تعبيره أيضا هناك بقوله « ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت الخ » فجعل الفساد شاملا السموات والأرض جميعا متى اتبع الحق أهواءهم وكانت الآلهة متعددة لأن تعدد الآلهة ليس الفساد منه قاصرا على الحيوان والنبات والانسان بل يتعداهما إلى السموات والأرض لأن الألوهية حاكمة على كل شيء فالفساد فيهما باختلاف الشركاء يفسدهما فسادا عاما ، فأما هنا فإنه قال « ماترك على ظهرها من دابة » فجعل الموت خاصا بالجنس الذي يلد وحده وهو الدواب وقد أتبعناه بالنبات كما هو معلوم ، وعندي أن هذا التعبير هنا والتعبير هناك وإحكام الأمر فيهما معجزة وحده فما هذا الرمز وحبس المعاني وإدخالها في تضاعيف الكلام ومنعها عن النوع البشرى حتى يقرأها قوم فيفهمونها ، وما مثل هذا القرآن في أحكامه إلا كمثل ما خلقه الله وصنعه بحكمته فإنك ترى في العوالم عجائب أخفاها ثم تظهر للناس في حينها .

ولقد علمت أن الملائكة مطيعون فهم يفعلون ما يؤمرون ، فأما بنو آدم فإن شهواتهم تخالف النظام فكما قال في الملائكة « ويفعلون مايؤمرون » قال هنا في الناس إن آراءهم لو اتبعت لهلك كل حي .

فحوى الكلام من حيث العمل

وفحوى هذا القول من حيث العمل أن الكمال في هذا الوجود إنما يكون لمن كملت نفوسهم فألفوا النظام ولو أن الناس كانوا أرقى مما هم عليه لاطلعوا على الحقائق وساعدوا على حسن النظام ولفرحوا بالأنثى كما فرحوا بالذكر لأن الجنسين يتممان بعضهما وهذا العالم نظام واحد ، فلجهلهم النظام حولوه إلى أغراضهم وهذه منقصة عظمى في الانسانية ، فليكن هذا الانسان أرقى عقلا من كل شيء فليفرح بالموت كما فرح بالحياة وبالمرض كما فرح بالصحة كما مر مع معالجة كل حالة بما يناسبها بحيث يكافح المرض ويدافع الفقر بالكسب وهكذا إذ لافرق بين كراهة البنات وكراهة غيرهن فإن النظام يقتضي ذلك كله .

وإذا كان للملائكة يفعلون مايؤمرون طوعا فالانسان يفعل مايؤمر به طوعا وكرها فإنه مأمور بحسب السنن الطبيعية أن يربي البنات فكرههن ومع ذلك سلط عليه الشفقة والقانون المسنون في الحكومات ونظام المجلس والقضاء أن يحافظ عليهن ويربيهن ويختار لهن الأكفاء فهذا قهر من الله للناس فقد نفذ الأمر كرها كما نفذوه في الأبناء طوعا وهذا نقص في الانسانية بل يجب أن تكون القلوب تابعة ومشايعة للنظام العام ،

أما الشهوات الوقتية فيقال لصاحبها « فتمتعوا فسوف تعلمون » فيكون الملخص لآية « ولو يؤاخذ الله الناس » الخ .

إن الله يقول أيها الناس أنا لا أؤاخذكم بما تصنعون ، فالكافر أبقيته إلى أمد معلوم ثم أجازيه بعد الموت ولا أعجل بهلاكه والمسرف فى صحته وماله أو أهمل العمل فإنى أفتح له الفرص بالإنذار بعد الانذار عسى أن يرجع إلى الصواب ، والذين يكرهون الاناث لم أجازهم على آرائهم لأنى لا أتبع الأهواء فى نظامى ولذلك قهرتهم فربوا البنات ولم أمنع ولادتهن ، ومتى حل الأجل لأى واحد من هؤلاء لم يؤخر ساعة ولم يتقدم ، إذن الله منزه والملائكة مطيعون والناس يضلون والله حليم غفور ، وأما آية « ويجعلون لله ما يكرهون » إلى قوله « وأنهم مفرطون » فواضحة ، وقوله « تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك » إلى قوله « وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » فإنه يقول أنزلت إلى الأمم السابقة أنبياءهم فزين الشيطان إلى اتباعهم الباطل وتولى قوما اليوم كما تولى من قبلهم من الأمم فأصبح وليهم وإنما أنزلنا عليك الكتاب لتبين لهم المواعظ والأحكام كالذى تقدم وغيره .

ولما كان القول السابق فيه الموعظة الحسنة وفيه الحكمة كما قسمناه والحكمة تليق لأولى الألباب أخذ يصف عجائب السماء والأرض وهى الحكمة الحقيقية المرقية للعقول فقال « والله أنزل من السماء ماء » إلى قوله « فإن تولوا فإنما عليك البلاغ المبين » . ولنفصل القول فى هذا المقام من وجوه :

[الوجه الأول] فى قوله تعالى « من بين فرث ودم لبنا خالصا » الخ .

[الوجه الثانى] فى وصف الحيوان .

[الوجه الثالث] فى اختلاف الحيوان فى الحركات وغير ذلك .

[الوجه الرابع] فى قوله تعالى « وانظر إلى حمارك » ووجوب علم التشريح ، وفى وصف فقرة واحدة من فقرات الظهر .

[الوجه الخامس] فى وصف أعضاء الحيوان وأن منها الخادم والمخدوم .

[الوجه السادس] فى الطير .

[الوجه السابع] فى أن الطير مختصر من حيوانات البر كالأنعام وفى تربية الطيور لأولادها .

[الوجه الثامن] فى تقسيم الحيوان إلى قسمين : مستقل ، وغير مستقل وإن هذا كتاب كتبه الله بيده وأنه حجبه عن أكثر الناس .

[الوجه التاسع] فى الحشرات كالنحل والعنكبوت .

[الوجه العاشر] فى الظلال وما عطف عليها .

الوجه الأول فى قوله تعالى « من بين فرث ودم لبنا خالصا » الخ وفى بعض الوجه السابع وهو أن الطيور مختصرة من الحيوانات البرية كالأنعام

اعلم أن الحيوانات منها ماهى تامة الخلقة ومنها مختصرة من التامة ومنها ناقصة ، فالأنعام والبهائم والسباع والوحوش أكمل بنية وأتم نظاما من الطيور والجوارح وكأن هذين قد جعلا مختصرين من الأربعة الأول ولو أنك نظرت إلى الطير صافات فى جو السماء لخيل لك أنها صورة مصغرة من البقر والجاموس إذا كنت من الناظرين فى علم الطبيعة بعقولهم لامقتصرين على حواسهم ، فإذا رأيت (أبا قردان) وهو يأكل الدود فى الأرض المصرية أيام فيضان النيل والجاموس يرعى فى مرعاه لرأيت للجاموس أسنانا وآذانا ظاهرة ومعدة وكرشا ومثانة وخرزات ظهر وجلدا ثخينا وشعرا كما كان للغنم صوف وللابل وبر ، وهو يتزوج ويحمل ويلد

ويرضع أولاده ويربيها ، أما (أبوقردان) مثلا وسائر الطيور فإنها مختصرة من الحيوان البرى الذكور ، فليس للطير أسنان ولا آذان بينة ولا معدة ولا كرش ولا مثانة ولا خرزات ظهر ولا جلد ثخين ولا على أبدانها شعر ولا صوف ولا وبر .

حيوان البر .	البدل منه الطير البدل
(١) الأسنان	المنقار
(٢) المعدة	الحوصلة
(٣) الكرش	القانصة
(٤) الجلد الثخين والشعر وما أشبهه	الريش

فهذا الريش جعل لباسا لها ودثارا يقيها الحر والبرد وهو غطاء ووطاء ووقاية من الآفات العارضة وهو فوق ذلك يعينها على النهوض والطيران .

(٥) الحمل والولادة والارضاع	البيض والحضن وتربية الأفراخ

فانظر كيف جعلت مناقيرها مدببة بخلاف حيوان البر عريض الوجه فيسهل على الطير اختراق الهواء فى طيرانه كما يجعل مقدم السفينة حادا فتشق الماء بجيزومها شقا ، فلو كان مقدم الطيور عريضا لعارضها الهواء فى سرعة طيرانها فعاقها عن سبلها ، وجعل للطيور بدل الولادة والارضاع أن تبيض وتربى أفراخها فى أعشاشها لأن الحمل يعوقها عن الطيران فى سبلها ولا تكلف فوق طاقتها من الارضاع الذى يوجب أن يحال الطعام فى أجسامها إلى دم فلبن وهذا مما يثقل عليها وهى فى جوّها ، فهذا معنى قول العلماء إن الطيور مختصرة من حيوان البرّ ، فأنت ترى أن الجاموس الذى يأكل العشب له فم واسع به يتمكن من القبض على الحشيش والكلأ فى المرعى وأسنانه الحادة يقطع بها وأضراسه الصلاب يطحن بها ما صلب من العشب والحب والورق والقشر والنوى ولها مرىء واسع تزدرد به ما تمضغه وكروش واسعة تملؤها وتحمل فيها زادها كالركائب والحقائب للانسان ، فإذا رجع إلى أماكنه استراح واجتر واسترجع ما بلعه ثم طحنه ثانيا وبلعه وازدرده فى مواضع أخرى من كروشه ، فالكروش الأولى مهيئة للحمل والثانية مهيئة لطبخ الطعام بالحرارة الغريزية فتنضجه حتى تستمرئه الطبيعة وتميز ثقيله من خفيفه ثم يدفع الثقل إلى الأمعاء والمصارين ويخرج من المواضيع المعدّة للاخراج ، فأما اللطيف الصافى فانه ينهب للكبد فيطبخ ثانيا هناك ويصفى ويذهب عكره فى الطحال وتأخذ المرارة ماخف منه والكليتان الماء والعروق تجتذب الدم الصافى فتوصله إلى أقاصى الجسم لتعطيه بدل ما تحلل منه فان أبدان الحيوان كلها دائما فى السيلان والذوبان من أسباب داخلة وأخرى خارجة .

صورة أحشاء الطيور وغيرها

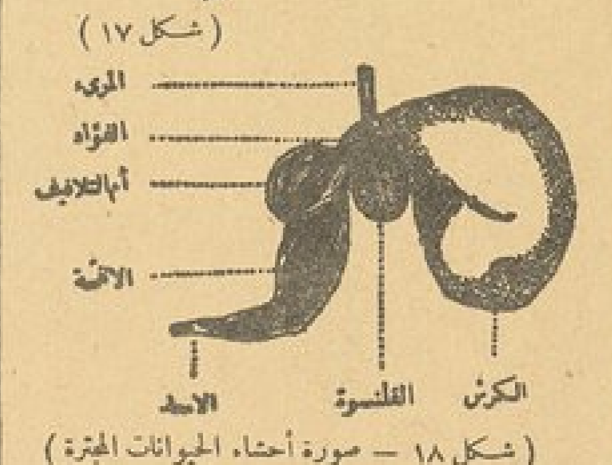
هاك صورة أحشاء الطيور وأحشاء الحيوانات المجترة كالغزال والبقر والجاموس والمعز وأحشاء الإنسان فترى أمامك فى الصورة الأولى التى هى القناة الهضمية لأمثال الدجاج الجزء المشار له بحرف (١) يصور لك المرىء الذى يمر فيه الطعام ثم ينزل منه إلى الحوصلة حرف (ب) ويمتزج الحبّ بماء مفرز فيعطن ويلين ثم ينتقل إلى حرف (س) فى تجويف يفرز سائلا حامضا يؤثر فى المأكول ، ثم يتجه إلى كيس متين قوىّ خليظ له غشاء يشبه القرن فى قوامه وهو القانصة (د) فيؤثر فى الحب ويطحنه طحنا ويعينه على ذلك ما التقطه الطير من الرمال والحصوات فيصير الطعام قطعة واحدة لزجة ثم ينتهى إلى الأمعاء وهى المصارين وهناك تقابله العصارة المعوية وهى التى تفرز الفضول وتعاون على امتصاص المواد المغذية (انظر شكل القناة الهضمية للطيور شكل ١٧) .

أما

أما فى أمثال الجمال والغزلان والبقر والمعز فانها لها أربع معدات مسميات بالأسماء المختلفة وقد شرحناها فى سورة الأنعام ونعيد رسمها هنا تكميلا للمقام ؛ فهذه المعدات الأربع التى تراها أمامك جعلت هكذا ، منها واحدة لتخزن الطعام لأن الحيوان إذا أخذ يرعى فانه لامحالة ؛ إما أن يسابق غيره فى الرعى وإما أن يخاف من السباع المفترسة ، فاذن يحتاج إلى مخزن يخزن فيه حتى إذا استراح فى مربضه أخذ يجتره ثانياً ويمضغه جيدا بعد أن يكون قد عطن بالعصارة فى المخزن الأول فاذا مضغه جيدا أنزله إلى المعدة الثانية ، وهناك يقابل الماء الذى يشربه ثم يمر بالثالثة فالرابعة فتلقاه عصارة قوية شديدة الفعل فتؤثر تأثيرا شديدا ، ثم ينتقل الطعام إلى الأمعاء ، ثم إن الغذاء تمتص منه القوى النفسية العناصر المغذية فى المعدة والأمعاء لتسير مع الدم لمنفعة الجسم وما بقى يفرز إلى الخارج ، وهذه صورة أحشاء الحيوانات المجترة (شكل ١٨) .

(شكل ١٧)

إن طعام الانسان يمر فى المرىء (ا) وهو المتصل من الفم إلى المعدة ثم المعدة حرف (ب) ثم المعى الدقاق حرف (ل) وهو ثلاثة أقسام : الاثنا عشرى والصائم واللفائفى والأول قصير جدا والثانى نحو (٨) أقدام والثالث (١٢) قدما ثم المعى الغليظ حرف (م) وهو ثلاثة أقسام : الأعور والقولون والمستقيم والقولون المذكور صاعد ومستعرض ونازل والقولون بأقسامه الثلاثة هو أكبر أقسام المعى الغليظ .



(شكل ١٨ — صورة أحشاء الحيوانات المجترة)

نظام الهضم فى المعدة والأمعاء

يخيل للانسان أول وهلة أن هضم الطعام أمر عادى لاسر له ولا مساعد وكأنه المطبوخ فى القدور تؤثر فيه الحرارة فينضج وليس كذلك ، إن الطعام يمضغ أولا ثم يمر فى المرىء ثم المعدة ثم الأمعاء فهناك يقابله عصارات تحلله تحليلا كيميائيا ، فاذا رأينا الأسنان تمزقه وتطحنه فليس ذلك كافيا ، كلا بل هناك عصارة فى الفم تدخل فى أجزائه وعلى مقدار جودة المضغ يكون تدخل تلك العصارة ثم تقابله فى المعدة العصارة المعدية ثم الصفراء التى تصب فى رأس المعى ثم عصارة البنكرياس وهى تصب بقرب مصب الصفراء ثم العصارة المعوية وهى عصارة الأمعاء ، فهذه العصارات الخمس تؤثر فى الطعام تأثيرا قويا ويساعدها حركات المعدة والأمعاء العضلية ومضغ الأسنان (انظر شكل ١٩ القناة الهضمية للانسان)

نظرة علمية فى القنوات الهضمية وهى الدائرة الغذائية فى هذه الأنواع الثلاثة وفى سير أغذيتها .

ألا تعجب معى من التنوع والحكمة والقدرة ! غذاء يسير لتغذية الحيوان نراه يتنوع تنوعا بحكمة ويعطى كل حيوان بقدره ، انظر الأسنان فى الانسان قد حرمها الطير ، لا أسنان لطيور ، إن للطير مناقير وهذه المناقير محددة ، لماذا ؟ لتخترق الهواء الجوى إذ لو كانت مناقير عريضة كوجه الانسان وذوات الأربع لعارضه الهواء فى طيرانه فعاقه عن المسير ، إذن فم الطائر لايصلح للأسنان فكيف يهضم طعامه ؟ فانظر ماذا جرى ! جعل الله أسنانه فى القونصة ولكن أين الأسنان هناك ، هناك حبوب الرمل والحصى هذه الحصوات القوية التى لو دخلت معدة الانسان لأضرت بها ، ههنا تكون أقوى مساعد على تمزيق الطعام ، فانظر كيف أعطى الانسان أسنانا فى فمه وأعطيت دجاجته عوضا عنها رملا تلتقطه فيساعد على الهضم وجعلت القانصة قوية متينة لذلك ، ثم تنظر فترى الحيوانات المجترة أعطيت [بدل الأسنان فى الانسان والحصوات فى قانصات الطير] أربع معدات تساعدها فى الهضم، فالمعدات الكثيرة أعطيت لذوات الأربع لتؤدى وظيفة الهضم لأن طعامها عسر الهضم فهذه المعدات قامت مقام الطحن والخبز والعجن وما أشبه ذلك ؛ فالانسان بطحنه وخبزه وشيه وطيه والمجترات بمعداتها الأربع كل أعطى ماهو أهل له ، أنا أرى الآن أنك وقفت على ما ظهر من حكمة هذه النظم المختلفة ، أفلا ترى أن النتيجة واحدة وإنما اختلفت الطرق ، النتيجة حياة الحيوان والطرق تنوعت بتنوع الحيوان ، فهذا بحصاه ورمله ، وهذا بطبخه وعجنه ، وهذا بمعداته المختلفة ، عجب هذا الوجود نراه كله بقدر ، ترى الوحدة ظاهرة فيه ، اختلاف فى المقدمات واتفاق فى النتائج بل اتفاق أيضا فى المبدأ أيضا فان الحيوانات كلها من خلايا متجانسة ثم تنوعت فى أشكالها حين تركبت، أفلست ترى أن هذا هو علم التوحيد ؟ إن هذه المسألة لاتفارق غيرها من مسائل هذه الدنيا ، فى الفلك وفى المعدن وفى النبات وفى الحيوان وفى الانسان ترى هذا النظام سائدا ، اختلاف فاتفاق .



(شكل ١٩)

أليس هذا هو علم التوحيد بعينه ؟ هذا هو دين الاسلام ، دين الاسلام هو مانبينه فى هذا التفسير ، بمثل هذا فليدرس المسلمون علوم التوحيد ، إن علوم التوحيد هى علوم النبات والحيوان والمعادن والفلك والعلوم الرياضية ، هذه العلوم تدرس فى المدارس الاسلامية فتقوم بها المدنية ويرتقى الشعب ، وفى الوقت نفسه يكونون قد درسوا علم معرفة الله تعالى ، فبينماهم يقومون بنظام مدنهم إذاهم قد عرفوا ربهم وشكروه شكرا علميا كالذى ذكرناه وشكرا عمليا بما يستنبطون من الأعمال النافعة فى الحياة ويخدمون نوع الانسان لا المسلمين وحدهم ، إن المسلم جاء إلى الأرض ليكون نورا يستضاء به لا أن يكون عالة على الفرنجة ، المسلمون الآن عالة جدا على الفرنجة .

اللهم إنى أبرأ اليك من التقصير ، اللهم إنى أعلم أنك ستسألنى وستسأل كل قارئ لهذا الكتاب ، أما أنا فماذا أفعل ؟ كتبت ما أقدرتنى عليه وسيقرؤه من يقدر أن ينوّع فى النشر والتعليم وهو مسئول كما أنى مسئول ، اللهم إنك أنت المعين فأعن المجدّين من المسلمين على العلم والعمل كما أعنتنى على نشر هذا الكتاب « وإن الله لمع المحسنين » .

التناسل

ثم إن تلك المواد التى فى أبدان الذكران والاناث إذا فضل منها شىء لم يترك عبثا كما لم يترك الروث والفضلات عبثا ، فالفضلات تكون سمادا للزرع فيأكل منه الانسان والحيوان وفضلات الدم الغريزى فى الحيوان ذكرانه وإناثه جعلت لها أوعية ومجار فى أبدانهما فيجرى من الأصلاب إلى الأرحام وينضاف إليه ما ينفصل من أبدان الاناث من الرطوبات المشاكلة لها وتجتمع ويخلق منها مثل أحد الزوجين ، وهكذا يتكون من الدم العظام والعضلات والأوتار والأعصاب ، فكل هذه تتغذى منه ، ومن الدم أيضا تكون السوائل التى تفرز كالريق فى الفم وكالبنكرياس فى المعدة لهضم الغذاء هضما ثانياً فان هناك غددا فى الجسم تفرز هذه السوائل ، ومن أهم هذه السوائل :

اللبن

وهو مما يتكون بحال مخصوصة من الدم الجارى فى العروق ويرسل من محل تكونه إلى الضرع والثدى فيرضعه الولد ، ولما كان اللبن بين الفخذين فى الأنعام وكان الدم فى سائر البدن جاريا فى الأوراد والشرايين وكان الفرث فى الأمعاء قد دفعته المعدة إليها بعد جذب العروق لخلاصة الطعام فكانت دما .

جاء فى الآية « من بين فرث ودم لبنا خالصا » فالبينية باعتبار المكان ؛ أما كون الدم محيطا به فظاهر، وأما كون الفرث فى جانب منه فهذا مفهوم لأن الأمعاء فى مؤخر الجسم والدم فى سائر البدن فهو بينهما من حيث المكان وكل فى وعائه ، فلا الفرث يختلط باللبن لأن لكل مكانه الذى خلق فيه ولا الدم بداخل فى الضرع بدل اللبن لأن شرايينه وأوردته المحيطة بالضرع لايفلت منها فهذا معنى آخر للآية ، وبهذا انتهى الكلام على الحيوانات التامة الخلقة والمختصرة منها فلنتكلم على الحيوانات الناقصة الخلقة ومنها الدودة التى ذكرناها فى مثال الجاموسة وأبى قردان والدود ، وهو :

الحشرات ونحوها

هذا القسم لايعيش سنة كاملة لأن الحر والبرد المفرطين يهلكانه وأجسامه متخلخلة المسام وليس له جلد ثخين ولا صدف ولا عظام ولا طحال ولا مرارة ولا كلية ولا مثانة ولا استنشاق الهواء لترويح الحرارة الغريزية لأنها غارقة فى النسيم يتخللها من خروق جسمها ويصل إلى سائر بدنها لأن جثتها صغيرة ومسامها مفتحة ، فأما الحيوانات الكبيرة فى القسم الأول وما ألحق بها فان جلودها ولحومها وغشاواتها وعروقها وأعصابها وعظامها المصمتة والمجوفة وأضلاعها ومصارينها وأمعاءها وطحلها وكروشها ومعدتها وقلوبها ورئاتها وكلاها ومثاناتها وقحوف رؤوسها وأشعارها وأوبارها وأصوافها وريشها وصدفها ، كل ذلك يمنع وصول الهواء إلى عمق أبدانها وترويح الحرارة الغريزية فيها فجعل لبعضها رئة وحلقوم ومجار للتنفس حتى يصل نسيم الهواء إلى عمق أبدانها ومحابس قعر أبدانها ويروح الحرارة الغريزية فيها ويحفظ الحياة عليها ، هذا إذا كانت فى الهواء ، فأما إذا كانت فى الماء ، فانها ركبت أبدانها تركيبا بحيث يصل برد الماء ، ورطوبته إلى قعر أبدانها هذا ما قاله القدماء ، وقال علماء العصر الحاضر : إن الهواء يتخلل الماء ، وهو الذى يتنفس منه السمك وعللوا ذلك بأن وضعوا السمك فى ماء مغلى ثم برد وقد تخلص من الهواء فمات السمك فيه لأنه فقد الهواء ولم يترك زمانا كافيا ليحركه النسيم ويتخلل أجزاءه وطبقاته فيعيش فيه السمك وجعل لكل نوع منها أعضاء مشاكلة لبدنه ومفاصل مناسبة لجثته وجعل على أبدانه من أنواع الصدف والفلوس لباس ودثار ليقيه البرد وغطاء ووطاء ووقاية لها من الآفات العارضة وجعل لبعضه أجنحة وأذناب تسبح بها فى الماء مثل الطيور فى الهواء اهـ . تم الكلام على الوجه الأول والسابع المتناسب بينهما .

ولما كانت هذه الآيات السابقة شاملة الأنعام والطيور والحشرات وقد تكلمنا على كل بكلام موجز أتبعناه بما هو أوضح فى الثلاثة للدلالة على جمال الله وحسن تدبيره . واعلم أن الحكماء جعلوا معرفة الإلهيات بعد علم الطبيعة والطبيعة بعد علم الرياضيات وهذا التبيين فى كتب الحكمة ، هكذا أراد الله فى القرآن قراءة الطبيعة المسبوقة بعلم الرياضة ، وهذا هو الذى نطيل الكلام فيه فى هذا التفسير .

الوجه الثانى فى وصف الحيوان

ولأسمعك كلاما كليا من كتابى [القرآن والعلوم العصرية] وهاهوذا :

اعلموا أيها المسلمون أن الله خلق لنا الأنعام والبهائم والسباع والوحوش والطيور والجوارح وحيوان الماء والحشرات ، كل ذلك ليتم خلقه وتربيته على أتم كمال وأحسن حال ؛ فالأنعام كل ماله ظلف مشقوق كالبقر والجاموس والغنم والمعز ، والبهائم ما كان لها حافر كالخيل والبغال ، والسباع مالها أنياب ومخاليب ، والوحوش ما كان مركبا من ذلك ، والطيور ما كان لها أجنحة وريش ومنقار ، والجوارح ما كان لها أجنحة ومنقار مقوس ومخاليب معقربة ، وحيوان الماء مايقيم فيه ويعيش ، والحشرات مايطير وليس له ريش ، والهوام مايدب على رجلين أو أربع أو يزحف أو ينساب على بطنه أو يتدحرج على جنبه ، ولقد يعجب الناس من خلقة (الفيل) أكثر من خلقة (البقة) وهى أعجب خلقة وأظرف صورة فان الفيل مع كبر جسمه له أربعة أرجل وخرطوم ونابان خارجان والبقة مع صغر جسمها لها ستة أرجل وخرطوم وأربعة أجنحة وذنب وفم وحلقوم وجوف ومصارين وأمعاء وأعضاء أخرى لايدركها البصر ولا يعرفها الفكر ، وهى مع صغر جثتها مسلطة على الفيل بالأذية ولا يقدر عليها ولا يمتنع بالتحرز منها ، ثم إن من الحيوان ماله حاسة واحدة وهى اللمس كالأصداف وأجناس الديدان التى تعيش فى الطين أو فى الماء أو فى الخل أو فى الثلج أو فى لب الثمر أو فى الحبّ أو فى لب النبات والشجر أوفى أجواف الحيوانات الكبرى وليس له ذوق ولاشم ولاسمع ولابصر وليس له إلا اللمس فيمتص المادة بجميع بدنه بالقوة الجاذبة ويحسّ باللمس لاغير ، ومنها ماله ذوق ولمس وليس له سمع ولابصر ولا شم وهى كل دودة تتكوّن وتدب على ورق الأشجار والنبات ونورها وزهرها ومنها ماله لمس وذوق وشم وليس له سمع ولا بصر وهى الحيوانات التى تعيش فى قعر البحار والمياه والمواضع المظلمة ، ومنها ماله الحواس ماعدا البصر وهى الهوام والحشرات التى تدب فى المواضع المظلمة ولم يجعل له البصر لأنه يعيش فى المواضع المظلمة .

الوجه الثالث فى اختلاف الحيوان فى الحركات

من الحيوانات ما يتدحرج كدودة الثلج ، ومنها ما يزحف كدودة الصدف ، ومنها ما ينساب كالحية ، ومنها مايدب كالعقارب ، ومنها ما يعدو كالفأر ، ومنها مايطير كالذباب والبقّ ، ومما يدب ويمشى ماله رجلان ، ومنها ماله أربع أرجل ، ومنها ماله ست أرجل ، ومنها ماله أكثر ، ومما يطير من الحشرات ماله جناحان ، ومنها ماله أربعة أجنحة ، ومنها ماله ست أرجل وأربعة أجنحة ومشفر ومخاليب وقرون كالجراد ، ومنها ماله خرطوم كالبق والذباب ، ومنها ماله مشفر وحمة (بضم الحاء وفتح الميم) كالزنابير ، ومن الهوامّ والحشرات ماله فكر وروية وتمييز وتدبير وسياسة كما قدمنا ، وإلى هذا الاختلاف أشار الله فقال « والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى على أربع يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شىء قدير » .

واعلم أن هذه الغرائب لايتعجب منها الناس لأنهم ألفوها ، أما العلماء فانفتحت أبصارهم وكشفت بصائرهم فرأوا هذه العجائب فأعظموها وأيقنوا أنهم مبصرون والناس حولهم غافلون ، فعليهم أن

يفتحوا أبصار من حولهم قال تعالى « وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون » .

فالعجائب تحيط بنا من كل جانب ونحن مغمضون الأعين عنها كأننا لم نخلق على هذه الكرة وكأن غيرنا هم المختصون بنعم الله وعجائبه وبدائعه « ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين — ولا يظلم ربك أحدا — وكل شيء عنده بمقدار » .

ومن الحشرات مالها أعين ، ومنها ماكل عين من عينها مركبة من مائتى (٢٠٠) عين فيكون لها (٤٠٠) أربعمائة عين تبصر بها وكل عين مركبة من أعضاء وطبقات خاصة بها كما نقلناه عن علماء الألمان والنمساويين فى رسالتنا الموسومة [بعين النملة] ومنها ماله أكثر من ذلك كالذباب ومنها مالها (٢٧٫٠٠٠) سبع وعشرون ألف عين وهى حشرة كبيرة أكبر من أبى دقيق تعيش على العليق وغيره ، وهذه العجائب البديعة الحسنة لاتعرف إلا بالعلوم التى عرفها العالم الغربى اليوم ، وعندهم مناظر معظمة تريك هذه العين والعيون التى تركبت منها كما رأيتها أنا بعينى رأسى تحت المنظار المعظم ، هذه عجائب الحيوان الظاهرة ، وهناك عجائب باطنة أدق من هذه لايدركها إلا علماء التشريح الناظرون فى ملكوت السموات والأرض المبصرون المطلعون على خفايا البدائع وعجائب الحكمة « إن ربك حكيم عليم » .

ولقد رأى العلماء قديما وحديثا أن للعين سبع طبقات وثلاث رطوبات لانطيل بذكرها ، وإحدى طبقاتها وهى الشبكية التى لاتزيد عن ثخن ورقة تتألف من تسع طبقات مختلفة أبعدها تتألف من ثلاثة ملايين مخروط ونحو ثلاثين مليون أسطوانة وقد رأوا أن فى المادة السنجابية التى فى الدماغ نحو ستمائة مليون خلية تتألف كل منها من آلاف من الدقائق الظاهرة وكل دقيقة تتكون من ملايين الجواهر كما فى كتاب [مسرات الحياة] للورد (أفبرى) وذلك من مطالب قوله تعالى « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » وقوله « وفى خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون » وقوله « الذى أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين » وقوله « وكل شيء عنده بمقدار » وقوله « هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم » وقوله « وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها » .

ياعجبا لهذه الدنيا ونظامها ويا غفلة أكثر المسلمين ! عجبا لهذه البنية الانسانية وكيف ركب الدماغ بأشكال منظمة بديعة وكيف جعل فى العين مادة تشبه الزجاج وأخرى تشبه بياض البيض وكيف كانت الطبقة المقدمة فيها المسماة بالقرنية أعنى التى تشبه القرن نراها شفافة والنور يأتى من الكواكب والنيران مارا بالهواء وهو شفاف وبالقرنية وهى شفافة وبالمواد الزجاجية والبيضية فى العين وهى شفافة ويرسم هناك على قطعة تسمى (الجليدية) وتسمى (العدسية والبلورية) أيضا فهى كالبلور وتنتقل الصورة منها إلى المخ فيراها الإنسان والعين لاترى وإنما هى آلة الإبصار .

أيها المسلمون ، عليكم أن تتغلغلوا فى العلوم كما أمركم الله وكيف يقول « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » ؟ .

أيها المسلمون ، هذا كلام ربكم وهذا صنع ربكم فأين المفر ولامفر لهارب ، فإما أن تعلموا وإما أن تتأهبوا للرحيل من العالم ولكن أبشركم قد جاء دوركم وأقبل يوم علمكم « وتلك الأيام نداولها بين الناس » ولعمرى لقد أقبلتم اليوم على العلوم إقبالا وأنا بتمام أمركم من المؤمنين .

الوجه الرابع فى قوله تعالى « وانظر إلى حمارك » ووجوب علم التشريح

أو ليس ماذكرته فى عين الإنسان من عجائب علم التشريح التى تدهش العقول وكيف حث الله عليه فى القرآن والمسلمون عنه نائمون ، نعم قد يقرؤه الأطباء ، وأما بقية الأمة فإنها تجهله ، يا أسفا على

أمة الاسلام ، الطبيب يقرأ علم التشريح ولا يعنيه إلا الأعمال الطبية وكثير منهم غافلون عن الحكمة والنظام والجمال .

التشريح من عجائب العلم ومن مطالب القرآن كيف لا، انظروا أيها المسلمون، ألم يقل الله فى قصة العزير إذ مرّ على بيت المقدس الذى هو مسقط رأسه بعد أن خربه بختنصر وأخذ يقول (أنى يحيي هذه الله بعد موتها) أى كيف يحيي الله هذه القرية بعد خرابها (فأماته الله مائة عام) أى فأماته الله فلبث ميتا مائة عام (ثم بعثه) أحياه (قال) له الملك (كم لبثت ؟ قال لبثت يوما أو بعض يوم قال) الملك له (بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك) وهو التين (وشرابك) وهو العصير أو اللبن (لم يتسنه) لم يتغير (وانظر إلى حمارك) كيف تفرقت عظامه (و) فعلنا ذلك (لنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام) أى عظام الحمار المفرقة (كيف ننشزها) نحييها ونرفع بعضها إلى بعض (ثم نكسوها لحما فلما تبين له) قدرة الله على هذه الأشياء وأنه حفظ الشراب والطعام وأحيا عظام الحمار فرفعها وركب بعضها على بعض وخلق عليها اللحم (قال أعلم أن الله على كل شىء قدير) .

ياليت شعرى لم ذكر هذه القصة فى القرآن ؟ ألنبى صلى الله عليه وسلم وحده ! كلا ، فهو صلى الله عليه وسلم مرسل لنا ، أهى اليوم تقرأ لآبائنا الذين ماتوا ! كلا ، وإنما تقرأ لأجلنا الآن ، فقصة العزير يقصد بها تعليمنا نحن ، وإذا طلب من العزير أن ينظر فى عظام الحمار فالنظر فى تشريح الإنسان أولى بل هو أتمّ تركيبا من الحمار ، وانظروا أيها المسلمون كيف يقول بعد أن عرف التشريح (أعلم أن الله على كل شىء قدير) يعنى أنه أصبح عالما ولم يكتف بالإيمان ، فليفكر المسلمون فى هذا القول ولينظروا ، يطلب الخليل من الله قائلا (كيف تحيى الموتى) فيقول الله له (أو لم تؤمن) فيقول (بلى) أى آمنت (ولكن ليطمئن قلبى) فهنا يقول العزير (أعلم أن الله على كل شىء قدير) ويقول الخليل (ولكن ليطمئن قلبى) فيا قوم كيف يكون هذا فى القرآن والناس ساهون ، وكيف نجهل التشريح والكتاب يأمرنا به ، يظن كثير من الغافلين فى الأمة الإسلامية أنهم متى ظنوا أنهم عرفوا الله ولو تقليدا فقد أتموا كل شىء ولكن الله يريد رقى عقولنا باتساع علومنا ومعارفنا فلذلك أكثر من هذه القصص، وقال لنا إن الأنبياء يدرسون كل شىء ويقول لرسوله (وقل رب زدنى علما) فكان المسلم الغافل بجهله يظن أنه أعلم من الأنبياء فيعيش غافلا ساهيا لاهيا ، أو لم يعير الله اليهود بالغفلة عما فى التوراة فقال (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا) أفلا يكون المسلم الذى يقرأ مثل هذه القصة فى القرآن يكررها بلا عمل ولا علم ولا حكمة ولا تشريح كالحمار يحمل أسفارا ، المسلمون يكررون القرآن صباحا ومساء وهم لايفكرون إلا قليلا .

فصل فى وصف فقرة واحدة من فقرات الظهر لتعرف أيها الذكى جمال علم التشريح

(١) لقد جعل الله الظهر خرزات كثيرة ولو كانت قطعة واحدة لم يمكن الانحناء بها .

(٢) ولو كانت قطعا أصغر من هذه لكان الانحناء أسهل ولكن النخاع فى وسطها لايكون مصونا لذلك جعلت على هذا الوضع ليتم الأمران : إمكان الانحناء ، وحفظ النخاع ليوصل الاحساس إلى المخ .

وقد جعل على كل فقرة أربعة أشياء :

(١) غشاء غضروفى يغشيها وشوكة .

(٢) نابتة من خلفها وجناحان .

(٣و٤) من يمينها ويسارها .

أما الغشاء الغضروفى فلئلا تتكسر بسهولة عند مصادمتها ، وأما الشوكة من خلفها فلتكون وقاية بارزة

لما

لها تلق الصدمات فلا تصل للفقرات وقال لهذه الشوكات سناسن جمع سنسنة ، وهذه السناسن قد ربطت بعضها ببعض برباطات عصبية عراض متينة قصير كأنها قطعة واحدة ، فأما الأجنة فإنها مدخل لرؤوس الأضلاع ووقاية للفقرات من جوانبها كما أن السناسن وقاية لها من ورائها .

ولما كان الدماغ هو محل الاحساس والفكر ، وكان لابد من ربط جميع أعضاء الجسم به ولم يمكن أن تغرز جميع الأعصاب فيه جعلت الفقرات مجوّفة وفيها النخاع المتصل بالمخ لتصل به الأعصاب الحساسة والأعصاب التي للحركة ، فإذا أصاب الجسم حر أو برد أو ألم ظاهر وصله عصب الحس إلى النخاع فاتصل بالمخ فيأمر الأعضاء الظاهرة بالدفاع بواسطة أعصاب الحركة في أقل من لمح البصر ومن الصلب من أعلاه إلى العصعص (٢٩) زوجا من أعصاب الحس وأعصاب الحركة عند كل خرزة زوجان أحدهما يمنة والآخر يسرة ، فانظر كيف كان للفقرة الواحدة غشاء يحفظها وشوكة تحميها وجناحان يحفظانها من جانبها وينفعان في ربط الأضلاع وكيف كان باطنها أشبه بالبطارية الكهربائية ترسل الكهرباء من الأسلاك ، وكيف كان عصب الحس يوصل إليها الأخبار من ظاهر الجسم ، وكيف تقبلها وتوصل في لمح البصر إلى عصب الحركة الأوامر بالبطش باليد أو المشي بالرجل وما أشبه ذلك من أوامر الدماغ ، أليس هنا أسلاك برقية (تلغرافية) أليست الأوامر صادرة واردة غادية رائحة ؟ أليس هذا كله يكون في كل فقرة من الفقرات ؟ فهل الذين خلقوا على هذا النظام الجميل البديع ويأمرهم الله بالنظر إلى عجائب عظم الحمار أجدر أن ينظروا في عظام جميع البهائم وعظامهم ؟ .

أيها المسلمون قد آن أوان أن يظهر جيل جديد أعلم من السابقين وأحكم من الأولين بعد العصور الأولى التي كان نور النبوة يشرق عليها « فالحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله » .

الوجه الخامس

إنه ما من عضو من أعضاء الحيوان صغيرا كان أو كبيرا إلا وهو خادم لعضو آخر ومعين له إما في بقائه وتتميمه أو في أفعاله ومنافعه ، مثال ذلك الدماغ في بدن الانسان فإن القلب خادم له ومعينه على أفعاله والقلب يخدمه ثلاثة أعضاء : وهي الكبد والعروق الضوارب والرئة ، وهكذا حكم الكبد يخدمه خمسة أعضاء : وهي المعدة والأوردة والطحال والمرارة والكليتان ، وهكذا أيضا حكم الرئة يخدمها أربعة أعضاء : وهي الصدر والحلقوم والحجاب الحاجز والمنخران ، وذلك أنه من المنخرين يدخل الهواء المستنشق إلى الحلقوم ويعتدل فيه مزاجه ويصل إلى الرئة ويصفى فيها ثم يدخل إلى القلب فيجعل الدم الذي يتشبع بالكربون المنجذب من نواحي الجسم مصفى منه بما فيه من الأكسوجين ، ثم يخرج ذلك الهواء مع الكربون في النفس ويترك الأكسوجين للدم منقيا له سائرا إلى الجسم لتغذيته وهكذا ، وذلك أن القلب فيه تجويفان علويان وتجويفان سفليان وهما البطينان والأذينان والدم يجري بينهن بطريقة الآلة الماصة الكابسة ولذلك شرح يطول في علم التشريح للذين يتفكرون في خلق السموات والأرض ويقولون « ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار » التي تطلع على أفئدتنا يوم القيامة بجهلنا صنعك ، وبعدنا عن رحمتك ، وعدم شكرنا لك لما أنعمت به علينا إنك أنت الوهاب ، وهكذا سائر الأعضاء فلا نطيل به لئلا نخرج عما شرطنا في كتابنا أن يكون نموذجا سهلا يعرفه العامة والمتوسطون ولا يشذ المفكرون عن سمه .

الوجه السادس في الطير

قال تعالى « ألم تر أن الله يسبح له من في السموات والأرض والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون . ولله ملك السموات والأرض وإلى الله المصير » وإذا اعتبر الإنسان الطيور والحشرات وجدها كلها متزنة الجانبين طولا وعرضا وخفة وثقلا يمنة ويسرة وخلفا وقداما ، ومن أجل هذا إذا نتف

من إحدى جناحيه طاقات ريش اضطرب فى طيرانه كرجل أعرج فى مشيته إذا كانت إحدى رجليه أطول والأخرى أقصر، ومن أجل ذلك أيضا متى نتف من ذنبه طاقات ريش اضطرب فى طيرانه مكبوبا على رأسه كمثال زورق فى الماء وسفينة فى ثقل صدرها وخفة مؤخرها، ومن أجل ذلك صار بعض الطيور إذا مد رقبته إلى قدام مدّ رجليه إلى خلف ليتوازن ثقل رجليه بثقل رقبته كالكركى، ومن الطير مايطوى رقبته إلى صدره ويجمع رجليه تحت بطنه فى طيرانه كمالك الحزين، وعلى هذا المثال حكم سائر الطيور والحشرات فى طيرانها. والكلام على الطيور يطول شرحه، إنما الذى يدهش العقلاء ويحير المفكرين مسألة توازن الذنب والرقبة وتوازن الجناحين وأن ذلك بميزان عدل لانقص فيه ولا خطأ، وهذا أشبه بما ذكره العلماء فى الجمل ورقبته فإن رأسه كرمانة (القبان) وعنقه كالذراع الطويل وظهره كالذراع القصير والحبل الذى يحمله كالذى يزنه الناس فيه، فإذا حمل حملا وأراد القيام مدّ رقبته كما يحمل (القبان) الرمانة فى آخر الذراع الطويل لتعادل الحمل الثقيل فى الذراع القصير، ولذلك عند علماء الطبيعة حساب عجيب وهذا قوله تعالى «وكل شىء عنده بمقدار» وقوله «وما كنا عن الخلق غافلين» وقوله «والله سريع الحساب» فهذا من أعجب الحساب وأتقنه وأبدعه، لحساب جسم الطائر والحيوان وحساب الفلك فى دورانه حساب لاترى فيه عوجا ولا تفاوتا فالنظام عام فى كل شىء.

الوجه السابع

قد تقدم بعضه فلنذكر الباقى، وهو الكلام على تربية الطيور لأولادها لمناسبة آية «ألم يروا إلى الطير الخ».

(١) النعامة مركبة من طائر وبهيمة تبيض من ٣٠ بيضة إلى ٤٠ وتجعلها ثلاثة أقسام: تدفن قسما فى التراب وتترك قسما فى الشمس وتحضن قسما، فإذا خرجت أولادها أخذت هى تكسر ما كان فى الشمس وسقتها حتى إذا قويت تلك الذرية أخرجت المدفون وتقبته ثقبا ليجتمع الذباب فيه والبق والحشرات والهوام فتأخذها وتطعمها لهنّ، فانظر كيف ألهمت النعامة أن تلك المخلوقات الضعيفة لاتقوى حواصلها أن تهضم إلا ما رقّ من الطعام أوّلا وأنها إذا اشتدت قليلا تستأهل لازدراد تلك الحشرات التى هى أمتن وأقسى فى الهضم وأنها إذا كبرت انطلقت إلى العشب وقويت واستقلت وذلك بغير تعلم الأستاذين ولا تدريب المعلمين ولا مدارس البنات والبنين، فما أجل العلم وما أعجب الحكمة وما أحسن هذا الصنع ؟!.

أيها المسلمون، نعامة جاهلة موصوفة بالحمق حتى إنها إذا فاجأها عدوها عمدت إلى صخرة فأخفت أعينها تحتها حتى لاترى الخطر الداهم والعدوّ الهاجم فيأخذها وهى ساكنة، تلك الحمقاء تعطى علوما بالفطرة يجهلها الأمهات من نوع الانسان وليس يدركن أمثال هذه لأبنائهن إلا بالتعلم والتدريب.

(٢) الدرّاج والدجاج وأمثالها والحمام وأمثالها.

انظر إلى فراريج الدجاج وكيف تكسر قشر البيض وتخرج وتلقط الحبّ، هكذا العنكبوت تخرج من بيضها تنسج كما تنسج أمها، هكذا البط يخرج من البيض فيقوم كأنه درس ذلك فى أيام سابقة وذلك بلا تعلم ولا تأديب، وليتعجب العاقل كيف نرى الحمام فى بيوتنا ونرى أن الذكور من الدجاج لاتساعد الأنثى فى تربيتها لأولادها ونرى الحمام بعكس ذلك، وهكذا العصافير فإن الذكور من هذين النوعين تساعد الاناث فما الفرق بينهما مع أن الدجاجة أحوج إلى المساعدة إن أبناءها كثيرة فأما ذرية الحمامة فهى قليلة فكان الأجدر بالمساعدة من كثرت أولادها، فاعلم أنه إنما اختص الحمام بتعاون الزوجين لأن أفراخه تخرج ضعيفة لاريش لها ولا تقدر على الحركة كما يولد أبناء الانسان فلذلك ألهم الحمام والانسان مساعدة الذكر للأنثى

فى التربية ، أما الديك فلما علم الله أن الدجاجة لاتحتاج إلى مشاركته فى التربية لقوة الفراخ على العدو ولما عليها من الريش حين ولادتها لم يلهم مساعدتها بل أبقاه معجبا بريشه فخورا بجماله موفرا كل قواه لدجاجاته الكثيرات عاطفا عليهن مساعدا لهن فى بعض أمورهن ، وإنما جعل الله هذا فى بيوتنا ليرينا أن القصد من وجودنا إنما هى الحكم والعلم ، فكم من آكل حماما ودجاجا وهو غافل عن أسرار خلقهما ، وكم من قوم عاشوا وماتوا وهم لم يمتازوا عن الحيوان ، فكم تحت التراب من عظام نخرة كانت فوق الأرض لاتعى ماذا يراد بها وتأكل الطير والأنعام وتهضمها فى أجوافها ولايعرفون تفصيل خلقها ولا عجائب صنعها كأنهم خلقوا ليأكلوا وماتوا وهم لم يتزودوا من هذه الأرض البديعة إلا الجهالة والندامة والحسرة والغفلة ، أو ماعلموا أن لهم عقولا تطالبهم بتغذيتها بالصور الحكمية كما أن معداتهم تطالبهم بالقطع اللحمية فوفوا للمعدات بميثاقها ونقضوا ميثاق العقول ، فليقرأ المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها نظام هذه العوالم وليتفكروا فى عجائب ما يلبسون ويأكلون ويشربون فقد سبقهم الفرنجة وهم نائمون :

ليس من مات فاستراح بميت ‏ ‏ ‏ ‏ إنما الميت ميت الأحياء
إنما الميت من يعيش كئيبا ‏ ‏ ‏ ‏ كاسفا باله قليل الرجاء

الوجه الثامن

الحيوانات على قسمين : قسم يعيش فى الخلوات مستقلا ، وقسم داجن يعيش تحت إرادة الإنسان فالأول كالغزلان والحمار الوحشى والبقر الوحشى والفيلة والآساد ، والثانى كالمعز والغنم والبقر والكلاب أفلست ترى أن القسم الأول أقوى بدنا وأذكى نفسا وأقدر على الحيلة والعمل والاستقلال كالغزال والبقر الوحشى ، أما الثانى فإنه خاضع للانسان أسير ذليل قد ضاعت قواه الفكرية وذهبت مواهبه الادراكية ، فبعيشك قل لى أيها أصفى لونا وأصح بدنا وأكثر إدراكا وأعظم استقلالا الغزال أم المعز ، الغزالة تعيش فى الخلوات بالعيش الهنى وتدبر أمر معيشتها بنفسها ، أما الثانية فإنها قد فقدت قوة الإدراك ذليلة الحال معرضة للأمراض الوبيلة ، والحكمة فى ذلك أن كل ما أهمل استعماله من القوى يسلب من صاحبه ولايعطى إلا ما ينفعه .

الحيوانات الأهلية لما دبر أمرها الانسان وأطعمها خمدت قوتها الادراكية ونامت غريزتها الفطرية فسلبت ما أعطيه الغزلان وشرف به الآساد فى غاباتها والحيات فى أوكارها من التدبير العجيب ، هكذا الانسان قسمان : قسم خنع للغاصبين وخضع للظالمين فدبروا أعماله ونظموا أحواله، فلاجرم تسلب من هؤلاء قواهم وتعطى لسادتهم المستعمرين ويسلبون عقولهم السامية كما سلبتها حيواناتهم الداجنة ، فهل يعطى الله السيف لغير الضاربين أو يعطى العقل لغير المفكرين ؟ كلا ، ثم كلا ! والمسلمون إذا استناموا للفرنجة المستعمرين وأخذوا منسوجاتهم صاغرين وسلموا إليهم ثروتهم لمصنوعاتهم وهم لايصنعون حقت عليهم كلمة ربك لأنهم لايعقلون وأخذتهم صاعقة الطيارات وهم ينظرون وخسفت بهم الأرض وهم غافلون « وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد » وظلم المسلمين هنا إهمالهم لعقولهم وتركهم لشؤونهم ونومهم خاضعين خاشعين بجهلهم « إن الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ـ وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون » .

هذا كتاب كتبه الله بحروف بارزة لايعقله إلا الحكماء والأصفياء

الكتاب كتابان : كتاب بالحروف الصغيرة، والآخر بالحروف الكبيرة، فأما الذى بالحروف الصغيرة فهو ماتكتبه نحن بأقلامنا ونسود به وجوه الطروس ، وأما الذى بالحروف الكبيرة فهو الذى كتبه الله بيده

وأبرزه بصور وأشباح وقال انظروا ، ولعمرك إن أكثر الناس لايعقلون إلا الحروف الصغيرة ، فأما الحروف الكبيرة التي كتبها الله بيده فهي محجوبة عن العقول مكشوفة للأنظار فاعجب لبرقع مكشوف وظاهر مستور وجمية زينت الناظرين وهم لايبصرون وبهجة للنظر ومن حولها لايشاهدون ماهي ؟ هي تلك المشاهد التي نراها صباحا ومساء ونحن عنها غافلون . فهاك ماذكرته لك من الدجاج والحمام وأشباهها كيف برزت علومها وهي مستورة . ألم تر كيف سلب فراخ الدجاج عطف الديك وقد وهبن نعمة الريش والقوة والادراك كما ذكرناه . وهكذا سلب فراخ الحمام الريش وأعطيت عطف ذكر الحمام على أنثاه كما بيناه فالغنم بالغرم . أليس هذا معناه أن الله يخاطب المسلمين بالقول الفصيح المبين . أيها المسلمون ساعد ذكر الحمام أنثاه في تربية صغارهما فسلبت في الحال ريشها لأن كل شيء عندي بمقدار ولم أخلق شيئا عبثا وكل شيء عندي بميزان فوزنت أمر الحمام وهو ضعيف فرأيت أن أعد له عطف الآباء وعكست القضية في الدجاج فنالت القوة وعدمت مساعدة الأب . هكذا أفعل في سياسة الإنسان . إنكم أيها المسلمون لما غلبكم أعداؤكم وملكوا زمامكم صرتم كالحمام لا كالدجاج فألهمتهم أن ينزعوا سلاحكم كما نزعت سلاح الطيران من صغار الحمام ، ومن جاهد لحفظ بلاده منكم واستقل أعطيته السلاح ومنعت عنه الغاصبين فأنا لا أسلط الأقوياء إلا على الأمة التي استكانت فاستحقت المساعدة «إنا كل شيء خلقناه بقدر — وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم» فاذا قلت في كتبي السماوية كالقرآن «وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون» ومعناه أن الإصلاح العام في الأمة يورث بقاءها وإن كانت كافرة، فإصلاح البلاد هو الذي يؤهلها للبقاء ، فلقد أريت الأمثال للناس عيانا ومشاهدة وهم غافلون فطابق قولي فعلي فلا قولي سمعتموه ولا فعلي تدبرتموه، فأين المفر ولا مفر لهاربين . وقد مر بعض هذا المقال في سورة (آل عمران) .

كيف حجب الله هذا الجمال عن أكثر الناس

لعلك تقول كأن في كل ماتراه جمالا وحكما والناس يرونه وكأنهم لا ينظرون ويسيرون في الأرض وكأنهم ميتون ويسمعون القول وكأنهم لا يعقلون . فأي حكمة إذن في هذا الجمال ، وأي معنى لذلك الكمال وإذا لم يكن للجمال مبصرون ولا للحكمة فاهمون فهل خلقت لنبر من يعقلها ووجدت لمن لايفهمها ؟ إن ذلك مما يورث الارتياب ويوقع الشك عند ذوي الألباب . أقول لا عجب في ذلك لقد خلق الله أمما إسلامية وغير إسلامية ورفع عن بعضهم وجوه هذا الجمال لالبخل في العطية ولا لإلحاقهم بأذية ولكنه يعطي من يستحقون ويمنع من لايستأهلون . أفلا تراه منع الأطفال أن يتصرفوا في أموالهم وصرف القردة والذؤبان عن الحكم العلمية لأن الحيوان والأطفال لا قدرة لهم على إدارة الشئون ولا على إدراك الصناعات والعلوم. فاذا رأيت الأمم الاسلامية القريبة العهد مشتتة الممالك واقعة في المهالك فما ذلك من منع الحضرة العلية ولا بخل من الذات الربانية ، وإنما كانوا عن المعالي قاصرين وعن إدراك المعاني غافلين فمزقت دولهم وشتت شملهم ومنعهم الملوك والأمراء من درس العلوم وصرفهم علماء السوء عن فهم الكتاب بقشور فقهية وأحكام شرعية وقالوا لهم (ليس في الإمكان أبدع مما كان) وصرفوهم عن حب الأوطان والمدافعة عن الأهل والأموال مع أنهم يقرءون صباحا ومساء (ومالنا أن لانقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا) ويقرءون أيضا (ومالكم لاتقاتلون في سبيل الله و) في سبيل (المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا) ومعنى ذلك أن الله يقول للمسلمين قاطبة أي عذر لكم في ترك الجهاد لاستنقاذ المؤمنين المستضعفين من أيدي الكفار وقد بلغ حال المستضعفين مابلغ من الضعف والأذى وقد كانوا بمكة لايقدرون على الهجرة وهم يدعون الله ويقولون (ربنا أخرجنا) وقد

استجاب

استجاب الله دعاءهم ففتح المسلمون مكة والنبي صلى الله عليه وسلم كان مبشرا بذلك . أما الأمم الاسلامية القريبة العهد وبعض الأمم الحاضرة فانهم ظالمون جاهلون قد حقت عليهم كلمة العذاب . ألا ترى أنهم في شمال أفريقيا يلتجئون تارة إلى فرنسا وطورا إلى إسبانيا، وهذه الأمم الفرنجية يغيرون على مصر وتونس والجزائر ومراكش، وكثير من عظماء تلك البلاد يهشون للفاتحين ويأنسون بالمفترسين، ولقد قال لي أحد أبناء مراكش إن الفرنجة لن يقدروا أن يبقوا يوما واحدا إلا بمساعدة المسلمين، وهكذا كان المسلمون أيام الحروب الصليبية لا يعبأون بإخوانهم ولا يبالون بأوطان غير أوطانهم وجرت الحال على هذا المنوال ، ولكن اليوم قد تنبه بعض المسلمين كأهل الأفغان والترك والفرس فقد طردوا الفاتحين . وهكذا قد تنبه أهل الهند وقاموا قومة الشجعان وقالوا للفرنجة دعوا الشرق للشرقيين . وهكذا أهل بلادي المصريون قد رفع الغطاء عن أعينهم فانتبهوا لأمرهم ونالوا بعض مطالبهم . أو لم يقرأ بقية المسلمين في الشرق والغرب القرآن . أو لم يعلموا أن غزوة أحد كانت للدفاع عن المدينة، وفتح مكة لاستخلاص الضعفاء بمكة من أيدي الكفار، والعيب كل العيب على العلماء والملوك أولئك الذين على الاهمال يلامون وعلى إضرارهم بالمسلمين يعذبون، وكل عن ذنبه مسئول «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال» .

الوجه التاسع في الحشرات ومنها النحل والعنكبوت

قال الله تعالى : (وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون ، ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون) فانظر كيف جعل النحل تبني من الجبال بيوتا وفي الشجر وفي الخلايا التي يصنعها الناس لها وتجمع العسل من الزهر مما ذكرناه في هذا الكتاب وأوضحناه في [كتاب الزهرة] وكتبنا الأخرى ثم جعل هذا الشراب مختلف الألوان ويشفي به الأمراض .

عجب لهذه الدنيا ونظمها إنها جنة للعقلاء ليتفكر المسلمون وليعقلوا كيف كانت النحلة الصغيرة التي لا قدر لها سببا في إلقاح النبات ذكرانه لأناثه ثم هي جمعت من الأزهار مادة وطاب فأحالته عسلا وكان العسل ألذ ما يأكل الناس وأشفى ما به يستشفون . فياليت شعري كيف كان الزهر وعسله وإلقاح إناثه من ذكرانه ثم شفاء الناس بعسله . إني لفي عجب من نظام هذا الوجود المحكم البديع وكيف كانت النحلة وسطا بيننا وبين عسل الزهر وكيف طبخته وكيف كانت شفاءنا وهي لا علم لها بالإلقاح في الأزهار ولا بالعسل الذي عنها ورثناه ومن خلاياها وبيوتها الجبلية اشترناه . إن في ذلك لعبرة للمسلمين .

أما آن لهم أن ينظروا في عجائب الدنيا وثمراتها وغرائبها وبدائعها ويتفكروا فيعلموا أن ألذ الطعوم من حشرة صغيرة وهي النحلة وأرق الملبوسات، وأشفها وأجملها ما كان من دودة وهو الحرير، وأحسنها وأبهجها ما كان من صدفة في البحر وهو الدر، فياعجبا حشرة ودودة وصدفة كانت أعمالها محل إعجابنا وزينتنا وشفائنا وتفاخرنا . بهذا العلم فليرق المسلمون ، وبهذا العلم فليفيقوا من غفلتهم ، فاذا أضاعوا هذه العلوم فقد أضاعوا كل شيء، وجهلوا ربهم وصنعه ونسوا نعمته كما قال تعالى (نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون) نسوا نعمه فلم يدركوها فنسيهم وأخرهم في مصاف الأمم ، العذاب واقع على ذوي العقول الكبيرة من المسلمين . واقع على الأغنياء، والأمراء، والعقلاء، والعلماء . فعلى العالم أن يذكر الأغنياء ، وعلى الأغنياء أن يحضوا العلماء وإلا فانهم جميعا آثمون . هذا ما نقلته من كتابي [القرآن والعلوم العصرية] .

تفصيل الكلام على النحل

ويحسن هنا أن أذكر ما كتبته في كتابي (جواهر العلوم) وفي كتابي (جمال العالم) فأما الذي في جواهر العلوم فهو

على هيئة محاورة بين فتاة وفتى قالت له مامعنى العجب؟ فقال اعلمي أن العجب حيرة تعرض للانسان لقصوره عن معرفة الشيء أوعن معرفة كيفية تأثيره؟ فان الانسان إذا رأى خلية نحل ولم يكن شاهدها من قبل ورأى تلك الأشكال المسدسة المنتظمة تحير لعدم معرفة فاعله ، فان قيل له إن فاعله هو النحل تحير أيضا من حيث إن ذلك الحيوان الضعيف كيف أحدث هذه المسدسات المتساوية الأضلاع المعجزة لمهرة المهندسين مع مالديهم من العدد والآلات والادراك والتجارب وطول المدة . وكيف اهتدت إلى تغطية تلك البيوت بغشاء رقيق ليكون الشمع محيطا بالعسل من جميع جوانبه فلا ينشفه الهواء ولا يصيبه الغبار ويبقى كالبرنية المنضمة الرأس فهذا معنى العجب وكل مافى العالم بهذه المثابة إلا أن الانسان يدرسه فى زمن صباه عند فقد التجربة ثم يبدو فيه غريزة العقل شيئا فشيئا وهو مستغرق الهم فى قضاء حوائجه وتحصيل شهوته وقد أنس بمدركاته ومحسوساته فسقط من نظره لطول الأنس بها، فاذا رأى حيوانا غريبا أو فعلا خارقا للعادة انطلق لسانه بالتسبيح ، فقال سبحان الله وهو يرى طول عمره أشياء تتحير فيها عقول العقلاء (وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون) فسألته الفتاة قائلة ومن أين هذا الشمع ولم اختار الشكل المسدس ومن أى شيء يجمع العسل ؟ فقال لها أما الشمع فان النحل يجده على كثير من النباتات مادة بيضاء كالدقيق وتشاهده بكثرة على قصب السكر وأما تلك الخلايا وتسديسها فانها اختارت من جملة الأشكال الشكل المسدس وذلك أن أوسع الأشكال وأحواها المستديرة وما يقرب منها فان المربع يخرج منه زوايا ضائعة وشكل النحل مستدير مستطيل فترك المربع حتى لا تضيع الزوايا فتبقى فارغة ثم لو بناها مستديرة لبقيت خارج البيت فرج ضائعة فان الأشكال المستديرة إذا جمعت لم تجتمع متراصة ولا شكل من الأشكال ذات الزوايا يقرب فى الاحتواء من المستدير ثم تتراص الجملة منه بحيث لا يبقى بعد اجتماعها فرجة إلا المسدس فهذه خاصية هذا الشكل وماأشبه هذا النظام الصغير بالنظام الكبير نظام السموات والأرض فانه كله بحساب متقن إلى أن قال : وأما العسل فانه وضع فى آية (وأوحى ربك إلى النحل) والخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم أو لكل فرد ممن له عقل يستدل به على كمال الحكمة الإلهية وتتسع به مداركه وتقوى همته فينظر كيف ألهم الله هذا الحيوان الضعيف أن جعل له ملكة مسلطة عليه وقدقسمت عليهن الأعمال فجعلت على نفسها وضع البيض فتبيض فى كل ثلاثة أسابيع من ستة آلاف إلى اثنتى عشرة ألف بيضة وجعلت على الشغالة التى عندها جميع الأشغال ــ والشغالة عندها خنائى النحل أى التى ليست إناثا ولا ذكوراــ وعدد مايكون من الخلية من عشرين ألفا إلى ثلاثين ألفا فمنها البواب الذى لايسمح لأحد من غير أصحاب الخلية أن يدخلها، ومنها ماهو منوط بخدمة البيض، ومنها ماهو منوط بتربية صغار النحل ومنها مايبنى الخلايا ومنها ما يجنى مواد الشمع التى تبنى منها الخلايا ومنها مايجنى رحيق الأزهار الذى يستحيل فى بطونها عسلا تخرجه من فمها لتتغذى به صغار النحل متى خرجت من البيض وينتفع به الناس . وكل من هذه الطوائف تؤدى ماعهد إليها بنشاط وهمة على مقتضى أوامر الملكة المسماة (باليعسوب) أو (الخشرم) وتسميها العامة أم النحل وهى أعظمها جثة وأكبرها خلقة . ومن عجيب أمر تلك الملكة أنها تقتل كل ماوقع على نجاسة من رعاياها : ومن سياستها أنها إذا أرادت الحمل ارتفعت فى الهواء واختارت ذكرا من غير خليتها ترفعا عما تحت إدارتها فان عندها ذكورا لا شغل لها عددها من خمسمائة إلى ألف فى الخلية وتبقى فيها إلى أن تحمل الملكة وتحبل . ومتى ظهر حملها قتلت الخنائى هؤلاء الذكور لئلا يضيق المكان ويفنى العسل فسبحان من ألهم تلك الحشرة الضعيفة فعل أعظم الملوك من قدماء المصريين الذين كانوا يحكمون على من لا صنعة لهم بالقتل وألهم تلك الملكة أن حفظ رياستها وشرف ملكها لايتم إلا بالترفع على من تحت إمرتها ولم ترض لنفسها أن يعلوها أحد رعاياها .

ولعمرى

ولعمرى إن فى قتل خناثى النحل لذكورها عبرة وتبصرة تشير إلى أنه لم يخلق فى هذا العالم مخلوق إلا لحكمة (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار) فياليت شعرى كيف يرى الإنسان هذه العجائب فى الحيوان الضعيف ثم يترك أعضاءه ومواهبه الشريفة همَلا فضلا عن استعمالها فى أنواع المفاسد. ثم إن النحل قسمان: وحشية تسكن الجبال والأشجار والكهوف وأهلية تأوى إلى البيوت فيبنى لها الناس أبنية . وهنا جاء فى الكتاب ذكر الإلقاح وأن النبات له فيه ذكر وأنثى وأنه مختلف الألوان . وهذا المقام تقدم مشروحا فى سورة الحجر إذ اقتضى المقام هناك عند قوله تعالى (وأرسلنا الرياح لواقح) أن نبحث فى علاقة النحل والحشرات الأخرى بالنبات وإلقاحه وثمراته وما أشبه ذلك والكلام هناك مستوفى فليرجع إليه من أراد .

هذا ما أردت نقله من كتابى [جواهر العلوم] وكأن الله ألهمنى تأليف هذه الكتب لتكون مرجعا إلى هذا التفسير الآن . وجاء فى كتابى [جمال العالم] ما يأتى :

قد ذكرنا فى كتابنا [جواهر العلوم] النحل وعجائبه وأوسعنا المجال فيه وأوردنا شواهد وآيات ونحن الآن نذكر ما عثرنا عليه بعد من العجائب والحكم ليكون لكل كتاب مزية ليست فى الآخر .

من النحل ما أوتى شعرا [يرى] بالمكرسكوب أسود أو أحمر أو أصفر اختلفت ألوانه كما اختلفت طرقه فى طلب الأزهار والنحل الكبير الذى يعيش فى الكلأ والحقول يموت فى الشتاء إلا قليلا يتوارى فى أماكن ندفء جثته حتى إذا جاء فصل الربيع وانتشرت الحرارة نفخ الله فيه الأرواح وأيقظها من رقدتها بعد نومها وبعثها من مرقدها فى برزخها فما أشبهها إذ ذاك يبعث الإنسان بعد موته وبعث جميع الحشرات من نومها العميق فى نسيجها المسمى (شرنقة) فى أول نشأتها وقيامها من سباتها العميق « فتبارك الله أحسن الخالقين » .

يظهر أن قدماء المصريين ظنوا أن بعثنا على هذا المنوال فحنطوا الأجسام مشاكلة لهذه الحيوانات كما تراه فى البرابى والأهرام والمقابر والحفائر القديمة وهيهات هيهات . وإنما بعثنا أرفع وأجل من ذلك ، فهذا يتسلى به العوام . وأما خواصهم فكانوا يعلمون أنهم يرتقون فى عالم الجمال والكمال . فاذا قامت النحل أخذت تطير فى الحقول لتبحث عن أماكن تبنى فيها أعشاشها . فمنها ما يتخذ حشائش يصنعها مساكن ذات منافذ من أعلى ليدخل النور وتقفلها عند مسيس الحاجة إليها إذا أقبل الليل أو نزل المطر أو الندى ثم تضع على حيطانها أقراصا وقاية من الرطوبة . ومنها ما يبحث عن شقوق ومغاور فى الأرض أو فى الجبل فيضع أقراصه فيها . وهذان النوعان من البناء هما اللذان اتخذهما النحل فوق الأرض وتحتها وبعد ذلك تضع النحل بيوضها فى البيوت التى تكوّن منها الأقراص وتسير سير كل حشرة فى القانون العام كما سنذكره فى سورة (النمل) فتكون دودة فتنام فى كرة نسيجها كما ينسج دود القز فى حريره وان كان هنا نسيجها ضعيفا لا قيمة له ثم تقوم وقد أكمل الله خلقها وخلق أجنحتها وخرجت من مهدها باحثة عن غذائها فتذهب إلى الأزهار وتجنى منها العسل الذى فى أسافلها وتحمل تلك المادة الصفراء فى سفط (القطف) على أرجلها الخفيفة كوّن من شعر يحفظ تلك المادة ثم يجعل جزءا منها (شمعا) يبنى منه الأقراص يملؤه عسلا مما شربه من أسفل الزهرة وجزءا آخر يصنعه خبزا لصغار النحل . فتأمل كيف كانت الزهرة تحوى الشمع وخبز صغار النحل فى مادتها الصفراء المعدة للقاح ، وانظر كيف كان العسل فى أسفلها واهتدى النحل إليها ، فما الشمع وما العسل إلا تلك الزهرة التى نشاهدها كل يوم ونحن غافلون عن حسن الصنع والاتقان الذى قام به النحل فيها ، وإذا كان النحل له قدرة على هذا فان للانسان قدرة لا تتناهى وقد ارتقى فى الصناعات الآن وأخذ من المادة ما لا حصر له من العجائب حتى استخدم

الهواء فى اصطناع المواد الأوزوتية فنفعته فى حربه وفى تسميد أرضه كما يعرفه من قرأ أخبار أهل ألمانيا وكان المسلمون أولى بذلك . ولنرجع إلى باقى كتاب (جمال العالم) .

ومن العجيب أن النحلة قد تسير ميلا للبحث عن غذائها ولا تضل طريقها وترجع إلى أماكنها وأنها تعرف طرق الحيل والدهاء .

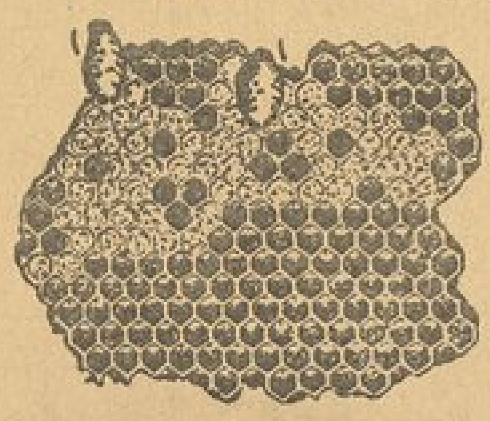
حكاية

ذكروا أن قوقعة أخذت طريقها إلى خلية نحل فلما رآها ازدحم عليها ولكن عرف أنه لا سبيل إلى إرجاعها فتربصها حتى إذا احتلت المكان وشربت من العسل تعاون الجميع على إلصاق رأسها فى الشمع ففارقت تلك المسكينة الحياة ، هكذا أكثره منقول من كتب الفرنجة مترجما ، وهاك ما جاء فى [إخوان الصفاء] لتقف على مختصر بليغ من ثمرات العقول الناضجة فى النحل ، جاء فى بيان فضيلة النحل وعجائب أموره وذلك من رسالة الحيوان ما نصه :

يعسوب النحل

أيها الملك ! مما خص الله به وأنعم به على وعلى آبائى وأجدادى أن آتانا الملك والوحي إذ لم تكن من بعدنا لحيوانات أخر وجعلها وراثة من آبائنا وأجدادنا ويصير ذخيرة لأولادنا وذرياتنا يتوارثونها خلفا عن سلف إلى يوم القيامة ، وهما نعمتان مغبون فيهما أغلب الخلائق ، ومما خصنا به الله أنه علمنا دقة الصنائع الهندسية ومعرفة الأشكال الفلكية من اتخاذ المنازل وبناء البيوت وجمع الذخائر فيها ، ومما خصنا به أيضا من أنه حلل لنا الأكل من الثمرات من جميع أزهار النبات وجعل فى مكاسبنا ما يخرج من بطوننا شرابا حلوا فيه شفاء للناس كما قال تعالى (وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون . ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس) .

ومما خصنا به الله أن جعل خلقتنا خلقة لطيفة فجعل بنية جسدنا ثلاثة مفاصل محزوزة ؛ فوسط جسدنا مربع مكعب ومؤخر جسدنا مخروط ورأسنا مدور مبسوط ، وركب فى وسط أبداننا أربعة أرجل ويدين متناسبات المقادير كأضلاع الشكل المسدس لنستعين بها على القيام والقعود والوقوع والنهوض ونقدر على أساس بناء منازلنا وبيوتنا مسدسات مكتنفات يعجز عن إتقانها المهندسون الذين يعجزون عن موضوعات أشكالنا وتسديسات منازلنا (رسم بيوت النحل ، شكل ٢٠) .



(شكل ٢٠)

والغرض

والعرض من متساوية الأضلاع والزوايا المكشوفات كيلا يتداخلها الهواء فيضر بأولادنا ويفسد شرابنا الذى هو قوتنا وذخائرنا ، وبهذه الأربعة الأرجل واليدين نجمع من ورق الأشجار وزهر الأثمار الرطوبات الدهنية التى نبنى بها منازلنا وبيوتنا وجعل الله على كتفىّ أربعة أجنحة حريرية النسج آلة لى فى الطيران فى جو الهواء مستقلا بها وجعل مؤخر بدننا مخروط الشكل مجوفا مدرجا مملوءا بالهواء ليكون موازنا لثقل رأسنا فى الطيران وجعل لى حمة حادة كأنها شوكة وجعلها سلاحا لى أخوف بها أعدائى وأزجر بها من يتعرض ليؤذينى وجعل رقبتى خفيفة ليسهل بها علىّ تحريك رأسى يمنة ويسرة وجعل رأسى مدوّرا عريضا وجعل فى جنبى عينين براقتين كأنهما مرآتان مجلوتان وجعلهما آلة لنا لإدراك المرئيات البصرات من الألوان والأشكال فى الأنوار والظلمات وأثبت على رأسنا شبه قرنين لطيفين لينين وجعلهما آلة لنا لإحساس الملموسات واللين من الخشونات والصلابة والرخاوة وفتح لنا منخرين لإحساس المشمومات الطيبة وجعل لنا فما مفتوحا فيه قوة ذائقة نتعرّف بها قوة الطعوم وخلق لنا مشفرين حادّين نجمع بهما من ثمرة الأشجار رطوبات لطيفة .

ولقد عجز الطبيعيون والأطباء من اليونان أن يعرفوا طبائع النبات ومنافعه ونحن عرفنا هذا منه وخلق فى جوفنا قوة جاذبة وماسكة وهاضمة وطابخة منضجة تصير تلك الرطوبات عسلا حلوا لذيذا شرابا صافيا غذاء لنا ولأولادنا وذخائر للشتاء كما جعل فى ضروع الأنعام قوة هاضمة تصير الدم لبنا خالصا سائغا للشاربين وجعل فضلاتنا وفضلات أولادنا سببا وشفاء لأخص خلق الله تعالى ، إذ فى تشكيلنا وتخطيطنا المسدسات وترتيب الزوايا المتساويات جعل شفاء للأرواح الانسانية وفى فضلاتنا وبزاقنا ولعابنا جعل شفاء للجسد الانسانى وجعل فضالة فضلاتنا وهو الشمع سببا للضياء فى ظلم الليالى عوضا عن الضياء النورانى الحاصل من الشمس .

فمن أجلّ هذه النعم والمواهب صرنا مجتهدين فى شكرها بالعمل ثم إننا نأوى فى رؤوس الجبال والتلال وبين الأشجار والدحال ومنا من يجاور بنى آدم فى منازلهم ، فأما من بعد منا فإنه يسلم من أذاهم فى الأكثر ولكن ربما يجيئون إلينا فى طلبنا ويتعرضون لنا بالأذية فإذا ظفروا بنا خربوا منازلنا ولم يبالوا بأن يقتلوا أولادنا ويأخذوا مساكننا وذخائرنا ويتقاسموا عليها ويستأثروا بها دوننا ونحن نصبر صبر المضطر تارة مكرهين وتارة راضين مسلمين إن غضبنا وهربنا وتباعدنا من ديارهم جاءوا خلفنا يطلبوننا ويرضوننا بالهدايا من العطر وأنواع الحيل من أصوات الطبول والدفوف والمزامير والهدايا المزدوجة المزخرفة من الدبس والتمر ويأخذون منا عسلا صافيا لذيذا جعله الله سببا لشفائهم ، فنحن من حسن أخلاقنا نصالحهم إذ الصلح خير والخصومة تؤدى إلى هلاك الحيوان وخراب البلاد فنحن نراجعهم ونصالحهم لما فى طباعنا من السلامة وقلة الحسد ، قلبنا صار موضع إلهام الله تعالى لا يجوز أن يكون موضع الحقد والحسد إذ هما ضدان لا يجتمعان ؛ إن الله ألقى الوحى علينا فلا يليق أن نكون فاسقين ، ومع هذا كله لا يرضى الإنس منا إلا أن يدّعوا أننا لهم عبيد وهم لنا سادات وذلك زور وبهتان إذ نحن غير محتاجين إليهم كما يحتاج العبيد لمواليهم بل هم محتاجون إلينا مثل ما يحتاج الخدم إلى السيد ، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم . انتهى [إخوان الصفا] .

المملكتان المتشابهتان : مملكة النحل ، ومملكة الأرضة وهى دابة الأرض

أما مملكة النحل فقد أسهبت الكلام عليها وأريتك صورة بيوته المسدسات ، وبقى أن ترى صورة الذكر وصورة اليعسوب وصورة النحلة العاملة .

(شكل ٢١ — صورة ذكر النحل واليعسوب والعاملة)

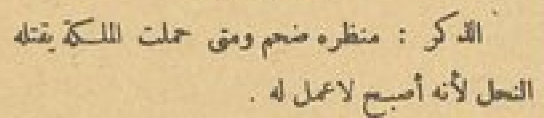




وهاك أوصافها : اليعسوب مؤخرها طويل يصلح لحفظ البيض أجنحتها قصيرة لأن حياتها لاتتعدى الكوارة ويقوم بخدمتها طائفة من النحل، وهاك صورتها وهم حولها .

(شكل ٢٢ صورة ملكة النحل وهو اليعسوب وحولها خدمها نحو ٢٠)

النحلة وخدمها



الذكر : منظره ضخم ومتى حملت الملكة يقتله النحل لأنه أصبح لاعمل له .

العمال : هى أصغرها جثة وكل له عمل :

(١) سقاء (٢) مربى الذرية (٣) راع (٤) بناء (٥) معمارى (٦) مهندس (٧) جندى (٨) زبال (٩) خدام .

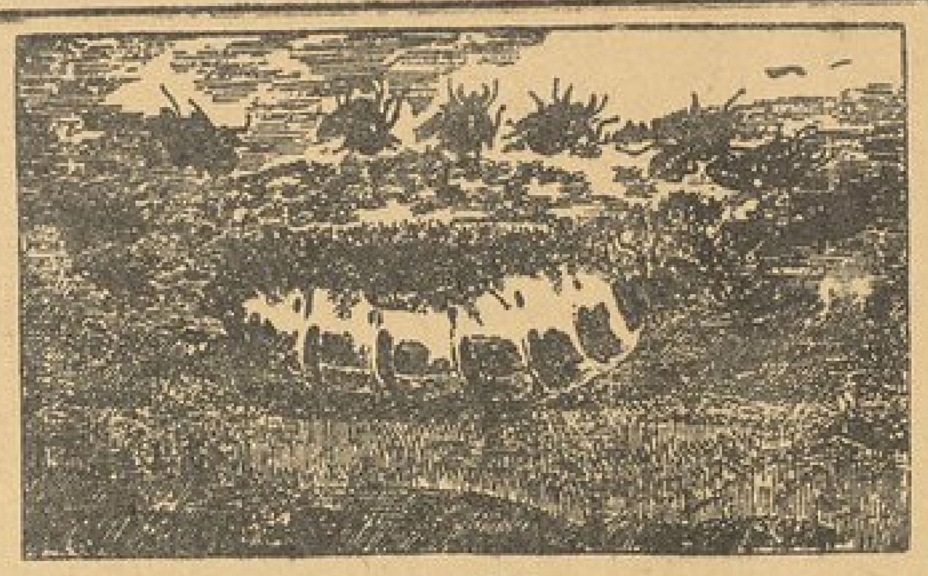


(شكل ٢٢)

فالسقاء يمد الكوارة بالماء، والمربى يربى الصغار، والراعى يجمع غبار الأزهار وعسلها، والبناء ومابعده لبناء بيوت العسل والأمر ظاهر فى البقية ، فهذه الراعيات تمص العسل بلسانها الطويل وتدخله كيس الشهد فيتحول إلى عسل فتتغذى ببعضه وتخزن مابقى إلى وقت الشتاء اه .

وأما مملكة (الأرضة) فإن أمرها عجب وقد تقدم وصفها فى سورة هود فقد أبنت لك هناك أنها على وزن بقرة وتسمى النمل الأعمى، وليست بالبيضاء بل هو (أغبس) أى كلون الأرض التى يقيم فيها أى لابياض فيه ، ولا أطيل فى وصفها فقد تقدم هناك وسيأتى زيادة شرح لها فى سورة (سبأ) ولكن الذى يهم فى هذا المقام أن تطلع على صورتها وحولها العمال .

(شكل ٢٣)



(شكل ٢٣)

صورة الأرضة المالكة وأتباعها وهي الكتلة البيضاء الضخمة وهي الملكة وإلى جانبها الملك ومن حولها العمال يقبلونها ويلحسونها ؛ فالقائمون بتغذيتها يتألبون عند فمها ويبقى في الطرف الآخر من وكل إليهم التقاط البيض، ومن العمال جند من الشرطة صغير الحجم، وفي الصف الأول في شكل نصف دائرة الجند الكبير القائم بحراستها لمنع هجمات عدو مفاجيء ، وهذه هي التي تسمى عندنا (السوسة) و (العثة) التي تلحس الصوف والثياب ، وهذا الرسم للعالم الألماني (ازريك) كما نظرها نقله من كتاب [مملكة الظلام] المترجم حديثا للعلامة (موريس مترلنك) بلجيكي المنشأ فلمنكي الأصل مؤلف في النحل وفي الأرضة .

فهاتان مملكتان إحداهما في الهواء فوق الأرض ، وثانيتهما تحت الأرض في الظلام ، والنظامان يرجعان لناموس واحد ملكة تبيض وتلد وعمال تقسم الأعمال عليهم ، غير أن العجب أن تكون الأرضة تدبر ملكها وهي عمياء، وتحكم عشرات الألوف من رعاياها المتفرقات اللاتي تبني مباني ضخمة عظيمة تعلو فوق الأرض بضعة أمتار وتمتد مسافات عظيمة ، فكيف حكمت العمياء التي لا حراك لها هذه الجموع كلها وكيف كانت هذه كلها قائمات بالأعمال ولا أعين لها ، أما النحل فأمره معلوم مما تقدم فاقرأ « ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور » واقرأ « قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » وإلى هنا انتهى الكلام على النحل .

أما النمل فقد أفرد له العلماء في عصرنا التأليف ، ولقد رأوا عجائب ذكروها وآيات بينوها وغرائب صنفوها فمن ذلك أن منها ما يبني مساكنه كما يبني الناس ويبنين قرى صغيرة وكبيرة ولها أظآر يربين أولادهن الصغار ولهن حجرات محفورات أو مبنيات فوق الأرض لكل جيل من أجيال الذرية كأنها مدارس ذات فصول ، ولهن من نظام الجند وصفوف الحرب وتربية الماشية الخاصة بهن ما تخر له عقول العلماء سجدا ويقولون سبحان مبدعها الحكيم ، ولا يظنن القاريء أن في ذكر الجند لهن مبالغة أو أن في الحرب عجبا فإن لها من أنفسها نملا كبيرا يشاهدونه محافظا عليها في غدوها ورواحها ، ثم هي تحارب نملا آخر وتأتي بالأسرى وهؤلاء الأسرى يحضرون الطعام لساداتهن الآسرات لهن ولهن حيوان صغير يسمى (افد) سماه علماء هذا الفن جاموس النمل فإنه يربيه ويسمنه ويمتص منه مادة يتغذى بها كلبن البقر والجاموس عندنا ورأوا له مزارع يحافظ عليها وهي نباتات صغيرة لها نظام هندسي وطرق عملية عجيبة بديعة متقنة قد اطلعت على رسمها ولها ملكة تقوم بأمرها وتحافظ على مجموعها وإليها يولي النمل وجهه في غدوه ورواحه ويستروح

لرؤيتها ويهش لإقبالها ويفرح لطاعتها ويسعى لخدمة القرية النحلية إرضاء لها « ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين » وقد قص القرآن قصص النمل فقال « حتى إذا أتوا على واد النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون . فتبسم ضاحكا من قولها » وسترى إن شاء الله فى سورة النمل مساكنها مصورة بالتصوير الشمسى منقولة من الكتب الفرنجية . وهناك تشاهد الحجرات والحيطان وأعمدة تتكىء عليها السقوف والطرق والدهاليز والمخارج والمخازن ، وترى فوق ذلك مزارع الأرز التى يزرعها النمل وطرقها الهندسية التى رسمها النمل ونظامها الجميل منقولا بالتصوير الشمسى من الطبيعة بحيث تقر بأن الفلاحين فى مصر لم يصلوا لهذا النظام ، وإذ ذاك تقرأ « وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم » وتقرأ أيضا « وما كنا عن الخلق غافلين » .

العنكبوت : من كتابى [القرآن والعلوم العصرية]

ومن الحشرات العنكبوت ذات النسيج الجميل والغزل الرقيق والريق الذى إذا تعرض للهواء انقلب إلى مادة أشبه بالقطن أو الحرير فيغزلها خيطا دقيقا وينسج تلك الخيوط نسيجا محكما متقنا حتى قال علماء الحشرات إن هندستها التى رسمتها فى نسيجها ونظامها البديع الذى توخته فى عملها أدق ماصنعه المهندسون وأبرع ما نظمه البارعون حتى إنها لم تخطىء يوما فى نظمها ولم تغلط يوما فى نسجها ، وإن أبرع المهندسين وأعظم المحنكين الذين درسوا فى المدارس العالية وتخرجوا على أعلم علماء الهندسة يخطئون فى تقديرهم ويشذون فى عملهم ويحيدون عن سواء السبيل ، وهذه الحشرات لا تخطىء فى نظمها ولا تضل فى هندستها ولا تخيب فى إحكامها ذلك لأن معلم المهندسين من المخلوقين ومعلم العنكبوت خالق المهندسين فتلميذ الله لن يخطىء وتلميذ المخلوق قد يضل مع الضالين ، ولقد شاهد الناس صغارها وصغار الحيوانات تخرج عالمة بفنونها محكمة لعملها كأمهاتها بلا تعليم ولا تدريب ولا تهذيب ولا تدريس ولا مدارس ولا معلمين بل الغريزة الإلهية والحكمة الصمدانية التى أبدعت المخلوقات ونظمت الكائنات « فتبارك الله أحسن الخالقين » ولقد ذكر الله العنكبوت فقال « وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون » فإذا كان أوهن البيوت على نظام أتم وحكمة أبهج فما بالك بأمتنها بناء وأحسنها نظاما « وما كنا عن الخلق غافلين » .

لطيفة

إن العلماء بحثوا فى تجزئة المادة حتى وصلوا إلى مايدهش العقول ويحير الأفكار فقد رأوا بعض العناكب تنسج خيوطا رقيقة جدا فإنها تنسج بيتها من خيوط أدق منه وكل واحد من هذه الأربعة مؤلف من ألف خيط وكل واحد من الألف يخرج من قناة مخصوصة فى جسم العنكبوت ، فانظر كيف كان الخيط الواحد مؤلفا من (٤) فى (١٠٠٠) يساوى (٤٠٠٠) ومن عجب أن بعض علماء الألمان قال إنه إذا ضم أربعة بلايين خيط (٤٫٠٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠) إلى بعضها لم تكن أغلظ من شعرة واحدة من شعر لحيته كما فى آل عمران .

ولقد علمت أن كل خيط من تلك الخيوط مؤلف من أربعة آلاف خيط فكل خيط إذن من هذه الخيوط الدقيقة يساوى غلظه ١٦٫٠٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ واحدا من ستة عشر (تريليونا) ثم تعجب كيف كان كل واحد من الألف يخرج من قناة مخصوصة فى جسم العنكبوت ، وكيف يسع جسم العنكبوت ألف ثقب فيها ألف خيط .

أليس ذلك من العجب ! أوليس من أعجب الحكم أن العنكبوت فى هذا تمثل نظام العالم الجميل ؟ يخرج الخيط الدقيق من ثقبه فيخيل للرائى أنه خرج بلا حكمة فإذا انضمت الخيوط إلى بعضها كونت خيطا

والخيوط

والخيوط الأربعة أنتجت خيطا أكبر ، وباجتماع الخيوط أنشأت بيتا وكان مسكنا ومحل صيد العنكبوت ومع ذلك تسمع القرآن يقول «وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون» وصف بيت العنكبوت بأنه أوهن البيوت ثم أردفه بقوله « لو كانوا يعلمون » فانظر كيف ذكر العلم القرون بلو بعد مسألة العنكبوت ، أفليس هذا الوهن قد ظهر فى التحليل والتجزئة فقد جاوزت خيوط العنكبوت الحدّ المعروف فى الدقة وتناهت فى التجزئة فذكر الوهن هنا إشارة إلى قبول التجزئة قبولا مطردا بحيث لايمتنع عنها وهو متماسك ذلك هو السر فى قوله « لو كانوا يعلمون» فليس يدرك الناس تلك التجزئة التى أشار لها الوهن مجرد إشارة إلا بعلم الطبيعة ولا يدرى المسلمون ما السرّ فى تسمية سورة باسم (العنكبوت) إلا بالتفرغ لدراسة الحشرات وإذن يعرفون لماذا سميت سورة فى القرآن باسم العنكبوت وأخرى باسم النمل وأخرى باسم النحل وهى حشرات وسورة باسم البقرة وسورة باسم الأنعام وهذه من ذوات الأربع ، والذى أراه أن الجيل الحاضر ومن كانوا قبله من المسلمين فى الأعصر المتأخرة إنما خلقوا ليحفظوا القرآن والشريعة حتى يتفكر فيهما الأجيال المقبلة التى سيوقظها أمثال هذا الكتاب ويخرج جيل إسلامى لم تحلم به العصور ولم تلده سوالف الدهور وهم خلفاء الله والنبى صلى الله عليه وسلم، وهذا سيكون وأنا به من المؤمنين اهـ .

وما مثل العنكبوت فى ذلك النظام البديع إلا كمثل النحل إذ نظم بيوتا مسدسات ذات أضلاع متساوية متقنة ، ومن العجب أن الأشكال المسدسة كل ضلع يساوى القطر المارّ مابين ضلعين من أضلاعها كما قرره علماء الهندسة ، ولقد أبنا الحكمة فى اختيار المسدس دون باقى الأشكال ولم يكن دائرة فيما كتبناه فى كتبنا السابقة وأوضحنا عجائب هذه الحشرات وغيرها إيضاحا أتمّ وبيانا أكمل فى كتابنا [جمال العالم] وكذا [نظام العالم والأمم] وغيرها وهذا الكتاب إنما جعلناه تذكرة عامة للأمة الإسلامية ليستيقظوا من غفلتهم وليفيقوا من سباتهم وليعلموا أن الله عز وجلّ ما وصف هذه الحشرات ولا ذكر هذه الآيات ولا أخذ يصف الأنهار والجبال والكواكب والشمس والقمر والنجوم إلا ليسوقنا إليها وليحثنا عليها فانظر مسألة النحل الذى تقدم الكلام عليها فانها فضلا عما فيها من بدائع الصنعة الالهية والحكمة الصمدانية دلالة على حكمة الخالق وإتقانه ونظامه وعجيب صنعه فان لها أثرا عظيما فى الزراعة ، إن تربية النحل فى البساتين النضرة موجب لثروة بالعسل الكثير الذى يربو إذا كانت الخلايا فى وسط الأزهار ويقلّ بل يموت النحل إذا كانت الأرض المحيطة به مقفرة ولها فوق ذلك شروط وأحوال خاصة يعرفها الدارسون لمستقرها ومستودعها من علماء الزراعة الساهرين على مصالح الأمم ، الناظرين فيما جادت به يد الخالق من العجائب والبدائع .

ولما كانت هذه الحشرات الضعيفة ربما غفل الناس عن أمرها وصغروا من شأنها وجهلوا صنعها سمى الله عز وجلّ سورا من القرآن باسمها فسمى النمل والنحل والعنكبوت ، أفليس ذلك نبراسا يهتدى به المسلمون فيرقون صناعاتهم ويبنون مجدهم ويدرسون كل مادب وكل ماطار وكل حيوان ونبات ؟ إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار كما قررناه ، انتهى من كتابى [القرآن والعلوم العصرية] وسيأتى فى سورة (العنكبوت) زيادة على هذا .

الوجه العاشر فى قوله تعالى « والله جعل لكم مما خلق ظلالا . وجعل لكم من الجبال أكنانا » إلى قوله « لعلكم تسلمون » مع ملخص ما تقدم

ها أنت ذا قد اطلعت على الطيور فى أوكارها والحشرات فى أعمالها والأنعام فى حقولها وعلمت دورها

وتسلها، ثم قرأت ما فى آية « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون » .

قرأت ذلك من قبل وها أنت ذا تقرأ أن الظلال مسخرات لنا والجبال أكنان لنا وسرابيل من القطن والكتان والحرير والتيل لنا وختم ذلك بالسرابيل التى تقينا السلاح الذى يقذفه العدو لقتلنا ، وههنا قد تمت النعمة فإنه بعد تسخير الطيور والأنعام والحشرات لحياتنا وتسخير كل الثمرات والظلال والجبال ونبات القطن والكتان وأمثالها ، بعد هذا كله لم يبق إلا الدروع السابغات فى الحرب لنتقى العدو بها ، وهنا تمت النعمة فقال « كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون » والاسلام هنا الانقياد والاخلاص وأن ننهج النهج الذى يرقى عقولنا ونستخدمها فيما خلقت له ونستفيد الأمور العقلية والمادية معا لأنه قال فى أثناء ذلك إنه خلق السمع والأبصار والأفئدة لعلنا نشكره .

إيضاح مقام الشكر

انظر أيها الذكى فى هذه السورة وتفكر فى نظم الآيات ، لقد قرأت الآيات التى فى أول السورة وقد ابتدأ فيها بالانسان وختمها بالمواد العنصرية أو ماهو أقرب إليها من الماء ونعمة الهواء الذى تجرى به السفن فابتدأ هناك من أعلى إلى أدنى وقد ابتدأ فى سورة الحجر قبلها من أدنى إلى أعلى وقد بينا سبب ذلك هناك فلا نعيده ، إنما الأمر الغريب أنه هنا لم يكن الأمر على نسق الأول ولا الثانى بل هو نسق يخالفهما فإنه ابتدأ بانزال الماء ثم السماء فالأنعام والنحل ثم الانسان ثم الطير لجعل الانسان فى هذا فى وسط الجميع ، فما حكمة هذا ؟ إن الحكمة التى طويت فى هذا أنه صرح بأنه خلق السمع والبصر والأفئدة لنا وقال إنى خلقتها عسى أن تشكرونى ولامعنى للشكر إلا قبول النعمة والعمل بها وصرفها فيما خلقت له ، فهو هنا يقول : أى عبادى أنتم مركز الدائرة ، فالأنعام على الأرض والحشرات والزرع والطير من فوقكم وأنتم بينهما ولكم السمع والأبصار ، وإذا كان كذلك فلا حق لكم أن تناموا عن قراءة هذه ، أنتم على الأرض والطير فوقكم والأنعام والحشرات على الأرض وأنتم بينهما أى بين الدواب والطير هذا فى العالم الكونى الذى أنتم فيه فكما فعلت فى العالم فعلت هنا فلم أراع فى هذه الآيات السلسلة المنظمة لامن أعلاها كما فعلت فى أول هذه السورة ولامن أسفلها كما فعلت فى سورة الحجر بل راعيت ما تشاهدونه بأبصاركم فأنتم تشاهدون الأنعام والحشرات وهى أقرب إليكم ثم تشاهدون الطير وقد قلت لكم إنى خلقت لكم السمع والأبصار والأفئدة وأنتم بين هؤلاء وهؤلاء : أى بين الأنعام وماهو مختصر منها وهى الطيور فأنتم بحسب وضعكم فى الأرض بين هؤلاء وهؤلاء والعقول فيكم والحواس فكان عليكم أن تدرسوا وتعلموا وإن لم ينزل لكم كتاب لأن العقل والحواس يوجبان ذلك فلما علمت ضعفكم وغفلتكم ونومة عقولكم نبهتكم إلى ذلك بهذا القول وقلت لكن عقولكم مسلطة على هذه العوالم فتدرسوها فأقسم بالطير وقدرتها والحشرات ونظامها والأنعام ونفعها إنى ماخلقتكم إلا لتعلموا وما وضعتكم فى الأرض إلا لتدرسوا .

أعجب ما ذكر فى هذه الآية وبعض رموزها

لقد تقدم كيفية دراسة هذه العوالم ، ولكن أذكر هنا ماهو أعجب ، ذلك أن الحيوان ثمانية أقسام : كما قدمناه ، ففى هذه الآيات أربعة منها وأربعة لم تذكر فذكر الأنعام والحشرات وقد جاءت البهائم فى أول السورة وذكر الحشرات النافعة والطيور ولم يصرح بذكر الوحوش ولا السباع على الأرض ولاالهوام كالحيات وكذا لم يذكر الجوارح من الطير بنصها وإن كانت داخلة فيها ، فهذه أربعة غير مصرح بها وهنا أربعة مذكورة وهى جملة الحيوانات . واعلم أن جميع هذه نعم علينا ، فالوحوش والسباع لإزالة الرمم وإزاحة العمم

وأن

وأن تكون أجوافها مقبرة للحيوانات البرية ، هكذا الهولم نافعة لنا كالحيات والعقارب كما قدمنا فى سورة (آل عمران) لأنها تنظف لنا الأرض من قاذوراتها فتحيلها إلى أجسامها ، وهكذا كواسر الطير ومثلها بعض حيوانات البحر الكاسرة القوية فانها تكون منظفة لما من الحيوانات الميتة فيعفن الماء، وإنما لم يذكر الله ذلك صريحا لأن أكثر الناس جهال لايعقلون إلا ما مس شهواتهم كما تقدم فى مسألة البنات وهى ظاهرة واضحة ولكن الانسان لجهله وغفلته المستحكمة لايعقل ذلك ولا يفهم فحكم عليه حكما قاطعا أن يربى البنات شاء أم أبى ، فإذا كان هذا فى نوع الانسان وهو جاهل به فما بالك بما هو أبعد عن فهمه من الحيات والسباع والوحوش والجوارح من الطير ، إن أكثر الناس لايفهمون ذلك ولذلك ضرب عنها الذكر صفحا واكتفى بذكر العقل والسمع والبصر وقال اشكروا واذكروا ، هذا هو العجب فى هذه الآيات .

جوهرتان

الأولى : فى قوله تعالى « سرابيل تقيكم الحر » .

والثانية : فى قوله تعالى « وسرابيل تقيكم بأسكم كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون » .

الجوهرة الأولى

اعلم أنه تقدم فى سورة (الأعراف) الكلام على علم الصحة عند قوله «وكلوا واشربوا الخ» وفى سورة النساء عند قوله تعالى «مايفعل الله بعذابكم الخ». أقول تقدم فى هذين المقامين الكلام على أن صوف الغنم ووبر الجمال وشعر المعز لها خاصيتان : الأولى أنها تحفظ حرارة الجسم . والثانية أنها تنشف العرق ، والحرير أقل والتيل والقطن أقل من سابقيهما وأن المواد كلها مختلفات فى توصيل الحرارة فجعلوا الفضة مائة (١٠٠) وغيرها أقل منها وهكذا إلى الخارصين (١٩) والحديد (١١٫٩) ، والبزموت (١٫٨) فهذه المعادن موصلة جيدة للحرارة بهذه النسب ، ومعنى هذا أنك لو وضعت ملاعق من الحديد والفضة والخارصين فى ماء حار وأمسكتها من الخارج وصبرت زمنا ما لم تقدر على أن تمسك ملعقة الفضة من خارج الماء لشدة الحرارة ثم بعد ذلك تلحقها ملعقة الخارصين فالحديد .

أما غير المعادن كالخشب والزجاج والفحم والصوف والحرير والوبر وجميع الأجسام العضوية فانها رديئة فى توصيل الحرارة ، هذا بعض ما ذكرته هناك فاقرأه إن شئت ، وإنما الذى أدهشنى اختصاص الدواب بالصوف والشعر والوبر ، أريد أن أحدثك حديثا عن الانسان ، إن المولود يخرج من بطن أمه عارى الجسد من الصوف والوبر والشعر والجلد المتين ، عارى العقل من العلوم والمعارف ، يدرج وينمو ويكبر فيرى طيورا فوقه ذات ريش لطيف وبقرا وجاموسا وغنما وإبلا ذات شعر وصوف ووبر ثم يرى أن الناس يتخذون من الصوف ومن الوبر ومن الشعر ملابس ومساكن يحملونها من مكان إلى مكان ويراهم فوق ذلك يزرعون القطن والتيل والكتان ويستخرجون الحرير ويلبسون من ذلك كله ويراهم يجدّون لتحصيل ذلك كله فيتخذون الأنعام ويربونها ويكدون فى جمع المال لما يأكلون من ذلك ويلبسون ثم يموتون ولاهم يذكرون، هذا تاريخ الانسان العادى الذى خرج من بطن أمه لايعلم شيئا ثم لم يرتفع نظره إلى مافوق المآكل والمشارب والملابس ، ولكن الله يقول له «وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون» ولاجرم أن مبدأ الشكر العلم ولا علم إلا بالتعلم ، ومتى أخذت البصائر تفتح بالعلم صارت أشبه بالزهر فى أشجاره والورد فى أكمامه والكهرباء فى قناديلها والكواكب فى سمائها ، هنالك تضىء له أركان هذه الطبيعة التى استعبدته ، ينظر فماذا يرى ؟ يرى أنه :

(١) خلق عاريا والدواب من حوله مكسوة فيقول ما السبب ؟ فيجاب إنك منحت ومنعت وما منحت

أفضل مما منحت ، منحت شعرا وريشا ووبرا ومنحت عقلا وحكمة وبهذا العقل شاركت الدواب فى أشعارها وأوبارها الخ وزرعت القطن والكتان الخ ، فيقول ولماذا أعطيت فوق ماأخذه من الدواب قدرة على ماأخذه من غيرها مع أن ماعدا الشعر والصوف والوبر أقل منها لحفظ الحرارة ، فيجاب إنك أعطيت عقلا والعقل حر فوجب أن يعطى الحرية فيتخذ ما يشاء ويختار قطنا أوتيلا أوصوفا على حسب الزمان والمكان فيلبس الجلود فى الأقطار الباردة ويلبس أخف الثياب فى الأقطار الحارة ، فيقال ولم لم يجعل على الحيوان قطن أوتيل ولم اختص بالصوف والوبر الخ ؟ فيجاب إن الريش والوبر والصوف فيها خاصتان : الأولى أنها تحفظ ما تحتها فلا تدخل عليه حرارة من الخارج كما فى (الثلج) المغلف باللبد ، فإن ما أحاط به قد منع الحرارة الخارجية أن تصل إليه فيبقى ثلجا وهكذا الانسان يتقى الحرارة بالكساء وقت الظهيرة فى حمارة القيظ .

الخاصة الثانية : أنها تحفظ حرارة ماتحيط به فلا تفلت إلى الخارج ، ألا ترى إلى الانسان كيف كان فى كثير من الأزمنة والأمكنة يحتاج إلى حرارة أعلى من حرارة الجو المحيط به وهكذا الحيوان فلذلك أعطى الحيوان تلك الأشعار والأوبار لتحفظ حرارته الداخلة ولو كانت الأشعار وأخواتها موصلة جيدة للحرارة كما يوصل المعدن كالحديد والنحاس الخ لتسربت الحرارة إلى الخارج ومات الحيوان فمن حكمة الله أنه لم يجعل طبع الأصواف والأوبار والأشعار كطبع الذهب والفضة والبلاتين وسائر المعادن بل جعلها موصلة رديئة للحرارة فحفظت للحيوان حرارته فعاش إلى حين ولم تعط للحيوان الحرية فى اتخاذ ما يشاء كالإنسان لأنه لا روية عنده مثله بل أعطى الكساء الحافظ له مرة واحدة فالمزية تعطى للأعلى وهو الإنسان لأنه يستمد الحرية من الملأ الأعلى وقد قلد الانسان ربه ، انظر إلى ما ذكرته فى سورة النساء عند الآية التى أشرت لها آنفا وهذا نصه :

وترى الناس يغلفون أنابيب المياه الحارة وأنابيب البخار وجميع الأجزاء التى قد تكون معرضة للهواء من مراجل بعض الآلات البخارية بغلف من الفلين أو خليط من طين بتبن أو طين بشعر أو نوع من طوب قد صنع من فتات الفلين ، كل ذلك لأن هذه موصلة رديئة للحرارة : أى الطين المخلوط بالتبن والطين المخلوط بالشعر مثلا يمنعان ويحبسان الحرارة فى المراجل فلا تتبعثر فى الخارج ، فهذه الأجسام الرديئة التوصيل للحرارة أشبه برعاة الغنم ، والأمراء والحكام والوعاظ الذين يحافظون على الأمم ، انتهى .

هذا هو الذى قلته هناك ، وأقول هنا : نحن فى الأرض اصطفينا هذه الأجسام التى لاتوصل الحرارة فجعلناها محيطة بآلاتنا ، ولما نظرنا فى الحيوان وجدناه قد فعل به مافعلناه نحن فى أعمالنا ، هنالك يأخذ الانسان كل العجب ويقول ما بالنا نعيش ونموت ولا ندرى هذه الظاهرة العجيبة ، صوف ووبر وشعر تتحالف كلها على حفظ الحرارة فى داخلها ثم لايحصل خطأ البتة ، ولماذا لم نر هذه الخليقة أخطأت فى هذا التركيب ؟ ينظر الانسان فيراه يدرك جمال الوجوه وجمال النغمات ويعجبه حفيف الأوراق وتمايل الأغصان وتجاوب الرياح ، الانسان يعرف هذا لأول وهلة ولكنه قط لايفطن لمثل هذه الظاهرة الشعرية والوبرية والصوفية .

ولئن أدرك الحجر فى سقوطه بالتربيع المذكور فى أول سورة (آل عمران) وأشياء أخرى عجيبة فى سور غيرها كالرعد وذلك بالبراعة فى العلوم الرياضية إنه مع ذلك لايشعر بالتعجب من هذه الظاهرة الحيوانية إلا بعد دراسة العلوم الطبيعية ، تلك العلوم التى تفتح للعقول بابا كان مغلقا وترينا جمال الله وأنه ليس خاصا بجمال الزهر والنهر والبحر والوجوه الجميلة بل الجمال الأوفى هو الذى اختفى عن أعين الجاهلين ، هناك حساب دقيق فى خلق الحيوان ، هناك إبداع وإحسان وجمال ولكن ذلك الجمال لايراه العامة ولا أكثر المتعلمين ، يعلمون ظاهرا من الفرح بتملك الأنعام وهم من عجائبها معرضون ، ثم يتأمل الانسان فى نفسه ويقول إذا كان

كساء

كساء الحيوان قد بنى على علم وحكمة والناس يعيشون ولا يعقلون وقليل منهم الذين أدركوا هذا الجمال أى التناسب والتوافق ، فعلام يدل هذا ؟ فيقال له إن هذه الطائفة التى أدركت ذلك الجمال وفرحت به أرقى من بقية نوع الانسان وهؤلاء هم الذين يربون فى الأرض مع عامة الناس وتنمو قوتهم العاقلة ويزيدون جمالا فى نفوسهم ويشعرون بأن الناس حولهم عمى صم بكم عن ذلك الجمال وهذه الطائفة القليلة قد أعدت فى الأرض لعوالم أرقى ، ومن جهة أخرى يدل أن هناك عوالم ونفوسا مشرقة فوق أهل الأرض غايتها فى حياتها إدراك هذا الوجود على ماهو عليه ، فإذا كانت هذه الأرض أكثر أهلها من الناس غافلون عن عجائب الذرة والقمح مثلا المذكور بعضها فى تفسير الفاتحة وعجائب الأشعار والأوبار المذكورة هنا وفيهم أناس عرفوا وفرحوا فمعناه أن أكثر الناس مع الحيوان بعقولهم وأخلاقهم وأقلهم بل النادر فيهم هم القادة وهم السادة وهم الذين يشبهون نفوسا أعلى دأبها أن تفرح بهذه العلوم ، ذلك لأن العقل يقتضى أن يكون الحىّ إما أن يكون صاحب شهوة وحدها وإما صاحب عقل وحده وإما جامعا بين الخصلتين ، فالأول الحيوان والثانى الملك والثالث الانسان ، ولكن هذا الانسان إن غلبت عليه الشهوات كأكثر الناس فى الأرض جهلاء ومتعلمين فهو إلى الحيوان أقرب وإن غلب عليه العقل فهو إلى الملك أقرب ، وقد وصلنا إلى المطلوب الآن وهو أن أولئك الذين يشعرون بجمال هذه الخليقة ويدرسون سر وجودها هم أقرب إلى الملائكة والناس حولهم جميعا كالحيوان ، ذلك هو معنى قوله تعالى « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم » وذكر الطير والمساكن والجبال والسرابيل وتمام النعمة ، ولا جرم أن الطير قد تقدم فى أول سورة المائدة عند قوله تعالى « فبعث الله غرابا يبحث فى الأرض » والجبال ستأتى فى سورة (الغاشية) وتقدمت إجمالا فى سورة (الرعد) عند ذكر القطع المتجاورات وفى سورة البقرة عند ضرب موسى الحجر بعصاه فتفجر الماء فإن ذلك الصنع حاصل فى الجبل فاقرأه هناك وبقية الآية قد ذكرته هنا .

إن لله كتابا قد كتبه بيده وهذا الكتاب هو سمواته وأرضه ، هذا الكتاب أنزله قبل خلق الناس ولما خلقهم أعطاهم عقولا ، فهذه العقول غشت عليها المادة فجعلت بينها وبين جمال العالم الذى نحن فيه سدا حصينا فأرسل الأنبياء فأخذوا يرشدون الناس إلى دراسة هذا الكتاب الذى كتبه الله بيده الذى حروفه كبيرة فغفل أكثر قادة الديانات واكتفوا بحفظ أو فهم ألفاظ الدين وغرّهم فى دينهم ماحفظوه وما فهموه فرجعت الانسانية القهقرى ، فماذا يفعل الله فى عوالم منحطة كهذه ؟ يرسل عليهم البلاء ويخلق فى الأرض من يشعلون نار الحرب فتظهر علوم وصناعات تدهش أولئك المتدينين الغافلين فإن ظهر فيهم مصلحون بعد إرسال العذاب عليهم ومحاربتهم وسمعوا لقولهم فازوا ، وإن لم يقم مصلحون أو قاموا ولكن الأمم لم تسمع لقولهم أهلكت تلك الأمم ولات حين مناص .

فياليت شعرى كيف نعرف قوله تعالى « تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهنّ وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم » إلا بمثل هذا المقال ، ولو سئل صوف الغنم ووبر الجمل وشعر المعز عن عمله وهى قادرة على النطق لقالت بلسان فصيح إن الله منحنى قوة حفظ الحرارة لنفع هذا الحيوان فهو تعالى منزه عن العبث مقدّس عن اللهو واللعب ووضع الشىء فى غير موضعه ، هذا هو التسبيح العملى .

وكيف نعرف معنى بسم الله الرحمن الرحيم ، أو « ورحمتى وسعت كل شىء » أو « وإن من شىء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » إلا بمثل ما بيناه ، وكيف نعرف « وما يعقلها إلا العالمون » بكسر اللام إلا بنحو ذلك وهكذا « ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات

العالمين » بكسر اللام ، ثم كيف نفهم الأثر المشهور « ما رأيت شيئا إلا وجدت الله قبله » وفى رواية « بعده » وفى رواية « معه » كيف نعرف هذا إلا بمثل هذه المباحث والعلوم ، وهكذا قوله تعالى « ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم الخ » .

إن فهم عجائب الحيوان بالعلوم الطبيعية يجعل للانسان قوة أن يفهم نفسه لأن السمع والأبصار والأفئدة التى أعدت فيه للشكر (وأس الشكر المعرفة) تقوى بدراسة الطبيعة المحيطة بنا على فهم تركيب أجسامنا المذكور فى أول سورة (آل عمران)م .

هذا الهيكل المنصوب العجيب هو الذى سكن الملك وجنوده فى الطبقة العليا منه وهى العقل والحس المشترك والخيال والذاكرة والمفكرة ثم السمع والبصر وبقية الحواس ، كل هؤلاء كانت سكناهم فى الغرفة العليا وهى الطبقة الثالثة فى الجسم فلم نر بين هؤلاء النواب ورئيس جمهوريتهم فى باطن الدماغ ولا بينه وبين حكام الأقاليم الذين اختصوا بها كالسمع لإقليم المسموعات والبصر لاقليم المبصرات وهكذا . أقول : لم نر بينهم أحدا من سكان الغرفة الوسطى كالقلب وكالرئة اللذين كان شأنهما إصلاح الدم وتوزيعه إلى سائر الطبقات بعدل ونظام مبين فهذان تأدبا بآداب الله الذى حكم عليهما ألا يجلسا فى مجلس نواب هذه المدينة الذين هم أولى أن يكونوا فى أعلى المكان ليشرفوا على الجسم كله وليحصلوا منافعه من تلك الأقاليم ، وهكذا لم نر فى الطبقة العليا ولا فى الطبقة الوسطى أحدا من سكان الطبقة الدنيا فلم نر المعدة المعدة لهضم الطعام ، وكذلك الأمعاء الدقاق والغلاظ ولا الكبد المعدة لمساعدة الدم فى تقويته ولا الطحال ولا الكليتان اللاتى لهن عمل فى الدم إما بحفظ الكرات البيضاء وإما بجذب الماء من الدم ، أقول لم نر أحدا من هذه كلها خرج من الطبقة الدنيا فعاش مع القلب والرئة أو إلى الطبقة العليا فجالس رئيس الجمهورية أو أعوانه الذين هم داخل القصر ولا أعوانه الذين يحكمون الأقاليم كاللمس وكالشم وكالذوق للملموسات والمشمومات والمأكولة ، فهؤلاء جميعا مؤدبون فى أماكنهم قائمون بأعمالهم كالملائكة الموكلين بهذا العالم « وما منا إلا له مقام معلوم » .

هذا هو الذى يفهم هو ونظيره من قوله تعالى « وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون » ومن قوله « كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون » .

اللهم لاشكر إلا بالعلم وأجل العلم ما به عرفنا أنفسنا ، فإذا وجدنا سكان الطبقات السفلى لم يتكبروا فيجلسوا فى الطبقات العليا ، فهكذا سكان الطبقات العليا لم ينزلوا إلى سكنى الطبقات السفلى لئلا تتعطل أعمالهم فلم يكن العقل وهو الرئيس المذكور ولا نائب من النواب معه كقوة الذاكرة ولا حاكم من حكام الأقاليم كالبصر نزلن فجلسن فى الصدر أو أمامه ولا فى المعدة والأمعاء أو أمامهن ذلك لئلا يحصل الاختلاط بالمواد الغليظة فلا يقمن بأعمالهن ، كذلك لم نر القلب ولا الرئة نزلا إلى وضعهما بجانب الكبد أو المعدة أو الطحال أو الأمعاء ، لئلا يستضر بتلك المواد الغليظة فيقف سيرها .

ثم إن الإنسان يرى أن هناك شرطين لايغتآن يلهبان هذا الانسان والجوف بسوطهما ، أحدهما : هو الجوع ، فكلما كان أحد سيفا وأقوى عصا كان الإنسان أقدر على حفظ حياته بالطعام ، وكلما ضعفت عصاه أو فل سيفه ضعف الغذاء فضعف الانسان ، وثانيهما : الشبع الذى يأمره بالكف وإلا ضربه بسوط السآمة والكراهة للطعام ، وهناك عضوان آخران : أحدهما جالس أمام الرئيس والنواب قريبا من حكام الأقاليم والعضو الآخر جالس أسفل الطبقات كلها ، فالأول هو سفير الدولة يبلغ الدول كلها ما يريده نواب الأمة أو يفعله حكام الأقاليم عند الاقتضاء ، وهذا هو اللسان ، والثانى وهو الذى جلس فى أسفل الطبقات هو عضو التناسل لأنه إنما جعل ليكون لهذا الانسان نظير له يبقى بعده وإنما وضع هذا فى الأسفل لأن عمله

فردى والأعمال الفردية قيمتها أرخص القيم ؛ أما ترجمان الدولة وحامل علمها وسفيرها المعبر عن آراء عظمائها فهو أعلى مقاما وأكبر سلطانا ولذلك كان فى الطبقة العليا، ونظير ذلك العلماء والحكماء فى نوع الانسان الذين هم ممدوحون فى كل كتاب وعلى كل لسان؛ بخلاف الاعتكاف على إشباع البطن أو عضو التناسل امتثالا لسوق الشرطين القويين الجوع والشبق ، فالاعتكاف على ذلك نزول عن الانسانية إلى درجة البهيمية .

إن هذين الشرطين قد وضعا فى أسفل الطبقات للاشارة إلى أن هذه منزلتهما فهما مأموران لا آمران والمأمور إذا أصبح آمرا فسدت المدينة، ولو كان المدار على حفظ الشخص وحده لكان الدود فى الفاكهة أعز وأسعد لأنه محفوظ لايحتاج إلى شئ آخر ، ولو كان المدار على التناسل لكانت الحيوانات النقيعية التى تتكاثر بطرق شق كالانقسام وكالأزرار التى تنبت على ظاهر جسم الحيوان وتصور بصورته تدريجيا ثم تنفصل عنه وتكون حيوانا مثله ، أقول لو كان المدار على التناسل لكانت هذه الحيوانات أشرف من الإنسان ألف ألف مرة فإن العلامة (ارنبرج) حسب أن الحيوان الواحد منها يصير ٢٦٨ ألف ألف حيوان فى مدة شهر واحد ، إذن عملية التناسل أقل الأعمال الحيوانية ولذلك وضع عضوها أسفل من غيره ، فأما الترجمان وسفير الدولة فقد جلس فى الطبقة العليا كما قدمناه لشرف مكانته ، ولا جرم أن سفراء الدولة يجب أن يكونوا على اتصال تام بالهيئة الحاكمة فلذلك لم ينزل اللسان إلى الطبقتين الأخريين فلم يجلس مع القلب والرئتين ولا عند المعدة والأمعاء لأن هؤلاء عمال ولا علم عندهم وإنما العلم عند الرئيس والنواب وحكام الأقاليم .

ولما كانت الدولة لابد لها من صحافة وكتاب لدواوينها لتدوين أعمالها وجب أن يكون بجانب هذا الترجمان (الذى كثيرا مايعطى لقب سفير بل سفراء لعظم مقامه) كاتبا يكتب كل ما يلزم فوقع الاختيار على اليد وقربت إليه جدا بحيث كانت فى أعلى الطبقة الوسطى فهى قريبة من اللسان وهى التى تكتب آثاره وتسطر أعماله ، ذلك هو الإنسان ، ذلك هو الكتاب المسطور الذى سطره الله لنقرأه ومتى قرأناه استعددنا للقاء الحضرة الربانية لأنه لايرى الله إلا من أحبه . وكيف يكون الحب لمجهول والعلم العام لايعطى محبة .

واعلم أن هذا القول ليس يذوقه كل من قرأه فان أحببته وفرحت به فاعلم أنك رجل مفتوح عليك ، وإن رأيت قلبك غير فرح به فادع الله واعبده فيشرح صدرك .

فقز بعلم تعيش حيا به أبدا   الناس موتى وأهل العلم أحياء
وقيمة المرء ماقد كان يحسنه   والجاهلون لأهل العلم أعداء

جمال الجوهرة

أيها الذكى القارئ لهذا الكتاب اعلم أن هذا المتقدم هو الذى فتح به الله على فى هذه الليلة ١٦ نوفمبر سنة ١٩٢٧ فها أنا ذا أقول صباحا فى نفس التاريخ ماله انشرح الصدر فى النام واليقظة معا وهما حكمتان موضحتان لهذا المقام .

الحكمة الأولى

إننا قد فهمنا أن لهذا الإنسان ما يشبه الجمهورية ورئيسها وأن هناك نوابا عن الأمة كالذاكرة والمخيلة الخ وأن هؤلاء النواب هم المعبرون عن حاجات مجموع الجسم وأن لهم ترجمانا ونفس هذا الترجمان هو السفير الخارج وأن هناك رجال الصحافة والمؤلفين لهذا السفير ولهذا المجلس من نواب ورئيس الخ ، وهذه الأعمال قد اجتمعت فى اليد فهى الكاتبة لهذا كله . وأقول الآن فوق ماتقدم إن لكل دولة كأمتنا المصرية مصالح من زراعة ومعارف ووزارة لداخل البلاد وأخرى خارجها ، ووزارة للأشغال ووزارة للحربية ومصلحة المساحة ومصلحة المواصلات ، وهذه كلها موفرة فى الإنسان ؛ فاليد تزرع كالأولى وتساعد العقل واللسان فى الثانية وتحافظ على الجسم من الدرن ومن الحشرات المؤذية كالبراغيث وذلك كوزارة الداخلية ، وأما وزارة

الخارجية فهى اللسان واليد ، واليد تحفر الأنهار بالفأس وهذه هى الأشغال وتمسح الأرض وهذه هى المساحة ، والرجل تقوم بالسير فى الأرض بدل وزارة المواصلات واليد تدافع العدو تارة والرجل تهرب به أخرى وكلاهما بدل وزارة الحربية ، انتهت الحكمة الأولى .

الحكمة الثانية

محاورات بين الدودة والغزالة والإنسان والملك فى السعادة والشقاوة

كأنى الآن فى نفس صباح هذا اليوم فى عالم الخيال وكأنى أرى :

(١) دودة (٢) وغزالة (٣) وإنسانا (٤) وملكا ، والثلاثة الأولون يتحاورون والملك يستمعهم .

قالت الغزالة للدودة فى بطن التفاحة إذ عثرت عليها وهى تعالج أكل التفاحة : أيتها الدودة لقد عشت هنا فى حصن حصين ونعيم ، إن الله أعد الجنة للمتقين فها أنت ذه فى جنة عرضها التفاحة وماؤها حلو لذيذ وسماؤها وأرضها روح وريحان وجنة نعيم لاتعب ولا نصب وأنت فى عز مقيم أما أنا ففى نصب وتعب أفر من الآساد والذئاب ومن هو أظلم منهما وهو الإنسان كلهم يطاردوننى فأنت فى نعيم وأنا فى جحيم فأنا لاأدرى أين العدل فى هذا التقسيم ، نعيم لقوم وجحيم لآخرين ولا فضل لك ولا ذنب على ، فقالت الدودة قد أخطأت يا أحق المرى وجهلت قدر النعمة ، كيف تكفرين بنعمة الإدراك والجلد والشعر والحواس والقوة ؟ منعك الأدنى وأعطاك الأعلى وأنا فهمت نعمتى ورضيت سعادتى وأنت لم تفهمى ، منعك الراحة ولكنه أعطاك القوة وهذه الأعضاء والحواس ، وسهل لك سبل المعاش فزرع لك الأرض وملأها بالكلأ وقال كلوا واشربوا وما السعى إلا ترقية لكم وذلك فتح لباب الحرية والاستقلال وأنت اليوم فتح لك بابهما بهذا السعى فأنا فى سجن مع تمام اللذات وأنت فى شبه حرية مع السعى « فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون » .

فجاء دور الانسان فقال : لئن شكوت أيتها الغزالة لأنا أحق بالشكوى منك ، قد أظلت الدنيا فى وجهى وفتحت لك أبواب السماء وأكناف الأرض فأنت موفاة الغذاء والماء ، تأوين كل مكان وتشربين من كل نهر والكلأ قد ملأ السهل والوعر وقد أعطيت كساء دائما من ولادتك إلى موتك ، أما أنا فإنى قد حكم على أن لا آكل إلا ما صعب الحصول عليه من حب وفاكهة ولحم ، كل ذلك لا أناله إلا بمشقة عظيمة وعرق جبين وأعمال ونصب وتعب وحكومات وعداوات مما يطول شرحه ولا مطمع فى استقصائه ، فقالت الغزالة إنما مثلى ومثلك كمثل الدودة معى ، لقد أعطيت أنت العقل واليدين ، فأما أنا فلى أربعة أرجل ولا بد لى أقلب بها الأرض فأستخرج زرعها وأحصل الشعر والوبر والصوف من غيرى لذلك وفر الغذاء لى وأمرنى بالسعى إليه برجلى وأنت لما أعطاك اليدين والعقل وغيرهما أمرك أن تعمل بهما فتستخرج الغذاء والكساء اللذين أكثرهما عندى ، ولو أنه منحك الغذاء والكساء موفرين لأصبح عقلك ويداك بلا عمل فتصرفهما فى الشر وهذا قوله تعالى « ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض » والمطالب لانهاية لها ومنافع المادة لاتفنى ووراء كل كشف سر « وفوق كل ذى علم عليم » إنما فعل ذلك معى ومعك لأنه عدل فأعطاك حيث منعك ومنعنى حيث أعطانى ، فهناك غنم وغرم وأنت أعلى منى لأن هذا النصب فتح لباب إعلام الحرية والله ليس بخيلا وإنما هو حكيم والحكيم يفعل على قدر المصلحة ؛ فلو أمرنى أن آكل كما تأكل أنت وألبس كما تلبس أنت بحيث لا آكل إلا البر واللحم ولا ألبس إلا الخز والديباج لكان ظالما ، ولو سهل لك الملابس والمآكل مثل ما سهل لى لكان ظالما لأنه أقعدك عن المعالى وهى الحرية والعلم فكل حركة من حركاتك العقلية والجسمية مفتاح من مفاتيح أبواب الجنة والخروج من أسر هذه المادة والقرب من ربك

الذى تنزه وتقدس عن المادة ؛ فهذا كله جهاد ، علم الانسان أم جهل شاء أم أبى « إن ربى لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم » «إن الله علم قدير» وكل من منحه علما وقدرة من مخلوقاته كان أقرب إليه وبازدياد العلم يزداد القرب والعلم بالسعى والاكتساب قال تعالى « وزاده بسطة فى العلم والجسم » الخ وإن لك لعبرة بالجنين منكم فإنه لما منع القوة العقلية والجسمية أعطى غذاء من أمه فمثله كمثل الدودة ولما ولد وأخذت أمه ترضعه فإنه يكون أشبه بى موفر الرزق ولكن عنده بعض السعى إذ يبكى لأمه ويضحك ويمسك الثدى ويمتص اللبن وكل ذلك عمل أشبه بعملنا نحن الغزلان فى طلب القوت الموفر فى الأقطار ، فإذا كبر هذا الطفل واستغنى عن لبن أمه سعى بنفسه وجد فى طلب الرزق فارتقى عن هاتين الحالين فهل تقولون إن حال الطفولة أفضل من حال الرضاعة أم تقولون إن هاتين أفضل من حال البلوغ فى السن ، هذا معنى قوله تعالى « قتل الإنسان ما أكفره » فهذا هو الكفر المذكور فى هذه الآية من القرآن ، فلما سمع ذلك الملك قال (وأنا أسمع) إن هذا القول هو تفسير قوله تعالى « وقال الذين أشركوا لوشاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا » إلى قوله « فلله الحجة البالغة » فهذه الحجج من حجج الله البالغة فحجج الدودة وحجج الغزالة فتح باب لفهمكم حجة الله البالغة .

واعلموا أيها الناس أنكم مادمتم لم تقفوا على الحقائق بحيث تفهمونها كما فهمتم أمر الدودة والغزالة والانسان فإنكم لاتصلون لرؤية ربكم ، وكيف بمجالس الملوك من هو مملوك ذليل وضيع ، إن هذه الآراء تعطى الناس رضا بما يمرّ عليهم من عزّ وذل وغنى وفقر ، ومتى ارتقت عقول الناس أدركوا أن الذليل منهم والعزيز والفقير والغنى الخ لم يكن هذا لهم إلا لحكم مخفية على الناس كهذه الحكم التى ظهرت فى الدودة والغزالة والانسان؛ فالحكم فى تفاضل الأنواع كالحكم فى تفاضل الأفراد ، والأول قد فهمتموه والثانى يجب عليكم أن تصبروا عليه حتى تفهموه وهذا أيضا معنى قول نبيكم صلى الله عليه وسلم « وأن تؤمن بالقدر خيره وشره من الله » فلا شر إلا مثل ما ادعته الغزالة بالنسبة للدودة وما ادعاه الانسان بالنسبة للغزالة ، كلاهما ظن أن نصبه شر وما هو بشر بل هو خير ، فإذن لاشر وإنما تلك مراتب وضع الله المخلوقات فيها فلم يفهموا وهذا معنى حمد الله على السراء والضراء لأن الحمد لا يكون إلا على نعمة ، فإذا كان قول المسلم « فلك الحمد على ما قضيت » يشمل القضاء بالخير وبالشر فإن لم يكن الشر المذكور خيرا فى الواقع كان الحمد رياء فيحمد المؤمن ربه على الشر والخير وسيأتى يوم يفهم فيه أن الشر خير فى الواقع كما فهمت الغزالة فى هذا المثال .

وهذا فى دين الاسلام هو نفس المحاورة التى بين الخضر وموسى عليهما الصلاة والسلام ، فالسفينة التى لمساكين يعملون فى البحر قد عابها الخضر خوفا من الملك أن يأخذها ، فهل هذا شر ؟ وهل موت الغلام الذى كان شرا على والديه شر ، وهل إقامة الجدار الذى يحفظه يحفظ مال الأيتام شر إلا إذا قال الانسان إن كدحه لولده الذى سيموت وتأليفه العلم شر ونفعه الناس شر وإنفاقه على المساكين شر لأنه لم يأخذ عوضا ، كلا بل إقامة الجدار وما بعده كلها خير كبير لأنها وان لم تقابل بفائدة معجلة فإن النفس ارتقت بهذا العمل ولا علم لها به ، وهذا المقام يعرفكم السر فى الأمر بالرضا بالقضاء والقدر ، فهذا الصبر الذى أمرتم به على مثل ماتصبر الغزالة وما يصبر الانسان بالنسبة للغزالة يكون اليوم تكلفا فإذا ارتقيتم الى عوالم أعلى بعد الموت وقفتم على سرّ ما جهلتم الآن وأدركتم سر كل ما صبرتم عليه وعلمتم حكمته كما علمت الغزالة وعلم الانسان كل منهما سر نصبه وتعبه بالنسبة للآخر .

فما من عز أو ذل أو استعباد أو حرية أو فقر أو غنى أو جهل أو علم أو إيمان أو كفر إلا لحكم

استترت على الناس والناس مأمورون أن يصبروا وحرم عليهم أن يعلموا الحقائق وسيأتى يوم يعلم الناس أن حقائق الديانات هى نفسها علوم هذه الطبيعيات فى الأرض والسموات ، فلما صحت ذلك انتبهت من الخيال وكتبت هذا المقال ، انتهت الجوهرة الأولى .

الجوهرة الثانية فى قوله تعالى « وسرابيل تقيكم بأسكم كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون »

قد جعل الله خاتمة النعم السرابيل وهى الدروع التى تقينا بأسنا تقينا الحرب والضرب والقتال ، ياعجبا لهذا الانسان وحياته ! .

عجائب الانسان وحربه وقتاله

هل يدور بخلد الناس أنهم لاسعادة لهم إلا بالقتال ؟ هل يعلمون أن الحرب نعمة عليهم ؟ ياعجبا إن السباع والوحوش نعمة كما ذكر والحيات والعقارب آية باهرة كما ذكرناه وجوارح الطير خيرمن عند الله وقد أصبح الانسان يرى بعقله أن كل ماهو موجود نعمة من عند الله ، هذا هو الذى قضاه العقل الذى ذكر فى الآية وأنه إنما خلق لشكر الله ولكن هل يعلم الانسان أن حرب الدول والممالك كالحرب الكبرى العامة التى ابتدأت سنة ١٩١٤ وانتهت سنة١٩١٨ هل يعلم أنها هى وأمثالها نعمة كنعمة تلك الحيوانات واصطياد كبارها لصغارها واجتياح أقواها أضعفها فإن لم يعلم الناس ذلك فليقرءوا « سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم » وجعل هذه خاتمة النعمة ، جعل الله الحماية من الحرب نعمة ؛ وياليت شعرى أى فرق بين الغازات المعمية والخانقة والطيارات الجوية والقنابل اليدوية والديناميت ، أى فرق بين هذه وبين الدروع ، لافرق بل هذه أبعد منالا وأشرف وأرقى مثالا ، يجعل الله ذلك نعمة علينا ويأمرنا بشكرها ويقول هذه العقول خلقتها لتشكرونى بالتفكر وبالعمل ، وأى نعمة فى هذه ، إن فى ذلك نعما عظيمة يجدد نشاط الأمم ويحيى قوتها ويرقى آمالها ويبعث فيها فكرة التجديد وتموت الأمم الخاملة وتحيا العاملة لأن هذا العالم عالم نشاط والله خلاق فلا يحب إلا العاملين لاسيما فى مستقبل الزمان إذ تكون أمم ودول قويات عاملات نشطات ، فأما زمن الكسل والتواكل والاستعمار فقد مات وفات وفطن الناس وسيرتقون .

ولقد أوحى الله لكل أمة وحيا إلهاميا أن تحافظ على كيانها وتلم شعثها وتسابق جيرانها ، فجعل الأمم أشبه بأنواع الحيوان تهجم فرقة على فرقة وبث فى قلوبهم الحمية سواء أكانت جاهلية أم دينية أم وطنية أم جنسية أم غير ذلك وجعلهم يقتتلون ، وهذا الاقتتال هو الذى يبعث إليهم النشاط ويقوى الآمال ، فأما الموت الذى تكون الحرب سببه فإنه مقصود من مقاصد هذا الوجود فهو أشبه بموت الوباء أوقلة الغذاء أو منع المطر أو غير ذلك ، هذا بعض من قوله تعالى « وسرابيل تقيكم بأسكم » فهو يأمر المسلمين والناس أجمعين بشكره على هذه السرابيل الحربية والأدوات القاتلة للأمم لأنه هكذا خلقت وهكذا يريد ترقيتنا فإذا لم نفكر فى ذلك ولم نعمل به أرسل أمما إلينا فقتلتنا بهذه الآلات والمدمرات ، تم الكلام على القسم الثانى من السورة .

القِسْمُ الثَّالِثُ

إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ

بعد

بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ما تفعلون * ولا تكونوا
كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون
أمة هي أربى من أمة إنما يبلوكم الله به وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه
تختلفون * ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن يضل من يشاء ويهدي من
يشاء ولتسألن عما كنتم تعملون * ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم فتزل قدم
بعد ثبوتها وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ولكم عذاب عظيم * ولا تشتروا
بعهد الله ثمنا قليلا إنما عند الله هو خير لكم إن كنتم تعلمون * ما عندكم ينفد
وما عند الله باق ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون * من عمل
صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن
ما كانوا يعملون * فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم * إنه ليس
له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون * إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين
هم به مشركون * وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل
أكثرهم لا يعلمون * قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى
وبشرى للمسلمين * ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه
أعجمي وهذا لسان عربي مبين * إن الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله ولهم
عذاب أليم * إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون *
من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح
بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم * ذلك بأنهم استحبوا الحياة
الدنيا على الآخرة وأن الله لا يهدي القوم الكافرين * أولئك الذين طبع الله على قلوبهم
وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون * لا جرم أنهم في الآخرة هم الخاسرون *
ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها
لغفور رحيم * يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم

لَا يُظْلَمُونَ * وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ * وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ * فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ * إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ * ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ * إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ * ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ * وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ * وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ * إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ .

تفسير بعض الألفاظ

قال تعالى (العدل) فى اللغة المساواة فى كل شئ من غير زيادة فى شئ ولا غلو ولا نقصان فيه ولا تقصير فإذن هو المساواة فى المكافأة إن خيرا فخير وإن شرا فشر (والإحسان) أن تقابل الخير بأكثر منه والشر بأن تعفو عنه (وإيتاء ذى القربى) إعطاء الأقارب مايحتاجون إليه ، وهو تخصيص بعد تعميم للعناية بهم (والفحشاء) الإفراط فى متابعة القوة الشهوية كالزنا وشرب الخمر والحرص والطمع والسرقة (والمنكر) هو ماتنكره العقول من دواعى القوة الغضبية كالضرب الشنيع والقتل والتطاول على الناس (والبغى)

هو ما كان من مجموع القسمين السابقين كأن يسرق ويقتل معا وكأن يرتق ويحكم بالباطل ، فالبغى يجمع الفحشاء والمنكر معا وهو صفة الشياطين (يعظكم) أى أمركم بثلاثة ونهاكم عن ثلاثة لكى تتعظوا فتعملوا بما فيه رضا الله تعالى (لعلكم تذكرون) تتعظون (وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم) هو كل مايلتزمه الانسان باختياره ، ويدخل فيه الوعد أيضا لأن الوعد من العهد (ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها) ولا تنقضوا الأيمان فتحنثوا فيها ومنها أيمان البيعة بعد توثيقها وتشديدها (وقد جعلتم الله عليكم كفيلا) شهيدا بالوفاء بالعهد (إن الله يعلم ماتفعلون) من وفاء بالعهد ونقضه ؛ ثم أخذ هنا يضرب مثلا لنقض العهد بأن امرأة من قريش يقال لها ريطة بنت عمرو من بنى تيم كانت حمقاء بها وسوسة تغزل هى وجواريها غزلا ثم تأمر بنقضه (من بعد قوة) إبرام وإحكام (أنكاثا) طاقات جمع نكث : وهو ماينكث فتله مفعول ثان لنقضت أى صيرت ، والمراد تشبيه ناقض العهد بهذه المرأة الحمقاء أو من هذا شأنه من كل من يغزل وينقض غزله حماقة : أى ولا تكونوا متشبهين بهذه المرأة حال كونكم (تتخذون أيمانكم دخلا بينكم) والدخل مايدخل الشيء وليس منه فيكون ذلك دغلا وخيانة وخديعة فيظهر الرجل الوفاء بالعهد ويبطن نقضه (أن تكون أمة هى أربى من أمة) لأن تكون جماعة أوفر عددا من جماعة ، وقد كانوا يحالفون فإذا وجدوا قوما أكثر عددا منهم نقضوا حلف الأولين وحالفوا الآخرين (إنما يبلوكم الله به) أى إنما يختبركم الله بكونهم أربى لينظر أتتمسكون بعهد رسول الله صلى الله عليه وسلم مع قلة المؤمنين وفقرهم وكثرة قريش وثروتهم (وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون) حين يجازيكم على أعمالكم ثوابا وعقابا (ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة) متفقة فى الإسلام ولكنه لم يشأ ذلك لاختلاف الأمزجة والأخلاق والقابليات كما اختلف كل شيء فى العالم (ولكن يضل من يشاء) بالخذلان على مقتضى استعداده (ويهدى من يشاء) بما استعد للهداية ، وقوله (ولاتتخذوا أيمانكم دخلا بينكم) كرر للتأكيد (فتزل قدم بعد ثبوتها) فتزل أقدامكم عن محجة الاسلام بعد ثبوتها عليها ووحدت القدم ونكرت للدلالة على أن زلل : أى قدم واحدة عظيم فكيف بأقدام كثيرة (وتذوقوا السوء) العذاب فى الدنيا (بما صددتم عن سبيل الله) بسبب صدودكم عن الوفاء وخروجكم عن الدين أو بصدكم غيركم لأنهم لو نقضوا أيمان البيعة وارتدوا لاتخذ غيرهم نقضهم سنة يستنون بها (ولكم عذاب عظيم) فى الآخرة (ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا) أى ولا تطلبوا بنقض عهودكم عوضا من الدنيا قليلا ولكن أوفوا بها (إن ما عند الله) من الثواب (هو خير لكم) من عاجل الدنيا (إن كنتم تعلمون) أفضل العوضين ، ثم بينه فقال (ما عندكم ينفد وما عند الله باق) وهو ثواب الآخرة (ولنجزين الذين صبروا) على الوفاء بالعهد على السراء والضراء وعلى جميع الأمور العظيمة كالبأساء والضراء وحين البأس (أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) بجزاء أحسن من أعمالهم (فلنحيينه حياة طيبة) فى الدنيا يعيش عيشا طيبا سواء أكان موسرا أومعسرا ، فالموسر يصرف عنه الطمع المؤدى إلى الفقر الحقيق ، والمعسر يتصف بالقناعة والرضا وتوقع الأجر العظيم ؛ فأما الكافر فالحرص وخوف الفوات يكدران عيشه معسرا كان أو موسرا لأن النفس لاتكون مطمئنة البتة (بأحسن ما كانوا يعملون) فهم سعداء فى الدنيا بما تقدم ، وفى الآخرة بالثواب كقوله « فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة » (فإذا قرأت القرآن) فإذا أردت قراءته (فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم) فاسأل الله أن يعيذك من وساوسه لئلا يوسوس لك فى القراءة وذلك للاستحباب وصورة الاستعاذة « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » .

ولما كان أولياء الله المتوكلون ليس له عليهم سلطان واستعاذتهم إنما هى لما يباغتهم به فى أوقات غفلاتهم أفاد ذلك بقوله تعالى (إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون) كما تقدم فى قوله تعالى

« إن عبادى ليس لك عليهم سلطان » (إنما سلطانه على الذين يتولونه) يطيعونه كيلهم إلى الشهوات واتباع الأهواء (والذين هم به مشركون) أى بسببه ، ثم أتى بذنب من ذنوب هؤلاء الذين يتولون الشيطان فقال (وإذا بدلنا آية مكان آية) أى بالنسخ فجعلنا الآية الناسخة مكان المنسوخة لفظا أو حكما (والله أعلم بما ينزل) فهو أعلم بالمصلحة فما كان مصلحة فى زمن سيكون مفسدة فى آخر فيثبت ما كان مصلحة وينسخ ما لا يكون كذلك (قالوا) بإملاء الشيطان عليهم وإطاعتهم له (إنما أنت مفتر) متقوّل على الله تأمر بشىء اليوم وتنهى عنه غدا وجملة «قالوا» جواب الشرط، وجملة «والله أعلم بما ينزل» اعتراضية لتوبيخ المعترضين بأنهم لايعلمون المصلحة والمفسدة فتكلموا بما لايعلمون ولذلك أوضحه بقوله (بل أكثرهم لايعلمون) تلك المصالح والمفاسد فلا يميزون الخطأ والصواب (قل) يا محمد (نزله روح القدس) هو جبريل عليه السلام أضيف إلى القدس وهو الطهر أى الروح المقدس أى المطهر من المآثم (من ربك) من عنده حال كونه ملتبسا (بالحق) بالحكمة (ليثبت الذين آمنوا) على الإيمان متى عرفوا المصلحة فى الناسخ وبذلك يرسخ الإيمان (وهدى وبشرى للمسلمين) معطوفان على « ليثبت » أى للتثبيت والهدى والبشرى للمنقادين لحكمه تعالى ، ثم إنه صلى الله عليه وسلم كان يجلس مع سلمان الفارسى ومع عبد لحويطب بن عبد العزى وكان نصرانيا أعجميا قد أسلم وحسن إسلامه يسمى عائشا أو يعيش فقال مشركو مكة إنما يعلمه هذان الأعجميان وهذا قوله تعالى (ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر) كعائش وسلمان فردّ عليهم الله قائلا (لسان الذى يلحدون إليه) يميلون ويشيرون إليه (أعجمىّ) أى لسان الرجل الذى يميلون قولهم عن الاستقامة إليه أعجمى اللغة (وهذا) أى القرآن (لسان عربى مبين) ذو بيان وفصاحة ، وهل الأعجمى الذى لايبين يعلم الفصيح البليغ فى البيان وهل مايسمعه من غلام سوقى فى بعض أوقات مروره من كلمات أعجمية يصعب فهمها تكون سببا لهذه العلوم الكثيرة فى القرآن الذى أعجزكم (إن الذين لايؤمنون بآيات الله لايهديهم الله) إلى الحق (ولهم عذاب أليم) فى الآخرة (إنما يفترى الكذب الذين لايؤمنون بآيات الله) لأنهم لايخافون عقابا يردعهم عنه (وأولئك) أى الذين كفروا (هم الكاذبون) الكاملون فى الكذب ، ثم استأنف فقال (من كفر بالله من بعد إيمانه) فعليه غضب الله (إلا من أكره) على الافتراء وكلمة الكفر (وقلبه مطمئن بالإيمان) ساكن به كعمار بن ياسر إذ أخذه المشركون هو وأباه ياسرا وأمه سمية وصهيبا وبلالا وخبابا وسالما فعذبوهم ليرجعوا عن الاسلام ، فهؤلاء السبعة ليس لهم عشيرة كأبى بكر إذ منعه قومه ورسول الله صلى الله عليه وسلم منعه عمه أبو طالب ، فهؤلاء لما كانوا أول من أظهر الاسلام ألبسوهم أدرع الحديد وعذبوهم اذ أجلسوهم فى حر الشمس بمكة ، فبلال كان يقول أحد أحد فاشتراه أبو بكر فأعتقه وياسر قتل وسمية كذلك وهما أول قتيلين فى الاسلام وخباب أوقدوا له نارا فأطفأها ودك أى دهن ظهره وأما عمار فإن بنى المغيرة غطوه فى بئر ميمون وقالوا له اكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم فبايعهم على ذلك وقلبه كاره وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن عمارا كفر فقال « كلا ! إن عمارا ملىء إيمانا من قرنه الى قدمه واختلط الايمان بلحمه ودمه » فأتى عمار رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبكى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ماوراءك ؟ قال شر يارسول الله نلت منك وذكرت فقال كيف وجدت قلبك ؟ قال مطمئنا بالايمان فجعل صلى الله عليه وسلم يمسح عينيه ويقول : إن عادوا لك فعد لهم بما قلت فنزلت هذه الآية ، وحكم هذه الآية ماقاله العلماء أن من عذب عذابا شديدا لايطاق كالتخويف بالقتل والضرب الشديد أو الإحراق جاز له التلفظ بكلمة الكفر وقلبه مطمئن بالايمان ، ويقولون (إن الأفضل الصبر حتى يموت كما فعلت سمية أم عمار وياسر أبوه وصبر بلال على العذاب ولم يلم على ذلك ولا يقع طلاق بإكراه خلافا لأبى حنيفة)

ثم

ثم أتى بما يقابل المكره فقال (ولكن من شرح بالكفر صدرا) أى فتحه ووسعه لقبول الكفر واختاره هو ورضى به (فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم) فى الآخرة (ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة) أى ذلك الوعيد بسبب استحبابهم الحياة الدنيا على الآخرة أى إيثارهم إياها عليها (وأن الله لايهدى القوم الكافرين) ماداموا مختارين للكفر (أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون) أى الكاملون فى الغفلة (لاجرم أنهم فى الآخرة هم الخاسرون) إذ ضيعوا ثمار أعمارهم (ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد مافتنوا) أى عذبوا كعمار (ثم جاهدوا وصبروا) على الجهاد (إن ربك من بعدها) أى الهجرة والجهاد والصبر (لغفور) متجاوز عن ذنوبهم (رحيم) بهم (يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها) الظرف متعلق برحيم: أى تجادل عن ذاتها وتسعى فى خلاصها فكل امرىء يقول نفسى ويفر المرء من أخيه وأمه وأبيه الخ (وتوفى كل نفس ماعملت) جزاء ماعملت (وهم لايظلمون) لاينقصون أجرهم (وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة) كان أهلها آمنين من العدو والقتال والجوع والسبى (يأتيها رزقها رغدا) واسعا (من كل مكان) من كل بلد (فكفرت) أى أهلها (بأنعم الله) جمع نعمة (فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون) أى فعاقب الله أهلها بالجوع والخوف من العدو بما كانوا يقترفون من الذنوب قولا وفعلا ، والقرية المضروبة مثلا غير معينة وتعيينها ليس ضروريا للمعنى .

يقول بين الله صفة ثم أبدل منها قرية أى صفة قرية وتلك القرية لها صفتان . الأولى : الأمن والاطمئنان من الأعداء . والثانية : سعة الرزق آتيا من سائر البلدان فكفروا فعمهم الجوع والخوف وذاقوا مرارتهما بعد سعة العيش والأمن والطمأنينة ، فهذا المثل ضربه الله لكل قوم أنعم عليهم فبطروا النعمة فكفروا وتولوا فأزال الله بهم نعمته ، وهذا المثل مضروب لأهل مكة ولنا ولكل إنسان فى الأرض . وقد قيل إن أهل مكة أصابهم ما أصاب أصحاب هذه القرية فجاعوا سبع سنين بقطع المطر عنهم فأكلوا العظام المحرقة وجيف الكلاب والميتة ، وأما الخوف فهو من سرايا النبى صلى الله عليه وسلم وبعوثه التى كانت تغير على من حولهم من العرب وذلك يخيفهم .

تنبيـه

إن فى هذا المقام استعارتين : فى الإذاقة والإلباس ومؤلف التفسير لاينبغى له أن يصرف العقول عما أنزل له القرآن إلى أمور صناعية بعد ما استبان المعنى وفهمه العقلاء فإن ذلك للمبتدئين . ثم أخذ يبين ماهى النعمة التى كفر بها أهل مكة ليكونوا كأصحاب تلك القرية المضروب بها المثل فقال (ولقد جاءهم رسول منهم) وهو محمد صلى الله عليه وسلم (فكذبوه فأخذهم العذاب) وهو الجدب الشديد (وهم ظالمون . فكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا واشكروا نعمة الله) لأنكم إن كفرتموها كنتم كأصحاب تلك القرية ، وضرب المثل إنما يراد ليعتبر به فلتكن النعمة مشكورة (إن كنتم إياه تعبدون) إن كنتم تريدون عبادة الله بتحريم الحرث والأنعام فاستحلوا فإن عبادة الله فى تحليلها ، ثم أخذ يبين المحرم ومتى علموه علموا الحلال المذكور فقال (إنما حرم عليكم الميتة) التى أمر بذبحها (والدم) المسفوح (ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به) وماذبح بغير اسم الله عمدا أو الأصنام (فمن اضطر) أجهد إلى ماحرم الله عليه (غير باغ) على المسلمين أو غير مستحل لأكل الميتة (ولا عاد) متعمد للأكل بغير ضرورة ، أو ولا قاطع طريق (فإن الله غفور) متجاوز بأكل الميتة عند الضرورة (رحيم) إذ رخص له أكل الميتة ، هذا هو تحريم الله فكيف تقولون هذا حلال وهذا حرام من عند أنفسكم؟ (ولا تقولوا لماتصف ألسنتكم الكذب) أى ولاتقولوا الكذب لأجل الذى تصفه ألسنتكم فتقول هذا حلال وهذا حرام فالكذب مفعول و «لما تصف» متعلق بتقولوا « وهذا حلال الخ » مقول القول

محذوف تقولون ذلك (لتفتروا على الله الكذب) لتختلقوا، والمفترى الكذب يقصد به تحصيل مطلوب وهؤلاء ليسوا كذلك (إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون) منفعتهم (متاع قليل) ينقطع عن قريب (ولهم عذاب أليم) فى الآخرة (وعلى الذين هادوا حرّمنا ماقصصنا عليك من قبل) فى سورة الأنعام فى قوله تعالى « وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر » (وماظلمناهم) بالتحريم (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) إذ فعلوا ماعوقبوا عليه (ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة) متلبسين بجهالة كالجهل بالله وعقابه وعدم التدبر فى العواقب لغلبة الشهوة والافتراء على الله وغير ذلك من كل سوء (ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا إن ربك من بعدها) من بعد التوبة (لغفور) لذلك السوء (رحيم) يثيب على الإنابة .

ولما كان هؤلاء أشبه بمن كفروا بإبراهيم الخليل من نمروذ وقومه وقام فيهم يوبخهم ويكسر أصنامهم فقد فارق دين قومه وحده وعلم الناس الخير وجميع الناس يقتدون به، ثم أخذ يذكر إبراهيم ثم أتبعه بأن نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم قد أوحى الله إليه أن يتبعه وهذا قوله تعالى (إن إبراهيم كان أمة) مستجمعاً فضائل لا توجد إلا فى أشخاص كثيرة، فهو رئيس الموحدين كبر الأصنام وجادل الكفار ونظر فى النجوم ودرس الطبيعة ليطمئن قلبه بالاسلام وهكذا من الصفات الأربعين المتقدمة فى سورة البقرة فى هذا التفسير (قانتاً لله) مطيعاً له (حنيفاً) مائلاً عن الباطل (ولم يك من المشركين) كما زعم قريش أنهم على ملة إبراهيم (شاكراً لأنعمه) بخلاف قريش إذ كفروا بنعمة إرسال محمد صلى الله عليه وسلم منهم كما تقدم فى قوله « ولقد جاءهم رسول منهم » وقد حرموا ما أحل الله فحل بهم العذاب (اجتباه) اختصه واصطفاه للنبوة (وهداه إلى صراط مستقيم) ملة الاسلام (وآتيناه فى الدنيا حسنة) فأحبه الناس وأثنوا عليه من جميع الملل ورزقه ذرية طيبة وعمراً طويلاً فى سعة وطاعة، وليس كهؤلاء الذين يدعون اتباعه من أهل مكة فهم يعادون المؤمنين فلا ثناء عليهم منهم وليسوا مهتدين إلى الاسلام (وإنه فى الآخرة لمن الصالحين . ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين) فأنت متبع له وعلى قدمه، وهم ليسوا كذلك لأنهم يحللون ويحرمون من عند أنفسهم فيكون وبال ذلك عليهم، كما أن وبال الاختلاف فى السبت على الذين اختلفوا فيه بالحيلة، فإن بعض اليهود استعملوا الحيلة بأن وضعوا السد على المكان الذى فيه السمك يوم السبت ثم اصطادوه فى يوم آخر بفتوى أفتى بها شيوخهم كما يفتى شيوخ المسلمين فتاوى متناقضة لجلب الدرهم والدينار ، فهذا الاختلاف وبال على أولئك اليهود، كما أن وبال الاختلاف فى التحريم والتحليل على هؤلاء المشركين، وهذا قوله تعالى (إنما جعل السبت) أى وباله (على الذين اختلفوا فيه) فمسخوا (وإن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) كما حكم فى الدنيا بمسخهم ، كذلك أهل مكة يامحمد أحكم عليهم أيضاً فى الدنيا بالجوع وبالقتل على يديك وفى الآخرة بجهنم ، فأما أنت فستنال مزايا جدك الخليل فتكسر الأصنام وتكون لك الغلبة عليهم .

ولما كانت هذه السورة قد ظهر فيها أنواع الحكمة والمجادلة والموعظة الحسنة أشار إلى ذلك فقال (ادع إلى سبيل ربك) الاسلام (بالحكمة) بالمقالة المحكمة وهو الدليل الموضح للحق المزيل لشبهة الخواص (والموعظة الحسنة) الخطابات المقنعة للعوام (وجادلهم) وجادل معانديهم (بالتى هى أحسن) بالطريقة التى هى أحسن ، مثال الأول «خلق الانسان من نطفة» إلى آخر الآيات وآيات الأنعام والنحل والطير كما قدمناه فى وسط السورة، ومثال الثانى «للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة» ، ومثال الثالث الآيات الواردة فى البنات وكراهة العرب لولادتهن وما أشبه ذلك (إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين) إنما عليك البلاغ والدعوة أما حصول الهداية والضلال والمجازاة عليهما فذلك إلينا .

ولما كان ماتقدم هو طريق الدعوة بأنواعها وكان لابد من أعداء لهم يخاصمونهم ويجادلونهم فى دينهم

أشار عليهم كيف يعاملونهم وبين لهم ذلك بحالين : الأولى أن يكون العقاب على مقدار الذنب . الثانية أن يتجاوز الانسان ويصفح وهذا الثانى مفضل على الأول . ومن ذلك أنه صلى الله عليه وسلم لما رأى حمزة وقد مثل به قال « والله لئن أظفرنى الله بهم لأقتلنّ سبعين مكانك » فنزلت فكفر عن يمينه وهذه هى الآية (وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ماعوقبتم به ولئن صبرتم لهو) أى الصبر (خير للصابرين) من الانتقام للمتقين (واصبر) فأنت قدوة لتقتدى بك أمتك لأنك أمة كإبراهيم الخليل الذى أمرتك أن تتبع ملته (وماصبرك إلا بالله) بتوفيقه وتثبيته (ولا تحزن عليهم) على الكفار إن لم يؤمنوا وعلى المؤمنين وما فعل بهم الكفار (ولا تك فى ضيق) ولا يضيق صدرك يامحمد (مما يمكرون) بسبب مكرهم فإن الله كافيك وناصرك عليهم (إن الله مع الذين اتقوا) المعاصى (والذين هم محسنون) فى أعمالهم ومحسنون للناس ، فهم فى أنفسهم مهذبون وللناس نافعون ، وهذا تخلق بأخلاق الله والله يساعد من تخلق بخلقه والتجربة تثبت ذلك بشرط استعداد الانسان له ، فمن هذب نفسه ونصبها لنفع الناس فهو خليفة الله فى الأرض ملحق بالأنبياء تابع لهم والله معه كما هو معهم ، انتهى التفسير اللفظى .

جاء فى آخر القسم الثانى من السورة « ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شئ وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين » فهذه الأوصاف الأربعة للقرآن جاءت بعد ما أفاض فى هذه السورة إفاضة تامة ، فلقد تبين فيها من العجائب الحكمية والنظم الطبيعية ماتخرّ له العقول سجدا من بدائع النبات ونظام الحيوان والطير والنحل ولم يتفق ذلك فى سورة غيرها فانه قرر ذلك فيها كرتين وأعاد التعليم مرتين فهو هدى للسائلين ورحمة للمتعلمين وبيان لهم وبشرى دنيوية وأخروية ، فان الاطلاع على هذه العجائب يدعو إلى الهداية الناشئة من البيان والهداية للعلم تتبعها الرحمة بافاضة الخير فى الدنيا من العزة والنصر وحوز العلوم وذلك بشرى أن المسلم ينال فى الآخرة السعادة « وآتيناه فى الدنيا حسنة وإنه فى الآخرة لمن الصالحين » وبهذا المقال انتهى الكلام على باب الحكمة فى السورة ومعها غيرها . ثم شرع يفيض القول فى الموعظة الحسنة فقال :

« إن الله يأمر بالعدل الخ »

أما العدل فأنت تعلم من هذا التفسير وغيره أن هذا العالم لانظام له إلا بالعدل فلا كوكب ولا شمس ولا قمر ولا نبات ولا حيوان ولا شئ مما تراه أو تسمعه من نغمات الموسيقى وجمال الوجوه وحسنها ، كل ذلك مستحيل وجوده إلا بالحساب البديع والنظام التام ، وفى هذا التفسير وفى كتابنا فى الفلسفة العربية وغيرها شرح هذه الأمور ، ومتى زال العدل زال هذا الوجود وتحطمت الكواكب والأقمار والأرضون وتبدّد هذا العالم ، بل متى ذهب العدل ذهب العالم لذلك ابتدأ الله به ، والعدل هو المذكور فى آية الرحمن « ووضع الميزان ألا تطغوا فى الميزان » أى إن الله وزن العالم وحسبه بدقة لأجل أن تعلموا نظامه فتسيروا على نهجه وتنظموا كما نظم وهذا من التخلق بأخلاق الله تعالى ، فاذا كان هذا شأن العدل فى نظام العالم فليكن هذا شأنه فى حياة الأمم والأفراد فويل لأمة لاتقيم العدل فى المناصب والأحكام والقوانين والأعمال فلاحكومات باقية مالم يكن العدل عمادها ، ولقد ضرب أفلاطون لذلك مثلا فى جمهوريته بجماعة اللصوص إذا سرقوا مالا فانهم لاتقوم لهم قائمة مالم يقم العدل بينهم ، فاذا كان اللصوص لاجامعة لهم إلا بالعدل فى قسمة ما سرقوه فما تكون حال الأمم ؟ إنها لاحياة لها بغير العدل ، ولقد ردّ عليه بعض تلاميذه بأن الانسان الظالم كثيرا ما نراه كثير الحظ وله أعوان يدافعون عنه كلما كذب أو ظلم ، فأجابهم قائلا إذا لم تعش جماعة اللصوص بمثل هذا الفاجر فكيف تعيش أمة طويلا بأمثاله ، إن الظالم الذى ادخر أموالا كثيرة يحسّ بألم فى نفسه إذا رأى الناس حوله فى عذاب وشقاء ، فالنفس الانسانية تحس بما أجرمت فيعذبها ذلك الاحساس فى الدنيا

بهما نظاهر بالنعمة ، وقد أوجب (أفلاطون) على لسان أستاذه (سقراط) أن يفتح الحكام للدينة باب العلم وعشق الحكمة والغرام بعلوم الطبيعة والأدب والفلك وجمال هذه الدنيا لتتفتح بصائرهم فان لم تفعل ذلك الحكومات بموظفيها أصبحوا شهوانيين يشاركون الناس فى أموالهم وأعراضهم بالرشوة والمظالم والفجور والجرى وراء الغانيات فى الأمة ، وهذا هو الذى كان حاصلا فى بلاد مصر وفى بلاد الشرق فدخلت أوروبا فى شؤونهم .

إن القرآن الذى هو كتاب دينى أشار إلى ذلك إذ ذكر العدل بعد قصة هذه الكائنات فكأنه يقول : لاعدل عند حكامكم إلا إذا أغرموا بما تقدم من العلوم فدرسوا هذا الوجود وعشقوا حكمه حتى يقوموا فى الأرض بالعدل لأنهم يكونون خلفائى قد نظروا فى أعمالى فعرفوا نظامى فقلدوه وهم لايشعرون ويكون العدل إذ ذاك كالغريزة .

العدل بين الناس

ومن العدل بين الناس ما ذكره الله فى سورة النساء من شهادة الانسان على نفسه وعلى والديه وعلى الأقربين وعلى الفقراء وعلى الأغنياء لايبالى بنفس ولا بأهل ولا بفقر ولا بغنى بل يكون الحق هو مقصوده .

وفيما جاء فى قصة سيدنا عمر رضى الله عنه مع الحمار (بتشديد الميم) الذى سار معه من المدينة إلى الشام فكانا يتراوحان على الحمار هذا يمشى مرحلة وذاك مرحلة مع أن الحمار له أجرة .

جمهورية أفلاطون والعدل

إن جمهورية (أفلاطون) كلها قد بنيت على هذه الكلمة ، وذلك كان قبل الميلاد بنحو ثلاثة قرون والكتاب من الكتب القيمة وليس العدل من الأمور الهينة بل هو أمر عظيم ؛ فقد جعل هذا الكتاب عشرة أبواب وبين العدل وكيف يكون وهل نعطى المجنون ماله ونعطى السيف لمن به يقتل الصبيان وإن كان ذلك ملكهما وهكذا من المباحث، وقد انتهى فى آخرها إلى أن العدل إنما يكون بما تقرّه الجماعة المجتمعة وهو ما يسمى بالإجماع عندنا فى شريعتنا الاسلامية لأن الرجل كان فى الأعصر الأولى وشرط فى القائمين به شروطا كثيرة وأوجب على رجال الجيش أن يكونوا مرتاضين رياضة جسمية ورياضة علمية فى الحساب والهندسة سنين عديدة ، فأما الحكام فعليهم أن يزيدوا فى ذلك وأن يعرفوا صانع هذا العالم ويتوغلوا فى المعرفة حتى يصلوا إلى منتهى ماتصل إليه الأفهام .

إيضاح لهذا المقام فى نظام الدولة

إن العدل فى الجمهورية لايتمّ إلا بثلاثة أمور تتقدمه وهى :

[أولا] أن يكون العامة مطيعين الجند المسيطرين عليهم والحكام القائمين بأمر الدولة ، فهؤلاء العامة من التجار ومن المزارعين ورجال الصناعة ليس لهم على رأيه إلا الطاعة لرؤسائهم والقيام بما يؤمرون به فيدفعون الضرائب ويتركون المفاسد ويتباعدون عن الأعمال الضارّة وهناك محاكم ويقضى بينهم بالقضاة العادلين وهؤلاء هم القائمون بأمر القوة الشهوية للأمة ، لأن شهوة الطعام والملابس والزينة لاتتمّ إلا بهؤلاء ، فهم عمال أشبه بالمعدة والأمعاء فى جسم الانسان ، فكما كان الزراع يعملون فى الدولة هكذا المعدة والأمعاء يعملان فيما يماثل أولئك أى فى أعمال جثمانية .

[ثانيا] الجند الذين تربوا ومرنوا للحرب والضرب والدفاع عن الدولة فهؤلاء يقومون مقام القوة الغضبية فى الانسان ويحافظون على الثغور ويقومون بطرد العدو منها ودفعه عنها ، فعلى هؤلاء أن ينقادوا لرجال السياسة كما تنقاد قوانا الغضبية لقوانا العقلية فان لم يكبح المرء جماح غضبه بالقوة العاقلة أصبح

أضحوكة ومثلا يضربه الناس للذين هم لاثبات لهم ، فهكذا الدولة إذا استبد العسكر بالأمر ولم يراجعوا أولياء الأمور فسدت أمور الدولة واحتلها الأجانب وبئس المصير .

[ثالثا] رجال السياسة وهؤلاء يجب أن يكونوا على بصيرة وعلم كما هو مسطر فى هذا المقام على وجه الاختصار وهؤلاء هم الذين يدبرون الملك .

فاذن تكون الدولة مركبة من هذه الثلاثة سوّاس وعسكر وعامة فى مقابلة العقل والغضب والشهوة ، ثم إن انتظام هؤلاء وقيام كل بما عهد إليه يسمى عدلا فهذا هو العدل المذكور فى الآية ؛ وإياك أن تظنّ أن انتخاب الأمم للنواب ينافى هذا ! فان هؤلاء النواب هم الذين ينظمون أمر الحكومة ، فالحكومة لهم والحكومة تسيطر على الأمة كلها فلا بد من طاعتها للجند عند الاقتضاء والجند يكون تحت إمرة الحكومة التى انتخبها الشعب .

العدل فى الأخلاق الشخصية

لقد قاس هذا الحكيم أخلاق الانسان على أخلاق الأمة فجعل قوة الشهوة خاضعة للقوة الغضبية فان الانسان إن لم يكن عنده حمية وشهامة لم يحافظ على عرض ولم يترك نقيصة ووّد لو يأكل أموال اليتامى فان لم يقهر نفسه بالقوة الغضبية وبالتوبيخ فى سرّه افتضح أمره كما تخرب الأمة إن لم يقم الجند بكبح جماح الثائرين وحبس المعتدين وما أشبه ذلك ؛ ثم إن القوة الغضبية يجب أن تخضع للعقل فلا يفعل إلا على مقتضى المصلحة إقداما وإحجاما كما لايفعل الجند فى الدولة شيئا إلا بأمر رجال السياسة وإلا هلكت البلاد وتشتت أمرها .

ثم إن القوة العقلية يجب أن تتحلى بالعلوم كما أوضحناه فى هذا المقام ، فان لم تتحل بالعلوم كانت كرجال السياسة الذين لاعلم عندهم ولا رأى لهم وهم غافلون ، ثم إن اجتماع هذه الأمور الثلاثة وانتظامها هو المسمى بالعدل كما أن اجتماعها فى المدينة يسمى عدلا .

فانظر كيف كانَ العدل نظام كل شئ ، وكيف كان هذا القول فى الآية جامعا لهذه العلوم ولذلك سلبت هذه الآية ألباب العرب لما سمعوها كالمغيرة بن شعبة حتى إن أباجهل أعجب بها كما ستراه ، والحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

ثم إن أفلاطون يقول :

(١) إن الأمة متى كانت على هذا المنوال فأحكامها عادلة وهى المدينة الفاضلة وقد تمت فيها الأمور الأربعة وهى العفة للعامة والشجاعة للجند والحكمة للسوّاس والعدل بين الجميع ، وهكذا الانسان يكون عفيفا فى قوته الشهوية شجاعا فى قوته الغضبية حكيما فى قوته العقلية عادلا إذا انتظمت الثلاثة .

(٢) ثم إن الدولة متى زال منها السوّاس من الحكماء المذكورين ترجع إلى حكومة عسكرية فيتولى الجند سياسة الأمة ويستبدون بها وهذه الحكومة أنقص درجة مما قبلها فان العقل أرقى من القوة الغضبية التى لايعرف الجند سواها .

(٣) فاذا تمادت هذه وطال عليها الأمد خرج أبناء هؤلاء ولاهمّ لهم إلا جمع المال فتغلب القوة الشهوية وهذه أدنى مما قبلها لأن الشهوة البهيمية هى التى تسلطت فيها كبلادنا المصرية أيام العزّ والإقطاعات فلذلك كانت البلاد فى حالة محزنة .

(٤) وهؤلاء الأغنياء متى جمعوا المال أصبحت الأمة كلها فقراء فحسدوهم فيثورون عليهم فيهلكونهم ،

وهذه هي الفوضى لارئيس ولا مرؤوس ؛ وقد تمّ هذا في بلاد الروسيا فقتلوا القيصر ، وهكذا في (الدولة العثمانية) فقد استبدّوا فخلعوا وهذه هي حكومة الشعب (ديموقراطية) .

(٥) ثم يأتى بعد ذلك رجل واحد يحكمهم بالقهر وهذه أنقص الحكومات وكل حكومة أقلّ مما قبلها وخير مما بعدها ، ومثال ذلك (ماسوليني) في إيطاليا ومصطفى كمال في تركيا ولكن هذان حكما بمعونة الشعب .

ثم إن رجال السياسة في (المدينة الفاضلة) لايتولون الحكم إلا إذا كانوا عقلا وسنا وقرءوا علوما شتى من طبيعية ورياضية وإلهية .

وهنا ثلاث نظرات :

[النظرة الأولى] في موازنة نظام المدينة الفاضلة عند أفلاطون بنظام هذا العالم الذى نعيش فيه .

[النظرة الثانية] فيما لاحظته على الإنسانية العامة في أيامنا هذه في القرن العشرين .

[النظرة الثالثة] في نقل ماترجم من آراء أفلاطون المتقدمة بتوسع في المقالة الأولى والثانية لأنه شفى ما في صدرى من جهة الأخلاق العامة لهذا الانسان وقد شرحها شرحا كأنه كان في زماننا ، فلأشرع في النظرة الأولى فأقول :

النظرة الأولى

لقد رأيت تلخيص جمهورية أفلاطون ووجدت أن قوة الإنسان الشهوية والغضبية والعقلية وانتظامها موافق لطبقات العمال والزراع ثم الجند ثم الحكماء الذين يدبرون الدولة ، فههنا شهوة يردعها غضب يسيطر عليهما عقل ، وهذه الثلاث تظهر أولاها في البهائم والثانية في الآساد والثالثة في الإنسان ، فالجند كالآساد وبقية الشعب كسائر الدّواب على الأرض وحكام الشعب أشبه بالإنسان .

فياعجبا ! قلت القوى العاقلة في هذا النظام الأرضى ؟ إنما مثل القوى العاقلة في هذه الكرة كمثل الحواس الخمس الظاهرة والباطنة والمخ وأعصاب الحسّ والحركة ، فهذه كلها بالنسبة للعظام والعضلات وسائر أجزاء الجسم شيء قليل كقلة الانسانية بالنسبة لسائر النبات والحيوان وقلة الحكماء بالنسبة لنوع الانسان وقلة حكام المدينة بالنسبة لسائر أفرادها .

نظرتى اليوم في شارع زين العابدين

في هذا اليوم (الخميس) الثانى من شهر فبراير سنة ١٩٢٨ وقفت وقت العصر موجها وجهى جهة الغرب ورأيت الناس غادين رائحين وفكرت في الهواء الجوّى والبخار السابح فيه والسحاب الذى في الجوّ والكواكب والشموس والأقمار وقلت هذه العوالم كلها تخدم هذا الانسان ، فهذه الشمس وسياراتها وقمر الأرض والهواء والسحاب كل أولئك نافعات لهذا الانسان ونفس جسم الانسان منظم تنظيما مدهشا إذ فيه (٢٤٨) عضوا كل منها ضرورى لحياتنا وكلها موزونات منظمات ، مثلا أصابع اليدين لو كانت كل أصبع منها عظما واحدا لم يكن للناس عمل في الأرض بل كانوا يعيشون كالبهائم ، فلولا مفاصل الأصابع ماحرثنا الأرض ولا عملنا صناعة ولا حفرنا نهرا ولا عملنا في الأرض عملا ما ، فلا كتابة ولا صناعة ولا علم ولا عمل ، فهذه مسألة واحدة من آلاف الآلاف وهؤلاء الناس كلهم عنها غافلون إلا قليلا .

فياليت شعرى أيضىء النور للعميان ، أم يغنى للوسيقار للصم ، أم تتزين الغادات لمن لايبصرون ؟ لم إذن هذا الجمال ؟ فما كان الجواب على هذا إلا كما بيناه آنفا ، فكما أن المدينة يقلّ فيها حكامها وعالم النبات والحيوان يقلّ فيهما الانسان وحواس الانسان قليلة بالنسبة إلى جسمه ، فهكذا الأنفس العالية التى أرسلت

لهذه الأرض وقد زينت لها هذه الدنيا بهذا النظام العجيب فنسبتها إلى الأنفس الأرضية كنسبة نوع الانسان إلى الحيوان والنبات ونسبة حواس الانسان إلى سائر جسمه . وإذن يكون فى كل أمة من أمم الأرض فى كل زمان أناس عددهم قليل هم الذين يدركون نظام هذا الوجود ويفرحون به وهؤلاء هم الذين قصدتهم العناية الإلهية فى تزيين هذه الأرض وترقيتها فما مثلهم فى هذه الأرض إلا كمثل للملوك تقام لهم الزينات فى المدن وبقية الرعية تابعون لامقصودون بل هم كالشموس والكواكب المشرقات على الناس . هم المقصودون من هذا الوجود .

ولعل بقية أفراد الشعوب وإن كانوا لايدركون الجمال قد أخذوا يستعدون لهذا فى الأرض بحياتهم هذه فهى أشبه بمدرسة صغرى لتعليم الصبيان الذين سيرتقون فى عالم بعد عالم ، فأما الحكماء والمفكرون فهم حشروا معهم فى الأرض لتعليمهم وتنظيمهم ، هذا ماخطر لى اليوم ، وهذا شرح لناحية من نواحى ما قاله أفلاطون من تقسيم رجال المدينة كما تقسم أصناف النحل فى القفير بأمر اليعسوب وهى ملكة النحل من العمال والذكور الذين لا عمل لهم والحراس والمربيات للذرية والجامعات للعسل والصانعات للشمع الخ .

فأما النظر للنظام العام والعدل التام فى المدينة بتعادل القوى الذى ذكره فهو أشبه بهذا النظام العام ، ومن تتبع هذا التفسير رأى فى كل سورة من السور مسائل مستوفاة من نظام العوالم وأدرك يقينا أن سير الكواكب منظم بعدل ومثلها كل حيوان وكل نبات فلا نطيل به ، وكل هذا يشابه ما قاله أفلاطون ولكن لابد من ذكر مسألة واحدة هنا لتكون أنسا للمفكرين وهدى وذكرى للعاقلين .

انظر إلى بنى آدم يغدون ويروحون ويظنون أنهم فى الخلاء أو فى الفراغ وهم ليسوا فى خلاء ولا فى فراغ بل مكبلون محبوسون فى محبس عظيم وهو الهواء وبخار الماء الذائب فيه فنحن غرقى فى بحر لجى من الهواء وبخار الماء ونحن نشاهد النور يتخللهما وينقل صور الأجسام وألوانها وأشكالها وأحجامها فنتصرف ونعيش ولا علم لنا بالهواء ولا ببخار الماء إلا بعد التعليم ولو كان هذان الجسمان ليسا شفافين لحجبا عنا ضوء الكواكب ولجهلنا ماعلى الأرض من كل قائم وحصيد ؛ ثم إننا لما عرفنا وجود الهواء وأننا غرقى فيه ظننا أنه خفيف لاثقل فيه وهذا خطأ ، فالهواء ثقيل يضغط علينا من جميع جوانبنا وكل منا يحمل ثقلا بزنة (٦١) قنطارا .

والدليل على ذلك أن مساحة جسد الانسان المتوسط القامة (١٦) قدما مربعة أى (٢٣٠٤) قراريط مربعة وضغط الهواء (١٥) ليبرا على القيراط المربع ، والانسان فى العادة لايعقل مانقوله الآن ولا يفقه أن للهواء ضغطا ولكن الذين يقرءون العلوم الطبيعية يدرسون ذلك عملا ، مثلا إذا طاروا فى الطيارات إلى أعلى فأعلى قابلوا هناك هواء لطيفا جدا فينزل الدم من مسام أجسامهم وهكذا إذا ارتفعوا فى الجبال العالية فانهم يرون الدم يرشح من مسامهم والموت يكون منهم قاب قوسين أو أدنى وإنما ظهر الدم لأنه محفوظ فى أجسامنا بالعدل الذى وضعه الله فى الأرض ، فهذا الهواء بضغطه على أجسامنا من جميع الجهات قد منع الدم من الخروج، فالضاغط على الدم هو ثقل الهواء ومتى خف خرج الدم فمات الانسان ، ولقد انتهز هذه الفرصة الانسان ففرغ الهواء من المحجم بحيث يمص الحجام ذلك الهواء فيخف فترى الدم ينبع حالا ، وهذا مشاهد معروف فاذا ارتفع الناس فوق أعلى الجبال صار الهواء أشبه بما فى المحجم من الهواء الخفيف فنزل الدم من سائر الجسم .

أليس هذا هو العدل عدل الله فى نظام الأجسام فجعل الهواء من سائر الجهات فاتزن الجسم وذلك كالعدل

فى المدن بانتظام القوى فيها من الجندية ورجال الحكومة والعامة بحيث يطيع الجند أوامر الرؤساء ويخضع العامة لمن فوقهم .

فالوزن والنظام فى المدينة هو عين الوزن والنظام فى نظام الهواء، وضغطه على سطح أجسامنا حفظها كما تحفظ المدينة بنظام أصنافها ، ولاجرم أن فى الجسم عظاما وعضلات ومواد سائلة وأخرى غازية كالهواء، وضغط الهواء من الخارج على الجسم يوازنه من الداخل الهواء هناك ، والمواد السائلة لاتقبل الضغط إلا يسيرا جدا ، والمواد الجامدة تحمل أثقالا أعظم جدا والغازية تقبل الضغط كثيرا ولكنها تزداد مرونة كما ضغطت فتقاوم الهواء الخارج وضغطه ، ولذلك إذا خرج الهواء من الصدر بالتنفس يشعر الإنسان بضيق فى صدره من ثقل الهواء الخارج عليه ، والعلماء فى مسألة ضغط الهواء تجارب مثل ما فعله (اطوفن كركى الكدبرجى) الذى صنع كأسين سماها الناس باسم بلدته فقيل (كأسا مكدبرج) وهما نصفا كرتين أشبه بشكل (القبعتين) اللتين يلبسهما الفرنجة ، فإذا ركبت إحدى الكأسين على الأخرى وبقى الهواء فيهما ينفكان بسهولة ، فأما إذا فرغ الهواء منهما بحنفية موضوعة فى إحداها ثم سدت الحنفية فاذن لايدخلهما هواء، فلا يفكهما إلا عصبة أولوا قوة من الرجال يشدون معا من ضغط الهواء الخارجى لهما ، ويقال إن (اطوفن كركى) المذكور صنع كأسين كل منهما قطره قدمان ثم ركبهما وفرغ الهواء منهما فلم تنفك الواحدة عن الأخرى حتى ربط إلى كل منهما ستا من الخيل وجعلها تشد إلى جهتين متضادتين ، ولسنا الآن أيها الذكى فى مقام علم الطبيعة بحيث نشرح الهواء والماء والضوء والكهرباء والحرارة والمغناطيس وما تفرع عنها ولكن شرحنا هذه المسألة لنفسر بها العدل ، فههنا عدل قام بين المواد الغازية فى جسم الانسان وفى خارجه كالعدل الذى يحصل بين قوى الانسان من شهوة وغضب وعقل وكالعدل بين رجال المدينة من عامة وحكام وجند وهكذا .

أفلا ترى من ذلك أن العالم نظام واحد ؟ أولا ترى أن الناس على الأرض أشبه بجسم واحد ؟ فلا جرم أن كل الأمم كأمة واحدة والأمة الواحدة كشخص واحد والكرة الأرضية يحيط بها الهواء والناس فيه يعيشون فلهم وحدة الهواء والنور والماء والأرض فهذه وحدة عامة ، إن نظام أجسامهم كنظام مدنياتهم كنظامهم مع النبات والحيوان الخ ، إذن النظام عام فى هذا الوجود وكأن هذه العقول فى الأرض إنما اختلفت ليحول هذا الاختلاف فى عوالم أخرى إلى ائتلاف كما ترى اختلاف أعضائنا سببا لسعادتنا فى الحياة ، ولو كان جسم الانسان عظما واحدا متصلا لكان أشبه بالحجر لاعمل له ، فلعل أهل الأرض سيكونون بعد عالمنا هذا أشبه بنفس واحدة كبيرة كل نفس من النفوس الصغار أشبه بعضو من أعضائها مع استقلال كل نفس جزئية كما ترى فى نظام النحل والنمل فهناك نظام تام وكل واحد له حرية وتصرف على قدر طاقته .

(١) وهذا قوله تعالى « وكل شىء عنده بمقدار » وقوله « ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت » .

(٢) وإذا قال الله لنا « إن الله يأمر بالعدل » فانه ما أمر إلا بما فعل هو وعرفه الحكماء والأنبياء .

(٣) إن الله فى عدله إنما يعمد إلى نظام العموم ويجعل الأفراد على مقتضى المصلحة ولا يجعل الحكم للعواطف التى خلقت لأعمال جزئية بل الحكم للعقل ، انتهى الكلام على النظرة الأولى .

النظرة الثانية ما لاحظته على الانسانية العامة فى هذا القرن العشرين

اعلم أنى ولدت فى قرية من قرى الفلاحين بالشرقية بالبلاد المصرية وهى (كفر عوض الله حجازى) وكنت ألاحظ أنهم يحتقرون الصادق ويعظمون الرجل الخبيث الماكر ، فلما خالطت أهل العلم كنت أظن أنهم يخالفون هذه الطبقة فرأيت الآخرة كالأولى ثم لما صرت معلما فى المدارس صرت ألاحظ بعض ما كنت أراه فى القرى حتى أن أحد المدرسين معى بالمدرسة (الخديوية) كذب على كذبة لاتضرنى ولا تنفعه فعجبت كل

العجب

العجب كيف يكون الذين معهم شهادات عالية يكذبون كذبا لاينفع حبيبا ولا يضر عدوا ، ثم وليت وجهى شطر الأوروبيين لاسيا الطبقة الراقية منهم فوجدتهم أشبه بمن عندنا ، ولما حضر (روزفلت) رئيس الممالك المتحدة إلى مصر بعد أن انقضت أيام حكمه وتوجه إلى بلاد (السودان المصرى) ليصطاد الأسود والنمور هناك بحماية الانجليز ورجع إلى مصر التى تحت حماية الانجليز هى والسودان .

أقول : لما حصل ذلك كله وقف خطيبا وقال : أيها الانجليز [إما أن تحكموا وإما أن تخرجوا ، يريد بذلك أنكم مهملون فى حكم المصريين ، أمسكوا البلاد ولا تعطوا حكمها للمصريين لأنهم ليسوا أهلا لذلك] فهذا القول دلنى على أن أعظم المتعلمين فى أوروبا وأمريكا يحكمون بالهوى لا بالعدل لذلك ألفت كتاب [أين الانسان] لأنى رأيت هذا الانسان المنظم جسمه الذى قد اتزن بضغط الهواء من جوانبه ومن داخله وانتظمت حركات الكواكب المحيطة به وانتظم له كل شئ من نبات وحيوان خرج هو على النظام فهو إذن طفل وليس فيه إلا قليل من المفكرين العظماء مغلوبون على أمرهم والباقى همج سذج رعاع أتباع كل ناعق ، ثم إنى رأيت أن كثيرا من المخلصين مغلوبون على أمرهم ورأيت كثيرا من الذين تصدوا لقيادة الشعوب ليسوا مخلصين فيضلون الأفراد بالكذب والبهتان وبموالاة الجرائد وإمدادها بالمال فيمدحونهم ، كل ذلك معلوم ظاهر مكشوف فى زماننا .

أفلا تعجب إذا حدثتك عما قاله (أفلاطون) فى جمهوريته ! أى إنى أذكر لك ما ذكره فى المقالة الأولى والثانية بأوضح مما تقدم لتعجب كما عجبت أنا من العقول الانسانية ، وأن هذا العقل الكبير الذى مضى له نحو أكثر من ٢٣٠٠ سنة كأنه فى زماننا ويقرأ أحوالنا ويعبر عنها ويصف الدواء لسقامها فيشفى القلوب بالعلم ويحفظ الأمم بالحكام الحكماء ، ولما أتممت هذا المقام ابتدرنى صاحبى ، فقال هذا نظام الله فى العوالم المادية من الهواء وأجسام الحيوان ولكنى الآن أريد أن توازن ما بين نظام الحيوان فى هذه الدنيا ونظام قدماء المصريين وجمهورية (أفلاطون) المتقدمة وما ألفه (الفارابى) من علماء الاسلام فى كتاب [آراء أهل المدينة الفاضلة] وما ألفته أنت فى كتاب [أين الانسان] وماذا يقول الله تعالى فى تلك النظم أو أيها أفضل؟ وفوق ذلك كله نريد أن نعرف نظام الجنة والنار من نظام الدنيا : أى نعرف عدل الله فى الآخرة كما عرفناه فى الدنيا فهذه [ثمانية فصول] أرجو إيضاحها وذلك قبل ما تذكره من كلام أفلاطون فقلت :

الفصل الأول : نظام الحيوان فى هذا العالم

اللهم إنك أنت المحمود على نعمة العلم والحكمة ، أنت كتبت بيدك كتابا مفتوحا مجسما وجعلتنا نحن كلمات من ذلك الكتاب أو حروفا ، أنا الآن أكتب وأنا نفسى كلمة من كتابك المفتوح ، خلقت بيدك هذه الدنيا التى نعيش فيها وهى نفسها كتاب يقرأ وأصعب شئ على الحى أن يقرأ نفسه ، لهذا قل من يفقه هذه المخلوقات التى عاش معها ، وقل من يقرأ جسمه ونظامه ، وأندر من ذلك من يفقه علم روحه الذى هو بحر لجى يغشاه موج الطبيعة من فوقه موج الشهوات من فوقه سحاب الهموم والنظم الأرضية وتكاليف الحياة ، وأنا الآن أحمدك إذ شرحت صدرى لأذكر ما ألهمتنى من بركاتك الحكمية وإلهامك الجميل لى على مقدار استعدادى ، وأنا فى هذا العالم الأرضى المتأخر فى درجات النظام ، فما أرضنا وما شمسنا وما سياراتها وتوابعها وأقمارها وذوات أذنابها التى لاحصر لعددها إلا قطرة من بحر الوجود فما أعرفه وأكتبه الآن بنسبته إلى بواطن الأمور والحقائق الصادقة كنسبة قطرة إلى بحر لجى ، ولا تكلف نفس إلا وسعها ، لذلك أقول :

اللهم إنك جعلت هذه العوالم المذكورة فما تقدم من سمك فى البحار وهوام فى التراب وحشرات وطيور

فى الهواء، وذوات الجن والدم فى الفلوات كتابا يقرؤه العقلاء ، وضعت فى كل طبقة من طبقات هذه العوالم سكانا ، ومن عجب أنك خصصت كلا بوظائف وطبائع وهى جميعها فرحة مسرورة ؛ فالطير يزق أولاده وربما وهو فرح مخور محب مغن فى نسمات الهواء ، والحشرات اللاتى حرمت الجلد والأحشاء الباطنة والعظام متثبات راتعات فرحات مبتهجات ، وذوات الأربع راتعة فى خلواتها سارحة غادية رائحة ، فلا طير السماء حاسد حيوان الفلاة ولا الحشرات ولا سمك البحار بمزدريات مقامهن فى تلك الأقطار فكلهن راضيات فرحات متمتعات .

هذه جمهورية الله ، جمهورية الله هذه التى نراها بأعيننا فكل أمة أمكنها أن تجعل نظامها يقرب من هذا النظام فهى التى أعطيت مقاليد السياسة ونظام المدينة وهى من المفلحين الفائزين .

الفصل الثانى : فى قدماء المصريين

إن قدماء المصريين جعلوا نظامهم أشبه بهذا النظام الإلهى من بعض الوجوه فإنهم جعلوا للكهنة وللملوك والعامة درجات لايجوز تخطيها وأحوال يحرم تعديها ، فابن النجار والحداد والزارع والكاهن والملك لابد أن يحذو حذو أبيه ويجرى على وتيرته فى نظام معاشه وصناعته وسيره فى الحياة . هذا هو النظام الذى ارتضوه ولذلك دامت الأمة المصرية آلافا وآلافا من السنين ، ولكن هذا النظام جاف قاس ليس يناسب الإنسانية من كل الوجوه .

ألم تر أنهم جعلوا نظام الانسان كنظام الحيوان أى أنهم قلدوا فعل الله فى هذا الوجود ، فكما كان الطير فى الهواء، والهوام فى التراب وحيوان البر فى الفلوات والسمك فى البحار ، هكذا جعلوا الملوك والعلماء والصناع كل فى مرتبته ، كما أن ذرية الطير طير وذرية الحشرات حشرات وهكذا ، فأين امتياز الانسان؟ والحق أن هذه الانسانية أمرها مشكل ، ألم تر أن أصحاب العقول الراجحة والأميال العالية وأرباب النفوس الغبية ، كل هؤلاء يخلقون فى الأمم بلاقيد ولاشرط فليس لهم قانون خاص ولاطبقة معروفة ، فهؤلاء يكونون فى ابن الزارع وابن التاجر وابن الفقير والغنى والملك والصعلوك ، فهذا النظام المصرى القديم حسن من وجه وناقص من وجه .

الفصل الثالث : فى جمهورية أفلاطون المتقدم

وهذا النظام هو الذى قرأه (أفلاطون) فماذا فعل ؟ رجع إلى الحقيقة فقرر أن يكون حراس المدينة والقوامون مصطفين من الشبان اصطفاء بطريق الامتحان والاختبار كما تقدم فليس ذلك بالنسب بل بالاستعداد إلى آخر ما تقدم ، فهذا تعديل فى نظام قدماء المصريين الذى اتحد مع نظام البراهمة فى الهند الذين جعلوا الأمة أشبه بجسم واحد له رأس هم علماء البراهمة وقلب وأحشاء ورجلان تشابه درجات الشعب وكل له مقام معلوم ، كل ذلك بالنسب فهذه الجمهورية قد أخرجت الانسانية من ذلك النظام الضيق نظام النسب الذى فتح باب الاستبداد فأحسن من وجه وأساء من وجه ، ويشبه نظام الأمة الانجليزية نظام قدماء الهند والمصريين من وجه .

ثم إ يعلمون جميع الأمة تعلما ابتدائيا ولكن التعلم العالى والوظائف الكبيرة خاصة باللوردات وأصحاب الثروة الطائلة لارتفاع قيم التعلم فى المدارس ، والنظام الأوفى أن يكون التعليم كله عاما ويصطفى طلاب المدارس العالية بالاستعداد لابالمال .

الفصل الرابع

فيما قاله الفارابى فى كتابه [آراء أهل المدينة الفاضلة] الذى لخصته فى كتابى [نهضة الأمة وحياتها]

ونشر فى أوائل القرن العشرين الذى نحن فيه ، إذ لخصت الكتاب تلخيصا وجعلته على مقتضى ما يناسب عصرنا وذلك فى مبدأ نهضة بلادنا المصرية إذ كانوا يطلبون الاستقلال أو الدستور .

وملخص رأيه أن الأمم كلها أشبه بنفس واحدة ، وكل أمة على الأرض لها استعداد كاستعداد عضو من أعضاء الجسم فيجب أن تأخذ قسطها من الحياة وأعمالها لتساعد المجموع ، وهكذا أفراد الأمة الواحدة لكل منهم مقام معلوم وكأنه يقول ما تقول الملائكة « وما منا إلا له مقام معلوم » فأعضاء القلب والرئتين والكبد والمعدة والأمعاء والكليتين والحالبين والدماغ والحواس الخمس فى جسم الإنسان يقابلها أفراد فى الأمة ؛ فليس الصالح لرياسة الجمهور الشبه للعقل فى الدماغ بمفيد إذا وضع موضع المعدة لهضم الطعام ولا القلب الذى يوزع الدم على الجسم بمحسن تصريف الأمور كما يصرفها العقل بل لكل عضو عمله إذا تركه اختل ، هكذا لكل فرد من أفراد الشعب استعداد إذا تخطاه ضاع من الأمة من المنافع على نسبته ، فهذه هى المدينة الفاضلة وسواها مدينة فاسقة ، إذن جميع النظم الأرضية اليوم فاسقة عند تطبيقها على آراء الفارابى ، ولقد بينت فى كتابى [نهضة الأمة وحياتها] أن النواب ينتخبون من هيئات الأمة بحسب أعمالها لا بحسب أماكنها فيؤخذ من كل طائفة نائب أو أكثر ليعبر عن شعورها ومطلوبها ، فللصناع وللزراع وللعلماء ولكل ذى حرفة نواب يعبرون عنهم كما أن لكل عضو من أعضاء الجسم أعصابا توصل إلى المخ ، ولما نشر هذا قبيل استقلال بلادنا الجزئى الذى نالوه أخبرنى بعضهم أن هذا النظام لم يوجد إلا فى أمة واحدة من أوروبا لا أذكرها الآن ولعلها (بلجيكا) .

الفصل الخامس : كتابى أين الإنسان

هذا الكتاب ذكرته فى هذا التفسير مرارا لمناسبات وهو يبحث فى نظام الأمم الحاضرة ومجالسها وحكوماتها ونسبة أهل الأرض إلى استعداد الأرض نفسه فلا أطيل به وهو يرجع إلى أن تستخرج جميع القوى والقدر فى الناس كما تستخرج جميع المنافع من الماء والأرض والهواء والأمم كلها متعاونات وإلا فهن جميعا فاسقات .

الفصل السادس : فى نظام القرآن

أما نظام القرآن فإنه هو الذى كتبته فى كتابى [أين الانسان] يقول الله « لايكلف الله نفسا إلا وسعها » ويقول « لاتكلف نفس إلا وسعها » ويقول « لانكلف نفسا إلا وسعها » فتارة يقول « لايكلف الله » فذكر الاسم الظاهر ، وتارة يذكر بضمير المتكلم مع العظمة والجلال ، وتارة يطوى الفاعل ويذكر الفعل مبنيا للمجهول ، فهو يشير بالأولين إلى أنه هو وضع كل شىء موضعه وأحكم الوجود ، فكما جعل طير الهواء وأنعام الفلوات وسمك البحار كلا فى مقره ، هكذا أوجب على الأمم أن تضع كلا فى مقامه بحسب استعداده لأنه قال « إلا وسعها » ولم يقل لاتكلف نفس إلا بحسب نسبها ، كلا ! بل ذكر الوسع وهذا عينه هو الذى شرحته فى كتابى [أين الانسان] حينئذ يكون الناس جارين على النظم الإلهى والحكمة الطبيعية التى سنها مبدعها ، فإذا جعل المسلمون كل امرىء فيما خلق له من الاستعداد أصبح أبناء الأمة جميعا فى رغد من العيش والسعادة ويكونون فى أعمالهم فرحين كما ترى الطير فرحات والحشرات مغردات والسمك جاريات والأنعام راتعات مهنآت كل فى نعمة ربه جار على سننه لم يتعد طوره ولم يشارك غيره فى نظامه ، فلم تر الفيلة تشارك الطير فى الهواء ، ولا السمك جرى فى الفلوات مع الأنعام ، تقسيم عادل ونظام شامل وحكمة نسجت يد حكمت وابتهج بها المبتهجون .

هذا هو نظام الله وهذا نظام القرآن ، رجع القرآن الذى قاله الله إلى نظام الوجود الذى خلقه الله

فبكلامه وافق قوله « ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه » والأمم المسلمة وغير المسلمة كلها متعديات حدود الله لأنهم لم يدرسوا نظام الطبيعة دراسة تامة بحيث يقيسون عليها نظام الانسان بل درسوها للمنافع المادية وهم عن آياتها العقلية معرضون .

أيتها الأمم الاسلامية ، اسمعي اسمعي ! أيتها الأمم الاسلامية ، اقلبوا نظم بلادكم رأسا على عقب ولن يكون هذا إلا أن تبتدئوا بالتعليم العام ابتدائيا وثانويا وعاليا وصناعيا وتجاريا وسياسيا وتصطفوا التلاميذ لما خلقوا له بحسب أميالهم وأميلهم تعرفه بدرجات العلوم فى الامتحان ، فمن كان فى الابتدائى يميل إلى الصناعة أو التجارة أو نحوهما حوّل إلى ما مال إليه ، ومن كان أميل إلى علم من العلوم خص به وهكذا فيوضع التجار والزارعون وأهل الصناعة والسيادة كل فيما استعد له ثم يوزع هؤلاء الأفراد على الأعمال ومن أهمها استخراج ما فى الأرض من كنوزها ومعادنها وآثارها ، هنالك يخرج جيل جديد ، هذا الجيل هو الذى يعرف معنى « لا نكلف نفسا إلا وسعها » وهذا الجيل هو الذى يعيش على مقتضى نظام الطبيعة الذى جعله الله كتابا لنا.

هذا الكتاب الذى أنزله الله للناس قبل أن يرسل الرسل ، ولما علم الله قبل أن يخلق الناس أنهم ناسون للنصائح مهملون لعقولهم أرسل الأنبياء ليذكروهم .

الفصل السابع : فى ديانات الأمم

سيأتى فى سورة الأنبياء عند قصة إبراهيم عليه السلام إذ يقول لأبيه وقومه « ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون » وعند قوله تعالى قبل هذه القصة « وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه الخ » ذكر ملخص ديانات الأمم السابقة كديانة قدماء المصريين وكتاب الفيدا فى الهند والبراهمة وأتباع (كرشنا) وأتباع (بوذا) وهكذا ديانات أهل الصين وآخرها دين (كونفشيوس) وهكذا دين المجوس ودين (زردشت) الذى قال إنه مرسل للإيرانيين وكيف اختلط هذان الدينان فى آخر الأمر بدين البابليين والآشوريين .

سأذكر تلك الديانات هناك فما كان مذكورا من قبل أشرنا إليه ، وما لم يكن مذكورا من قبل وضحناه أيما إيضاح ، والغرض من ذكر هذا هنا أن تلك الديانات كلها مذكرات بنظام هذا الوجود فى أول أمرها وذات خرافات فى آخر أمرها ثم يكون الانقراض من الوجود ، وإنما الذى يهم الآن أن الفطرة الانسانية كلها معترفة بالدين والذى عرف الأمم الآن هذه الآثار التى كشفوها فقد تطابقت الآثار فى القارات كلها وفى الجزائر النائية أن جميع الأمم لها اتجاه دينى وكلها تؤمن باليوم الآخر ، وهذا الاجماع من تلك الأمم برهان قاطع على وجود مدبر للعالم وبقاء الأرواح بعد الموت لأننا لم نر هذه النفوس الحيوانية أجمعت على ضلال .

هاهى ذه غريزة الطعام والشراب والاستكنان من الحر والبرد والسعى على الرزق وحب الحياة والذرية وتقابل الذكر والأنثى ، كل ذلك فطرة صادقة ومسألة الدين إحدى تلك الفطر وليس ينافى هذه الفطرة أن يخرج عن الدين وينكره بعض المتعلمين فى المسلمين والمسيحيين واليهود والبوذيين الخ .

أقول : إن هذا الخروج من هؤلاء لا ينافى أن الدين فطرة كفطرة الغذاء كما لا ينافى غريزة تحاب الذكر والأنثى شذوذ الرهبان ولا غريزة التغذية انقطاع بعض العباد عن الأكل تعبدا فالفطرة غالبة « والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

الفصل الثامن : عدل الله بين الناس فى اليوم الآخر

إنك أيها الذكى حين قرأت الفصول الست الأولى وجدتها متناسقة ولكن الفصل السابع يظهر بادئ بدء أنه أجنبى عنها غريب بعيد فأين الديانات ودرسها ؟ وأين مسألة النظام وتوزيع الأعمال ؟ أقول : إن الفصل السابع مقدمة لابد منها لنذكر العدل فى اليوم الآخر .

لقد علمت أيها الأخ نظام الله فى الحيوان وعلمت نظام الهند ومصر قديما وعلمت آراء أفلاطون والفارابى وما كتبته أنا وما أريد من المسلمين فى نظامهم فى أنفسهم وفيهم هم مع الأمم التى يعيشون معها ، فها أنذا الساعة أحدثك فى أمر عظيم كما قال تعالى « عمّ يتساءلون عن النبأ العظيم . الذى هم فيه مختلفون » فنبأ الحياة بعد الموت ونبأ الجنة والنار هو الأمر الذى حير العقول ، فجميع العقلاء فى الأرض يسألون هذا السؤال [إذا كان الله هو الذى خلقنا فماذا هذا العذاب المؤبد وأىّ رحمة فيه ؟ ، وإذا خلق الله بعض الناس للعذاب فخلقهم إذن لتعذيبهم فعدم خلقهم يكون أوفق للرحمة] .

أقول : إن الجواب على هذا السؤال عسير وصعب ؛ ذلك لأننا خلقنا فى هذه الأرض وهى عالم متأخر كما قدمنا فليس من المعقول أن تكون عقولنا كعقول سكان كوكب أكبر من شمسنا كالسماك الرامح الذى يبعد عن شمسنا مائتى سنة بسير النور فعلينا أن نقرّ فى الأرض بأن هذه العقول الانسانية بالنسبة لعوالم أخرى كنسبة عقل الناموسة إلى عقل الانسان كما تقدم فى هذا التفسير نظيره عن العلامة (أوليفرلودج) الانجليزى فمثلنا إذا تكلم عن عدل الله ليس له إلا أن يذكر ما يقنع عقله الذى يناسب أرضه ، أما الحقائق الجلية فنحن بعيدون عنها فى هذه الأرض « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » فتارة أقول لك اقرأ ما كتبنا فى آخر سورة هود فهناك نقلنا عن أكابر الحكماء الاسلاميين ولكن لم نتقيد برأيهم كبعض الصحابة وكابن تيمية أن النار ستفنى ، وتارة نقول لك اقرأ كتاب [فيصل التفرقة بين الاسلام والزندقة] للغزالى فهناك تراه يجعل أكثر الناس ناجين لأن الدعوة الصحيحة للدين لم تبلغهم وبرهن على ذلك وأطال ، ولكن نحن لم نتقيد به وتركنا المسألة لمن بعدنا يفكرون فيها ، فأما هنا فأقول : إن الله وضع نظاما فى أرضنا وأراه لنا وألهم العقلاء فألفوا فهم مابين مقترب من نظام ربه ومبتعد عنه وأقربهم إلى نظام الله من يفعل ما ذكرناه ، ونظام الله أن يضع كلا فى مقامه الخاص به فهو رحيم وحكيم ، وما مثل أهل الجنة وأهل النار المذكورين فى الديانات إلا كمثل نظام الحيوان على الأرض .

اللهم إنا نحمدك على الفهم وعلى العلم وعلى السعادة الفكرية العقلية بالنور البهى والحكمة التى رأينا بصيصها فى هذا الوجود ، أنت قلت الطير اخترق الجوّ وللأنعام سيرى فى الأرض وللسمك كن فى البحر ولم تر حيوانا من هذه تحسر على مافاته عند سواه فلم يتحسر الطير على أنه لم يستقرّ فى قرار مكين كالأنعام ولم تتحسر الأنعام على أنها لم تطر فى جوّ السماء ، فقال صاحبى ، هذا منك عجب من أين جاء لك هذا ؟ فقلت سل الرجال من نوع الانسان وسل النساء ، وقل للرجل هل تحب أن تكون امرأة فإنه يرى هذه منك سبة وإهانة ، وسل المرأة وقل لها هل تحبين أن تكونى رجلا فإنها تقول لك لا لا ، وكيف تزيل بهجة وجهى بشعر خشن وتقبح وجها نضر الله خلقه وحسنه « فتبارك الله أحسن الخالقين » إذن بالقياس على الرجل والمرأة يكون كل حيوان راضيا بقسمته مسرورا بمقامه ؟ فالسؤال المشهور الذى يوجهه الجمهور فى كل حين هو [لم كان هذا فاضلا وهذا مفضولا يصبح لاقيمة له] إن النظر لهذه العوالم التى حولنا يرينا أننا نرى الأمر ليس قاصرا على ما ذكرناه من الحيوان فى الوضع بل هناك هوام لاتعيش إلا فى التراب وهناك الحيوانات الذرّية وهى لاتظهر للناس ، فإذا قلنا الطير فى السماء تقول الحيوانات الذرّية فى ظلمات الطبيعة بأرضنا ، ماذا فعل بها الله ، وضعها فى مستقرها الذى يوافقها ، إذن كل حيوان وضع فيما يوافق مزاجه ، وما مثل هذا النظام إلا كمثل النظام فى ممالك أهل الأرض إذ يجعلون من لايصلحون لخدمة المجموع من القتلة والسرّاق وقطاع الطرق فى سجون ، فهم أشبه بالحيات والعقارب تعيش فى ظلمات التراب والشقوق والجحور ، ولكنّ الفرق أن فعل الله جار على سنن الطبيعة وفعل الناس جار بطريق القانون المدنى ، أفلا يقال إن أهل

النار أشبه بالحيات والعقارب بالنسبة للصالحين . هانحن أولاء نشاهد حيوانا مختفيا لايظهر محتقرا منبوذا كالعقارب وحيوانا يطير مغرّدا فى جونا ولم نر فى هذا خروجا عن النظام بل رأيناه عدلا لأن لكل من الحيوانين وظيفة يقوم بها ، وإذن نظام الجنة والنار يشبه بعض المشابهة عالمنا ، وكما قلنا هنا حيات وعقارب وطير نقول هناك أهل نار وأهل جنة ، فقال صاحبي هل هذا مجرد رأى طرأ لك أم لك دليل عقلى أو نقلى ، فقلت ألم أقدّم لك أننا هنا على الأرض فى مثل هذا نكتفى بنور ضئيل من العلم وأننا لم نؤت من العلم إلا قليلا وهذه المسائل أعجزت أكابر الحكماء والعلماء ولكن يظهر لى أن زماننا وما بعده ستظهر فيه هذه الحقائق بقدر ما تتحمله عقولنا على هذه الأرض ، فقال كيف هذا ؟ فقلت هاهوذا علم الأرواح قد جرى فى هذه المسألة شوطا بعيدا ، فقال هذا العلم غير موثوق به ، قلت نعم ولكن إذا رأيناه ينحو نحو الدين ذكرناه على سبيل أنه يكون موضع بحث وتنقيب لمن بعدنا ، فقال هات ماوقفت عليه ، فقلت يقولون: إن هذه الحياة الدنيا لاتتم إلا بنظام أدبى ومدنى مع الناس ، وجميع الناس متساوون فى المظاهر صالحهم وطالحهم فهم جميعا يتعاملون ببشاشة ومودّة ولكن تختلف قلوبهم ، فمن كان عنده قوة روحانية : أى أنه يصنع المعروف من أجل الله الذى خلق السموات والأرض ولأجل حب الناس كما يفعل الأبوان مع الأبناء ، فهذا من أهل الجنة ، ومن يكون صالحا ظاهرا ولولا القانون أو الصيت والذكر الحسن ومراعاتهما لاستحوذ على مال غيره أو زنى أو سرق الخ فهذا من أهل جهنم وهم درجات بعضها فوق بعض ، ويقولون إنهم شاهدوا أن الذين زهدوا فى الدنيا وانقطعوا عن الناس درجاتهم فى عالم الأرواح منحطة متأخرة لأنهم لم ينفعوا الناس ولم يظهروا ما كمن فى نفوسهم من القوى والقدر والعواطف التى جعلت الدنيا لاظهارها وهى أجنحة يطير بها الناس فى عالم الأرواح فللأرواح هناك أعمال وإدارات فى نظام ثابت ولكل امرىء من العمل على مقدار ما استعدّ له فى الدنيا فهم يقومون بأمر ربهم فى إدارة عوالم يجهلها أهل الأرض ولن يكون هناك أحد فى عمل إلا ما استعدّ له فى الدنيا وعلى مقدار العلم وحب الخير والصدق والاخلاص يكون الارتقاء ، وليس المعنى أن ذلك أعمال تكليف ، كلا وإنما هى أعمال تكون تسلية فى النفس لذيذة كما فى الحديث « يلهمون التسبيح والتحميد كما تلهمون أنتم النفس » ولذلك تكون النفوس المنحطة فى الدنيا التى لاعمل لها إلا الغيبة والنميمة أو السرقة أو إيذاء الناس فى أعمال أشبه بما كانت عليه فى الدنيا وذلك فى جهنم فهم دائما فى تشاجر ومقاتلة وعذاب واصب ، وبعضهم يلحق بالجنّ فيلقى الوساوس فى صدور من استعدوا لذلك من الناس فى الأرض ، فهم هناك أشبه بالحيوانات الذرية فى أرضنا لهم وظائف إذ لامعطل فى الوجود حتى قال بعض علماء الأرواح وهو الأستاذ (سودنبرج) فى صفحة (١٥٨) ما ملخصه :

« إن الغمّ والكدر الذى يحسّ به الانسان إنما يحصل غالبا من أرواح شريرة كانت فى الدنيا وصارت بعد الموت ملحقة بالجنّ ، فهذه الأرواح مغرمة بإلقاء الغمّ فى النفس عند استعدادها لذلك بفساد الطعام فى المعدة وفساد الطعام فيها وعدم هضمه عند تلك الأرواح أشبه بقذارة العين عند الذباب ، فكما يقع الذباب على العين لقذارتها تقع هذه الأرواح الشريرة على النفوس التى لم يهضم طعامها فتلقى الغم فيها » انتهى ملخصا .

وهكذا قال فى موضع آخر من الكتاب « إن تلك الأرواح تشم روائح الشرّ والاستعداد له كما تشمّ الكلاب رائحة الرمم فى الأرض » .

وأيضا قال « إن بعضها يجلس فى مؤخر الرأس ويوسوس للانسان » .

أقول ومن عجب أنه ورد فى بعض الأحاديث مايفيد أن الشيطان هو الذى يغرى الإنسان بعدم الاستيقاظ من النوم وذلك مذكور فى كتب الشافعية فى كتاب الطهارة فراجعه إن شئت ، وفيه « إن الشيطان يقعد على رأس أحدكم الخ » .

ويقولون

ويقولون إنهم شاهدوا أرواحا لما ماتت طلبت من الملائكة وهم استأذنوا من الله أن يدخلهم الجنة فأجيبت تلك الأرواح إن الله لايمنع أحدا من دخول الجنة لاطائعا ولا عاصيا والمانع هو الاستعداد فانطلقت إلى باب الجنة فضاقت صدورها ولم تقدر أن تتنفس فى ذلك الجوّ اللطيف فرجعت حالا .

فقال صاحبى إنك بما قدمت من أن كلام الأرواح المذكور يكون محل بحث قد خرجت من عهدته ووكلت الأمر إلى النظر العام ولكن أسألك سؤالا واحدا ، هل ما ذكرته عنهم من أن الانقطاع عن العمل إلى العبادة مؤخر للناس بعد الموت ، حقّ أنا أسأل هذا السؤال لأن الناس حينما يقرءون هذا القول يؤثر فى نفوسهم بعض الأثر فيظنون أن الانقطاع للعبادة محرم وهذا لايقول به أحد من المسلمين ، إن المنقطعين للعبادة هم أو كلهم أولياء الله الذين لاخوف عليهم ولاهم يحزنون ، فقلت : اعلم أن الأمم الاسلامية المتأخرة كثير منها قد حجب عن حقيقة الدين الاسلامي الذى كان عليه الصحابة والتابعون فاقرأ كتاب [بداية الهداية] للامام الغزالى فإنه يقول فى أوله ما ملخصه :

« على الطالب أن يجدّ فى العبادة فى أول أمره حتى تصير له سجية سهلة وملكة راسخة وحينئذ يطلب العلم وليقتصر من العبادة على ماهو المعتاد المعروف فيها ، فإن عجز عن العلم فليساعد الناس بالأعمال العامة والخاصة كالأهل والأقارب والوطن ، فإن عجز عن هذا وذاك فليلازم العبادة فما تقوله تلك الأرواح هو ماسمعته عنه لأنهم يقولون إن ارتقاء الروح بوجدانها لايتم فى محراب الصلاة إلا بانضمام عمل الخير وفهم الحقائق إلى العبادة ، فأما إرادة الخير للناس بلا عمل فلا نتيجة له ، فحب الخير للناس والعمل له ومعرفة الحقائق الالهية كل ذلك هو المعراج بعد الموت ويوم القيامة » انتهى .

قال : قد اكتفيت بهذا فأرجو أن تتم ما تقوله عن الأرواح ، فقلت : إن تلك الأرواح كما قلت لك التى لم تقدر على دخول الجنة هوت حالا إلى جهنم ورجلاها أعلاها ورؤوسها أسفل ، فقال وهل ورد فى ديننا هذا ؟ فقلت قال تعالى « ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا » وقال « فكبكبوا فيها هم والغاوون . وجنود إبليس أجمعون » وآيات كثيرة فى ذلك ، ثم قلت ويقولون طلبت أرواح أخرى من الأشرار أن تدخل الجنة فلم تقدر فسألت عن المانع لها ؟ فقيل هو استعدادك وأخلاقك وعوائدك وأحوالك فقالت انتزعوها منى فانتزعوها فأصبحت تلك الأرواح كالمغشىّ عليه من الموت فهى فى الجنة ولاتحس ولاتعى ، فاضطرت الملائكة بإذن ربها أن ترجع لها أخلاقها فاستيقظت وطرحت نفسها حالا فى جهنم بدون اعتراض منها لأنها علمت أن هذا فى حيز الذى لايمكن .

يقولون أيضا : كم من أرواح جاءت إلى الجنة ودخلت وضاق نفسها فرجعت أسرع من البرق إلى جهنم مع أمثالها وفرحت بلقاء الأشرار تقاتلهم ويقاتلونها كما كانوا فى الدنيا وكل منهم عذاب للآخر ، وهم فى عذاب واصب ، وليس هناك لهؤلاء قدرة على حياة غير هذه ، قالوا وهذه النفوس لاتقدر أن تتحول عن أخلاقها بعد الموت ، فأما حياتنا الدنيا فهى الفرصة الوحيدة لتهذيب الأخلاق وتقوية المدارك الروحية والعلم بالله وبعوالمه ، فقال صاحبى هل رأيت أحدا فى الاسلام قال ذلك ؟ قلت الفارابى فى كتابه [آراء أهل المدينة الفاضلة] قال إن كلا من أهل المدينة الفاضلة يعيش فى وظيفته الخاصة به فرحا بها وبعد الموت يكونون متحابين على نظام جميل ، أما الأشرار فهم جميعهم فى عذاب واصب يكفر بعضهم ببعض ويلعن بعضهم بعضا ، ويقرب منه الامام الغزالى فى الإحياء فلقد ذكر أن العبادة والأعمال الصالحة إذا كانت لأجل الثواب فى الآخرة لاغير وليست معها معارف قلبية وحب لله تعالى فإن صاحبها بعد الموت يدخل الجنة الحسية ذات الأكل والشرب ونحوهما . أما أعلى الجنة ومسكنها النفوس العالية التى تكون قريبة من ربها فتلك خاص بنفوس عارفة أمر ربها مستغرقة فى جماله وكماله فاقرأ ماتقدم عنه فى أوائل سورة (البقرة) عند ذكر

الجنة والنار وأن العارفين هم الذين يفرحون هناك بالعجائب الإلهية ، وأما سواهم من العامة وعلماء الدين الذين هم أقرب إلى العامة فهم إذا صلحوا يكونون فى تلك الدرجة المذكورة ، فقال صاحبى ماملخص هذا المقال ، فقلت ملخصه أن نظام الله فى الدنيا وفى الآخرة نظام واحد وعدله عدل منظم لاتفاوت فيه فأهل النار لايقدرون أن يعيشوا فى الجنة كما أن الحيات لاتعيش مع الناس فى الدنيا ، إذن العدل ظاهر واضح على مقدار عقولنا نحن فى الأرض الآن ، فالعدل فى الجمهورية اقتضى وضع الزراع والصناع تحت أمر الجند وحراس المدينة ووضع الجند تحت أمر الحراس وبغير ذلك لايكون عدل ، وهكذا الطير والحيات والسمك فى هذه الطبيعة وضع كل منها فى موضعه وهكذا أهل الجنة والنار نفوس تربت فى الأرض على حب نفسها وحظوظها لاتقدر أن تعيش فى الجنة وإذا فقدت صفاتها صارت كالميتة ، ونفوس عاشت محبة لله والناس فهذه تكون مشاهدة لربها تعيش مع ملائكته فهذه لاتقدر أن تعيش فى النار وإنما تعيش بجوار ربها .

هذا قصارى الأمر وحماداه ، فرجع أمر الدنيا والآخرة إلى العدل ووضع كل شىء فى موضعه ، إذن قوله تعالى « إن الله يأمر بالعدل الخ » موافق لما تقدم فى هذا المقام من ذكر النحل وذوات اللبن والطير فقد ذكرها أوّلا لنقرأها فنعرف عدله فى وضعها ونقيس عليه العدل فى مدننا كما ذكره (أفلاطون) وهكذا عدله فى جنته وناره فرجع الأمر إلى الإمكان وعدم الامكان وقدرة الله لاتتعلق لها إلا بالممكن ، فالله لايخلق المستحيل وعلماء الأرواح يقولون إن رجوع الروح الشريرة عن أخلاقها مستحيل بعد الموت كما يستحيل أن تتغير أخلاق الحيات والعقارب والحيوانات الدنية ولا تغير لها إلا بإعدامها من الوجود ، هذا مافتح الله به فى مسألة العدل فى قوله تعالى « إن الله يأمر بالعدل الخ » والحمد لله رب العالمين .

النظرة الثالثة

وهى الكلام على تلخيص المقالة الأولى والثانية من كتاب السياسة المدنية أوضح مما تقدّم

إنه افتتح المحاورة بكلام جرى بين (سقراط) و (سيفالوس) فى الشيخوخة وحذر الموت فأدّاهم سياق المحادثة إلى ذكر العدالة وماهى فقال بعض الحاضرين إنها الصدق فى القول وأن ترد لكل أحد ماهو له فعارضه (سقراط) بأنه لايسوغ أن ترد السلاح لمالكه إذا جنّ الليل ولا أن تصدق مع من أشرف على الموت بأن تقول له ماهو عليه من خطر الهلاك ، ثم قال بعض الحاضرين إن العدل إنما هو مصلحة القوىّ القادر فمن كان أكثر قدرة كان أكثر حقا وتمثل لذلك بما يقع فى المدينة فإن الأحكام فيها إنما هى عبارة عن رأى الأكثر أو من بيده زمام الأمور فما يفعله فهو عن عدل ويؤيده رأى الجمهور فى ذلك ، فقد نشاهد القوى الجائر سعيدا مغبوطا والعدل الضعيف شقيا محتقرا . وبالجملة فلاسعادة ولاعدل إلا فى القدرة والقوة ولا اعتبار فيه بالحقوق فعارضه (سقراط) بأن القصد لمن له الرياسة فى المدينة إنما هو مصلحة الرعية كما أن قصد الراعى إنما هو مصلحة القطيع الموكول لحراسته وقصد الطبيب مصلحة المريض وقصد الملاح مصلحة السفينة وعلى ذلك فمن له ولاية على غيره لايقصد مصلحته الخصوصية من حيث هو مولى على غيره بل منفعة من تولى عليه وذلك عبارة عن مصلحة الضعيف المفتقر إلى الولاية لا لمصلحة من تولى عليه فإن تعدى وجار لم يكن بوال حقا كما لايكون الطبيب طبيبا ولا الراعى راعيا إذا كان له مقاصد غير مصلحة المريض والقطيع فلا يطلق عليه حينئذ اسم الطبيب والراعى، وعلى فرض إمكانه فإن مثل ذلك الوالى لاينال غرضه من السعادة والراحة إذ يكون حاله أسخف بكثير ممن لازم الحق وأوفى بما يجب عليه، وبيانه أنه لايمكن لشركة ولالاجتماع إنسانى كائنا ما كان أن يستقيم ويدوم إلا بإقامة العدل فاللصوص وقطاع الطريق إذا اشتركوا جعلوا فيما بينهم نوعا ما من العدل وإلا فلا تدوم شركتهم ولا ساعة واحدة ، وإذا اسلمنا قول القائل « إن الجوهر هو عين

الحق

الحق والسعادة] وأخذ جميع الناس بهذا القول فاعتادوا التعدّى بعضهم على بعض ، فقد يصير الاجتماع الإنسانى إلى الفتنة الدائمة والحرب المستمر ، فأى سعادة فى مثل هذه الهيئة ؟ وإذا فرضنا أن يتغلب الواحد على الباقين ويتسلط عليهم بقوته فإنه لاينال من السعادة ما كان يقصده ، إذ لكل حيوان ولكل شىء فى الوجود غاية يقصدها وهو قد تهيأ لها بطبيعته ، فالعين معدّة للإبصار والسكين للقطع والفرس للسبق ، والغاية التى أعدّ له الشىء هى قدرته التى فيها خيره ، فنفس الانسانية قد أعدت للفكر والتدبير والمعرفة فهذه قدرتها التى فيها خيرها وسعادتها بخلاف ما إذا جارت وفسدت فإنها قد تخرج عن وظيفتها واستعدادها الذاتى فلا تعيش سعيدة ، وبهذا ختم سقراط قوله فى المقالة الأولى فأنشأ اثنان من الحاضرين فى معارضة (سقراط) فى صدر المقالة الثانية فقالا : إن العدل ليس بشىء طبيعى للانسان وإنما هو أمر وضعى قد تواطأ عليه الناس طلبا للراحة من شر بعضهم وخوفا من العقوبة ، ومصداقه أنه لوتيقن أحدهم الأمن من العقوبة كما لو كان بيده خاتم يغيب به عن رؤية الحاضرين لارتكب كل فاحشة بلا توقف ، ثم ما نشاهده فى الحالة الراهنة ، ألم تر الغنى الظالم محمودا متسلطا على غيره قادرا على الخير والشر ، ألم تر الرجل العدل القويم فى سيرته متروكا فى زاوية الخمول مضغوطا إذا كان فقيرا وضعيفا ، فهذا يدل على مايعتقده الجمهور فى خصوص العدل وخلافه ، وإذا رأى الصبىّ الحديث السن مثل ذلك كيف يختار العدل وما يتبعه من الذلة والمتاعب والعجز عن الخير وهو يشاهد ميل الناس إلى خلافه ، فإذا كان ذكيا فطنا اكتفى من الاستقامة بظاهرها وسعى أن يرى رجلا خيرا واتبع هواه فى الباقى فكان عاقلا سعيدا ، ومن سواه فهو إما عاجز وإما مجنون ، فأجاب (سقراط) إن مثل هذه الإشكالات لاتنحلّ إلا بعد استقصاء البحث عن العدل وجوهره بدون التفات لما تراه العامة فى خصوصه أو إلى كونه نافعا أو مضرا فإنا إذا ظفرنا بتعيين ماهية العدل ونسبته إلى نفس الانسان فقد يمكن معرفة ماينفع وما يضر حقيقة ، وهل ينبغى اختيار الجور عليه ، وعلى ذلك يكون مدار البحث على أمرين : أولهما : ماهية العدل . ثانيهما : هل سعادة الانسان موقوفة على العدل أم على غيره ؟ ، قال : لما كان الانسان والمدينة طبيعة واحدة فقد يسهل علينا معرفة العدل الانسانى إذا تأملناه فى المدينة كما يسهل قراءة الكتاب إذا كان مكتوبا بحروف كبيرة غليظة ، فإذا وجدنا ماهو العدل فى المدينة لايصعب معرفة ماهو فى الأفراد فابتدأ قوله فى البحث عن منشأ الاجتماع الانسانى وأن الأصل فيه إنما هو افتقار البشر بعضهم إلى بعض لسدّ حاجة كل منهم من مأكل وملبس ومسكن فأدّاهم ذلك إلى الاجتماع للتعاون والتمانع وتوزعت بينهم الأشغال فمنه نشأ اختلاف الصنائع ثم المقايضة والمعاوضة والتجارة وصورة العدل فى مثل هذه الدرجة من الاجتماع إنما هى حفظ المساواة والمعادلة فيما يتقارضونه من نتائج أشغالهم ، ثم نما التمدن وكثرت أسباب الثروة فدعت الحاجة إلى إقامة حكام محافظة على العدل وإقامة حراس لدفع العدوان والظلم وحراسة المدينة عن أعدائها ، فهذه أول المسائل التى تعرض لنا فى تأسيس المدينة وهى مسألة ترشيح أهل هذين الصنفين أى الحكام والحراس انتهى .

هذا ما أردت نقله من كلام أفلاطون ، والمطلع على قوله يرى أنهم يصلون إلى درجة القرب من الحق تعالى ، وهذا عجيب فى أمم جاءت قبل الإسلام بتسعة قرون مما يدلنا أن الله عز وجل تجلى على أمم قبلنا وأنار البصائر لكثير من الناس فهو الأول والآخر ، ولكن أفلاطون كان غرامه فى العلم بالعلوم الرياضية ومنها الفلك وبعلم الأخلاق ، أما علوم الطبيعة فلم تكن له بها عناية ، وهنا فى القرآن جاء ذكر علوم الطبيعة قبل هذه الآية والتعليم العصرى فى أوروبا يفوق ما عند اليونان ببزوغ شمس الطبيعة فى أفق المدنية الحاضرة ، فانظر وتعجب كيف سبق القرآن كل أمة ، وكيف شرح علم الطبيعة ثم أتبعه بالعدل والإحسان ، فما أعجب العلم والدين ، وياليت شعرى هل يعلم المسلمون بعد اليوم هذه العلوم ؟ وهل يفتشون على علوم الأمم فيأخذون بالأحسن منها ؟

وهل يعرفون أن القرآن فى هذا الأسلوب تخطى حكماء اليونان وجاوزهم وأتى بآخر أساليب التعليم فهو يجمع بين الرياضى والطبيعى ، فأما أفلاطون فقرامه بالرياضى ، أفلا ترى هذه السورة وكيف جمع فيها الطبيعيات مع الرياضيات وذلك فى قوله تعالى « وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره » وفى قوله « وبالنجم هم يهتدون » فهاهو ذا مزج الطبيعى بالرياضى ، إن المسلمين والله لغافلون عن هذا القرآن وعن علوم العالم كاليونان وكأوروبا وأمريكا ، إن هذه التعاليم عندهم ونحن ساهون لاهون ، فانظر كيف كانت هذه الكلمة قد ألفت عليها كتب ونشرت لها علوم ، نعم إن الأمة الإسلامية عندها علم الفقه وقد تبحروا فيه ولكن نريد أن تزيد الباحث وأن يكون القرآن مرجع هذه الحكم .

ومما بحثه أفلاطون فى كتابه أنه يجب على القائمين بالعدل فى الدولة أن يمنعوا الناس من كثرة الضحك لأنه يضعف قلوبهم ، وأيضا لايخوفونهم من الموت لئلا يجبنوا عن لقاء العدو بل يبشرون مايزيل ذلك الخوف وجاء فى الحديث الشريف النهى عن كثرة الضحك ، وجاء فى القرآن بشارات للمجاهدين والذين قتلوا فى سبيل الله . انتهى الكلام على العدل مختصرا .

الإحسان

أما الإحسان فهو على مناح شتى كالإحسان فى الصناعات والأعمال ونظيره قوله تعالى « الذى أحسن كل شىء خلقه » والإحسان فى الطاعات وهذا على قسمين : الأول : الزيادة فيها بالنوافل ويدخل فيه الإحسان للناس . والثانى : إتمامها كحضور القلب فى الصلاة والإخلاص فى الصدقات ، وأما إيتاء ذى القربى فهو معلوم مما تقدم .

(١) إذا علمت هذا وسمعت قول ابن عباس «العدل شهادة أن لا إله إلا الله ، والاحسان أداء الفرائض» فاعلم أن ذلك داخل فيما ذكرناه لأن هذه شهادة حق وهى من العدل ، وأداء الفرائض عمل والعمل أحقّ بالاحسان .

(٢) وإذا سمعته يقول « العدل خلع الأنداد، والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه » فالأول ظاهر والثانى كذلك لأن العابد إذا غفل فى الصلاة عن المعبود وغاب عنه قلبه فذلك لم يحسن ولم يتقن عمله فليس عمله حسنا والله تعالى يقول « الذى أحسن كل شىء خلقه » فالاحسان فى الصنعة أن تكون نضرة بهجة متقنة فهكذا فى الصلاة .

ولعمرى أىّ حسن فى صلاة غفل صاحبها عن مخاطبة محبوبه الجيل وهذه المخاطبة جميلة ومحبوبة ولها لذة وبهجة ولكن لايعقل ذلك الناس بل لايصدقونه إلا إذا مرنوا زمنا طويلا وتكلفوا ذلك التوجه فى الفاتحة وفى أركان الصلاة وفى الدعوات بحيث يخاطبون ربهم كأنه أمامهم ، وهناك يعرفون كيف أحسنوا أعمالهم ويفهمون قوله صلى الله عليه وسلم « أن تعبد الله كأنك تراه » وهذا خير إحسان .

أقسام الإحسان

واعلم أن أعمال الدين بضع وستون شعبة أعلاها لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى من الطريق ، وهذه البضع والستون قد ذكرها كلها صاحب النقاية وشرحها شرحا وافيا ، وليس المقام مقام نقل كتب ولكن لابد من فهم الغرض منها كما فعلنا فى جمهورية (أفلاطون) لئلا يشذ عنك شىء ينبغى الاطلاع عليه ولتقف على عجائب العلم فى هذا القرآن .

فانظر كيف يقول الحديث : إن الاسلام بضع وستون شعبة ، وكيف جعل لها أعلى وأسفل وجعل الأسفل إماطة الأذى من الطريق والأعلى لا إله إلا الله ، أفلست ترى أن جميع أعمال الحياة دخلت فى هذا القول

وأن النبي صلى الله عليه وسلم إذا قال « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه » فانه ذكر لنا شعبة واحدة من شعب الدين ليجلي لنا الاحسان ، والإحسان يشمل الشعب كلها من إماطة الأذى من الطريق إلى عبادة الله كأننا نراه . إن عبادة الله كأننا نراه يستحيل أن تتم ولاتنتظم إلا ببقية شعب الايمان فلا بد من نظام الأمة كله فالطرق منظمة والجنود مكملة والحكومة قائمة والثغور عامرة وكل شيء تام ، وما مثل الدين وشعبه إلا كمثل الجسم الانسانى لايتم له تفكير إلا بعد أن تكون له معدة وأمعاء وحواس ويدان ورجلان ، فهذه كلها آلات الحياة ولا فكر للانسان إلا إذا وجدت هذه كلها فالدين كذلك ، فالعبادة وإحسانها أشبه بعقل الانسان وبقية الشعب كبقية الجسم ؛ وكما لا يتم التعقل إلا بتمام الجسم ولوازمه هكذا لاتستقيم لنا عبادة وحضور قلب مع ربنا إلا بإحساننا كل شيء فى أمتنا وإلا فبالله كيف يستقر لنا قرار فى مساجدنا وفى مصلانا والفرنجة كالانجليز يريدون تحويل ماء النيل عن بلادنا فإذا حولت فأين المصلون وأين العبادات فضلا عن اتجاه القلوب للمعبود ، هناك لاعبادة ولا صلاة ولا دين ولا متدين بل تزهق النفوس ويهلك الحرث والنسل ، فليحسن المسلمون جميع أعمالهم وصناعاتهم وإلا فليرحلوا من هذا العالم وليخلق الله أمما أخرى يقرءون هذا القرآن ويفهمون كما نكتب الآن وفوق ما نكتب من علوم مخزونة عند الله تعالى .

(٣) وإذا سمعت ابن عباس أيضا يقول « والاحسان أن تحب للناس ماتحب لنفسك » فهو ظاهر لأن هذا من شعب الإيمان وكلها يجب فيها الاحسان .

إن الشارع الذى أمر بنظافة أهم الأعضاء فى الوضوء عم جميعها فى الغسل لأنه يريد نظافة عامة هكذا فى الأعمال ، فإذا قال أحسن فى عبادة ربك وتوجهك إليه فإنه يقول أحسن فى معاملتك مع الناس بل أحسن فى جميع أمور الحياة ، فإذا لم يحسن المسلمون جميع الصناعات كما أحسنه الفرنجة أو أكثر فقد خالفوا ديننا ولا فرق فى الاحسان بين الاحسان للناس ، والاحسان فى مخاطبة الله وإحسان الأعمال الصناعية والتجارية والكيمائية وغيرها غاية الأمر أن العلم أرقى ومخاطبة الله والتوجه إليه والقرب منه هو المقصود الأعظم . وقد قلنا إن الاحسان فيه يستحيل إلا بدولة تحافظ على الناس حتى يقيموها ونرى أصحاب الديانات القديمة المنسوخة آمنين مطمئنين يؤدون عباداتهم فى مصر ونحن فى شغل شاغل لأننا لم نحسن سائر الأعمال حتى نحسن العبادات .

(٤) وإذا سمعت ابن عباس رضى الله عنهما يقول «الاحسان أن تحب أن يزداد المؤمن إيمانا وأن تحب أن يكون الكافر مؤمنا ليكون أخاك » تكميلا لكلامه السابق ، فهذا داخل فيما ذكرناه فيحب الإنسان الناس قاطبة .

(٥) وإذا سمعته فى رواية أخرى يقول « العدل التوحيد والاحسان الاخلاص » فهو فيما تقدم .

(٦) وإذا سمعت بعضهم يقول « العدل المكافأة خيرا وشرا ، والاحسان أن تقابل الخير بأكثر منه والشر بأن تعفو عنه » .

(٧) أو سمعت من يقول « العدل الإنصاف باعترافك بالنعمة للمنعم والإحسان أن تحسن لمن أساء إليك » .

(٨) واذا سمعت قول ابن عيينة « العدل استواء السر والعلانية ، والاحسان أن تكون سريرته أحسن من علانيته ، والفحشاء والمنكر والبغى أن تكون علانيتك أحسن من سريرتك » .

وهكذا من الأقوال المختلفة ، فاعلم أن هذا وعشرات أمثاله داخل فيما قررناه ، فكل عالم فكر

فى مسألة جزئية والقرآن أعمّ فأما النبوة لجلالة قدرها فورد فى الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم ذكر عبادته كأنا نراه فذكر الأعلى وذكر بعض الشعب كأن تحبّ لأخيك ما تحب لنفسك .

وبالاجمال الاحسان فى كل شيء العبادة والصناعة والتجارة والزراعة وكل هذا دين الاسلام ، وهذه كلها فروض كفايات فلابد من إتقانها وإلا فلا حياة ، فهذا هو الدين وهذا هو العقل ، فليحسن المسلمون جميع الصناعات وإلا فليرحلوا من هذه الأرض الجميلة التى خلقها الله لأهل الجمال ، فأما الغافلون فخدم لعباده أهل الكمال والجمال والعلم والأخلاق ، فبذلك فليفرح المسلمون بما آتاهم الله فى كتابه من العلوم النافعة « ولكن أكثر الناس لايعلمون » .

مزايا هذه الآية

قال ابن مسعود : إن أجمع آية فى القرآن لخير وشر هذه الآية ، وقال أهل المعانى : لما قال الله تعالى فى الآية الأولى « ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء » بين فى هذه الآية المأمور به والمنهى عنه على سبيل الاجمال ، فما من شيء يحتاج إليه الناس فى أمر دينهم مما يجب أن يترك أو يؤتى إلا وقد اشتملت عليه هذه الآية .

وروى عكرمة أن النبى صلى الله عليه وسلم قرأ على الوليد بن المغيرة « إن الله يأمر بالعدل والاحسان » الى آخر الآية فقال يا ابن أخى أعد علىّ فأعادها عليه فقال له الوليد : والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وان أعلاه لمثمر وان أسفله لمغدق وماهو بقول البشر ، وهذه الآية كانت سبب إسلام عثمان بن مظعون فإنه قال ما كنت أسلمت إلا حياء منه عليه الصلاة والسلام لكثرة ما كان يعرض علىّ الاسلام ولم يستقر الايمان فى قلبى حتى نزلت هذه الآية وأنا عنده فاستقر الإيمان فى قلبى . وقال أبو جهل إن إلهه ليأمر بمكارم الأخلاق وهى أجمع آية فى القرآن للخير والشر ، ولهذا يقرؤها كل خطيب على المنبر فى آخر كل خطبة لأنها جامعة ، هذا ما جاء فى كتب التفسير اهـ .

ثم أتبع هذه الآية بفروع تتفرّع عليها وهى :

[أولا] نقض العهد وهو ضد العدل وقرين المنكر والبغى .

[وثانيا] العمل الصالح وهو من الاحسان ونتيجته الحياة الطيبة فى الدنيا والثواب فى الآخرة والعمل الصالح هو الذى تم فيه الاحسان وهو يعم جميع ماقررناه فى الاحسان وهو جميع أعمال الدولة وأعمال الانسان نظافة وأدبا وأعمالا عامة وخاصة .

[وثالثا] أن العمل الصالح كما ينفع فى الأمور المعيشية ينفع فى دفع الوساوس الشيطانية ، فإن الشيطان لايجد وسيلة يدخل بها على الذى رتب أوقاته ونظمها وأحسن أعماله لأن الحسن والجمال فى الأعمال يعوّد النفس الجميل فلا تقبل القبيح ، إن الشيطان لاسلطان له إلا على الجهلاء والفسقة والبطالين لأنهم معه لأن أفئدتهم هواء ومتى كان الهواء فى الإناء دلّ على أنه ليس فيه ماء ، وإذا أدخلنا الماء خرج الهواء ، هكذا العقول متى أدخلنا فيها العلم والارادة وكانت الأعمال وصحت العزائم لم يبق مجال لإبليس ولا الهوى فالعمل هو السعادة والنوم والكسل بلادة .

[ورابعا] قولهم للنبى صلى الله عليه وسلم « إنما أنت مفتر » لجهلهم بحكمة التشريع فى الآيات الناسخة والمنسوخة وهذا من نوع المنكر والبغى والفحشاء أيضا لأنهم نطقوا بالقبيح وهو فحشاء وظلموا بإنكار الحق وأضلوا غيرهم فقد جمع هذه المنكرات .

[وخامسا] أن هذا القرآن نزله روح القدس وهذا من نوع الاحسان .

[وسادسا]

[وسادسا] أن قوما لايؤمنون بآيات الله اتهموا النبى صلى الله عليه وسلم الذى نزل عليه القرآن بواسطة روح القدس أنه ماعلمه روح القدس وإنما علمه أعجميان هما سلمان الفارسى وعمار، وهذا غاية البغى .

[وسابعا] بيان أن من أكره على الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان لم يخرج عن العدل ولم يدخل فى باب المنكر والبغى كأنه لما بين الأقسام المتقدمة ذكر ما اشتبه أمره ومن أى الأقسام هو فبينه هنا .

[وثامنا] من شرح الصدور بالكفر وذلك من البغاة الظالمين .

[وتاسعا] مجادلة النفس أمام الخالق يوم القيامة عن نفسها ، وهذا من العدل المنصوب بين الله وخلقه .

[وعاشرا] القرية التى كانت آمنة مطمئنة ثم طغت وبغت فأهلكها الله ، فهذا من البغى .

[الحادى عشر] عدم العدل فى الدين بتحريم الحلال فى الأنعام والحرث ، وهذا افتراء وكذب وبغى .

[الثانى عشر] قصص إبراهيم الخليل عليه السلام ومزاياه الشريفة واتباع سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم له فى طريقه ، وهذا من الاحسان .

ختام السورة

ثم ختم السورة بما يجمع سائر مافيها فإن الحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة تجمع كل ماتقدم كما أوضحناه سابقا ، وأما قوله « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به » الخ فيه تطبيق على آية « إن الله يأمر بالعدل » فقوله « فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به » هو العدل ، وقوله « ولئن صبرتم لهو خير للصابرين » راجع للاحسان ، ويتبعه قوله « واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم الخ » .

ثم ختم السورة كلها بما يفيد ما تقدم جميعه وما أطلنا به من نقل كلام العلماء والحكماء فقال « إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » وقد عرفت الاحسان فيما قدمناه ، فالله يكون مع المحسنين فى أقوالهم وفى أفعالهم وفى صناعاتهم ، فليتقن المسلمون صناعاتهم وليحسنوها وليزيدوا فى إكمال كل شىء فقد تقدم أن الاحسان يشمل جميع وجوه الحياة كما أوضحناه .

تنبيـــه

وقد فاتنى أن أنبه على العهد وإخلافه وقد أوضحناه فى سورة (التوبة) ولقد شدد الله فى أمر العهد ونام المسلمون عن العهود ، وهذا هو الذى أوقعهم فى نحس الطالع وسوء النكال ، فترى بعضهم يكذبون فى معاملاتهم ولا يصدقون فى بيعهم وشرائهم ، والأمم حولنا قد أدركت ذلك السر فعلموا أبناءهم صدق الوعد وعدم إخلاف العهود ، فترى أمم أوروبا كاذبة فى عهودها مع المسلمين لضعفهم صادقة مع دول أوروبا لقوتها ومنفعتها ، وترى تجارهم قد ضللوا الشرقيين حتى إنك ترى التاجر الأوروبى يشترى البضاعة من الصانع المصرى ويبيعها ذلك الأوروبى على المصريين لأنه عندهم أصدق من المصرى وإن كان خادعا لهم وقد كسب فى البضاعة مثلى ثمنها كما أخبرنى بذلك صانع أحذية مصرى ، وذلك لأن الفرنجى يجعل الثمن واحدا وقد علاه كثيرا ، فأما المسلم فإنه يحب أن يغالب فى المارسة ويكثر من المشاكسة والمساومة ، فالبيع إنما هو مغالبة وذلك يورث عدم الثقة وأيضا يخلف الوعد ولا يصدق فى معاملته ، وإخلاف الوعد اليوم هو الداء الوحيد فى هذه الأمم الشرقية ، فإذا أخلفوا وعودهم لم يأمن بعضهم بعضا فى المعاملات لأنهم لايثقون بموعد فيهرعون إلى الفرنج والفرنج هم الآكلون لأهل الشرق ، هذه هى الأحوال العامة ، ولكن الحمد لله فى هذه الأيام قد ظهر فى مصر وفى غيرها تجار عظام يفوقون الفرنجة فى الوعد والنظافة والترتيب وإتقان العمل وسيكون لهذه الأمة شأن إن شاء الله تعالى ، وليس هـذا الموضوع وما قبله بخارج عن قوله تعالى فى آخر السورة « إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » فالتقوى ترجع إلى الاحتراس من الفساد فى العقائد والأقوال

والأعمال والاحسان راجع إلى الأعمال الجميلة ؛ فالتقوى تخلية والاحسان تحلية ، فليس يكفى فى هذه الحياة الدنيا أن يكون المرء تاركا الشر فإن الحجر كذلك ، ولكن الرجل إنما هو النافع لغيره بعد نفع نفسه وإحسان أخلاقها ، فالتقوى فى هذه الآيات شملت كل ما جاء فى السورة من أعمال السوء والاحتراس منها ومن جميع المنهيات والاحسان شمل نظام كل شيء من عبادة ومعاملة مع الناس وعلوم وأخلاق ، فالله مع من أحسنوا علومهم الرياضية وعلومهم الطبيعية وصناعاتهم المدنية وعباداتهم الإلهية وصلواتهم الدينية وأحسنوا فى طهاراتهم ونظافة ثيابهم ومعاشرة أهلهم، فكيف لايكون الله معهم وهو يتولى الصالحين الذين صلحت نفوسهم وصلحت أعمالهم فكانوا للناس نورا به يهتدون وغيثا به يستبشرون ، وصلى الله على سيدنا محمد النبى الأمى وعلى آله وصحبه وسلم .

مذكرة عامة لسورة النحل وإيضاح لما سبق فى السورة

لقد سميت هذه السورة باسم النحل كما سميت أخرى بالنمل وأخرى بالعنكبوت وأخرى بالبقرة وأخرى بالأنعام وأخرى بالفيل وأخرى ذكر فيها العاديات وهى الخيل .

فياليت شعرى كيف نام المسلمون قرونا وقرونا عن درس هذه المخلوقات درساً دينيا ، وكيف نرى الفرنجة يعلمونها لأطفالهم فى مدارسهم وبهذه الملاحظات ارتقت عقولهم .

اللهم إنك أنزلت القرآن وأظهرت هذه الحكم للمسلمين فعرفوها فى القرون الأولى وأخذ الملوك فى أوائل الدولة العباسية يهرعون إلى ترجمة الحكمة عن اليونانية كالمنصور والمأمون ثم فى أواخر القرن الرابع كما هو واضح فى سورة الأنعام سابقا اعترى هذه الأمة مرض الجشع والشهوات والكسل واكتفوا من العلوم بالشعر والغزل إلا قليلا فأزحت العلم من الشرق إلى الغرب لما حقر أهل بغداد وأهل قرطبة أى الشرقيون والغربيون من المسلمين العلم والحكمة وحرق بعضهم كتب الغزالى والآخرون حقروا علم ابن رشد ، هنالك أخذت علومك منهم وأعطيتها للفرنجة فنبغوا فيها وعرفوا سر النحل والنمل والعنكبوت وغيرها من الحيوانات التى سميت بها السور إيقاظا للناس ، ولما عرفوها وعرفوا سائر العلوم ارتقت عقولهم فصاروا أعلم منا ونحن نائمون ثم إنك سلطتهم علينا كأنك تقول هاهم أولاء تلاميذ آبائكم صاروا أسبق منكم للعلم والحكمة ، وارتقاؤهم إنما كان بفضل القرآن ، وليس معنى هذا أنهم قرءوا الحيوانات لأجل القرآن بل إن القرآن كان سببا فى إيقاظ العرب وإيقاظ العرب أيقظ أوروبا تبعا ، ولما استيقظت أوروبا بعقولها لابدينها أرسلتها إليكم لتذلكم فتستيقظون لهذه الدنيا وتعرفون مقصود كلامى ، ولم سميت سور كتابكم بأسماء الحيوانات وأن هذه عناية منى بذلك ، وكيف غفلتم عن حكمى فى التسمية ، أنا لم أسم سورة باسم الصلاة ولا الزكاة ولا الوضوء ولا البيع ولا الميراث ولا القضاء بل كان جل عنايتى بالتسمية راجعة إلى الحيوان وإلى عجائب خلق كل ذلك لأريكم أنى لطيف بالعباد لا أفرق فى العناية بين الفيل والبقة فى نظام أعضائها ولتعرفوا حكمى فتحبونى وتحبوا لقائى وتنظموا مدنكم وترقوا شعوبكم ، فلما طغيتم وبغيتم أمتكم قرونا وقرونا ، وها أناذا الآن أسلط عليكم عبادى لترجعوا إلى القرآن والدين فتدرسوا هذه الدنيا وعلومها دراسة أعلى .

يقول مؤلف هذا التفسير : إن كل من اطلع على هذا القول مسئول عن أمته وعن دينه أمام الله فلينشر كل من أهل العلم والجاه هذه الفكرة وليعلم أن الطفل فى بلاد أوروبا يعرف من هذا الجمال والحكم مايجهله الكبار فى بلاد الاسلام ويعرف ذلك من درس كتبهم واطلع على علومهم ، فليقرن المسلمون العلم بالعمل ولتؤلف كتب للصغار وأخرى للكبار ، فأما الصغار فليكتب شذرات من عجائب هذا العالم ، وأما الكبار فليدرس لهم علم الحيوان والنبات وغيرها ، إن كتابى لهذا أصبحت فرض عين على لإلمامى بها وقراءته

إما فرض كفاية أى لمن يقرءون العلوم للمنافع الدنيوية ، وفرض عين على كل من أمكنه الازدياد من العلم ولا مانع يمنعه ليكون زيادة فى توحيده وشكرا لربه فهذا من أعظم الشكر كما هو موضح فى كتاب الشكر من الإحياء للامام الغزالى اه .

نظرة عامة فى هذه السورة

اعلم أن هذه السورة قد ملئت بالعلوم وبالمعارف والحكمة فقد جاء بها خلق الأنعام والبهائم والانسان والزروع والبحار وما فيها من الحلى الجميلة وكذا الحشرات والطير تذكيرا للسلمين وتعليما للجاهلين وذكر الرأفة والرحمة عند ذكر الأنعام اللاتى فيها الدفء والمنافع والأكل وأتم تعداد النعم بذكر دروع الحرب وأعقبها بأنه يتم النعمة علينا ، فهنا أمران : رأفة ورحمة فى أول السورة وتذكير بالنعم قبيل آخرها .

هاهوذا سبحانه لم يذكر إتمام النعمة علينا إلا عقب ذكر الدروع فى الحرب ، وهاهوذا يقول فى أول السورة « إن ربكم لرءوف رحيم » مؤكدا بإن واللام . ظهرت رأفة الله ورحمته فى خلق الأنعام إذ نأكل ونشرب ألبانها ونتجمل بها وهكذا .

إن هذه الرحمة واضحة للجاهل والعالم ولكن صناعة الحرب والوقاية منها أمرها مزدوج يعسر فهم الرحمة فيه فلذلك عبر بالنعمة والنعمة قد تكون بمكروه وقد تكون بمحبوب ، فالطبيب نعمة على المريض وإن كان الدواء مرا ، والمعلم على المتعلم نعمة وإن منعه الراحة .

إذن النعم التى فى هذه الدنيا إما ظاهرة الرحمة فيها، وإما أن تكون خفية، فما ظهرت الرحمة فيها يعرفها الناس ، وما لم تظهر فيها الرأفة والرحمة لاتعرف إلا بالبحث والتنقيب فالنعمة تكون بما تألفه النفس وما لاتألفه، والرحمة أكثر ظهورها فيما تألفه النفس، وهذا نص ماجاء فى الفاتحة ، فالله ربى العالمين بأمرين : الرحمة والقهر ، وللأول « الرحمن الرحيم » وللثانى « مالك يوم الدين » هكذا الوالدان الأم للرحمة والرأفة ، والأب للتربية العملية فيوجهه للمطالب النافعة له مراعيا للمصلحة لا الرأفة به ، الله والعوالم والأب والأم .

وكما أن الأم للشفقة المتناهية التى ترجع أكثرها إلى مصلحته وتغذيته وتنميته والأب لإصلاح عقله وترقيته ناظرا لمستقبله ، هكذا بعد أن يستقل فى أمور الحياة يتخذ له أما أعظم من أمه ويقوم الرب بالعناية بارتقائه بدل أبيه ، وبيانه أن ما ذكر فى هذه السورة من الأنعام والبهائم واللبن والعسل والشعر والصوف كل ذلك أعد للانسان بعد فراقه لبن أمه ، فبعد أن كان يعيش على لبن أمه أصبح يعيش بأغذية الأم الكبرى وهى الأرض ففيها النبات والحيوان وأنواع الأغذية أعدها الله له فى أمه الكبرى ، فكما أمدته أمه باللبن أمدته الأرض بهذه الأغذية ، وكما أن أمه الصغرى لم تدره بلا عمل بل كانت تكلفه أمه أن يقدم فمه إلى ثديها ليرضع وهذه كلها أعمال تناسب الأطفال ، هكذا أمه الكبرى كلفته أعمالا مناسبة لقوته وللفائدة التى سيجنيها من الأغذية التى عليها ، وكما رأينا أباه وجهه إلى العمل والدرس والصناعة وأتعبه فى ذلك وشغله ، هكذا نرى الله الذى قام برعايته أكثر من أبيه قد فتح له مدارس الحوادث الجوية والحر والبرد والصواعق والحيوانات المفترسة والقاتلة كالتى تحدث الطاعون والتيفوس والكوليرا وهكذا فإن هذه سلطها الله على هذا الانسان ليجد وينصب فى اتقاء شرها ودفع أذاها فيتقى الحر والبرد بالملابس والأسود والنمور باتخاذ المساكن وحفظ البلاد والاستعداد للطوارئ ، ويتقى الحيوانات الذرية المحدثة للطاعون بأدوية قاتلة لتلك الحيوانات الداخلة فى جسمه المهلكة للجموع الكبيرة من نوع الانسان ، ويتقى الأعداء من نوع الانسان

بالحصون والدروع الخ وذلك ليدربه على التعقل والتفكر والأعمال الصناعية والدفاعية ، فلولا اتقاء الحر والبرد وحب التجمل والزينة لم تكن تلك المعامل التى تصنع فيها الأنسجة ، ولولا أنواع الأوبئة والطاعون التى تحصد الناس حصدا مانبغ النابغون فى علم الطب وظهرت فى الانسان قوى انتفعت بها الانسانية ، ولولا الحرب بين الدول والممالك ما ظهرت تلك الصناعات العظيمة فى بناء السفن فى البحار والحصون فى البلاد والأسلحة العظيمة وكل ذلك استخراج لأسرار المادة والعقول .

أفلست ترى أن ذلك من الله استخراج للقوى والقدر فى نوع الانسان وفى الأرض . وكما أن الأرض فى إعدادها الأغذية والمنافع المذكورة فى هذه السورة بإذن الله أبر بالإنسان من أمه وأرحم ، هكذا الله عز وجل فى إرسال الصواعق والحوادث الجوية على الانسان فى الأرض وإيقاد نيران الحرب بين الأمم وحصد أرواحهم بأنواع الطاعون والوباء قد علم الإنسان وفتح له أبواب التبصرة والتذكرة أكثر من تعليم أبيه له وتدريبه على زراعة أو صناعة ، فإذا كان نظر الأب قد أدرك العاقبة فحسب حساب مستقبله فحمله على العمل فالله لم يذره فى راحة وطمأنينة تورثه الخيبة والذل والهوان بل جعل له فى مقابل كل نعمة نقمة ، فإذا خلق له الابل والبقر والغنم والخيل والبغال والحمير فقد خلق له نظيرها أسودا ونمورا وذئابا ووحوشا أخرى ، وإذا خلق له النحل ليشرب عسله ويتعجب من هندسة بيوته وهكذا حشرات أخرى كثيرة لتلقح زروعه وحيوانات ذرية (الميكروبات) تنفع فى تحليل المادة فى الأرض لتستعد لتغذية الزرع بها والكرات الحمراء فى دمه لحياته وصحته هكذا خلق له فى مقابل ذلك كله الحيات والعقارب والحيوانات الذرية التى تحدث الطاعون والتيفوس والجدرى والحصباء ، وإذا جعل الله الأمم ينفع بعضهم بعضا وهكذا رجال الأمة الواحدة يتعاونون والأهل والأقارب والأرحام كل لكل مساعد ، فهاهو ذا سبحانه قابل كل نعمة من هذه بنقمة من جنسها ، فالدول تقع بينها الحروب والأصحاب معرضون للخلاف والشقاق والعداوة والقضايا ، أما الأقارب فحدث عن الحسد ولا حرج .

أقول : أنا أعتقد أيها الأخ الذكى أنك الآن أمامك صورة واضحة مشاهدة معلومة من هذا الوجود تستبين بها أن الله جعل نقمة فى مقابلة نعمة وأن هذه النقم مدارس يربى فيها الناس ، وهذه التربية التى ليست بحرف ولا صوت بل هى تربية صامتة أرقى من تربية الأب الذى لا يفكر إلا فى أن يعلمه كيف يحصل قوته ويحفظ أسرته بعد موته فثبت بهذا أن الأرض وضعها الله بدل الأم وهى أرحم بالانسان من أمه وأشار لذلك بقوله فى أول السورة « إن ربكم لرءوف رحيم » وأن الله جل خلق من أصناف المؤذيات المهلكات فى مقابلة النعم بحيث لم يذر نعمة إلا قابلها بنقمة قد أعد له بذلك مدارس منظمات مفتوحات لا تذره ينام لحظة فإن سار فى الأرض بلا احتراس افترسته السباع ، وإن جلس فى مكان وهو ساه لدغته الحيات ، وإن نام فى فراشه أو جلس فى بيته وهو غير مستيقظ لنظافة بدنه أو ثوبه أو مكانه تلقته تلك الجموع من القمل والبراغيث والبق ، وإن نامت الأمة وادعة ساهية لاهية تألبت عليها جيرانها من الدول وأقبلت إليها يقتسمونها فيصبحون عبيدا بعد أن كانوا سادة مكرمين ، وإن تركوا علم الطب وناموا على وساد الراحة الوثير تحالفت عليهم جيوش الحيوانات الذرية ففتكوا بهم فتكا ذريعا فأفنوا أكثرهم وهم ساهون لاهون ، فهذه مدارس الله التى أزعجت الناس فارتقوا فى الطب والصناعات وفتحت بصائرهم .

أليس هذا هو معنى « الرحمن الرحيم . مالك يوم الدين » فالرحمة المذكورة فى الفاتحة والمذكورة فى أوائل سورة النحل هى التى قامت بها الأم وقامت بها الأرض مما ذكر فى هذه السورة وغيرها والشدة المأخوذة من قوله « مالك يوم الدين » ومن قوله « وسرابيل تقيكم بأسكم » فى هذه السورة نعمة ،

فالوقاية بالدروع من الحرب نعمة والسلاح والكراع نعمة ، ولا جرم أن لابس الدرع محارب فتكون القدرة على الحرب نعمة وهكذا فكل ما أحدث لنا جداً وعملا لنحترس منه ، كل ذلك نعمة كنعمة اتقاء الهلاك بالدروع .

فانظر وتعجب ، رحمة وشدة فى الفاتحة مرتبتان ذكرا كما رتبتا وضعا ، هكذا هما فى النحل رحمة ثم نعمة مقرونة بالحرب ، وهكذا أم الولد أولا ثم أبوه يتلقاه لترقية قواه ، تشابه الوضع الطبيعى والوضع العلمى الدينى رحمة فشدة فى الفاتحة ، وهكذا فى سورة النحل وفى سير حياة الانسان .

فلما سمع صاحبى ذلك قال هذا المقال حسن ولكن ليس يبليغ ، إن البلاغة أن يطابق الكلام مقتضى الحال ، وليس مقتضى الحال أن تشرح النعمة والنقمة واللين والشدة وتطابق الأمور وتترك القول سهلا ، جعلت النقم والحوادث والمصائب فى الطبيعة أشبه بشدة الأب على ابنه ، وجعلت نعم النبات والحيوان والأغذية أشبه بالرأفة المتناهية والرحمة ، هذا كل ما قلته ولكن مقتضى الحال أن تثبت ماتقول إن كثيرا من المؤلفين يحلو كلامهم وتجود عباراتهم ولكن القارئ يخرج من ذلك ولا علم عنده ، وإنما هى صور فى الخيال لاتحقيق ومن ذا الذى يقول إن الحيوانات الفاتكات بالإنسان نعمة ، وأى عاقل وأى حكيم يحكم بأن من أعطاك ثوبا ثم أردفه بضرب السياط والشتم يكون محسنا كريما ، والله يقول « قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى » فهل فى إعطائنا الإبل والبقر والغنم ، ثم فى مقابلتها تكون السباع المفترسات نعمة تامة أم ذلك صدقة تبعها أذى ! إن الله عز وجل حكيم ، والحكيم يوافق قوله فعله ، وأنا لا أفهم الموافقة هنا ، فقلت له : ليس كل مايؤذى الإنسان نقمة ، فمن الإيذاء مايكون نعمة كما تقدم ، وليس منع الأب ابنه عن الراحة ووضعه فى عمل إيذاء وهكذا تأديبه بالتوبيخ والضرب ليس إيذاء بل هو نعمة عليه ، فقال هذا كلام إقناعى فائتنى ببرهان يشرح صدرى ويقنعنى ، قلت : إذن أسمعك !

رسالة منسوبة إلى (أرسطاطاليس) للاسكندر فى السياسة

هذه الرسالة نقلت من النسخة الخطية فى الفاتيكان بإيطاليا فى زماننا هذا ونشرت فى بعض المجلات العلمية فى (برلين) وفى مجلة الشرق ، ويرجح العلماء أنها مترجمة بقلم حنين بن إسحاق ، فلأذكر نبذا منها بالحرف لمناسبة المقام :

(١) قال : وقد انتهى إلينا أنك بعد الواقعة الكائنة لك ببابل وظفرك بدارا ومن لحق به وماركبت من أهوال الحروب وكابدت من شدائدها استأنفت أشغالا أخر بأمور سموت لها وتطلعت إليها فقد ينبغى لك قبل ذلك أن تفرغ نفسك للنظر فى مصلحة أمور المدن وتقويم سننها فإن هذا أمر كبير يجب عليك النظر فيه ويذهب لك الصوت والذكر الجميل فقد تعلم ما نال من ذلك (لوقرغس) بتقويمه سنن مدينته وعلى حسب سعة ملكك وعدد مدائنك سيكون فضلك على من أصلح مدينة واحدة بقاء الذكر والثناء لك لأن إقامة السنن صلاح العامة ودوام السلامة والهدوء فى الرعية .

(٢) وقد ظن كثير من الناس أنه إنما يحتاج إلى المدبر القائم بالسنة فى الحرب ، فإذا انقضت الحروب واستفاض الأمن والسكون استغنى عنه ، والذى صيرهم إلى ذلك ظنهم بأن الاستمتاع بالخيرات سهل ممكن لإفناء الناس وأن معاناة الشدائد الصعبة لايقوى عليها كل أحد ، ولست أرى هذا صوابا بل الصواب عندى خلافه وذلك أن الناس إذا مستهم الشدائد تحنكوا وتيقظوا لما فيه مصلحتهم ، فإذا أظلتهم الأهوال تحركوا فيما يدفع ذلك عنهم ، وإذا صاروا إلى الأمن مالوا إلى الشره والفساد وخلعوا عذار التحفظ ، وما أعسر أن تكون مع رخاء البال صيانة العقول بل يذهب ذلك بالعقل كثيرا ويذهله فأحوج ما يكون الناس إلى السنن إذا

صاروا إلى الخفض والدعة ، فإنه إن كانت الحروب قد تحدث فيها الأحداث فإن ذلك يحدث والناس متحفظون حذرون فى حال الخفض فتحدث أحداث كثيرة والناس قارّون مهملون لأمرهم .

عند ذلك يحتاج العامة إلى الأدب والسنة ، والسنة إنما تكون سنة إذا عمل بها ، وإنما يعمل الناس بالسنة إذا كان لهم مدبر يحملهم عليها ، وإنما يقوى على ذلك من كانت رياسته سنة إجماعية ولم تكن رياسته غلبة واغتصابا فليس الاستمتاع بالهدوء والخفض مما يحتمله كل أحد كما ظن هؤلاء ، ولو أنه كان ذلك كذلك لوجب على الآباء أن يملكوا أبناءهم أموالهم من أول نشئهم ، فكما أنه لاينبغى أن تفوّض الأموال إلى الصبيان كذلك لاينبغى أن تفوّض الأمور إلى العامة فإن أخلاق العوام شبيهة بأخلاق الصبيان وكلا الصنفين يحتاج إلى الرقباء والمدبرين .

والعبرة فى ذلك أيضا قد ترى من تصرف الأحوال وتنقل الدول فما بال الرياسات لاتثبت ولا تدوم لصنف واحد وفى مدينة واحدة كالذى رأينا من تقلها فى بلاد (آسيا) وفى بلاد (أوزوبا) وفى غيرها من المدن فقد ملك (أشهد) حينا لأهل الشام وسورية ثم خلف بعدهم أهل (ماه) ثم خلف بعدهم أهل فارس وكذلك تجده فى سائر الأمم .

فالعلة فى هذا كله واحدة هى التى ذكرنا من أن التقلب فى الخيرات أصعب من مقاساة الشرور ، وكذلك تجد الذين نالوا الرياسة بنصب ومشقة ثم زيدوا فيها شيئا بعد شىء قد حنكتهم وثقفتهم التجارب أكثر ذلك ماتطاول مدتهم ويئول إلى السعادة وحسن العاقبة أمرهم ، وتجد الذين نشئوا فى الخفض وواقتهم الأمور عفوا فلم تصبهم شدة ولم يمسهم خوف يصيرون إلى ضد ذلك .

وكذلك ترى المدائن تعمر وتعظم بالمشقة والنصب وتصير إلى الخراب والبوار بالرفاهية والخفض داعية إلى البطالة والناس فى أكثر ذلك مائلون إلى البطالة مستلذون بها ، وذلك أنهم يكرهون الأدب والسيرة الحسنة هربا من المشقة ويؤثرون الفراغ والبطالة طلبا للتودّع ويفنون أعمارهم فى طلب اللعب إلى الشقوة ، وليس يكون مع البطالة وتعطيل الأدب بقاء ملك ولاذبّ عن حريم ولا صلاح عامة ، فالأمر على ما وصفت أولا من الحاجة إلى سنة مقومة ومدبر يقوم بها فيحمل العوام على حسن السيرة والصلاح أما أهل الدناءة ولؤم الطباع فبالخوف .

وأما الأشراف فبالحياء ، وكيف تكون سنة عامة إلا بمدبر عام ، ومن الذى يجمع الناس على الألفة والاستقامة وينصر السنة ويقيمها إلا رجل له قدر كبير وقدرة ظاهرة تكون فى مصر عظيم فيكون ظهيرا للسنة رباطا للألفة ، فبمثل هذا الرجل يقدر على استدامة حسن السيرة فى المدن ونفى الفواحش عنها ، وليس تصلح المدن إلا بصلاح الرؤساء والمدبرين .

وينبغى أن يكون هذا الرجل جزلا كاملا ليس فى الشجاعة والعدل وأصناف الفضائل فقط ، ولكن فى القوة والعدة أيضا ليقوى على ضبط العامة وحملهم على السنة فإن كثيرا من العوام لايذعن للعدل ولاينقاد للحق ، فإذا لم يكن عليهم خوف مالوا إلى البطالة وتعطيل السنة فلابد من مدبر عام يجمع أمر العائلة كهؤلاء سبا (البانه ومدائنها) فإنها اتصلت كلها مدينة واحدة ، وليس يؤتى صلاح المدائن إلا من صلاح الرؤساء والمدبرين كالذين رأينا فى مدائن (لقذيعونه) و (اثيناس) فإنه كان فى بعضها سلاطين جبارة وضعوا سننا وفى بعضها قوام عدول فبنيت لذلك هذه المدائن وبعد صوتها ، وكذلك المدائن التى دخلها الخلل والفساد والانتشار إنما أتيت من سوء أثر الرؤساء والمدبرين فصرفوا همتهم إلى اللذات الزمنية فأهملوا التدبير الباقى أثره ذكره على وجه الأرض إلى الدهر ، فقد ينبغى للمدبر أن لايتخذ الرعية مالا ولا مأكلا ولا قنية

ولكن

ولكن تتخذهم أهلا وإخوانا وأن لا ترغب فى الكرامة التى من العامة كرها ولكن فى التى يستحقها بحسن الأثر وصواب التدبير . انتهى المقصود منها .

وبقية الرسالة نصائح للملوك ومدبرى المدن مثل: إنك يا إسكندر تريد أن تغزو غزوات أخرى فأذكرك بأن للبشر آفات تعرض لهم فى أحوالهم ، ومثل أن السلطان إذا كان رئيسا لأحرار خير من أن يكون رئيسا لعبيد أذلاء ، وإذا أذلهم وكرهوه لا تدوم رياسته ، وأن الرئيس إذا أذل رعيته فقد اختار أن يرأس البهائم لأن يسود الرجال ، ومثل غاصب الملك كشكل الولى، وأما الملك فيكون فى شكل الأب ، وأن ملك فارس كان يسمى كل واحد عبدا حتى ولده وهذا يصغر قدر الرياسة ، فرياسة قليل من الأحرار خير من التسلط على كثير من العبيد ، ويقول : إن صغير الهمة من الرؤساء يكرمه العامة للخوف منه ، وعالى الهمة يكرمونه لحسن أثره ، والكرامة الأولى مضمحلة ، والثانية باقية ثم نصحه بأمرين هما : العدل ولين الجانب ، وبهما داوم الرياسة ، والفضلاء يخضعون بالحياء والمحبة ، والسفهاء بالخوف . والسلطان إذا لم يكن عدلا فهو يسمى غاصبا لا سلطانا ، ونصحه بأنه إذا حارب قوما وانتصر عليهم أن يجعل الرحمة حالة محل الغضب ، وأن لا يحقد على الأشراف ، ويقول إن ضيمهم فى مراتبهم أشد من ضيمهم فى مالهم وأبدانهم . ونصحه بأن لا يكون شديد الغضب كالسباع ولا ضعيفا كالصبيان ، وأن يكون مستشاره مائلا لفعل الخير . وحذره من استشارة المموّهين الخادعين .

وختم المقال بثلاث نصائح تكسب السلطان حسن الذكر : وهى حسن السيرة ، والبلاء فى الحروب ، وعمران المدائن اهـ .

ها أناذا أيها الذكى ذكرت لك المقصودَ من هذه الرسالة بالحرف ، ولخصت الباقى ليفرح بها الأذكياء ، وملخص المقصود منها : ما رأيت من أن البطالة والرفاهية والكسل وإهمال الأجسام والعقول مضيعة للأمم . وبالإجمال إن ما يظنه الناس من أن الراحة سعادة والنصب والتعب شقاء قضية فاسدة ، فالحكمة عكست آراء العامة وذلك بالبراهين المعلومة فى التاريخ وأن المدن التى مالت إلى الراحة يقهرها الغاصبون والرجل الذى جاءت إليه المناصب أو الأموال عفوا تذهب بنصبه وعماله عواصف الحوادث ومصائب الأيام .

فها أناذا أسمعتك حكمة الحكماء فى هذه الأرض فى سياستها ونظامها ، أفلست ترى أن هذه السياسة بنصها وفصها مأخوذة من سياسة الله فى الأرض ؟ فإذا قلت لك إن الله خلق الناموس والحشرات المؤذية والحيوانات الضرية المهلكة بالطاعون وبالتيفوس الخ ليرقى عقول الناس ويستخرج مواهبهم فهى هى بعينها سياسة الأمم فى الأرض .

الله أكبر ! طابق نظام السياسة العالية فى الأرض نظام الله فى الحيوان ، إذن تكون هذه الرسالة وأمثالها تفسيرا لقوله تعالى فى هذه السورة « وسرابيل تقيكم بأسكم كذلك يتم نعمته عليكم » أى إن سياسة أهل الأرض الصادقة أفهمتنا لماذا جىء بذكر إتمام النعمة فى الآية بعد ذكر الحرب وسرابيله مع أن السورة كلها نعم فى البر والبحر .

إذن الله تعالى يقول لنا : ها أناذا يا عبادى أغدقت عليكم النعم من الأنعام والحرث وأصناف الكرامات ولكن إذا تركتكم بلا موقظ يوقظكم صرتم أذلاء فجعلت فى مقابل كل نعمة نقمة لأتم النعمة عليكم فليس إنعامى بالحيوان والنبات كل شىء بل الاقتصار عليه إضعاف لهممكم وتنزل لها إلى مراتب الحيوانية ، هذا هو المعنى الذى يؤخذ من وضع هذه الجمل ، فإذا جعل الله الشدة بعد الرحمة فى الفاتحة ، وجعل الحرب والأنعام بها فى أواخر النعم فى سورة النحل بعد ذكر الرأفة والرحمة فى أوائلها ، وإذا جعل الأبوين تربية

الولد بعد حضانة أمه له ، فقد اتضح سرّ هذا كله هنا واتفقت ، النظم ، وهذا قوله تعالى فى سورة الأنبياء « ونبلوكم بالشر والخير فتنة » وقوله تعالى «فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمن وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهانن » .

فتعجب من هذه الآية كيف كانت ملخص الرسالة المتقدمة ، يجعل الله ترادف النعم ليس نعما ويقول : كلا ، ثم أردفها بأن الناس مقصرون فى عمل الخيرات كإكرام اليتيم والحض على طعام المسكين ، وهذا ملخص الرسالة المذكورة لأنها قسمان : قسم يذم النعم وقسم يأمر بالعمل فأول الآية للأول وآخرها للآخر .

ياسبحان الله وياسعداه ! أهذا هو القرآن الذى نقرؤه وحفظناه عن ظهر قلب ونحن أطفال لانعقل شيئاً ، هل هذا هو كتابنا المقدس ؟ وهل هذه السياسة التى حفظها التاريخ وبقيت فى خزائن الأمم العلمية توافق نص الآية .

اللهم إن هذه الآيات يقرؤها جميع أطفال المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها فصارت أشبه بالشئ المعتاد فهى كالأجسام الانسانية يعيش فيها أكثر الناس وهم لايعلمون عنها شيئاً .

هذا القرآن يستحيل أن ينتفع به المسلمون إلا إذا قرءوا جميع العلوم ، ومن أين يعرفون معنى هذه الآيات التى تعرض على العامة والأطفال لأنها فى السور الصغيرة المعروفة لكل قارئ إلا بالعلوم والمعارف وأرجو أن يتم ذلك بعد انتشار هذا التفسير .

فلما سمع صاحبى ذلك قال لقد شفيت مافى صدرى وعرفت أن النعم المذكورة فى هذه السورة إن لم تصاحبها هذه الموقظات فى عالم الطبيعة كالحرب والحيوانات المؤذية كانت الحياة وبالا ، وأدركت بعض سرّ قولنا فى الصلاة « فلك الحمد على ماقضيت » وعرفت أن القضاء بالشر نعمة مخفية وأن حمدنا عليه باللفظ لايفيد وإنما هذه الألفاظ جاءت فى الدين لتذكيرنا بأن نعرف أمثال ما تذكره أنت الآن وأن ما جاء فى الصحاح من أنه صلى الله عليه وسلم كان يأخذ البيعة على المسلمين بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة الخ ويختمه بقوله « وأن تؤمن بالقدر خيره وشره من الله » إنما جاء أمثال هذا الإيمان ليفتح لنا أبواب العلم الذى اطلعنا على بعضه الآن وهذا ذكرنى بما ذكرته أنت فيما تقدم من (لغز قابس) المذكور تارة مختصرا وتارة مطولا لأغراض مختلفة فى هذا التفسير وهكذا ما أشرت أنت إليه من كتاب [الكوخ الهندى] فهذان الكتابان نتيجتهما واحدة . إن السعادة لا وجود لها إلا بالصبر على ما يؤلم ، وهكذا كتاب [أبكتاتوس] المذكور فى آخر سورة الحجر ، ثم قال ولكن أريد أن أعرف معرفة أتمّ اقتران النقم بالنعم ، لقد اتضح فيما ذكرته وجود الحيوان الضار بإزاء النافع وهكذا ولكنى أريد ماهو فوق ذلك ، أريد أن أعرف الخير والشر يكونان متكافئين معا فى حيوان واحد ، فقلت : نعم هذا موجود موضح للعدل العام ، قال فأوضحه أيما إيضاح . قلت : اعلم أن العقارب والحيات والحيوانات الذرّية الجالبة للطاعون والتيفوس والوباء العام المسمى (كوليرا) هذه كلها جعل خيرها مكافئا لشرها وضرها مكافئا لنفعها ، وإنما جعلها الله كذلك لتكون درسا مجسما أمام الحكماء فى أمة الإسلام فى مستقبل الزمان لتدلهم على أن العدل فى نظام المدينة وفى أخلاق الإنسان وملوكه وهكذا نظام هذا العالم كله يرجع إلى هذا الدرس الصغير المجسم الذى كافأ خيره شره ونفعه ضره ، فقال هذا القول يحتاج إلى برهان . فقلت : اعلم أنى قرأت فى كتب الطب القديمة قاعدة أن لحم كل حيوان سامّ ترياق لسمه وفرعوا على هذه القاعدة أن جسم الحية ترياق لسمها باللدغ وجسم العقرب كذلك ، وبعد سنين قابلنى ضابط من الجند المصريين كان مقيما بالسودان فذكر مرة أنه لدغته عقرب بمقدار كفّ الإنسان فى ظهره قال

فضربت

فضربت يدى بقوة على موضع الألم فتهرأت العقرب من الضربة فسكن الألم حالا ، قال صاحبى هذا لايقنعنى ، فقلت هاك أصح ماجاء فى كتاب [عيون الأنباء فى طبقات الأطباء] تأليف العلامة موفق الدين أبى العباس أحمد بن قاسم بن خليفة بن يونس السعدى الخزرجى المعروف بابن أبى أصيبعة المتوفى سنة ٦٦٨ بصرخد من بلاد الشام الذى ألف كتابه المذكور سنة ٦٤٣ فى مدينة دمشق . قال إن (أندروماخس الثانى) وضع لحوم الأفاعى فى الترياق ، قال والذى نشطه لذلك وأفرد ذهنه لتأليفه ثلاثة أسباب جرت على غير قصد وهذا كلامه قال :

[التجربة الأولى] إنه كان يعمل عندى فى بعض ضياعى فى الموضع المعروف (يورنوس) حراثون يحرثون الأرض للزرع وكان بينى وبين الموضع نحو فرسخين وكنت أبكر إليهم لأنظر ماذا يعملون ، وذكر أن غلامه كان يحمل لهم زادا وشرابا فأحضر لهم يوما خمرا طيبا فى إناء طين لم يفتح ، فلما فتحوها وجدوا فيها أفعى قد تهرأت فقالوا إن ههنا رجلا مجذوما يريد أن يموت فإذا سقيناه أرحناه من الحياة ولنا ثواب عند الله فمضوا إليه فأعطوه زادا وسقوه الخمر موقنين أنه لايعيش يومه، فلما قرب الليل انتفخ جسمه انتفاخا عظيما ، فلما كانت الغداة سقط جلده الخارجى وظهر الجلد الداخلى الأحمر ولم يزل حتى صلب جلده وبرأ وعاش دهرا طويلا من غير أن يشكو علته حتى مات الموت الطبيعى ، قال فهذا دليل قاطع على أن لحوم الأفاعى تنفع من الأوصاب الشديدة والأمراض العتيقة فى الأبدان .

[وأما التجربة الثانية] فإن (أندروماخس) كان له أخ يسمى (ابوليوس) وكان مساحا من قبل الملك على الضياع فصادفه يوما فى حرارة القيظ أنه نام فنهشته أفعى فى يده وكان قد ألقى يده على الأرض من شدة تعبه فانتبه بفزع وعلم أن الآفة قد لحقته ولم يكن به على القيام طاقة ليقتل الأفعى وأخذه الكروب والغشى فكتب وصية وضمنها اسمه ونسبه وموضع منزله وصفته وعلق ذلك على الشجرة كى إذا مات واجتاز به إنسان ورأى الرقعة يأخذها ويقرؤها ويعلم أهله ثم استسلم للموت وكان قد غلبه العطش فشرب من ذلك الماء شرابا كثيرا فلم يلبث الماء فى جوفه حتى سكن ألمه وماكان يجده من ضربة الأفعى ثم برأ فبقى متعجبا ولم يعلم ماكان فى الماء فقطع عودا من الشجرة وأقبل يفتش به الماء، لأنه كره أن يفتشه بيده لئلا يكون فيه أيضا شئ يؤذيه فوجد فيه أفعيين قد اقتتلا ووقعا جميعا فى الماء، وتهرآ فأقبل أخى إلى منزلنا صحيحاً مسلماً أيام حياته وترك ذلك العمل الذى كان فيه واقتصر على ملازمتى وكان هذا دليلا على أن لحوم الأفاعى تنفع من نهش الأفاعى والحيات والسباع الضارية ، قال :

[وأما التجربة الثالثة] فانه كان للملك (بيولوس) غلام وكان شريرا غمازا نمانا فيه كل بلاء، وكان كبيرا عند الملك يحبه لذلك ، وكان قد آذى كثيرا أكثر الناس، فاجتمع الوزراء والقواد على قتله فلم يتهيأ لهم ذلك فصمموا أن يضعوا السم فى شرابه حتى إذا مات حملوه إلى الملك ليس به جراح . فلما وضعوه فى الشراب لم يلبث إلا قليلا حتى مات فتركوه فى بعض البيوت وختموا عليه ووضعوا الحراس عليه وتوجهوا للملك ، فلما ساروا بأجمعهم الى الملك رأى القيمة أفعى قد دخل الى البيت الذى فيه الغلام فلم يتهيأ لهم أن يدخلوا خلفه ويقتلوه لأن الباب كان مختوما فلم يلبثوا إلا ساعة والغلام يصيح بهم لم أغلقتم علىّ الباب أغيثونى قد لسعنى أفعى فكسروا الباب وخرج ليس به مرض ، قال وكان هذا دليلا على أن لحوم الأفاعى تنفع من شرب الأدوية القتالة المهلكة ، هذا جملة ما ذكره (أندروماخس) انتهى .

وقوله لحوم الأفاعى لعله جعل اللحوم كالسموم كلاهما ينفعان من شرب الأدوية القتالة ، أما علماء العصر الحاضر فانهم وجدوا أن الحيوانات الحربة الميتة إذا حقنوا بها من أصيبوا بسموم تلك الحيوانات فبرأتهم

وكيفية ذلك أن الأطباء فى أوروبا لاسيا فى ألمانيا فى زماننا الحاضر قد يربون الحيوانات الذرية المحدثة للطاعون وحمى التيفوس والكوليرا فتنمو وتكثر فى أقرب زمن ثم يضعونها على النار بحيث تكون درجة الحرارة (٥٦) لاأنقص ولا أكثر وتبقى تلك الحيوانات على النار (٤) ساعات ثم يرفعونها عن النار ، فإذا أصيبت أية جرض من هذه الأمراض الثلاثة أتوا بأجسام الذرات الميتة التى من نفس نوع الإصابة وحقنوا المرضى بها فيبرءون .

فإذن أصبح جرم الذرات المحدثة للطاعون وما معها مانعا من أضرار سم الأحياء منها فى جسم الإنسان ، إذن القاعدة واحدة تكافأ الخير والشر فى الحيات والعقارب والحيوانات الذرية أى (المكروبات) وهذا كله معنى العدل ، فالعدل هنا تكافؤ السم والترياق ، وفى الناس تكافؤ القوى الشهوية والغضبية والعقلية بحيث لاتطغى إحداها على الأخرى ، وفى الملوك تكافؤ اللين والشدة ، وفى المدن انتظام العمال والجند ورجال الحكومة وقيام كل بما استعد له وخضوع الأدنى للأعلى ، وكل ذلك تفسير لنعمة السرابيل فى الحرب وجعلها متمام النعم ولقوله تعالى « إن ربكم لرءوف رحيم » .

فقال صاحبى هذا حسن ولكنى أريد أن تذكر لى مسألة واحدة تختم بها النظام فى عالم المادة ، فقلت وما هى ؟ فقال إن هذه المقالة دخلت فيها علوم كثيرة ومن تلك العلوم مسألة الحرب كيف جعلت الحرب التى دخلت ضمن ذكر السرابيل فى الآية نعمة مع أنك قلت مرات كثيرة فى هذا التفسير [أيها المسلمون اقرءوا العلوم وعمموا التعليم ثم قودوا الأمم إلى السلم العام] فإذن ما قلته الآن ينافى ما قدمته فى هذا التفسير ، فقلت إن الأمر سهل يسير ، الحرب موقظة مرقية للشعوب كما أوضحناه ، ولكن إذا ارتقت أمم الأرض واتحدوا على المنافع العامة وأبطلوا الحرب فليس معنى هذا أن الأمم تصبح فارغة من الهم ، كلا فستجد لهم أعمال وأعمال تكون أكثر عملا من الحرب .

ألا ترى أن الناس كانوا يمشون على أقدامهم فى الطرقات ويمتطون الدواب ؟ فلما كثرت القطرات فى الطرق وعربات النقل ورخصت قيم النقل لم تمنع تلك الراحة الناس من الأعمال التى شغلت جميع أوقاتهم وسائر أيامهم ، فها نحن أولاء نركب القطار فى راحة ونعيم ولكن عندنا أعمال لاحد لها لم يعرفها آباؤنا .
فإذا فرضنا أن الحرب زالت فكم فى استعداد الناس من أعمال لاتدعهم يهدءون ولاهم يسكنون كالمباراة فى استخراج الخيرات من ضوء الشمس ومن الهواء ومن باطن الأرض ومن الماء ومن كل شىء ، فقال ألا حيا الله العلم والحكمة التى أنعم الله بها علينا فى تفسير هذا القرآن ، ألا بارك الله فى أقوام أنصبوا أنفسهم واستخرجوا لنا هذه الكنوز العلمية والمصابيح الفنية والنجوم اللامعة والشموس المشرقة والجواهر المكنونة والعلوم المخزونة ، فكم من أناس يعيشون ويموتون وهم يرون بأعينهم الحيات والعقارب وتم الأمراض وأنواع الطاعون بلادهم ويرون هذه الدنيا وقد ملأتها الخيرات والشرور فيكونون فيها أشبه بقطيع من الغنم يسوقه الرعاة وهم لايذكرون ، فقلت نعم إن هذا الانسان أكثره مسوق بعاداته موثق فى شهواته تمر بهم الحوادث وتنهشهم الأفاعى وهم لايعلمون عجائبها .

أولايعلمون أن الله لم يذر الانسان يأكل الطعام ويشرب الشراب من تلقاء نفسه بل سلط عليه جند الجوع والعطش وجند الشبع وكراهة الماء فلا يأكل ولا يشرب إلا إذا أحس بسياط يسوقه بها جند العطش والجوع ولا يذر الطعام والشراب إلا إذا أحس بسياط جند كراهة الطعام والشراب فكان من حق علينا الانسان أن لايدع ألما إلا عرف سره ولا مسرة إلا أدرك كنهها .

ولعمرى لم يرسل الله الحيات على الناس إلا ليتذكروا ولا الطاعون إلا ليعلموا بعض سر هذا الوجود ولكنك ترى أن نفس الأطباء الذين يعرفون ماتقدم يجهل أكثرهم نظام العدل وحكمة الوجود في تكافؤ الداء والدواء في جسم الحيات وفي الحيوانات الفرية ولا يعنيهم إلا مداواة الأجسام وعلماء المسلمين لايعلمون به فأما البهجة بالحكمة وشفاء القلوب بالعلم فأكثر الناس ومنهم الأطباء عن آياتها معرضون ولاهم يذكرون له

عموم نظام العدل فى عالم المادة وعالم الأرواح

فقال صاحبي : قد رأينا العدل والنظام فى جسم الانسان وفى قواه وفى بدنه وفى أنواع الحيوان لاسيما الحيوانات السامة والقاتلة ، فإذا كان هذا حقا فى عالم المادة أفلا تكون هكذا عالم الأرواح؟ وإذا رأينا تكافؤ الدواء والداء فى الحيوانات الفرية للطاعون كما وجدناه فى الحيات فإننا بهذا وصلنا إلى أدق وألطف مافى المادة فلم يبق بعد ذلك إلا عالم الأرواح ، فقلت له عالم الأرواح لايمكننا الحكم عليه لأنا فى عالم الأجسام وليس لنا سبيل إليه إلا من طريق الديانات قديما ومن علماء الأرواح حديثا ، فقال نعم وإذا تطابق العلماء فى إثبات مايشابه الذى رأيناه فى المادة كان ذلك صوابا لأن علماء الأرواح لاعلاقة لهم بعلماء الدين ، فإذا تلاقى الحزبان كان ذلك دليل الحق واليقين ، فقلت قد ثبت فى دين الاسلام أن لكل امرىء ملائكة يلهمونه وشياطين يضلونه ، فقال نعم هذا مشهور فى الحديث وفى القرآن ولكنى أريد أن أسمع مقالا لأكابر العلماء فى ذلك ، فقلت قد تقدم فى مواضع من هذا التفسير ولعلك ستقرأ ذلك قريبا فى قوله تعالى « ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا » فى سورة مريم . فقال أريد قبل ختام تفسير هذه السورة أن تذكر علاقتها بما قبلها وما بعدها ، فقلت أما علاقتها بما قبلها فأذكر الآن منها أمرين : الأول : منها أن سورة الحجر جاء فى آخرها الزهد فى الدنيا وأنه صلى الله عليه وسلم يجب عليه أن لايجعل الدنيا محط آماله ولا يعجب بما فيها إذ قال تعالى « ولا تمدن عينيك » الخ وأمته تبع له وهذا الإعراض يفتح للانسان باب العلم إما بالوحى للأنبياء وإما بالإلهام للحكماء والأولياء والعلماء ويرقيه يوم القيامة الصغرى وهى الموت ويوم القيامة الكبرى، لذلك ذكر فى أول سورة النحل أن القيامة اقتربت وأن الله ينزل الملائكة بالروح من أمره . الأمر الثانى أن سورة (الحجر) ختمت بقوله تعالى « واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » واليقين أخص من العلم لأنه العلم الذى لايتطرق إليه الشك .

ولا جرم أن الموت يوقن به الناس جميعا ، لذلك اعتاد المفسرون أن يفسروا به هذه الآية ، ومعلوم أن اليقين يزيد ، إذ مامن كمال إلا وعند الله أكمل منه والعلم اليقينى لانهاية له إذ العلم لانهاية له ، والدليل على ذلك أمران : الأول أنه جاء فى حديث الرجل الذى مدحه الصحابة فى إحدى الغزوات وقالوا إنه أبلى بلاء حسنا أنه صلى الله عليه وسلم قال « إنه فى النار فلازمه رجل أمدا طويلا وهو يقاتل ويعيث من الكفار عددا كبيرا حتى إذا جرح رآه قتل نفسه بسلاحه فرجع إليه صلى الله عليه وسلم وقال له يارسول الله لاتزال الله يزيدنا بك يقينا وقص ما تقدم» فمقتضى هذا أن اليقين يزيد . الأمر الثانى أن اليقين كالغنى ، فكما أن الغنى لاحد له هكذا العلم واليقين لاحد لهما ، ولا جرم أن كل غنى يطلب مطلبا أوسع من ماله فإذا ناله طلب ما وراءه وهكذا ، هكذا طالب العلم لايزال يطلب مطلبا فإذا وصله طلب ما وراءه ، وهذا ظاهر فى قوله تعالى «وفوق كل ذى علم عليم» فهذه قضية كلية لاتذر علما إلاوجدنا وراءه آخر ، وقوله تعالى أيضا « وقل رب زدنى علما » وقوله تعالى « وللآخرة خير لك من الأولى » يقول العلماء إنه يترقى فى كل لحظة عما قبلها فى الحياة وبعد الموت لأن علم الله لانهاية له ، ويقول الامام الغزالى : إن قرب التلميذ من أستاذه إنما يكون بالعلم ولكنه قد يرتقى عن أستاذه ، وقرب العبد من الله بالعلم ولكنه لن يصل لنهاية علم الله إلى الأبد

إذن يكون اليقين هنا هو العلم ، وكلما زاد الانسان عبادة ازداد يقينا فيجدد العبادة لازدياد اليقين فيكون اليقين مراحل كل مرحلة تحتاج لاجتهاد جديد . ولا جرم أن هذا يناسب قوله تعالى فى أول سورة النحل من ذكر يوم القيامة لأن ظهور الحقائق العلمية فيها أتم ، وذكر الوحى للأنبياء ، ذلك لأن الوحى إنما يكون على مقدار قبول نفس الموحى إليه ، فلن ينزل الوحى على غير من يستعد له ويقبله وإلا لكان الناس كلهم أنبياء فازدياد اليقين بالعبادة يعدّ نفوس الأنبياء لعلوم أوسع مما عرفوه ونفوس تابعيهم إلى مالم يعلموه من قبل ، وهذا معنى ما ورد « من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم » وذلك لأن العلم لا يكون إلا بالاستعداد له كما ذكرنا ، وأما مناسبتها لما بعدها فستراه فى غضون تفسير سورة الاسراء موضحا ، والحمد لله رب العالمين . انتهى تفسير سورة النحل .

تم بحمد الله وحسن توفيقه الجزء الثامن من كتاب (الجواهر) فى تفسير القرآن الكريم

ويليـــه

الجزء التاسع ، وأوله : تفسير سورة الإسراء

فهرس
الجزء الثامن من كتاب الجواهر فى تفسير القرآن الكريم

صحيفة

إذن الله حسب أوراق النبات وجعلها متناسبة مع بعضها كما ترى فى شجر الردار والزئبق والتفاح والكتان والصنوبر ونبات آخر .

١٩ بيان هذه النسبة بالحساب ورسم غصن شجرة التفاح رسمين رسما رأسيا ورسما أفقيا ، وتبيان العجائب المدهشة فى الأوراق ونظامها وكيف كانت الأوراق الخمس فى كل دائرة حول الغصن محاذية لنظيرتها فى الدائرة الأخرى بحيث تنتظم هناك خمس خطوط رأسية فى كل خط أوراقه المنظمة البديعة ، ثم إن الزوايا الخمس متساوية بحيث يكون بين كل ورقتين زاوية مقاسها ٧٢ درجة ، فهنا نظام الحساب ونظام الهندسة وهذا هو معنى الآية « وأنبتنا فيها من كل شيء موزون » .

٢٠ بيان أن أهل هذه الأرض ناقصو العلم ولو كلت نفوسهم لعلموا أن بينهم نسبة كنسبة الأوراق لبعضها وأنهم قد حسبت قوائمهم وجعلت على مقتضى احتياجهم كما حسب ورق النبات على مقتضى نظامه وأن العقول الإنسانية وقواها إلى الآن لم تدرس كما درس ورق النبات من حيث نظامه وحسابه وهذا مقصود كتابى [أين الانسان] .

٢٠ رسم صورتين : صورة زهر الصنوبر وهو مخروط ورسم الخرشوف والدورات الحلزونية فيهما خمس فى كل دائرة والأوراق ١٣ وهنا بدائع الحساب المدهشة للمفكرين وبيان ثلاث جداول لأوراق النبات الدالة على أن الانسان متى عرف أوراق نباتين اثنين أمكنه أن يذكر باقى النبات بدون مذكرات أمامه فكأن جميع النبات جسم واحد .

٢٢ هذا من معنى قوله تعالى « الله نور السموات والأرض » أوراق الأشجار أصبحت ذات نظام به يعرف مجهولها من معلومها وغائبها من حاضرها ؟ مامعنى الأعراس فى الحدائق والأشجار ، وبيان أن الناس فى مأتم والكون فى عرس وتشبيه النوع الانسانى مع ربه ومخلوقاته بقوم سجنوا فى قصر ملك وآخرين فى ضيافته ، وفى القصر قناديل مشرقة بهيئة منظمة . إيضاح معنى هذا فى الجداول الحسابية وأن الانسان متى عرف نظام الأوراق تخيل أنها قناديل معلقة فى عرس الكون وهى مضيئة على أبعاد متساوية فهى من جهة دوائر ومن جهة أخرى خطوط رأسية منظمة ومن جهة ثالثة أشكال حلزونية ، كل ذلك تراه مرسوما ، وبيان أن الناس لايعقلون من العلم إلا ظواهره . فمثل هذا النظام فى الأوراق لايهمّ عالم الزراعة إلا من جهة نفس الزراعة ، أما أنه يفكر فى إسعاد الناس بإظهار هذا الجمال فهذا لايكون . إذن أكثرهم محبوسون والمفكرون هم الذين فى ضيافة ربهم يشرح صدورهم بهذا الجمال وبيان أن السعادة العامة للانسان أن ينشر الجمال والحبّ العام فى مدارس الأرض كلها حتى يصبح الناس متناسبين تناسب أوراق النبات كله ، ودين الاسلام يساعد ذلك فى قوله تعالى « حتى تضع الحرب أوزارها » وبيان أن الشرائع إنما يكون سلطانها على المتنافرين .

٢٤ بيان أنواع النظام فى النبات فى أجزائه وتوزيعه على المناطق وعلى حاجات الحيوان ومن جهة نظام أوراقه وتوزيع الانسان على الأرض يناظر هذا التوزيع فأفراده خلقوا على هذا النظام ولكن لم يكشف الناس هذا الرأى الآن ، وبيان أن دين الاسلام قسمان : هيكل عظمى ولحم وشحم الخ ، أما الهيكل فهى الأركان الخمس المعروفة ، وأما اللحم والشحم والحواس الخ فهو المتمم للقسم الأول وهو جميع العلوم والصناعات ، فاذا لم يضم الثانى إلى الأول ذلّ المسلمون كما هو الحاصل الآن .

٢٥ ذكر المثلين المذكورين فى آخر سورة الفتح وبيان أن ضرب المثل للمسلمين فى التوراة بأنهم أشداء على الكفار الخ يرجع إلى فتح البلدان وقد تم انتشاره بذلك وأن ضرب المثل لهم فى الانجيل

صحيفة

بزرع نما وترعرع واستغلظ راجع لارتقاء العلم ، وهذا سيحصل من الآن إن شاء الله تعالى بعد انتشار هذا التفسير وأمثاله .

٢٦ الإسلام قسمان : ظواهر العبادات وحقائق الموجودات ، والأول قد انتهى دوره الآن والثانى قد أقبل زمانه .

٢٧ الملك إذا زار قرية استعدت له ثم زارها ، هكذا دين الإسلام انتشر ثم ظهرت معانيه فى علوم أوروبا وغيرها ثم تظهر للمسلمين فى زماننا هذا وما بعده ، ويكفى المسلمين (٢٠) سنة لتعلم ما أقوله لهم وفتح البلدان مقدمة وفتح العلوم مقصود ، كل ذلك يناسب قوله تعالى « والله أنبتكم من الأرض نباتا » وفتح البلدان خاف منه صلى الله عليه وسلم فى حديث « إن أخوف ما أخاف عليكم ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا » والمخوف منه قد تحقق فعلا بذهاب دول الاسلام قديما ، وبعد نشر هذا التفسير وأمثاله يستعد المسلمون لجنى ثمار العلم ، ثم إن سورة « إذا جاء نصر الله » فيها الأمر بالتسبيح والتحميد بعد فتح البلدان والحمد لا يتم إلا بعلم بالمحمود ، إذن علينا نحن قراءة جميع العلوم اليوم بعد أن تم فتح البلدان الإسلامية ووقف الآن ، وبغير العلم بالمخلوقات يكون الحمد رياء منا نحن بخلاف صاحب الشرع صلى الله عليه وسلم لأنه أفرغت عليه العلوم .

٢٩ لا نسبة بين فضيلة العبادة وفضيلة العلم فثانيهما أرفعهما مقاما . ازدياد المسلمين علما دنيويا فى الطبيعة والرياضة الخ يزيدهم قربا من ربهم كما أننا لم نعرف نظام أوراق النبات فيما تقدم تفسيرا للآية إلا بعد نبوغ الأمم الأوروبية فى علم النبات ، فمعرفة الله ثمرة علوم الدنيا ، إذن لا آخرة إلا بدنيا منظمة ، علم النبات مثلا فرض كفاية لأجل المعاش وفرض عين على القادر لزيادة الشكر والتوحيد ولا قرب لله إلا بالعلم . العبادات فى الدين الإسلامى خاصة بالمسلم والعلوم التى هى المقصودة يشارك فيها أوروبا وأمريكا واليابان الخ وستكون هذه الأمة خليفة لربها قريبا . ذكر ملخص ما تقدم وهو أربعة أمور :

(١) رقى العلوم النباتية بأوروبا . (٢) وبها عرف نظام الأوراق . (٣) وأن الآية فيها أن الناس كالنبات على الأرض .

٣٠ (٤) وأن الفتح فتحان : فتح البلاد مضى وفتح العلم الآن أقبل موسمه والأول خاف منه نبينا صلى الله عليه وسلم والثانى مأمون العواقب ونحن أمرنا بالزيادة فيه والاستعداد التام له فى زماننا لا قبله ،

٣٠ كتاب الفتوحات المكية وأمثاله عويص على المسلمين وغزير المادة أغرق كثيراً من الأذكياء فى لججه وهذا التفسير فتح لباب الحركة الفكرية والاجتهاد فهو لحفظ التوازن مع تلك .

٣١ الكلام على قوله تعالى « وجعلنا لكم فيها معايش الخ » وذكر أنواع الرياح وتفاوت سرعتها من (٥) أقدام إلى (٣٠٠) قدم فى الثانية ، وذكر سرعة قلة المدفع وهكذا وأن هذه الحركات خزائن الله .

٣٢ الكلام على خزائن الهواء كالرياح الدائمة المنتظمة والرياح الدورية والرياح المختلفة .

٣٢ الحركات الهوائية وحلول الرياح الباردة فى خط الاستواء مثلا محل الرياح التى ارتفعت بالحرارة وهكذا الحركات المائية ، كل هذا يشبه حلول الأحياء محل الأموات فى أرضنا . كيف كانت الشهوة فينا قائمة مقام صانع الفخار من طين والغضب فينا قائما مقام النار الموقدة عليه .

صحيفة

صحيفة

٤٤ هذه العلوم أصل الإسلام فلم عكس الأمر . فائدة فى الحلم ؟ وهى رؤيا رآها المؤلف وهى أضغاث أحلام وقد استيقظ بسببها من النوم فحفظته من البرد وكان إيقاظها له بنظام عجيب . فهذه عجائب فى النفس فوق عجائب الزهر لمنفعة الجسم ، وكأن هذا خطاب من الله لنا أن ندرس نفوسنا فوق دراسة علوم الأرض ، فهذا ليس تمذيبا بل هو تهذيب .

٤٥ جوهرة فى قوله تعالى « وإن من شئ إلا عندنا خزائنه الخ » مع قوله « ونزعنا ما فى صدورهم » إلى « متقابلين » .

٤٦ ابتهاج المؤلف أثناء كتابة هذا الموضوع ، الكلام على الأجسام المتبلورة (١) كنقطة من الزيت فوق ماء ممزوج بالكؤول (٢) قطرات الندى والمطر (٣) الصودا الكاوية مع الماء الحار إذا بردت تكون على هيئة هرمين تامين (٤) الشب الأبيض بدل الصودا يكون كذلك (٥) الشب الأزرق بدل الشب الأبيض فى العملية السابقة يكون شكل مكعب فهذه ثلاثة أشكال مصورة بالتصوير الشمسى (٦) هكذا قطع الثلج والصقيع وسطح الماء إذا جمد بعد البحث يعرف تبلوره (٧) وأكثر تراب الأرض مؤلف من متبلورات محللة .

٤٧ تعجب المؤلف من هذه المناظر .

استمداد هذا من اسمه (الحفيظ) ويعبر عنه فى الطبيعة بكلمة (جاذبية اللاصقة) قوة الجذب وقوة الدفع وقوة اللاصقة لولاهن لتبددت هذه العوالم لأن الفضاء لانهاية له وهذه الجاذبيات فى المادة تشبه امتياز المجرمين من الصالحين فى عالم الأرواح ، وهكذا نزع الغل من القلوب يوجب الاتحاد كنظام جاذبية اللاصقة فنظام العالم أولا وآخرا واحد ، أكثر الناس عمى عن هذا الجمال .

٤٩ جوهرة فى قوله تعالى « وإذ قال ربك للملائكة - إلى قوله - من الغاوين » وموازنته بلغز قابس فى أن جهل الخير والشر هو سبب شقاء الناس .

٥٠ قصة آدم كررت فى القرآن وتصف النوع الانسانى يؤمن بأكل آدم من الشجرة والشجرة هى معرفة الخير والشر ، فمعرفة الخير والشر السطحية وهى الشهوات الحاضرة أوقعت الناس فى المرض بتعاطى الطعام الضار مثلا ونفس هذا العمل هو المسمى فى لغز قابس عدم معرفة الخير والشر ، إذن عم الله العلم ونشره ، فعند المتدينين بذكر الشجرة والأكل منها وعند الفلاسفة جهل الخير والشر . إن الناس قسمان حكماء سعداء وجهلاء أشقياء .

ذكر ثلاثة أمثلة للضرر الناجم من تعاطى شجرة معرفة الخير والشر فى الناس (١) أن قوى الانسان كشمعة ذات أربع فتائل الخ .

(٢) فى القمح (١٦) مادة يتكون منها الدم ولما نخلوه أذهبوا أكثر المواد منه ولو أكلوه برمته منع الإمساك وقوى أجسام الفقراء وسعدوا بأكل القمح كله والأغنياء أضرهم الإفراط فى نخله .

٥٢ نتيجة هذا المبحث ، الناس أكثرهم فى غفلة وهم مقلدون والعالم والطبيب لايمتازان عن الجهال فى التقليد الإنسان الأول أكل الثمر والحب فصح جسمه ، والانسان الحالى اتبع اللذة فمرض جسمه ، والانسان فى المستقبل يعرف بعلمه الضار والنافع بالعلوم فيصح جسمه لأن العلم اليوم لايزال ناقصا .

٥٣ المثال الثالث : مايزاوله الناس من أكل السكر الصناعى والغش فى الدقيق والبن والاكثار من اللحم وتعاطى الخمر والتبغ والشاى وهكذا ، كل ذلك يرجع لمعنى الأكل من الشجرة ولجهل الخير والشر .

صحيفة

٥٤ كيف كانت حال المؤلف عند قراءة هذا الموضوع ، وأن ثنية من ثناياه كادت تقلع ، ولما ترك السكر والقهوة الخ ثبتت إلى الآن مع أنه لم يعلم أن السكر ضار بالثة . ذكر ما قاله ابن خلدون من أن أهل البادية أصحاء وأهل المدن اتبعوا اللذات فأضرتهم ، عقاب الله للناس أكثره على الجهل ، الناس فى قلوبهم مرض الجهل فزادهم الله مرض الأجسام وذل الحياة .

٥٥ الفصل الأول : غش اللبن .

٥٥ الفصل الثانى : غش البن بالآجر : أى الطوب المحرق وبالرماد والبن الأخضر يصنع من نشارة الخشب والرمل وحجر تصنع منه أقلام الرصاص .

الفصل الثالث : الزبدة كلها مغشوشة إذ بحثها البارودى الكيماوى ، والملح والخل والبن والمشروبات الغازية فيها زرنيخ ومواد سامة وماؤها قذر ومحال صنع الخبز مظلمة وماء العجين قذر وفى الدقيق نوع من الأحجار وهو الطلق .

٥٦ خطابى للأمم الاسلامية وأن الله لايغفر لنا جهلنا فيعاقبنا فى الدنيا على جهلنا بنظامها كما حصل لى أنا ولكل إنسان ، وجوب التفتيش على كل صغيرة وكبيرة وعقاب كل غاش . وإذا صلى المسلمون جماعة فالجماعة فى أمور الحياة أولى لأن ما لايتم الواجب إلا به فهو واجب والناس مشتركون جماعات فى دينهم ودنياهم .

٥٧ عموم الغش فى المدنية الحاضرة ، وفى هذا معنى حمل الأمانة فى الآية : أى غشها كما فى القاموس المحيط . خطاب لقارئ التفسير أنه إذا كان فى المدن فليخبز فى بيته لأن أغلب الخبز ضار .

٥٨ القسم الثانى يذكر الله هنا قصتين كانذيل التاريخى على ماتقدم قصة إبراهيم ولوط عليهما الصلاة والسلام وقصة أصحاب الحجر .

٥٨ فإذا كان أمر الدنيا والآخرة متقنا كما تقدم فالنتيجة أن خلق السموات والأرض بالحق الخ .

٥٩ جوهرة فى قوله تعالى « إن فى ذلك لآيات للمتوسمين » ليس التوسم فى قوم لوط كافيا اليوم فليتفرس العلماء فى أحوال المسلمين . موازنة بين أمم الاسلام اليوم وأمم الفرنجة بطريق الفراسة الخاصة بالمتوسمين

٦٠ أما أمم الفرنجة فهم (١) جعلوا الكهرباء اليوم تذيع الخطب والأنباء والقصص والأغانى والموسيقى (٢) فيسمع المصرى اليوم مغانى برلين وأمريكا وهو فى داره (٣) ويفكر القوم اليوم فى إذاعة الكهرباء من محطات خاصة بذلك كما يقوله (فيليس توماس) وقد جرب ذلك . الطرق التى يبحثها القوم اليوم لنقل الكهرباء ، وهى إما أن يبنى برجان قريبا من القطبين والكهرباء تذاع منهما ، وإما أن تبنى أبراج على الجبال العالية لهذه الغاية .

٦١ كيف تجرى الطيارة ألف ميل فى الساعة بطريق فكروا فيه ولم يتم ، وهو أن ترتفع إلى أعلى الجو ولا تأثير للجاذبية عليها وتنزل متى حاذت الموضع الذى تريده (٤) وهكذا التليفون الأثيرى به رؤيت الأشباح وسمعت الأصوات يوم ١٤ يناير سنة ١٩٢٨ فرأوا شابة وسمعوا صوت الآلة التى تعزف عليها .

٦٢ أما أمم الاسلام فإنهم إذا رأوا جميع الرجال والنساء فى أوروبا وأمريكا تعلموا فعليهم جميعا أن يتعلموا مثلهم وتزداد الثروة بازدياد العلم وبسبب الاسلام ترقى القوم كما تقدم عن (سديو) الفرنسى . سياحة أمان الله خان ملك الأفغان وزيارته لمصر أيام طبع هذه السورة ، وهو يريد رقى بلاده والدين يطلبه وعلماء الاسلام إذا أدركوا ما نكتبه الآن فى هذا التفسير وأمثاله ساعدوا فينبغ فى المسلمين نابغون لم يكن لهم نظير لأنه ينضم إلى العلوم المفيدة فيكونون أرقى من هذه الأمم وإن خذل علماء الاسلام .

هؤلاء

صحيفة

يخلق الإنسان والحيوان والنبات الخ وهناك يقول « إن محبوبتي أطلالها ببرقة الخ » وهكذا مبدأ قصيدة زهير بن أبي سلمى الذى لايتعدّى بيت أم أوفى والدمنة التى لاتتكلم والأرض الغليظة وبقر الوحش والظباء الخ .

٨٣ هذه السورة تشبه ما قبلها وهى مقسمة إلى حكمة وموعظة ومجادلة ، تعريف هذه الثلاثة ، فالحكمة ترجع لنظام هذه الدنيا من أسفلها إلى أعلاها وهى تسمى النشوء والارتقاء اليوم ، وعند آبائنا دائرة الوجود . وشرح دائرة الوجود المشتملة على مملكة المعدن والنبات والحيوان . حث المسلمين وتوبيخهم على ترك هذه العلوم .

٨٤ رسم دائرة منظمة عليها نظام العوالم فهى دائرة أولها آخرها « ملك . عنصر . معدن ، نبات . حيوان . إنسان . أنبياء . ملك » وهكذا .

٨٥ رسم دائرة أخرى كبيرة أعظم وأكبر .

٨٦ بيان تقصير الأمة فى هذه العلوم وأنهم قديما حاربوا العلماء كابن رشد فسلبهم الله ملكهم وعلمهم . إيضاح بعض كلمات الدائرة مثل خضراء الدمن الخ .
ذكر النخل والحلزون والقرد وهى من تلك الدائرة .

٨٧ تعريف الأنعام والبهائم والسباع والوحوش والطير والجوارح والحشرات . تبيان أن آية « ويخلق مالاتعلمون » بعد ذكر الأنعام والبهائم ليدلنا أن الكهرباء تقوم مقام الأنعام تارة من الإبل والبقر الخ ومقام الحمير والبغال الخ تارة أخرى ، إن الكهرباء تقوم مقام الابل والخيل والبغال والحمير فى توصيل الأخبار وأيضا أصبح الإنسان بذلك يتكلم بالتليفون ويرى المتكلمان كل منهما صورة الآخر . والكلام على العالم (فلطا) الكهربائى وبطاريته .

٨٨ العمود الفلطائى . إشراق النفس الانسانية تمثله الكهرباء والمغناطيس . تاريخ الكهرباء من مبدأ طاليس اليونانى فى القرن السادس قبل الميلاد ثم (ثيوفواستس) اليونانى ثم (بلينيوس) الايطالى سنة ٢٣ (ب م) ثم الشاعر اليونانى (لقريتيوس) ثم الصوفى وهو جابر بن حيان العربى وهكذا علماء الصين منذ سنة ٢٦٣٤ ق م عرفوا الإبرة المغناطيسية ثم اهتدوا بها فى البحر سنة ٣٠٠ ب م والعالم غلبرت الانجليزى ثم كولون الفرنسى ثم كلفانى الايطالى ورسم (رصيف فلطا)
موازنة بين كهربائية المادة وإشراق نفوسنا .

٩٠ جمال اللطيفة الثانية . وذكرت فرائد (الأولى) استخدام الكهرباء فى الزراعة ، المستر (ماثيور) إذ استعملها (٦٧) استعمالا فى مزرعته مثل حلب البقر ودرس القمح وعمل الدريس والزبدة وتربية النحل والتدفئة والطبخ ، وهكذا الكهرباء تزيد بيض الدجاج وأسرعت فى ظهور الأزهار .

٩٢ عجائب الأنوار الربانية . وصف هذه العوالم الدنيا بأنها جميلة بل الأرض كلها كهرباء متجمدة . الفريدة الثانية المرقب الذى لاسلك له ، أدهش اختراعات العصر واختراع مرقب لاسلك له يرينا الأشباح عن بعد وهو (التليفزيون) الذى ينقل الأشباح المتحركة بجميع دقائقها وهذا الاختراع قارب الانتهاء .

٩٤ الفريدة الثالثة : غرائب التلغراف والتليفون الذى لاسلك له وستنقل الرسائل كما هى قريبا طبق الأصل . الفريدة الرابعة : الفلاحة والكهرباء ، الفلاح عندنا وعندهم ، الفلاح فى أوروبا فاق أجداده أربع

صفحة

صحيفة

١٧٤ هنا (ثلاث نظرات : النظرة الأولى) موازنة جمهورية أفلاطون بالعوالم التى حولنا من حيث العدل وأن الحواس فى الإنسان والقوى المحركة بالنسبة لجسمه فى القلة كرجال السياسة فى المدينة بالنسبة للشعب كله . نظرتى اليوم فى شارع زين العابدين .

١٧٤ الناس غادون رائحون وأكثرهم يجهلون نعمة الهواء ونعمة أصغر الأعضاء كمفاصل اليدين ، فهل خلق هذا الجمال للعميان ؟

١٧٥ كلا بل خلق للحكماء وهم قليل فى كل أمة ، فهم ملوك العالم ، وجميع أهل الأرض تخدم لهم ، العدل فى جسم الانسان كالعدل فى المدينة ، ضغط الهواء على أجسامنا من جميع الجهات وفى الداخل أيضا فتعادلت القوى ، ولولا هذا لهلكنا . الانسان يحمل ٦١ قنطارا من الهواء دائما .

١٧٦ برهان العالم (السكدوجى) على ثقل الهواء ، وأن هذا سر قوله تعالى « وكل شىء عنده بمقدار » .

١٧٦ النظرة الثانية : ما لاحظته على الانسانية العامة فى هذا القرن العشرين ، رأيت الناس فى قريتنا بالشرقية يحقرون الصادق ويعظمون الخبيث .

١٧٧ المقالة الأولى والثانية من جمهورية أفلاطون لأنها تعبر عن أخلاق الناس الآن تعبيرا واضحا ، وإنى سأقدم قبلها أولا انتظام أنواع الحيوان فى الأرض الخ .

١٧٨ (ثانيا) ذكر قدماء المصريين (ثالثا) أن أفلاطون إنما اشتق جمهوريته من علوم قدماء المصريين ولكنه نوّع فيها (رابعا) كتاب آراء أهل المدينة الفاضلة للفارابى وأنه يقول إن الأمم كلها أشبه بنفس واحدة لها أعضاء .

١٧٩ (خامسا) كتابى [أين الانسان] يبحث فى نظام الأمم الحاضرة ومجالسها الخ .

١٧٩ (سادسا) نظام القرآن وهو نفس كتابى [أين الانسان] أى أن تكون الأمم كلها قائمات بما استعدت له طوعا أو كرها .

١٨٠ (الفصل السابع) ديانات الأمم مثل دين (خريستا) و (زردشت) و (بوذا) الخ ، وأن الكشف الحديث أظهر أن الدين وجد فى جميع الآثار ، إذن هو سجية فى البشر كغريزة الطعام والفطرة صادقة فخروج أناس عليها لاينافيها الخ .

١٨٠ (الفصل الثامن) عدل الله فى اليوم الآخر ، وبيان السؤال المشهور (إن الله خلقنا فلماذا يعذبنا؟) وأن الاجابة على هذا السؤال صعبة فى عالمنا هذا ، ولكن نقول ارجع إلى ماذكرته فى آخر هود أو لفيصل التفرقة للغزالى ، والذى فتح الله به أن نقول لك : إن نظام أهل الجنة والنار كنظام الانسان والحيوان ، فالعقارب والحيات أشبه بأهل النار ولا أحد يقول : إن اختلاف الحيوان ظلم ولا الحيوان نفسه كالعقارب معترض على هذا النظام ، فهكذا أهل الجنة والنار .

١٨٣ بيان ما جاء فى علم الأرواح أن الغم الذى يحس به الانسان إنما يحصل غالبا من أرواح شريرة ملحقة بالجن عند فساد هضم الطعام ، وأن إيذاء أمثال هذه ورد فيها الحديث ، وبيان أن أرواحا عاصية طلبت دخول الجنة فقبل منها ولكن منعها استعدادها ونقصه ، وأن المنقطعين للعبادة مع قدرتهم على النفع العام معذبون باتفاق الأرواح ، وكلام علماء الاسلام ، روح نزعت شرورها لتدخل الجنة فأغشى عليها فأرجعوا لها قوتها الشريرة ثانيا .

[تمت]

